إصدارات المجمع الثقافي

تذكرة المحبين في أسماء سيد المرسلين

لأبي عبد الله محمد بن قاسم الرصاع (ت 894هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين

تحقيق

د. محمد رضوان الداية

تذكرة المحبّين

في أسماء سيد المُرسلين

لأبي عبد اللّه محمد بن قاسم الرصّاع (ت ٨٩٤ هـ)

تحقيق

د محمد رضوان الداية

جامعة عجمان للعلوم والتكنولوجية

٢٣٩,٦
ر ص ت ذ
الرصاع، أبو عبد الله محمد بن قاسم الأنصاري، ٠٠٠-٨٩٤ هـ.
تذكرة المحبين في أسماء سيد المرسلين / تأليف أبي عبد الله محمد
ابن قاسم الرصاع، تحقيق محمد رضوان الداية.- أبوظبي؛ المجمع
الثقافي، ٢٠٠٢.
١٠٢٥ ص.
يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية.
١- السيرة النبوية.
٢- الوعظ والإرشاد.
أ- محمد رضوان الداية، ١٩٣٨- ، محقق.
ب- العنوان.

أبوظبي-الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380 - هاتف: 6215300
Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae
http:/www.cultural.org.ae



تذكرة المحبين

في أسماء سيد المُرسلين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

بطاقة تعريف

عنوان الكتاب: تذكرة المحبين في أسماء سيد المُرسلين.

مؤلف الكتاب: أبو عبد الله محمد بن قاسم الرصاع الأنصاري (توفي سنة ٨٩٤ هـ) وهو أحد علماء زمانه؛ نشأ بتلمسان واستقر في تونس. فكان من رجالها المشهورين: مؤلّفاً، وفقيهاً ومفتياً، وخطيباً، وإماماً؛ وقاضياً للجماعة. وللمؤلف كتب في علوم شتّى.

(له ترجمة في الأعلام ٧/ ٥ من الطّبعة الثالثة).

أبواب الكتاب: ٩٣ باباً.

موضوع الكتاب: أسماء رسول الله ﷺ (يشمل الأسماء والصّفات التي أجراها العلماء والمسلمون عامة مجرى الأسماء) في شرح واسع أو استطراد ملائم متناسق.

تصنيف الكتاب: هو في كتب ما أُلّف عن رسول الله ﷺ، ويلحق بكتب السيرة والخصائص والشمائل؛ ويصنف في كتب التاريخ وللكتاب جوانب لغوية وأدبية.

وفيه جوانب شعريّة تلوّن محتواه.

وفيه جوانب عرفانية خفيفة.

لغة الكتاب: رغب المصنّف رحمه الله في تحسين الكلام والارتقاء به فجاءت عبارته رقيقة دقيقة دالّة، وكانت رغبته في التحسين عاملاً من عوامل لطافة الكتاب، وقربه من نفس القارىء وهي لغة حسنة، معبّرة، مناسبة.

الكتاب بين نظائره: في المكتبة العربية عدد من الكتب عن أسماء سيد المرسلين منها: الرياض الأنيقة في أسماء سيد الخليقة للسيوطي و: أسماء رسول الله ﷺ ومعانيها لابن فارس، ولعل كتاب الرصاع هذا من أكبر هذه الكتب (المؤلفة في هذا الموضوع:) وأوعبها وأشهرها.

منهج الكتاب: ـ بدأ المؤلف بمقدّمة خفيفة بيّن فيها غرض الكتاب وطريقته في تأليفه.

ـ وجاء بعدد من الفوائد والتنبيهات المناسبة.

ـ ثم شرع في تفسير أسماء رسول الله ﷺ وشرحها تباعاً بادئاً باسمه (محمد) ﷺ. وجعل لكل اسم باباً مستقلاً.

ـ ووقف، مع كل اسم من أسمائه ﷺ، عند ما ورد فيه من القرآن الكريم والحديث الشريف وما جاء عن الصحابة رضوان الله عليهم، وما استنتجه العلماء والمفسّرون من أسمائه وما وصف به ﷺ.

وعالج المؤلف ذلك كله: بعقل العالم الفقيه، وقلم الأديب المجوّد، ونفس المحبّ الصادق؛ واسترسل في وجوه مختلفة من الآثار النبوية والخصائص المحمدية؛ واستفاد من بعض الأخبار عن الصحابة رضوان الله عليهم، وعن غيرهم من الأولياء والصالحين، وأجرى مداخلاتٍ خفيفة من الملامح العرفانيّة.

وجعل المؤلف بعض استفاضته وإضافته نوعاً من التوجيه والتنبيه والوعظ الخفيف اللطيف: المرتبط بالاسم المعالج من أسمائه ﷺ.

وقسّم المؤلف كل باب إلى عدد من الفصول بحسب ما يحتمل ذلك الباب والاسم الذي يجري شرحه وتفسيره من جوانب أو إضافات.

فوائد جانبية: في الكتاب عدد من الفوائد استطرد إليها المؤلّف أو جاء بها طبيعة الكلام واسترساله، عن نفر من شيوخ المؤلف وأَصحابه ومعاصريه، وعدد من الأخبار عن المؤلف نفسه؛ وهذا يقدّم بعض المعالم المفيدة عن شخصية المؤلف وأحواله.

أَهميّة الكتاب: اعتمد المؤلف في سرد الأسماء النبوية على ما ورد في كتاب الشّفا ثم زادَ عليها ممّا اقتبسه من غيره من الكتب، وما اهتدى إليه بعد دراسة ومتابعة وتمحيص. وهذا يربط الكتاب مباشرة بكتب السيرة والخصائص والشمائل.

وهو من الكتب المهمة المؤلفة في هذا الباب، ولعله يكون أوعبها وأوسعها وأغزرها مادّة وفائدة.

وهو ـ وإن كان موجّهاً أولاً إلى القارىء العام، كتاب مفيد للقارىء المتخصّص؛ وهو لا يستغني عنه لغزارة مادّته وحسن معالجته للموضوع.

وتشتد الحاجة ـ في هذه المدّة ـ إلى إخراج مثل هذا الكتاب.

ـ زيادةً في التنبيه على مقام رسول الله ﷺ الرفيع.

ـ وتوجيهاً للناشئة الذين ينصرفون أو هم يُصرفون عما يجب على المسلم أن يعرفه من سيرة رسول الله ﷺ وخصائصه وأحواله.

ـ وتعزيزاً لما يعرفه جمهرة المسلمين عن رسول الله ﷺ تغلغلاً في عقولهم ووجدانهم.

نسخ الكتب المخطُوطة: اعتمدت نسخة الظاهرية أصلاً، وقوبلت على النسخة التّونسية.

وعزّزت هاتان النسختان بنسخة ثالثةٍ من الرباط.

وتقع النسخة الظاهرية في نحو ٢٥٠ ورقة.

العمل في الكتاب: تقديم النصّ، في مقابلة على النسخ الأُخرى دون الاستغراق وراء الفُروق الخفيفة أو ما كان عن تصحيف أو سَهْوٍ أو ما شابه ذلك.

وتخريج الأخبار، والإِحالة على المصادر والمراجع دون استغراق؛ فالكتابُ لا يحتمل التوسّع ولا التّطويل. ولهذا الغَرض جرى تخريجُ الآيات الكريمة داخل النصّ نفسه، ووُضِعَ التخريج بين قوسين معقوفين.

وشرح ما يَلْزم شَرْحُه من الجَوانب اللّغوية والمُصطلحيّة.

والتّقديم للكتاب.

وفهرست بحيث يَنْتَفِعُ به كُلٌّ من الباحثين والدارسين والقرّاء عامة.

مقدمة تحقيق

تـذْكِرَةُ الـمُحِبـّيْنَ

فـي اسماء سيد الـمرسلين

بسم الله الرحمن الرحيم

في المكتبة العربية الإسلامية مجموعات من المؤلفات تُصَنَّف عادة في كُتب التّاريخ؛ ويشملها عنوان واسع يتعلّق بالسّيرة النبوية والخصائص والشّمائل وما يتعلّق بهدي رسول الله ﷺ، وغزواته وسراياه وأحواله وما يلحقُ بذلك من كتبٍ ومصنّفاتٍ وبُحوثٍ ودراسات.

وفي جملة ما اعتَنى به العلماء: أسماء رسول الله ﷺ وصفاتُه. فقد عُقدت فصول وأبواب لهذا المقصد في عدد من الكتب والمصنفات بين موجز مُقتصد، وبين مفصّل مُطيل، ووقف بعضُ المؤلّفين كُتباً خاصّة لهذا الغرض. بدأ ذلك قديماً؛ ونعرف من المؤلفات المبكرة في هذا الموضوع: كتاب: أسماء رسول الله ﷺ ومعانيها لابن فارس (ت ٣٩٥ هـ). ونعرف من الكتب المطبوعة في هذا المقصد ـ سوى كتاب ابن فارس المطبوع أخيراً ـ كتاب السيوطي المسمى: الرياض الأَنيقة في أسماء خير الخليقة؛ أمّا كتاب ابن فارس فهو رسالة لطيفة سرد فيها من أسماء رسول الله ﷺ على منهج رسَمَهُ وتعليل ذَكَرَهُ؛ وقد كان لابن فارس عناية بالسيرة النبوية، وله رسالة مطبوعة فيها. ونقرأ في مقدمة أسماء رسول الله ﷺ ومعانيها:

«وإن أحق الأشياء بالإدامة بعد ذِكر الله ـ جلّ ثناؤه ـ ذِكرُ محمد ﷺ، وأولى الأسماء بتعرّف معانيها أسماء الله جل ثناؤه ثم أسماء نبيّه ﷺ إذْ كان لكل اسمٍ من أسمائه معنىً، وفي عرفان كل معنىً فائدة مُجدّدة» فهذا كلام واضح في مقصد المؤلّف، وفي مسوّغات اهتمامه

بأسمائه ﷺ، ويستطرد ابن فارس إلى صنعته في كتابه، ومنهجه في عمله:

«وإني تتبّعت أسماء رسول الله ﷺ فجمعت منها ما وجدتهُ في كتاب الله جلّ ثناؤه، وما جاء به الخبر عن رسول الله ﷺ، وما ذُكِرَ أنه في الكتاب المتقدّم (من الكتب المنزلة على الأنبياء قبله عليهم السلام) وبيّنتُ ما اتضح لي من معانيها على قياس كلام العرب».

ولا يخفى المغزى الديّني الإسلامي من مثل هذه الكتب والمؤلّفات، ومن هنا قال ابن فارس في ذيل مقدمة كتابه:

«وأَبْلَغُ (أهمّ) ما أردتهُ من ذلك التبرُّك بذكر رسول الله ﷺ وطلبُ الثوابِ بتدوين أسمائه مجموعةً. ورجوتُ لكل من نظر في هذا الكتاب، وتحرّى فيه ما تحرّيتُه مثلَ ما أمّلتُه لنفسي...» ندعو الله تعالى أَن يُثيبنا ثواب المحبيّن فيه والمحبين لرسوله ﷺ، وأن ينفعنا ببركة هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه مقبولاً.

إذن خطّ ابنُ فارس، ومن سار على النهج ممن سبقه ومن لحق به، هذه الخُطّة من العناية بالأسماء الشريفة وشرحها وبيان اشتقاقها وأُصولها، وأين وردت في كتاب الله أو حديث رسوله أو كُتب الأمم الأُخرى التي بشرت به وذكرتْه باسمه أو أشارت إليه، ومن أين جاءت الأسماء والصفات الأُخرى أو اشتُقّت واستُنْبِطت. وقد مرّ العلماء على هذه الجوانب نظراً وتطبيقاً، فقال ابن القيّم ـ مثلاً ـ في كتابه القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد (١: ٨٦) في فصل عقده لأسمائه ﷺ إن أسماءه الكريمة نُعوت وليست أعلاماً محضة لمجرّد التعريف، بل أسماء مشتقة من صفات خاصة به توجب له المدح والكمال، وقال:

«وأسماؤه نوعان:

أحدهما: خاصّ لا يشاركه في معناه غيرُه من الرسل كـ محمّد، وأحمد، والعاقب، والحاشر، والمقفى ونبيّ الملحمة.

والثاني: ما يشاركه في معناه غيره من الرسل؛ ولكنْ له منه كمالُه فهو مختصّ بكماله دون أصله، كـ : رسول الله، ونبيّه، وعبده، والشاهد، والمبشّر، والنذير، ونبيّ الرحمة، ونبي التّوبة».

قال:

«وأمّا إن جُعِلَ له من كل وصفٍ من أوصافه اسمٌ تجاوزتْ أوصافهُ المئتين كالصادق، والمصدوق، والرؤوف الرحيم إلى أمثال ذلك. وفي هذا قال من قال إن لله ـ تعالى ـ ألفَ اسم، وللنبي ﷺ ألفَ اسم».

ورسم مؤلف «تذكرة المحبيّن في أسماء سيّد المرسلين» هذا خطة مقاربة وهي خطّة للمقاصد ذاتها التي وقف عندها ابن فارس؛ قال الرّصاع في مقدمة الكتاب:

«فأردْتُ أن أشرحَ أسماءه التي في كتاب (الشّفا)، وأذكُرَ اشتقاقها ومعناها وأذيّل عليها بما يليقُ بمدلولها وما تشير إليه بفحواها، وما يصحّ للمريد أن يتخلّقَ به من أسماء المصطفى وما ينتهي إليه مقام الكامل من أهل الصدق والوفا. وأذكر في هذا الكتاب بيان كل اسم رأيتهُ فيه مع ما أضيف إلى ذلك بعد كمال ما في الكتاب، وشرح ما لقحته فيه من فحوى الخطاب.

والحاملُ لي (الدافع)، والله أعلمُ بقصدي، تشبُّثي بأذيال أسماء حبيب الرحمن وتشبّهي بطريق أهلِ الفلاح والعرفان...».

وقد جعل الرّصاع كتابَ (الشّفا) للقاضي عياض مبتدأ ليتناول أسماء رسول الله ﷺ الواردة فيه، فيعالجها على منهجه، ثم يزيد عليها ليكتمل كتابه على الخطة التي رسَمها.

وكان كتاب الرَّصَّاع مرحلةً مهمّة في التأليف في موضوع أسماء رسول الله ﷺ ولا أعرفُ كتاباً بلغ مبلغه في شرح المُستقصى من الأسماء الشريفة. وقد جاء بعده السيوطي في كتاب «الرياض الأنيقة»؛ ولا يدل هذا الكتاب على أن السيوطي قد نظر في كتاب الرصّاع أو أخذ منه. على أنه لم يكن مجهولاً في العُلَماء ولم تكن كتبه كاسدة بين كتب المؤلفين والمصنّفين في ذلك الوقت.

وكتاب السّيوطي قائم على الإيجاز والاختصار في أغلب فقراته، وهو يؤكّد رغبته في نيل الأجر والثواب، قال «هذا شرح على الأسماء النبوية بعد شرحي الذي ألفته وكتابي الذي وضعته زدته تحريراً وتفصيلاً وفوائد يبتهج بها ذوو الألباب وتأصيلاً، وحذفت الأسانيد غالباً لأنها تورث في أكثر الأوقات تطويلاً ورجوت أن تمتدّ إليه من الله الأيادي بالقبول وأن أتوصل به إلى الشفاعة من الرسول، ولعل الله أن يجعله ختام عملي...».

وبعد:

فقد نصبت نفسي لِإخراج كتاب الرصاع - رحمه الله ونفعه بما ألّف وكتَب من علم جارٍ أثره - والعناية به على وسع الطاقة. ورجوت ما رجَا المعتنون بسيرته وأسمائه ﷺ: الثواب من الله سبحانه، والشفاعة من رسوله الكريم، والدعاء ممّن يطالع الكتاب لمؤلِّفه ومحقِّقه.

والحمد لله ربّ العالمين

أبو ظبي أواخر شهر ذي الحجة ١٤١٩هـ

الموافق أوائل نيسان ١٩٩٩ محمد رضوان الداية

وروجع للطباعة في مدة آخرها غرّة رجب الفرد: ١٤٢٠ هـ الموافق أوائل شهر تشرين الأول ١٩٩٩

الرصّاع المؤلف:

والمؤلف هو أبو عبد الله محمد بن قاسم الأنصاري، ويقع في ترجمته: أنّه الأنصاري، والتُونسي، والرّصاع.

أمّا الأنصاري فنسبة إلى جدّه الأعلى من الأنصار.

والتونسي لأنه نزل تونس مع أُسرته، واستقر فيها وصار من أهلها، وتولى الأعمال فيها فَنُسِب إِليها.

والرّصاع لقب وصَل إليه من جدّه الرابع، وكان رصّاعاً أي كان نجاراً مشهوراً بترصيع الخشب وتزيينه كالذي يكون من المنابر والسقوف والجُدران وما شابه ذلك. وكان رجلاً نابهاً في صنعته تقياً ورعاً.

وأصل الأُسرة من تلمسان؛ جاء في أخباره أن السلطان حين أراد أن يرصّع جامع العُبّاد من تلمسان ـ عند ضريح سيدي أبي مدين الأندلسي نزيل تلمسان ـ استدعى جدّ أبي عبد الله المؤلف (جدّه الرابع؛ ولم تذكر المصادر ـ اسمه) فأتقن عمله وأداه على وجه متقن بديع، ولمّا أرادوا إعطاءه أجره أبىٰ من ذلك وسأل السلطان أن يكون أجره أن يُدفنَ عند ضريح سيدي بومدين. وكان له ما أراد. قال بعض المؤرخين: وقد عاد «يُمْنُ ذٰلك على ذرّيته فكان لهذه الأسرة (بيت الرصّاع) في حاضرة تونس مجدٌ أصيل وفخرٌ أثيل، وقد خرج منه كما قال السرّاج في «الحلل السندسية» رجال كحبّ الرمّان (يعني كثرة وشهرة) وأبناؤهم لم تزل إلى الآن: لم تزل بالمقادير توزَّعُ عليهم المراتب من طرق الفتيا والقضاء والخطابة والإمامة والعدالة إلى يومنا هذا» ـ مقدمة الفهرسة: م ـ وكتب على قبر جدّه «هذا قبر فلان الذي صنع المنبر العبّادي».

ب ـ ويوصف الرصاع المؤلف بالمفتي، والفقيه، والعالم، وقاضي الجماعة، والمؤلف، والخطيب، ويوصف بالإقراء (إقراء ـ تعليم عدد من العلوم؛ وذلك لتوليه عدداً من المناصب مجتمعة أو متفرّقة فقد تولى مدّة من الزمن قضاء الجماعة في تونس، وكان هو الذي صرف نفسه من هذه الخُطّة.

- واشتغل بالفقه وما يتصل به، وألّف في هذا الفن.

- وتصدّر للفُتيا، ونال لقب المفتي.

- وتصدّر لإقراء الفقه وأُصول الدين والعربية والمنطق وغيرها.

- وصار إماماً لجامع الزيتونة بتونس وخطيباً فيه.

- واشتغل بالتأليف: ألف في فنون شتى من علوم الشريعة والعربيّة والمنطق والتاريخ وغير ذلك.

ج ـ ولد أبو عبد الله محمد بن قاسم الرصّاع بتونس. ولم تحدّد التواريخ سنة ولادته، ولا مدّة حياته. وتختلف المصادر في وفاته بين ٨٩٤ و٨٩٥ .ويذكر المؤلف أنه في نحو سنة ٨٣١ دخل مدينة تونس مع أفراد أسرته ليلحقوا بأبيه ربّ الأسرة الذي كان سبقهم إليها.

- ونعلم من فهرسة الرصاع أنه تلقى علومه الأولى في مسيد قريب من منزل الأسرة بتلمسان. فقرأ القرآن على معلم شيخ فاضل. فلما توفي انتقل إلى مسيد آخر (والمسيد أَصْلُها مسجد، تقال في مكان منه يخصص لتحفيظ القرآن، كالكتّاب في المشرق، ثم أطلق على كل مكان يُقرىء فيه معلمٌ القرآن الكريم والمبادىء الأوّلية في اللّغة وغيرها).

ويذكر المؤلف شيخه الثاني وكان من بني ورنيد يتقن القرآن الكريم، وأنه حضر احتفالين عنده بالمولد النبوي وقد أثّر فيه هذا الاحتفال وبقي راسخاً في ذاكرته ووعيه.

وانتقل إلى زاوية ابن البَنّا حيث ختم القرآن مرّتين في حدود سنة ٨٣٠ أيام السلطان أبي فارس عبد العزيز (المتوفى سنة ٨٣٧).

وحضر في تلمسان حلقات عدد من أهل العلم. ويبدو أنه كان في تلك المدّة فتىً في حدود الخامسة عشرة من عمره تقريباً. وهذا يجعلنا نقدّر ولادته بنحو سنة ٨١٥هـ.

كان والده إذن قد عزم على سكنى تونس. وكان ـ كما نستقرىء من أخباره العارضة في الفهرسة ـ محباً للعلم راغباً في تعليم ابنه، وأن يجلب له الكتب وإن بَعُدَت دارُها وغلاَ ثَمَنُها. وكان جدُّه لأمه مؤذّناً بتلمسان؛ وقد حَنّ إلى الأذان حين صار بتونس. وهذا يعني أن الأسرة انتقلت إلى تونس وانتقل منها نفر غيرُ قليل ممّن يلوذ بها نسباً من جهةِ أمّه وجهة أبيه معاً. فهي رحلة كبيرة، قاصدةٌ إلى الاستقرار والتوطن وكان أبوه تاجراً، ولكنّه محبّ للعلم، ولا شك عندي في أنه كان على طرفٍ حسَنٍ من العلم.

وفي تونس تابع الرصاع طلب العلم ولقاءه بالعلماء، ويحفل كتاب الفهرسة، وكتب التراجم التي ترجمت له بأسماء العلماء الذين أخذ عنهم ولقيهم وصاحبهم، ثم دخل معهم في حلبة العلم.

- فمنهم: المُفتي أبو محمد عبد الله بن سليمان البحيري (وقد أخذ علومه على مجموعة من أهل المغرب والأندلس) وأبو العباس أحمد البسيلي (قرأ عليه المنطق) وأبو النور الأوجاري (جوّد عليه القرآن الكريم) وأبو القاسم البرزلي (وكان مقرئاً عالماً بالفقه) وأبو

عبد الله محمد بن عقاب (وكان مبرّزاً في التفسير وعلوم القرآن) وأبو عبد الله محمد بن أبي بكر (وكان ممّا قرأ عليه الشاطبية الكبرى؛ وكان عالماً بالعربية وبعروض الشعر والحساب والفرائض). قال الرصّاع، وقد أخذنا عنه وحضرنا مجلسه، وقرأت عليه بلفظي كتاب ابن البنّا مرتين بشرحه يعني ابن البنّا المراكشي، العالم بالرياضيات وبالهندسة، وهو مشهور جدّاً ـ وحضرت عليه الحُوفي، يعني العالم بالفرائض، علم المواريث، وهو مشهور جدّاً، وحضرت عليه الحصّار (وهو عالم في الأصول والعقائد والفقه) حتى ختم مراراً، فقرات عليه الأطرابلسي في الفرائض والياسمينة في الجبر والمقابلة وهي أرجوزة لأبي محمد عبد الله بن محمد بن حجاج عُرف بابن الياسمين توفي سنة ٦٠١، ولازمتُه سنين في هذه العلوم... وقرأت عليه الخزرجية من صدري (أي من حفظه) بشرحها للشريف الغرناطي السبتي، وهي في علم العروض.

ومن شيوخه أبو العباس أحمد القطروالي المصري: الفقيه الفرضي الحيوبي. ومنهم أبو عبد الله محمد الرُّملي: قرأ عليه ألفية ابن مالك وغيرها.

ومنهم أَبو حفص عُمر القلشاني وأَخوه أَحمد وكانا من علماء زمانهما.

والعلماء الذين أخذ عنهم أو روى أو قرأ عليهمْ كثرة كاثرةٌ؛ وقد زخرت فهرسته بأسمائهم وأشهر مؤلفاتهم وأسماء شيوخهم في سلسلة متوالية تدل على استمرار نسغ العلم في تلك الديار وصلته بأهل العلم في الأندلس والمغرب من جهة والمشرق الواسع في شرق تونس من جهة ثانية.

وذكر الرصّاع شيخه أبا عبد الله الرملي، وقال إنه قرأ عليه علوم العربية، وألّف المعلم لتلميذه أو القارىء عليه (الرصاع) مقدمة في علم العربية برسمه (حلّيت باسمه، خاصة به) قال: «لأنه كان بيني وبينه نسب: صاهرته وعقدت النكاح على ابنته وختمت عليه الألفية في زمن قريب وختمها غيري أيضاً...» الخ الفهرسة: ١١٩.

وفي الجملة فقد حصّل الرصاع من العلوم قدراً حسناً، وتلوّنت علومه وثقافاته بتلوينٍ حسن ونال شهرته بعد ذلك بناء على تلك المساحة الواسعة في العلوم والآداب المختلفة.

وقد حظي بالمناصب والأعمال في حضرة تونس. ولقي من الناس القبول والرضا. وطلب الناس الفتيا منه من أماكن بعيدة لِسَعَةِ علمه وقوّة فكره.

ومما ذكرته كتب التراجم له، قضاء المحلّة (وهي المحلة المنصورة) وسأذكرها في رأس الفقرة التالية عن مؤلفات الرصّاع.

ثم قضاء الأنكحة (وهو يوازي المحكمة الشرعية فيما يخصّ الزواج والطّلاق...).

ثم قضاء الجماعة ـ وقاضي الجماعة في اصطلاح الأندلسيين والمغاربة مثل قاضي القضاة في المشرق، قالوا في ترجمته: ثم صرف نفسه (استقال من منصبه) في كائنة المريني (حادثة يذكرونها ولم أطلّع على توضيح لما جرى فيها).

واقتصر بعد ذلك على إمامة جامع الزيتونة وخطابتها، متصدّراً للإفتاء والإقراء في الفقه وأصول الدين والعربية والمنطق وغيرها.

وتتوجّه ثقافة الرصّاع عدداً من الاتجاهات، وإن كانت آنذاك

متكاملة متتامّة. من العلوم الشرعية بفروعها من الفقه، والأصول والعقائد إلى التفسير والسيرة والحديث وغيرها (كالفرائض...).

ومن علوم العربيّة في النحو والصرف واللغة والعَرُوض والآداب.

ومن علوم المنطق وما يلحق بها.

ومن الحساب والجبر والهندسة.

- ومن شيء في الطبّ والتداوي (عن شيخه ابن عقاب).

وهي ثقافة ظهر أثرها في مكانته العلمية في زمانه. ومناصبه التي أُسندت إليه، والموضوعات التي تصدّى لإقرائها، والعناوين التي ألّف فيها.

كتب الرصّاع:

أقول: إن الرصاع شغلته شواغل العمل والتدريس ولقاء العلماء والإفتاء عن الاستغراق في التأليف. ومؤلفاته غير قليلة فقد بلغت بضعة عشر كتاباً، سوى ما شرع في تأليفه ولم يُتمّه.

وقد نشأ على حُبّ الكتاب، في ظلال والدٍ محبّ للعلم يبذل الكثير والقليل ليوفّره لابنه الذي يُثني عليه شيوخه ومعلموه. ذكر المؤلف في الفهرسة (ص: ١٤٨) شيخه سيدي عيسى وأنّه يقرأ المدّونة بشرح ابن يونس، قال المؤلّف: فلما خرجنا من عند الشيخ كان أشدّ ما كان على الوالد من الحرص فيه شراء «ابن يونس» فلم يجده ثم سهّل اللّه أنْ وجَدَ مركباً معدّاً للسفر إلى بلاد الأندلس، وكان مسافراً فيه الحاج أبو عبد الله محمد رقي من أصحاب الوالد فأعطاه متاعاً لشراء الكتاب وأكّد عليه في شراء «ابن يونس» فغاب المركب مدّة قريبة وأتى بخزانة من الأندلس وفيها كتاب ابن يونس رحمه الله؛ فرفعناه إلى شيخنا ـ رحمه الله ـ فاستحسنه ودعا لي بخير في تحصيله. قال: فرأيت بعد ذلك أنما هو مكاشفة وفراسة منّي لأني لما قدمت لقضاء المحلّة المنصورة المولوية العثمانية الأعدلية أيدها الله ونصرها كنت إذا وقعت نازلة ربّما أعتقد أنها في المدوّنة ولا أعيّن محلّها من الكتاب إلاّ بتعب، فكان عندي في السّفر «ابن يونس» فأفتح الكتاب من الموضع الذي أعتقد أنّ النازلة به (الحادثة المطلوب لها الفتوى) فنجدها فنتذكر الشيخ وفراسته ونصحه وندعو له رحمه الله تعالى. . . .

وذُكر له من الكتب (وردت في فهرسته على الصفحة: ق ـ ش).

١ ـ التسهيل والتقريب والتصحيح لرواية الجامع الصحيح وهو انتقاء من شرح صحيح البخاري لابن حجر.

٢ ـ الجمع والتقريب في ترتيب آي مغني اللبيب: رتب الآيات القرآنية على ترتيب السُور، وفيه شرح للشواهد وكلام عليها في جزأين.

قال الكتاني في فهرسته (فهرس الفهارس والأثبات ١: ٤٣٠ ـ ٣١) عن الرصاع: له تذكرة المحبين في أسماء سيد المرسلين، وجزء في الصلاة على النبي ﷺ، وشرح على البخاري اختصر فيه فتح الباري، وشرح حدود ابن عرفة، وأفردَ الشواهد القرآنية من مغني اللبيب لابن هشام ورتبها على السُور. قال الكتاني: وكل هذه المؤلفات عندي وخصوصاً شرح البخاري فإن جزءاً منه عندي عليه خطّه.

٣ ـ الهداية الكافية الشافية لبيان حقائق ابن عرفة الوافية (طبع بفاس، وتونس).

٤ ـ مجموعة كبرى في الفتاوى. قال في تقديم الفهرسة: وكانت الأسئلة تتوارد عليه من البلاد الإفريقية. وقد نقل الكثير من فتاويه صاحب المعيار والمازونية.

٥ ـ تذكرة المحبّين في أسماء سيّد المُرسلين قال فيه الشيخ أحمد بابا التنبكتي: «وهو كتاب حسنٌ في نوعه».

ـ وقد أَثنى عليه المؤلفون وأصحاب كتب التراجم.

٦ ـ تحفة الأَخيار في فضل الصلاة على النبي المختار (خ).

٧ ـ شرح وصيّة الشّيخ محمد الظريف (خ).

٨ ـ جُزء في أَحكام (لو).

٩ ـ كتاب في أَسماء الأجناس وأحكامها؟.

- كتاب في صرف (أبي هريرة).

- رسالة في فضل العلم (خ).

- شرع في تأليف تفسير للقرآن الكريم.

- فهرسة. وقد طبع بعنوان فهرسة الرصّاع. وهو كتاب ذو أهمية في تاريخ الحركة الثقافية والعلمية في زمانه إلى جانب فائدته التاريخية والاجتماعية. (صدر عن المكتبة العتيقة بتونس، من تحقيق وتعليق محمّد العناني - بلا تاريخ).

تذكرة المحبّين:

أ ـ وصل إلي من نسخ كتاب (تذكرة المحبين في أسماء سيد المرسلين) لأبي عبد الله محمد بن قاسم الرصّاع ثلاث نُسَخ. بدأت بنسختين اثنتين من دمشق، وتونس. ثم تلقيت النسخة الثالثة من المغرب.

١ ـ النسخة الأولى محفوظة في المكتبة الظاهرية بدمشق ورقمها العامّ: ٨٦٤٥. كانت في جملة خزانة الأمير طاهر الحسني الجزائري ودخلت الظاهرية هدية من ورثته. وتحلية المؤلف في صدر صفحتها الأولى: «تأليف العلامة الإمام الهمام الفاضل العالم أبي عبد الله محمد بن الشيخ الأجل أبي الفضل قاسم التاجر المرعي التونسي المالكي رحمهما الله تعالى ونوّر ضريحهما». وهي عبارة مكتوبة بقلم حديث، كأنها كتبت عند دخول الكتاب المكتبة الظاهرية.

والنسخة في ٢٥٧ ورقة.

كتبت بخط مغربيٍّ عادي، حسن.

٢ ـ والنسخة الثانية من تونس. صورتها من معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية (في الكويت) وفي مقدمة الفلم المصغّر (المكروفلم) أنّ مصدر التصوير: دار الكتب الوطنية ـ تونس ـ ورقم الفلم ١٩٣.

أوراقه ١٧٣ ورقة.

والحق أن هذا الفلم يحوي كتاب تذكرة المحبين، وفهرسة الرصاع.

والنسخة مكتوبة بخط مغربي قاعدته أندلسية جميلة دقيقة، والخطّاط

بارع مجوّد.

٣ ـ والنسخة الثالثة مغربية. مثبت على مقدمة مصوّرتها.

«مكتبة الجامع الكبير ـ مكناس»، ورقمها ٢٦٠، وهي في ١٦٢ ورقة، بخط مغربي قاعدته أندلسيّة والناسخ مدقق مجوّد. نسخت سنة ٩٨٥ عن أصل مكتوب في حياة الرصاع المؤلف كتبها أبو القاسم أحمد الرّاعي.

وهذه النسخة هدية طيبة من صديقي وأخي الدكتور محمد بنشريفة الأستاذ في كلية الآداب بالرباط ومدير المكتبة الوطنية فيها. لقيته آخر مرّة في دمشق في صيف ١٩٩٢ واطلع على ما أؤلف وأحقق وأعلمني بوجود نسخة من كتاب تذكرة المحبين عنده، ثم أرسلها إليّ في أبو ظبي. فجزاه الله عنّي وعن العلم خير الجزاء، وأثابه أجراً، وشفاعةً من حبيبنا رسول الله ﷺ.

ب ـ كنت قد اعتمدتُ نسخة الظاهرية أصلاً. وراجعت على نسخة تونس. ثم أعدتُ النّظر من جديد مع وصول نسخة المغرب. وبقي المنسوخ من الظاهرية أصلاً ولم أخرج عنه إلاّ لضرورات. ونبّهت على صنيعي في الحواشي.

ووجدتُ في بعض صفحات التّونسية، والمغربية اضطراباً (من التقديم والتأخير) فأصلحته.

- ورمزت إلى نسخة دمشق بـ (أ).
- ونسخة تونس بـ (ب).
- ونسخة المغرب بـ (ج).

ج ـ وقد حقّقت النصّ على الأُصول المعتبرة في التحقيق دون إسراف

في الحواشي. وغالباً ما كنت أكتفي بالإشارة العابرة الدالّة حتى لا أثقل الكتاب ـ وهو كبير أصلاً ـ بمزيدٍ من الحواشي التي يمكن الاقتصادُ فيها.

د ـ وقد أعجب كتاب (تذكرة المحبّين) كل من رآه من العلماء وكتاب التراجم والقرّاء. وقد وقف عنده الشيخ النبهاني رحمه الله في كتابه: جواهر البحار في فضائل النبي المختار، قال في ج ٤ ص ٩٩ وما بعدها:

«كتاب تذكرة المحبين في شرح أسماء سيد المرسلين ﷺ شرَح فيه الأسماء النبوية المذكورة في الشفا للقاضي عياض شرحاً نفيساً جامعاً لفرائد الفوائد في نحو عشرين كراساً بقطع الوسط. وكثير من فوائده ليست في شؤون النبي ﷺ وإنما هي مواعظ وفوائد أخرى يذكرها بمناسبة ذلك الاسم، وما كان من ذلك في شؤونه ﷺ.

وقد نبّهني إلى هذه الفائدة الصديق الفاضل بسام بارود بقسم المخطوطات من المجمع الثقافي بأبو ظبي، جزاه الله خيراً.

هـ ـ والكتاب يكشف عن شخصية كاتب أديب متفنن، يعدّ في عصره من المتقدّمين في صنعة القلم وفي صنعة الخطابة، وهو لولا شواغله الوظيفية - فيما أقدّر - لكان من المكثرين في التأليف في فنون شتّى، وأخص بالذكر الفقه والأُصول والتفسير والأحكام وما يلحق بذلك من جهة والأدب واللُّغة والمصطلحات من جهة أُخرى.

ويشعر القارىء أن الكاتب متمكّن من ناصية اللُّغة، حافظ لكثير من جوانبها وشواهدها وأمثلتها في القرآن والحديث والشعر قديمه وحديثه، ويلمحُ استفادته من التراث الأدبي واللّغوي ـ كاستفادته

من التراث الإسلامي ـ ولكنْ دون إثقال أو تكلّف، وهو ينأى عن أن يماثل أساليب الكتّاب والمنشئين المعاصرين لزمانه، ويَعْرِضُ موضوعاته وأفكاره عَرْضاً حسناً فيه عناصرُ الإبانة والوضوح والبراعة والإتقان.

وقد أسعفته معرفته الواسعة وعلومه المتنوّعة ومطالعاته الكثيرة في مؤلفات مختلفة ملوّنة منوعة، فأكسبت كتابته أُفقاً رَحْباً، وأُسلوبه طلاوة، وطراوة، وجعلت القارىء يمتدّ مع امتداده، ويسترسل مع صفحاتِ كتابه لا يملُّ منها ولا يسأمُ ملاحظاته أو مطالعاته أو توجيهاته وإن كثرت.

وأسعفته ذاكرته الحافظة بألوان من الشعر الذي يوصف عادةً بأنه شعرٌ ديني: كبردة البوصيري والشقراطيسيّة وغيرها من الشعر وربما أورد لنفسه شعراً من هذا الباب. أقول هذا حَدْساً وإن لم يصرح بشيء من ذلك في كتابه.

وكان لي ملاحظات يسيرة على أُسلوب المؤلف في بعض عباراته يجدها القارىء الكريم في ثنايا حواشي التحقيق.

و ـ ويمضي المؤلّف في عرض قضايا كل باب على منهج واضح، يتقارب في الأبواب جميعاً. يبدأ الباب بعرض الاسم المختار الذي يقف عنده فينبه إلى ما ورد فيه من القرآن الكريم، والحديث الشريف ـ إن وُجِدَ ذلك ـ ويقف عند معناه اللّغوي، واشتقاقه.

ويتابع الكلام في فقرات متتالية يعنون لكل واحدة منها بعنوان (فصل). وهي بين إيضاح آخر للاسم وشرح له، وبين تقديم نصائح ومواعظ، وتقديم أمثلة وموادّ اعتبار، ومقاصد عبادة وزهادة، وتقريب شواهد ودلائل على إيمان المؤمن وإسلام

المسلم، من سلامة العقيدة، وصحّة العمل، وقوّة التقوى. ويرجع دائماً إلى السيرة النبوية المعطرة، ويستطرد - كثيراً - إلى سير الصحابة والتابعين، وإلى رجالٍ مشهورين (أو مغمورين) من أهل العبادة والزهادة والتقوى ليضرب بهم المثل ويحرّض على اقتفاء آثارهم.

والمؤلّف - في جوانب كثيرة من كتابه - يلهج بمحبّة أهل العرفان ويذكر أطرافاً من أخبارهم، ويردّد من تلك الأخبار التي يولع بها الصوفيّة ويوردونها اتّساقاً مع منهجهم العام، وطريقتهم في تناول الأُمور، وأساليبهم في الاستفادة من تلك الأخبار، والاعتماد عليها.

وهي أخبار تكثر فيها المبالغات، وقد تكون مبالغات شديدة جدّاً أو تكون مسرفة في الغرابة.

ومثل هذه الأَخبار التي يبالَغُ فيها منهم عادةً، لا تَخْفَىٰ على القارىء ولا يغيب عنهُ رغبة ناقلها في تثبيت فكرة أو دعم رأي أو إثبات محبّة قائلها أو راويها لرسول الله ﷺ.

وأورد المؤلّف في ثنايا مواد كتابه أشعاراً يجري كثير منها على مذهب القوم من المبالغة والاستغراق في أُسلوب إِظهار المحبة.

وفي الأَحاديث التي أَوردها المؤلّف عدد لم يثبت منه شيء ولعل الذي دعاه إلى إيراده - وتلك حالُه - فرط محبته لرسول الله ﷺ: فلم يدقّق في الأَحاديث والأخبار المروية في فضائله ﷺ[1]. وربما

(١) وأستأذن القارىء الكريم بالاكتفاء بهذه الإشارة العامّة هنا عن تكرار التنبيه إلى هذه الأُمور التي ترددد في الأخبار والأَشعار، وسائر ما ينقله منّا هذه سبيله.

أورد المؤلف الحديث بمعناه، وربما طوّل في العبارات أو اختصر، بما يناسب مقصده ومنهجه وتسلسل موادّ كتابه.

على أننا نسجّل للمؤلف ـ رحمه الله ـ ترداده في مواضع كثيرة من كتابة لمعنىً عامّ يؤكّده، ومنهج يسير عليه وهو أنه يَرُدُّ كلَّ ما خالف القُرآن والسنة؛ ويفرّق بين عابدٍ زاهد مخلص وبين آخر زائف.

ز ـ ومصادر المؤلف كثيرة: من السيرة والتفسير والحديث والأدب والأخبار، وسير الصحابة والأولياء والزّهاد والعُبّاد وقد ابتدأ من كتاب القاضي عياض (الشفا في التعريف بحقوق المصطفى) وكتاب ابن سبع المسمّى أيضاً بكتاب الشفا. ثم مال إلى المكتبة العربية الإسلامية الواسعة فنهل منها واقتبس، ثم هضم ذلك وصاغه صياغة مُستأنفة محبوكة مسبوكةً رقيقة مقبولةً سائغة للقارىء من كل مستوى من مستويات الثقافة والعُمر.

ح ـ وجاء الكتاب في ٩٣ باباً، غير أن المؤلف أوْرد في بعض الأبواب أكثر من اسم من أسمائه ﷺ.

مصادر ترجمة الرصّاع:

أول مصدر لترجمة المؤلف الرصّاع، وأهمّها، كتابه المسمى بالفهرسة. فقد ذكر من أحوال نفسه وأسرته وشيوخه وعصره ما فيه الإبانة والوُضوح.

ثم إن كتب التراجم ذكرته، وأثنت عليه، وسردت مؤلّفاته، ونوّهت ببعضها، وخصوصاً كتابه هذا في أسماء سيّد المرسلين.

ومصادر ترجمته الأُخرى: هي:

البستان لابن مريم ٢٨٣.

توشيح الديباج المذهب ٢١٦ ـ ٢١٧.

درّة الحجال في غُرّة أسماء الرّجال ٢: ١٤٠.

الحلل السندسية في الأخبار الأندلسية ١: ٦٧٣ (ومواضع أخر كثيرة).

إتحاف أهل الزمان (قسم التراجم): ٦٤.

الضّوء اللاّمع لأهل القرن التاسع ٨: ٢٨٦ ـ ٢٨٨.

هدية العارفين ٢: ٢١٦.

فهرس الفهارس والأثبات لعبد الحي الكتاني ١: ٤٣٠.

شجرة النور الزكية ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

وينظر الأعلام للزركلي ٧: ٥.

وكتاب «الشفا» الذي استفاد مؤلف «تذكرة المحبّين» منه هو كتاب: «الشفا بتعريف حقوق المُصطفى» ومؤلفه هو أبو الفضل عياض بن موسى

ابن عياض بن عمرو بن اليحصبي السّبتي، وهو أحد علماء المغرب والأندلس، وإمام الحديث في وقته، ومن أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم.

ولد القاضي عياض بمدينة سبتة ـ رَدَّها الله تعالى دارَ إسلام ـ سنة ٤٧٦ ست وسبعين وأربع مئة. وتلقى علومه في المغرب وفي الأندلس، ولقي جماعةً من العُلَماء فأخذَ عنهم، وصار هو أيضاً حلقة من حلقات العلم، فروى الناس عنه وأَخَذُوا من علومه. وله مشيخة (برنامج) هو كتاب الغُنية (ط) يدلّ على مداخلته أهل العلم في زمانه، ويسجل كثيراً ممّا تلقّاه ورواه وأخذه عن العلماء والشيوخ.

وقد تولى القاضي عياض القضاء في سبتة، وفي مدينة غرناطة بالأندلس (وكانت الأندلس والمغرب في زمانه تشكل وحدة واحدة في ظل دولة المُرَابطين فالموحدّين).

وله مؤلفات كثيرة منها:

ـ «تقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك» (ط).

ـ و«شرح صحيح مُسلم» (خ).

ـ و«مشارق الأنوار» (ط) في الحديث.

ـ و«الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السّماع» (ط) في مصطلح الحديث.

ـ و«الإعلام بحدود قواعد الإسلام» (ط).

ـ و«شرح حديث أم زرع» (خ).

وقد نال كتاب: «الشفا» شهرةً وذيوعاً، ورُزِق سيرورة لم تكتب

لغيره من الكتب المماثلة أو المشابهة؛ واشتغل الناس بنسخه وتوزيعه في الآفاق حسبةً، ومحبّة لرسول الله ﷺ وهذا يفسر كثرة نسخ كتاب الشفا في معظم مكتبات العالم الحاضر والعامّة.

وعني الأدباء والمؤرّخون بشرح الكتاب والتعليق عليه.

وقد ألف أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمّد المقّري التّلمساني كتاب: «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض» للتّرجمة للقاضي، والتفصيل في أحواله وأخباره ومؤلّفاته، وأعماله، وشيوخه وتلامذته وسائر ما يمكن جمعه ممّا يخص حياته العلميّة والشخصية معاً.

وقد طبع أزهار الرياض في خمسة أجزاء (٣ في مصر و٢ في المغرب) وأعيد تصويره بالتعاون بين المغرب ودولة الإمارات: ١٩٧٨.

محمّد رضوان الداية

تَـذْكِرَةُ الـمُـحِـبِّـيْنَ

فـي

أسماء سيد الـمرسلين

النص المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

صَلّى اللّه على سَيّدنا مُحَمَّدٍ وعلى آله وصَحْبِه وسلّم تَسْليما.

قال[*] الشَّيْخُ الفقيهُ الإمامُ العالِمُ العَلَمُ العَلاّمَةُ المدَرّس بَقِيَّة المُجْتَهِدين ومُفْتِي المُسْلِمين خطيب الخِلاَفَةِ العَلِيَّة وقاضي الجماعة بالحَضْرَة التونسيّة أبو عَبْدِ الله محمد بن الشّيخ التّاجر المَرْعِيّ الوجيه كهف الفُقَراء وعماد الضُّعَفاء أبي الفَضْلِ قاسِم الرّصّاع[1]؛ كانَ اللّهُ تعالى لَهُ في الدّارَيْنِ وحَشَرنا وإيّاهُ في زُمْرَة أَوْلياءِ اللّهِ الصّالحين:

الحَمْدُ للّهِ الّذي فَضّل حبيْبَهُ بأَنْ قَرن اسْمَهُ باسْمِهِ؛ وشَرّفَهُ على خَلْقِهِ فأجَلّهُ بأَنْ شَقّ له من أسمائه ما دَلّ على كمالِ صِفَتِه ووَسْمِه[2].

(*) هذه التقدمة من (أ). وفي (ج) تأكل جزء من رأس الصفحة فذهب بعض الكلام وأصاب حروف بعض الكلمات تلفٌ؛ ومما يقرأ فيها:

قال الشيخ الفقيه... المحب في الله سبحانه... ورسوله وحبيبه محمد النبي... أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل قاسم الرصّاع رحمه الله.

(1) ذكر الرصاع في فهرسته أن أباه هو أول من دخل من أسرته إلى تونس. وكان قد سبقهم. ثم ذكر المؤلف أنه وأمّه وإخوته لحقوا بأبيهم بعد عامين من دخوله تونس (تنظر مقدّمة التحقيق).

(2) فصّل مؤلّف الكتاب ـ رحمه الله ـ الحديث عن هذه الإشارات في فصل خاصّ عقده لهذا المعنى في الباب الأول، في شرح معنى اسمه (محمّد) ﷺ وقول المؤلف «بأنْ شَقّ له من أسمائه»... من كلمةٍ لحسّان بن ثابت رضي الله عنه يقول فيها (ديوانه ١: ٣٠٦):

وشَقّ له من اسْمِه لِيُجِلّهُ ... فَذُو العَرْشِ محمودٌ وهٰذا محمّدُ

فهو - ﷺ - واسِطَةُ عقد أَهْلِ العِرْفان. صَيَّرَهُ مولاهُ قائماً في المُلْكِ بِشرعه وجلاله حتّى سرى سِرُّ سِرّه في الأكوان؛ ورحم به الملكوت برحمتِهِ وجَمالِه فظَهر معناهُ المُشْرِق في مجاليه الحِسَان.

وأَشْهَدُ أن لا إلٰه إلاّ اللّٰهُ وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ شهادة من اعْتَرف بوحدانيّته بالدَّليل والبُرْهان.

وأشْهَدُ أَنَّ سَيِّدنا ومولانا محمَّداً عبدُه ورسولهُ الذي خُلقَتْ من أَجْلِه جَنَّةُ الرِّضوان.

صلى الله عليه وعلى آله صلاةً نبني بها بيْتاً، نَستكِنُّ بها في الشَّدائد ونصلُ بها إلى سُكْنىٰ الجِنان.

ورضي اللّٰهُ عن أَصحابِهِ الأَنجُم الزّاهرة. والأنوار الفاخرة أهل الرّضا والرِّضوان الذين اسْتَمَدُّوا مِنْ أَنوارِه وتَنَعَّمُوا بِطيِّبِ أَزْهارِه، فبلغوا إلىٰ جنّة العِرفان، وملؤوا أفئدتهم وأَوصالهم[1] بمحبّته، وتشرّفوا بخدمته، حتّى نطق بمناقبهم القُرآن؛ وأَهّلهم مولاهم لِصُحبته، فاختارهم لحبيبه مِن بين خلقه، فكانوا أَنجماً للسائرين إلىٰ الملك الديّان.

عمّم الله أَنوارهم علىٰ مَنْ بَعدهم، فورّثوهم ما ورّثهم نبيّهم فتحلّوا باليقين والإيقان، فخرجوا عن عالم المُلك إلى المَلكوت بمشاهدة

---

(١) الأَوصال: مُجتَمع العظام أو المفاصل. والمؤلف يُريد معنى الأعضاء من الجسد والجوارح؛ من باب التوسّع في اللغة.

وممّا ورد في التنزيل العزيز في حق الصحابة رضوان الله عليهم ﴿محمد رسولُ اللّٰهِ والذيْنَ مَعَهُ أشدّاء على الكفار رحماءُ بَينهُمْ تَراهُمْ ركَّعاً سُجداً يَبْتَغُوْنَ فَضلاً من اللّٰه ورضْوَانا سيماهم في وُجوهِهِمْ مِن أثر السُّجود﴾ الآية. قال القرطبي بعد تفسير طويل للآية الكريمة: فالصحابة كلهم عدول أولياء الله تعالى وأصفياؤه، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله (١٦ : ٩٩).

العيان؛ ومن عالم المَلكوت إلى الجَبروتِ بقوّة اليقين والعِرفان. فهم لا يَرون في الوجود شيئاً سوىٰ الملك المعبود، علىٰ بصيرةٍ منهم وتبيان. مَنَّ الله علينا بمحبّتهم، حتىٰ نكرَع[1] من نَهرهم فَيستنير منّا الجَنان؛ وعمّر جوارحنا بخدمته وملأ جوانحنا بمحبته حتىٰ نصل إلىٰ الجِنان [٢/ ب].

أمّا بَعد: فإنّي لما رأيتُ من نفسي الاشتغال بما لا يُغني من المَسائل[2]، ولم نحصل مع كثرة تعبها علىٰ طائل، جعلت وسيلة بيني وبين سَيّد الأوّلين والآخِرين، وقائد الغُرّ المُحَجّلين، ما نرجُو به الرّضا والسُّول، وبلُوغ المأمول في الدُّنيا والدِّين.

وقد ألهمني المولىٰ جل جلاله مِنّةً منه وفضلاً إلى شرح بعض أسماء المصطفىٰ، وما وقع من ذٰلك في كتاب الشِّفا[3]. وقد كنتُ قبل ذلك، أنظرها وأتفهّمها، وأتوسّل إلىٰ الله العظيم في الشّدائد ببركتها.

ثم تَقَوّىٰ عندي الحبّ في فَهم معناها، فعرَض لي في هٰذا الوقتِ أن أطلبَ من الله ما نَعُدُّه ذُخراً في الحياة والمعاد، وما نتخذه عند حبيب

---

(١) كرَعَ في الإناء وفي الماء: تناوله بفيه من موضعه؛ أو أمال عنقه نحوه فشرب منه.

(٢) من باب الورع والزُّهد، والمبالغة في ترك مشاغل الدنيا وإن كان ذلك الشغل يخصّ العلوم والفنون والآداب.

(٣) يعني كتاب (الشّفا بتعريف حقوق المصطفى) للقاضي عياض. وقد عقد مؤلفه رحمه الله فصلاً في أسمائه ﷺ وما تضمّنته من فضيلة.

- وقد وقف المقري في كتابه (أزهار الرياض في أخبار عياض) عند كتاب الشّفا وعَرّف به واستطرد إلى عناية أهل الأندلس والمغرب والمشرق به، وعرض لكثير من شروحه والاستدراك عليه، وسجل روايته للكتاب، ونقل كثيراً من الشعر في تقريظه إلى غير ذلك مما يتعلق به؛(أزهار الرياض ٤: ٢٧٠ ـ ٣٤٦)، وتنظر الروضة الثامنة من أزهار الرياض، وهي في الثناء على عياض وكتبه (ج ٥: ٧٩ ـ ٩١).

الله ـ ﷺ ـ من الجنّة، وتذكير حُبّه في قلوب العباد، وما نرجُو به من المولىٰ العفو والغُفران، وإن كنت كثير السيئات، قليل الزاد.

فأردت أن أشرح أسماءَهُ التي في كتاب الشّفا، وأذكر اشتقاقها ومعناها، وأذيّل عليها بما يليقُ بمدلولها، وما تشير إليه بفحواها، وما يَصِحّ للمُرِيد أن يتخلّق به من أسماء المُصطفىٰ، وما ينتهي إليه مقام الكامل من أَهل الصدق والوفا.

وأذكر في هذا الكتاب بيان كلّ اسمٍ رأيتُه فيه، مع ما أضيف إلىٰ ذلك بعد كمال ما في الكتاب، وشرحَ ما لقحته فيه[1] من فحَوىٰ الخطاب. والحامل لي ـ والله أعلمُ بقصدي ـ تَشَبُّثي بأذيالِ أسماء حبيب الرحمٰن، وتشبُّهي بطريق أهل الفلاح والعرفان، وإن كنت صِفراً من الطّاعات[2]، جامعاً لقبيح الأفعال والسّيئات، فقد ادّخرت الشفيع الأعظم عند الملك الديَّان. أمّنَ الله خَوفنا، وغفر ذَنبنا، وستر عَيبنا، وبلّغنا أَملنا بحرمة أسماءِ اللّه الحسنىٰ، وأَسماءِ حبيبه الذي خُلقت من أجله جنّة الرضوان.

فصل

هذا الفصل أذكرُ فيه مسائل يُحتاج إليها، وفوائد يتأكّد التنبيهُ لطالب الأَسماء عليها، تصلحُ أن تكون مقدّمة بين يدي الأَسماء الكريمة، وعَوناً عليها.

---

(١) يريد ما وعاه، وما اقتدحه من فكره ونظره. وقول المؤلّف «ما لقحته فيه...» أصلُه من لقّح النخلة وألْقَحها أي عالجها باللّقاح. وفي كلامه مجاز.

(٢) يقول هذا على طريقة العُبّاد والزُهّاد في إكثارهم من لوم النفس، واستصغار أعمالهم الصالحة، واستعظام أيّ خطأ أو تقصير أو ذنب وإن صغر.

وأختصرُ من الكلام ما لا يَسعُه منهم كثيرٌ من السامعين، وأقصر البسط في العبارة [٣/أ] فإنّ كثيراً من المُخاطبات لا تغني فيها الإشارة، وخطاب الذكيّ ليس كخطاب الغبيّ، وغالب قصدي في هذا التأليف: تعليم المبتدئين، وشرح ما أشكل من الألفاظِ لأهل البداية من السّالكين؛ فإن وقع في يَدِ أهلِ الرّمز والإشارة، والفهم الثاقب، وإدراك وجيز العبارة، فلا جَرَم[١] أطلبُ منه طلاقة الوجه وحسن الصّفا، والإغضاءِ عن سَقطات القلم وكمال العفو والوفا.

فنقول، وباللّه المُستعان، وعليه التكلان: أَسماءُ رسول الله ﷺ:

منها ما ورَد في الآيات القُرآنيّة؛ ومنها ما ورد في السنّة النبوية؛ ومنها ما أطلق عليه بإجماع الأُمّة المحمدية.

وقد بَيّن ذلك القاضي أبو الفَضل عياض، رحمه الله، أحْسَن بيان وشَفى الصُّدور بشفائه، وعَمَرها بِمَحبَة حَبيب الرَّحْمٰن.

وإذا شَرعنا ـ إن شاء الله ـ في شرح أسمائه عليه السلام فلا بد من ذكر ما دلّ علىٰ صِحّة التسمية له بذلك الاسم، وما دلّ عليه بالمعنى.

ونشرحُ الأَسماء التي سمّاه بها رَبّه جلّ جلاله، واشتقّها له من أسمائه الحُسنىٰ، وأُذيّل علىٰ ما أذكر من الأَسماء بما يناسبه، ويجب على المُحِبّ التخلُّقُ به مِن مَعناه؛ أو يقاربه. وأُطرّزُ الكلام بما يشوق من آثاره، ويحمل الصّادق في المحبّة عند ذكره إلىٰ اتّعاظه وادّكاره.

---

(١) يقال: لا جرم كان الأمر كذا. ويحوّل معناها إلى القسم فيصير بمعنى: لا بُدّ أو لا محالة أو حقاً، ويُجاب فيها باللام فيقال ـ مثلاً ـ: لا جَرَم لأفعلَنّ كذا..

وأحذفُ ما فيه غُلوقٌ[1] علىٰ أفهام السّالكين، وأذكر بعض حكايات وآثارٍ وفوائدَ وأشعارٍ من كلام أهل الطّريق، وأفعال الصالحين، ونطلبُ من اللّه تعالىٰ العَوْنَ والحِفظ من الخَطأ والزّلل في الاعتقاد، والقول، والعَمل؛ وسميته:

تذكرةَ المُحِبِّيْن في أَسماءِ سيّد المُرسلين:

صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه الخِيرة المُنتخبين، وأزواجه الطّاهرات أُمّهات المؤمنين، صلاةً طيبةً دائمةً إلىٰ يوم الدِّين، وسلّم تسليماً كثيراً إلىٰ يوم الدِّين، والحمدُ لله ربّ العالمين[2].

[٣/ب] وممّا يُقَوّي رجائي، ويجيبُ ـ إن شاءَ اللّهُ ـ دُعائي ويلبّي ـ ببركة هذا النّبيّ ـ طِلْبَتي، ويَصْلُح به ما فسدَ مِن نِيّتي ويُثيبني علىٰ ما قَصَدْتُه من نُصرتي، ويحمل السّامعين علىٰ ما يزيدهم محبةً في سيّد المرسلين، ويشوّقُهم في صفات حبيبِ ربّ العالمين، ويُزعجهم[3] إلىٰ خِدمته ونُصرته في كلّ وقت وحين، ما ذكره الفقيهُ المُبارك قارىء هٰذا الكتاب، الذي يُرجىٰ له من اللّهِ التّوفيقُ والسّدادُ والصواب:

إنّ اللّهَ سُبحانه، أَوْقَفَ الأَمر في قراءته علىٰ ما أَراده من مكانه

---

(١) في كُتب اللّغة أنّ كلمة (غُلوق) هي مصدر غَلقَ يَغْلَقُ: يقال غَلِق الباب إذا عَسُرَ فتحه؛ ومثل غَلِقَ: اسْتَغلق؛ يُقال اسْتغلق البابُ عَسُرَ فتحهُ، واستغلق عليه الكلام: أُرتِجَ عليه.

(٢) الكلام من أوّل الورقة ٣/ب إلى أواخر الورقة ٤/ب هو مُداخلةٌ من أحد قرّاء الكتاب وسيعرّف بنفسه بعد قليل، وقد وجدت هذه المداخلة ثابتة في النسخ المعتمدة فرأيتُ أن أتركها على حالها، وأن أُشير إليها إشارة ظاهرة. وتنتهي مداخلة القارىء الفاضل عند أول الفوائد التي أثبتها المؤلف في كتابه.

(٣) أي يحرّكهم على الأمر، ويبعثهم.

وقته، فعرض للقارىء في ابتداءِ قراءته في يوم الجُمعة ما مَنعه من القِراءة بعد الصَّلاة مانع من اللّه حتىٰ كان ذلك سَبباً لِرؤيةِ رسول الله ﷺ، فَدَلَّهُ علىٰ ما أَراد الله سُبحانه، لأنه يُريد ولا نريد، ولا يكونُ إلاّ ما يُريد.

(*) [قال القارىء سَدَّدَهُ اللّهُ تعالى:

يقول العبد الفقير إلى مولاه، الراجي عفوه ورحماه، منصور، الشَّريفُ لأُمِّه، بن محمد؛ عُرِفَ بسوس[1] الأَربسي، قارىءُ البخاري بجامع الزّيتونة من تُونس المحروسة.

أنا قائمٌ ليلة السبت الخامسَ لشعبان عام أحد وثمانين وثمان مئة ثُلث اللّيل الآخِر، فكأنّي داخلٌ للجامع، وبيدي تأليفُ الشّيخ الفقيه المعتقد الصّالح أبي عبد الله محمد الرصّاع أبقىٰ الله بركته[2] المسمّى بـ «تذكرة المحبيّن في أَسماءِ سيّد المُرسلين» أريد قراءته عند التّوابين، فبينما أنا بالقُرب من باب البَهْو أَحدِ أبواب البيت أُريد الدّخول فإذا برجلٍ جَذبني من خَلفي وقال لي: أَين تريد؟

فقلت: له: أُريد أن أَقرأ هٰذا الكتاب!

فقال لي: أَتقرؤه والنّبي - ﷺ جالسٌ هناك؟

وأشار إليه، فالتفتُّ، . فإذا النّبيُّ ﷺ جالسٌ في صَدر المجنبة

(*) ما بين المعقوفتين من هنا إلى نهاية المكتوب عند فقرة «فوائد» بعد نحو ٤ صفحات مداخلة من قارىء فقيه سجّل فيها رؤياه أو رؤيته في حادثة تخصّ كتاب الرصّاع هذا تذكرة المحبين وقد أثبتها لوجودها في النسخ جميعاً، وهي مرويّةٌ على عُهدة السّيد منصور بن محمد الأربسي. ولم أجد له ترجمة في مصادري.

(١) في ج: سوسو.

(٢) واضح أنّ هذا كان في حياة المؤلف، فإنه توفي سنة ٨٩٤.

الشرقية، حيثُ يُقرأ كتاب التّرغيب والترهيب[1]، والصّحابةُ رضي الله عنهم مُحْدقونَ به ﷺ، وعَليهم ثيابٌ بيضٌ وعلىٰ رأسه عمامة بالنّقاب، مرتدٍ بإِحرام، طرفُه علىٰ رأسِه، وطرفه الآخر علىٰ كتفِه الأيمن.

فأتيت وأنا خَجِلٌ فأشارَ لي بيدهِ المُباركة أن اجلس؛ فجلستُ بين يديه، فلمّا جلستُ قال ﷺ: ها هنا ـ إن شاء الله ـ المنزل، فنظرتُ [٤/أ] فإذا إِبهام رجلهِ اليُمنىٰ ظاهِرَةٌ فطأطأتُ عليها وقَبّلْتُها وتقهقرت، فلما جلست قال لي رسول الله ﷺ: اِقرأ.

فقلت له: يا رسول الله ما أقرأ؟

قال: اقرأ القرآن.

فقلت له: ما أقرأ من القُرآن؟

قال لي: اقرأ: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾﴾ [الرحمٰن ٥٥/ ٧٢، ٧٣] فقرأتُها وسَكَتّ.

فقال لي: اقرأ:

فقلت: وما اقرأ؟

قال: اقرأ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد ١٣/ ٢٣ ـ ٢٤] فقرأتها وسَكَتّ.

فقلت له: يا رسول الله ما مَعنى هٰذه الآيات؟

---

(١) ذكر حاجّي خليفة أربعة كتب باسم التّرغيب والتّرهيب؛ وهي كتابٌ للمنذري (ت ٦٥٦) وكتاب لأبي القاسم إسماعيل بن محمد (ت ٥٣٥) وكتاب لأبي موسى المديني محمد بن عمر (ت ٥٨١) وكتاب لابن زنجويه حميد بن مخلد (ت ٢٥١)، وذاع كتاب المنذري في النّاس واشتهر. (كشف الظنون ١: ٤٠٠ ـ ٤٠١).

قال لي: أمّا الآيتان الأولَيانِ فمعناهما ظاهر؛

وأمّا الثالثة: فمعناها أنّهم نَصَرُوا اللّهَ سُبْحَانَهُ وتَعالىٰ[1].

فقلت له: يا رسول الله كيفَ تكونُ نُصرتهم للّه؟ فقال: نُصرتهم لدينه، والذَّبّ عن شَريعته قولاً، وفِعْلاً، ولساناً وحُساماً؛ وهٰذا من نصرِ دين اللّهِ[2]؛ وأشار بيدِه المُباركة إلىٰ الكتاب المذكُور وهو في يدي، فلمّا سمعتُ منه ذلك سكت.

قال لي: اقرأ.

فشرعتُ في طالعة الكتاب، فأشار لي رجلٌ من الحاضرين: أن استقبل القِبلة، فتأدّبت مع الرّسُول عليه السّلام لئلا أُعطيه بجنبي، فانْحرَفت قليلاً، فقال ﷺ؛ قال اللّه تعالىٰ:

﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس ١٠/ ٨٧] ثم قرأت طالعة الكتاب.

فقلت: يقول العبدُ الفقيرُ إلىٰ ربّه المُعترف بتقصيره، وذنبه الخائف المُشفق من لومه وعتبه، محمّد بن قاسِم الرصّاع؛ ولم أذكر نسبته[3]؛ فقال لي ﷺ: أين النّسبة؟.

---

(١) روي في تفسير الآية وجوه منها: الصّبرُ على الجهاد في سبيل الله تعالى، وروي في تفسير قوله تعالى: ﴿جَنّاتِ عَدْنٍ يدخُلونَها﴾ [الرعد ١٣/ ٢٣] قال رسول الله ﷺ هل تدرون من يدخل الجنّة من خلق الله؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال: المجاهدون الذين تُسَدُّ بهم الثغور وتتقى بهم المكاره فيموت أحدهم وحاجته في نفسه لا يستطيع لها قضاءً فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ـ القرطبي ٩: ٣١٢.

(٢) في سورة محمد [٣٧/ ٧] قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذِيْنَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُروا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ والمعنى إن تنصروا دينه ونبيّه.

(٣) في أ: أين نسبه.

فقلت له: يا رسول الله ليستْ مكتوبةً هُنا.

قال: لا بُدّ من ذِكرها، وكَتْبِها.

فقرأتُ بين يديه طالعةَ الكتاب وخُطبته، فلما انتهيت إلىٰ قول المؤلف «وسَمَّيْتُه بِتَذكرة المُحِبِّين في أسماءِ سَيِّد المُرْسَلين» وقرأتُ الدُّعاءَ الّذي بَعْدَهُ، فأشارَ لي الرجلُ المذكورُ بيده؛ أن اسْكُتْ! فسَكتّ.

فقام النبي ﷺ.

فلما قام سألتُ رجلاً من الجُلوس، مَن الّذي يُشير بيده؟.

قال: هو الزُّبير [٤/ب] بن العَوّام[١]، وقال لي: هل تعرفُ الرَّجُلَ الّذي رَدَّكَ عن دُخول البيت؟

قلت: لا؛

قال لي: ذلك الشيْخ أَبو محمّد المَرْجاني[٢].

وانتبهت وأنا أبكي، وشعلتُ القِنديل[٣] فِي الحين والوَقت، ونظرتُ نسبةَ المؤلّف هل هي مكتوبة أم لا، فلم أَجِدْها مكتوبةً،

---

(١) الصحابيّ الجليل الزُّبير بن العوّام، أحد العشرة المبشّرين بالجنّة، ابن عمّة النبي ﷺ وأوّل من سَلَّ سيفه في الإسلام؛ ولد سنة ٢٨ق هـ وتوفي سنة ٣٦ (قتل غيلة شهيداً) رضي الله عنه.

(٢) أبو محمد عبد الله بن محمّد المرجاني (٦٣٣ ـ ٦٩٩) أصله من تونس وولادته في الإسكندريّة ووفاته في تونس. وصَفه الرصّاع في فهرسته (٩٠) بالشّيخ وليّ الله. وكان المرجاني صوفيّاً مفسّراً من العلماء. وجمع تلميذه ابن السّكري من كلامه في التفسير كتاباً سمّاه: الفتوحات الربانيّة في المواعيد المرجانية، ومن كتبه: بهجة الشموس والأسرار في تاريخ هجرة المختار (وانظر الزّركلي ٤: ١٢٥).

(٣) يقال: شعل النّار (أو القنديل) وأشعلها (أي يكون الفعل ثلاثياً، ويكون مزيداً بالهمزة).

وباللّه ما عرفتُ قبل ذلك هي مكتوبةٌ أم لا، وألحقتُها بَعْدَ ذٰلك في الكتاب.

ورؤية رسول الله ﷺ علىٰ صِفته المعلومة حقّ، وكلامُه صِدق. وقد قال - ﷺ -[1]: «مَن رآني فَقَدْ رآني حَقّاً، فإنّ الشّيطانَ لا يَتمثّلُ بصُورتي».

ونرجُو من اللّه سبحانه بذلك إن شاءَ اللّهُ القَبُول، وبلوغ المَأمول وكذلكَ نرجُو لِمُحِبّهِ مولانا الإمام الملك الهُمام المُرتَضى لإيالةِ الإسلام؛ كان الله له ومعه علىٰ مَرّ اللّيالي والأيّام، وغفَر لنا وسامَحنا، ولطفَ بنا وبعبادهِ المُؤمنين بحرمة سَيّد المِرسلين][*].

فوائد

الأولىٰ: سِرُّ تعدّد أَسمائه عليه الصلاة والسلام تعظيمُ منزلته، وبيان قدره عند رَبّه؛ لأن العَرب إذا عَظّمَتْ أَمراً في نُفوسها كَثُرتْ من أسمائه[2]، ولا أَعظم عند اللّه تَعالىٰ من حبيبه المُصطفى، وصفيّه المجتبىٰ؛ فَحَلاّه الله سُبحانه بصفات

---

(١) وَرَدَ هذا الحديثُ بألفاظ مُختلفة في عدد من كُتب الصّحاح، منها مُسند الإمام أحمد ١/ ٣٧٥ و٢/ ٢٣٢ وصحيح البُخاري ١: ٣٨. وصحيح مُسلم باب الرّؤيا ٧. وورد بألفاظٍ متقاربة في كتب الصّحاح والسُّنن وغيرها. واللّفظ في المُسند «مَنْ رآني في المنام فقد رآني فإن الشيطانَ لا ينبغي له أن يتمثل بِمثلي».

(*) نهاية مداخلة قارىء نسخة كتاب الرّصاع هذا. تذكرة المحبين...» ورجعٌ إلى تسلسل فقرات مقدمة المؤلف رحمه الله تعالى.

(٢) لخّص في سبل الهدى والرشاد ١: ٤٩٢ ما قيل في هذا الموضوع بهذه العبارة: قال العلماء رضي الله عنهم: كثرة الأسماء دالّة على عظم المسمّى ورفعته وذلك للعناية به وبشأنه؛ ولذلك ترى المسمّيات في كلام العرب أكثرها محاولةً واعتناءً.

الكمال تعظيماً له في النُّفوس، و[تنبيهاً] للخلائق على مكانته عند المَلِك القُدُّوس. فصارت تلك الأوصاف، لكثرة إطلاقها على نَبِيّنا ﷺ أسماءً وألقاباً. وادّخر المولى ـ جلّ جلاله ـ لتاليها، وحافِظها في الجَنّة[1] ﴿عُرُباً أَتْرَاباً﴾ [الواقعة ٥٦/٣٧] .

فادّخِرْ أيُّها المُحبُّ عند الله سبحانه محبّته، ومتّعْ نَظرك ذاكراً أسماءه وصِفَته، وتأدّبْ عند ذكر أسماءِ حبيبِ الله بما أدّب سُبحانه به العِبَاد، وكنْ مستغرقَ القَلب، سابِحاً في بحار ما دَلّ عليه كُلُّ اسمٍ من كمال فضلِه عند ربّه، فليسَ لِكَرمِهِ عند الله نَفاد.

وصِلْ كُلّ اسم بالصَّلاةِ عَليه، سائلاً له من اللّه الشَّرف، والوسيلةَ والدرَّجة الرفيعة تَنلْ شفاعَته يومَ المَعاد[2].

الفائدة الثانية:

ينبغي لذاكرِ أسمائهِ عليه أفضلُ الصّلاة والسلام، أن يكون على أفضل حال ونظام، لأنّ الرحمةَ [٥/أ] نازلةٌ عند ذكره عليه السَّلام. فإنَّ

(١) عُرباً (جمع عَرُوب): أي متحبّبات إلى أزواجهنّ، وأتراباً: على ميلاد واحدٍ، وسن واحدة؛ يقال في النساء أتراب وفي الرجال أقران. (وانظر وجوهاً أخرى من التفسير في القرطبي ١٧ : ٢١١).

- والمؤلّف يلمح إلى ما رواه القاضي عياض من حديث أنس رضي الله عنه: مَنْ أحبّني كان معي في الجنّة (الشفا ٢ : ٤٨) قال في مناهل الصفا: ١٨٢ أخرجه الأصبهاني في الترغيب.

(٢) عقد المؤلّف رحمه الله أبواباً ثلاثة في كتابه هذا؛ فالباب الرّابع والستّون: في معنى اسمه صاحب الفضيلة، والباب الخامسُ والستون في معنى اسمه صاحب الوسيلة، والباب السادس والستون في معنى اسمه صاحب الدّرجة الرفيعة؛ ﷺ.

الصّالحين إذا ذُكرت أسماؤهم نزلت الرّحمةُ على الذّاكرين، ورُفع ذِكرهم في رياض الجنّة للمُحبّين.

وسيّدُنا ومولانا محمّد - ﷺ - هو رأسُ الصّالحين، وتاجُ العارفين، فلا تغْفَل عن الدُّعاء إذا ذُكِرَ اسْمُه، وصَلِّ عليه فإنّها ساعةُ إجابة، سيّما[1] إن كان من ذاكرِه وقارٌ وسكينةٌ وخضوعٌ إلى الله وإنابة.

وتذكّر قول الشيخ ولي الله تعالى أبي سُلَيْمان الدّاراني[2] رحمه الله، ونفَع به: إذا كانت لك حاجةٌ فابدأ فيها بالصّلاة على النبي ﷺ ثم ادْعُ بما شئت، ثم اختم بالصّلاة عَليه ﷺ، فإنّ الله سبحانه وتعالى بكرمه يَقْبَلُ الصّلاتين. وهو أكرم من أن يدَع ما بينهما. وقد وقفتُ عليهِ حَدِيثاً كذلك.

ولعل الشيخ رحمه الله، أشار إلى أن العبد مفتقرٌ دائماً إلى مولاه، لا يخلُو من حاجةٍ إلى المفتقر إليه، إذ لا يجدُ ناصراً سواه. قال عزّ من قائل ﴿يا أَيُّها النّاسُ أَنْتُمُ الفُقَراءُ إلى اللّهِ﴾ [فاطر ١٥/٣٥].

فإذا كان العبدُ كذلك، فإنّه حَرِيٌّ بأنْ يكونَ في جميع أحواله ذاكراً لربّه مُصَلّياً على نبيّه، داعياً إلى اللّهِ سُبحانه بين صلواتِه، راغباً إليه فيما يسألُه من حاجاته، بتذلّلٍ وخُضوعٍ وإنابةٍ مُوقناً في ذلك بالإجابة، واقفاً بباب الجواد الكريم، متوسلاً إليه بالشّفيع العظيم، سائلاً من فضلهِ العَمِيم، فلعلّ أرحمَ الرّاحمين، أن يَمُنّ علَينا بِحُسن القَبُول، وبلوغ المأمول.

---

(١) من أُسلوب المؤلف أن يورد «سيّما» دون لا، والفصيح أن تكون العبارة: لا سيّما.

(٢) أبو سليمان الدّارانيّ، عبدُ الرّحمٰن بن أحمد العَنْسِيّ (ت ٢١٥ هـ) نسبته إلى داريّا من غُوطة دمشق؛ زاهد مشهور، ومن كبار المتصوّفة.

ولذا جاءَ رضي الله عنه بـ (إذا) الشَّرطية[1] مكانَ (إنْ) لأنَّ الحاجة إلىٰ الله تعالىٰ مُحَقَّقة لكلّ حادثٍ في جَمِيع الأَزْمان، والافتقار إليه هو سِمَةُ العالَمِ فَضْلاً عن شخص الإِنسان.

ونَزِّهْ أَيُّها المحبّ أَسماءَهُ ﷺ، أَنْ تحلَّ في الأمكنة الخبيثة، وأَن تَرِدَ علىٰ القُلوب القَاسية الذَّميمة، فإنّ من أسمائه: الطَّيِّب، الطَّاهر[2]؛ تنبيهاً للغافلين، وتذكيراً للعالَمِين أَن يبجّلوه، ويذكروه بمكانٍ [٥/ب] طاهرٍ، ولسانٍ صادق وقلبٍ تقيّ حاضر.

وبالجُملة فعلىٰ قدر المحَبّة في المَحْبُوب، يكونُ تبجيلُه وتوقيرُه[3] والخُضوع له عند ذِكره كما لو كان حيّاً، وهو بينَ يديه حَياءً وهيبة وإجلالاً لِقَدْره، عالماً له أَنَّ حُرمته بعد مماتِه، كَحُرمته في مُدَّةِ حَياته.

وربّما بلغت المَحبَّةُ من المُحِب إلىٰ أنْ صار ينزّه ذكره عن لسان الذّاكر تنزيهاً للاسم الشّريفِ عن حُلولهِ في لسانِه، وتعظيماً له أَن يكونَ هٰذا المحلّ من مكانه.

وربّما غَلب الحبُّ فيه ـ ﷺ ـ والتعظيم والإجلال له، ورسَخت هيبَتُهُ في القلب فنشأ عنها للمحبّ أحوال.

كان عبد الله بن مَسعود ـ رضي الله عنه، وأرضاه ـ من أشدّ أصحاب رسول الله ﷺ ـ تَعظيماً له.

---

(١) تكون إن شرطية لتعليق أمرٍ على أمر محتمل الوقوع غير محقّق إلاّ في حال التجاهل (المتن). وانظر المغني في مادتي (إذ) و(إذا).

(٢) أورد المصنف شرح اسمه ﷺ الطيب في الباب: ٨٧، وشرح الطاهر في الباب: ٩ من هذا الكتاب.

(٣) قال القاضي عياض في الشفا (٢ : ٥٤) إنّ من علامات محبته ﷺ مع كثرة ذِكره تعظيمهُ وتوقيره عند ذِكره، وإظهار الخشوع والانكسار مع سماع اسمه.

قال حُذَيفَةُ رضي الله عنه[1]: هو أقرَبُ النّاس هدياً وسِمَةً ودلاً برسول الله ﷺ، وكان شديدَ الخوف من اللّه تعالى، كثيرَ التّعظيم لرسوله، ولاسمِ رَسُوله الكريم، عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ التسليم.

قال بعضُهم: إنّي حضرتُ عنده سنةً فَما سمعته يقول: قال رسول الله ﷺ؛ وَرَعاً منه وحَياءً ومَهابةً لِقَدْر هذا النبي الشريف، إلاّ أنّه حَدّث ذات يوم بحديث، فجَرى علىٰ لسانه «قال رسول الله»، فَغلبه الكَرْبُ، حتّىٰ رأيتُ العَرَق يتحدّرُ من جبهته[2].

فيا أخي أين إيماننا من إيمان هؤلاء السادة العظام، وأين محبّتُنا من مَحبّة هٰؤلاء الأحبّةِ الكرام. لأمرٍ مّا قال فيهم سَيّد الأولين والآخِرين، وقائدُ الغُرّ المُحَجّلين، وأَبْلَغَ، وأَسْمَعَ، وقَطع أوهام من يتوهّم، الوصول إلىٰ بعضِ فَضائلهم بكلام تامّ أَجْمَع، وصارتْ عقيدةُ أهل السِنّة بِذٰلكَ، مِلّةً حنيفةً نظيفةً: «لو أَنْفَق أحدهم مثلَ أُحُدٍ ما بلَغ مُدَّ أَحدهم ولا نَصِيفَه»[3].

---

(١) الصحابي الجليل أبو عبد الله حذيفة بن اليمان (وهذا لقب له واسم اليمان: حسن) بن جابر العبسي. من الولاة الشجعان الفاتحين، ولاّه عمر رضي الله عنه المدائن. وكان حذيفة صاحب سر النبي ﷺ في المنافقين، لم يعلمهم أحد غيره. له في كتب الحديث ٢٢٥ حديثاً. وكانت وفاته سنة ٣٦.

(٢) الصحابي الجليل أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود الهذلي، من أهل مكةَ والسابقين إلى الإسلام وأول من جهر بقراءة القرآن بمكة. وهو خادم رسول الله ﷺ. له ٨٤٨ حديثاً.

(٣) رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخُدْريّ أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فإنّ أحدَكم لو أنْفق مثلَ أُحُدٍ ذَهَباً ما بَلَغَ مُدَّ أحَدِهم ولاَ نَصيفَه» مُسند الإمام أحمد ٣/ ١١؛ والمُدّ والنّصيف مكيالان قديمان، وما يَزالونَ في الشّام يتعامَلونَ في كيلِ الحُبوب بالمُدّ، وما يتفرّعُ منه عُلّواً ونُزولاً. وقلّ هٰذا الاستخدامُ تدريجاً وحَلّ محلّ الكَيْلِ الوَزْنُ.

الفائدة الثالثة:

من علاماتِ محبّته عليه السّلام وتعظيمه، المبادَرةُ عند سَماع ذِكر[1] اسمِهِ أو رُؤيته بتكريمهِ، وتقبيلِ المكتوبِ الّذي اشتمل عليه اسْمُه، وتوقيرُه [٦/أ] وتعزيرُه[2] كما يُوَقَّرُ محلُّ حلولهِ ورَسْمِه.

يُحكىٰ أنّ رجلاً كان من بني إسرائيل في زمن موسىٰ عليه السلام، وكان الرجلُ مُسْرِفاً علىٰ نَفْسِهِ[3]، لم يعملْ خَيْراً قطُّ، مشهوراً بينهم بالمخالفات مستشيناً بقبيح الفِعَالِ والسّيئات، فَرُئِي في المنامِ بعد مَوتهِ علىٰ أحسنِ حالٍ وأكمله، وأحسنِ صورةٍ في كمالِ نظر ومنظر وأجمله!.

فقيل له: من أينَ لكَ هذا الزَّيْن، وهذا الحُسن والجمال وقد كنت شَيْناً بخبائثِ الأفعال، فقيراً من صَالح الأعمال؟

فقال، لأنّي فتحتُ التّوراةَ ذاتَ يوم فوجدتُ فيها صفة حبيب اللّه: محمّد بن عبد الله؛ فَقَبّلْتُ اسْمَهُ، ووضعْتُه علىٰ رأسي، فعاملني المولىٰ جلّ جلالُه بفضلِه، وغفرَ لي، ورَحمني لمحبَّتي، إكراماً وإجلالاً لنبيّه، وحبيبه، وعبده[4].

فتذكّرْ أيُّها المُحِبّ، تعظيمَ المولىٰ - جلّ جلالهُ - لمقدارِ هٰذا النبيّ العَظيم، وما أَعدّ اللّه سُبحانه لمن يحبُّه ويُعَظّمه، من الخَير الجَسِيم. ضاعف الله حُبّنا فيه بفضله، وأَفاضَ علينا من بَركته، وجزيلِ مَنّهِ ونَيْلِه.

---

(١) قول المؤلّف: «عند سماع ذكر اسمه..» أي: عند سماع اسمه ﷺ ممّن يذكره.

(٢) عَزّرَه: فَخّمَهُ وعَظّمَه، وفي سورة الأعراف/١٥٧: ﴿وَعَزَّرُوهُ ونَصَرُوهُ﴾.

(٣) أسرف عَلى نفسه بكثرة ما اقْتَرف من الذّنوب، وما تَرك من الطّاعات.

(٤) ورد قريبٌ من هذا في سبل الهدىٰ والرّشاد ١: ٥٠٦.

الفائدة الرابعة:

إذا وجدتَ اسمَهُ منبوذاً في الطُرقات[1]، أو ملقًى في سِكَكِ الأزقّات، فبادرْ فوراً إلىٰ نقلِه، وزوالِه، وأَنِلْهُ ذُروة العِز عندك من تعظيمه وإجلاله، لأنّ شرفَ الاسم علىٰ قَدرِ شرفِ مُسَمّاه؛ ولا أشرفَ مِمّن أعلىٰ اللّهُ ذِكره علىٰ جميع خلقه وأسماه. وإن نالَ ذلك المكتوبَ شيء ممّا يُكرَهُ من الأقذار، فيجبُ عليكَ غَسْلُه وتطهيرُه، وتطييبه وتنويره بما أمكن من الأنوار.

وكثيراً ما يقعُ في هذه الأَزمان من تمكّن المَحبّة، والحمد لله في قلوبِ الإخوان، إذا رأوا المحبوبَ - ﷺ - لعلاّم الغيوب في مَنامِهم بمكان، طهّروا ذٰلكَ المكان، وأحْسَنُوا حاله بأتمّ إحسان، وحَملُوا المؤمنين علىٰ تعظيمه في جميعِ الأَزمان وهذا يدلُّ علىٰ حُسن الاعتقاد، وكمال المحبّة، وصدق الوداد.

ولكنْ ربّما غفَل الرّائي بجهلِه عن مقامِ المُصطفىٰ، وما يجبُ له من كمال البِرّ والوَفا [٦/ب]. فإنّه عليه السّلام لا يُرىٰ إلاّ علىٰ أكملِ صورة، وأحسنِ هيئة، وخيرِ مَكان.

ونصوصُ العلماء بذٰلك مشهورة.

ويكونُ الرّائي عالماً بصفاتِه عارفاً بسِمَاته، وإنْ رُئي علىٰ غيرِ أَوصافِه، فذلك لنقصٍ في دين الرّائي، وأَوصافِه.

فينبغي لكَ إذا رأيتَ اسْمَهُ فيْ مكانٍ أن تحمَيه من الآفات، وعلىٰ

---

(١) يقال: نبَذ الشيء: طرحَه من يده أمامه أو وراءه، ونبذه: ألقاه من يده. ومقصود المؤلف أن ذلك يقع من الناس سهواً وجهلاً فلا بُدّ من تداركه ورعاية اسمه الشريف ﷺ.

قَدْرِ قوّة الحب في قلبك، يكونُ إسراعُك في مَحْوِ تلك السّيئات. وابتغ بذلك مَحبّته، فإنّ مقامَهُ عندَ مولاه عظيم؛ واطلبْ من الله سبحانَهُ الثّوابَ في إكرامِه، فإنّ فضلَ مولانا عميم.

واستحضرْ ما رواه جعفر الصّادق[1] عن أبيه عن الحُسَين بن علي؛ رضي الله عنهم أجمعين، أنّهُ دَخلَ ذاتَ يوم الخلاء[2] فوجدَ فيه كسرةً من خُبز، فأخذها وغَسلها، وناولَها لعبدِه، وقال له:

ذكّرْني إذا خرجتُ وفرغت. فلمّا فَرغَ من شُغله، قال لعبده: أين الكِسرة؟.

---

(١) جعفر الصّادق. هو جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب. وأبوه هو محمد الباقر. وأبو محمد هو عليّ زين العابدين.

(٢) الحديث في تاريخ جُرجان للسّهمي: ٣٧٠ ـ ٣٧١ ولفظه: دخل عليّ بن الحسين (زين العابدين) المتوضأ ومعه غلامٌ له قد حمل له ماءً لوضوئه فوجد كسرةً ملقاةً فناولها غلامه، فلما خرج من المتوضأ سأل غلامه عن الكسرة فقال: أكلتها، قال: اذهب فأنت حرّ لوجه الله. ثم قال: (يعني محمد بن جعفر راوي الحديث) حدّثني أبي عن أبيه عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ: من وجد كسرةً ملقاة فغسل منها ما يغسل، ومسح منها ما يمسح، ثم أكلها لم تستقر في بطنه حتى يعتقه الله من النار. وإني كرهت أن استعبد من أعتقه الله من النار.

وفي مجمع الزّوائد (باب إكرام الخبز وأكل ما يسقط) ٥: ٣٤ عن الحسن بن علي أنه دخل المتوضأ... إلخ وذكر كلاماً مقارباً إلى أن قال: فقال له الغلام: يا مولاي: لأيّ شيء أعتقتني؟ قال: لأني سمعت من فاطمة بنت رسول الله ﷺ: من أخذ لقمة أو كسرةً من مجرى الغائط والبول فأخذها فأماط عنها الأذى وغسل غسلاً نعمّاً ثم أكلها لم تستقرّ في بطنه حتى يغفر له، فما كنت لأستخدم رجلاً من أهل الجنة، قال: رواه أبو يعلى ورجاله ثقات.

- وفي كتاب: ذكر أخبار أصبهان ١: ١٨٥ ـ ١٨٦ عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: من وجَد كسرةً من طعام أو ممّا يؤكل فأماط عنه الأذى ثم أكله كتبت له سبع مئة حسنة. وإن هو أماط عنها الأذى ثم رفعها كتبت له سبعون حسنة ـ وهذا الحديث في تنزيه الشريعة ٢: ٢٦٥.

قال العبدُ لسيّده: إني أكلتُها!.

فقال له سيّده: أنتَ حُرٌّ لِلّهِ تَعالىٰ!.

فقل العبدُ له: يا مولاي، لأيّ شيءٍ أعتقتني؟.

قال السيّد: حَدَّثَتْني أُميّ فاطمة، عن أبيها جَدّي محمد ـ ﷺ أنّه قال: «مَنْ دَخل خلاءً أو مِرحاضاً، فوجدَ فيه كسرةً أو لُقمةً فغَسلها، وأحسنَ غَسْلَها وطيَّبَها، ثم أكلَها، غَفر الله له ذنوبه كُلَّها». فأنْتَ أيها العبدُ معفورٌ لك؛ فكرهتُ أن أملكَ رَجُلاً من أهلِ الجَنّة؛ فأعتقتك!.

لذلك فاقْتَدِ ـ أيُّها الطالبُ للمحبّةِ ـ بهذه الآثار، واقتطفْ من هٰذه السُّلالة الكريمة مشمُوماً من الأزهار، فإذا كانَ هٰذا الكَرَمُ لمن أحْيَى ما تقومُ به الأَجسادُ والأبدانُ، فكيفَ بِمَنْ أحيى، وحَمى اسم مَن قامت برحمته الأرواح والأكوان، وقد قال عليه السّلام[1]:

«من أَحْيَى سُنّةً من سُنّتي قد أُميتت، فكأنّما أَحيانِي ومَنْ أَحْياني كانَ مَعِي في الجَنّة».

وإذا كان هٰذا الثّواب في إحياءِ السُّنّة إكراماً لها فكيف بِمَنْ كرّم أسماءَهُ، وحَفِظها، وعَظّمها؟.

---

(١) روىٰ ابن ماجه في سننه ١/٧٩ أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَن أَحْيىٰ سُنّةً مِنْ سُنّتِي قد أُمِيتَتْ بَعْدي، فإنّ له مِنَ الأجرِ مثل أجر مَنْ عَمِلَ بها مِن النّاس، لا يَنْقُص مِن أُجُورِ النّاس شيئاً... (الحديث)».
وفي الفتح الكبير ٣: ١٥١ «مَنْ أَحيا سُنّتي فقد أحبني ومَنْ أَحَبّني كانَ معي في الجَنّة».
وورد الحديث بألفاظ متقاربة في مواضع مُختلفة عن كتب الحديث (ينظر مثلاً كنز العمال ٩٣٣ و١٩٩٨١ والترغيب والتّرهيب ١: ٨٧ و٩١ ومشكاة المصابيح ١٦٨ و١٦٩).

وربما كان بعضُ الصالحين يبتلعُ المكتوبَ الذي فيه الأسماءُ الشَّريفة كأَسمائِه تعالىٰ، وأسماءِ رُسله ـ عليهم السَّلام ـ ويرون أنّ ذلك من كمال التّعظيم [٧/أ].

قاصداً بذلك فضلَ ثَوابِ اللّٰهِ تَعالىٰ، وإكرامه، وخيره العميم، وَأبوابُ الخير كثيرة، وقد وَسِعَها اللّٰهُ تعالى رحمةً منه بأهل المخالفات، فمن كَرَمِه وَجُودِه، أَنْ قال جلّ جلاله:

﴿إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود ١١/ ١١٤] .

الفائدة الخامسة:

من كمال محبّته، وبرّه وتعظيمه، ومحبّة أَسمائه، التسميةُ بما يجوز لنا أن نُسمّى به منها، وكثرة ذٰلك، وتوقيرُ من سُمّيَ بها والسلوك به أحسنَ المسالك، والحذرُ من نداءِ ذلك الاسم وخطابه بقبيح الكلام، تعظيماً لمن تسّمىٰ به عليه أَفضل الصلاة والسلام.

وقد ذكر لي بعض الشُّيوخ الفُضَلاء، والجهابذة النبلاء عن بعض العلماء من أَهل تِلمسان، المتخلّقين بالعلم، المُمتثلين لآداب الرحمن، أنه كان سمّىٰ ولداً له باسم أبيه، وكان يَستحيي إذا عَرضت له حاجةٌ عنده أَن يناديه، كراهةَ أن يذكرَ اسم والده بلفظه، ويرىٰ أَنّ ذلك عنده منقصةٌ لقدره، ولحظّه.

فإذا كان هذا السيّد يرىٰ أنْ هذا الأَدب مع والده مطلوب فكيف لا يرىٰ أنّ فعل هذا مع من تَسمّى باسم حبيب اللّٰه محبوب مَرغوب؟ فالمحبّةُ الصّادقة الفائقة إذا تحكّمت في القلوب ربّما تفطّر القلبُ منها عند سَماع ذكرِ المحبوب.

وربّما كان بعض المحبين إذا سمع نداءَ من تَسمَّىٰ باسم الحبيب - ﷺ - كأن يذكر اسمه المسمّىٰ به، اشتاق قلب المحبّ إليه، فتعيّنت الصّلاةُ عليه عند ذكره، وإلاّ كانَ بخيلاً، وكان مَذْمُوماً علىٰ بُخله بها ذَمّاً طويلاً[1].

ولا شك أنّ تارك الصّلاة عليه عند ذكره أبخل من مادِر[2] ولا يصدرُ مثل ذلك قاصداً له إلاّ من جاحد!.

وسنذكر مع بعضٍ من أسمائه عليه السلام - إن شاء الله تعالى - ما يجوز منه التّسمية به منها، وما لا يجوزُ، وأنّ مَنْ تَسمَّىٰ ببعض أسمائِه حقّ له في الدّنيا والآخرة أن يفوز.

الفائدة السادسة:

كثيراً ما يصدر علىٰ ألسَنة المؤمنين من الصّلاة علىٰ سيّد المرسلين إذا سمعوا قارئاً يقول: قال محمّد بن المُنكدر[3]، أو قال: محمد بن الحسن[4] فيقولون [٧/ب] عند ذلك - ﷺ - اعتقاداً منهم من أول السّماع أنّ مرادَ القارىء اسم المصطفى، فيبتدرون بالصلاة من قلوبٍ تدلُّ علىٰ كمال المحبّة والصّفا.

---

(١) روىٰ الإمام أحمَد في مُسنده (١ : ٢٠١) عن عبدالله بن عليّ بن حسين عن أبيه، أنّ النبي ﷺ قال: «البَخيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عندَه، ثم لم يُصَلِّ عليّ».

(٢) قوله «أبْخَلُ مِنْ مادِرٍ» هذا مَثَلٌ؛ ومادِرٌ هذا رجُلٌ من بني هلال بن عامر، بلغ مِن بُخْلِه أنّه سقىٰ إبِلَهُ، فَبَقي في أسفل الحوض ماء قليل، فَسَلَحَ فيه ومَدَرَ الحَوْضَ به - أي لَطَخَه - فَسُمِّيَ مادِراً؛ واسمه مُخارق، مجمع الأمثال (١ : ١١١).

(٣) محمد بن المنكدر القرشي (٥٤ - ١٣٠) من رجال الحديث، ومشهور في الزهّاد.

(٤) محمد بن الحسن الشيباني (ولاءً) (١٣١ - ١٨٩) إمام في الفقه والأصول. من تلامذة أبي حنيفة، وهو الذي نشر علمه: وله كتب كثيرة في الفقه والأصول.

فإذا تحققوا أنّ مرادَ القارىء خلافُ المراد، ربّما خَجل السامع لكونه لم يطابق الاعتقاد، فكأنّ صلاته لم يَضعها محلّها، أو كأنه لم يبلغ هديُها محلّها.

وعندي أن الله ـ سبحانه ـ لا يضيّعُ لهٰذا المصلّي أجراً، بل بِكَرَمِه وجُوده يضَعُ عَنهُ بِصَلاتهِ إصْراً[1]، ويُسكنه بفضله جَنّة المأوىٰ لقول حبيبه عليه الصَّلاةُ والسّلام[2].

«إنّما الأعمالُ بالنيّات وإنّما لِكُل امرىءٍ ما نَوىٰ»

فلنقتصر عن التّطويل، ونغتنم الفضل والثّواب ممّا نويت في هذا التأليف من الربّ الجليل.

وقد شرعْتُ في بِحارٍ مع أني لا دراية لي بالعَوْم، لكنْ غلبني الحُبّ، وندبت نفسي في تشبّهها بالقوم. عن أَنس بن مالك رضي الله عنه أنّه قال: قال رسول الله ﷺ[3]:

«المرءُ معَ مَن أحَبّ» قال: أنا أُحبّ رسول الله ﷺ ـ وأبا بكر وعُمر رضي الله عنهما، وأَرجو أن أكونَ معهم.

وأتىٰ رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: إن الرجل يحب الرجل علىٰ العمل من الخير، يعمل به، ولا يعمل مثله. فقال

---

(١) الإصر: الذّنب، والشّدّة.

(٢) من حديث صحيح رواه البُخاريّ ومسلم، وغيرهما بألفاظٍ متقاربة (صحيح البخاري ١: ٢، وصحيح مسلم ٣: ١٥١٥).

(٣) حديثٌ صحيحٌ، وردَ بهذا اللّفظ في صحيح مُسلم: ٢٠٣٤ وسُنن أبي داود: ٥١٢٧. وورد بلفظه وزيادات عليه أيضاً (ينظر مثلاً مُسند أحمد ١: ٣٩٢ ومجمع الزّوائد ١: ٢٨٦).

عليه الصلاة والسلام: «المرء مع مَنْ أحب»[1].

ومثل أنس رضي الله عنه وغيره من أصحابه عليه السلام يرجو أن يكون مع أصحابه لوقوفهم عند حده، واتباع طريقه وهديه.

ومثلي وأنظاري[2]، لا تصدق فيه المحبة الحقيقية، لكنها نافعة ـ إن شاء الله ـ بمنه وفضله، موصلة إلىٰ رضا الله، وبذْله، وذكر القشيري ـ رحمه الله ـ في كتابه قال[3]:

يحكىٰ عن بعضهم أنه قال: رأيت النبي ﷺ في المنام وحوله جماعة من الفُقَراء، فبينا هم كذٰلك، إذ نزل من السماء ملكان، بيد أحدهما طست، وبيد الآخر إبريق، فوضعا الطست بين يدي رسول الله ﷺ فغسل يده الكريمة، ثم أمرهما حتىٰ غَسلا أيديهما، ثم وضعا الطست بين يدي، ثم قال أحدُهما للآخر لا تَصُبّ عليه [٨/أ] فإنه ليس منهم.

فقلت يا رسول الله: قد ورَد عنك، أنّك قلت: «المرءُ مع مَنْ أحب» قال: صَدق الراوي.

فقلت: فأنا أُحبك، وأُحبّ هٰؤلاء الفقراء.

فقال عليه الصلاة والسلام: صُبّ علىٰ يديه فإنّه منهم وأنشدوا في محبتهم[4]:

---

(١) من ألفاظه التي ورد بها أيضاً: المرء مع من أحبّ وأنت مع من أحببت، والمرء مع من أحبّ وله ما اكتسب، والمرءُ مع مَن أحبّ يوم القيامة.

(٢) أي: وأمثالي.

(٣) أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن النيسابوري القُشيري؛ من بني قشير بن كعب (٦/ ٤٦٥) لقبه: زين الإسلام؛ وكان شيخ خراسان في عصره زُهداً وعلماً بالدين. من كتبه: التيسير في التفسير، ولطائف الإشارات، والرسالة القشيرية.

(٤) من بحر الطويل.

تـهـبُّ لـنـا مِـنْ نـحـوهـم نَـفَـحـاتُ فـتُـغْـرِبُ عَـنَّـا بـالـهَـوىٰ حَـرَكـاتُ
ونَـطْـرَبُ أنْ غَـنّـى الـحُـدَاةُ بـذكـرِكُـمْ فَـلِـمْ لا، وأَنْـتُـمْ لِـلـطَّـرِيْـق هُـداةُ؟
أأحـبـابـنـا كـيـفَ الـطَّـريـقُ إلـيـكـمُ وقـد قَـطـعـتـنـا عـنـكـم الـشَّـهَـواتُ؟

رزقنا الله محبَّتهم، ومحبَّة أنبيائهِ، وأعانَنا علىٰ طاعَتهِ، وعلىٰ القيام بحقّ أَوْلِيائِه.

بـــــابٌ

في مَعْنىٰ اسْمِه

مُحَمَّدٌ (*)

صَلَّىٰ اللَّهُ عَليه وسلّم وشَرّف وكَرّم ومَجّد وعظّم

محمد اسمٌ من أسمائه عليه السّلام، ورَدت به الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأجمعت عليه الأمّة المحمّديّة؛ أما القرآن فقد قال تعالىٰ:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح ٤٨/٢٩].

وقال عزَّ مِنْ قائل:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ [محمد ٤٧/٢].

وقال سُبحانه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤٠].

وقال جلّ جلاله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران ٣/١٤٤].

فهذه الآيات كلها من ربّ العزة، قد صرّحت بهذا الاسم الشريف

(*) وَرَدَ تفسير هٰذا الاسم مِن أسماء النبيّ ﷺ في: (أسماء رسول الله ﷺ ومعانيها) - لابن فارس: ٣٠، والشفا ١: ٤٤٤، وزاد المعاد ١: ٨٩، وجلاء الأفهام: ١٧١، والرّياض الأنيقة: ٤٢، وسبل الهدىٰ والرشاد ١: ٥٠٠.

ودلّت على العناية الرّبانية به من الرّبّ اللّطيف، فأسنَد الحكم بالرسالة إليه وتعيّنت عَلَمِيّته، واختصاصُه بالتّسمية في الوجود، وأُخبر الحاضرون عن معلومهم بأنّه رسولُ الإلّه الملك المعبُود.

وأمّا الأحاديثُ النبويّة فكثيرةٌ لا تُحْصَى، وورود هذا الاسم في الكلام النّبوي لا يُحاطَ به، ولا يُسْتقْصىٰ.

رَوَينا من طرقٍ كثيرةٍ، في كُتبٍ مرويّةٍ من البُخاري، ومُسلم، والنَّسائي ما يَنتهي إسنادُه إلىٰ محمّد بن جُبَير بن مُطعم، وغيره قال: قال رسول الله ﷺ[1]:

«لي خَمْسَةُ أَسْمَاء، أنا مُحَمَّد، وأنا أَحْمَد، وأنا المَاحِي الذي يمحُو الله بي الكُفر، وأنا الحاشِر [٨/ب] الذي يَحشر اللّهُ النّاسَ علىٰ قَدمِي، وأنا العَاقِب».

وقد رُوي عنه عليه السلام أنه قال[2]: «لي عشرة أسماء..» فذكر الخَمسة ثم قال «... أنا رسُول الرَّحمة، ورسولُ الرَّاحة، ورسولُ المَلاحِم، وأنا المُقْتَفِي، وأنا قُثَم».

ورُوي أيضاً في بعض الأحاديث «لي في القُرآن سَبعةُ أسماء فذكَر منها محمّداً، وأحمَد، ويٰس، وطه، والمدّثر، والمزَّمّل، وعبد الله».

---

(١) الحديث في (الشُفا بتعريف حقوق المصطفىٰ) ـ للقاضي عياض ١: ٤٤٤، وفي (الرّياض الأنيقة في شرح أسماء خير الخليقة) ـ للسيوطيّ: ١٧ وما بعدها. وفسّر (العاقب) بأنّه الذي ليس بعدَه نبيّ. وفي زاد المعاد ١: ٨٨، وفي دلائل النبوّة ـ لأبي نعيم ١/٦١، ودلائل النبوّة للبيهقي ١ و١٥٢، وسبل الهدىٰ والرشاد ١: ٤٩٤.

(٢) ورَدَ قريبٌ من هذا الحديث في الرّياض الأنيقة: ٢٩، وانظر أيضاً ٢٦، ٢٧، ٢٨ من الرياض الأنيقة. وانظر دلائل النبوة ـ لأبي نعيم: ١/٦١، والحديث في الشفا ١: ٤٤٩.

وسنتكلّم - إن شاء اللّه - علىٰ كل اسم منها في بابه. والذي يجب التنبيه عليه هنا، أنّ هذه الأحاديث لا تَعارُضَ فيها:

إمّا أن نقول: العدد لا مفهومَ له، أو يُقال: إنه عليه السلام حيث قال: «لي خمسة أسماء...» لم تكن له في ذلك الزمان إلاّ تلك الخمسة الأسماء؛ ثم بعد ذلك أعلمه اللّه سبحانه بأن له أسماءً غيرَها، وأظهر له ثانياً ما لم يظهر له أولاً من الأسماء.

وقيل معنىٰ قوله عليه السلام: «لي خمسة أسماء...» أنها موجودة في الكتب المتقدمة، وعند أُولي العِلم من الأُمم السّابقة.

وأما إجماعُ الأُمّة المحمّديّة، فقد أجمعت الخلائقُ أنَّ هذا الاسم لم يتسمَّ به أحدٌ غير نبيّنا - ﷺ - لا من العرب، ولا من غيرها، إلىٰ أنْ شاعَ قبلَ وجودِه عليه السلام وقبل ميلاده، أنّ نبياً يُبعث اسمُه «محمد» فسمّىٰ قومٌ قليلون من العربِ أبناءَهم بذلك رجاءَ أن يكونَ أحدهم هو[1].

وقد، منع اللّه أن يُسَمّى به أهل أرضهِ قبل وجودِه وسماواته، وَاللّهُ أَعْلَمُ حَيْث يجعلُ رِسَالاتِه، ومن تَسمّى بذلك من العرب معدودون إما سبعة، أو ما قاربها، وهذا من حِكمة اللّه تعالىٰ، وكمال رحمته في كونه، حمىٰ الخلائق أن يتسَمّوا بهذا الاسم، قبل وجود نبيّنا محمد - ﷺ، حتىٰ لا يدخلَ علىٰ ضعيف القلبِ شكٌّ، ولا يمازجَ أحداً فيه ريب.

ومن كرامات اللّه بِهِ، أنّ مَنْ تسمّى بذلك طمعاً في النبوءة، لم

(1) انظر الرّوض الأنف ١: ١٨٢، والشفا ١: ٤٤٥ - ٤٤٦، والرياض الأنيقة: ٤٥، والاكتفا: ١٦٨.

يَدّع نبوءة، ولم تُدَّعَ له، ولم يتشكّك في ذلك أحدٌ منهم حتىٰ [٩/أ] تحقّقت الرسالة والنبوءة لمن خصّه المولىٰ جلّ جلالُه بكمالِ الاصطِفاء. وسَمّاه الرؤوف الرحيم، وظهر للعالم فيه مصداق قوله تعالىٰ:

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٧٤] لا إلٰه إلاّ هو الرّبُّ الكريم.

وهذا الاسم الأكرمُ، علىٰ وزن مُفَعَّل، من الحَمْد؛

وأصْلُ فِعله: حَمّدته تحميداً أي بالغتُ في حَمْدِه والثناء عليه. فإنّ الزيادةَ في المبنىٰ تدلُّ علىٰ الزيادة في المعنىٰ، فلفظ محمّد: اسمٌ مأخوذ من حُمِدَ، بمعنىٰ أنه جَعله محموداً بكل لسان، مذكوراً في كل أوان، حَمِدَه الأوّلون والآخرون، وأَثْنَتْ عليه الملائكة المقرّبون، ونطقت عند مشاهدةِ نوره بحمده أَلْسُنُ الأكوان، وتَزَخْرَفَت بجميل ثنائه في العالم الوجوه النَّضِرَةُ الحِسَان، وعجزت جَهابِذَةُ البُلَغاء عن ذكر وصفِه بعد أنْ عَظَّمَ خلقَه مَنْ علا الوجود بصفته وهو الواحد المنّان.

فهو ـ ﷺ ـ أجلُّ مَنْ حَمَدَ، وأَفْضَلُ مَنْ حُمِدَ؛ وهو أحْمَدُ المحمودين، وأحْمَدُ الحامدين. فحقيقٌ أنْ سمّاه ربُّه محمّداً صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلّم تسليماً سلاماً مؤبداً.

فصل

ما ذكرته أنّ الله تعالىٰ هو المسمِّي له محمداً ـ ﷺ وهو المقطوع به من اعتناء مولاه به، وهو المنقول في سِيره عليه السّلام.

رُوي من طريق أبي جعفر محمد بن عليّ، من طريق ابن سعد

قال: أُمرت آمنة وهي حامل برسول الله ﷺ ـ أن تُسَمِّيه أحمد[1].

وروىٰ ابنُ إسحاق[2] أنّها سمعت، حين حَملت به، قائلاً يقول لها: إنك حملتِ بسيّد هٰذه الأُمّة. وفيه: إذا وضعْتِه فسمه محمداً. فالآثارُ الكثيرة دالّة علىٰ أنّ الاسم الكريم، اختاره له ربُّه، وخصّه بِهِ وشهَره به في أرضِه، فكان اسمه فيها محمداً؛ وجعل اسمه في السماء أحمد، وجعل اسمه في البحار الماحي.

ويُروىٰ أن آدم عليه السلام، سأل ربه عز وجل: لأيّ شيءٍ سمّيته في الأرض محمّداً وفي السماء أحمد [9/ب] فأجابه ربّ العزة: لأنّ أهل المشرق والمغرب يتبعونه، ويحمدونه ويثنون عليه، فسميْتُهُ في الأرض محمّداً، وأهل السّماء من الملائكة قد حمدوا ربّهم، وأثنوا عليه. فكان محمدٌ ـ ﷺ ـ أحْمَدَهم لربه فَسُمّي في السماءِ أحمد[3].

كذا وجدتُه في بعض الآثار، ومشهور الأخبار، أن اسمه في السّماء أحمد، وفي الأرض محمدٌ، وفي البحار الماحي[4]، وآدم عليه السّلام سأل عن سرّ تسمية نبينا ومولانا محمّد ﷺ بالاسمين الشريفين في

---

(1) رواه أبو نعيم في الدلائل 1: 136، ونقله في سبل الهدى والرّشاد 1: 395، وقال: «وسَنَدُهُ واهٍ جِداً»، وهو في السّير والمغازي ـ لابن إسحاق: 45. والخبر في طبقات ابن سعد 1: 98 وسنده: قال أخبرنا محمد بن عمر قال حدّثني قيس مولى عبد الواحد عن سالم عن أبي جعفر محمد بن علي قال: أُمرت. . . الحديث.

(2) السير ـ لابن إسحاق: 15، والسّيرة ـ لابن هشام 1: 158.

(3) نقل صاحب سُبل الهدىٰ والرّشاد ما وردَ من تسميته بـ (محمّد) و(أحمد) في الكُتب السّابقة، وعلى ألسنة بعض الأنبياء عليهم السّلام: 1: 103، 509 ـ 515 ويُنظر طبقات ابن سَعد 1: 104.

(4) في الاكتفا للكلاعي 1: 168 والرّياض الأنيقة: 259.

ـ وقد عقد المؤلف رحمه الله في هذا الكتاب أبواباً لأسمائه ﷺ: (محمد) في الباب الأوّل و(أحمد) في الباب الثاني، و(الماحي) في الباب الثالث.

الأرض والسّماء.

وأجابَ ربّ العزة، جل جلاله العالمُ بخفيّات الأمور بجوابٍ شَفى به الصدور؛ ولم يسأل آدم عليه السلام عن تخصيص اسمه (الماحي في البحار)، مع أنَّ الأثر الذي يسأل عن تخصيصه به موجودٌ فيه: (في البحار).

ولعلّ آدم عليه الصّلاة والسّلام رآه أمراً بيّناً، جليّاً، وفهم معناه، وكان عنده مَرْضِيّاً، سيما وقد فسر رسول الله ﷺ ذلك في بعض الرّوايات بقوله[1]: «الذي يَمْحُو بي اللّه الكفر»، وظهر لي جوابٌ ـ فتّح اللّه به ـ في تخصيصه بالماحي في البحار، أذكره ـ إن شاء الله ـ في اسمه الماحي ـ ﷺ[2].

وصاحب الاكتفا ـ رحمه الله ـ قال[3]:

يُروىٰ أنّ عبد المطلب إنّما سمّاه محمّداً لرؤيا ـ زَعموا أنّه رآها في منامه ـ: كأنّ سلسلة من فضّةٍ خَرجت من ظهره لها طرفٌ في السّماء، وطرفٌ في الأرض، وطرفٌ في المشرق وطرفٌ في المغرب، ثم عادت وكأنها شَجرة على كلّ ورقة منها نُور، وإذا أهلُ المشرق والمغرب يتعلّقون بها. فقصّها، فَفُسِّرت له بمولود من صُلْبِه يتبعُه أهلُ المَشْرِق والمَغْرِب، ويحمده أهلُ السّماء والأرض، فلذا سماه محمداً، مع ما حَدَّثت به آمنة أُمُّهُ.

وهذا الخبر، وإن كانَ بظاهِره يُخالفُ ما ذكرناه أوّلاً فالجمع فيه

(١) طبقات ابن سعد ١: ١٠٥.
(٢) في الباب الثّالث من هذا الكتاب.
(٣) الاكتفا ١: ١٦٨.

قريب؛ وذٰلك أنَّ الألطاف الربّانيّة من ربّ الأرباب بهذا النبي من الأمر العجيب، فجرت معه خوارق العادات، ونَطقت عند بروز هذا النّور إلىٰ الأرض الأكوانُ وظهرت، وأنطَق اللّٰهُ الملائكة، وأنزلها [١٠/أ] إلىٰ الأرض اعْتناءً بحبيبه، وأظهر من أَجْله الكَرامات، فسمعت أُمّه ما حقّقت به أنه سيّد الأرض والسّمٰوات، ولذا قالت لِحليمة لما قدمت به عليها، وخافت عليه أن يناله شيء لديها وأرادت رده إليها: أَنَّكِ خفْتِ علىٰ ولدي من الشَّيطان، لا والله ليسَ للشيطان علىٰ ولدي سبيل، فإنّي رأيتُ عند حملي به ووضعه ما دلّني علىٰ أنه سيّد المخلوقات[1]. فحققت أُمّه الأَمر بهذه التسمية له أنها من الله، وأَلهم ذٰلك ـ سبحانه ـ جَدّه عبد المطلب، فطابقَ ما عنده من النّظر ما سمّاه به ربّه ربّ البريّات.

فصل

قال خادمُ السنّةِ، وأفضلُ من نصح بعد الصحابة والتابعين هذه الأُمّة القاضي أَبو الفضل عِياضٌ رحمه الله، ونفع به[2]: إن هذا الاسم مشتقٌ من أسمائه سُبحانه، وسمىٰ النبي ﷺ محمّداً. وأَحمد بمعنىٰ محمود؛ أي يَحْمَدُه الأَنام، وكذا وقع اسمه في زبور داوود ـ عليه السلام ـ وأحمد بمعنىٰ أكبرُ مَنْ حَمِد، وأجلُّ مَن حُمِد[3].

---

(١) الخبر في السّيرة النبوية ـ لابن هشام ١: ٦٤، والاكتفا ١: ١٧٣.

(٢) الشّفا ١: ٤٦٠.

(٣) أوردت كتب السيرة المطوّلة ما ورد عن رسول الله محمد ﷺ والبشارة برسالته وقرب ظهوره، ونقلت عن الكتب القديمة في هذا الباب. يُنظر مثلاً السيرة الحلبية ١: ٢١٣ ـ ٢١٩. ونقل قول أحدهم.

مِن قبلِ مَبْعَثِه جاءت مبشرةً ... بهِ زبورٌ وتوراةٌ وإنجيلُ

وقد أشار إلىٰ هذا حسّان بقوله رضي الله عنه[1]:

وَشَقَّ لَـهُ مِـن اسْـمِـهِ لِيُـجِـلَّـهُ   فَذُو العَرْشِ مَحمودٌ وهذا مُحَمَّدُ

وذكر قبل هذا كلاماً في فضل الأسماء، يصلح ذكره في باب اسمه أحمد ـ ﷺ ـ.

ولقد أبْدَع حسّان بن ثابت ـ رضي الله عنه في هذا الثَّنَاءِ علىٰ حبيب اللّٰه ورسولِه، ﷺ، حيث قال: (فَذُو العرش محمودٌ وهذا محمّد)؛ أي: فخالق العرش ـ الذي هو أعظم المخلوقات ـ بل: خالقُ العالم بأسره: الأرَضِيْن والسماوات، الموصوف بكونه في ذاتِه وصفاته حَمِيْداً محموداً، القائمُ بِنفسِه، المُستغني عن خَلقه، الباقي بعد فناءِ خَلقه، مع كونه يومَ القيامة لهم معيداً، قد شَقّ سبحانه من أسمائِه الحُسنىٰ، ما سمّى به تاج العارفين، وبالغ في حمده، لأنّه سيّد ما خَلق من المَحْمُودين، فيه إشارةٌ، وتنبيهٌ وإعلامٌ لأهلِ الوجود أن يُكثروا من حَمْدِه، والثّناءِ عليه، ويُبالغوا [١٠/ب] في الثّناء عليه، ويَبْذُلوا من أنفسهم المجهودَ ويصفوهُ بصفاتِ الكمال، وأشرفِ المَعاني وأفضلِ الخصال، ويُجِلُّوه غاية الإجلال.

دَعْ ما ادَّعتْهُ النّصارىٰ في نبيهمُ   وَاحكُمْ بما شئتَ مَدْحاً فيه واحْتَكِمِ[2]

وانْسُبْ إلىٰ ذاتِه ما شِئتَ من شَرفٍ   وانْسُبْ إلىٰ قَدْرِه ما شئتَ من عِظَمِ

فإنَّ فضلَ رسول الله ليسَ له   حَدٌّ فَيُعرِبَ عنهُ ناطقٌ بِفمِ

وحسان بن ثابت شاعرُ رسول الله ﷺ وناصرُه بلسانه، الباذل جهده في ذاته بأقواله وأفعاله، فكان رضي الله عنه ممّن نال السّعادةَ في حمدِه

(١) ديوان حسان ١: ٣٠٦.

(٢) هذه الأبيات من بُرْدة البُوصيريّ رحمه الله، في ديوانه: ٢٤١.

المحمود عند الله، المذهبة[*] بأن مدح بها رسول الله، وتمثّل الصالحون والمحبّون في هٰذا النُّور العظيم بمدائحه حين يصفون نبيَّ اللهِ بأوصافهِ فيأتون بنتائج أفكاره وحُسْنِ ما منحه المَوْلىٰ من مَنائحه.

هٰذه عائشةُ ـ رضي الله عنها: أمُّ المؤمنين، وحبيبةُ حبيبِ ربِّ العالمين ـ مع حِفظها لأشعار العرب وأخبارها، وبلاغةِ جواهر ألفاظها، وصَفَتْ يوماً السَّيِّدَ الكامل، الفاتح الخاتم، وحَمِدَت أقواله وأفعاله، وبالغت وصفها، وبَذلت في مدحه جَهدها ثم قالت: كان والله كما قال فيه شاعرُه حسّان بن ثابت[1]:

متىٰ يَبْدُ في الداجي البهيم جبينُه ... يَلُحْ مثلَ مصباح الدُّجا المُتَوَقّدِ[2]

فمنْ كانَ أو مَنْ قد يكونُ كأحمدٍ ... نظامٍ لِحَقٍّ أو نَكالٍ لِمُلْحِدِ؟

وقد مَدح رضي الله عنه رسول الله ﷺ وجاوب عنه العربَ، وقطع لسانهم بنورِ رسول الله ﷺ، وبالغَ في نُصرته لرسول الله ﷺ.

ومن بَديع قَصائده، ومدائحه، القصيدةُ التي جاوب بها الهاتفَ الّذي سُمِعَ بين السَّماء والأرض، حين هاجَر رسول الله ﷺ من أرضٍ إلى أرض، ليبيّن لعباد اللّٰه النَّفْلَ والفرض؛ قالت أسماء ـ رضي الله عنها وعن أبيها: لمَا خَرج رسول الله ﷺ [وأبو بكر] أتىٰ نَفرٌ من قريش فيهم أَبو جهل، فوقفوا علىٰ باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقال: أين أبوك

(*) سمّى المؤلف قصيدة حسّان ـ أو قصائدهُ ـ المُذهبة. و«المذهبات» قصائد ذكرها القرشي في «جمهرة أشعار العرب».

(1) ديوان حسّان ١: ٤٦٥، والخَبَرُ والشعر في أُسد الغابة ٢: ٤.

(2) من بحر الطويل.

ـ والنّكالُ: ما نكّل به المرءُ غيره كائنا ما كان. ومعنى نَكّل به أي جعله نكالاً وعبرةً لغيره.

يا بنيّةَ أبي بكر؟ قالت؛ قلت: لا أدري والله أين أبي [١١/أ] قالت: فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ فلَطَم خَدِّي لَطْمَةً طرحَ منها قرطي، ثم انصرفوا عَنِّي.

قالت: فمضت ثلاثُ ليالٍ ما نَدري أينَ توجَّه رسول الله ﷺ، إذ أتىٰ هاتف على أعلى أبي قُبيس[١]، وذكر أبياتاً يغني بها، يسمعُ النّاسُ صَوْتَه ولا يَرَوْن شخصَه، وهو يقول[٢]:

جَزىٰ اللّهُ رَبُّ النّاسِ خَيْرَ جَزائِه رَفيقَيْنِ قالا خَيمَتَيْ أُمِّ مَعْبَدِ[٣]
هما نَزلا بِالهَدْي واهْتَديا به فَأفلحَ مَنْ أمسىٰ رفيقَ محمّدِ[٤]
لِيَهْنىءْ بني كعبٍ مكانُ فتَاتِهم ومَقْعَدُها للمُؤمنين بِمَرْصَدِ[٥]

وتُروىٰ هذه القصيدة من طريقٍ آخر بزيادةِ بيت بعد البيت الثّالث فقال:

فما حَملَت من ناقةٍ فوق رَحْلِها أَبرَّ وأوفىٰ ذِمّةً من مُحَمّدِ[٦]

فالرّفيقان المذكوران في البيت الأول هما سيّدنا ومولانا

---

(١) أبو قُبَيْس: اسم الجبل المُشْرِف علىٰ مكّة المكرّمة؛ وهو شرقيّ مكة، وقعيقعان من غربيّها؛ قيل سمّي باسم رجل من مذحج كان يكنى أبا قبيس لأنه أول من بنى فيه قبّة (معجم البلدان ١: ٨٠ ـ ٨١).

(٢) الخبر في السِّيرة النّبوية ـ لابن هشام ١: ٤٨٧، والاكتفا ١: ٤٤٦ ـ ٤٤٩، وطبقات ابن سعد ١: ٢٣١.

(٣) في السّيرة: «حَلاَّ خيمَتَيْ..». وأمّ مَعْبَد: هي المَرْأةُ الّتي نزل بها رسولُ الله ﷺ وصاحِبُه في طريق الهجرة. ومعنى: «قالا خيمتي أم معبد» أي نزلا فيها عند القائلة. إلاّ أنّ الشاعر عدّى فعل (قال) بغير حرف جرّ.

(٤) في طبقات ابن سعد: هما نَزلا بالبِرّ...

(٥) بَنُو كعب: هم قَوْمُ أُمّ مَعْبَد، مِن خُزاعَة.

(٦) في نسخة (ب): «فوق ظهرها».

محمّد ﷺ، وصاحبه وأنيسه، ورفيقه، وضجيعه، أبو بكر الصدّيق المُؤانِس له في كلّ صَعْبٍ وضيقٍ، رضي الله عنه.

ومعنى قوله «قالا خيمتي أم معبد» أي: نزلا في القيلولة عند هَجير الشمس، واستراحا عند هذه الخيمة المباركة. وهي خيمة أُم مَعبد رضي الله عنها.

وقد أَسلَمَتْ وحَسُنَ إسلامها ببركة رسول الله ﷺ عندها، وظهرت لها مُعجزتُه وبَركته، وذلك أنّه لمّا نَزل عندها قال لها: يا أُمّ معبد هل عندك من لبن؟

قالت: لا واللّه، وإنّ الغَنم لعازِبَة[1]؛ قال ﷺ: فما هٰذه الشّاة؟ قالت: والله ما ضَربها فحلٌ قطّ فَشأنك بها!.

فدَعا بها ﷺ، فمسَح ظهرها وضَرْعَها، ثم دَعا بإناءٍ فَحلب فملأه فسقىٰ أصْحابَهُ عَللاً بَعْدَ نَهل[2]، ثم حَلَب فيه فوضعه عندها، وارتحل ﷺ.

فجاء زوجُها عند المساء، فقال يا أمّ معبد: ما هٰذا اللّبن ولا حلوبةَ في البيت، والغنَم عازبة؟.

قالت: إنّه واللّه قد مَرّ بنا رجلٌ ظاهرُ الوضاءة، مُتَبلّجُ الوجه، في أشفارِه غَطف[3]، وفي عينَيْه دَعَج[4]، وفي صوتِه صَحَلٌ[5]؛ غُصنٌ

---

(١) أي: بعيدةٌ في المَرْعىٰ.

(٢) العَلَلُ: الشَّرْبَةُ الثانية؛ والنَّهَل: أوّل الشُّرب.

(٣) الغَطَفُ: طُولُ شعر الأجفانِ وانعطافُه.

(٤) الدَّعَجُ: سوادُ العين مع سِعَتِها.

(٥) الصَّحَلُ في الصَّوْت: كالبُحّةِ وأن لا يكونَ حادّاً.

[١١/ب] بين الغُصْنَين، لا تَشنَؤُه[1] من طُول ولا تقتحمه مِن قصر، كأنّ عنقه إبريق فضّة، إذا صَمت فعليه البَهاء، وإذا نطق فعليه الوَقار، له كلام كخرزاتٍ نُظِمْن، أزين أصحابه منظراً، وأحسنهم وجهاً، أصحابُه يَحُفُّوْن به، إذا أَمر ابتدَرُوا أمْرَهُ[2]، وإذا نَهىٰ انتَهَوا عند نَهْيه.

فقال زوجُها: هذه والله صفةُ صاحبِ قُرَيش، ولو رأيتُه لاتّبعته. هٰذه رواية. وفي طريق آخر فيها زيادة.

فانظر هذه السيِّدة، كيف عَمّت بركةُ المُصطفىٰ ﷺ عليها. وقدمت أَنوارُه الكريمة لديها، وكيف كانَتْ صِفَتُه عند الخَلائقِ محصوراً نَوْعُها في شخصه[3]؛ ولذا قال بعلها:

هٰذه صِفَةُ صاحِب قُريش؛ لعلمه به؛ وأنّ هٰذه الصّفة لم يتصفْ أحد من المخلوقين بها.

وحُسنُه ﷺ ـ فوق ما أثنىٰ عليه المادحون، وقد عَجزت عن بعض بديع صفاته أنْ تَصِفَهُ أهل البَلاغة والواصِفُون.

فلّما سمع حَسّان رضي الله عنه مَدْحَ هٰذا الهاتِف، قال مُرتجلاً لشدّة حُبّه وكثرة شَوقِه ارتجالَ الشّائِق الواصِف، فقال[4]:

لقد خابَ قومٌ زالَ عَنْهم نبيُّهم ... وقد سُرَّ مَن يَسْري إليهمْ ويَغْتدي[5]
ترحَّلَ عنْ قومٍ فضَلَّتْ عقولُهمْ ... وحَلَّ علىٰ قومٍ بنورٍ مُجَدَّدِ

---

(١) لا تَشْنَؤُه: لا تُبْغِضُه. ولا تقتحِمُه: لا تحتقره.
(٢) ابتدروا الأمر: تسابقوا إليه.
(٣) في الأصول (في شخصها) إعادة للضمير على الصّفة، ورجّحت «في شخصه» عوداً بالضمير إلى النبي ﷺ.
(٤) ديوان حسان ١: ٤٦٤.
(٥) من بحر الطويل.

هَداهُمْ بِهِ بعدَ الضَّلالةِ ربُّهمْ وأرْشَدهم، من يَبتغي الخيرَ يَرْشُدِ
وقد نزلتْ منهُ على أهلِ يثربِ ركابُ هُدًى حلّتْ عليهمْ بأسْعُدِ
نَبيٌّ يَرىٰ ما لا يَرى النّاسُ حَوْلَهُ ويَتْلو كتابَ اللّٰهِ في كلِّ مَسْجِدِ
وإن قالَ في يومٍ مَقالَةَ غائبٍ فتصديقُها في اليومِ أوْ في ضُحَى الغَدِ[1]
لِيَهْنِ أبا بكرٍ سَعادةُ جَدِّهِ بِصُحبَتِهِ، من يُسعدِ اللّٰهُ يَسْعَدِ[2]

فصل

قال بعضُ العارفين، ممّن لاحت في قلبه أنوارُ المحبّين:

محبة رسول الله ﷺ واجبةٌ على الخلائق أجمعين؛ لأنَّ النفوس مجبولةٌ علىٰ حُبِّ مَنْ أحْسَن إليها، ومائلةٌ لمن رَحِمَها وأشْفَق عليها، وقد أحْسَن ﷺ إلىٰ العالَم بأسرِه، [١٢/أ] عُلويّه وسُفليّه؛ أرسله الله رحمةً للعالمين، وبشيراً نذيراً للخلائق أجمعين.

ومَنْ أحبّ شيئاً، أحَبّ ذِكْرَ أسمائِه، ومُشاهدتَه، وكتب عنده شمائله وصفته، ونقش في قلبه صفته وصورته.

فلمّا أنْ كمّل مولانا ـ جل جلاله ـ خَلْقه وخُلُقه، ورفعه علىٰ حضرة قُدسه، واصْطَفاه علىٰ الأخيار من خِيرَةِ خَلْقه، وأسكنَ محبّته في قُلوب المخلوقات، ورحم به الأرَضينَ والسّموات؛ فنطق بحسن الثناء عليه الساكنُ والمتحرّك، والحيوانُ السّفليّ والعُلويّ والجماد، وخلقَ الله صورةَ مَنْ كَرّمه من الإنسان وفَضّله علىٰ سائر العِبَاد، فجَعله علىٰ صورةِ الاسمِ المكتوب ليطمئنّ بالنظرِ إلىٰ اسمه صميمُ الفُؤاد؛ فالميم من اسمه

---

(١) مقالة غائب: أي قولاً في أمر من أمور الغيب. ومعنى الشطر الثاني أنّ قوله يتحقّق في وقت قريب.
(٢) الجَدّ: الحظ والنّصيب.

رأسُ الإنسان، والحَاء جَناحاهُ، والميم الثّانية بَطْنُه، والدال رجلاه[1].

ففيه إشارةٌ إلى أنّ الخلائق المكرَمين، كرّمهم مولاهم بأن خلقهم علىٰ صوره اسم الصادق الأمين، ليشاهدوا اسمَ شرف وجودهم وشمسَ سماءِ صُعودهم في كلّ وقتٍ وحين ولتكونَ هٰذه الصورةُ البشريّة في صعودِ الرّفعة وغايَةِ الاحترام، والصّدق عن جمَيع الشَّيْنِ والانخرام[2].

فَمَنِ استحضَرَ ذٰلك من أَهلِ المحبّة، حَرّم علىٰ صورة الإنسان تسخيره وتحقيره، وأوجبَ عنده توقيرَهُ وتعظيمَهُ؛ كيف لا، وهو يشاهد صورةَ اسم حبيبه في شكله، وصفة مَنْ وُجِدت الكائنات من أجله؛ بل ومَنْ أزال الله الحجابَ عن بصيرته، وراقب مَنْ رأى بصرُه من الصُورة في شكلهِ[3]، حَمَلَهُ التّعظيمُ والإجلال لصورةِ اسم حَبيبِ الله أن يُراقِبَها[4]، وأن يمنعَ نَفْسَه من المُخالفات فَيُقَدِّرَها قَدْرَها، وأن يُحافِظَ علىٰ نفس هذه الصُورة في قلبِه مخافة أن تزول، ويطلبَ من المولىٰ

---

(١) يعني أنّ كتابَةَ اسم محمّد ﷺ جاءَت علىٰ صُورةِ الإنسان مِن رأسٍ ويَدَين وبطن ورجلين؛ هكذا: محمد.
قال في سبل الهدى والرشاد ١: ٥٠٢ وأما وقوع الأحرف على هذا الشكل الخاصّ فقيل لأنّ الله تعالى خلقَ الخلقَ على صورة محمد ﷺ؛ فالميم بصورة رأس الإنسان، والحاء بمنزلة اليدين، وباطن الحاء كالبطن، وظاهرها كالظهر ومجمع الإليتين، والمخرج كالميم، وطرف الدال كالرجلين، وفي ذلك أنشدوا:
له اسم صَوّر الرحمنُ ربّي ... خلائقه عليه كما تراهُ!
له رجل وفوق الرجل ظهر ... وتحت الراس قد خلقت يداه
وفيه تكلّف».
(٢) الشَّين: العيب، وعكسه الزَّيْن. والانخرام: الانقطاع والشقّ في الشّيء.
(٣) يعني صورةَ الإنسانِ التي تنعَكِسُ في بؤبؤ العَيْن.
(٤) أي أن يُرَاقِبَ عَيْنَهُ التي انعكسَ في بُؤبؤها شكل الإنسان، الّذي يُشْبِهُ كتابَةَ اسم (محمّد) ﷺ.

ثباتَ قلبه علىٰ دِينه ويسألَه القبول؛ فإنّ القَلْبَ إذا مُسِخَت منهُ الصُّورة المحمدية، وذَهبت منه البركةُ النّبوية امتسخت الصُّورة الظّاهرة [١٢/ب] من الإنسان، وذَهَب عَنْهُ من مولاه الأمان، ودخل في دائرة الخِزْيِ والامتهان، ولذا جاءَت صُورةُ الكافر في جَهَنّم على أَقْبح شكل ومَنْظر(١)، وللنّاظر فيها اتّعاظٌ ومُعْتَبَر، فلا يُمْتَهَنُ ويخْزَىٰ حتّى تُمْسَخَ صُورَتُهُ الظّاهرة كمَا مُسِخَت صُورَةُ قلبهِ البَاطِنَة؛ وأمّا سكان دار النّعيم والإكرام ومحلّ التّبْجِيل لعبادِ اللّهِ والاحتِرام فَكُلُّهم علىٰ صُورة نَبِيّنا مُحَمّد ﷺ.

فأَهْلُ الجَنّة ـ جَعلنا اللّهُ مِنهم ـ كُلّهم علىٰ صُورةِ اسْمِه لإكرامِه عندَ رَبّه، فيها يُنَعّمُون؛ وأهلُ النّار ـ أعاذنا اللّه منها ـ تُمْسَخُ مِنهم تلكَ الصُّورةُ حِفْظاً لها من الإهانَة، فبعدَ زَوالها يُعَذّبُون.

فتذكَّرُوا ـ رَحِمَكُم اللّهُ، وزادَنِي وإيّاكم حُبّاً في حَبيبِ اللّهِ ـ أسرار مَولانا جلّ جلالُه في حَبِيبه. وأَظْهِرُوا حُبّهُ بِكَثْرَةِ الصّلاةِ عَليه يُدْخِلْكُم يَوْمَ القِيامةِ تحتَ ظِلّ عَرْشِه وظَلِيله.

هذا الاسمُ الكريمُ شرَفُه وبركتُه وكرمُه ورحمتُه تابعةٌ لِمُسَمّاه؛ فكَما أنّ مُسَمّاه ببركتِه ورحمتِه وشرفِه أنارَ اللّهُ جميعَ الكائناتِ، فكَذٰلكَ اسْمُه ببركتِهِ وشَرَفِه أَظهرَ اللّهُ في العالَمِ كُلّه البَركات.

وقد أكثَر الغَوّاصُون في بحارِ مَحبّتِهِ، المُشتاقون إلىٰ سَماع لَفْظِهِ ورُؤيته، في إظهارِ ما كَمَنَ وخَفِيَ في هٰذا الاسمِ العَظيمِ من الأسْرارِ، وما اسْتَتَر في طيّ أَحْرُفِهِ ما فيهِ للعَالَمين اعْتِبار.

---

(١) يراجع في هذا الموضوع: كتاب التصوير الفني في القرآن، وكتاب مشاهد القيامة لسيّد قطب.

فَشَمَّرُوا عن سَاقِ جِدِّهم، وبالَغُوا في الغَوْصِ حَتَّىٰ خَرجُوا عن حَدِّهِم، وشَرِبُوا من مَاءِ المَحبّةِ عَلىٰ قَدْرِهم، وأَلَّفُوا التَّواليفَ العَظيمةَ الشان، والرَّفيعةَ المَكانِ[1]، ومَع هٰذا ما ظهرَ لهم بعد الفُتوح إلا نُقطَةٌ من سِرّ أَسرار اسم الحَبيب، وما أُشير لَهُم إلاّ برَمْزَةٍ فَهِمَها منهمُ الفَائِقُ النَّجيب، وما خَفِي من كُنوزِ أسرارِه لا يُحيط به إلاّ واهِبُه الخَبير الرَّقيب.

فمن فضائِل هٰذا الاسم وشَرفِه أن اللّٰهَ سبحانه وتعالى خلق من أنبيائِه مِئةَ أَلْفِ [١٣/أ] نبيّ وأربعةَ وعشرين ألف نبيٍّ، وأرسل منهم إلىٰ خلقه لبيان الطريقة، وتحقيق الحقيقة، ثلاث مئة نبيٍّ وأربعةَ عشر نبيّاً[2]، فكان واسطةَ عقد الرّسل والأنبياء وإمامَهم، والذي اختاره اللّٰهُ منهم، وجمَع فيه أفعالَهم الكريمةَ وأخلاقهم.

يُروىٰ أن اُمَّهُ آمنةَ لما وضعته عليه الصلاة والسّلام رأت خوارق عوائد، واعتناءً من أهل الوجود بما ظهر من النور وتزايد[3] قالت: رأيت سحابةً عظيمة، وسمعتُ صوتاً يقول حين رفَعُوه عني: أَعْطُوا محمداً أَخلاقَ الأَنبياء، واجْمَعُوها له، فخذوا له من آدم خلقه، ومن شيث علمه، ومن إبراهيم حِلْمَه، ومن إسماعيل كلامَه، ومن داود صَوته، ومن أيّوب صَبْرَه، ومن عيسىٰ زُهده، ومن نوح شُكرَه، ومن موسىٰ

(١) صنف الدكتور صلاح الدين المنجد جزءاً كبيراً سماه (مُعجم ما أُلف عن رسول الله ﷺ) جمع فيه قدراً كبيراً من أسماء الكتب والمؤلفات التي لمست جانباً من جوانب حياة رسول الله ﷺ وسيرته وشمائله وخصائصه ومغازيه ومولده؛ إلى غير ذٰلك ممّا يتعلّق به ﷺ.

(٢) ينظر سُبل الهُدى والرّشاد ١: ٥٠٢.

(٣) عقد في سبل الهدى والرشاد باباً (هو الباب العاشر) فيه ذكر ما سُمِعَ من الهواتف لمّا وُلِد رسول الله ﷺ.

قوّته، ومن يوسف حُسْنه، وخُذوا له من جميع أنبياءِ الله ورُسله الكرام صفاتهم الكريمةَ، وأخلاقَهم العظيمة.

فانظروا هٰذا الشّرفَ ـ رحمكم الله ـ هل بعده شرف؟ وتأملوا هذه الخَصِيصة من اللّه تعالىٰ. هل نالها أو ينالُها أحد من المخلوقين بمالٍ وتَرَف؟ بل الواهب العالم بخفيّات الأمور عَلِمَ أنَّ عِزّه وسعوده لا يَنْعَقِدُ على الكمال إلاّ لإنسانِ عينِ الأكوان، وحبيب الكبير المُتَعال.

فلما أنْ جمعَ تعالىٰ فيه ما افترق من صِفات الكمال، وجعله في أشرَف خَلْقِه أكملِ كمالِ الرّجال[1]، وكانت صفاتُهم كلُّها كاملةً مكمّلة مانِعة، واشتركوا كلّهم في الصِّفات الحسنة الجامعة، واخْتَصَّ كلٌّ واحدٍ منهم بزيادَةِ حسنةٍ فيه نيرَةٍ لامعةٍ ساطعة؛ فبلغَتْ تلكَ الصّفاتُ تمامَها، وتزخرفت ونشرت أعلامها، وسَكَنَتْ في تاج الموجودات وإمامها، وجَعل الله تعالىٰ ذلك علامةً للمحبّين، علىٰ اجتماع تلك الصّفة في سيّد المُرسلين؛ محمّد تنبيهاً عند ذِكر اسمِهِ علىٰ فضلِه عند [١٣/ب] الغافلين؛ لأنّك إذا جَمَعتَ عدد حروفه بَعدً (أَبْجَد)[2]، تَجِدُ مجموعَها ثلاث مئة وأربعة عشر علىٰ عدد المُرسلين من أنبيائِه الكرام الطّاهرين المكرّمين الأعلام[3].

---

(١) أي جعله في أنبيائه ورسله الذين هم أشرف خلقه.

(٢) في ب: على عدد أبجد. وفي ج: بعدد أبجد.

(٣) قال في سُبل الهُدى والرّشاد ١: ٥٠٢ إنه يخرج من اسمه ﷺ بالضرب مع الكسر والبسط عدد المرسلين وهم ثلاث مئة وثلاثة عشر وذلك أن فيه الميم الأولى والثانية المشدّدة بحرفين والميم إذا كسرت فهي م ي م، وكل ميم بتكسيرها فهي في الحساب تسعون [يعني حساب الجمّل] إذ الميم بأربعين والياء بعشرة. فالثلاثة مئتان وسبعون، والدال خمسة وثلاثون؛ لأنّ الدال بأربعة والألف بواحد واللام بثلاثين والحاء بثمانية ولا تكسير فيها.

ففيه إشارةٌ إلىٰ أنَّ صفات الكاملين ـ وإنْ تَفرّقَتْ في أصفيائه، ورُسله وأنبيائه ـ فقد جُمِعَتْ في أكمل المخلوقات من أحبّائه.

فصل

ومِن فضائل اسم الحبيب ـ ﷺ ـ أنّ العالَم العُلويَّ طرز الله بهِ محاسنه، وزيّن زواياه وأركانه، بأن كتب فيه اسمه. وسأذكر من ذلك ما تمتلىء بحبه القلوب، ويقرّب مُحِبَّهُ من علاّم الغيوب.

قال كعب الأحبار ـ رضي الله عنه ـ[1]: إنّ اللّه ـ عزّ وجل ـ أنزل الكتاب علىٰ آدم مُحصياً لعدد الأنبياء، فأقبل آدم علىٰ ولده شيث فقال له: يا بُنَيّ أنت خليفتي من بعدي، فخذها بعبادة التقوىٰ؛ وكلّما ذكرت الله ـ عز وجل ـ فاذكُر إلىٰ جنبهِ محمّداً عليه السّلام، فإني رأيتُ اسمه مكتوباً علىٰ ساقِ العرشِ وأنا بينَ الرُّوح والطّين؛ ثم طُفت السّماوات[2] فلم أرَ فيها موضعاً إلاّ رأيت اسم محمّد ـ ﷺ ـ مكتوباً فيه، ولقد رأيت اسم محمّد مكتوباً علىٰ صُدور الحور العين، ولم أرَ في الجنة قصراً، ولا موضعاً، ولا غرفة إلاّ رأيت اسم محمد مكتوباً فيه؛ ولقد رأيتُ وَرق سِدرة المُنتهى، وأطرافَ الحُجب، وأعينَ الملائكة، مكتُوباً عليها اسمُ محمّد؛ فصلِّ عليه، وأكثِرْ مِن ذكره يا شيثُ، فإنّي رأيت الملائكة تذكره في كلِّ ساعة ـ ﷺ ـ وشرّف وكرّم.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال[3]: علىٰ باب الجنة مكتوب: لا إلٰه إلاّ الله، محمد رسولُ الله؛ لا أُعَذِّبُ مَنْ قالَها.

---

(١) الشّفا: ١: ٣٣٨.

(٢) في أ وحدها: السّماء.

(٣) الشّفا ١: ٣٤٠، ومناهل الصّفا: ٩٤.

فانظرْ هٰذا الفَخْرَ العظيم لاسم هٰذا النّبيّ الكريم؛ ولذا أجاد المادحُ في قوله، وذكر بعض إكرامِ اللّٰه إيّاه، ومِنّتَهُ عليه وطَوْلَهُ[1]، فقال:

لَبِسْتَ رداءَ الفَخْرِ في ظهرِ آدمَ ... فما تَنْتهي دَهراً إليك المفَاخِرُ[2]

فَفخرُكَ عالٍ في السَّماءِ مَحَلُّهُ ... وقَدْرُكَ في الأرضِ البسيطةِ زاهِرُ

فالعالم العلوي [١٤/أ] لمّا أنْ طَهّره اللّٰهُ من جميع المُخَالفات، أظهر اسمَ حبيبه في جميع بقاعه، وزيّنه باسمه الكريم، فزان بَدرُه، وأشرقَ في سمائه، وأعلىٰ عَلاه بِحُسن شكله، فتمّ عِقْدُ مخلوقاته ببديعِ نظامه.

والعالم السفلي لمّا أنْ أظهرَ الله فيه ما كمنَ في علمه من الشّقاوة والسّعادة، وكثُر من سُكّان بقاعه وأهله المخالفةُ في العبادة، فما ظهرت صورةُ الاسم الطّاهر إلاّ في البقاعِ الطاهرة، أظهر الله ذٰلكَ لِمَنْ طهر قلبه من السّادة الفاخرة.

ذكر بعض من دخل أَرض الهندِ أنّه وجَد فيها وَرْداً أَحْمَرَ: مكتوبٌ عليه بالأَبيض: لا إلٰه إلاّ الله محمّدٌ رسولُ الله[3].

وعن عبد الله بن صوحان قال: عَصفت بنا ريح، ونحن في لُجَجِ بحر الهند، فأرسينا في جزيرة فرأينا فيها ورداً أبيض مكتوبٌ عليه بالأَصفر براءةٌ من الرّحمن الرحيم إلىٰ جَنّات النّعِيم، لا إلٰه إلاّ الله محمّد رسول الله[4].

---

(١) الطّوْل: الفَضْل.
(٢) من بحر الطويل.
(٣) الشفا: ١/ ٣٤١.
(٤) الخبر في سبل الهدى والرشاد ١: ٥٠٨.

ورأينا ورداً أبيضَ ذكيّ الرّائحة طيّبَ النّسيم وفيه مكتوبٌ بالأصفر لا إلٰه إلاّ الله محمّدٌ رسولُ الله.

وقال بعضُ الصّالحين: رأيت سمكةً فرأيتُ في إحْدَى شحمتي أُذنيها (لا إلٰهَ إلاَّ الله)، وفي الأخرىٰ (محمَّد رسولُ الله)[1].

وذكر الشيخُ العالم العَلَمُ الفقيهُ أبو عبد الله محمد بن مَرْزُوق ـ رحمه الله ـ قال[2]:

حدّثني جماعة من أهل قريةِ العُبّاد مَدْفَنِ وَليّ اللّٰهِ أبي مَدْيَنَ شُعيبٍ[3] نَفع الله به، وفيهم أناسٌ من طلبةِ العلم، أنّهم وجدوا بالموضع المذكور في سنةٍ سبع وثمان مئة بطِّيخةً صَفراء فيها خطوطٌ شتّىٰ بالأبيض، ومن جُملة الخطوط مكتوب بالعربي من جهة: الله، ومن الأخرىٰ مكتوب: أعزّ محمّد أو محمّد، قالوا: بخطٍّ بيّن لا يَشُكّ فيه عالم يخطّ.

قال الشيخ المذكور: وحدثني أيضاً هؤلاء القوم أنهم وجدوا بالموضع المذكور في تلك السنة وفي غيرها، وَرَقَةً من أوراقِ حَبّ المُلوك ـ وهي شجرة معروفة هنالك[4] ـ وقد، قَرُبَ أوانُ اصفرارِها

(١) الخبر في سبل الهدى والرشاد: ١: ٥٠٨.

(٢) الخبر في سبل الهدىٰ والرشاد ١: ٥٠٩

(٣) قرية العبّاد عند مدينة تلمسان، وفيها قبر أبي مَدْين. أحد الزهاد الصالحين وهو شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني الصّوفي. أصله من الأندلس. وتنقل في بلاد المغرب: فاس وغيرها، ونزل بجاية. واشتهر بين الناس، وصار حوله محبون وأنصار. وخافه رجال السلطان فوشوا به إلى يعقوب المنصور الموحّدي، فاستدعاه، ولكنه مات في الطريق سنة ٥٩٤ ـ وكان قد أخبر مريديه أنه لا يَلقى السّلطان (لا أراه ولا يراني) ـ له كتاب مخطوط في شستربيتي بأيرلنده.

(٤) حبّ الملوك هو الكرز؛ وما يزال اسمه كذلك في بلاد المغرب، وأصله أندلسي.

وعليها مكتوب اسم (محمد) يُقرأ كما يُقرأ في الكاغد[1].

قال الشيخ المذكور [١٤/ب] رحمه الله، وحدثني بعضُ الجماعة عن بعض العُلَماء بثغورِ تِلِمْسان: أنه أُتيَ بسمكة مكتوبٍ على أحَدِ جَنبيها بخطّ أبيض (لا إله إلاّ الله)، وفي الجنب الآخر: (محمّد رسول الله)؛ فبادَر إليها العامِل وأكلَها في الحِين، وابتلعها تَبَرُّكاً بالأسماء الكرام، فَرُفِعَ أمرهُ إلىٰ السلطان، فَعزله [في الحين] لعدم مُطالعتِه بهذا الخَبر، وكتب فيه رَسْماً، وكان السّلطان إذ ذاك من أهل العلم.

قال الشيخ رحمه الله تعالىٰ: ثم اجْتَمعتُ بالعامل المذكور واستعظمتُ هذا الخبر، فسألتُه عنه، فقال: السّمكة حقٌ وهي زَرْقاءُ، وعلىٰ جنبها مكتوب (الله)، وعلىٰ الآخر (مُحَمّد).

ولعل هذا العامل قد أظهر الله عليه بركة ما ابْتَدَرَ إليه[2] من حُصول الخير، فعجل الله ذلك بأن خَلّصه من العمالة؛ لأنَّ الإمارة حسرةٌ ونَدامة يوم القيامة.

وذكر القاضي عياض ـ رحمه الله ـ في (شفائه)[3] الذي شَفى به الغليلَ، وأبرأ بطِيبِ طعمهِ القلبَ العليل: أنّه وُلِدَ مولودٌ في بعض البلاد، وعلىٰ جنبه مكتوب: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ٣٧/٣٥] وعلىٰ الآخر ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩/٤٨].

---

(١) الكَاغَدُ: القِرطاس، أو الصّحيفةُ.

(٢) ابْتَدَرَ إليه. أي أسْرَعَ إليه.

(٣) الشّفا ١: ٣٤١؛ نقل القاضي عياض هذا الخبر عَن السِّمِنطاريّ أبي بكر بن عتيق بن عليّ أحد العُبّاد، قال: «ذَكَر السِّمِنطاريّ أنّه شاهَدَ في بعض بلاد خراسان مَوْلوداً وُلِدَ. . .» الخبر.

وكذا ذكَر بعضُهم أنّه رأىٰ ذلك الاسم مكتوباً في حبة عنب، ورأىٰ بعضهم ذلك في فول.

وقد اعتنىٰ بعض المحبّين بجمع ذٰلك، وما رأىٰ فيه من الغَرائب، وما لاح في مخلوقات الله سبحانه من العجائب.

ولا غرابةَ في إكرام اسمِ مَنْ أعلىٰ المولىٰ ذاتَهُ علىٰ جميع الذّوات، وشرّف أوصافَهُ علىٰ جميع الصّفات.

فصل

من آداب مَنْ عَلِمَ منزلةَ نبيّنا ومقامه عند ربّه، وأنه سُمِّيَ محمّداً لحمدِ مولاه له وثنائه عليه، وحمد عبيد حضرته العليّة، ومن اختاره لديه.

فكُنْ أيُّها المحبّ من أكثر المحبيّن له، وليكن جلوسُكَ مع الذّاكرين له، فاحْمَد ذاتَهُ الكريمة، واذكُرْ بدائعَ حُسْنِها وجمالها ومتّعْ فكرك في تَناسُب شكلها وإعْظَامها؛ فإنَّ مَنْ رآهُ بديهةً هابه ومَنْ خالَطهُ معرفةً أحبّه.

يقول ناعِتُه: لم أرَ قبله ولا بعده مثله، إذا تكلّم رُئي النُّور يخرج من ثناياه، أحسنُ الناس عُنقاً، إذا افترَّ ضاحكاً افترّ عن مثل سَنا البرق وعن مثل حَبِّ الغمام[1].

---

(١) قال أبو هريرة رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا ضحك كان يتلألأ في الجُدُر لم أرَ قبله ولا بعده مثله؛ وقال رضي الله عنه: ما رأيت شيئاً قط أحسن من رسول الله ﷺ؛ كأن الشمس تجري في وجهه. وفي رواية: تخرج من وجهه (سبل الهدى والرشاد ٢: ١١).

[١٥/أ] وليُكْثِرِ المُحبُّ من ذِكره وامتداحه، ولْيُحسن الثّناء عليه بما اشتهر من صفاته. والأحاديث في ذلك كثيرة قطعيّة، وأنّه عليه السّلام أكملُ النّاسِ صورةً في قدّه ولونِه وطولِه، وعينيه، وصورةِ وجهه، ونَضارتِه، وحَركتِه، ومشيتِه، وأسنانِه، وتبسُّمِهِ، وأنّ ما من شكلٍ منه إلاّ وقد خلَقه الله تعالىٰ علىٰ أكمل ما يكون وأتمّه[١].

وكان ذلك رحمةً بعباد الله في كونهم لا يُشاهدون منه ما يكرهون، بل يَزِيدُهم فيه حُبّاً وعند رُؤيته يَفْرحُون.

ولولا أنّ مولانا جلّ جلالُه ألقىٰ عليه مع كمال جماله البَهاءَ، لَمَا استطاع أحدٌ من الخلائق أن ينظرَ إليه، إلاّ انْخطَفت أبصارُه من نوره وحُسنِهِ[٢].

وما مَنَّ به المولىٰ عليه، وما اختصَّ به لديه؛ بل ربما ماتَ ناظِرُه لأجلِ جمالِه الّذي يَسْبي العُقول، وقد تواتَر ذلك، وقُطِعَ به في المنقول، فإنّ جمال الكريم يوسفَ نَبيِّ الله بَعْضٌ من جمال حبيب الله، ومع هٰذا مات عند رؤيته لقوّة جماله خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ الله!.

ونبيُّنا ومولانا محمّد ـ ﷺ ـ علىٰ قوّة جماله وحُسنه رحمَ الله أمّته بأن ألقىٰ عليه البَهاء، فثبَّتَ عقولَها، حتىٰ نالت مِن الله بسبب محبته مأمولَها.

---

(١) قالت أمّ معبد ـ رواه البيهقي في الدلائل ـ كان رسول الله ﷺ أجمل الناس وأبهاه من بعيد وأحلاه وأحسنه من قريب. وروى الشيخان عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: لم أر شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ (سبل الهدى ٢: ٩).

(٢) نقل صاحب سبل الهدى والرشاد (٢: ١٣) عن القرطبي قال بعضهم: لم يظهر لنا تمام حُسنه ﷺ لأنه لو ظهر لنا تمامُ حسنه لما طاقت أعيننا رؤيته ﷺ.

وتذكَّرْ ـ رَحِمَكَ الله ـ أخلاقَهُ الكريمة التي كمّلها له ربّه على التّوالي نسقاً؛

فكان عليه السّلام أكملَ العالَمِين خَلْقاً وخُلُقاً؛ فتذكّرْ وفورَ عقله، وذكاءَ لُبِّهِ، وقوّة حواسه، وفصاحةَ لسانِه، واعتدالَ حركاتِه، وحُسْنَ شمائِله، وشرَف نسَبِهِ، وكرَم بلدِه، وحلْمَهُ، واحتمالَهُ وعَفوَه مع قُدرته، وصبرَه على ما يكره، وجُوده وكرمه، وسخاءَه وحياءَه، وشجاعتَه وسماحتَه ونجدته وفضيلته، وصفاءَ مودّته، وبذْلَ نصيحته وحُسن عِشرته [١٥/ب] وآدابه، وشفقته، ورأفته بجميع الخلائق، وحرصه على إيمانهم، ووفاءه وحسنَ عهده، وصلةَ رحمِه، وتواضُعَهُ على قَدْرِ رِفْعَتِه وعلوِّ منصبه، وعَدْلَهُ في سيرته، وأمانته وعفّته، وصدقَ لهجته، ووقاره وصَمْتَهُ وتُؤَدَتَه، ومروءته، وحُسن هديه وزُهده في الدُّنيا وتقلُّله منها، وخوفَهُ من ربه، وطاعتَهُ له، وشدَّة عبادته وعِلْمِه برَبّه، وشُكره وإنابته إلىٰ رَبّه، وحُسن قيامه بحقّه، وجميل رجائه، وصدق يقينه، وتوكّله علىٰ ربّه، ومحبّتهُ فيه، وشدّة إيمانه بِغَيْبِه، وكثرة صَلاتِه وصيامِهِ، وشُكره وإعطاءه من مال ربّه.

فَما مِن حُسن الأخلاقِ صفةٌ إلاّ وقد حازَها، وتَمَّمها، وكانَ فيها أَنْهَىٰ الخَلْقِ وأحسَنَها، وما من درجة من درَجات اليقين إلاّ كان أساسَها حبيبُ ربِّ العالمين، وإمامَها إمامُ المتّقين، وفيه يجب أن يُقال، وقد قيل:

يا سيّداً عَظُمَتْ في المجد رتْبَتُهُ	وأعجزَ الخلقَ إحسَاناً وإفْضَالا
ما بعد فقدك موجودٌ يُسَرُّ بهِ	كنتَ الحياةَ وكنتَ الأَهلَ والمالا

فصل

ومن آداب من عَلِمَ قدره وتسميته بهذا الاسم الكريم. واتصافَه بالخُلق العظيم، أنْ يتخلّق بأخلاقِه الكريمةِ[1]، ويتشبّه بصفاتِه العظيمة.

قالت عائشةُ رضي الله عنها[2]: كان ـ عليه السّلام ـ خلُقه القُرآن يَرْضىٰ لرضاه، ويَسْخَطُ لِسخطه.

قال بعضُ أولياء الله تعالىٰ: جَمَعَتْ ومنَعت في التّعبير عن أخلاق نبيّنا وحبيبنا هٰذه السّيدة الطّاهرة أُمُّ المؤمنين لأنَّ القُرآن كلامُ الله، جَعل الله فيه للخلائقِ المنافعَ الدُّنْيَويّة والأُخرويّة، وجعله نوراً يستضيء به العالِمُ، ويَهتدي به الجاهِلُ وظهوراً بِهِ الكامِنُ الخامِل، وبركةً شاملةً، ورحمةً عامّةً وشفاءً لما في الصُّدور، ونَجاةً من عذابِ القُبور وهَوْلِ يوم النُّشور: وفارقاً بين الحقّ والباطل، ودامغاً للغبيّ الجاهل، وواعظاً ناطقاً، ولساناً صادقاً، وآمِراً [١٦/أ] بالمعروف، ناهياً عن المنكر، ومُبَشّراً ونذيراً، ومُذَكّراً وتَذكيراً؛ إلىٰ غير ذلك من صفاته الكريمة وخُطوبه الجَسيمة.

فأخبرتْ عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ أنَّ خُلُق نبيّنا وشفيعِنا القُرآنُ العظيم، فأبلغتْ وبالغَتْ، ووصَفت هذا الحبيبَ بأنّه نورٌ يُستضاء به، وبَركةٌ شاملة، ورَحْمَةٌ عامّة، وشِفاءٌ لِمَا في الصُّدور، ونجاةٌ من عظائم الأُمور إلىٰ غير ذلك من صفاتِه الكاملة، وأَوصافِه السَّنيّة الفاضِلَة، ممّا لا يحيط بها إلاّ واهِبُها ومَانِحُها.

أيُّها المحبُّ لا تَنالُ وِدَّ الصّالحين، ومَدْحَ الأَولياء العارفين،

---

(١) في (أ) وحدها «أن يتخلّق بالأخلاق الكريمة».

(٢) صحيح مسلم ١: ٥١٣.

وصُحبةَ الوليِّ، ونداءَ جِبريلَ إلا بمحبّتك في السّماء[1]، ولا يوضع لك في الأَرضين القَبُول، إلاّ باتّباعٍ ومدحٍ وثَناءٍ وكثرةِ صلاةٍ علىٰ النَّبِيِّ الرّسول.

وكثرةُ مدحه، وذِكْرُ اسْمِه يُورث لك الكَتْبَ في ديوان المحبُوبين، ويُظهر لك أسراراً، وخَرْقَ عَوائدَ مِن رَبِّ العالمين.

ويُحكىٰ عن الشّيخ وليّ الله، الفقيه الصالح أبي عبد الله محمد بن فاتح ـ نفع الله به ـ من سُكّان تَنَس[2]، وكان ممن فُتِحَ عليه بكثرة ذكره، والصّلاة علىٰ نبي الله وحبيبه، فكان قد انخرقت له العادات، فلا يُريد أن يرفعَ شيئاً من الأحجار والجمادات إلاّ وجد فيه مكتوباً اسم سيّد الأرض والسّمٰوات، فيجد الأَحجار والحيطان مرقومةً باسم من امتلأ قلبُه بمحبّته، ومرسومةً بذكر من اطمأنّ قلبه بذكره.

ويُروىٰ أنّ العبدَ إذا تخلق بأخلاق المصطفىٰ في أقواله وأفعاله، علىٰ قدر جهده وطاقته، ووفىٰ من نفسه لربّه، وترك الدُّنيا خلف ظهره، وعمل فيما علم بِعلمه، وأنْصَف الخلائقَ من نفسه، فأطعمَ جائعهم، وكسا عارِيَهُمْ، وعَلّم جاهلهم، وبذَلُ نُصحه لهم، وتَحمّلَ أذاهم، وتواضَع معهم، وعَدل فيما بينهم، وأوفىٰ وَعْدَهُم، وأنْذَرهم وبَشّرهم، وأدخَل عليهم السُّرور، وأذهبَ عنهمُ الشّرور، وحذّرهم عواقبَ الأُمور، وأحسَن إليهم، وعفا عنهم، وتَرك أذايتهم، [١٦/ب] وسالمهم في أموالِهم وأعْراضِهم ودمائهم، وأعطاهم مالَهم. ورأىٰ لنفسِه ما يرىٰ لهم؛

---

(١) وذلكَ أنّ الله تعالىٰ إذا أحبَّ عَبْداً قال لجبريل: إنّي أُحِبُّ فلاناً فأَحِبَّهُ، فيقول جبريل لأهل السماء: إنَّ ربّكُم يحبُّ فلاناً فأَحِبّوه، فيحبّه أهل السماء، ويُوضَعُ له القبول في الأرض؛ انظر مسند الإمام أحمد ٢: ٢٦٧.

(٢) مدينة في آخر إفريقية (تونس).

ويبلّغ حاجتَهُمْ، ويقضي مآربهم، ويمحُو نفسَه، ويترك الانتصار لها، ويهضمُها، ويحتقر عملها ويغلب في صحّتِه خوفَها، ويُؤْثِرُ عليها؛ فإذا سلك المتخلّق الطريقَ النبويّة؛ واتّصف بصفاتِ خير البريّة جاءت الفُتوحاتُ الربّانيّة.

قال عليه الصّلاة والسّلام[1]: «منَ عَمِلَ بما علمَ أورَثهُ اللّهُ علمَ ما لَمْ يعلَمْ». فهذه الوراثةُ إنّما تُنال من الله تعالىٰ بالأعمال واتّباع المصطفىٰ - ﷺ - في الأَقوال والأفعال.

قال بعضُ الصّالحين: ما أظهرَ الله عزَّ وجلَّ في الأرضِ وليّاً بنوعٍ من الكرامةِ إلاّ بالاستقامة، فيكشفُ الله تَعالىٰ أَمرَهُ عند حَملةِ العَرْشِ والمُقَرّبين من الملائكة، ويكتبُ اسمه عند العرش، وينادي من سماء إلى سماء ألا إنّ الله عزَّ وجلّ، أحَبّ فلاناً ورضيَهُ لولايته، واتّباعه لسنّةِ حبيبِهِ فأحِبُّوه ووَالُوه، ثم يوضع له القَبُول في الأرض[2].

فانظرْ ببصيرتكَ لهذا المَقام النّبَوِيّ - ضاعفَ اللّهُ حُبّي وحُبّك في جنابه، وصَيَّرني وإيّاك من الواقفين ببابه[3] - كيف جعل الله تعالىٰ حصولَ محّبته لأوليائه موقوفة علىٰ محبّته واتباعِ سنته، وينتهي الأمر بالمحبّ له محبّةً صادقة أن يُكْتَبَ اسُمه في ديوان المحبّة مع أحبابه.

ولذا قال عليه الصلاة والسلام[4]: «المرءُ معَ مَنْ أحَبّ». فكما أن

---

(١) قال الزبيدي في إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين (١: ٤٠٣) رواه أبو نعيم في الحلية، وضعّفه. والحديث في تفسير القرطبي ١٣: ٣٦٤.

(٢) انظر الحديث المشار إليه في الحاشية (٦٣) من هذا الباب.

(٣) في ب و ج: حبّي وحبكم.. وصيّرني وإياكم.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري ٨: ٤٨ ومسلم في البر والصلة: ١٦٥ وأحمد في المسند ١: ٣٩٢ ويروى فيه: المرء مع من أحب وله ما اكتسب.

ذاتَ المُحِبّ مع ذات المَحْبُوب، فاسْمُه يُكتب مع اسم المَحْبُوب ـ ﷺ؛ فإذا قَلَّتِ الأعمال، وانقرضَ السّالكون، وذهب المُتَّقُوْنَ، وقَلّ بالأعمال المُحبّون، فلا تغفلْ عن كثرة ذِكر المحبوب، وحبيبِ علاّم الغُيوب؛ فإنّ ذكرك له نافِع[1]، ويجده المُذنبُ الذاكر له شافعاً.

ذِكْــرُ الـحـبـيـبِ لا يُـمَـلُّ أبَــدا عـلـىٰ الـتّـمـادي أبَـداً مـؤبّـداً[2]

هــو الـحـيـاةُ لـلـقُـلـوبِ وبـهِ نـحْـظـىٰ ونـرقـىٰ لِـمـقـام الـسُّـعَـدا

وإنما يتحقّقُ المحبّ ذكرَه لمحبوبه، ووصولَه إلىٰ مرغوبه، إذا فارق رُوحُه العالمَ [١٧/أ] السُّفليّ، والتَحق بالعالَم العُلويّ، فيشاهد منزلتَه، ويعرف عند الله مكانتَه. وما دام حيّاً يخافُ علىٰ نفسِه أن لا يكونَ عند ربّه مقبُولاً، ولا يعتقد أنّه فاضلٌ بل يرىٰ شخصَه مَفْضُولاً.

كان الشيخ ولي الله أبو النّجاة سالم التباسيّ ـ نفع الله به ـ من أصحاب الشيخ وليّ الله أبي الحسَن الشّاذلي[3] ـ أعاد الله علينا من بركته ـ ومعلومٌ حالُهما، وذكرُهما للمحبوب، ووقوفهما عند حُدود علاّم الغُيوب، ومع هذا تعاهَدا فيما بينهما أنَّ المقبولَ منهما عند مولاهما يشفع في صاحبه.

---

(١) في الأُصول: (فإن ذكرك له نافعاً) كذا بالنّصب طلباً للسّجع، كما يبدو.

(٢) من بحر الرّجز.

(٣) أبو الحسن الشّاذلي (٥٩١ ـ ٦٥٦) علي بن عبد الله الشاذلي المغربي، رأس الطائفة الشاذلية من الصّوفيّة ولد في غمارة بريف المغرب وسكن شاذلة قرب تونس. وسكن في الإسكندرية. وتوفي بصحراء عيذاب في طريقه إلى الحج. وله عدد من المؤلفات منها حزب الشاذلي.

ـ ويُلاحظ القارىء ما في الخبر؛ كما ورَد؛ من مبالغات الصُّوفية.

فلمّا توفيَّ الشيخ ولي الله تعالىٰ أبو النّجاة سالم، أتىٰ إليه الشّيخ وليُّ الله أبو الحَسَن الشّاذِلي، وأرادَ غَسْلَهُ، فلمّا دخل عليه وهو ميّت قال له: يا أخي، العهد، الذي كان بيني وبينك، لا تنسه؛ فأنطق الله تعالىٰ وليّه الميت بِقُدرته، فتكلّم بلسانه فقال له: نعم نعم!.

قال الشّيخ الشّاذلي ـ رحمه الله ـ: والله ما أردت أن أغسل منه عُضواً إلاّ ناولني إيّاه بنفسه.

فتأمل إكرام الله تعالىٰ للمتخلّقين بكرامته كيف أورثهم باتّباعه لسنته، وهديهم بطريقته دارَ كرامته، زادَنا اللّهُ تصديقاً بكراماتِ أوليائه، وجَعلنا بِحُرمةِ نبيّه في حزب أَصفيائه.

وقد أشار هنا بعضُ أرباب القُلوب بكلام دقيقٍ قريبِ العهد من علاّم الغُيوب، حَذَفتُه لدقّته عن الأفهام، ولوقُوع مثلي وأنظاري، في كثير من الظنون والأوهام.

فَصْلٌ

ومن آداب المحبّ لنبيّه أن يُكثر التّسمية باسْمِه، وأن يقصد بذلك البَركة في توسيع رزِقه، ويطلبَ من الله بها غُفران ذنبه.

رُوي عنه عليه السّلام[1]: «ما مِن بيتٍ فيه اسمُ محمّد إلاّ رُزِقُوا، ورُزِقَ جيرانُهم». وكذا ما كانت المَشُورة بين قوم وكان فيهم من تسمّى بمحمد أو أَحمد ولم يُدخلوهم في مَشُورتهم فلا خيرَ في مَشُورتهم، وإن أَدخلوهم فيها كان فيها الخيرُ والبَركة.

---

(١) روىٰ القاضي عياض في الشّفا (١: ٣٤٢) عن الإمام مالك قوله: «سمعتُ أهلَ مكّةَ يقولون: «ما مِن بيت فيه اسمُ محمّد إلاّ نَما، ورُزِقوا، ورُزِقَ جيرانُهم».

معنًى هذا روي في بعض الآثار ومشهور [١٧/ب] الأخبار، وهو إنْ لم يصحّ ورودُه ونقلُه، فالعِنايَةُ الربّانية بمقامِ نبينا ومكانتِه والحضّ من الله تعالىٰ علىٰ احترامه تؤكِّدُه وتؤيِّدُه[١].

وقد ورَد في بعض الآثار: إذا كان يومُ القيامة، نادىٰ منادٍ من قبل المولىٰ جلّ جلاله: ألا كُلّ مَن كان اسمُه باسمِ محمّد فليدخل الجَنّة إكراماً لنبيّ الله وحبيبه[٢] - ﷺ -.

ورُوِيَ في مَعْناه: يُؤتىٰ يوم القيامة برجلين أحدهما اسمه أَحمد، والآخر اسمه مُحَمّد، لم يَعْمَلا خيراً قطّ، فيقول الربّ سيروا بعبدي إلىٰ الجَنّة، فيقولان: يا رَبّنا بأيّ شيء استَوْجَبْنا الجنة، ولا عمل لنا؟.

فيقول الربُّ جل جلاله: لأنّي آليتُ علىٰ نفسي أن لا أُعَذِّب بالنّار من سُمِيّ باسمِ حبيبي محمّد إكراماً له عليه السّلام[٣].

وروي أيضاً: ويُؤتىٰ يوم القِيامة برجلٍ اسمُه محمّد فيوقَفُ بين يَدي الله تعالىٰ، فيقول له: أَيْ عَبْدِي أما تستحي مِنّي في عِصيانك، أما

---

(١) قال صاحب سُبُل الهدىٰ والرَّشاد (١: ٥٠٩): «لم يصحّ في فضائل التسميةِ به [أي باسم (محمّد) ﷺ] حديثٌ، بل قال الحافظ أبو العبّاس تقيّ الدين بن تيمية الحرّانيّ رحمه الله تعالىٰ: كلُّ ما وَرَدَ فيه فهو مَوْضوعٌ، ولابن بُكَيْرٍ جُزْءٌ معروفٌ في ذٰلكَ كلُّ أحاديثِهِ تالِفَةٌ.

(٢) ورد في سُبل الهدى أن أصح ما ورد في فضائل التسمية باسم النبي ﷺ ما رواه ابن بكير عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً: من ولد له مولود فسمّاه محمداً حباً بي وتبرّكاً باسمي كان هو ومولوده في الجنة. قال ابن تيمية: إسناده لا بأس به، قال الشامي صاحب السبل: «وحسّنه في موضع آخر».

(٣) أورده الشامي في سبل الهدىٰ وقال: حديث باطل كما قال الذهبي. رواه ابن بكير من طريق أحمد بن عبد الله الدارع وهو كذاب وشيخه صدقة بن موسىٰ وأبوه لا يُعرفان.

استحيت من اسم حبيبي محمد، تسمّيت به، وأنتَ تعصيني، وتُبارزني بالمخالفة؟.

قال: فيقعُ الحياءُ على العبد الآبق من مولاه لاتباعه هواه، ويفيضُ عرقُه، وينكسِرُ قلْبُه، ويَشْتَدُّ خوفُه وقَلقُه؛ فيقول المولى جلّ جلاله، برحمتِه وإكرامِه لنبيّهِ: يا جبريل خُذ بيد عبدي، وادخُلْ به إلى الجَنّة، فقد آليتُ على نفسي أن لا أعذِّب من تَسمّى باسم حبيبي - ﷺ -.

والآثار في هذا المعنى كثيرة، والإشارة إليها كافية؛ فأكثِرُوا يا أمّة محمّدٍ من أسماءِ حبيبِ الرّحمن[1]؛ لأنّها بركةٌ لكم في الدنيا، ونجاةٌ لكم في الآخرة من النيران.

وتأدّبوا مع المسَمّىٰ باسمه، ووقّروه، واعْلَمُوا أنّ له حرمةً عند الله ومنزلةً فَلا تَنْتَهِروه، وإنْ وقع في أمر من المخالفة لسنة من تَسمّى باسمِه فارْحَمُوه، وإن كانَ صغيراً فرحبوا به، وابتهلوا بزيادة إكرامه على غيره، واقْبَلُوه؛ هٰذا شأنُ المحبّين في مَحْبُوبِهم والشّاغفين في مَشْغُوفهم، يعظّمون أسماءَهم، ويستنشقونَ نسيمَهم ويقبّلون بقاعَهم، ويقولون شوقاً لهم[2]:

أَمُـرُّ عـلـىٰ الـدِّيـارِ ديـارِ لَـيْـلَـى أُقَـبِّـلُ ذا الـجِـدَارَ وذا الـجِـدَارا[3]

ومـا حُـبُّ الـدِّيـارِ شَـغَـفْـنَ قـلـبـي ولـكـن حُـبُّ مَـنْ سَـكَـنَ الـدِّيـارا

[١٨/أ] فتعظيمك لمن سُمّي باسمِه الكريم، أو مَن انتَسَب إلى نسبه العظيم، إنّما هو في المعنى تعظيمُ المصطفى، وإكرامٌ لمن وصفه مولانا بكمال الصفح، وحُسن الوفاء.

---

(١) في الأحاديث الصحيحة (١٤٠) خير الأسماء عبد الله وعبد الرحمن وأصدقها حارث وهمّام. وفي كشف الخفا ١: ٩٥: خيرُ الأسماء ما حُمّد وما عبّد.

(٢) الشعر لمجنون ليلى (ديوانه: ١٧٠).

(٣) من بحر الوافر.

فصل

ومن آداب مَنْ تعلّق باسم المحبُوب أن يزيِّن به مجالسَه ويطرّز بالأذكارِ أسماءه ومحاسنه، فإنّها رحمةٌ من الله يَعُدّها حالاً ومآلاً، ونعمةٌ أنعم بها المولىٰ علىٰ مَنْ تخلّق بها حُلولاً وإجلالاً.

فمن مَنَّ عليه ربُّه ومولاه بفصاحةِ لسانِه، وأَعطاهُ من حُسن البلاغة في كلامِه، جعَل طاعَته وعبادتَه أمداحَه، وأَبلغ جدّه وجهده ومحاسنه وزيّن مدحه، فذكَر فيها أسماءه. فنعم الغنيمة لمن أراد السّلامة، ونعم النَّجاةُ لمن طلبَ سُكنىٰ دار الكرامة.

والمحروم مَنْ مَنَّ مولاه عليه باللّسان، وحُسن التعبير عمّا يختلجُ له في الجنان، فيضعُ لسانَه في أمداح ما لا يَعْنِيه، ويُفرِغ همتّه فِيما يعود عليه بالوبال في تلك الدّار ويعنّيه[1].

فإنّه لا نافعَ له عند الله يومَ القيامةِ إلاّ مدحُه، وخدمتُه وخدمةُ أنبيائِه وأحبابه أهل الوُدّ والكرامة.

ومَنْ لا قُدرة له علىٰ ابتكار الكلام، وتشكيل خَرزات النُّظام، في مدحِ المُسَمّى ببدرِ التّمام، فلينظر في أمداح الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ منظومهم ومنثورهم، كعليّ بن أبي طالب، وحَسّان بن ثابت، وكَعب بن زهير وغيرهم، ويتصفّح أمداحَ مَنْ يَجدُهم[2].

---

(١) أي يُتْعِبُه، ويجعله يتحمل المشقة؛ من عنّاه تعنيةً.

(٢) وأشعارهم هذه في دواوينهم ـ فيمن بقي له ديوان ـ مثل كعب بن زهير أو في كتب الأدب والتراجم، وفي كتب السير والمغازي؛ أو في المجموعات الشعرية مثل منح المدح لابن سيد الناس اليعمري (انظره في طبعة دار الفكر). وسيرد ذكر الشقراطيسية، وهي قصيدة في المدح النبوي.

ويتأكدُ عليه إن كان من المُحبّين حفظ البُرْدَة والشقراطيسيّة وغير ذلك مما لا يحصىٰ كثرةً وظهرت بركته، وبقي في الوجودِ رحمته[1].

أمداحُ خيرِ الخَلْق أضحَتْ نعمةً مشكورةً بينَ الأنامِ ورحمةً[2]
إنَّ الذي قد نالَ منها لمحةً حازَ الأديبَ من المعالي رفعةً
تُنبيكَ عن شرفِ القَريضِ الأطْرَفا
فاسمعْ دلائل فضلِه بتلذُّذِ والجأْ لجانبه العَلِي وتَعَوَّذِ
ما إنْ سرىٰ ذاك العَلا من مُنقِذ جبريل أيَّدَ مادح الهادي الذي[3]
أسرىٰ به الأعلىٰ العظيمُ تَشرُّفا

[١٨/ب] فهذا التّخميسُ ـ والأبيات ـ أخذتُهُ من تخميس لبعض أولياء الله تعالى، العارفين بالله تعالى، وبأخبار رسول الله ـ أعادَ الله علينا من بركاتهم، وسَقانا من كأس محبّتهم ـ وهو من أحسنِ التّخاميس وأجلّها، ورأيتُ مكتوباً من خَطِّ الشيخ وليِّ الله محمّد المزدوري[4] ـ رَحِمَهُ الله ونفعَ به ـ ما نصُّه، ويُطلَب مِن المُحِبِّ حفظُه:

ألا إنَّني بالحمد والشكْرِ أَبْدَأُ ومن قُوّتي ـ والحمدُ لله ـ أَبْرَأُ[5]
أُداوي بذكر المُصطفىٰ سُقْمَ مُهجتي ولا داءَ من داءِ النَّوىٰ عنه أدرأُ
أُفيضُ علىٰ حَرّ الحَشا بَرْدَ ذِكرِه عَسىٰ نار أحزاني عن القَلبِ تُطْفَأُ

---

(١) في ب وحدها: بركته. وكلمة (كثرةً) لم ترد في ج.

(٢) من بحر الكامل.

(٣) إشارة إلى الحديث الشريف: (اهجُهم وجبريل معك) قاله رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت رضي الله عنه (صحيح البخاري ٤: ١٣٦ ومسلم في فضائل الصحابة ١٥٣ ومسند أحمد ٤: ٢.

(٤) محمد المزدوري: ذكره المؤلّف أكثر من مرّة.

(٥) من بحر الطّويل.

ثم ذكر ـ رحمه الله ـ كلاماً علىٰ قَدْرِ مَقامه، ودقائقَ من المَواهب تدلُّ علىٰ علُوّ مكانه فقال في آخرها:

فاذكُر حبيبَ الله بنعمهِ الّتي ذَكرهُ الله بها في القِدَم، يَسْتُرْك من بلائه المُوْدَع في خَلْقِه ومن جميع النِّقَم؛ فيا لها من نِعَم مَنَّ بها العليّ الأعلى على الأحرار من عبيدهِ الخَدَم أُولي الهِمَم؛ ثم أنشد قصيدةً طويلةً في مدح المصطفىٰ ـ ﷺ ـ ولولا الخروج عن المقصد من هذا التّقييد لذكرت جملةً من أولياء المحبّين في حبيبِ رَبِّ العالمين.

ورأيت منقولاً بخط الثقات، عن خَطّ الشّيخ الصالح الوليّ العالم أبي الحسن محمّد الأنصاري البَطرنيّ[1] ـ قدّس الله روحَه، ونفَع به ـ تخميساً للقصيدة المُذهبة البديعة البليغة، الوجيزة في مدحه ـ عليه الصلاة والسلام ـ المنيعة المنسوبة إلىٰ الشيخ الصالح وليّ الله أبي محمد عبد الله البسكريّ[2] ـ رحمه الله تعالى ونفع به ـ التي يقُول في آخرها:

الحَمْدُ للّهِ الكريمِ وهٰذِهِ نَجَزَتْ وَظَنّي أنّهُ يَرْضَاها

فسمع قائلاً يقُول في قَبْرِ المُصْطَفىٰ ـ ﷺ ـ رَضِيْناها، رضيناها.

ويُحكى أنّه لمّا أراد السّفر من المدينة المشرّفة، رأىٰ النّبيَّ ﷺ في مَنامِه لإقامته فقال له: تُوحِشُنا يا أبا عبد الله؛ فكانت هذه الرّؤيا سَبباً

(١) ذكره المؤلف في فهرسته وأثنى عليه، وعدّه في شيوخ شيخه البرزلي، وهو أبو الحسَن محمد بن أحمد البطرني. ونسبتهم هذه إلى بطرنة من إقليم بلنسية بالأندلس ولد سنة ٧٠٢ وتوفي سنة ٧٩٣، وكان حافظاً محدّثاً راوية مقرئاً. وفي ترجمته أنه عُرِف بالصلاح والزهد واستجابة الدعاء وكان أبوه من الأئمة العلماء أيضاً.

(٢) أبو محمد عبد الله بن عمر البسكري من علماء المالكية، أديب شاعر، من أهل بسكرة (بالجزائر اليوم) رحل إلى المشرق وحج واستقر بالمدينة المنوّرة. كان حيّاً سنة ٧٦٥.

لإقامته ودفنِه قريباً من تُربته، ومَدْحِه وإنشاد قصيدته.

ونذكُر ـ إن شاء الله ـ مِن هذا التخميس المبارك ما يليق ذكرُه بكل اسم منها ـ إن شاء الله، فقال المخَمِّسُ وأجاد ـ لا حَرمنا الله وإيَّاهُ الثوابَ يوم المعَاد ـ:

فشهدتُ أنّ الله خصَّ محمّدا [١٩/أ] فغدا بأملاكِ السّماءِ مُؤيَّدا
وعلىٰ لسانِ الأنبياءِ مُمَجَّدا ورأيتُ فضلَ العالمين مُحَدَّدا
وفضائل المختارِ لا تَتناهىٰ

أمداحُه تبقىٰ علىٰ مَرِّ الزَّمَنْ كم آيةٍ فيها لهُ مَدْحٌ حَسنْ
أعيتْ مدائِحهُ الحسانُ ذوي اللُّسَنْ كيفَ السَّبيلُ إلىٰ تَقصّي مَدْحِ مَنْ
قال الإلٓه لهُ؛ وحَسْبُك جاها

ما ضلَّ صاحِبُكم فخصّ وكرِّما ويقولُ ما كذَبَ الفؤادُ لقد سَما
وكفاه ما قد قالَهُ رَبُّ السَّما إنّ الذينَ يُبايعونك إنَّما
فيما يقول يُبايعونَ الله(١)

شَهِدَتْ جميع الأنبياءِ بفضلِهِ ولأجل خَتْمِهم أَتَوْا مِنْ قَبْلِهِ
وله لواءُ الحمد خُصَّ بحملِهِ هذا الفخار فهل سمعتَ بمثله
وَاهاً لِنَشْأتِه الكريمةِ وَاها

فَجَرت ـ والحمدُ لله ـ بثنائه علىٰ الألسُن والأنهار، ونفحت من المحبين فوائح الأزهار، وانغرست في سويداء قلوب المحبِّيْن الذين لاحتْ به مِنَ الإيمان أَنوارٌ وأشجار، أصلها ثابت وفرعها في السماء لِتَعَلّقِها بذروَةِ سُنّةِ النبيّ المختار، وطلعت في سماء رفعتهم من أنوار

(١) في هذا التخميس أكثر من اقتباس قرآني أو تضمين.

محبته في كل حين وزمان شموسٌ وأقمار.

فهم يشاهدون مكان الحبيب في حضرة محبته، فبِالجِنان يتنعمون، لاَهِجِين بذكره[1] إخواناً علىٰ سُرُرٍ مُتَقابلين، لا يَمَسُّهم فيها نَصَبٌ وهُم فيها مُخَلَّدون[2].

فقايِسْ أيّها المُحِبُّ محبّتَك مع محبة مَن مضىٰ من أصحابه الكرام تستقلّها، وتابِعْ أوصافَهم المرضيّة في حياته وبعد مماته، تعلَمْ أنَّكَ لم تُعْطِ محبَّتَه قدرَها، مع كونهم رضي الله عنهم باعوا نفوسهم وتركوا ديارهم وأموالهم، وآثروا ذلك في محبته، وبَذلُوا وُسْعَهُم وأنفذوا عزمَهم في اتّباع طريقته؛ ومع هذا فهم لأفعالهم مُحْتَقِرون وبتقصير أعمالهم مُعترِفون، وبعد مَماتِه ضاقت عليهم [١٩/ ب] الأرضُ بما رَحُبَت لفراقِهِ، فَهُمْ علىٰ ظهرها بالصُّورة، وفي بطنها بالمعنىٰ يتردّدُون.

كان الصَّدُوقُ الصِّدِّيقُ المُؤانس للرّسول ﷺ في كل صعبٍ وضِيق، ضجيعُه وحبيبُه أبو بكرٍ الصِّدِّيق - رضي الله عنه - يرثي حبيبَه بعدَ مماتِهِ ويقول[3]:

لـمّـا رأيتُ حـبـيَـبـنـا مُـتَـجَـدِّلاً ضـاقَـتْ عـلـيَّ بِـعَـرْضِـهِـنَّ الـدُّورُ[4]
فـارتَـعـتُ روعـةَ مُـسـتـهـامٍ والـهٍ فـالـعـظـمُ مـنّـي مـا بـقـيـتُ كَـسِـيرُ
أَعَـتـيـقُ وَيْـحَـكَ إنَّ حِبّـَك قـد ثـوىٰ وبـقـيـتَ مُـنْـفَـرِداً وأَنْـتَ حَـسِـيرُ[5]
يـا لـيْـتَـني مِنْ قبلِ مَهْـلكِ صاحبي غُـيِّـبْـتُ في جَـدَثٍ عَـلـيّ صـخـورُ

(١) لهج بالأمر: أُولع به.
(٢) النصب: التعب وفي العبارة اقتباس قُرآنيّ.
(٣) الشعر في طبقات ابن سعد ٢: ٣٢٠.
(٤) من بحر الكامل.
(٥) عتيقُ: منادى مفرد علم؛ وهو اسم أبي بكر الصديق رضي الله عنه يخاطب نفسه.

واتَّفَقَتِ العُلَماء علىٰ أنّه ما يُتقرّب إلىٰ الله سبحانه بثناءِ أحدٍ مِنَ المخلوقاتِ، بأفضل من الثناء علىٰ مَنْ أنارَ الله به الأرضين والسّمٰوات.

ويُروىٰ أنّه مكتوبٌ علىٰ سَاق العَرْش: مَن اشتاق إلىٰ رحمتي رَحِمْتُه، ومن لم يسألني لم أوْيِسه، ومَنْ تقرّب إليّ بِقَدْرِ محمد ﷺ غفرتُ له ذنوبه ولو كانت مثل زَبد البحر.

روىٰ محمّد الباهلي ـ رحمه الله ـ قال[1]: دخلتُ المدينةَ حتىٰ انتهيتُ إلىٰ قبر النّبِيّ ـ ﷺ ـ فإذا بأعرابي وضع بعيرَه فأناخه ثمّ دخل إلىٰ القبر فسلّم سلاماً حسناً ثم قال:

«بأبي أَنت وأُميّ يا رسول الله ﷺ خَصّك بوحيه، وأنزل عليك كتابه، وجمعَ لك فيه علم الأوّلين والآخرين، وقال في كتابه العزيز: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/٦٤] ، وقد أتيتُك مُقرّاً بالذنوب، مُستشفعاً بك إلىٰ ربك». ثم أنشأ يقول[2]:

يا خيرَ مَنْ دُفِنَتْ في التُّربِ أعْظُمهُ ... فَطابَ مِن طيبِهنَّ القَاعُ والأَكَمُ[3]

أنتَ النبيُّ الذي تُرْجىٰ شَفاعَتُه ... عندَ الصّراطِ إذا ما زَلّتِ القَدمُ

نَفْسِي فداءٌ لقبرٍ أنتَ ساكِنُهُ ... فيه العَفافُ وفيه الجودُ والكرمُ

ثمّ انصرفَ. قال الرّاوي: فَما شككت أنّه راحَ مغفوراً له.

وفيما ذكرناه في هذا الاسم كفاية، نرجُو بها من الله سبحانه

(١) الخبر في البحر المحيط ٣: ٢٨٣.

(٢) الأبيات في الحماسة المغربية: ٧٨٩ دون نسبة. والبيتان ١، ٣ في البحر المحيط ٣: ٢٨٣.

(٣) الأكم جمع أكمة، وهي المكان المرتفع عمّا حوله. والقاع: المُستوي من الأرض.

الإنانة، ولو ذكرنا ما يناسبه، ويتعلق به لذهبت الأعمار، وانقضت الأعصار. والله الموفق لا ربّ غيره، ولا معبود سواه.

[٢٠/أ] فأَسألُ الله المغفرةَ لمؤلِّفه وكاتِبه، وقارئه وسامعه، وشَمْلَ الجميعِ بلُطْفه ورحمته، وجعلَنا في شفاعة سيد المرسلين بِحُرْمَةِ الشّيخين الفاضِلَيْنِ أبي بكر وعُمَر.

بَــابٌ

في ذِكر اِسْمِهِ

أحمد(١)

ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ وشرّفَ وكرم

أحمد اسم من أسمائه عليه أفضل الصّلاة والسّلام، وردت به الآياتُ القرآنية، والأحاديثُ النبوية، وإجماع الأمة المحمّدية.

أما الآيات، فقد قال الله العظيم في كتابه العزيز ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦١/٦] وأجمعتِ الأُمّةُ المحمديّة علىٰ أنّ المرادَ بهٰذه البُشرىٰ هو سيّدُ الخلق، وحبيبُ الحَقّ، رسول الله ﷺ.

أما الأحاديثُ، فقد قدّمنا قبلُ في اسم محمد ـ ﷺ ـ قال: «لي خمسةُ أسماء...» فذكر منها محمّداً ثم أحمد(٢).

ورُوِي عن كعب الأحبار ـ رضي الله عنه ـ أنّ الحواريّينَ قالوا لعيسىٰ عليه السّلام: يا رُوحَ الله هل بعدنا مِن أمّة؟ قال: نعم، أمّةُ محمّد، حكماء، أبرارٌ، أتقياء، كأنهم من الفِقه أنبياء، يرضون من الله

(١) وَرَدَ تفسيرُ هٰذا الاسم مِن أسماء النبي ﷺ في: أسماء رسول الله ﷺ ومعانيها: ٣١، والشّفا ١: ٤٤٤، وزاد المعاد ١: ٨٩، وجلاء الأفهام: ١٨٨، والرّياض الأنيفة: ٥٥، وسبل الهدىٰ والرشاد ١: ٥١٢. والمواهب اللدنية ١: ١٨٤.

(٢) انظر الصّفحة: ٦١ من هٰذا الكتاب.

باليسير من الرزق، ويرضى الله عنهم باليّسير من العمَل، ثم قال: يأتي مِن بعدي رسولٌ اسمُه أحمد.

وقد ورد أنّ اسمه في السّماء أحمد، وفي الأرض محمد، وفي البحار الماحي، وفي القيامة الحاشِر، وفي الجنّة النّاسخ، وفي النّار العاقب ـ ﷺ ـ[1].

وأحمد مشتق من الحَمد، وهو أَفْعَل، مبالغة من الحمد. وقد قدّمنا أن محمداً «مُفَعّل» مبالغة من الحمد فهو ﷺ، أجلُّ من حَمِد وأعظم من حُمِد، فهو أحمدُ المحمودين، وأحمد الحامدين؛ ولذا أعطاه ربُّه لواءَ الحمدِ يومَ القيامة، حتّىٰ يُتِمَّ له كمالَ الحمد، ويشتهر في عَرصَات يومِ القيامة بصفةِ الحمد ـ ولذا يبعثه الله يوم القيامة مَقاماً محموداً[2]، كما وعده ربه سبحانه بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ١٧/٧٩] ، يَحْمَدُه فيه الأوّلون والآخرون، وسمّى الله أمّتَه الحَامِدين لله علىٰ كل حال.

ومنع سبحانه أن يتسمّى بهذا الاسم الكريم أحدٌ من خلق الله[3]. بل شقّه له من اسمِهِ تَعظيماً لِقَدْرِه، وزيادةً في عُلوّ مَنْصِبه، وفي هذا الاسم الكريم غرائبُ وعجائبُ كما تقدّم بعضها في اسمه محمد ـ ﷺ ـ؛ ممّا يدلُّ علىٰ اعتناء الرُّبوبيّة بجاهه، وكمال وجاهته عند ربّه، ولذا سمّاه بأحمد في أهلِ سَمائه، وعند أهل حضرته. وسِرُّه، ـ والله أعلَمُ بغيبه ـ، أنّ ملائكة الله سبحانه هم عُمّار السموات كلّها، فَما فيها موضعُ شبرٍ إلاّ

(١) الرياض الأنيقة: ١٢٥٩ قال السيوطي عنه إنه حديث تالف أخرجه أبو مروان الطيبي. وقال ومعناه واضح فإنه ﷺ نسخ بشريعته كل الشرائع.

(٢) عقد المؤلف الباب ٦٣ لمعنى اسمه (صاحب المقام المحمود) ﷺ، فانظره.

(٣) يعني لم يتسمّ أحدٌ بهذا الاسم قبلَ النبي ﷺ؛ انظر الشفا ١: ٤٤٥.

وفيه ملك لله ساجد أو راكع، ليس لهم أكل إلاّ ذكره، وليس لهم شراب إلاّ حُبّه، وليسَ لهم مخالفةٌ ولا عصيان، بل طاعة وانقيادٌ للملك الرحمٰن؛ جمع الله فيهم أذكار أوليائه، وتسبيحَهُم ودعاءَهُم، وعبادتهم قولاً وفعلاً، وجَمعهم عليه فلا يَرَوْنَ[1] إلاّ هو، ولا يَفْتُرون عن ذِكره، كَيْفَ[2] وقد صَيّرهم مولاهم له أهلاً.

ولمّا أراد الله سبحانه أَنْ يُظْهِر لعرائسِ مملكته، ولخاصّة أَوليائه من قُدسيَّةِ نُور سِرِّهِ الأوّل، وإنسانِ عينهم الكامل المكمّل، وهو النبيُّ المصطفىٰ الطاهر الأَمجد، سمّاه في أَهل السّمٰوات باسمه (أَحمد)؛ إظهاراً لمنزلته عند ربه، وعُلوّ رفعته عند خالقه، فكأنّه يقول لأهل حضرته: لئن ظفرتم بالغُنم في تنزيهي وتقديسي وذكري، فلقد(*) زاد على حمدكم حبيبي أحمدُ الّذي بالغ في حَمدي وشُكري، وفوّض أمره لأَمري فهو أفضلُ مَنْ خَلقْتُ ومَنَنْتُ عَليه بجميع مَحامِدي، وأَعظم من رَزقْتُه وصَيرَّتُه إكسيرَ مَحامِدي[3]؛ فالواجبُ عليكم يا ملائكتي التسليمُ لعين نظرتي، وإظهار فضائل مَنْ أَوْدَعْتُ عندَه أَسرار شريعتي؛ فإنْ كنتم قد بالَغْتُم في طاعتي وسارَعْتُم إلىٰ كريم خِدمتي، فخدمةُ هٰذا النبيّ الكريم صاحبِ الخُلُق العظيم، لم ينلها موجودٌ من أَهل الصّدق والكرامة، ولا اتّصف بها أحدٌ من أهل الوَفاء والسّلامة إلىٰ يوم

(*) كذا؛ والجواب هنا للقسم ـ وليس للشرط ـ فلا حاجة إلى الفاء.

(١) في ب فقط: فلا يذكرون.

(٢) لم تَرِد كلمة «كيف» في ب.

(٣) في ب: إكسير مقاصِدي.

- والإكسير: دواء زعموا أنه إذا أضيف إلى المعادن الخسيسة ثم عولجت انقلبت إلى معادن نفيسة. ثم أطلقت (الإكسير) على وسيلة تطيل الحياة.
- وتستعمل كلمة الإكسير في العصر الحديث لبعض المستحضرات الطبّية.

القيامة.

[٢١/أ] فلو تقربت خواصُّ العباد، من الملائكة والأنبياء والزهّاد، بسجدةٍ أو ركعةٍ أو تلاوةٍ أو صلاةٍ، لكانت سجدةُ النبيّ الكريم، أو ركعة صاحب الخلق العظيم، أو تلاوة الرّسول العليم، تزيدُ علىٰ سجدة جميع العالمين أو ركعة المخلوقين أجمعين من أهل السموات والأرضين؛ لِتَمامِ فضلِه عند أحكم الحاكمين، وعُلّو قدره عند أرحم الراحمين.

وإنّما بشّر عيسىٰ ـ عليه أفضلُ الصلاة والسلام ـ الخلائقَ به ـ عليه السلام ـ وسمّاه باسم أحمد الّذي اشتهر به اسمُه عند أهل السّموات وخصّه به ربّه عند سائر المخلوقات، إشارةً ـ والله أعلمُ ـ إلىٰ أنّ عيسىٰ عليه الصلاة والسلام، لمّا سأله الحواريُّون ـ كما تقدّم[١] ـ وقالوا له: يا روح الله هل بعدنا من أُمّة؟.

فأجاب بقوله: نعم أمّة محمّد[٢]، حكماء أبرار علماء أتقياء ـ كما ذكرنا ـ.

فالّذين بعثَ الله فيهم مَن اسمه أحمدُ في أهل السّماء، فلا أفضلَ منهم عند ربِّ العرش، لفضلِ نبيّهم، ولا أقربَ منهم عند الله لقُرب حبيبهم؛ وما ذاك إلاّ أنّهم قد مَيّزوا بين الخالق والمخلوق، واعترفوا بأنّ الله سبحانه إلهٌ واحد لا شبيهَ له ولا نظير، وأنه رازق غير مرزوق؛ فكأنّه

---

(١) انظر الصفحة ٢٦ من هذا الكتاب.

(٢) روى الإمام أحمد من حديث عرباض بن سارية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إني عبد الله في أم الكتاب لخاتم النبيّين وإن آدم لمنجدل في طينته وسأنبئكم بتأويل ذلك أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى قومه ورؤيا أمّي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وكذلك ترى أمهات النبيّين ـ صلوات الله عليهم ـ (المسند ٤: ١٢٧، ١٢٨).

يقول لهم: يا معشَر الحواريِّين إيّاكم أن تَعْتَقِدُوا في نبيٍّ من أنبياءِ الله أو رسولٍ من رسل الله كما اعتقدت النّصارىٰ في عيسىٰ، إنما أنا عبدُ الله ورسولُه، وكلمتُه وابنُ أمَته؛ خَلْقٌ مِن خَلْقِه، خَلقني سُبحانه من غير أبٍ بقُدرته، وخلقَ أمّي وجَعلها صِدِّيقةً، تأكلُ الطّعام، وتمشي في الأسواقِ، وصيَّرني بِقُدرته؛ لا نتحرّكُ إلاّ بإذنه.

يا معشرَ الحواريِّين هذا اعتقادُ أمّةِ محمّد في سائر أنبياء اللّهِ أجمعين، وكذا يعتقدون في نبيِّهم، مع علمهم أنه أجلُّ الحامدين، وأحمد المحمودين.

فأمّة محمّد علماء؛ علموا ما يجب لله سبحانه، وما يَستحيل عليه، وما يجوزُ في فِعله، وعلموا ما يجبُ لنبيّه من العبوديّة، وما يستحيل عليه من الاتّصاف بصفةِ الرُّبوبيّة.

أمّةُ محمّد فقهاءُ عُلَمَاء بما يجبُ للأنبياء من كمال [٢١/ب] العصمة وأنّهم لا يعصُون؛ أبرارٌ تحققوا أنّ أنبياء الله ورسلَه يفعلون ما يُؤمَرون، وبهذا أنطق الله تعالىٰ الأَولياءَ من هذه الأُمّة الوارثين للأنبياء، الآخذينَ عن الأصفياء بلسان الحكمة وبيانِ ما يجب من الاعتقاد في سائر الأمّة، حتّىٰ قال صاحب البُردة كلاماً جارياً علىٰ وفق العُقول والسُّنّة[1]:

دَعْ ما ادَّعَتْهُ النّصارىٰ في نبيّهم ... واحكمْ بما شئت مَدْحاً فيهِ واحتكمِ
وانسُبْ إلىٰ ذاتِهِ ما شئتَ من شَرفٍ ... وانسُبْ إلىٰ قَدْرِه ما شئتَ من عِظَمِ
فإنّ فضلَ رسول الله ليسَ لهُ ... حَدٌّ فيُعرِبَ عنهُ ناطقٌ بِفَمِ

---

(١) ديوان البوصيري: ٢٤١.

فصل

لمّا عظُمت منزلةُ هذا الرسولِ عند ربِّ العزّة حتىٰ كان المصلّي في محراب جَمْعِ الجَمْع بأَحمد، والقارىء بفُرقان الفَرْق بمحمّد، والقائم في الملك بشرعه وجلاله، والرّاحم في الملكوت برحمته وجماله؛ وكَمَّل الله سبحانه معناه وصورته، وزين في العالم خَلْقه وخُلُقَه؛ تقدّم - ﷺ - وحيداً فريداً، حين أَسرىٰ به ربُّه وقرّبه قرباً مَجيداً، وأمّ ليلةَ الإِسراء كمالَ حمده، وعلوَّ قدره، وبرز لأهل السّماء والأرض ما زادوا به في تعظيمِه وبِرّه، وتحقّقوا أنّه منفرد بجميع المحاسن وتمامها عند ربّه.

وفضّل الله تعالىٰ أُمّته علىٰ جميع الأمم من خلقه، إظهاراً لمكانته وشدّة قُربه، فكان في أُمته ما أقرّ الله به عينه من صُدور الأولياء وبُدورِ الأصفياء، الّذين بالغوا في حَمْد الله، وتفقّهوا فيما علّمهم حتىٰ كادوا أن يكونوا أنبياء، فلما بالغوا في الاستقامات، أظهر الله علىٰ أيديهم الكرامات، فكانت لهم وِرَاثاتٌ مِن عظيم المعجزات، وأذعنت لهمُ الرّهبان والأَحبار، بَما علموا من العلامات الموجودات عندهم في الآثار.

وقد ذُكِرَ في كتاب (مناقب الأَبرار)[1] أنّ محمّد بن يعقوب الضّرير رحمه الله قال:

خرجتُ أُريد الشّام، فوقعتُ في التّيْهِ، فمكثت فيه أيّاماً حتىٰ أشرفتُ علىٰ الموت، فبينما أنا كذلك، إذ رأيتُ راهبَيْن يسيران كأنهما خَرجا من مكان قريب، يُريدان ديراً لهما [٢٢/أ]، فَمِلْتُ إليهما، وقلت لهما أين تُريدان؟ فقالا: لا ندري.

---

(١) لعلّه مناقب الأَبرار ومحاسن الأخيار، لتاج الإِسلام حسين بن نصر بن أَحمد المعروف بابن خميس الموصليّ الشافعيّ (المتوفىٰ سنة ٥٥٢هـ)، علىٰ طراز الرّسالة القشيريّة. وكتاب مناقب الأبرار ومحاسن الأَخيار من الكُتب الباقية (الزركلي ٢: ٢٦١).

فقلت: ومن أين أَقْبَلْتُما؟ فقالا: لا ندري!، فقلت: أتَدْرِيان أينَ أنتما؟، قالا: نعم، في مُلكه، وبين يديه!، قال: فأَقْبَلْتُ علىٰ نفسي أقول لها: راهبان يتحقّقان التوكّل علىٰ الله دونَك! صدِّق يا مسكين تَوكُّلك علىٰ الله، وسلّمْ له في جميعِ أُمورك تصلْ إلىٰ الله تعالىٰ؛ قلت لهما: أتأذنان لي في الصُّحبة؟ قالا لي: ذلك لك، فَسِرْتُ مَعهما، فلما أمسينا قاما إلى صلاتهما، وقمتُ إلىٰ صلاة المَغْرِب، فَتَيَمّمتُ وصَلّيت؛ فنظرا إليّ وضحكا مني، فلما فَرغا من صلاتهما، ضرب أحدهما بيده الأرض وإذا الماء قد ظهر، وطعامٌ موضوع، فتعجّبْتُ ثم أيقنت أنّ الكرامة قد تكون علىٰ يد عدُوّ الله استِدراجاً به[1]، وإنّما الكرامة المقرّبة من الله كرامة الاستقامة مع الله، ثم قالا لي: اُدْنُ وكُلْ واشْرَبْ! فأكلتُ وشربتُ وتوضّأت، ثم غاب الماءُ عنّا، وقاما لصلاتهما وأنا في صلاتي حتىٰ أصبحنا. ثم سرنا إلىٰ الليل، فلما أمسينا قدم الآخر فدعا بصاحبه بعد أن صلىٰ به، وضرب الأرض بيده، فنبَع الماءُ وظهر الطعام، فقالا لي: اُدْنُ وكل واشربْ وتوضّأ. فلمّا فَرغنا ذهب الماء، وغاب عنّا، فلّما كانت اللّيلة الثالثة قالا لي: يا مُسلم! الليلة ليلتك ونوبتك. قال: فاستَحْيَيْتُ من قولهما، وداخَلني من ذُلكَ هَمٌّ شديد وخِفْتُ الفضيحة، وانكسرَ قلبي من عملي فقلتُ في نفسي: «اللّهم إني أعلمُ أنّ ذُنوبي لم تدَعْ لي عندَك جاهاً ولا وَجاهة، ولكنّي أسألك بحبيبي محمّد ـ ﷺ ـ وقدره عندك إلاّ ما جَبَرْتَ قلبي»، فبينما أنا كذلك وإذا بعين خَرّارة[2]، وطعامٍ كثير، فأكلنا وشربنا ولم نزلْ علىٰ حالنا حتىٰ بلغنا النّوبة الثانية؛

---

(١) كذا عَدّى فعل استدرج بالباء. ومعنى استدرجه: أخذه قليلاً قليلاً من غير مباغتة. ويقال استدرج الله تعالى العبدَ إذا جدّد العبد خطيئةً فجدّد الله عليه نعمةً لينسى الاستغفار ثم يأخذه من حيث لا يحتسب.

(٢) العين الخرّارة: عين الماء الجارية؛ والكثيرة الجريان.

دعوتُ بمثل ما دعوت، وتوسّلت بمحمّد ـ ﷺ ـ فإذا أنا بطعامِ اثنين، وشرابِ اثنين والماء مثل ذلك، وإذا بقائل يقول لي: يا محمداً! أرَدْنا بك الإيثار الّذي خَصَصْنا به محمداً المختار، من بين الأَنبياء والرسل ـ صلوات الله وسلامهُ أجمعين [٢٢/ب]، وهي علامة وكرامة لمَنْ بعده مِن أُمّتِهِ إلىٰ يوم القيامة، وتكون من الوارثين لطريقته، القائمين بشريعته، العالمين بكتابه وشريعته وسُنّته.

فلمّا كان في النّوبة الرابعة قالا لي: يا مُسلم! رأينا في طعامك وشرابك نُقصاناً عن طعامنا وشرابنا فلِمَ ذٰلك، وما سرُّه؟ فقلت لهما: ذلك خُلُق نبيّنا ـ ﷺ ـ وأَمَرَ بها أمتّه، خَصَّهُ الله سبحانه بهذه الخَصلة من بين سائر الأنبياء والمرسلين الكاملين المكمّلين، وهو أنّه يُؤثر الخلق علىٰ نفسِه وأهلِه، وهي من علامات نُبوّته وكرامته لأمّته، إلىٰ يوم القيامة، والله سبحانه لمّا جعلني من خَواصّ أمتّه أرادَ مني الإيثار علىٰ نفسي اتّباعاً لشريعته، وقد آثرتكما اقتداءً بِنَبِيّي محمد ـ ﷺ ـ.

فلمّا قلت لهما ذلك قالا لي: صَدقتَ يا مسلم! كذا نجد في كُتبِ الله تعالىٰ المنَزلةِ من سمائه علىٰ أنبيائه، وأنّ الله سبحانه خصّ محمّداً وأمته بالإيثار، فنحن نشهدُ أن لا إلٰه إلاّ الله ونشهد أنّ محمّداً رسولُ اللّه ﷺ.

فقلت لهما: هل لكما في الجُمعة والجَماعة؟.

فقالا لي: نعم!.

فقلتُ: فارْغَبا إلىٰ الله سُبحانه أن يُخرجنا من هٰذا التّيه؛ فدعَوَا فإذا نحنُ ببيت المقدس.

فعليك ـ يا أخي إذا أَردْتَ الكرامةَ ـ بكثرة الحمدِ والاستقامةِ، والمحبّةِ لهٰذا النبيّ الكريم على الله، الّذي لا عزّ فوقَ عِزّه عند الله.

بَدائعُ الحُسنِ من أنواره خُلِقَتْ فالشَمسُ من نُورهِ حَقّاً مع القَمرِ[1]

كذلكَ العَرْشُ والكرسيُّ نورُهما مِن نُوره هكذا قد صَحَّ في الخبرِ(*)

له الشّفاعةُ يومَ الدين جامِعَة دون النّبيّينَ ما في ذاكَ من نُكُرِ

وخَصّه بلواءِ الحمدِ في عددٍ من المَفاخِر تنبيهاً لمدّكِرِ

فصل

مَنْ عَلِمَ اسمَ نبيِّنا العزيز القدر عند ربّنا في السّماء أحمد، فليكنْ مُتخلّقاً بمحامده، ذاكراً لأورادِه في صَباحه ومسائه، متشبّهاً به في عُبوديته، فإنَّ المحبَّ مطيعٌ لحبيبه، متّبعٌ له في قوله وفعله.

[٢٣/أ] ولذا أولياءُ الله تعالىٰ ـ رضي الله عنهم ـ لا يَفْتُرون عن ذكر الله، ولا يَغْفَلُون عن حُبّه، وعلامةُ الوليّ لله كثرةُ ذِكره لله، فإنَّ مَن أحَبَّ شيئاً أكثرَ مِن ذِكره، ولا يملّ لسانُه عن نُطقه.

ذِكرُ الحَبيبِ لا يُمَلُّ أبدا علىٰ التّمادي أبداً مؤبدا[2]

هو الحياةُ للقلوبِ وبهِ نحظىٰ ونَرقىٰ لمقامِ السُّعَدا

وعلامَةُ الوليّ أنك إذا رأيته ذكرتَ الله، لأجل أنّه لا يزال ذاكراً لله، فَيُذَكِّرُ غيرَهُ ويُلهمه لذكر الله، فإنّ الذكرىٰ تنفع المؤمنين.

والذكر أُنس المحبّين، وما نالوا ذلك حتّىٰ أماتوا الدُّنيا في قُلوبهم، ولم يبق لهم تعلّقٌ إلاّ بمحبوبهم، لائذينَ بذكرِه في جميعِ أحوالِهِمْ، قائلينَ بلسانِ حالِهم:

---

(١) من بحر البسيط.

(*) لم يصحّ في ذلك حديث.

(٢) من بحر الرّجز.

إذا زالَ لَبْسُ النفسِ وانشرحَ الصَّدرُ ... وحُلَّ عقالُ العقلِ وارْتَفع السّترُ[1]

وألقىٰ شهيدُ القلبِ للحقّ سمعَهُ ... فلا ريبَ فيما أخبر الرُّوح والسرُّ

فيومئذٍ من بعد موتِ نفُوسنا ... تُبَدَّلُ بالعلم الوساوس والفِكْرُ

وتُقْلَبُ أعيانُ الوجودِ معارجاً ... ففَرْقُ الدُّنا جمعٌ، وغيبُ العُلا جَهْرا[2]

فَحقيقٌ علىٰ المتخلّق بطريق سيّد الحامدين وإمام المُرسلين أنْ يتعلَّم أذكارَهُ وأورادَهُ التي أهداها لأُمّته، وادَّخرها لأهلِ شريعته محبّةً في جنَابِهم، وزيادة في قُرْبهم من رَبّهم، وذِكرهم لخالِقهم، لأنّ مَنْ ذكر الله سُبحانه وتعالىٰ ذكَره في ملأٍ خيرٍ منه.

ومن ذكر الله سُبحانه تَقَرُّباً إليه ذكره مولاه بالإحسان إليه، ومن ذكر الله سبحانه شَوقاً إلىٰ لقائه، ذكره المولىٰ بتوفيقه وإبقائه، ومَنْ ذكر مولاه خَوْفاً من ذُنوبه، ذكره سيّده بستر عُيوبه، ومَنْ ذكر مولاه سبحانه هيبةً وإجلالاً، ذكره مولاه وأقبل عليه برحمته إقبالاً، ومَنْ ذكر مولاه مهابةً وحياءً لمقامه ذكره مولاه سبحانه بإظهار محبّته وإعظاماً[3].

فعليكَ أيُّها المحبُّ في سيّد المُرسلين المتّبع لإمام العَارِفين بالتحفُّظ علىٰ ما أهدىٰ إليك حبيب ربّ العالمين، مما يقرّبُكَ من أكرمِ الأكرمين ويزول به الحجابُ بينك وبين أرحمِ الرّاحمين.

---

(١) من بحر الطويل.

(٢) أي: مفارقة الدُّنيا: (الموت).

(٣) في كُتب الآثار عددٌ من الأحاديث في فَضائل مَنْ ذكر الله تعالى مثل: مَن ذكر الله إذا أخذ مضجعه ثم مات فهو شهيد (مُسند الربيع بن حبيب ٢: ١٦) و: من ذكر الله عند طهوره طهّر الله جسده كلّه (إتحاف السادة المتقين ٢: ٣٧٤) و: من ذكر الله عند وضوئه طهّر الله جسده كلّه ومن لم يذكر الله لم يطهر منه إلاّ ما أصاب الماء (إحياء علوم الدين ـ كتاب أسرار الطهارة: فضيلة الوضوء ١: ١٣٥).

فإن كنتَ مقصّراً في اتّباعك، غيرَ مُشتغل [٢٣/ب] بالأذكار في كل أَوقاتك، فلا تغفلْ عن التفكّر في قراءة فاتحة الكتاب ولا عن التدبّر في معناها، وسرّ ما فيها من الخطاب[١]، وإذا قرأتَها في صلاتك حين تكونُ واقفاً بين يدي مولاك وخالقك؛ فإنّ من فَهِم المعاني، ولم يَشتغل بالصُّور والمباني، علمَ أنّ هذه الصّلوات هديّةٌ من الله لعباده، ووسيلة إليهم في القُدوم علىٰ حضرته بحضور قلوبهم مع معبودهم، وأنّها صلةٌ بينهم وبين مالكهم في الوصول إلىٰ مرغُوبهم؛ فَذِكْرُهم [له] سبحانه أنْ يذكروه بقُلوبهم وألسنتهم وجَوارحهم في أوقاتهم من مَسائهم وصباحهم، وأن يَعرضوا عن حُظوظ أنفسهم، ولم يبق في قلوبهم إلاّ ربُّهم ومالكُهم، ولا في أفئدتهم إلاّ خالِقُهم ورازِقُهم مع أدبٍ وحَياءٍ من الكبير المُتَعال، وخُشوع وتُؤَدة وإقبال وثناءٍ عليه ـ سُبحانه ـ وإشفاقٍ من عذابه وعقابه، ورَجاءٍ في رحمته وثوابه، وتعوّذٍ من ناره. وطمعٍ في جَنّته، وطلبٍ للإعانة علىٰ أداء الأمانة، ودعاءٍ بالهداية إلىٰ طريق صاحب الشّريعة، ومَنْ أتى بالطّريقة والحقيقة.

وهنا تتفاوتُ النّاسُ في مَنازلهم، وحُضورهم، ووصُولهم وإقرار أَعْينِهم، ولا يدرك ذلك إلاّ مَنْ حقّق الله في قلبِهِ الحقَّ واليَقينَ، وجَلاه بالطّهارة والتّمكين.

وأمّا مَن ملأ الله قَلبه قساوةً، وطمَس فِكرته باتّباع الشّهوات وأوسَاخ القَذارات، فقد انْقطَع وذهبَ في تيهِ الغَفلات، ومَشىٰ يَرْكَنُ[٢] إلىٰ ألفاظٍ يقولُها وأَفْعال يَبْذُلُها[٣] من غير فقهٍ ولا حُضورِ قَلْب، ولا

---

(١) ينظر في ما ورد من فضائل سورة الفاتحة ـ مثلاً ـ في تفسير القرطبي (١: ١٠٨ ـ ١١١).

(٢) ركن إلى الأمر: مال وسكن.

(٣) في أ: يبنها.

خشيةٍ لربٍّ، ويقف عندها، ربّما أنكر، الفهمُ المغلُوق، الّذي هو بالبلاء محقوق، ما يصدر من أفعال أهل الخشية من أُمورٍ خارقة للعادة، لأنّهم من أهل الكرامة فيقع لهم ما خصّهم الله به مثل عُروة وشَيبان الرّاعي، وأحمد بن حنبل[1] ـ رضي الله عنهم ـ ومن لا يُحْصَى مِن خواصّ هٰذه الأُمّة الذين استنارت قُلوبهم، وارتفعت هِمَمُهم حتّى عاينوا الملكوت، وانتقَلُوا إلىٰ الجبروت، وما [٢٤/أ] خَرجُوا بِصُورهم عن دائرة الملك، بل سَبَحوا في أَبْحُرِ المعرفة، فكانُوا وارثين عن مَّنْ قال[2]: «إني لست كهيئتكم، إني أَبِيْتُ يُطعمني ربّي ويَسقِين».

وربّما قدح هذا الممكُور[3] بهِ في أمثالِ ما ذكر عنهم مِن خَرق العوائد بِحُرمتهم عند ربّهم، وخرقهم العادة في أنفسهم، فيورد سؤالاً لم تَر أَبشع منه، فيقولُ لِقلّة حيائه، وعدم ذكائه: عروةُ ـ رضي الله عنه ـ، كيف يصحّ أن تُقطع رجلُه منه وهو في صَلاته، ولا يُحَسّ بها وتكونُ صلاتُه صحيحةً، وأنتم معاشَر الفُقَهاء تقولون إنّ المُغَمىٰ عليه ينتقض وضوؤه؟.

---

(١) عروة بن الزبير (٢٢ ـ ٩٣) أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، ومن أعلام التابعين، كان عالماً بالدين صالحاً كريماً، ولم يدخل في شيء من الفتن في زمانه. وفي أخباره أنه في رجله الأَكِلَة (داءٌ يأتكل منه العضو) فقال الأطباء: ليس لها دواء إلاّ القطع؛ فقطعوها وما أمسكه أحد ولا تغير وجهه (الحِلْيَة ٢: ١٣٦ ـ ١٨٠).

ـ وشيبان الراعي، أبو محمد، من العبّاد الواثقين؛ قال في حلية الأولياء ٨: ٣١٧: كانت له كرامات.

ـ والإمام أحمد بن حنبل مشهور غنيّ عن التعريف.

(٢) ورد الحديث بهذا اللفظ في الموطأ ٣٠١ والتمهيد لابن عبد البَرّ ٥: ١١٧، وورد بألفاظ متقاربة في صحيح مسلم ٧٧٦ ومسند أحمد ٢: ١٢٨ وفتح الباري ٤: ٢٠٢، وغيرها.

(٣) أي الذي أصابه المكر من نفسه الأمّارة بالسوء أو من شيطانه.

فانظُروا يا أَهل الله، وارْفَعُوا رُؤوسكم يا أَولياءَ الله، ما استولىٰ علىٰ قلب هذا القائل من الحِجَاب، وما أَشدّ بُعده من رَبّ الأَرباب، وما أقوىٰ مُحاربَته علىٰ الواقِفين بالباب!.

وسبب ذلك ظنُّه لأجل حجابه، وما انطوتْ عليه سريرَتُه من سَيِّىء النّظر حتىٰ عبّر عن مدلوله بخطابه، وأنه لأمرٍ من فوقَ علمه؛ ولا طلبَ ولا فَهْمَ أقوىٰ من طلبه ومن فَهمه؛ نعوذُ بالله من الانتساب إلىٰ الرِّضا بقوله، ومن الالتفات إلىٰ سُوء أَدبه ومَذهبه وميله.

ويجبُ امتثال قولِ نبيّنا ﷺ[1]: «لا تُؤتوا الحكمةَ غيرَ أهلها فتظلمُوها».

حقّق الله في قُلوبنا ما حقّق في قلوب أوليائه من تمام اليقين، وملأ صدورَنا بما ملأَ به صدور أصفيائه من الخَشية والتمكين.

ولمّا زالت صور الكائنات من مِرآة قُلوب أوليائه وصلوا إلىٰ حضرته، ومَن كان جباناً مثلي بشدّة قطيعتِه وغَفلته، فكيف يصل إليه، أم كيفَ يتحلّىٰ بوصف عبوديته؟.

وربما اعترض على كلامهم لِبُعد فهمه عن أَفهامهم، يحسبه الجاهل الغبي هيّناً، وهو عند الله عظيم، فيُقْدِم بجرأته علىٰ العطب والخَطْب الجسيم، وما علم أَنه حَادّ[2] أولياءَ الرّقيب العليم، بما يُوجِب له الانتقامَ والطّردَ عن بابه الكريم [٢٤/ب]:

---

(١) نقل الدّارميّ في سننه (١: ١٠٥) عن كثير بن مُرّة أنه قال: «... ولا تحدِّثِ الحكمة للسُّفهاءِ فيكذّبوك...» وفي إتحاف السّادة المتقين ٤: ٧٦: «لا تعطوا الحكمة غير أهلها...».

(٢) حادّهُ: عاداهُ، وخالَفَهُ.

مَن كان يعرفُ قَدرهمْ فَهُمُ هُمُ ... يبسطْ لهم خدَّ الخُضوع تَخَوُّفا[1]
والأجنبيّ مجانبٌ، ومحاربٌ ... جُبِلتْ جبلَتُه علىٰ مُرّ الجَفا[2]
فالله يرزقُنا الوفاء بحبّهمْ ... فبحبّهم وبذكرهمْ نَرْجُو الشّفا
[ثم الصلاةُ على النبيّ مُحَمّدٍ ... ما لاحَ بدرٌ في السّماءِ وأشْرقَا][3]

فصل

فَيُطلب في حقّ المتخلّق بِخُلق الأَولياء، المتعلّق علىٰ باب الأَصفياء، وإن حُرِمَ من الوُصول إلىٰ منزلتهم، المحبّةُ في طريقتهم، والتّشبُّه ببعض فعلهم؛ فإذا قرأ الفاتحة وأثنىٰ على خالقه بما أثنىٰ به علىٰ نفسه، فليُقْبِلْ علىٰ ربّه ويجدّد التّوبة من ذنبه، فيخفضَ من نفسه، ويكسرَ من قلبه لبعده عن وُصوله فذلكَ أليقُ بهِ عسىٰ المولىٰ، يَمُنُّ ـ سبحانَهُ ـ عليه بِحُسن قَبُوله، وجَبر انكسارِ قَلبه؛ ويجاهد نفسَهُ الخبيثة، ويُلجمها بلجام الهَيبة، ويروّضها بالانقياد إلى الشّريعة، حتىٰ يستقيم حالُها، وتكونَ له سميعةً مُطيعة، ويجلسَها علىٰ بساط الأُنس والمحبة، ويرتّلَ قراءته، ويتأمّل معناها، ويَسْتَحْلِي أوصافَهُ الحُسنىٰ في نفسِه، ويطلب منه ـ سبحانه ـ أن يبلّغه منها مُناه، ويَذْكُره بما وصَف به نفسَه من حمدهِ والثّناء عليه بما هو أهلُه، ويَستحضر [ما ورد عن نبيّهِ وحبيبه سيّدنا ومولانا محمّد ﷺ أنَّ العَبْدَ] إذا قال[4]: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: ١/٢] وذكر

---

(١) من بحر الكامل.

(٢) الجِبْلة والجُبْلَة: الطبيعة.

(٣) هذا البيت من أ.

(٤) نثر المؤلف رحمه الله حديثاً نبوياً في أثناء كلامه. والحديث في صحيح مسلم ١: ٢٩٦ والبيهقي ٢: ٣٧، وسنن أبي داوود (كتاب الصلاة) والترمذي (الفاتحة). وينظر كنز العمال ٧: ٢٨٨ ـ ٢٨٩، وفيه قال الله تعالى قسمت الصلاة بيني وبين عبدي=

رَبّهَ قال مولاه: حَمِدَني عَبْدِي ـ وهٰذه شَهادةٌ مِمّن لا تَخْفَىٰ عليه خافيةٌ فلا يصدّق هذا الحمد إلاّ علىٰ حَمده بما يجبُ له سبحانه من صفاتِ مَحامِده وإذا قال العبدُ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ [الفاتحة: ١/ ٣] قال مولاه: أثنىٰ عليَّ عبدي ـ فقد ذكَرك مولاك من حيثُ لا تشعر، أيُّها الغافل في قراءته، لا تغفل عن مراقبته، وإذا قال القارىء ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ١/ ٤] قال مولاه: مَجَّدني عبدي.

فلا تسأل أيّها القارىء إنْ حضرَتْ خشيتك، وتحقّقت هَيْبَتُك، وكملت مُرَاقبتك عمّا يَفتحُ به عليك ربّك وخالِقُكَ من كمالِ رَحْمَتهِ، وتَمام عَطِيّتهِ، وفُتوحات لَدُنّيّةٍ من مَواهِبه ومِنّته.

وعلىٰ قَدْر عرفانك، وعُلوّ هِمّتك، ونُور بصيرتك ترىٰ ملكوت ربك، أو تَرقىٰ إلىٰ مُشاهدة ما لا يخطُر بقلبك في صَلاتك [٢٥/أ] وهي مفتاحُ كل فَتْحٍ، ومفتاحُها طهارَتُكَ من قَاذوراتِ الأَكْوان، وتعلُّقُ قلبك بالله في كلّ أوان.

ثم بعد ذلك تَذْكُر من حُسن ذِكرك، وتصفيةِ قَلْبك بما يجبُ لربّك من تَمام اتّصافه بما يليقُ به، فتقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ١/ ٥] فتعترف له بالحقيقة بعد استعمال الطّريقة بحصول الإخلاص. الّذي هو رُوح روحِ الأعمال، وطلبِ العون من الله في جميع الأحوال، ثم تتوجّه إلىٰ الحاجة من المَلِك الكريم، وتطلبُ الهداية مِنَ الّذي مَنّ علينا بصاحب الخُلق العظيم، وأتىٰ بالصّراط المستقيم.

=نصفين ولعبدي ما سأل؛ فإذا قال العبد (الحمد لله ربّ العالمين) قال الله تعالى: حمدني عبدي فإذا قال (الرحمن الرحيم) قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي فإذا قال (مالك يوم الدين) قال الله تعالى: مجّدني عبدي، فإذا قال (إياك نعبد وإياك نستعين) قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. قال رواه أحمد ومسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

فلازمٌ - أيُّها المحبُّ لرسولِ الله ﷺ المُتَّبِعُ لُخُلقِ نبيِّ اللّٰهِ - ما دَلّك عليه من قراءةِ السَّبع المَثاني، ومن ذِكر اللّٰهِ في الأفعال والمَباني.

وقد رُوي عن رسول الله ﷺ - أنه لمّا نزَل قول الله سبحانه ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤١] قال عليه السلام، لجبريل عليه السلام[١]: يا أخي جبريل أذكرُ اللّٰهَ ألف مرّةٍ في اليوم؟، فقال له يا محمّد: إنما أنا سفيرٌ بينك وبين ربك؛ فقال له: أذكر الله ألفي مرة في اليوم؟ فقال له مثل مقالته الأولىٰ، ثم عَرج إلىٰ السّماء، ثم نزل، فقال له: يا نبيَّ الله، العليُّ الأعلىٰ يُقرِئك السّلام، وهو يقول لك: اذكر الله عددَ ما خَلَقْتُه وما أنا خالِقُه إلىٰ يوم القيامة، اذكُرْني علىٰ عدد الرَّطْبِ واليابِس، اذكُرْني علىٰ عَدد الحُلوِ والحامِض، فإن طال ذلك عليك وعلىٰ أُمّتك فاعلمْ أنّي أنزلتُ مئة كتاب وأربعة كُتب، وجمعتُ ذٰلك في الكتاب الذي أنزلتُه عليك، وخصَّصْتُك بسورة الحَمْدِ، لم أُنزلها في التّوراة، ولا في الإنجيل، وخصصتُك بها لأنّي حمدت نفسي بنفسي في الأزل، إذْ كنتُ أنا الشّاهد، ولا شاهدَ معي، فاختصصتُ بالحمد لِنفسي، ثمّ سَبق في عِلمي أنّي سَوفَ أَفترضُ حَمدِي علىٰ عبادي وعلمتُ عجزَ عبادي عن أداء واجبِ حَمْدي، فتحمّلْتُ حَمْدَ عبادي كلّهم بنفسي لنفسي، ثم أنزلتُ عليكَ في محكم كتابي[٢] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: ١٥/٨٧].

---

(١) ينظر في أطراف هٰذا الحديث كتاب الأحاديث القدسية ١٤٤، ١٤٨ ومُسند أحمد ٢: ٢٩٠ وكشف الخفا ٢: ٥٢٨.

(٢) روى التّرمذيّ عن أبي هُريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: الحمدُ لله: أمّ القرآن، وأم الكتاب، والسّبع المثاني. وفي البُخاري قال: سُمّيت أم الكتاب لأنه يُبتدأ بكتابتها في المَصاحف، ويُبدأ بقراءتها في الصلاة.
وفصّل القرطبي في ما ورد في ذلك من آثار وأقوال (١: ١١٢ وما بعدها) وانظر تفسيره أيضاً (١٠: ٥٤ - ٥٥).

يا محمد: إذا وقفَ العبد [٢٥/ب] بين يَديّ فقال: الله أكبر رفعتُ الحجاب بيني وبينه، فإذا قال العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: ١/ ٢]، قلت: عَبدي، مَنْ هذا الإله؟ فإذا قال ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١/ ٢]، فأقول: مَنْ رَبُّ العالمين؟ فيقول ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١/ ٣] فأقول: مَنْ الرحمن الرحيم؟ فيقول: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ١/ ٤] فأقول: مَنْ مالك يوم الدين؟ فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ١/ ٥] فأقول: عَبدي! هٰذا لي، فهل من حاجة؟ فيقول ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ١/ ٦] فأقول: عبدي! ما الصِّراط المستقيم؟ فيقول: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ١/ ٧] فإن قال: آمِيْن؛

قلتُ: عَبْدي أكملْتُ عليكَ نِعمتي، وبذلْتُ لك عَظمتي، وأنا رَبُّ العالمين.

يا محمّد: مَثلُ الحمد كمَثل رجلٍ جمع عنده فِضّة، ثم أرادَ السَّفر بها فثَقُلَ عليه حملها، فباع الفضّة واشترى ذَهباً، فثَقُلَ عليهِ حَمْله، فباع الذَّهب واشترىٰ جَوْهراً، فلمّا أرادَ السَّفر سَهُلَ عليه حَمْلُه.

فَربُّكَ ـ سبحانه ـ يقول لك: جمعتُ لكَ الكتبَ المُنَزّلة في القُرآن وجمعتُ القرآنَ في سوُرة الحمد؛ يا محمّد: جمعتُ القُرآن في سَبعةِ أَسباع، وجمعتُ الحمدَ في سبعِ آيات، فكلّ آيةٍ من أُمّ القُرآن تُعَدّ سُبع القرآن؛ فإذا أردت ـ يا محمد ـ أن تذكُرَني حقيقةَ ذِكري، وتحمدني وتقدّسني، وتُعَظّمني حقيقةَ العَظمة فاقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١/ ٢] علىٰ حقيقتها.

فعندَ ذلك قال رسول الله ﷺ[١]: «كلُّ صلاةٍ لا يُقرَأُ فيها بالحَمْد ـ

---

(١) الحديث في مُسند الإمام أحمد ٢: ٢٩٠ ومجمع الزوائد ٢: ١١١.

أو بأُمِّ القُرآن ـ فَهي خِدَاج(١)».

فأصْغِ بسمعك يا من غَلبت عليه القطيعةُ والحِجَاب، وتَلَقَّ هذا الكلام من رَبِّ الأرباب، فكَم لك من قراءةٍ لا رُوحَ لها، وكم لك من غفلةٍ لا يقظَةَ مَعها؛ رَبُّ العِزّة، يُخاطبك كلَّ ساعةٍ معَ كُلِّ آيةٍ في صلاتك ويُلاطِفكَ في خِطَابك، وأنتَ لا تُحِسُّ بقراءتك، بَلْ تقرأُ وقلبُكَ لاهٍ عن حُضورك، وربّما كنت في سَهْوَتكَ، تُردّد في فكرك ولسانك سَرْدَ كلامِ رَبّك الذي اختارَهُ لكَ، وأنتَ مُعرِضٌ عن مقامه مطرودٌ عن بابه، فلا تزال كذلك حتىٰ تَرِدَ بصلاتك [علىٰ ربك] يومَ قُدومك وتُلَفُّ ويُضرَبُ بها في وجهك!.

فنستغفر الله ـ سبحانه ـ [٢٦/أ] من فِعلنا وقولنا الذي لا يُطابِقُ عَملَنا، ونَسْألهُ بكرمه إزالةَ الحِجاب عن قُلوبنا، وأنْ يعمّر أفئدتنا بحبِّ نبينا، ومحبة أوليائه الّذين أحْسَنُوا الحُسنىٰ(٢):

سَهِرَتْ عيونُ الصَّادقينَ مخافةً ... وتقَرّحت أكبادُهم والأعينا(٣)
من خوفِ حِزبٍ لا يُرام نزالُه ... حِزب الإله لمن عَصاه وأعلنا
أيظنّ مَن يعصي بأنّ له الذي ... للمؤمنين ولم يَتُبْ مما جنىٰ
هيهاتَ ينجُو سالماً مَنْ لم يَتُبْ ... مِمّا نَهاهُ اللّهُ عنهُ وما انثنىٰ
صَرفوا اللّواحِظَ منهمُ لمّا جرتْ ... نحوَ الذي هامُوا به فَكسُوا الضّنى(٤)
قادتْهمُ شَهواتُهمْ فاسْتُبْعِدُوا ... والعبد يؤخَذُ في القِصاص بما جنى

(١) خداج: ناقصة.
(٢) من بحر الكامل.
(٣) كذا في الأصول. وتخرّج ـ عند أهل النحو ـ على أنّ الواو قبل الأعين واو المعيّة. وفي الأسلوب ضعف.
(٤) في أ: الملاحظ.

يَا ويحَ من باعَ الثمينَ بِبَخْسِهِ تَبّتْ يداهُ، وصافحته يَدُ العَنا
وكذا الدُّنا غرّارةٌ عُشّاقَها يا ويحَ من يصبُو إلى حُسْنِ الدُّنا
هٰذي مَصائبُ قد جَرتْ في وقتنا تَنهىٰ وتزجرُ من طَغى مِن حَيِّنا
يا غافلينَ إلىٰ متىٰ لا نَرْعَوِي ونتابعُ السّادات من أشياخنا[1]
ونقيمُ دينَ الله فينَا قبلَ أنْ نُدعى إلىٰ دارٍ بها طول العَنا
دار بها عَنَتِ الوجوهُ لربّها وشَقِي الظَّلومُ كما أتىٰ في ذكرنا
ونجَا المطيعُ لربّنا ورسوله مَع مَنْ عليه الله أنعم بالمُنىٰ
والله أرجو أنْ يمنَّ بِتَوْبَةٍ ننجُو بها من هَوْل يوم وَعِيْدنا
ثمّ الصّلاةُ علىٰ النبيّ وآلهِ وعلىٰ الّذين هُدوا السبيلَ الأحسنا

---

(١) أي: ولا نُتابع السّاداتِ مِن أشياخنا.

باب

في معنى اسمه

الماحي(١)

صلّى الله عليه وشرّف وكرّم

الماحي: اسمٌ من أسمائه عَليه أفضلُ الصّلاة والسّلام، وردت به الآثار، ومشهورُ الأخبار، وقد قَدّمنا في الرّواية عن رسول الله ﷺ أنّه قال(٢): «لي خمسةُ أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحُو الله بي الكُفر...» الحديث، وروي هٰذا الحديث من طرق مختلفة، وكلّها صحيحة مروية.

فالماحي مشتق من المَحْو، وهو اسمُ فاعل، وتصريفُه: مَحا يمحو محواً فهو ماحٍ. واسمُ المفعول منه [٢٦/ب] مَمْحُوّ.

وأصل المَحْوِ: الإزالة، ومنه مَحوتُ الحَرْفَ واللَّوح إذا أَزلْتَ ما فيه من الكَتْب.

وإطلاقُ الماحي في بابِ المعَاني من الاستعارةِ بالكناية.

---

(١) ورد تفسير هذا الاسم من أسمائه ﷺ في: أسماء رسول الله ﷺ ومعانيها: ٣١، والشّفا ١: ٤٤٧، وزاد المعاد ١: ٩٤، والرّياض الأنيقة: ٢٣٠، وسُبُل الهدىٰ والرّشاد ١: ٦٢٢.

(٢) انظر الصفحة٦٢ من هٰذا الكتاب.

وقد قدّمنا أنّه ورَد أنّ اسمه في البخاري: الماحي[1].

ويظهرُ في سِرّه ـ واللّهُ أعلمُ بغيبِهِ ـ أنّ البِحارَ لمّا كان فيها تطهيرٌ وإزالةٌ للأدران[2] والخبائثِ وإزالةُ الأوخامِ في الأقطار، على ما ذكره القومُ في كُتبهم من سِرّ وجود مياهِ البِحار، وأنّ فيها منفعةً عظيمةً للخلق، وأسراراً عجيبة للملك الحق وقد رأيت في ذلك تقييداً للشيخ الوليّ سيّدي عبد العزيز المهدوي[3] رحمه الله، وذكر في ذلك أسراراً نَشأت عن فتح له، رضي الله عنه ونفع به، فإذا علمت أنّ مياهَ البحار هي أعظمُ ما يقعُ التّطهير به، فكأنّ قائلاً يقول: مياهُ البحار: لئن كانت تطهّر الأوساخ والبقاع والأدران، فمحمّد ﷺ طهّر الله سبحانه به مَحَلّ المناجاة للمَلِك الديّان، لئن كانت المياهُ تُطَهّر الذّوات والأشباح، فمحمد ﷺ طَهّرَ الله سبحانه به النّفوسَ والأرواح، لئن كانت المياه هي حياةَ الأبدان، فمحمّد ﷺ هو حياةُ الوجود لأهل العِرفان.

ووجهٌ آخر في سرّ تسميته عليه السّلام بالماحي في البحار ـ والله أعلم بغيبه ـ وذلك أنَّ البحار في زمن الطُّوفان قد أغرق الله بها عبدَةَ الأوثان، وأذهَل الله بها أهلَ الطُّغيان من كل مكان، وإنّما كانَ ذلك نُصْرَةً من الله سبحانَهُ لنبيّه نوح عليه أفضلُ الصّلاة والسّلام؛ لِمَا عُلِمَ أنّ كلّ مَن أهلكه بالغَرق لم يُؤمن أحدٌ منهم فأغرقَهم جلّ جلالُه، وطهّرَ الأرضَ منهم؛ ولمّا كانَ نبيُّنا ـ ﷺ ـ أَماناً لأَهل الأرض من تعميمهم بالعَذاب، وإغراقِهم وإهلاكهم لم يقع فيهم الإغرَاق، بل أَبقى فيهم

(١) انظر الصّفحة ٦٢ من هٰذا الكتاب.
(٢) الأدران: الأوساخ.
(٣) في أ: أبي عبد العزيز. وفي ج: من (كذا) عبد العزيز والمثبت من ب، وهو عبد العزيز بن أبي بكر القُرَشيّ المهدويّ، نسبة إلى مدينة المهديّة، توفي سنة ٦٢١هـ؛ انظر: تاريخ إفريقية في العهد الحفصيّ: ٣٣٧.

السّلامة، لأَنّ الله سُبحانه علم أنّه يخرجُ من أصلابهم مَنْ يؤمن بالله ورسوله، ويكونُ نبيّنا - ﷺ - أكثرَ الأنبياء تابعاً يومَ القيامة[1] فسمّاه الله بالماحي في البحار [٢٧/أ]؛ إشارةً إلىٰ أنّ الله سبحانه يمحُو به الكُفر، ويطهّرُ بهِ القُلوب، ويقرّب من علاّم الغيوب.

فليسَ للبحار سبيلٌ ولا تسليط علىٰ عُموم هذه الأمّة المحمدية، لأَنّ بقلوبها من التّوحيدِ والإيمان ما يمنعُ البحار من الإغراق، وقيامهم بالحق، وانتصارهم للمَلِكِ الخَلاّق، وثُبوتهم علىٰ الصراط المُستقيم، ومُحافظتهم علىٰ من أتىٰ بالجُمعة والجَماعة القائل فيهم[2]: «لا تَزال طائفة من أمتي ظاهرينَ علىٰ الحق إلىٰ قيام الساعة» - ﷺ - وشَرّف وكرم.

تنبيه وإعلام

وقد فسّر النبيُ ﷺ اسمَه الماحي بأنّه: الّذي يمحُو الله بهِ الكُفر[3].

قال العُلماء - رضي الله عنهم -: يحتمل أنّه يمحُو الله بهِ الكفر من مكّة وبلاد العرب، وما زُوِيَ له - عليه السلام - من الأَرض، ووُعِد أنه يبلغه ملك أُمّته[4]، ويُحتمل أن يكون المَحْو عامّاً بمعنىٰ الظُّهور

---

(١) إشارة إلى قوله ﷺ: أنا أكثر الناس تبعاً يوم القيامة. رواه مسلم (كتاب الإيمان) والبيهقي ٩: وينظر الشفا.

(٢) ورد في كتب الحديث بألفاظ متقاربة، أو بعض زيادة. وهو في البخاري ٩: ١٢٥ ومسلم (كتاب الإمارة) ومُسند أحمد ٤: ١٠٤ وسنن البيهقي ٩: ١٨١.

(٣) ينظر الصّفحة ٢٣ من هذا الكتاب.

(٤) إشارة إلى حديث ذكره في الشفا ١: ٥١٩ ومناهل الصّفا: ١١١٥؛ وأخرجه مسلم في الفتن: ٢٢١٥.
وفي اللّسان: في الحديث أنّ الله تعالى زوى لي الأرض فأريت مشارقها ومغاربها: أي جُمِعت لي الأرض.

والغَلبة[1]؛ بمعنىٰ أنّ الله ـ سبحانه ـ يُظهر دينه علىٰ الدّين كُلّه كما ذكَر في كتابه، وقد أظْهَره ونَصره، وأتمّ نعمتَه عليه، وهَداه صِراطاً مُستقيماً، وصيّره بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً.

وتأمّلْ ـ رحمك الله ـ في حسن تفسير نبيِّ الله الذي آتاه الله العلوم اللّدُنّيّة، وفتَح عليه الفُتوحات الربّانية، كيف علّم أمته الطّريقة والحقيقة، وأنّ مولاه سمّاه الماحي ـ ﷺ ـ فهذا طريقُه؛ ثم فسّر ذلك بالحقيقة[2] من باب قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ٨/١٧] أي وما رمَيت خَلْقاً واختراعاً، ولكنّك رميتَ كَسْباً وسَبباً[3]، والله سبحانه الذي رمىٰ خَلْقاً وإيجاداً؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورىٰ: ٤٢/٥٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص ٢٨/٥٦]؛ فكذلك هنا، أي هو الماحي سَبباً وكسباً؛ وربُّه وخالقه هو خالق الإيمان في القُلوب، ومُقرّبها من علاّم الغُيوب.

والنبيّ عليه السلام جعله الله سَبباً في إحياءِ دِينه وإعلاء كلمته [٢٧/ب]، فقال عليه السّلام[4] «يمحُو الله بي الكُفر»؛

---

(١) ذكر القاضي عياض في الشفا ١: ٤٤٧ هٰذين الاحتمالين؛ والمؤلّف ينقل عنه.

(٢) وهٰذه الحقيقةُ هي أنّ الله تعالىٰ هو الذي يمحُو به الكفر.

(٣) في تفسير القرطبي عند قوله تعالى: ﴿فلم تقتلُوهم ولكنّ الله قَتَلَهُم وما رميتَ إذْ رميتَ ولكنّ اللّه رَمىٰ﴾ أن أصحاب رسول الله ﷺ لَمّا رجعوا من غزوة بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل: قتلت كذا، فعلتُ كذا، في ذلك تفاخر ونحو ذلك. فنزلت الآية إعلاماً بأن الله تعالى هو المميت والمقدّر لجميع الأشياء، وأن العبد يشارك بتكسّبه وقصده. وروىٰ القرطبي أقوالاً أُخرى (٧: ٣٨٤).

(٤) سبق الحديث.

وقال عليه السّلام[1]: «أُمِرتُ أنْ أقاتلَ النّاسَ حتّىٰ يقُولوا لا إله إلاّ الله»، فقتاله عليه السلام سببٌ في كلمة الشّهادة والإقرار بالتّصديق والمَعرفة، والخالقُ للكلمة في اللّسان والقلبِ إنّما هو الكبير المُتَعال، الذي خلَق الذّوات والصّفات واللُّغات والأفعال والأقوال، وهٰذا أصلٌ من أُصول أهل السُّنَّةِ رضي الله عنهم ـ في خَلق الأعمال، وأنّه لا خالقَ إلاّ الله ذُو الكَرم والجَلال، وأنّه ربُّ العباد وربُّ أعمالهم، والمُقَدّر لحركاتهم وآجالهم[2].

فصل

يُحتمل أن يكون اسمُه الماحي الذي يمحُو الله به الكُفر معناه أنه ما قال إلاّ وقد أمره الله سبحانه بَمَحْوِه، لِعُموم دعوته، وظهور مُعجزته في جميع الأزمان والأقطار والبُلدان؛ قال الله العَظِيم، في كتابه الكريم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا ٢٨/٣٤] [وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١/٢٥] والعالَمُ كلُّ موجودٍ سوىٰ الله، فكلّ أهل العالَم قد بُعِثَ إليهم نبيّ الرّحمَة، الكاشف للغُمّة ﷺ.

صَلُّوا على خَيرِ البريّةِ كُلِّها ... وأجلّ مَنْ يُدْعَىٰ ليومِ الموقفِ[3]
فهو الشّفيعُ لِمَنْ تَعاظَمَ ذَنْبُه ... وهو الشّفاءُ لذي السّقامِ المُدْنَفِ[4]

---

(١) مسند الإمام أحمد ١: ١١ ومجمع الزوائد ١: ٢٥.

(٢) قال القرطبي في تفسير آية الأنفال (انظر الحاشية ١٢: «هذه الآية تَرُدُّ على مَنْ يقولُ بأن أفعال العباد خَلْقٌ لهم». ومعلومٌ أن هذه من قضايا علم الكلام التي اختلف فيها أهل السنة مع المعتزلة.

(٣) من بحر الكامل.

(٤) المُدنف الذي أدنفه المرض: براه حتى أشرف على الموت.

صلّوا عليه وأكثروا من ذكره تجدُوه نوراً في المقام الأشرفِ

باعَ - ﷺ - نفسه في ذَات الله، ومحا الكُفرَ كلّه من أرض الله، وما زال قائلا[١]: «أُمرت أن أقاتلَ النّاسَ حتّىٰ يقولُوا لا إلٰه إلاّ الله»، وهو شفاءُ القُلوب، وحبيبُ علاّم الغيوب؛ جَمع الله فيه أنواع الفضائل، وجعله سَبباً لحصول الوسائل. ولِلّهِ دَرُّ القائل حيث قال:

جُمِعَتْ له أعلامُ كلّ فضيلةٍ فغدا علىٰ الرسل الكرام أميراً[٢]

وشفَى القلوبَ رعايةً وهدايةً وطهارةً ومحبّةً وسُروراً

صلُّوا عليهِ وأكثِرُوا من ذِكرهِ لا تسأموا التَّرجِيعَ والتّكريرا

إنَّ الصلاةَ عليه تُورثُ أهلَها في ظلمةِ اليوم المعظّم نُورا

فَأَكْثِرُوا عبادَ الله مِن الصّلاة عَلى المَاحِي لِذُنوبكم[٣]، ومُقَرّبكم إلىٰ ربّكم ومُؤنسكم في وَحْشَتِكُم [٢٨/أ] ومُؤمّنكم من خوفكم، واجْعَلُوه عُمْدَةً لكم في حياتكم.

صلّىٰ الإلهُ علىٰ ابنِ آمنةَ الّذي جاءتْ به سبط البنانِ كريما[٤]

أبهىٰ من القَمرِ المُنير إذا بَدا ومُحِبُّه يلقىٰ بذاك نَعِيما

يا أيُّها الرّاجُونَ منه شفاعةً صَلُّوا عليهِ وسَلّموا تسليما

فصل

وقد قدّمنا سر تسميتهِ عليه الصلاة والسلام بالماحي في البِحَار

(١) سبق تخريجه (انظر الحاشية (١) على الصفحة ١٢٢ .

(٢) من بحر الكامل.

(٣) يريد: الماحي لذنوبكم باتّباعكم له؛ أو شفاعته لكم.

(٤) سَبْط البَنان: أي مبسوط الكفّين، كناية عن الجُود.

- والبيتان ١، ٣ من قطعة في الحماسة المغربية ١: ٦٠ (تنظر التّعليقات ثمّة والإحالة).

فالماءُ محَا الصُور من الأغيار، ومحمد ﷺ مَحا الله بهِ معنىٰ الكُفر من الآثار، الماءُ مَحَا الأغيارَ الظّاهرة، ونوّر الصُورةَ المُشاهدة الفَاخِرة، ومَولانا محمد ﷺ طهّر الأرواحَ بالإيمان، ومحَا منها اعتقادها في رَبِّها النّظائرَ والأَمثال.

المياه طهّرت الأماكنَ والبقاع، ومحمّد ﷺ طهّرَ الله به قلوب العباد لمناجاة الرحمٰن.

المياه تُطَهّرُ الأَبدانَ للصّلوات، ومحمّد ﷺ طَهّرَ اللّهُ به محلّ المناجاة، قال عليه السلام[1]: «المصلّي يناجي ربه»، قال العلماءُ رضي الله عنهم: المناجاةُ لمالكِ الملوك لا تكون إلاّ ببدنٍ طاهر وثوبٍ طاهر ومكان طاهر وقلبٍ طاهر؛ وأشرَفُها القلوبُ الطّاهرة، وهي قلوبُ عباد الله المؤمنين، وأحبائِه المُقَرّبين، فإنّها هي التي تسَعُ رحمةَ المولىٰ ومَعارِفَهُ ومَواهِبَهُ، وتَتمتّعُ بجمالِه، وتَتنعّم بما يَرِدُ عليها من فَوائدهِ، وتعظيمهِ لهيبتهِ وجلاله.

قال عليه الصلاة والسلام حاكياً عن ربه عز وجل[2]: «لن تَسعني سمائي، ولا أَرضي، ولا عرشي ولا كرسيّي، ولكنْ يَسعني قَلْبُ عَبدي المُؤمن».

فاحَذْر يا أَخي من فَهم هذا الحديث علىٰ معنىٰ الحُلول، واصرفْ عنهُ جلال الله تعالىٰ ونزّهْهُ عَمّا لا يمكن ولا يجوز في العقول، وصمّمْ فؤادَكَ على أنّ مولاك قديمٌ أزليٌّ، وابنِ علىٰ ذلك الاعتقادِ الضّميرَ؛

---

(1) مِن حديث رواه الإمام مالك في الموطّأ ١: ٨٠، والإمام أحمد في المُسند ٢: ٧.

(2) ورد بصيغة: «لم تسعني أرضي ولا سمائي ولكنْ وَسعني...» في تذكرة الموضوعات للفتني: ٣٠.

- وينظر المعجم الصُوفي ٩١٨، وأحال على كتاب شقّ الجيُوب.

فإنه عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ٤٢/١١] فقلبُ المؤمنِ هو الّذي جَعله المَولىٰ وعاءً لأعباءِ أحكام الألُوهيّة حاملاً، وعلىٰ قدر قوّة حمله لِمَا يُورده عليه من مَواهبه كان عند مولاه كاملاً؛ والمطهّر لهذا المكان الشّريف، الماحي منه ما يحجُبه عن التّعريف، هو نبيّنا [٢٨/ب] ﷺ، الذي كانَ لأعباء الرّسالة حاملاً، صلِّ اللهمّ عليه وعلى آلِهِ صلاةً تُصَيّرني له تابعاً وبطاعة ربّه عاملاً.

فصل

ومن آداب مَنْ عَلِمَ أنّه الماحي فَلْيُكْثِرْ[1] من مطالعة آثارِ محوه لعبادةِ الأصنام، وليمارسْ أحوال ما فتحَ الله علىٰ يدهِ الكريمةِ من ظُهور ملّةِ الإسلام، ويُمتّع نظره في سِيرته وغَزواته عليه أفضلُ الصّلاة والسلام.

ولينظرْ في جهاده، ومجاهَدتهِ في ذاتِ ربّه، وصبره علىٰ أذى قومه، ورجائِه من الله بعد إذايتهم له إيمانَهم، داعياً لهم بعد كسر رَباعِيَتِه[2] وشجِّ وجهه راغباً من الله إسلامَهم؛ فتمّم له المولىٰ جلَّ جلاله مُرادَه وبُغيته، وأكمل له دِينه ولَبّىٰ طِلْبَته، فانتشَر الإسلامُ في جميع الأقطار، وظهر نورُ الإسلام، وشاعَ في الأمصار؛ وكان من أُمّتهِ مَنْ أظهر دينَ الله نصرةً لرسوله، وعَمّمَ النور للمُقتفين به ببركته، فكان كلّ من صحبه إمامَ هدًى، ناصحاً عالماً حَبْراً، ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ [الأحزاب ٣٣/٢٥] .

---

(١) هذا أسلوب يتكرر من المؤلف؛ وفصيحه أن يقال: «من آداب من علم كذا وكذا أن يفعل كذا. . .».

(٢) الرّباعية: السنّ التي بين الثّنيّة والنّاب.

فيا أخي، إذا شغلتَ فكركَ في سيرته ﷺ وجِدّه في محو الكُفر بالله من القُلوب، زادك حُبّاً في حبيب علاّم الغيوب.

رُوي في بعض الأخبار(1) عن حَبيبنا المُختار أنّه أتاه جبريل عليه السّلام في أوّل رسالته من عند الله تعالىٰ، فحفَر الأرض بجناح له، فنبعت له عينٌ من ماء، فتوضّأ جبريل عليه السّلام، وأرىٰ محمّداً ﷺ كيف يُصلّي، ثم قال له:

يا محمد: اذهبْ إلىٰ قومك فادْعُهم إلىٰ شهادة أنْ لا إلٰه إلاّ الله، وأنّك رسول الله، وطهّر الأرضَ من عبادة غير الله؛ فقال عليه السّلام: إنّ قَومي في جاهليّة جَهْلاء، وفي ظلمةٍ ظلماء، لا يُعَرّفون معروفاً، ولا يُنكرون منكراً؛ فقال له: يا محمد إنّ الله عز وجل قد عصَمك من قتلهم، وأما الصّبر فاصبِرْ علىٰ إيذائهم كما صبَر أولو العزم من الرسل، فخرَج رسول الله ﷺ حتىٰ أتاهم وهم حِلَقٌ حول الأصنام(2)، ولا يعرفونَ ربّاً، ولا يُنكرون منكراً، فناداهم عليه السلام: يا قوم! أدعوكم [29/أ] إلىٰ شهادةِ أنْ لا إله إلاّ الله، فقالوا: هذا مُحَمّد ينادي بكلمةٍ لا نعرفها! قال لهم كبيرُهم: ائتوني به، فلما أتوه به، قال له: ما حَملك علىٰ أن تنادي بهذه الكلمة وَسْطَ آلهتنا؟ أمجنونٌ أنت فنَداويَك، أفقيرٌ أنت فَنُغْنِيَك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: ما أنا بمجنونٍ ولا فقيرٍ، ولكنّي رسولٌ إليكم، أدعوكُمْ إلىٰ شهادةِ أنْ لا إلهَ إلاّ الله؛ فقاموا إليه وضربوه، وأقبلوا يرمونَهُ بالحِجارة؛ فبكىٰ ﷺ شفقةً عليهم، ورحمةً بهم

---

(1) وردت أطرافٌ من هٰذا الخبر الطويل في السّيرة النبويّة ـ لابن هشام 1: 244، 293 ـ 297، وسُبل الهدىٰ والرّشاد 2: 397، 447، 579، وصحيح البخاري 4: 83.

(2) تُجمع كلمة الحلقة على حِلاق (في الغالب) وحِلَق (على النادر) وحَلَق ـ قال سيبويه إن هذه الأخيرة اسمٌ للجمع ـ وحَلقات وحِلَقات.

ثم قال: حبيبي جبريل، أما تَرَىٰ ما صنَع قومي؟ فقال له: يا محمّد اصبْر كما صبر أُولو العَزْمِ من الرسل، وارجعْ إليهم، وادْعُهم إلىٰ شهادةِ أنْ لا إلٰه إلاّ الله، وأنّك محمد رسول الله، فرجعَ إليهم، فقامُوا إليه وضربُوه أيضاً، وملائكةُ الله تستره بأجنحتها، فبكىٰ ﷺ شفقةً علىٰ قومه، ثم قال حبيبي جِبريل ترىٰ ما صنَع قومي؟.

فقال: يا محمد اصبْر كما صبر أُولو العزم من الرُّسل، وارجعْ إليهم الثّالثة، وادْعُهُم إلىٰ شَهادةِ أنْ لا إلٰه إلاّ الله، وأنّك رسول الله فرجع إليهم ودعَاهُم إلىٰ ذٰلك، فقامُوا إليه وضرَبُوه بالحِجارة، والملائكة تستُره بأجْنِحتها؛ فبكى عليه السّلام شفقةً عليهمْ فبكت لهُ الطُّيُور في الهَواء، والملائكة في السماء، وعَجّوا إلىٰ الله تعالىٰ بالدُّعاء رحمةً لمحمّد ﷺ؛ فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ مَلك الأرض، وملك الرّيح، وملك السّحاب، وملك الجبال، ومَلك البِحار أن اهبِطُوا لمحمّد ﷺ فكونُوا أعواناً له، إن استغاث بِكم فأَغِيثوه؛ فأتىٰ إليه مَلَكُ الأرض فقال: يا محمد ائذَنْ لي حتىٰ آمُرَ الأرضَ فتبلعهم، فَسكت ﷺ؛ ثم نزل ملك الريح فقال: يا محمد، أنا ملك الريح أئذن لي حتى آمر الريح فتذريهم فسكت ﷺ، ثم نزل ملك السحاب فقال محمد: أنا ملك السحاب فأذن لي حتىٰ آمر السحاب فتمطرَ عليهم الحجارة كما أَمطرت علىٰ قوم لوط. [٢٩/ب] فسكتَ ﷺ؛ ثم نزَل ملكُ البِحار، فقال يا محمّد: أنا مَلَكُ البِحار فأذَنْ لي حتىٰ آمرَ البحارَ فَتُغرقَهم، فسكت عليه السلام؛ ثم قال له جبريل عليه السّلام: يا محمّد أنا رئيس الملائكة فأذَنْ لي حَتّىٰ آمر الملائكة تعذّب قومك بأصنافِ العَذاب فسكَت ﷺ، ثم رَفع يده في نحو السّماء فقال: إلٰهي، وسيّدي اهْدِ قَوْمي فإنّهم لا يعلمون(١)، فقال

---

(١) إتحاف السّادة المتقين ٨: ٢٥٨ والدُّرّ المنثور ٢: ٢٩٨.

جبريل: يا محمّد هذا دعاؤك لقومك وقد ضربوك؟! فقال: حبيبي جبريل إنّما بعثني الله بالرّحمة[1]، ولم يبعثني بالسّخط والنّقمة فقال له: جزاك الله من نبيٍّ خيراً عن أمّتك - ﷺ وعلى آلهِ وصَحبه وسلّم تسْليماً.

فصل

من آداب مَنْ عَلِمَ أنّ نبيّنا ﷺ ماحٍ للكُفر والسّيئات، صابرٌ في مَحْوِه، مُجِدٌّ في إظهارِ الدّين، وانتشار الحَسنات، فليتبعْهُ المُحِبّ له، ويقْتَدِ به في إظهار دينه، وتبليغ شريعته، وتبليغ أحكامه، سيّما في زمن صار فيهِ الدّين غريباً، بل الإسلام[2]

وروى النُّعمانُ بن بشير - رضي الله عنه - أنّ رسول الله ﷺ قال[3]: مَثَلُ المُذْهِنِ في حُقوق الله تعالىٰ والواقع فيها، والقَائم عليها، كمَثل ثلاثةِ نَفَرٍ كانُوا في سَفينة فاقتَسمُوها، فصار لأحدهم أسفَلُها، فبينما هم فيها إذ أخذ أحدهم القادم ليحطِم مكانه؛ فقالوا له: ما تريد؟ فقال: أُريد أن أَخرق بمكاني خرقاً، فيكون الماءُ أقربَ إليّ، ويكون فيها مُهَراق مائي[4]! . فقال بعضُهم: اتركُوه - أبْعَدَهُ الله! - يخرق في

---

(١) في الإتحاف ٧: ١٠٧ و«إنّما بُعثت رحمة ولم أُبعث عذاباً».

(٢) في النسخة (ب): «... في زمن صار فيه الإسلامُ غريباً، وامثال الواجبات، واتباع السّنة عجيباً». وهي أجودُ من مذهَبِ المصنّف في كتابه، لمكانِ السّجع فيه.

- وفي مسند أحمد ٧٣٠٤ حديث رسول الله ﷺ: بدأ الإسلام غريباً ثم يعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء. ولفظه في مسلم (الإيمان ٢٣٢) بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء. وينظر مجمع الزوائد ٧: ٢٧٨ وفتح الباري ٧: ٧.

(٣) في الأصول الخطية: مثل المداهن. وفي كتب الحديث: «مَثَلُ المُذْهِن...».

- وروي الحديث بألفاظ متقاربة. انظر مثلاً: صحيح البخاري ٣: ٢٣٧ ومسند أحمد ٤: ٢٦٨ و٤: ٢٧٣ وفتح الباري ٥: ٢٩٢.

(٤) مهراق الماء: مكان إراقته.

جهته، وقال بعضُهم: لا تدَعُوه يخرقها، فَيُهلِكنَا، ويهلكَ نفسه! فإن هم أخذوا علىٰ يديه نَجا ونَجَوْا، وإن هم لم يأخُذوا علىٰ يديه هَلك وهلكوا.

تأمَّلُوا ـ رحمكم الله! ـ تنبيه حبيبنا ﷺ وإيقاظَه لنا مِن غَفلتنا، وحِرْصَهُ علىٰ نَجاتنا.

وانظُروا هٰذا المثال، الذي ضربه لنا، فكأنَّ الأرض التي نحنُ عليها، بمنزلةِ سفينةٍ، وما يقع عليها من المَعاصي والمناكر فهو سببٌ للهلاك، ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٣٠] ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد ١٣/١١] ، ونَظير المعَاصي علىٰ الأرض، كمن أراد أن يخرق في السّفينة خَرقاً، وذلك سَببٌ للغَرق بأهل السّفينة، وكذلك المَعاصي، جعلَها الله جلَّ جلاله سبباً لهلاك أهل الأرض، والمُداهِنُ فيها هو مَنْ رأىٰ المَعاصي[1] وتركها ولم يُغيّر على أهلها، ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ [المائدة ٥/٧٩] ، والقائمون عليها هُم المغيّرون علىٰ أهلِ المَعاصي والقَبائح، الماحُون [٣٠/ب] لأثرها من أرض الله، القائمون علىٰ أهلِ الفِسق والفُجور، والّذين قال الله سُبحانه فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الحج ٢٢/٤١] .

فإن غلبَ الأخيارُ علىٰ الفُجّار، وأخذوا علىٰ أيديهم ومنَعُوهم عن الشّهوات والمُخالفات، وأمروهم بالطّاعات، لطَف المولىٰ سبحانه بِخَلْقِه، وأمْسَك عنهم العُقوبات؛ وإن تركوا الظّلمَ والبَغيَ وفُشُوَّ الزّنا وشرب

---

(١) يقال: داهنَ وأدهن إذا صانَع، وأظهر غير ما يُخفي.

الخُمور، وإعلان المناكير، والتلبُّس بالحرَام، والسَّرف في المال، واشتهار النَّميمة والغيبة، وأكلِ أموالِ النَّاس بالباطل، سلّط الله عليهم البَلايا والرّزايا، وما أراد بهم جَلّ جلاله من العذاب.

قال أبو الدّرداء ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ[1]: «لَتَأْمُرُنَّ بالمعروف، ولَتَنْهُنَّ عن المُنكر، أو لَيُسَلِّطَنَّ الله عليكم مَنْ لا يُبَجِّل كبيرَكم، ولا يَرحمُ صَغيرَكم؛ ويَدْعُو خِيارُكم فلا يُستجابُ لهم، ويَستنصرونَ فلا يُنصرون، ويَستغفرون فَلا يُغفر لهم».

وهٰذا الباب عظيم، والسَّلامة فيه قليلة، وشُروطه كثيرة، ومن وفّقه الله تعالىٰ، وحسنت نيته، وغلبت لهذا النبي الطاهر محبّته، وكان جُندياً لإحياء دينه، فلا يكون جندياً حتىٰ يُغرّرَ بنفسه[2]، [كما قيل]: ألاَ إنَّ الأمَر يَسْهُل باللِّسان، ويصعبُ الإخلاص فيه بالجَنان.

قال عبيدُ الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: حَسْبُ أحدكم إذا رأىٰ منكراً لا يستطيعُ تغييره أن يقولَ ثلاثَ مرّات: «اللّٰهمّ هٰذا منكر»؛ فإذا قال ذٰلك، فلهُ ثوابُ مَنْ أمَر بالمعروف، ونَهىٰ عن المنكر[3].

وهذه إشارةٌ كافيةٌ، تليقُ بهذا التّقييد الكريم، ونَستغفرُ الله لي ولكم، إنه هو الغَفُور الرّحيم.

---

(١) حديث صحيح في مسند الإمام أحمد ٥: ٣٨٨، ٣٩٠، ٣٩١، والمؤلف يرويه هنا بالمعنىٰ؛ وألفاظه في كتب الحديث متقاربة كما في مجمع الزوائد ٧: ٢٦٦ وتهذيب ابن عساكر ٢:

(٢) غَرَّرَ بِنَفْسِه: عَرّضَها للهَلَكةِ؛ يعني في سبيل الأمر بالمعروف والنّهي عن المُنكر.

(٣) فيه إشارة إلى أكثر من حديث عن النبي ﷺ، ومنه قوله عليه الصّلاة والسلام: إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى إنه ليسأله يقول: أي عبدي رأيت منكراً فلم تنكره فإذا لقن العبد حجّته قال يا ربّ وثقت بك وخفت الناس. رواه الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فصل

ويجبُ علىٰ المتأدِّب بأخلاقهِ عليه الصلاة والسلام، أن يمحو من نفسِه جميعَ الآثام الظَّاهِرة والباطِنة، ويَستبدل بها الأخلاق المرضية الناعمة، وهذا الخطاب لي ولكم أيها الرّاغبون في النجاة والفَوز بالحياة الطَّيبة، والعافية الدائمة [٣١/أ].

أما الآثام الظَّاهرة فمعلومةٌ مشهورةٌ، والكُتب الفقهية بها مملوءةٌ مسطورة، وأمَّا المَعاصي القلبيّة - خلّصني الله وإيّاكم منها، ومحاها من قلوبنا، ومَنحنا ما هو خير منها - فالشّرك بالله، والنّفاقُ، والكُفر، والاغترار بالله، والأمن مِن مكر الله، والقُنوط من رحمة الله، واحتقارُ الذّنوب، والتّسويف بالتّوبة، والإصرار علىٰ المَعاصي، وقِلّةُ الاكتراث بتراكم الأوزار، والتكبّر علىٰ خَلقِ الله، والتعزّز والتّيه في الدُّنيا، والزُّهد والتّفاخر والمُباهاة والعُجب والرّياء، والازدراء بالنّاس، والاحتِقار لهم، وحُبّ الزينة في الدّنيا، والتّقرُّب إلىٰ الأغنياء والخُضوع لهم، والتباعد عن الفُقراء والأنفة منهم، وحبّ الخديعة، وطلب الجاه، والحَسد فيما فضّل الله به بعض خلقه علىٰ بعض، وسوء الظّنّ والتجسّس، وإضمار السُّوء، والتربُّص بالدوائر، والكذب، والنكث[1]، والغشّ، والخديعة، والغدر، والخيانة، ومتابعة الهوى، ومُخالفة الحقّ، والرضا بالهوىٰ، والبغض والجفَاء، والقطيعة والقَسوة، وقلة الرّحمة، والأمانيّ، والحرص والشَّرَه، وقلّة الحُزن في القلب، والطِّيرَة، والفَرح بإقبال الدُّنيا، والطُّغيان بالمال وبالجاه، وطول الأمل، وخوف الفَقر، وقلّة الثّقة بالله تعالى، والطّمع، وقلة الرّضا بِقسمةِ الله، واحتقار النّعم التي مَنَّ عليه بها، واستِبطاء الله تعالىٰ في العَطِيّة، والغَفلة عن الله سُبحانه، والاحتقار

---

(١) النَّكث: نقض العهد وشِبْهه.

لمصائب الدّين، وحبّ القلب لتزيين الظّواهر من اللّباس والأكل والبناء، والتّمتّع، والحُزن علىٰ ما فات من الدُّنيا، والأسف عليها والسُّرور بموافقة الشّهوات الدُّنيوية، والاستهانة بالعِلم وأهْلِهِ بأن لا يَطلبه ولا يعملَ به[1]، وأن يضيعَ نفسه ويهينَها لمن يحقره. وقلّة الحياء من اطّلاع المَولىٰ سُبحانه عليه، فهذه الأفعال كلها مذمومة شرعاً وهي حبائل الشّياطين، وعلامة الشقاوة يوم الدين فيجبُ عليّ وعليكَ مِن قلوبنا محوُها، ويتأكد على [٣١/ب] المؤمن[2] دفعُها وردّها؛ وأضدادُها: صفةُ العلماء المُتَحققين[3]، وصفة أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين؛ فَقَلَّتْ ـ وَاللّٰهِ ـ السّلامَةُ من واحدةٍ منها في مُذَكَّرِكُم، وقلّت النجاة عند خالِقِي وخالقكم إن لم يكنْ عفوٌ منهُ ـ سبحانَهُ ـ لي ولكم.

إلٰــهــي لا تــعــذّبــنــي فــإنــي ... مــقــرٌّ بــالــذي قــد كــان مــنــي[4]
ومــالــي حــيــلــةٌ إلاّ رجــائــي ... لــعــفــوكَ إن عــفــوتَ وحُــسْــنُ ظَــنّــي
يــظــنُّ الــنــاسُ بــي خــيــراً وإنّــي ... لَــشَــرُّ الــنّــاسِ إنْ لــم تَــعْــفُ عــنّــي!

وهذا الاسم الكريم يَستدعي الكلامَ علىٰ كثيرٍ ممّا يجبُ محوُه، وإزالتُه من القُلوب، وعلىٰ تغيير المناكير الباطنة والظّاهرة؛ وشروط ذلك وما فيه من الحكاياتِ وذكرِ الجُزئيات نَقْلُه وشرحُه يطول، والله الموفق بمنّه وكرمه لا إله غيره.

---

(١) في ج: والاستهانة بالعلم بألاّ يعملَ به ولا يكتفي به.
(٢) في ج: ويتأكد في حقّ المؤمن رفعها وردّها.
(٣) في أ، ج: المتخلّقين.
(٤) من بحر الوافر.
ـ والشعر من المحفوظ المشهور.

بَابٌ

في اسمه

الحاشر[1]

صلّىٰ اللّه عَليه وسَلم وشرّف وكرّم

الحاشر اسمٌ من أسمائِه عليه أفضلُ الصّلاة والسلام، ورَدت به الآثار، وصريحُ الأخبار.

رُوي من طريق جُبَيْر بن مطعم - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال[2]: «لي خمسةُ أسماء»، وذكَر منها: «أنا الحاشر الذي يحْشُر الله الناسَ علىٰ قدمَيّ...».

قال القاضي أبو الفضل عياض - رحمه الله -[3]: قوله «أنا الحاشر الذي يحشرُ اللّهُ النّاسَ علىٰ قَدميّ» أي علىٰ زَماني وعهدي، وليس بعدي نبيّ - كما قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٠] قال: وقيل: «علىٰ قدمي» أي: يُحشر النّاسُ بمشاهدتي، قال الله تعالىٰ: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ [البقرة ٢/ ١٤٣] .

---

(١) وَرَدَ شرحُ هٰذا الاسم من أسمائه ﷺ في: أسماء رسول الله ﷺ ومعانيها: ٣٣، والشفا ١: ٤٤٧، وزاد المعاد ١: ٩٤، والرّياض الأنيقة: ١٣٧، وسبل الهدىٰ والرّشاد ١: ٥٤٨، والمواهب اللدنية ١: ١٨٨ (وذكر أقوالاً في معنىٰ الحاشر).

(٢) سبق في الصّفحة ٢٣.

(٣) الشفا ١: ٤٤٧ - ٤٤٨، ومناهل الصفا: ١١١، ودلائل النبوة للبيهقي ١: ١٥٤.

فَسمّاه الله تعالىٰ حاشراً علىٰ القَول الأوّل. بمعنىٰ أن الله تعالىٰ يحشرُ الخَلْقَ علىٰ زَمنِه، فكان وجودُه ﷺ سبباً في الحشر، وفي انقضاء الدُّنيا، وإقبال الخلائق علىٰ ربّها يوم القيامة ولذا قال عليه الصّلاة والسّلام[1]: بُعِثْتُ والشّمسُ علىٰ أطرافِ النّخيل؛ إشارةً لِقُرب السّاعة من زمانِ بعثهِ ﷺ.

فَسُمّي حاشراً لأنّ وجوده عليه الصلاة والسلام سببٌ في الحشر. والحاشر حقيقة هو الله تعالىٰ، وفيه من التّفخيم لمقام نبيّنا ـ ﷺ ـ والتّنويه بمنزلته [٣٢/أ] وعلوّ مكانه عند ربّه في كونه سمّاه تعالىٰ حاشراً؛ فكأنّه هو الذي حَشَر الخلائق كلّهما إنسها وجنّها من لَدُنْ خَلَقَ اللّهُ الدّنيا إلىٰ انقضائِها.

وكأنّ في هذه التّسمية لرسولهِ من المكانةِ ما يَعجز عنه اللّسان ولا يحيطُ به بيان؛ وهذا بَيّن علىٰ القول الأوّل في معنىٰ الحاشر.

وأما القول الثاني في قوله: يُحشَرُ النّاسُ بمشاهدتي، ففيه أيضاً من كمال المَبَرّة والإكرام من ربّ الأرباب لنبيه عليه السلام، ما فيه من علوّ الشرف، وغاية الرّفعة علىٰ سائر المَخْلُوقين، وإظهار منصبه لهم عند ربّ العالمين في كونِ الخَلائق التي لا يُحصيها إلاّ خالِقُها مجموعةً في الموقِف العظيم، لتكونَ تابعةً موقوفةً علىٰ شهادةِ نبيّهِ الكريم، وتزكية صاحِب الخُلق العظيم.

---

(١) جاء في مجمع الزوائد ١ : ٣١١ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رسولَ الله ﷺ نظر إلىٰ الشمس عند غروبها علىٰ أطراف سعف النخل، فقال: «ما بقي من الدّنيا فيما مضىٰ منها إلاّ مثل ما بقي مِن يومكم هٰذا فيما مضىٰ منه» وقال: رواه البزار، وفيه هشام بن عبد الرحمٰن ولم أعرفه، وبقيّة رجاله ثقات.

فصل

هذا الاسم العظيمُ دلَّ على أنَّ السَّاعة وقيامها قريبٌ من زمنه وبعثته عليه الصلاة والسلام، وقد قال ﷺ[1]: «بُعِثْتُ أنا والسَّاعة كهاتَيْن» وأشار إلى السَّبابة والوسطى. وقد قال تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد ٤٧/١٨]، و﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢١/١]، و﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ [القمر: ٥٤/١].

وروى أبو الربيع سليمان بن سَبُع في كتابه[2]، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: إن رجلاً ركب ثوراً بالسَّرج على عهد رسول الله ﷺ وبيد الرجل عَصا، فأَقْبَل يضرب عُنق الثور بالعصَا، يميناً وشمالاً، ويعنف عليه في السَّير، فتكلَّم الثور وقال: اتق الله يا رجل، لا تُعَذِّبْنِي فإنَّ اللَّهَ لم يَخلُقني لهذا، إنّما خلقني للحرث والدِّراسة؛ وهذا نبيٌّ كريمٌ بينَ أظهركم فاسأَلْهُ يُخبرك بذلك، وهو محمَّد ﷺ، فأخبره الرَّجُل فقال ﷺ صدقت، وهذا من أَشراط السَّاعة[3]، يعني كلامَ من لا يتكلَّم، ثم قال عليه السَّلام: إنّ اللَّهَ تعالى بَعثني بين يَدي السَّاعة، ومالها عليّ إلاّ كفضلِ ما بينَ إصبعيّ هاتين؛

---

(١) الحديث في صحيح مسلم ٥٩٢، ٢٢٦٧، ومسند أحمد ٤: ٣٠٩.

(٢) أبو الرَّبيع سُليمان بن سَبُع السَّبتيّ له كتاب: شفاء الصُّدور؛ في الشَّمائل، والخَصائص النبوية؛ والسِّيرة، ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ٢: ١٠٥٠. وله مختصر في دار الكتب المصريّة كما في «معجم ما أُلف عن رسول الله ﷺ: ١٩٠، ويُشار إليه أيضاً باسم الشفا.

(٣) ورد في صحيح مسلم أنّ رسول الله ﷺ قال: «بينما رَجُلٌ يسوق بقرةً له، قَدْ حَمَلَ عليها، التَفَتَتْ إليه البقرة فقالت: إنّي لم أُخْلَق لهذا، ولكنّي إنّما خُلِقْت للحَرْث فقال النّاسُ: سُبحانَ اللّه! ـ تعجُباً وفَزَعاً ـ أبقرةٌ تَكَلَّمُ؟! فقال رسول الله ﷺ: «فإنّي أُومِنُ بِهِ، وأبو بكر وعمر»! صحيح مسلم: ١٨٥٧.

ومدَّ أَصابعه السّبّابة والتي تليها، وإنّ لذلك علامةً سوف تكون. قال أبو هريرة رضي الله عنه[1] فما مرت الأيّام والليالي حتىٰ انشقّ القَمَرُ في تلك اللّيلة فِلْقَتَيْن قال الحَسن: [٣٢/ب] أدركتُ رجالاً يقولون: إنّا رأينا جبَل أبي قُبَيس[2] بين فلقتيه ففزع الناس وقالوا يا رسول الله: أيكونُ هٰذا أبداً؟، قال: لا يكون إلاّ هٰذه الليلة الواحدة، ثم هو كما كان؛ قالوا: يا رسول الله ولِمَ أصابَهُ ذلك؟ قال: هذه آية جعلها الله لي، ليعلم أهل الكتاب أنَّ الله بعثني نبياً، وأن الساعة قريب مني؛ فلما كان في الليلة الثانية عادَ قمراً واحداً بِقُدرة الله تعالىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر ٥٤/ ١ ـ ٢].

والآثارُ كثيرة بهٰذه الأخبار، تحصّلُ للمُؤمنين القطعَ بأنّ الساعة قريبٌ قيامُها، وأنّ الدّنيا قد دَنا زوالُها.

وقد ظهرت شروطٌ كثيرةٌ من علاماتها، ممّا أَخبر به الصّادق الأَمين، عن ربِّ العالمين، ومن طريق أَبي هُرَيرة رضي الله عنه وغيره، فذكر ثَلاث عشرة علامةً[3]، ظهر أكثرُها، وما بقيَ إلاَّ أكبرُها وأَعظمها مثل: طُلوعِ الشّمس من مَغربها، ونزولِ عيسىٰ عليه السّلام، ورَفعِ القُرآن؛ نَعُوذُ بالله من ذٰلك الزّمان، ونستعينُ به من جميع الفِتَن ما ظَهر منها وما بطَن.

---

(١) ينظر الخَصائص الكبرى للسيوطي ١: ٢٠٩ ـ ٢١٠.

(٢) أبو قبيس: جبلٌ مُشرفٌ على مكة المكرّمة. وقد سبق التعريف به.

(٣) ينظر الأحاديث الكثيرة والآثار الواردة في أشراط السّاعة مثل مسند الإمام أحمد ١: ٢٧، ٢: ٤٢٦ والبخاري ومسلم في باب الإيمان.

فصل

ممّا يناسب ذِكره في هٰذا الاسم الكريم ما رواه الخطيبُ أبو بكر أحمد بن عليّ[١] قال: أخبرنا مالك بنُ أنس عن نافع عن ابن عُمر قال: كتب عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ إلى سعد بنِ أبي وقّاص رضي الله عنهما وهو بالقادسيّة أنْ وَجِّهْ نَضلة[٢] بن معاوية إلى حُلوان[٣] في سَرِيّة فَلْيُغيروا على نَواحيها؛ قال[٤]: فوجّهه في ثلاث مئةِ فارسٍ فخَرجوا حتّى أَتَوا حُلوان العراق، فأغاروا على نَواحيها فأَصابوا غنيمة وسبياً فأَقبلوا يَسُوقون الغنيمة والسَّبي حتى أدركهم العَصْرُ، وكادت الشمسُ أن تغرب، قال: فأَخذ لهُ الغنيمةَ والسّبي إلى جبل ثم قام فأذّن فقال: الله أكبر الله أكبر؛ فإذا مجيبٌ يجيبه من الجبل: كبّرتَ كبيراً يا نَضْلَة. ثم قال: أَشهد أن لا إله إلاّ الله؛ قال: كلمةَ الإخلاص يا نَضْلَة ثم قال: أشهد أنّ محمّداً رسول الله؛ فقال هذا الذي بَشّر به عيسى بن

---

(١) هو الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي، أحد الحفّاظ المؤرّخين المقدّمين ـ كما حلاّه الزركلي ـ (٣٩٢ ـ ٤٦٣) كان أديباً فصيحاً يقول الشعر ولوعاً بالمطالعة والتأليف، وأشهر مؤلفاته: تاريخ بغداد؛ وله مؤلفات كثيرة باقية بين مطبوع ومخطوط.

(٢) في أ، و: ج: فضلة وفي ب: فضالة.
-والصّواب في اسمه: نضلة بن معاوية؛ نَضْلة بالنّون؛ الأنصاري.

(٣) حلوان: بلدة بالعراق. قال ياقوت (معجم البلدان ٢: ٢٩٠) هي في آخر حُدود السّواد ممّا يلي الجبال من بغداد. فتحت سنة ١٩ (قال وروي فتحها سنة ١٦).

(٤) هذا الخبر في تذكرة القرطبي ٧٣١ قال: ذكر الخطيب أبو بكر أحمد بن عليّ عن عبد الرحمن بن إبراهيم الراسبي. قال أنبأنا مالك بن أنس... الخبر. وفي آخره قال الخطيب: تابع إبراهيم بن رجاء أبا موسى عبد الرّحمن الرّاسبي على روايته عن مالك وليس بثابت من حديثه.

ـ والخبر في مختصر تذكرة القرطبي للشعراني: ١٥٦.

مريم ﷺ [٣٣/أ] وعلى آخر أُمّته تقوم القيامة. قال: حيّ على الصلاة؛ فقال: طوبىٰ لِمَنْ مشى إليها وواظب عليها. قال: حيّ على الفلاح؛ فقال: قد أفلح مَن أجابَ محمّداً ﷺ. قال: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلاّ الله؛ فقال: أخلصتَ الإخلاصَ كلّه يا نَضْلة؛ فحرّم الله بها جَسدك كلّه على النّار.

فلمّا فَرغ من أذانِه كُلّه، قُمنا فَقُلنا، مَن أنت يرحَمُكَ الله؟ أمَلكٌ أنت، أم ساكنٌ من الجن، أم طائفٌ من عباد الله؟ أسْمَعْتَنا صوتَك، فأرِنا صُورَتك، فإنّا وفْدُ الله، ووَفْدُ رَسُولِه، ووَفْدُ عُمر بن الخطاب.

قال: فانفَلق الجبلُ عن هامةِ رجلٍ أبيض الرّأس واللُّحية، عليه طِمران من صُوف فقال: السّلامُ عليكم، ورحمة الله وبركاته. فقلنا: وَعليكَ السّلام ورحمةُ الله وبركاتُه، من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا من أوصياء العبدِ الصّالح عيسىٰ بن مريم[(١)]، أسكنني هٰذا الجبل، ودَعا لي بطُول البَقاء، إلىٰ نُزوله من السّماء فيقتل الخِنزير ويكْسرُ الصّليب، بعد أن فاتَنِي لِقاءُ محمّد ﷺ، فأقْرِئوا عُمَر منّي السّلام، وقولُوا له: سدِّدْ وقارب؛ فقد دَنا الوقتُ؛ وأخبروه بهٰذه الخِصال التي أُخبركم بها، فإنّها إذا ظهرت في أُمّةِ محمد ﷺ فالهَربَ الهربَ: إذا استغنى الرجالُ بالرّجال، والنّساءُ بالنّساء، وانتَسَبُوا في غير مَناسِبِهم، وانتَمَوا إلىٰ غيرِ مَواليهم، ولم يَرحَمْ كبيرُهم صغيرَهم، ولم يوقِّرْ صغيرُهم كبيرَهُم، وتُرِكَ المعروفُ فلَم يُؤمر به، والمنكر فلم يُنْهَ عنه، وتَعلّمَ عالِمُهم العِلم ليَجْلِبَ بِهِ الدّنانير والدّراهم، وكانَ المطَرُ قيظاً، والوَلدُ غَيظاً[(٢)]، وطوّلوا

(١) في كتاب التذكرة في أحوال الموتى والآخرة: ٧٣٢: «قال أنا زرنب ابن برثملا (كذا) وصيّ العبد الصّالح عيسى بن مريم أسكنني هذا الجبل... الخ».

(٢) في الأصول: «كان المطر قيضاً والولد غيضاً» وهو تحريف والتصويب من التذكرة.

المنارات، وفضّضُوا المصَاحِف، وشيّدوا البناءات، واتّبعوا الشّهوات، وباعُوا الدين بالدُّنيا، واستَخفُّوا بالدِّماء، وقَطعيةِ الأَرحامِ وبَيع الأَحكام وأَكلِ الرّبا، وصار الغِنىٰ عِزاً، وخَرج الرجلُ من بيتِهِ [٣٣/ب] فقام إليه من يكونُ خَيراً منه وسلّم عليه، وركبت النساءُ السُّرج(١).

ثمّ غابَ عنّا، قال: فكتب نَضْلةُ إلىٰ سَعد، وكتب سعد إلى عُمَر ابن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ بهذا الخبر.

فكتب عمر لسعد: يا سعد: لِلّه أبوك! سر أنت ومن معَك من المهاجرين والأنصار حتىٰ تنزلوا هذا الجبل، فإذا لقيتَ الرَّجُلَ فأَقرئه مِنّي السَّلام، فإنّ رسول الله ﷺ أخبرنا أنّ بعضَ أَوصياءِ عيسىٰ عليه السَّلام، قد نزَل ذٰلك الجَبل.

قال فَخرج سعد في أَربعة آلاف من المهاجرين والأَنصار حتىٰ نزلوا الجبل، وأقاموا هناك أربعين يوماً، وهو ينادي في كلّ صلاة، ولم يُجبه أحد. انتهىٰ.

فهذا كلُّه يحقّق عندك ـ أيُّها المُحِبّ ـ لنبيّنا ﷺ أنّ مَبعثه علامةٌ دَالّةٌ علىٰ انقِراض الدُّنيا، وإقبال الآخرة وأنّه إنما سمّاه الله الحاشر تَنبيهاً علىٰ ذٰلك، وأنّه مِن خَصائصه ولم يوجد ذلك في أحد من الأَنبياء قبله ـ ﷺ ـ وأنالنا من أياديه الفاخرة.

فصل

من آداب من عَلِمَ أنّ نبيّنا ـ ﷺ ـ اسمُه الحاشر، وأنّ معناه ما

---

(١) في التذكرة: ٧٣٣: خَرّج أبو نُعيم من حديث حذيفة بن اليمان، قال: قال رسول الله ﷺ: من اقتراب الساعة اثنتان وسبعون خصلة إذا رأيتمُ الناس أماتوا الصلاة، وأضاعوا الأمانة، وأكلوا الربا... الخ الحديث.

ذكرنا، فليتأهّبْ للقاء الله، وليعملْ بما أمَره رسول الله ﷺ، ويكنْ مُقبلاً علىٰ الدار الآخرة بالأعمال الصّالحة، ويدّخر من عظيم الزّاد ليوم الميقات[1]، ويتذكر الموت الممغّص للّذات، المُفرّق للجَماعات، الميتّم للبنين والبنات، وليَتّعِظ بِمَنَ مَضىٰ قبله، ومَنْ فارَق من الأحباب، ولْيمتَثِلْ أمْرَ مَوْلانَا جَلّ جلالَهُ في قوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢/١٩٧] .

ويُروىٰ عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ أنّه خَرج ذات يوم إلىٰ مقبرةٍ فلمّا أشرفَ عليها قال: يا أَهْلَ القُبور أخبرونا عنكم أو نخبركم؛ أما الخبر الذي عندنا فالمالُ قد اقْتُسِم، والنّساء قد تَزَوَّجْنَ، والمَساكن قد سكنَها قومٌ غيرُكم، ثم قال: أمَا والله لو استطاعوا لقالوا: إنا لم نَرَ زاداً خيراً من التّقىٰ.

فإنّكَ إذا علمتَ أنّ نبيّنا محمداً ـ ﷺ ـ اسمُه الحاشر ـ فلا يزال قلبُكَ معلّقاً بيوم الحَشر والحِساب، ويوم التّغَابُنِ والخُسْران والعِقاب، يوم عرضِ الأعمالِ علىٰ مَلكِ المُلوك ورَبّ الأرباب، وإظهار الفَضائح المستورة [٣٤/أ] وذهاب الألباب؛ وجمع الخلائق في يوم الحَشر الذي لا رَيْبَ فيه، يومَ يفرّ المرءُ من أخيه، وأُمّه وأبيه؛ لا عزيزَ فيه إلاّ مَنْ أعَزّتْهُ الطّاعة، ولا تاجَ فيه إلاّ مَنْ بِاللّه نالتهُ الشّفاعة، ولقد أحسَن أَبُو العَتاهِية في قوله حيث قال[2]:

يا عجباً للنّاسِ لو فكّروا ... وحاسَبُوا أنفسَهم أبْصَرُوا[3]

---

(١) أراد: يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ كانَ مِيقَاتاً﴾ قال في الجامع لأحكام القرآن (١٩ : ١٧٥) قوله تعالى إن يوم الفصل... الآية؛ أي وقتاً ومجمعاً وميعاداً للأوّلين والآخرين؛ لِمَا وَعَد الله من الجزاء والثواب.

(٢) ديوان أبي العتاهية؛ ١٥١.

(٣) من بحر السّريع.

وعَبروا الدُّنيا إلىٰ غَيرِها فإنّما الدُّنيا لَهم مَعْبَرُ
لا فخرَ إلاّ فخرُ أهلِ التُّقىٰ غَداً إذا ضمَّهُمُ المَحْشَرُ
ليَعلَمِ النّاسُ بأنّ التُّقىٰ والبِرُّ كانا خَيْرَ ما يُذْخَرُ
عجبتُ للإنسانِ في فَخرِهِ وهو غَداً في قبرِهِ يُقْبَرُ
أصبحَ لا يَملِكُ تقديمَ ما يَرجُو ولا تأخيرَ ما يحذَرُ
وأصبحَ الأمرُ إلىٰ غيرِهِ في كلِّ ما يُقضَىٰ وما يُقدَرُ

وإذا قَسا قَلْبُكَ، وامْتَنَع دَمْعُكَ، وأقبلت علىٰ دنياك وأعرضت عن آخرتك، وانهمكت في لذتك وفَرحك وسُرورك ونظرك وتَصرُّفك في رعيتك، ونفوذ أمرك وغَفلتك عن مولاك، وعميت عن مَضَرّةِ السيئات، وعن دعوة المظلوم وأنت غافلٌ في الظلمات، وأقبلت عليكَ الدنيا وأظهَرَتْ عِزَّكَ، وقلّت من بين الناس المَكْرُمات، فلا تغترِرْ يا غافلاً بهذه الدّار فعن قليل زوالُها، ويذهب عنك غُرورُها وسرورها ويبقىٰ عليك وبَالُها، ودَاوِ نفسَك وقلبكَ إذا وجدتَ فيه القَساوة بادّكارِ الأموات، وذهابِ اللذّاتِ، وحَسْرَة الفَواتِ، وهَمِّ التّباعات، واسْتِحضار حُلول السّكرات.

وأكْثِرْ من زيارة القُبور ومعاشرة المُصلحين، ومذاكرة العُلَماء العَامِلين، ومجالسة الفُقراء، والزّاهِديْنَ الصّالِحين، وَمحبّة النّظر في كُتب الوّعظ وكلام المذكّرين، ومَناقب الصّالحين، والتّأمُّل في سيرة الصحابة وأولياء الله المُقَرّبين، والتّفكر في كتاب الله تَعالى ممّا فيه من وعدٍ ووعيد، ونذيرٍ وتَحذير من ربِّ العَالمين، وإنشاد الأشعار التي تحذّر من هٰذه الدار، ومن الرّكونِ فيها إلى الأغيار، كما كان شعار المتّقين، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كثيراً ما يتمثّل بهٰذه الأبيات[1]:

---

(١) الأبيات في بهجة المجالس ٢: ٣٤٠.

لا شيءَ مِمّا تَرىٰ تبقىٰ بشاشتُهُ يبقىٰ الإلهُ، ويفنىٰ المالُ والوَلدُ[1]

لم تُغنِ عن هُرمزٍ يوماً خزائنُهُ والخُلد قد حاوَلتْ عادٌ فمَا خَلَدُوا[2]

ولا سليمانَ إذْ تجري الرِّياحُ له والجنّ والإنس فيما بينَها تَرِدُ

أينَ الملوكُ التي كانت لِعزّتِها مِن كلِّ أَوبٍ إليها وافِدٌ يَفِدُ

حَوضٌ هنالكَ مورودٌ فلا كَذِبٌ لا بدَّ من وِردِه يَوماً كما وَرَدُوا

وبالجملةِ ـ يا أخي ـ فالنَّظرُ في عواقبِ الأُمور، وما يؤولُ إليه مآلُ الإنسان من موتٍ، وقبرٍ، وبعثٍ، وحشرٍ، ونشرٍ، وحسابٍ وعقابٍ، وصراطٍ، وجَنّة، ونار، إذا ذكرته بِحَقٍّ تَفطّرت منه الأكبادُ، واشتَغلت النفوسُ عن شَهواتها بإعداد الزّاد ليوم المَعاد؛ أيقظنا الله من غَفلتنا، ولا آخَذَنا علىٰ غِرّتنا، بِمَنّه وفَضْلِه.

ولولا مخافةُ السّآمة، والمَلل علىٰ النُّفوس لذكرنا مع هٰذا الاسم من كلامِ الوعظ في أحوالِ الآخرةِ ما يخوّفُ القُلوبَ من علاّم الغُيوب، وفيما ذكرنا كفايةٌ إن شاء الله، نرجو به الثواب عند الله.

---

(1) من بحر البسيط.

- والبشاشة: طلاقة الوجه. وبشاشة اللّقاء: الفرح بالمرء والانبساط إليه والأنس به. يقول الشاعر لا يبقى شيء على حال جِدّته وحُسنه بل تمر عليه الأيام والليالي فيتغيّر ويبلى ويذهب.

(2) يضرب بهرمز المثل في الكفر (البيان والتبيين ٤: ١٤).

باب

في معنىٰ اسمه

العاقب(١)

صلّى اللّه عليه وسلّم وشرّف وكرّم

العَاقِبُ: اسمٌ من أسمائه عليه الصلاة والسلام ورد به صحيح الأخبار، ومشهور الآثار.

وإنّ النبي ﷺ لمّا عدّد أسماءه قال منها(٢): «وأنا العاقِب» ووقَع في روايةٍ عن أبي موسىٰ الأشعري ـ رضي الله عنه أنّه ﷺ كان يُسمّي لنا أسماءه، فذكر منها(٣): محمداً وأحمدَ والمُقَفّي، والحَاشِر والعاقِب، ونبيّ الملحمة.

قال القاضي أبو الفضل عياض ـ رحمه الله(٤) ـ: والمقفّي هو العاقب؛ الذي بعثَه الله عقبَ الأنبياء الكرام: أتى بعدَهُم وعَقِبهم، وجعله

---

(١) وَرَدَ تفسير هٰذا الاسم بن أسمائه ﷺ في: أسماء رسول الله ﷺ ومعانيها: ٣٣، والشّفا ١: ٤٤٧، وزاد المعاد ١: ٩٤، والرياض الأنيقة: ١٢٠٨ ولم يذكره صاحب سبل الهدىٰ والرّشاد، على أنّه أوْرَد حديث النبيّ في أسمائه ١: ٤٩٦، وفيه «... وأنا العاقب...» والمواهب اللدنية ١: ١٨٨.

(٢) انظر الصفحة: ٢٣ من هذا الكتاب.

(٣) الشفا ١: ٤٥١.

(٤) الشفا ١: ٤٥١.

الله تعالىٰ أفضَلهم وأكملَهم وأعَزهم وأرْفَعهم وأوجههم وأحسنهم، مع تمام كمالهم وعصمتهم وعلّو قدرهم وشرفهم كلهم، فإن الله ـ عزّ وجَلّ ـ اختارَ من خلقهِ الأنبياءَ عليهمُ السَّلام، وأكمل خَلْقهم وخُلُقهم، وطهّرهم من جميع النَّقائص في خَلْقهم [٣٥/أ] وأخلاقهم وأقوالهم وأفعالهم، وطهّر قلوبهم، وجعلَها علىٰ كمال الإيمان به، والمعرفةِ والمحبةِ له، وصيّرها مَحَلاً لإظهار أنوار معارفهِ، وصفّاها من شوائب الأَغيار، وملأها[1] ببدائع الأنوار، وخصّها بمعادن الأَسرار، وجعلهم وسائط بينه وبين عباده، لِيُطَهِّرُوهم من خَبائث هٰذه الدّار، ويأمُروهم بأن يتخلّقوا بالأخلاق التي تُوصِلُهم إلىٰ كرامة الله تَعَالىٰ، وجَنّته دارِ القَرار، وجَعلهم مُبَشِّرين لأُمّتهم، آخذين عليهم الميثاقَ بتصديقهم ببعثةِ نبيّ الله وحبيبه ورسوله النبيّ المُختار ﷺ، وعلىٰ آله الأبرار.

فما زال كلُّ رسولٍ من رُسل الله ـ صلّى الله عليهم أجمعينَ ـ معظّماً قَدْرَ نبيّنا، ﷺ، معلماً بأنّه قُطب هذا العالم وواسطته، وعليه يدورُ مبدؤهُ ومُنتهاه، فاتحته وخاتمته، ولذا سَمّاه ربه الفاتح الخاتم[2]، حينَ أبرز فيها سُبحانه سرّه المكنون، وحبيبه المعصُوم المَصُون، وأنّه الّذي لأَجْلِه خلقَ الوجود وسمّاه بإكسير المَحامد، وزَيّن به العالَمَ[3].

---

(١) ترد كلمة (الأَغيار) في مُصطلحات الصّوفية (جمع غير)، وكثيراً ما يُوردون عبارتَيْ (الغير) و(السّوى) هكذا بإثبات (ال) فيهما.
ـ وربما وردت (الأغيار) في عبارات الفقهاء.

(٢) عقد المؤلف ـ رحمه الله ـ الباب الخمسين لمعنى اسمه الفاتح ﷺ والباب السّادس والثمانين لمعنى اسمه الخاتِم والخاتَم؛ من هذا الكتاب.

(٣) في هذه الفقرة أشياء تدخل في مبالغات «القوم»، ولم يصحّ في مثل قوله «إكسير المحامد» حديث. وانظر إشارتنا العامة في مقدمة التحقيق.

فكانَ حبيباً للملك المعبود، وأشرق العالَمُ العلويّ والسُّفلي بنورِ بروزهِ ليلةَ ولادته، وتزخرفت الأرضُ، وافتخرت السموات بقدومه، وطهّر الله لأمّته الأرضَ لِفرحها بطهارته، وانخرقت فيه العادات، وأظهر اللّهُ لأمّه آمنةَ عجائبَ وآيات، وظهرت البُشرىٰ عند ملائكة الأرضين والسّموات، وزَها الوجودُ كلُّه وعمّت فيه البَركات، فكانت ولادتُه ـ ﷺ ـ في أشرفِ اللّيالي والأيّام، وفي خير زمانٍ وليلةٍ ومكان؛ إذ هو أشرفُ مَنْ خَلق اللّهُ تَعالىٰ من الأنام؛ كيف لا تكون تلكَ اللّيلةُ هي أبركَ الليالي وأفضلها، وكيف لا يُنْسَب[1] إليها أنّها أشرف السّاعات وأيمنها؟.

وقد خصَّ الله تعالى وقتَ ولادة مَنْ شرف الأكوان والأزمان بوجوده وحلُوله فيها، فكلّ ما خَلقه الله مولانا جَلّ جلاله من فَضائلَ وكرامات، وأمكنةٍ وبقاعٍ وأزمنةٍ أنزل فيها البَركات، فهو كله إكرامٌ لسيّد المخلوقات.

وإنما شَرّفها الله تعالى من أجله [٣٥/ب] وإكراماً له ولأُمّته، فيوم الجمعة جعلَه الله لسيّد الأنام، ويوم عَرفة أعطاه له عَليه السّلام، وليلة القَدْر شرّفها الله تعالى بإنزال كتابهِ العزيز إلىٰ سَماء الدُّنيا، كما أنزل تعالىٰ ملائكته الكرام أنزلها إلى الأرض اعتناءً به وبأمّته عليه أفضلُ الصّلاة والسلام.

---

(١) روَى الأئمّة عن طارق بن شهاب قال: جاء رجلٌ من اليهود إلى عمر فقال يا أمير المُؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها لو عَلينا معشر اليَهُود أُنزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: وأي آية؟ قال: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً﴾ [المائدة ٥/ ٣] فقال عمر إني لأعلم اليوم الّذي أنزلت فيه والمكان الذي أُنزلت فيه. نزلت على رسول الله ﷺ بعرفة في يوم جمعة. هذا لفظ مسلم، وعند النسائي ليلة جمعة. (ينظر القُرطبي ٦: ٦١، وصحيح البخاري ٦/ ٦٣).

فصل

من آدابِ مَنْ عَلِمَ أنّه العاقب ـ ﷺ ـ وأنّ الله سبحانه أوجَده عَقِبَ الأنبياء، فليكثِر من مطالعةِ ميلاده ويَعْتَنِ بحفظِ تاريخه، وبتعلّم نَسبه الكريم، وما حَفِظَهُ مولاه ـ سبحانه به في صغره، وكيف أنْبَته نباتاً حسَناً، ربُّه الكريم العليم.

ويتذكر ما ظهر في ميلاده من الآيات والعجائب والغرائب والفرائد، لكي ينشرحَ بذلك صدره، ويزداد محبّةً إلىٰ محبته، ويتقوّىٰ إيمانُه، ويهتدي بسنته وطريقته.

قال القاضي أبو الفضل عياض ـ رحمه الله ـ(1): من الآيات الّتي ظهرت عند مولده والعجائب ما حكته أُمُّه في كونه رافِعاً رأسَه عندما وَضعته، شاخصاً ببصره نحو السماء(2) وما رأته من النُّور الذي خرج معه عند ولادته؛ وما رأتْهُ إذ ذاك(3) أمُّ عثمان بن أبي العاص مِنْ تَدلّي النّجوم، وظهور النُّور تلك الليلة، حتىٰ لم ترَ إلاّ النُّور؛ وقول الشِّفَّاءِ أم عبد الرحمن بن عَوف(4) أنه لمّا سقَط عليه السّلام علىٰ يديّ واستهلّ سمعتُ قائلاً يقول: رَحمك الله، وأضاءَ لي ما بين المشرق والمغرب، حتىٰ نظرتُ إلىٰ قصور الرّوم؛ وما تعرّفتْ حليمة وزوجُها من بَركته(5)، ودُرور لبنها له، ولبن شارِفِها(6)، وخصبِ غَنمها، ومن حُسن نشأته،

---

(1) الشفا ١ : ٧٢٦، ومناهل الصفا: ١٧١؛ قال: رواه البيهقي عن الزهري.

(2) الشفا ١ : ٧٢٧، ومناهل الصفا: ١٧١، رواه أحمد والبيهقي.

(3) الشفا ١ : ٧٢٧، ومناهل الصفا: ١٧١ رواه البيهقي والطبراني.

(4) الشفا ١ : ٧٢٧ ـ ٧٢٨، ومناهل الصفا: ١٧١ قال: رواه أبو نعيم في الدّلائل.

(5) الشفا ١ : ٧٢٨ ومناهل الصفا: ١٧١ رواه عن جماعة فيهم ابن حبّان والبيهقي والحاكم.

(6) الشارف: الناقة المسنّة.

وسرعةِ شبابه؛ وما جرىٰ من العَجائب ليلةَ مولده[1] من ارتجاج إيوان كِسرىٰ وسُقوطِ شُرفاته، وغيض [ماء] بحيرة ساوة[2]، وخُمود نار فارس، وكان لها ألف عام لم تخمد؛ ومن ذلك أنّه كان ﷺ إذا أكَل مع عمه أبي طالب[3] وآله وهو صغير شبعوا ورُووا، وإذا أكلوا ولم يكن معهم لم يَشْبَعُوا، وكان سائر[4] ولد أبي طالب يُصبحون شُعثاً، ويصبحُ ﷺ صقيلاً دَهِيناً كحيلاً.

قالت أُمّ أيْمَنَ حاضِنَتُه[5] رضي الله عنها: ما رأيته ﷺ [٣٦/أ] شكا جُوعاً ولا عَطشاً؛ صغيراً ولا كبيراً.

ومنها أنّ الله ـ سُبحانه ـ حَرس السّماءَ بالشُّهب، وقطع رَصْدَ الشّياطين من أجله؛ وجعله مِن أوّل نشأته باغضاً للأَصْنَامِ عَفِيفاً عن أُمور الجاهليّة[6].

وما زالت خوارق العادات، وظهورُ الآيات، حافّةً بنبيِّنا ـ عليه السلام ـ إكراماً له من مولاه، وتعظيماً لمقامه الشريف، وتثبيتاً لنبوءته، ورسالته، وأنّه رسولُ الله حقاً حتىٰ أظهر اللّٰهُ الحقّ، وأزهق الباطل إنّ الباطِلَ كانَ زهوقاً.

وقد ذكر غيرُ[7] صاحبِ الشفا ـ رحمه الله ـ خوارقَ وآياتٍ وعنايةً

---

(١) الشفا ١ : ٧٢٨، ومناهل الصفا: ١٧٢ عن البيهقي وغيره.
(٢) في الشفا ١ : ٧٢٨، «وغيض بحيرة طبرية». ـ وساوة مدينةٌ بين الريّ وهمذان.
(٣) الشفا ١ : ٧٢٩ ـ ٧٣٠ ومناهل الصّفا: ١٧٢ رواه ابن سعد عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٤) استخدم كلمة «سائر» لمعنى جميع، ومعناها في الصحيح الفصيح بقية الشيء.
(٥) الشفا ١ : ٧٣٠ ومناهل الصّفا: ١٧٢ عن ابن سعد وعن أبي نعيم في الدّلائل.
(٦) الشفا ١ : ٧٣٠.
(٧) في نسخة (أ): «وقد ذكر عياض».

بهِ من ربّ السّمٰوات، وألّف في ذلك تأليفاً حَسناً في ولادته وفي عجائب تلك الليلة الدالّة علىٰ بركته، فقال: من ذلك أنَّ أُمّه رأت حينَ قُرْبِ الولادة حُوراً أحْدقْنَ بها، وسمعت وجبةً[1] عظيمة أفزعت قلبها، فإذا بطائر مَسَح فؤادها بجناحه فذهب ما بها من الرّوع.

ومن آيات الله أنّها رأت ماءً أبيضَ من اللبن، وأحلىٰ من العسل، فشربته، فخرج منها نورٌ ساطعٌ رائحته أذْكىٰ من المسك[2].

ومن الآيات أنّها رأتْ نساءً طِوالاً علىٰ صُورة نساء بني عبد منافٍ، آنسها الله تعالىٰ بِهنّ، وما زلْنَ معها حتىٰ وضعت حبيبَ الله.

ومن ذلك أن العرقَ الذي كان يخرجُ منها أطيبُ من المِسك.

ومنها أنها رأت سجلاطاً[3] من حرير قد سَدَّ ما بين السّماءِ والأرض وقائلاً يقول: خذوهُ عن أعين النّاس.

ومن ذلك أنّ أمّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ سمعتْ صوتاً وهو يقول: طوفوا بمحمّد مشارقَ الأرض ومغَاربها، وأعلموهم بنبوءته[4].

ووُجد ﷺ مختوناً، مقطوع السُّرّة[5].

ومن الآيات أنّ أُمّهُ رأتْ في يده ثلاثَة مفاتيحَ من زُمّرد، وقائلاً

---

(١) الوَجْبَة: الخَفْقَة من خَفَقات القلب.

(٢) الحادثة مذكورة في السيرة الحلبية ١ : ٨٥، عن أُمّ أيمن.

(٣) السّجلاّط: ثيابٌ مَوْشِيّةٌ مُزَيّنَة، كأن وَشْيَها خاتَم، روميّ مُعَرّب، وفي حاشية النّسخة (ب): «هو نَمَطُ الهودج [ولونه] أحمر، ثمّ استُعْمِل في [كلّ] ما يصلح لذلكَ، مِن حرير [وغيره]». وما بين معقوفتين غير واضح وهو مستجلى مقترح.

(٤) انظر سبل الهدىٰ والرشاد ١: ٤١٥.

(٥) الشفا ١ : ١٥٩، ودلائل النبوّة ـ للبيهقي ١ : ١١٤، وسبل الهدىٰ والرشاد ١: ٤٢٠.

يقول: بيد محمد مفتاح النّصر، ومفتاح الذِّكر، ومفتاح النُّبوءة؛ ورأتْ عَلَماً بالمشرق، وعلماً بالمغرب، وعلماً آخر علىٰ ظهر الكعبة.

ومن ذٰلك أنَّ جماعة من المَلائكة أَتَوْا إليه، وأخرجوا خاتماً من حريرة خضراء، وصَبُّوا عليها ماءً في طست من إبريق [٣٦/ب] ثم طُبِعَ خاتمُ النبوة بين كتفيه - ﷺ -[١].

ومن ذلك أنّ طائراً أتىٰ إليه فزَقّه[٢] وهو كأنّه يطلبُ الزّيادة بيديه، وكأنّ قائلاً يقول: ألا إنَّ محمداً قد سُقِيَ العلم. وحمله رجلان فذَهبا به عنّي. قالت أُمُّه: فَخِفْتُ علىٰ ولدي، ثم ردّوهُ إليّ، وكان وجهُه كالقَمر ليلةَ البدر.

وسمعتُ منادياً يقول: طِيْفَ بمحمّد مشارق الأرض ومغاربها حتىٰ انتهىٰ إلىٰ آدم عليه السّلام، فقبّله بين عينيه، وقال: يا حبيبَ الله، وسيّد ولدِ آدم، لقد سَعِدَ مَن آمن بك وصدَّقك[٣].

ومن ذٰلك ما رواه جدُّه عبدُ المطّلب في تِلك اللّيلة من الخَوارقِ والعَجائب حتىٰ دُهِش ممّا رأىٰ؛ في قصّةٍ طويلةٍ لا يسعُ ذكرها في هذا التقييد[٤]. وقد أشرتُ إلىٰ لُمعة ونبذة مما ظهر عند ولادته ﷺ.

وما بَقِي من خَوارقِ عادَتهِ ممّا يدلُّ علىٰ فضلِه عند ربّه أكثر ممّا ذكرنا، وكلّه دالٌّ علىٰ كمالِ عنايةِ الله تعالىٰ به في مُبتدئه ومُختتمه، ولذا قال الشاعر وأجاد في قصيدته التي مدحه بها فأبانَت عن عُلّو مقامه [وصدق محبّته][٥]:

---

(١) انظر دلائل النبوة - للبيهقي ١: ١٤٦.

(٢) زَقَّ الطائرُ فَرْخَهُ: أطْعَمَهُ.

(٣) سبل الهدىٰ والرّشاد ١: ٤١٥.

(٤) سبل الهدىٰ والرشاد ١: ٤٣٧، والسيرة الحلبية ١: ١٢٨.

(٥) للبوصيريّ من بُردته، وهو في ديوانه: ٢٤٢.

أبانَ مَولِدُهُ عَنْ طيبِ عُنصرِهِ ... يا طِيبَ مُبْتَدإٍ مِنْهُ ومُخْتَتَمِ[1]
وباتَ إيوانُ كسرىٰ وهو مُنصَدِعٌ ... كَشَمْلِ أَصْحَابِ كِسْرىٰ غيرَ مُلْتَئِمِ[2]
يومٌ تَفَرّسَ فيه الفُرْسُ أَنّهمُ ... قد أُنذروا بحلُولِ البؤس والنّقَمِ
والنارُ خامدةُ الأنفاسِ من أسفٍ ... عليه والنَّهْرُ ساهي العَيْنِ من سَدَمِ[3]
وساءَ ساوةَ أن غاضَتْ بحيرتُها ... ورُدَّ واردُها بالغيظ حين ظَمِي[4]
كأن بالنّارِ ما بالماءِ من بَلَلٍ ... حُزناً وبالماءِ ما بالنّارِ من ضَرمِ
والجنّ تهتفُ والأنوارُ ساطعةٌ ... والحقُّ يظهَرُ من معنىً ومن كلِمِ
عَمُوا وصَمُّوا فإعلانُ البَشائر لَمْ ... تُسْمَعْ وبارقةُ الإنذار لم تُشَمِ[5]
من بعدِ ما أخبر الأقوام كاهِنُهُمْ ... بأنّ دينَهُمُ المعوَجّ لم يَقُمِ
وبعدَ ما عايَنُوا في الأُفق مِن شُهُبٍ ... منقضّةٍ وفقَ ما فِي الأَرْضِ من صَنَمِ

فصل

من آداب المُحبّ لهٰذا النبيّ الشّريف أنْ يكونَ معظّماً لليلةِ ميلاده، ولليومِ الذي أظهر الله فيه العاقبَ لأنبيائه وأرسالِه[6]؛ وهي الليلةُ الثّانية عشرةَ من ربيع الأوّل [٣٧/أ] علىٰ الصّحيح من مذهب الجمهور[7]؛

(١) أوردت النسختان ب و: ج البيت الأول فقط، وانفردت أ بسائر النصّ.
(٢) في هذا الاختيار الشعري أكثر من إشارة إلى علامات دالّة رافقت مولد النبي ﷺ.
(٣) ساهي: ساكن. والسدم الحزن.
(٤) ساوة: مدينة في بلاد فارس بين همذان والري.
(٥) شام البرق: نظر أين يمطر.
(٦) شاعت هذه الصيغة (أرسال) جمعاً لرسول في الأندلسيات والمغربيّات.
(٧) روى الزبير بن بكار وابن عساكر عن معروف بن حزّبور، رحمه الله تعالى، قال: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين حين طلع الفجر (سبل الهدى ١: ٤٠١) وينظر ما أورده الشامي في سيرته.

فينبغي لكلّ شائقٍ ومُحبٌ أن يُظهر السُّرورَ والبِشارة في تلكَ اللّيلة وصبيحتها، ويمتّع أولاده وأهلَهُ بما أمكنَ به لحصول بركتها، ويُدخل السرور عليهم، ويُعْلِمَهُم أنّه إنما فعل ذٰلك محبّةً لتلكَ اللّيلة وسُروراً بها، واعتناءً بفضْلِها، ويبيّن لهمْ أنّها أشرفُ اللّيالي عند الله، لأنّها وُلِدَ بها رسولُ الله.

ويذكر لهم صفة رسولِ الله، وجمالَهُ وحُسنه، وكَمَالهُ وفَضائله، وشَمائله، وكلاَمه، وفَصاحته وكَرمه وجُوده، وخُلقه وحلمه، وعَفوه، وصَفحه ومُعجزاته، وآياته، وكلّ ما يحبّبه في قُلوبهم، ويعظّمه، ويحفّظَهم القصائد التي في مَدحِه والثّناء عليه.

وهذا عندي، وعند كل محبٌ من حُسن الرأي والنّظر[1]، لأنّ تعليم الشيء في الصّغر كالنّقشِ في الحجر[2]، سيما والصّغير مُولعٌ بالأعجوبات والغَرائب، وحال رسول الله ﷺ في صفاتِه وأفعاله وفضله ومُعجزاته من أعجب العجائب.

وينبغي لكَ أن تزيّنَ الأولادَ في ذلك اليوم بأحسنِ زينتهم، وتدخل السُّرور بما أمكن علىٰ معلّمهم، وتزيّن المكاتب بما تجوزُ به الزّينةُ شَرْعاً، ويُحييٰ ذِكرُه ﷺ بما يحسُن من الأقوالِ والمَدائح سمعاً وبِغَيْرِ مناكير في ذٰلك اليوم، ويظهر عزُّ الإسلام والإيمان، ويُبْذَل الجهد في رحَمة أمّته عليه السلام بالصّدق والإحسان.

وتُذَكّر العامة بِمَحامد صِفاتِهِ ومُعجزاته، ويُسرد لهم ما أكرمه به مولاه وما خصّهُ به من آياته، ويُتَجَمّل في ذلك اليوم بما أمكن من

---

(١) خصّ صاحب سبل الهدى والرشاد الباب الثالث عشر من كتابه (ج ١ ص ٤٣٩ - ٤٥٤) لأقوال العلماء في عمل المولد الشريف واجتماع الناس له وما يُحمد من ذلك وما يُذم.

(٢)وقد ورد هذا في أثرٍ مشهور.

اللّباس الحَسَن المأذون فيه ممّا أَذِنَ فيه الصّادق. ويُعتقَد أنّه عِيد، أعاده الله علىٰ العالمين لبُروز حبيبه فيه سيّدِ المُرْسلين. واختار جماعةٌ من العُلَماءِ الفِطْرَ في ذلك اليومِ لأنّه يوم سرور، والتوسّعَ على العِيال ما أمكن من المَيْسُور.

وذكر الشّيخ الولي العارف بالطّريقة والحقيقة ابن عَبّاد[1] رحمه الله ونفَع به أنّه خرج في يوم ميلادِهِ عليه الصّلاة والسّلام إلىٰ خارج البلد، فوجد الشيخ الولي الحاج ابن عاشر[2]، رحمه الله مع جماعة من أصحابه، واستدعوه [٣٧/ب] لأكلِ الطّعام، قال فاعتذرتُ بأنّي صائم، فنظَر إليّ الشّيخُ نظرةً مُنكرةً وقال لي: إنَّ هٰذا اليومَ يوم فَرحٍ وسُرور، ويُستقبَحُ فيه الصّيامُ لأنّه يومُ عيد[*]. وهذا من شدّة المحبّة والتعظيم لصاحبِ الخُلق العظيم قال رحمه الله: فتأمّلْتُ كلامَهُ فوجدتُه حَقّاً، وكأنّي كنت نائماً فأيقظني!.

وقد قال هذا الشيخ ـ رضي الله عنه ـ لمّا سُئل عمّا يقعُ في هٰذا اليوم من وقود الشّمع وغيرِ ذٰلك لأجل الفَرح، فأجاب: الّذي يَظْهَرُ أنه

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الرُّندي (٧٣٣ ـ ٧٩٢) المعروف بابن عَبّاد، متصوّف مؤلف من أهل رُندة بالأندلس. تنقل بين العُدوتين، وجال في المغرب واستقر قاضياً بفاس وفيها توفي. له مؤلفات منها الرسائل الكبرى وغيث المواهب العلية بشرح الحكم العطائية وغيرهما.

(٢) هو أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر (ت ٧٦٤) قال في الأعلام: من أشهر الصالحين الزهاد في المغرب، وكان على علم غزير. أصله من الأندلس ورحل إلى المغرب فاستقر في سلا إلى أن توفي. ولأبي العباس الحافي رسالة (تحفة الزائر في مناقب الشيخ ابن عاشر).

(*) أقول: يوم المولد هو يوم ذكرى ومناسبة وليس عيداً، وللمسلمين عيدان. ونفهم عبارة ابن عاشر هذه على معنى فرط المحبّة لرسول الله ﷺ.

عيدٌ من أعياد المُسلمين[١]، وموسمٌ من مواسمهم، وكلّ ما يقتضيه الفَرحُ والسُّرور بذٰلك المولد المبارك من إيقاد الشمع، وإمتاع البَصر، وتنزّه السمع والنظر، والتزيُّن بما حسن من الثياب، وركوبِ فارهِ الدّوابّ، أمرٌ مباحٌ لا يُنْكَر قياساً علىٰ غيره من أوقات الفَرح.

والحكم بأنّ هٰذه الأشياء بِدْعَةٌ في هٰذا الوقت الذي ظهرَ فيه سرّ الوجود، وارتفعَ فيه علَمُ الشّهود، وتقشَّع بسببهِ ظلامُ الكُفر والجُحود، يُنكر علىٰ قائله؛ لأنّه مقْتٌ وجُمود، وادّعاءُ أنّ هٰذا الزمانَ ليسَ من المواسمِ المشروعة لأهلِ الإيمان، ومقارنة ذلك بالنّيروز والمِهْرَجان، أمرٌ مُسْتَثْقَلٌ تشمئزُّ منه النّفوسُ السّليمة، وتردُّه الآراءُ المُستقيمة.

فكلام هٰذا الوليّ ـ نفع الله به ـ دالٌّ علىٰ كمال محبته وحُسن طريقته، وما أنكر مَنْ أنكر ما يقعُ في هٰذا الزّمان من الاجتماع في المكاتب للأطفال إلاّ خيفة المناكر، واختلاط النساء والرّجال. فإذا أُمِنَ ذلك فلا شكّ في حُسن ما يُفعل من الاجتماع وذكر محاسنه والصّلاة عليه ـ ﷺ ـ في سائر البقاع.

ويحرمُ استعمال آلاتِ اللّهو عند الاجتماع في هٰذه اللّيلةِ؛ ولا يجوزُ تعظيم نبيّ الله إلاّ بما يجوزُ ويُرضيه، ويُرضي الله سبحانه، بل ينبغي الصّدقةُ في السِّرّ بما يعملُ في تلك اللّيلة من الأطعمة، فإنّ ذلك

---

(١) ألف أبو العباس أحمد العَزَفي الشهير بابن أبي عزفة اللخمي كتاباً سمّاه: «الدّر المنظم في مولد النبيّ المعظم ﷺ وشرّف وكرم» مات ولم يتمّه فأتمه ابنه أبو القاسم محمد ـ وكانت له إمارة ورياسة على مدينة سبتة ـ قال المقري (أزهار الرياض ٢: ٣٧٦) يذكر فيه بعض ما خصّ الله تعالى به نبيّه ﷺ وفضّله على كل من تأخر من خلقه أو تقدّم، وما امتنّ به عليه وعلى أمته في أن جعله أفضل الأنبياء، وجعلهم أفضل الأمم من بين ولد آدم ليتخذوا مولده الكريم موسماً يتركون به ما كانوا يقيمونه من أعياد النصارى وعوائدهم. . .
فمن جملة ما قصدوا إليه من الاحتفال بمولده ﷺ دره مفسدة تقليد غير المسلمين في أعيادهم ومواسمهم التي قد تغري الشباب والفتيان بما فيها من الملاهي والمعاصي.

أسلمُ من فسادِ النيّات، ومِن حُضور الجَماعات، قال ﷺ[1]: الأعمالُ بالنيّات، وإنما لكل امرىء ما نَوىٰ، فمَنْ كانت هِجْرَتُه إلىٰ الله ورَسُوله فهِجْرَتُه إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرتُه إلىٰ دُنيا يُصِيبُها أو امرأةٍ يتزوّجها، فهجرته إلىٰ ما هاجَر إليه [٣٨/أ].

فصل

وينبغي لِمُحِبِّه عليه الصّلاة والسّلامُ أن يشتغل في تلك الأيّام التي تزايد[2] فيها سيّد الأنام بذكر محاسنه وفَضائله، ويتقرّب إلىٰ الله بالمدائح، وإنشادِ القَصائد المُحتوية علىٰ مُعجزاته ومَفاخره وللمحبين في ذلك، ومَنْ مَنَّ الله عليه من هٰذه الأُمّة، ما لا عَيْنٌ رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطَر علىٰ قلبِ بَشر.

ويحقّ لهم ذلك لأنّ الله سبحانه أكرمهم لأجل نبيّهم، وفَضّلهم علىٰ مَنْ سواهم، فكانُوا كالأَنجم الغُرّ. ومن أحسنِ القصائد التي جَمعت كثيراً من مُعجزاته ـ ﷺ قصيدة الإمام أبي الرّبيع سُليمان بن سبع التي ذكَرها في كتاب (الشّفا)[3] مع قصائد جُملة لغيره، وهي من أحسن ما

(١) البخاري ١: ٢، مسلم: ١٥١٦، مسند الإمام أحمد ١: ٢٥.

(٢) تزايَدَ: أي وُلِدَ؛ أصلُها: ازْدَاد.

(٣) سبقت الإشارة إلى المؤلّف والكتاب.

ـ وقد أُلِفت كتب كثيرة في غرض المديح النبوي. وجمع عدد من المؤلّفين ما وجدوه من المدائح النبويّة في مصنّفات خاصّة. ومن أشهر من صنع ذلك القاضي الفقيه صاحب التصانيف الشاعر الأديب يوسف بن إسماعيل النبهاني (١٢٦٥ ـ ١٣٥٠هـ ـ ١٨٤٩ ـ ١٩٣٢م) نسبته إلي بني نبهان من عرب البادية بفلسطين. وفي مؤلفاته عدد كبير عن رسول الله ﷺ ومدحه. ومنها: المجموعة النبهانية في المدائح النبوية. ووسائل الوصول إلى شمائل الرسول. وأفضل الصلوات على سيّد السادات. وحجة الله على العالمين؛ وهو في المعجزات النبوية. وغيرها كثير.

يذكر وألذّ ما يُسمع في ذلك اليوم، ويُدّخر؛ لبسطها وجَمعها الكثير من مُعجزاته، وهي التي يقول فيها في صِفاتِه ﷺ وشرّف وكرّم:

محمد خير مُرْسَلٍ سمَا شَرفاً ... وسيّدُ الناسِ في نصٍّ وفي خَبرِ[1]

قد جاءَ ذٰلك في آيٍ وفي كُتبٍ ... عَنِ النبييّنَ متلوٌّ وفي الأثرِ

فاسْمَعَ فضائلَه، واجمعْ مفاخِرَهُ ... واشهدْ براهينَهُ بالعقْلِ واعتبرِ

واذكُرْ إلٰهكَ، واستَنشِدْ مَحامِدَهُ ... إذْ قدْ هَداكَ به فاعبدْه واصطبرِ

ثم أخذ ـ رحمه الله ـ يعدّدُ ما كرّمه به مَولاهُ، وما ظهر علىٰ يديه من المُعجزات، وما انخرقتْ علىٰ يديه من العاداتِ وهي قصيدةٌ طويلةٌ تقربُ من مئة وخمسين بيتاً.

وممّا يحسُن ذكرُه أيضاً قصيدةٌ لبعض المحبّين من المتقدّمين التي يقولُ فيها:

تَاللّٰهِ ما حَملتْ أُنثىٰ ولا وَضعت ... مثلَ الّذي جاءَ بالتّوحيدِ والسُّوَرِ[2]

وجاءَ بالنورِ والإظلامُ معتكرٌ ... فأشرقَ النُّورُ حيثُ الشمسُ لم تُنِرِ

وقامَ يدعوُ إلىٰ الرّحمٰنِ مجتهدٌ ... مؤيّدٌ بجنودِ اللّٰهِ والقَدَرِ

فعادت الأرضُ بالإسلام زاهرةً ... كالرّوض يبسمُ بعدَ القَطْر عن زَهَرِ

واستشرفتْ عُنق الدُّنيا به فَرحاً ... وأظهرتْ شرفاً في البَدو والحضرِ

مَنْ أطعمَ الجيشَ من قُرْصِ الشّعير ومَنْ ... حَنّتْ إليهِ جُذوعُ النّخلِ والشّجرِ[3]

ذاكَ النبيُّ ومَن يُحْرَمْ شَفاعَتهُ ... يومَ الحسابِ فمِنْ حوضٍ إلىٰ سَقَرِ

---

(١) من بحر البسيط.

(٢) من بحر البسيط.

(٣) ينظر في سرد هذه المعجزات وشرحها دلائل النبوة للبيهقي، وعلى التوالي ج ٢ ص ١٢١ و٦٤ و٥.

العاقبُ الحاشرُ الماحي بملّتهِ ... ما كانَ قبلُ من الأديانِ، والفِطَرِ[1]
مِنَ الأنام ولكنْ ليسَ يُشبهُهم ... والدرّ منتسبٌ باسْمٍ مع الحَجَرِ
يا أيها المُتعاطي وصفَ سُؤددهِ ... لا تَعْرِضَنْ لكيلِ البَحْرِ بالغُمَرِ[2]
فإنّه كانَ مفطُوراً على شِيَمٍ ... مَعْدُومةِ المِثْلِ لم يُخْلَقْنَ في البشرِ
يا بَهْجَة الدّينِ والدُّنيا ونُورهما ... وخيرَ مُدَّخَرٍ يوماً لِمُدّخِرِ
وواحد الخلقِ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ... وفي مقالٍ وفي فِعلٍ وفي سِيَرِ
اشفعْ لعبدٍ شَجِيّ القلب مُعْتَرِفٍ ... بما جَناهُ من الآثامِ والنكِرِ
فَما رجوتُ سوىٰ التوحيد يا أملي ... وآيةٍ تُليت في سُورة الزُّمَرِ[3]
ثم الشفاعة يوم الفَصْل منك إذا ... لم يُلْفَ غَيْرُكَ بعدَ الله من وَزَرِ
صلىٰ الإلهُ علىٰ قبرٍ ثويتَ بهِ ... ما غَنَّتِ الطَّيْرُ في الأغصانِ والوكَرِ

ومن أحسن ما يُقال في ذٰلك اليوم العظيم، ويُدَّخر ثوابُه عند الله الكريم أبياتُ الشقراطيسيّة في مدح خير البَرِيّة[4]:

ضاءَت لمولدِه الآفاقُ واتّصلتْ ... بشرى الهَواتفِ في الإشراق والطَّفَلِ[5]

---

(١) في أ: بذمته.

(٢) الغمر قدح صغير.

(٣) يشير من سورة الزمر (٣٩/ ٧٣) إلى قوله تعالى: ﴿وسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إلى الجَنَّةِ زُمَراً...﴾ الآية.

(٤) الشّقراطيسيّة: قصيدة للإمام أبي عبد الله محمّد بن أبي زكريا يحيىٰ بن علي الشّقراطيسي المتوفىٰ سنة (٤٦٦هـ)؛ والأبيات الأربعة الأولىٰ المختارة هنا وَرَدَت في سبل الهدىٰ والرّشاد ١: ٤٣٠ والقصيدة كاملةً في رحلة العبدريّ (الرحلة المغربيّة): ٤٥ ـ ١٤٩ وعليها شروح وتخميسات لعدد من العلماء؛ انظر رحلة العبدري: ٥٠.

(٥) من بحر البسيط.

وصَرحُ كِسرىٰ تداعى من قواعِدهِ   وانقضَّ منكسرَ الأرجاءِ ذا مَيَلِ
ونارُ فارِسَ لم تُوقَدْ وما خمدتْ   مُذْ ألفِ عامٍ، ونَهْرُ القوم لم يَسِلِ
خَرَّتْ لمبعثِهِ الأوثانُ وانبعَثَتْ   ثواقبُ الشهبِ ترمي الجِنَّ بالشُّعَلِ

ثم قال بعد عَدِّ كراماته، ومُعجزاته وعِزِّه ونَصرِه، إشارةً إلىٰ شرفه وعلو قدره:

المُلْكُ لِلَّهِ هٰذا عِزُّ من عُقِدَتْ   له النبوّة فوقَ العرشِ في الأَزَلِ

ثم قال بعد ذلك رحمه الله:

يا صفوةَ الله قد أصفيت فيك صفا   صَفوِ الودادِ بلا شَوْبٍ ولا دَخَلِ
ألستَ أكرمَ مَنْ يمشي علىٰ قَدمٍ   من البريّة فوقَ السَّهلِ والجَبلِ
وأزلفَ الخلقِ عندَ الله منزلةً   إذْ قيلَ في مشهد الأشهاد والرُسلِ
قمْ يا محمّد فاشفَعْ في العباد وقُلْ   تُسْمَعْ وسَلْ تُعْطَ واشفعْ عائذاً وسَلِ
والكوثر الحَوض يروي النّاس من ظَمإٍ   بَرْحٍ وينقَعُ منه [لاعجَ] الغُلَلِ [٣٩/أ]
أَصفىٰ من الثلج إشراقاً مَذاقَتهُ   أحلىٰ من اللَّبَنِ المضروبِ بالعَسَلِ
نحلتُكَ الوُدَّ عَلِّي إذ نَحَلْتُكَهُ   أجني بحبّك منهُ أفضل النَّحَلِ
فما لجلدي لنُضْجِ النّار من جَلَدٍ   وما لقلبي لهولِ الحشرِ من قِبَلِ
يا خالقَ الخَلْقِ لا تحرقْ بما اجترحَتْ   يداي وجْهيَ من حوبٍ ومن زَللِ
واصحَبْ وصلِّ، وواصلْ كلَّ صالحةٍ   علىٰ صفيّك في الإصباحِ والأُصُلِ

ومن أحسن ما يُذكر في مَدحه، ويُذْخَر، ويرجُو المادحُ به أنَّ الذُّنوب تُغفَر:

عَـزَّ التّرابُ لكونِ الهاشميِّ بهِ   كأنه لؤلؤٌ في التربِ مكنونُ(١)

---

(١) من بحر البسيط.
- الهاشميّ من ألقاب رسول الله ﷺ فهاشم والد جده عبد المطلب.

مَــنْ ظَــنَ أنَّ رســولَ الله غَــيْـــرهُ طولُ الـمُـقـام بـلـحـدٍ فـهـو مـلـعـونُ
الـجـسـمُ غـضٌ بِـلا شـكٌ ولا كـذبٍ والوجهُ كالبَدْرِ تحت الدُّجْنِ مقرونُ
والطَّرفُ أحوىٰ كحيلٌ دون مَا كُحُلٍ وقـوسُ حـاجـبـهِ فـي شـكـلـهِ نـونُ
وورِدُ خـدَّيـه لـم يَـعْـبَـث بـه كِـبَـرٌ فَــوَرْدُ كـــلِّ ريـــاضٍ دونـــه دُونُ
يـا حُـسْـنَ غـرتـهِ مـن تـحـت وَفْـرَتـهِ لـيـلٌ وصـبـح بـه ذو الـلـبِّ مـفـتـونُ
ما في السّمواتِ خلقٌ ليس يذكرهُ ولا يـعـظّـمـهُ، حـتّـىٰ الـشـيـاطـيـنُ
يـا أمّـةً فُـضّـلـتْ هٰـذا نـبـيُّـكـمُ صَـلُّـوا عـلـيـه فـذاكَ الـفَـخْـرُ والـدّيـنُ
مـحـمّـدٌ خـيـرُ خـلـقِ الـلّٰـهِ كُـلّـهـم وَمـن يَـقُـلْ غـيـرَ هٰـذا فـهـو مـجـنـونُ
صَلُّوا عليه لكي تُعطَوْا شفاعَتُه مَـنْ خـابَ مـنـهُ رجـاءً فـهـو مـغـبـونُ
لـولا الـنـبـيُّ رسـول الله مـا خُـلِـقَـتْ شـمـسٌ ولا قـمـرٌ؛ والـحـقُّ تـبـيـيـنُ

أيُّها المحب ـ ضاعفَ الله حُبّي وحُبّك، وعَمر به قلبي وقلبك ـ اذكرْ في هٰذا اليوم الشّريف كلَّ ما اتّصف به نبيُّنا، وما كرّمه به رَبُّنا، وما يحبّبه في قُلوبنا، وما كانَ يُحْسِنُ به إلينا ليزدادَ إيمانُنا وحُبُّنا، فإنَّ القلوبَ مجبولةٌ علىٰ حُبِّ مَنْ أحسَن إليها؛ وقد أحسن ﷺ إلىٰ جميع الخلائق بما أَقَرّ به عَيْنَها، ورجتْ به من مَولاها أن يغفرَ به ذَنْبها ـ صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً إلىٰ يوم الدين ـ والحمدُ لله ربّ العالمين.

باب

في معنى اسمه

طه(1)

صلّى اللّه عليه وسلّم تسليماً كثيراً، وشرّف وكرّم

طه: اسمٌ من أسمائه عليه الصّلاة والسّلام، ورد به القرآن [39/ب] علىٰ ما رواه النقّاش عنه عليه السلام أنه قال(2): «لي في القُرآن سبعة أسماء، محمّد وأحمد، ويس وطه، والمدثّر والمزّمل وعبد الله» انتهى.

قال الله العظيم علىٰ جهة الشّفقة والإكرام لنبيّه الكريم: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝﴾ [طه: 20/ 1 ـ 2].

---

(1) وَرد شرح هٰذا الاسم من أسمائه ﷺ في: الشفا 1: 107، 448، والرّياض الأنيقة 204، وسبل الهدىٰ والرشاد 1: 599 والمواهب اللدنيّة 1: 191.

(2) الكلام منقولٌ عن الشفا (1: 450)، وفي الشفا 1: 448: «وقد رُويَ عنه ﷺ (لي عشرة أسماء)، وذكر منها (طه) و(يس) حكاه مكّي». وفي دلائل النبوّة لأبي نُعيم 1: 61 عن أبي الطفيل: قال رسول الله ﷺ: (إنّ لي عند ربّي عَشْرَة أسماء) قال أبو الطفيل: حفظتُ منها ثمانيةً: (محمّد وأحمد وأبو القاسم والفاتح والخاتم والعاقب والحاشر والماحي)، قال أبو يحيىٰ: وزعم سيفٌ أنّ أبا جعفر قال له: إنّ الاسمَيْنِ الباقِيين: طه ويس».

ـ وانظر ما ذكره المفسّرون حولَ (طه) في تفاسيرهم؛ مثلاً تفسير الطبري 16: 102 ـ 104 والبحر المحيط (تفسير أبي حيّان) 6: 224. والقُرطبي 11: 163 ـ 168.

فاختلفَ العلماءُ في هٰذه الآية الكريمة، فقيل: (طه) اسمٌ من أسماء الله تعالىٰ، وقيل إنّها راجِعَةٌ لنبيّنا ـ ﷺ ـ وأنّ الله تعالى ناداه، وأنّ معنٰى طه: يا رجل، أو يا إنسان، وأنه نداء لرسول الله ﷺ وكناية عن اسمه، وكانَ ذٰلك من تَعظيم الله تعالىٰ لنبيّه علىٰ سائِر الأَنبياء إذْ ناداهُ، فإنّه يُحَلّيه بما يليقُ به من التّعظيم والتكريم مثل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٨/ ٧٠] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٥/ ٤١] ليظهر الله ـ عزّ وجل ـ منزلته ومكانته عِنْدَه. وسائرُ الأنبياء الكرام يناديهم بأسمائهم: يا نُوح، يا هُوْدُ؛ وفيه من رَبّنا ـ جلّ جلاله ـ من بيانِ المكانة، وعلوّ الرّفعة بحبيبه ما لا يحيطُ به لسان، ولا يَنالُه إنسان.

وفي قولِه أيضاً: يا رجل، أو: يا هذا، أو يا إنسان، من التّفخيم والتّعظيم لمنزلتِه ما لا يخفىٰ[1].

فمعنىٰ: يا رجل؛ أي الذي اجتمعت فيه خِصالُ الرّجال كلّها، فكأنّه ـ سبحانه ـ نادىٰ جميعَ من تسمّىٰ بهذا الاسمِ مِن كلّ الرجال المتّصفين بكمال التمام.

وقيل إنها حروفٌ مقطّعةٌ لمعانٍ من أسمائه، جمعت له في هذه الكلمة[2].

قال الواسطي[3]: أرادَ الله تعالىٰ: يا طاهرُ، يا هادي، وقيل: إنّ الله

---

(١) قال الحسن معنى طه: يا رجل. وحكىٰ الطبري أنّه بالنّبطية: يا رجل (القرطبي).

(٢) وردت هذه المعاني في كتب التفسير المطوّلة كالطبري والقرطبي.

(٣) هو محمد بن الحسن الواسطي (٧١٧ ـ ٧٧٦) مفسّر عالم بأصول الفقه، من شيوخ الشافعية، سمع الحديث بمصر، وكتب الكثير بخطه نسخاً وتصنيفاً بخط حسن. وتوفي بدمشق، له تفسير كبير وكتاب في أصول الدين وممّا بقي من كتبه في «مجمع الأخبار في مناقب الأخيار» بدار الكتب.

تعالى أمره أنْ يطأ الأرضَ بقدميه، وأنَّ (ها) كنايةٌ عن الأرض؛ أي اعتمِدْ علىٰ الأرض بِقَدمَيْك يا محمّد ولا تُتعِبْ نفسَك بالاعتمادِ علىٰ قدمٍ واحدةٍ[1]، وهو معنىٰ قوله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ٢٠/ ٢].

وإنَّ هٰذه الآية نزلتْ فيما كانَ النبي ﷺ يتكَلَّفُهُ من السَّهر والتّعب وقيام اللّيل.

وعن الربيع بن أنس رضي الله عنه قال[2]: كان النبي ﷺ إذا صلى قام علىٰ رجل ورفَع الأُخرىٰ، فأنزل الله تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾ [طه: ٢٠/١، ٢] يعني طأ الأرض يا محمّد، ما أنزلنا عليك القرآن لِتَشقىٰ.

قال القاضي أبُو الفَضل ـ رحمه الله ـ[3]: لا خفاءَ بما في هٰذا كُلّه من المَبَرّة والإكرام، وحُسن المعاملة. وإنْ جَعلْنَاهُ اسماً من أسمائه كما قيل، أو جعلناه قَسَماً لَحِق هذا بالفصلِ الذي قبله، يعني به ـ رحمه الله [٤٠/أ] الفصل الذي أقسم الله فيه بعظيم قَدْرِ نبيِّه عليه أفضل الصلاة والسلام، مثل قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٧٢].

قال أهل التفسير[4]: هذا قَسَمٌ أقسَمَ الله تعالى فيه بمدّة حياة محمّد ﷺ، وهذا نهاية التّعظيم، وغاية البِرّ والتّشريف والتّفخيم.

---

(١) حكى هذا الوجه ابن الأنباري، نقله مع سائر الوجوه القرطبي ١١: ١٦٥ ـ ١٦٨.
(٢) الشفا ١: ١٠٧؛ ونقله القرطبي في تفسيره ١١: ١٦٧.
(٣) الشفا ١: ١٠٧.
- نقل القرطبي ١١: ١٦٧ عن الحسن طَهْ، قال: وفُسّر بأنه أمرٌ بالوطء، وأنَّ النبي ﷺ كان يقوم في تهجده، على إحدى رجليه فأمر أن يطأ الأرض بقدميه معاً، وأن الأصل «طأ» فقُلِبت همزته هاءً.
(٤) نُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال ابنُ عبّاس ـ رحمه الله تعالىٰ ـ ما خلقَ الله، ولا ذَرأَ، ولا بَرأَ نَفْساً أكرم عليه من محمّد ﷺ، وما سمعتُ أنّ الله أَقْسَم بحياةِ أحَدٍ غيره.

وقال أبو الجَوزاء: ما أَقْسَم الله بحياةِ أحدٍ غير محمّد ﷺ لأنه أكرمُ البريّة عنده.

وإذا كان اسمُ (طه) من أَسمائه عليه أفضل الصلاة والسلام، وتكون أحرف مقطَعةٌ من أسمائه رُكّبت، وسُمّي بها، فكأنه أُطلق عليه: طاهر، وهادي؛ وخُوطب بذلك، فقيل له: يا طاهر يا هادي وفي ذلك عنايةٌ ربّانيّةٌ، وكرامةٌ إلٰهيّة، ووجاهةٌ سماوية لِقَدْر سيّد البَرِيّة، وتزكيةٌ لصاحبِ المِلّة الإسلامية، وتسليةٌ لقلبِ الرّؤوف الرحيم، من ربّه الكريم. حيثُ عَلِمَ ـ سُبحانه ـ أَنّه ﷺ قد جاهَد نفسه وباعَها في مَرْضَاةِ رَبِّهِ، وأنّه لاَ حَقّ له مع مَولاه وسَيّده، فصلّىٰ عليه السلام حتىٰ تَفطّرت قَدماه، وأَحيىٰ ليلَه، وأَنْفَق ماله، وأيقظَ للعبادة أهله، فخاطبه المولىٰ الكريمُ الرؤوفُ الرحيم بقوله: ﴿طه﴾ أي يا طاهر، قد طهّرنا بكَ الآثام، ويا هادي قد هدينا بك الأَنام، وأنزلنا عليكَ القُرآن، وأيّدناكَ بالبُرهان، فَما أنزلنا عليكَ القُرآن لِتَعَبكَ، بل لتذكُرَ الخلائقَ بربّك، فإنك كريم علينا، عزيزُ القدر لدينا[١]:

كــل الــمــكــارمِ هُــنّ طــيُّ بُــرودِه ... ولــقــد أضــاءَ الــكــونُ عــنــد وُرودِهِ[٢]

(١) انظر ما سبق في الصفحة ٥٣ من هذا الكتاب.
(٢) هذا التخميس من بحر الكامل.
ـ وقد سبق في الباب السابق لقب: إكسير المحامد؛ فانظره ثمّة.

والبحرُ يقصُر عن مواردِ جُوده ... إنسانُ عينِ الكونِ سرُّ وجودِهِ

يس إكسير الخلائق، طَه

كانت حَمامُ الغارِ بعضَ حُماتِهِ ... والذئبُ في البيداءِ بعضَ دُعاتِهِ

ماذا أُعَدِّدُ من جلالةِ ذاتِهِ ... حَسْبِي، فلستُ أفِي ببعضِ صفاتِه

ولَوَ انَّ لي عددَ الحصَا أفواها!

فشهدتُ أنَّ الله خَصَّ محمّدا ... فغدا بأملاكِ السَّماء مُؤيَّدا

وعلىٰ لسانِ العالَمينَ مُمَجّدا ... ورأيتُ فضلَ العالَمينَ مُحَدّدا

وفضائلَ المختارِ لا تَتناهىٰ [٤٠/ب]

فصل

من عَلِمَ أنّ اسمَ نبيّنا ـ ﷺ ـ طه، وعلِمَ ما تواترَ نقله من شدّة طاعته، ومبالغتِه في عبادتِه، وخوفه من ربّه مع شدّة مكانتهِ وقُربه، وقد عُلِمَتْ عِصْمَتُه من المخالفات وأنّه لم يصدُر منه إلاّ الحسَنات في جميع الحالات، وقد أمّنَهُ الله سبحانه ـ مع علمه أنّه قد عَصمه ـ فخاطبَهُ بقوله خطاباً كريماً: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح ٤٨/ ١، ٢] لينشرح بذلك صدرُه ـ وينتعش بالسّرور لبُّه وسِرُّه ويسلّيه من قوة خوفه من ربه الكبير المُتَعال، فإنّه كان له في غايةِ التّعظيم والهَيبة والإجلال.

فليكنْ المتخلّقُ بطريقته من أُمتّه، المتّبع له من أهلِ خاصّته، كثيرَ المُراقبة، شديدَ المُعَاتبة، شكوراً للنّعمة صَبُوراً علىٰ الطاعة.

وقد كان بلالٌ رضي الله عنه رأىٰ النبي ﷺ ذاتَ ليلةٍ وهو في قيامهِ يبكي بكاءً شديداً قائماً ليلَهُ، صائماً يومَهُ فقال: يا رسول الله أتفعل

هذا وقد غفر الله لك من ذنبك ما تقدّمَ وما تأخّر؟ فقال النبي ﷺ[1]: «أفلا أكونُ عبداً شَكُوراً».

فيجبُ علىٰ من كان مِثلي، مُلوّثاً بذنوبهِ، غافلاً عن ربّه[2]، أنْ يبادرَ بتوبته، ويقفَ في ليله بباب سَيّده، وأن يتوسّل له بِنَبِيّه، ويرسِلَ دمعَهُ علىٰ خَدّه، لعل دمعَهُ يشفَعُ فيه عند ربّه!.

وقد كانَ بعضُ الخائفين كثيراً ما يرسل دمعه، ويبكي علىٰ نفسه، وهو قائمٌ طول ليله:

قالوا هجرتَ فقلتُ الدمعُ يشفع لي ... كمْ دمعةٍ هَتَكَتْ في اللّيل أستارا[3]

يا باكيَ العينِ أبشِرْ بالسُّرور غداً ... فقد غَرَسْتَ بِفَيْضِ الدّمعِ أشجارا

وقد كان الشّيخ صالح بن عبد الجليل إذا كان يوم عيد غدا للمصلّى، فإذا انصرفَ جمعَ أهله وولده، وجعلَ التّراب علىٰ رأسهِ ولحيتهِ، وأخذَ في البُكاء فقال له بعضُ أصحابه: هذا يوم عيد وسرورا.

فقال لهم: صدقْتُمْ، ولكنّي عبدٌ أمرني مولاي أن أعملَ عملاً فعملتُه، فما أدري أقَبِلَهُ منّي أم لا؟! فكيف أُلامُ لطولِ البُكاء؟.

وكان الشّيخ [٤١/أ] الشّبلي[4] ـ رضي الله عنه ـ يوم العيد يُكثر

---

(١) حديثٌ صحيح، رواه الإمام أحمد في مسنده ٤: (٢٥، ٢٥٥ عن المغيرة بن شعبة وفيه ٦: ١١٥ عن السيّدة عائشة رضي الله عنها! ورواه البخاريّ في صحيحه في تفسير سورة الفتح، ورواه مسلم في صحيحه، ٢١٧١.

(٢) يقول هذا على طريقته في التلوّم، وتضخيم الذُنوب.

(٣) من بحر البسيط.

(٤) هو دُلَف بن جَحْدَر، المعروف بأبي بكر الشبلي، اشتغل بالخدمة السلطانية مدّةً ثم ترك ذلك وعكف على العبادة، وتنسّك، واشتهر بالصّلاح. قال في الأعلام: له سفرٌ جيّد سلك بهِ مسالك المتصوّفة.

من النَّوح والتّعديد، ويُصبح وعليه ثيابٌ سودٌ؛ فاجتمعَ النّاسُ إليهِ فسألوه عن حالهِ فأنشد[1]:

تَزينُ النَّاسُ يومَ العيدِ للعيدِ   وقد تمثَّلْتُ في أثوابيَ السُّودِ[2]

وأصبحَ النّاسُ في فَرْحٍ بِعيدِهِمُ   ورُحْتُ فيهم إلىٰ نَوْحٍ وتعديدِ[3]

فالناسُ في فَرَحٍ والقلبُ في تَرَحٍ   شتَّانَ بيني وبين الناسِ في العيدِا

رضي الله عنهم ـ عَلِمُوا قول النبي ﷺ[4]: «لو تعلمونَ ما أعلم لضحكتُمْ قليلاً ولبكيتُمْ كثيراً» فعملوا بما عَلِمُوا مِن حال نبيّهم، وتركُوا نَوْمَهُم واشتَغلُوا بطاعة ربّهم.

وكان بعضُ التابعين يقول في ليله: إنّ حرَّ جهنم أذهبَ نوم العابدين.

وكان الربيعُ بن خُثيم ـ رضي الله عنه ـ يقول لابنته حيث قالت له: يا أَبت ما لكَ لا تنام؟، قال لها: يا بُنَية إنّ أَباك يخافُ أن يكونَ من المُبَيَّتين، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأعراف: ٧/٩٧ ـ ٩٨].

وقد ذُكر عن بعضِ الصّالحين ـ رضي الله عنهم ـ أنه بقي سبعينَ سنةً لم يرفع رأسَهُ إلىٰ السّماء حَياءً من الله ـ سبحانَه ـ لأجل زَلّته، ولا

---

(١) الشعر في ديوان الشبلي: ٩٨.

(٢) من بحر البسيط.

(٣) الفَرْح (بفتح الراء) مصدر فرِحَ يفرح. وسكّن الراء ضرورةً.
ـ وأراد بالتّعديد معنى قريباً من النّوح والنّدبة.

(٤) رواه البخاري في صحيحه ٢: ٤٣ و٦: ٦٨ ومسلم في «الفضائل» وأحمد في المُسند ٢: ٣١٢ والبيهقي في السُّنن ٣: ٣٣٨.

ينظرُ إلاّ منكَساً رأسه، ولا يَنام ليلَه، ويقطع (طول) ليلهِ بأبياتٍ يقولُ فيها:

كم قد زللتُ فلمْ أذكركَ في زَلَلي ... وأنتَ يا واجِدي في الغَيبِ تذكرني[1]
كم أكشفُ السّتر جَهلاً عند مَعْصِيتي ... وأنتَ تلطفُ بي جُوداً وتَستُرني
لأسكبنَّ دموعَ العينِ من أسفٍ ... وأبكينَّ بكاءَ الوالِد الحَزِنِ!

هذه طريقةُ الخائفين، وحالةُ المراقبين؛ ومَنْ كان مثلي لا يزال في غَفلته، ولا يرعوي عن معصيته، فلعلّه ـ سبحانه ـ أن يتداركه برحمته، ويلهمه لتوبتِه بِحُرمةِ نبيّهِ ﷺ تسليماً كثيراً إلىٰ يوم الدّين.

---

(١) من بحر البسيط.

باب
في معنى اسمه

(١)
يٰس

صلّى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

يٰس: اسمٌ من أسمائهِ عليه أفضلُ الصّلاة والسلام وردت به الآيات القرآنية، والأحاديث النبويّة، والآثار المرويّة.

أما القرآن: فقال تعالى: ﴿يسٓ ① وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ② إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ③ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ④﴾ [يس: ٣٦/١ ـ ٤].

وأمّا الأحاديث: فقد قدّمنا من ذٰلك عنه ـ ﷺ ـ أنّه قال[٢]: «لي سبعة [٤١/ب] أسماء» فذكر منها: يٰس.

وأمّا قوله: ﴿يسٓ ① وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ②﴾ [يس: ٣٦/١، ٢] فاختلف المُفَسّرون في معنىٰ يٰس علىٰ أقوال:

---

(١) ورد تفسير هٰذا الاسم من أسمائه ﷺ في: الشفا ١: ٤٤٩، والرّياض الأنيقة: ٢٧٢، وسبل الهدىٰ والرّشاد ١: ٣٦٣ والمواهب اللدنيّة ١: ١١٩.

-وانظر ما ذكره المفسّرون في تفسير قوله تعالى: ﴿يسٓ﴾؛ مثلاً تفسير القرطبيّ ١٥: ٣ ـ ٦.

(٢) انظر الصفحة ١٥٩ من هذا الكتاب.

فحكىٰ أبو محمّد مكّي[1] أَنّ النبيَّ - ﷺ - ذكر يٰس من أسمائه، وذكر الآية، وقال: لي عند ربّي عشرة أسماء فذكر منها: طه، ويس[2].

وحكي عن جعفر الصادق أنّه سبحانه أراد: يا سيّدُ[3]؛ فخاطب نبيَّه - ﷺ - بقوله: ﴿يٰس﴾.

وذُكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: معنىٰ (يٰس) يا إنسان.

ونُقل عن ابن الحَنفيّة أنّه قال: (يس) معناه يا محمد.

ونُقل عن كعب الأحبار رضي الله عنه أنه قال: (يٰس) قسمٌ أقسم الله به قبل أن يَخلق السّماء والأرض بألفي عام.

فإنّه إذا كانَ من أَسمائِه ﷺ فكأنّه قال: يا محمّدُ، والقرآنِ الحكيم إنّك لمن المُرسلين.

ففي هذه الآية الكريمة علىٰ كلِّ قول - من إظهار المبّرةِ والإِكرام من ربِّ الأرباب لنبيِّنا - عليه أفضلُ الصّلاة والسّلام - ما لا يَخفىٰ علىٰ مَنْ له مُسْكَةٌ[4] من الفَهم، أو طرفٌ من العلم من الأنام.

---

(١) هو أبو محمد مكّي بن أبي طالب حَمّوش القيسي الأندلسي، مقرىء عالم بالتّفسير والعربية، ولد بالقيروان، وطاف في بعض بلدان المشرق، وعاد إلى بلده، وأقرأ بها مدّة، ثم سكن قرطبة منه ١٣٠ وخطب وأقرأ بها في جامعها الكبير. وفيها كانت وفاته (ولد سنة ٣٥٥ وتوفي سنة ٤٣٧) له كتب كثيرة في التفسير وعلوم القرآن واللغة وغيرها.

(٢) نقله القاضي عياض في الشفا ١: ٤٤٨، والقرطبي في تفسيره ١٥: ٤. وانظر الخصائص الكبرى ١: ١٣٢.

(٣) ونقل في الجامع لأحكام القرآن ١٥: ٤ قال أبو بكر الوزاق: «يس» معناه يا سيّد البشر.

(٤) من معاني المُسكة: البقيّة. يريد من له شيء من الفهم ولو كان قليلاً. وأصل المُسكة في الطعام والشراب وهو ما يُمسك الرّمق.

قال النَّقاش[1] ـ رحمه الله ـ: ما أقسم الله ـ سبحانه ـ علىٰ رسالة نبّي من أنبيائه في كتابه إلاّ بِهٰذا النبيِّ العزيزِ القدرِ عند ربّه، الّذي رَفع مكانته وأظهرَ أمرَهُ، وفتح له ما لم يفتح لغيره وشرّح صدره.

وعلى كل تقدير ففي الآية من إظهار المكّانة، وحُصول الرّفعة له عند ربِّ العِزّة ما يَنشرحُ به صدور المُوقِنين. وتتنوّرُ به أفئدة المحبّين.

وعلىٰ أنّ (يس) اسمٌ من أَسمائه فَأصْلُه مُشتقٌّ من السّيادة الدّالّة علىٰ حُصول الرّفعة. ثم أقسَمَ به المولىٰ ـ سُبحانه ـ إشارةً إلىٰ عظيم قَدْرِه، وعلوّ مكانه، وفي ذٰلك إشارةٌ إلىٰ أنّ أُمّته أحقُّ بتعظيمه؛ لأنّ ربّه وخالقَهُ قد عظّمه، فما بالكم أيّها العَبِيدُ لا تعظّمون من عظّمه رَبُّكم، وما يَمنعكم أنْ تقرّبُوا بِهِ إلىٰ خالقكم؟.

وقد رُوِيَ[2] أنّ جبريل عليه السلام هبط ذات يوم علىٰ النبيّ ـ ﷺ ـ فقال: يا محمّد إنّ الله يُقرئك السّلام، ويقول لكَ: كسوتُ حُسْنَ صورةِ يوسُفَ مِن نُور كرسيِّي، وكسوتُ حُسْنَ صورتِكَ مِن نُورِ عَرْشِي؛ وما خلقتُ خلقاً عندي أحسنَ منك يا محمّد. كذا رأيت هذا الحديثَ في التُّجِيبيّ. وفي غيره رواية أُخرى.

وروي من طريقٍ أُخرى أنّ نورَ العرش من نُور محمّد عليه الصّلاة والسّلام [٤٢/أ].

فإن أصل الأنوار هو نوره، وما خلقت الأنوار إلاّ من نوره، ولا خلَقَ الله الوجودَ إلاّ من سببه؛ فلتَطِبْ نفسُك ـ أيُّها المحبُّ ـ في جنَابِ

---

(١) أبو بكر محمد بن الحسن (٢٦٦ ـ ٣٥١) عالم بالقرآن وتفسيره، كان في أول أمره ينقش السقوف والحيطان فعرف بالنقاش. له مؤلّفات في التفسير وبعض علوم القرآن.

(٢) كنز العمّال ٤٥٨٧، وعلل الحديث ١٥١؛ ٣٥٣.

- وقوله: «نور العرش من نور محمد ﷺ»... لم يصحّ فيه حديث.

سيّد الأكوان، ولتقرَّ عينُك بمحبّةِ نُور أهلِ العِرفان، ولينشرحْ صدْرُكَ بهذا الخِطَاب الّذي خاطَبهُ به مَوْلاه في القُرآن؛ أقسم باسمه لعلوِّ قدره علىٰ أنّه من المُرسلين المُكمّلين، ثم أقسم بالقُرآن العظيم الّذي أنزله علىٰ قلبه الكريم، وأنه علىٰ صراطٍ مُستقيم في كلّ وقتٍ وحين.

وإذا سَمِعَ هذه الآيةَ أهلُ الغَرامِ بمحبّته، والانقطاع إلىٰ خِدمته، انشرحتْ صدورُهم بمكانةِ حبيبهم، وزادهم ذٰلك إيماناً علىٰ إيمانهم، وطابتْ نفوسُهم، وحَسنت سيرتُهم لِعلمهم أنّ لهم عنايةً عند الله بمحبّتهم لعزيزِ القَدْر عند الله.

وربمّا إذا سَمِعَ هذه الآيةَ وما وقعَ من اعتناء ربِّ العِزّة بالقَسم علىٰ صِحّة رسالته، وعلىٰ قوّة رُتبته عند ربه، خَجِلت من ذلك قلوبُ مَنْ ملأَ الله قلوبَهم أنواراً بمحبّته وشرحَ صدورَهم بلذيذِ خدمته، فأخذهم الحياءُ من ربّهم، والخجلُ من قَسَمِ خالقهم بأنْ يقولوا: لمّا علم سبحانه اضطرابَ قلوبِ العبادِ في نبوّته، وتردُّدَهم في رسالته، أحْرجوه[1] إلىٰ القسم علىٰ صحّة قوله، وهو سبحانه لا يحتاج إلىٰ قَسمٍ في خبره!

وكانت هٰذه الآية من الآيات التي إذا سمعها قومٌ أَسَرتهم، وإذا سمعها آخرون أخْجَلتهم وأبكَتْهُم كما أشار إليه العارفون في قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات ٥١/٢٢ ـ ٢٣] وعلى كلّ تصديق وعرفان، وتأييد وبُرهان، فلهؤلاء من ذَهبٍ جَنّتان، ولهٰؤلاء من فضّة جَنّتان. حقّق اللّٰهُ في قُلوبنا صِدق اليَقين، ومَلأها بِنُور العِرفان والحقّ المبين، وشرّفها في محبّة الرّسُول الصّادق الأمين، صلّى الله عليه وعلى آلهِ وسَلّم في كلّ وقتٍ وحين.

---

(١) أحرَجه إلىٰ الأمر: ألجأهُ إليه.

هٰذا الرَّسُولُ الّذي لا خَلْقَ يُشبِهُهُ   في الفَضْلِ والحِلم والإحسانِ والكَرمِ[1]
أتىٰ الأنامَ وليلُ الكفرِ مُنسَدِلٌ   فكان كالشَمسِ أجْلَتْ واكِفَ الظُّلَمِ

فصل

ومن آداب مَن عَلِمَ أنّ اسْمَ نبيّنا عليه أفضلُ الصّلاة والسّلام يٰس، وأنّ الله سُبحانه قد أقسم بذٰلك علىٰ أنه من المُرسلين والنّبيّين المُقَرّبين [٤٢/ب]، فلْيَكُن المحبُّ لجنابه كثيرَ المطالعة لمعجزاته، وما يقرّ به من نبيّه ليزدادَ الإيمانُ في قلبه، فإنّ المؤمنين يزيدهم بذٰلك إيماناً وهم يَستبشرون، وأما الجاحدون فيزيدُهم رِجساً إلىٰ رِجسهم، وماتوا وهم كافرون.

وقد كان الصّحابةُ ـ رضي الله عنهم ـ يجدّدون الإيمان بـ لا إلٰه إلاّ الله، ويكرّرون ما يزيدُ الإيمان في قُلوبهم بقولهم: محمّدٌ رسولُ الله.

وكان أبو هُريرة ـ رضي الله عنه ـ كثيراً ما يذكر من مُعجزات النبيّ ـ ﷺ ـ ويبكي شَوقاً إلىٰ رؤيته وربّما بكىٰ من شدّة فرحِه بتصديقه.

وكان كثيراً ما يقول: تذكَّرُوا مُعجزات النبي ﷺ، واللّٰهِ الذي لا إلٰه إلاّ هو إنْ كنتُ لأعتمدُ بكبدي علىٰ الأرض من شدّة الجوع وإنْ كنتُ لأشدُّ الحجرَ علىٰ بطني من الجُوع. ولقد قعدتُ يوماً علىٰ طَرِيقهم[2]، فمرّ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فسألتُه عن آية مِن كتاب الله، ما سألتُه إلاّ لِيُشبِعَني. فمرّ فلم يفعل، ثم مرَّ بي عُمَر رضي الله عنه،

---

(١) من بحر البَسِيط.

(٢) أهل الصُفَّة: عددٌ من فقراء المسلمين، كانوا أضيافَ الإسلامِ، فكانوا يبيتونَ في صُفَّةِ مَسْجِد رسول الله ﷺ، وهي موضعٌ مُظَلّلٌ مِن المسجد.

فَسألته عن آية ما سألته إلاّ لِيُشبعني[1]، فمرّ فلم يفعل، ثم مرَّ بي خَلِيلي أبو القاسم ﷺ ـ كذا في هٰذه الرواية ـ فتبسّم حين رآني. وعَلِمَ ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال: «أبا هِرّ!»، قلتُ لبَّيْكَ يا رسول الله؛ قال: «الْحَقْ بي». ومَضىٰ، فاتّبعته، فاستأذنت، فأذن لي فوجد قَدَحاً مِن لَبَنٍ؛ فقال: «من أين هذا اللبن؟»؛ فقالوا: أهداهُ فلانٌ؛ أو فلانة؛ فقال لي: «أبا هِرّ!»؛ قلت: لبّيك يا رسول الله[2] فقال: «امْضِ إلىٰ أهْلِ الصُّفّة فادْعُهُمْ لي»؛ قال: وأهل الصفة أضيافٌ علىٰ أهل الإسلام، ليسَ لهم أهلٌ ولا مال، إذا أَتَته الصّدقةُ بَعث بها إليهم، ولم يأكل منها شيئاً، وإذا أتته هَدِيّةٌ أرسل إليهم، وتناول منها، وأشركهم فيها.

فقلتُ في نَفْسِي: وما هٰذا اللّبنُ في أَهْلِ الصُّفّة[3]؟ وكنت أحقّ أَنْ أصِيبَ منه شربةً أتقوّىٰ بها، ولم يكن لي بدٌّ من طاعةِ الله، وطاعة رسوله.

فأتيتُ فدعوتُهم فجاؤوا، فاستأذَنُوا فأُذِنَ لهم، وأخذوا مجالسَهم، فقال لي: «يا أبا هرّ»؛ قلت: لبيك يا رسول الله؛ قال: «خُذ فأعْطِهم»؛ فأخذتُ القَدح فجعلتُ أُعطي الرجلَ فيشرب حتىٰ يرویٰ، ثم يرد عليَّ القدح، فأعطيه للآخر، فيشرب حتىٰ يرویٰ ثم يَردُّ عليّ القدح، حتىٰ انتهيتُ إلىٰ النبيّ ـ ﷺ ـ وقد رَوِيَ [٤٣/أ] القومُ كُلُّهم، والقَدَحُ كما هو؛ فأخذَ النبي ـ ﷺ ـ القدحَ فوضعَهُ علىٰ يدِه، فنظر إليّ، فتبسّم، فقال لي: «يا أبا هرّ!»؛ قلت: لبّيك يا رسول الله؛ قال: «بقيتُ أنا

---

(١) في مسند الإمام أحمد ٢: ٥١٥ «على طريقهم الذين يخرجون منه»، والمؤلف ـ رحمه الله ـ ربّما يُجَوِّزُ في رواية الحديث بالمَعْنى أو بالمقاربة.

(٢) هنا وفي الموضع السابق في المسند: ليستبعني (أي ليدعوني فأتبعه).

(٣) أي: كيف يكفيهم؟.

وأنت»؛ قلتُ: صدقتَ يا رسول الله؛ قال: «فاشرب»؛ فقعدتُ فشربتُ؛ ثم قال: «اِشرب» فشربت؛ ثم قال لي: «اِشرب»، فشربت، حتىٰ قُلت: والله يا رسول الله ما أجدُ له مَسْلَكاً؛ قال: «فأرِني»؛ فأعطيتُه القَدح، فَحمِد الله سُبحانه، وشرب الفَضْل ﷺ[1].

فاشْغل فكرَك يا مَنْ له عنايةٌ بجاهِ رَسُولِ الله ﷺ، واشرَحْ صَدْرَكَ يا من له طمعٌ في شفاعةِ رسولِ الله، فَلَنِعْمَ الجاه، ولَنِعْمَ المُعْتَصَمُ محل العصمة للمتعَلِّق بخدمةِ النبيّ المُحترم؛ فهٰذه المعجزة كم فيها من انخراقِ العادات، ونزول البركات، وحسن أخلاق سيّد أهل الأرضِ والسّمٰوات، وإيثاره علىٰ نفسه، ورحمته لأمته، ومحبته لأهل شريعته.

ولْتُدِمِ النَّظرَ في آياته لتكونَ من الّذين إذا تُليَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُم إيماناً، وَعَلىٰ رَبِّهم يَتَوكَّلُونَ؛ وكرر التفكّر في مُعجزاته لتكون من الّذين: «لا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

وقد كان الحسن رضي الله عنه. يذكر قصّة الجِذْع حين حَنّ، ويبكي ـ رضي الله عنه ـ من شدّة محبّته وقوّة شوقه. وكان إذا ذُكِرَ في مجلسه قصّة حَنين الجِذع لفراقه ﷺ، وكيف سمعت الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ صوتَه كصوتِ العِشار[2]، ارتجّ المجلسُ بِجُؤَاره[3]، وكثُرَ بكاءُ الناس لِمَا رأوا ممّا بِهِ. ولمّا وضع ـ ﷺ ـ يَده الكريمة عليه سَكَنَ.. وقال عليه السّلام[4]: بكىٰ لِمَا فَقد من الذكر الذي كان يأنس به.

---

(١) حديثٌ صحيحٌ رواه البخاري في صحيحه ٧: ١٧٩، والإمام أحمد في مسنده ٢: ٥١٥ وأبو نعيم في الدلائل: ١٥١، وهو في فتح القدير ١١: ٣١.

(٢) العِشار: النُّوق التي نُتِجَ بعضُها وبَعضُها يُنْتَظَرُ نِتاجُها ـ أي ولادتها.

(٣) الجُؤار: ارتفاعُ الصَّوْتِ بالدُّعاء والتَّضَرُّع ونحوِه.

(٤) الحديث صحيحٌ رواه البخاريّ والترمذيّ والنسائيّ وابن ماجة والدارميّ وأحمد؛ انظر مثلاً مُسند الإمام أحمد ١: ٢٤٩، ٢٦٧، ٣٦٣.

فيقولُ الحسَنُ عند ذلك: نحنُ أَوْلىٰ بالشَوق إلىٰ رسول الله والحنينِ لِفِراقه؛ وهٰذه خشبةٌ يابسةٌ قد حَنّت لِفراقه، ثم بكىٰ بكاءً شديداً حَناناً وشوقاً إلىٰ رسولِ الله صاحب الفضل والرسالة، وتعظيماً لصاحب الفخرِ والجلالة.

فالمتأكّد في حقّ كثيرِ الذُّنوب، الشوقُ إلىٰ صفات حبيبِ عَلاّم الغُيوب، لعلّ مولاه أن يرحَم غُربته، وأن يُؤمّنَ روعته.

أَسِيرُ الخَطايا عند بابِكَ واقفُ ... علىٰ وَجَلٍ ممّا بهِ أَنتَ عارفُ[1]
يخافُ ذنوباً لم يغبْ عنكَ غَيْبُهَا ... ويرجوكَ فيها، فهو راجٍ وخائفُ
ومَن ذا الذي يُرْجَىٰ سواكَ ويُتّقىٰ ... ومالَكَ في فصلِ القضاءِ مُخالِفُ
فيا سيّدي لا تُخزِني في صَحيفتي ... إذا نُشِرَتْ يومَ الحِساب الصّحائفُ
وكُنْ مُؤنسي في ظلمةِ القَبْرِ عندَما ... يَصُدُّ ذوو وُدٍّ، ويجفو المُؤالفُ
لئن ضَاقَ عنّي عفوُكَ الواسعُ الّذي ... أُرَجّي لإفلاسي، فإنّي تالِفُ
فكيفَ وكلُّ الخلْقِ إنْ أُعطيَ المُنىٰ ... فَنَزْرٌ، ولو أنَّ المنىٰ يتضاعفُ

(١) من بحر الطويل.

بـاب
فـي مَعنىٰ اسْمهِ
المُزَّمِّل والمدَّثِّر (١)
صلّىٰ الله عليه وسلّم، وشرّف وكرّم

المُزَّمِّل والمُدَّثِّر: اسمان من أسمائه، عليه أفضلُ الصّلاة والسّلام، ورد بهما القُرآن العظيم؛ قال الله العظيم في كتابه الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل ٧٥/ ١] ؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر ٧٤/ ١] .

وقد قال ـ ﷺ(٢) ـ: «لي عشرة أسماء...» فذكر منها المُزَّمِّل والمُدَّثِّر.

وأجمعت الأُمّة علىٰ أنّ المرادَ بالنّداء في كتاب الله تعالىٰ بهذين الاسمين حبيبُ الحَقّ، وشفيعُ الخَلْق... ﷺ.

فأمّا المُزَّمِّلُ: فأصلهُ المُتَزَمِّل بالثّياب، أي الملتفّ بها، فأُدغمت التاء في الزّاي.

واختلفَ العُلماء ـ رضي الله عنهم ـ: هل كان ﷺ نائماً أَو متيَقِّظاً

---

(١) ورد تفسير هٰذين الإسمين من أسمائه ﷺ في: الرياض الأنيقة ٢٣٧ وسُبل الهدى والرشاد ١: ٦٣٠ ـ ٦٣٣ والمواهب اللدنية ١: ١٩٢.

(٢) سبق في تفسير المؤلّف لمعنىٰ اسمه ﷺ (طه) ما روى النّقاش عن النبي عليه السّلام أنه قال: «لي في القرآن سبعة أسماء.....» فذكر منها المدّثّر والمزّمّل؛ انظر الصّفحة ١٥٩ من هذا الكتاب، مَتْناً وحاشيةً.

يصلّي فقيل: ناداه مولاه حالة كونه نائماً قد نامت عيناه، ولم يَنم قلبه، وهو متزمّلٌ في قَطِيفَتِه[1]، مراقبٌ قلبه لأَمرِ ربّه؛ فناداه مولاهُ وخالقُه علىٰ حالته في تزمّله، تسليةً لقلبه، واعتناءً به، وإظهاراً لمكان عُبوديّته في كونه يقتصرُ علىٰ ما يضطرُ إليه في لبسه، وإشارةً إلىٰ قوّة زُهده، واقتصاره من الدُّنيا علىٰ ما يُعينُ علىٰ طاعةِ ربّه، ويبلّغه لآخرته، ثم أمره مولاه أنْ يدوم علىٰ تهجّده بما حَدّد له في قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ [المزّمّل ٧٣/ ٢].

وقيل: إنّ النبيّ ـ ﷺ ـ كانَ مُتَزَمّلاً في مِرْطٍ[2] لخديجة ـ رضي الله عنها ـ يصلّي فيه، فنُودي حال صلاته، وقيامه بين يدي ربّه.

ومعنىٰ ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾: دُمْ علىٰ قيامك بينَ يَدي مولاك وصلاتك لربّك.

وما ذكر بعضُ المفسّرين[3] هنا من التّفسير فهو كلامُ مَنْ لم يُعْطِ المعصومَ حقّه، ولم يُقَدّره قَدْرَه [٤٤/أ].

وأما المُدَّثّرُ: فمعناهُ لابسُ الدّثار، وهو الثوب الذي فوقَ الشّعار، ومن ذٰلك قول النبيّ ـ ﷺ[4] ـ: النّاسُ دثار والأنصَارُ الشّعار.

وسبب دِثاره ـ ﷺ ـ ما رواه جابر بنُ عبد الله ـ رضي الله عنه،

---

(١) القَطِيفة: دِثارٌ مُخْمَل.

(٢) المِرْط: كِساءٌ مِن صوفٍ أو خَزّ.

(٣) يشير إلى قول قرأه في بعض كتب التفسير؛ ولم أهتد إلى مقصد المؤلف في اعتراضه من المصادر التي بين يدي.

(٤) روىٰ ابن ماجه من حديث: «الأنصار شِعار، والنّاسُ دِثار»، سنن ابن ماجة ١: ٥٨؛ ورواه الإمام أحمد في مسنده ٢: ٤١٩ مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه طُولٌ.

قال: قال رسول الله[1]: «كنت على جبل حِرَاء؛ فنُوديتُ يا محمّد إنّكَ رسولُ الله؛ فنظرتُ عن يَميني وعن شِمالي، فلم أرَ شيئاً، فنظرتُ فوقي فإذا بالمَلك قاعدٌ على العرش» ـ يعني المَلكَ الّذي ناداه ـ قال: «فرُعِبْتُ ورجَعت إلى خديجة، فقلت: دَثّروني، فنزل جبريل وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر ٧٤/١] ».

وقيل[2]: إن الله سبحانه وتعالى ـ لمّا أنزل عليه ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ...﴾ الآية [العلق ٩٦/١] فَتَرَ الوحيُ، فشقّ ذٰلك على النبيّ ـ ﷺ ـ فأتاهُ جِبريل عليه السلام وهو في جبل حِراء، فقال له: إنّك نبيُّ الله حَقّاً، فرجع إلى خديجَة وقال: دَثّروني، وصُبّوا عليّ ماءً بارداً، ثم أنزل الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ٧٤/١].

وقيل: إنّ قومه ـ ﷺ ـ لمّا كَذّبوه حَزِنَ لذلك، فقال: دَثّروني، فأنزل الله الآية الكريمة.

فيجبُ على المؤمن المحبّ في جناب النبيّ الكريم، الرسول العَظيم أن يعتقد أنّ الله ـ سُبحانه ـ خلَقه على أكمل حال في تَمامِ يقينه، وقُوّةِ عرفانِه، وأنّه معصوم في أقواله وأفعاله.

وحيث أتى إليه جبريل عليه السّلام خلق الله في قلبه الكريم علماً ضرورياً بمعرفته، وأنّه أتى إليه رسولاً من عند رَبّهِ ليبلّغه ما أمره به.

---

(١) انظر الحديث في صحيح البخاري ١: ٤، وصحيح مسلم: ١٤٣، ومسند الإمام أحمد ٣: ٣٠٦.

(٢) انظر ما ورد في الحاشية السّابقة.

ـ وفي تفسير القرطبي: عن الزُّهري: أول ما نزل سورة اقرأ باسم ربك، إلى قوله ما لم يعلم. فحزن رسول الله ﷺ وجعل يعلو شواهق الجبال، فأتاه جبريل فقال له: إنك نبيّ الله فرجع إلى خديجة وقال: دثروني وصبوا عليّ ماءً بارداً. فنزل: يا أيها المدّثر (٢٠: ١١٨).

ويجوزُ أن يكونَ جبريلُ ـ عليه السلام ـ أقدره الله تعالىٰ علىٰ أنْ أتى بدليلٍ وآيةٍ خارقةٍ للعادة، تدلُّ علىٰ صِدقه في أنّه مَلكٌ مُرسلٌ من عندِ رَبّه وخالِقه، فعلمَ ذٰلك نبيُّ اللهِ العزيزُ القَدْرِ عند الله، وامتلأ بمعرفته فؤادُه.

وكذلك اعتقاد مثل ذلك واجبٌ في جميعِ أنبياء الله تعالىٰ، لثبوتِ الدّليل القاطع علىٰ كمالِ عِصمتهم في قلوبهم وجَوارحهم، وهذا مقطوعٌ به من الأقوال مُتواترٌ في الأفعال.

ومَنْ تشكّك في شيءٍ مِن ذٰلك، واعتقدَ خِلافَهُ فهو كافرٌ بالله تعالىٰ، قادحٌ في نبوءةِ رَسُول الله؛ فكما يجب الإيمان بصدقهم يجب الإيمان بِعصمتهم[1].

واختلفَ العلماءُ: أيّ آية نزلتْ أوّلاً علىٰ رسول الله [٤٤/ب] ـ ﷺ ـ فقيل: سُورة العَلق، وهي: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، وقيل: سُورةُ المدّثر.

والصوابُ أنّ أوّل ما أُنزل علىٰ ـ النبي ﷺ ـ في النُّبوءة سورةُ العَلق؛ وأوّل ما أنزل عليه في الرسالة سورة المدّثر، وهٰذا هو الجمعُ بين الأحاديث الواردة في ذلك[2].

---

(١) ينظر مقدّمة كتاب: تنزيه الأنبياء عمّا نسب إليهم حثالة الأغبياء؛ وما ساقه المؤلّف عن عصمة الأنبياء في أثناء كتابه. (طبع دار الفكر ـ الطبعة الثانية - ١٩٩٩).

(٢) قال علم الدين السخاوي: العلماء على أنّه إنما نزل على رسول الله ﷺ ﴿إقرأ باسم ربك﴾ إلى قوله: ﴿علّم الإنسانَ ما لم يعلم﴾ ثم نزل باقيها بعد ﴿يا أيها المدثر﴾ و﴿يا أيّها المزمّل﴾ من كتابه جمال القراء وكمال الإقراء ١: ٧.

- ويُنظر تفسير القُرطبي ١٩: ٥٩ و٢٠: ١١٧.

فإنّه لما أتىٰ جبريل عليه السّلام إلىٰ النبي ﷺ، وقال له: إقرأ، قال: «ما أنا بقارىء»؛ فكررّ ذلك ثلاثاً ثم قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: ٩٦/١، ٢]. فرجع ـ النبي ﷺ ـ إلىٰ خديجة يرجُف بها فؤادُه، فقال: «زَمّلوني زَمّلوني»[1].

ثم فَتَرَ الوحيُ بعد ذلك، ثم أنزل الله سبحانه الأمر بالرسالةِ بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [المدثر: ٧٤/١ ـ ٣]. وفي ذلك روايات، وفي بعضها زياداتٌ حَذفناها، لأجل الطول والخروج عن المقصد في هذا التقييد.

فصل

يتأكّدُ في حقّ المُحِبّ في المسمّىٰ بالمدّثّر والمزّمّل أن يتخلّق ببعِض خلقه في تعبّده وعبادته، وأنْ يحافظَ علىٰ اعتقاده بما يُنسب لنبيّه، وينفي عنه ما يَستحيل عليه من تشكُّك أو شكّ فيما أتىٰ إليه من ربّه.

بل يجبُ علىٰ المؤمن أن يعتقدَ أنّ علمه ـ ﷺ ـ بما جاءَهُ عن ربّه حصَل له العلمُ به ضرورةً، وليس عنده في ذلك شكٌّ، ولا مِراء.

وأنّ الله سبحانه فطره علىٰ العلم به، وبما يجب لربّه. وما يستحيلُ علىٰ خالقه.

وإنّما نَبّهنا علىٰ ذلك هنا لأنّ كثيراً من الأحاديث في أصل البِعثة رُبّما أَحَالَ السّامعُ منها شيئاً[2] فما يوجب له فَساداً في الاعتقاد، وخَلَلاً في طريق الرشاد، إن لم يكنْ مع السّامع أدلّةٌ قطعيّةٌ يردُّ بها الشّيطان، ويقْمَعُه بالحجّة الدّامغة والسُّلطان.

---

(١) صحيح البخاري ١: ٣١.

(٢) يريد: ظنّ السّامع ـ أو اعتقد ـ أنّها مُحال.

فنسأل الله ـ سبحانه ـ ألاّ يُزيغَ قلوبَنا بعد إذْ هدانا لمحبّته ووفّقنا؛ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران ٣/٨] .

وكذلك يُطلب في حقّ المُرِيد في اتّباعه ألاّ يَشُقّ على نفسِه في قيامه بليله، فإنّ المعصومَ ـ ﷺ ـ قال[١]: إنّ أحبَّ العملِ إلى الله أدْوَمُه ولو قَلّ.

وقال ـ ﷺ[٢] ـ: مَنْ قامَ بعشرِ آياتٍ لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمئة آية كُتِبَ من القانتين. وفي رواية [٤٥/أ] أيضاً[٣]: من استَيْقظ من الليل، وأيقظَ امرأته فصلّيا ركعتين جميعاً كُتِباً من الذّاكرين الله كثيراً والذّاكرات.

وهذا الذي ذكرناه إنما هو في حقّ المُرِيد السالك للطريق العامة في طلب التوفيق.

وأمّا مَن قَوِيَ يقينُه، واشتدّ خوفُه من أَولياء الله الّذين كانوا ـ رضي الله عنهم ـ لم تكتحلْ أعينُهم بنومٍ في كثيرٍ من أزمانهم، وربما صلَّوُا الصبحَ بوضوءِ العَتمة، لشدّة حُضورهم [مع ربّهم] وإيقانهم، قال سَهْلُ بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ: عَجباً لمن تكتحل عينُه برقاده والموتُ ضجيعهُ على وسادِه!.

وقال الجُنَيد ـ رضي الله عنه ـ: مرّت على السّرِيّ[٤] ثمان وتسعونَ

---

(١) صحيح مسلم ١ : ٥٤١؛ وإتحاف السّادة المتقين ٥ : ١٦٠.

(٢) صحيح ابن خزيمة ١١٤٤، وإتحاف السّادة ١ : ١٢٠ وتفسير القرطبي ١ : ٩.

(٣) الفتح الكبير ٣ : ١٥٩، وإتحاف السّادة المتقين ٥ : ١٨٧.

(٤) السّري بن المُغَلِّس السَّقَطِيّ، يقال إنّه خال الجُنَيد، وأستاذه؛ كانَ إمامَ البغداديّين وشيخهم في التصوُّف؛ مات سنة (٢٥١هـ). انظر ترجمته في حلية الأولياء ١٠ : ١١٦، والرسالة القشيرية: ٤١٧.

سنة، ما رُئي مضطجعاً إلاّ في علّة الموت(١).

وربما كانَ من الأولياء من لا يُحيي الليلَ لاشتغاله بما يجدُ في قلبه مع رَبّه علىٰ قدر حاله، منهم الشيخ أَبو هارون الأندلسي - رحمه الله - وكان من العُبّاد الزهّاد، ولم يُرَ له كثرةُ قيام ولا صيام ولا قوّةٌ في العَمل؛ وقد عاشَره أبو عِقالٍ مِن بني الأغلب - وكان ملكاً من المُلوك قد تابَ إلىٰ ربّه، ورفض الدّنيا خلفَ ظهره، وهجَر النّساء والوطن والنّاس أجمعين! وبلغ مبلغاً من العبادة أربىٰ فيه علىٰ المجتهدين، وكان مُجابَ الدّعوة، وكان قد صَحِبَ سَحْنُوناً(٢)، وانقطع إلىٰ الله، واجتمع بأبي هارون المذكور وعاشره؛ وكان أبو عقال يتهجّدُ، وأبو هارون قائم الليل كلّه، ثم خاطب نفسه ليلة بقوله:

هذا عابدٌ جليلُ القَدْر ينامُ اللّيلَ كلّه، وأنتَ تسهر فلو أرحتَ نفسَك! فوضَع جنبه فرأىٰ في منامه شخصاً يتلو عليه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية ٤٥/٢] فاستيقظ فزِعاً، وعلم أنّ المرادَ نفسُه، فأيقظَ أبا هارون فقال له: سألتك بالله هل أتيت كبيرة قط؟ قال: لا يا ابن أخِي ولا صغيرة عن تعمُّدٍ والحمد لله، فقال أبو عِقال: لهٰذا ينامُ هٰذا السّيّد، ولا يَصْلُح لِمثلي النّوم، بل الكدُّ والاجتهاد. ويقال إنه

---

(١) ذكره صاحب الرسالة القشيريّة في ترجمة السريّ السقطيّ: ٤١٨.

(٢) سُحنون لقب لعبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي (١٦٠ - ٢٤٠) قاضٍ فقيه انتهت إليه دراسة العلم في المغرب، كان زاهداً لا يهابُ سلطاناً في حقّ يقوله، أصله شامي من حمص، ولد في القيروان. ولي القضاء بها سنة ٢٣٤ إلى وفاته، روى المدونة عن عبد الرحمن بن القاسم عن الإمام مالك. وكان أبيّ النفس رفيع القدر عفيفاً. وله أخبار كثيرة.(الأعلام ٤: ٥).

مات بمكّة وهو ساجدٌ في صلاةِ الفَرِيضة في المسجدِ الحَرام [٤٥/ب]

يـا غـافـلاً لاهـيـاً قـد غَـرَّهُ الأمـلُ   إلىٰ متىٰ أنتَ باللّذاتِ مُشْتَغِلُ[١]

إنَّ الـرُّقـادَ يـمـيـت الـقَـلْـبَ أكـثـرهُ   فـلا تـغـرنّـكَ الـلّـذّاتُ والأمـلُ

وقُـمْ بـلـيـلٍ يـراكَ الله مُـجـتـهـداً   وادعُـوه مـنـكـسِـراً والـدّمـعُ يـنـهـمـلُ

والـفـجـر والـصّـبـح لا تـنـسَـاهـمـا أبـداً   فإنّ أهلَ التُّقىٰ بالصّبح قد شُغِلُوا

أمَـا عـلـمـتَ بـأنّ الله مـطّـلـعٌ   علىٰ العِبَادِ يُجازيهم بما عَمِلُوا؟!

غفر الله ذُنوبنا وبلّغنا بفضله في الدّارين مأمولَنا، وصلّى الله علىٰ سيّدنا ومولانا محمد حَبيبِنا وشفيعنا في غُربتنا وعُدّتنا في شِدّتنا وسلَّمَ تسليماً كثيراً.

---

(١) هذا الشطر يذكّر ببيت البوصيري في مطلع إحدىٰ نبويّاته [الديوان: ٢٢]:

إلى متى أنتَ باللذاتِ مشغولُ   وأنتَ عن كل ما قدّمت مسؤول؟!

-والشعر من بحر البَسِيط.

بَابٌ
في معنى اسمه
الطَّاهِر(١)
صلّى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

الطّاهر: اسمٌ من أسمائهِ عليه أفضلُ الصّلاة والسّلام وردت فيه الآثار، ومشهور الأخبار، وأجمع عليه علماء الأمصار.

وهو اسمُ فاعل، مشتقّ من الطّهارة، وهي النّزاهة، ومعنى ذلك أنّ جميعَ ما خلقَ الله فيه جسماً، وروحاً، وصورةً ونشأةً، وهيئةً، ونفساً، كلّ ذلك قد نَزّهه ـ سُبحانه ـ بأنْ خلقه علىٰ أكملِ ما نَشأ عليه خلقه، ممّا تميلُ إليه النّفوسُ الزكيّةُ، والطّباعُ السّليمةُ من النّزاهةِ الحِسّية والمَعاني المعنوية.

وهذا الاسمُ الكريم ـ عِندي ـ يرجعُ إلىٰ تنزيهه حسّاً ومعنىً عن جميع ما يَشِينُه ويمنعُ من مَقام النُّبوّة، ويُنافي مقام الرّسالة، ويستحيلُ في حقّ الأَنبياء أن لا تَثْبُتَ لهم العِصمة(٢)؛ فالعصمةُ في جنابهمْ واجبةٌ، والواجبُ في الاعتقاد أن النبيّ يجبُ له العصمةُ من المُخَالفات، ومن الوُقوع في الشّهوات ويستحيلُ عليه ذلك في جميعِ الحالات، ويجبُ له

(١) ورد تفسير هذا الاسم مِن أسمائه ﷺ في: الشفا ١: ٣٢٠ الرياض الأنيقة: ٢٠٤، وسُبل الهدى والرّشاد ١: ٥٩٨ والمواهب اللدنية بالمنح المحمّدية ١: ١٩٠.

(٢) في ب: ويستحيل في حقّ الأنبياء عدم ثبوتِ العِصمة لهم.

الاتّصافُ بكمالِ ما تتصفُ به البشريّة من الوُقوف عند المأمُورات، واجتناب المَنْهِيّات، ويجوزُ في فِعله جميعُ المندوبات[1].

وهٰذه الطُّهارةُ قامَ عَليها دليلُ الشَّرعِ، وأنّ ذلك حُكْمُ كلِّ رَسولٍ ونبيّ من لَدُن آدمَ عليه السّلام إلىٰ أنْ بعثَ الله نبينا ـ ﷺ ـ، كلُّهم علىٰ الدِّينِ القويم، والصّراطِ المُستقيم، والمراقبةِ للخبيرِ العليم، في جميعِ الأقوالِ والحَركات والسّكون والأعمال.

وكذلك كمالُ الطّهارة الحسّية في جَنابهِ عليه أفضلُ الصّلاة والسّلام، وكذا جميعُ أنبياءِ الله الكرام، من نَظافةِ جِسمِهِ، وطيب [٤٦/أ] رائحته، وحُسن عَرقه، وكذا نزاهَتُه عن جميع الأقذار، وعن عَورات الجسَد في السِّر والجهار.

بل كانت يده الكريمة كأنما أخرجها من جُونة عَطّار[2] قال أنس ابنُ مالك ـ رضي الله عنه[3] ـ: ما شَمَمْتُ عَنبراً قطّ، ولا مِسكاً، ولا شيئاً أَطيبَ من ريحه ـ ﷺ ـ.

وعن جابر بن سَمُرة ـ رضي الله عنه ـ قال[4]: مَسح خدي رسول الله ﷺ فوجدتُ لها بَرداً وريحاً كأنما أخرجها من جُونة عطّار.

قال العلماء رضي الله عنهم: ذلك ممّا اختصّ به رسول الله ﷺ، سواءٌ مَسَّهَا بطيبٍ أو لم يَمَسَّها؛ بل كانت رائحته تفوق رائحة الطيب،

---

(١) ينظر كتاب: تنزيه الأنبياء عمّا نسب إليهم حثالة الأغبياء للسّبتي (طبع دار الفكر ـ دمشق) من تحقيق محمد رضوان الداية ـ الطبعة الثانية.

(٢) الجُونَة: سُلَيلَةٌ مُستَدِيرة مُغَشّاةٌ أدَماً، تكون مع العَطّارين. ويضرب بها المَثل في طيب الرّائحة.

(٣) الشفا ١ : ١٥٣.

(٤) الشفا ١ : ١٥٣.

وعرقُه من أطيب الطيب، كذا قالت أمُّ سُلَيم ـ رضي الله عنها ـ حيث جمعت عرقَه وهو نائمٌ قالت: نجعلهُ في طِيبنا وهو من أطيب الطيب عندنا(١).

ومن خاصّته ـ ﷺ ـ أنّه كان إذا مَرَّ بطريقٍ عُرِفَ الطّريقُ التي اجتازَ منها من طيب رائحته، فيعلمون أنّ نبيَّ الله ـ ﷺ ـ اجتازَ من تلك الطّريق(٢).

وقد قال العُلَماء ـ رضي الله عنهم ـ بطهارةِ ما يَخْرُج منه عليه السّلام، ولذلك رائحتُه طيبة، لأنّ نبينا ـ ﷺ ليسَ فيه شيءٌ ممّا يكره، بل ممّا يزيدُ فيه مَحبّةً إذا رآهُ الرّائي فلا يُنكره(٣).

ولقد شَرِبَتْ بَركة ـ رضي الله عنها ـ بوله عليه الصلاة والسلام، فما فَرّقت بينهُ وبينَ أطيبِ الماء(٤) ثم إنّ النبيّ ـ ﷺ ـ أقرّها علىٰ فعلها، وأخبرها بأن بركته حَصّنَتْ في بطنها، فلا تشتكي وجَعها.

وهٰذه كلها تضافرت الروايات بنقلها ولا غرابة في ذلك كله.

قال بعضُ المحبّين: لمّا كان نبيُّنا عليه الصّلاة والسّلام خلَقه رَبُّ

---

(١) الشفا ١: ١٥٣.

(٢) الشفا ١: ١٥٤.

(٣) يشير إلى قوله عليه الصلاة والسّلام: «إنّا معاشِرَ الأنبياء تَنْبُتُ أجسادُنا على أرواح أهل الجنّة، فما خرج منها من شيءٍ ابتلعته الأرض، الخصائص الكبرىٰ ١: ١٢١، وقال السيوطي: «وقال البيهقيّ: هذا الحديث من مَوْضوعاتِ ابن عُلوان» ثم علّق عليه فقال: «قلتُ كلاّ، ليسَ كما قال فإنَّ الحديثَ له طريقٌ آخر... وله طريق ثالث، ...» وعنْد له ستُّ طُرُقٍ أخرى غير الطريق الذي اتّهمه البيهقيّ.

(٤) الشّفا ١: ١٥٧.

العِزّة، وصَيّره حَبِيباً له فكمَّل خَلقَهُ على جميع[1] ما لو عرض على أهل العلم لَقَبِلهُ واستَحْسَنه، وليسَ فيه شيءٌ ممّا يُنكر ولا يكره، كيفَ لا يكون ذٰلك مَنْ أهّلَهُ الله لِمَحبّتِهِ، واصطفاهُ بخصوصِ خَلْقه؟.

ولهذا أشارَ صاحبُ البُردة ـ رحمه الله ـ بقوله[2]:

فاقَ النَّبِيِّينَ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ... ولم يُدانوهُ في عِلْمٍ ولا كَرَمِ[3]

وكُلُّهمْ مِن رسولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ ... غَرفاً من البحرِ أو رَشْفاً من الدِّيَمِ

[٤٦/ ب] وواقِفونَ لديهِ عنْدَ حَدّهِمُ ... من نقطةِ العِلم أو مِنْ شَكْلَةِ الحِكَمِ

فهو الذي تمَّ معناهُ وصُورَتُهُ ... ثم اصطفاهُ حبيباً بارِىءُ النَّسَمِ[4]

وَلَقَدْ أجَاد مَنْ قال في تَخمِيسها:

ذخيرةُ الخلقِ للمولىٰ ذخيرتُهُ ... وسِرّه مُلِئَتْ منهُ سريرتُهُ

والحُسْنُ من ذاتِه لا شكّ سيرتُهُ ... فهو الذي تمَّ معناه وصورتُهُ

ثم اصطفاه حَبِيباً بارِىءُ النَّسَمِ

فحقّ لصاحب الوَجه الأقمر، والجبين الأزهر، أن يسمّىٰ بالطّاهر المُطَهّر الأطهر ﷺ ـ وعلىٰ آله ما طلَعت شمسٌ وقَمر.

فصل

مِن آدابِ مَن عَلِمَ أنّ نبيّنا ـ ﷺ ـ سُمّيَ بالطّاهِر أن يكونَ متخلّقاً متشبّهاً به في طريقه، مُحِبّاً فيما أحبّه نبيّه من حُسن النظافة وكمالِ الطّهارةِ في الجَسد والثوبِ والبُقعة، وطهارةِ القَلْبِ والسّريرة.

---

(١) في ب: في جميع مالو.

(٢) ديوان البُوصيري: ٢٤١.

(٣) من بحر البسيط.

(٤) النَّسَم جمع النَّسَمَة: الإنسان.

والدِّينُ بُنِيَ علىٰ النَّظافةِ واتِّباعِ خصالِ الفِطرة التي أمر بها النبيّ الكريم، صاحبُ الخلقِ العظيم، من قصِّ الشارب، وتقليم الأظفار وحلقِ العانة، ونَتْفِ الإبطِ، وغير ذلك مما يجمّلُ البَدَنَ: من تمام الإنقاء وحُسن النظافة، واستعمال الرّوائح الحسَنة المُعينة للمُناجاة ولحضور الملائكة ولِحُسنِ المُلاقاة، مع سَلامةِ النِّيّةِ في استعمالِ هٰذه الحسَنات، وأن لا يفعل ذلك للتّفاخُرِ والامتيازِ عن سائرِ الناسِ، واستعمالِ الشَّرهِ في الرّائحة الحسَنة وغيرها كما هو شأن المُتْرَفِين الغافلينَ عن اطِّلاع ربِّ العالمين؛ فرُبّما كان ذٰلك يعودُ علىٰ فاعِله بالوبالِ من الكبيرِ المُتعَال، حتّى إنّ الرجلَ يُقال: ما أعْقَلَهُ وما أظْرَفَهُ، وليس في قلبِهِ مثقالُ حبةٍ من أمانة! سيّما إنْ صَحِبَ ذٰلك استعمالُه من مالِ غَصْبٍ أو خيانةٍ أو حُرمة؛ فما أحقّ مَنْ كانَ وسخ الثّوب نقيّ القلب، بأن يكون عند الله أعلىٰ مقاماً ممّن كان قلبه مملوءاً غشاً وحَسداً وكِبْراً وعُلُوّاً، وعُجباً ورفعةً، وظهوراً وخيانةً، ولَسْعاً للمسلمين، وإذايةً للمُؤمنين، واحتقاراً للمساكين، سيّما[*] إنْ كان معه طَرَفٌ من الانتساب إلىٰ العِلم، ونسبةٌ إلىٰ الطّلب والفَهم؛ [٤٧/أ]؛ فطريقُ السُّنّةِ تُنادي عليه بالتّحريف، ولسانُ الشّرعِ يقرعهُ بِمَقارعِ التّخويف.

ثم ربّما احتجّ بعضُ مَنِ ابتلاهم الله سبحانه بزينة الدنيا في أعينهم، وصيّروا همّها نُصْبَ أفئدتهم، فَبِها يتشرّفون، وعليها يتحيّلون، وهم من قريبٍ عنها راحلون، تنقضي لذّاتُهم، وتبقىٰ تِباعاتهم[1]؛ ويقولون: كان مالكٌ ـ رضي الله عنه ـ وغيره عنده كذا وكذا ثوباً ونَعْلاً، وكان كثيرَ الرّائحة الحسنة، والملابس الفاخرة!.

(*) يكرر المؤلف هذا الأسلوب، وفصيحه: ولا سيّما.

(١) التباعات جمع التّباعة؛ في اللسان: التَّبِعةُ و التَّباعَةُ: ما فيه إثمٌ يتّبع به يقال: ما على فلانٍ من الله في هٰذا تَبِعَةٌ ولا تِبَاعَة.

والعجبُ ممّن يذكر ذلك، ويذكرُ قياسَهُ علىٰ مَنْ بارَزه[1] في الدّين وسبَقه، فيشبه الإنسان نفسه بما لم يكن له أن يلحقه! فإنّ مالكاً[2] ـ رحمه الله ـ معلومٌ قدرُه. وحالُه وفهمُه، وورعُه وأدبه واتّباعه لِسُنّةِ نبيّه، وما كان يفعلُ ما يفعلُه إلاّ لأجلِ تَعظيم شعائر الله، وبيانِ شَرفِ قدرِ رَسُولِ الله ﷺ؛ وأَفعالُه تَدَلُّ علىٰ أنَّ المالَ عنده مالُ الله، وأنّ الدُّنيا إنّما كانتْ في كَفّه يتصرّفُ بها في مَرْضَاةِ ربِّه، وكان غنيّاً شاكراً في ماله.

وحكاياتُه وفضائلُه في طهارة سِرّه واتّباعه لمرضاة رَبّه مملوءةٌ بها الدّواوين، وقد طُرّزت بها مجالسِ العُلَماء العامِلين.

فليسَ ذلك مثلي، وفي أَنظاري[3] ممّنْ يمنعُ حقّ الله من ماله. والدُّنيا نصبُ عَينيه، وهو يخدُمها، ويتصاغَر لأَهلِها، ويبخلُ بها عن محلّها!.

كان الشيخ ولي الله الدُّكّالي[4] ـ رحمه الله ـ كتب إلىٰ بعض الطّلبة كتاباً يقول فيه:

---

(١) في ج: س يارز في الدين.

(٢) هو الإمام مالك بن أنس الأصبحي الحميري أحد الأئمة الأربعة، وإليه تنسب المالكية (٩٣ ـ ١٧٩) له كتاب الموطأ، ومجموعة من الكتب والرسائل. وألفت فيه كتب كثيرة منها للسيوطي. تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك.

(٣) أنظاري: أي أمثالي.

(٤) من طبقة شيوخ شيوخ المؤلف: أبو عبد الله محمّد الدُّوكالي من رجال القرن الثامن وأدرك صدر التاسع. حلاّه ابن مرزوق في ترجمته بالشيخ الوليّ الصالح الزّاهد. أثار خلافاً حوله في مسألة أخذ الأئمة في المساجد أجراً على صلاتهم بالناس وإمامتهم. وذكره المؤلف في فهرسته. تنظر فهرسة الرصاع ١٢ ـ ١٣ و٧١ ـ ٧٣ وحواشي المحقق.

اعلمْ يا أخي أنك محتاجٌ إلىٰ أُمورٍ أعلاها سلامَةُ الدِّين والعِرض، فاللَّهَ اللَّه فيهما.

واعلم يا أخي أنَّكَ إنْ عاملتَ الله ـ سُبحانه ـ فيما أنتَ تُحاوله تظهر عليك بَركَتُه في دينك ودُنياك، وتعلم ذٰلك بانشراحِ صدرِكَ وبالحرص عليه.

وقد رأيتُ مَنْ طلب العلم لِمتاع الدُّنيا «نَسُوا الله فأنساهم أنفُسَهم» حتىٰ هلكوا بالحسَدِ والعَداوةِ، وتعرّضوا بذلك لسَخَطِ الله، وأليم عذابِه، فالله الله فإنّ العاقلَ مَنِ اتّعظ بغيره. ثم قال:

مِفتاحُ رزقكَ تَقْوىٰ الله فاتّقهِ ... وليسَ مفتاحُه حِرْصاً ولا طَلبا[1]

والعلمُ أجملُ ثوبٍ أنتَ لابِسهُ ... فاجْعَلْ لهُ عَلميْنِ الدِّيْنَ والأَدبا

رضي الله عنهم، ما أحسَن كلامهم وألذَّ خطابَهم! وما أبعد [٤٧/ب] القلبَ القاسي مِثلي أنْ يستجْلِيَ أفهامهم[2].

إلَهي لا تُعَذِّبني فإنّي ... مقرٌّ بالّذي قد كانَ مِنّي[3]

وما لي حيلةٌ إلا رَجائي ... لِعفوِكَ إنْ عَفوتَ وحُسْن ظنّي

يظنُّ النّاسُ بي خَيراً وإنّي ... لَشَرُّ النّاسِ إنْ لم تَعْفُ عَنّي

ربِّ اغفرْ وارْحَمْ، وتجاوَز عَمّا تعلم، إنّك أنت العليّ الأعظم. توسلتُ إليك بمحبّةِ النبيِّ الأكرم ﷺ وعلى آلِهِ وشرّف وكَرّم.

---

(١) من بحر البسيط.

(٢) يكرّر المؤلّف ـ رحمه الله ـ مواقف التلوُّم هذه بأساليب شتى، من باب الورع؛ وزيادة في أسباب الذلّ عند باب العزيز الكريم.

(٣) من بحر الوافر.
- والشعر مشهور محفوظ.

باب

في معنىٰ اسمه

الهادي إلىٰ صراط الله(١)

صلّىٰ الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

الهادي إلىٰ صراط الله: اسمٌ من أسمائه عليه أفضل الصّلاة والسّلام، وسمّى الله سبحانه نفسَه الهَادِي، قال الله العَظِيم في كتابه الكريم: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ١٠/٢٥].

ومعنىٰ الهداية في حقّه سُبحانه وتعالىٰ: توفيقُ مَنْ أرادَ الله سُبحانه الطريقَ المُستقيم، وخَلْق ذٰلك في قلبِ عَبده، لأنّه لا خالقَ غيرُه، ولا يصرفُ السّوءَ إلاّ هو، ولا يجلبُ الخيرَ إلاّ هو؛ خالقُ العباد، وخالقُ أعمالهم، والمقدّرُ لحركاتهم وسَكناتهم.

ثم أنّه ـ سُبحانه ـ اشتقّ لنبيّهِ اسماً من اسمه تعظيماً لِقَدْرِه فقال في حَقّه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى ٤٢/٥٢] معناه: وإنّك لتهدي الخلائق إلىٰ الدّين القَويم؛ فإنّه داعٍ إلىٰ الله بإذنه ـ فإنّما علىٰ رَسُولِه البَلاغ، والدّعاء لعبادة رَبّه.

---

(١) ورد شرح هذا الاسم مِن أسمائه ﷺ في: الشفا ١: ٤٦٩، والرياض الأنيقة: ٢٦٧، وسبل الهدىٰ والرّشاد ١: ٦٥٩.
ـ والمؤلّف يسوق عبارة القاضي تقريباً.

وأمّا خَلْق التّوفيق في قُلوبهم فهو خاصٌ بخلقهِ ـ سُبحانه ـ قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٢٨/٥٦].

وسببُ هٰذه الآية قصّةُ أبي طالب[1] عم نبيّنا ـ ﷺ ـ ويودُّ كلّ مؤمن محبّ في جَنابِ هذا النّبيّ العظيم أنّ الله سبُحانه مَنّ علىٰ أبي طالب بإسلامه لِمَا صَدر منه من المحبّةِ والتّعظيم، والشّفقةِ علىٰ نبيّنا الكريم. وإذا سمع المؤمن قضيّته يتفطّرُ كَبِدهُ لأجل عَدم إيمانِه، حنَاناً وشفقةً عليهِ (وطمَعاً)[2]، ولذا أنزل الله تعالىٰ الآيةَ الكريمةَ علىٰ نبينا ـ ﷺ ـ وسلاّه رَبّه بها لَمّا شَقّ عليه عدمِ إيمانِه حيثُ امتنَع مِن قَوْلِ «لا إلٰهَ إلاّ الله»، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ يقولُ له: يا عم قُلْ: لا إلٰه إلاّ الله؛ كلمة أُحاجّ لكَ بها عندَ الله، قُلْها ولو في أُذني [٤٨/أ].

وقد تَواتَرت الآثارُ، واشتهرت الأَخبارُ بشدّة حرصِ نبيّنا الكريم الرؤوف الرحيم علىٰ هدايةِ أُمتّهِ إلىٰ الصّراطِ المُستقيم، ودعائهم إلىٰ الدِّين القويم.

وقد علمتَ أيّها المحب ـ زادكَ الله حبّاً في صاحب الخُلق العظيم، وأعاد عليّ وعليكَ بركة هذا النبيّ الكريم ـ أَنّه لم يكن علىٰ وجهِ الأرضِ من يوحّد الله ـ سُبحانه ـ ويقوم بعبادته قبل بِعثته في زمانه.

---

(١) صحيح البخاري ٦: ١٨ وصحيح مسلم: ٥٤، وفي تفسير القرطبي ١٣: ٢٩٩: أجمع جُلُّ المفسّرين على أنها نزلت في شأن أبي طالب عمّ النبيّ ﷺ، وهو نصّ البخاري ومسلم... الخ.

(٢) أي: وطمعاً في إيمانه.

وقد حَمِيَ وطيسُ الكُهّان[1]، واشتعلت نيرانُ المخالفة والعِصيان، حتّىٰ أظهرَ الله ـ سُبحانه نورَ توحيدِهِ، ببعثةِ صفيّة، فشمّر عن ساقِ جِدّه، وباعَ نفسَهُ الكريمةَ في مرضاة رَبّهِ في الدُّعاءِ إلىٰ الإيمانِ قائلاً عليهِ السّلام بين عَبدة الأوثان[2]: «أنا النَّذِيرُ العُريان»، فنكّس أعلامهم، وكَسر أصنامهم، وأطفأ نُورُه حرَّ نيرانهم، فَشقَّ ذٰلك عليهم، فأتىٰ رُؤساؤهم إلىٰ عَمّه أبي طالب، لعلّه أن يكفّ ويقتصر علىٰ عبادة ربّه في دَارِه؛ فقال ﷺ لعمّه ـ وقد استَعْبَر بالبكاء[3]: «يا عمّ والّذي بعثني بالحقّ: لو وضَعُوا الشمسَ في يميني، والقمر في يَساري علىٰ أن أكفّ عَمّا أمرني به ربّي، لمَا رجعتُ حتىٰ يُظهر الله دِينه علىٰ الدّين كله». ثم خرج فلحقه عمه وقال له: افعلْ يا بُنَيَّ ما بَدا لك. وما زال هٰذا حالُه في الدُّعاء إلىٰ الله، وإظهارِ دينِ الله، وإعلاءِ كلمةِ الله، والمُقاتلةِ في ذاتِ الله حتىٰ أَظْهر اللهُ دينَه ـ وتمّم يقينه، وحَمْى نبيَّهُ وحبيبه، وأيّدهُ بِمَنِ اصطَفاه من الأَبرارِ المهاجرين والأَنصار، وسبقت لهم العنايةُ الربّانيةُ في هٰذه الدّارِ وتلكَ الدار.

فهو ـ ﷺ ـ حقٌّ له أن يُسمّىٰ الهادي، لتسبّبِهِ في الهِدّاية، وأمرِه بها لأهلِ الولاية.

وقد قال لعليّ ـ رضي الله عنه ـ[4]: لأَنْ يهديَ الله بك رَجُلاً

---

(١) يقال في الأمر إذا اشتدّ: حمي وطيسُه. وأصل الوطيس في اللغة: الوطءُ من الخيل والإبل.

(٢) من حديث في صحيح مُسلم: ١٧٨٨، عن أبي موسىٰ أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنّ مثلي ومثل ما بعثني الله كمثل رَجُل أتىٰ قومَهُ فقال: يا قوم، إنّي رأيت الجيش بعينيّ، وإنّي أنا النّذير العُريان، فالنجاءَ النجاء...» إلخ.

(٣) انظر السيرة النبوية ـ لابن هشام ١: ٢٦٦.

(٤) رواه الإمام أحمد في مُسنده ٥: ٣٣٣. وروي بلفظ: لأن يهدي الله على يديك رجلاً واحداً... الحديث؛ وهو في مجمع الزوائد ٥: ٣٣٤ وكنز العمال ٢/٢٨٨: وروي بألفاظ مقاربة.

واحداً خير لك من أن يكونَ لك حُمر النَّعم.

فَما مِن هادٍ قد هَداه الله، ولا مِنْ مؤمنٍ وَفَّقه الله، إلاَّ وهو في ميزان النَّبِيِّ - ﷺ - إلىٰ يومِ القيامة.

فخيارُ الخَلق في ميزانِه لهِدايتهم، والأَولياء كلّهم من إحسانِه في بدايتهم، وبلوغ نِهايتهم.

ولقد أجادَ بعضُ الصَّالحين في مدحِ نبيّه فقال:

[٤٨/ب] شَواهدُ تقضي كلُّها لمحمّدٍ ... بفضلِ التَّرَقِّي في شُفوفِ المزيّةِ[1]
ومَنْ ذا الذي يُجلىٰ له معجزاتُه ... فيقرنَ مخلوقاً به بالسَّويَّةِ
تفرّدَ دونَ العالمينَ بِخَلّةٍ ... تقلّبَ منها في المَزايا العليّةِ
قضىٰ حقَّه حتّىٰ الجمادُ لعلمهِ ... بأنَّ الهُدىٰ في الطَّلعةِ الأحمديّةِ[2]
فمن شجرٍ تنقادُ طَوْعاً لأمرهِ ... ومِن حَجرٍ مُستقبلٍ بالتَّحيَّةِ
فصلّىٰ عليه الله ما الَذّ ذِكْرُهُ ... بإسفارِ صُبْحٍ أو أصيلِ عَشِيّةِ

فصل

مِن آدابِ مَنْ عَلِمَ أَنّ اسْمَ نبيّنا - ﷺ - **الهادي** أن يتخلّقَ به في هِدايتِهِ، ويكونَ حريصاً علىٰ نصيحةِ الله ونصيحةِ نبيّه، ويَبلغ جهده بإبلاغِ دينِ رسولِهِ، سيّما في آخِر زمانٍ صارَ الإسلام فيه غَريباً، والخيرُ إنْ ظَهَرَ منه طرفٌ كانَ صاحبُه في النّاسِ عجيباً!.

فَيجبُ علىٰ المحبّ لهذا الرّسول الكريم، صاحِب الخُلق العظيم، أن يجتَهِ د في إحياءِ ما أُميتَ من سُنّة نبيِّ الرحمة. الكاشفِ للغُمّة.

---

(١) من بحر البسيط.

(٢) يشير الشعر إلى بعض معجزات النبي ﷺ.

قال ـ ﷺ ـ[1]: من أحيىٰ سُنّةً من سنتي قد أُمِيتَت، فكأنّما أحياني، ومَنْ أحياني كانَ معي في الجَنّة.

فالواجب علىٰ مَنْ عنده شيءٌ من العلم أن يُعلّم ويَهدِي الضالّ، ويأخذَ بقلب الجاهل، ويقرِّبَهُ ويؤنسه، ويذكّرَهُ بخلُق نبيّه، ويزيّنَ بذكرِ معجزاتهِ مَسامعَه، ويثبّتَ بذلك قلبه، ويعمّرَ به مَواضعه، ويسردَ علىٰ المؤمنين محاسنه وسيرته، وصورته، وخلقه، وما كان عليه ـ ﷺ ـ من شدّةِ حِرصه علىٰ إيمان أُمّته، وشوقه لأهل مِلّته وشريعته، فإنّ الذكرىٰ تنفعُ المؤمنين، وتُقَرِّب من ربّ العالمين، وتُلين القلب القاسي وتُؤنسه، وتردّه إلىٰ الصراط المستقيم وتحمله على ترك المخالفات والإقبال على الدِّين القويم؛ سيّما إنْ صَدقت النصيحةُ، وخرجت من قلب محبٍّ في جناب السّيّد الكامل الفاتح الخاتم، فإنّ دلائل صِدق المحبّة لا تخفىٰ علىٰ مَنْ له مُسْكَةٌ[2] من فهم أو إدراكٍ بعلم.

ومجالسُ الخَير لا بدّ فيها من نُزولِ الرّحمةِ ببركةِ سيّد هٰذه الأُمّة.

وعليك أيُّها الرّاجي في شفاعة هٰذا النبيّ الهادي بتذكّر أصحاب الهداية من الصَّحَابة [٤٩/أ] الّذين تَنوّرت قلوبُهم بنوره، وخرجَ حبُّ الدنيا من قُلوبهم، واتَّبَعُوه في زُهده وهَديه.

قال ـ ﷺ[3] ـ: «أَصْحابي كالنُّجوم بأيّهم اقتديتُم اهتديتم»،

---

(١) سبق الحديث على الصفحة ٥٥ من هذا الكتاب.

(٢) يردد المؤلف هذه الكلمة، وقد مرّ شرحها. يريد من له شيء أو بقية من فهم أو علم.

(٣) كشف الخفا ١ : ١٤٧؛ رواه البيهقيّ وأسنده الدَّيلميّ عن ابن عبّاس بلفظ: «أصحابي بمنزلة النّجوم...». وينظر: ميزان الاعتدال ١٥١١ ولسان الميزان ٢ : ٤٨٨، وإتحاف السّادة المتّقين ٣: ٢٢٣.

فَصيّرهم النبيّ ﷺ ـ أنجُماً زاهرةً لأهلِ الهداية، وأساساً لِمَنِ اقْتدىٰ بهم من أهل الولاية رضي الله عنهم ونفع بهم؛ فكم هدىٰ الله بهِم من أهلِ الرّشاد، وكم طهّر الله بهدايتهم من فَساد، وكذلك العلماء الذين ملأ الله قلوبهم خشيةً من هيبتهِ، وبَغّض لهم الدُنيا لَعلمهم أنّ حبَّها إنّما هو لأهلِ قطيعته.

قال وليُّ الله الشّيخ العارف بالله سيدي أبو عبد الله المَزْدُوري[1] ـ رحمه الله، وكان إماماً خاشعاً ناصحاً لأمة النبي عليه السلام، معظّماً لشريعته، جادّاً في طَاعتِهِ ـ في قصيدة كتبها يخاطب بها بعض الفُقراء من أصحابه:

أَبـا صَـالـحٍ إيّـاكَ تَـرْكَـنُ لِـلّـتـي ... تُعَابُ سِراراً وهي في الجهرِ لا تُرىٰ[2]

وكُنْ حازماً فالحَزْمُ أفضلُ شِيْمَةٍ ... وسَارِعْ إلىٰ الله العظيمِ مُشَمِّرا

ثم قال ـ رحمه الله ـ: الواجِب علىٰ كل أَمير من أُمراء هٰذه الأُمّة أنْ يبذل النصحيةَ للخَلْقِ، ويعلّم جاهلَهُم، ويُرشدَ شاردهم، ويكرمَ عالمهم، ويعتقدَ صالحَهم، ويذبَّ عن شرائع الإسلام، ويحبّبَ الخلائقَ في النبيّ عليه الصّلاة والسّلام، ويعظّمَ أهلَ الدّين، ويرفقَ بالضُّعفاء والمساكين، ويقاسِمَ الفُقَراء ممّا رزقه الله، ويُعطيهم من مال الله، ويتواضعَ للمُؤمنين، ويردعَ الفاجرين والظالمين، ويكونَ من أهل التّقوىٰ، ويخافَ الله في السرّ والنجوىٰ.

ويتأكّدُ في حقّ العالِم أنْ يكونَ زاهداً ورعاً خائفاً من الله، مُتعلّقاً بالله، ناصحاً لنفسهِ ولجميعِ خَلْق الله، لا يَخدَعُ ولا يُخدَع[3]، ولا يَمِيلُ

---

(١) سبقت الإشارة إليه.

(٢) في (ب): تُعاف سُروراً. وفي ج: تعاف سراراً ـ والبيت من بحر الطويل.

(٣) من كلام عمر رضي الله عنه، ويروى لابن سيرين (اللسان خ ب ب): «لستُ بِخِبٍّ ولكنّ الخِبّ لا يَخْدَعُني». والخِبُّ هو الخدّاعُ المُفْسِد.

ولا يُمال. يترقّب هجوم الأجل، ويخافُ من طول الأمل، وسامر المَواعِظَ والآيات، ويجتنبُ الشّهَواتِ العاجلة واللّذّات، ويزنُ أحواله بأحوال السّلف الصالح، ويقيس عمله بعمل مَنْ خَلا قَبْلَه من أهل العمل الناجح، ويبكي علىٰ تخلُّفِه وما فاتهُ من عملٍ صالح؛ يعظُ بلسانِ حاله قبل موعظته بلسان مقالِه، محباً للصالحين، ومُتَبَرِّكاً بهم في كلّ وقت وحين:

بوجودِهم قد فُرِّجَتْ كُرُبَاتُنَا   وتَيسَّرتْ وتَواترتْ خَيراتُنَا[1]

وكذاكَ نرجُو أنْ تكونَ نَجاتُنا   أمراؤُنا وهُداتُنا وتُقاتُنا

ورعيّةٌ تَسْعىٰ بحفظِ مَعاشِنَا [٤٩/ب]

فالله يصرفُ كَرْبَنا مع هَمُّنا   بوجودِهم في شَرْقنا مع غَرْبِنَا

بِهِمُ تَطيبُ لنا مواردُ شربِنَا   ونَخُصُّ بالدّعوات أهلَ نبيِّنَا

في وقتنا، وصِحابِهِ ساداتِنَا

يا ربِّ وَالْطفْ بالعُبَيْدِ الوالهِ   وأنِلْهُ ما يرجوه مِن آمالهِ

وارفُق بهِ في حالِه ومآلهِ   ثم الصّلاةُ علىٰ النّبيّ وآلهِ

ثم الرِّضا عن تابعيهِ كرامِنَا

جَعلنا الله من الهادِيْنَ المُهتدين، ووَفَّقَنا بفضلِه إلىٰ طريق الصّالحين، وحمَانا بقوّته من القَوم الظّالمين، وصلّىٰ الله علىٰ سيّدنا محمّد، وعلىٰ آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً دائماً إلىٰ يوم الدين.

وسيأتي بقية الكلام علىٰ اسمه الهادِي عليه السّلام.

---

(١) من بحر الكامل.

باب

في معنى اسمه

سيد ولد آدم[1]

صلى الله عليه وسلم، وشرف وكرم

سيّد وَلدِ آدم: اسمٌ من أسمائه عليه أفضلُ الصَّلاة والسَّلام وردت به الآثار، ومشهور الأخبار، واتفق عليه علماء الأمصار.

وقد ورد عنه أنه قال[2]: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر...». وقد جاء في بعض الأحاديث[3]: «إنّما السيّدُ الله...» فلهذا قال بعضُ العلماء: إنّ السيّد المعرّفَ مِن أسماء الله تعالىٰ، واسمَ نبيّنا عليه أفضل الصّلاة والسّلام: سَيّد، وسَيّد ولد آدم[4].

وأصل السيّد في اللُّغة[5]: هو الّذي يُلجأ إليه في الحوائج وعند

---

(١) ورد شرح هٰذا الاسم مِن أسمائه ﷺ في: الرّياض الأنيقة: ١٧٧، وسُبل الهدىٰ والرّشاد ١: ٥٨٢؛ وذكره القاضي عِياض في الشفا ١: ٤٥٥، والمواهب اللدنيّة ١: ١٨٣.

(٢) رواه مسلم في صحيحه: ١٧٨٢ بلفظ: «أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة...». وورَدَ في الشفا ١: ٩٠ وباللفظ الذي أورده المصنّف.

(٣) روىٰ الإمام أحمد في مسنده ٤: ٢٤ أنّ رجلاً جاء إلى النبيّ ﷺ فقال: أنتَ سيّد قريش؛ فقال النبيّ ﷺ «السّيّدُ اللهُ...».

(٤) انظر سُبل الهدى والرشاد ١: ٥٨٢.

(٥) قال في اللّسان: السّيّد يُطلق على الرّبّ والمالك والشّريف والفاضل والكريم والحليم =

الشّدائد، ولا شك أنّ أصلَ ذلك حقيقةٌ في خالق الخَلْق الواحِد الحقّ سُبحانه ـ الذي يجيبُ المضطرَّ إذا دَعاه، ويكشفُ السُّوءَ وَبلواه.

ثم إنَّهُ ـ سُبحانَهُ ـ لَمّا أظهر عزيزَ القَدْرِ لدىٰ الله ـ وأنه لا أعلىٰ منه منزلةً عند الله، ولا أكرم عليه من رسول الله، جعله شافعاً مشفّعاً، مُطاعاً عند ربّه مُرَفّعاً؛ [٥٠/أ] لأنّ الشفاعةَ لا تكونُ إلاّ لِمَنْ عَظُمَ عند المَلِكِ جاهُه، ولا أعظم من جاهه عند ربّه، ولا من مكانته عند خالقه.

وإنّما قال عليه السلام: «أنا سيّدُ ولد آدم يوم القيامة ولا فخر» وهو سيّدهم في الدُّنيا والآخرة، والإمام الأعظم في الأيام الزّاهرة؛ لأنّه لمّا كانَ يومَ القيامة قد ظهرت الحقائق، وانكشفت الطّرائق، وتَدافعت الخَلائق في طلب الشّفاعة من أهل الوجاهة، فكلٌّ يقول: لستُ لها، نفسي! نفسي! ونبينا ﷺ ـ يقول: «أُمّتي! أُمّتي!»[1]. فهٰذا هو الفخرُ الجسيمُ في هٰذا الخَطْب العظيم، فحقٌّ أن يسمّى سيّد ولد آدم، النبيّ الكريم، الحبيب للربّ العليم، وقوله عليه السّلام: «أنا سيّد ولد آدم»؛ معناه: سيّدُ كلِّ موجود يشهدُ لذٰلك المقَام المحمود.

فآدمُ وأنبياءُ الله ـ سُبحانه ـ تحت لواء رَسُول الله ﷺ، وما يزالُ نبينا ﷺ يشفعُ في أهلِ الذّنوب بين يَدَيْ عَلاّم الغُيوب.

قال عليه السلام[2]: «أنا أوّلُ مَن تنشَقُّ عنهُ الأرض يومَ القيامة،

= ومحتمل أذى قومه، والزّوج، والرئيس، والمقدّم، وأصله من ساد يَسُود وفيه: قوله ﷺ: أنا سيّد ولد آدم.. الحديث؛ أراد أنه أول شفيع وأول من يُفتح له بابُ الجنّة. وروي عن سعد بن معاذ قوله للأنصار: قوموا إلى سيّدكم أراد أنه أفضلكم رجلاً وأكرمكم. (اللسان: س و د).

(١) صحيح مُسلم: ١٧٨٢؛ ومُسند أحمد ١: ٢٨٢؛ وتهذيب ابن عساكر ٤: ٥١٠ والدرّ المنثور ٥: ٦٤. وفتح الباري ١١: ٤٢٨.

(٢) فتح الباري ١١: ٤٣٣ ومسند أحمد ١: ٢٨١ وإتحاف السّادة المتّقين ٤: ٢٧٨ وكنز العمال ٣١٨٧٩ وتهذيب ابن عساكر ٤: ٥١٠.

وأنا سيّد ولد آدم يوم القيامة، ولا فخر، ومعي لواء الحمد، وأنا أوّل مَن تُفتح له الجنةُ ولا فخر؛ فآتي فآخذ بحلقة الجنّة، فيقال: من هذا، فأقول: مُحَمّد، فيفتح لي، فآتي إلىٰ الجبّار فأخِرُّ ساجداً».

وفي رواية ـ قال ﷺ[1] لأشفعنّ يوم القيامة لأكثر مما في الأرض مِن حَجَرٍ وشجر.

وقد دلّت هذه الآثار وغيرها ممّا تواتر من الأخبار أنّه سيّد الأوّلين والآخرين، وأنه حبيب رب العالمين.

فلا تسأل عن الّذي تنالُ من محبّته يا مَنْ تعلّق بحبّه من المؤمنين، وسَترىٰ غداً ما ينشرحُ به صَدْرُكَ: وتقرُّ به عَيْنُكَ من سيادة حبيب رَبِّ العالمين، وسَيُعطيه الله ـ سبحانه ـ لأجلِ سيادته ما يُرضيه في أُمَّتِه، وينشرحُ به صدره في أهل شَريعته، ويُبْرِم له مولاه ذٰلك إلىٰ الرِّضا؛ كيف لا، وقد قال عزّ مِن قائل: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى ٩٣/٥] ولا يرضىٰ نبيُّنا وشفيعُنا وعزيزُ القَدْر عند رَبِّنا أَنْ يُخلِّد في النّار مَنْ مَلأ قلبَه بمحبّته، أو يعذّب بها مَنْ كان معظّماً لشريعته، فَبُشْرىٰ ثم بُشْرَىٰ لك، لقد ظفرت أيُّها المُذنب الّذي انكسرَ قلبُه مِن ذنبه بمَنْ هو أكرمُ الخَلْقِ علىٰ الله، والمُوصِل من انقطع إلىٰ الله[2].

بُشرىٰ لنا معشرَ الإسلام إنّ لنا | من العنايةِ رُكْناً غيرَ منهدمِ
لمّا دعا الله داعينا لطاعته | بأكرمِ الرّسْلِ كنّا أكرمَ الأممِ [٥٠/ب]

(١) الشفا ١: ٤٣١، ومناهل الصفا ١٠٩، وتاريخ بغداد ١٢: ٣٧٩.
(٢) ديوان البوصيريّ: ٢٤٦.

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ نبيّنا ـ ﷺ ـ اسمه سيّد وَلَدِ آدم، أنْ يكونَ متعزّزاً بسؤدده، متشرّفاً برفعة قَدره وصُعوده، ويعلمَ أنّ مَنْ تعلّق بسيادةِ هٰذا الرّسول بلّغه المأمول:

هـو الـرسـولُ الـذي لا خَـلْـقَ يُـشـبـهـه   في الفضل والحلم والإحسان والكرمِ[1]
أتـىٰ الأنـامَ ولـيـلُ الـكُـفـرِ مُـنـسـدِلٌ   فكـانَ كالـشّـمسِ جَلّتْ واكفَ الظُّلَمِ

فعليك أيُّها المحبُّ في هٰذا النبيّ الكريم، صاحب الخلق العظَيم، أن تكونَ عزيزاً بمحبّته، متشرّفاً بخدمته، قائماً بشريعته، والله ـ سبحانه ـ يُعِزُّ مَن أعزَّ دينه، ويكرمُ مَن أحبَّ حبيبه؛ فلا أكرم علىٰ الله من نبيّه، ولا أشرفَ علىٰ الله سبحانه من صَفِيّه.

فأكثِرُوا مِن الصّلاة عليه يا مَنْ تحقّق في القيامة الورودُ عليه، ﷺ وجَعلنا ممّنْ ينتسبُ منه وإليه، وبلّغنا بصلاتنا وسلامنا عليه أحسنَ ما يُكرم الآمِلين يومَ القدوم عليه، اللّهم صلِّ وسلّم علىٰ سَيّدنا محمّد وعلىٰ آله صلاة وسلاماً نَنْجُو بها مِن كلّ شِدّةٍ حتّىٰ نصلَ إليه.

---

(١) من بحر البسيط.

باب
في معنى اسمه
نَبِيّ الرَّحْمَة(١)
صلّى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

نبيُّ الرّحمة: اسم من أسمائه عليه أفضل الصّلاة والسّلام، ورَدت به الآثار ومَشهور الأخبار.

ومعنى نبيّ الرَّحْمَة، أي النبيّ الذي بَعثه الله سبحانه رحمةً للعالمين، ورَؤوفاً بالخَلْقِ أجمعين، فبِعثَتُه رحمةٌ، وشريعتُه رحْمَةٌ، وأفعالُه رَحْمَةٌ، وأخلاقُه رحمة، وبِشَارتُهُ رحمةٌ، ونذارتُهُ رحمة. وجميعُ ما قاله أو فَعله أو تحرّكَ به رحمة، وحياته رحمة ومماته رحمةٌ. قال عليه السلام(٢): «حياتي رحمةٌ لكم ومَماتي رحمة لكم». فشمائلُه كلُّها رحمةٌ لعبادِ الله، ومِنّةٌ مِن الله علىٰ خلق الله، وهدايةٌ إلىٰ خلق الله.

قال ﷺ(٣): «إنّما أنا رحمةٌ مُهْدَاة».

---

(١) ورد شرح هذا الاسم مِن أسمائه ﷺ في: أسماء رسول الله ﷺ ومعانيها: ٣٥، والشفا ١: ٤٥١، وزاد المعاد ١: ٩٥، والرّياض الأنيقة: ٢٦٢، وانظر سُبل الهدىٰ والرّشاد ١: ٥٧٣: ٦٥٥. والمواهب اللدنيّة ١: ١٩٣.

(٢) في الفتح الكبير ٢: ٧٦ بلفظ: «حياتي خير لكم ومماتي خير لكم». وينظر كشف الخفا، وإتحاف السّادة المتقين ٩: ١٧٦ وكنز العمّال ٣١٩٠٣ و٣١٩٠٤.

(٣) الفتح الكبير ١: ٤٣٦، وانظر ميزان الاعتدال ٧٢١١ ولسان الميزان ٥: ٢٣٣ وإتحاف السّادة المتقين ٧: ١٦٢.

وقد قيل: الأنبياء كلُّهم عطيّة لأممهم، ونبيُّنا ﷺ هدية، لأن الهديّة للمُحِبّين والعَطِيّةَ للمُحتاجين.

وقد زَيّن الله ـ سبحانه ـ نبيّه بالرحمة، فمن نال من رحمته شيئاً فقد فاز في الدّارَيْنِ، ونَجا من كلّ مكروهٍ، وحصَل له قُرَةُ العين.

ومن رَحمته ـ ﷺ ـ أنّ أمّته جُبِلَتْ على محبّته، وجُبِلَ هو على محبَّتها ورحمتها؛ لأن الله سُبْحانه جعلَه نفْسَ الرحمة.

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ [٥١/أ]: قُمت ذاتَ ليلةٍ، أطلبُ النبيّ ﷺ، وقد خَرج من البيت، فوجدتُه في البَقِيع[١] يقولُ قائماً: يا ربّ أُمّتي، وراكعاً: يا ربّ أمّتي، وساجداً: يا ربّ أُمتي، فقلت يا رسول الله: وأينَ القُرآن فهل نسيتَهُ لأجل هٰذه الأمة؟ فلمّا سلمّ قال: يا عائشة أَتعجبين من هٰذا؟ أنا أقول ما دُمت في الحياة: أُمتي، فإذا دخلت القبر قلت: يا رب أمّتي فإذا نُفِخَ في الصُّور أقولُ: يا ربّ أُمّتي[٢].

فاذكروا يا أمة محمّد ـ ﷺ ـ رحمة نبيّكم بكم ورأفتَهُ عليكم، وذكره لكم قبل وجودكم، وشهادته بأخوّتكم، لإيمانكم، وسترون من رحمةِ الله في الدّارِ [الآخرة] ـ إن مِتّم علىٰ مِلّته ـ ما لا يخطُر لكم ببال، ولا يحيطُ به إلاّ الكبيرُ المُتَعَال.

ومن رحمته لأمّته مُؤانسته لمنكسِري القُلوب من الفقراء، ومُوَاساتهم والجُلوس معهم[٣]، وإِدخال السّرور عليهم؛ كان أهلُ الصُّفّةِ رجالاً فُقراء ضعفاء غُرباء، أَوَوْا إلىٰ رسول الله ﷺ فآواهم ـ ﷺ ـ

---

(١) البقيع: بقيع الغَرْقد، وهو مقبرة أهل المدينة، وهي داخل المدينة.

(٢) وينظر: إتحاف السادة المتقين ١٠: ٥٠٤ والترمذي: ٢٤٣٤.

(٣) كان ﷺ يواسي النّاس بنفسه (الترغيب والترهيب ٤: ١٩٢).

لرحمته وشفقته، ولم يكن لهم زرعٌ ولا ضرعٌ، ولا تِجارة؛ كانوا يَحْتَطِبُون بالنهار، وباللَّيلِ يَشتغلونَ بالعبادة، وتعلُّم القُرآن، ويَصطفّون عند بابِ المَسجد وكان ﷺ يُوَاسيهم، ويحثُّ النّاسَ علىٰ مُوَاساتهم، ويأمُرهم بِرَحمتهم، ويجلسُ معَهم جَبْراً لِقُلوبهم وشفقةً عليهم، ويأكلُ معَهم.

وكان - ﷺ - إذا صافَحهم لا ينزعُ يَدهُ من أَيدِيهم[1].

ومن رحمته بهم أنّه كان يفرّقهم علىٰ أهلِ السَّعةِ في المال؛ فكانَ رحمةً للفُقَراء، ورحمةً للأغنياء في إدخالِ الثّوابِ عليهم، فيبعثُ مع واحدٍ ثلاثة، ومع واحدٍ واحداً؛ بما يراه من المصلحة في حق أصحابه، وما يُظهر الله له من الخيرات في اجتهاده.

وكان سعدُ بنُ عبادة[2] يبعث معه ثمانينَ رَجُلاً علىٰ قَدْرِ ما يَجد فيه - ﷺ - مِن أحوالهم، وما يراهُ مِن حَمْل الصَّدقةِ في أموالهم.

ومن رحمته بعباد الله وحُسنِ خُلقه مساواة نفسه معهم في حالهم، ولم يفت الفقراء بشيءٍ من أمر الدنيا فيختص به عنهم؛ بل كان رأسَ الزّاهدين فيها امتثالاً لربِّ العالمين، ورحمة لأمّته أجمعين.

يُروىٰ أنّ جماعة من أهل الصُّفّةِ أتوا إلىٰ رسولِ الله ﷺ فقالوا[3]:

---

(١) كان ﷺ إذا صافح أو صافحه الرّجل لا ينزع يده من يده (السُّنن الكبرى للبيهقي ١٠: ١٩٢ ودلائل النبوة للبيهقي ١: ٣٢٠).

(٢) أبو ثابت سعد بن عبادة بن ديلم بن حارثة الخزرجي الأنصاري، صحابي من أهل المدينة، كان سيّد الخزرج وأحد الأمراء الأشراف في الجاهلية والإسلام، توفي سنة ١٤هـ بحوران من الشام.

(٣) مسند أحمد ٣: ٤٨٧. والحُرقة تكون من الطعام إذا كان في طَعمه شيء مُحرق أو فيه شيء من حرارة. وانظر الحاشية ٢ من الصفحة ٢٩٥ من باب اسمه: النجم والنجم الثاقب ﷺ.

يا رسولَ الله أحْرَق [٥١/ب] بطونَنا التّمر؛ فسمعَ بذلك رسول الله ﷺ فصعِدَ المِنبرَ ثمّ قال: «ما بالُ أقوامٍ يقولون: أَحْرَق بطوننا التّمر، أما علمتم أنّ هذا التمر طعامُ أهلِ المدينة؟ وقد واسَيناكم بما عندنا، والّذي نفسُ محمّدٍ بيده، منذُ شهرين لم يرتفعْ من بيتِ رَسُولِ الله ﷺ دخانٌ للخُبز، وليسَ لهم إلاّ الأَسْوَدان: التّمر والماء».

ومن رحمته عليه السّلام لأُمّته طلبُ الأُلفة بينهم والمؤاخاة لهم، قائلاً[١]: «لا تَباغَضُوا، ولا تَدابروا، وكُونوا عبادَ الله إخواناً».

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّه عليه السّلام نَبِيُّ الرحمة أنّ يكونَ متخلّقاً برحمتِهِ وشفقته، ويعلمَ أنّ الرحمةَ إنّما نُزِعت من قلوبِ الأشقياء، وإنّما أسكنها الله في قُلوبِ الأتقياء.

ويُروىٰ أنّ أعرابيّاً أتىٰ النبيّ ﷺ، وكان عليه السّلام يقبّل أحد أولاده، فقال الأعرابي[٢]:

«يا محمّد، إنّ عندي عشرةً من أولادي فما قَبَّلْتُهم قَطّ، فقال النبي ﷺ: وأيّ شيءٍ أملكُ لكَ، وقد نزَع الله الرّحمة من قلبك؟».

فاعْلَمْ أيّها المحبّ المتخلّق بطريقته إنْ أردت النّجاة فكنْ مُتَخَلّقاً بالرّحمةِ لأُمّته، فارْحَمْ صَغِيرَهُمْ، ووقّرْ كبيرَهُم، وعلّمْ جاهلَهم، ورُدَّ ضالَّهم، وأعْطِ مَنْ حَرمك منهم، وصِلْ مُقاطِعهم، واغفرْ لِمَنْ أساءَ

(١) صحيح البخاري ٧: ٢٤، ومسلم: ١٩٨٦، ومسند الإمام أحمد ٢: ٣١٢.

(٢) صحيح مسلم: ١٨٠٨.

منهم، وسامِح ظالِمَهُمْ، واستُرْ عورَتَهم، ونَفِّسْ كُربتهم، وواسِ فقيرَهُمْ وتواضَعْ لهم، وخالِطْهُمْ فيما تُطَيِّبُ بهِ قُلوبهم، واقبلْ كلامَهم، وأظهر لهم أنّك لم تَمْتَزْ بشيءٍ عنهم، وحقّرْ لهم ما عندك في أعْيُنِهم، وأخبرهمْ بأنّكم الكلُّ عَبيدٌ، والله يفعلُ في ملكه ما يريد: هٰذا يُغنيه، وهذا يُفقِره، هذا يُحييه وهذا يُميته، وهذا يُعزّه وهذا يذِلُّه، هذا يُبكيه وهذا يُضحكه، هٰذا يُولّيه وهذا يَعْزِلُه، هٰذا يُعطيه وهٰذا يمنَعُه، هٰذا يُشقيه، وهٰذا يسعده.

وإذا امْتَزتَ عنهم بشيء من هذه الزَّهرةِ الفَانية فلتُظهِر لهم تقلُّلها، وأنّها عن قريبٍ تَفنىٰ زهرَتُها، وأنّك لم تحصل منها علىٰ طائل بل علىٰ ظلٍ زائل، وأنّ الفَرح إنّما هو بفضل الله وبرحمته، عليه يتوكّلُ المتوكّلون ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ١٠/٥٨].

ولتكنْ متشبّهاً بأخلاقِ الصّحابةِ الكرام في تخلُّقهم مع رعيّتهم ورحمتهم بهم، وشفَقتهم عليهم، ومحبّتهم فيهم لِلّه تعالىٰ ابتغاءَ لثوابِه، وخَوفاً من عذابه.

كانَ سراجُ الجنّة الذي أجْمَع [٥٢/أ] علىٰ فضله جماعةُ أهلِ السُّنة، الناطقُ بالصَّوابِ أبو حَفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه من شدّة رحمته برعيّته[١]، لحقتْهُ امرأةٌ ذاتَ يوم شابّة؛ فقالت[٢]: يا أمير المؤمنين هلكَ زَوْجي وتركَ صبيةً صغاراً، والله ما يملكون كُراعاً ولا

---

(١) هكذا يجري النص في النسخ المعتمدة؛ وتكون الحادثة المروية هي خبر كان.

(٢) الخبر في البخاري ٥: ٦٤ وتهذيب الكمال ٨: ٢٧٢، والرّياض النضرة في مناقب العشرة ٢: ١٤٧.

ـ والكراع: مستدق الساق من الغنم والبقر.

لهم زرعٌ ولا ضرع، وخشيتُ عليهم الضّياع، وأنا ابنةُ خُفاف الغفاري[1]، وقد شهدَ أبي الحُدَيبية مع رسولِ الله ﷺ، فَرحمها، ووقفَ معَها ولم يمضِ، وقال مَرْحباً بنسبٍ قريبٍ. ثم انصرف إلىٰ بعيرٍ كان مربوطاً له فحمَل عليه غرارتين[2] ملأهما طعاماً، وجعلَ معهما نفقةً وثياباً ثم ناولها بخطامِهِ فقال: اقتَادِيه فلنْ يَفنىٰ حتّىٰ يأتيكم الله بخير؛ فقال رجلٌ[3]: يا أمير المؤمنين أكثرتَ لها! فقال عمر: ثكلتك أُمّك؛ والله إني لأُرَىٰ أبا هٰذه وأخاها قد حاصَرا حِصناً زماناً فَافتتحناه: ثم أصبحنا نستضيء سُهمانهما فيه[4]. رضي الله عنه وأرضاه.

ورأىٰ طلحةُ رضي الله عنه[5] عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه دخل بيتاً ثم دخلَ بيتاً آخرَ، فلمّا أصبح طلحةُ دخل ذلك البيت فَوجد فيه عَجُوزاً عَمياء مُقعدة؛ فقال لها: ما قال لك هذا الرّجلُ الّذي يأتيك؟ فقالت له: إنه يتعاهدني في كلّ ليلةٍ، يأتيني بما يُصلحني ويُخرج عني الأذىٰ.

فتأمّلوا ـ رحمكم الله ـ رحمةَ أصحابِ رَسُولِ الله ﷺ بخَلْقِ الله تعالىٰ، كيفَ كانت؛ وغرائبَ أحوالهم. وكرمهم في أقطار الأرض كيف ذاعت وشاعت.

---

(١) في الرياض النضرة: أنا ابنة خفاف بن أيمن الغفاري.

(٢) الغرارة: الجوالق وهو الكيس.

ـ وعبارة الرياض النضرة: وجَعل بينهما نفقةً وثياباً.

(٣) في الرياض النضرة: «فقال الرجل». وهو أسلم والد زيد بن أسلم راوي الخبر.

(٤) سُهمان جمع سهم وهو النّصيب.

(٥) هو طلحة بن عُبيد الله التيمي القرشي، صحابي شجاع من الأجواد، وأحد العشرة المبشرين بالجنة؛ له ترجمة ضافية في الرياض النضرة في مناقب العشرة (ولد سنة ٢٨ ق. هـ وتوفي ٣٦هـ).

وكانَ هٰذا السَّيِّد[1] ـ رضي الله عنه، وأعادَ علينا من بركاته، يصومُ الدّهر، فإذا أفطر أفطرَ علىٰ كسور يابسةٍ وزيت، فنحرَ يوماً جَزُوراً فأطعمها النّاس، فأتىٰ أهله شفقةً عليه ورحمةً له. فأخذوا شيئاً من طيب لحَمِهَا وطَبخُوه له ليُفطِرَ عليه، ويتقوّىٰ به، فقدّم له ذلك عنده فطره؛ فقال: ما هذا؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين هٰذا من لحم الجَزور الذي نَحَرْتَ اليوم! فقال: بَخٍ بخٍ بئس الوالي عمر بن الخطاب إنْ أكلْتُ أطيَبَها، وأعطيتُ الناسَ كُراديسَها[2]، ارْفَعُوا هذه الجَفْنَة وأعطُوها للفقراء، وأتُوني بخبزٍ وزيتٍ؛ فجعل الكسرةَ بيده وأثْرَد[3] الخبز وأكل.

هذه صفةُ الرّاحمين، وطريقةُ الخائفين، وأولياء الله المقرّبين رضي الله عنهم أجمعين.

يحكىٰ أنّ الشيخ وليّ الله أبا الحسَن الشّاذلي[4] ـ نفع الله به ـ قَدِم علىٰ تونس، فَدخل من باب المَنارة في زمن غَلائها، وشدّةِ مَسْغَبَتِها[5]، والنّاسُ يَقْتَتُلونَ علىٰ شراءِ الخُبز، والفقراء مطروحونَ علىٰ الأرض من شدّة الجوع [٥٢/ب]؛ قال: فأخذتني رحمةٌ علىٰ عبادِ الله، فكانت عندي دُرَيْهمات فاشتريتُ بها الخبز الذي عند الخباز وحزتُه للفُقراء[6]،

---

(١) الخبر في الرياض النضرة ٢: ١٤٨ ـ ١٤٩.

(٢) الكراديس جمع الكردوسة وهي كل عظمين التقيا في مفصل.

(٣) أثرد الخبز: فتّه.

(٤) أبو الحسن علي بن عبد الله الشاذلي المغربي (٥٩١ ـ ٦٥٦) رأس الطّائفة الشّاذلية من المتصوّفة. ولد ببلاد غمارة من ريف المغرب ونشأ في بني زروال عند شفشاون بالمغرب؛ وتفقه وتصوّف في تونس، وسكن «شاذلة» قرب مدينة تونس، فنسبته إليها. رحل إلى المشرق وحج، وطوّف في البلاد. له الأوراد المشهورة بـ (حزب الشاذلي) وهو مطبوع. وكان الشاذلي ضريراً. وله كتب أُخرى.

(٥) المَسْغَبَة: الجوع.

(٦) حُزْتُهُ للفقراء: أي ضَمَمْتُه إليهم.

فنظر الخبّاز في الدراهم فقال: هٰذه ليست جيّدة، وأنتم المغاربة تتعاملون بالكيمياء! قال: فَرهَنتُه بُرنُساً في الثَّمن[1]، فإذا شيخٌ أحسن ما يكون سِمَةً وهيئةً قد اجتازَ عليّ، وقال لي: يا أبا الحسَن هاتِ الدّراهم! فأعطيتُها إيّاه، ثم ردّها فقال لي: هٰذه طيّبةٌ جيدة؛ قال: فرفعتها للخبّاز فأخذَها، وأخذتُ بُرنُسي، ثم طلبتُ الله أنْ أعرفَ ذٰلك الرّجل.

فلما كان ذات يوم أتيتُ المسجدَ أصلّي فإذا الرّجلُ، فقلت له: سألتكَ بالله مَنْ أنت؟

فقال: أنا أبو العباس الخَضِر، كنتُ بالصِّين ـ أو بالصَّعيد ـ فقيل لي: أدركْ عليّاً وقلْ له: أتتكرّم علينا يا عليُّ، ونحن خَلقنا الكرَم والرَّحْمَة، وأنا أرحمُ الرّاحمين، وأعلم بمصالح عبادي أجمعين؟.

فصل

قال بعضُ المشايخ من أَولياءِ الله ـ سبحانه ـ وهو المَزْدُوري[2] نفَع الله به ـ: الرّحيمُ مِن هذه الأمّة، الخاصّ منهم والعام، هو الباذِلُ نُصْحَه للخَلْق بمالِهِ وعلمِه، يُؤتيهم ممّا علّمه الله وأَعطاه، فيعلِّم جاهلَهم، ويردُّ شارِدَهم، ويُكرِمُ عالِمَهم ويعتقدُ صالحهم، ويكونَ ذابّاً عن شرائع الإسلام، معظِّماً لدين الله كما عظّمه الله، ويرفع منهم ما رفعه الله، رؤوفاً بالضُّعفاء والمساكين يُقَاسِمُهم ممّا رزقه مولاه ممّا جعله مُستَخْلَفاً فيه، مُتواضِعاً لأَهلِ اليقين من المُؤمنين، عاملاً بالتَّقوىٰ، خائفاً من الله في السِّرّ والنَّجوى، يكونُ عملهُ بِعِلْمِه الزّهد والوَرع، ويزيدُه الخوفُ من

---

(١) البُرنُس: ثوبٌ رأسُه منه، دراعةً كانَ أو جُبَّةً.
- وقوله: ورهنته أي جعل بُرنُسه عنده رَهْناً إلى أن يؤدّي الثّمن.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن محمّد المزدوري. وقد سبقت الإشارة إليه.

الله تعالىٰ، وعدم الطَّمع؛ يرتقبُ هُجومَ الأجل، ويَخافُ من طُول الأمل؛ يُسامِرُ المَواعظ والآيات، ويجتنبُ الشّهوات والشُّبهات؛ يَزِنُ أحوالَهُ بأحوالِ السَّلف الصّالح، ويبكي علىٰ تخلّفه منهم، ويعظُ نفسه قبل أنْ يعظَ غيرَه؛ واعظٌ بلسانِ حالهِ قبل وعظهِ بلسان مقاله، أرحم الناس بالناس.

هذا معنى كلامه ـ رضي الله عنه ـ في كلامٍ طويلٍ؛ رحمهم الله ما أَحسن كلامَهم، وألَذّ خِطَابَهُم.

فهٰذه علامةُ الرّحمة والشَّفَقة، وقد قلّ وجودُها فينا؛ بل غلَبت القسوةُ علينا، فنرجُو مِنَ الله تعالىٰ بحبّهم وذكرهم أن يَمُنَّ برحمته عَلينا [٥٣/أ]:

لــي ســادةٌ إنْ يُــذكــروا أقــدامُــهــم فــوقَ الــجِــباهْ[١]
إن لــم أكــنْ مِــنــهــم فَــلــي فِــي ذِكــرهــم عــزٌ وجَــاهْ

فلنقتصرْ علىٰ ما يليق بهذا الاسم الكريم، ولنؤخِّر الكلام علىٰ بعض إشارات تليقُ باسمه الرّؤوف الرحيم ـ صلّى اللّه عليه وعلىٰ آله وسلّم أفضل صلاة وأزكىٰ تسليم.

---

(١) من مجزوء الرَّجز.

بـاب

فـي معنى اسـمه

نَبِيِّ التَّوْبَةِ (١)

صلّى اللّه عليه وسلّم، وشرّف وكرّم

نبيّ التّوبة: اسمٌ من أسمائه عليه أفضل الصّلاة والسّلام، وردَتْ به الآثار، وأُطلق عليه في كثيرٍ من الأخبار.

ومعنى نبيّ التوبة يحتملُ أوجهاً. كلُّها تدلُّ على تشريف قدره، وتعظيمِ شأنه، وبيان بركته - ﷺ - عند ربّه.

وذلك إمّا(٢) أن يكون نبيّ التّوبة: أي النبيّ الّذي شأنه الإنابةُ والرُّجوعُ في ترقّي أنواره وزيادة فُتوحاته، والإقبال على ربّه في جميع حالاته؛ وأحوال أنبيائه تعالى كلّها، كذلك، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فهم مُقبلونَ على ربّهم لا يَغفلون عنه طرفةَ عَين.

وخُصَّ نبينا - ﷺ - بذلك بخصوصيّةِ كثرةِ أنواره، وتراكُمِ أزهاره، وتزاحُمِ فتُوحاته الواردة عليه من ربّه، وكثرة استِغفاره عند ترقّيه من مَقاماتِه الكاملة إلى مراتبه الأكمليّة، وعُلومه اللّدُنيّة، وخُصوصياته

---

(١) ورد تفسير هذا الاسم مِن أسمائه ﷺ في: زاد المعاد ١: ٩٥، والرّياض الأنيقة: ٢٦٢، وسبل الهدى والرّشاد ١: ٦٥٤. والمواهب اللدنية ١: ١٩٣.

(٢) أتمّ المؤلف، رحمه الله، كلامه في الصفحة التالية بعبارة «ويُحتَمل».

العِرفانيّة؛ فكانَ استغفارُه - ﷺ - في يومِه أكثرَ من سبعين مرة[1] تَرقّياً في الكمالات، وتشريفاً لسائِر المخلُوقات، تنبيهاً لهم أنْ يعلموا من مولاهم هٰذه النّعمة، ويَستفيدُوا الأدَبَ مع ربِّ الأرباب باقتدائهم بسيّدِ هذه الأمّة؛ فُسمّي - عليه السّلام - نبيّ التوبة لكثرةِ ملازمةِ استغفاره لمولاه، وتوكّله علىٰ الله سبحانه، واستغنائه به عَمّن سواه.

ويُحتمل أن يكون معنىٰ اسمه عليه السلام. نبي التّوبة أي النبيّ الذي أُرسلَ إلىٰ الخَلْقِ بشريعةٍ تُقْبَلُ فيها التّوبة عن المُذنبين، ويعفُو المولىٰ جلّ جلالُه بسببِهِ عن العاصِيْن، وأنَّ العبد إذا صدَرتْ عنه خطيئةٌ أَو إثمٌ ثم استغفَر وتابَ إلىٰ الله. وجدَ المغفرة عند أرحمِ الراحمين.

فكانت هٰذه رحمةً من الله - سبحانه - مَنَّ بها علىٰ عباده برسالةِ حبيبِ ربِّ العالَمين، فَسُمّي نبيُّ التوبة؛ أي النبيّ الذي جعله الله رحمةً لمن ظلَمَ نفسه وأَناب [٥٣/ب]، وأحرقت المعاصي قلبه، فعاتَبَ نفسه، وقصد النبيَّ - ﷺ - وتاب، وطلب له النبيّ - ﷺ - المغفرةَ من ربِّ الأَرباب. فإنّ الله تعالىٰ من كرمِه أَعطىٰ القاصد لنبيّه من العفوِ والرّحمةِ ما لم يخطُر لِذوي الأَلباب.

قال مولانا جلَّ جلاله، تشريفاً لنبيّه، وتنبيهاً للخَلائقِ علىٰ علوّ منصبه، وعلّمهم بابَ التّوبةِ تعليماً ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا ٱللَّهَ

---

(١) عن رسول الله ﷺ: إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرّة. (مسند الإمام أحمد ٢: ٢٨٢ وإتحاف السادة المتقين ٨: ٥١٧) قال العلامة العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل): وللبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة. ولم يقل الطبراني أكثر. ولمسلم من حديث الأعرابي: إني لأستغفر الله في كل يوم مئة مرّة.

﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٦٤] .

فكان في تسميتِهِ نبيّ التّوبة من المَعاني والأسرار، والإشارةِ إلى مقامِهِ عند مولاه في هٰذه الدّارِ وفي تلكَ الدّار، ما شهدتْ به الآثارُ وصحيحُ الأخبار.

ووجهٌ آخر: وذٰلك أنّ الأممَ السّالفة كانت إذا أذنبت لا يزول ذنبُها إلاّ بأمورٍ شاقةٍ على النّفوس[1]، وشرع فيه كُلفةٌ من الملك القُدُّوس، فسهّل اللّهُ مِنّةً منهُ سبحانه على هذه الأمّة زوالَ ذُنوبها بأمرٍ خفيفٍ على اللّسان، وسهلٍ استعمالُه في جميع الأزمان، فكان ذلك رحمةً من الله بعبادة، رحم الخلائق بها ببعثه إليهم حبيبَ الرّحمٰن.

ووجهٌ آخر، أنّ الله سبحانه سمّاه نبيَّ التوبة إشارة إلى أنّه بعثه الله تعالى لأمّةٍ مرحومةٍ، غفر لها مولاها برحمةِ نبيّها قبل استغفارها لله، فاستجابَ لها وأعطاها، وفضّلها على سائر الأمم وأكرمَ مثواها.

روى سهل بن سَعد وغيره، عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص ٢٨/ ٤٦] قال[2]: قلتُ يا رسول الله، وما كانَ ذٰلك النّداء؟ وما تلك الرّحمة؟ فقال ﷺ: كتب الله كتاباً قبل أن يخلق الخَلْقَ بألفي عَام وستّ مئة عام، ثم أمر بوضعه على العَرش، ثم نادى: يا أُمّة محمد: رَحمتي سَبقت غضَبي، أَعطيتكم قبل أن تَسألوني، واستجبتُ لكم قبل أن تَدْعوني، وغفرتُ لكم قبل أن تَستغفروني، مَن لقيني منكم يشهدُ أن لا إلٰه إلاّ الله صادقاً من قلبِه، وأنّ محمّداً عبدي ورسولي أدخلتُه جَنّتي.

---

(١) نَقل القُرطبي في تفسيره ١: ٤٠١ قال سفيان بنُ عُيينة: التّوبة نعمةٌ من الله أنعم الله بها على هٰذه الأمّة دون غيرها من الأمم، وكانت توبة بني إسرائيل القتل.

(٢) تفسير القرطبي ١٣: ٢٩٢.

فرحم الله تعالىٰ هذه الأُمّة بأن بعثَ لها نبيَّ التوبة فألهمَها إلىٰ الاستغفار، وأمرها بالإنابة والرُّجوع إلىٰ المولىٰ الغفّار.

وحَضَّ علىٰ كثرة الدُّعاءِ في الصَّباح والمَساء بسيّد الاستغفار وهو أن تقول[1]: «اللّهمّ أنتَ ربّي، لا إلٰه إلاّ أنت، خَلَقْتَني وأنا عبدُك، وأنا علىٰ عهدِك ووعدِك ما استطعت [٥٤/أ]، أعوذُ بك من شرِّ ما صنَعت، أبوءُ لكَ بنعمتك عليَّ، وأبوء علىٰ نفسي بذنبي[2]، فاغفرْ لي، فإنّه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت»؛ رُوي عنه ـ عليه السّلام ـ أنّه قال: إنّ العبد إذا قال ذٰلك عند صباحه فمات من يومه دخل الجنة، وأن العبد إذا قال ذلك في مسائه فماتَ من ليله دخل الجنة.

فجزىٰ الله نبيَّنا، وحبيبَنا، وشفيعنا عن أُمّته ما هو أَهْلُه، فلقد بالغَ في دَواء قُلوبنا، وجَدَّ في نُصحنا والإحسان إلينا، وبذَل نُصحه في دفعِ مَضارّنا وجَلْبِ منافعنا ـ ﷺ ـ تسليماً صلاةً وسلاماً نَجدهما عُدّةً في حياتنا، وبعدَ مماتنا.

يا خيرَ من وطِىءَ التُّرابَ بنعلِه ... من حين ينهضُ للقيامِ ويَقْعُدُ[3]
نزلتْ عليكَ من الهداية سورةٌ ... تهدي القلوبَ ونورُها يتوقّدُ
ولقد حُمِدْتَ، بأنْ دُعِيتَ محمّداً ... طولَ الحياةِ وبعد موتك تُحْمَدُ
فعليكَ من ربّ السّماءِ تحيّةٌ ... وصلاتُه مَعْ رحمةٍ تَتَجدَّدُ
عَدَدَ الّذي أحصاهُ رَبُّك كلّه ... مع عِلْمِهِ، جَلَّ الإلٰهُ الأوحدُ
تترىٰ وتَبْقىٰ في بقاءِ مليكنا ... وبقاؤهُ جلَّ اسمُه لا يَنْفَدُ[4]

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤: ١٢٢، ١٢٥.

(٢) أبوء بذنبي: أقرّ وأعترف.

(٣) من بحر الكامل.

(٤) لا يصح إيراد (تترى) هكذا، فهي ليست فعلاً.

فصل

من آداب مَنْ عَلِم أنّ نبيَّنا ـ ﷺ ـ نبيُّ التوبة، وأنّه أمرَ بها، وحَضَّ عليها، وقال[1]: «لو لم تُذنبوا، وتستغفروا، لخلق الله خلقاً يُذنبون، ويَستغفرون فيغفر لهم» أنْ يكونَ في جميع أحواله مُستغفراً لذنبه، مُقلعاً عن معصيته، ذاكراً أنّ المعصيةَ سببٌ للعقاب، رادّاً لمظلمةٍ أو ظلامةٍ إن كان عليه لعباد الله، قبلَ أنْ يُعْطِيهَا من حَسناته في يوم الحساب، هذا إن كانت له حسناتٌ، وإلاّ طُرِحَ عليه من سيئات الخصم ما يستحقُّ به العقاب.

وتذكّرْ قول النبيّ ـ ﷺ ـ[2]: هل تدرونَ من المُفْلِس؟ فقال الصحَابةُ رضي الله تعالىٰ عنهم: المُفلس من لا دِرْهَم له ولا مال؛ فقال عليه الصّلاة والسّلام: المُفْلِسُ منِ أُمّتِي مَن يأتي يومَ القِيامة بصلاةٍ وصيام وزكاةٍ وحَجٍّ وجِهاد، وقد شتَم هذا وقذَف هذا، وأكلَ مالَ هٰذا، وسفكَ دمَ هٰذا وضَرب هذا؛ فَيُعطىٰ هٰذا من حَسناتِهِ وهٰذا من حَسناتِهِ؛ فإنْ فَنِيتْ حسناتُه قبل أن يَقضي ما عليه [٥٤/ب] أُخِذَ من خَطاياهم فَطُرِحت عليه ثم طُرِحَ في النار.

---

(١) ورد بألفاظٍ متقاربة في روايات شتّى؛ ولفظه في مجمع الزوائد ١٠: ٢١٥ (من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما): لو لم تُذنبوا لخلق الله خَلْقاً يُذنبون ثم يغفر لهم رواه الطبراني في الكبير. وفي الأوسط: لخلق الله خَلْقاً يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم وهو الغفور الرحيم. قال في المجمع: رواه البزار بنحو الأوسط محالاً على موقوف عبد الله بن عمرو ورجالهم ثقات وفي بعضهم خلاف، وروى في الباب عدداً من الأحاديث في هذا الموضوع. وفي رواية في المسند ١: ٢٨٩ لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون ثم يغفر لهم. وفي رواية لمسلم (في كتاب التوبة) لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢: ٣٠٣.

قال بعضُ العارفين عند هٰذا الحديث: إنّ هذا الحديث لشديدٌ؛ وفيه للعُقلاء غايةُ الوعيد، فإنّ الإنسان قلّ أن تسلم أفعالُه وأقوالُه من الرّياء ومكائد الشّيطان، وإنْ سَلِمت له خَصلةٌ فقلَّ أن يسلم من أذاية الخلق، فإذا كان يوم القيامة وقد سلمت له خصلة مع قلة سلامتها طلب خصمُك تلك الحسنة وأخذها منك بحكم مولاك عليك.

فإنّه لا مال يومئذٍ تُؤَدّي منه ما عليك، بل من حسناتك - يا مغبونُ[1] - إن كنتَ صائماً بالنّهار قائماً بالليل، جادّاً في طاعةِ الرّحمن وقلَّ أنْ تَسْلَمَ من غيبةِ المُسلمين أو من أذايتهم، وأخذ مالهم.

هٰذا حال من كان جادّاً في الطّاعات، فكيف مَنْ كان مثلنا جادّاً في جَميعِ السّيّئاتِ من أكلِ الحرام والشُّبهات، والتقصير في الطّاعات والإسراع إلىٰ المُخالفات؟.

قال عبدُ الله بنُ مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال عليه السّلام[2]: «إنّ الشّيطان قد يئسَ أن تُعبد الأصنامُ بأرض العرب ولكنْ سيرضىٰ منكم بما هو دون ذٰلك بالمحقّراتِ وهي المُوبقاتُ، فاتّقوا الظُّلْمَ ما استطعتم، فإنّ العبدَ يجيءُ يوم القيامة بأمثالِ الجبالِ من الطّاعات فَيرىٰ أنّها سَتُنجيه، فَما يَزالُ العبد يجيءُ يوم القيامة فيقول: يا ربّ: إنّ فلاناً ظلمني مَظلمةً، فيقول ربُّ العزّة أَعْطُوا هٰذا من حسناته، فما يزالُ كذلك حتّىٰ لا يَبْقىٰ لهُ من حَسناتِه شَيء»؛ ثم ضَرب ـ ﷺ ـ مثالاً عظيماً في اجتماع السيّئات علىٰ العبد من حيث لا يشعرُ بها، فقال ـ ﷺ ـ الصّادق

---

(١) المغبون: المخدوع في البيعِ ونحوِه.

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ٤: ١٢٦، ومجمع الزّوائد ١٠: ١٨٩. وفي رواية في مسلم (صفات المنافقين) وأحمد ٣: ٣١٣ إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلّون ولكن في التحريش بينهم.

المصدوق[1]: «مثَلُ ذلكَ كمثل قوم سافروا ونزلوا بأرضٍ فلاةٍ ليس معهم حطَبٌ، فتفرّق القومُ ثم حطَبوا، فَلم يلبَثُوا أنْ أضْرَمُوا نارهم، وصنَعُوا طعامَهُم، وكذلك الذُّنوب».

فاتّقُوا الله عبادَ الله في مظالم العباد بأخذ أموالهم، فلا تأخذوا أموالهم، ولا تتعرّضُوا لأعراضهم، وكسر قُلوبهم، وإساءة الخُلق في معاشرتهم؛ والله الله في الإحسان إليهم وجَبْرِ قُلوبهم، فإنّ الخير كلَّه في جبر قلوب المؤمنين ونصرهم.

ومَن ابتلاهُ الله بشيءٍ مِن ذلك [٥٥/أ] - عافانا الله منه - فليبادرْ إلىٰ الإقلاع، وردّ المظالم، والإنابة إلىٰ الله تعالىٰ؛ ولا تنفعه توبته حتىٰ يرد مالاً أخذه، أو عِرْضاً استحلّه[2] أو عَيباً قاله، فليطلب العفوَ ممّن ظلمه؛ وإن كانَ قاتلاً فَليمكّن نفسَهُ لصاحِب الحَقّ فإنّه لا ينجو من خطَرات الحسابِ والميزان إلاّ مَن حاسَب نفسَهُ في كلّ زمان.

قال عُمَرُ بنُ الخَطّاب - رضي الله عنه -[3]: حاسِبُوا أنفسَكُم قبلَ أن تُحاسَبُوا، وزِنُوا أعمالكم قبلَ أنْ تُوْزَنَ عليكم، وتَزيْنوا للعَرْضِ الأكبر.

قال الإمام أبو حامد[4] - رضي الله عنه -، وحساب العبد لنفسِه أنْ

---

(١) هذه تتمة للحديث الآنف؛ واللفظ في مجمع الزوائد: وإنّ مَثل ذلك كـفَرٍ نَزَلُوا بفلاة من الأرض ليسَ معهم حطبٌ فتفرق القوم ليحطبوا فلم يلبثوا أنْ حطبوا فأعظموا النار وطبخوا ما أرادوا وكذلك الذنوب.

(٢) في (ب): «أو عِرضاً إن وقع فيه فيستحلّه».

(٣) العبارة في إحياء علوم الدّين ٦: ٩.

(٤) هو أبو حامد الغزالي، صاحب الإحياء، وغيره من المؤلّفات المشهورة.

يتوبَ عن كُلّ معصيةٍ قبلَ الموتِ توبةً نصوحاً، ويَتدارك ما فَرَط[1] مِن تقصيره في فَرائض الله تعالى، ويَرُدّ المظالم إلىٰ أهلها حَبّةً حَبّة، ويتحلّل من كُلّ مَنْ تَعرّض له بلسانه أو بيده، وسوء ظنّه بقلبه، ويطيب قُلوبهم حتّىٰ يموت ويخرج مِن هذه الدار ولم تبق عليه فريضة ولا مظلمة؛ بهذا يرجو أن يدخل الجنّة بغير حساب، وإن مات قبل ردّ المظالم إلىٰ أهلِها وأربابها أحاطت به خُصَماؤه، فهذا يأخذُ بيده، وهٰذا يقبضُ علىٰ ناصِيته، وهذا يتعلّق بتَلابيبه، وهذا يقول: يا رب ظلَمني، وهذا يقول: شتمني، وهذا يقول: استهزأ بي، وهذا يقول: ذكرني بالغيبة بما يسوؤني، وهذا يقول: عاملني فَغشّني، وهذا يقول: بعتَ مِنّي فأخْفَيْتَ عني عَيْبَ مَتاعِك، وهذا يقول: كذبتَ في سعر سلعتك، وهذا يقول: رأيتني مُحتاجاً وكنتَ غنيّاً فَما أطعمتني. وهذا يقول: رأيتني مظلوماً فَما نَصرتَني؛ إلىٰ غير ذلك ممّا لا يسلم منه في الدُّنيا إلاّ مَنْ سلّمه الله تعالىٰ منه فبينما هم متعلّقون بك، وأنتَ تطلبُ من مولاك أن يخلّصك منهم إذْ قُرِعَ سمعُك بنداءُ الجَبّار: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٤٠/١٧] .

فتحرّزْ ـ رحمكَ اللّٰهُ ـ من ظُلم العباد، واستَحضِرْ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ﴾ [إبراهيم ١٤/٤٢] ، وقوله عزّ وجل: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/٢٢٧] .

ومَنْ وقَع في شيءٍ من هٰذه المُخَالفات، ومَنّ عليهِ الله جلّ جلاله بِالمُبَادرةِ إلى الحَسنات، وتابَ توبةً ندم فيها عن ارتكاب السّيئات، وردَّ مظالم المخلوقات، حَصَل له القبول مِمّنْ قال في كتابه عزّ مِن قائل ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى ٤٢/٢٥] سيّما

---

(١) فَرط: سبَق وتقدّم.

إن انكسر قلبُه، وجرى دمعُه، وأتىٰ مُستشفعاً بسيّد البريّات.

قال محمّد بن حَرب ـ رحمه الله ـ: دخلتُ المدينةَ المشرفة وانتهيتُ إلىٰ قبر رسول الله ﷺ، فإذا أعرابيّ أناخَ بعيره، وعَقَلَه، ثم دخلَ إلىٰ القبر، فسلّم سلاماً حسناً، ودَعا دعاءً جميلاً ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله، إنّ الله عزّ وجلّ خصّك بوحيه، وأنزلَ عليكَ كتابه، وجَمع لك فيه عِلم الأولين والآخرين وقال في كتابه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء ٤/ ٦٤] وقد أتيتُك مُقِرّاً بالذُنوب مستشفعاً بك إلىٰ ربّك، ثم الْتَفَتَ إلىٰ القبر فأنشد وقال[1]:

يا خيرَ مَنْ دُفِنَتْ في التُربِ أعظُمه ... فطابَ من طِيبهنَّ القاعُ والأكَمُ[2]
أنتَ النبيُّ الذي تُرجىٰ شفاعَتُه ... عند الصّراط إذا ما زَلّت القَدمُ
نفسي الفداءُ لقبرٍ أنت ساكنُهُ ... فيه العَفافُ وفيه الجُودُ والكَرمُ

قال: فما شككْتُ أنّه راح بالمغفرة.

وهُنَا كَلامٌ عظيمٌ في التّوبة؛ وسَنذكرُ إن شاءَ الله منه في فصلٍ آخَرَ من أسمائهِ عليه الصّلاة والسّلام.

---

(١) البيتان الأوّل والثالث في البحر المحيط ٣: ٢٨٣ وذَكر القصّة؛ والأبيات الثلاثة في الحماسة المغربيّة: ١٣٨٩؛ وقد سبقت الأبيات في الصفحة: ٩٧ من هذا الكتاب.

(٢) من بحر البسيط.

باب

في معنى اسمه

نَبِيّ المَلاحِم(١)

صلَّىٰ اللّه عليه وسلّم وشَرَّفَ وكرَّم

نبيُّ الملاحم: اسمٌ من أسمائه عليه أفضل الصّلاة والسّلام؛ رُوي ذلك من طريق أبي موسىٰ الأشعري ـ رضي الله عنه، ومن طريق حُذيفة ابن اليمان رضي الله عنه.

ومعنىٰ نبيّ الملاحم: أي النبيّ الذي بَعثه الله تعالىٰ لأَنْ يقاتلَ الكَفرة حتّىٰ يَرْجِعُوا إلىٰ الإيمان، وليصدّقوا، ويدخل قُلوبهم الإيمان.

ففيه إشارةٌ إلىٰ قتاله عليه الصّلاة والسّلام، وغزواته.

والتّلاحُمُ: هو القِتَالُ والمضاربة [٥٦/أ] والجراح.

وقد قال عليه الصلاة والسلام(٢): «أُمِرت أن أقاتلَ النّاسَ حتىٰ يَقُولوا لا إلٰه إلاّ الله، فإذا قالُوها عَصَمُوا منّي دماءَهُمْ وأَموالَهُم إلاّ بِحَقّها، وحِسَابُهم علىٰ الله».

---

(١) ورد تفسير هٰذا الاسم الكريم في: أسماء رسول الله ﷺ ومعانيها: ٣٦، والشفا ١: ٤٥٢، وزاد المعاد ١: ٩٥، والرياض الأنيقة: ٢٦٢، وسبل الهدىٰ والرّشاد ١: ٦٥٥، والمواهب اللدنيّة ١: ١٩٣.

(٢) صحيح البخاري ١: ١١، ومسند الأمام أحمد ١: ١١.

وقال جلّ جلاله: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة ٩/٣٦] ، فأمَر اللّهُ تعالىٰ نبيَّهُ وصَفِيَّهُ، ومَنْ كان معهُ من أنصارِه وأصحابِه، بإظهار دِينه وإعلاءِ كلمته، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة ٢/١٩٣] .

وقد جاهدَ ـ ﷺ ـ في دينِ الله وأظهرَ كلمة الله، وجعل الله ـ سبحانه ـ بسبب هذا النبي العظيم كلمةَ الذين كفروا السفلىٰ، وكلمةُ الله هي العُليا؛ ونصر الله دينه، وأظهره علىٰ الدِّين كلِّه، ولو كره المشركون، وأظهره علىٰ الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون.

وما زال ـ ﷺ ـ يكافحُ عن دين الله بشجاعَتِه الّتي فطره الله عليها، ونَجدتِه وقوة أعضائه، وانقيادها واسترسالها إلىٰ الموت بحيث يحمدُ فعلها، فثَبت في المواقِف الصَّعبة وفَرَّ الكماة والأبطالُ عنه غير ما مَرّة، وهو ـ ﷺ ـ لا يَبْرَحُ، وعن مكانه لا ينتقل ولا يتزحزح؛ وليس ثَمَّ شجاعٌ من الأبطال إلاّ وقد أُحصِيَتْ لهُ فَرّة، وحُفظت له جَولة، ونبيُّنا ـ ﷺ ـ لا يزيدُه اشتعالُ الحُروبِ إلاّ ثَباتاً وإقداماً، وما يظهرُ من حاله عند قيام الحرب علىٰ ساقها إلاّ إقبالاً وزعامةً وإبراماً.

سأَل رجلٌ البراءَ بنَ عازِب[1] ـ رضي الله عنه ـ وقال له: أَفررتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ عن رسول الله ﷺ؟ قال: ولكنّ رسول الله ﷺ لم يَفِرّ، ولقد رأيتُه علىٰ بغلته البيضاء يركضُها نحو الكفّار، وأبو سُفيان[2] قد أخذ

(١) الشفا ١: ٢٣٥ ومسند الإمام أحمد ٤: ٢٨٠، ٢٨١ والخبر في السِّير؛ ينظر مثلاً السيرة النبوية لابن كثير ٣: ٦٢٢.

(٢) هو أَبو سُفيان بن الحارث، وهو ابن عَمّ النبي ﷺ. كان في صفّ المُشركين إلى فتح مكة. ثم أسلم وحَسُن إسلامه، واعتذر عن شعره الذي كان يهاجم فيه الدّعوة الإسلامية والمُسلمين. ومَدح رسول الله ﷺ ونصَر الإسلام بلسانه وسلاحه. رضي الله عنه.

بلجامها، والنبيُّ - ﷺ - يقُول:

أنا النبيّ لا كذب أنا ابنُ عبدِ المُطّلب

فَما رُئِيَ يومئذٍ أحدٌ كان أشدَّ منه

وذكر العبّاس عمُّ رسول الله ﷺ أنّ رسول الله ﷺ كان يركضُ يومئذٍ نحو [٥٦/ب] الكُفّار، وأنا آخذٌ بلجام بغلته أكفُّها[١].

وكان ابنُ عمر يقول: ما رأيتُ أشجعَ، ولا أنجدَ ولا أجودَ، ولا أرضىٰ مِن رسول الله ﷺ.

وقال عليُّ بن أبي طالب - رضي الله عنه -[٢]: كنّا إذا حَمِيَ الوطيسُ، واحمرّت الحَدَقُ، اتّقينا برسول الله ﷺ، فما يكونُ أحدٌ أقربَ إلىٰ العدوّ منه.

وكان الشّجاعُ هو الذي يقربُ من رسول الله ﷺ - إذا دَنا العَدُوّ.

وشجاعَتهُ - ﷺ - مقطوعٌ بها من الأخبار، مشهورٌ أمرُها في جميع الأزمانِ والأعصار؛ لأنّ أحواله خارقةٌ للعادة؛ فَما من صفةٍ من صفاتِ الكمال إلاّ وقد حازَها، وكان فيها رأسَها وأساسَها، وقضيّتُه مع أُبَيّ بنِ خَلف يومَ أُحد معلومةٌ[٣] وهو يقول: أين محمّد؟ لا نَجَوْتُ إن نَجا!، وقد كانَ يومَ بدرٍ أَسره، وافْتُدِيَ؛ وكانت عنده فَرسٌ يعلفُها كلَّ يوم

---

(١) الشفا ١: ٢٣٧.

(٢) الشفا ١: ٢٣٧. والوطيس التنور، أو هو تنوّر من حديد ونحوه يُختبز فيه ويُشتوى. ومعنى الحديث: الآن حمي الوطيس أي اشتدّت الحرب. وقد استعير الوطيس للمعركة لأن الخيل تطـها بحوافرها. ومعنى وطسه: ضربه بخُفّه ضرباً شديداً.
وقوله: «احمرّت الحدق»: كناية عن اشتداد المَعركة. والحَدقة هي السّواد (أو اللون المميّز) المُستدير وسط العين.

(٣) الخبر مشهور؛ وهو في كتب السير (ينظر مثلاً السيرة لابن كثير ٣: ٦٣).

فَرَقاً[1] من ذُرة؛ فقال للنبيّ - ﷺ -: أَقْتُلُكَ عليها؛ فقال له النبيّ - ﷺ -: أنا أَقْتُلُكَ إن شاءَ الله، فلما رآه يومَ أُحدٍ شَدَّ أُبَيٌّ علىٰ فرسه وأتىٰ رسول الله ﷺ، فاعترضَه رجالٌ من المُسلمين، فقال النبيّ - ﷺ -: خَلّوا طريقَه، وتناول الحربة من الحارث بن الصِّمَّةِ[2] فانتفضَ بها انتفاضةً تطايَرُوا عنه تطاير الشُّعْراء عن ظهر البعير إذا انتفضَ [بها][3]، ثم استَقْبَلَهُ النبيُّ - ﷺ - فطعنه في عنقه طعنة تَدَأْدأَ[4] منها عن فَرسِه مِراراً، وقيل بل كسر ضلعاً من أضلاعه، فرجع إلىٰ قُريش وهو يقول: قد قتلني محمّد! وهم يقولون: لا بأس بك! فقال لهم: لو كان ما فيّ بجميع الناس لقتلهم. أليس قد قال: أنا أقتلك؟! والله لو بصَق عليّ لقتلني، فمات في قُفوله إلىٰ مكّة[5].

وركوبه - ﷺ - علىٰ بغْلته في الهَيجاء من أقوىٰ دليلٍ علىٰ رُسوخه في الحُروب، وقوّة شجاعته وإزالة الغُمّة عن الخَلق في الكروب، وفيه تطمينٌ لقلوب أصحابِه، وتثبيتٌ لهم في إقدامهم، وتأنيسٌ لهم في قِتالهم.

وقد نالُوا من بركته عليه أفضلُ الصّلاة والسّلام وحصَل لهم من [٥٧/أ] شَجاعته ما ضُرِبَت به الأَمثال، وشَهِدَت به الأَعداء والأَبطال، ورحم الله البُوصيري في قوله حين وصف أصحابه عليه السّلام[6]:

(١) الفَرَق: مكيال من مكاييل أهل المدينة ضخم يسعُ ١٦ مُداً.

(٢) الحارث بن الصِّمّة: شهد أُحُداً وثبت مع رسول الله ﷺ يومئذٍ حين انكشف النّاسُ وبايَعَهُ على الموت (انظر. طبقات ابن سعد ٣: ٥٠٨).

(٣) كلمة (بها) من ب. والشُّعْراء: الوبر الذي على البعير.

(٤) تَدَأْدأَ: تَدَحْرَجَ.

(٥) الشّفا ١: ٣٨، والسّيرة النبويّة ٢: ٨٤.

(٦) ديوان البوصيري: ٢٤٦.

هُم الجبالُ فَسَلْ عنهم مُصادِمَهُم ... ماذا رأىٰ منهمُ في كلّ مُصْطَدَمِ
وسَلْ حُنَيْناً، وسَلْ بَدْراً وسَلْ أُحداً ... فُصولُ حتفٍ لهم أدهىٰ من الوَخَمِ

ثم قال في صفاتهم، وسبب شجاعتهم[1]:

ومن تكنْ برسولِ الله نُصرَتُهُ ... إن تَلْقَهُ الأُسْدُ في آجامِها تَجِمِ[2]
ولن ترىٰ مِنْ وليٍّ غير منتصرٍ ... بهِ ولا من عدوٍّ غير مُنقَصِمِ[3]
أحلَّ أُمَّتَهُ في حرزِ مِلَّتِهِ ... كالليثِ حَلّ مع الأشبالِ في أَجَمِ

فصل

هذا الاسم العظيم هو نبيّ الملاحم خُصَّ به ـ ﷺ ـ لكثرة ما ظهر به من عجائب الملاقاة في القتال، وما أهلك الله تعالىٰ به، وبأصحابه مِن أعدائه الأبطال.

فينبغي للمُؤمن المحبّ فيه أن يطالعَ سِيرته عليه الصّلاة والسّلام، وسيرة أصحابِه الكرام في فُتوحاتهم وغَزَواتهم، وما خَصّهم به المولىٰ جلَّ جلالهُ من قُوَّتِهم وثباتِهم، وكم مِن قضايا في الحُروب والمَشاهد تَدُلُّ علىٰ صَبرهم، وقُوّة يَقينهم مع قِلّة عَددهم وعُددهم؛ وأَعداؤُهم مع كثرة عَددهم وشاكي سِلاحهم[4]، ومع هذا فقد هَزَمَهُم الله، وألقىٰ الرُّعب في قلوبهم، وقد قُتِل مَنْ قُتِل مِن صناديد قُرَيش، وأُسِرَ مَنْ أُسِرَ مِن أَشرافِهم، وكان عَدَدُهُم في يوم بدر أَلفَ مُقاتل، كلّ منهم يقاتلُ الأبطال في المَواطن المشهورة؛ وذلك لِمَا أُعطوا من النّجدة والشّجاعة

(١) ديوان البوصيري: ٢٤٧.
(٢) تجم من فعل وَجم.
(٣) المنقصم: المنقطع.
(٤) شاكي السلاح: ذو شوكة، وحَدٌّ في سلاحه.

والقُوّة المأثورة، وكانَ النبيُّ ـ ﷺ ـ في ثلاث مئة وتسعة عشر رجلاً، أو أربعةَ عشر رجلاً؛ فلمّا تراءىٰ الجَمْعان: جَمْعُ الرّحمن، وجمعُ الشّيطان، جاء الحقُّ وزَهق الباطل إنّ الباطلَ كان زهوقاً.

فَحِزبُ رسولِ الله ﷺ حزبُ الله، وحزبُ الله هم الغالبون، وحزبُ الكفّار حزبُ الشّيطان، وحزبُ الشّيطان هم الخاسرون.

وقد رُويَ[1] أنّ إبليسَ لعنه الله تصوّر للكُفّار في صورة رجل وهو سُرَاقة[2] يحدثهم، وأنّه يقول: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإنّي جارٌ لكم، فَدَلاّهم بِغُرور.

وفيه يقول حسّان ـ رضي الله عنه ـ شاعر رسول الله ﷺ[3]: [٥٧/ ب].

سِرْنا، وساروا إلىٰ بدرٍ لِحَيْنِهِمُ ... لو يعلمونَ يقينَ العِلْمِ ما سارُوا
دَلاّهُمُ بِغُرورٍ ثم أَسْلَمَهُمْ ... إنّ الخبيثَ لِمَنْ والاهُ غَدّارُا

ثم أقْبَلُوا بعد أنْ تَردّد فيهم أشرافُهم، وأعداءُ الله أقدمَهُمُ الله لحَيْنِهِمْ، وتصديقاً من الله تعالىٰ لرسوله عليه السّلام حين عَيّن مصارعهم، فقال هذ مصرعُ فلان، وهذا مصرعُ فلان، وهذا مصرعُ فلان؛ فما تعدّىٰ مَنْ عَيّن مصرعَهُ الصّادقُ المصدّق، النبيّ الصّدُوق ﷺ.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١: ٦٠٦ ـ ٦٣٣ من أخبار غزوة بدر.

(٢) سُرَاقة: هو سُراقة بنُ مالك بن جُعْشُم المُدْلجِيّ، كانَ مِن أشراف بَني كنانة؛ وكان إبليس لمّا أجمعت قريش للخروج يوم بدر تبدّىٰ لهم في صورة سُراقة؛ انظر السّيرة النبويّة ١: ٦١٢.

(٣) ديوان حَسّان ١: ٤٧٦.

فلمّا قدموا، وفيهم عُتبة بن ربيعة، وشَيبة بن ربيعة وأُميّة بن خلف، وأَبُو جهل، وعُقبة بن أبي مُعَيْط وغيرهم[1] ممّن أراح الله منهم، وكان ابن أبي مُعَيط مؤذياً للنبيّ - ﷺ - فنادىٰ مناديهم: يا محمّد، وجماعة رسول الله ﷺ عليهم نورٌ ساطع، وضياءٌ لامع، منهم أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعليّ بن أبي طالب، وطَلحة بن عبيد الله، وعُثمان بن مظعون، وحَمزة بن عبد المطلب، وغيرهم من المُهاجرين والأنصار - رضي الله عنهم أجمعين؛ وقد حَفّتهم السّكينةُ. وغَشِيَتْهُم الأنوار؛ والرحمةُ من الله نازلةٌ عليهم، والإمداد مِن الله ساقه إليهم؛ وبينهم البدرُ الطالع، والنّورُ الساطع، وكتابُ الله ينزلُ عَليه، وملائكةُ الله [يقاتلون] معه عن يمينه وعن شماله ومن خلفِه وبين يديه؛ وقد كان ﷺ في العَرِيش ومعه أبو بكر الصّديق وهو يَبتهل إلى رَبّه ويَستنصره ويسأله أن يُنجزه وعده؛ ثم خَرج رجلٌ من المُشركين يُقال له الأَسوُد بن عبد الأسد وكان رَجُلاً سيّىء الخُلق، فقَدِم إلى حَوض المُؤمنين وتعاهَد مع قومه ليشرَبَنّ منهُ أو ليموتَنّ دونه، فلمّا خرج بادر إليه حمزةُ رضي الله عنه، أسدُ الله وأسدُ رسوله، فلمّا التقيا ضرَبه حمزةُ فقطَع ساقه وأَتْبَعه رضي الله عنه فضربه حتى قتله؛ ثم خرج من الكفّار عتبةُ بن ربيعة وشيبةُ بن ربيعة والوليدُ بن عُتبة فدَعَوا إلى المبارزة؛ فخرج إليهم فتيةٌ من الأنصار، فقالوا لهم: مَنْ أنتم؟ قالوا: رهطٌ مِنَ الأنصار، فناداهم النبيُّ - ﷺ - وقال لهم: ارجِعُوا إلىٰ مَصافكم[2]، وليقم إليهم بنو عَمّهم [٥٨/أ].

ثم نادىٰ مُناديهم يا محمّدا أخرِجْ لنا أكفاءَنا[3] من قومنا،

---

(١) من الأعلام المعروفة في جبهة المُشركين يوم بدر.

(٢) المصافّ جمع المصف، وهو موضع الصف في الحرب تقف فيه الصُفوف.

(٣) الأكفاء جمع الكفء. وهو النظير والمساوي. أنف المشركون من لقاء الأنصار وطلبوا القرشيّين من جند المسلمين ومقدّميهم.

فقال النّبيّ ـ ﷺ ـ: قُم يا عبيدة بن الحارث، وقُم يا حمزة، وقُم يا عليّ.

فلمّا قامُوا ودَنَوا مِنْهُم فقالُوا لهم: من أنتم؟ فقال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال علي: عليّ. فقالوا: نِعمَ القومُ، أكْفاءٌ كرام؛ فبارزَ عبيدةُ، وكان أَسَنَّ القوم عُتبة بن ربيعة، وبارز حمزةُ شيبةَ، وبارز عليٌّ الوليدَ؛ فأمّا حمزة فلم يُمْهِل شيبةَ أنْ قتَله، وأمّا عليّ فلم يُمهل الوليدَ أنْ قتلَه، وبقي عبيدةُ وعتبة، واختلفا بضربتين كلّ منهما أثبتَ صاحَبه[1] وكرّ عليٌّ وحمزةُ بأسيافهما علىٰ عُتبة فأجمعوا عليه، واحتملا صاحبهما إلىٰ أصحابه، ثم اشتدَّت الحرب، وحمي الوَطِيسُ، ورسول الله ﷺ يدعو ربه أنْ يُنجِزَه وعدَه، فأجابَ الله ـ سُبحانه ـ دعوته، ونَصره علىٰ عدوّه وأظهرَ دينَه علىٰ الدّين كُله، وأَمَدَّهُ بملائكته.

قال ابنُ عبّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ: بينما رجلٌ من المُسلمين يشتدُّ في أَثرِ رجلٍ من المُشركين أمامه، إذ سمع ضربةً بالسَّوْط، وصوتَ رَجُلٍ يقول: أَقْدِم حَيْزُوم[2] فَنظر إلىٰ المُشركِ أمامه، وقد خَرّ مُستلقياً، وإذا هو قد شُقَّ وَجْهه؛ فجاءَ الأَنصاريُّ فحدَّث بِذٰلكَ رسول الله ﷺ ـ فقال له النّبيُّ ﷺ ـ: صدقتَ ذٰلك مِنْ مَدَدِ السَّماءِ، فنَصر الله تعالىٰ عباده المؤمنين علىٰ أعدائه الكافرين، فقتلوا منهم سَبعين، وأسروا سبعين؛ وما النّصر إلاّ من عند الله، ومَنْ حاربَ أنبياءَ الله فكأنّما حارب الله، نعوذُ بالله من العماية والغواية!.

---

(١) أي: جَعله ثابتاً (لم يتغلب أحدهما على الآخر).

(٢) في اللسان: حيزوم اسم فرس جبريل عليه السّلام؛ وفي الحديث أنّه سمع صوته يوم بدر يقول: أقدمْ حيزوم؛ أراد: أقدم يا حيزوم، فحذف حرف النداء. وقال الجوهري: حيزوم: اسم فرس من خيل الملائكة.

كان عكاشة بن محصِن ـ رضي الله عنه ـ يوم بدر قاتل بسيفه حتّىٰ انقطع في يده[1]، فأتىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ ـ فأعطاه عُوداً من حَطب، فقال له: قاتلْ بهذا يا عُكّاشة، فلمّا أخذه من يد رسول الله ﷺ هزّه فعادَ سَيفاً طويلَ القامة [٥٨/ب] أبيضَ الحديدة ببركة رسول الله ﷺ، فقاتلَ به حتّىٰ فتحَ الله علىٰ المسلمين. وكان ذلك السّيف يُسَمّىٰ العَوْن[2]، ولم يزل يشهد بهِ المَشاهد مع رسول الله ﷺ حتّىٰ قُتل في الرِّدَّة وهو عنده.

وقد ظَهرت من المُعجزات في هٰذه الغَزوة، وخَوارق العادات أُمور كثيرة، فيها دلالةٌ من الله وآياته، إكراماً لمن شَرُفت به الأرضونَ والسّمٰوات.

فَأَكْثِرُوا ـ رحمكم الله ـ من سماع غَزواته، والنّظر في مُعجزاته وآياته، وما أظهر الله لنبيّه من عَجائبِ مخلوقاتهِ، وما نَصره الله به في حُروبه، وإظهاره[3] علىٰ الأعداء في جميع حالاته، لتنشرحَ صدورُكم بحبّه، وتطمئنّ قلوبكم بشَرَفَ قدره، وقوة الاعتناء به عند ربه ﷺ وشرّف وكرّم. وأقول كما قال الشّاعر رحمه الله:

إنّي لأرجُو بتصنيفي فضائلِه أَنْ يغفرَ الله لي ذَنبي ومُسْتَطري[4]
وأَن يُجنبّني من حَرّ نارِ لظىٰ ومن حَميمِ وغسلينِ ومن شَرَرِ[5]

---

(١) السّيرة النبوية لابن هشام ١: ٦٣٧.

(٢) وفي اللسان عن الليث: كل شيءٍ أعانك فهو عَوْنٌ لك. والجمع أعوان. فكأن هذا المعنى ملحوظ في تسمية ذلك السّيف.

(٣) أي جعله يظهر على عدوه: (يقهرهم ويغلبهم).

(٤) استطَرَ عليه الذنبَ: كَتَبَهُ.

(٥) الحميم: الماء الحارّ. والغِسلين: ما يسيل من الجُرح والدَّبَر كالقيح وما يُشبهه؛ وما يسيلُ من جلود أهل النار (وهو المقصود في الشعر).

وأن يُبَوِّئَني عَدْناً أكونُ بها مع النَّبِيِّ الرَّضِي المُختار من مُضَرِ[1]
يا ربِّ صَلِّ علىٰ خيرِ الأنامِ ومَنْ تُرْجىٰ النجاةُ بهِ في مَوقفٍ عَسِرِ
يا ربِّ صلِّ عليه ما سَرىٰ قمرٌ وَغنّتِ الوُرْقُ في الأغصانِ والشجر[2]
يا ربِّ صلِّ عليهِ دائماً أبداً كما تُحِبُّ وتَرْضىٰ، مُظهرَ العِبَرِ

وهذا الاسم الكريم يناسبُه من غَزواتِه عليه الصَّلاة والسلام، وقضايا أصحابه السّادة الأعلام، وما يزيده في قلوب المحبّين الإيقان، ويتقوّى به الإيمان، ولكن حذفتُ من ذلك خوفَ الخُروجِ عن المقصِد. ويأتي لنا ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ ما يُناسِبُه مِن الأسماء، فَنَذكُر فيه ذلك، ونطلبُ العُذْرَ مِن مولانا وخالِقنا ونصلّي علىٰ نبيِّنا وحبيبِنا.

---

(١) بوّأه منزلاً (وبوّأ له منزلاً): اتّخذه له، وهيّأه له.

(٢) الوُرق جمع الوَرْقاء: (وهذه أنثى الأورق): الحمامة التي لونُها كالرماد فيه سواد. واسم الورقاء في الأصل صفة ثم غلبت عليها فعرفت بذلك.

باب

في معنى اسمه

مُقيم السُّنّة بَعد الفَترة(١)

صلّى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

مُقيم السُّنة: اسمٌ من أسمائه عليه الصَّلاة والسَّلام؛ وقد رُوي في بعض الآثار، ومشهور الأخبار أنَّ داوود عليه السَّلام قال(٢): «اللّهم ابعَثْ لنا محمّداً مقيم السُّنة بعد الفترة» [٥٩/أ].

ومعنىٰ مقيم السنة: أي مُحيي الإيمان والإسلام، لأنَّ سُنَّة أنبياء الله ـ صَلوات الله وسَلامهُ عَليهم أجمعين ـ الأمر بتوحيد الله، وشهادة أَنْ لا إلٰه إلاّ الله.

قال مولانا جلّ جلاله، إخباراً عن شرع نبيّنا محمّد ـ ﷺ ـ وأنّه لم يأت بدينٍ مُخالِف لِما أتىٰ به مَنْ قبله من الأنبياء، بل بدينٍ يشرعه الله ويصطفيه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى ١٣/٤٢].

---

(١) وَرَدَ شرح هٰذا الاسم الكريم في: الشفا ١: ٤٥٠ والرياض النَّضرَة: ٢٥٢، وسبل الهدىٰ والرَّشاد ١: ٦٤٣ والمواهب اللدنية ١: ١٨٤.

(٢) الشّفا ١: ٤٥٠ وسبل الهدىٰ والرشاد ١: ٦٤٣ والرياض النضرة: ٢٥٢.

ولـم يكـن - ﷺ - بِبِدْع من الرُسل بل أتىٰ مُقيماً للسُنّة السّابقة، ومُحْيياً لهَا بعدَ إماتتها وزَوالها؛ فأقام بنا الإيمان، وشَيّد دعائِمَه بالقَواعد والأَركان، وأظهرَ الله دينَهُ علىٰ سائر الأَديان، ونَوّر قلوب المُؤمنين بنُور الإيمان.

وقد بعثَ الله نبيّنا - ﷺ - لمّا حَمِيَ وطيسُ الكُفران، واشتعلت في القلوب نيرانُ الكفرِ وعبادةُ الصّلبان، فشمّر عليه الصّلاةُ والسّلام عن ساقِ الجِدّ، وما زال وحدَه يُحمِدُ ويُطفىء لهيب النيران، حتىٰ انطفأت من قُلوب أصحابه بنور الإيمان، فآمَنُوا به وصَدّقوه، وعادت بَرْداً وسلاماً بمحبّة حبيب الرّحمن.

فحببَ الله لهمُ الإيمان، وزيّنه في قُلوبهم، وكرّه إليهم الكُفر والفُسوقَ والعِصيان، فأعْطىٰ الله نبيَّه - ﷺ - مُعجزاتٍ عظيمةً، وآياتٍ عجيبة لو لم يكن منها إلاّ مُعجزة القرآن!.

وما زال عَليه الصّلاةُ والسّلام يُجاهد في الله حقّ جهاده، ويبذُل وُسْعَهُ في إظهار دين ربّه، حتىٰ أدخل الله الإيمانَ في القُلوب، وخالطَتها بشاشَتُه، وبَرزت أعلامُه للعَيَان، وتَقرّرَ ثُبوته بالدّليل والبُرهان، وأقرّ الله سبحانه عينَ نبيّنا بأصحابهِ الكرام، فَعَزّرُوه ونَصروه، فكانوا لِدينه أُمناءه وحَمَلَته وأيّد الله نبيّهُ بهم، فكانوا له أنصاره وأعوانَهُ وخَوَلَهُ[1]؛ أثنىٰ عليهم مولانا في كتابه العزيز، وأبان عن مَقامهم [٥٩/ب] عنده تِبياناً، فقال عَزّ مِن قائل: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح ٤٨/ ٢٩].

(١) الخَوَلُ: حاشيةُ الرَّجل.

فالصّحابة - رضي الله عنهم - أفضلُ هٰذه الأمة وأبَرُّها قلوباً، وأغزرها علماً، وأكثرُها حلماً، قَومٌ اختارهم الله سبحانه لصحبةِ حبيبهِ ونبيّه ورسوله، وإقامةِ سُنّته ودينه، فاقْتَدَوْا رضيَ الله عنهم بهديه. واتَّبَعُوهُ في آثارِه، وتمسّكوا بطريقته، فهم أجنادُ الله مِن خَلْقِهِ، وأنصارُ رسوله، وصحاب نبيّه وصفيّه.

رجالٌ صَدقُوا ما عاهَدُوا الله عليه، وتَسَابَقُوا إلىٰ نفيس ما دَعاهم إليه: نصروا رَسُوله، وجَعلوا مُهَجَهم دون مُهجته، وبَذلوا أموالَهم في سبيلِ محبّته، فَما أمرهم بهِ أخَذوه وما نَهاهُمْ عنهُ نَبذُوه، ونصَحُوا لِلّهِ ورَسُوله في إرشاد عباده، وأَوْضَحُوا لهَمُ كلّ مراده، وأصلَحُوا ما فسَد من بلاده، وجاهدوا في الله حَقَّ جِهاده.

فَضائِلُهم في الكتاب مَتْلُوّةٌ، والصُّحف بمناقبهم مَمْلُوّة؛ رضي الله عنهم وأرضاهم، وحَشرنا في زُمرتهم وقرّبنا من مَثواهم، ونفَعنا بهم وصَيِّرنا فِي حِماهم.

قال عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه: إن الله نَظَر في قُلوب العبادِ فاخْتارَ منهم قلبَ مُحَمّد - ﷺ - ونَظر في قُلوب العباد، بعد قلب محمّد عليه الصّلاة والسّلام فاختار منها قلوبَ أصحابه، فجعلَهم يقاتلون عن دينه، ووُزراءَ لنبيّه، فما رأوْهُ حَسَناً فهو عند الله حسَن، وما رأوه سيّئاً فَهُو عندَ الله سيّء[1].

فصل

مِن آداب مَنْ علم أنّ نبيّنا - ﷺ - من أَسمائه مقيمُ السُّنّة بعد الفَترة

(١) في مجمع الزوائد ٨: ٢٥٢ عن عبد الله بن سعيد في باب عظم قدره ﷺ وينظر كشف الخفا ٢: ٢٦٣ والعلل المتناهية ١: ٢٨٠ والأحاديث الضعيفة ٥٣٢.

أنْ يكون متّبعاً له في إحياء سُنَّتِه، وإشهار طريقته، ذابّاً عن شريعته، متمسّكاً بهديه، سيّما عند فَساد الزّمان، وكثرة البِدَع في جَمِيع الأَماكن والأوطان.

قال ـ ﷺ[1] ـ: «إنّ الله يُدخل العبدَ الجنّة بالسُّنّة يتمَسَّك بها..».

وعن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ أنّ النبي ﷺ قال[2]: «المتمسّك بِسُنّتي عند فَسادِ أُمّتي له أجرُ مئة شهيد».

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنّ النبيّ ﷺ قال[3]: «من أَحْيَى سُنَّتِي فقَدْ أحياني، ومن أحياني كان معي في الجنّة».

ومن أرادَ أن يزداد قلبُه إيماناً، وينشرح صدرهُ إيقاناً، فليتدبَّرْ أحوالَ [٦٠/أ] أصحابه الكرام في اتّباع سنته والاقتداء بهديه وسيرته؛ وكذلك أحوالَ الأَئمّة من السّلف والتّابعين بعدهم في إحياءِ دينه، ولُزوم محبّته.

كان عُمَر بنُ عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ يقول: سَنَّ رسُول الله ﷺ، وولاةُ الأَمر من بعده سُنَناً: الأخذ بها تصديقٌ لكتاب

---

(١) يُنْظَر ما ورد في مكانة السنة من الشريعة الإسلاميّة ما في كتاب: الموافقات في أصول الشريعة ٤: ٣ ـ ٨٦. والحديث في الشفا ٢: ٢٧. وخرّجه السيوطي في مناهل الصفا: ١٧٧ وأخرجه عبد الرزاق في مصنّفه ١١: ٢٩١ باب الرخص في الأعمال والقصد، والديلمي في الفردوس ٣: ٤١.

(٢) الشفا ٢: ٢٧. ومناهل الصّفا: ١٧٨: أخرجه الطبراني في الأوسط ١: ١٧٢، وهو في مجمع الزوائد ١: ١٧٢ قال فيه محمّد بن صالح العدوي ولم أرَ من ترجمه. وبقيّة رجاله ثقات. وينظر الفتح الكبير ٣: ١٨.

(٣) أخرجه الترمذي في الإيمان ٢٦٧٨. وهو في الشفا ٢: ٢٨ ومناهل الصفا: ١٧٨، وإتحاف السادة الفضلاء ١: ١١٨. وينظر الفتح الكبير ٣: ١٥١.

الله، واستعمالٌ لطاعةِ الله، وقوّة علىٰ دِين الله؛ ليس لأحدٍ تغييرُها، ولا تبديلُها، ولا النَّظَرُ في رأي مَنْ خالفَها؛ مَن اهتدىٰ بها مُهتدٍ، ومَن انتصر بها منصور، ومن خالَفها واتّبع غيرَ سبيل المؤمنين ولاّه الله ما تَوَلّىٰ وأصْلاه جَهنّم، وساءت مصيراً.

ومن علامات المحبّة في اتّباع السُّنة، ودليل الهداية، والبُعد عن الشّقاوة، الوقوفُ عند ما أَمَر به نبيُّنا ـ ﷺ ـ وما مَهّدَه من السُّنن والشّرائع والحكم بها علىٰ كلّ كبيرٍ وصغيرٍ، والتّسوية بين الشّريف والوضيع والحقير، والنّهج علىٰ ما سدَّ من الذّرائع، وتبيين الأحكام والشّرائع.

فإنّ الحُكْمَ بالسّنة بها تُقام الحُدود، وفيه رِضىٰ الملك المعبود، فبالحقّ أقام الله تعالىٰ نظامَ العالَم وزيّنه، وبِسُنّة نبِيّه وإحيائها أَحْيا العالَم وأَصْلَحَهُ.

وقد كتَب بعضُ عُمّال عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ يشكو له بحال[1] بلده وكثرة لُصوصه. هل يأخذهم بالظِّنّةِ أو يَحملهم علىٰ البيِّنةِ الشّرعيةِ، وما جَرت به السُّنة؟. فكتب إليه عُمَر أنْ خُذهم بالبيّنة، وما جَرتْ بِهِ السُّنّة، فإنْ لم يصلحهم الحقّ لا أصْلَحهم الله.

وكانَ الشّافعي ـ رضي الله عنه ـ يقول: ليسَ في سُنّة رسول الله ﷺ إلاّ اتّباعها، ومن بدّل سُنّته أو غَيّرها فهو في ضلالٍ وبِدْعَة، وقد توعّده الله بالخُذلان والعذاب العظيم، والضّلال البعيد؛ فقال جلّ جلالُه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النّور ٢٤/ ٦٣].

(١) في النسخ كلها: بحال؛ أي عدّى فعل شكا إلى الباء.

وقد بيّن اللّهُ سُبحانه وتعالىٰ لعباده حدود شرائعه ومَهّد لهم حُكمها في كتابه، وسُنّة نبيه، واتّبعت الصحابةُ والتابعون تلك الحدودَ، ووقَفُوا عندها، وحكم بها الّذين يظنُّون[1] أنّهم ملاقُو رَبّهم وأنهم إليه راجعون، راهبين [٦٠/ب] من قوله جلّ جلاله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٢٩] مُشفقين من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة ٥/ ٤٤] ناصبينَ بين أعْيُنِهم قولَه تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة ٥/ ٤٧].

فإذا سمعَ العاقلُ المصدّق بكتابِ اللّهِ تَعالىٰ هذه المواعظَ والزّواجر، فكيفَ تعمىٰ بصيرتُه، ويدخل في بابِ عظيمِ خطبُه؛ أم كيف تغلبُ عليه شهوتُه، بعدَ سُوء بليّته، ودخوله في عُهدته وحَسْرَتِه وندامتِهِ حتّىٰ يُبَدّل أحكام مولاه، ويتبع رأيه وهَواه. حببّنا الله في إقامةِ سُنَّتِه، وأماتنا علىٰ حُبّ دينهِ وملّته.

فصل

أيُّها المحبُّ بادِرْ في إحياءِ السُّنَّةِ عسَاك تصل إلىٰ جَنّه واعلمْ أنّه من خالفَ سُنّته يُخَاف علىٰ نفسِه أن يُحْرَم شَفاعته.

وقد ورد في بعضِ الأحاديثِ عن النبي ـ ﷺ ـ أنّه[2]: إذا كانَ يومُ القيامةِ، يُبصِر ﷺ جماعةً من أمته يُسارُ بهم إلىٰ النّار؛ فيقول: يا ربّ أُمّتي، فيقول: ما تدري ما أَحْدَثُوا بعدَك، فيقول: سُحْقاً سُحْقاً.

---

(١) يأتي الظنّ بمعنىٰ اليقين، كما هو هنا؛ ويأتي بمعنىٰ الشّك.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢: ٣٠٠، وينظر تفسير القرطبي ٤: ١٦٨ قال: والأحاديث في هذا المعنى كثيرة ينظر مثلاً فتح الباري ١٣: ٤ والبيهقي ٤: ٧٨.

وقد كان بعض الصّالحين يقولُ: لَعن الله الشيعة، ومُغَيِّري الشّريعة[1]؛ فإنَّ من غَيَّرها فهو مطرودٌ من حوض رسول الله ﷺ، وقد قال[2]: «الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما أمورٌ متشابهات[3] لا يعلمهن كثيرٌ من الناس؛ من اتّقى الشُّبهات فقد استبرأ لدينِهِ وعِرضه، ومن وقعَ في الحرام، كالرّاتع حول الحِمىٰ، يُوشك أنْ يقعَ فيه، ألا وإنّ لكلّ مَلِكٍ حمىً، ألا وإنّ حِمىٰ الله محارِمُه، ألا وإنّ في الجَسد مُضغةً إذا صلحت صلح الجسد كُلّه، وإذا فَسدت فسدَ الجسدُ كُلّه، ألا وهي القَلب».

فهذا الحديث الكريم عليه تُبنىٰ السنة كلّها، والأحكامُ بأسرها، وهو أصلٌ من أُصول شريعة مولانا محمّد ﷺ؛ فَمنْ جعَله نُصْبَ عَينيه وقَف عنده، وصدّق به، واستحضره في جميع أحواله قَلّ أن يحكم بين أحدٍ من المُسلمين، أو يدخل في عُهدة بينَ العالمين؛ وإن حكم قلّت مخالفته لهذا النبيّ الشّريف، ويكثر وقوفُه ومراقَبَتُه للخبير اللّطيف، فلا يأخذ مالاً مِن جانٍ، ولا يُثَقِّفُ[4] مظلوماً بغير حق، ولا [٦١/أ]

---

(١) لم أعرف مِن أين نقل المصنّف ـ رحمه الله ـ هٰذه العبارة، وهي غريبةٌ عن منهجه فإنّه في الكتاب يُحْسِن اختيارَ منقولاتِه، ويعتدِل في عباراته. ولا شكّ في أنّ تغيير الشّريعة، إن وقع، ضلالٌ مُبِين وكفر صريح.

(٢) صحيح مسلم (كتاب المساقاة ١٠٨) ومسند أحمد ١ : ١٢٦ وتهذيب ابن عساكر ٣ : ٢٧٣.

(٣) في النسخ المخطُوطة: متشابهات. واللفظ في الحديث: مشتبهة أو مشتبهات.

(٤) ثَقّف العودَ: قوّمَه، وأقام مُعْوَجَّه، وآلة التقويم تسمّى الثّقاف.

ـ ووجّه ابن فارس أحد وجوه ثقف على معنى أمسك، في قول الشاعر:

فإمّا تثقفوني فاقتلوني وإن أثقف فسوف ترون بالي!

وكأن المؤلف ـ رحمه الله ـ يريد من الحاكم والقاضي ألاّ يظلموا أحداً بغير حقّ وضرب مثلاً من احتجاز الرجل أو حبسه.

يتعجّل في ضربٍ ولا قتلٍ، ولا يُفتي ولا يحكمُ بغير عِلم؛ بل يكون كأنَّهُ حاضرٌ بين يَدي الله، ويَدي نَبيِّ الله ﷺ، وهو يسمعُ منه هٰذا الحديث.

فَراقبِ الله تعالىٰ حقَّ المُراقبة، وكنْ مُستحضراً لقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة ٥٨/٧] وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ [الأعراف ٧/٦ ـ ٨].

فَعِلْمُه تَعالىٰ محيطٌ بجميعِ الكائناتِ صغيرِها وكبيرِها، حقيرِها وعظيمِها، سرِّها وجَهرِها؛ فلا تخفىٰ عليه خافيةٌ، (وقلوبُ العارفين به واجفةٌ وبصائرُها خاشعة).

فمن اعتقدَ أَنَّ الله تعالىٰ عالِمٌ بِفعله، قلَّ أن يعصِيَهُ ويخالفَ أَمْرَه وحُكمه، ولكنّ الغَفْلَة اسْتَوْلَت علىٰ القُلوب، وزيّنت لنا معايِبَ الذُّنوب، ولم نُراقبِ اطلاعَ علاّمِ الغُيوب.

وإلاّ فهو شاهِدُنا وحاضِرُنا وناظِرُنا[1] والعالِمُ بجميع أحوالنا، والمحاسبُ لنا يوم القيامة، يوم الحَسرة والنّدامة، والمُجازِي لنا علىٰ أعمالنا؛ رزَقنا الله العافيةَ والسّلامة، وسَلك بنا طريقَ الاستقامة.

كان أبو بكر الصِّدّيق رضي الله عنه ذاتَ يوم بين يديه رجلان يتحاكمان، فَمرّ علَيه عمرُ بنُ الخَطّاب فسلّم عليه فلم يشعُرْ به. ولم يردّ عليه السّلامَ، فقعد ـ رضي الله عنه ـ في ناحيةٍ يبكي، فمرَّ عليه عبد الرّحمن بن عَوف، فقال له: ما يُبكيك؟ فقال عُمَر: مررتُ بخليفةِ

(١) عبارة (وناظرنا) من ب وحدها.

رسول الله ﷺ ـ فسلّمتُ عليه فلم يردّ عليّ السّلام، وخِفْتُ أن يكونَ منه عليّ مَوْجِدَة؛ فمضىٰ عبدُ الرّحمن فأخبره؛ فقال أبو بكر: لعلّهُ مَرّ عليّ وبين يَدي خصمان، وإنّي قد علمتُ أنّ الله مُطّلعٌ عَليّ وسائلي عمّا يقولان لي وسائلي عن الّذي أَقُول لهما، ففرّغْتُ ذهني لهما، وفهمي إليهما؛ فلمّا مرّ علي لم أَشعُرْ به، ولا سمعتُ كلامه، ولا أحسستُ خطابَه، ولا سلامَه[1].

فَتأمّلْ يا أَخي طريقَةَ شِعار الصّالحين، وأحكام المُراقبين، وسُنّة المؤمنين، ووازِنْ بينَ أَعمالِنا [٦١/ب] وأَحكامنا، مع أَعمالهم وأَحكامهم، وخوفنا معَ خَوفِهم، وخُشوعنا مع خُشوعهم، وإيماننا مع إيمانهم، وأحوالَنا مع أحوالِهم، واتّباعنا مع اتّباعهم؛ فلا تجد منا إلاّ التّسَتُّر باللّسان مع أنّه لا يخفىٰ شيءٌ علىٰ المَلك الديّان.

لكن يجبُ علىٰ المؤمن أن يجاهدَ نفسه في ذاتِ الله، وفي نَصْرِ شريعته، وإحياءِ سُنّة نبيّه ما أمكنه بلسانه ـ إنْ كان من أهل اللّسان ـ وبيده، إن كان ممّن مُكّن له في الأرض وفي بلاد الله؛ ويبيّن ذٰلكَ لخلق الله أحسنَ بيان، فإنّ النفوس قد أَلِفَتْ أُموراً من الجَهالات والضّلالات، والبِدَع المُحَرّمات وربّما اعتقدت في ذٰلك أنّها من الحسَنات.

ويتأكّد هٰذا الأمر علىٰ من بقيتْ فيه هذه الأزمان لمحةٌ من العلم، أن يبينَ المحرّمات، ويحذّرَ منها، ويطلبَ النّصرةَ عليها ممّن مُكّن له في الأرض، وإبقاءه العافية بين المسلمين، ويطلب منه النصرة لدين سيّد المُرسلين.

---

(١) وانظر أخباراً أُخرى في باب ذكر ورعه رضي الله عنه في الرياض النضرة في مناقب العشرة ١: ٢٣٩ وذكر ما يتضمّن تعظيم عمر أبا بكر. رضي الله عنهما ١: ٢٥٢.

وقد أخذ الله الميثاقَ على العُلَماء[1]، وأكّد في حَقّهم الميثاقَ ببيانِ ما عَلّمهم، وتحقيقِ ما حدَّ لهم وحَذّرهم أن يتَلبّسوا بالدُّنيا، فإنّها تُبعدهم عن الله تَعالىٰ، وعن تَعليم عبادِ الله؛ لأنّها قاطعةٌ عن أحوال الآخرة، وطريقُها مانعةٌ عن سماعِ الكلام من النّاصح، إذا كان متلبّساً بها.

قال جلّ جلالُه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران ٣/ ١٨٧ ـ ١٨٨].

غَفر الله ذنوبَنا، وستَر عُيوبَنا، وصَلّىٰ الله على سيّدنا ومَولانا محمّد النبيّ الكريم، وعَلىٰ آلِهِ وصحبِهِ، وسَلّم تسليماً.

---

(١) قال القرطبي: في تفسير الآية الكريمة ﴿وإذا أخذ اللّهُ مِيثاقَ...﴾ هذا متصل بذكر اليهود فإنهم أُمِرُوا بالإيمان بمحمّد عليه السلام وبيانِ أمره فكتموا نَعْته. فالآية توبيخ لهم. ثم ـ مع ذلك ـ هو خبر عامٌ لهم ولغيرهم. قال الحسن وقتادة: هي في كل مَنْ أوتي علم شيءٍ من الكتاب، فمن علم شيئاً فليعلّمه، وإياكم وكتمان العلم فإنه هَلكة. الجامع لأحكام القرآن ٤: ٣٠٤ ـ.

باب

في معنى اسمه

رَسُول الرَّاحة[1]

صَلَّىٰ اللَّهُ عليَه وسَلَّم وشَرَّف وكَرَّم

هذا الاسمُ الكريم ـ وهو رسولُ الرّاحة ـ وردَ في بعض الكُتب، وذكره صاحبُ الشّفا[2] ـ رحمه الله ـ ولم يبيّن معناه في حقّه ـ ﷺ ـ.

وتحتمل الرّاحةُ المذكورة المضافةُ إلىٰ رسول الله ﷺ معنيَيْن؛ الأول منهما: أن [٦٢/أ] تكون الراحة اسماً لِكَفِّهِ عليه الصّلاة والسّلام، كنى بذلك عن كرمه، وجوده، فكأنّك قلت: رسول الكرم، رسول الجود، رسول العطايا، رسول المزايا.

فإن العَرب تكني عن اليَدِ بالنّعمة[3]، فيقولون: فلان له عليّ يدٌ؛ أي نِعمة.

وهو أبلغ من قولك: له عليّ نعمةٌ؛ علىٰ ما قرّرته أربابُ البلاغة.

---

(١) ورد تفسير هٰذا الاسم الكريم في: الرّياض الأنيقة: ١٦٩، وسُبُل الهدىٰ والرّشاد ١: ٦٥٤. والمواهب اللدنيّة ١: ١٨٣.

(٢) الشفا ١: ٤٤٩.

(٣) كذا في الأصول المخطوطة؛ يريد تكني عن النعمة باليد.

فعلىٰ هذا تكونُ الرَّاحَةُ كنايةً عن كثرة عطاياه ـ ﷺ ـ لأنّ العطايا أكثر ما تكون بيده الكريمة، من نِعَمِهِ العظيمة.

والمعنىٰ الثاني: أن تكون الرَّاحَةُ: المراد بها ضدّ التّعب. تقول: فلانٌ في راحة؛ أي: لا تعب عليه، ولا مَشقّة لديه، ولا حرج يصل إليه.

فكأنّك إذا قلت: رَسول الراحة؛ أي: الرسولُ الذي بعثه الله تعالىٰ إلىٰ الخلق لِيُرِيحَهم من المشاقّ في هٰذه الدار في يوم التّلاق، ويدفعَ عنهم المضارّ، ويجلبَ إليهم المنافع الدنيويّة والأُخروية؛ بعثَه الله بالحنيفيّة السّمحاء، قال تعالىٰ:

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج ٢٢/٧٨].

فأمّا أنه نبيُّ الراحة بالمعنىٰ الأول أي: رسول الكرم والجود، فهو المتّصفُ بالجودِ والكَرم، ومعدِنُه وأساسُه النبيُّ المُحترم، وقد فاقَ بذٰلك جميعَ الأُمم.

وكان في هذه الصِّفة الكريمة، بل في جميع صفاته صفاتِ الكمال البشريّة في أعلاها، ساكناً في ذروةٍ: أسماها وأَسناها.

فكانت سيرةُ نبيّنا ـ ﷺ ـ وخُلُقه في المالِ عجيبة، وتصرّفاته وسُلوكه مع الخَلق فريد وغريبة، وعطَاياه في الأَموالِ، وفي سائر الأَوقات وحيدة؛ أعطاه الله تعالىٰ خزائنَ الأرض، ومفاتيحَ البلاد، وأَحلّ له الغنائم ولم يُحلها لنبيٍّ قبلَه، وفتحَ الله عليه في حياته بلادَ الحِجاز واليَمن، وجميعَ جزيرةِ العرب، وما دنَا من الشّام والعراق، وجُلِبَ إليه من أخماسها وجزيتها وصدقاتها ما لا يُجلب لأكابر الملوك إلاّ بعضُه.

وقد كانت ملوكُ الأقاليم تُهاديه عليه الصَّلاة والسّلام، فلا يستأثر بشيءٍ عن الفُقراء. ولا يُمسك من ذلك درهماً بل يصرفه مصارفه، ويُغني به غيره، ويقوّي به [٦٢/ب] المسلمين، ويجعَلُه زاداً للطّاعة في حَقّ المُؤمنين، وينهىٰ عن ادّخار الأموال وجَمْعِها، ويأمرُ بتفريقها ويقول(١): «ما يَسُرُّني أن يكونَ لي أُحدٌ ذَهباً، يبيت عندي منه دينار، إلاّ ديناراً أَرصُده لِديني».

وكان ﷺ لا يدّخر شيئاً من المال؛ لأنّ المالَ يعلمُ أنّه مالُ الله تعالىٰ، أمَره أن يصرفَه في عياله، فإذا فتح عليه مولاه بشيءٍ عجَّل بصرفه وبذله، لوثوقِهِ بربّه، وقوة توكّله عليه، وزُهده.

وفتح الله عليه مرّةً بدنانير(٢)، فقسَمها، وبقي منها ستّة دفعها لبعضِ نسائه، فلم يأخذه - ﷺ - نومٌ حتّىٰ قام فقَسمها، وقال: الآن استرحت.

وتوفّي - ﷺ - ودرعُه مرهونة عندَ يهوديّ، إشارةً منهُ عليه السّلام إلىٰ حَقارة الدُّنيا، وذمِّها، والفِرَارِ منها، وعدم الرُّكونِ إليها، وأنّها لا قَدْرَ لها عند خالِقها، إذْ لو كانت تزِنُ عندَ الله جناحَ بعوضة لما سقىٰ الكافرَ منها شربةَ ماء.

وكان - ﷺ - يقتصرُ في نفقته وملبسه ومسكنه علىٰ ما تدعو

---

(١) في الحديث، بعثت بالحنيفية السمحاء، والحنيفية السمحة. (ينظر الفقيه والمتفقه للحافظ البغدادي ٢: ٢٠٤؛ ومسند أحمد ٥: ٢٦٦ وتفسير القرطبي ١٩: ٣٩ وإتحاف السّادة المتقين ٩: ١٨٤).

(٢) ورد الحديث كثيراً بألفاظ متقاربة. ينظر مثلاً فتح الباري ١١: ٢٦٥ وسلسلة الأحاديث الصحيحة ٣: ٢٦ والسنن الكبرى للبيهقي ٤: ٧ وسنن الدارمي ٢: ٣١٥ وينظر الفتح الكبير ٣: ١٢٧.

الضَّرورة إليه، ويزهدُ فيما سواه؛ فكان يلبس ما وجد في غالب أمره من الكساء والشَّملة والبُرد الغليظ، ويُقسِّم ما يكون وما يزيدُ عليه علىٰ من حضره من محاسنِ الثيابِ وأقبية الدّيباج المُمَوَّهةِ بالذَّهب؛ ويُعطي أحسنَ الثّياب، ولا يردُّ سائلاً في طلبه، وينزع الثّوب من عليه إذا طلَبه ولا يردُّ سائلاً قطّ، فكان أكرمَ الناس، وأجودَ الناس، وأرحمَ النّاس بالناس.

رَوىٰ التّرمذي[1] عن عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «محمّد ﷺ ـ خاتمِ النَّبِيِّين أجودُ الناس كفّاً وأجودُهم وأشرفهم قَدْراً، وأصدَقُهم لهجةً، وأليَنُهم عريكةً، وأكرمُهم عشيرةً، مَن رآه بديهةً هابَهُ، ومن خالطه معرفة أحبَّهُ؛ يقول ناعتُه: لم أرَ قبله ولا بعده مثله».

ولقد صدق ـ رضي الله عنه، وتواترت الأنقال[2] القطعيّة بصفاتِه الكريمة، وخِلقته العظيمة، ولقد أجادَ بعضُ الأندلسيّين في الثناء عليه بقوله[3]:

يا مصطفىٰ مِنْ قبلِ نَشأةِ آدمٍ ... والكونُ لم تُفْتَحْ له أغْلاقُ

أيرومُ مخلوقٌ ثناءً بَعْدَ ما ... أثنىٰ عليكَ إلٓهنا الخلاّقُ؟

فكَرمُه وجُوده [٦٣/أ] وفضلُه وتَوْسِعَتُه علىٰ خَلْق الله، وشَفقته عليهم لا يحصره عدٌّ، ولا يُحيط به حَدّ، ولا يقاس به فَيْضٌ ولا مدد ـ ﷺ ـ وفيه يقال:

---

(١) روت أمّ سلمة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وهو ساهم الوَجه، قالت: فحسبت أنّ ذلكَ مِن وَجَع، فقلتُ: يا نبيَّ الله، مالكَ ساهم الوجْهِ؟ قال: «مِن أجل الدّنانير السبعة التي أتتنا أمسِ، أمسَيْنا وهي معنا في خصم الفراش»؛ مسند أحمد ٦: ٢٩٣؛ سنن الترمذي ٥: ٢٦٠ من حديث طويل.

(٢) من بحر الكامل.

(٣) كذا؛ وهو يُريد التقولُ.

النَّاسُ تحتكَ أقدامٌ وأنتَ لَهُمْ رأسٌ فكيفَ يُساوىٰ الرأسُ والقَدمُ؟[1]

إحسانُه إلىٰ الخلق أجمعين بيده ولسانه، وبجميع ما أمكنه شفقةً عليهم، ورحمةً لهم، مَنْ أتىٰ إليه أمَّنه الله، ومَنْ طلبه أعطاه الله، ومَنْ استنصر به نصره الله، ومَن كان ذليلاً واستعزَّ به أعزَّه الله، ومَنْ كانَ مكسورَ القلبِ وقصدَ بابه جبَره الله، ومَنْ كان فقيراً واستغنىٰ به أغناهُ الله، ومنْ كانَ مبتلىً واستغاث به أغاثه الله، ومن كانَ ضعيفاً ولاذَ بجنابه قَوّاه الله؛ قل ولا حَرَج عليك في أمداحه العظيمة، وتوسَّلْ إلىٰ الله تعالىٰ في قضاء الحاجات بخلقه الكريمة ﷺ وشرّف وكرّم[2]:

هو البحرُ مِن أيِّ النَّواحي أتيتَهُ فَلُجَّتُه المعروفُ والجودُ ساحِلُهْ[3]

فلو لم يكنْ في كفّه غيرُ نفسِهِ لجادَ بها، فَلْيَتَّقِ اللَّهَ سائِلُهْ

وأما المعنىٰ الثاني من هذا الاسم العظيم ـ علىٰ أنَّ الرّاحة ضد التعب ـ فكأنّك قُلت: الرّسولُ الّذي بَعثه الله إلىٰ الخلائق من غير تَعب عليهم ولا مشقّة تنالُهم؛ فإنّهم أرادَ الله بِهم اليُسرَ ولم يُرد بهم العُسْر إكراماً لنبيّه، وبياناً لِقَدْرِهِ؛ فكيف لا تُوصفُ رسالتُه بالرّاحة؟.

وقد كان ـ ﷺ ـ يُيَسّرُ الأَمر علىٰ أُمّتِه، ولا يشدّد عليهم رأفةً بهم، ورحمةً عليهم، وهو رحمةُ الله للعالمين؛ والرّحمة قد جمعت المنَافع الدُّنيوية والأُخرويّة؛ أي لا تعب في رسالته عليكم، بل يَهديكم إلىٰ الطّريق المُوصلة إلىٰ الجَنّة مع سُهولة التكاليف، وكثرةِ الأنوار والتّعاريف.

---

(١) من بحر البسيط.

(٢) البيتان لأبي تمّام، من قصيدةٍ يمدح بها المُعتصم الخليفة، في ديوانه ٣: ٢٩.

(٣) من بحر الطويل.

فَمنْ علم أنه موصوفٌ بأنّه رسولُ الرّاحة فينبغي له أن ييسّر الأَمر علىٰ أُمّته، ولا يشدّد عليهم، ويكون رحيماً بهم، فقد قال ﷺ[1] «يَسِّرُوا ولا تُعَسِّروا»، وقد دَعا علىٰ من شَقَّ علىٰ أمّته بقوله عليه الصَّلاة والسَّلام[2]: «فاشْقُقِ اللّهمَّ عليه».

فصل

فاتَّبعوا رحمكم الله حَبيبي وحبيبَكم، وشَفِيعي وشفيعكم، وتمسّكُوا بإحسانه إليكم، وتشبَّهوا بكرمه لديكم؛ وتأمّلوا طريقة أهلِ الفَلاحِ [٦٣/ب] الّذين اقْتَدوا به، وعَلِمُوا صفته ولازَمُوا طريقته، وهُمْ أصحابُه الأَنجُم الزّاهرة، والأَعلامُ الشامخة الظّاهرة؛ كيف كان مالُهم مالَ الله، وسيرتُهم سيرة رسولِ الله، أكفُّهم خازنةٌ للفقراءِ المال، وقلوبُهم متعلّقة ناظرة إلى ذي الجلال.

هذا أَبو بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ خرج عن ماله كلِّه لِقُوّة يقينه، وتصديقه.

وعُمَر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ سيرته [مع الفقراء] معروفةٌ، وطريقَتُه في زُهده مشهورة.

وكذا عُثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ كم أدخلَ مِنَ السُّرور، وأنفق في السرّ والإعلان.

وكذا عليّ بنُ أبي طالب كم كانَ غيثاً للمَواهب، وكلُّهم ـ رضي الله عنهم ـ متناسِبُونَ في الشّرف والكرم. مُلتمسون البركة من سيّد الأُمم صلى الله عليه وسلم وشرّف وكرّم.

---

(١) مسند الإمام أحمد ١: ٢٣٩ والدر المنثور ١: ١٩٢ وتفسير القرطبي ٢: ٣٠١.

(٢) من حديث طويل في صحيح مسلم: ١٤٥٨، يقول فيه: «اللّهمّ! مَنْ وَلِيَ مِن أَمْرِ أُمّتي شيئاً فَشَقَّ عليهم، فَاشْقُقْ عليه...».

بعث عمر بن الخطاب بمال، نحو المئة دينار، إلىٰ أبي عُبَيدة بن الجَرّاح رضي الله عنهما، وقال للرّسول: إذا أعطيتَهُ المال فقفْ عنده قليلاً حتىٰ ترىٰ ما يصنعُ فيه.

فلمّا دفع له ذلك لم يلبث أن فرّقه كلّه علىٰ الضعفاء والمساكين؛ صاحب خمسة، صاحب سبعة، بحسب ما رآه من المصلحة في ذلك.

فرجعَ الرّسُول، فوجَد عُمَر ـ رضي الله عنه ـ قد أعدَّ مثلَ ذٰلك لمعاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ وأمر الرّسول أن يمكثَ عنده قليلاً حتّىٰ يرىٰ ما يفعل فيه.

ففعل مُعاذ ـ رضي الله عنه ـ كما فَعل أبو عبيدة وفَرّقها علىٰ الفقراء كلها.

وفي رواية حتىٰ بقي منه دينار أو ديناران، فنادت زوجتُه وقالت: نحن ـ والله ـ مَساكين، وما عندنا شيء، فدفع لها الّذي بقي، ورجع الرسول إلىٰ عمر فأخبره الخبر؛ فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: إنّهم إخوةٌ بعضُهم من بعض.

وطلحةُ بن عبيد الله رضي الله عنه سُمّي بالفَيّاض[2] لكثرة عطائه، وجودِه وكرمِه، وفَضائلُه كثيرةٌ، وأخبارُه مشهورة.

---

(١) يُنظر ذكر اختصاص أبي بكر رضي الله عنه بمواساة النبي ﷺ بنفسه وماله (الرياض النضرة ١: ١٥٥).

ـ وتنظر أخبار عمر، وعثمان وعليّ رضي الله عنهم في الكتاب المشار إليه ففيه تفصيل وغَناء.

(٢) سبقت الإشارة إلى الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله ومن ألقابه: طلحة الفياض، وطلحة الخير، وطلحة الجود. وكل ذلك لقبه به رسول الله ﷺ في مناسبات مختلفة ودعاه مرة: الصبيح الفصيح المليح. (انظر ترجمته في الأعلام).

فكلُّهم ـ رضي الله عنهم ـ كانت الدُّنيا في أكفّهم لا في قلوبهم.

وأَخْبَرنا العالِمُ الخبيرُ، المطَّلع علىٰ ما في الضَّمير، بأنَّ التّجارة لا تُلهيهم عن ذكر الله في قوله تعالىٰ: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النّور ٢٤/٣٧] فزكّاهم مولاهم بهذه التّزكية العظيمة الشّأن، الرفيعة المكان، فكانوا يُؤثرون علىٰ أنفسهم الفقراء [٦٤/أ] والضّعفاء ولو كانت بهم الخَصاصة والمَجاعة، ويُطعمون الطّعامَ علىٰ حُبّه. فيأتون إلىٰ دارهم بالفُقَراء ليطعموهم؛ يريدون بذلك السَّمْع والطاعة، ويُريدون وجهَ الله تعالىٰ موافقةً ومحبّةً لِمَا أَحَبَّهُ الله، فيبذلون الدّنيا عند وجودها، وييأَسونَ منها ثقةً بالله عند فقدها[1]، ويتصرّفون في الأَموال تصرُّف الخازنِ الأمينِ؛ فيصرفونه علىٰ الفقراء والمساكين، ويُسَوُّون بين الحقير والوجيه، مُمتثلين لنصّ قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٥٧/٧].

كم من أكبادٍ جائعةٍ أَشْبَعُوها، وكم من ضعيفٍ مُستضعف أَتوا إليه بأموالهم فابتذَلُوها، كان عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ رآه طلحة يخرج في جوف اللّيل يدخل إلىٰ دار ويخرج منها. قال طلحة: ولم أعلم ما كان يصنع. فأتىٰ طلحة ـ رضي الله عنه ـ إلىٰ الدار فَدخَلها فوجد فيها عجوزاً عمياء مُقعدة، فسألها عن الرجل الذي يأتي إليها مَنْ هو؟ فقالت: إن رجلاً يأتي إليّ كل ليلةٍ بالطّعام، وبما نحتاجُه، ويصرف عنّي ما يُؤذيني[2].

فانظُرْ حاله ـ رضي الله عنه ـ وكذٰلك حالَ كلّ مراقب لله سبحانه، فَيُحْسِنُ إلىٰ الخَلق بما أَحْسَنَ الله إليه، ويطلبُ من مولاه جلّ جلاله

---

(١) يريد أنهم يسقطون الدنيا من حسابهم ثقة بالله تعالى.

(٢) أي ينظّفُ بيتَها ممّا يكون فيه من قَذَرٍ صغير وكبير.

الإقبالَ عليه. فإنّ الرحمة والخير في جَبْرِ القُلوب، وتمام النُّعمة في ستر العيوب.

قال أبو حامد[1] ـ رضي الله عنه ـ: عادةُ الصّالحين رضي الله عنهم لا يُخلون بيوتَهُم من الصَّدقة والإحسان بما أمكنهم من كِسرةٍ أو لُقمةٍ أو ما تيسّر وإن قلّ؛ فإنّ عائشة أُمّ المؤمنينَ ـ رضي الله عنها[2] ـ أعطت للسّائل حبّةَ عِنَبٍ فَعُوتبت، فقالت: إنَّ فيها مثاقيلَ مِنَ الذَّرّ؛ قالَ[3]: سيّما إنْ صامَ يَوماً وزارَ مريضاً، وشهد جنازةً، وتصدّق بما أمكنه فإن الله تعالىٰ يغفر ذنبه، ويُدخله الجنة، كذا ورَد في بعض الآثار[4] ومشهور الأخبار[5].

وذكَر بعضُ الصّالحين أنّ إدخال السُّرور علىٰ المُؤمن مدةً بعد مُدّة يُرجىٰ بذلك إجابته فيما أراد، والإحسان إليه، وحُصول الثّواب من عند

---

(١) هو أبو حامد الغزالي.

(٢) والخبر في الموطأ: ٩٩٧.

ـ وروى المطلب بن حنطبَ أن أعرابياً سمع النبي ﷺ يقرؤها فقال: يا رسول الله أمثقال ذرة؟ قال: نعم! فقال الأعرابيّ: واسوأتاه: مراراً، ثم قام وهو يقولها. فقال النبي ﷺ: لقد دخل قلب الأعرابيّ الإيمان.

(وينظر تفسير القرطبي ٢٠: ١٥١ ـ ١٥٣).

(٣) في أ، و: ب: قال من صام يوماً الخ. وتضطرب بذلك العبارة والمثبت من ج.

(٤) ورد في مقاصد هذه العبارة وألفاظٍ متعلّقةٍ بها عددٌ من الأحاديث؛ مثل: من صام يوماً في سبيل الله باعد الله منه جهنم مسيرة مئة عام (السنن الكبرى للبيهقي ٤: ٢٩٦ ومجمع الزوائد ٣: ١٦٠). و: مَن زار مريضاً أو عاد أخاً في الله ناداه مناد أن طبت وطاب ممشاك (كنز العمال ٢٥١٣٤)، و: من شهد جنازة حتى يصلى عليها فله قيراطان ٤: ٧٧ و: مَنْ تصدّق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة (مسند أحمد ٥: ٣٩١ ومجمع الزّوائد ٢: ٣٢٤)

(٥) عبارة: ومشهور الأخبار من: أ.

الله عزّ وجل؛ حتّىٰ كان الشّيخ وليّ الله سيدي أبو عبد الله المقري ـ رحمه الله، ونفعنا به ـ أتىٰ إليه رجلٌ ذاتَ يوم [٦٤/ب] وقد تَزايد له مولود[١]، والرّجل من فُقراء المُسلمين، فقصد باب الله سبحانه ثمّ باب أوليائه، فردّه الفقير[٢] الموكّل بالزاوية، فإذا بالشيخ ـ رضي الله عنه ـ كان نائماً، فقال للفقير: انظُر مَن بالباب فأدخله؛ فدخل الرجل فأخبره أنّه تزايدَ له مولودٌ؛ فقال له: وأي شيء تحتاج؟ فقال له: يا سيدي درهماً واحداً نحتاجه ويقوم بي؛ فقال له الشّيخ: اجلسْ حتىٰ يأتِيَك درهم. فبينما هو كذلك وإذا برجل من المُعتقدين في الشّيخ قد أتىٰ إليه وقال له: يا سيدي! إنّي كنت نائماً فقُمت وأنا فزعٌ من أجلك، فقال له الشّيخ: إن نِيَّةَ هذا الشّيخ جاءت بك! أَعْطِهِ دِرهماً! ففرح الفقيرُ وخرج به، فإذا بالشيخ ناداه وأعطاه ديناراً ذهباً ثم انصرف به، فناداه نداءً آخر، وأعطاه ديناراً آخر ذهباً، وما زال الشّيخ ـ رحمه الله ـ يفعل ذٰلك معه خمسَ مرّات حتّىٰ أعطاه خمسة دنانير، قاصداً بذلك إدخالَ السُّرور عليه مِراراً، وهو يزداد فرحه في كلّ مرة، ويدعو الله له لجبر قلبه.

قال الشيخ للفقير: اذهبْ معه وأَعطه قنطاراً من السّميد من حانوت فُلان؛ ثم قال له بعد ذلك؛ أعطِه قنطاراً بيَاضاً[٣] من عند الفَحّام الفُلانيّ، ثم قال له: أَعْطِه كبْشاً من كباش السُّلطان التي يسمّنها له.

فتأمّلوا ـ رحمكم الله! ، هٰذه الحكاية كم فيها من إدخال السُّرور علىٰ هذا الفقير، وما فيها من إذهاب الكرب وإزالته عن هٰذا المُعسر

---

(١) تزايد: وُلد؛ من الازدياد. ويكثر استعمال هذه العبارة في الأندلس والمغرب.

(٢) يريد بالفقير: المريد من الصُّوفيّة.

(٣) البَياض: المفهوم أنّه (الفَحم)؛ وكأنهم سموه كذلك من باب تسمية الشيء بضدّه.

الفقير، وما دخل قلبه من الفرح عند مجيء كلّ بشير، وما يرجوه هٰذا الشيخ - نفعَ الله به - من الثواب عند جابرِ العَظم الكسير.

فاعتَقِدُوا - رحمكم الله! - هٰذه الطّائفة السّنِيّة واتّبِعوا آثارها، واستَمِعُوا لِحُسن طريقتهم، والتمسوا أخبارها، فإنّ الخير كلّه في اتّباع طريق عبادِ الله، وفي جبرِ قلوبِ الغُرباء من أُمّة محمّد - ﷺ - والتمسّك بأحوالِ الخَواصّ الكرماءِ علىٰ الله.

وتشبّهوا بهم، فإنّ التّشبُّهَ بأهل الفَلاح فلاحٌ[1]، والوقوفَ ببابهم لِمَنْ وقفَ بهِ في الدُّنيا والآخرة نَجاح [٦٥/أ]، وإن كُنّا بمعزلٍ عن هٰذه الفضائل، مجبولين علىٰ الجُبنِ والبخلِ وسوءِ الرّذائل، لكن التشبُّهَ بطريقِ أهلِ الفلاح منّا مطلوب، والحبّ فيهم - وإن لم نكن منهم - فإنه في حقّنا مرغوب.

أنشد الشيخ الفقيه المتخلّق بهم ابنُ برطله[2] عند موته ونزعه، حين سأله والد الشيخ الفقيه أبي العبّاس بن فَرْحُون عن حاله فقال:

بأَربَعةٍ أرجُو الخلاصَ وإنّها ... لمنْ خيرِ مَذخُورٍ إليّ وأعظمُ
شهادةُ إخلاص، وحُبّي محمداً ... وحُسن ظنوني، ثم أَنّي مُسلمُ

---

(١) يُشير إلى قول القائل:
وتشبَّهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبّه بالكرام فلاحُ

(٢) في ب وحدها: «ابن بركات».
- وهو أبو محمد عبد الله بن موسى بن بُرْطُله، سمع من صهره الشهيد أبي علي الصدفي؛ وحج سنة ٥١٠؛ وسمع من الطرطوشي، والأنماطي، والسّلفي، وبلده مدينة قرشية. وقيل في وصفه: كان حسن السّمت، خاشعاً، مُخبتاً خيّراً متواضعاً. (النفح ٢: ٦٥١).

ومن محاسِن ما قِيْلَ في كَرمِهِ ﷺ وشرَّف وكرَّم ومَجَّد وعظّم[1]:

فَـوْجـهُ مـحـمّـد شـمـسٌ … ومـالُ مـحـمّـد عـرسُ

وكـفـاه تَـجُـودانِ … بِـمَـا لا تـأمـلُ الـنّـفـسُ[2]

فَـمـا فـي جُـودِه مَـنٌّ … ومَـا فـي بَـذْلـهِ خَـبْـسُ[3]

ويَـشـهـدُ لـي عـلـىٰ مـا قُـلـ … ـتُ فـيـه الـجِـنُّ والإنـسُ

ولولا الطُّول والخُروج عن المقصد لأشرنا إلىٰ جملة من فضائل الكرم والجود، وكيفَ يعود علىٰ فاعِله بالخير في الدّنيا والآخرة من المَلِك المعبُود.

وفيما أَشَرنا إليه في هٰذا الاسم كفايةٌ وغنيمةٌ، وسنذكرُ بعضاً ممّا بقي مع ما يُنَاسبُه من أَسمائه ﷺ وشرّف وكرّم ومجدّ وعَظّم.

---

(١) من مجزوء الوافر.

(٢) البيت من النسخة ب فقط.

(٣) تفعيلات البيت الثاني والثالث معصوبة، سكن فيها الخامس المتحرك وصارت مُفَاعَلَتُن إلى مفاعلْتن = مفاعيلن. وكذا ضرب البيت الرابع.

باب

في معنىٰ اسمه

نِعْمَةُ اللهِ(١)

صلّى اللّه عليه وسلّم وشرّف وكرّم

نعمة الله: اسم من أسمائه عليه أفضلُ الصّلاة والسّلام، ورد به القُرآن، وفُسّر به التّبيان؛ قال الله جلّ جلاله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم ١٤/٣٤] قال سهل رضي الله عنه(٢): هي نعمة سيّدنا محمّد - ﷺ - وفي قوله عزّ وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم ١٤/٢٨] ، اختلف العلماءُ في معنى قوله: ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ فقيل: بَدّلوا شُكر نعمةِ الله كفراً، أي: جعلوا عِوَضَ شكرِ نعمة الله عليهم في جميع أحوالهم أنْ كفَروا ولم يَشكروا، فإنّ الخلائق في جميع أحوالها لا تنفكُّ عن نعمةِ الله تعالى: النّعمة العامة، والنّعمة الخاصة. وليس في الوجود نعمةٌ حاصلةٌ لكلّ موجود - سوىٰ الله وصفاته - [٦٥/ب] إلاّ والله تعالىٰ خالقُ تلك النعمة سواءٌ دَقّت أَوْ جَلّت؛ قال تعالىٰ وهو أصدقُ القائلين: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل ١٦/٥٣] ؛ أي ما حلّت بكم نعمة من جميع

---

(١) ورد تفسير هذا الاسم الكريم في:
الرياض الأنيقة: ٢٦٤، وسبل الهدىٰ والرّشاد ١: ٦٥٦. وذكره القاضي عياض في الشفا ١: ٤٥٤. والمواهب اللدنية ١: ١٩٤.

(٢) هو سهل التّستري. وللمؤلف رجوعٌ إليه، وقد سبقت الإشارة إليه.

النعم: جسمانيّة أو رُوحانية، فخالقُها والمتفضّلُ بها هو المولىٰ جلّ جلالهُ وكَثُرَ نَوالُه؛ فالمُراد بالنعمة في الآية الأولىٰ: واحدة النعم الجنسيّة.

وقيل المُراد بالنّعمة في قوله تعالى: ﴿بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾ أنّ النعمة هنا شخصيّة، وهي اسمٌ ولقبٌ علىٰ سيّد الأوّلين والآخرين وقائد الغُرّ المحجّلين[1]؛ أي بدّلوا شكر نعمة بعثة محمّد - ﷺ - كُفراً، وإن كان الواجب عليهم أن يعلَمُوا أنّ هٰذه البعثة لهذا النبيّ الشريف هي أكبر النعم عليهم، وأتمّها لديهم، وأنّ مولانا أنعم بإيجاده في عالم الدُّنيا، فهي نعمةٌ عظيمةٌ مَنّ بها سُبحانه علىٰ أهل السّمٰواتِ والأَرضين، فإنّه بَعث إليهم البَشير النذير، رسول ربّ العالمين، فجَعله نذيراً لهم بين يَديّ عَذابٍ شديد؛ نافياً عنهم ما يمنَعُهم من الإيمان بالله، معلّماً لهم ما يطردون به الشّيطان المَريد، ناصحاً لأمّته نُصحاً أقوى من نصحهم لأنفسهم، مقرّباً لهم من مولاهم القويّ المجيد؛ فيقابلون نعمةَ مولانا جلّ جلاله بهذا النبيّ المُرتضىٰ - ﷺ - بشكرهم لها، ويسارعون إلىٰ الإيمان، ويُبادرونُ إلىٰ الامتثال والإذعان، ويبذُلون جَهدهم وجُهدهم وعزمهم في طلب رضىٰ الرّحمن؛ ويبتَغُونَ من المُنعم علىٰ الخليقةِ ابتداءً أن يمنّ عليهم بالمَزيد، فإنّه - جلّ جلاله - قد قالَ في كتابه العزيز: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم ١٤/٧] .

ويتأمّلُون في أحوال الدُّنيا وتقلُّبها بأَهلها وتحوّلها وزوالها، وأنه لا فاعلَ في الحقيقة إلاّ المُنعم المُوجِد لها، ولا إلٰه في العُقول إلاّ مُعطي

(١) انظر الرّياض الأنيقة: ٢٦٤، وسبل الهدىٰ والرشاد ١: ٦٥٦.
وقد أفردَ المصنّف - رحمه الله - باباً لاسمه الشريف: قائد الغُرّ المحجّلين، ورقَمُه: ٣٧.

النّعم وباذلها.

ويتأكّد التفكر والاعتبار لأحوالِ هٰذه الدار، وفي أصل ذاتهِ ونشأتِه، وتحوّل أحواله بِقُدرة الإلٰه الفاعل المختار؛ ولو لم يكن إلاّ تغيّر الشّباب، ومُفارقة الأحباب، والرّجوع إلىٰ أصل الضّعف والتّراب، وحُلول بياضِ الشّيب [٦٦/أ] بعد سوادِه ولا سيّما قبلَ المتاب، مع اعتقادِ استمرارِ النّعمة، والغفلةِ عن يوم العَرض والحِسَاب.

فاشكُر الله تعالىٰ يا مَنْ مَنّ الله عليهِ بنعمةِ الإسلام، وزيّن في قلبه حُبّ نعمةِ محمّد عليه أفضلُ الصّلاة والسّلام. ولله درُّ القائل في وصفهِ حالَ نفسِه، وغفلته عن النّعم العامة المحيطة به من ربّه[١]:

ما كنتُ أحْسَبُ أنّ الدهر يسلُبني ... شرخَ الشّباب، ولا أنْ يُبْدِلَ الشَّعَرا[٢]
أما ترىٰ الشيبَ قد خطّتْ أناملُه ... في مفرقيْ خطوطاً تُشبه الزّهرا[٣]
ولاحَ فوقَ سوادِ الشّعر أبيضُه ... كفالِقِ الصُّبحِ بعد الليل إذ سَفَرا
يا أيها المُتَمادي في غِوايتهِ ... ماذا أراكَ بُعَيْدَ الشيب مُنتظرا
قَدِّمْ لنفسكَ ما تلقاهُ في غَدِها ... من التّقىٰ قبلَ أن تستكمِلَ العُمُرا
واشكُرْ إلٰهكَ في سرٍّ وفي عَلنٍ ... واذكُرْ نبيّكَ هٰذا خيرَ مَنْ ذُكِرَا
النّاصرُ الحقَّ لمّا قلّ ناصِرُه ... والمُظهرُ العدلَ في الدُّنيا وما ظَهرا
محمّدٌ خير مَنْ سار المَطِيُّ بهِ ... وخير مَنْ بَشّر المولىٰ به البَشرا
ما زال صلّى عليه الله مُجتهداً ... يمحُو الضّلالَ ويتلُو الوَحْيَ والسُّوَرا

صلّى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

---

(١) من بحر البسيط.

(٢) الشّرخُ من الشّباب (ومن كل أمرٍ): أوّله ونضارته وقوّته.

(٣) مثل قول الشاعر يعتذر عن الشيب المبكر: =

فصل

مِن آداب مَنْ علم أنّ نبيّنا ـ ﷺ ـ سمّاه الله تعالىٰ نعمةً الله فليلاحظ هٰذه النّعمة العظيمة والمِنّة الجَسِيمة، ويستحضر عنده ذكرَ محمّدٍ ـ ﷺ ـ نعمةِ الله تعالى عليه، ويقابل تلك النّعمة والإحسان بشكر مولانا، جلَّ جلالُه، وكثُرَ نوالُه، ويشكر نبيّنا محمداً ـ ﷺ ـ الذي بعثه إلينا، وقد أحسن إلينا، ويُثنى عليه بما يليقُ به من جَميعِ صفاتِه.

وليذكر المحاسن التي جَبله الله عليها في ذاته كما قال في وصفه صاحبُ البردة(١):

دَعْ ما ادّعته النّصارىٰ في نبيّهمُ واحكُمْ بما شئتَ مَدحاً فيه واحتكمِ

وانسبْ إلىٰ ذاتهِ ما شئتَ مِنْ شرفٍ وانسبْ إلىٰ قَدْرِه ما شئتَ من عظمِ

فإنّ فضلَ رسولِ الله ليسَ لهُ حَدٌّ فيعرب عنه ناطقٌ بِفَمِ

ويتأكّد في قلبِ كلّ محبٍّ له ـ ﷺ ـ أن يكونَ هٰذا شأنه من ذِكره [٦٦/ب] والثّناء عليه، بإحسانه إليه، وإنعامه لديه.

وقد قال عليه الصّلاة والسّلام(٢): «لا يَشكرُ الله مَن لا يَشْكُرُ الناس»، فأمَرَكَ بشكر النّاس عُموماً لإحسانهم إليك؛ وما أنعمَ عليك أحدٌ من الخلق، ولا أحسنَ إليك بمثل ما أنعم وأحسن سيّدُ الأوّلين والآخِرين، وقائدُ الغُرّ المحجّلين.

فقابلْ هٰذه النّعمة الكريمة بكثرة الصّلاة علىٰ صاحب المُعْجِزَات،

=قد يشيبُ الفتى وليس عجيباً أن يُرى النَّوْرُ في القضيبِ الرّطيب

(١) ديوان البوصيري: ٢٤١.

(٢) مسند الإمام أحمد ٢: ٢٥٨، ٢٩٥، والسنن الكبرى للبيهقي ٦: ١٨٢ ومجمع الزوائد ٨: ١٨٠.

وسلِّمْ عليه في سائر الأوقات، واشكرِ الله تعالىٰ أنْ جعَلك من العامِلين المقرِّين بنبوءته ورسالته لتكونَ من الفائزين يومَ الميقات يوم تقول رؤوس الخَلائق: نفسي! نفسي! ونبيُّنا، وحبيبُنا يقول[1]: أُمّتي أُمّتي؛ راحماً أهلَ الذّنوب منا، والزّلات، خائفاً علىٰ أُمّته راغباً من مولاه في إقالة العَثرات.

فأين أعمالنا لولا مِنّةُ الله علينا بنعمته العظيمة، وهي بعثه خير البريات، فكان لنا نعمةً في الدُّنيا ونعمةً في الآخرة، حيثُ تنعقد معاقد الأَزمات، وتشتدّ علىٰ الخَلائق الكُرُبات، وتعظُم الحَسَرات، وتُسْكَبُ العَبرات؛ ولا ينفع أحدٌ أحداً من الأَخِلاّء والآباءِ والأَبناءِ والأُمّهات:

يَدُلُّ علىٰ الرّحمنِ مَنْ يَهتدِي بهِ ... ويُنقِذُ مِن هَوْلِ الخَزايا ويُرْشِدُ[2]

إمامٌ لهمْ يهديهمُ الحقَّ جاهداً ... مُعَلِّمُ صِدْقٍ إن يطيعوهُ يَسْعَدُوا

عَفُوٌّ عنِ الزّلاّتِ يقبلُ عُذرهم ... وإنْ يُحسِنوا فاللّهُ بالخيرِ أجودُ

وإن جاءَ أمرٌ لا يطيقونَ حَمْلَهُ ... فَمِنْ عندِهِ تنفيسُ ما يتشدّدُ

يرغّبهمْ في رحمةِ الله وُسْعَهُمْ ... دليلٌ به وجهَ الطريقةِ يقصِدُ

عزيزٌ عليه أنْ يَصُدُّوا عن الهُدىٰ ... حريصٌ علىٰ أن يَستقيمُوا ويَهْتَدُوا

عليه صلاةٌ لا انقطاعَ لِوَصْلِها ... وأزكىٰ سلامٌ لا يَزال يُجَدَّدُ

أيها المحبّونَ الشّائقون إلىٰ رسول الله ﷺ اشكروا مولانا جلَّ جلالهُ أنْ مَنّ علينا بأنْ جَعلنا مِن أُمّة نبيّه الكريم عليه، وأنعمَ علينا ببعثةِ

---

(١) يشير إلى حديث الشفاعة المشهور؛ صحيح البخاري ٩: ١٤٩ وصحيح مسلم ١٨٠؛ وينظر الشفا ١: ٢٩٤.

(٢) من بحر الطويل.

رسولهِ العزيزِ القَدْر لديه، وادَّخر لنا ـ إن شاءَ الله ـ من الكرامةِ والفضائِل العامّة ما تنشرحُ به الصُّدور، ونرتجي به من كَرَم مولانا وخالقنا ما تُيسَّرُ به الأُمور، ورضي الله عن صاحب البُردة[1]: [٦٧/أ]

بُشرى لنا معشرَ الإسلام إنّ لنا ... مِن العنايةِ رُكناً غيرَ مُنهدمِ
لمّا دعا الله داعِينا لطاعتهِ ... بأكرمِ الرُّسلِ كنّا أكرمَ الأُممِ

فمن نِعَمِ الله ـ سبحانه ـ علىٰ هٰذه الأُمّة أن سمّىٰ نبينا نعمةَ الله.

رُوِيَ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال، قال رسول الله ﷺ[2]: إذا كانَ يومُ القيامة ينادي منادٍ من قِبَلِ الله تعالى: أين فُلان بن فلان هَلُمَّ علىٰ العرض إلىٰ الملك الدّيان، ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧/٤٠].

قال النّبيّ ـ ﷺ ـ: فإذا سمع العبدُ المطلوبُ ذلك الصوتَ اصطكّت رُكْبتاه، وشخَص بصَرُه؛ فإذا نظرت الملائكةُ إلىٰ ما نَزل به عَلِمُوا أنّه المطلوب، فتقبض عليه، ويقولون له: يا عبدَ الله أنت طِلْبَةُ الرّبّ، ثم تقطع به الحُجُبُ في أقلّ من طرفةِ عين حتّى يأتي إلىٰ حجاب الوحدانيّة، فيُسَلِّم إلىٰ الملك الموكل بالحجاب فيقول: يا عبدَ الله من أيّ أُمّة أنت؟ فيقول له: من أُمّة محمّد ﷺ. فيُزَجُّ به في النور زجّاً[3]، ثم يقولون له، يا عبدَ الله سَلَّمك الله، قال فيغرق العبد في الأنوار، فيبقىٰ لا يدري إلىٰ أين يمضي المَلَكُ به، ثم ينادي به ربُّ العزّة جلّ جلاله علىٰ ما يليقُ به وبذاته، فإنّه ليس كمثلهِ شيءٌ وهو السّميع

---

(١) ديوان البوصيري: ٢٤٦.

(٢) إتحاف السادة المتّقين ١٠: ٤٨٣ ولسان الميزان ١: ٨٥٦ وميزان الاعتدال: ١٢٤ والعلل المتناهية ١: ٢٦٢ والدر المنثور ٦: ١١ وكنز العمال ١٦٠٨٥.

(٣) يقال: زجّ بالشيء من يده: رمىٰ به.

البصير؛ فيسمع كلامَ ربِّنا القديم الأزلي لا بصوتٍ، ولا بحرفٍ، ولا من جهة، ولا مكان، وهو يقول: عبدي! اذنُ مِن حضرتي، فأنا الله الذي لا إلٰه إلاّ أنا.

قال: فيدنو العبد من حضرة المولى جلّ جلاله ما شاء الله أن يدنوَ إكراماً لعبده؛ ثم ينادي: أيْ عبدي! اذنُ مِن حَضرتي. فأنا الله الّذي لا إلٰه إلاّ أنا. فيدنُو العَبد ما شاء الله أن يدنُوَ، ثم ينادي نداءً ثالثاً فيدنو العبدُ وهو يرتعدُ كالورقة في يوم ريح عاصفٍ، هيبةً وإجلالاً من الكبير المُتَعال المُنَزَّه عن الشَّبيهِ والمِثال، فينظر المولىٰ جلّ جلالُه إلىٰ عبده، ويرىٰ ما قد نزل به فيرحَمُه ويقول له، هَدِّىء نفسَك يا عبدي وطمئنْ جوارِحَك؛ فإذا هدأتْ نفسُه، أمر المولىٰ تعالىٰ أنْ يخرجَ إليه كتابٌ من عُنق العبد لقولِ الله عَزّ وجل [٦٧/ب] ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء ١٧/ ١٣، ١٤].

فإذا قرأ كتابه أظهر العبدُ حسَناتِه، وأخفىٰ سيئاته، فيقول له المولىٰ جلّ جلاله: لِمَ تُخفي سيِّئاتك كأنّكَ لم تَفعلها، فيقول له: يا رب قد فعلتُها، ولكنّي ما خرجتُ من الدنيا إلاّ تائباً إليك مُتّكلاً علىٰ رحمتك وأنت التّوابُ الرّحيم؛ فيقول الله عزّ وجلّ: صَدَق عَبْدِي أنا التّوابُ الرّحيمُ، وعِزّتي وجلالي لأغفِرَنّ ذُنوبكَ ولو كانت مثلَ الجِبَالِ الرّواسي إكراماً منّي لحبيبي محمّد ـ ﷺ ـ فيغفر الله تعالىٰ له ذنوبه إكراماً وإجلالاً وتعظيماً لمن أنعم الله به علىٰ الخلائق أجمعين، من أهل السّموات والأرضين، وسمّاه: نعمةَ الله، فكان نعمةً للعالمين.

فبالِغُوا ـ رَحِمَكُم الله ـ وابذلُوا جُهْدَكم في كثرةِ الصّلاة علىٰ نعمة الله، وصفوةِ الله، وذكرِ الله؛ فإنّه رُوِيَ عن النّبيّ ـ ﷺ ـ أنّه قال(١): مِن

نعم الله علىٰ خَلقِه إذا صلّىٰ العبد عليَّ مرّةً نادىٰ منادٍ صلّىٰ الله عليك بها عشراً، فيسمعه أهل السماء الأولىٰ فيقولون: صلّى الله عليك بها مائة، فيسمع أهل السّماء الثانية فيقولون: صلّىٰ عليك بها مئتي مرة، فيسمع أهل السماء الثالثة فيقولون: صلّىٰ الله عليك بها ألف مرة، فيسمع ذلك أهل السماء الرابعة فيقولون: صلى الله عليك بها ألفين فيسمع ذلك أهل السماء الخامسة فيقولون: صلّىٰ الله عليك بها أربعة آلاف، فيسمعُ أهلُ السّماء السّادسة فيقولون: صلّىٰ الله عليك بها ستّة آلاف، فيسمعُ أهلُ السّماء السّابعةِ فيقولون: صلّىٰ الله عليك بها ستّة آلاف، فيقول الربُّ جلَّ جلالهُ: دعوا ثوابَ هذا العبد عليّ؛ لمّا عظّم نبيّي وحبيبي وصلىٰ عليه بطيب نفس ومحبة من قلبه، علىٰ أنْ أغفر له كلَّ ذنب أذنبه.

فأيُّ نعمةٍ أفضلُ من هذه النّعمة، أم أيُّ كرامةٍ توازي هٰذه الكرامة، فيا لَها من نعمةٍ علىٰ هٰذه الأُمّة، بفضل هذا النبيّ الكريمِ علىٰ الله ـ ﷺ وشرف وكرّم ما دام ملكُ الله.

---

(١) روى الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «من صلّى عليّ واحدة صلّى الله عليه عشراً». مُسند أحمد ٢: ١٦٨ و٣٧٢ و٣٧٥.

باب

في معنىٰ اسمه

ذِكْرُ اللّٰه(1)

صلى اللّٰه عليه وسلّم وشرّف وكرّم

ذِكْرُ اللّٰه: اسمٌ من أسمائه عليه أفضل الصّلاة والسّلام [٦٨/أ]، قد ورد في القُرآن الكريم علىٰ قول بعض العلماء؛ قال مولانا جلّ جلاله ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد ٢٨/١٣] فقيل تطمئنّ القلوبُ من العباد إذا ذكروا مولاهم، لأنّهم يذكرون ثوابَهُ وعطاءَهُ، وإحسانَهُ إليهم، ونعمته عليهم، وهدايتَه لهم، والإنعام بالجنّة عليهم لمؤمنيهم؛ فمن ذكره مولاه، وغلب عليه الرَّجاء في عَطاياه، اطمأنّ قلبه، وهدأ روعه، لأنّ الكريمَ لا يسلب النّعمةَ بعد أنْ أنعمَ بها، والجواد لا يُزيل ما مَنّ به وأعطاه للعبيد المُفتقرين إليها.

وكذا يحصل لذاكرِ الله تعالىٰ الوجلُ والخَوف إذا استحضر الذاكرُ قهرَ المولىٰ وسطوتَه وجلالَه، وأنّه يفعل في الخلق ما يشاء بها، وأنّ

(١) ورد تفسير هٰذا الاسم الكريم في الرياض الأنيقة: ١٥٨ بلفظ، (الذّكر) وفي سُبل الهدىٰ والرّشاد ١: ٥٦٧ بلفظ (الذكر)، وذكره في ١: ٥٦٨ بلفظ (ذكر الله) ولم يعلّق عليه.

السابقة سبقت لقوله(1): «هٰؤلاء للجنّة ولا أُبالي وهؤلاء للنّارِ ولا أُبالي»؛ والذاكرُ لا تعلمُ نفسُه أيّ المقامين أُرِيدَ بها، ولذا كان الحسنُ البصري ـ رضي الله عنه ـ كثيرَ البكاء والحُزن، يبكي بكاءً كثيراً، ويحزن حزناً طويلاً، حتّىٰ خِيف عليه الموت، وقيل له: ما يُبكيك؟ فقال: إني سمعت أنّ الله عزّ وجلّ قال: هٰؤلاء إلىٰ الجنة ولا أُبالي وهٰؤلاء إلىٰ النّار ولا أُبالي، فأخافُ أن يكون الحسَن في النّار ولا يبالي. ويستحضر خَلْقَه لجهنّم، وما أعد فيها ـ جلّت قدرته ـ لمن شاء به العذاب فيتقوّى روعهُ ويزدادَ فزعه وعليه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال ٨/٢] أي إذا ذَكروا مولاهم رقّت نفوسُهم، وتلاشت في أعينهم أعمالُهم واستعظموا أمرَهم، واستقلّوا طاعتَهم وشُكرَهم فازداد خوفُهم ووَجَلُهم.

وتحتمل الآيتان من الكلام غيرَ هٰذا، ممّا لا يسعه هذا التّقييد.

وقيل: معنىٰ قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ١٣/٢٨] ألا بذكر الله للعبدِ، والذاكرُ هو الله، فإذا ذكرَ الله عز وجلّ العبدَ اطمأنّ قلبُه، لأنّ ذكرَ المولىٰ لِعَبدِه يدلّ علىٰ رضاه عنه وقال رضي الله عنه، وأفاد في هذه الآية أنّ ذكر الله في هٰذه الآية هو محمّد ـ ﷺ ـ أي: ألا بمحمّد عليه الصّلاة والسّلام تطمئنُّ القلوب؛ يعني رحمة الله أن الله ـ سُبحانه ـ جعل محمداً ﷺ لقلوبِ عباده عموماً طمأنينةً لأنهم يُرحمون بهِ في دُنياهم وأُخراهم [٦٨/ب].

---

(١) في مسند الإمام أحمد ٥: ٦٨ أنّ رسول الله ﷺ قال: إنّ الله تباركَ وتعالىٰ قَبض قبضةً بيمينه فَقال: هٰذه لهذه ولا أُبالي، وقبض قبضةً أُخرىٰ ـ يعني بيده الأُخرىٰ ـ فقال: هذه لهٰذه ولا أبالي».
ـ وانظر: إتحاف السادة المتقين ٩: ٢٠٧ و١٠: ٥٢١ والدرّ المنثور ١: ٢٩.

وسمّاه الله تعالىٰ ذِكْر اللّه ، لأنَّ مَنْ رأىٰ سيدنا ومولانا محمداً ـ ﷺ ـ أو سمع باسمه وأحواله وأخلاقه الحميدة ذكر الله تعالى وحَمِده عليه بما هو أهلُه، وآمن به، وصدّقه[1].

فكان وجودُه ـ ﷺ ـ سَبباً لذكرِ الله عَزّ وجَلّ، فَسمّاهُ الله تَعالىٰ ذكرَ الله؛ لأنّ ذاتَه توجِبُ ذكرَ الله؛ وصفاتِه تُوجِبُ توحيدَ الله، وأفعالَهُ تدلُّ علىٰ الله، وأقواله تأمرُ بذكرِ الله.

فكان عليه الصلاة والسلام ذِكرَ الله، في كل أَفعالِه وأَحوالِه وصفاتِه ونومِهِ ويقظتِهِ، لأنّ الله تَعالىٰ جعله أُسوةً حسنةً للمتّقين وطريقاً عَلَماً للمتذكّرين، فقال جلّ جلاله ـ فأَحْمَدُهُ وكَبِّرْهُ تكبيراً ـ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب ٣٣/ ٢١] .

فتأمّلُوا ـ رحمكم الله! وَمتّعنا الله وإيّاكم، وضاعفَ حُبّي وحبّكم ـ في قوله ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ فجعل سُبحانه وتعالىٰ الذكرَ الكثير لله عَزّ وجَلّ موقُوفاً علىٰ أَحوالِ المُصطفى عليه الصّلاة والسّلام والعلم بها والوُقوف علىٰ آثارها.

فَمن أرادَ الآخرةَ وسعىٰ لها سَعْيَها، لا يصلُ إليها إلاّ بالاقتداء بهذه الأُسوة العظيمة، والاتّباع لسنته الكريمة؛ وكذا لا يحصل الذكر الكثير إلاّ لمنْ كانَ قد حَصّل مُرادَه، ورأىٰ مصادِرَه وموارده، وهي أخلاقُه وصفاتُه وأفعالُه وأقوالُه، فكلّها مذكّرة لله تعالىٰ دالّة علىٰ الإقبالِ

(١) في تفسير القرطبي عند قوله تعالى: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ أي تسكُن وتستأنس بتوحيد الله فتطمئنّ.. وقيل: بالقرآن.. وقيل تطمئن بأمره.. وقيل بوعده. وقيل: بذكر فضله وإنعامه. وفسّرت القلوب بقلوب المؤمنين. (ينظر الجامع لأحكام القرآن ٧: ٣١٥).

عليه، والإعراضِ عن غيره، ناهيةٌ عن الغَفلة عن الرّحمن، آمرةٌ بطاعةِ المَلِكِ الدّيّان.

وقد أمر الله ـ سبحانه ـ بالدّوامِ علىٰ تذكير عباده، ومُلازمةِ ما كانَ عليه من جهاده في ذات رَبّه، فقال عزّ من قائل: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى ٨٧/ ٩] .

ويُحتمل أن يكون إنّما سمّاه الله تعالىٰ ذِكْر اللّه لكثرةِ ذكرهِ لمولاه في دُنياه وآخرته، وحَمده إيّاه في جميعِ أحواله في نومه ويَقظته، لأنّه أحمدُ الحامدين، وأفضلُ المحمودين.

فكان قلبه الكريم لا يغفلُ عن الله طرفة عين، بل ذاكراً لربّه العظيم، والأنوار تتراكمُ علىٰ قلبه المطهّر في كلّ وقتٍ وحينٍ وكيف لا يكونُ كذلك، وقد سمّاه مولاه المولىٰ الكريمُ: الصّادقَ الأمينَ؟.

فسمّاه الله تعالىٰ ذِكرَ اللّه لكثرة ذكرِ اللّه له ومُلازمته له في جميع الأحوال، وعصمته وطاعته لربه [٦٩/أ] في الأفعال والأقوال.

ويُحتَمَلُ وجهٌ آخر(١) في سرّ تسميته ـ ﷺ ـ بِذكرِ الله، أنّ الله تعالىٰ لمّا أعطاهُ من كمال الخصال، وشرفه في سائر الصفات والأفعال والأحوال، وحباه من الآيات والمعجزات ما دلنا علىٰ أنه حبيب إلٰهِنا الكبيرِ المُتَعال؛ فإذا سمع أحدٌ بصفةٍ من صفاتهِ، أو بآيةٍ(٢) من آياته، أو كرامةٍ من كراماته الّتى امتاز بها علىٰ سائر الخلق، ولم يكن له نظير في سماء الله تعالىٰ ولا أرضه، فإنّ السّامع يتعجّبُ من غرائبِ شمائله، ويسبّح الله تعالىٰ من بديع فَضائِله وفوائِده، فيقول: سُبحان الله ما أكرم

---

(١) في الأصول الخطّية: «ويحتمل وجهاً آخر». وقرأت على ما أثبت.

(٢) الآية: العلامة والدلالة على المكرمة.

هٰذا النبيّ علىٰ الله، سُبحان الله ما أفضل هذا النّبي عند الله، سُبحان الله ما أعزَّ هٰذا النبيَّ علىٰ المَولىٰ جلّ جلاله، سُبحان الله ما أعطىٰ الله لأحدٍ من خلقِه ما أعطاه الله.

وقد قيل في عليّ رضي الله عنه: إنّه ما رآه أحدٌ إلاّ ذكَر الله سُبحانه وتعالىٰ. قال بعضُ الصحابة رضي الله عنهم: لأنّ علياً ـ رضي الله عنه ـ لمّا كان مُشتغلاً مُشتهراً بالجُود، والشّجاعة والنّجدة، والزُّهد في الدنيا، والعلم بالله تعالىٰ وبأحكامِه، فكانَ لا يراهُ أحدٌ إلاّ ويقول: سُبحان الله ما أعلمه! سبحان الله ما أشجعه! سُبحان الله ما أزهده! فكلّ مَن رأىٰ علياً أو سمع بأحوالِهِ ومناقبِهِ يسبّح الله ويذكُره.

وإذا كان هٰذا في عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ الذي هو باب مدينة العلم، فكيف لا يكونُ هذا المعنىٰ في المدينة التي جعلَها الله سُبحانه جامعةً لجميع المكارمِ والعُلوم والأخلاقِ الزكيّة والأفعالِ الطّاهرةِ النّقيّة، والشّجاعةِ التامةِ المرضيّة، وكلّ الخِصال الجليلةِ والجميلة؟.

فإنّه ـ ﷺ ـ قد جمَعها واشتمل عليها[1]، فكان مدينةً جامعةً لجميع المَحاسن والعَجائب والأنوار، وروضةً نافعةً عندَ الله في الدُّنيا، وفي دار القرار.

فحقيقٌ أن يكونَ سيّدُنا ومولانا محمّد ـ ﷺ ـ إذا سمعَ أحدٌ بذكره وصفاتِه وأحوالِه وما اشتملتْ عليه هٰذه المدينة من كمالِ خلقِهِ، أنْ يذكرَ الله تَعالىٰ، ويسبّحه، ويحمده علىٰ انفراد هذا النبيّ [٦٩/ب] بالسؤدد في جميع مخلُوقاتِ الله، واتخاذه مولاه خليلاً، وأنّه حبيبُ الله ﷺ وشرّف

(١) أوْردَ المحبّ الطبري كلاماً طويلاً في مناقب عليّ رضي الله عنه (ينظر الجزء الثالث «الرياض النضرة» من طبعة مكتبة النجدي بالقاهرة).

وكرّم، مَنَّ الله علينا بدوام محبّتِهِ، ومتَّعَنَا في الحياة باتّباع سنّته، وبالوُرود على مكانِه وبُقعتهِ ورَوضتِه، وأماتنا على مِلّته، وحَشرنا في زُمرته.

قال بعضُ المحبيّن لمّا وصل إلى تلك البِقاع، ومَنّ عليه مولاه بالملاقاة والاجتماع:

ما أُبالي وقد وصلتُ إليهِ من عِيالٍ تركتُ، حِرصاً عليهِ[1]
منذُ قرّتْ بقبرِ أحمدَ عيني لا أرى قائلاً بوَيْح ووَيْهِ[2]
قد حَباني بحبّ أحمدَ ربّي فلهُ الحمْدُ إذْ وَصَلْتُ إليهِ
لا يتمُّ الإيمانُ للمرءِ حتّى يُؤثرَ المُصطفى على والدَيْهِ
وعلى مالَهُ مِنَ أهْلٍ ومالٍ وَعلى نفسِه وناظِرتَيْهِ
قد بلغتُ المنى ونلتُ الأمانِي منذُ يومِ مَثلتُ بَينَ يَدَيْهِ

فصل

من آدابِ مَنْ عَلِمَ أنّ نبيّنا ـ ﷺ ـ ذِكْرُ الله أنْ يكونَ متّبِعاً له في ذِكر الله تَعالى في جميع أوقاتِهِ، متخلّقاً بذِكره في جميعِ أحوالِه وساعاته.

فإنّ الذكرَ عَلَمٌ على الولاية ومشهورِها، وهو دأبُ الصّالحين الذاكرين في غدوّ الأيام وآصالِها وبُكورها.

وقد جَعل الله ـ سُبحانه ـ للذكر فضائلَ لم تُوجد في غيره من الطّاعات، وخصائص خصّه بها عن سائر القُربات.

---

(١) من بحر الخفيف.

(٢) يقال: ويحٌ لفلان، وويحَهُ، ووَيْحاً له: كلمة رحمة يُرْثَى فيها لمن وقع في بليّة يُدْعَىٰ له بالتخلّص. ووَيْه كلمة إغراء وحَثّ. أما وَيْ (بلا هاء) فهي للتعجّب.

منها: أنّه غيرُ مُقَدّر بوقتٍ ولا زَمان، بخلاف الصّلاة والصيام والصّدقة والحجّ، وسائر أعمال الأبدان.

ومنها: أنّ ذكرَ الله يَستعمله أهلُ الجنّةِ في الجَنّة ويتلذّذون به، وليست دارَ تكليف بل دارُ إنعام وفُتوح وتعريف. رُوِيَ عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال[1] كلّ عملٍ في الجنّة مقطوعٌ إلاّ الذّكر، فإنكم تُلْهَمُونه[2] كالنّفَسِ لا تعبَ عليكم فيه ولا نصَب.

فداومْ ـ أيُّها المحبُّ لهذا النبيّ الشّريف ـ علىٰ ذكرِ الله تعالىٰ، واقْتَدِ بمَنْ سمّاه مولاهُ ذِكرَ الله ـ ﷺ ـ لعلّك تصلُ إلىٰ الجَنّة ونَعِيمها، وتَذْكُرُ فيها مولاكَ وتتلذّذُ بذكرِه، وبما أَولاكَ من جزيل العطايا والمواهب وعظيمها [٧٠/أ]، وتجتمعُ فيها بمن سمّاه الله ـ سبحانه ـ ذكر الله وسيد أهلِ الجَنّة وكريمها.

وقد قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت ٢٩/٤٥] أي: ذكر الله في الصّلاةِ أفضلُ من الصّلاة.[3]

قال بعضُ العارفين: جعلَ الله الذّكرَ في الصّلاة مثل الرُّوح في

---

(١) في حديث رواه مسلم: ٢١٨١ أنّ رسول الله ﷺ ذكر أهلَ الجنّة فقال: «... يُلْهَمُونَ التّسبيحَ والتحميدَ، كما تُلْهَمونَ النّفَسَ».

(٢) في أ: تُلهمون إليه.

(٣) استعرض القرطبي وجوه التفسير ثم قال: وعندي أنّ المعنى: ولذكر الله أكبر على الإطلاق؛ أي هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر؛ فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك وكذلك يفعل في غير الصلاة؛ لأن الانتهاء لا يكون إلاّ من ذاكر لله مراقب له...» إلى أن قال والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرّغه إلاّ من الله، وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبة أخرى. (١٣ : ٣٤٩).

الجسَد، لا تقومُ الصّلاة إلاّ به، فالصّلاة مثالُ الرأس في الجسَد لأنّها أصلُ الأعمالِ، والذكر فيها مثلُ الرُّوح في الجسَد؛ فالصّلاةُ كما قال عليه الصلاة والسلام[1]: هي عمادُ الدّين؛ مَنْ تركَها فقد كفر.

قال بعضُهم: في الصّلاة أربعُ هيئات، وستّة أذكار، فهيئاتها: قيامٌ وقعودٌ وركوعٌ وسجود.

وأذكارُها: التّلاوة والتّسبيحُ والحَمد والاستِغفار والتّكبير والصّلاة على النّبيّ - ﷺ -.

فاشتملت الصّلاة على عَشر قُرُبات، وتُفرّق هذه القُربات على عشرة صُفوف من الملائكة، كل صفّ منها عشرةُ آلاف.

فإذا صلّى العبدُ ركعتين فقد أتى من الطّاعة لله تعالى بما فرّقه - سُبحانه - على متي ألف من ملائكة قُدسه، وحضرة أُنسه.

وذِكْرُ الله تَعالى ورَدت به أَحاديثُ نبويّة، وآياتٌ قرآنيّة. وقد ألّف العلماءُ في فضلِهِ تَواليف، وصَنّفُوا في ذلك تصانيف. وقد قال - ﷺ -: «سبَق المُفرِدُون»، قيل: وما المُفردون يا رسول الله، قال: «الذّاكرونَ الله كثيراً والذاكرات»[2].

---

(١) في حديث رواه الإمام أحمد في مسنده ٥: ٢٣١: «رأسُ الأمرِ وعمودُه الصَّلاة...» وبلفظ: الصلاة عماد الدين والإسلام: إتحاف السادة المتقين ٣: ٩ وكشف الخفا ٢: ٣٩. وبلفظ الصلاة عمود الدين في إتحاف ٨: ٢٩٣ و: الصلاة عماد الدين، وتخريج أحاديث الكشاف لابن حجر: ٤.

(٢) أورده مُسلم في الذكر والدعاء، وأحمد في مسنده ٣: ٣٢٣، والهيثمي في مجمع الزوائد ١٠: ٧٥.

قال الإمام الواحدي[1] - رحمه الله تعالىٰ - قال ابن عبّاس - رضي الله عنهما - أي يذكرون الله دبُر الصّلوات غُدوّاً وعَشِياً، وفي المضاجع، وكلّما استَيْقَظُوا من نَومهم، وكلّما غَدوا أو راحُوا من منازلهم.

وقال مجاهد - رضي الله عنه -: لا يكونُ العبدُ من الذّاكرينَ الله كثيراً والذّاكراتِ، حتّىٰ يذكر الله قائماً وقاعداً ومُضطجعاً.

قال عَطاء: مَنْ صَلّىٰ الصّلاةَ وأتىٰ بها بحقوقها فهو مِن الذّاكرين الله كثيراً والذاكرات.

وخرّج مُسلم من طريق مُعاوية - رضي الله عنه - قال[2]: خرَج رسول الله ﷺ - علىٰ حلقةٍ من أصحابه، فقال: ما أجلسكمْ هاهنا؟ قالوا: جَلسنا نذكرُ الله تعالىٰ ونحمده علىٰ ما هدانا للإسلام [٧٠/ب] ومَنّ به علينا.

قال: آلله ما أَجْلسكُم إلاّ ذٰلك؟ فَحلفوا له. فقال - ﷺ - أما إني لم أستَحْلِفكم تُهمةً لكم، ولكنّه أتاني جبريل - عليه السلام - فأخبرني أن الله تعالىٰ يُباهي بكم الملائكة.

فإذا صفا قلب العبد المؤمن تلألأ بذكر الله تعالىٰ، فكان بذكر مولاه خالياً عن سواه، فإذا فاضت عيناه أظله الله في ظل عرشه يوم قلوص الظلال، فيحمد مثواه.

---

(١) عليّ بن أحمد أبو الحسن الواحدي (ت ٤٦٨هـ) حلاّه الذهبي بـ إمام علماء التأويل له مؤلفات في الأدب والتفسير وعلوم القرآن؛ منها شرحه على ديوان المتنبي وأسباب النزول وهما مطبوعان. وله: البسيط والوسيط والوجيز وكلها في التفسير.

(٢) صحيح مسلم: ٢٠٧٥ ومسند أحمد ٤: ٩٢ ومجمع الزوائد ١: ٣٠٢ بلفظ: ما أجلسكم؛ وتفسير الطبري ٣٠: ١٨٥ بلفظ ما أجلسكم ها هنا. وفي مسند أحمد ٤: ٩٢ ما أجلسكم إلاّ ذلك.

ولا يكون الصوفي صوفياً ذاكراً لله حتىٰ يستوي عنده الذهب والمَدَر.

قال سهل بن عبد الله[1] ـ رحمه الله ـ: الصُوفيّ مَن صَفا من الكَدر، وامتلأ من الفِكَرِ، وانقطعَ إلىٰ الله من البَشر.

قال ذُو النُّون [2] ـ رضي الله عنه ـ: رأيتُ ببعضِ سواحل الشّام امرأةً، فقلتُ لها: من أينَ أقبلت؟ قالت[3]: من عند أقوام «تتجافىٰ جُنوبهم عن المضَاجع»؛ فقلت: وأين تُريدين؟ قالت: إلىٰ رجالٍ «لا تُلهيهم تِجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله». فقلت: صِفيهمْ لي! فأنشأت تقول:

قومٌ همومُهم بالله قد عَلِقت ... فمالهم هِمَمٌ تَسْمُو إلىٰ أحَدِ[4]
فَمطلبُ القَومِ مولاهم وسيّدهم ... يا حُسْنَ مَطْلَبِهمْ للواحدِ الصَّمدِ
ما إنْ تنازَعُهُمْ دُنيا ولا أَربٌ ... من المَطاعمِ واللّذاتِ والولدِ
ولا للبسِ ثيابٍ لان ملبَسُها ... ولا لروح سُرورٍ حلّ في البلدِ
إلاّ مسارعةً في إثر منزلةٍ ... قد قاربَ الخَطو منها باعد الأبَدِ
فَهُمْ رَهائنُ غُدرانٍ وأوديةٍ ... وفي الشّوامخ تلقاهُمْ مع العددِ[5]

فهٰذه حالةُ المحبيّن المُقتدين بسيّد المُرسلين في ذكره لمولاه،

---

(1) هو سهل التُستري. وقد مرّ.

(2) ذو النون المصري (ت ٢٤٥هـ) اسمه ثوبان بن إبراهيم الإخميمي، وكنيته أبو الفيّاض أو أبو الفيض، زاهد عابد مشهور، كانت له فصاحة وحكمة وشعر.

(3) في كلامها اقتباس قرآنيّ.

(4) من بحر البسيط.

(5) الغدران جمع الغدير، والأودية جمع الوادي، والشوامخ جمع الشّامخ أراد الجبل؛ فالشموخ صفة غالبة عليه.

واتّباعه لرضاه، فبالغ جلّ جلاله في تسمية نبيه ذكر الله تعالىٰ - ﷺ -.

خيـر الـبـريّـةِ طُـرّاً سُـؤدداً وتُـقًـى وأفضل الخَلْقِ في الأملاكِ والبشرِ[1]
حـازَ الـمـكـارمَ طُـرّاً قـبـلَ سُـؤددهِ وكـلّ صـالـحـةٍ تُـعـزىٰ لِـمُـفـتـخـر
فـالـعـلـم والـعـقـل والـتـقـوىٰ سـجـيّـتـهُ والعفوُ والصفح عن ذي الفِسْقِ والضرر[2]

(١) من بحر البسيط.

(٢) في: أ، و: ج: الغدر.

باب

في معنىٰ اسمه

العروة الوثقىٰ (١)

صلّى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم ومجّد وعظّم

العُروة الوُثقىٰ [١/٧١أ] اسمٌ مِن أسمائِه عَليه أفضلُ الصّلاة والسّلام، وردَ بذٰلك القُرآن في قول بعضِ العُلَماء المحبّين، والفُقَهاء المُتَصّوفين، قال جَلّ جلالُه: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة ٢/٢٥٦] .

اختلفَ العُلَماءُ ـ رضي الله عنهم ـ في تفسير العُروة الوُثقىٰ، فقيل: الإسلام؛ ومن تمسّك بالإسلام وماتَ عليه لا انفصامَ له، ولا انقطاعَ لغايته.

وقيل: شهادةُ أن لا إلٰه إلاّ الله، محمّد رَسُول الله.

وهٰذا القولُ قريبٌ من الأوّل.

وقيل(٢): العُروة الوثقىٰ هو اسمٌ لمحمّد ـ ﷺ ـ ومَن يُؤمن بالله

---

(١) ورد تفسير هذا الاسم الكريم في: الرياض الأنيقة: ٢١٣، وسبل الهدىٰ والرّشاد ١: ٦٠٥. وذكره القاضي عياض في الشفا ١: ٤٥٤.

(٢) هذا قول أبي عبد الرحمٰن السلميّ فيما نُقِل في الرّياض الأنيقة: ٢١٣، وسُبل الهدىٰ ١: ٦٠٥؛ وانظر حواشي الشّفا ١: ٤٥٤.

تعالىٰ إيماناً صادقاً[١]، فقد تعلّق بمحمد - ﷺ - واستجارَ به، فإنّه نبيّهُ وحبيبهُ وصفيُّهُ وخليلُه وخِيَرَتُهُ من خَلقه، وسرّ وجوده في بَرِيَّته[٢]، ومَن تمسّكَ بهٰذا النّبيّ الكريم علىٰ رَبّه فقد تعلّقَ بِعُرْوَةٍ وثيقةٍ صحيحةٍ شَديدةٍ قويّةٍ، شجرةٍ طيّبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السّماء، لا يخاف مَن تعلّق بها سُقوطاً، ولا قَطْعاً ولا انفِصَاماً[٣]، ولا ينال المتوثّق بها تغييرٌ وَلا رَوعٌ ولا انْهِضَام، بل الواثق بها قد اتّصل بسلسلةٍ توصله إلىٰ الجنّة العالية التي قطوفها دانية، والمستمسك بهذه العُروة الشديدة المتينة التي ذروة عزّها في غاية الرِّفعة الشّامخة، فقد فاز بالسّعادة وظفر بالمنىٰ والعيشة الرّضية.

ففي هذا الاسم الكريم في الآية غايةُ التّفخيم، وإظهار المنزلة والشّرف والتّعظيم لنبيّ الله تعالىٰ العزيز القدر علىٰ الله الكريم، في كونه استُعِير له: العُروة الوُثقىٰ.

ورُشّحت هٰذا الاستعارة[٤] بوصفها بأنّها لا انْفِصَام لها، وفي ذٰلك من البلاغة ووَجِيز المعاني والعبارة ما لا تخفىٰ علىٰ من له مُشاركة في البّيان.

ولو كان قصدنا خطاب ذوي الفطن وذكاء اللُّب، ودقّة الأذهان

---

(١) في ب: إيماناً وتصديقاً.

(٢) سبقت الإشارة في مقدّمة التّحقيق، وفي مواضع مختلفة إلى مبالغات محبّة المؤلف، أو عباراته الخاصّة.

(٣) في ب: لا يخاف مَنْ تعلّق بها سُقوطاً أو لا قطعاً ولا انفصاماً. وفي ج: «سقوطاً ولا قطع ولا انفصام» وفيه سهو من الناسخ.

(٤) قال ابن أبي الإصبع (تحرير التّحبير: ٩٩): أَجَلُّ الاستعارات: المرشحّة كقوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم﴾ فإن الاستعارة الأولى وهي لفظة الشراء رشحت الثانية وهي لفظتا الرّبح والتجارة للاستعارة.

لذكرنا لطائفَ ونُبَذاً من معانٍ تستحسنها العقول، وتُصغي إلىٰ سماعها الأذهان، فنفىٰ مولانا جلّ جلاله عن هذه العُروة العظيمة الانفصام، ونفيُ الانفِصَام عنها يَستلزم للمتمسّك بها نفي الانفصال أي: من تعلق بهذه العروة السليمة وتمسّك بها لا يُضَام، بل يبلغ بها عند الله تعالىٰ، وينال خير ما يطلب منه ويُرام، ورضي الله عن صاحب البردة[1] [٧١/ ب].

هو الحبيبُ الّذي تُرجىٰ شَفاعَتُه ... لكلّ هَوْلٍ من الأهوالِ مُقتحِمِ
دَعا إلىٰ الله فالمُستمسكونَ بهِ ... مُستمسكونَ بحبلٍ غيرِ مُنفصِمِ

أيّها المُستمسكون بالعُروة الوثقىٰ، الطّالِبُون من مولانا جلّ جَلالُه نعيمَهُ الّذي يبقىٰ. لوُذوا بِجَناب الله ـ سبحانه ـ الذي كرّمه بقوله: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه ٢٠/ ١ ـ ٢] .

بُشرىٰ لِمن اعتمد علىٰ الله، وتَمسّك بهذا الحبل المتين، وبالغ في التعلّق بسنّةِ هٰذا النبيّ القَوِيّ الأَمين، ومات علىٰ ذلك متوسّلاً إلىٰ مَولاه بالعُروة الوثقىٰ، مُعرضاً عما يفنىٰ طالباً لما يدوم ويَبقىٰ.

فبعدَ أنْ كانَ الدِّينُ مُنهدماً، ولم يرَ علىٰ وجهِ الأَرضِ مؤمنٌ ولا مُسلم، مَنَّ الله ـ سبحانه ـ علىٰ الخَلائقِ بنُورِ الحقّ، وظهور البُرهان وأطفأ بضياءِ العُروة الوثقىٰ جَمْرَةَ أهلِ الشّركِ ولهيب النّيران.

رأيتُكَ يا خَيْرَ البريّة كُلِّها ... نَشرْتَ كتاباً جاءَ بالحَقّ مُعلما[2]
تُبِين لنا فيه الهُدىٰ بعد جَوْرِنا ... عن الحقّ لمّا أصبحَ الحقُّ معدما
ونوّرت بالتّبيان أمراً مُلَبّساً ... وأَطفأت بالبُرهان ناراً تضرّما
أَقمتَ سبيلَ الحقّ بعد اعوجاجهِ ... وكانَ قديماً رُكْنُه قد تَهدّمَا

---

(١) ديوان البوصيري: ٢٤١.

(٢) من بحر الطويل.

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنَّ نبيّنا عليه الصّلاة والسلام سُمّي بالعُروة الوثقىٰ الّتي لا انفِصَامَ لها، ووصفها بذلك العالمُ الخَبِير المدبّرُ القَدِير، الواضِعُ لِصفاتِهِ في مَحلّها أن يكون في غاية التعلّق بهٰذا الحِصن الحَصِين، والتمسّك به حبل الله المَتِين، مستجيراً به في أُمور دينه ودنياه، مُستَنْصِراً بجاهِه عند ربِّهِ أن يبلغه مُناه، لائذاً بتحصّنه أن يردّ الله تعالىٰ الكيدَ في نَحْر عِداه، طالباً الفَرج من الله تعالىٰ بمن خصّه وحباه، وفضّله علىٰ مَنْ سِواه.

فإن نزّل بك همٌّ أو غمٌّ أو كرب أو ظلم أو مرض أو علة أو فاقة أو شدة أو غفلة عن مولاك، أو معصية أو بُعْدٌ من الطاعات، أو اتباعٌ للمخالفات أو ارتكابٌ للشّهوات، أو انهماكٌ في المُحرّمات[1] أو ما لا طاقة بك له من المكروهات، فبادرْ إن كنتَ محبّاً لسيد الأنام وتَوَثّقْ بجنابه [٧٢/أ] لعل المولىٰ جلّ جلاله يحفظك من جميع المكاره والآثام وتوسّل إلىٰ الله تعالىٰ بكرامته، وتضرّعْ إلىٰ مولاك وتشفّع إليه بنبيّه وخاصّته، فإنّك إذا أخلصتَ في تَوسُّلك ترىٰ العَجب العُجاب، ويهونُ عليك من الأمور أصعبُ الصّعاب[2]؛

ومن تكنْ برسولِ اللّهِ نُصْرَتُهُ إنْ تلقَهُ الأُسْدُ في آجامِها تَجِمِ[3]

ولن ترىٰ من وليٍّ غير منتصرٍ بهِ ولا من عَدُوٍّ غير منقصمِ

ومن التَّمَسُّكِ بالعُروة الوُثقىٰ - ﷺ حفظُ سنّته، واتّباعُ طريقته، ونَصْرُه في شَرِيعته، والاعتصامُ بِمَا أتىٰ بهِ عن رَبّه من كتابه، والوقوف عند أمره ونهيهِ وخطابه، قال جلّ جلاله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا

---

(١) في أ انهماك في الحرمات.

(٢) ديوان البوصيري: ٢٤٧.

(٣) وجَم: سكت على غيظ أو فزع: (أو اشتدّ حُزنه حتى أمسك عن الطعام والكلام).

﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٥٣] .

رُوِيَ عن بعضِ الصَّحابة - رضي الله عنهم - أنه قال: الصِّراط المستقيم سلسلةٌ بيدِ رسول الله ﷺ - طَرفُها في الجَنّة، فتلك السّلسلة هي سُنّتُه وطريقَتُه، فمنْ تمسّكَ بها، وجازَ عليها دخلَ الجَنّة، ومَن حادَ عَنها، وسَقط عَن جنابها دخل النار.

وقال أبو سعيد الخُدري - رضي الله عنه - خَطَبنا رسول الله ﷺ - فقال في خُطبته[1]: «لا خيرَ في العيشِ إلاّ لعالمٍ ناطق، أو مستمعٍ واعٍ أيُّها الناس إنكم في زمنٍ هُدنةٍ فكأنَّ السّير بكم سريع، وقد رأيتم الليلَ والنّهار [وكيفَ] يُبليان كلَّ جديد، ويُقَرِّبان كلَّ بَعيد، ويأتيان بكل موعود».

فقال له المُقداد: يا نَبِيَّ الله، وما الهُدنة؟ فقال: «دار بلاءٍ وانقطاع، فإذَا التَبَسَتْ عليكَ الأُمورُ فعليكمْ بالقُرآن فإنه شافعٌ مُشَفَّع، وشاهدٌ مُصَدَّق، فَمنْ جَعله أمامه قادَهُ إلىٰ الجَنّة، ومَن جَعله خَلْفَهُ ساقَه إلىٰ النّار؛ وهو أَوضحُ دليلٍ إلىٰ خير سَبيل، فمَنْ قال به صدَق، ومَن عمل به أُجِر، ومَن حَكم به عَدل»[2].

فكيف لا يُنصر من لاذَ بجناب المصطفى، أم كيف يُضام من تمسّك بأساسِ أهل الوفا، أم كيف[3] يُبعد عن رحمةِ الله من امتلأَ قلبُه بمحبّةِ حبيبهِ إمامِ أهلِ الوُدّ والصّفا؟ وشأنُ أولياءِ الله تعالىٰ المحبّين أن

---

(١) تفسير القرطبي ٧: ١٣٧ - ١٤٠.

(٢) الخُطبة في كنز العُمّال ٤٠٢٧، وفيه: أخرج العسكري عن عليّ رضي الله عنه. وبين النصّين فروقٌ وشيءٌ من خلاف؛ ولها ثمّة تتمّة، وهي هُناك أطول.
ونقلها الكاندهلوي في حياة الصحابة ٣: ٤١٧.

(٣) في ج: أو يعد. في أ، و: ب: أو كيف. واقترحتُ القراءة المثبتة.

يتوسّلوا في حالاتهم، وملازمة أعمالهم باتّباعهم لسيّد المُرسلين [٧٢/ب] ويتشفّعوا به إلىٰ ربِّ العالمين.

يُحكىٰ عن الشيخ ولي الله سيدي أبي محمّد المَزدوري[١] نفعنا الله به أنّه كان وِرده في آخر الليل من صلاة وذكر وابتهال وصلاة علىٰ نبي الله الكريم ذي الجلال، صاحب الفضائل، وكريم الخِصال - ﷺ - تشفُّعاً بجنابه، وذكراً له بأحسن[٢] خصالِه، فإذا جاء السَّحَر استغْفَر الله تعالىٰ، وتشفّع بأعزّ الخلق عليه ثم ينشد ويقول:

شَفِيعي إليكمْ طولُ شَوقي إليكمُ ... وكلُّ كريم للشفيع قَبولُ
وعُذري إليكم أنني في هَواكمُ ... أَسيرٌ ومأسُورُ الغرام ذَليلُ
فإنْ تَقْبَلُوا عُذري فأهلاً ومَرحباً ... وإنْ لم تُجيبوا فالذّليل حَمولُ
سَأصبرُ لا عنكمْ ولكنْ عليْكمُ ... لعلّي إلىٰ ذاك الجنابِ وُصولُ[٣]

وهل رأيت مَنْ لاذَ بجنابه، واستجَار بِحَرمِه أو لازمَ باب جُوده وكرمه قد خاب؟.

وهل شاهدتَ صادقاً في مَحبّته مُكثراً من الصّلاة عليه لهجاً بذكره في شدّتهِ قد ناداهُ من قلبه وما أَجاب؟.

يُروىٰ عن أبي الحسن الشّاذلي أنه قال: رأيت النبي ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله ما جازيتَ به الشّافعي حيث قال في رسالته[٤]: «وصلىٰ الله علىٰ محمد كلما ذكره الذّاكرون، وغفَل عن

---

(١) في الأُصول الخطية أبي محمد المزدوري. وقد ذكره المؤلّف أكثر من مرّة على أنه أبو عبد الله محمّد.

(٢) في ب: بأعزّ الخلق إليه.

(٣) من بحر الطويل.

(٤) في أ: في كتابه. وزاد بعدها في ب، و: ج: في رسالته. فكأنّ المؤلّف ذكر الرسالة في تصحيح نسخته حتى لا تلتبس بكتاب آخر.

ذِكره الغافلون».

فقال ﷺ: «جُوزي عنّي أنه لا يوقف غداً للحساب».

وقد عُلم ذٰلك مِن حال نبيّنا وشفيعنا ـ ﷺ ـ واشتهرَ أنّه من اسْتَجار به، ولاذَ بجنابه، فاز في الدّنيا والآخرة وظفر، والخبريّات[1] الشاهدة علىٰ ذلك لا تُحصىٰ، ولا يحيط بذكرها مُخبر، كان أبو قتَادة[2] ـ رضي الله عنه ـ فارسَ رسول الله ﷺ ـ اشترىٰ فرساً، وكان خارجَ المدينة ـ علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ فبينما هو ذات ليلة يعلفها نوىٰ التمر، فإذا به رآها قد مدّت أذنيها.

فقال لأمّه: يا أمّاه إن هذه الفَرس أحسّت بالخيلِ، وإنّا نخاف الغارة!.

قالت له أمه: يا بني إنا حيث كنّا في المُشركين كنّا لا نخافُ، فكيفَ بنا إذ مَنّ الله علينا بالإسلام، ونزلنا في جوار النبي ـ ﷺ ـ فكيفَ نَخاف أو نُضام؟

ورضي الله عن صاحب البردة حيث قال[3]: [٧٣/أ]

يـا أكـرمَ الـخَـلْـقِ مـالـي مـن أَلُـوذُ بـهِ ... سِـواكَ عـنـد حُـلـولِ الـحـادثِ الـعَـمِـمِ

ولـن يـضـيـقَ ـ رسـولَ الله ـ جـاهُـك بـي ... إذا الـكـريـمُ تـجـلّـىٰ بـاسـمِ مـنـتـقـمِ

---

(١) الخبريات جمع الخبريّة (كأنه مصدر صناعي) ولم أجده ـ في غير الدّارج ـ في نصّ قبل هذا. وهي شائعة في الساحل الشامي خاصّة.

(٢) هو أبو قتادة الأنصاري، صحابي رسول الله ﷺ.
-الخبر في دلائل النبوة للبيهقي ٤: ١٩١ ـ ١٩٣.

(٣) ديوان البوصيري: ٢٤٨.

فإنّ مِن جودك الدُّنيا وضرّتَها ... ومِن عُلومك علمَ اللَّوح والقلمِ

فكان من أمر أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ في تلك الليلة من العَجائب ورأىٰ في حاله من الخوارقِ والغَرائب ما دلّه علىٰ كمال جاه المصطفىٰ الذي لاذَ بحِماه، وحفظه الله به، وأعانه علىٰ عَدُوّه وقوّاه.

فركبَ فرسه ـ رضي الله عنه ـ وغَزا بها ناصراً لِدينِ نَبِيّ الله، باذلاً نفسَهُ في ذات الله.

فلمّا رآه النبي ﷺ ـ قال له: أصحبك الله يا أبا قتادة بالسّلامة؛ فصحبته السلامة، ورأىٰ من نفسِه مع أعداء الله الكَرامة فَرُمِيَ بسهم بين عينيه وما أحس بألمه لأنّ نعيم الجنة أَلْهَىٰ نفسه التي بين جَنبيه، فأزال السهم من وجهه مُعتقداً أنّه نزع حديدة فلحقهُ رجلٌ من أبطالِ المُشركين وقد طلب الله تعالىٰ أبو قتادة أن يجمعه به علىٰ فرسه، فلمّا رأىٰ أبا قتادة قال له، قد جمعَ الله بيني وبينك فاخترْ ما شئت.

فقال له أبو قتادة: لا أختارُ علىٰ الله شَيئاً، فنزل المُشرك عن فرسه، وربَطها بشجرة، وعلّق سيفه فنزل أبو قتادة عن فَرسه، وربط فرسه وعلّق سيفه، ووثق بمولاه، واستجارَ بمن كان علىٰ يديه هداه.

ثم أتىٰ المُشرك وطلب مُصَارعته، فأجابه أبو قتادة، واستعانَ بالله عليه، فصرعه ووثب علىٰ صدره، وطلب ما يقتله به فلم يجدْ، وخافَ أن يأخذ سيفَه، فيأخذ المشرك سيفه، وبقي كذلك يحاوله ويُجادله، ويستعين بمولاه أن يُخاذِلَه قال فما أحسستُ إلاّ بسيفِ عدوّ الله قريبٌ مني، وكأنه علىٰ رأسي، وكأن الشجرة قد قربت إليّ، ودنت مني، فأخذتُ سيفه في يدي، وضربتُه بسيفه فقال لي: يا أبا قتادة أتقتلني؟ فقلت له، نعم، إني أسرعُ بأمّك إلىٰ الهاوية!.

فقال لي: يا أبا قَتادة ومن للصّبية؟ قلت: النار لها! فضربتُه حتىٰ قتلته[1] ـ والقصّة فيها طول يخرجنا عن المقصد، وليس المراد إلاّ الإشارة إلىٰ أن من استمسك بالعروة [٧٣/ب] الوُثقىٰ جَعل الله له من أمره فَرجاً ومخرجاً وأمنه أمناً لا يخافُ بعده ولا يَشْقَىٰ.

صلى اللّه عليه وسلّم، وشرّف وكرّم، صلاة ندخرها عند مولانا في هذه الدار، ودار البقاء.

---

(١) وفي آخر الخبر في دلائل البيهقي ٤: ١٩٣: «فقال له النبيُّ ﷺ: أفلح وجهكَ أبا قتادة. أبو قتادة سيّد الفُرسان. بارك الله فيك يا أبا قتادة، وفي ولدك وفي ولد ولدك...» الخ الخبر.

باب
في معنىٰ اسمه
الصِّراط المُستقيم(١)
صلّى الله عليه وسلّم وشرَّف وكرّم

الصّراط المُستقيم: اسمٌ من أسمائهِ عليه أفضلُ الصّلاةِ والسّلام، وردَ به القرآن علىٰ قولِ بعض العلماء الرّاسخين في العلم، ومن اعتنىٰ بأسمائه من المحبين.

قال مولانا جلّ جلاله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ١/٦، ٧].

اختلف المُفَسّرون في تفسير هٰذه الآية الكريمة من الفاتحة العظيمة، فقال أَبو العَالية والحَسن البصري(٢):

الصّراطُ المُستقيم: هو رَسُول الله ﷺ ـ وخيارُ أهل بيته وأَصحابه كما حكاه عنهم أَبُو الحسَن الماوردي، وحكىٰ مكّيّ عنهما نحوه، وزاد:

---

(١) ورد شرح هذا الاسم الكريم في:
الرياض النضرة: ٢٠١، وسبل الهدىٰ والرّشاد ١: ٥٩٥. وذكره القاضي عياض في الشفا ١: ٤٥٤.

(٢) الرّياض النضرة: ٢٠١، وسبل الهدىٰ ١: ١٥٩٥ وانظر تفسير القرطبي ١: ١٤٧ ـ ١٤٨.

هو رَسُول الله ـ ﷺ ـ وصاحباه أَبو بكر وعمر.

وحكىٰ أَبو اللّيث مثله عن أَبي العالية في قوله: «صراطَ الّذِين أنعمتَ عَليهم»، قَال: فبلغ ذلك الحسن فقال: صدق والله ونصَح[1]. هكذا قال القَاضي أبو الفضل عياض ـ رحمه الله ـ ونفع به[2].

ولقد أجاد الحسن ـ رضي الله عنه ـ في قوله: صدَق والله ونصح. فَمن فسّر الآية بما ذكر من أن الصراط المستقيم هو سيدنا ومولانا محمد ـ ﷺ ـ وصاحباه الشيخان الفاضلان الكاملان أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما وأرضاهما؛ لأنَّ مَن بيّن مقامهما ومنزلتهما عند نبينا ـ ﷺ ـ وعند الله سبحانه فقد صَدق في قوله ونصح في علمه، وعنه أن النبي ـ ﷺ قال[3]:

«الدِّين النصيحة، قيل لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المُسلمين وعامتهم.».

فبيان ما يجبُ لِلّه تعالىٰ، وما يجب لرسوله من العِصمة، وما يجب لأصحابِه من الحِفظ وبيانِ المنازل، وتفاضُلهم في الرتب كلّها من النصيحة للمسلمين[4]، ومن بيان صفات الدين.

وقال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ كان السّلف الصّالح ـ رضي الله عنهم ـ يُعَلّمون أَولادَهم حُبّ أَبي بكر وعُمَرَ ـ رضي الله عنهما ـ كما يعلّمُونهم السُّورة من القرآن، والسُّنة [٧٤/أ].

---

(١) يُنظر في هذه الأقوال وغيرها تفسير القرطبي ١: ١٤٧ ـ ١٤٨.

(٢) الشفا ١: ٦٧ ـ ٦٨.

(٣) رواه البُخاري ١: ٢٢ ومسلم في الإيمان (٩٥)، والترمذي والإمام أحمد في مُسنده ٢: ٢٩٧ والدارمي ٢: ٣١١؛ وغيرهم كثير.

(٤) في ب، و: ج من نصيحة المُسلمين.

وقال شُعَيب بن حرب: قلت لمالك بن مغول: أوْصِني قال: عليك بحُبّ الشيخين. ثم قلتُ له: أوْصِني قال: عليك بحبّ الشيخين، . ثم قلتُ له: أوْصِني فقال لي: والله إنيّ لأَرْجُو من الله سُبحانه علىٰ حبّهما ما أرجُو علىٰ التّوحيد.

ورويَ عن عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وأرضاه: من كمالِ فضلِه وإنصافِهِ ومَعرفتِه وقُربِهِ من رسول الله ﷺ ـ أنّه كان يقول:

لا يفضّلني أحدٌ علىٰ أبي بكر وعُمَر إلاّ جَلدتُه، جلدة الفِرْيَة[1] وسَنذكُر من فضلهما بعد ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ ما لا يُخلي هذا التأليف من بركتهم، ولنرجعْ إلىٰ أصلِ المَقصد من التّصنيف فنقول:

قال هؤلاء الفُضَلاء ـ رضي الله عنهم ـ إنّ هذا الصراط المُستقيم أُطلق علىٰ النبيّ الكريم عليه أفضلُ الصّلاة والتسليم.

وأصلُ الصّراط أن يكونَ في الأُمور المَحْسُوسة، المُشاهدة بالعيان الملموسة؛ ويوصفُ بالاستقامة إذا لم يكنْ فيه اعْوِجاج، تقول: هذا صراطٌ مُستقيم أي لا اعْوِجَاجَ فيه، ولا صعوبةَ في الجواز عليه ثم استُعير هذا الأمرُ المحسوس المشاهَدُ بالعيان، وأُطلق علىٰ نبيّنا ومولانا: الذي أتىٰ بالدّليل والبُرهان؛ لأنّه عَليه الصلاة والسلام بَعثه الله لإعلاءِ كلمةِ الإيمان، وأيّده بمعجزاتٍ ظاهرةٍ أقواها مُعجزة القرآن، وكان ما يدعو إليه بقوله وفعله يوصلنا من الدّار الفانية إلىٰ جنّة الرّضوان؛ فأطلقَ عليه الصّراط المُستقيم، واستعير ذلك اللّفظ إلىٰ معنىٰ الإيمان لاستقامة طريقه، وبيان أدلّته عند أهلِ السّعادة والعرفان، واتّفاقها علىٰ أنّ الإلٰه

---

(١) الفِريَةُ: الكَذِب؛ وفرىٰ الكذب وافتراه: اختلقه.

ـ وينظر فصل: «التنبيه على ما رواه علي رضي الله عنه في فضل أبي بكر وما رُوي عنه» من كتاب الرياض النضرة ١: ٢٥٤ ـ ٢٥٦.

العالِمَ واحدٌ جلّ جلاله؛ وأن سيدنا محمّداً عبدُه ورسولُه المُجتبىٰ من سُلالة عَدْنان.

وفي هٰذا القول من الآية من كمالِ إظهارِ مَنزلة رسول الله ﷺ ـ وما له عند ربّه، وبَيانِ شَرفِه وعُلوّ قَدْرِه لَديه ما لا يَخفىٰ علىٰ كُلّ لبيب.

وما يعلم به كلّ محبّ أن مقامه عند مولاه مقام عظيم عجيب، وتكونُ فيه لطيفةٌ ونكتةٌ غريبةٌ، وعنايةٌ ربانيّة، وإن مولاه فَضّله علىٰ جَميعِ الخَلائق الأرضيّة والسّماوية.

فإذا قرأت الفاتحة وأثنيتَ علىٰ ربنا جلّ جلاله وطلبت منه الهداية إلىٰ الصراط المستقيم فاستحضر في ذهنك أنّ المراد بذلك [٧٤/ب] المبلّغ إلىٰ جنّاتِ النّعيم هو نبيُّ الله والحبيبُ الكريم.

وقد رُوِيَ عن رسول الله ﷺ أنه قال[١]: بينا أنا قائم فإذا بِمَلكين قعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجليّ.

فقال أحدهما: اضربُوا له مثلاً.

وقال الآخر: مثله ومثل ما جاء به كمثل رجل بنىٰ داراً وجعل فيها مأدبة، وبعثَ داعياً، فَمنْ أجابَ الداعي دخل الدّار، ومن دخل الدار أكلَ من المأدُبَة، ومن لم يجب الدّاعي لم يدخل الدار، ومن لم يدخل الدار لم يأكل من المأدبة.

فالباني الّذي خلق الدّار وبَناها هو الله تعالىٰ. والدّار الجَنّة، والمأدبة ما فيها من النّعيم والخير العظيم، والدّاعي الذي بعثه الله هو

(١) صحيح البخاري ٨: ١٣٩ ـ ١٤٠.

محمد ـ ﷺ ـ الصراط المستقيم فمن أجاب محمداً ـ ﷺ ـ وصدّقه في قوله[1]، واتّبعه فلقد دخل الجنة، وأكل من ثمارها، وشرب من أنهارها، وتنعّم بِحُورِهَا وقُصورها، ومَن لم يُجب محمداً ـ ﷺ ـ ولم يتّبع صراطه، لم يَدْخُل الجَنّة، ولم يَنل شيئاً من نعِيمها لأنّ الصراطَ المُوصل إليها هو تصديقُه والإيمان به، وبما جاء به.

قال الله تعالىٰ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ٦/١٥٣] .

فأشار سبحانه إلىٰ أن طريق الحقّ واحدة، والجَماعة المُستمسكة به من الفِرَق النّاجية. وغيرها من سائر السبل وجميع الفرق هالكة[2].

فالفِرَقُ النّاجية هي الفرقةُ التي تمسّكت بما كان عليه محمد ـ ﷺ ـ وأصحابُه ومَن تبعهم، جعلني الله وإيّاكم منهم.

فَصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ محمداً ـ ﷺ ـ الصّراطُ المُستقيم، وأن الجنة هو طريقُها والإيمان به، والتمسّك باتّباعه هو السّبيل المُوصل إليها، أن يكون تابعاً لطريقته وهديه، ومتمسّكاً بسنّتِهِ وشريعته[3].

فإنّ هٰذا الصّراط المعنويّ، منصوبٌ علىٰ مثال الصّراط الحِسّي

(١) في ب: وصدّقه في فعله.

(٢) يشير إلى حديث مشهور ورد بصيغ متقاربة؛ منه في مسند أحمد ٢: ٣٣٢: تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة؛ وفي تهذيب ابن عساكر ٣: ٢٢٥ تفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملّة كلهم في النار إلاّ واحدة.

(٣) في ب، و: ج: بسنّته وشرعه.

الذي أُعِدَّ للجوازِ عَليه في الدّار الآخرة، وهو الذي جعله الله جلّ جلاله أحدَّ من السَّيف، وأدقّ من الشّعر وقد أمر الله سبحانه وتعالىٰ بنصبهِ علىٰ جِسر جهنّم وسَقر [٧٥/أ] وليس منهُ لأحدٍ هناكَ مَفَرٌّ ولا وَزَر[١].

وعليه يصلُ العِبَادُ إلىٰ الجَنّةِ، ونِعْمَ المُسْتَقَرّ. فَمنْ ثَبت علىٰ هٰذا الصّراطِ المُستقيم في دارِ الدُّنيا سَهّل الله عليه الجوازَ علىٰ الصراط حتىٰ يصل إلىٰ البُغيا. ومَن حادَ عن الصراط في هٰذه الدّارِ زَلّت قدَمُه علىٰ الصراط وسقط في النار.

فتذكّروا ـ رحمكم الله ـ عند ذكر الصراط المُستقيم الموصل إلىٰ جنات النعيم، صراط يوم القيامة الذي تكثُر عنده الحَسرةُ والنّدامةُ، ولا ينجُو عليه إلاّ أهلُ الاستقامة[٢].

رُوي عن رسول الله ﷺ ـ أنّه قال[٣]: «يضرب الصراط بين ظهرانَيْ جهنّم، فأكون أول من أجوزُ عليه بأمّتي من سائر الرُّسل، ولا يتكلّم حينئذٍ إلاّ الرُّسل، ودعوىٰ الرّسل حينئذٍ، اللهمّ سلِّم! اللهمّ سلِّم!.

وفي جهنّم كلاليب مثل شوك السّعدان[٤]؟، هل رأيتم شوك السّعدان[٥] قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: فإنها مثل شوك السّعدان غير أنّه لا يَعلم عِظَمها إلاّ الله، تخطفُ النّاس بأعمالهم، ومنهم من يُوبَقُ

---

(١) الوزَرُ: الملجأ (وأصلُه في كلام العرب: الجَبلُ الذي يُلتجأ إليه).

(٢) ينظر إحياء علوم الدين ١٦: ٥٢.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣/١١ وإتحاف السادة المتقين ١٠: ٤٨٢ وتذكرة القرطبي: ٣٨٣.

(٤) مسند الإمام أحمد ٢: ٢٧٥، وهو في البخاري (الأذان) ومسلم (الإيمان).

(٥) السّعدان: نبت ذو شوك. ويقال الشوكة حسكة السعدان. قال أبو حنيفة الدينوري: وللسعدان إذا يبس شوكة مفلطحة كأنّها درهم!.

بعمله[1]، ومنهم من يُخَرْدلُ[2] ثم ينجُو.

وقال ﷺ[3] يمرُّ الناسُ على جسر جَهنَّم وعليه حَسكٌ وكلاليبُ وخطاطيفُ تختطف الناس يميناً وشمالاً، وعلى جَنْبتيهِ مَلائكةٌ يقولون: اللّهُمَّ سَلِّم. سَلِّمْ، فمن الناس من يمرُّ كالبرقِ الخاطِف، ومنهم من يمرُّ كالرّيحِ، ومنهم من يَمُرُّ كالفَرسِ المُجْرىٰ، ومنهم من يَسْعىٰ سَعْياً، ومنهم يَمْشِي مَشْياً، ومنهم مَن يَحْبُو حَبْواً، ومنهم من يَزْحَفُ زَحفاً.

فأمّا أهلُ النار الذين هُم أهْلُها، فلا يموتون ولا يَحْيَوْن، وأمّا ناسٌ فيُؤخذون بذُنوبٍ وخَطايا فيحترقون فيكونون فحماً. ثم يُؤذَنُ في الشّفاعة فيخرجون منها بشفاعةِ نبيّكم ـ ﷺ.

وقد روي في حديث طويل[4] ما يدل علىٰ بركة هذه الأمة المحمدية، وكرامتها عند ربها، ذكره بعض الرواة في قصّة الإسراء، وأن جبريل عليه الصلاة والسلام حين رجع عن مُحَمّد ـ ﷺ ـ إلىٰ رُتبتِه، وارتقىٰ سامياً إلىٰ منزلة سيد الأنام فقال النبي ـ ﷺ لجبريل عليه السلام:

يا جبريل: ألكَ حاجة؟

قال: نعم يا محمد، حاجتي عند ربِّ العزة أن يجعل جناحي علىٰ الصّراط حتىٰ تجوز عليه أمتك.

وقد رُوي: أن الله تعالىٰ أجاب سؤال جبريل إكراماً لنبيه [٧٥/ب]

---

(١) يوبق بعمله: يهلك بسببه.

(٢) يخردل: يَصرع، والمخردل: المصروع.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣: ٢٦ وإتحاف السادة المتقين ١٠: ٤٨٢، وينظر التذكرة: ٣٨٣ ـ ٣٨٤.

(٤) أورد القاضي عياض في الشفا ١: ٢١٥ حديث الإسراء والمعراج.

عليه الصلاة والسلام، وأنّ جبريل عليه السلام يومَ القيامة ينصبُ جَناحه لهٰذه الأُمّةِ بشرطِ أن تكونَ معظّمةً لأَصحابِه الكرام.

وأَهوالُ الصّراطِ عظيمةٌ، وخطوبُه جسيمة، قال أبو حامد ـ رضي الله عنه ـ[(١)]: وأَسلمُ النّاسِ من أهواله، وأهوال يومِ القيامة من طالَ فِكرهُ في الدُّنيا مُرَاقِباً لمولاه، وكان فيها خائفاً من مَولاه، فإنّ الله تعالىٰ لا يجمعُ علىٰ عبده خَوفين، فمن خافه في هٰذه الدار، وأشفقَ من هولِ القيامةِ أَمَّنَهُ الله عزَّ وجل في تلكَ الدّار.

قال ـ رحمه الله ـ: ولستُ أَعني بالخوف رقّةً ترد علىٰ القلوب، كخوف النّساء حين تَدْمَعُ العَين ويرقُّ القَلب في حال السماع ثم تَنْسَاه عن قريب، وتعود إلىٰ الطّرَبِ والسّماع؛ فليسَ هذا الخوفُ صادقاً، بل خوفٌ كاذب، وخورٌ يقع في النّفوس، وضعف في العقول كخوف النّساء، بل من خافَ من شيءٍ خوفاً حقيقياً هرَب منه هروباً كُلّياً، ومن رَجا شيئاً رجاءً صادقاً طلبَ أسبابه طلباً مَرْضِيّاً، فليسَ يُنجيك من أهوالِ هٰذا الصراط المستقيم إلاّ الخوفُ المُزعج الذي يمنعكَ عن المَعاصي، ويقرّبُ العبدَ الغافل العاصي من رَبّه.

وخوفُ الحمقىٰ إذا سمعوا الأهوال قالوا بألسنتهم اللّٰهُمّ سَلِّمْ! وهمْ مَع ذلك مُصِرّون علىٰ المعاصي، منهمكون بِسَخط الله في الضّياء والظلام، والشّيطانُ يضحكُ عليهم[(٢)]، ويستهزئ بهم، كما يضحكُ علىٰ من يقصده سَبُعٌ ضارٍ في صحراء، وكان وراءَ حصنٍ حصينٍ يتحصّن به.

(١) إحياء علوم الدين ١٦ : ٥٣. وتصرّف المؤلّف في نقله.

(٢) ورد في الحديث ضحك الشّيطان من ابن آدم؛ ومنه «فإذا تثاءب أحدكم فليردّه ما استطاع ولا يقل هاه هاه فإنما ذلكم من الشيطان يضحك عليه» سنن أبي داوود ٤ : ٣٠٦ ومسند أحمد ٢: ٤٢٨.

فإذا رأى السبع وهو قادم عليه قال: أعوذ بهذا الحصن الحصين[1]، وأستعينُ بشدّة بنيانه، وإحكام أركانه من هذا السّبُع، فيقول ذلك بلسانِه وهو قاعدٌ في مكانه حتى يقربُ منه، فهل هذا الرّجل إلا ضحكةٌ ولعبةٌ لا عقلَ له؟.

فكذا مَنْ سَمِعَ أهوالَ الصّراط وجهنّم وما فيها، وأهوال القيامة وهو يقول: ربٌ سلّم في هٰذه الدار، مع اشتغالِه بالمَعاصي واتّباع الهوى[2]، والبُعد عن دار القرار، والاغترار بدار الغرُور[3] مع إخبار الصّادق المصدّق [٧٦/أ] الذي لا خُلْفَ في خَبرِه، وأن ليس ثَمّ بعد هذه الدّار إلاّ الجَنّةُ أو النّار[4].

قال أبو حامد ـ رحمه الله ـ فإذا عجز العبد عن هذا كله، وعن الوقوف عن الطّرِيق المستقيم، فليكنْ محبّاً لرسول الله صاحب الصّراط المُستقيم، حريصاً على تعظيم، سُنّتهِ، ومتشوّفاً إلىٰ مراعاة قلوب الصالحين من أمته، ومتبركاً بأدعيتهم، فلعَلّكَ تنالُ من شفاعته أو شفاعتهم شيئاً فتنجو بالشّفاعة إن كنتَ قليل البِضاعة ـ ﷺ ـ صلاة تنالُ بها الشّفاعة.

وأقول كما قال الشّاطبي ـ رحمه الله ـ:

---

(١) في مسند الإمام أحمد ٤: ١٣٠ في أثناء حديث طويل: «.. كمثل رجل طلبه العدوّ سراعاً في أثره فأتى حصناً حصيناً فتحصّن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عزّ وجلّ». وفي مسند أحمد ٢: ٤٠٢: «الصيّام جُنّة وحصنٌ حصين.

(٢) في ج: ويوم القيامة وأهواله... مع اشتغاله بالأماني.

(٣) «البعد عن دار القرار» من ج. و: «الاغترار بدار الغرور» من ب.

(٤) ينظر صحيح مسلم: ٦٨٠ ـ ٦٨١.

لعلَّ إلٰهَ العَرْش يا إخوتي يَقِي جَماعتَنا كلَّ المكارِهِ هُؤلا[1]
ويَجْعَلُنا ممَّنْ يكونُ كتابُهُ شَفِيْعاً لهمْ إذْ ما نَسَوْهُ فَيُحملا
وبالله حَوْلي واعْتِصَامي وقُوّتي ومالي إلاّ سترُه مُتَجمّلا[2]
فيا ربِّ أنت الله حسبي وعُدّتي عليكَ اعتمادي ضارِعاً متوكّلا

(١) من بحر الطويل.

(٢) في: ب، و: ج: متجلّلا (أي ستراً وغطاء).

باب

في معنىٰ اسمه

النَّجم، والنَّجم الثَّاقب(١)

صلّى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

النَّجْمُ، والنَّجْمُ الثَّاقِب: اسمانِ من أسمائه عليه أفضل الصَّلاةِ والسَّلام. ورد ذلك عند بعض العلماء في تَفْسِير قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم ٥٣/١ ـ ٤] وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ [الطارق ٨٦/١ ـ ٣].

قال جعفر بن محمد في تفسير قوله تعالىٰ: «والنجم إذا هوىٰ» هو محمد ﷺ(٢).

وقال: النَّجم قلبُ محمّد عليه الصلاة والسلام، بمعنىٰ أنه انشرح بالأَنوار. فأشار ـ رحمه الله ـ إلى أنّ النجم أُطلق علىٰ قلب محمد ـ ﷺ ـ وقوله «إذا هوى» معناه انشرَح قلبُه بالأَنوار، وتلألأت فيه معارف الأَسرار، فأقسم الله تعالىٰ بهذا النَّجم المُهتدىٰ به بياناً لمنزلتِه، وتعظيماً

(١) ورد تفسير هذا الاسم الكريم في: الرّياض الأنيقة: ٢٦٢، وسبل الهدىٰ والرَّشاد ١: ٦٥٥. وذكره القاضي عياض في الشفا ١: ٩٩، ٤٥٤. والمواهب اللدنية ١: ١٩٢.

(٢) الشّفا ١: ٩٩ ـ ١٠٠، وسُبل الهدى والرّشاد ١: ٦٥٥ والرّياض الأنيقة ٢٦٢، وتفسير القرطبي ١٧: ٨٣ وفيه ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾: إذا نزل من السّماء ليلة المعراج.

له في نُفوس أمّته.

وفي الآية تفاسير؛ المناسب منها هُنا ما ذكرناهُ وباقي الأقوال معروفة؛ لأَجل ذلك حذفناه[1].

وقيل المراد بها: القُرآن [٧٦/ ب].

وحكىٰ السُلَمِيّ في قَوله تعالىٰ[2]: النجم الثاقب أنه محمد ـ ﷺ

قال أبو الفضل عياض[3] ـ رحمه الله ـ: وتضمنت هذه الآيات من غاية الفضل والشّرف والمجد ما يقصُر دونه العدّ، فأقسم الله جلّ جلاله علىٰ هداية المصطفىٰ، وتنزيهه عن الهوىٰ، وصدقه فيما تلا، وأنّه وحي يوحىٰ، أوصله إليه عن الله جبريل وهو الشّديد القوىٰ.

ثم قال بعد هٰذا ـ رحمه الله ـ ما معناه: واشتملت هٰذه الآيات علىٰ إعلام الله تعالىٰ بتزكية جُملته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وعصمته من الآفات في ليلة إسرائه، فزكّىٰ الله تعالىٰ فؤاد حبيبه، ولسانه وجوارحه وقلبه.

فزكّىٰ قلبه بقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم ٥٣/ ١١] ولسانه بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٥٣/ ٣] وبَصَرَهُ بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم ٥٣/ ١٧].

فتأمّلوا رحمكم الله، وضاعفَ حُبّي وحبكم في نبيّي ونبيّكم، هٰذه العنايةَ الربّانيّة، والمكانةَ الحاصلة العليّة، لنبيّنا عليه الصّلاة

(١) في أ: الأقوال متقاربة، وفي ب: الأقوال معروفة من أجل ذلك، والسّياق من ج.
(٢) الشّفا ١: ٩٩، والرياض الأنيقة ٢٦، وسُبل الهدى ١: ٦٥٥.
(٣) الشفا ١: ٩٩. ونقل المؤلف عن القاضي أبي الفضل بلفظ مقارب.

والسلام عند مقام الألوهية، كيف خصّه[1] الله بالفضائل الجليلة اللّدُنيّة، والأوصاف الجليلة السّنيّة، وعلاه بها فوق السّماوات الرّفيعة السميّة، وحَباهُ من أسرارِه وغُيوبه وعُلومه اللدنيّة، وأراه من عجائب ملكوته سبحانه ما لا تُحيط بهِ العبارات، ولا تستقبله أذهانُ العقول بالرّمز والإشارات[2].

فالنَّجم سَمّىٰ الله تعالىٰ به نبيّه ـ ﷺ لعلوّ مكانه ورفعته، لأنَّ العربَ جَرتْ عادتُها بتعظيم النُّجوم[3] والنظر إليها؛ فكأنهم نُهوا، ونُبِّهُوا علىٰ أنَّ النَّجْمَ الحقيقيَّ الذي يجبُ تعظيمُه ومُوَالاتُه هو محمّد ـ ﷺ ـ فإنّ النّجومَ إنّما نُورها من نُوره، وعلوُّها من أَجل عُلوّه[4].

ويحتملُ أنْ تكون فيه إشارةٌ أُخرىٰ إلىٰ أنّ النجوم[5] خلَقها الله تعالىٰ للهداية في الطُّرقات، ودلائل علىٰ السّير في البَحر وعلامات[6]. ومحمّد ـ ﷺ ـ هو أولىٰ أن يُسَمى نَجماً، لأنّه دليلٌ علىٰ الخَيرات، وسائقٌ إلىٰ الجَنّات.

وفيه إشارةٌ أُخرىٰ إلىٰ أنّ النجوم جعلها الله تعالىٰ زينةً للسّماوات[7]، وضياءً للعوالم المرتفعات، ومحمد ﷺ [٧٧/أ] نجمٌ زَيّن الله به سماءَ الصدّيقين والنبيّين والشُّهداء والصّالحين، وعظائم

---

(١) في ب: خصّه مولاه.

(٢) في أ: ولا تستقبل بحمل سماعه أذناً العقول، وفي ج: يسْتقل آذان.

(٣) مادّة (ن ج م) واسعة في اللّغة، ولها صلة بعلم الفلك، والجغرافية الفلكيّة؛ وبشيء من العادات والتقاليد؛ ولها صلةٌ بحياتهم القديمة، واعتقادهم.

(٤) في: ب، و: ج: من أجل علوه.

(٥) في ب، و: ج: لأَجل أنَ النجوم.

(٦) ينظر ما ورد في تفسير سورة النّحل الآية ١٦ ﴿وَعَلاَمَاتٍ وبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُوْنَ﴾.

(٧) في سورة المُلك [٦٧/٥] ﴿ولقد زَيَّنّا السَّماءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيْحَ﴾.

المخلُوقات[1].

وفيه إشارةٌ أُخرىٰ إلىٰ أنّ النجومَ - وإنْ جعلها الله تعالىٰ رُجوماً للشّياطين، وحِفظاً من كلّ شيطان مارِدٍ إلىٰ يوم الدِّين - فقد جعل نَجْمَ محمّد - ﷺ - في سَماءِ قُلوب المُؤمنين حِفظاً من الشّياطين فِي كلّ وقتٍ وحين.

صلّى اللّهُ عليه وسلّمَ صلاة يُزاد بها في قُلوبنا كل يومٍ يقين.

فَمنْ حُبّه فرضٌ علىٰ كُلّ مسلم ... كفَرضِ زكاةِ المالِ والخُمْس والطهر[2]

ومَنْ نُوره أسنىٰ من الشمس بهجةً ... ومَن ذِكرُه في الخلق أذكىٰ من العِطرِ

وأحلىٰ من الماءِ الزلال علىٰ الظما ... وقع في الأسماع من نغم الوترِ[3]

وأشهىٰ إلىٰ الإنسان من رؤية المنىٰ ... وإدراك ما يرجُوه من ليلة القَدْرِ

فللّه حَمْدٌ دائمٌ حيثُ خَصّنا ... بِمَنْ هو أبهىٰ في سَناهُ من البَدْرِ

عليه صَلاةٌ لا انقطاعَ لوصْلِها ... تكونُ لنا نُوراً وعَوْناً علىٰ البِرّ

فصل

من آداب مَنْ علم أنّ نبيّنا - ﷺ - سُمّي نجماً لتلألؤ وَجْهِهِ وقلبه بالأنوار المتراكمة عليه، وإشراق أزهاره بالعلوم اللّدُنيّة لديه، والمعارف الربانيّة التي تكاملتْ في الشّرف وأُسندت إليه، فكان قلبه مَعْدِناً للأسرار

(١) في ب: وعظام المَخْلُوقات.
(٢) من الطّويل.
(٣) في ب، و: ج: على الصّدى؛ وهو بمعنى الظمأ (العطش).
- وقوله في الشطر الثاني: «من نغم الوتر» سكّن التاء من الوتر للشّعر.

ومحلاً للأنوار[1].

وفيه نجمٌ زاهرٌ استمدّت منه أنوارُ الشّموس والأقمار وينبغي له أن يتخلّق بحاله عليه الصلاة والسلام ـ في تنوير قلبِهِ، وتصفيةِ نفسِه، وصَفاءِ لُبّه.

فليحافظ علىٰ نفسِه باجتنابِ آفاتها، وليتدارك مصلحةَ قلبِهِ بالمبادرة إليها، عَساهُ ينال من المواهبِ الربّانيّة والمنائحِ الحقانية، التي لا تصلح إلاّ مع صَفاء السّرائر، وخُلوص الضمائر، كما كانت علومُ أصحابه الكرام وأَحوالُهم، ومقامُهم عند الله، وآدابُهم وأخلاقُهم، وغرائبُ مواجِيدهم، وحقائقُ معرفتهم وتوحيدهم، ودقائقُ إشاراتهم، ولطائف شَمائلهم، وحسن اصطلاحاتهم[2].

فَعُلومهم، وعلوم أولياء الله تعالىٰ بعدهم، كلها إنقاذٌ عن وجدان، ودقائقُ تعبّر[3] عن عِرفان؛ وذَوْقٍ تَحقق بصدق في الحال [٧٧/ب]، واستيفاء من أَنفُسِهم كتصريح المقال، فكانوا أنجماً زاهرة، وعلماء حنفاء لنبيها وارثة فاخرة.

قال بعضُ العارفين: لا تحصلُ هٰذه الأَنوارُ في القُلوبِ إلاّ مع صَفائِها، ولا يزهرُ نجمُها إلاّ معَ طهارةِ باطِنها وظاهرها.

قال الحَسنُ البصريّ[4] ـ رضي الله عنه ـ لقد أدركتُ سبعين بدريّاً لباسُهم الصُّوف.

---

(١) في أ: معدناً بالأسرار ومحلّى بالأنوار.

(٢) في ب: ولطيف شَمائلهم وحُسنِ اصطلاحهم.

(٣) في ج: تعزى عن.

(٤) هو الحسَن البصري التابعي الجليل. وله ذِكر وإشارة في هذا الكتاب.

قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ كانوا يخرّون من الجُوع، حتىٰ يحسبِهم الأعرابُ مَجانينَ؛ تصفيةً لقلوبهم، وتطهيراً لينابيع الحكمةِ في مَرْغُوبهم.

وكان لباسُهم الصوف[1] حتّىٰ إنّ بعضَهم: ثوبُه يوجد فيه رائحةُ الضّأن إذا أصابهم الغيث!.

وكان اختيارُهم لبسَ الصُّوف لتركهم زينةَ الدُّنيا والقَناعة منها بسدّ الخَلَّة وستِرِ العَورة، واستغراقِ قُلوبهم في أمرِ الآخرة.

فلم يتفرّغوا لِلَذّات النُّفوس وراحتها، ولم يَرْكَنُوا إلىٰ الدُّنيا وزَهرتها، بل اشْتَغَلُوا بتحقيق إِيمانهم، وتلبّسُوا بخدمة مَولاهم المتكفّل بأرزاقِهم، فالمَواهِبُ الربّانِيّةُ جعلَها الله تعالىٰ لا تَسْكنُ إلاّ في القُلوبِ الصّافيةِ، والنفوسِ الطاهرةِ الوافية.

قال بعضُ الفُضَلاء ـ رحمهم الله تعالى ـ: مَنْ أراد أنْ يكونَ صُوفيّاً، وفي دُنياه وأُخراه عند ربه مَرْضِياً، فليتبع أصحابَ الصُّفّة الّذين كانُوا علىٰ عهدِ النّبي ـ ﷺ ـ كانُوا نحو الأربع مئة مُجتمعين متألّفين، مصاحِبين لله، واقِفين ببابِ الله، مُتّبعين لرسولِ الله[2].

لم تكن لهم مساكنُ في المدينة، ولا عشائر، ولا قَبِيلة؛ بل كانوا

---

(١) من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: كان ﷺ إذا صلى بالناس خرّ رجال من قامتهم في الصلاة لما بهم من الخصاصة، وهم من أصحاب الصفّة حتى يقول الأعراب إن هؤلاء مجانين. فإذا قضى رسول الله ﷺ الصلاة انصرف إليهم فقال لهم لو تعلمون ما لكم عند الله عز وجل لأحببتم أنكم تزدادون فاقة: قال فضالة: وأنا مع رسول الله ﷺ يومئذٍ (مسند الإمام أحمد ٦: ١٨ ـ ١٩) وفيه (٤: ٤١٩) عن أبي بُردة قال، قال لي أبي: لو رأيتنا ونحن مع رسول الله ﷺ وأصابنا المطر وجدت منا ريح الضأن. وفي الباب أحاديث وأخبار في البخاري ومسلم وغيرهما.

(٢) سبق الكلام على أهل الصُّفّة.

مُهاجرين في ذات الله ربّ العالمين، وفي طاعة سيّد المُرسلين، لا يرجعون إلىٰ زَرع، ولا إلىٰ ضَرْع، ولا إلىٰ تجارة يستندون، بل كانوا بالنّهار يحتطبونَ، وباللّيل بالعبادة لربّهم يَشتغلون، وبتلاوة القُرآن يقومون.

وكان ـ ﷺ ـ يُواسِيهم ويُسَلّيهم، ويَحُثُّ النّاسَ علىٰ مُواساتِهم، ويُجالِسهم ويُؤاكلهم.

ويُروىٰ عن بعضِ أهلِ الصُفّة أنه قال: أتينا جماعةً إلىٰ رسول الله ﷺ قلنا يا رسول الله[1]: أَحْرَق التّمرُ بطونَنا! فَصعِدَ ـ ﷺ المنبر ثم قال: ما بالُ أقوامٍ يقُولون: أَحْرَق بطوننا التّمر[2] أَما علمتُمْ أنَّ هٰذا التّمر هو طعام أهل المدينة؟.

وقد واسَوْنا به، وواسَيناكم بِمَا وَاسَوْنا به؛ والّذي نفسُ محمّدٍ بيدهِ [٧٨/أ] منذ شَهرين لم يرتفع من بيت رسول الله ـ ﷺ ـ دخانٌ للخبز، وليسَ لهم إلاّ الأسْوَدان؛ التّمر والمَاء[3].

فأَرشدهم ـ ﷺ ـ إلى الاقتداء به ولزوم طريقه، والصّبر علىٰ مرارة هٰذه الدار، فإنها دار غِيار وأكدار، ولذا قيل في صِفتها، وبيان حال أهْلِها[4]:

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣: ٤٨٧.

(٢) الحُرقة تكون من الطعام إذا كان في طعمه شيء محرق: أَو فيه شيء من حرارة. والذي قصد إليه أهل الصّفّة ـ والله أعلم ـ الرغبة في تلوين أكلهم بشيء آخر غير التمر. فتكون إضافة الحرقة إلى التمر مجازيّة.

(٣) وفي النهاية (س و ر) وفي اللسان: من قول عائشة رضي الله عنها: لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ما لنا طعامٌ إلاّ الأسْوَدان؛ ففسّره أهل اللغة بأنّه التّمر والماء.

(٤) من بحر الكامل.

والـمـرءُ فـي سَـفـرٍ وأيُّ مُـسـافـرٍ لا يَـعْـتَـريـه مـن الـطَّـريـق غـبـارُهُ؟!

وعلى قَدْرِ أتعابِ النُّفوس في ذات الله تَعالىٰ علىٰ قَدر عُلوّ المناصِب، وورود الفُتوحات علىٰ القلوب وحلُول المَواهب، كان إبراهيم الخَوّاص[1] ـ رضي الله عنه ـ يُنشد ويقول:

صَبرتُ علىٰ بَعْضِ الأذىٰ خوفَ كُلِّهِ ودافَعْتُ عن نفْسي لنفسي فعَزَّتِ[2]
وجَرَّعْتُها المكروهَ حتّىٰ تدرَّبتْ ولو لم أُجَرِّعْها الأذىٰ لا شمأزّتِ
ألا رُبَّ ذُلٍّ ساقَ للنّفسِ عِزّةً ويا رُبَّ نفسٍ بالتعزُّز ذَلَّتِ
إذا ما مَدَدْتُ الكفَّ ألتمِسُ الغِنىٰ إلىٰ غيرِ مَنْ قَال اسألوني شُلَّتِ!
سَأصبرُ جَهْدِي إنَّ في الصّبرِ عِزّةً وأَرضىٰ بدُنيايَ وإنْ هِيَ قَلَّتِ!

هٰذه حالُ مَنْ عَرف حقيقةَ الدُّنيا، وأنّها فانية، وأن الجنّة[3] هي دارُ البقاء: نعيمُها دائم، وقُطوفها دانية. فقد عَلِمَ ـ ﷺ ـ قَدرها، وبَيّن أمرها للخلائق[4] وحَذّرنا منها، وزهّدنا فيها مع تمكُّنِه من زَهرتها[5]:

وشَدّ من سَغَبٍ أَحشاءَهُ وطوىٰ تحت الحِجَارةِ كَشْحاً مُتْرَفَ الأَدمِ[6]

(١) إبراهيم بن أحمد، أبو إسحاق الخواص (ت ٢٩١هـ) صوفي كان أوحد المشايخ في وقته، من أقران الجنيد. وله كتب مصنفة (لا نعرفها اليوم). والخوّاص الذي يبيع الخوص.

(٢) من بحر الطويل.

(٣) في ب: وأن الآخرة.

(٤) في ب: وبيّن أمورها.

(٥) ديوان البُوصيري: ٢٤٠.

- وزهرة الدنيا: غضارتها وحسنها ومتاعها وزينتها.

(٦) السّغب: الجوع، أو شدّته.

- وفي حديث جابر رضي الله عنه قال مكث النبي ﷺ وأصحابه وهم يحفرون الخندق لم يذوقوا طعاماً. فقالوا: يا رسول الله ﷺ ههنا كُدْية من الجبل فقال رسول الله ﷺ=

وراودَتْهُ الـجـبـالُ الـشـمُّ مِـن ذَهـبِ   عـن نـفـسِـه فـأراهـا أيّـمـا شـمـم[1]
وأكَّـدَتْ زهـدَهُ فـيـهـا ضـرورتُـه   إنّ الضَرورةَ لا تَعدُو علىٰ العِصَم[2]
وكيفَ تدعو إلىٰ الدُنيا ضرورة من   لولاه لم تخرج الدُّنيا من العدَمِ؟
محمّدٌ سيّدُ الكونينِ والثّقلَيْـ   ـنِ والفَريقين من عُرْبٍ ومن عَجم

صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبِهِ وسلّم تسليماً، وزاده مولاه شَرفاً وتعظيماً.

= رشّوها بالماء، فرشوها ثم جاء النبي ﷺ فأخذ المعول أو المسحاة ثم قال: بسم الله! فضرب ثلاثاً فصارت كثيباً يُهال. قال جابر فحانت مني التفاتة فإذا رسول الله ﷺ قد شدّ على بطنه حجَراً. (مسند الإمام أحمد ٣: ٣٠٠).

(١) في حديث طويل في نسيم الرّياض (٢: ١٤٣)... فأتاه إسرافيل عليه السلام فقال إن الله سمع ما ذكرت فبعثني إليك بمفاتيح الأرض، وأمرني أن أعرضَ عليك إن أحببت أن أسيرَ معك جبال تهامة ياقوتاً وذهباً وفضّة..! الحديث. وينظر الشفا ١: ٢٨٠ ومناهل الصفا: ٨١.

(٢) العصم جمع العصمة وهي الحفظ.

باب

في معنىٰ اسمه

الفجر السَّاطع(١)

صلَّىٰ الله عليه وسلَّم وشرَّف وكرَّم ومجَّد وعظَّم

الفجرُ السّاطع، اسمٌ من أسمائِه عليهِ الصَّلاة والسلام علىٰ قولِ بعضِ العُلَماء ـ رضي الله عنهم ـ قال الله العظيم في كتابه الكريم: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر ٨٩/١ ـ ٢] .

اختلفَ العُلَماء ـ رضي الله عنهم ـ في هذه الآيةِ الكريمةِ، ما المرادُ بالفَجْر؟ .

فالّذي عليه أكثرُ المفسّرين أنَّ المرادَ بالفجر: الفجرُ المعلوم؛ أَقسَمَ الله تعالىٰ به من خَلْقِه كالقَسم بالصُّبح.

وقال ابنُ عَطاءِ الله ـ رحمه الله(٢) ـ: المُراد بالفَجر: محمّد عليه

---

(١) ورد تفسير هٰذا الاسم الكريم في: الرّياض الأنيقة: ٢١٩، وسبل الهدىٰ والرّشاد ١: ٦١٢.

ـ وذكره القاضي عياض في الشفا ١: ٩٤، والمواهب اللدنية ١: ١٩١.

(٢) نُقِلَ عنهُ هٰذا في الشّفا ١: ٩٤، والرّياض: ٢١٩، وسُبل الهدى ١: ٦١٢. في المواهب اللدنية: قال ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿والفجر. وليال عشر﴾ الفجر: محمد ﷺ لأن منه تفجر الإيمان. وهو تأويل غريب لم ير لغيره. والصواب أنه الفجر المفسر بالصّبح في قوله تعالى: ﴿والصبح إذا تنفس﴾. =

أفضلُ الصّلاة والسّلام، لأنّه منهُ تَفَجّر الإيمان. وجزاهُ الله خَيراً في إفادة هٰذا القول حتّىٰ عدّ من أسماءِ رسول الله ﷺ اسم الفجر؛ لأنّ أصلَ الفَجر مبتدأُ النّهار، وظهورُ الضيّاء في الأُفق من جِهةِ المَشرق حتّىٰ يعمّ الأُفق، فيتفجّر ضياءُ النّهار منه، فهو أصلُه وأساسُه.

فأُطلق علىٰ النبي - ﷺ - واستُعير له لفظ الفَجر[1]، لأَن أَصل الإيمان منه انتشر، ومن أسمائهِ جَرىٰ في القُلوب وتفجّر؛ ومن أَفضل بُقعةٍ نَبع وظهر؛ فخالَط القُلوب بشاشَتُه، وعلا الحقُّ علىٰ الباطل وانتصَر.

ووجهٌ آخرُ في تسمية نبيّنا - ﷺ - فجراً لأنّ الفَجر أفضلُ ساعات الأَوقات[2]، وتُفتح فيه أبوابُ الرّحْمات ونبيُّنا - ﷺ - أفضلُ المخلوقات، وأصل الخيرات، وحُلول البركات، وفيها إشارة إلى أن تسميته ﷺ بالفَجْرِ إعلامٌ بحال أَزْمِنته وإعظام لحسنِ صفتِه وسيرتِه؛ لأنَّ ساعاتِ الفجر، وانصداع الصبح تردّ فيه الراحةُ علىٰ نفوس المرضىٰ، وقلوبِ المكروبين، وتتلذّذُ برقتها أنفسُ المحزونين.

وساعاتُ المُصطفىٰ - ﷺ - وأوقاتُه كلّها تُنَفّسُ عن المخلوقين الكُرُبات، وتَدلُّ علىٰ عبادة خالقِ الأَرضِيْنَ والسّموات، وجلبِ منافعِ العبادِ الدنيويةِ والأُخروية، وَدرْء مفاسدهم الدنيّة.

= وابن عطاء الله هو أبو الفضل تاج الدين أحمد بن محمد، عُرِف بابن عطاء الله الإسكندري (ت ٧٠٩) متصوّف شاذلي من العلماء. له: الحكم العطائية؛ في التصوف؛ وتاج العروس؛ في الوصايا والعظات؛ ولطائف المنن في مناقب المرسي وأبي الحسن. ووفاته بالقاهرة.

(١) في أ: وسُمّي بالفجر.

(٢) في الحديث: اللهمّ بارك لأُمّتي في بُكورها. (مسند أحمد ١: ١٥٤).

وفيه إشارةٌ أخرىٰ إلى أنّ الفجر يطردُ ضياؤه الظلمةَ، حتىٰ يعمّ الضياءُ مشارقَ الأرضِ ومغارِبَها.

ومحمّد ـ ﷺ ـ قد عَمّ دينُه وشرعه بقاعَ الأرض كُلّها، ومَحا نورُه ظلمةَ الكُفر وأزالها من قلوب أهلِها، وطرَدها.

ووجهٌ آخرَ في تسمية هٰذا النبيّ الشّريف بالفجرِ السّاطع أن طلوعَ الفَجر له علاماتٌ قبل بُروزه، وطلوعُه يدلُّ علىٰ ظهوره ووجوده، وبرهانٌ قاطعٌ بمعايَنتِهِ وشهودِه، [٧٩/أ] ونبيُّنا محمّدٌ ـ ﷺ ـ قد ظهرتْ قبل انصداعِ فجرِه في السّماء عَلامات، وبَرزت لأعْيُنِ النّاظرين دلالات[١] وإشارات، فأبْصَرها من نُور الله بصره وبصيرته من عباده، وعمي عن رُؤيتها من شاء من أعدائه وحُسّاده.

ذكر أبو جعفر العقيلي عن رَجُلٍ من بني لهب، يُقال له لهيب بن مالك. قال[٢]: حضرتُ مع رسول الله ﷺ فذُكِرَتْ عنده الكهانة؛ فقلت: بأبي أنتَ وأمي! نحنُ أوّلُ مَن عَرف حِراسة السّماء، وزجْر الشّياطين ومَنعهم مِن استراقِ السّمع عند قَذْفِ النُّجوم، وذلك أنّا قد اجتمعنا إلىٰ كاهنٍ لنا يُقال له: خِطَر بن مالك، وكان شيخاً كبيراً، قد أتت عَليهِ مئتا سنةٍ وثمانون سَنة. وكان من أعلم كُهّاننا.

فقلنا: يا خِطَر هل عندكَ عِلمٌ من هٰذه النُّجوم التي يُرمىٰ بها فإنا قد فزعنا لها، وخفنا سوءَ عاقبتها؟.

---

(١) في: ب، و: ج: دلائل وإشارات.

(٢) الاكتفا ـ للكلاعي ١: ٢١٦ ـ ٢١٧، وسبل الهدىٰ والرّشاد ٢: ٢٧٠ وينظر الاستيعاب ٣: ٣٣٠ والإصابة ٣: ٣٣١، وأسد الغابة ٤: ٢٦٨ قال الذّهبي: روي بإسناد لا يثبت. وقال ابن عبد البرّ: إسناد هذا الحديث ضعيف ولو كان فيه حكم لم أذكره لأن رواته مجهولون. وعمارة بن زيد أحد رواته متهم بوضع الحديث! ولكنه ـ أي الحديث ـ في معنىٰ حَسن من أعلام النبوّة.

فقال: إيتوني بِسَحَر أُخبِرْكم الخَبر، أهي لنفعٍ أم ضَرر، أم لأمنٍ أم حَذر!.

فانصرفْنَا عنه يومَنا، فلّما كان من الغَدِ أتيناه وقتَ السَّحَر، فإذا هو قائمٌ علىٰ قدميه، شاخصٌ نحْو السَّماء بعينيه، فناديناهُ: يا خِطْر!، فأومأ إلينا أن أَمسِكُوا فأمسكنا.

فانْقَضّ نجمٌ عظيم من السَّماء، وصَرخ الكاهن رافعاً صوته: «أَصابه مصابُه، خامَره عقابُه، عاجَلَه عذابُه، أحرقه شهابُه، زايله جوابُه، يا ويله ما حالُه؟! بلبلهُ بَلبالُه، عاوَده خَبالُه وقطّعت حبالُه[1]، وغُيِّرت أحوالُه».

ثم أمسك طويلاً وقال: يا معشرَ بني قَحْطان، أُخبركم بالحقّ والبيان! أقسمتُ بالكعبةِ والأَركان، والبلد المُؤتمن والسَّدان، لقد منع السمع عُتَاة الجان، بثاقب بكفّ ذي سُلطان، من أجل مبعوثٍ عظيمِ الشّان، يبعثُ بالتّنزيل والقُرآن، وبالهُدىٰ وفاصِل الفُرقان، تبطل به عبادة الأوثان! قال: فقلت: وَيْحَك يا خِطر! إنّك لتذكرُ أمراً عظيماً فما ترى لقومك؟ [٣٩/ب] فقال[2]:

أَرَى لِـقـومـي مـا أرى لـنـفـسـي
أَنْ يَـتْـبَـعُـوا خـيـرَ نـبـيِّ الإنـسِ
بُـرهَـانـهُ مـثـلُ شـعَـاعِ الـشَّـمْـسِ
يُـبْـعَـثُ فـي مـكّـة دارِ الـحُـمْـسِ[3]

---

(١) في ب: تقطعت. ويصح أن يكون الكلام من مجزوء الرّجز.
(٢) الشعر وتخريجاته على الأصول في الحماسة المغربيّة ١ : ٩٦.
(٣) الحُمس: قبائل من العرب تشدّدوا في دينهم منهم قريش، وبنو عامر بن صعصعة وخزاعة (ينظر الاشتقاق: ٢٥٠).

بِـمُـحـكَـمِ الـتَّـنـزيـل غـيـرِ الـلَّـبِـسِ

فقلت يا خِطْر! وممَن هو؟ فقال: والحيَاة والعيش، إنّه لمنْ قُرَيش، ما في حِلمهِ طَيْش، ولا في خلقه هَيش[1]، يكون في جيشٍ، وأيّ جَيْش! من آل قحطان وآلِ ريش[2] فقلنا له: بيّن لنا من أي قُريش هو! فقال: والبيت ذي الدعائم، إنّه لمن نجلِ هاشم من معشر بني آدم، يُبعَثُ بالمَلاحم، وقتلِ كُلّ ظالم. ثم قال: هذا هو البَيان، أَخْبَرني رئيسُ الجان[3] ثم قال: الله أكبر! جاءَ الحقّ وظهرَ، وانقَطَع عن الجِنّ الخَبر، ثم سكت وأُغمي عليه، فما أفاقَ إلا بعدَ ثلاثِ ليالٍ فقال: لا إلٰه إلا الله.

فقال ـ ﷺ ـ لقد نطَق علىٰ مثل النُّبوءة، وإنّه يبعث يوم القيامة وَحْدَه[4].

وعلاماتُ نبوءته ـ ﷺ ـ قبل مَبعثه تواتَرت بها الأخبار، وتحقّق أمرَها الكُهّانُ والرُّهبان، والأَحبار، ولولا الطُّول، والخُروج عن مقصدنا لذكرنا من ذلك ما يزدادُ في قلب المحبّ له من ذكره أنوار.

فالنبيُّ: هو النور الذي مُحِيت به عمايَةُ ما ضينا وباقينا، ورهطه هم عِصْمَتُنا في ديننا، ولهم فضلٌ علينا، وحقٌّ واجبٌ لدينا، وصلواتُ الله وسلامُه عليه وعليهم أجمعين، صلاةً وسلاماً ندَّخرهما لحياتنا ومَماتنا، ويومَ يقوم النّاسُ لربّ العالمين.

---

(١) الهيش: الاختلاط. وهاشَ إذا عاثَ وأفسد.

(٢) آل ريش كأنّه مخفّف من آل رائش. والرائش الحميري ملكٌ مشهور كان غزا قوماً فغنم غنائم كثيرة وراش أهل بيته؛ من الريش والرياش أي: الخصب والمعاش والمال والأثاث واللّباس الفاخر.

(٣) من بحر الرجز.

(٤) راجع الحاشية (٢) على الصفحة ٣٠٧ .

فصل

مِن آدابِ المحبّ للفجر السّاطع ـ ﷺ ـ أن يتَشبّه بطريقه، ويُكثر من ذكره. ويلذّذ السامعين بغريبِ سُطوع فجره، وينوّر قلوب المحبين[1] بعجائبِ شأنِه، وغرائبِ أمره، حتّىٰ يزداد نورُ الإيمان في القُلوب إذ صار غَرِيباً، ويتقَوّىٰ حبّ المصطفىٰ في قُلوبِ العباد، ويكون لهم حبيباً.

فعَسىٰ اللّهُ أن يَمُنّ عَلَيْنا ببقاءِ الإيمان، وأن يُزيّنه في قُلوبنا، حتىٰ نلقاه مع السّلامة والعافية في أَديانِنا وأبدانِنا.

ولا شكَّ أنّ القضايا الغريبة الشّأن إذا شاهَدها، وأخبر بها مَنْ مَنَّ الله علَيه بالإيمان بعد انهماكه في المعصية والكُفران ومحبّته لعبادةِ الأوثان مما يُقَوّي قلوب عباد الله ويُثَبّتها بنورِ الإيقان.

ولذلك كانَ عُمَرُ بنُ الخَطّاب ـ رضي الله عنه ـ يُكثر من السُّؤال عن أَحوالِ مَنْ مَنَّ الله عليه [٨٠/أ] بالإيمان من الأَخبار والكُهّان، لأنّ في ذٰلك إظهارَ نعمةِ الله علىٰ العباد وبيان تصرُّفه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وأنه لا يَرُدّ حُكْمَهُ رَادّ.

فبينما عُمر بن الخطاب رضي الله عنه جالساً يوماً إذ مرَّ به رجل فقيل له[2]: يا أمير المؤمنين أتعرفُ هذا المارّ؟

قال: ومن هو هذا المار؟

فقيل له: هذا سَوادُ بنُ قارِب الذي أتاه رئِيُّه[3] بظهورِ النبيّ ﷺ.

---

(١) في أ: قلوب السامعين.

(٢) قصّة سواد بن قارب في: السّيرة النّبوية ـ لابن هشام ١: ٢٠٩، وسبل الهدىٰ والرّشاد ٢: ٢٨١، ومنح المِدَح: ١٢٢، والخصائص الكبرىٰ ١: ٢٥٣ ودلائل النبوة للبيهقي ٢: ١٢٤٨ وخبره في البخاري ٧: ١٧٧.

(٣) الرَّئِيّ: الجِنّيّ يراه الإنسان. وقال الليث: الرئيُّ جُنّي يتعَرّض للرجل يُريه كهانة وطبّاً. يقال مع فلان رئيّ.

قال: فأرسَل عمر بن الخطاب فقال: أنت سواد بن قارب[1] الذي أتاه رئيّه لظهورِ النبيّ - ﷺ؟.

فقال: نعم!.

قال: أنتَ علىٰ ما كنتَ عليهِ من كَهانتك؟

قال: فغضب وقال: ما استَقْبَلني بهذا أحدٌ منذ أسلمتُ يا أميرَ المُؤمنين!.

فقال عمر - رضي الله عنه - سبحان الله! ما كُنّا عليهِ من الشّرك أعظمُ ممّا كنتَ عليه من كهَانتك، لولا فضلُ الله علينا، فأخْبِرني بإتيان رِئِيّكَ بظهور النبي - ﷺ - قال: نعم يا أمير المؤمنين، بينَا أنا ذاتَ ليلةٍ بينَ النّائم واليَقظان إذْ أتاني رِئِيّي، فضَربني برجلِهِ وقال: قمْ يا سَواد بنَ قارب فاسمعْ مقالتي، واعقل إن كنت تعقل! إنّه قد بُعث رسولٌ من لؤي ابن غالب، يدعُو إلىٰ الله، وإلىٰ عبادته، ثمّ أنشأ يقول:

عَجِبْتُ للجِنِّ وتَطْلابِهَا ... وشَدِّها العِيْسَ بأقْتابِها[2]

تهوي إلىٰ مكّة تبغي الهُدىٰ ... ما صادِق الجِنّ ككَذّابِها

فارحَلْ إلىٰ الصَّفوةِ من هاشمٍ ... ليس قُدَاماها كأذنابِها

قال، قُلت: دَعْنِي أنام! فإنّي أمسيتُ ناعِساً! فلّما كانت اللّيلة الثّانية أتاني يضرِبُني برِجله، وقال: قمْ يا سَواد بنَ قارب! فاسمَعْ مَقالتي، واعقِلْ إن كنتَ تعقل، فإنّهُ قد بُعِثَ رسولٌ من لؤيّ بن غالب يدعُو إلىٰ الله عز وجل، وإلىٰ عبادته ثم أنشأ يقول:

---

(١) ونقل في اللسان (عن النهاية) طرفاً من خبر سيّدنا عمر مع سواد بن قارب.

(٢) القَتَب والقِتْب: إكافُ البعير.

عـجـبـتُ لـلـجِـنّ وتَـخْـبـارِهَـا ... وشَـدِّهـا الـعِـيْـسَ بِـأكْـوَارِهَـا[1]
تـهـوي إلـىٰ مـكّـةَ تـبـغـي الـهُـدىٰ ... مـا مُـؤمِـنُ الـجِـنِّ كَـكُـفّـارِهَـا
فـارحَـلْ إلـىٰ الـصَّـفـوةِ مـن هـاشـمٍ ... مـا بَـيْـنَ رَبْـوَتِـهَـا وأحـجـارِهَـا[2]

قال: قلتُ دعني أنام [٨٠/ب] فإني أمسيتُ ناعساً! فلمّا كانت الليلة الثالثة، أتاني وضربني برجله، وقال لي مثل مقالته الأولىٰ والثانية، ثم أنشأ يقول[3]:

عـجـبـتُ لـلـجِـنّ وتَـجْـسَـاسِـهَـا ... وشَـدِّهـا الـعـيـسَ بـأحْـلاسِـهَـا[4]
تـهـوي إلـىٰ مـكّـةَ تـبـغـي الـهُـدىٰ ... مـا خَـيِّـرُ الـجِـنِّ كـأنْـجَـاسِـهَـا
فـارْحَـلْ إلـىٰ الـصَّـفـوةِ مـن هـاشـمٍ ... واسْـمُ بـعـيـنـيـكَ إلـىٰ راسِـهـا

قال: فَقُمت وقُلت: قد امتحن الله قَلبي فرحَلْتُ ناقتي ثم أتيت، فإذا رسول الله ﷺ ـ وأصحابُه حوله، فدنوتُ منه عليه الصلاة والسلام، وقلت: اسمعْ مقالتي يا رسول الله؛ فقال: هات، فأنشأتُ أقُول:

أتـانـي رِئـيّـي بـيـنَ هَـدْءٍ ورقـدةٍ ... ولـم يَـكُ فـيـمـا قـد بَـلَـوْتُ بـكـاذبِ[5]
ثـلاث لـيـالٍ قـولُـه كـلَّ لـيـلـةٍ ... أتـاكَ رَسُـولٌ مـن لـؤيّ بـن غـالـبِ

---

(١) الكُور: الرّحْل. وقيل: الرّحل بأدواته.
(٢) كذا عجز البيت، وفيه اختلال. ورواية البيتين الأخيرين في المصادر:
تـهـوي إلـى مـكـة تـبـغـي الـهـدى ... لـيـسَ ذوو الـشـرّ كـأخـيـارهـا
فـانـهـض إلى الـصـفـوة من هـاشـم ... مـا مـؤمـنـو الـجـنّ كـكـفـارِهـا
(٣) هذا الشعر في المصادر هو ما روي في الليلة الأُولى.
(٤) وروي: للجنّ وأنجَاسِهَا.
ـ والحلْسُ: كساءٌ رقيقٌ يكون تحت البَرْذَعة؛ وكل شيء ولي ظهر البعير والدابّة تحت الرّحْلِ والقتب والسَّرج.
(٥) ويروي: أتاني نَجِيّي.

فَشَمَّرْتُ عن ذيلِ الإزارِ ووسّطتْ بي الذِّعْلِبُ الوَجْناءُ بينَ السَّباسبِ[1]

فأشهدُ أنَّ الله لا رَبَّ غيرُهُ وأنَّكَ مأمونٌ على كُلِّ غائبِ

وأنَّك أدنىٰ المُرسلينَ وسيلةً إلىٰ الله يا ابْنَ الأكرمينَ الأطايبِ

فَمُرْنَا بِمَا يأتيكَ يا خيرَ مُرسلٍ وإنْ كان فيما جاءَ شيبُ الذّوائبِ

فكنْ لي شَفيعاً يومَ لا ذُو شفاعَةٍ سِواكَ بِمُغْنٍ عن سَوادِ بنِ قاربِ

قال الرّاويُ: ففرح رسول الله ﷺ، بإيمانه ومقالته فَرحاً شديداً، وكذلك الصّحابة حتّىٰ رُؤِي الفرحُ في وجوههم.

قال: فوثَب عمرُ بنُ الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ فالتَزمه، وقال: كنتُ أشتهي أن أسمعَ هٰذا الحديث منك، فهل يأتيك رَئِيُّك اليوم؟.

قال: أمّا منذ قرأتُ القرآن، وأدخل الله عليّ الإيمان فلا، ونِعْمَ العِوَضُ كتابُ الله تعالىٰ، عوّضني الله تعالىٰ عن الجِنّ ثم قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ[2]:

كُنّا يوماً في حيٍّ من قُريش، يقال لهم: آل ذريح وقد ذبحوا عِجلاً لهم والجزّارُ يعالِجُه إذْ سمعنا صوتاً من جَوْفِ العجل؛ ولم نَر شيئاً؛ يقول: يا ذريح أمرٌ نجيح، صالح يصيح، بلسانٍ فصيح؛ يشهدُ أن لا إله إلاّ الله [٨١/أ].

هذه حال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه وأرضاه في اجتهاده في إظهار دينِ نبيّنا ـ عليه الصلاة والسلام وحرصه علىٰ إدخالِ الإيمانِ بالله ورسولِهِ في قُلوبِ الأنام؛ نَفعنا الله بِهم وبمحبّتهم، وحَشَرنا في زُمرتهم.

---

(١) الذِّعلب: الناقة السريعة. والوجناء: الناقة الغليظة الصُّلبة.

(٢) سبل الهدىٰ والرشاد ٢: ٢٨٣ (تتمة للخبر نفسه) ونقله المؤلف على طريقته الغالبة باختصار.

باب

في معنىٰ اسمه

خليل الرحمٰن وخليل الله(١)

صلّى الله عَليه وسَلّم وشرّف وكَرّم

خليل الرحمٰن، وخليل الله اسمان من أسمائِه عليه أفضلُ الصّلاة والسّلام، وردث بهما الأخبار، ومشهور الآثار.

رُوِيَ بإسنادٍ متّصلٍ عن أبي سعيد الخُدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبيّ ﷺ ـ أنه قال(٢): «لو كنتُ مُتَّخِذاً خَليلاً غير ربي لاتَخَذْتُ أبا بكرٍ خليلاً»، وفي حديث آخر. «وإنّما صاحِبكُم خليلُ الرَّحمٰن»(٣).

وروي من طريق عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عنهُ عَليه

---

(١) ورد تفسير هٰذا الاسم الكريم في: الرّياض الأنيقة: ١٥٢، وانظره: ١٤٠ ـ ١٤١، وسبل الهدىٰ والرّشاد ١: ٥٦١.
وذكره القاضي عياض في الشفا ١: ٤٥٥.
ـ والعنوان في (أ): «خليل الله وخليل الرحمن» والعبارة كذلك في بدء الباب.

(٢) رُوي بألفاظ مُتَقاربة؛ ينظر مثلاً البخاري ١: ١٢٦ ومسند الإمام أحمد ١: ٢٧٠ وتهذيب ابن عساكر ٢: ١١٩٠ وفي المسند «لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن خلة الإسلام» «وفي رواية ١: ٤٦٢ «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً» يعني نفسه.

(٣) الفتح الكبير ٣: ٤٨.

الصَّلاةُ والسَّلام[1]: «وقد اتَّخذ اللَّهُ صاحِبَكُم خليلاً».

واختلفَ العلماءُ من أرباب القُلوب ـ رضي الله عنهم ـ في أصل اشتِقاق الخَلّة، وتفسيرها فقيل:

الخَلَّةُ: الانقطاع، وأنّ معنىٰ قولك: فلانٌ خَلِيلي أي مُنقطعٌ إليّ، وليسَ في محبّتِهِ اختِلال[2].

وقيل: الخليلُ لِلَّهِ هو المختصُّ بالعِنَايات الربّانية والمواهب اللَّدُنيّة.

وقيل: الخَلَّةُ معناها الاصطفاء.

وقيل: الخلّة أصْلُها الحاجة، ومعناها الافتقار. وسمّي بها الفقير المحتاج أخذاً لها من الخَلّة وهي الحاجة.

وقيل: الخَلَّةُ صفاءُ المودّة، وكمالُ المحبّة التي تُوجب الاختصاص بتخلّل الأسرار.

وقيل: الخلّةُ في القَلب معناها صفاءُ القَلب، وإخلاصُ الحَركات لِلَّه في جميعِ الحالات، وأنشدُوا[3]:

قد تخلّلْتَ مسلكَ الرّوحِ مِنّي ... ولذا سُمّيَ الخليلُ خليلا[4]

فإذا ما نطقتُ كنتَ حَديثي ... وإذا ما سكَتُّ كنتَ الغَليلا

وفي الخَلّة أقوالٌ غير هٰذه كلّها يَتأتّىٰ أن يُطلق علىٰ نبيّنا ـ ﷺ ـ

---

(١) مسند أحمد ١: ٤٦٣ وإتحاف السادة المتقين ٦: ٢٥٠.

(٢) قال الزجّاج: إن الخليل هو المحب الذي ليس في محبته خلل.

(٣) البيتان في سُبل الهدىٰ ١: ٥٦١ دون نسبة.

(٤) من بحر الخفيف.

بسببها أنه خليلُ الرَّحْمٰن، بكُلّ معنىً منها علىٰ أكمل حالٍ، وأتمّ نظام ومقال[1].

أمّا تفسيرُ الخَلّة بالانقطاع إلىٰ الله تعالىٰ، فهذا المعنىٰ معلومٌ ضرورةً في حَقّ أنبياءِ الله عز وجل، وأنّهم منقطعون إلى رَبّهِمْ في جميع أحوالهم، وخصُوصاً سيّد الأنبياء، وخلاصة الأصفياء بزيادة انقطاعه إلىٰ مولاه في نَوْمِه ويقظته، وسكونهِ [٨١/ب] وحركته، ملئت بكتبه الدّواوين، وحازَ قصبَ السَّبْق فيه بين النبيّين والمُرسلين.

وأمّا اختصاصُه بالعنايةِ الربّانيّةِ، والمَواهبِ اللُّدُنّيّةِ فَأَمْرٌ مقطوعٌ به، سادَ به البرية.

وأما كونُ خلّته لِصَفاء مودّته، وكمال محبته، واعتدال حركته، وحُسن هديه في جميع حالاته، لتصفية قلبه، ومراقبته لربه، فَما يعبّر عن ذلك بأحسنَ ممّا قالت عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ في وصفه[2]: «كانَ خُلُقه القُرآن، يَرْضَىٰ لرضاه، ويَسْخَطُ لِسَخَطِه».

فكونُه ـ ﷺ ـ خليلَ الله بمعنىٰ أَنّه منقطع إلىٰ الله، مُعْرِضٌ عَمّن سواه، مُوقِفٌ حوائجَهُ علىٰ مولاه غيرُ ملتفتٍ لِمَا دونَهُ من الوسَائط والأسباب، معلّقٌ قَلْبَهُ في جميعِ الحالاتِ بمسبّب الأسباب.

ولزيادة اختصاصِ الله له، وخَفيّ ألطافِه به، وما خلل باطنه ـ عليه السّلامُ ـ من أسرارِ الألوهية، ومكنونِ غُيوبِ الربوبيّة صيَّره ـ سُبحانه

---

(١) وفي حديث طويل عن أبي هريرة رضي الله عنه (الخصائص الكبرى ١ : ١٧٥): «وقد اتخذتك خليلاً وحبيباً، وهو مكتوبٌ في التوراة حبيب الرحمن». قال السيوطي في الرياض الأنيقة ١٤١ ـ ١٤٢ : ورجاله موثقون إلاّ أنّ الربيع بن أنس قال فيه عن أبي العالية أو غيره فتابعيه مجهول.

(٢) صحيح مسلم: ٥١٣ ومسند الإمام أحمد ٦: ٥٤، ٩١. وهو في الشفا ١ : ١٢٥.

وتعالىٰ ـ خليلَهُ، ولاصطفائه رَبّه عز وجل عن جميع خلقه، ولاستصفاء خُلقه ـ ﷺ ـ حتىٰ لا يدخل (في) قلبه شيء غير حُبّه لِمَوْلاه اتّخذه صَفِيّه.

ولذا قال ـ ﷺ[1] ـ: «لو كنتُ مُتَّخِذاً خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أبا بكر خليلاً»، أَيْ: لا يسع قلبي غير مولاي، ولا يَسْتَقِرُ فيه غيرُ خالقي ووَاهبي نِعَمه، والمُظهر عليّ كَرمه.

وسُمّي إبراهيم ـ عليه السّلام ـ بخليل الله تَعالىٰ[2]، لأَنّه انقطع إلىٰ الله في جميعِ أُموره[3].

وقد جاءه جبريلُ عليه السّلام[4]، وهو في المنجنيق لِيُرْمىٰ به في النّار، فقال له: ألك حاجة؟.

فقال له: أَمّا إليكَ فلا! وأمّا إلى رَبيّ فَبَلى.

فقال له: سل ربَّك.

فقال: عِلمُه بحالي يُغني عن سُؤالي[5].

وتقرّرت الخَلّة في إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أيضاً لاصطفاءِ

---

(١) سبق تخريجُه في هذا الباب (الحاشية ٢) الصفحة: ٣٠٧ .
-في ج: لو كنت مُتخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت... الخ الحديث.
-وفي أ: أي: لا يسع قلبي غير مولاي الذي أظهر عليَّ منّه.

(٢) ينظر ما ورد في تفسير الآية الكريمة من سورة النساء ٤/ ١٢٥ ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ في مثل تفسير القرطبي ٥: ٣٩٩ ـ ٤٠١.

(٣) قيل في التفسير (القرطبي ٥: ٤٠١) معنى الخليل: الذي يوالي في الله ويُعادي في الله.

(٤) تفسير القُرطبي ١١: ٣٠٣.

(٥) في أ: حَسْبِي من سُؤالي. علمه بحالي يُغني عن سُؤالي.

الله ـ تعالىٰ ـ إياه، وتصفية باطنه مِمّا سوىٰ الله، وإعراضه عن الأَسباب والوَسائط دون الله، فَشارك إبراهيم عليه الصلاة والسلام في خُصوصيّة الخلة نبينا محمّد ـ ﷺ ـ وإن كانت خَلّةُ نبيّنا ـ ﷺ ـ أعظمَ وأعلىٰ قدراً [٨٢/أ] علىٰ قدر مقامِه عند رَبّه العليّ الأعلىٰ.

يُروىٰ في بعض الآثار[١] عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ـ أنّ إبراهيم عليه السّلام حيث أتىٰ إليهِ جبريل فقال له: أَلكَ حاجة؟ قال: سمعه النّبيُ ـ ﷺ ـ وهو نورٌ في ظهر الخليل عليهما الصّلاة والسلام، فكانت خلّة إبراهيم الخليل من خلّة النّور الذي نقله الله تعالىٰ إليه.

قال النبيُ ـ ﷺ ـ فَلمّا سمعت كلام جبريل وإغاثته، أنطقني الله سبحانه وتعالىٰ فأجبته، وقلت له:

جَزاك اللّهُ خَيراً يا جبريل عن أَبِي إبراهيم، ولئن بَعثني الله ـ سُبحانه ـ نبِيّاً جازَيْتُكَ عِند رَبّي.

قال فلمّا بَعثني الله عزّ وجلّ، وأُسْرِيَ بي ليلة الإسراء، وقطعتُ السّمٰوات السّبع حتىٰ انتهيتُ إلىٰ الأُفق الأعلىٰ وأرادَ جبريل أن يرجع، فقلت: يا جبريل ها هنا يترك الحبيب حبيبه؟.

فقال: يا محمّد إنَّ بين يديك حُجباً من نور، لا أَستطيعُ أَن أَجوزَها، فتذكّرت قضيتهُ مع إبراهيم، فقلت له: أَلكَ حاجة إلىٰ رَبّك يا جبريل؟ فقال: نعم يا محمّد، إن حاجتي عند ربّي إذا كان يوم القيامة، ونصب الصّراط، يأمُرني الله تعالىٰ أن أنصب جناحي علىٰ الصّراط حتىٰ

(١) ينظر في موضوعه ومعناه دلائل النبوة للبيهقي ٢: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

تجوزَ عليه أمتَك إكراماً لك[1]. والقضيّةُ فيها طول، والشاهِدُ فيها ما ذكرناه.

فتذكَّرْ أيُّها المحبّ مقام خلّة نبيّنا وشفيعنا ـ ﷺ ـ لتخلّل مَحَبَّتُه في قَلبك، وتخالطَ بشاشةُ الإيمانِ صميمَ فُؤادك ولُبّك.

فصل

مِن آداب مَن عَلِمَ أنّ نبينا ـ ﷺ ـ خليل الله، وسمّي بذلك لانقطاعه إلىٰ الله، واستسلامه إليه، وتوكّلِه عليه، وتفويضِهِ لقضائهِ، وصبرِهِ علىٰ بلائه وهو في غاية الرّضا والمحبة علىٰ كل حال في جميع الأقوال والأفعال وفي كل مقام، قد أعطاه مولاه روح الاستسلام[2]، وصان قلبه عن النّظر إلىٰ غيره من الأنام، أَنْ يكون مُحِبُّه علىٰ نهجه وطريقه، مسلّماً لربه في جميع أموره.

قال الشّيخ وليّ الله ابن عطاء الله[3] رحمهُ الله، ونفع به:

أيها المؤمن استسلمْ إلىٰ الله في واردات الامتحان أعاد الله [٨٢/ب] عليه شوكها ريحاناً، وخوفها أَماناً، فإذا قذفك الشّيطان في منجنيق الامتحان، فعرضت لك الأكوان قائلات: أَلكَ حاجة؟ فقل كما قال إبراهيم خليلُ الله ـ عليه السلام ـ: أمّا إليك فَلا، وأمّا إلىٰ رَبّي ـ جلّ جلاله ـ فَبلىٰ.

---

(١) سَبق في هذا الكتاب.

(٢) سبق قول المؤلف: «لانقطاعه إلى الله واستسلامه إليه» وهو يريد معنى الانقياد لله سبحانه والتفويض لقضائه.

(٣) هو ابن عطاء الله السكندري، الصوفي الشهير (سبقت الإشارة إليه في هذا الكتاب).

فإن قالت لك: سَلْه، فقل: حَسبي من سُؤالي علمه بحالي، فإنّ الله تعالىٰ يُعيد عليكَ من نار الدُّنيا بَرداً وسلاماً، ويعطيك منه إنعاماً وإكراماً، لأنّ الله سبُحانه فَتح بالأنبياءِ والرُسلِ سبيلَ الهُدىٰ، فسلكه وراءهُمُ المُؤمنون، ولزم اتّباعهم المُوقنون كما قال جلّ جلاله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٢/١٠٨] .

أيها المُحِبُّون، ضاعفَ الله حُبّي وحُبّكم، وقَلبي وقلبكم بهذا النُّور الذي أشرق ضِياؤهُ وعَمّ الآفاق، وصفا قَلْبُه عَمّا سوىٰ المَلك الخَلاّق، فلم يكنْ مُتعَلّقاً إلاّ بمولاه فحقّ له أن يَتَسمّىٰ خليلَ الله.

فانهجوا ـ رَحمكمُ الله ـ طريقته ـ واتّبِعُوا هَدْيَه وسُنّته في انقطاعهِ إلىٰ رَبّهِ، وتوكُّلَهُ عَليه، واستعماله الأَسباب، وصَفاء قلبه، وتعلّقه بِرَبّ الأَرباب.

فكانَ من كلامِه ـ عليه الصَّلاةُ والسّلام[1] ـ: «اللّهُمّ أَنت الصَّاحبُ في السَّفر، والخليفةُ في الأَهل»؛ فأشار ﷺ إلىٰ أنّ العبد في جميع أحوالِهِ مسافرٌ بقلبه، متعلّق بربّه، والمَوْلىٰ ـ سبحانه ـ هو القائمُ بهِ وبأهله.

إنَّ الَّــذِي وَجَّــهـتُ وَجْـهِـي لَـهُ ... هـو الّذي خلّفتُ في أهْـلِـي[2]

لـم تـخـفَ عـنـهُ حـالـتـي سـاعـةً ... وفـضـلُـه أوسَـعُ مـن فَـضْـلِـي

فإذا انقطعتَ إلىٰ رَبّك وتوكّلْتَ عليه، وإن كنتَ مُستعملاً لأسبابك الشّرعية، فلا تعتقد إلاّ أنّها أمارات علىٰ جَرَيان الأَرزاق علىٰ العباد من ربّ الأرباب علىٰ ما جرت به العادات، ولو شاء ربُّنا ـ جلّ جلاله ـ

---

(١) مسند الإمام أحمد ١: ٢٥٦.

(٢) من بحر السريع.

لرزقنا من غير سبب ولا تكسُّب وطلب[1]؛ ولكنَّهُ عَلِمَ ـ جلّ جلاله ـ بما سبقَ من إرادته أنَّ هٰذه دار تعب ومحنة وإظهار فاقة فَجرت الأشياءُ بحكمته وقدرته علىٰ وفق ما سبَق من العلم والإرادة، وأنّ الأسبابَ في الظّواهر لا تُنافي الاعتمادَ علىٰ الربّ [٨٣/أ] في الضّمائر.

فالواجبُ إسقاطُ التّدبير مع المدبّر، والتسليم لقضاءِ القادِر والمصوّر.

فالفقيرُ التّابع لرسول الله ﷺ ـ هو المتعلّقُ قلبه بالله في جميعِ أُموره، الرافع همّته عن التّذلُّل في طلبِ رزقِهِ من خلقه.

قال بعضُ العارفين: رَفْعُ الهمَّة عن الخَلق هو ميزانُ الفُقَراء. وقبيحٌ علىٰ الفقراء أن يُنزِلُوا حاجَتهم بغير مولاهم، ويذلّوا أنفسهم لأربابِ الدُّنيا، بالسّعي إليهم، وكثرة الوقوفِ بأبوابهم، موافقين لهم علىٰ مآربهم. تراهم يتزينون كما يتزَيَّنُ العَرُوس، مُعتَنُوْنَ بإصلاحِ ظواهرهم[2]، غافلينَ عن إصلاحِ سرائرهم.

لقد كانت تسميةُ أَحدهم لو صدق في فقره أن يسمّىٰ عبدَ الكبير، فخرج من هٰذه التّسمية، فصار يُضاف لِعدم صدقه ـ إلىٰ العبدِ الحقير الذّليل. أُولئك هُم الكاذبون علىٰ الله، الصّادقون العباد عن صُحبة أَولياء الله.

قال ابن عَطاءِ الله ـ رحمه الله ـ: رَفْعُ الهِمّة عن الخَلق هي زينةُ أهل الطّريق وشِيمةُ أَهل التّحقيق.

قال: ولنا في هٰذا المعنىٰ، وذكر قصيدة يقول فيها:

(١) في ب: تكسُّب وتطلُّب.

(٢) في أ: إصلاح ظاهرهم.

اللهُ يعلمُ أنني ذو همَّةٍ تأبى الدنايا عِفَّةً وتَظَرُّفا[1]

لم لا أصونُ عن الورىٰ ديباجتي وأُريهمُ عِزَّ الملوك وأشْرَفا[2]

أأُريهم أنّي الفقيرُ إليهمُ وجَميعهُمْ لا يَستطيعُ تصرُّفا

أم كيفَ أسألُ رزقَهُ من غيرهِ هٰذا لَعَمْرِي إنْ فعلتُ هو الجفَا

شكوىٰ الضّعيفِ إلىٰ ضعيفٍ مثلهِ عجزٌ أقامَ بحامليه علىٰ شَفا

فاستَرْزِق اللّهَ الّذي إحسانُه عَمّ البريّةَ مِنّةً وتلَطُّفا[3]

هٰذه طريقُهم ـ رضي الله عنهم ـ وألْحَقنا بهم، وجَعلنا مِمَّنْ أَحَبَّهُم واتّبعهم، وصلّىٰ اللّهُ علىٰ سيّدنا محمد خليلِ الله ونبيّه ورسولهِ وصفيّهِ وعلىٰ آله وصحبِهِ وسَلّم تَسليماً، أفضل الصلاة وأفضل التّسليم.

---

(١) من بحر الكامل.

(٢) الديباجة: الخَدّ، أو صفحة الخَدّ (اللّيْث). وقول الشاعر: أصون ديباجتي عن الناس؛ أي يحفظها من سُؤالهم. قال الشاعر القديم:

من يسأل الناس يمنعوه وسائل الله لا يخيبُ!

(٣) في ب: وتعطفا.

باب
في مَعْنىٰ اسْمِهِ
حبيب اللهِ[1]
صلّى اللهُ عَليه وسَلّم وشَرَّفَ وكَرّم

حبيب الله: اسمٌ من أسمائه عليه أفضلُ الصّلاة والسّلام، وردَت به الأخبارُ المشهورة [٨٣/ب] والأحاديثُ الصحيحةُ المسطورة.

رُوِيَ في الصّحيح عن عبد الله بنِ عباس رضي الله عنهما قال[2]: «جَلس ناسٌ من أصحابِ النبي ﷺ - ينتظرونه، قال - رضي الله عنه - فخرَج النبي ﷺ - حتىٰ إذا دنا منهم وهم يتَذاكرون، فسمع حديثهم فقال بعضهم: عَجباً إن الله اتّخذ من خَلقه خليلاً! وقال بعضهم: ماذا بأعجب من كلامِ مُوسىٰ: كَلّمه اللّهُ تكليماً! وقال آخر: فعيسىٰ كلمة اللّهِ ورُوحه!.

وقال آخر: آدم! اصطفاه الله! فخرج - ﷺ - فسلّم وقال: سمعت كلامكم وعجبكم «أنّ الله اتخذ إبراهيم خليلاً وهو كذلك وموسىٰ نجِيُّ اللّه؛ وهو كذلك، وعيسى روح الله؛ وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك، ألا وأنا حبيبُ الله ولا فَخر، وحامل لواءِ الحَمد يوم القيامة،

---

(١) ورد تفسير هذا الاسم الكريم في: الرّياض الأنيقة: ١٤٠، وسُبل الهدىٰ والرّشاد ١: ٥٥٠. وذكره القاضي عياض في الشفا ١: ٤٥٥.

(٢) سنن التّرمذي ٥: ٢٤٨. وانظر الفتح الكبير ١: ٢٧١، ٢٧٥.

وأنا أوّل شافعٍ وأوّلُ مُشفَّعٍ ولا فخر، وأنا أوّلُ مَن يُحَرّكُ حلقة الجَنّة[1]، فيفتَحُ الله لي، ومعي فُقراءُ المُسلمين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر».

فأصِيخُوا - رَحِمَكُم الله - سَمْعكم لهٰذا الحديث العظيم، وتذكَّرُوا ما اجتمعَ عليه من مقامِ المُصطفىٰ عند مولاه الكريم.

فلمّا أنْ تذاكرتْ أصحابُه الكرامُ، الأئمّةُ الأعلامُ الصّفاتِ التي أعطاهُ الله - سُبحانه - ومَنّ بها علىٰ من شَرَّفه الله واصْطَفاه من الأَنام، فذكروا الخُلّة لإبراهيم - عليه السلام - والكلام لموسىٰ - عليه السلام - وإضافة الكلمةِ والرُّوح لعيسىٰ عليه السلام، والاصطفاء لآدم عليه الصلاة والسلام، وعلىٰ سائِر الأَنبياء عليهم السّلام.

فلمّا سَمِعَ المُصطفىٰ - ﷺ - كلام أصحابه ومذاكرتهم في أَنبياءِ الله، وأَصْفِيائه عليهم السّلام، أقرهم علىٰ ما ذكروه من صفاتِ الكَمال وبَيّن لهم أن حصولَ هٰذا الفضل من الواهب المُتَعال؛ كيف وقد قال جلّ جلاله في كتابه خالق الأرض والسموات ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٣] .

فأشار المُصطفىٰ - ﷺ - إلىٰ كمال الفائدة لأَصحابه، وبيان العقيدة في خواصّ أَحبابه، وأنّ المولىٰ قد فضّل من شاءَ من خَلْقهِ بما شَاء، وأنّ كرمه وتفضيلَهُ لا نهايةَ لحصرهِ. فسائرُ أنبياءِ الله - سبحانه وتعالىٰ - وسائر رسله، وإن فضلهم علىٰ [٨٤/أ] سائر العباد، وأعلىٰ مكانتهم ومكانهم في هذه الدار، وفي يوم المَعاد، فقد خصّ هذا النبيّ الّذي بينَ أَظْهُرِكُمْ بما تقرُّ به في الدّارَيْنِ أَعْيُنكم، وتَطِيبُ به نفوسُكم، وتنشرحُ به

(١) في ب: حلق الجَنّة.

صُدوركم.

فَبيّن ـ ﷺ ـ مِنّةَ الله تعالىٰ عليه بأنّه حبيبُ الله، وسيّد أَولياءِ الله، وناهِيْكَ بهذه الخَصْلَةِ الكاملة والنّعمةِ الشاملة، لأنّ في هٰذه الإضافة إلىٰ المولىٰ جلّ جلاله من كونِ نبيّنا ـ ﷺ حبيباً لهُ من التّفخيم والتّعظيم ما لا تُحيطُ بهِ العُقول، ولا يعبّر عن كُنهه[1] مِقْوَل[2]، لأنك إذا قلت ـ وللّه المَثلُ الأعلىٰ ـ: فلانٌ حبيبُ السُّلطان فقد تقرّر بذلك للسّامع من فَضله وعُلوّ منزلته عندَ مَن أُضيف إليه ما لا يسعُ حَمله الآذان؛ فكيفَ وقد أُضيفَ كونُه ـ ﷺ ـ حَبِيباً إلىٰ مالك المُلوك الذي يُعطي ويَمنع، ويضَعُ ويَرْفَع؛ مَنْ أَوْجَد العالَم بأَسرِه، وهو ـ سُبحانه ـ كلَّ يوم هو في شأن[3]: يضرّ وينفع، ويخصُّ من شاء بِما شاء ويخفضُ ويَرفع.

فدَلّت هٰذه الإضافةُ إلىٰ المَولىٰ ـ جلّ جلاله ـ وخصوصيّتها لهذا النّبِي الكريم علىٰ كمالِ الرِّفعة وعُلوّ المَنزلة وذروة التّفخيم. ورَبّنا ـ سبحانه ـ وإن كانَ مُحِبّاً لأَوليائه وأنبيائهِ كلّهم، بمعنىٰ أنّه مُنعِمٌ عليهمْ في دُنياهم وأُخراهم؛ لكنّ إنعامه لسيّد المخلوقات ومَن خَلَق مِن أجلهِ[4] الأَرضين والسّمٰوات، لا يصلُه إنعامٌ، ولا يبلغُه إعظام؛ فلذا خَصَّهُ ـ ﷺ ـ بأنّه حبيبُه، أي أن المخلوقَ الذي خَلقْتُه وأَنعمتُ عليه، واصطفَيْتُه اصطفاءً لم يَبْلُغ أحدٌ فيه منزلته. هو هٰذا الحبيبُ المِرتضىٰ، وأَفْضَلُ من يَأتي وأكرمُ مَنْ مَضىٰ.

---

(١) في ب: يعبّر عنه.

(٢) المِقْول: اللّسان.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الرحمن ﴿كلّ يومٍ هو في شأن﴾ [الرحمن ٥٥/ ٢٩].

(٤) في ب: ومن خلق لأجله.

وإيّاكُمْ أن تَفْهَمُوا ـ رحمكم الله! ـ وشرَح صَدري وصَدركم، ونَوّر قلبي وقلبَكُمْ أنَّ معنىٰ المحبّة من رَبّنا ما نجدُ في قُلوبنا من المَيل بالقلبِ إلىٰ أمثالنا أو شَهواتنا؛ فإنّا مُحْدَثُوْنَ في بُنيتنا وأَشكالنا.

وصفاتُ مَولانا جلّ جلالُه لا تُشبه صفاتِنا وذاتُه لا تُشبه ذاتنا، وكل ما خطر في قلوبنا من [٨٤/ب] صفاتِ الله تعالى مُستحيل عند العُقَلاء أن يكون كصفاتنا.

فَمحبّةُ الله تعالىٰ لعبده إنعامه عليه بالتّوفيق، واختصاصه بما مَنَّ به لديه، وإضافة المحبّة إلى الله تعالى كنايةٌ عَنْ تمامِ الإنعام، وكمال التّبجيل والإكرام.

فمحبته لرسوله ـ ﷺ ـ تمكينه من سعادته وعصمته وتأييده وتَوفيقه، وتهيئته لأَسباب القُربِ من خالقِه الربّ، وإعطاؤه من المواهب اللّدُنّية، والمعارف الرّبانية ما لا عينٌ رأتْ ولا أُذنٌ سمعت، ولا خَطر علىٰ قلب بَشر ﷺ وعلىٰ آله وصحبه ما طلَعتْ شمسٌ ولاحَ قَمر.

وإن كانت هٰذه المحبة حاصلةً لسائرِ أَنبياءِ الله ورُسلهِ ـ صلواتُ الله علَيهم وسلامُه ـ لكنْ قد أخذ منها[١] سيّدُ المُرسلين، وقائدُ الغُرّ المُحَجّلين النّهايةَ العُظمىٰ، ونالَ منها الحظَّ الأَعظمَ مِن بين أهلِ الأَرضِ والسَّما.

ولقد أجادَ البُوصيريّ ـ رحمه الله ـ في ثَنائِه علىٰ رَسُول الله ـ ﷺ ـ فقال وجَمع ومنع، وأحسن المقال؛ فقال[٢]:

فاقَ النَّبِيّينَ في خَلْقٍ وفي خُلقٍ ... ولم يُدانُوْهُ في عِلْمٍ ولا كَرمِ

---

(١) في ب: اختار منها.

(٢) ديوان البوصيري: ٢٤١.

وكـلُّـهـم مـن رَسُـولِ الله مُـلْـتَـمِـسٌ غَـرفاً من البحر أو رَشفاً من الدِّيَمِ
وواقـفـونَ لـديـهِ عـنـدَ حَـدِّهِـمُ من نقطةِ العِلم أو من شكلةِ الحكمِ
فـهـو الَّـذي تَـمّ مـعـنـاهُ وصُـورتُـه ثُـمّ اصـطـفَـاهُ حَـبِـيـباً بـارئُ النَّـسَـمِ

فصل

ممّا ينبغي التّنبيهُ عَليه هنا للسّامعين، ويلمّح بتذكاره للمُحبين(١) أنّ هذا الحديثَ لا يُفهم منه أنّ الأنبياءَ المذكورين خُصّوا بتلك الصّفات، ولم يشاركهم فيها أحدٌ من المخلوقات بل يجبُ اعتقادُ ما مَهّدناه، وحِفْظُ ما أسسناه وذكَرناه، فإنّ نبيّنا - ﷺ - يصدُقَ عَليه أنّه مُصطفىٰ الله، وخليلُ الله، وكلمة الله(٢)، لكن ذكر له المولىٰ(٣) - جلّ جلاله - صِفاتٍ خصّهُ بها وإنْ شاركه غيره في صفةٍ مَنَّ الله تعالىٰ بها. وإن كان رسول الله ﷺ صَدق عليه أنّهُ خليلُ الله، وشاركه إبراهيمُ عليه السّلام في هذا الإكرام؛ لكن اختصّ النبيّ - ﷺ - بأنْ(٤) أطلقَ عليه حبيب الله؛ [٨٥/أ] ليُظهر اللّهُ منزلته بتمام الإنعام.

وقد اخْتَلفَ بعضُ العُلَماءِ: هل الخَلّةُ والمحبّةُ مُتلازِمَان، فلا يكونُ الخليلُ إلاّ حبيباً، ولا يكون الحبيبُ إلاّ خليلاً؟ هكذا قال بعض العارفين.

وقيل: درجةُ الخَلّةِ أفضلُ عند جماعة من المحبّين وكلٌّ من

---

(١) في ب: «ويلهج بذكره المحبّون». وفي ج: «ويلمح بذكره المحبّين» وفيه سهو من الناسخ.
(٢) في ب: كليم الله.
(٣) في أ: ولكن ذكر له المولى. وفي: لكن المولى.
(٤) في ب: بأنه أطلق عليه.

القَولين عند من حَقّق من أرباب القُلوب غيرُ مرتضىً؛ بل المحبّةُ أفضلُ من الخَلّة لأنّها درجةُ نبيّنا المُرتضىٰ. وجُعِلَتْ لهُ هٰذه الدَّرجة ولم تكنْ لغيرِه من الأَنبياءِ، ولم يختصّ بها أَحدٌ من الأَصفياء.

وقد شارك نبيُّنا ـ ﷺ ـ الخليلَ في خلّته، وزادَ عليه في القُرب من الله سُبحانه بتمام اصطفائه ومحبّته.

وقد قال القاضي أَبو الفضل عِياض ـ رحمه الله ونفعَ به ـ عن الإمام ابن فُوْرَك[1] عن بعضِ المتكلّمين كلاماً في الفَرْقِ بينَ المحبّةِ والخَلّة، وأنَّ مقامَ المحبّة أفضلُ فقال[2]: الخُليل: يصلُ إلىٰ الله تعالىٰ بالواسطة، لقوله عزّ وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام ٦/ ٧٥] .

والحبيبُ يصلُ إلىٰ الله بغيرِ واسطةٍ؛ لقوله سُبحانه ﴿قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ [النجم ٥٣/ ٩] .

والخليل قال: حَسبي الله.

والحبيب قيل له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال ٨/ ٦٤] ، والخليل قال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشعراء ٢٦/ ٨٤] والحبيبُ قيل له: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح ٩٤/ ٤] أعطاه الله بلا سُؤال؛ إلىٰ غير ذٰلك مِن كمالِ التكرمةِ، ودلائل تمامِ المَحبّة من أَوصافِه التي خَصّه بها مَولاه، وفضّله بها علىٰ مَنْ سواه.

---

(١) أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني (ت ٤٠٦هـ) واعظ عالم بالأصول والكلام، من فقهاء الشافعية. قال ابن عساكر إن كتبه في أصول الدين وأصول الفقه ومعاني القرآن قريبٌ من مئة. من كتبه مشكل الحديث وغريبه وهو مطبوع.

(٢) الشفا ١: ٤١٥ ـ ٤١٦.

فاذكُرْ مِنَ الأوصافِ العظيمةِ والمنازِلِ الكريمةِ والأخْلاقِ السَّليمة ما شئتَ كيفَ شِئتَ في كلّ مكانٍ وفي جميعِ الأحوال والأوقات والأزمان[1]:

دَعْ ما ادَّعَتْهُ النَّصارىٰ في نبيِّهِمُ ... واحكمْ بما شئتَ مَدحاً فيهِ واحْتَكِمِ

وانسبْ إلىٰ ذاتِه ما شئتَ من شَرفٍ ... وانسبْ إلىٰ قَدْرِه ما شئتَ من عِظَمِ

فإنّ فضلَ رَسُولِ الله ليسَ لهُ ... حَدٌّ فيعربَ عنهُ ناطقٌ بِفَمِ

فما أَبلغ هٰذه الأبيات من هٰذا المُحِبّ في حبيبِ الله وخاصّةِ الله، لأنّه ذكَر كلاماً جامعاً في نَعْتِه، مانعاً في وَصفه، أي: اترُكْ ما ضَلّت بهِ النّصارىٰ في عيسىٰ عليه السلام، لأنّهُمْ أفرَطُوا في مَدْحِه والثّناءِ عليه حتّىٰ اعتَقَدوا فيه الألوهية [٨٥/ب] وألحَقُوهُ بمقام الرّبوبية. وهل هٰذا إلا غَباوةٌ وضلالةٌ منهم، وجَهالة، بل يجبُ علينا أن نعتقدَ كلّ كمالٍ في نبيّنا، وكلّ صفةٍ سنيةٍ ننسبها لرسولنا؛ إلاّ صفات مولانا وخالقنا الّذي خلقه وصوّره ومَنّ عليه بصفات الكمال وقَدّره.

ومعنىٰ أنَّ عيسىٰ كلمة الله ورُوحه: أن الله سبحانه خلَق عيسىٰ من أمٍّ بلا أبٍ بقدرته الباهرة، وإرادته القاهرة. فلمّا أنْ أرادَ الله ـ جلّت قدرته ـ حَمْلَها بغيرِ زوجٍ، كوّنَ الحملَ في بطنها مع تَمامِ إحصانها بِقُدرة القَديم القادر، وتمّم مولاه خلقه خَرْقاً للعادة، فكان عِبْرَةً للناظرين.

وقد تقرّر في العُقول أنَّ الله قادرٌ علىٰ أن يخلقَ الشّخص من غيرِ أبٍ ولا أمّ كما كوّن آدمَ ـ عليه السلام ـ ربُّ الأرباب ـ من تُراب، وخَلق حَوّاءَ من أبٍ من غير أمّ؛ فكذٰلك خلقَ عيسىٰ من أمّ بلا أب.

فَسُبْحَانَ مَن لا يُعجزه شيء في ممكن مخلوقاته، القادر علىٰ ما

---

(١) ديوان البوصيري: ٢٤١.

شاءَ في مَصْنُوعاته. وسمّاه الله: روح الله؛ أي أنّ روحه مضافةٌ إلىٰ الله إضافةَ تَشريفٍ وتعظيم، ومخلوقٍ إلىٰ خالقٍ كريم كما قيل: كعبةُ الله؛ وأشباه ذٰلك كما هو معلوم عند أُولي البَصِيرة والتّعليم[1].

وأمّا كونه كلمة الله: فهذه الكلمة معناها آيةُ الله في كونه أنطقَه الله في المَهْدِ حيثُ أشارت إليه أُمّه فأعطاهُ الله تلك الكلمة أي الكلام الغَريب، واللّسان الفصيح العجيب فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم ١٩/٣٠ ـ ٣٣].

فالمقصودُ من هٰذا الثّناء علىٰ أنبياءِ اللّٰهِ تعالىٰ بما يليقُ بهم من صفاتِ الكمال، ممّا هو كمالٌ في حَقّ البشر. والوقوف في التّفضيل علىٰ من فضّله الله ـ سُبحانه ـ واختصّ عمن[2] سواه، ومَضىٰ بذلكَ القَدر ـ ﷺ وشرّف وكرّم ما طلعت شمسٌ وقمر.

فصل

من آداب من عَلِمَ أنّ نبيّنا ـ ﷺ ـ اسمُه حبيبُ الله، وأَنَّ الله ـ سُبحانه ـ [٨٦/أ] أنعمَ عليه وأثنىٰ عليه، وأَعْطاه من النّعم ما لا يُعطيه مخلوقاً لديه، فليتأدّبْ بِخُلقه العَظِيم، وببعضِ فضلهِ الكريم الذي هو سَببٌ في إنعام الله تعالىٰ، وحُصول خيره الجسيم. وشواهد القُرآن

(١) قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنا البَيْتَ مَثابَةً للنّاسِ وأَمْناً واتَّخِذُوا مِن مَقَامِ إبراهيمَ مُصَلّى وعَهِدْنا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ أنْ طَهِّرا بيتيَ للطّائفينَ والعاكِفِيْنَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، وفي تفسير القرطبي ٢/ ١١٤ أضاف تعالى البيت إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم، وهي إضافة مخلوق إلى خالق، ومملوك إلى مالك.

(٢) في ب على مَنْ سواه.

والسُّنة دالّة علىٰ أنّ الله يحبُّ خواصّ عَبِيده، وأنّ ذلك مما ينالونَهُ بالوُقوف عند بابه وخدمته. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف: ٦١/٤] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة ٢/٢٢٢] ومَنْ أحبّهُ الله تعالىٰ لا يؤاخذه بذنبٍ؛ ولا يخاف يوم القيامة من وُقوع كرب.

ولذا قال تعالىٰ في جوابِ اليَهُود حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة ٥/١٨]، قال جلّ جلاله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة ٥/١٨] أي لو كنتم أحبّاءَ المَولىٰ جلّ جلاله لَمَا عَذّبكم، فإنّ أحبّاءَ الله تعالىٰ هم أولياؤهُ، وأولياءُ الله لا خوفٌ عليهم ولا هُم يحزنون ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس ١٠/٦٢].

وقال رسول الله ﷺ ـ حاكياً عن رَبّه عَزّ وجَل[1]: لا يزال العبدُ يتقرّب إلىٰ الله بالنّوافل حتىٰ يحبّه.

وأسبابُ محبّة الله تَعالىٰ كثيرة، والإشارة في هذا التّقييد إلىٰ بعضها كافية؛ فاتّباعُ محمّد ـ ﷺ سببٌ في محبة الله تعالىٰ لعبده، وسببٌ في غُفران ذنبه. قال عزّ من قائل مُخاطباً لكم ولمن قبلكم: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران ٣/٣١].

ومن علامات حُبّ العبد لله تعالىٰ حُبُّه لكتابه؛ قال سَهل بن عبد الله التُّستري ـ رحمه الله ـ:

علامةُ حُبّ الله حُبُّ القرآن، وعلامةُ حبّ الله وحُبّ القُرآن حب

---

(١) مسند الإمام أحمد ٦: ٢٥٦. من حديث عائشة رضي الله عنها.
ـ وفيه «... وما يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أُحبّه...».

النَّبِيّ ـ ﷺ ـ وعلامةُ حبّ النَّبي ـ ﷺ ـ حبُّ السُّنّةِ، وعلامةُ حبّ السّنّةِ حبُّ الآخرة، وعلامةُ حبّ الآخرةِ بُغضُ الدُّنيا وعلامةُ بغض الدُّنيا ألاّ يَدّخر منها إلاّ زاداً يبلّغه للآخرة ومن علامات الحبّ لله أن يُؤثِرَ العبدُ ما أحبَّ اللّهُ علىٰ ما يحبُّ في ظاهرِه وباطِنه، ويجتنب اتّباع الهوىٰ في جميع أحواله [٨٦/ب].

فهذه المحبّة تُورثك محبةَ الله لكَ، وأمّا مع مُخالفة ما نُهيتَ عنه، فمحبّتُكَ إذا ادَّعَيتها كنتَ فيها كاذباً، وتخافُ معها أن تكونَ معاقَباً.

قال سهلَ بنُ عبد الله: ليسَ مَنْ عَمِلَ بالطّاعة صار حبيباً، وإنما الحبيب من اجتنب المناهي، وأنشدوا[١]:

تَعْصِي الإلهَ وأنتَ تُظهر حبّه ... هٰذا لعَمري في القياسِ بديعُ
لو كانَ حُبُّكَ صادقاً لأَطعْتَهُ ... إنَّ المحبَّ لمَنْ يُحِبُّ مُطِيْعُ

ومن علاماتِ حُبِّ الله الاستكثارُ لِذكرِ الله؛ فَمنْ أحبّ شَيئاً أكثرَ من ذِكره.

ومن عَلاماتِ محبّة الله الأُنس في الخَلْوةِ معَ الله تعالىٰ، قيل لإبراهيم بن أدهم[٢] ـ رحمه الله ـ حين نزل من جبل كان يتعبَّدُ فيه: من أين؟ قال: من الأُنس بالله.

وقصّة العبد الأسود الذي استسقىٰ به موسىٰ عليه السلام معلومة، فقال الله تعالىٰ لموسىٰ ـ عليه السلام ـ نعم العبد هو لي إلاّ أنّ فيه عيباً قال: يا رَبّ وما عيْبه؟ قال يا موسىٰ: يُعجبه نسيمُ الأسحار، فيسكنُ إليه. ومن أحبّني لم يَسكنْ إلىٰ شيء.

---

(١) الشّعر ينسب لمحمود الورّاق كما في بهجة المَجالس ١: ٣٩٥ ويُنسب إلى غيره.

(٢) مرّ ذِكره في هذا الكتاب.

ومن علاماتِ الحُبّ لِلّه ألاّ يتأسّف على شيءٍ فاته سوى الله تعالى.

ومن علاماتِ حُبّ الله ألاّ يستثقل شيئاً من الطّاعات. قال الجُنَيد[1] ـ رحمه الله ـ: علامة المحبّ دوام النشاط والدُّؤوبُ[2] على سَهرِ الليل: يَفترُ بدَنُه، ولا يَفترُ قَلْبُهُ.

قال بعضُ الصّالحين: والله ما شُفِي قلب محبٍّ من طاعة!.

ومن مَحبّة الله أن يكون مُشفقاً على عبادِ الله، رحيماً لهم، حَرِيصاً على نفعهم، شديداً على أعدائهم، ولا يصرفه من الغضب لله صارف.

ومن علاماتِ المحبّة أن يكون في حُبّه لله خائفاً متضائلاً تحتَ الهيبة والتّعظِيم، فيخافُ أن يُعرض عنه مولاه، ويحجبه عن مَعرفته، أو يُبْعده عن رَحْمَتِه؛ مع قُوّة طاعته؛ ويرى مع قوة محبّته أنّ عَطاءَهُ منع، ومنعه عَطاء.

وقد قِيل في علامة المحبة:

لا تُخْدَعنّ فللمحبّ دَلائلُ ... ولَدَيْهِ من تُحَفِ الحبيبِ رسَائلُ[3]

منها تنعّمه بطاعةِ رَبّهِ ... وسُروره في كلّ ما هو فاعلُ

---

(١) أبو القاسم الجُنَيد بن محمد بن الجنيد البغدادي (ت ٢٩٧هـ) من العلماء بالدين، ومن الصوفية المشهورين: عُرف بالخزّاز (نسبة إلى صناعة الخزّ) وبالقواريري (نسبة إلى صناعة القوارير) عدّه العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب والسنة، ولكونه مصوناً من العقائد الذميمة، محميّ الأساس من شُبه الغلاة، سالماً من كل ما يوجب اعتراض الشرع. له بعض الرسائل.

(٢) في ب: والدوام.

(٣) من بحر الكامل.

فـالـمـنـعُ مـنـهُ عـطـيّـةٌ مـقـبـولـةٌ   والـفـقـرُ إكـرامٌ وبِـرٌّ عـاجِـلُ [٨٧/أ]
ومـن الـدّلائـل أن يَـرىٰ مـن عَـزْمـهِ   طَـوْعَ الـحـبـيـبِ وإن ألامَ الـعـاذلُ
ومـن الـدّلائـل أن يـرىٰ مـتـبـسّـمـاً   بـكـلام مـن يَـحـظـى لـديـه الـسـائـلُ
ومـن الـدّلائـلِ أن يـرىٰ مـتـشـفـعـاً   مـتـحـفّـظـاً مـن كـلّ مـا هـو قـائـلُ

ومن علامات المحبّة منُ لقاءِ الحبيب إذا علم أنّه لا وصولَ إليه إلاّ بالارتحال من هٰذه الدار؛ فإن المحبّ لا يثقل عليه السّفر بالانتقال إلىٰ مُستقر المحبوب كي يتنعّم بمشاهدته.

ولـمّا قدم الموت علىٰ حُذيفة[١] ـ رضي الله عنه ـ كان من قوله: حبيبٌ جاء علىٰ فاقة، لا يُفلح اليوم مَنْ ندم. وكان من قول بلال ـ رضي الله عنه ـ عند ذلك[٢]:

غـــداً نـــلـــقـــى الأحـــبّـــه   مُـــحَـــمّـــداً وحـــزبـــه

وهٰذه الصّفات وأسبابُ المحبّة كلُّها كانت صفات أصحابِ رسول الله ﷺ ـ فاجتمعت فيهم أمارات المحبة كلها، وحصلت لهم محبّةُ الله بسببها، فأثنىٰ عليهم جلّ جلالُه في كتابه وزكّاهم بنصّ خطابه،

---

(١) هو حذيفة بن اليمان رضي الله عنه (له ترجمة في سير أعلام النبلاء، وفيها مصادر ترجمته) وفيه ٢: ٣٦٨: روى جماعة عن الحسن قال: لما حضر حذيفة الموت قال: حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم. أليس بعدي ما أعلم. الحمد لله الذي سبق بي الفتنة قادتها وعلوجها.

(٢) بلال مؤذن رسول الله ﷺ، (له ترجمة في سير أعلام النبلاء ١: ٣٤٧) وفيه: قال سعيد بن عبد العزيز: لمّا احتضر بلال قال: غداً نلقى الأحبّة محمداً وحزبه. قال تقول امرأته واويلاه فقال: وافرحاه

انظُرْ إلىٰ قصّة عبد الله بنِ جحش[١] - رضي الله عنه - في غزوة أُحد قال سعد بن أبي وقّاص - رضي الله عنه - قال لي يوم أُحُد: ألا ندعو الله يا سعد؟ فجاء به ناحيةً، فَدعا عبد الله بن جحش فقال: يا رب أنا أُقسم عليك إذا لقيتُ العدوّ فيلقاني عدوٌّ بأسُه شديد، أُقاتلُه فيك ويقاتلني ثم يأخذُني ويجدَعُ أنفي وأذني ويَفْرِي بطني، فإذا لقيتُكَ غداً قُلْتَ: يا عبدَ الله مَنْ جدَعَ أنفك وأذنك، وفرىٰ بطنك[٢]؟ قلتُ: فيكَ وفي رسولكَ - ﷺ - فتقول لي: صَدقت.

قال سعد: فلقيتُه آخِرَ النّهار وإن أنفه وأذنه لمعلّقان من خَيط.

وأسبابُ المحبة كثيرةٌ جداً. قد أَلّفتْ فيها المتصوّفةُ تواليفَ، وصنّفت في تحقيقها من مقامِ اليقين تَصانيف، وهي أصلٌ من أُصولِ مقامات اليقين، وتنقسم إلىٰ:

- محبّة السّالكين؛
- ومَحبّة العارفين؛
- ومحبّة المُقَرّبين؛

ولكلّ أُناسٍ مَشربهم، يشربُون منها بكأسٍ من معين[٣]، مَنّ الله

---

(١) الخبر في سير أعلام النبلاء ١: ١١٢ في ترجمة سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنهما. وفي النص هنا زيادة «ويفري بطني... وفرى بطنك». وفيه ثمة ما دعا به سعد رضي الله عنه. وفي آخره: قال سعد: وكانت دعوة عبد الله خيراً من دعوتي فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقة في خيط.

(٢) فرى الشيء: شقه.

(٣) معَن الماءُ: سال وجرى في مجراه. وفي وصف شراب أهل الجنة أنهم يُسقون كأساً من معين. فقيل المراد به الماء الجاري، وقيل هي خمرة الجنة جارية في نهر: أُريد أنها تُنال دون تكلف. ودل إطلاق المعين عليها أيضاً على صفائها ورقتها كالماء (معجم ألفاظ القرآن الكريم).

علينا بالكرعِ من صفاء هذه المحبّة بفضل سيّد المُرسلين.

ولقد أنصفَ أبو حامد ـ رحمه الله ـ ونفع به في قوله: محبّة الله يدّعيها كل أحد [٨٧/ب] وما أسهل الدعوىٰ، وما أَعزّ المَعنىٰ في أبدَ الآبدين.

ودلائلُ الحبّ لا تَخفىٰ علىٰ أَحَد؛ وأنا أقول: إنا لله وإنا إليه راجعون علىٰ مصيبةٍ حلّت بنا ونحنُ لا نُحسّ بها من خلوّ أسبابِ المحبّة في الله منا، وقِلّة اتّعاظنا وتذكُّرنا!.

وإذا ذكرت القصيدة التي أشار فيها يحيى بن مُعَاذ الرّازي[1] ـ رحمه الله ـ في دلائل المحبّة تجدنا صِفراً منها مع قَساوة القلب، وتحصيل الذّنب، قال ـ رحمه الله ـ:

ومن الدّلائل أن يُرىٰ متشمّراً ... في خِرقتين علىٰ شُطوطِ السّاحلِ[2]
ومن الدّلائلِ حُزنه ونحيبهُ ... جَوْفَ الظّلام وماله من عاذلِ
ومن الدّلائلِ أن تراهُ مسافراً ... نحو الجهادِ وكلُّ فعلٍ فاضلِ
ومن الدّلائل أن تراهُ زاهداً ... فيما يَراهُ من النّعيمِ الزائلِ
ومن الدّلائلِ خوفُه وبكاؤه ... أنْ قَدْ رآهُ علىٰ قَبيحِ فَعائلِ
ومن الدّلائل أن تراهُ مُسَلِّماً ... كلَّ الأُمورِ إلىٰ مليكٍ عادلِ
ومن الدّلائلِ أن تَراهُ راضياً ... بمليكهِ في كلّ حُكمٍ نازلِ

---

(١) هو أبو زكريّا يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي (توفي سنة ٢٥٨) واعظ زاهد مشهور «لم يكن له نظيرٌ في وقته» ومن أقواله: اجتنب صحبة ثلاثة أصناف من الناس: العلماء الغافلين، والقرّاء المداهنين، والمتصوّفة الجاهلين». (ينظر في ترجمته صفة الصفوة ٤: ٧١، وطبقات الصوفية: ١٠٧.

(٢) من بحر الكامل.

ومن الدّلائل ضحكهُ بينَ الورىٰ والقلبُ محزونٌ كقلبِ الثاكلِ

مَنّ اللّهُ علينا بحبّنا لحبيبِ ربّنا، وحفِظنا في جميع أُمورنا من عِصياننا، وتابَ علينا بفضله، إنه المجيب لدعائنا. وننشد بلسان حالنا ومقالنا:

ساداتنا إن يُذكَرُوا أَقْدَامُهم فَوْقَ الجِبَاه[1]
إن لم يَكن منهم لنا في ذكرهم عزٌّ وجَاه
فبجاههمْ وبعزّهمْ طيّبْ لنا عيش الحَياه
واختمْ لنا بالخير يا مَنْ لا لنا ربٌّ سِوَاه

وصلّىٰ اللّهُ علىٰ سيّدنا محمّد المُصطفىٰ، وحبيب ربّنا المُجتبىٰ، وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً.

---

(١) من مجزوء الكامل.

باب

في معنىٰ اسمه

نور الله(١)

صلىٰ الله عليه وسلم وشرّف وكرّم

نورُ اللّه اسمٌ من أسمائهِ عليه أفضل الصّلاة والسلام، نطق بذلك القرآن مبيّناً ثناءَ الله عليه بعظم قدره لديه، بأحسن نظام وأتم بيان(٢).

قال الله العظيم في كتابه الكريم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ [٨٨/أ] زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [النور ٢٤/٣٥].

ولنبين معنىٰ الآية الكريمة، وعليها نرتّب(٣) معنىٰ هذا الاسم الكريم.

فأمّا قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور: ٢٤/٣٥] فمعنىٰ

---

(١) ورد تفسير هٰذا الاسم الكريم في الشفا ١: ٥٨، والرياض الأنيقة: ٢٦٥، بلفظ (النور)، وسبل الهدىٰ والرّشاد ١: ٦٥٧، ٦٥٩ بلفظ (النور) و(نور الله الذي لا يُطْفأ).

وذكره القاضي عياض في الشفا ١: ٤٥٣ بلفظ (النور). وتفسير القرطبي ٦: ١١٨.

(٢) في ب: وأتمّ تبيان.

(٣) في ب: وعليها يُرتب.

ذٰلك: مُنَوِّرُ السَّماواتِ والأَرض[1]، فإنّه مُحالٌ أنْ يكونَ الأمرُ علىٰ ظاهِره من أنْ يكونَ خالقَ النّور والعَرْشِ والكُرسيّ وجميع المَخْلُوقات هو نفسها.

فمعنىٰ: «اللّٰهُ نورُ السّمواتِ والأَرض» أنه منوّرها ومُضيئها بما خَلق فيها من الأنوارِ المحسوسةِ المشاهدةِ بالعيان، وأضاءت في الأفق بسببها النيران.

وبيّن مولانا ذٰلك النور وصفاءَه وضوءَه بأمرٍ محسوس، ظاهرٍ لكل ناظرٍ لا ينازع فيه مُبصر غائبٌ ولا حاضر؛ وهي أن المِشكاة - وهي الكُوّةُ غيرُ النّافذة - إذا كانت في صفاء وكان فيها مصباحٌ زاهرٌ، والمصباحُ في زجاجةٍ صافيةٍ، كالكوكبِ الدّريّ المُضيء في الأفق[2] بالباطنِ والظّاهرِ، وكانَ ذلك المصباحُ زيتُه صافياً ليس فيه كدر للناظر.

فإذا اجتمعت هذه الأَوصافُ في هٰذه الكُوّةِ التي هي غيرُ نافذةٍ بشروطها، وقوّة صَفائها، فإنّ الضّياءَ تجده في الكوة في غايةِ النُّور واللّمعان، ويتلألؤ الجوّ حتىٰ تكادُ الأبصارُ تختطف من ضوئه، وتتراكمُ الأَنوارُ في الأَعين إذا رأتْهُ بالعيان؛ فكذلك الضوءُ المشاهد لكل إنسانٍ في السمواتِ والأرضِ، يشاهدونه في غاية الصّفاء، وحصول الضّياء، يكادُ سَنا برقهِ يذهبُ بالأبصار خلقه الله تعالىٰ دليلاً للعقلِ علىٰ الاعتبار، وهدايةً لذوي الأَنظار.

قال كعب، وابن جُبَير - رضي الله عنهما[3] -: المرادُ بالنّور الثاني في الآية الكريمة من قوله عز وجل: «مَثَلُ نُوره» هو محمّدٌ - ﷺ - أيْ:

---

(١) أوردَ القرطبي هٰذا في تفسيره ١٢: ١٥٧.

(٢) في ب الآفاق.

(٣) الشفا ١: ٥٨.

- وفي سبل الهدى والرشاد ١: ٦٥٧: قال ابن عباس فيما رواه ابن مردَوْيه: المراد بالنور هنا سيّدنا محمد ﷺ.

مثَلُ نور الله: محمّد عليه الصّلاة والسلام.

وقال سهلُ بن عبد الله ـ رحمه الله[1] ـ: الله هادي أهلِ السّموات والأرضِ، قال: مثَلُ نُورِ محمد ـ ﷺ ـ إذْ كان مستودعاً [٨٨/ب] في الأصلاب كمشكاةٍ صِفَتُها كَذا وكذا وأرادَ قلبَهُ، وبالزّجاجةِ صَدْرَه، أي كأنّ صدره كوكبٌ درّيٌّ لِما فيهِ من الإيمان، والحكمةِ، يُوقد من شجرةٍ مباركةٍ: أي من نُورِ إبراهيم ـ عليه السلام ـ وضرب المثَل بالشجرة المباركة.

وقولُه: يكاد زيتُها يضيء، أي تكادُ نبوءته ـ ﷺ ـ تتبيّنُ للناسِ قبلَ كلامه ـ هكذا كلامُه رحمه الله.

وأُتمّمُ على هذا المعنىٰ، وأَزيدهُ وُضوحاً في الأذهان، وزيادة في تمامِ البَيان، وأبينه على أن النّور الثاني في الآية هو محمّد ـ ﷺ ـ وهو مضافٌ إلىٰ ضميرِ اسم الجلالة.

ويكونُ مولانا ـ جل جلاله ـ بيّنَ لنا مقامَ المصطفىٰ عليه السّلام ـ بالنسبة للعالم كُلّه علويّهِ وسُفليّهِ، وأنه مضيئُه ومزيل ظلامه وظُلمته، فكأنّه قال سُبحانه وتعالىٰ: نور السموات والأرض وما فيهما، وما بينَهما، وعرشه وكرسيّه، بضياء نُور الله وهو سيّد المرسلين، وأكرمُ الأوّلين والآخرين، وقائدُ الغُرّ المحجّلين.

ثم شبّه ذلك النور المعقول الذي خلق الله سُبحانه نورَ السّموات، وأنَارَ جميع المَخلُوقات بأنوارٍ متراكمةٍ بعضُها علىٰ بعض، يتزايدُ نورُها، ويغلبُ شعاعُها بِكُوّةٍ غيرِ نافذةٍ صَقِيلةٍ مجتمعةٍ بياضها، بياضُها نورُها، ونورُها ضياؤها، وقد علقَ فيها مصباحٌ زاهرٌ، وسراجٌ نيّرٌ باهرٌ؛ وذلك

---

(١) الشفا ١: ٥٨ ـ ٥٩. ويُنظر سُبل الهُدى ١: ٦٥٧ ـ ٦٥٨.

المصباح في زجاجة صقيلةٍ لامعةٍ نيّرةٍ مملوءةٍ بزيتٍ صافٍ، وصفاءٍ وافٍ، يكادُ صفاؤه وضَوْؤهُ يضيء من غير أن تَمسسه نار.

فأنت تَرىٰ هذه الأنوار إذا قُدّر اجتماعُها، وتوفّرتْ شروطُها كيفَ يكونُ شعاعُ تلكَ الكوّة، وقُوّةُ نورها، وشدّةُ لمعانها؛ وضَوؤها وإشراقُها؛ فكذٰلك إذا حققت أمر هذا العالم كله، علويّه وسُفليّه في إضاءَتِه بضوءِ نورِ الله، وحبيبِهِ، وإشراقِ نُبوءته في سمائه وأرضهِ ولمَعانِ رسالتهِ بين خلقهِ، تجد الأنوارَ قد تراكمتْ في هٰذا العالم السنيّ الّذي كان هٰذا النورُ العظيمُ ختامَه ـ ﷺ ـ وجعل الله تعالىٰ تزيينه ودوامه.

ولقد صدق حسّان ـ رضي الله عنه ـ في قوله[1]:

نـورٌ أضـاءَ عـلـىٰ الـبـريّـة كُـلّـهـا   مـن يُـهْـدَ لـلـنُّـورِ المبـارك يَـهْـتَـدِي[2]

فَمن انكشفت الحُجب عن بصيرتِه، وزالت الظُّلمةُ [٨٩/أ] عن ضميره وسريرتِه عايَن ضياءَ العالم كلّه ضياء أشدّ من ضوءِ المِشكاة، وشَهِدَ الأنوارَ قد تزاحمت فيه وتراكمت من ضياءِ مَن أنارَ الله بنوره الأرضين والسّموات، فصارَ العالم كُلّه كمشكاة غير نافذة.

وأضاءَ الله بوجودِ مصباحٍ عظيمِ الشأن، الذي تفجر منه أنْهَارُ الإِيمان، المصباح في زجاجة صافية لامعةٍ طاهرةٍ مُطَهّرة.

فالمصباحُ هو قلبُ المُصطفىٰ[3] ـ ﷺ ـ المنوّر الكامل المكمّل الأَزهَر، والزُّجاجةُ الصّافيةُ اللامعةُ الزّاهِرةُ هي ذاتُه الزكيّة المُقَدّسةُ

---

(١) ديوان حسّان بن ثابت ١: ٢٦٩.

(٢) من بحر الكامل. والياء في (يهتدي) لإطلاق الشعر

(٣) قال في سبل الهدى ١: ٦٥٧: روى الطبراني وابن عساكر عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: المشكاة جوف النبي ﷺ، والزجاجة قلبه، والمصباح: النور الذي في قلبه.

الطّاهرةُ، ومصباحُ قلبهِ العظيم يستمدّ نورَه من شجرةِ المعارفِ الربّانية، ويتزايَدُ من إمدادِ المَواهب اللَّدُنيّة.

فَملأ الله - سبحانَهُ - قلبَ نبيّنا - ﷺ - نُوراً، وجَعل قلبَهُ نُوراً في ذاتِ مَن نور فكانَ وَحْيُه، ونفسُه، ورُوحه، وجسمُه - ﷺ - نُوراً على نور، فاستنارت الكائناتُ بِضياءِ هٰذا النور المُبين وتزيّنت. وزَهت المُبْصَرات[1] في أَعْيُنِ مَن هَداه الله - سبحانه - إلىٰ هديهِ من النّاظرين المُستبصرين، وجلا ضياءُ نورِه ظلمةَ القلوبِ فجاءَها اليقين.

للحقّ نورٌ يجلّي ظلمةَ الكذبِ ... وليسَ للهزلِ عند الجِدّ من سَببِ[2]
ومنهجُ الحقِ سهلٌ واضحٌ أبداً ... ومنهجُ الغيّ مقرونٌ مع العَطبِ!
ومن تبصّر واستهدتْ بصيرَتهُ ... رأىٰ وفَرّق بين الجِدّ واللّعبِ
لم أبتذلْ مُهجتي للعلم أخدمُه ... إلاّ ليحملني في أرفعِ الرُّتَبِ
لو لم تَقُدني آدابي ومعرفتي ... لِمَدْحِ خيرِ الوَرىٰ لم يُغنني أدبي
حق عليّ أكيدٌ حبّهُ أبداً ... ومدحهُ بلسانٍ مفصحٍ عربي
أرجو بذاكَ من الرحمنِ مغفرةً ... عساهُ يمحُو بها ما كانَ من رِيَبِ
والله أشكرُ رَبّي حين وفّقني ... لمدحِ هٰذا النبيِّ الطاهرِ العربيّ
وليسَ يبلغُ مدحي نعتَهُ أبداً ... في نثرِ قَولي ولا شعري ولا خَببي[3]
وكيف يبلغُ وصفي مَن سَما شرفاً ... وفاق كلّ الوَرىٰ في الدّين والحسَبِ

---

(١) في ب: زهت البصيرات، وفي أ: وتزينت البصيرات.

(٢) من بحر البسيط.

(٣) الخَبب: نوعٌ من السّير سريع. وبه سمّي بحر الخبب. وكأنّ الشاعر لجأ إلى هذه الكلمة بضرورة القافية وهو يريد الرَّجز. يريد لا يستطيع أن يوفي رسول الله ﷺ من المدح بشعر ولا نثر ولا رَجز. (وكانوا قَديماً يميّزون الرّجز من بحور الشعر بخصوصيته ويقولون فلان شاعر وفلان راجز)!.

صلّىٰ وسلّم ربّي كلّ آوِنَةٍ ... عليه ثمّ علىٰ أصحابهِ النُّجبِ

فصل

[٨٩/ب] مِن آداب من علم أن نبينا ـ ﷺ ـ نور الله أي: نورٌ خَلَقَهُ الله تعالىٰ ليضيء به قلوبَ أوليائه، وينوّر بتنويره صدورَ أحبابهِ أن يستعدّ لحصولِ هذه الاستنارة بإصلاحِ نفسه؛ ويَستضيء منها ما يتزوّد منها لحظيرة قُدسه.

فإذا طهرت القُلوبُ من نَجاستها، وبُولغ في تَطْهيرِها وتَصْفِيتها، لَمَعتْ أنوارُ المعارفِ في زوايا أَجِنّتها.

فعليكم ـ رحمكم الله ـ بملازمةِ أنوارِ أهلِ الفَلاح، ومشاهدةِ ضياءِ أهلِ الوجوهِ الصِّباح؛ لأنّ البيوتَ إنما يُؤتىٰ إليها من أبوابها، وأنبياء الله تعالىٰ وأولياؤه هم أبواب أَنوار القُلوب، وبهم تُصقل أصداؤها، فالفَرج يأتي من الله تعالىٰ علىٰ أيديهم وإن طال الأَمد، والنُّور يداخل القلوب بملازمتهم، وإن كانت كارهة وقَسا القلبُ وجَمد[1]:

وسحابُ الخيرِ لها مَطرٌ ... فإذا هبَّ الإيمانُ تَجي[2]
وفوائدُ مَولانا جُمَلٌ ... لسُروحِ الأَنْفُسِ والمُهَجِ

---

(١) هما من القصيدة المُنفرجة ليوسف بن محمّد المعروف بابن النحويّ التلمسانيّ، المتوفّىٰ سنة (٥١٣هـ)؛ وعلى المُنفرجة شُروح كثيرة، وخَمّسَهَا أبو عبد الله المصريّ؛ وهذا التخميس في الرّحلة المغربية: ٥٢ ـ ٥٩.
وأوّل القصيدة المنفرجة:
اشتدّي أزمةُ تنفرجي ... قد آذن ليلُك بالبَلَجِ
وللنّاس فيها كلامٌ يدخلُ في المأثور الشّعبيا.

(٢) من بحر الخَبب.
ـ وفي ب: فإذا جاءَ الإبّانُ تجي.

وعن عبد الرحمن بن أبي عون ـ رحمه الله قال[1]: كان الطُفيل الدَوسي شريفاً في قومه، شاعراً كثير الضيافة، فقدم مكة ـ رضي الله عنه فلقيه رجالٌ من قريش وقالوا له: إنك قدمتَ بلادَنا، وهٰذا الرجل ـ يعنون[2] محمداً ﷺ ـ قد أعْضَلَ[3] بنا، وفرّق جماعَتنا، وشتّت أمرنا، وإنّما قوله كالسّحر، يفرّقُ بينَ المَرْءِ وبينَ أبيه، وبين الرّجل وزَوجته، وإنّما نخشىٰ عليكَ وعلىٰ قومك مثل ما دخل علىٰ قومنا فلا تسمعْ منه. قال: فوالله ما زالوا بي حتىٰ أجْمَعْتُ أنيّ لا أسمع منه شيئاً، ولا أكلّمه.

فغدوتُ إلىٰ المسجد، وقد حشوتُ أذني قُطناً! فكانَ يُقال لي ذُو القُطْنَتَيْن، فإذا برسول الله ﷺ ـ يصلّي، فقمتُ قريباً أسمع بعضَ قوله، وقلتُ في نفسي: واثُكْلَ أميّ! والله إنّي لرجلٌ شاعرٌ ما يخفىٰ عليّ الحَسنُ من القَبيح، فَما ينبغي إلاّ أنْ اسمعَ كلامه، فإنْ كانَ حَسناً قَبِلْتُه، وإن كانَ قبيحاً تركته!.

فمكثتُ حتّىٰ انصرفَ إلىٰ بيتِهِ فَدخل، فدخلتُ [٩٠/أ] معه، فقلت: إنَّ قومك قالوا لي: كذا وكذا فاعْرِض عليّ أمركَ. فَعَرضَ عليّ الإسلام، وتَلا من القرآن، فقلتُ: لا والله ما سمعتُ قولاً قطُّ أحسنَ

---

(١) السّيرة النبوية ١: ٣٨٢ ـ ٣٨٤ دلائل النّبوة للبيهقي ٥: ٣٦١ تهذيب ابن عساكر ٧: ٦٥.

-والمؤلف يعيد صياغة الخبر أو يلخّص على منهجه الغالب في صياغة الخبر.

-والطفيل الدوسي هو الطفيل بن عمرو بن طريف بن العاص الدّوسي الأزدي (١١ هجرية) صحابيّ من الأشراف في الجاهلية والإسلام. كان شاعراً غنيّاً كثير الضيافة، مطاعاً في قومه، واستشهد في اليمامة. وهو الذي أحرق صنم قبيلته دوس المسمى (ذو الكفيّن).

(٢) في ب: يعنون به.

(٣) يقال: أعضل به الأمر إذا اشتدّ عليه وضاقت به الحيل!.

من هذا، ولا أمراً أعدلَ منه، فقلتُ: لا إلٰه إلاّ الله، محمد رسول الله، ثـم قلـت: يا نبيَّ الله إنّي امرؤٌ مطاعٌ في قومي، وإني راجعٌ إليهم، وداعيهم إلىٰ الإسلام، فادعُ الله أن يجعل لي آيةً تكونُ لي عَوناً عليهم[١]. فقال عليه الصلاة والسلام: «اللّٰهُمَّ اجعل له آية». فخرجت إلىٰ قومي حتىٰ إذا كنت بِثَنِيَّةٍ تُطلعني علىٰ قومي[٢] وقع نورٌ بين عيني مثل المِصباح؛ فقلتُ: اللّٰهُمَّ في غير وجهي فإني أَخشىٰ أن يظنُّوا أنَّها مُثْلَةٌ وَقعت في وَجهي بفراقِ دينهم؛ فتحوّل النُّورُ فوقع في رأسِ سَوطي، فجعل[٣] القوم يَرَوْن ذلك النور في سَوطي مثل القِنديل.

فأتاني أَبي: فقلتُ: إليك عنّي؛ فلست منك ولست منّي! فقال: ولِمَ يا بني؟

فقلت: إنّي أسلمتُ وأَجبْتُ دينَ محمّد ـ فقال: يا بُنَيّ! دِيني ودينك واحد. فقلت: فاذهبْ فاغتسلْ وطهّرْ ثيابك. ففعَل ثم جاء، فعرضتُ عليه الإسلام فأسلم.

ثم جاءتْ زوجتي فقلتُ لها: إليكِ عنّي فلستُ منكِ ولستِ منّي قالت: ولِمَ؟

قلت: فَرّق بيني وبينكِ الإِسلام، وإنّي أَسْلَمْتُ واتّبعتُ دينَ محمّد ـ ﷺ ـ.

فقالت: فَدِيني ودينُك واحد، وإني أَقولُ: أشهد، أن لا إلٰه إلا الله، وأَنّ محمّداً رَسُولُ الله.

---

(١) في أو وب و ج: فادع الله لي أن تكون لي آية عليهم. والتّصويب من دلائل النبوّة ٥: ٣٦١.

(٢) في ب: عليهم.

(٣) في ب: فكان القوم.

فتذكّروا زادني الله وإياكم حُبّاً إلىٰ حُبّنا وتمّم قصدي وقصدكم، إذا جاءت الفُتوحات من المولىٰ جلّ جلاله، وكَثُرَ جوده ونَواله، كيف يُسَهِّل أمور[1] عبيده، ويسّر اليُسرىٰ إلىٰ طريق حبيبه.

فقد جاءَ هٰذا الطُّفيل ـ رضي الله عنه ـ مع كراهيته للإيمان، وبُعده عن درجة الإيقان، والغَيْبُ يُناديه بلسانِ حاله: إنّك من أحبابِ الرّحمن، وأصحابِ نُور الله العزيز القَدْر، الرّفيع الشّان، فَنوّر الله تعالىٰ بصره وبصيرته وأظهرَ عند الخلقِ بنوره مكانَتَهُ وكرامَته.

وفيه إشارةٌ إلىٰ أنّ النُّور الذي جَعله الله بينَ عينيه، ثم نقَله إلىٰ السّوط الذي بين يَديه هو نورُ الإيمان[2] الذي يسعىٰ يوم القيامة بين يديه [٩٠/ب].

قال الله العظيم في كتابه الكريم، لمّا وصفَ عبادَهُ المُؤمنين، وأولياءَه المُخلصين:

﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد، ٥٧/ ١٢]

فبالجملة إنَّ مَنْ شاهَد نورَ الله العظيم، ووفّقه المولىٰ لاتّباعه، فقد حَصل له الحَظُّ الجَسِيم، وكَذا مَنْ شاهدَ آثاره، وداخل النورُ قلبه[3]، وحقّق أخبارَه، أو شاهَد أولياءَ الله المُنقطعين إليه، لا بدَّ لهُ من نَفحةٍ من

---

(١) في ب: بعض عبيده

(٢) قال قتادة: ذُكر لنا أنَّ نبي الله ﷺ قال: «إن من المؤمنين من يضيء نوره كما بين المدينة وعَدَن أو ما بين المدينة وصنعاء، ودون ذلك حتى يكون منهم من لا يضيء نوره إلاّ موضع قدميه» تفسير القرطبي ١٧: ٢٤٤، وينظر إتحاف السّادة المتّقين ٧: ٢٥٥.

(٣) في ب: وداخَل النور.

أسرارِهمْ ولمحةٍ من أنوارهم تَرِدُ عليه، أعادَ الله عَلينا من بَركاتِ محبّتهم وهَدانا إلىٰ اتّباع نُورهم وطَرِيقتهم، إنّه علىٰ ذٰلك قَدِيرٌ، وبالإجابة جدير.

يـا وَيْـحَـهُ إنْ صَـدَّهُ عـن قُـربـهـمْ ... ما قَدْ جنىٰ من ذَمّهِمْ أو عَتْبِهِمْ[1]

يـا ويـلـهُ إن لـم يَـتُـبْ مـن حَـربِـهـم ... فـالله يَـرْزُقـنـا الـوفـاءَ بِـحُـبّـهِـمْ

فـبـحـبّـهـمْ وبِـذكـرهـمْ نـرجُـو الـشّـفـا

وُيـنـيـلـنـا مـن فـضـلِـه ونـوالـهِ ... ويُـعـيـدنـا مـن شـرّه ووبـالـهِ

بـكـمـالِ قُـدرتـه وعـزّ جـلالـهِ ... ثـمّ الـصّـلاةُ عـلـىٰ الـنّـبِـيّ وآلـهِ

مـا أَزْهَـرَ الـغـصـن الـرّطـيـبُ وأَوْرَفـا[2]

---

(١) التّخميس على بحر الكامل.

(٢) في اللسان: ورَف النّبْتُ الشجر: تنعّم واهتزّ ورأيتَ لخضرته بهجةً من رِيّه ونعمته. وأورف الظل إذا طال وامتدّ والظل وارف أي: واسع ممتدّ.

باب

في معنىٰ اسمه

الصَّادِق والمَصْدُوق(١)

صلّىٰ اللّٰهُ عَليه وسلّم وشَرّف وكَرّم

الصَّادق والمَصْدُوق[٢] اسمان من أسمائه عليه أفضلُ الصَّلاة والسّلام، أجمعت[٣] علىٰ ذٰلك الخلائقُ، وأطبقت علىٰ اتّصافِهِ بِهما أهلُ المغاربِ والمَشارق.

فالصَّادق: أصلُه اسمُ فاعل من: صدق، بمعنىٰ أنّ خبره مطابقٌ للواقع.

والصَّدُوق أبلغُ من صَادق، كضَارِب وضَرُوب. والمَصْدُوق بمعنىٰ المُصَدَّق، أي صدَّقه غيرُه في خبره.

فنبيُّنا - ﷺ - صادِقٌ في أَخباره صَدُوقٌ في أنبائه، مصدّق بالأَدِلّة الشّاهدة من رَبّه، كيفَ لا، وقد زَكّاه مولاهُ وعَظّمه وفضّله علىٰ مَنْ

---

(١) ورد شرح هٰذا الاسم الكريم في: الشفا ١: ٤٦٧، والرِّياض الأَنيقة: ٢٠٠، وسُبل الهدى والرَّشاد ١: ٥٩٤، ٥٩٥ وذكره القاضي عياض في الشّفا ١: ٤٥٥.

(٢) في ب: «الصادق المصدوق» في العُنوان؛ وفي مطلع الكلام على هذا الاسم الشّريف هنا. وفي (أ) الصادق والصَّدُوق في العنوان؛ وفي هذا الموضع عند الكلام على اسمه ﷺ والمُثبت من: ج.

(٣) في ب: اجتمعت.

سواه، فَزكّىٰ قلبه بقوله عز وجل: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم ٥٣/ ١١] أي فؤاد محمّد ﷺ - فكلّ ما شاهَدهُ وعايَنه فهو حقٌّ لِعصمتهِ وطَهارتهِ، واستحالةِ طُروء[1] الهَوىٰ والشّيطان بِسَاحته.

وزكّى بَصَرهُ بقوله - سُبْحَانهُ ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم ٥٣/ ١٧] [٩١/أ] أي مُشاهدته عرفانيّةٌ رَبّانيّة، فلا زَيْغَ في بَصرِه ولا بصيرته ولا طُغيان، بل ثُبوتٌ فِي مُدركاتِه، ورُسوخٌ في مُبْصَراتهِ نَشأتْ عن تَمامِ يقينٍ وعِرفان.

وزكّىٰ سُبحانه وتعالىٰ لسانَه بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم ٥٣/ ٣، ٤] أي إنّ نُطقه عليه الصلاة والسلام يتلألؤ نورُ لسانِه، إنّما هو ترجمان عن واردات جنانه ووحي ربّه، والواردات علىٰ قلبهِ الطّاهر المُطَهّر النقيّ المُضيء الأزهر إنما هي مواهبُ ربانيّة وفتوحاتٌ لَدُنيّة، وعلومٌ مَنّ عليه بها مَنْ كان بهِ في جميع ترقياتِه رحيماً، المخاطب له في كتابه بقولهِ عَزّ من قائل: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء ٤/ ١١٣] .

فَصِدْقُه - ﷺ - في إخباراته الدينيّةِ والدُّنيويّة الحاضرة والغَائبة والماضية والمُستقبلة معلومٌ بالدّليل والبُرهان، ومطابقة إخباراتِه للواقع في كلّ قضيةٍ جُزئية أو كليّة مشاهَدٌ عند كلّ الخَلائقِ بالعيان، واستحالة ضدّ الصدقِ عليه معلومٌ بما وجَب له من عصمة الله - سُبحانه - في جميعِ

---

(١) في ب: طروق.

- يقال: طرأ على القوم: أتاهم من مكان أو طلع عليهم من بلدٍ آخر أو خرج عليهم من فجوة، وما شابه ذلك.

- أما الطارق فكل ما أتى ليلاً فهو طارق.

الدهور والأزمان فهو الصّادقُ المُصَدَّق[1] الذي تقرّر في الوجود صدقُه وتحقّق الحسود أمانته وعهده.

كيف لا يجبُ قَبولُ ما أخبر به ممّا يجبُ لِرَبّه أو يستحيلُ عليه، أو يجوز في فعله، وقد أخبرَ الله جل جلاله عنه أنّه ﴿جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر ٣٩/ ٣٣] ، وإنما غلبَ علىٰ من رَدّ قوله الحسَد، ومن نظرَ بعين الحسَد فَمِزاجُ عقلِه قد فَسد، نظروا بعينِ بصيرتهم الفاسِدة، وتكلّموا مع مخالفة قُلوبهم الجاحدة!.

قال عليّ - رضي الله عنه - قال أبو جهل[2] للنبيّ ﷺ - إنّا لا نكذبك ولكن نكذّبُ ما جِئتَ به! فأنْزلَ اللّهُ تعالىٰ تسليةً لنبيّه - ﷺ - وطمأنينةً لقلبه ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام ٦/ ٣٣] .

روي[3] أن النبي[4] - ﷺ - لمّا كذّبه قومُه حَزِنَ، فجاءَهُ جبريلُ عليه السلام فقال له: ما يُحزنك؟ قال: كَذَّبني قومي؛ فقال [٩١/ب] إنّهم يَعْلَمُون أنّكَ صادقٌ، فأُنْزَل اللّهُ تعالىٰ هٰذه الآيةَ الكريمة.

قال القاضي أَبو الفَضْل عِيَاض - رحمه الله، ونَفع بِهِ - ما مَعْناه[5]: في الآية منزعٌ لطيفُ المأخذ من تسليةِ الله تعالىٰ لنبّيهِ عليه الصّلاةُ والسّلامُ، وإلطافه في القول به بأن قرر له أنّهُ صادقٌ عندهم، وأنّهم غير مكذّبين له، ومُعترفون بصدقِه قَولاً واعتقاداً.

---

(١) في: ب، وج: الصّادق المصدوق.

(٢) تفسير القُرطبي ٦: ٤١٦، والشّفا ١: ٨٢، وأسباب النزول للواحدي: ١٨٢، وسبل الهدىٰ والرّشاد ١: ٥٩٤.

(٣) في ب: روي أنّ النبيّ ﷺ لمّا كَذّبه...

(٤) الشفا ١: ٨٢.

(٥) الشفا ١: ٨٤.

وقد كانُوا يسمّونه قبلَ النبوّة الأمين، فرفع بهذا التقرير ارتماضَ نفسِهِ بِسِمَةِ الكذب، ثم جعل يذمّهم[1] بتسميتهم جاحِدينَ ظالمين، فحاشاه - ﷺ - من الوَصْم، وطَوّقهم بالمعاندة وتكذيبِ الآيات، وذلك حقيقةُ الظّلم، إذ الجَحْدُ إنما يكونُ ممّن عَلِمَ الشيء ثم أنكره. ثم عَزّاه عليه الصلاة والسلام، وآنَسهُ بما ذكره عمّن قبله، ووعده بالنّصر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٤] . فمن قرأ[2]: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٣٣] بالتخفيف فمعناه: لا يَجِدُونَكَ كاذباً[3]. وقال الفَرّاء (والكسائي) معناه: لا يَنْسِبُونك إلىٰ الكذب.

وقيل معناه: لا يعتقدونَ كَذِبَك - ﷺ - وشرّف وكرّم ومَجّد وعَظّم.

صلّىٰ الإلٰهُ علىٰ المخصوصِ بالنِّعَمِ ... وأفْضَلِ الخَلْقِ في عَهْدٍ وفي كَرمِ[4]
مَنْ جَاءَ بالصِّدْقِ والقُرآنُ شاهِدُهُ ... وصاحبُ البَيْتِ والرّكنينِ والحَرَمِ
كم معجزاتٍ لَهُ لاحَتْ فَضَائِلُها ... كما يلوحُ هلالُ التّمّ في الظُّلَمِ[5]
ناجاهُ جِبريلُ ثم ازدادَ منزلةً ... بِسدرة المُنتهىٰ أربتْ علىٰ الأُمَمِ
صلّىٰ الإلٰهُ عليه فهو أفضلُ مَنْ ... صَلّىٰ وصامَ وخيرُ العُرْبِ والعَجَمِ

(١) في ب: ثم جعَل الذَمْ لهم.
(٢) هي قراءة نافع والكسائي وجماعة؛ ينظر معجم القراءات القرآنية ٢: ٢٦٥.
(٣) قال القرطبي في تفسيره (٦: ٤١٦) عند ذِكر قراءة التخفيف: أي لا يجدونك تأتي بالكذب، كما تقول: أكذبته: وجدته كذاباً، وأبخلته وجدته بخيلاً، أي لا يجدونك كذاباً إن تدبروا ما جئت به.
(٤) من بحر البسيط.
(٥) التّمُّ: الشيءُ التامّ. ويقال: رؤي هلال لِتمّ الشهر أي لتمامه.

فصل

اعلموا ـ رحمكم الله، وزادني وإيّاكم حباً إلىٰ حُبّنا، وبلّغني الله وإياكم في الدّارين بحبّ هذا النبي العظيم مقصدّنا ـ أنّ أنبياء الله سبحانه وتعالىٰ كُلّهم ـ صلوات الله تعالىٰ وسلامه عليهم عَصمهم مولاهم، وفضّلَهُم في المنازلِ العظيمةِ علىٰ مَنْ سِواهمُ، طهّر الله سبحانه قُلوبهم من جميعِ المُخالفات، وصانَهم عن الأغيار والرّكون إلىٰ الآثار في جميع الحالات من لَدُن خَلقَهم الله [٩٢/أ] جلّ جلاله لا يعرفون إلاّ إيّاه، ولا يعبُدون سِواه. متوكّلون عليه مفوّضون لقضائه، جَعلهم مَولاهم واسطةً بينه وبين عبادِه، يبلّغون إليهم ما يُلقىٰ عليهم من وَحْيِه.

فهم مُشْتَغِلُونَ عن الأكوان ومُلاحظتها بطاعة الرّحمن، فلا تَراهُمْ إلاّ وهُم لمولاهم عابِدُون لا يَعْصُون الله ما أمرهم ويَفْعلون ما يُؤمرون.

فلمّا عَصَمهم المَولىٰ، وخلَقهم علىٰ أساس الصّدق والتّقوى، جَعلهم هادِيْنَ للخلائق، يأمُرونهم بما يَتلقّوْنَهُ عن الله من أنّ النّارَ أعدّها الله جَلَّ جَلالُه لِمن طغىٰ، وبغىٰ.

ومن أطاعه فله جنّة المأوىٰ، أيّدَهم الله في خبرهم بما يدلُّ العبادَ علىٰ صِدقهم، فأظهرَ علىٰ يديهم دلائل واضحات ومُعجزات باهرات، وخوارقَ للعادات، خَلقها علىٰ أيديهم مَن خلق الأرضين والسموات قامت فقام قول الله سبحانه للعباد[1] يا عبادي صَدّقوا أَنبيائي في أخبارهم، واتّبعوهم في مقالاتهم، فإنّهم رُسلي حقاً، فلا يَنقلونَ في جميعِ أُمورهم عني إلاّ يقيناً وصدقاً.

---

(١) الآيات في هذه المقاصد كثيرة؛ كقوله تعالى [الأعراف / ٣٥]: ﴿يا بني آدمَ إمّا يأتينّكم رسلٌ مِنكُمْ يقصُّون عليكم آياتي فَمن اتّقى وَأصلحَ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

فالمُعجزات كلّها التي خلقها مولانا جلّ جلاله علىٰ أيدي أنبيائه ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ دالّة علىٰ صدقهم ووجوب اتباعهم لأنها شواهد قاطعة ودلائل على صدقهم واضحةٌ ساطعة، فلا يجوزُ عليهم خُلْفٌ ولا كذبٌ في إخباراتهم، ولا خلل، وإن قلّ في جميعِ محاوراتهم.

وأجمع المسلمون علىٰ أن نبيّنا ـ ﷺ ـ وسائر أنبياء الله تعالىٰ لا يجوزُ عليهم خُلْفٌ في القولِ في إبلاغِ الشريعةِ والإعلامِ بما أُخبروا به عن ربهم وما أنزله من أمانةِ الوحي لديهم لا علىٰ وجهِ العمدِ، ولا عن غير العمد[1]، ولا في حال الرّضا، ولا في حال السّخط والصّحة والمَرض، أصحّة أو مرضىٰ.

وفي حديث عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما قال[2]: قلت: يا رسول الله أكتبُ كُلّ ما أسمع منك؟

قال: نعم!.

قلت: في الرّضا والغَضب؟

قال: نعم، فإنّي لا أقول في ذٰلك كُلّه إلاّ حَقاً.

وقد عصَمه الله تعالىٰ [٩٢/ب] في جميع أحواله في نومِه ويقظتِه،

---

(١) في ب: ولا على غير العمد.

(٢) روى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه فنهتني قريش فقالوا إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرضا فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلاّ حق. المسند ٢/ ٦٢ (وينظر أيضاً ٢: ٩٢). والدارمي ١: ١٢٥ وفتح الباري ١: ٢٠٧.

فكان ـ ﷺ ـ تنامُ عَيْناه ولا يَنامُ قلبُه[1]، وكذا جميعُ أنبياءِ الله تنام أعيُنهم، ولا تنامُ قُلوبهم، فهم ـ صَلواتُ الله وسلامُه عليهم ـ وإن كانوا من البشر والبَرِيَة فقد قامَتِ البراهينُ والأدِلّة القطعية، وأجمعت الأمّةُ المحمديّةُ أنّ الله تعالىٰ أخرجَ أفعالهم وصِفاتهم علىٰ جِبلّة البشرية[2]، فقلوبُهم مع الله، وحركتهم بالله، ولله؛ ورجوعهم في جميع أحوالهم إلى الله وإنّما هم مع الخَلق بأبشارهمْ ومع الحقّ ـ سبحانه ـ بأرواحهم لا تطرأ عليهم الآفاتُ البشريّةُ، ولا يتّصفون بالتغيّرات والأخلاقَ غير المَرْضِيّة.

وكان سيِّدُ الأوَّلين والآخِرين قد حازَ جميعَ المعاني اللائقة بذاته، فكانَ أفضلَ النّبيينَ، وسيّد المُرسلينَ، وإمامَ المتّقين. صلواتُ الله وسلامُه عليه وعليهم أجمعين. [ورضي الله عن صاحب البُردة حيث قال][3]:

فَمبلغُ العلمِ فيه أنّهُ بَشَرٌ ... وأنّهُ خيرُ خَلْقِ اللّهِ كُلِّهِمِ[4]
وكلّ آيٍ أتىٰ الرُسْلُ الكرامُ بها ... فإنّما اتّصلتْ مِن نُورِه بهمِ
فإنّهُ شمسُ فَضلٍ هُمْ كواكبُهَا ... يظهرنَ أنوارها للنّاسِ في الظُّلَمِ

فصل

مَنْ هداه الله تعالىٰ ووفقه، وأزالَ الحُجب عن قلبه فآمن بهذا النبي

---

(١) يشير إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: تنام عيني ولا ينام قلبي.. مسند أحمد ٢: ٢٥١.

(٢) في ب: الجبلة البشرية.

(٣) هذه العبارة من ب.

(٤) ديوان البوصيري: ٢٤٢.

الصّدوق، وصدّقه لدليل ظهور الصدق في ذاته[1] الكريمة وأفعاله العَظيمة، وصفاته الجَسِيمة وأمّا من كانَ في هٰذه أعمىٰ، قد أعمىٰ الله بصيرته فشاهد النور في اعتقاده ظلمة، وزاده النظر إلىٰ صفاته الكاملة ضلالاً وغمة!.

ذكر النقّاشُ[2] في تفسيره عن عِكرمة قضيةً عجيبةً فيها طولٌ، فلنذكر منها هنا ما اختَصرْناه منها، ونشكر الله سبحانه علىٰ أن نَجّانا من الضلال، وأدامَ علينا نعمتَهُ؛ إنّه الكبيرُ المتعال.

قال: سمعت علياً ـ رضي الله عنه ـ أنه يقول[3]: لمّا أنزل الله تعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ضجّت جبالُ الدّنيا كلها حتىٰ كنا نسمع دويها.

فقال الكفار: سَحر محمد الجبال!.

فقال ﷺ ـ: ما من مؤمن يقرؤها إلاّ سبّحت الجبال معه إلاّ أنّه لا يَسمع ذلك.

وسكنت عند نُزولها الرّياح، وهاجت البحار، وأَصْغَت البهائم [٩٣/أ]، ونادىٰ روحُ القُدس: معاشرَ النّاس! ما قُعودكم وقد بَعثَ الله إليكم نبيّاً من بَنِي لُؤيّ بن غالب، يُقال له: محمّد بن عبد الله بن عبد المُطّلب بن هاشم؟.

---

(١) في ب: فآمن بهذا النبي المصدوق، وصدّقه، لظهور دلائل الصدق.

(٢) أبو بكر محمد بن الحسن، النقّاش: عالم بالقرآن وتفسيره أصله من الموصل ومنشؤه ببغداد. والنقاش لقب له فقد عمل بنقش الحيطان والسقوف مدّةً. له عدد من المؤلفات، منها: شفاء الصدور؛ في التفسير. ولد سنة ٢٦٦، وتوفي سنة ٣٥١.

(٣) في الخصائص الكبرى ١: ٢١٢ مختصر من هذا الخبر.

قال عليّ ـ رضي الله عنه ـ فسمع صوته شابّ من ثقيف، وفَتح الله بصيرته، فقادَ عشراً من الإبل وقصد مكة ليصدّق النبي ـ ﷺ ـ وأنّه يبيع الإبل لينفقها[1] علىٰ أصحابِهِ الكرام.

فلما دخل مكة إذ هُو قد رأىٰ جماعة من قُرَيش مجتمعين، فقال: أفيكم محمد بن عبد الله؟

فوثب أبو جهل[2] في وجهه بحسده وبُغضه وقال: ما الّذي تقول يا غلام؟

قال: الّذي تسمع!.

قال: ومَنْ محمّد؟

قال الغلام: الذي بعثه الله للأَنام.

قال: ما بعثَ الله إلينا نبيّاً، مَنِ الذي قال لك هذا؟

قال الغلام: سمعتُ صوتاً من الجوّ يقول كذا وكذا، فذكر ما سمع فقال له أبو جهل ـ لعنه الله ـ: يا غلام هذا صوت شيطان!

قال الغلام: فأَرني وجهَ محمّد أنظر إليه.

قال: وما تصنَعُ به؟ ثم ذكر أبو جهل من جهله صفاتِ نفسه، ورشح إناؤه برشحِهِ، فأنطقه شيطانه بقوله، فقال: إنه ساحرٌ ومجنُون وكذّاب!!.

وكل إناءٍ بالذي فيه يَرْشَحُ![3].

---

(١) في ب: وينفقها.

(٢) في ب: فوثب إليه أبو جهل.

(٣) معنى رشح الإناء: نَدِي بالعَرق.

قال الغُلام: يا هٰذا إنّي أظُنُّ أنّ بينَكَ وبينَ محمد [شَحْناء][1]، فهل يقول أحَدٌ مِثْلَ مَقالتك؟.

قال نعم؛ هٰذا عَمّي شيخُ قُرَيش. فأتىٰ به إلىٰ الوليد بن المُغيرة، فَسأله الغُلامُ، فقال له مِثْلَ قولِ أبِي جَهل.

قال الغُلام لتوفيقه وثباته، ومُجَادلته لشيطان الإنس والجانّ: هذا عَمّك، شَهِد لك. واتّهمته!.

فقال له الشّيطان أبو جهل: لئن كان هذا عَمّي شهد لي، فَهٰذا عَمُّه يشهدُ عَليه.

فأتىٰ به إلىٰ أبي لهب فذكر له مثل قوله فاسترابَ الغُلامُ من كلامِ عَمّ رسول الله ﷺ - إلاّ أن أسباب السعادة قد تعلّقت به، فقال:

قد ضَلَّ سَعْيِي فمَنْ يَشتري منّي هٰذه النوق وأنصرف؟

قال أبو جهل - لعنه الله -: أنا أشتري منك؛ بكم؟ قال: بمئتي دينار. قال أبو جهل لعنه الله: أُشهدكم يا معشر قريش أنّي اشتريتُ منه هذه النّوق بمئتي دينار، وأنا أزيده عشرة دنانير وأشترطُ عليه أن لاّ يأتي محمداً ولا يسمعَ كلامه!.

فقال له: وما عليك إنْ أتَيْتُهُ، وسمعتُ كلامه؟ فقال: إنّي أخافُ عليك وأنتَ غلامٌ فيخدعَك بسحره! فتفطّن الغلامُ، وأتت إليه نفَحاتُ السّعادة، واتّهمه، وعلم أنَّ بينَهُ وبينَ محمّد - ﷺ - عَداوة؛ فأعرضَ عنه، وترك النّوقَ بين يديه، وأخذ يسأل عن النبي - ﷺ - حتىٰ أُرشِدَ

---

(١) في أ، ومتن ب، و: ج: «خُشونة». وصَوّبها في حاشية ب بكلمة «شحانة». وفي كتب اللغة شحناء. وهي العداوة تمتلىء بها النفس.

نحو الكعبة، فوجد رسول الله ﷺ ـ يصلّي وهو راكع، ونورُ وجههِ قد وقع علىٰ شِراكِ نعله، فلما رفع رأسه من الرّكوع عاذ النّور علىٰ وجههِ الكريم يتلألأ تلألؤ القَمر ليلةَ البدر.

فنظر الغُلام في وَجهه وهو يَستحسنه ويقول: ما هٰذا ساحرٌ ولا كَذّاب! والله ما هٰذا إلاّ صادقٌ مصدّق. فأطال النبي ﷺ الصّلاة، فَرجع الغُلامُ إلىٰ نُوقه فلم يجدها في موضعها، فقال: يا قوم! ما فعلت النُوق؟ قالوا: أليس اشتراها أبو الحكم؟ فاذهبْ إليه. فذهب الغلامُ إليه فناداهُ، فأشرف عليه، فقال له: إمّا أنْ تعطيني دراهمي أو تردّ عليّ النّوق. فقال له: مالك عندي شيء، لأنك قد نقضت الشرط بيني وبينك. فقال له الغلام: لقد كذبتَ والله في أمر محمد. ما وجهُهُ بوجهِ ساحر ولا كذّاب، بل هو نبيٌ صادق مصدّق. فغضب أبو جهل غضباً شديداً وقال له: بعد أن صرت إلى دين محمد فانظر ماذا يُغني عنك محمّد وإلٰههُ. فرجعَ الغلامُ باكياً قائلاً: يا معشر قريش! ما رأيتُ أظلم من شيخكم هذا. وذكر لهم قصّته. فقام عبد الله بن الزّبعرى[1] وقال له في أُذنه على سبيل الاستهزاء به: اذهب إلى محمّد، وأخبرْهُ بالقصّة، وسَلْهُ، فإنه يمشي معك إليه، ويقضي حاجتك! ـ وهذا الرجل قد أَسلم والإِسلام يَجُبُّ ما قبله؛ أعني عبد الله بن الزبعرى ـ فقال له الغلام: أتستهزىء بي؟ كيف ذلك وهو عدوّه؟ فقال له انطلقْ إليه فإنّ لمحمّد هيبةً وإجلالاً.

---

(١) هو أبو سعد عبد الله بن الزبعرى بن قيس السهمي، شاعر قريش في الجاهلية؛ وأحد من شاركوا في الحملة الإعلامية على الإسلام والمسلمين. وقد ردّ عليه حسان بن ثابت رضي الله عنه وغيره من شعراء الرسول ﷺ ثم إن ابن الزبعرى هرب بعد فتح مكة إلى نجران. ثم جاء إلى النبي ﷺ بعد أن انشرح قلبهُ للإسلام، فأسلم واعتذر ومدح النبي ﷺ وكانت وفاته سنة ١٥هـ تقريباً.

فانطلق الغلامُ حتى أتى إلى النبيّ ﷺ. فلمّا أحسّ به رسول الله ﷺ أوجز في صلاته، وأقبل بوجهه عليه؛ وجعل الغلام يهابُ أن يتكلّم، فقال له النبي ﷺ: تطلبُ أحداً؟ فقال: نعم؛ جئتك في حاجة. فقال له: ادْنُ منّي. فدَنا منه وهو يرتعد هيبةً وإجلالاً لِرَسُولِ الله ﷺ. فقال له النبيّ ﷺ: لا ترتعدْ إنّما أنا نبيُّ الرّحمة يا غلام، أسمعتَ الصوتَ من السّماء؟ [٩٤/أ] قال: نعم يا حبيبي؛ صوت مَنْ كان ذلك؟ فقال له النبي ﷺ: ذلك هو صوتُ روح القدس جبريل - عليه السلام - أمين ربّ العالمين؛

يا غلام أتحبُ أن أقولَ لك ما قال لك في أذنك عبد الله بن الزّبعرىٰ؟ قال: نعم يا حبيبي.

قال له: قال لك كَذا وكَذا، وقلتَ أنت له كذا وكذا؛ فذكر الصّادقُ المَصدوق الكلام علىٰ ما هُوَ عليه من غيرِ زيادةٍ ولا نُقصان.

فقال له الغلام: ها أنا ذا أشْهَدُ بشَعري وجِلْدِي ولَحمِي ودَمِي مخلصاً صادقاً أنْ لا إلّه إلاّ الله، وأنّك محمد عبده ورسوله الصادق في قوله.

فقال النبي ﷺ - يا غلام، بعد إذْ صدّقتَ وآمَنت فتقدّمْ إلىٰ دار أبي جهل فإنّي آتيك.

فغدا الغلامُ إلىٰ دارِ أَبي جَهْلٍ، وإذا بِرَسُولِ الله ﷺ قد خرَج من بابِ المَسجد، ولبِسَ نَعْلَهُ، وطُوِيَت له الأَرْضُ فجعل خطوة واحدة من باب المسجد إلىٰ بابِ أَبي جَهل، وأَبُو جَهل في باب الخوخة[١] يشاهد

---

(١) في ب: فوق الخَوْخَة.

- والخَوْخَة: باب صغير كالنافذة الكبيرة تكون بين بيتين يُنصب عليها باب.

هذا الخارقَ للعادة [الخارج للعبادة][(١)]، فوجَد[(٢)] النبيّ ﷺ ينادي يا أبا الحكَم!.

فقال النبي ﷺ ـ دَعْني أناديه بما سمّاه الله تعالىٰ به واختاره للملعون من السّماء، فناداه النبي ـ ﷺ ـ: يا أبا جَهْل!.

فمكث ساعة وأجابه يا محمد، لبَّيْكَ وسَعْدَيك. فقال له النبيّ ـ ﷺ ـ: وَيْلَك يا أبا جَهْل! انزِلْ وحُلّ؛ فنَزل وقد ذهبَتْ نفسُه، وتغيَّر لونُه وطاشَ عقله، واصطكّتْ رُكْبَتاه، وتَلجْلَج لِسانُه، وقال له: ما حَاجَتُك يا محمّد؟

قال له النبيّ ـ ﷺ ـ الوَيْلُ لكَ! أَعْطِ هٰذا الغُلامَ حَقّه.

قال: نعم يا محمد! علىٰ الرّأس والعَين! فأراد أن يؤخّر، فأقسم له النبي ﷺ ـ وقال له: والذي بَعثني بالنبوة، وخَصّني بالرّسالة لا بَرِحتُ مِن موضعي حتىٰ تُعطيَهُ حقّه! فقال: نعم يا محمّد سَمْعاً [٩٤/ب] وكَرامة. ودعا جاريته سُويداء، وطلبَها أن تأتي بالكيسِ والميزان، فجاءت الجاريةُ بهما، وقالتْ له: يا سيّدي أتقضي حاجةَ محمّد، وكنت الآن تقولُ فيه كذا وكذا؟!.

قال لها: اسكُتي! ومَنْ يستطيعُ أن يردّ حاجة محمد وله هيبة وإجلال وإكرام؟ وأعطاهُ مئتين وِزانةً.

فقال له الصّادق المصدوق: زدْهُ عشرةَ دنانيرَ؛ الّتي التَزمْتَها، فزادَه عشرةَ دنانير، وقال: هذه لَمَمْشَاكَ[(٣)] يا محمّد. ثم قال: يا محمّد ألكَ

---

(١) عبارة (الخارج للعبادة) من: ب.

(٢) لعل صواب العبارة: «فوجده النبي ﷺ» أي فوجد الغلام. . .

(٣) يريد: إكراماً لمشيك ومجيئك إليّ بنفسك.

حاجةٌ أُخرى غير هذه؟ وهو يرتعدُ وينتفض هيبةً وإجلالاً لرسول الله - ﷺ -.

فقال له النبي ﷺ -: حاجتي عندك أن تقولَ ما يُوصلك إلىٰ النّعيم المُقيم، لا إلهَ إلاَّ الله، وأنّي محمد رسول الله.

قال: يا محمّد كلُّ حاجةٍ لك عندي في أهلي ومالي وولدي فهي بين يَديك؛ وأما هاتان الكلمتان فقد ثَقُلَتا عليّ، ولا أفهمهما. ثم انْصَرف عنه عليه الصلاة والسلام، وقال للغلام اذهبْ إلىٰ القوم وأخبرهم عن مقام صاحبهم عندي، ومقامي، فأتىٰ الغلام إليهم، فقالوا له: وهل قضىٰ محمد حاجتك؟ قال لهم: نعم، والله ما رأيتُ أحقرَ ولا أذلَّ ولا أصغرَ من صاحبكم بين يدي محمد - ﷺ - ولا رأيتُ أعزَّ ولا أكبر وأجلّ من محمد عليه الصلاة والسلام عند صاحبكم، وقد تغيّر لونُه، وطاشَ لُبّه، واصطكّتْ رُكْبَتاه وتَلجلَج لسانه!.

فَتعجّبَ القومُ من ذٰلك، وقالوا: قُوموا نُؤمن بمحمّد، فإنّ أَبا جهل يظهرُ شيئاً ويبطنُ خلافه. فأَتَوا لِيُسلموا فلقيهم الوليدُ بنُ المغيرة عمّه، فذكَروا له القضيّة. فرجَع بهم إلىٰ أبي جهل لينظروا أمره وحاله؛ فناداهُ يا أَبا الحكم! فأجابه بصوتٍ ضعيف، وما زالَ الرَّوعُ في قلبه؛ فنَظر إليه، فَسأله عمّه عمّا به، وقال له: أخوفُ محمّدٍ دخَل قَلبك؟

فقال له: اعذُرني يا عَمّ! فذكر له كيف طُوِيت له الأَرضُ في خُطوة واحدةً، وكيفَ ناداهُ باسمٍ ما سمعه قط. قال فأخذت فِهْراً عظيماً[1]، فأردت أن أضَعه عليه، فإذا به قد صارَ في يَدِي وفي عُنقي وثيقاً لا يتحرّك!.

---

(١) الفِهْرُ: الحَجَرُ يملأ الكفّ.

فقلتُ في نفسي: إنْ كانَ إلٰهُ محمّدٍ يعلم ما في الصُّدور، فَسَيُطلق عنّي هٰذا الحَجر، فإذا بالصّخرة يا عم قد سقطت من يدي، فأخذتُها بعد ذلك وهَممتُ بما هممتُ [٩٥/أ] به أوّلاً، فعادت، وقلت في نفسي ما قلته أولاً؛ فسقطت الصّخرة من يدي، وناداني نداءً ثانياً فهمَمْتُ أن أفعل مثل ذلك، فسمعتُ ورائي شيئاً يتحرّك، فالتفت، وإذا بأسد[1] كأعظم ما يكون، كأنّه اللّيلُ المُظلم، له عينان[2] توقدان ناراً، وله أنياب كأنياب الفيل، وهو يقول: الويل كُلّ الويل لك! أجِبْ محمّداً واقْضِ حاجَتَهُ؛ وإلاّ قرَضْتُك بأنيابي؛ فأجبتُه، ونزلتُ إليه على وَجْهي، وأنا مذعورٌ. فاعذروني، فقالوا له: عَذرناك، وانصرفوا.

هذا معنىٰ هذه القصّة باختصار، فانظروا ـ رحمكم الله ـ ما اشتملَتْ عليه من المُعجزات، وعظيم خارق العادات[3] ومع هذا أبو جهل الملعون لم يزل في جهلٍ وغباوات[4]؛ فحال الله تعالىٰ بينه وبين التّصديق بهذه الآيات.

وفقني الله وإياكم لصالحِ القَول والعَمل، وجَعلني الله وإياكم ممّنْ قَدّم زاد التّقوىٰ وعليه ارتحلَ، وأن يبلغنا بحرمة نبيّنا ـ ﷺ ـ إلىٰ ما نرجُو من الأمل وأن يحفظنا من جميع الخطأ[5] والزّيغ والزّلل في القَوْل والعَمل.

---

(١) في ب: وإذا.

(٢) في ب و ج: له عينان: وفي أ، عيناه.

(٣) في ب: خوارق العادات.

(٤) في ب: جهل وغباوة.

(٥) في ب: الخطايا.

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنَّ نبيَّنا ـ ﷺ ـ صادقٌ صدوقٌ[1] أن يتبعه في صِدقه، ويَقتدي بهِ في قوله وفعله.

روي عن رسول الله ﷺ ـ أنه قال[2]: «عليكم بالصّدق فإنه يهدي إلىٰ البِرّ، والبرّ يهدي إلىٰ الجنة، وما يَزالُ الرجلُ يَصْدُقُ ويتَحرَىٰ الصِّدق حتّىٰ يُكتبَ عند اللّٰه صِدّيقاً، وإياكمْ والكذبَ فإنّ الكذبَ يَهدي إلىٰ الفُجور، والفُجور يهدي إلىٰ النّار، وما يزالُ الرَّجُلُ يكذِبُ ويتحرّىٰ الكذبَ حتىٰ يُكتبَ عند الله كذّاباً».

وعن ابن مَسعود ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنّه قال[3]: «علامَةُ المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعَد أخلف، وإذا اؤتُمِنَ خان».

قال صَفوان بن سليم[4]: قيل لرسول الله ﷺ ـ أيكونُ المؤمنُ بخيلاً؟ قال: نعم. قيل: أيكون المؤمنُ جباناً؟ قال: نعم، قيل: أيكونُ المؤمنُ كذّاباً؟ قال لا.

والصِّدْقُ مَنْزِلَةٌ عَظيمةٌ رَفيعةٌ، ورُتبةٌ عند الله مكينة؛ أَثنى الله به ـ

---

(١) في ب، و: ج: صادق صدوق: وفي أ: صادق مصدّق.

(٢) مجمع الزوائد ١: ٩٣ والدر المنثور ٣: ٢٩٠ وتفسير القرطبي ٢: ٢٤٤، والفتح الكبير ٢: ٣٨، وروي بألفاظ متقاربة في كتب كثيرة ينظر مثلاً مسند الإمام أحمد ١: ٣٨٤.

(٣) الفتح الكبير ١: ١١٣ وبصيغة علامات في فتح القدير ١: ٨٩، وبصيغة: آية المنافق ثلاث في مواضع كثيرة مثل البخاري ١: ١٥ ومسند الإمام أحمد ٢: ٣٥٧ وسنن البيهقي ٦: ٨٥.

(٤) الموطأ ٢: ٩٩٠.

سبحانه ـ علىٰ أنبيائه والمحبّين من أوليائه [٩٥/ب].

قال عبد الله بنُ عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أربعٌ مَن كُنّ فيه لقد ربح: الصّدق، والحياءُ، وحُسن الخُلق، والشّكر.

قال أبو عبد الله الدّيلي: رأيتُ منصوراً الدّينوري في المَنام، فقلتُ له: ما فَعل الله بكَ؟ قال: غفَر لي ورَحِمَني وأعطاني من كرمه ما لم أؤمّل.

فقلت له: ما أَحسنُ ما توجّه بِهِ العبدُ إلى الله؟

قال: الصِّدق، وأَقبحُ ما توجّه به إلىٰ الله الكذب.

ولا تَفْهَمُوا أنّ المرادَ بالصّدق صدقُ اللسان وحدَهُ، بل الصّدقُ في جميعِ الأعمالِ التي كَلّف الله تعالىٰ بها عَبده.

وقد قسّم العارفونَ الصّدقَ إلىٰ أقسامٍ، وذكروا لكلّ قسمٍ منها حُكماً من الأحكام.

فمنها صدقُ اللّسان، وهو عام في جميع الأزمان في الماضي والمستقبل والآن، فمن حفظ لسانه عن الخُلف في أخباره فهو صادقٌ إلاّ لضرورة الإصلاحِ بين الناس، لقوله ـ ﷺ[1]: «ليس بكذّابٍ مَنْ أصلحَ بين اثنين»[2].

وكذا في مصالح الحرب، ومن كانت له زوجتان.

ومن الصّدق الصّدقُ في النيّة بمعنىٰ الإخلاص في الأعمال،

---

(١) تاريخ بغداد ٦ : ٣٨٣ وإتحاف السّادة المُتّقين ٧: ٥٢٣ وورد بلفظ: «ليس بالكذّاب من أصلح بين الناس» مجمع الزوائد ٨: ٨٠، و«ليس الكذاب الذي يُصلح بين الناس، في إتحاف السّادة المتقين ٦ : ٢٦٧.

(٢) في ب: بين الناس، وفوقها: بين اثنين (انظر الحاشية السابقة).

ومراقبة الله في الأفعال.

ومن الصّدق العزم في الإرادات[1]، والحزم في إنشاء الطاعات فالصّدوق: هو الذي يصادف عزيمته[2] في الخيرات.

ومنها الصّدق في الوَفاء بالعَزم، فإنّ النفس قد تعزمُ في الحال ولا تُوفي بالعَمل في المآل، فإذا حقّت الحقائق وحصل التمكّن، وهاجَت الشّهواتُ انحلّ عَقدُ تلكَ العَزمات.

ولعظم هٰذا القِسم وخطورته[3]، أثنىٰ الله تعالىٰ في كتابه الكريم علىٰ أصحاب نبيّه ـ ﷺ ـ من الوَفاءِ به، فقال جَلّ جلالُه: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَٰهَدُوا ٱللَّهَ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب ٣٣/٢٣] روىٰ أنس رضي الله عنه[4]، أن عمّه أنس[5] بنَ النّضر لم يشهدْ بدراً مع رسول الله ﷺ، فَشقّ ذلك علىٰ قلبه، ورآه ذَنباً ارتكَبه معَ ربّه، فقال معاتباً لنفسِه: أوّلُ مَشهد شهِدَهُ رسول الله ﷺ: غِبْتُ عنه، ولم أشهده. أما والله لئن أراني الله مَشهداً مع رسول الله ﷺ ـ ليرينّ الله ما أصنع.

فلما كان عام أُحُد من العام القابل، خرج مع رسول الله ﷺ

---

(١) في ب: العزم في الإرادة

(٢) في: ب: يصادف عزَيمةً.

(٣) يقال: خطر الأمر خطوراً وخطراً إذا جَلّ بعد دقّة.

(٤) سيرة ابن هشام ٢: ٨٣ وسبل الهدى والرشاد ٤: ٣١٧.

(٥) أنس بن النَّضِرْ بن ضمضم من بني عدي بن النَّجّار من الخزرج. صحابيّ شهيد. استشهد في وقعة أحد. وكان أنس قد مرّ بجماعة من المسلمين يوم أُحد، فيهم عمر ابن الخطاب رضي الله عنه حين وقع الظن أن محمداً ﷺ قد أُصيب فقال لهم: ما يُقعدكم قالوا قتل رسول الله ﷺ قال فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم جالد بسيفه حتى قتل. فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه إني لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده يوم القيامة (ينظر: مغازي الواقدي ١: ٢٨٠).

[٩٦/أ] فاستقبله سعدُ بن معاذ ـ رضي الله عنهما ـ وهما في القتال، فقال له: إلىٰ أينَ يا أبا عمرو؟ فقال: إلىٰ الجنّةِ، وربِّ الكعبة. إنّي لأجدُ ريحها دون أُحُد. فقاتَل ـ رضي الله عنه ـ حتىٰ قُتِل؛ فوُجِدَ في جَسده بضعٌ وثمانونَ ما بينَ رَميةٍ وضَربةٍ وطعنةٍ، فلم يَعرفه أحدٌ من بين القتلىٰ من شدة ما أُصِيبَ في ذات الله، جَلّ جلاله، حتّىٰ جاءَتْ أُختُه[1] فَما عَرفَتْهُ إلاّ ببَنانِه. فأنزل الله سبحانه[2] ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب ٣٣/٢٣].

ومن الصّدق موافَقةُ الظّاهر للبَاطنِ في الأعمال؛ فإذا كان يأمرُ الخلائقَ في الظّاهر بالطاعة، ويسرعُ إلىٰ معصية مولاه في الخَلوات، فهو كاذبٌ في معاملَته، مخالفٌ في سُنّته لسنّةِ صاحِب المُعجزات ـ ﷺ ـ في جميع الأوقات[3] وأنشدوا:

إذا السِّرُّ والإعلانُ في المُؤمنِ استَوىٰ ... فقد عَزَّ في الدّارَيْن واستَوْجَب الثنا[4]
وإن خالفَ الإعلانُ سِرّاً فمالَـهُ ... علىٰ سعيهِ فضلٌ سوىٰ الكدِّ والعَنا
كما خالصُ الدّينارِ في السوق نافعٌ ... ومغشوشُه المردودُ لا يَقتضي المُنىٰا

قال عطيّة بنُ عبد الغَافِر ـ رحمه الله تعالى ـ إذا وَافقتْ سريرةُ العبدِ علانِيَتَهُ باهىٰ الله ـ سبحانه ـ به ملائكته، ويقول: هذا عبدِي حَقّاً، صدق في عبادتي صدقاً.

وهو باب عظيمٌ، قليلٌ الوفاءُ به إن لم يكن عَفْوٌ من مَولانا فَنحنُ هالكون، نستخفي من النّاس، ومن رَبّنا لا نستخفي، ونَتزيّنُ لهم في

---

(١) واسمُها: الرُّبَيِّعُ بنت النَّضر.
(٢) قال في السِّيرة: فكانوا يرون أنّها نزلت فيه وفي أصحابه.
(٣) قوله: «في جميع الأوقات» سقط من أ.
(٤) من بحر الطويل.

ظَواهرنا، ونحنُ في ضَمائرنا عن رَبّنا غَافِلُوْن.

كانَ الشّيخ عبد الواحد[1] الزّاهد العابِد يقول: إلَهي! عاملتُ النّاسَ فيما بيني وبينهم بالأَمانة، وعاملتُكَ فيما بيني وبينكَ بالخيانة!

ومن الصِّدق: الصِّدقُ في مقامات اليقين وهو أقوى الرتب عند أهل التمكين؛

- والصّدقُ في الخوفِ من الله؛
- والصّدّقُ في الرّجاء فيما عنده؛
- والصّدقُ في التوكّل عليه؛
- والصّدقُ في الزهد،
- والصّدقُ في الرضا بقضاء الله؛
- والصّدقُ في محبّة الله.

وكل قسمٍ من هٰذه الأَقسام له مبادىء وغايات، وعليه أدلّة من الشّرع وحكاياتٌ؛ علىٰ قدر المَنازلِ لأَهلِ البدايات والنّهايات.

أيها السّالكُ المتخلّقُ بطريقةِ نبيّنا ـ محمد ـ ﷺ ـ [٩٦/ب] انظر إلىٰ تسميته صَدُوقاً لأنّه صادقٌ في لسانه، صادقٌ في أفعاله، صادقٌ في إرادته، صادقٌ في عزمِهِ، صادقٌ في نُصحِه صادقٌ في رِضَاه، صادقٌ في صَبرِه وشكرِه وتوكُّله وحُبّه وزُهده، وتَوبته، صادقٌ في جميعِ حركاتهِ وسكناتِه.

---

(١) عبد الواحد بن زيد البصري، الزاهد.، شيخ الصوفية؛ وأعظم مَن لحق الحسن البصري؛ يقال إنه صلى الصبح بوضوء العتمة أربعين سنة. له حكايات كثيرة في الزهد والرقائق، أمّا أهل الحديث فوصفوه بسوء الحفظ وكثرة الوهم. (لسان الميزان ٤ : ٨٠).

فجاهَد نفسَكَ بسلاحِ آياتِ الوعيد، واقْمَعْ هواكَ باستحضارِ قولِ جَهنّم يوم القصاص (هل من مزيد)؟، وراقبْ من لا تخفىٰ عليه خافية العالم بالسرّ والإعلان وما يختلجُ في الخَواطر والظّنون، القائل في كتابه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف ٦١/٢، ٣].

نقلَ بعضُ الشيوخ من خطِّ الشيخ العابد الزاهد وليّ الله تعالىٰ أبي محمّد عبد الله المَرْذُوري ـ رحمه الله ونفع به ـ قصيدةً عظيمةً ذكرها في وَصفِ الأولياء، واتّباع طريق الأصفياء، يقول في أثنائها في صفةِ الصّادقين، وعلامات المُتّقين ـ رضي الله عنهم، ورحمهم ونَفعنا بهم أجمعين.

سهرتْ عيونُ الصّادقين مَخافةً ... وتقرّحتْ أكبادُهم والأَعْيُنا[1]
من خوفِ حزبٍ لا يرامُ نزالُهُ ... حزب الإلٰهِ لمنْ عَصاه وأعلنا
أيظنّ مَن يعصي بأنّ لهُ الّذي ... للمُؤمنين، ولم يتبْ ممّا جَنىٰ
هيهاتَ ينجُو سالماً مَن لم يتُبْ ... مِمّا نَهاهُ اللّه عنهُ ولا انثنى
صَرفُوا اللّواحظَ عنهمُ لمّا جرتْ ... نَحوَ الّذي هامُوا به فَكُسوا الضّنى
قادَتْهُمُ شهواتُهمْ فاستُعْبِدُوا ... والعبدُ يؤخَذُ في القصاص بما جَنى[2]
يا ويحَ مَنْ باعَ الثّمين ببخسةٍ ... تَبّتْ يداهُ وصافَحتْهُ يدُ العَنا
وكذا الدُّنى غرّارةٌ عُشّاقَها ... يا ويحَ مَنْ يصبُو إلىٰ حُسْنِ الدّنى!

رزقني الله وإيّاكم صِدْقاً في أعمالنا، وبلّغنا بحرمة سيدنا ومولانا

---

(١) من بحر الكامل.

(٢) في ب: بالقصاص بما جنى.

محمد في الدارين آمالنا وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد صلاة تنفعنا في محيانا وعند مماتنا[1].

---

(١) في ب: في حياتنا وبعد مماتنا.

باب

في معنىٰ اسمه

المُصَدِّق (١)

صلَّىٰ الله عليه وسلَّم وشرَّف وكرَّم ومجَّد وعَظَّم

المصدِّقُ: اسمٌ من أسمائه عليه أفْضَلُ الصَّلاة والسَّلام ـ أطلقه الله سبحانه علىٰ لسان الأمّة المحمدية، وشاع اتّصافه به في العَوالم العلويّة والسُّفلية.

ولم أرَ هٰذا الاسم في «كتاب الشّفا» [٩٧/أ] وقد رأيتُه في غيره.

والذي رأيتُه في موضعٍ من كلام القاضي[٢] ـ رحمه الله ـ: (المَصْدُوق) من الثّلاثي. والمصدِّق ـ وهو من الرُّباعي مُضَعّفاً[٣] ـ أَجْرَىٰ على القياس، وأكثر في استعمال الناس.

---

(١) ورَدَ شرح هٰذا الاسم الكريم (المُصَدَّق) ـ بفتح الدال ـ في: سبل الهدىٰ والرّشاد ١: ٦٣٨ وفسّر السيوطيّ في الرياض الأنيقة (المُصَدِّق: ـ بكسر الدال ـ فقال: «مصدِّق: ذكره ابن العربيّ والعَزَفيّ وقال: لأنّه صدّق بالأنبياء والكُتب قبلَه، قال تعالىٰ: ﴿ولمّا جاءَهم رَسولٌ مِنْ عنْدِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لما مَعَهُمْ...﴾ الرياض الأنيقة ٢٤٧)؛ وفسّر صاحب سبل الهدىٰ والرّشاد في كتابه ١: ٦٣٨ (المصدِّق) ـ بكسر الدال ـ أيضاً.

(٢) الشفا ١: ٤٥٥.

(٣) قوله: «وهو من الرباعي مضعّفاً» من (أ) وسائر العبارة من ب، و: ج.

ومعنىٰ المصدَّق (والمصدوق) أي النبيّ الذي صَدّقه الوجود، واعتنىٰ بكثرةِ تصديقهِ وتحقّق صِدْقِهِ الإلٰهُ الملكُ المَعْبُود.

وقد روي في بعض الأخبار، أن نبينا محمّداً ـ ﷺ ـ لمّا أنْ خَلقه الله تعالىٰ نوراً قبل الموجودات، ونوّر بنوره الأرضين والسّموات، خلقَ الله سبحانه الأرواحَ كلها من كلّ ما كانَ، وما هو آتٍ، فشاهدَت الأرواحُ كلُّها نورَ الكائنات وصدقت بنبوءته ورسالته، واعترفتْ أنّه سَيّدُ البريّات، فَما من موجود إلاّ وقد صدّقه ـ ﷺ ـ بِرُوحِه واعترف له بالنبوّة قبل وُجودِه، وقد صَدّقه المَوْلىٰ ـ جلّ جلالُه ـ وأبانَ تصديقه بما أظهرَ علىٰ يديه من عظيم الآيات، وما خصَّه به من عجائب خوارق العادات، وما أيَدَهُ بهِ في تَصديقه من بَديع المُعجزات.

فلنذكرْ من بديعِ مُعجزاته ـ ﷺ ـ ما يزيدُ التَّصديق به في القُلوب، ويعلم منه[1] كلّ مؤمنٍ أنه الحبيب لربّه، المصدّق في كلّ ما أخبر به من الغيوب.

رُوي عن عُمر بن الخطاب[2] ـ رضي الله عنه ـ أنّ رسول الله ﷺ ـ كان في محفلٍ من أصحابه إذْ جاءَ أعرابي قد صادَ ضَبّاً فقال للنبي ـ ﷺ ـ: واللاّت والعُزّىٰ لا آمنتُ بك حتىٰ يُؤمن بكَ هٰذا الضَّبُ! فأخرجَ الضبّ من يده، وطَرحه بين يَدَيْ رسولِ الله ـ ﷺ ـ فقال رسول الله ﷺ، للضب: يا ضَبّ، فأجابه الضبُّ بلسانٍ عربيٍّ مُبين

(١) في: ب: ويعلم به.

(٢) دلائل النبوّة للبيهقي ٦: ٣٦، والشفا ١: ٥٩٤، والبداية والنّهاية ٦: ١٤٩؛ وقدّم له ابن كثير بقوله: «حديث الضّب، علىٰ ما فيه من النّكارة والغرابة...». وقد نبّهنا إلى مثل هذه النقول والروايات في مقدّمة التحقيق.

يسمعُه القومُ جميعاً، لبيْكَ! وسعديك! يا زَيْنَ مَن وافىٰ القيامة.

قال: من تعبدُ يا ضبُّ؟

قال: الّذي في السّماء عرشُه، وفي الأرض سلطانُه، وفي البحارِ سبيلُه، وفي الجنّة رحمتُه، وفي النّارِ عقابُه

قال: فَمن أنا يا ضبُّ؟

قال: رسولُ ربِّ العالمين، وخاتمُ النَّبِيّين وقد أفلحَ من صَدّقك، وقد خابَ من كذّبك.

قال الأعرابيّ: لقد جئتُك وما أحدٌ علىٰ وجه الأرض أبغضَ إليّ منك، وإنك اليوم أحب إليّ من والدي وولدي ومن عيالي[1] ومني [٩٧/ب] وإنّي لأحبّك بداخلي وخارجي وسرّي وعلانيتي، أشهدُ أن لا إلٰه إلاّ الله، وأنّك محمّدٌ رسولُ الله.

فقال ـ ﷺ ـ: الحمدُ لله الذي هداكَ لهذا الدّين الذي يعلوُ ولا يُعلىٰ عليه، ولا يقبلُ إلاّ بصلاة، ولا تقبل الصّلاة إلاّ بقرآن.

قال: فعلّمني.

قال: فعلّمه النبي ﷺ ـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ١١٢/١، ٢].

وخرج الأعرابيّ، فلقي ألفَ راكبٍ من بني سُليم فقال لهم: إلىٰ أين تريدون؟ فقالوا: إلىٰ هٰذا الذي سفّه آلِهَتنا فَنَقْتَلَهُ!.

قال: لا تَفْعَلُوا؛ لأنّي صدّقتُه، وشهدتُ له أن لا إله إلاّ الله وأنّه عبده ورسوله. وذكر لهم دليله.

---

(١) في ب: من وَلدي ووالدي ومن عيني ونفسي.

فقالوا بأجمعهم: لا إلّه إلا الله، محمد رسول الله. ثم أتوا إلىٰ رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ فسمع بهم فتَلقّاهم سروراً وفرَحاً بإسلامهم، فنَزلُوا وهم يقولون: لا إلّه إلاّ الله، محمّد رسولُ الله، ثم قالوا:

يا رسولَ الله مُرْنَا بأمرك. قال عليه الصلاة والسلام ـ كُونوا تحتَ رايةِ خالد بن الوليد. ولم يُؤمن من العرب ولا من غيرهم ألفُ راكب إلا هٰذه الجماعة[1].

وقد روي كلامُ الضبّ لرسول الله ـ ﷺ ـ في طرقٍ غيرِ هذه، في ذِكر قصصها طولٌ حذفناه؛ ولبُّه ما ذكرناه.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت[2]: إن حِمَاراً كان أَخذه رسول الله ـ ﷺ ـ في سهمه من خيبر، فركبه ـ ﷺ ـ فكلّمه الحمار.

فقال له النبي ـ ﷺ ـ يا حمار ما اسمُك؟ فقال: يزيد بن شهاب.

فقال له النبيّ ـ ﷺ ـ هل لك من ابن[3]؟ قال: لا، قال: ولِمَ؟.

قال: لأنّه حدثني أبي عن آبائه عن أجداده أنّه قال: ركبَ نَسْلَنا سبعون نبياً، وأن آخرَ نسلنا يركبه نبيٌّ يقال له محمد بن عبد الله، قال: وقد خَرج من نسل جَدّي ستون حماراً لم يركبها إلا نبيّ، وقد كنتُ أتوقّع أنّك تركبني، ولم يبقَ من نسل جدي غيري، ولا من الأنبياء

(١) يريد أنهم أسلموا بهذا العدد مرّةً واحدة.

(٢) هذا الخبر في البداية والنهاية ٦: ١٥٠ قال ابن كثير: «حديث الحمار، وقد أنكره غير واحدٍ من الحفّاظ الكبار».
ـ وفي الخصائص الكبرى للسيوطي ٢: ١٠٦ مختصر منه.

(٣) في ب: مِن نسل؟

غيرُك، وقد كنت قبلك ليهوديّ، وكنت أعثرُ به عمداً، وكان يسيءُ إليّ ويضرب ظهري[1] فقال له النبي - ﷺ - فأنت اليوم يَغفُور.

قالتْ عائشة: وكان رسول الله - ﷺ - يركبُه في حَوائجه، فإذا نَزل عنه بعث به إلىٰ دار الرجل، فيأتي إلىٰ بابه فيقرعه برأسه، فإذا خرج إليه صاحب الدار [٩٨/أ] أوْمَأ إليه برأسِه.

فلما قُبِضَ رسول الله - ﷺ - بقي بعده ثلاثةَ أيّام، وجاءَ إلىٰ بِئرٍ كانت لأبي هيثم فتردّىٰ بِهِ حُزناً علىٰ رسولِ الله - ﷺ -.

وروىٰ أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنه كان مع رسول الله - ﷺ - والناسُ معه، إذْ أقبل رجل يُقال له: النُّعمان بن مالك علىٰ فرس أبلق[2] فوقف علىٰ باب المسجد، فنادىٰ بأرفع صوته:

أيّكمْ محمد؟، وذكرَ أوصافاً لا تليقُ بمنصبه - ﷺ - إلا أنّ الله تعالىٰ مَنّ عليه بالإيمان وقلب قلبه إلىٰ التصديق برسوله، والإذعان.

قال: فوثب إليه عمر بن الخطاب، وعليّ رضي الله عنهما، فرموا بأيديهم علىٰ أطواقِهِ، ونكسوه من علىٰ فرسه، انتصاراً لنبيّ الله وحَبيبه.

وبادر عليّ - رضي الله عنه - فجلسَ علىٰ صدره وجرّد سيفه ليذبحه، فقال النبيُّ - ﷺ - لشدّة شفقته علىٰ أمّته، وحرصه علىٰ إيمانهم:

قُم عنه يا أبَا الحسن، فوكزه في حلقه[3] بقائم السّيف، وقال له: أتسبُّ رسول الله - ﷺ - ونبيّ الله، وحبيبَ الله؟

---

(١) في ب: ويضربني على ظهري.

(٢) البَلَقُ والبُلْقَةُ: سوادٌ وبياضٌ؛ وارتفاع التّحجيل إلىٰ الفخذين في الدابّة.

(٣) وَكَزهُ دفعه وضربه (مثل نكزه)؛ وطعنه بِجُمع كفّه. ويقال بالعَصا (وبالسّيف).

فقال له النّعمان: أنت محمد؟

قال النبيّ - ﷺ - أنا محمد بن عبد الله، وأنا رسولُ الله.

قال له: لقد رأيت اليَمن وكهلان، وقحطان وخَولان، ولخماً وجُذَاماً[1] وغَيْرَهم، يقولون إنّك ساحر، إلاّ بني عمّك هؤلاء وأنصارك؛

فإنْ كانت عندك دلالةٌ تصدّقك فأنا أؤمنُ بك وأُصَدّقك، وإن لم تكن عندك دَلالةٌ وآيةٌ رجعتُ عن تصديقك، فقال النبيُّ - ﷺ -: لكَ ذلك يا نُعمان، فجَثا النُعمان بينَ يدي النبيّ - ﷺ - علىٰ ركبتيه، فنَظر - ﷺ - إلىٰ فرس النعمان ثم قال:

يا فرسَ النُعمان أَقْبِل! فدَخل الفرسُ المسجدُ وهو يَتوقّىٰ ثيابَ المُسلمين، ويَتأدّب معَ عبادِ الله الصّالحين، حتىٰ برَك برأسه في حِجر رسول الله - ﷺ - فمد النبي - ﷺ - يده المباركة إلىٰ خدّه وناصيته وقال له:

من أنا يا فَرَس النُعمان؟

قال: فتنحنح الفَرسُ تَنَحْنُحَ الآدَمِيّ.

وقال: أنتَ محمّد بنُ عبد الله، وأنتَ تاجُ الأوّلين والآخِرين.

فوضَع النبيُّ - ﷺ - [٩٨/ب] يده علىٰ أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - فقال له: مَن هذا؟ قال الفَرس: أبو بكر.

فوضعَ النبيُّ - ﷺ - يده علىٰ عمر بن الخطاب، ثمّ وضع يده علىٰ عثمان، ثم وضع يده علىٰ عليّ بن أبي طالب، والفَرَسُ يخبرُ بهم.

---

(١) في الأصول: ولخم وجذام.

ثم قال: عليٌّ صهرك وابنُ عمّك، وزوجُ ابنتك مَنْ تمسّك بمحبّتهم نَجا، ثم سكتَ الفرس.

فقال النبي - ﷺ - أَدِّ الأمانة يا فَرس النُّعمان! فقال: والّذي بعثك بالحقّ نبياً يا محمّد إنْ كنّا سُمّينا خَيلاً ولا سُمّينا أفراساً، ولا حَسُنت أبداننا ولا حُبّبنا إلىٰ ولد آدم. ولا سُدنا علىٰ سائر الدواب إلا[1] لأن الله - سُبحانه - كتَب علىٰ أفئدتنا.

«لا إلَه إلاّ الله وحدَهُ لا شريكَ له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله».

وفيه مكتوب: أبو بكر الصديق، وعُمر الفاروق وعُثمان ذو النورين، وعليّ الرّضى، والقرآنُ كلامُ الله، والخيرُ والشرُّ من الله.

فقام النُّعمان فقال لرسول الله - ﷺ - مُدّ يدك فإنّي أشهد أن لا إلَه إلاّ الله، وأنك محمد رسول الله، وأقام مع رسول الله - ﷺ - حتىٰ توفي رسول الله - ﷺ - وهو مصدّق به. فجميعُ الموجودات، ناطقةٌ بتصديقه - ﷺ - وشرّف وكرّم ومَجّد وعَظّم.

فكلمتْهُ دواب الأرضِ مفصحةً ... والضبُّ والذئبُ والأطيارُ في الشجرِ[2]
والصخرُ والظبي والأطوادُ شاهدةٌ ... وما علىٰ الأرضِ من بيتٍ ومن مَدرِ[3]
كلٌ يناديه أنّ الله أرسلَهُ ... حتىٰ الجمادُ مع الأنعامِ والبَقرِ
وكلّمَتْهُ ذِراعُ الشاةِ مخبرةً ... إنّي لمسمومةٌ فَكُنْ علىٰ حَذرِ

---

(١) في ب: إلاّ للجهاد لأنّ.

(٢) من بحر البسيط. ويلزم تخفيف باء دوابّ للحفاظ على الوزن.

- وفي الأبيات إشارات إلى عدد من الخصائص والدلائل، مما هو مشهور.

(٣) في ب: من نبتٍ.

وحنَّ شوقاً إليهِ حين فارقَهُ جِذْعٌ من النّخلِ ذَاوٍ يابسٍ نخرِ[1]
فضمّهُ المُصطفى في حضنهِ سكناً فزالَ عنهُ الذي يخشاه من ذُعرِ

وفيما ذكرناه كفاية وهداية، فحصل مِن ذٰلك للمحبّ في التّصديق به تذكرةٌ وعناية.

وسنذكر بعد هذا الاسم ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ ما نستحضره من معجزاته عليه أفضل الصلاة والسلام في أسمائه، صاحب الحجة، وصاحب السلطان [٩٩/أ].

وصاحب البُرهان، أعاذَ الله عَلينا من بركاته، وصحبنا بالسّلامة والعافية، حتىٰ نَرِدَ دارَ كرامته.

فصل

ومن آدابِ مَنْ كان مُصَدِّقاً بهذا النبيّ العَظيم، عالماً ما أكْرَمهُ بهِ مولاهُ الكريم أن يُكثر من سَماعِ آياته، وبراهينِ مُعْجِزَاته.

ويعلم أنَّ الله ـ سبحانه ـ لا يُعجزه شيءٌ من المُمكنات، ولا تقصر قُدرته علىٰ ما أَبرز من جميع المَصْنُوعات لأنّه ـ جلّ جلاله ـ ما من مُدرك بالعقل، ممكن وجوده إلاّ ويجوز أن ـ يخلقه ـ سبحانه ويُظهره للأعين، فلا يُعجزه شيءٌ من الممكنات.

فإذا سمعتَ شيئاً من مُعجزات أنبياءِ الله أو كراماتِ أولياءِ الله، فبادرْ إلىٰ قولك: آمنتُ بالله، وبما جاء من عندِ الله وعلىٰ لسان رَسُول الله، وآمنت بالله وبما جاء عن الله وعلىٰ لسانِ رَسُول الله، وآمنت بالله

---

(١) كذا. جَرّ كلمتي يابسٍ ونخرٍ اتباعاً لِـ: ذَاوٍ على اللّفظ لا على المحلّ. وفيه جوازٌ قبيح.

وبما جاء عن الله؛ وعلىٰ لسان أولياء الله[١].

وكنْ لنبينا محمد ـ ﷺ ـ مصدّقاً في الذي أخبر به عن الغُيوب حتىٰ كأنّك مشاهدٌ له واتبع أصحابه[٢] الكرام ـ رضي الله عنهم ـ وكيف كانوا في يقينهم فإنهم الأئمة الأعلام، حتىٰ أخبر ـ ﷺ ـ عن أحوال صاحِبَيْهِ ـ رضي الله عنهما ـ في كثرةِ تصديقهما، وقوّة يقينهما، وهُما النّاطقان بالصّواب، أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما فقال[٣]:

«بينا رجلٌ ركبَ بقرةً، وجعل يضربها ويعنّفها، فقالت: يا عبدَ الله ما لهذا خُلقت، فقال النّاس: سبحانَ الله! بَقرةٌ تتكلّمُ! فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: آمنتُ بذلك وأبو بكر وعمر؛ وما هما[٤]».

ثم قال أولياءُ الله ـ رضي الله عنهم ـ في هذا الحديث: إنّ رسول الله ـ ﷺ ـ أَخْبَر أنّه صدّق بذلك، وحكم علىٰ أبي بكر الصّديق وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ بالتّصديق في غَيبتهما.

وإن كان المؤمنون ـ رضي الله عنهم ـ كلّهم لا يَتَشكّكُونَ في خبر المصطفى ﷺ ولا يتردّدون، ولكنّهمُ ـ رضَي اللّهُ عنهم ـ تعجّبُوا فقالوا: سُبحان الله! بقرةٌ تتكلّم! فوقَفُوا عند العادة، فتعجّبُوا، ثم رجَعُوا إلىٰ دليلِ صِدق المُصطفى ـ ﷺ ـ فكانُوا له مصدّقين، وبكلامه مؤمنين.

وأمّا أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ فلرسوخ [٩٩/ب] إيمانهما، وكمال إيقانهما لا يَتعجّبان من قُدرة الله تعالى، لأنهما خَرجا عن دائرة هذا العالم، ولم يلاحظاه، وتحقّقا الحَقّ

---

(١) كذا أطلق المؤلف الكلام ولم يقيّده بشيء. وتحته نظر. وانظر ما أثبتناه في مقدمة التحقيق عن مذهب المؤلف في إيراد هذه الأقوال، وبعض الأخبار على عهدته.

(٢) في ب: واتبع أحوال أصحابه.

(٣) صحيح مسلم: ١٨٥٧.

(٤) قوله ﷺ: «وما هما» تعظيمٌ لشأنهما.

عياناً، ورأيا الأشياء عليه بُرهاناً، وهٰذه أحوال خواصّ رسول الله ـ ﷺ ـ حتىٰ كان حنظلة ـ رضي الله عنه ـ لتمام يقينه في تصديقه، إذا غفَل عن مشاهدة ما أَخْبَر بهِ المُصْطفَى ـ ﷺ ـ يحكم علىٰ نفسه بالنِّفاق.

وقد لقيهُ أبُو بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ فقال له[1]: كيفَ أصبحتَ يا حَنظلة؟ فقال له: نافَق حنظلة!

فقال له: كيف ذلك؟

فقال له: إذا كنّا عند رسول الله ـ ﷺ ـ يذكّرنا بالجَنَّةِ والنّار حتّىٰ كأنّهما رأي عين فإذا خَرجنا من عنده عافَسْنا[2] الأَهلينَ والأولاد. نسينا كثيراً.

فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وأنا كذلك... «الحديث».

فتأمّلوا ـ رحمكم الله ـ هٰذه الأمور، من هذه السّادة الكرام كيفَ خرَجُوا بها عن النَّظِير، وكيفَ جَرىٰ التصديق[3] في قولهم وعمّ الصغير منهم والكبير.

وقد شهد خُزَيمة[4] ـ رضي الله عنه ـ لرسول الله ﷺ ـ بشراء

---

(١) صحيح مسلم: ٢٠١٦.

(٢) في النهاية (ونقل عنه في اللّسان) المعافسة: المداعبة والممارسة. وفي حديث حنظلة الأسيدي: فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والضّيعة.

(٣) في أ: جرى التّوفيق.

(٤) انظر مُسندالإمام أحمد ٥: ١٨٨، ١٨٩، ٢١٦: وانظر ثمار القلوب: ٢٨٧. وخُزَيمة هو ذو الشّهادتين: خزيمة بن ثابت الأنصاري. نقل الثعالبي في المضاف والمنسوب (٢٨٧ ـ ٢٨٨) أن يهودياً أتى فقال يا محمد اقضني دَيْني فقال عليه الصلاة والسلام: ألم أقضك؟ قال: لا! فقال إن كانت لك بيّنة فهاتها، وقال لأصحابه أيكم يشهد أني قضيت اليهودي ماله؟ فأمسكوا جميعاً فقال خزيمة: أنا يا رسول الله! أشهد أنك قضيته. قال وكيف تشهد بذلك ولم تحضره ولم تعلمه؟ فقال يا رسول الله نحن نصدقك على الوحي من السماء فكيف لا نصدقك على أنك قضيته؟ فأنفذ عليه السلام شهادته وسمّاه ذا الشهادتين لأنه عليه السلام صير شهادته شهادة رجلين.

الفرس الذي نُوزع المصطفىٰ - ﷺ - في شرائها، وكان خُزَيمة غائباً، فلما قَدِمَ شَهِدَ لرسول الله - ﷺ -، لأنه علم بالدليل القَطعيّ والمقام النّبوي أنّه لا يَنطِقُ - ﷺ - إلا بِحَقٍ ولا يصدرُ منه إلا الصّدق. ودلائل المُعجزات كلّها شاهدةٌ له من الله تعالى أنّه مصدّق في كلّ ما يقولُهُ، ويُخبر به عن مولاه. وجميع ما ينطق به صدقٌ وحقٌ، ولا يجوز عليه سِواه.

والعِصْمَةُ القطعيّةُ دالّةٌ علىٰ كمالِ صِدقه، وخوفه من رَبّهِ، ووُقوفه عند حَدّه. فجعَل - ﷺ - شهادةَ خُزَيمة - هذا السّيد الذي ألْهمه الله تعالىٰ إلى تصديق نبيه - تعدلُ شهادةَ رَجُلَين، لأنّ علم يقينِهِ صار كرؤية العَينين. وشهادته له بما علم من حاله وعصمته.

فَجدّدْ - رحمك الله - تصديقَكَ في يَقظتك، وإذا أفقْتَ من نومك وغَفْلَتِكَ واذكُرْ مِن مُعجزات المُصطفى ﷺ وتتَبّعْ أحوال أصحابِهِ في تصديقهم، فإنّهم أساسُ الخَيْرات، ومعدِنُ البركات والصدق والوفاء.

الله فَضّلهُ نَيْلاً وقَرّبَهُ	وكان صاحِبَهُ في الوحي جبرينُ(١)
وفي أبي بكر الصديق صاحبه [١٠٠/أ]	فضائل دونَها للعدِّ تبيينُ
وللسّراج أبي حفصٍ بلا عَددٍ	مَفاخرٌ زانَها للفَخْرِ تزيينُ
وأينَ مثل ابنِ عفان وعفّته	ونُسكه وتُقاه وهو مأمونُ(٢)
وصفْ خصالَ عليّ مع شجاعتهِ	وما رأتْ منهُ يوم الحربِ صِفّينُ
وطلحةٍ وزبير الفاضلين معاً	وبعد سعدٍ سعيد وهو تحصينُ

(١) من بحر البسيط.
- يقال: جبريل وجبرين.
(٢) في أ: مثل ابن عفان بعفّتِهِ.

ثم ابن عوفٍ وجَرّاح فَلُذْ بهما   وامْدَحْهُمَا فمديحُ القوم مَسْنونُ
من حبّ هذا النبيّ الهاشميّ ومَن   يَهوىٰ صحابته لم يخشَهُ هونُ
صلّى الإلهُ عَليهمْ ما سَرىٰ قمرٌ   وما تأوّهَ مُشتاقٌ ومَحزُونُ

باب

في معنىٰ اسمه

قَدَم صِدْق[1]

صلَّىٰ الله عليه وسلَّم وشرَّف وكرَّم

قَدَمُ صِدْق: اسمٌ من أسمائه عليه أفضلُ الصَّلاة والسَّلام، وردَ به القُرآن وصرّح بتشريعه، وبشّر به [وشرّفه به] نصّ التبيان.

قال الله العظيم مخاطباً لنبيه الكريم، وآمراً لهُ بأنْ يبلّغ بفضله العَمِيم كَرامةً له، ببركته عليهم، ورحمةً لهم[2]: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ١٠/ ٢].

قال قتادة والحسَن وزيد بن أسلم[3] ـ رضي الله عنهم ـ قدم صدق في الآية: هو محمّد ـ ﷺ ـ.

وهو شفيعٌ صدوقٌ عند ربه

---

(١) ورد شرح هٰذا الاسم الكريم في: الشفا ١: ٧٧ والرّياض الأنيقة: ٢٢٤، وسبل الهدىٰ والرّشاد ١: ٦١٦.

(٢) في ب: ورحمته بهم.

(٣) صحيح البخاري ٥: ٢١١ والشفا ١: ٧٧ ومناهل الصفا: ٣٤ والرياض الأنيقة: ٢٢٤، وسبل الهدى والرشاد ١: ٦١٦.

وقال سهل بن عبد الله[1]: هي شفاعَةُ رحمةٍ أَوْدَعها الله في محمّد - ﷺ -.

وقال محمد بن عليّ التّرمذي[2]: هو إمامُ الصادقين والصدّيقين، والشّفيع المطاع، والسائل المجاب محمد - ﷺ - حكاه عنه السلمي.

ونقل عن الحسن أيضاً[3]: أنّ قدم صدق: مصيبة الأُمّة بموت نبيّنا - ﷺ -.

فاسْمُه - ﷺ - علىٰ هٰذه الأقوال قدم صدق: إمّا أنّه اسمٌ لذاته - ﷺ - بمعنىٰ أن الله تعالىٰ جَعل ذاته وجميعَ صفاته وأفعاله قدماً ثابتاً محققاً لمن اتّبعه، واقتفىٰ آثاره وصدّقه.

وإما أنّه قَدمُ صِدْقٍ لهٰذه الأُمّة لأجل شفاعته وإكرامِ الله أُمّته في آخِرته.

وسنذكر في اسمه: الشّافع المُشَفَّع؛ ما وَرد في إكرام الله إيّاه من أَحاديث الشّفاعة في يوم يكون له توفية ما وَعده الله به[4].

وإما أن يكون قدم صدق بمعنىٰ [١٠٠/ب] أن الله تعالىٰ قدّم لهذه الأُمّة قَدماً عظيماً، وذُخراً من الثّواب كريماً؛ لأجل مُصابها بنبيّها وفقدها في هٰذه الدّار لحبيبها، وعلىٰ قدر التألم بفقده عند ذكره أَعْظَم الله تعالىٰ أجْرَ مَنْ ذكَره من أُمّته، وزاده في أَجره.

---

(١) الشفا ١: ٧٨. والقائل: سهل التّستري؛ وله ذكر كثير في هذا الكتاب.

(٢) الشفا: ١: ٧٨.

(٣) تفسير القُرطبي: ٨: ٣٠٦ - ٣٠٧.

(٤) في أ: يكون له من السّمع والطاعة ما وعده الله به.

ولمّا عَلِمَ ـ ﷺ ـ أنّ أمته أُصِيبت به غايةَ المُصاب، وفَقدوا بموته أعظمَ الأحباب، عزّى الناسَ في مصابِهِم بمصيبته، وسلّىٰ أهل المصيبة بتذكر فقده فقال عليه الصّلاةُ والسّلام[1]:

«ليعزّ النّاسَ في مصيبتهم المُصيبةُ بِي». إشارة منه إلىٰ أن فراقه ومرارته يهوّن المصيبات، وتجرّعَ غُصَصِه يُلهي عن أعظمِ الغَمرات.

ولا شكّ أنّ المؤمن المحبّ إذا تذكّر فِرَاقه، وذاقَ أَلَم مُصابِهِ ألهاهُ ذٰلك المصابُ عن جميعِ المصائب، وتسلّىٰ قلبُه عَمّا فقد من أعظم الحبايب؛ لأنّه لا نفسَ أعزُّ علىٰ المؤمن المحبّ من نفسِ محمدٍ ـ ﷺ ـ، ولا أكرمُ عندها من النبي الكريم. ولسانُ كل مؤمن ومؤمنة قائل في نبينا، وحبيب قلوبنا:

يا سيّداً عَظُمت في الفضل رتبتهُ ... وأغمر الخلقَ إحساناً وإفضالا[2]

ما بعد فقدكَ موجودٌ نُسَرُّ بهِ ... كنتَ الحياةَ وكنتَ الأَهل والمالا

ورضي الله تعالى عن تلكَ السّيّدةِ الأنصارية التي ماتَ زوجُها وأخُوها ووَلَدُها في أُحد[3]، وخَرجت تَلَقّىٰ رسولَ الله ـ ﷺ ـ وقد نَسِيَتْ مُصابَها، بِسُؤالها عن حال الشفيقِ الرّحيمِ بهٰذه الأُمّة، الكاشفِ الغُمّة قائلة:

---

(1) في الفتح الكبير ٣: ٧٠: «ليعزّ المسلمينَ في مَصائبهم المصيبةُ بي». وفي كنز العمال ٤٢٦١٠ ليعزّ الناس بعضهم بعضاً من بعدي. . .، وفيه: ٤٢٦١١: ليعزي المسلمين عن مصائبهم.

(2) من بحر البسيط.

(3) الخبر في السّيرة النبوية ٢: ٩٩، والمغازي (للواقدي) ١: ٢٩٢ والسيدة الأنصارية الفاضلة هي السُّميراء بنت قيس من بني دينار.

كيفَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ؟ وكلّ من لقيها يقول لها: بخيرٍ كما تُحِبّين.

فقالت: أَرُوني وجهَ رسولِ الله ﷺ ـ فَمَا هَدأ رَوْعُها، واطمأنَّ قَلْبُها حتىٰ شَاهدت ذاتَهُ الكريمة، وتَجَلَّت لها أنوارُه السَّلِيمة.

فلمّا رأتْهُ ـ ﷺ ـ قالت: كلُّ مصيبة بعدك جَلَل[1]، أي أنّها حقيرة. كأنّها قالت، وبلسان حالها أشارت: إذا سلمتَ للخَلائق سلمتْ نفوسُهم، وقَرَّتْ عُيونهم؛ لأنّك مقدّمٌ في القُلوب علىٰ مالها وولدها وأنفسها. فإذا سلِمْتَ فأنت المقصُود، وبِنُور وجهك أقام الله تعالى ضياءَ الوجود.

ولنذكرْ من حالِ وفاةِ رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ [١٠١/أ] ما يعظ النفوسَ ويردَعُها[2]، ويعلم بها أنَّ الدّنيا دارُ فَناء ويذكرها.

قال ابن سبع وغيره ما تلخيصُه[3]:

قال عليّ ـ رضيَ الله عَنه ـ لمّا كان قبل موت رَسُول الله ـ ﷺ ـ بثلاثِ ليالٍ أتىٰ جبريل عليه السّلام فقَال: يا محمّد! إنّ الله تعالىٰ أرسلَني إليك لأسألك عَمّا هو أعلمُ به منك؛ كيفَ أصبحتَ، وكيفَ تجِدك؟

فقال النبيّ ـ ﷺ ـ أَصبحتُ اليَوم وجعاً. فلما كانَ اليوم الثّالث أتىٰ وقال: يا محمّد إن الله أرسلني إليك لأسألَكَ عَمّا هو أعلمُ به منك، كيف أصبحتَ وكيفَ تجدُكَ؟

---

(١) قال ابن هشام: الجَلل يكونُ من القَليل والكثير، وهو هُهُنا القَليل.

(٢) في ب: ما تَتّعِظُ بِهِ النّفوسُ ويردعها.

(٣) الخبر على وَجه مقارب في: دلائل النبوّة ـ للبيهقي ٧: ٢١٠ ـ ٢١٣؛ وينظر المصدر نفسه ٧: ٢٦٧ ـ ٢٦٩.

فقال: يا جبريلُ أجدني اليوم وَجِعاً مكروباً، فقال: ملَكُ الموت بالباب يستأذنُ عليك، ولم يستأذن علىٰ أحدٍ قَبْلَك، ولا يستأذنُ علىٰ أحدٍ بعدك.

قال: فأذِنَ له فدخَل فانصرف جبريل، فقال ملك الموت: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته إن الله تعالىٰ أرسلني إليك وأمرني بطاعتك، فإنْ أمرتني أن أقبضَ رُوحك ـ الكريمةَ علىٰ الله ـ قبضتُها، وإن أمرتني أن انصرف انصرفت.

فقال النبيّ ـ ﷺ ـ: فأنْظِرني قليلاً حتىٰ يأتيَ جبريل. فانْصَرَف ملَكُ المَوت فَلقيَ جبريل في الهَواء في سَبعينَ ألفاً من الملائكة، وميكائيل عليه السّلام في سَبعين ألفاً من المَلائكة، وإسْرافيلَ عليه السّلام في سَبعين ألفاً من المَلائكة، ومالكاً خازن النار عليه السلام في سبعين ألفاً من الملائكة، ورضوان خازنَ الجنان عليه السلام في سبعين ألفاً من الملائكة.

فقال جبريل: يا مَلك المَوت ما فَعَلْتَ بروح حبيبي محمّد؟ ـ ﷺ ـ فقال: كلّمني لأنتظر مَجيئكَ، فانصرفت. فرَجع؛ فَدخَلا علىٰ النبي ـ ﷺ ـ فقال له: يا أخي يا جبريل: تركتني عند الشدائد؟ فقال: لا يا حبيبي محمد، إنّ ربّ العزة سُبحانه طلبَ لقاءك[1].

فقال: يا جبريل فبَشّرني قبل خُروج رُوحي من الدُّنيا. فقال: يا

---

(١) في أ: عند الشدائد تركتني.

ـ وفي دلائل النبوّة للبيهقي ٧: ٢١١ في سرده هو للخبر: «قال جبريل يا أحمد إن الله قد اشتاق إلى لقائك...» قال البيهقي: إن صحّ إسناد هذا الحديث فإنما معناه قد أراد: في قربتك وكرامتك.

محمّد قد فُتحت أبوابُ السّماء، واصطفّت أهلُ كلّ سماء ينتظرون روحك إذا مَرّت عليهم صَلّوا عليكَ.

فقال: ليسَ عن هٰذا أسألك يا جبريل، فبَشّرني.

فقال: أنتَ أوّلُ من تنشَقُّ عنه الأرض[1]، وأوّلُ شافع[2]. قال: ليسَ عن هذا أسألك يا جبريل، بَشّرني [١٠١/ب] قال: مِفتاحُ الجَنّة بيدكَ يومَ القيامة، قال: ليسَ عن هذا أسألك، بَشّرني قال: يا محمّد الجنّةُ محرّمَةٌ علىٰ جميع الأُمم حتى تدخلها أمتك قال: الآن قَرّتْ عَيني يا أخي يا جبريل.

اذنُ مني يا مَلك المَوت، واقبضْ مِنّي ما أُمِرت به، وأقبلتْ فاطمةُ تبكي وتُنادي. ثمّ إن الحَسَن والحُسَين أتَيا فقالت لهما أمّهما ادْنُوَا من جَدّكما، فدَنَوا منه وكلّماه، فلمْ يَرُدَّ عليهما. وكان عليه الصلاة والسلام يلطفُ بهما، ويقبّلهما.

فلمّا قَرُبا منه جلَسا بين يديه فقالا: يا جَدّاه يا رسولَ الله. ورسولُ الله - ﷺ - في سكَراتَ المَوت، وقد اشتدّ بهِ الحال، فلمّا رأيا ذٰلك بَكيا، وبكىٰ أهلُ البيت لبكائهما، وهُمَا يُعيدان القَوْل: يا جَدّاه يا رسولَ الله. وبكىٰ عليّ، والفَضْلُ، وأُسامة لبكاءِ الغُلامين، وكانَ الحسن أشدّهما بكاءً، فكانَ يبكي وينظرُ إلىٰ جَدّه ويقول:

---

(١) في الحديث: أنا أول الناس خروجاً إذا بُعثوا (الشفا ١: ٣٩٨ وإتحاف السّادة المتقين ١٠: ٤٩٦) و: أنا أوّل من تنشقُّ عنه الأرض يوم القيامة (مسند أحمد ١: ٢٨١ والشفا ١: ٤٦٧).

(٢) في الحديث: أنا أول شافع وأوّل مشفّع (إتحاف السادة المتقين ١٠: ٢٨٥ و: «أنا أول شفيع يوم في الجنة» صحيح رواه مسلم في الإيمان وأحمد في المسند ٣: ١٤٠).

يا جدّاه انظُرْ إليّ نظرةً، كلّمني كلمةً، لو علمتُ تزوّدت من طِيب رائحتك، ولذيذِ كلامك.

قال: فسَمِعَ ذلك المُصطفى ـ ﷺ ـ وفتح عينيه، وقال: ما هٰذا الصّوت؟

قالت فاطمة: هٰذان ابناكَ كلّماك فلم تجِبْهما فبكيا، وبكىٰ لبكائهما أهلُ البيت.

فقال النبيّ ـ ﷺ ـ: ادْنُوا، فَدَنوا منه فقَبَّلَهُما، وجعلَ يديه علىٰ رَأسيهما، وهما يبكيان حتىٰ أُغمي عليه.

وروي أن ملكَ الموتِ عليه السلام قال: السلام عليكم. يا أهلَ بيتِ النُّبوة، ومعدِن الرِّسالة؛ فقالتْ فاطمةُ رضي الله عنها، رسولُ الله ـ ﷺ ـ مشغولٌ عنكَ، فكرّر ذلك، وقال في الثّالثة: أدخل فلا بدّ لي من الدُّخول.

فقال النبي ـ ﷺ ـ: ائذنوا له فإنّه مَلكُ المَوت.

فلما تَمَّ قضاءُ الله وأمْرهُ، وبلغَ روح نبيّنا ـ ﷺ ـ إلىٰ السُّرّة، قال[1] المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام[2]: «إنّ للمَوْتِ سكرات». وفاطمة تقول: واكُربتاهُ ورسول الله ـ ﷺ ـ يقول[3]: «لا كرب علىٰ أبيك بعد اليوم».

فلما بلغت الروح الكريمة إلىٰ التّرقوة، قال المصطفىٰ ـ ﷺ ـ: «ما

---

(١) في أ و ب: فقال.

(٢) دلائل النبوة ـ للبيهقي ٧: ٢٠٧؛ وهذا الحديث «إن للموت سكرات» في صحيح البخاري ٧: ١٩٢.

(٣) دلائل النبوة ـ للبيهقي ٧: ٢١٢.

أشدّ مرارة المَوت يا جبريل». فحول جبريل وَجْهَهُ، فقال النبي ـ ﷺ ـ لِمَ حَوّلت وجهكَ عني؟

فقال: يا حبيبي يا محمّد، ومن يطيقَ النَّظر إليكَ وأنت تُعالِجُ سكَراتِ المَوت [١٠٢/أ].

وفي كيفية موته ـ ﷺ ـ روايات الله أعلمُ بصحتها، وطرقها مختلفة حذفتها لكثرتها.

والمقطوعُ به أنه أكرم الخلق علىٰ ربه.

فلما توفي ـ ﷺ ـ اجتمعَ الأنصار علىٰ باب رسول الله ـ ﷺ ـ فنادَوا أسامة بن زيد والباب مغلق.

فقال: من هؤلاء؟

قالوا: نحن الأنصارُ نريد أن ندخل علىٰ نبي الله ـ ﷺ ـ.

فخرج الفضلُ إلىٰ النّاس فقال: يا معشر الأنصار هل عندكم من عَهدٍ من موتٍ[1]؟ فقالوا: لا!

فقال الفضل رافعاً صوته بالبكاء: لقد ذاقَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ المَوْت.

وقد أخبرَ الله ورسوله بذلك في قوله عَزّ وجلّ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/٣٠] فصرخ أهل المدينة بالبكاء، ولا ترىٰ أحداً إلا باكياً حَزِيناً كئيباً.

---

(١) في ب: من عهد من موت رسول الله ﷺ.
ـ ومعنى العبارة: هل عندكم ـ أو عند أحد ـ عهدٌ أو وعد من أحد من الناس (أو الرّسل) بالنجاة من الموت؟ وهو سؤال يراد به التقرير.

فمن الصَّحابة مَن أُقعد، ومنهم مَن ذَهب عقله[1] وأُرعد؛ وعُمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: والله ما ماتَ رسول الله ـ ﷺ ـ؛ لِمَا يجِدُه من الجَزع[2].

وما زالَ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يذكّر عمر بن الخطاب حتىٰ رجع لقوله، وعَلِمَ أنّه الحقّ. ثم أتىٰ أبو بكر إلىٰ دار رسول الله ـ ﷺ ـ فقال للفَضل: أتأذنُ لي أنْ أدخلَ على حبيبي رسول الله ـ ﷺ ـ.

فلمّا دخل، ورأى النبيّ ـ ﷺ ـ مُسَجى بثوبه بكىٰ حتىٰ كادتْ نفسُه أن تزهق، ثم خَرَج رضي الله عنه، ولمّا رأتْهُ الصّحابة كذلك مُسَجًّى في ثوبهِ صَرخوا صرخةً عظيمةً حتىٰ كادت الجُدْرانُ أن تَنْهَدّ لها من كثرةِ الأَصْوات.

فصل

معلومٌ من حال الصَّحابةِ ـ رضي الله عنهم ـ محبّتهم في رسول الله ـ ﷺ ـ فكانُوا علىٰ فِراقه أشدّ وجعاً[3] من غيرهم لشدّة محبتهم فيه في حياته.

وقويَ توجُّعهم وتفجُّعهم عليه بعد مماته حتىٰ ظهرَ من أحوالهم ـ رضي الله عنهم ـ بعد موتهِ ما ظهرَ، وشاعَ حُزنهم في جميعِ الأماكنِ واشْتَهر.

قالت عائشةُ رضي الله عنها[4]: لمّا مات رسول الله ـ ﷺ ـ اختلفت

---

(١) يريدُ عدَم تصديق الخبر؛ والجزع أو شدّة الجزع.

(٢) الجزَع: ضدُّ الصَّبر؛ وهو الضعف عمّا نزل بالمرء.

(٣) في ب: تفجّعاً.

(٤) يُنظر مُختصر تاريخ دمشق ١: ٣٨٤.

أحوال النّاسِ، فَمِنهم من كذّب بموته [١٠٢/ب] لدهشتِه، ومنهم من أُخرس لسانه لفقده، ومنهم من أُقعد إلىٰ الأرض فانقطعت قُواه وضَعُفَت ركبتاه، ومنهم من خَلط في كلامه فكان يتكلّم من غير بيان.

فكانَ عُمَر - رضي الله عنه - مِمَّن كَذَّبَ بموته، وعليّ ممن أُقعد، وعثمان ممّن أُخرس لسانه. وكان أبو بكر الصِّدّيق - رضي الله عَنه مِمَّن ثَبَّت الله قَلْبَهُ، وقوّى عَزمه حتىٰ أزال الدَّهْشة عن أصحابِ رَسُولِ الله - ﷺ -..

ولمّا وَصل الخبرُ أبا بكر أتى إلى بيت رسول الله - ﷺ - وعيناه تهملان، وغُصصه ترتفع في أشد حال، وهو في ذلك ثابتُ العقل والمقال، فكشفَ عن وجه رسول الله - ﷺ - وقَبّله بين عَيْنيه ومسَح دمعه، وجعل يقول:

بأبي أنتَ وأُمّي - يا رسولَ الله - ونفسي وأهلي، طِبْتَ حيّاً وميتاً، ولولا أنك نَهيتَ عن البكاء لأنفَدْنا[١] عليكَ ماءَ العُيون. اللهمَّ أبلغهُ عَنّا السّلام، اذكُرْنَا يا محمّد عندَ رَبّك، ولنكنْ من بالك.

ثم خرج إلىٰ الناس وهم في شدة غَمْرتهم، وعظيم سكرتهم، فخطب خطبةً عظيمةً، وكان عمر بن الخطاب يقول: إن محمداً - ﷺ - لم يمت فلمّا أتىٰ أبو بكر الصدّيق - رضي الله عنه - جلسَ عمر بن الخطاب ثم قال:

«أيّها النّاس أَنصِتُوا». ثم قال أبو بكر - رضي الله عنه[٢] - إن الله

---

(١) في ب: لأنفدن.

(٢) تنظر السيرة النبوية لابن كثير ٤ : ٤٨٠ والرياض النضرة في مناقب العشرة للمحبّ الطبري ١ : ١٦٨.

تعالىٰ نَعَى نبيّكم إلىٰ نفسه، وهو حيٌّ بين أظهركم، ونعاكُم إلى أنفسكم، فهو الموتُ، حتىٰ لا يَبقَىٰ أحدٌ إلا الله، قال الله العظيم ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤٤].

فقال عمر: هذه الآية في القرآن؟ فوالله ما علمت أن الله أنزلَ هٰذه الآية حتّى تلاها أبو بكر!

وقال عزّ من قائل ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٢١/٣٥] وقال: إن الله تعالىٰ أبقىٰ محمداً حتىٰ أظهرَ[1] أمرَ الله، وبلّغ الرسالة، وجاهد في سبيل الله، ثم أماته الله تعالىٰ، وقد ترككم علىٰ الطريقة الواضحة، فمَنْ كان الله ربَّه، فإن الله حيّ لا يَمُوت، ومن كان يعبد محمداً فإنّ محمّداً قد مات. فاتّقُوا الله أيها النّاس واعتَصِمُوا بِدينكم، وتوكّلوا عَلىٰ رَبّكم، فإنّ دينَ الله قائم، وكلمتُه قائمة، والله ناصرُ مَن نَصره ومُظهر دِينه، وإنّ كتاب الله بَيْنَ أظهركم، وهو النُّور والشّفاء [١٠٣/أ] وبه هَدىٰ الله محمّداً - ﷺ - وقد بَيّن الله حلاله وحرامه[2].

وذكر - رضي الله عنه - كلاماً غير هذا علىٰ قدر مقامه، وعلوّ منصبه. ولذا كان أعبدَ الخلقِ وأفضلهم بعد رسول الله - ﷺ - وأحبُّ الخلقِ إلىٰ رسول الله - ﷺ - وأحبّ الخلقِ إلى نبي الله وحبيب الله، وهو القائل - رضي الله عنه - في بعضِ مراثيه التي رثىٰ بها رسول الله - ﷺ وشرّف وكرّم ومجّد وعَظّم[3]:

---

(١) في ب: حتى ظهر أمْرُ الله.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٤: ٤٨٠ والرياض النضرة في مناقب العشرة ١: ١٧٢.

(٣) الشعر في طبقات ابن سعد ٢: ٣٢٠.

لـمّـا رأيـتُ نـبـيّـنـا مُـتـجـدّلاً[1] ضـاقـت عـلـيّ بـعـرضـهـنّ الـدورُ[2]

فـارتـعـتُ روعـةَ مُـسـتـهـامٍ والـهٍ والـعـظـمُ منّـي مـا بـقـيـتُ كـسـيـرُ

أعـتـيـقُ ويـحـكَ إنّ حِبّـك قـد ثـوىٰ وبـقـيـتَ مُـنـفـرداً وأنـتَ حـسـيـرُ

يـا لـيـتني من قبلِ مهلكِ صاحِبي غُـيّـبْـتُ فـي جـدثٍ عـلـيّ صـخـورُ!

وقد أُلّفت في رثائه ـ ﷺ ـ التّواليف، وصُنفّت بالقَصائد في ذلك التصانيف، كلٌّ يقولُ على قدرِ محبّته وشَوقه، ويذكر ما يجدُ علىٰ قدر طاقته وجهده ـ ﷺ ـ وعلىٰ آله وشَرّف وكَرّم ومَجّد وعَظّم.

فصل

أيها المحبُّ لهٰذا النّبيّ الشّريف، تأدّبْ بآدابِ أصحابِه الشّائقين إليه[3]، وإلىٰ لقائه: لا تزال متفجعاً عليه في جميع حالاتك، ذاكراً له في سائر أوقاتك، متبَصّراً في نفسك، سائلاً إلىٰ الله تعالىٰ به، وبقدره قضاءَ حاجتك، فإن فقده مصيبةٌ عُظمىٰ أصابت العالمين، وداهية دَهْياء[4] يُرجىٰ ثوابها عند أكرم الأكرمين، قالت فاطمة ـ رضي الله عنها ـ في ذلك[5]:

اغـبـرّ آفـاقُ الـسّـمـاءِ وكُـوّرَتْ شَـمْـسُ الـنّـهـار وأظـلـمَ الـعَـصْـرانِ[6]

---

(١) في ب: رأيت حينا.

(٢) من بحر الكامل.

(٣) شاق إلى كذا: اشتقاق إليه.

(٤) الدّاهية: الأمر المنكر العظيم؛ والدّاهية الدّهياء: الشّديدة جدّاً.

(٥) الشعر للسيّدة البتول فاطمة الزهراء رضي الله عنها، في الرّوض الأنف ٢: ٣٨٠ ومنح المدح: ٣٥٨، والحماسة المغربية: ٧٨٤ ـ ٧٨٥.

(٦) من بحر الكامل.

فـالأرضُ مـن بـعـدِ الـنـبـيّ كـئـيـبـةٌ — أسـفـاً عـلـيـه كـثـيـرة الـرَّجـفـانِ
فـلـيـبـكـهِ شـرْقُ الـبـلاد وغـربُـهـا — ولـتـبـكـهِ مـصـرٌ وكـلّ يَـمـانِ
ولـيـبـكـهِ الـطّـودُ الـمُـعَـظّـم جَـوُّهُ — والـبَـيـتُ ذو الأسـتـارِ والأركـانِ[1]
يـا خـاتـم الـرُّسـل الـمـبـارك شـخـصُـه — صـلّـىٰ عـلـيـكَ مـنـزّل الـقُـرآنِ

ويجبُ على كلّ مؤمنٍ مُحِبٍّ أن يعتقدَ أنَّ الله تعالىٰ كرّمَ[2] نبيّنا حيًّا وميتاً، وأنّ حُرمته ميّتاً مثلُ حُرمته حيّاً. فكما أنه ـ ﷺ ـ لا يُشبهه [١٠٣/ب] أحد من مخلوقات الله تعالىٰ في كمال خَلقِه وخُلقه وصِفاتِهِ وأفعاله، فكذلك لا يُشبهه أحدٌ من المخلوقات في حال مَوْتهِ، من بقاءِ حُسن ذاته وبقاءِ جَسده وكمال طهارته، وحُسن رائحته، ودَوام بقائه علىٰ ما هو عليه من كمال خَلْقِه[3] في قبره، والكرامات الواردة عليه من رَبّه، والأنوار السّاطعة في قبره.

وقد قبضه الله تعالىٰ وعصم جَسده الكريم أن يناله شيءٌ من الأعداء حياً وميتاً، وجعل حُرمته ميتاً كحرمته حياً. ومن عجيب ما أكرمه الله به بعد موته حُزن حماره اليَعْفُور[4]، حتىٰ تردّىٰ في البئر؛ وحُزن ناقته العَضْبَاء[5] علىٰ فِراقِهِ، فما أكلت ولا شربت حَتّىٰ ماتت.

---

(١) في ب: المعظم جدّه.

(٢) في ب: أكرم.

(٣) في ب: كمال خلقته.

(٤) في اللسان: يَعْفُور حمار النبي ﷺ؛ قيل سمّي يعفوراً من العُفرة كما يقال في أخضر يخضور. وقيل في اسم حماره: عُفير (تصغير أعفر)؛ قلت: كذا سماه في زاد المعاد ١: ١٣٤.

(٥) في اللسان: العَضْباء اسمُ ناقةِ النبي ﷺ. وفي زاد المعاد ١: ١٣٤ قيل هي التي هاجر عليها. ولم يكن فيها عيب بل كان اسمها كذلك فحسب؛ لأن العضب هو تجاوز ربع الأذن في القطع.

وظهر عند موته للحاضرين رائحةٌ عجيبةٌ، ما شمّوا مثلها قط كرامةً[1] من الله ـ سُبحانه ـ بحبيبه، وخيرتهِ من خلقهِ وإكرام الله تعالىٰ له معلومٌ من الدّين ضرورة في حياته، وبعد مماته، والإخبارات والحكايات الشّاهدة على ذلك لا تتناهىٰ.

وقد وقع في هذه الأزمانِ الغريبةِ فضيلةٌ عجيبةٌ، ذكر الشّيخ العالم العامل أبو عبد الله محمّد بن مرزوق، عن شيخه الإمام المحدث النّوري إمام مقام المالكيّة بالحرم الشّريف، وذكر أنه سمع ذلك من غير واحد[2].

أنَّ يهودياً أرادَ أن يتحيَّل في أَمره، فأظهرَ من نفسه العبادة والتنسُّك في المدينة المشرّفة حتّىٰ أُعطي بيتاً قريباً من التُّربة الشّريفة، وهي لا يسكُنها إلا عابدٌ زاهدٌ، والبيت مجاور لمحلّ رأس سيّد أهل السموات والأرضين عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ السلام إلىٰ يوم الدين.

فما زال ذلك اليهوديّ اللعين يحفر تحت الأرض، وينقل التراب

---

(١) في ب: إكراماً.

(٢) في سنة ٥٥٧ رأى الإمام العادل نور الدين الشهيد النبي ﷺ في ليلةٍ واحدةٍ ثلاث مَرات «وهو يشير إلى رَجُلين أشقرين ويقول أنجدني أنقذني من هذين» فخفّ نور الدين إلى المدينة المنورة ودخلها سرّاً. ودعا أهل المدينة للعرض عليه وإعطائهم عطاءً إضافياً. ولم ير الرجلين. ثم أخبروه عن رجلين من أهل «العبادة والزّهد وبذل الخير» لا يأخذان الصدقات. فلما رآهما عرفهما واكتشفوا في دارهما نفقاً يحفرانه سرّاً ببطء وعلى مهل ويرمون التراب في بئر قريبة. ضرب أعناقهما ثم أحرقهما الناس.

(ينظر جواهر البحار للنبهاني؛ وقد رجع إلى عدد من المصادر ٤ : ٦٠ ـ ٦٢ وينظر وفاء الوفا للسّمهودي ١ : ٤٦٦).

وقد نقل ابن النجّار في تاريخه خبر محاولة أجراها الحاكم بأمر الله لنقل النبيّ ﷺ وصاحبيه إلى مصر وسرد كيفية إخفاق تلك المحاولة.

(جواهر البحار ٤ : ٦١).

حتىٰ جعل سرباً هُناكَ، وأراد الوصولَ إلىٰ جسدِه الكريم، ولم يتفَطَن له أحدٌ حتىٰ بقي لوصوله إلىٰ الجسَد الشريف مقدار حفر ثلاثةِ أيّام.

فرأىٰ ملك مصر الملك النّاصر في منامه النبي - ﷺ - فقال له: أدركني وأخبره الخَبر، وذكر له صِفَةَ اليهوديّ، فأفاقَ الملكُ النّاصر من نَومِه وركبَ هو ومن خَفَّ معه من [١٠٤/أ] أصحابه، ورفعَ مالاً يفرّقه علىٰ أهل المدينة وخرج مُجِدّاً في السّير، فلما بلغ المدينة المشرفة فرّق على أهلها المال حتىٰ لم يبقَ أحدٌ بها إلا رجلٌ عابدٌ زاهِدٌ لا يأخذُ شيئاً من الصدقة، قال لهم:

إيتوني به، فلما أتَوا به، وإذَا بالرّجُلِ اليهوديّ وقد عَرفه بوصفِ النبيّ - ﷺ - فأخذَه وقَتله أشرّ قتلة، وصار إلىٰ لعنةِ الله وإلىٰ غضبه.

وعاينَ الملكُ ومَن مَعه ما صنعَ من مَكْرِهِ وغَدْرِهِ، وأخبرَ الحاضرين برؤيته للنبي - ﷺ - في نومه وكيف قال له: أدركني، وعرّف له اليهوديّ اللّعين بوصفه، فاحتاط الأئمة - رضي الله عنهم - وحَصّنوا علىٰ رسول الله - ﷺ - مكان قبرِهِ، وأفرَغُوا عليه الرّصاص من جميع أماكِنه[1]، وبَنَوا عليه بِنَاءً عظيماً، وحَصّنوه[2] تَحْصِيناً مكيناً. وذلك كلّه من حفظ الله تعالىٰ وإكرام نبيّه في حياته وبعد مماته.

كيف لا، وتلك البُقعة هي أشرفُ بقاعٍ خَلقها الله تعالى، وأعدّها

(١) نقل السّمهودي في تتمة خبر نور الدين الشهيد «ثم أمر بإحضار رصاص عظيم وحفر خندقاً عظيماً إلى الماء حول الحجرة الشريفة كلّها وأذيب ذلك الرصاص وملىء به الخندق فصار حول الحجرة سوراً رصاصاً إلى الماء». قال السمهودي: وأشار المطري لذلك (أي لهذه الحادثة الخطيرة) في مخالفة في بعضه، ولم يذكر أمر الرصاص. (جواهر البحار ٤: ٦٠ ـ ٦١).

(٢) في ب: وحصنوه عليه.

لصاحب الخُلق العَظيم، واختارَها لحلول المُصطفىٰ فيها بجسده الكريم، ولله دَرُّ القائل في تخميسِه للقصيدةِ المَشهورة:

دارُ الحبيبُ لها فَلُذْ بِرَحيبها والنفسُ مولعةٌ بذِكِر حبيبها[1]
والله شرّفها به لنصيبها واختصَّها بالطَّيبينَ لطِيبها
واختارَها ودَعا إلىٰ سُكْناها[2]

مذت بها رحم الإلهِ ظلالَها من أجل من منع النفوس ضلالها
جُل في البلادِ فلن تُصيبَ مثالَها تلك المدينةُ منزلاً وكفىٰ لها
شرَفاً حلولُ محمّدٍ بفِناها[3]

من لي بأن ألقىٰ الحبيبَ فأظفرَا واشمّ من مثواهُ مسكاً أذْفَرا
وأرىٰ الذي شُغفت به مُهَجُ الوَرىٰ حظيتْ بهجرةِ خيرِ من وطىءَ الثرىٰ
وأجلِّهم قَدْراً فكيفَ تَراها؟

كَلَفِي به طمعٌ بغير تكلّفِ صفةُ القلوبِ لها لأجْلِ من اصْطُفِي
وجلال تلك الأرض ما هو بالخفي كلّ البلاد إذا ذكرنَ كأحْرُفِ [١٠٤/ب]
في اسمِ المدينةِ لا خلاَ مَغْناها

هي للقلوب الصّادقاتِ حبيبةٌ ولأهلها والنازلينَ رحيبةٌ
فاقتْ جميعَ الأرضِ فهي غريبةٌ حاشا مسمّى القدسِ فهي قريبةٌ
منها ومكة إنّها إياها

---

(١) من بحر الكامل.

(٢) يُرجع إلى ما ورد من حديث وخبر في سكنى المدينة المنورة والصبر عليها والموت بها (ينظر ما نقله في البحر الزخّار ٤: ٩ ـ ١٦).

(٣) بفناها أي بفنائها. وهذه ضرورة شعرية.

فاجْعَلْ مزارَكَ للثلاثِ وظيفةً   وأمْنْ بمكّةَ والمدينةِ خيفةً
فكلاهما يَدعُ القلوبَ نظيفةً   لا فَرْقَ إلاّ أنّ ثَمَّ لطيفةً
مهما بَدَتْ يجلُو الظَّلامَ سَناها
فافهمْ وأرجُو أن تُفيقَ فتَفهَمَا   أينَ الّذي هو قد سَما فوق السّما
إن الفضيلة حيث أصبح منهما   جزم الجميع بأن خير الأرض ما
قد حاز ذات المصطفىٰ وحَواها

جزىٰ الله هٰذه الأمّة المحمّديّةَ علىٰ نبيّها أفضلَ ما جازىٰ به أمّةَ نبيّ. قَبْلَها، وزادَ في مَعْناها وضاعَفَ حُبّها.

ولقد أطلقَ الله ـ تعالى ـ ألسنةَ العالمين في الثّناء علىٰ سيّد المُرسلين، فنرجُو من مولانا العَظيم، أن يمنَّ علينا ببركة نبيّه الكريم في الدُّنيا والآخرة، ويُعطينا من خَيْره الجَسِيم، وأنْ يدّخر لهذه الأمة مصابَها بنبيّها الرؤوف بها الرحيم ليومٍ لا ينفعُ فيه إلاّ مَن أتىٰ الله بقلبٍ سليم.

قال حسان ـ رضي الله عنه ـ وأجاد كلاماً خرج من صميم الفؤاد[1]:

إنّ الرزيـة لا رزيّـة مثلها   ميتٌ بطيبة مثله لم يوجد[2]
فلقد أُصيبَ جميعُ أُمته به   مَنْ كان مولُوداً ومن لم يُولدِ

ولفاطمة رضي الله عنها في رثاء أبيها سيّد المرسلين وإمام المتّقين:

---

(١) لم أقف عليه في طبعات ديوانه.

(٢) من بحر الكامل.

ـ وقد روي للسيدة فاطمة البتول رضي الله عنها شيء من الشعر (ينظر منح المدح لابن سيّد الناس: ٣٠٥ والحماسة المغربية لأبي العباس الجراوي: ٧٨٤).

أمْسَى بخدّي للدُّموعِ رُسومُ أسَفاً عليكَ وفي الفُؤادِ كُلومُ[1]
لا عَتْبَ في حُزنٍ عليك لَوَ انّهُ كانَ البكاءُ بمقلتيَّ يدومُ
والصّبرُ يُحْمَدُ في المواطنِ كلّها إلا عليكَ فإنّه مذمومُ

صلى الله عليه وسلّم وعلى آله وأزواجه وذرّيّته تسليماً، صلاةً وسلاماً يزداد بهما شرفاً وتكريماً.

---

(١) من بحر الكامل.

باب

في معنىٰ اسمه

الأمين(1)

صلّىٰ الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم ومجّد وعظّم

الأمين اسمٌ من أسمائه ـ عليه أفضلُ الصّلاة والسلام ـ وردَ به القرآن العظيم في الثّناء علىٰ نبيّ الله الكريم في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ٨١/١٩ ـ ٢١].

فقيل(2): إنّ هذه الأوصاف راجعةٌ لجبريل عليه السلام [١٠٥/أ].

وقيل: إنّها راجعةٌ لنبيّنا ـ ﷺ ـ وهو الظّاهر من سياق الآية لأجْل قولهِ بعد ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٨١/٢٣] والرائي هنا هو: محمّد ـ ﷺ ـ باتّفاق المفسّرين(3).

فعلىٰ هذا يكونُ «الأمين» اسماً من أسمائه ـ ﷺ ـ..

---

(1) ورد شرح هٰذا الاسم الكريم في: أسماء رسول الله ﷺ: ٣٩، والشّفا ١: ٤٧٠، وزاد المعاد ١: ٩٦، والرياض الأنيقة: ١١٤، وسُبل الهدىٰ والرّشاد ١: ٥٣٦، والمواهب اللّدنيّة: ١: ١٨٩.

(2) في تفسير القرطبي ١٩: ٢٤١.

(3) في ب: باتفاق من المفسّرين.

وقد وردَ في ذٰلك عنه عليه الصلاة والسلام[1]: «واللهِ إنّي لأمينٌ في السماء، أمينٌ في الأرض».

وأجمعت الأمة[2] علىٰ إطلاقِ هذا الاسم عليه، مُؤمنهم وكافرهم، فإنهم كانوا يسمّون المُصطفى ـ ﷺ ـ الأمين.

وكان مشهوراً بهذا اللقب في قومه، عَلَماً عليه لا يشاركه فيه أحدٌ غيره لِمَا رأوا من حالِه في حفظِه وصِدقه، وبِرّه وتحبّبهِ ووفائِه بأمانتِه وذمّته، وحُسن عِهدِهِ، ومُبالغة نُصحِه، وبَذل جهدِه في طاعةِ خالقِه، وعدم غِشّه وخِيانتِهِ، وحبّه للخَلْقِ ما يحبّ لنفسِه، وزُهده، ورفقِه بالفقيرِ ورحمتِه به، وجلب أُنسِه، وحُسن خلقهِ، والوُقوف عند أمرِ الله ونَهيه، ووسع صدره، وحملِه للأذىٰ[3] وتصبّرِه، وقوةِ توكّلِه، والوفاء بعقُودِه وعَهْدِه هٰذه كانت خلقه[4] ـ ﷺ ـ من صِغَرِهِ إلىٰ كِبَرِهِ، مع قضاءِ الحاجات وأداءِ الأمانات، وبذل الصِّلات، وإنجاز المَوْعُودات، قائماً بحقّ النّفل والفَرْض، فكان ـ ﷺ ـ كما قال، أميناً في أهلِ السّماء والأرض، وكانَ أعدلَ النّاسِ وأعفّ النّاس، وأصْدَقهم لهجةً منذُ كان صغيراً، واعترفَ له بذلك مُحادُّوه وعداه، وكلّ من وَفّقه الله وهَداه.

---

(١) العبارة في صحيح مسلم ٢/٧٤٢: «ألا تأمنوني وأنا أمين في السماء يأتيني خبر السماء صباحاً ومساء» ومثله في مسند أحمد ٣/ ٤، وينظر: البخاري المغازي/ ٦١.
وفي الرياض النضرة: ١١٦ أنّ ضيفاً نزل بالنبي ﷺ فبعث أحد أصحابه إلى يهوديّ فقال: قل له إن رسول الله يقول لك: بِعنا أو أَسْلِفنا إلىٰ رَجَب؛ فقال اليهودي: والله لا أبيعُه ولا أُسلِفُه إلاّ برَهْن؛ فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره فقال: «أما والله لو باعني أو أسلفني لقضيتُه؛ إنّي لأمينٌ في السّماء أمينٌ في الأرض...».

(٢) في ب: وأجمعت الأُمّة وغيرهم.

(٣) في ب: وتحمّله للأذى.

(٤) في الأصول الخطيّة: «هٰذه كانت خلقه»؛ كأنّ المؤلف ذهب إلى مَعْنى السَّجيّة؛ وهي الخُلُق.

قال ابنُ إسحاق[1]: كان عليه الصلاة والسلام يُسَمّى الأمينَ لِمَا جمَعَ الله تعالىٰ فِيهِ من الأخلاق الصّالحة.

ولما اختلفت قُرَيش وتحارَبت عند بناء الكعبة فيمن يضعُ الحجَر، حكَّمُوا أوّل داخل، فإذا بالنبيّ ـ ﷺ ـ قد دَخل عليهم.

وكان ذٰلك قبلَ النبوّة، فقالوا: هذا محمد الأمين قد رَضينا به، فحكَم عليهم.

وعن الرّبيعِ قال: كانوا يتحاكَمُون إلىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ قبلَ الإسلام.

وقيل: إنَ الأخنسَ بنَ شُرِيق لقي أبا جهل فقال له: يا أبا الحكم! والله إنّ محمداً لصادق، وما كذَب محمّدٌ قط[2].

وسألَ هِرَقْل عنه قومه فقال: أكُنْتُم تتّهمونه بالكذب؟ قالُوا لا[3].

وقال النّضر بن الحارث[4] لِقُريش [١٠٥/ب] لقد كانَ محمّدٌ فيكم غلاماً: أرْضَاكُم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانةً، حتىٰ إذا رأيتم في صدغيه الشّيب قُلتم ساحر؟! لا والله! ما هو ساحرا

فمعنىٰ الأمين في اسمه عليه الصلاة والسلام يحتمل أن يكون مشتقّاً من أداءِ الأمانة، أي أنه مؤدّي أمانةِ الله تعالىٰ عنده التي أودعها الله إيّاه من الأحكامِ الشّرعية، والعلوم اللَّدُنِّية التي أمره الله ـ سبحانه ـ بتبليغها، وكلّفه بحفظها وتحصيلها.

---

(١) السّيرة النبوية لابن إسحاق (برواية ابن هشام) ١: ١٩٧.

(٢) كان الأخنس بن شريق يكثر الخَلاف على أبي جهل (السّيرة ـ مواضع مختلفة)، وفي الأخنس نزلت ﴿ولا تطعْ كُلّ حَلافٍ مَهِين. هَمّازٍ مشّاءٍ بِنَمِيم...﴾.

(٣) في خبر هرقل مع أبي سفيان ونفر آخرين.

(٤) النّضر بن الحارث من بني عبد الدار من قُصيّ، من رُؤوس القوم بمكة.

وهذه الأخبار معروفة مشهورة في السير والتواريخ.

فقد أنزل الله عليه في كتابهِ العَزيز قائلاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧] فبلَّغَ - ﷺ - الرّسالة[١]، وأدّى الأمانة، وما زال كذلك مُجتهداً في أدائها قائلاً: ألا هَلْ بَلَّغت؟ ألا هَلْ بَلَّغت؟ اللّٰهُمَّ اشْهَدْ[٢].

وقد شهدتْ له بذلك في حجّة الوداع أصحابهُ الكرام، الأئمّة الأعلام في حديثِ جابر بن عبد الله الطويل الذي ذكر فيه: أن رسول الله - ﷺ - لما ركب ناقته القَصْواء[٣] قال: نظرتُ مشهداً عظيماً، فأنظر مدّ بصري فما أرىٰ إلا راكباً أو ماشياً: بين يدي، وعن يميني مثل ذلك، وعن شمالي مثل ذلك، ورسولُ الله - ﷺ - بينَ أَظْهُرِنَا، وعليه ينزلُ القُرآن.

ثم قال: فلما نَزلنا بِعَرفة ووقَفْنا، خطب - ﷺ - الناس فقال[٤]: إنّ دماءَكم وأعراضكم حرامٌ عليكم كحُرمةِ يومِكم هٰذا في شهرِكم هٰذا في بَلدكمْ هٰذا، ألا كلُّ شيءٍ كان في الجاهلية تحتَ قدمي موضُوع، ودماءُ الجاهلية موضوعة، وأوّلُ دمٍ أضعُ من دمائكم دم ابن ربيعة بن الحَارِث، وربا الجاهليّة موضوعٌ وأولّ رباً أضعُه ربا العبّاس بن عبد المطلب فإنّه موضوع، فاتّقُوا الله في النّساء فإنكم أخذتمُوهن بأمانةِ الله، واستحلَلْتُم فروجهن بكلمة الله».

---

(١) قال القرطبي في التفسير ٦: ٢٤٢: «معناه أظهر التبليغ؛ لأنه في أوّل الإسلام كان يخفيه خَوفاً من المُشركين. . .».

(٢) في حديث حجّة الوَداع.

(٣) في اللسان: القصواء لقب ناقة رسول الله ﷺ (والقصواء لغةً التي قُطع طرف أذنها ولم تكن ناقة رسول الله ﷺ كذلك ولكنه اسمٌ). وينظر زاد المعاد ١: ١٣٤.

(٤) من حديث طويل في باب حجّة النبي ﷺ (صحيح مسلم ٢: ٨٨٦ - ٨٩٢).

ثم قال ﷺ: قد تركتُ فيكم شيئين لن تضلّوا أبداً إن اعتصمتم بهما: كتاب الله وسُنّتي. وأنتم تُسألون عني، فمَا أنتم قائلون؟[1].

قالوا: نشهدُ أنّك قد بلّغت، وأدّيت، ونصَحْت. فقال بإصبعه السبّابة يرفَعُها إلىٰ السّماء، وينكّسها إلىٰ النّاس: اللّهم اشهد، اللّهم اشهد، اللّهم اشهد.

ويُحتمل أن يكون معنىٰ اسمه الأمين، بمعنىٰ أن الله تعالىٰ أمّنه من جميعِ المخَاوف الدُنيويةِ والأُخرويةِ، لأنّه أتمّ نعمته عليه، وغفَر له ما تقدّم، وما تأخّر [١٠٦/أ] لديه، وهدَاه الصّراطَ المُستقيم، ونصَره النّصرَ العَزيز، وشرحَ لهُ صَدْرَهُ، ويسّر له أمرَهُ، ووضعَ عنه وِزرَهُ، فهو مؤمّن أمينٌ في الدّارين - ﷺ - وشرّف وكرّم:

فهو الرَّحيمُ الذي مِنْ فَرطِ رحمتهِ ... كأنّ كلَّ الورىٰ منه ذَوُو رَحِمِ[2]
أَوْرَى الوَرى زَنْدَ رأيٍ قُلْ وأَفْضَلُهم ... وَعداً وأوفاهمُ بالعهدِ والذِّمَمِ[3]
ورابطُ الجأش في يوم اللَّداد إذا ... طاشَتْ قُلوبُ لبوبِ النَّاسِ والأجمِ[4]

---

(١) في أ: «وقد تركتُ فيكم ما لن تضلوا به (كذا، بإضافة به) إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تسألون...» الخ.

(٢) من بحر البَسيط.

(٣) المعنى أنه ذو رأيٍ راجحٍ وذهن ثاقب؛ بل هو يفوق الناس في رَجاحة رأيه وعَقله. وأصْلُهُ من الزَّند والزَّندة وهما خشبتان يُستقدح بهما. و: أورى: أفعل من ورى الزَّند أي اقتدح النار. يقول أحَدُهم لِمَنْ أنجده: وَرتْ بكَ زِنادي!

(٤) في اللسان وغيره: اللَّدُّ واللُّدَدُ. يقال لَدّه لدّاً ولَدداً أي جادله فغلبه. ولَدِدَ لَدداً. من باب عَلِمَ - أي صار مخاصماً لدوداً. ولم أجد اللّداد. وكأنها من الشاعر ضرورة.
- كلمة لب بمعنى عقل تجمع على ألباب وألُبّ وألبُبْ. وكلمة لُبّ بمعنى الجوف من الشيء والخالص منه تُجمع على لبوب. فخلط الشّاعر وتجوّز.
- (والأجم) كذا في الأصول. وهي جمع أجمه. أو هي الأُجم بضم الهمزة والجيم: الحصن (؟).

في الوعدِ صادقُ إنجازٍ بلا خلفٍ وفي الوعيدِ صَدُوقٌ غيرُ منتقمِ
وركنُ حلمٍ، رضيُّ العقلِ راجِحُهُ لا يستفزّ حِجَاهُ حَزْمُ مُحتزِمِ[1]

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ نبيّنا محمّداً ـ ﷺ ـ اسمه الأمين أن يكونَ مُقتدياً به في هَدْيِهِ، متّبعاً له في أداءِ الأمانة، ووفائه بعهده.

والأمانةُ: إمّا ما بين العَبيدِ ومَولاهم، وإمّا فيما بينَ العبيدِ بعضهم مع بعض، فيما أعطاهم رَبُّهم وأولاهم، وجَملهم؛ من مراعاة حَقّه فيما أمرهم ونهاهم وكلّفهم.

فأما بينَ العبد والمَوْلىٰ ـ جلّ جَلالهُ ـ فهي التّكاليفُ التي عرَضها ـ سبحانه وتعالىٰ ـ علىٰ عبادهِ فقَبِلُوها، وأخذ عليهم الميثاق أن يؤدّوها. قال جلّ جلاله الذي بعث لنا نبيّنا ورسولنا: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/٧٢] فحفظ ما أودع الله ـ سبحانه ـ من الشّرائع، وأوجب علىٰ كلّ مكلّف.

فإنْ كان من أمر الاعتقاد فيجبُ تعلّمه وتعليمه واعتقادُه فيما ـ يجبُ لمولاه ـ جلّ جلاله ـ من الوَحْدَانيّة والصّفاتِ الواجبة له، وتعلم ما يستحيلُ عليه ـ سُبحانه ـ وأنّه لا يُشبهه بخلقهِ وخليقتِه.

وكذلك ما يجِبُ للرّسُولِ عليه السّلام مِن أنّه رسولُ الله حقاً، وأنّه صادقٌ في كلّ ما أَخْبَر به عن رَبّه، ويجبُ تصديقُه لدلالةِ مُعجزاتهِ،

---

(١) يقال: احتزم وتحزّم بمعنى. وهو أن يشدّ وسطه بشيءٍ كالحبل والسّير من الجلد ونحوهما.

ووضوحِ آياتهِ، ووجوب عِصمته؛ ويستحيلُ عليه الكذبُ في ذٰلك كلّه، وأنه ما ترك شيئاً ممّا أمره الله بتبليغه ولم يبلّغه، بل هو الصّادقُ في كلّ ما أتىٰ به عن رَبّه وأنّه المبلِّغ عنه [١٠٦/ب] كلّ ما أمر بتبليغهِ، وهو رسولُ الله حَقّاً، ورسالته عَمّت غرباً وشرقاً، محبّةً وشوقاً.

وإن كان من الأُمور العمليّات، فيجبُ علىٰ كل مكلّفٍ أن يسأل عن دِينه فيما يُقْدِمُ عَليه من عبادة ربّه.

قال ـ ﷺ ـ [1]: «طلبُ العلم فريضةٌ على كل مُسلم». قال العلماء ـ رضي الله عنهم: أشارَ النبيّ إلىٰ تعلّم قواعدِ الإسلام من بيانِ صلاةٍ وصومٍ وزكاةٍ وحَجّ.

فإذا تقرّرَت هٰذه القَواعدُ، وحَصلت أمانَتُها عند كُلّ أحد، فيجبُ علىٰ كلّ مَن حصلتْ له هٰذه الأمانة أن يؤدّيَها بالعملِ بها، قال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ١٤/٥٨]؛

لأنّه إذا تعلّمها فقد وعَد بالعمل بها؛ فيجبُ عليه الوفاءُ بذلك، وإلاّ كانت فيه خَصْلة من خصال النّفاق حتىٰ يدَعها.

قال ـ ﷺ ـ[2]: «علامةُ المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعَد أخْلف، وإذا أؤتُمِنَ خان».

وأما الأمانة بين العبيد بعضهم مع بعض فكثيرة: ردّ الودائع إلىٰ أهلها، ونصح العِبَاد، وعدم غشّهم، ومُسالمتهم في أعراضِهم وأموالِهم،

---

(١) الفتح الكبير ٢: ٢١٣، وإتحاف السادة المتقين ٦: ٤.

(٢) بلفظ: «آية المنافق ثلاث...» في البخاري ١: ١٥، ومسلم (الإيمان ١٠٧)، ومسند الإمام أحمد ٢: ٣٥٧. بلفظ «علامات المنافق ثلاث...» في فتح الباري ١: ٨٩. والفتح الكبير ١: ١٣.

وبذل النّصيحة لهم، وأن يحبّ لهم ما يحبّ لنفسه، والوفاء بالعَهد معهم، وبيان مَنافِعهم ومضارّهم، وبيان ما يكرهون في مُعاملاتهم.

ومَن لم يَفعل ذٰلكَ كان غاشاً، وقد قال ـ ﷺ ـ [(١)]: مَنْ غَشَّنا فليسَ مِنّا؛ وحَشره الله يومَ القيامةِ مع اليَهُودِ والنَّصارىٰ لأنّهم أغشُّ النّاس للمُسْلِمِين.

ومن غَشّ أخاه المُسلم في بيعٍ أو شراءٍ أو غير ذلك نَزع الله منه رزقه، وأفسد عليه معيشته.

فاسْمَعُوا ـ رحمكم الله ـ هٰذا الحديث ما أشده علىٰ النُّفوس، وكيف يكون حال الغاشّ بين يدي الملك القُدُّوس، وكيف الخلاصُ في هذه الأزمان؟ وكيفَ الجوابُ عند الملكِ الديّان، ورِبْحُ الآخرةِ أولىٰ بالطّلب من رِبْح الدنيا؟

وإذا لم تُظهر عُيوب سِلعتك[(٢)] ودَراهمك كنتَ غاشّاً ظالماً خائناً غير ناصحٍ للمُسلمين، ومانِعاً لحقُوقِ المُؤمنين، وقد مرّ رسولُ الله ﷺ [١٠٧/أ] برجلٍ يبيع طعاماً فأعجَبه فأدخلَ يده فَرأىٰ بَللاً في داخله[(٣)]:

فقال له: ما هذا؟

فقال: أصابتْهُ السّماء

فقال له: هلاّ جَعلته فوقَ الطعام حتّىٰ يراه الناس؟ مَنْ غشَّنا فَليسَ

---

(١) بلفظ «من غشنا فليس منا...» في صحيح مسلم (الإيمان ١٦٤) وسُنن البيهقي ٥: ٢٥٥ ومجمع الزوائد ٤: ٧٨ (وفيه ليس منا من غشّنا). والفتح الكبير ٣: ٢١٤.

(٢) كانت الدنانير والدراهم تختلف في الوزن والضرب والصفاء الخ...

(٣) أصله من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ رواه مسلم في كتاب الإيمان، وفي رواية له أن رسول الله ﷺ مرّ على صُبَرة طعامٍ فأدخل يده فيها فنال أصابعه بلل... الحديث.

مِنّا، والنُّصح واجبٌ لكلّ مُسلم.

ولما بايعَ جرير بنُ عبد الله[1] رسول الله - ﷺ - ذهب لِيَنْصَرِفَ فجذَبه بثوبهِ واشترط عليه النُّصح لكل مسلم، فكان جرير إذا قام إلىٰ السّلعة يبيعُها بيّن عُيوبَها ثم خيّر فقال: إن شئتَ فَخُذْ، وإن شئتَ فاتْرُك.

فقيل له: إنّك إذا فعلت ذلك لم يَشْتَرِ أحدٌ منك، فقال رضي الله عنه: إنّا بايَعْنا رسول الله - ﷺ - علىٰ النُّصح لكل مسلم.

ويُحكىٰ عن واثلةَ بنِ الأَسْقَع[2] - رضي الله عنه - أن رجلاً باع بإزائه ناقةً، فذهبَ بها المُشتري، وغفلَ واثلة عنه فلمّا تذكّر لحقه، ناداه وقال له: يا هٰذا هل اشتريتَ النّاقة للحمِهَا أم لركوبها؟[3] فقال له: بل لركوب ظهرها.

فقال له: إنّ برجلها نَقْباً فلا تَنفعك في السَّيْر، فَردَّها علىٰ بائعها.

فجاءَ البائعُ لواثلة وقال له: لقد أَفسدْتَ عليّ بَيعتي!

فقال له: يا هٰذا إنّا بايعنا رسولَ الله - ﷺ - علىٰ النُّصح لكلّ مُسلم.

---

(١) هو الصّحابيّ الجليل جرير بن عبد الله البجلي، وقد بايع النّبيّ على النُّصح لكلّ مُسلم (سير أعلام النبلاء ٢: ٥٣٠).

(٢) هو واثلة بن الأسقع اللّيثي، وفد على النبي ﷺ وقال: أتيتُك لأؤمن بالله ورسوله قال فبايع على ما أحببتَ وكرهت فبايعه... (طبقات ابن سعد ١: ٣٠٥).

- والأخبار المذكورة السّابقة في إحياء علوم الدّين ٤: ١٩٥.

(٣) في ب: أم الركوب ظهرها.

ولا يحل لمن يعلمُ عيباً إلاّ بيّنه وإن لم يكنْ مِلكه فإنّه من تمام الإيمان، وحُسن الوفاء مع الإخوان.

قال أبو حامد ـ رحمه الله ونفع به ـ وهذا باب عظيم شاقٌ علىٰ أكثر الخلق. ولا يعتقد الجاهل أن هذا إنما هو من الفضائل وزيادات المَقامات، بل ذٰلك من شروط الوفاء بالإسلام وتركُه من الخِيَانات[1].

والمعاملاتُ تحتاجُ إلىٰ مُجاهَدات لا يوفي بها إلا الصّديقون، وما يسهل هذا الأمر والنّصح لكل مسلم وعدم غشهم إلا إذا كان يعلمُ أنّ ربحَ الآخرة وغناها خيرٌ من رِبح الدنّيا؛ فإنّ فوائدَ الدُّنيا تنقضي بانقضاءِ العُمر وتبقىٰ مطالِبُها وأَوْزَارُها، فكيف ينبغي للعاقل أن يستبدلَ الّذي هو أَدْنَىٰ بالذي هو خير؟

فاعْمَلُوا ـ أعانني الله وإياكم علىٰ طاعته والقيام بحقه ـ أن الخير كله في سلامة الدين، واتباع شعائر المتقين.

روي عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال[2]:

«لا تَزالُ لا إلٓه إلاّ الله تَدْفَعُ عن الخَلْق سَخَطَ الله تعالىٰ ما لم يُؤْثروا صَفْقَةَ دُنياهم علىٰ آخرتهم [١٠٧/ب] فإذَا فَعلوا ذلك، وقالوا لا إلٓه إلاّ الله، قال الله تعالىٰ كَذبْتُم لَسْتُم بصادِقين».

ويحكىٰ عن رجل من التّابعين[3] أنه كان بالبصرة وله غلامٌ

(١) من إحياء علوم الدين الجزء الرابع: ١٩٤ ـ ١٩٥.
(٢) في إحياء علوم الدين ٤: ١٩٦ عن أبي يعلى والبيهقي، وغيرهما.
(٣) القصّة في الإحياء ٤: ٢٠٠.
ـ وهي على وجه مقارب في المدخل لابن الحاجّ الفاسي ٤: ٧٣.

بالسُّوسِ[١] ـ يجهِّزُ إليه السكّر، فكتبَ إليه غلامُه أن قصبَ السكّر أصابته آفةٌ في هذا العام فاشْتَرِه[٢].

قال: فاشترىٰ سكّراً كثيراً، فلّما جاء وقتُه ربح فيه ثلاثين ألفاً، فلمّا انصرّف إلىٰ منزلِهِ قال:

ربحت ثلاثين ألفاً، وخسرتُ[٣] نصحَ رجل من المُسلمين فرجع إلىٰ صاحب السكّر ودفع إليه الثّلاثين ألفاً وقال له:

إنّي كتمتُ عنكَ حقيقة الحال، وإنّ السكّر قد غَلا في ذٰلك الوقت. قال له: رحمك الله، قد أَعلمتني الآن، وقد طيّبْتُ لكَ الثّلاثين ألفاً، قال: فرجع بها التّابعي فلم يأتِهِ نومٌ وهو يقول:

لعلّ نَفْسَهُ لم تطِبْ! واستحيْىٰ مني، فرجع إلى صاحب السكّر وردّ عليه دراهمه!

هكذا تكون الأمانةُ بين المسلمين، وهكذا تَعامُلُ المؤمنين، فقد قلّت الأمانات، وكَثُرت الخيانات!

وقد قال حُذَيفة ـ رضي الله عنه ـ في زمنه ذلك: حدَّثني رسول الله ـ ﷺ ـ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظرُ الآخر[٤].

---

(١) السوس: كورة (منطقة واسعة) بالأهواز.

(٢) أي اشتر السكر من السّوق مما ورد عليه من المَوسم السّابق لأن موسم العام الذي هو فيه قليل، لآفةٍ أصابته. ومعنىٰ هذا أن الناس إذا عرفوا هذا الخبر الاقتصادي تسارعوا إلى السكر فغلا ثمنه. وفي الغلاء نوعٌ من أسباب الاحتكار.

(٣) في ب: وتركت نصح...

(٤) الحديث في صحيح مسلم بألفاظه بزيادة كلمة (أثر) ونقص ما بين معقوفتين فهو من صحيح مسلم. قال في شرح الحديث: الأمانة: الظاهر أنّ المراد بها التكليف الذي كلّف الله تعالى به العباد، والعهد الذي أخذه عليهم؛ وقال صاحب التحرير: الأمانة =

حدثني أن الأمانة نزلَت في جذر قلوبِ الرجال ثم نزل القرآن. فعلموا من القرآن وعلموا من السُّنة.

ثم حَدّثنا عن رفع الأمانة فقال: «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظلّ أثرها مثل أثرِ الوكت».

ثم ينام النّومةَ فَتُقبض الأمانةُ من قلبِهِ فيظلّ أثرها مثل أثر المَجْل، كجمرٍ دَحْرَجْتَهُ علىٰ رِجْلك فَنَفِطَ، فتراهُ مُنتبراً وليس فيه شيء [ثم أخذ حصًى فدحرجه على رجله].

قال: فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحدٌ يؤدّي الأمانَة حتى يقال إن في بني فلانٍ رَجُلاً أميناً، وحتّىٰ يُقال للرَّجُلِ: ما أَجْلَدهُ! ما أَظْرَفَهُ! ما أعْقَلهُ! وما في قلبِهِ مثقالُ حَبّةٍ من خردلٍ من إيمان.

ولقد أتىٰ عليّ زمان [و] ما أُبالي أيّكم بايَعْت، لئن كانَ مُسلماً ليردَّنَّهُ عليّ دينُه، ولئن كانَ نصرانياً أو يهودياً ليردنّه عليّ سَاعِيه، وأمّا اليَوم فما كنتُ أُبايعَ منكم إلا فُلاناً وفلاناً.

وتَتَبُّعُ الكلامِ عن الأمانةِ وعلىٰ أقسامها وأسبابها وما يتعلّق بها في مقام الإيمانِ والإسلامِ والإحسانِ، يخرجنا عن مقصدنا في هذا الكتاب(١).

= في الحديث هي الأمانة المذكورة في قوله تعالى ﴿إنّا عَرَضنا الأمانة﴾ وهي عين الإيمان. فإذا استمكنت من قلب العبد قام حينئذٍ بأداء التكاليف، واغتنم ما يرد عليه منها، وجَدّ في إقامتها. والله أعلم.

ـ الوَكْت: هو الأثر اليسير في الشيء، وقيل هو سوادٌ يسير.

ـ المَجْل (بسكون الجيم وفتحها والسكون أشهر) هو التنفّط الذي يَصير في اليد من العمل بفأس أو نحوِها ويصير كالقبّة فيه ماء قليل.

ـ يقال نَفِطتْ يده: إذا صار بين الجلد واللحم ماء.

ـ معنى منتبراً أي منتفخاً مرتفعاً.

(١) قال صاحب التحرير: معنى الحديث أن الأمانة تزول عن القلوب شيئاً، فإذا زال أوّل =

وبالجُملة: فالحالُ إن لم يكن فيه عفْو مولانا وخالقنا وإلاّ فالنّاسُ كلّهم هالكون إلاّ مَن مَنّ الله تَعالىٰ علَيه بالنّجاةِ والسّلامَةِ [١٠٨/أ] وقليلٌ ما هم.

وقد أنشد أبو حامد ـ رحمه الله تعالىٰ ـ في زمنه[١]:

هٰـذا الـزمـانُ الـذي كُـنّـا نُـحَـاذِرُهُ في قول كَعبٍ وفي قولِ ابن مسعودِ[٢]
إن دامَ هٰـذا ولـم تـحـدثْ لـهُ غِـيَـرٌ لـم يُـبْـكَ مَـيْـتٌ ولـم يُـفْـرَحْ لِـمَـوْلُـودِ

رزَقنا الله وإيّاكم العافيةَ والسّلامة في الدُّنيا والدّين، وأماتنَا مُسلمين، ونَجّانا من جميع الآفاتِ والفِتَنِ بِحُرمة سيّدنا ومولانا محمّد سيّد المُرسلين؛ ﷺ، وعلى آله وأزواجه، وذرّيته وأهلِ بيته وصحابتهِ أجمعين؛ وسَلّم تسليماً دائماً طيّباً مُباركاً إلىٰ يوم الدّين.

= جزء منها زال نورُها وخلّفته ظلمة كالوكت؛ وهو اعتراض لون مخالف للون الذي قبله. فإذا زال شيء آخر صار كالمجل وهو أثر محكم لا يكاد يزول إلاّ بعد مدّة. وهذه الظلمة فوق التي قبلها. ثم شبه زوال ذلك النور بعد وقوعه في القلب وخروجه بعد استقراره فيه واعتقاب الظلمة إيّاه بجمرٍ يدحرجه على رجله حتى يؤثر فيها ثم يزول الجمر ويبقى التنفّط.

ـ معنى المبايعة هنا البيع والشراء المعروفان (مسلم حاشية ص ١٢٧).

(١) من بحر البسيط.

(٢) يُنظر كتاب: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: ٦٥٤ ـ ٦٥٦.

باب

في معنىٰ اسمه

رَحْمَةٌ للعَالمين(١)

صلىٰ الله عليه وسلَّم وشرَّف وكرَّم

رحمةٌ للعالمين: اسمٌ من أسمائه ـ ﷺ ـ ورَد في القُرآن، أثنىٰ الله تعالىٰ بهِ عليه وأظهرَ فيه قَدره لدَيه، فقال مخاطباً لسيِّد المرسلين ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٧].

وقد تقدَّم أنّ من أسمائه ـ عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام ـ رَسُول الرحمة، ورَحْمَةُ الله؛ لأنّ الله تعالىٰ رَحِمَ به ـ عليه الصَّلاة والسلام ـ أهلَ سمائه وأرضه وعرشه علويِّه وسُفليه وملائكته، حتىٰ جبريل رئيس الملائكة(٢) ـ ﷺ ـ. قال له رسول الله ـ ﷺ ـ: هل نالكَ من هٰذه الرّحمة شيء؟ قال: نعمْ كنتُ أخشىٰ العاقبةَ فأمَّنني الله بثنائه عليّ بقوله تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٨١/٢١].

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٥٦/٩١] أي إنّما رَحِمَهُم الله، ووقعتْ سلامةُ أهلِ اليَمين عُموماً وخُصوصاً من

---

(١) ورد شرح هٰذا الاسم الكريم في: تفسير أسماء رسول الله: ٣٥ ـ ٤٦ بلفظ (الرحمة) والشفا ١: ٥٦ ـ ٥٧، والرياض النضرة: ١٦٤، وسبل الهدىٰ والرشاد ١: ٥٧٣.

(٢) الشفا ١: ٥٧.

أجلِ كرامةِ الله تعالىٰ بمحمد - ﷺ -.

قال أبو بكر بن طاهر: زيّن الله تعالىٰ محمداً - ﷺ - بزينةِ الرّحمةِ، فكانَ كونهُ رحمةً، وجميعُ شمائِله وصفاتِه رحمةٌ للخلق، فَمَنْ أصابَهُ شيءٌ مِن رحمتِه فهو النّاجي في الدّارَيْن مِن كُلّ مكروه، والواصلُ فيهما إلىٰ كل محبوب ألا ترى أنّ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧/٢١] فكانت حياتُه رحمةً ومماتُه رحمةً كما قال - ﷺ -[٢]: «حَياتي خيرٌ لكم ومماتي خيرٌ لكم» وكما قال عليه الصلاة والسلام[٣]: إذا أرادَ الله سُبحانه رحمةً بأُمّةٍ قبضَ نبيَّها قَبْلَها فجعلَه لها فَرَطاً وسَلفاً.

ورحمتُه - ﷺ - عامّةٌ للجِنّ والإنس ولجميعِ الخلقِ: مؤمِنِهم ومُنافقِهم وكافِرهم: رحمةٌ للمؤمنين [١٠٨/ب] بالهداية ورحمةٌ للمنافقين بالأمان من القتل، ورحمة للكافرين بتأخيرِ العَذاب.

(١) جاء في تفسير القرطبي ١٧ : ٢٣٣: قوله تعالى: ﴿وأمّا إن كانَ مِنَ أصحَابِ اليَمِينِ﴾ أي إن كان هذا المتوفى من أصحاب اليمين ﴿فسلامٌ لكَ من أصحَابِ اليَمِينِ﴾ أي: لست ترى منهم إلا ما تحبّ من السلامة فلا تهتمّ لهم، فإنهم يسلمون من عذاب الله... وقيل إن أصحاب اليمين يدعون لك يا محمد بأن يصلي الله عليك ويسلم...» ونقل أقوالاً أخرى.

(٢) في سبل الهدى والرشاد ١: ٥٧٣، قال المحقّق: أخرجه الحارث عن أنس، وهو حديث ضعيف، وأحال على الجامع الصغير ١: ٥١٢.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل (برقم ٢٤) على الصفحة ١٧٩٢ ولفظه: إن الله عز وجل إذا أراد رحمة أمة من عباده قبض نبيها قبلها فجعله لها فرطاً وسلفاً بين يديها، وإذا أراد هلكة أُمّة عذّبها ونبيها حيّ فأهلكها وهو ينظر، فأقرّ عينه بهلكتها حين كذّبوه وعصَوا أمره.

وقد علم الله ـ سبحانه ـ قوّة شفقته على الخَلائق ومحبّته في هدايةِ عبيدِه، وجلبِ الإحسانِ إليهم، وأنّه أنفعُهم إلىٰ خلق الله، وأرأفهم بعبادِ الله، وأوصَلُهم نفعاً إلىٰ فقراء الله وأشَدُّهم نُصحاً وجداً[1] في إيصال الخيرات، وتفريج الكُربات، وتسهيل المصعبات، وفتح أقفال المضيّقات[2].

فَعَلِمَ العالمُ بما في الصُدور أن قَلْبَهُ وجَسده ـ ﷺ ـ وجميع دمِهِ ولحمه قد جرت الرّحمة فيه، وتركّبت بنيته منها، وبُنِيَ أساسُه الكريم عليها، فلذلك جعَله نفسَ الرحمةِ؛ أي أن الرّحمةَ تمكّنت من قلبهِ وجَرتْ في لحمِه وعَظمه.

فذاته رحمةٌ، وحَركاتُه رحمة، وسكَناتُه رَحمة، واجتماعُه رَحمة، وافتراقُه رحمة، لأنّ ما من حركة، أو سكونٍ يصدر منه ـ عليه السلام ـ إلا وهو بالله ولله ومن الله، لأنّه قدوةٌ وأسوةٌ للعالَمِيْن ورحمةٌ تعودُ علىٰ الخَلائِق أجْمَعِين.

وقد نوَّر الله ـ سبحانه ـ به السمواتِ والأرَضين. فشفقَتُهُ ورحمَتُهُ ـ ﷺ ـ وسياسَتُهُ مع خلقِ الله لا يحيطُ بها نَقل، ولا يَحصرها عَقل.

وتأمّلوا رحمكم الله، وزادَ في حُبّي وحبكم لهذا النبي الشريف، وضاعفَ حبّنا فيه الخبيرُ اللطيف، وتذكّروا قضيّةَ الأعرابي[3] الذي جاءه

---

(١) في ب: وجهداً.

(٢) في ب: المنغلقات.

(٣) في الشفا ١ : ٢٥٣. ومناهل الصّفا: ٧٠ قال رواه البزّار وأبو الشيخ بسند ضعيف عن أبي هريرة ويُنظر مَجمع الزّوائد ٩ : ١٥. والحديث فيه بلفظ مقارب. قال: رواه البزّار وفيه إبراهيم بن الحكم بن أبان وهو متروك.

يطلبُ شيئاً ثم قال له: أحْسَنتُ إليك؟

قال: لا ولا أجملت!

فغضبَ المُسلمون، وقامُوا إليه، فأشارَ إليهم لشفقته ورحمته: أنْ كُفُّوا.

ثم قامَ ودخل منزله وأرسلَ إليه وزاده شيئاً ثم قال له: أحسنتُ إليك؟ قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقال له النبي ﷺ: يا أعرابيّ! إنك قلتَ ما قلتَ وفي نفس أصحابي من ذلك شيء فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يديّ حتى يذهب ما في صدورهم عليك، فقال نعم. فلما كان الغُدوّ أو العشيّ جاء، فقال النبيّ ﷺ: إن هذا الأعرابيّ قال ما قال فزدناه، فزعم أنه رضي، أكذلك هو؟ قال: نعم! جزاك الله من خير وعشيرة نعمة.

فقال ـ ﷺ ـ: مثلي ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شرَدت عليه، فاتّبعها الناس فلم يَزِيْدُوها إلا نُفوراً فناداهم صاحبها: خَلُّوا بيني وبين ناقتي، فإنّي أرفَقُ بها منكم وأعلم. فتوجّه إليها وأخذ لها من ثُمام الأرض[1]، ثم أتىٰ بين أيديها فردّها حتىٰ جاءت واستنَاخت وشَدّ عليها رَحْلَها وركبها. وإنّي لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه، دَخلَ النار.

فتأمّلوا ـ رحمكم الله ـ هٰذا الحديثَ العظيم، وما اشتملَ عليه من كمال حُسن عِشرته، وسياسته مع خلقِ الله، وشَفقته عليهم، ورحمتِه

(١) الثمام: نبت معروف في البادية ولاتَجْهَدُهُ النَّعم إلا في الجدُوبة.
ـ وفي مجمع الزوائد. من قشام الأرض؛ وهو «ما وقع على المائدة ونحوها ممّا لا خير فيه أو ما بقي فيها من ذلك». قلت كأنّ كلمة قشام من التحريف.

بهم، ومعاشرتِه معهم، وكمالِ الحرصِ والجِدّ علىٰ نفعهم، وتمام مُلاطفته للجاهلينَ لِحَمْلهِ لأذاهُم، وتحمّله عنهم، [١٠٩/أ] فكانَ ذلكَ كلّه ناشئاً عن تَمام رحمتهِ وكمالِ شَفقته ـ ﷺ ـ. ولا غرابة في أحوالهِ وصفاتِه لأنّه شَكُورٌ لِرَبّهِ، والشّكُور لله يكونُ في غايةِ الرِّفْعةِ والكمالِ في جميع الأفعال، وسائر الخِصال.

ولــكــنّــه عــبــدٌ شــكــورٌ لــربّــهِ | يُجازي عن الحُسنىٰ بحسنِ المَكَارِمِ[١]
وقـد كـان لـم يـخـتـرْ عـلـىٰ الله غـيـره | ولا يـتّـقـي فـي الله لـومـةَ لائـمِ
عـطـوفٌ رؤوفٌ بـالـعـبـادِ مـقـرّبٌ | لأهـلِ التُّـقـى لـلـخَـلْـقِ أرْحَمُ رَاحـمِ

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ نبيّنا ـ ﷺ ـ رحمةٌ للعالمين، أن يكونَ متّبعاً له في الرّحمةِ بعبادِ الله مُيَسّراً عليهم غيرَ مُعَسّر شيئاً من أُمورهم، فقد قال ـ ﷺ ـ [٢]: «يَسّروا ولا تُعَسّروا، وسَكّنوا ولا تُنَفّروا».

فمنْ كمالِ مَحبّةِ هٰذا النبيّ، الشّريف القَدر عند الله، أن يكونَ مُحبّه سالكاً طريقه، مُتّبعاً هَدْيَهُ، مُلتَمِساً رِفقه، متحلياً بحليتِهِ، مُشْفِقاً، مُوَقّراً للكبيرِ، راحماً للصغير، طالباً من الله رحمةَ الدُّنيا والآخرة، بإحسانه للخَلْقِ، وجَبْرِه للقَلْبِ الكسير؛ فإنّ الجودَ والإحسانَ إلىٰ العبادِ يورثُ من المولىٰ جلّ جلاله الرحمة والوداد.

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال[٣]:

---

(١) من بحر الطويل.

(٢) مسند الإمام أحمد ١: ٢٣٩ وتفسير القرطبي ٢: ٣٠١ وكنز العمال ١٥٤٢٩ ورد بلفظ: «... وبشروا ولا تنفروا».

(٣) الحديث سنن أبي داود ٤٩٤١ والترمذي ١٩٢٤ ومسند للإمام أحمد ٢: ١٦٠ وسنن البيهقي ٩: ٤١؛ وينظر الفتح الكبير ٢: ١٣٨.

«الرّاحِمُوْنَ يَرْحَمُهم الرّحْمٰن، ارْحَمُوا من في الأرض يَرْحَمْكم مَنْ في السّماء».

واحذروا ـ رحمكم الله ـ أن تفهَمُوا هٰذا الحديث الكريم على ظاهره، من أنّ مولانا جلّ جلاله في السّماء، وأن السّماء محلٌّ له، أو له مكانٌ يُقِلُّه، فإنَهُ يستحيلُ علىٰ ربّنا وخالقنا أن يكونَ في مكانٍ أو في زمانٍ، لأنّه سبحانه هو خالقُ المكانِ والزّمان ومُخترعه.

وكان الله القَدِيمُ الأزليّ ولا شَيْءَ معه، فإنّه القديم بذاتِه وصفاتِه، ويستحيل عليه أن يكونَ مُشَبّهاً بخلقه.

فإنّ من أشبه الخلائق وصفاتها كان حادثاً مثلَها. وربُّنا سبحانه وجَب قِدَمُه وبَقاؤه، وما وجَب قِدَمُه استحالَ عَدمُه. فهو مولانا وخالقُنا العليُّ القَدِير [١٠٩/ب] الذي ليسَ كمثلهِ شيء وهو السّميع البصير.

ومعنى قوله ﷺ ارْحَمُوا مَنْ في الأرض يَرْحمكم من في السّماء أي: الذي ظهرتْ قُدرته في السّماء التي هي أعظمُ ما تُشاهِدُونَ من المخلوقات، وقد خَلَقها وقَدَر على خلقِها، فكيف لا يقدِرُ علىٰ رحمتكم والإحسان إليكم؟

وارْحَمُوا مَنْ في الأرض، يرحمكمْ مَن في السّماء من ملائكة الله تعالى، بإذنِ المَولىٰ جلّ جلالهُ، لأنّكم إذا رَحِمتُمْ خلقَ الله أَحَبّكم الله، والمحبّةُ منه ـ سبحانه ـ رحمَتُكم والإحسانُ إليكم، وإذا أحبَّ الله ـ سُبحانه ـ عَبْداً نادَى جِبريل ـ عليه السّلام ـ[1]: إنّي أحببتُ فلاناً فأحِبَّه،

(١) من حديث في البخاري والتّرمذي والموطأ والمُسند؛ وفي مسند الإمام أحمد ٢: ٢٦٧: عن أبي هريرة قال: قال ـ رسول الله ﷺ ـ: إن الله إذا أحبَّ عبداً قال لجبريل إني أحِبُّ فلاناً فأحبّه، قال: فيقول جبريل لأهل السماء إنّ ربكم يحب فلاناً فأحبوه، قال فيحبّه أهل السماء، قال: ويوضع له القبول في الأرض. قال: وإذا أبغض فمثل ذلك.

فينادي جبريل ـ عليه السلام ـ:

إن الله يحبُّ فلاناً فأحِبُّوه، فإذا أحَبَّهُ الملائكةُ نَزلت من السَّماء الرحمةُ علىٰ الراحمين بإذنِ ربِّ العالمين، وفي السماء رزقُكم وما تُوعَدُون.

والمقصودُ أنّ الحديث لا يبقىٰ علىٰ ظاهره، بل لا بد من تأويله، والتّأويل علىٰ قدر المنازل والفُتوحات الواردة من الله تعالىٰ علىٰ الأفاضل، وقد قال ـ ﷺ ـ[1]:

«ليسَ منا من لم يرحم صغيرنا ولم يوقِّر كبيرنا».

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ[2]: ما نُزِعَت رحمةٌ إلا من قلبِ شقيّ، ولا سكنت إلاّ في قلبٍ تقي.

فارْحَمُوا ـ رحمكم الله ـ عباد الله محبّةً في رسول الله وإكراماً لحبيب الله، فإنّه ما من مؤمنٍ ولا مُؤمنة سمع بأخبارِ المُصطفىٰ ـ ﷺ ـ وآمَن به وصدّقه من قلبه إلاّ وقد شَهِد له نبيّنا بأُخُوّته، قال ـ عليه الصلاة والسلام[3] ـ:

«يأتي قومٌ في آخرِ الزّمان يُؤمنون بي ولم يروني يودّ أحدهم أن لو رآني لفداني بنفسه وماله؛ فأولئك إخواني، فأولئك إخواني.

فانظرُوا ـ رَحِمَكُم الله! ـ هٰذه الشّفقة والرّحمة ممّن رحم الله

---

(1) من حديث في سنن الترمذي ٣: ٢١٦. وتتمته: ويأمرْ بالمعروف ويَنْهَ عن المنكر.

(2) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: لا تُنزع الرحمة إلاّ من شقيّ. ٣/٢١٦ في أبواب البرّ.

(3) في حديث عن أبي هريرة في مسلم ٢١٨ من كتاب الطهارة، وابن ماجه ١٤٣٩ من كتاب الزهد قال ﷺ قال: أنتم أصحابي وإخواننا لم يأتوا بعد. . . الحديث.

بعباده، وأقام بوجوده أرضه وسماءه فكونوا برحمته علىٰ أُمّته[1] متخلّقين، وبِقُلوبكم علىٰ عباد الله مُشفقين.

فمَن سكنت الشَفقة في قلبه، وتمكّنت الرحمةُ في باطنهِ قابل الإساءة بالغُفران، وظَهرت محاسِنُه لأخيه بالعفو والصّفح والإحسان.

كان عبدُ الله بن عَبّاس ـ رضي الله عنهما ـ إذا شتَمهُ رجل يقول: إنّك لتَسُبّني وفيّ ثلاث خصال: إنّي لأَتْلُو الآية من كتاب الله، فلوددتُ أنّ جميعَ الناس يعلمون منها ما أعلم؛ وإنّي لأَسْمَعُ بالحاكم من حُكّام المُسلمين يعدلُ في [١١٠/أ] حكمه فأفْرَحُ ولعلّي لا أُقاضي إليه أبداً؛ وإنّي لأسمعُ بالغيث قد أصابَ بلاداً من بلاد المُسلمين فأفرحُ ومالي من سامَةٍ ولا زرع![2].

فتأمّلُوا ـ رحمكم الله ـ هذا التخلّق من عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ كيف اقتدى فيه برسول الله ـ ﷺ ـ في عفوه عن مُسيئهم، ورأفته بهم، ورحمته لعبادِ الله وشَفقته عليهم.

وعن طاووس[3] ـ رضي الله عنه ـ قال: ما رأيتُ أحداً أشدّ تعظيماً لِحُرماتِ الله مِن ابنِ عَبّاس، وكان رضي الله عنهُ حليماً رحيماً.

وكان الحسَن ـ رضي الله عنه ـ لشدّة رحمته وشَفقتهِ علىٰ أُمّة جدّه ـ ﷺ ـ سمع رجلاً يَسأل الله تعالىٰ أن يُعطيه عشرة آلاف درهم، فلمّا سمعه تعلّقَ قلبهُ به، ورَحِمَهُ، فانصرفَ إلىٰ بيتهِ فبعث إليه الحسَن ـ رضي الله عنه ـ بعشرةِ آلاف حتىٰ طمأنَ قلبه وسكّن جَوارحه وبلغَ مَقْصده.

---

(١) في ب: على عباده.

(٢) السامة: البئر. والحُفرة على الركيّة.

(٣) أبو عبد الرحمن طاووس بن كيسان (٣٣ ـ ١٠٦) من أكابر التابعين تفقهاً في الدين، ورواية للحديث، وتقشفاً في العيش، وجرأة على وعظ الخلفاء والملوك.

وكان عُمَر بنُ الخَطّاب ـ رضي الله عنه ـ طافَ ليلةً بالمَدِينة[1]، فإذا هو بامرأةٍ في جَوف دارٍ لها وحولها صبيةٌ يبكون، وهي توقد النار تحت قدر لها، فأتاها من الباب وقال لها: يا أَمَةَ الله مِمّ بكاءُ هٰذه الصبية؟

فقالت: من الجُوع!

فقال لها: ما هٰذه القِدْر؟

فقالت: جَعَلْتُ فيها ماءً أُوهمهم أن فيها شيئاً، وأعللهم حتىٰ يناموا.

فجلسَ عُمَر ـ رضي الله عنه ـ يبكي لِشَفقته، ورحمته، ثمّ جاء إلى دار الصّدقة، وأخذ غرارة[2]، وجعل فيها شيئاً من الدّقيق والشحم والسّمن والتّمر والثّياب والدّراهم حتىٰ ملأ الغرارة ثم قال: يا أسلمُ احْمِلْ عَلَيّ.

قال قلت: يا أمير المؤمنين أنا أحمل عنك!

قال لي: لا أُمّ لك! أنا أحمله لأني المسؤول عنهم في الآخرة!

قال: فحملها على عُنقه حتّى أتى بها منزل المرأة؛ فاستُؤذن له فدخل، فأخذَ القدر فجعل فيها دقيقاً وشيئاً من شحم وسمن، وجعل يحرّك وينفخ النّار تحت القدر.

---

(١) الخبر في: الرياض النضرة في مناقب العشرة ٢: ١٤٨. رواه زيد بن أسلم عن أبيه. قال المحبّ الطبري: خرّجه الفضائلي.

(٢) الغرارة: الجُوالق (الكيس) يوضع فيه المتاعُ ونحوه.

قال أسلم: وكانت لحِيَتُهُ عظيمةً، ولقد رأيتُ الدخان يخرج من خلالِ لِحيته، حتىٰ طبخَ لهم طعاماً، وجعل[1] يغترف بيده ويُطعمهم حتىٰ شَبِعوا، ثم أخذ يلاعبُ الصّبيان وهو بين أيديهم كأنّه سبع.

وخفتُ أن أُكلّمه، فلم يزل كذٰلك حتىٰ لعبَ الصّبيان وضحكوا، ثم قال: يا أسلم هل تدري لِمَ لعبت بين أيديهم؟ [١١٠/ب]، قلت: لا يا أمير المؤمنين!

قال: لأنيّ دخلتُ عليهم ورأيتهم يبكون، فكرهتُ أن أتركهم حتىٰ أراهم يضحكونَ، فلمّا ضَحِكُوا طابت نفسي.

هذا حالُ الرّاحمين فأين طريقهم؟

وهذا تخلق المُتّقين فأينَ رفيقهم؟

ذهبتْ والله طريقهم، وماتَ رفيقهم، وفيهم والله يجب أن يقال، وببركتهم نرجو إجابة السؤال:[2]

كم من غريقِ ذنوبٍ ضاقَ مَذهَبُهمْ ... فأَمّنُوا رَوْعَهُ جُوداً وما بَخِلُوا[3]

همُ الكرامُ إذا ما جئتَ مفتقراً ... همُ الحماةُ إذا أودت بك العلل

فنحن في ظلهم راجون فضلهم ... كذا الكرامُ إذا ما أمّلوا فعَلُوا

فالله يرزُقنا في يومِ مَوْقفنا ... شفاعةً منهمُ يا أيُّها الرُّجُلُ

فتلكَ سيرتهُم فينا وفعلهمُ ... لمثلهمْ تَهْرَعُ الرّكبان والإبلُ

---

(١) في ب: حتى طبخ لهم الطّعام ثم جَعل.

(٢) في ب: «هذه أحوال الرّاحمين فأين طريقهم، هذا تخلّق المتّقين فأين رفيقهم، ذهبت والله طريقهم ومات رفيقهم، خلت والله ديارهم وانقرضت آثارهم فما بقي إلاّ محبّتهم وأخبارهم، وفيهم يجب أن يقال:....».

(٣) من بحر البسيط.

وقد دخلتُ لتطفيلي دخيلَهمُ   لجاههم ليس لي تقوىٰ ولا عملُ[1]
منّي عليهم سلامُ الله ما ذُكرت   أخبارُهم فاشتَهتْ رُؤياهم المُقَلُ
مباركٌ طيّبٌ يغشاهُم أبداً   نسيمُهم بِعَبير المِسكِ مُشتملُ

صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلّم وشرّف وكرّم تسليماً كثيراً، وزاده مولانا شرفاً وعزّة وتعظيماً.

(١) في ب: بتطفيلي... لجاههم.

باب

في معنىٰ اسمه

الرَّسُول، ورسول اللهِ، ورسول ربِّ العالمين[1]

صلىٰ الله عليه وسلم وشرّف وكرّم

هٰذه الأسماءُ الشريفة، والألقاب اللطيفة قد وردت في أسمائه، واشتُقّت له من بديعِ صفاته، وتَواتر إطلاقُها، وكَثُر تعيينُها في ألسنةِ العالمين علىٰ من خَصَّه الله تعالىٰ بالكرامة، وأعطاهُ الوسيلة يوم القيامة.

فأطلق الله تعالى عليه: «الرّسول» في القرآن الكريم في مواضع عديدة في مقام التفخيم والتعظيم، قال الله العظيم: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٤/ ١٤] وقال جلّ جلاله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٠] إلىٰ غير ذٰلك من الآياتِ ممّا أجمعت الأُمّةُ علىٰ أن المرادَ [١١١/أ] بالرّسول هو: سيّدنا ومَولانا محمد ﷺ.

---

(١) ورد تفسيرها في:
الرّياض الأنيقة ١٦٧، بلفظ (الرّسول)، وسبل الهدىٰ والرشاد ١: ٥٧٤. والمواهب اللدنية: ١: ١٩٢.

وكذلك أُطلق عليه: رسولُ الله، ورسولُ ربِّ العالمين، على ألسنة أمّته المُحِبّين، وكلّ ذلك من الإجلالِ والتّبجيل والتّعظيم لمقامِه الجَليل ممّا يجبُ على المُؤمنين إظهارُه على ألسِنَتِهِمْ واعتقاده في أفئدتهم، ويجبُ عليهم تردَادُ ذِكره بأحسن التّحليات[1] لديهم.

ومعنى «الرسول»: أي المُرسل إلى الخلق[2]، أمره الله تعالى بالإبلاغ عنه إلى من أرسله إليه، وسيره بما أتى به عن الله دليلاً عليه.

والله تعالى قادرٌ على أن يخلق المعرفةَ في قُلوب عبادهِ من غيرِ واسطةٍ بينه وبينهم كما فعل تعالى بأنبيائه ورسله. ولكنه ـ تعالى ـ اختار الأنبياء من خلقه، وجَعلهم وسائطَ بينه وبينهم كما فَعل، فكانوا بينه وبين عبيده يبلّغونهم عن ربّهم كما أمرهم، قال جلّ جلاله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٤٢/٥١].

فكان النبي الأميّ ـ ﷺ ـ أفضل المُرسلين، وأكرم الخلق على الله ـ سبحانه ـ بعثه الله إلى الخلائق أجمعين؛ رسالتُه ظاهرةٌ يكادُ زيتُها يضيءُ ولو لم تَمْسَسه نارٌ، ومَحاسنُه باهرةٌ عمّ نورُها جميعَ الآفاق، وأشرق في سائر الأقطار.

لو لم تكنْ فيهِ آياتٌ مبيّنةٌ　　　لكانَ منظرهُ يُغني عن الخَبرِ[3]

وقد أعلَمَهُ الله تعالى عِلْمَ الأوّلين والآخِرين، وأرسلَهُ رحمةً للعالمين، فشمّر عن ساقِ الجِدّ، وجاهَد في الله حق جهاده، ونصحَ

---

(١) حلّى فلاناً: ذكره بصفته وحليته.

(٢) في ب الخليقة.

(٣) من بحر البسيط.

الخلائقَ أجمعين، وَحلاّه المولىٰ جلّ جلاله بخطابه فناداه بقوله: ﴿يَٰأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ [المائدة: ٥/٦٧].

فكانَ لوحي الله تعالىٰ نِعْمَ الخازن الأمين، وكان ذاكراً له ومؤدياً وحيه[١]، ومبلّغاً رسالتَهُ بأفصح مقالٍ، وأحسن تبيين، وبالغَ في إبلاغ رسالته، ودَعا إلىٰ دينِ رَبّهِ جميعَ الخلق من إنسٍ وجانّ، مؤديّاً لعبادِ الله أمانةَ القُرآن، جاداً في نهاره وليله[٢] لطاعة الرحمن، صابراً علىٰ ما يُصيبه في تبليغهِ في ذات الله، مُحتسباً في ذلك أجْرَهُ علىٰ الله.

لمّا توفّي أبو طالب عمّ رسول الله - ﷺ - [١١١/ب] اشتدّ كربه - ﷺ - علىٰ إيمان قومه، وزادُوا في النّفور عنه، واستَعْمَوْا لعمايتهم وفَرُّوا عنه، فخرجَ - ﷺ - يطلبُ الإعانةَ علىٰ دين الله، فعمدَ إلىٰ ثقيف بالطّائف[٣] وطلب منهم النُّصرة والإيمان بما أتىٰ به، فما طافَ حوله منهم طائف.

فرَجع - عليه الصّلاة والسّلام - وقد يئس من إيمانهم، فخرَج سُفهاؤهم وقَعدوا في طريقِ النبيّ - ﷺ - صَفّين، فجعل - ﷺ - لا يضع رجلاً ولا يرفَعُها إلا وضَعُوا صخرةً علىٰ رجله، فما خلَص منهم إلا وقدماه تسيلان بالدّماء، وقلبهُ مملوءٌ عليهم رحمةً، داعياً لهم بالهداية من أرحم الرُّحَماء.

---

(١) في ب: حقّه.

(٢) في ب: وليله في طاعة الرحمن.

(٣) السّيرة النّبوية (رواية ابن هشام) ١: ٤١٩.

فقصد حائطاً من كُرومهم[١]، فأتىٰ إلى ظلّ نخلة فجلس في ظلها مكروباً تسيلُ الدماءُ من رجله، وهو صابر محتسب في ذات ربّه[٢]، وإذا في الكرم عُتبة بن ربيعة، وشَيبة بن ربيعة ـ اللّعينين ـ فلما رآهُما رسولُ الله ـ ﷺ ـ كره أن يكلّمهما لِمَا يَعْلَمُ من عَداوتهما لله ورسوله؛ فأرسلا إليه غلاماً لهما يقال له عَدّاس وهو نصرانيّ فأتىٰ إليه بعنبٍ، فلمّا أتاه وضعه بين يَديْهِ، فقال النبي ـ ﷺ ـ.

«بسم الله» فتعجّبَ عَدَّاس من قوله فقال النبي ـ ﷺ ـ: من أيِّ أرضٍ أنتَ يا عَدّاس؟

فقال: أنا من أرضِ نِيْنَوىٰ[٣].

فقال له عليه الصلاة والسلام: من أهل مدينة الرّجل الصالح يُونس بن متىٰ؟

فقال عَدّاس: وما يُدريك مَنْ يونس بن مَتّىٰ؟

فلمّا أخبره النبيّ ـ ﷺ ـ من شأن يونس ومن خبره، ومن قصّته ومن نبوته ورسالته ـ وكان عليه الصلاة والسلام من حاله وتواضُعه، وحرصه علىٰ إيمان خليقة ربه لا يحقرُ أحداً من خلقه، ذُكرانهم وإناثهم، وأحرارهم وعبيدهم وصبيانهم كلهم، يبلغهم رسالة ربه عزّ وجل:

فلمّا ذكَر لعدّاس الغُلام ما ذكَره من قصّة يُونس عليه السلام، قال له النبيّ ـ ﷺ ـ:

---

(١) قال في السّيرة: «وأغروا به سُفهاءهم يسبّونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناسُ وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه...».

(٢) في: ب، و: ج: في ذات ربه. وفي أ: في ذات الله.

(٣) نينوىٰ: قرية يونس عليه السّلام بالموصل (معجم البلدان ٥: ٣٣٩).

يا عدّاس: أنا رسولُ الله إلىٰ الخلائق[1] أجمعين.

فقال عداس: أخبرني عن يونس بن متىٰ، فأَخْبَرَهُ النبي - ﷺ - بقصّة يونس، وغريب أمره. [١١٢/أ] حتىٰ كأنه يشاهده في يومه، فلما أخبره[2] - ﷺ - قام عدّاس وخرّ ساجداً للنبيّ - ﷺ - وجَعل يقبّل قدمَيْه وهما تسيلان بالدّماء، وعُتبة وشَيبة ينظران في غلامهما ما هو فاعل!

فلمّا أتاهُما قالا له: ما شأنك سجدْتَ لمحمّد، وقَبّلْتَ قَدَمَيْه ولم نَرك فَعلت هذا بسادتك؟!

قال عدّاس: محمّدٌ رجلٌ صالح، حدّثني بشيء[3] عرفته من شأن رسولٍ بعثه الله إلينا يُدعىٰ يُونس بن متىٰ، وأخبرني أنه محمّدٌ رسول الله[4].

قال: فضحكَ سيّداه وقالا له: يفتنك عن نَصرانيّتك. وفي روايةٍ أُخرىٰ: أن عَدّاساً لمّا أتىٰ إليه بطبقٍ فيه عنب قال له سيّداه: إنه سيقول لك صدقةٌ هو أم هديّة، فإذا[5] قال لك ذلك فقل: هو هديّة.

قال عَدّاس: فجئتهُ فقال لي: ما هٰذا أصَدقةٌ أم هديّة؟

قلت: بل هدية.

قال: بسم الله؛ وقَطف عنبهُ.

فقلت: إنّ هذا الكلام لا يعرفُه أحد في هذا البلد!

---

(١) في ب: الخلق.
(٢) في ب: فلما أخبره بذلك ﷺ.
(٣) في ب: بشيء بما عرفته.
(٤) في ب: وأخبرني محمد بأنه رسول الله.
(٥) في ب: فإن قال لك.

فقال لي: من أنت؟ وما دينك؟ ومن أين أنت؟[1]، فأخبرته بموضعي.

فقال لي: أنت من مدينة أخي يُونس.

قال عَدّاس: فأخبرني؛ وقُمت إلىٰ سيّدي وأخبرته بما جَرى بيني وبينه.

فقال لي سيدي: أو عَرَفْتَهُ يا عَدّاس؟

قال: قلت: هو الرسولُ الذي بَشّر به عيسىٰ.

قال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦١/٦] ـ فالله لا تخالفوه[2].

فقال لي: ما أجهلَكَ! قد عزمت قريش علىٰ أن تقتله!

قال: قلت: إنّه والله يَقْتُلهم، ويَسُودهم، ويشرفُهم باتّباعه، ويدخلُ الله الجنّةَ مَن اتَّبعه، ويُدخل النار مَن خالَفه.

قال عَدّاس: فقال لي سيدي: قد سحَرك محمّدٌ أيضاً!

قال عدّاس: فلقد والله مرّ الزمان، وكنت مع القوم في يوم بدر، وركب سيّدي جملاً، وقال للناس: ارجعوا؛ فإن يكُ محمّدٌ نبيّاً وحاربتموهُ خسرتُم الدُّنيا والآخرة. وإن يك ملكاً فملكه لكم، وإن يك غير ذلك كُفيتم بغيركم[3].

قال عدّاس: فبلغ ذلك أبا جهل ـ لعنه الله ـ قال: فقال: قد انتفَخ

---

(١) عبارة «ومن أين أنت؟» من ب وحدها.

(٢) في أ: «لا تخالفه».

(٣) في أ: فملكه لكم فكُفيتم بغيركم.

سَحْرهُ فانْتَفخ وأسِفَ علىٰ نفيه، فبلغ كلامه مولاي قال: سيعلم مصفِّرُ استِه[1] من أصدقُ: أنا أم هو!

فدعا مولاي ببيضةٍ[2] من العسكر، فلم يوجد من العسكر ما يَملأُ رأسه، فأخذ مِرْجلاً [١١٢/ب] فغطىٰ رأسه ثم تعمم وركب؛ فتعلقت بركابه، وقلت: يا مولاي أين تريد؟ قال: أحارب محمداً.

فقلت له: ارجعْ[3] فإنّك أول مقتول إن حاربته.

فقال: سَحَرك محمد يا عدّاس.

فما كان إلا ساعة حتىٰ قُتِلَ هو وصاحباه.

فهكذا كان جِدُّه - ﷺ - وصَبْرُه حتىٰ بلّغ رسالة الله جلَّ جلاله مبلغاً، وأعطاها حَقّها وقدرها، حتىٰ أظهرَ الله دينه، وأتمّ عليه نعمته، وأرضىٰ بالدينِ أُمّته - ﷺ - وشرّف وكرّم.

وفيه يقول أبو سُفيان بن الحارث - رحمه الله وغفر له[4] -:

نبيٌّ كان يجلُو الشكَّ عَنّا ... بما يُوحَىٰ إليه وما يقولُ
ويَهدينا فمَا نخشَىٰ ضَلالاً ... علينا والرّسولُ لنا الدّليلُ
يخبّرُنا بعلمِ الغيب عَمّا ... يكونُ فلا يجورُ ولا يحولُ
فلم نَر مثله في النّاسِ حيّاً ... وليسَ له من الموتى عديلُ

(١) يقال في الشّتم: يا مصفّر استه!، وهي عبارة تقال للمتنعّم المترف الذي لم تحنّكه التجارب والشدائد. أو للمأبون، أو هي من الصفير كناية عن الخَوَر. أمّا السّحر فهو الرئة، ويقال انتفخ سحره إذا تعدّى طوره أو جَبُنَ وخاف.

(٢) البيضة: الخوذة. والمِرْجَلُ: قدر من نحاس.

(٣) في ب: زادَ هنا: فإن لم ترجع.

(٤) الشعر لأبي سُفيان بن الحارث في أسد الغابة ٦: ١٤٧ والسيرة النبوية (ابن كثير) ومنح المنح ٣٠٦، والحماسة المغربية: ٧٨٥ - ٧٨٦ (وانظر تخريجه ثمة).

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ نبيّنا ـ ﷺ ـ هو رسولُ الله حَقّاً لبيان مُعجزاته أن يجدّد كل يوم التصديق برسالته، وينظرَ في طريقتِهِ وهدايتِهِ، ويعلم بقلبه أنّ الله تعالى بعثَه إلى خَلْقِهِ ليصدّقوه، ويُطيعوه فيما جاء به[1] ويتبعوه.

وأنّ من أطاع أمره فقد أطاعَ الله، وأن من عَصىٰ أمره فقد عَصىٰ الله، وأنّ جميعَ رُسل الله: هذا حكم الخلق معهم، وأنّه يجب عليهم اتباعهم وطاعتهم.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٤/ ٦٤].

وقد أمر الله تعالى بتذكّر رسالة سيدنا ومولانا محمد ﷺ في أوقات الغَفلات، وتجديد الإيمان في القُلوب به في دورة الزّمان مع الخمس صلوات[2]، فإذا استوت الأوقاتُ للصلاة صعد المؤذنون المنابر[3]، وذكروا مع الشّهادة لله بالوحدانية الشهادةَ بالرسالة للنبيّ المختار اعتناءً من المولى جلّ جلالُه؛ ببيانِ مَقامِهِ، وتنبيهاً للقُلوب علىٰ [تجديد] تصديق الرّسالة له لزيادة احترامه.

ولذا طلب ـ عليه الصّلاة والسلام ـ من أمّته إذا سمعوا المؤذّن أن يقولوا مثل ما يقول، وأكّد في حقّهم ذٰلك وأن يشهدوا بأنّه

(١) في ب: فيما جاءهم به.
(٢) هكذا فيهما. والفصيحُ هنا دخول (ال) على (صلوات).
(٣) في ب: صعد المؤذّن للمنابر وذكر...

الرسول[1].

رُوي عن رسول الله - ﷺ - من طرقٍ كثيرةٍ، وروايات مُختلفة أنه [١١٣/أ] قال[2]:

«ما من مسلم يسمعُ النّداء فيكبّر إذا كبّر ويقول: أشهد أن لا إلّه إلاّ الله، وأشهدُ أنّ محمداً رسول الله، ثم يقول: اللّهم أعْطِ محمّداً الوسيلةَ والفضيلة، واجْعلْه في الأَعلين درجةً والمصطفين محبّةً، وفي المقرّبين ذكراً، إلا وجَبتْ لهُ الشّفاعة يوم القيامة».

وفي رواية، من قال حين يسمع المؤذن مثل مقالته، ويشهد مثل شهادته فله الجَنّة.

فَيُطلبُ في حقّ المُحِبّين لهذا النبيّ العظيم أن يعمرُوا أوقاتَهُمْ بذكره وتجديد الإيمان برسالته، ويشهَدُوا له بالرّسالة عند بيان آياته، وسماع ذِكره وصفاته. فإذا تعارّ[3] عند نَوْمِه فليجدّدْ إيمانه بنبيّه وليقل حينئذٍ[4]:

«اللهمّ لكَ الحمدُ أنت نورُ السّموات والأَرضِين ومَنْ فيهنّ، ولك الحمدُ، أنتَ قَيّمُ السّمٰواتِ والأَرض ومَنْ فِيهنّ، ولكَ الحَمدُ أنت ملك السمواتِ والأرض ومَن فيهن، ولك الحمدُ أنت الحقّ وقولك الحقّ، ووعدك الحقُّ، ولقاؤُكَ حقّ، والجنّةُ حَقٌّ والنّارُ حَقّ، والنبيّون حقّ،

---

(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن. رواه البخاري ومسلم. وهو في أذكار النووي؛ ٣٠.

(٢) في أذكار النووي: باب ما يقول من سمع المؤذن والمقيم: ٣٠ - ٣٢.

(٣) تعارّ: استيقظ. وفي ب: وعند تعارّ المؤمن.

(٤) الحديث في سنن الترمذي ٥: ١٤٦ إلا قوله في آخر الدعاء: «أنت المقدّم وأنت المؤخر».

ومحمّد حقّ، والسّاعةُ حَقّ.

اللهم لَكَ أسْلمتُ وبِكَ آمَنت، وعليكَ توكّلت وإليك أَنَبْتُ وبكَ خاصَمْتُ وإليكَ حاكَمْت، فاغفرْ لي ما قدّمتُ وما أخّرتُ وما أسْرَرْتُ وما أعْلَنت، أنت المُقَدم وأنتَ المُؤخّر لا إلٰهَ إلاّ أنت».

هٰكذا كانَ قولُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ إذا تهَجّد من نَوْمِه، فتأمّلوا ـ رحمكم الله ـ طريقته، وتعلموا سنّته، وكيف كان حالُه عليه الصلاة والسلام في تعليمِ العباد، وحافِظُوا علىٰ الشّهادة له بالرّسالة تنتفعوا بذلك يومَ يقوم الأشهادُ.

وقد قال[(١)] ـ ﷺ ـ ذات يوم لما أن أَظْهَر كرامةَ الله تَعالىٰ به في مُعجزاته:

«أشهد أن لا إلٰه إلاّ الله، وأشْهَدُ أنّي رسولُ الله. وأشهدُ أنّه لا يقولُهما أحدٌ من صميم قلبه إلاّ وَقاهُ الله حرَّ النّار».

رُوِيَ هٰذا اللّفظ في بعضِ الطُّرق، وأنّ ذٰلك كان في غزوة تَبُوك حَقّا[(٢)]، وظهرت فيها معجزات لرسول الله ـ ﷺ ـ دالة علىٰ أنه رسول الله حقاً، وازدادت بذلك قلوب المؤمنين يقيناً وصدقاً، وأن أصحابه الكرام أَرْمَلُوا[(٣)] في هذه السفرة إرمالاً شديداً، واشتدّ عليهم الأمر [١١٣/ب] وتقوّت بهمُ المجاعَة تكثيراً لِثوابهم، وإظهاراً لِصَبرهم ومُجَاهدتهم، وبَياناً لمنزلة الحبيب ـ ﷺ ـ عند ربهم.

---

(١) الحديث في صحيح مسلم ١/٥٧، وفيه: «... فقال رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إلّه إلاّ الله، وأني رسول الله. لا يلقى الله بهما عبدٌ، غَيْرَ شاكّ فيحجب عن الجنة». وفي ب: حقيقة قلبه.

(٢) صحيح مسلم ١: ٥٦ ـ ٥٨، ودلائل النبوّة للبيهقي ٥: ٢٢٧ ـ ٢٣٢.

(٣) أرْمَلُوا: نفد زادهم.

فلما أن اشتكوا إلىٰ الحبيب للقُلوب، ومَنْ جَرت عادة الله مع الخَلق ببركاته بتفريج الكُروب، استأذَنُوا رسولَ الله ـ ﷺ ـ أن يَنْحَروا ركابهم؛ فيأكلون.

فأذن لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فلقي القوم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهم ـ أجمعين، وقد عزموا علىٰ نَحْرِها، فأمرهم أن يُمسكوا عن نَحرها.

ثم جاء عمر ـ رضي الله عنه ـ إلىٰ نبينا محمد ـ ﷺ ـ وهو في خيمةٍ له فقال:

يا رسول الله أنتَ أذِنْتَ للنّاسِ في نحر حَمُولتهم[1] يأكلونها؟ فقال عليه الصلاة والسلام: شكَوْا إليّ ما بلغ بالنّاس من الجُوع فأذِنْتُ لهم؛ ويتعاقَبُون فيما بقي من ظهُورهم قافلين علىٰ أهليهم.

فقال: يا رسول الله لا تفعلْ؛ فإن يك في الناس فضلٌ من ظُهورهم يكونُ خيراً، والظُّهر اليوم رفاق، ولكن يا رسول الله ادْعُ بأزوادِ القوم ثم اجْمَعْها فادْعُ الله تعالىٰ فيها بالبركة كما فَعلْتَ في مُنصرفنا بالحُدَيبية، فإنّ الله تعالىٰ يَستجيبُ لك. فنادىٰ منادي رسول الله ـ ﷺ ـ مَن كان عنده فضلٌ مِن زادٍ فليأتِ به، وأمر بالأنطاع فَبُسطت، فجعلَ الرجلُ يأتي بالدقيق، والرجلُ يأتي بالتمر والسَّويقِ[2] فيوضع كلُّ صِنفٍ من ذُلك علىٰ حِدَتِهِ، والشيء قليل.

ثم قام رسول الله ـ ﷺ ـ فتوضّأ وصلّىٰ ركعتين، ثمّ دَعا الله تعالىٰ

---

(١) الحَمُولة من الإبل: التي تحمل الأثقال على ظهرها سواء أكان عليها أثقال أو لم يكن؛ ولا واحد للكلمة من لفظها.

(٢) السويق: طعام من دقيق الشعير أو الحنطة المقْلوّ. قال بعض الأعراب في وصفه: هو عُدّة المسافر، وطعام العجلان، وبُلغة المريض.

أن يُبارِكَ فِيه.

قال أبو هُرَيرة، وأبو حُمَيد السّاعدي، وأبو زرعة، وسهل بن سعد الساعدي كلّهم يحدّث أنّ رسول الله ـ ﷺ ـ: لمّا انصرف من الصّلاة نادىٰ مناديه:

هلمُّوا يا أصحاب محمد إلىٰ الطّعام، خُذوا منه حاجتكم، فأقبلَ النّاسُ أفواجاً، فجَعل كلّ مَن جاءَ بوعاءٍ ملأه.

قال بعضُهم: لقد طرحتُ يومئذٍ كسرةً من خبز وقبضَةً من تمر، ورأيت الأنطاع تفيضُ بالطعام، وجئتُ بجرابين فملأت أحدَهما سَوِيقاً والآخرَ خُبزاً، وأخذت في ثوبي دقيقاً كفانا إلىٰ المدينة، فتزوّد الناسُ الزّاد عن آخِرهم، فجَعل رسول الله ـ ﷺ ـ يقول وهو واقف:

أشهدُ أن لا إلٰه إلاّ الله، وأشهدُ أنّي ـ محمّد ـ عَبْدهُ ورسوله [١١٤/أ] وأنه لا يقولُها أحدٌ من حقيقةِ[1] قلبهِ إلاّ وقاه الله حرّ النار.

فلازموا ـ رَحِمَكُم الله ـ حُبّ هذا الرسولِ العظيم، واملؤوا زَوايا قلوبكم بمعجزات هٰذا النبيّ الكريم، وتَحبّبُوا إلىٰ مولاكم بتعظيم مَن قال في كتابه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٦٨/٤]، وتحنّنوا إلىٰ لقائه في كلّ وقت وحين، وتلذّذوا بأخباره ووَحْيِه التي نقلها إلينا يقيناً أمينٌ عن أمين.

كان الشيخُ الوليّ أبو عبد الله محمد النّابلي ـ رحمه الله ـ من المُحِبيّن في رسول الله، وكان يوماً بمرسى جرّاح مع بعض الصالحين، فإذا بِمُنشدٍ يُنشد أبياتاً، فلمّا سمعه الشيخ تواجَد، وما ملك نفسه من شوقه فأُعيدت الأبيات فزاد في تواجده، والأبيات هي هذه:

---

(١) سبق الحديث، وفيه من ب: صميم قلبه ثمّة. وفيهما معاً هنا: حقيقة قلبه.

تركت هوىٰ ليلىٰ وسَلمىٰ بمنزلي   وعدتُ إلىٰ مصحوب أوّل منزلِ
ونادت بي الأشواقُ مَهلاً فهٰذه   منازِلُ مَن تهوىٰ فدونكَ فانزلِ[1]
فخذْ بنعيم قد صفا لكَ وِرْدُهُ   ودَعْ ما سوىٰ الأحبابِ عنكَ بمعزلِ

فكَذا ـ رحمكمُ الله، وضاعفَ حُبّي وحُبّكم ـ لسان الكائنات يُنادي: هٰذه منازل حبيب الأحباب فأين المحبّون؟ وهذا الرّسول الذي حازَ الكَمال من بَني جنسه فأينَ العاشِقون؟ وفيه يقال:

خلت الدِّيارُ فلا كريمٌ يُرْتَجىٰ   منهُ النّوالُ ولا مليحٌ يُعْشَقُ![2]
إلا الّذي حازَ الجمالَ بأسرِهِ   قُطب البَرايا عَرْفُهُ يُستنشَقُ

فاغتنموا ذُخر محبّة هٰذا الرسول، وتلذّذوا عندَ ذكر مُعجزاته وبديع صفاتِهِ، وتوسّلوا إلىٰ الله العظيم بجاهه أن يَمُنَّ عليكم بالقَبُول وقولُوا بلسان المحبّة، وظهورِ الذِّلة ما نرجُو وإيّاكم به إليه الوُصول.

إلٰهيَ جُدْ للمستقيل برحمةٍ   يفيءُ بها ظِلٌّ هُناكَ ظَليلُ[3]
وصلِّ علىٰ المبعوثِ من آل هاشم   رسول الهدىٰ مَن جاء عنك دليلُ
عليه تحيّاتٌ كما هَبّت الصَّبا   نسيمٌ على الروض المطير عليلُ

صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً وزاده مولانا شرفاً وعزّة وتعظيماً. [١١٤/ب].

---

(١) في ب: ونادتني الأشواقُ.
(٢) من بحر الكامل. والبيت الأول مُضَمّن؛ فهو من شعرٍ قديم.
(٣) من بحر الطويل.

باب

في معنىٰ اسمه

النَّبيّ، ونبيّ اللَّهِ(١)

صلّىٰ الله عليه وسلّم وشَرَّف وكرّم

النبيّ ونبيّ الله اسمانِ من أسمائِه عليه أفضلُ الصّلاة والسّلام، قال الله العظيم مخاطباً لنبيه الكريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٦٦/٩].

وقال عليه الصّلاة والسّلام(٢): قولي: ونبيّك الّذي أرسلت.

وقد ورد إطلاقُ النبيّ علىٰ نبينا محمد - ﷺ - في آياتٍ من القُرآن، وأحاديثَ من السُّنة يعجز الحصر عنها، وتكلّ الألسن دونها والبيان.

وعادةُ الله تعالىٰ مع نبيِّه عليه الصّلاة والسلام في خطابه له إنّما يكونُ بأشرفِ خطاب، فَيُناديه ويحلّيه مولاه بما لم يُحَلِّ به أحداً من أُولي الألباب، ويصِفُه بأوصافٍ بليغةٍ وسماتٍ بديعةٍ، وأخلاقٍ مَرْضِيّةٍ دَلّ

---

(١) ورد شرح هذا الاسم الكريم في الشفا ١: ٣١٧ وسبل الهدى والرشاد ١: ٦٥٤ والرياض الأنيقة ٢٦١، و٢٦٢ وزاد المعاد ١: ٨٨ والمواهب اللدنية ١: ١٩٢ و١٩٣.

(٢) سنن الترمذي ٥: ١٣٦.

عليها نَصّ الكتاب، وفحوى الخطاب.

وأصل النبيّ مُشتق من النُّبوة.

والنبوة في اللّغة أصلُها من النّبأ بالهمزة وهو الخبر الغريب.

فمعنىٰ قولك: «نبيّ الله» أي الشّخص المنبّأ، وهو المُخبر؛ أي الذي أخبره الله تعالىٰ وأعلمه أنّه نبيُّه إمّا بغيرِ واسطةٍ إذا سمع كلامه القديم الأزلي؛

أو بواسطة جِبريل عليه السلام، قال الله العظيم ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٤٢/٥١].

فمعنىٰ الآية: أنّ الله تعالىٰ يُوصل كلامه ويسمعه من شاء ـ سبحانه ـ من خَواصّ البَشر ممّن اختاره منهم، وخلقه طاهر القلب، نقي الفؤاد عن العيوب، مُنَزّهاً عن الشُّكوك والأوهام السّاترة عن مُطالعة الغُيوب، مَعْصُوماً عن الّذي يشين من سائرِ الذُّنوب.

فإذا تَمّ إبّان[1] وَحْيه سمع كلام ربّه إمّا وحياً من غير واسطةٍ بينه وبينه كما سَمِع موسىٰ عليه السلام كلام الله تعالىٰ من غير صَوْتٍ ولا حَرْفٍ ولا جِهَةٍ، فسمع كلامه القديم، وعَلِمَهُ، وفَهمه فهماً ضرورياً خلقه الله تعالى في قلبه. وقد أخبر الله سبحانه في كتابه عن ذلك بخطابه في قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ [طه: ٢٠/١٤] أي: يا موسىٰ إنّك قد علمتَ أنّي أنا الله المعبود الذي خلقتُك وخلقتُ جميعَ الوجود، فَدُمْ علىٰ ما أنتَ عليه من التعظيم لربّك والتنزيه، ولازمِ السُّجود.

---

(١) إبّان الشيء، حينه ووقته؛ أو: أوّله.

وقد سمع النبي - ﷺ - كلام ربه ووحيه من غير واسطة [١١٥/أ] في أحسن مكان كان فيه المصطفى، وأوحىٰ إليه ربه تعالىٰ فيه ما أوحىٰ.

وقد تصل النبوة إلى مَنْ خَصّه الله تعالىٰ بها بأن يبعث سبحانه وتعالىٰ واسطةً من عظيمِ خلقه من الملائكةِ إلىٰ مَنْ كَرّمه الله تعالىٰ، واصْطَفاه وخصّه بالوَحْي وفَضّله علىٰ مَنْ سواه.

وقد ظهرتْ لنبيّنا ومولانا محمد - ﷺ - قَبْلَ ظُهورِ نُبوءته علامات، وشَهِدَتْ له بأنّه نبيّ الله - سبحانه وتقدّس اسمه - دلائل وآيات.

كانت حليمةُ مرضعته[1] - ﷺ - بعد إذ رجعت به من مكة تخاف عليه أن يذهب مكاناً بعيداً، فغفلت عنه يوماً في الظَّهيرة، فخرجت تطلبُه فوجدته مع أخته رضيعته فقالت لهما:

في هٰذا الحَرّ كيف أنتما؟ قالت أخته - عليه الصلاة والسلام -: يا أماه ما وَجد أخي حَرّاً، رأيتُ غمامةً تظلّل عليه، إذا وقفَ وقفتْ وإذا سارَ سارَتْ حتىٰ انتهىٰ إلى هذا الموضع.

قالت لها أمّها: حقاً يا بُنَيّة؟

قالت: أي والله!

فكانت هٰذه من عَلامات النّبوة؛ لأن الغمامة لا تظل[2] إلا نبياً.

وقد قدّمنا آياتٍ ظاهرةً، وبراهينَ باهرةً كانت مصحوبة له في إبّان ولادته، وقَبْلَها وبَعْدَها، وكان - ﷺ - لا تُفارقه الآيات، ولا تُزايله من مولاه جلّ جلالهُ الألطاف والعنايات.

---

(١) الخصائص الكُبرى ١: ١٠٠.

(٢) في ب: لا تظلّل.

ولمّا خرج عَمُّه أبو طالب إلى الشّام[1] وكانَ معه النبيُّ ﷺ، وقد جبل الله سبحانه أبا طالب علىٰ غاية المحبّةِ لحبيبه، فكان لا يُفارقه فقال:

والله لأخرجنَّ بِهِ ولا يُفارقني ولا أُفارقه أبداً. وكان سِنّه المبارك عليه السلام تسعَ سِنين، وقيل أكثر من ذلك.

فلمّا خرَج به عمه، ونزلَ الرَّكْبُ بأَرْضِ الشّام وبها راهبٌ يقال له بَحِيْرا، في صومعةٍ له، وكان يعلمُ عِلم النصرانية ولم يزلْ في تلك الصومعة، وكان له كتابٌ يعلمُ به علامات النبوءة يتوارثونه كابراً عن كابرٍ[2]، وكان كثيراً ما تمرُّ به التجار، ولا ينزل إليهم ولا يكلّمهم حتىٰ كان ذلك العام.

فلمّا نزل الركب بإزائه، وقَرُبَ من صومعته، صنَع لهم طعاماً كثيراً.

وسبب ذلك أنه رأىٰ الغَمامة في الركب تظلل رسول الله ـ ﷺ ـ [١١٥/ب] من بين القوم، فلما نزلوا في ظل شجرة قريباً منه، نظر إلىٰ الغمامة ـ حتىٰ أظلّت الشجرة ـ ومالت أغصانُ الشجرة علىٰ نبيّ الله ـ ﷺ ـ حتّىٰ استظلَّ تحتها!

فلما رأى ذلك بَحِيرا نَزل من صومعته، وقد أمر بذلك الطّعام فَصُنِعَ، ثمّ أرسلَ إليهم إنّي صنعت إليكم طعاماً يا معشر قريش، وأحب أن تحضروه كلكم، صغيركم وكبيركم، عبدُكم وحُرُّكم.

---

(١) الخبر مستفيض في التواريخ والسير وكتب الخصائص والشمائل.
ـ وهو في الخصائص الكبرى ١: ١٤١ ـ ١٤٦.

(٢) الكابر: الكبير في المجد والشرف. يقال: ورث فلان المجد كابراً عن كابر.

فقال له رجل منهم: والله يا بحيرا إن لك اليوم لَشأناً، وما كنتَ تصنعُ هٰذا بنا، وقد كنّا نَمُرُّ بك كثيراً فما شأنك اليوم؟

فقال بَحِيرا: صَدقْت! قد كانَ ما تقول، ولكنكم ضِيْفَان وقد أحببت أن أُكرمكم، فَصنعت لكم طعاماً تأكلون منه كلكم، فاجتَمعُوا إليه، وتخلّفَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ لِصِغَرِ سِنّه، واستِحيائه، وحُسن خلقه.

فلما نظر بَحِيرا في القوم، ولم ير الصِّفة التي تُعْرَفُ بها الأنبياء الذين هُم في كتبهم فقال[1]:

يا معشرَ قُريش لا يتخلَّفَنّ منكم أحدٌ عن طعامي!

قالوا: يا بحيرا ما تخلّفَ عنك أحدٌ إلا غلام هو أصغَرُ القوم سِنّاً.

قال لهم: لا تَفْعَلُوا، ادْعُوه ليحضر هذا الطعام معكم.

فقال رجلٌ من قريش: هذا لؤمٌ منّا أن يتخَلّف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعامٍ من بيننا.

فقامَ إلىٰ رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ وجاء به، وأجلسه مع القوم.

فلمّا رأىٰ بحيرا النُّورَ السّاطع، والبدرَ اللاّمع جعل يلحَظُه لَحْظاً شديداً، وينظرُ إلىٰ أشياءَ مِن جسَده قد وَجدها من صِفته في كتابه، وعلمَ أنه يكون نبيّاً لربّه.

فلمّا فرَغ القومُ من طعامهم، وتفرّقوا، قام إليه بَحِيرا وقال له: يا غلام! أسألك بحق اللاّت والعُزّى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه ـ وإنما قال ذلك بحيرا لأنه سمع قومه يحلفون باللاّت والعُزّىٰ، وإنّ أنبياء الله

---

(١) هكذا في النسخ بإثبات الفاء. وحق العبارة أن تكون: .... قال:

تعالىٰ لا يحلفون بها، وإنما يعبدون مولاهم منذ خَلقهم، فَيُقْسِمُوْنَ باسمه الكريم، ويَتوكّلون علىٰ فَضْلِهِ العَظِيم. فأجابه نبيُّ الله ـ الطّاهر المطهر، صاحب القلب الأزهر، والنور الأنور ـ بقوله: لا تَسألني باللّات والعُزّى شيئاً فوالله ما أبغضتُ شيئاً قطّ بغضها[1].

فقال له بحيرا: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه.

قال النبي ـ ﷺ ـ [١١٦/أ] سَلْ عمّا بدا لك، فجعل بَحِيرا يسألُ عن أشياء وعن علاماتٍ عنده من حالِه ونَوْمِه وهَيئته وحركته وأُموره، ورَسُول الله ـ ﷺ ـ يُخبره ويُجيبه، فوافَق جوابُه ما عِنْدَ بَحِيْرا من العِلم في كتابه من صفاته.

ثم نظَر إلى ظهره الكريم ـ ﷺ ـ فرأىٰ خاتم النبوّة بين كتفيه علىٰ موضعِه من صفتِه التي عنده في كتابه فلما فرغ أقبلَ علىٰ عَمّه أبي طالب فقال له:

ما هٰذا الغُلام معك؟

فقال له: ابني

فقال: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً.

قال له: نعم هو ابنُ أخِي.

قال له بحيرا: فما فَعل أبوه؟

قال: مات وأمه حاملٌ به.

قال: صَدقت. فارجعْ إلىٰ بلدك بابنِ أخيك واحْذَرْ عليه من

---

(١) في ب: بُغضي لها.

اليَهُود، فوالله لئن رأوه، وعَرفوا منهُ ما عرفت ليبغنّهُ شَرّاً، فإنّه كائنٌ لابنِ أخيك هٰذا شأنٌ عظيم فارجعْ به إلى بلاده.

خرج به عمه أبو طالب سريعاً، حتىٰ أتىٰ به إلىٰ مكة، وأبقاه بها، حتىٰ فرغ من تجارته من الشام.

هذه رواية من طريق

وفي رواية من طريق أُخرىٰ أنَّ بَحِيرا لمّا رأىٰ من علامات النُّبوّة: الغمامة نَزل إلى الأرض، وأخذ يتخلّلهم[1]، حتىٰ جاء فأخذ بيد النبي - ﷺ - ثم قال لهم:

هذا سَيّدُ المُرسلين، هذا يبعثه الله رحمةً للعالمين. فقال له الأشياخ: ما علمك به؟

قال: إنكم حين أشرفتم علىٰ العقبة فلم يبقَ شجرٌ ولا حَجرٌ إلا خَرَّ لهُ ساجداً، ولا يسجدُ إلا لنبيّ.

وإني لأعرفهُ بخاتم النبّوة، أسفل من غُضروف كتفه مثل التّفاحة، ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما أتاهم به وكان نبي الله غائباً عنهم قال لهم:

أرسلُوا إليه، فأقبل عليه الصلاة والسلام وعليه غمامة تظلّه، فلمّا دَنا من القَوم وجَدهم قد سَبقوه إلىٰ فَيءِ الشجرة فلما جلسَ مال فيءُ الشجرة عليه وأظله - ﷺ -.

فقال لهم بحيرا: انظروا إلى فيء الشجرة قد فاء إليه ومال عليه.

---

(١) تخلّل القوم: دخل بينهم.

قال: فبينما بحيرا قائم يُناشدهم ألاّ يذهبوا به إلىٰ أرضِ الشّام، لأنّ الرومَ إنْ عرفوه بالصّفة التي في كتابهم يقتلوه، فالتفتَ بحيرا، وإذا بسبعة من الروم قد أقبلوا.

فقال لهم بحيرا: ما جاء بكم؟

قالوا: [١١٦/ب] إنّما جئنا لأنّ هٰذا النبي يخرج في هٰذا الشّهر، إلىٰ هٰذه الأرضِ، ولم يبقَ طريق إلاّ بعث إليه مَنْ يَطْلُبه. وإنّا بعثنا إليك، وإلىٰ طريقك.

قال لهم: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه، فَهل يستطيعُ أحَدٌ مِنَ النّاس رَدَّه؟ قالوا: لا! [فذكّرهمُ الله وما يجدون في الكتب من ذِكره وصفته وأنهم إن أجمعوا لِمَا أرادوا به لم يَخْلُصوا إليه؛ حتى عرفوا ما قال فصدقوه بِمَا قال][1]. وما زال بَحِيرا حتىٰ رَدّه مع عمه أبي طالب، وأوصاه عليه.

وقد كانت هٰذه الغمامةُ تُظِلُّ نبيّنا ـ ﷺ ـ من هجير الشّمسِ عنايةً من المولىٰ ـ جلّ جلاله ـ به، وبياناً عند الخلائقِ لِقَدْرِه.

وقد أخبر مَيْسَرة[2] غلام خديجة ـ رضي الله عنها ـ بذلك أيضاً لمّا سافر معه ـ ﷺ ـ وقد نزل تحت الشّجرة، قريباً من صَومعة راهبٍ هناك، وسأل مَيسرةَ عنه ـ عليه الصّلاة والسلام ـ فقال له: مَنْ هذا؟

قال له: رجلٌ من قريش.

فقال له: هٰذه الشّجرة لا ينزلُ تَحْتَها إلاّ نبي.

---

(١) ما بين معقوفتين من ب. وفي: أ، و؛ ج: قالوا: لا؛ قال لهم فتابعوه.

(٢) الخصائص الكبرى: ١٥٤ ـ ١٥٥ يروي عن ابن إسحاق.

وكانَ ميسرة يرىٰ إذا اشتدّ الحرّ ملكَين يُظلاّنه مِنَ الشّمس ـ ﷺ ـ.

ورأت خَدِيجَةُ ـ رضي الله عنها ـ لمّا أنْ قدم عليه الصلاة والسلام ـ وهو راكبٌ علىٰ بعيره، وكانت خديجة في عليّة لها ومعها نساء، فرأت تلك الكرامة من الله تعالىٰ، ورأتها النساء معها، ولذا قال البوصيري ـ رحمه الله[1]:

جاءتْ لدعوتهِ الأشجارُ ساجدةً ... تمشي إليه علىٰ ساقٍ بلا قدمِ[2]
كأنّما سَطَّرت سَطراً لِمَا كَتبَتْ ... فُروعها من بديع الخط في اللَّقمِ
مثلَ الغَمامة أنّى سار سائرةً ... تقيهِ حرّ وطيسٍ للهجيرِ حَمِ

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ نبيّنا محمداً ـ ﷺ ـ نبيٌّ أن يكثِرَ النّظَر في علاماتِ نُبوّته، وحُسن طريقتهِ وسيرتهِ ليزدادَ في قلب المؤمن التّصديقُ به.

وقد كانت خديجة رضي الله عنها تكثرُ من الحديث على حال رسول الله ﷺ، وتتحدث بعجائب حديثه، وتخبر ابن عمّها ورقة بن نوفل ليزيد تصديقها ويتقوّى حبّها.

وقد قالت له: إني رأيت الملكين يظلاّنهِ، فقال لها ورقة: لئن كان حقاً ما تقولين يا خديجة إن محمداً لنبيّ هذه الأمة، وقد عرفت أنّه كائن لهذه الأمة نبيٌّ مُنتظرٌ، هٰذا زَمانهُ.

---

(١) ديوان البوصيري: ٢٤٣.
(٢) من بحر البسيط.

وأنشدوا في ذلك أشعاراً فيما يُروىٰ عنه[1] يقول فيها [١١٧/أ].

أتـبـكـرُ أم أنـتَ الـعـشـيّـة رائـحُ ... وفي الصّدر من إضمارِكَ الحُزْنَ قادحُ[2]
بـفـرقـةِ قـومٍ لا أُحِـبُّ فـراقَـهُـمْ ... كـأنّـكَ عـنـهـمْ بـعـد يـومـيـنِ نـازحُ
وأخـبـار صـدقٍ خـبّـرت عـن مـحـمّـدٍ ... يُـخَـبّـرهـا عـنـه إذا غـابَ نـاصـحُ
بـأنّ ابـن عـبـد الله أحـمـدَ مـرسـلٌ ... إلىٰ كلّ من ضُمّتْ عليه الأَباطحُ[3]
وظـنّـي بـه أن سـوفَ يُـبـعَـثُ صـادقـاً ... كـمـا أُرسـل الـعَـبْـدانِ: هـودٌ وصـالـحُ

فصل

من آدابِ مَنْ عَلِمَ أنّ نبيّنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ نبيٌّ أن يعلمَ ما يجبُ عَليه في اعتقادِه في نبيّه وما يَستحيل عليه وما يجوز في أفعاله.

وكذلك ما يجب عليه في حق[4] أنبياء الله سبحانه من عصمتهم من جميع المُخالفات، صغيرها وكبيرها، وتميزهم عن جِنسهم في جميع

---

(١) ذكرت كتب التاريخ شيئاً من الشعر أنشده ورقة بن نوفل. وقد نقل ابن سيّد الناس في (منح المدح): ٣٢٧ ـ ٣٣١ شيئاً من شعره.

(٢) من بحر الطويل.
ـ ينظر مدح المدح: ٣٣٠.
ـ وقوله: «وفي الصدر من إضمارك الحزن قادح» يقال: قدح الشيء في صدره أي أثّرَ فيه.

(٣) الأباطح جمع الأبطح وهو في اللغة: مسيل واسعٌ فيه حصى الوادي الليّن وترابه ممّا جرفته السّيول.
ـ والمراد كلّ مكان في الأرض، لأنّها لا تخلو من الوديان ومسايلها على اختلاف بقاعها.

(٤) في ب: في حق جميع أنبياء الله.

الحالات، وأنّ كلّ أفعالهم، وحركاتهم، وسكناتهم إنما هي قُرباتٌ لمولاهم.

ومن آداب مَن عَلِمَ أنه نبيُّ الله أن يتأدّبَ عند سماع ما يُنقل عنه من حديث وصفات، ويستحضرَ كأنّه حيّ وهو بين يديه يسمعُ كلامه، ويُبصِرُ شخصه العظيم كأنه أمامه، فلا يقطعُ حديثه ـ عليه الصلاة والسلام ـ تأدّباً معه، ولا يرفعُ صوته كرامة[1] له.

وكانَ مالك ـ رضي الله عنه ـ مع أبي جعفر أمير المؤمنين يتكلّم معه في مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ فَرفع صوته، فقال له: يا أميرَ المُؤمنين لا تَرفع صوتَك في هذا المسجد فإنّ الله تعالىٰ أدّبَ أقواماً فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجرات: ٤٩/٢] ومدح قوماً فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/٣].

وذمّ قوماً بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤٩/٤].

وإن حرمته ـ ﷺ ـ مَيْتاً، كَحُرمتهِ عند الله حَيّاً، فاسْتكان لها أبُو جَعفر ـ رحمه الله ـ ثم قال لمالك: يا أبا عبد الله: أأستقبلُ القِبلة وأَدْعُو، أم أستقبلُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ؟

فقال له مالك ـ رضي الله عنه ـ وأينَ تصرفُ وَجْهَك[2] عنه، وهو وسيلَتُكَ، ووسيلةُ أبيكَ آدم ـ عليه السلام ـ يوم القيامة؟ بل استقبِلْه، واستشفعْ به فيشفّعك الله تعالىٰ، قال الله العظيم [١١٧/ب] في كتابه

---

(١) في ب: حُرمةً له.

(٢) في ب: ولِمَ تصرف وجهك عنه..

الـكـريـم ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ٦٤].

فَتعلّموا أيّها المحبّون هٰذه الآداب العظيمة، والأخلاق الكريمة، ممّن عَصمه الله تعالىٰ وشرفه، وخصه بالنبوءة، وعرّفه واصطفاه علىٰ سائر خَلْقِه ورفَعه وأتحفه.

وانظر إلىٰ مالك بن أنس ـ رضي الله عنه ـ في كلامه وأدبه مع نبيّ الله وحبيبه، وما نقل من الإجلال والهيبة لهذا النبي العظيم في قلوب المؤمنين، وما لأصحابِهِ الكرام له من التّعظيم، وللصّادق من المُحِبّين.

قال مُصعب بن عبد الله، كان مالك إذا ذُكر عنده النبيّ ـ ﷺ ـ يتغيّرُ لونُه، وينحني حتىٰ يصعبَ ذلك علىٰ جُلَسائه فقيل له يوماً في ذلك فقال لهم: لو رأيتمُ ما رأيتُ ما أنكرتُم عليّ ما تقولون، لقد كنت أرىٰ محمّد بن المنكدر[1]، وكان سيّد القُرّاء لا تكادُ تسألهُ عن حديثٍ إلاّ يبكي حتّىٰ تَرحمه.

ولقد كنتُ أرىٰ جعفرَ بنَ محمّد[2]، وكان كثيرَ التبسّم فإذا ذُكر عنده النبيُّ ـ ﷺ ـ اصفرّ لونهُ. وما رأيتُه يحدّثُ عن رسول الله ـ ﷺ ـ إلا علىٰ طَهارة.

ولقد كنت أختلفُ إليه زماناً فمَا أراه إلا علىٰ ثلاث خِصال: إمّا مصلياً أو صامتاً أو يَقرأ القرآن؛ ولا يتكلم فيما لا يعنيه أبداً. وكان من العُلماء والعابدين الّذين يَخْشَون الله تعالى.

(١) محمد بن المنكدر القرشي التيمي (٥٤ ـ ١٣٠) زاهد من رجال الحديث من أهل المدينة. قال فيه ابن عيينة: ابن المنكدر من معادن الصدق.

(٢) هو جعفر الصادق؛ وقد سبقت الإشارة إليه.

ولقد كانَ عبدُ الرّحْمٰن بن القَاسِم[1] يذكرُ النبيَّ ـ ﷺ ـ فَيُنْظَرُ إلىٰ لونهِ كأنّه نُزِفَ من الدّم هيبةً لرسول الله ـ ﷺ ـ.

ولقد كنتُ آتي عامر بن عبد الله بن الزبير، فإذا ذُكِرَ عنده النبيُّ ـ ﷺ ـ بكىٰ حتىٰ لا تبقىٰ في عينيه دُموع.

ولقد رأيتُ الزُّهري إذا ذُكِرَ عنده النبيُّ ـ ﷺ ـ فكأنّه ما عرفَكَ وما عرفته!

ولقد رأيتُ سُفيان بن سُلَيم فإذا ذكر النبي ـ ﷺ ـ بكىٰ حتّىٰ يَقومَ النّاسُ عنه.

وعن قتادة أنه كان إذا ذُكر عنده النبيُّ ـ ﷺ ـ أخَذه العويل.

يا أخي: هٰذه علامةُ المحبّةِ فهل رأيتَها، ولمّا رأيتَ التعظيمَ والمهابةَ لحبيب الله، ونبيّه، هل من نفسِك شاهَدْتَها؟ [١١٨/أ] ونحنُ ندّعي المحبة في نبي الله ـ ﷺ ـ وما تظهر عَلينا آثارها. ومن عَلامة المحبّة[2] الخُشوع عند ذكره، والهيبةُ والوقارُ عند سَماعِ لفظه، والسكوت عند ذكرِ حديثِهِ ومذاكرةِ قولِهِ، ومَودّة فدائه بالنّفس ممّا يصيبه، وحزن القلب لفراقهِ، بل انفلاق الكبد بالشوق إليه، وإلىٰ تلاقيه.

واسمعْ قولَ سيّدة نساء أهل الجنة، وبِنتِ خيرِ هٰذه الأُمّة، فاطمة

---

(١) أبو عبد الله عبد الرحمن بن القاسم العتقي المصري (١٣٢ ـ ١٩١) عُرف بابن القاسم. فقيه جمع بين الزهد والعلم. تفقه بالإمام مالك ونظرائه. له (المدونة) وهي مشهورة، مطبوعة.

(٢) عقد الغزالي في الإحياء باباً في المحبّة والشوق والأنس، جاء في خاتمته: قال سفيان: المحبة اتباع رسول الله ﷺ (٤: ٣٦٠). وينظر الشفا للقاضي عياض فقد عقد فصلاً في علامة محبته ﷺ ٥٧١/١.

البَتُول ابنة النبيّ الرّسُول[1]، حين فارقَتْ حبيب رب العالمين، وزين العارفين، وسيد الخلائق أجمعين[2]:

ماذا على من شمّ تُربة أحمد | ألاّ يشم مدَىٰ الزمان غواليا[3]
صُبّت عليّ مصائب لو أنّها | صُبّتْ علىٰ الأيام عُدْنَ لياليا!

فأنطقَها الله ببيتين هما لسانُ الحال لجميعِ العالمين، في فراقهم لسيّد المُرسلين، فما من محبٌ صادق المحبّة في نبيّه إلا وهو قائل، إنّ هذه المُصيبة العظيمة قد صبّت علىٰ الأيّام والليالي؛ وذهبتْ معها العُقول، وجَرت منها الدّموع كالدّماء لا كالّلآلي. ورأيت لها رضي الله عنها أيضاً:

أمسىٰ بخدّي للدموعِ رسومُ | أسفاً عليك وفي الفؤاد كلومُ[4]
لا عتْبَ في حُزني عليكَ لوَ انّه | كَانَ البكاءُ بمقلتيَّ يدومُ
والصّبرُ يُحْمَدُ في المواطنِ كُلّها | إلاّ عليكَ فإنّهُ مَذْمُومُ

وفيه يجبُ أن يقول كُلُّ محبٌ له - ﷺ - وشرّف وكرّم ومَجّد وعظم:

رايتُك يا زَيْنَ العَشِيرةِ مُلْحَداً | ومن أيْنَ لي صَبْرٌ عَلَيْكَ جميلُ
سيبكيكَ منّي عَبرةٌ تَعْرِفُ الهوىٰ | وتتبعها رُوحي وذاك قليلُ!

---

(١) قال ابن سيّد الناس في منح المدح: ٣٥٨ «ومما يُنسب لعليّ أو فاطمة رضي الله عنهما» وسرد البيتين.
(٢) من بحر الكامل.
(٣) الغوالي جمع الغالية: نوع من الطيب (وهو أخلاط من مسك وعنبر وبان تغلى على النار).
(٤) من بحر الكامل.

وبالجملة: فمن تعظيم شعائر الله تعالىٰ تعظيم أنبياء الله خُصوصاً من فضله الله علىٰ سائرِ أنبيائه، وخَصّه بالكرامةِ من بين سائرِ أَصْفِيَائه.

فَتعلَّمُوا الآدابَ العظيمة ـ رحمكم الله ـ وزادَ في حُبّي وحبّكم لنبي الله من أصحابِهِ الكرام، السّادة الأعلام كيفَ كانُوا[1] يخفضون أصواتهم عند رسول الله، وما يُحِدُّوْنَ النّظر إليه تعظيماً له ومهابةً لرفيع قدره يتبركون بآثاره، ويتلذّذون بأخباره؛ إذا[2] توضّأ ابتدروا وضوءَهُ، وكادُوا يقتتلون عليه [١١٨/ب].

ولا يبصق بُصَاقاً، ولا يَتنخّمُ نُخامةً إلا تَلَقَّوْها بأَكُفّهم فدلكوا بها وُجوههم وأجسادهم، ولا تسقط منه شعرة إلاّ ابتدروها فأخذوها وإذا أمرهم بأمرهم امْتَثلوا أمره، وإذا نَهاهم عن شيءٍ انتهوا عنه، فَما كان أحدٌ يعظّم أحداً من المُلوك ولا من غَيرها مِثل ما كان أصحابُ محمّد يعظمونه هيبةً وإجلالاً له.

وكذا كانت سيرةُ السّلفِ الصّالح والأئمّة الماضين، زادنا الله تعالىٰ حُبّاً إلى حُبّنا، وتعظيماً إلىٰ تعظيمنا، وضاعف ودّه في قُلوبنا، وبَلّغنا به مرغوبنا. إنّه على ما يشاءُ قدير، وبالإجابة جَدِير.

---

(١) عقد القاضي في الشفا فصلاً: في عادة الصحابة في تعظيمه ﷺ وتوقيره وإجلاله ٢: ٥٩١. والمؤلف رحمه الله ينظر إلى ما أورده عياض في كتابه.

(٢) هذا من كلام عروة بن مسعود وكان وافد قريش على النبي ﷺ في صلح الحديبية، وهو يصف محبة أصحاب رسول الله ﷺ له وتوقيرهم إياه. أخبر قريشاً بذلك وتعجب من تلك المحبّة والطاعة التي لا تقارن بما رآه من طاعة الناس للملوك وكسرى وقيصرا (الشفا ٢: ٥٩٣).

باب
في معنىٰ اسمه
النبي الأمي (١)
صلىٰ الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

النبيُّ الأمّيُّ اسم من أسمائه ـ عليه أفضلُ الصلاة والسلام ـ ورد بذلك القرآن، قال الله العظيم في كتابه الكريم ﴿ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ٧/١٥٧].

وقد كانت هذه الصّفة عَلماً علىٰ سيّدنا محمد ـ ﷺ ـ في التّوارة والإنجيل، والكُتب السّابقة (عَلِمَ صِدْقَ ذٰلك، وصَدّقَ بهِ مَنْ خَصّه الله تعالىٰ مِن أهل القِيل).

ومعنىٰ النبيّ الأُمّي: أي النبيّ الذي خلَقه الله تعالىٰ علىٰ كمالِه في عِلمه وفَضْله، وغزارةِ فَهمه مع أنّه لم يَصحب عالماً، ولم يكنْ عارفاً بالكتابة باليَدِ ولا بالقراءَةِ علىٰ أحدٍ من البَشر، فإنّه لم يخالِطْ أحداً من أهلِ الكتاب من لدن خلَقه الله تعالىٰ، ولم يقرأ علىٰ أحدٍ، ولا عُلِمَت له خَلوةٌ بحبرٍ ولا غيرِه، ولا انتسابٌ إليه، ولا سُمِعَ ذٰلك في زمانٍ قَطّ عنه ـ عليه الصّلاة والسّلام مع شدّة بحثِ قومِهِ عليه، وكذٰلك غيرهم

---

(١) ورد شرح اسمه ﷺ: النبي الأمي في الشفا ١: ٣١٩ وسبل الهدى والرشاد ١: ٥٣٧ والمواهب اللدنية ١: ١٩٥.
وفي الرّياض الأنيقة: النبيّ: ٢٦١ والأُمّي: ١١٧.

ممّن عانده، وحاذه[1] وكابره.

فكان لا يقرأ كتاباً ولا يَخُطّ بيمينه خَطّاً، حَقّق ذٰلك في نعته العالمون كما قال جَلّ جلاله في كتابه العزيز في وصفه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٨، ٤٩].

فكانت هذه حالَه[2] وطريقَتَه في مشهور الأخبار ومتّفق الآثار، ومع هٰذا قد أتى الخلائق بالعلوم التي عجز عنها الأوّلون والآخرون من علوم أوّلهم وآخرهم [١١٩/أ] كما كان في قُلوب الأحبار من الأخبار، وكما في نَصّ كُتبهم، فَعلِمَ المؤمنون بذلك أنّ هٰذا الخبر الصادق منه إنّما هو عن الله تعالىٰ لأنّه لا ينطقُ عن الهَوىٰ، وكان عندَ الله وجيهاً كريماً.

وأنّ المولىٰ جَلّ جلالُه عَلّمه ما لم يكنْ يعلمُ، وكان فضل الله عليه عظيماً؛ وأنّ نبوءته ليست مكتسبةً له، ولا سببَ له فيها، بل ربُّه ـ جلّ جلالُهُ ـ مَنَّ عليه بالمواهبِ الربّانية، والعلوم النّافعة اللَّدُنيّة فكان له الفَضْلُ بها[3].

تبـارَكَ الله مـا وَحْـيٌ بـمـكـتَـسَـبٍ   ولا نـبـيٌّ عـلـىٰ غَـيْـبٍ بِـمُـتَّـهَـمِ

وقال ـ ﷺ ـ[4]: «إنّا أُمّة أُميّة لا نَحْسُب ولا نَكْتُب»، وجَعل الله ذٰلك دليلاً فيه علىٰ نُبوءته وشاهداً علىٰ رسالته؛ فإنه إذا كانَ أمرهُ معلوماً

---

(١) حاذه (وشاذه): غاضبه، وخالفه.

(٢) وكانت الأُميّة في حقه ﷺ معجزة، وإن كانت في حق غيره ليست كذلك (سبل الهدى والرشاد ١ : ٥٣٧).

(٣) البيت من بردة البوصيري (ديوانه: ٢٤٤).

(٤) من حديث في البخاري ٣: ٣٥ ومسلم باب وجوب صوم رمضان (١٥) والإمام

عند الخَلق، وأنه لم يقرأ كتاباً عندهم، ولم يَخُطّ بيمينه كتاباً مخافة النسيان، ولا تُعْلَمُ له قراءةٌ ولا مُخالَطةٌ، لأحَدٍ من النّاس، ولا تَعَلُّمٌ له ولا تِبيان[1]!

وكانَ في غاية المَعرفة بأمورِ شَريعته، وقوانين أدلّته، وسياستِهِ عبيدَ الله ومصالحَ أمّته، ومعرفته في حفظه بما جرىٰ للأمم قَبله، وقصص الرُّسل والأنبياء معها، والقُرون الماضية من لَدُن آدم عليه السّلام إلىٰ زمانه - ﷺ - وحفظِ شرائعهم وكُتبِهِم، ووعي سيرتهم، وسَرد أيّامِهم وصفة أعيانهم، واختلاف آرائهم والمعرفة بمُدَدهم وأعمارهم، ومعارضة كل من أهلِ الكتاب بما في كُتبهم، وإعلامهم بأسرارهم ومخبَّآت علُومهم، وأخبارهم، بما كَتمُوا من ذٰلك وما غيّروه وما احتوىٰ عليه - ﷺ - من لُغاتِ العَرب ومعانيها ومعرفة غرائبِ الألفاظ والإحاطة بضروبها.

وما أعطاه الله تعالىٰ من جَوامع الكَلِم[2]، وما خصّه به من بَدائع الحِكَم. كلّ ذلكَ قد دَلَّ علىٰ نبوءة مَنْ أرادَ الله به السّعادة، وبَصّره، ورفَع ذِكره، وشرَح بكلامهِ الصُّدور، وأظهر به الدّين، ويَسّر أَمْرَه.

وأما مَنْ أعمىٰ الله بصيرته وبَصره، فكم من آيةٍ شرد عنها، وظنّها سِحْراً لا دليلاً، فكانَ في هٰذه أعمىٰ فهو في الآخرة أعمىٰ وأضلُّ

= أحمد، وأخرجه النسائي في كتاب الصيام برقم ٢١٤٢، وهو في كنز العمال برقم ٢٣٧٨٦ وفيه: إنا أُمة أميّة لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا وعقد الإبهام في الثالثة. والشهر هكذا وهكذا وهكذا يعني مرة تسعة وعشرين ومرة ثلاثين. قال الإمام النوّوي «قال العلماء: أميّة أي باقون على ما ولدتنا عليه أمهاتنا...».

(١) يعني ما يتعلّق بالتعلم والقراءة والكتابة: سواء في ذٰلك اللّغة العربيّة وغيرها من اللّغات.

(٢) من الحديث: أوتيت جوامع الكلم. وينظر كلام القاضي عياض في الشفا ١: ١٠١.

سبيلاً.

فكانَ كونُه أُمّياً مع ما أتىٰ به من غَرائب العُلوم ودقائق الفُهوم دليلاً قطعيًا علىٰ أنّه نبيُّ الله المَلِك المَعْبُود، والرسول [١١٩/ب] الذي اصطفاه الله تعالى، وصَيّره سيد الوجود[١].

قال أبو ذَرّ ـ رضي الله عنه ـ تركنا رسول الله ـ ﷺ على بصيرةٍ وما تحرّك طائرٌ في السّماء إلاّ ذكرنا منه عِلماً. أشار ـ رضي الله عنه ـ أنّ هٰذا النبيّ الأُمّي علىٰ ما عُلِمَ من حاله قد ملأ الوُجود بالعُلوم الغيبية، وشَفى الصُّدور بالغيوبِ الربّانيّة.

وقال حُذيفة ـ رضي الله عنه ـ، قام فينا رسول الله ـ ﷺ ـ مقاماً، فما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلىٰ يوم القيامة إلا حدثه، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه قد علمه أصحابي هؤلاء. وإنّه ليكونُ منه الشّيءُ فأعرفُه فأذكرهُ كما يذكُر الرّجل وَجْهَ الرَّجُل إذا غابَ عَنه، ثم إذا رآه عَرفه.

وقد ظهرَ من حاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ في إخباراته وعُلومه ما قَطع به كلُّ موفَّقٍ أنّه نبي حقاً[٢]، ويضطرّه ذلك إلىٰ أن يُؤمن به ويصدّقه يقيناً وصدقاً كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [٢٨/٥٦].

لما عمي علىٰ قريش أمرُ المصطفى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بَعثُوا النَّضْرَ بنَ الحارث بن كلدة، وبَعثوا معه عُقبة بنَ أبي مُعَيط إلىٰ أحبارِ اليهود وقالوا لهما سَلاهُم عن محمّد، وصِفَا لليهود صِفَتَهُ وأَخْبِرَاهم

---

(١) في ب: سرّ الوجود.

(٢) في ب: نبيّ الله حقاً.

بقوله فإنّهم يعلمونَ الكتب[1]، وصفةَ الأنبياء، وعندهم عِلْمُ أهلِ الكتاب الأوّل[2].

فخَرجا حتىٰ قَدِما المدينةَ وأَخْبَرا اليَهُود بقوله وسألاهم عنه، فقالت الأحبار: سَلُوه عن ثلاثة فإنْ أخبركم بهنّ فهو نبي مرسل، وإن لم يفعلْ فالرجلُ مُتَقَوِّل.

- سلوه عن فتيةٍ ذَهبُوا في الدّهر الأوّل وما كانَ من أمرِهم، فإنّه قد كان لهم حديثٌ عجيب.

- وسَلُوه عن رجلٍ طَوّافٍ في البلاد قد بلغ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها ما كان من نبأه وخبره.

- وسَلُوه عن الرُّوح فإذا أخبركم بذٰلك فاتّبِعُوه فإنّه نبي حقّاً، وإن لم يفعل فالرّجُل مُتَقَوِّل.

فأقبل النضر وعُقبة، وقالا لقريش: يا معشرَ العرب قد جئناكم بما يفرق بيننا وبين محمّدا

فجاؤوا رسول الله - ﷺ - وسألوه[3]، فقال عليه الصلاة والسلام: أُخبركم إن شاء الله، فإنه - ﷺ - لا يعلَمُ إلا ما علّمه ربه عزّ وجَلّ،

---

(١) في ب: يعلمون الكتاب.

(٢) السيرة النبوية (ابن هشام) ١: ٣٠٠ - ٣١١.

- وفيه «فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء» وكان عقبة يؤذي رسول الله ﷺ ويزعم أنه يأتي بأساطير الأوّلين. قال أهل التفسير إنه نزل فيه قوله تعالى: ﴿إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾.

(٣) في أسباب النزول أن جبريل عليه السلام احتبس عن النبي ﷺ حين سأله قومه عن قصة أهل الكهف وذي القرنين والروح، ولم يدر ما يجيبهم، ورجا أن يأتيه جبريل بجواب ما سألوا عنه. قال عكرمة فأبطأ عليه أربعين يوماً (وقيل غير ذلك من العدد)

فانصرفوا.

فمكثَ رسول الله - ﷺ - خمسَ عشرةَ ليلةً لم ينزلْ عليه وحي، ولم يأتِهِ جِبريل، حتَّىٰ أرْجفَ أهلُ مكّة واعتَقَدوا أنهم [١٢٠/أ] عَجّزوه؛ فَحزِنَ رسولُ الله - ﷺ - وشقّ عليه ذلك.

فجاءه النّصر والفَرج من ربّه عزّ وجل، فرأىٰ جبريل - عليه السلام - فقال له - ﷺ -: لقد احتبستَ عنّي يا جبريل، فقال له جبريلُ - عليه السّلام -:

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ١٩/ ٦٤ - ٦٥].

ثم أنزل الله تعالىٰ عليه سورةَ الكهف، وذكر فيها الفتيةَ الّذين ذَهبُوا وهم أصحابُ الكهف، وذكرَ الرّجُلَ الطوّاف وهو ذُو القَرنين، وذكرَ الجواب عن الرُوح بقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٨٥].

فهلْ رأيتُم دليلاً أَظْهَر مِن هٰذا الدّليل، وطريقاً يدلّ علىٰ النّبوءة مثلَ هذا المنهجِ الواضحِ السّبيل، في كونه - عليه الصلاة والسلام، معلومٌ صِدْقُه وأمانَتُه عندهم، وأنّه أمّي لم يقرأ[1]، ولم يُدارِسْ أحَداً من أهل الكتاب، ولم يُخالط أحَداً منهم.

= فقال النبي ﷺ: أبطأت عليّ حتى ساء ظني واشتقت إليك فقال جبريل عليه السلام إني كنت أشوق ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت وإذا حُبست احتبست فنزلت الآية: ﴿وما نتنزل إلا بأمر ربك...﴾. تفسير القرطبي ١١: ١٢٨ - ١٢٩.

(١) في ب: لم يدرس ولم يمارس أحداً.

وقد احتَاجُوا إلىٰ السؤال عن حاله فبين لهم اليهود علامة من علامات الأنبياء، ودليلاً ظاهراً من أدلّةِ الرُسل الأصفياء، فأخْبرَهم بها عن أَحسن حال، وأكملِ بَيان، وإنجاز وَعد، وحُسن بلاغة، واختصار تبيان.

وجمع في قصّة أصحاب الكهفِ التي لا يَعْلَمُهَا إلاّ خواصُّ أفراد الأحبار، وقصّة ذي القرنين التي هي معلومة في كتبهم، وأخبرهم بها بأتمّ إخبار، ومع هذا فكأنه يُنادي الموتىٰ: آذانٌ صمّت عن حُجّةٍ بيّنة، ومحجّة مُستقيمة، لا ترىٰ فيها عِوَجاً ولا أَمْتاً، وقلوبٌ خاليةٌ مِن التّوفيق، وقد مُلئت حَسداً وغِلاّ وحقداً ومَقْتاً:

ونار لو نفختَ لها أَضاءتْ ... ولكنْ ضاع نَفْخُكَ في الرّمَادِ[1]
لقد أسمعتَ لو ناديت حَيّاً ... ولكنْ لا حياةَ لِمَنْ تُنادي!

فيا حسرةَ مَنْ فاته التّصديقُ بنبوّته، ويا شقوةَ[2] من عَمِيَتْ بصيرَتُه حتىٰ كذّب برسالته، ويا ويْلَ الجاحد والمعاند وقد حَقّت له الحقائق، وظهرَت له أنوارُ نبوءته، وشاهد برهانه الصادق.

فَصِفاتهُ هي الصّفات، وآياتُه هي العلامات ومعجزاتُه هي الباهرات[3] [١٢٠/ب].

---

(١) من بحر الوافر. والشعر متنازع النسبة؛ يُنسب لعمرو بن معديكرب وعبد الرحمن بن الحكم، ويُذكر معه بيت قبله.
ولو ناراً نفخت بها أضاءت ... ولكن أنت تنفخ في رمادِ

(٢) في ب: ويا خسارة.

(٣) الشعر لحسان بن ثابت.
- وهو في السيرة ٤: ٣١٧ - ٣١٩.

يدلّ علىٰ الرَّحْمٰن من يهتدي به ... وينقذُ من هَوْل الخَزايا ويرشدُ[1]
إمامٌ لهمْ يهديهمُ الحقّ جاهداً ... معلّمُ صِدْقٍ إنْ يُطِيْعُوهُ يَسْعَدُوا
عَفُوٌّ عن الزّلاتِ يَقْبَلُ عُذْرَهُم ... وإن يُحْسِنُوا فالله بالخَيْرِ أجْوَدُ
وإن جاءَ أمراً لا يطيقون حمْلَهُ ... فمن عنده تيسيرُ ما يتشدّدُ[2]
عزيزٌ عليه أن يصدّوا عن الهُدىٰ ... حريصٌ علىٰ أن يستقيمُوا ويَهْتَدُوا[3]
عطوفٌ عليهم ليسَ يثني جناحَهُ ... إلىٰ كنَفٍ يَحْنُو عليهمْ ويَمْهَدُ[4]
عليهِ تحيّاتٌ منَ الله رَبِّنا ... وأزكىٰ صلاةٍ لا تَزالُ تَجَدَّدُ

فصل

من آدابِ مَنْ عَلِمَ أنّ نبينا ـ ﷺ ـ نبيٌّ أُمّيٌّ، وأنّ ذلك زيادةٌ في كماله، وصدّق بذلك وآمنَ به إيماناً مُرضياً أن يعلمَ أنّ وصف الأُميّة فيه كمال، وخصّه مولاه بذلك لما فِيه من الإكرام والإفضال، لبيانِ صِدقه في مُعجزاته التي خصَّه الله بها الكبيرُ المُتَعال.

ويجبُ في حقّ المُريد أنْ يكونَ عالماً أنّ الله تعالىٰ يهبُ العِلم لمن يشاءُ، كيفَ يشاء من أوليائه وأصفيائه وأنّ الفتح لا يتوقّف علىٰ الرّواية، ولا حصول الدّراية. فلا تستغرب علماً فتح الله به علىٰ مَن لم تظهرْ قراءته من أوليائه، ولا يعترض علىٰ ذلك أحدٌ من أصفيائه.

فإذا شاهدتَ وليّاً من أوليائه واقفاً عند الحُدود، مُشتغلاً بعبادةِ الملكِ المَعْبُود، فتعلّمْ أنّ الله تعالىٰ نصبَ له باب الفُتوحات، وأوقَفه

---

(١) من بحر الطويل.
(٢) وروي: وإن ناب أمر لم يقوموا بحمله.
(٣) وروي: عزيز عليه أن يجوروا عن الهدى.
(٤) وروي عطوفٌ عليهم لا يثنيّ جناحه.

بالفَتْحِ عليهِ من العلوم اللّدُنيّات، فإنّ النبيّ - ﷺ - قال[1]: «مَنْ عَمِل بما عَلِم أورثه الله علم ما لم يعلم».

ولا تقل[2]: كيف جاء هذا العلم لفلان وما قرأ وما دَرى؟ لأنّ العلم إنما هو نورٌ يقذفهُ الله تعالىٰ في قلبِ من يشاء من عباده، وخواصّ أحبّائِه.

كان الشافعيّ - رضي الله عنه - مع غَزارةِ علمه وفهمه تُشكل عليه أمورٌ في دقائق العُلوم، وأسرار مَعاني الفُهوم فكان يأتي إلىٰ شَيبان الراعي يسألُه عن الّذي أشكل عليه[3]، ويبصره بما جاء به إليه، ويجلس للتعلم بين يديه.

فقيل له: يا إمام! أتجلسُ بين يدي هذا الرجل؟ فقال لهم: هذا الرجل الذي تنظرون[4]: عنده من الأسرار [١٢١/أ]، ودقائق الأخبار ما ليس عندي، تشكل علي أمور كثيرة من الأوقات ويذهل عني الفهم في بيان تلك المشكلات، فيفتح الله عليّ بسببه، وجُلوسي بين يديه.

وكان أحمدُ بنُ حَنبل - رضي الله عنه - مع علمه وزُهده وورَعِهِ وفَهمه - ذاتَ يوم جالساً مع شيخه الشّافعي - رحمه الله - فقال له: يا أُستاذ، إني أقُوم إلىٰ شيبان وأساله.

فقال: يا أحمد إياك وإياه! فما زال يكرّر عليه الكلامَ حتّىٰ قام إليه فوجَده جالساً وعليه كِساء، وقَد أدخل رأسُه تحتها ثم سَلم عليه وقال له:

---

(١) في تفسير القرطبي ١٣/ ٣٦٤: من عمل بما علم علمه الله علم ما لم يعلم.
(٢) في أ: يقول، وفي ب: يقال.
(٣) في ب: يشكل عليه.
(٤) في أ: الذي تظنّون، وفي ب: اللذي تنظرون فيه.

أرأيت لو أن رجلاً صلىٰ الظهر خمس ركعات ناسياً ما الذي يصنع؟

فقال له: أمّا علىٰ مذهبكم فيسجدُ بعدَ السلام، لأنه قد زادَ في الصّلاة، وأمّا علىٰ مَذهبنا فإنّه يلزَمُه الأدبُ، لأنّ المصلّي لا يغفلُ عن مَولاه، وكيفَ يغفلُ عنه وهو مُنَاج له، ومراقبهُ؟ فخرّ أحمد مغشياً عليه لما أن سمع كلامه، ثم أفاق، فقالَ له:

أرأيتَ لو أنّ رجلاً كان عنده أربعون شاةً ما الذي يلزمُه فيها؟ فقال له: علىٰ مذهبنا أو علىٰ مذهبكم؟

فقال: أوَ مذهبان هما؟

فقال له: نعم!

أمّا علىٰ مذهبكم فيلزَمُه شاةٌ واحدة!

وأمّا علىٰ مذهبنا فلا مال له، فإنّ المال مالُ الله فيخرج عنها لله تعالى كلّها.

فانظروا ـ رحمكمُ الله، وغفرَ لكم ـ أحوالَ هٰذه الطائفة المباركة، وإياكم والتعرّض لها[1]، فإنّ لحومَها مسمُومة، وعادةُ الله في منتقصي[2] أوليائه معلومة.

فإياكم ـ رحمكم الله ـ من التَّعَرُّض لأوليائه، والانتقاد علىٰ أحبابه، فإنّ نبيّنا محمّداً ـ ﷺ ـ يحكي عن ربه عزّ وجلّ أنّه قال[3]: «من آذىٰ

---

(١) في أ: والتقريظ (؟) لها. وفي ب: التعرض عليها.

(٢) في ب: مُبغضي.

(٣) في سنن ابن ماجه (١٣٢٠) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: إنّ يسير الرياء شرك، وإنّ من عادى لله وليّاً فقد بارز الله بالمحاربة، إن الله يحبّ الأتقياء الأحفياء... الحديث.

لي وليّاً فقد بارزني بالمُحَاربة» ومن حارَب الله ـ جلّ جلاله ـ فقد تعرّض لسخطه الذي ليس له رَادٌّ، ولا لدفعه صَادّ.

قال الإمام ـ وليّ الله ـ أبو حامد الغَزالي، نفعنا الله به: جَرت عادةُ الله في المتعرّضِ لهٰذِه الطائفةِ أن يُخافَ عليه من سوء الخاتمة، ويَكِلُه الله إلىٰ نفسهِ في وقتِ الاحتياج والافتقار.

فيجبُ عليكم: أنّ مَن انتسبَ إلىٰ الله تعالىٰ أنْ تعظّموه وتوقّروه، ولا تَعْتَرِضُوا علَيه، ولا تستَغْرِبُوا عِلْمَهُ لجَوازِ الفتح عليه.

وأولياءُ الله تعالىٰ علىٰ قسمين: أصحاب طريقٍ وكَمال، وأصحاب تلوين وأحوال.

فأصحاب الكمال: يُقتدىٰ بهم؛

وأصحاب الحال، يسلّم لهم في أمرهم [١٢١/ب] وهم الّذين غَلب عليهم الحبّ في محبوبهم، فهٰؤلاء يسلّم لهم حالهم، ولا يُعترض لهم، ولا يُقتدىٰ بهم، ويُتَأوّل عنهم، ويُلتمس لهم أحسنُ المَخارج، ويُظَنّ بهم أحسنُ المَذاهب في مَذهبهم.

وكذٰلك يجبُ التّسليم للوليّ إنْ كانَ مِن أصحاب الأحوال الّذين غلب عليهم الحُبّ في ذي الجَلال، فإنْ لم تُسَلّم لهم حالهم فإيّاكَ إيّاكَ من عتبه[١] لأن الله تعالىٰ أخفىٰ وليّه في خَلْقه؛ وكذا من تصدّىٰ من أهلِ الرُّسوخ للتّعليم، فيجبُ له التّأويل باعتبار الرّسوخ ما أمكن، والتّسليم، كذا نقلناه عن أشياخنا، وشاهَدناه من الذين يُعتقد فيهم الاقتداء والاتباع.

---

(١) في ب: فإياك إياك أن تعترض على أحد من أهل الرسوخ والتعليم، فيجب لهم من التأويل باعتبار الرسوخ ما أمكن والتسليم.

كان الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن عقاب[1] شيخاً وقُدوةً وبركةً ـ رحمه الله ـ من المُعتقدين المعظّمين لأولياء الله وأصفيائه.

وكان يزور الولي المشتهر بالخير، وحسن الطريقة والأدب، وقد فتح الله تعالىٰ علىٰ أصحابه كثيراً من فتحهِ، وليّ الله الشيخ فتح الله نفع الله به[2]؛ فكانَ الشَيخُ يزورُه ويعظّمه، وقد شاهدته أتىٰ إلىٰ قبره، وصلىٰ عليه[3].

وحضرت ذات يوم في مجلسه، وكان ذلك بعد وفاة الشيخ فقرأ عليه ولدهُ دولةً، فتذكّر الشيخ ـ رحمه الله! ـ فَجرتْ دموعه، وغلب عليه شوقه، وقد أخبر ـ رحمه الله، ورضي عنه ـ عن الشيخ الإمام، علم الأعلام شيخه سيدنا الفقيه ابن عرفة[4] ـ رحمه الله ـ أنه كان يعتقد وليّ الله تعالىٰ الشيخ سيدي «أبا عمر عثمان القربنالي[5]» رحمه الله ونفع به، ورأىٰ منه كرامات، وكان يعتقده ويسلم له حاله.

وكذا تلاميذه قد رأوا له بركات يطول ذكرها هاهنا.

---

(١) أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عُقاب الجُذامي. أحد العلماء الأعلام، كان قاضي الجماعة بتونس، وتوفي سنة ٨٥١ هـ. وابن عقاب هو أحد شيوخ الرّصاع مؤلف هذا الكتاب (فهرسة الرصّاع: ١١٢).

(٢) المشار إليه أيضاً بـ سيدي فتح الله، وله ضريح في تونس.

(٣) في ب: وصلّى عنده.

(٤) أبو عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الارغمي إمام تونس وعالمها وخطيبها في زمانه (٧١٦ ـ ٨٠٣) ألف الرصّاع صاحب كتابنا هذا تذكرة المحبّين كتاباً في ترجمته بعنوان: الكفاية والهداية.

(٥) ذكره الرصاع في فهرسته (١٦٤). ونقل المحقّق: عُرف بالصلاح وشهد له ابن عرفة والبرزلي بالمكانة العليّة والقدم الراسخة في الولاية والكشف لغرائب وعجائب ظهرت منه.

وكذا أخبرني بعض الشيوخ من شيوخي[1] أنه شاهد شيخاً مثله في الأندلس يقال له: الرصّاص.

وقد نقل جماعة من الصُّوفية حكايات عن أصحاب الأحوال، وأنهم حقّ، وعلىٰ حقّ وصدق، وأن الإيمان بطريقهم واجبٌ ولا يُستغرب. وهٰذا لا يحيله إلا من نسب إلىٰ ربّه العجز في فِعله، تعالىٰ الله عن ذٰلك علواً كبيراً، وكفىٰ بالله ولياً، وكفىٰ بالله نصيراً.

فما ينفعك في طريق السّلامة إلا التّسليم. أما سمعتُ قوله تعالى: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ٢/١٠٥].

(وربّما أظْهَر الله علىٰ صاحب حال ما أَخفاه في حُبّه من بينِ الرّجال، وملأ قلبه ولبه بحبه، فما استطاع تحمّل الجمال فتراه فانياً، وهو بالله راضٍ، فيحسبه الناظر إليه والهاً من المجانين، وهو في شراب الحضرةِ من المُحبّين)[2].

قال بعضُهم: رأيت مجنوناً من الحبّ في الله تعالىٰ من المَجانين، ومجنونة مثله قد حَفّتهما جنّة، وهما في روضة يتكلّمان.

فقال لها المجنون: أين أنت يا فلانة؟

فقالت: بين جَداول وأنهار، ورياحين وأشجار قد ابتدعها الملك الجبار!

ثم قالت له: أين أنت يا مجنون؟

فقال: في روضةٍ مُونقةٍ حمراء، ليّنة كالحرير من صُنع المَلك

(١) في ب: وكذا تلامذته... من شيوخنا».

(٢) ما بين قوسين لم يرد في ب.

القدير؛ واعلمي بأنّك ميتة، والموت يأتينا؛ سريع، قال، فقلت: يا مجنونة ما جنّنك؟

قالت: حُبّه!

قال بعضُ الصالحين، فأردتُ أن أكلمه.

قال لي: ارجع يا إنسان ولا تشغلنا عن ذكر الرّحمن، مالكَ في المجانينِ من صُحبة! فرجعتُ باكياً متعجّباً بلسان هذا المحبّ، القائل في جميع الأحوال ودمعه هاطلٌ علىٰ التقصير في الأعمال:

لولا نسيمٌ بذكراكم يُرَوّحني لكنتُ مُحترقاً من حَرّ أنفاسي[1]
والله ما طلعتْ شمسٌ ولا غَربتْ إلاّ وذكركَ مقرونٌ بأنفاسي
ولا جلستُ إلىٰ قومٍ أحدّثهم إلا وكنتَ حديثي بين جلاسي
ولا شربتُ زلالَ الماءِ من عطشٍ إلاّ رأيتُ خيالاً منكَ في الكاسِ!

هذا شانُ المحبّين في الله عزّ وجل، وفي سيّد المرسلين، (أجسادُهم بالله فانية، ودموعُهم علىٰ الخُدود جارية)[2] نفعنا الله بمحبتهم، وأعاد علينا من بركتهم ـ وصلىٰ الله علىٰ سيدنا ومولانا محمد إمام حضرتهم، ودليل طريقتهم، وسيّد جملتهم، وسلم تسليماً.

---

(١) من بحر البسيط.

(٢) العبارة من أ فقط. وفي العبارة نقص؛ ويشبه تمامها أن يكون: «أجسادهم في الله فانية ودموعهم...» الخ.

بابٌ

في معنىٰ اسْمِه

خاتم النَّبيِّين(1)

صلّىٰ الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

خاتم النبيّن اسم من أسمائه عليه أفضل الصّلاة والسلام، ورَد به الكتابُ العظيم، قال الله تعالىٰ في صفة نبيه الكريم، بياناً لقدره، وتقديراً لمنزلته عِند العالمين ﴿مَا كانَ مُحَمَّدٌ أبا أَحَدٍ من رِجالِكُمْ، وَلكنْ رَسُولَ الله وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤٠] ومعنى خاتم النبيّين: أي ختامه(2) وتمَامُه، وآخره المتمّم له [١٢٢/ب].

فكذا كانَ نبيُّنا ومولانا محمّد ـ ﷺ ـ هو آخر النبيين، كمّل الله تعالىٰ به النُّبوءات، وتممّ ببعثه الرّسالات.

وأغْلَق الله ـ جَلّ جلالُه ـ باب السّمٰوات أن ينزلَ منها وحيٌ إلىٰ

---

(١) ورد شرح هذا الاسم النبوي الكريم في: أسماء رسول الله ﷺ ومعانيها لابن فارس ص ٣٩ تحت عنوان الخاتم، وأورد الآية المذكورة هنا. وسبل الهدى والرشاد ١: ٥٥٩، وهو في الشفا تحت اسم الخاتم، وفي الرّياض الأنيقة: ١٤٩ تحت عنوان الخاتم، خاتم النبيّين، وذكره صاحب المواهب اللدنية في سرده الذي جمع فيه الأسماء والصفات ١: ١٨٢، ولم يشرحه بعد ذلك.

(٢) في ب: ختامه.

الأرض بعد موته، فكانَ كما قال ـ ﷺ ـ [1] «أنا أوّل الأنبياء في الخَلْق، وآخِرُهم في البَعْث».

وقال عليه الصلاة والسلام[2]: «لا نَبِيَّ بَعْدِي». وقد تقدّم أنّ مِن أسمائِه: العاقِب والحاشر، وأنّه يُحْشَرُ النّاسُ علىٰ قَدِمه. وكونه ـ ﷺ ـ خاتم النبيّين أمرٌ مقطوعٌ بهِ لا يرتابُ في ذلك أحَد، ولا يتشكّك فيه إلا مُلحِد.

وما ذُكر منْ أنّ عيسىٰ ـ عليه السلام ـ ينزلُ إلىٰ الأرضِ في آخرِ الزّمان فهو حَقٌّ إلاّ أنّه يكونُ مِن أُمّة محمد ـ ﷺ ـ.
وقد قال ـ عليه الصلاة والسلام[3] ـ: «وإمامكم مِنكم لأنّه لا نبيّ بَعْدي»، أي: لأنه لا يَبْعَثُ الله نبيّاً بعد رسول الله ـ ﷺ ـ، بل بعثته عليها تقومُ السّاعة.

وإنما ينزل عيسىٰ إلىٰ الأرض لإقامة شريعة نبينا محمّد ـ ﷺ ـ وهو حينئذٍ واحدٌ من أمته، وإنما قال تعالىٰ «خاتم النبيين». ولم يقل: خاتم المرسلين. لأنّ الرسول أخصّ من النبيّ، وأنّ كل رسولٍ نبيّ، وليس كل نبيّ رسولاً.

لأنّ أنبياء الله تعالىٰ مئة ألفِ نبيّ وأربعة عشرون ألف نبي، والرُسل منهم ثلاث مئة وثلاثة عشر أو أربعة عشر.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣: ٣٣٨.

(٣) في سنن ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ إنّ بني إسرائيل كانت تسوسهم أنبياؤهم. كلما ذهب نبيٌّ خَلفه نبيّ. وأنه ليس كائن بعدي نبي فيكم. قالوا: فما يكون يا رسول الله؟ قال تكون خلفاء فيكثروا. قالوا فَكيف نصنع؟ قال أوفوا ببيعة الأول فالأوّل. أدّوا الذي عليكم فسيـٰألهمُ الله عزّ وجلّ عن الذي عليهم. (برقم ٢٨٧١) وينظر مسند الإمام أحمد ٢: ٢٩٧.

فإذا كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ خاتم النبيين كان ـ ﷺ ـ خاتم المرسلين قطعاً.

لأن معنىٰ قوله «خاتم النبيين» أي لا نبيَّ بعده، وإذا كان لا نبيّ بعده فلاَ رسول بعده.

بخلاف ما لو قيل «خاتم المرسلين» فإنه لا يلزم من نفي الرسول نفي النبي[1].

قال بعضُ العارفين: في قوله تعالىٰ «خاتم النبيين» إشارةٌ إلىٰ أنّ ختام الشيء الحسن تمامُه، وأنّ هذه الدائرة العظيمة والشجرة الكريمة، شجرة الأنبياء، ودائرة الأصفياء، إنّما ختامُها وتمامها سيّد العارفين، وتاجُ أنبياء الله وأولياء الله المتّقين، ورافعُ لواء الحمدِ بينَ الحامدين، ومن نَوّر بهِ مَوْلاهُ السّمٰواتِ والأرضين، ورحم بوجوده العالمين.

فكان خِتاماً مِسكاً لتمامِ دائرةِ النبيّين، وفيه إظهارُ منزلتِهِ الكريمة، ورُتبته الجَسِيمة.

وإنما جعل مولانا سبحانه [١٢٣/أ] الأنبياء الكرام مقدمةً بين يدي ظهور بدر التمام، فذكرت أخباره وفَخَاره وصفته وآثاره، وشوّقت المحبّين إلىٰ لقائِه، وأخذ الميثاق علىٰ أنبيائِه في التّصديق بوجوده، وبعثته[2] وفضله علىٰ من في أرضه وسمائه، وفي كونه خاتم النبيّين من

---

(١) «من شرفه ﷺ أن تكون شريعته ناسخة لكل الشرائع غير منسوخة. ولهذا إذا نزل عيسى عليه السلام فإنه يحكم بشريعة نبينا ﷺ لا بشريعته، لأنها قد نسخت. ومن هنا يُعلم أن معنى كونه لا نبيّ بعده أي لا نبيّ يبعث أو ينبأ أو يخلق وإن كان عيسى موجوداً بعده» من سبل الهدى والرشاد ١ : ٥٥٩.

(٢) في ب: وبعثه.

العنايةِ الربّانية لدىٰ الحضرة القدسية عند الملك الحق ما يعلمهُ كلُّ مُدرك مع سلامةِ الذوق.

وفيه أيضاً الكرامةُ من الله تعالىٰ بأمّته لأجله ورفع قَدْره بأنْ بعَثه ـ سُبحانه ـ آخرَ الزّمان، فسرَد عليه وعلىٰ أُمّته أخبارَ الأُمم السّالفة مع قومها، وبيان حالهم مع حالها، وتسليتهِ عليه الصلاة والسلام بأخبارها وستر عُيوب هذه الأمّة علىٰ أن يُسمع ذنبها وأن يرىٰ ذلك غيرها. وفيه التسليةُ لِرَسُولِ الله ـ ﷺ ـ الذي جَعله الله تعالىٰ نَفْسَ الرّحمة لما علم منه ـ سبحانه ـ من كمال حرصِه علىٰ إيمانِ الخلائق، وأنّه لم يصلْ إليه سابقٌ ولا لاحق.

فسمّى الله تعالىٰ أمْرَهُ في كتابهِ، وقصّ عليه القَصَصَ السّابقة لسالفِ الأنبياء والرُّسل قبله، وسَرد ذلك عليه قصّة قصّة، تفضُّلاً عليه من الله أكرم الأكرمين؛ فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾[الأنعام: ٦/ ٣٤].

أي ولقد علمتَ يا محمّد يا رحيمَ القَلْبِ ما علمتَ من أخبارِ الأنبياء قَبْلَك، فلاَ تُهلك نفسكَ حسرةً علىٰ إيمانهم فإنّهم كذٰلك جَرت عادَتهم معَ أنبيائِهم[١] فصَبرُوا وظَفروا[٢]، وأنتَ رأسُ الصّابِرين، وإمامُ

(١) مجرى كلام المؤلّف ـ رحمه الله ـ على عناد أهل الكتاب دون الإيمان بالنبي ﷺ وقد عاند أكثرهم حقاً. على أن في أسباب النزول ـ كما في تفسير القرطبي بعد الآية ٣٣ من سورة الأنعام – قال أبو ميسرة إن رسول الله ﷺ مَرّ بأبي جهل وأصحابه فقالوا: يا محمد والله ما نكذّبك، وإنك عندنا لصادق، ولكن نكذّب ما جئت به، فنزل قوله تعالى ﴿فإنهم لا يكذّبونك ولكنّ الظالِمِينَ بآيات الله يَجْحَدُوْنَ﴾ [الأنعام: ٣٣] ثم آنَسَهُ بقوله: ﴿ولقد كُذّبَ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية.

(٢) أي فصبر الأنبياء وظفروا.

المتّقين، فَدُمْ علىٰ صبرِكَ فإنّي أنصُرُكَ عَليهم كما نصرتُ مَن قبلك مِن الأنبياء، فكيفَ لا وأنت إمامُ الهدىٰ والحبيبُ لمن اهتدىٰ.

فكانَ من كون هٰذا النبيّ العظيم الذي جَعله الله خاتَمُ النَّبِيِّين من كمال المَبَرّة والإكرام ما ظهر للسّامعين، وما خَفِيَ عن الخَلق من ذٰلك ممّا أكرمَهُ الله تعالىٰ بِه مِن الكراماتِ ما يعجزُ عن التّعبيرِ عنه علمُ الأوّلين والآخرين.

وَلقد ضَرب ـ ﷺ ـ مثالاً في كونِ الله تعالىٰ تَمَّمَ بِهِ الأنبياء، وخَتَمَ ببعثتِهِ رسُلَهُ الأصفياء فقال[1]: «مَثَلُ ما بعثني الله بِهِ من الهُدىٰ والنُّور كمثَلِ رَجُلٍ بَنىٰ داراً وأحسنَ بناءَها فبناها بِلبنةٍ من ذهبٍ والأُخرىٰ من [١٢٣/ب] فضّة، وقد كملت الدّار، فنَظر الناسُ فيها فقالُوا: ما أحسنَ هٰذه الدار ومَا أجملها لولا أنَّ فيها موضعَ لبنةٍ لو بُنِيت فيها لم يُرَ مثلها وبها يحسنُ جمالُها ويضيءُ شعاعُها، ويتمّ كمالُها»[2]. فكانت هٰذه اللبنة العظيمة الشأن التي بها تمّ حُسن الأعالي والأركان هي لبنة المُصطفىٰ صاحب البرهان ـ ﷺ ـ في كل وقت وأوان.

---

(١) ورَد في هذا المَقصد أكثر من حديث؛ وأقربها إلى اللفظ الوارد؛ ما في صحيح مسلم ١٧٩٠ ـ ١٧٩١ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه. فجعل الناس يطوفون ويعجبون له ويقولون: هلاّ وضعت هذه اللبنة. قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيّين.

(٢) آثرت سياق عبارة (ب) هنا. وفي أ؛ و: ج: وقد كملت الدار فنظر فيها الناظر أو الناس وقال هذه الدار ما أحسنها وأجملها وأطيبها غير أن فيها موضع لبنة لو بنيت فيها لم يُرَ مثلها وبها يحسن جمالها ويضيء شعاعها، ويتم كمالها. فكانت هذه اللبنة العظيمة الشان التي بها تم حُسن الأعالي والأركان هي لبنة المصطفى صاحب البُرهان. وفي (ب) حسن الأعمال والأركان.

فإن الله ـ سُبْحانه ـ كمل بهِ وختم حُسن هذا العالم العظيم الذي خلق فيه ما خلق من كمال مصنُوعاته، وعجائب مَخلوقاته وشَيّده ببعثةِ الرّسل وإنباء الأنبياء الدّالّين علىٰ عبادته.

فما زال ـ سبحانه ـ يزيدهُ جمالاً إلىٰ جمالهِ، وكمالاً إلىٰ كمالهِ حتىٰ أتمه بِخيرةِ خَلْقِهِ، وسرّ كَوْنِهِ، وإنسانِ عَيْنِهِ، وبعثه في أشرف بعثة، وخير أمّة، فضّلها الله ـ سُبحانه ـ علىٰ سائر الأُمم وهداهُ إلىٰ الطّريق الأقوم ـ ﷺ ـ وشرّف وكرّم.

يـا أمّـةَ الـهـادي ومَـنْ كَـمِـثـالـكـمْ فـجَـلالُ أحـمـدَ شـاهـدٌ بـجـمـالـكـمْ
هـو ستـركُـمْ هـو ذُخـركـمْ لـمثـالـكـمْ صَـلـوا عـلـيـه وسَـلّـمـوا فَـبِـذلِـكُـمْ
تُـهـدىٰ الـنُّـفـوسُ لِـرُشْـدِهَـا وغِـنـاهـا
مـا فـي عـبـادِ الله مـثـلُ مـحـمّـدِ فـمقـامـهُ الـمـرفـوع يُـعْـرَفُ فـي غَـدِ[1]
وبـحـوضـهِ الـمـورود أكـرمُ مـوردِ صـلّـىٰ عـلـيـه الله غـيـر مـقـيّـدِ
وعـلـيـه مـن بـركـاتـهِ أَنـمَـاهـا
إن الـصّـلاة عـلـيـه تُـنـجـيـنـا غـدا فـإذا هـمُ ذكـروا لـديـك مـحـمّـدا
غِـظْ بـالـصّـلاة عـلـيـهِ أكـبـادَ الـعـدا وعـلـىٰ الأكـابـر آلـهِ سُـرجِ الـهـدىٰ
أكـرمْ بِـعـشـرتـهِ ومَـنْ والاهـا

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ محمداً ـ ﷺ ـ خاتم النّبيين، وأن الله تعالىٰ كمّل ببعثته محاسنَ المقرّبين أن يكونَ خاتماً لمحبّته فيه باتّباع محاسنِ

---

(١) في (أ): فمقامه المعروف.

أعمالِهِ وكثرةِ ذكره، ومتمّماً لِحُسنها وقبولها بالصّلاة عليه ـ ﷺ ـ وعلىٰ آله.

فإذا كنتَ في طاعةٍ فتمّم حُسنها وبناءَها بالثناء علىٰ حبيب القلوب [١٢٤/أ]، وإن كنت في عبادة فأقمْ قواعدها بالصّلاة علىٰ من بَعثه علاّمُ الغيوب.

وإن كنتَ داعياً صلّيتَ علىٰ خاتم النّبيين، وختمتَ الدّعاءَ بالصّلاةِ علىٰ ختامِ العالمين، فإنّ دعاءَك موقوفٌ بين السماء والأرض حتىٰ تصلّيَ علىٰ خيرِ المرسلين.

وإن كنتَ في مجلسِ طاعةٍ، فطيّبْ مجلسَك بذكرِ الطّيّب الطاهر، واستنشقْ طيبَ محاسِنه، وعَرْف[1] نسيمهِ العاطِر وأَحْيِ قلبَكَ بسماعِ نُوره الزّاهر.

ولذا كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تقول: «إذا أردتم مجلسكم أن يطيبَ فاذكُروا مَحاسِنَ عُمَر بن الخطاب»[2].

وإذا كان هذا لعمر ـ رضي الله عنه ـ فكيف لا يتمسّك مجلسنا بذكر ختام الرسل، وحبيب الملك الوهاب، وإذا كان المجلس يطيب بذكر الفاروق[3]، فكيف لا يطيب بذكر الصادق المصدوق؟

ولكن عائشة ـ رضي الله عنها ـ إنما ذكرت عمر بن الخطاب

---

(١) العَرْف: الرائحة، ويكثر أن ترد لمعنى الرائحة الطيّبة.

(٢) في الرياض النضرة في مناقب العشرة ٢: ١٩٦ عن عائشة رضي الله عنها قالت: إذا ذكر عُمَر في المجلس حَسُن الحديث، فزيّنوا مجالسكم بالصّلاة على النبي ﷺ وبذكر عمر. وقد أورد ابن سعد في طبقاته من ثناء الصحابة رضوان الله عليهم على عمر رضي الله عنه كلاماً طويلاً (طبقات ابن سعد ٣: ٢٦٥ ـ ٣٧٥).

(٣) في ب، و: ج: فإذا كانت المجالس تطيبُ.

وخَصّته بذلك لعلمها أنّ ما من مؤمن ولا مؤمنةٍ ولا مسلم ولا مسلمةٍ تمرُ عليه ساعةٌ أوْ مجلسٌ إلاّ ويطيبُ مجلسُه وتزهرُ محاسِنُه بطيبِ ذِكر المصطفىٰ، وبسيرةِ أهلِ الصّدق والوَفا.

(ولعل في كلامها اقتضاباً لأن في طريق آخر: زينوا مجالسكم بكثرة الصلاة علىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ وبذكر عمر بن الخطّاب رضي الله عنه)[1].

«وهكذا كانت الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وأحوالهم مع حبيبهم في ذكرهم له وكثرة اللهج به، فإذا سئلوا عن أفضل الناس وأطيب الناس، ومن تطيبُ بذكره الصّدورُ، وتُفَرَّجُ به صعابُ الأُمور، فلا يخطرُ ببالهم إلاّ زينُ العابدين وإمامُ المتّقين.

بعث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بعثاً وفيهم أربعةُ آلافِ فارسٍ فحاصروا قلعةً، وكانت فيها امرأة حَسنةٌ قد طلعتْ علىٰ أعلىٰ السور، ونظرتْ إلىٰ العسكر فرأت شاباً من شباب العَرب، وكان فارساً ضَارباً بالسيف، طعاناً بالرمح[2] شديد البأس ـ رضي الله عنه ـ.

فلمّا أبصرته المرأة قالت أوّاه!! قالت لها جاريتها: مالكِ؟ قالت: إنّ الحِصْنَ هٰذا قد فُتِح!

قالت لها: وكيفَ ذلك؟

قالت لها: سترين ساعةً أُخرىٰ!

---

(١) ما بين قوسين من (أ) فقط.
ـ وفي الفتح الكبير عن ابن عمر رضي الله عنهما: زينوا مجالسكم بالصلاة عليَّ فإن صلاتكم عليّ نورٌ يوم القيامة. وحديث عائشة رضي الله عنها الذي ذكره المؤلّف في كشف الخفا ١: ٥٣٦ ـ ٥٣٧، وله تعليقٌ فليراجع. وينظر الفتح الكبير ٢/ ١٤٥.

(٢) في ب، و: ج ضارباً بالسّيف، طاعناً بالرُمح.

فأرسلت الجارية إلىٰ الشاب[1] الذي استحسنته وقالت له: هل إلىٰ أحدٍ إليك من سَبيل؟ [١٢٤/ب] فتكون معي ولي؟ قال لها الشاب: نعم! شرطُ ذٰلك أن تسلّمي الحصنَ البَرّاني لنا والحصن الدّخلاني إليه[2]. وعنىٰ بذلك التسليمَ لقضاء الله تعالىٰ والتفويضَ لأمره.

فأجابتْهُ علىٰ لسانِ الرَّسُول: ما أدري ما قلت!

قال: تسلّمين قلبك لله، وتقرّين بوحدانيته.

فأرسلَت إليه وقالتْ: قد فتحت لكم الباب[3]، فلمّا دخل عَرض علىٰ الجارية صاحبة الحِصن الإسلام.

قالت: يا شابّ اعلم أني امرأةٌ كبيرةٌ ملكةٌ من ملوك الأرض[4]، لي همّةٌ عالية، هل في عَسكركم مَنْ هو أكبرُ منكَ في قومك حتّى أُسلمَ علىٰ يديه؟

فقال لها: نَعمْ. عبدُ الله بنُ عمر بن الخطاب. فقصدته، فلمّا عَرض عليها الإسلام، قالت له: هل أحدٌ أكبر منك قال: نعم، أبي عُمَر بن الخطاب، قالت احْمِلني إليه حتىٰ أُسلم علىٰ يديه. فجاءت مع العسكر، ومعها أموالٌ جَمّة، فدخلتْ علىٰ عُمَر، وقالت له: هل ها هنا مَن هُو أكبرُ مِنك؟

قال لها عمر بن الخطاب: بل هنا مَنْ هُو أكبرُ من أهل الأرض كلها، وهو أكبر من مِلْءِ الأرضِ من عُمَر ومَنْ هو أعلىٰ مِن عمر، هُنا محمّد رسول الله، وهذا قبره.

---

(١) في أ: فأرسلت إلى الشاب.
(٢) في ب: الدخلاني إليه. وفي أ: إليك.
(٣) في ب: قد فتح.
(٤) في ب: ملوك أهل الأرض.

قالت: لا أُسلم إلا على يديه!

فأتتْ قَبْرَ المُصطفى ـ ﷺ ـ وجلست عنده، فقالت: أشهدُ أن لا إلّه إلاّ الله، وأنك محمد رسول الله. ثم بكتْ.

فقالت ـ رضي الله عنها ـ: خرجتُ يا رسول الله من ديار الكفر، وأنا أخشىٰ إذا أسلمتُ أن أقعَ في المعاصي. وقد أسلمتُ وأنا أشهدُ أن لا إلّه إلاّ الله، وأنكَ محمّد رسول الله فاسألْ ربّك يا محمد الذي أرسلَك بالحقّ أن يقبضَ رُوحي قبلَ أن أعصيه فوضعتْ خَدّها على حائط القبر وخرجتْ رُوحها.

فقال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: ما رأيتُ امرأةً من العَجم أعقل منها، وصَلّى عليها ثم قال: طوبىٰ لمن مات، وأحشاؤه من المعاصي مستريحات[١].

هٰكذا تطيبُ مجالسُ القُلوب بحبيبها، وتحيىٰ الأماكن الميتةُ منها بذكر طيبها[٢].

البدرُ في داركم يغيبُ ... وعندكمْ يأنَسُ الغريبُ[٣]

يذهبُ في داركم سقامي ... إذْ عندكم يوجَدُ الطّبيبُ

دخلتُ في داركم دليلاً ... فكان عِزّي بكم: «عجيب»!

[١٢٥/أ] صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم أفضل التسليم، صلاةً تقرّبنا منهُ وننال بها من الله التعظيم.

---

(١) في ب: مستريحة.
(٢) في ب: بذكر محبوبها.
(٣) من مخلّع البسيط.

باب

في معنىٰ اسمه

السَّيِّد، وسَيِّد المُرْسَلِين[1]

صلىٰ الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

هذه الأسماءُ الشريفةُ، والألقاب اللّطيفة من أسمائِه عليه الصلاة والسلام، وردَ إطلاقُها علىٰ نبيّنا محمّد - ﷺ - في أحاديث كثيرة، وآثار مرويّة.

وأجمعتْ أمّتهُ علىٰ اتّصافهِ بها، وأنّه أحقُّ النّاسِ وأولاهُمْ بالاختِصاص بها.

وقد وردَ في حديثٍ أنَس بن مالك - رضي الله عنه - أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: أنا سَيِّدُ النّاس يَوْمَ القيامةِ ولا فَخرْ، وتدرون لِمَ ذلك؟ يجمعُ الله الأوّلين والآخرين... ثم ذكر حديث الشّفاعة[2].

(١) ورد شرح اسمه الكريم في سبل الهدى والرشاد ١: ٥٨٢ و٥٨٣ والرياض الأنيقة ١٧٧ في: السيّد، وسرده في الشفا ١: ٣٧١ والمواهب اللدنية: ١٨٣.

(٢) نصّه: «أنا سيّد الناس يوم القيامة وهل تدرونَ مِمَّ ذلك؟ يجمع الله الأوّلين والآخرين في صعيدٍ واحد...» الحديث. وهو طويل. رواه أبو هريرة رضي الله عنه (الفتح الكبير ١/ ٢٧٢ - ٢٧٤).

وقد ورد في بعض الأحاديث عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال: إنما السيد الله[1].

وهذا لا معارضة فيه مع إطلاق الأمّة السيّد عليه، لأنك إذا قلت: «إنَّما السيد الله» اقتضىٰ ذلك أنه لا سيّدَ غيرُه، بمعنىٰ أن سيادةَ الباري جل جلاله: افتقارُ الخَلْقِ إليه، وانقطاعُهم لديه فلا ربَّ غيرُه ولا معبودَ سِواه.

فأرشدَ ـ ﷺ ـ إلىٰ اعتقاد أنّ السّيادة الحقيقيّةَ إنما توجدُ في خالِقي، وخالقِ العالم بأسرِه الذي يضرُّ ويَنْفَعُ، ويخفضُ ويَرْفَعُ، واحتاجت الخَلائقُ كلُّها لفقرها إليه أجمع؛ وأما «أنا» فأُطلق السيّد عليّ، بمعنىٰ أن الله تعالىٰ تفضّل عليّ بأن جَعل الخلائق يُفْتَحُ عَليها بِسَببي، ويصب المولىٰ جلّ جلاله الرحمة عليها من أجلي.

قال القاضي أبو الفضل عياض ـ رحمه الله ـ[2]: قوله ـ ﷺ ـ «أنا سيّد النّاسِ يومَ القِيامة» هو سيّدهم في الدنيا والآخرة، ولكن أشار ـ عليه الصلاة والسلام ـ لانفِرَادِه فيه بالسّؤدد والشفاعة دون غيره، إذا لجأ الناس إليه في ذلك، فلم يجدوا سواه.

والسيّد هو الذي يلجأُ النّاس إليه في حوائجهم، فكان ـ ﷺ ـ سيّداً مُنفرداً من سائِر البَشر لم يُزاحمْهُ أحدٌ في ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ٤٠/١٦].

---

(١) روى ابن الأثير (النهاية؛ س و د) أنه ﷺ جاءه رجلٌ فقال: أنت سيّد قُريش فقال: السيّد الله. قال ابن الأثير أي الذي تحقّ له السيادة كأنه كره أن يُحمد في وجهه وأحبّ التواضع. وينظر مسند أحمد ٤؛ ٢٤، ٢٥.

(٢) الشفا ٢/٤٠١ ـ ٤٠٢.

والملكُ له عزّ وجل في الدُّنيا والآخرة. ولكنْ في الآخرة انقطعَتْ دَعْوىٰ المدّعين لذلك في الدُّنيا.

وكذلك لجأ إلى مَوْلانا وسيّدنا محمدّ ـ ﷺ ـ جميعُ النّاس في الشفاعة [١٢٥/ب] فكان سيدهم في الآخرة دون دَعوىٰ.

قال بعض العارفين: معنىٰ قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «سَيِّد ولد آدم» بمعنىٰ سيد الخلق أو النّاس، فيدخل في ذلك آدمُ ومن عَداه من المَخْلُوقات؛ لأنّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أفضل رسل الله، وأنبيائه عُموماً وخصوصاً.

قال الله العظيم: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٣] قال المُفَسِّرُون[١]: هو محمد ـ ﷺ ـ لأنَّهُ بُعِث إلىٰ الأحمر والأسود، وأُحِلّتْ لَهُ الغَنائم، وظَهرت علىٰ يديهِ المُعْجِزَات وليس أحدٌ من الأنبياء أُعْطِيَ فضيلةً أو كرامةً إلاّ وأُعطي ـ ﷺ ـ مِثْلَها[٢]، فلذٰلك كانَ سيّد المُرسلين، وحبيبَ رَبّ العالمين.

فاقَ النبيين في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ... ولم يُدَانُوهُ في عِلمٍ ولا كَرَمِ[٣]
وكلُّهمْ من رسولِ الله ملتمسٌ ... غَرْفاً من البحرِ أو رَشْفاً من الدِّيَمِ
وواقفون لديه عند حَدِّهمُ ... من نُقطةِ العِلم أو مِنْ شكلة الحكمِ
فهو الذي تم معناهُ وصُورَتهُ ... ثمّ اصطَفاه حَبيباً بارِىءُ النَّسَمِ

---

(١) قال النحاس: «بعضهم» هنا على قول ابن عباس والشعبي ومجاهد: محمد ﷺ.

(٢) نقل القرطبي ٣: ٢٦٢ هنا أن المنع من التفضيل بين الأنبياء الوارد في بعض الأحاديث إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطاف والمعجزات المتباينات...» إلى آخر ما أورد.

(٣) ديوان البوصيري ٢٤١.

فأنبياءُ الله تعالىٰ علىٰ عُلوّ منازلهم، وبلوغِ مكانتهم قد اعْتَرفُوا بأنّ هٰذا الرسولَ هو أكرمُ الخَلْقِ علىٰ ربّه، وأعزّهم مكاناً ومكانةً لديه، وأنّهُ أفضلهم برفع درجتِهِ عليهم ـ صلواتُ الله وسلامه عليهم ـ علموا ذلك لمّا أوحىٰ الله إليهم في كتبهم، ولذا آمَن مَنْ مَنّ الله تعالى عليه، وأرادَ هِدايته، فألهمه النّظَرَ في الكُتب السّالفة، حتىٰ يرىٰ صفته، ويشاهد فيها نَعْته، ويعلم[1] كيف قَدّر الله ـ سبحانه ـ عند أنبيائه منزلتَهُ، وشرّف به أُمّته.

مرَّ رجلٌ من أهلِ الإسلامِ علىٰ رجلٍ من أهلِ الكتاب بالشّام، فقال الكتابيّ: أين تريدُ؟

فقال: إني أريد المدينة.

فقال له الكتابي: لي إليك حاجة.

فقال له: وما حاجَتك؟

قال له: تأتي كعب الأحبار[2] فتقول له: يا كعبُ ما زلت في اليهود من أصغرهم وأحقرهم وأدناهم منزلةً، وأنت اليوم في الإسلام كذلك!

قال: لقد قَلّدْتَني أمانة وسأؤدّيها ـ إن شاء الله ـ فأتىٰ كعباً، فلما

---

(١) في ب: «حتى رأى صفته وشاهد فيها نعته، وعلم كيف قدّر الله سبحانه...».

(٢) هو أبو إسحاق كعب بن ماتع بن ذي هجن الحميري. من التابعين. كان في الجاهلية من كبار علماء اليهود في اليمن، وأسلم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وقدم المدينة أيام عمر رضي الله عنه فأخذ عنه الصحابة رضي الله عنهم كثيراً من أخبار الأمم السابقة وأخذ هو من الكتاب والسنّة عن الصحابة. وخرج إلى الشام وسكن حمص. وتوفي فيها سنة ٣٢هـ وعن ١٠٤ سنين. (الأعلام ٥: ٢٢٨).

نظر إليه [١٢٦/أ] عظّمه وفضّله، وقال له: يا كعب! إنّ عندي لكَ أمانةً، قد قُلّدتُها، وإنّي لأُعظمك إنْ أدّيتُها!

فقال له: أدّها لا بأسَ عليك!

فذكر له كلامَ اليهوديّ، وقال له: قد قال: ما زلتَ في اليهودِ من أحقرهم وأصغرهم، وأدناهم منزلةً، وأنت اليوم في الإسلام كذلك!

فقال له كعب الأحبار: وأنا أُقلّدك أمانةً؛ إذا أتيته، فقل له: يقول لك كعب الأحبار: سألتُك بالتوارة وما فيها التي أنزلت علىٰ موسىٰ عليه السلام هل تجدُ في التّوارة: «مَن شابَ من أُمّة محمد في الإسلام شيبةً كانت له نُوراً يَوم القيامة، يضيء له[1] حتّىٰ يدخل الجنة»؟

وهل قرأتَ في التّوارة: «أنّ أمّة محمّدٍ توضعُ المائدة بين أيديهم، فلا ترفع من بين أيديهم حتىٰ يغفرلهم»؟.

وهل قرأتَ في التوراة: «أنّ من شهد أن لا إلّه إلاّ الله وَحْدَهُ لا شريكَ له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، ولقي الله لا يشركُ به شيئاً، وأتىٰ بأمثال مثل الجبال الرواسي غُفِرَ له»؟

فأتىٰ الرّجلُ إلىٰ اليهوديّ، وبَلّغه الأمانة، وقال له: إن كعباً استودَعني أمانةً أؤدّيها إليك.

فقال له: أدّ أمانتك!

فأخبره بقول كعبِ الأحبار كلّه، فقال له: نعم صدق كعب الأحبار، والله لقد قرأتُ هٰذا كلّه في التوراة؛ وذكّرني.

ثم إن اليهوديّ جاءَهُ الحقُّ بالآياتِ البيّنات وزاره النُّور، وعمّت

---

(١) في ب: تضيء له.

عليه البَركات فقال: أشهد أن لا إِلَه إلاَّ الله وحدَهُ لا شريكَ له، وأشهَدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسوله.

فسيادةُ مولانا محمد - ﷺ - في الكتب[1] مشهورة [وفضل أمته ومناقبها على سائر الأمم في الرُّقوم مسطورة]، ومعجزاته زادتْ علىٰ المُعجزات المأثورة.

لئن كانَ موسىٰ سقىٰ قومَهُ ... عيونٌ من الما بِضَرْبِ العَصا[2]
وجازَ بعسكرهِ البَحْرَ في ... حضيضٍ من الماء خوف العدا
فمنْ كفِّ أحمدَ قد فجّرت ... عيونٌ من الماء يوم الظَّما
وجازَ علىٰ الماءِ في جيشهِ ... بوادٍ عظيمٍ بعيد المَدى
فأقبلتِ الخيلُ تمشي بهِ ... وتعدُو عليهِ كمثلِ الثَّرى
وإن كانت الجنُّ قد نالَها ... سليمانُ والرِّيحُ تجري رُخَا[3]
فشَهر غُدوّ لهُ بكرة ... وشَهر رواح له إن يَشا [١٢٦/ب]
فإنَّ النبيَّ سرىٰ ليلةً ... من المسجدين إلىٰ المرتقى
وأرسله الله للعالمين ... من الجِنّ والإنسِ يَبْغِي الهُدىٰ[4]
وإن كانَ في صالحٍ عبرةٌ ... لأهلِ المدائن بعد القُرَى
لإخراجهِ ناقةً آيةً ... لديها فصيلٌ مليحُ الخُطَا

---

(١) في ب: في الكتب مذكورة.

(٢) من بحر المتقارب.
وقوله (من الما) أي من الماء.

(٣) إشارة إلى ما أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام. قال تعالى في سورة ص/٣٦: ﴿فَسَخَّرنا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأمرِهِ رُخَاءً﴾.

(٤) يدعوهم إلى الهداية.

فإنَّ النبيّ حوىٰ كفُّه عنانَ البُراقِ وهٰذا كفى
وإن كانت النار يومَ الخليلِ وقد أضرَمُوها لأمرٍ قضى
فنادتْهُ بالأَمْنِ من تحتِهِ سلامٌ سلامٌ لأمرٍ أتى
فإنَّ النبيُّ وأصحابه لقد هَزّه الطَّود أغْني حِرَا[1]
فنادى بهِ اسكُنْ بِنَا يا حِرَا عَلاكَ النبيُّ وأهل التُّقى
صلى الله عليه وسلّم وشرّفَ وكرَّم

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ نبيّنا النبيّ الكريم، سيّد العالمين، وإمام المتّقين، وتحقّق عليه هذا الاسم في إطلاقهِ، وتسمّىٰ بهِ وسَمّاه الحقّ به لعظيم أخلاقهِ في انتفاعِ الخَلْقِ به، والعَدل الّذي في سِيرته، والتّقوىٰ الّتي في ضَمِيره، وحُسن معاملته، وكمالِ تواضعه، وجميل عَفوهِ مع قُدرته، وتمام جُوده وكرمه، وقضاء حاجاته، وقوّة حيائِه، وبذله نفسه في ابتغاء مرضاةِ ربه، فليكنْ ممّن تأدّبَ بآدابهِ طالباً السُّؤدد ببركته تابعاً له في هَدْيِهِ وطَرِيقته.

فلا تنال العزّ والسّؤدد الحقيقيّ إلا إذا كُنت لنبينا ـ سيّد السّاداتِ ـ ﷺ ـ مُتّبعاً، وبطريقته وسنته وهديه متشرّعاً.

وقد علمتَ ما كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ من اجتهادِه في طاعةِ رَبّه، وخوفِه وزُهده وصَبره مع كونِه مغفوراً له، مشرُوحاً صدره، مرفُوعاً له ذكره[2].

---

(١) إشارة إلى قوله ﷺ: اسكنْ حراء فليس عليك إلاّ نبيٌّ أو صدّيق أو شهيد(سنن البيهقي ٦: ١٦٧ وإتحاف السادة ٧: ١٩٣ ومسند الإمام أحمد ١: ٥٩).

(٢) إشارة إلى قوله ﷺ «أفلا أكونُ عبداً شكوراً» وقد سَبق في هذا الكتاب.

فكيف تطلبُ المَعالي يا مغرور بغير تعب؟ أم كيف يصفُو لك السّؤدد من غير نصَب؟

تذكّر اجتهادَ المحبّين الشّائقين المُجتهدين، وطريقة الزاهدين الخائفين.

كان أسود بن يزيدَ[1] - رحمه الله - من المجتهدين في الطاعة والعبادة يصوم في الحر حتىٰ يخضر جسمه ويصفر[2]، فكان [١٢٧/أ] علقمة بن قيس يقول له: لِمَ تعذّبُ نفسك؟ يقول: كرامَتَها أريد!

وكان يصلّي حتىٰ يسقط، ودخلَ عليه أَنس بن مالك والحسَن فقالا له: إن الله لا يأمُرك بهذا!

فقال له: إنّما أنا عبدٌ مملوكٌ لا أَدعُ من الاستكانة شيئاً إلا أتيتُ بِه.

وقال بعضهم: دخلت علىٰ فتح الموصلي[3] فرأيته وقد مدَّ كفّيه يبكي حتىٰ رأيتُ الدّموعَ تنحدرُ من بين أصابعِه؛ فدنوتُ منه، فإذا دموعُه قد خالطَها صُفرةٌ، فقلتُ له: بالله يا فتح أبكيتَ الدّم؟!

قال له: لولا أنّكَ سألتني بالله ما أَخبرتُك، نعم، والله بكيتُ دَماً! فقلت له: علىٰ ماذَا بكيتَ الدّموع؟

فقال لي: علىٰ تَخلّفي عن واجبِ حقّ الله، ثمّ بكيتُ الدّمَ علىٰ

---

(١) هو الأسود بن يزيد بن قيس النخعي الكوفي، أبو عمرو. مُخَضرمٌ. قال الذهبي هو نظير مسروق في الجلالة والعلم والثقة والسنّ؛ يُضرَبُ بهما المثل. وعلقمة بن قيس. خال الأسود.

(٢) في سير أعلام النبلاء ٤: ٥٣ كان الأسود يصوم حتى يسودّ لسانُه من الحَرّ.

(٣) حلاّه الذهبي بالزّاهد الوليّ العابد؛ وهو فتح بن سعيد الموصلي، من أقران إبراهيم بن أدهم.

الدُّموع لئلا تكونَ الدموعُ ما صحّت لي ولا قُبلَتْ مِنّي!

قال: ثم توفّي ـ رحمه الله ـ فرأيته في المنام، فقلت له: ما فعلَ الله بك؟

قال: غَفر لي مولاي ورَحمني.

قال قلت له: فماذا صنعَ في دُموعك؟

فقال لي: قَرّبني ربّي ـ سبحانه ـ، وقال لي: يا فتح بكيت الدّموعَ علىٰ ماذا؟ فقلتُ: يا رَبّ وأنتَ أعلم، علىٰ تخلّفي عن واجب خَوفك، قال لي: والدّمُ علىٰ ماذا؟ قلت: علىٰ دُموعي خَوْفاً منك أنّها لا تصحُّ لي.

فقال لي المولىٰ جلّ جلاله: ما أردتَ بهذا كلّه؟ وعِزّتي وجلالي لقد صعد إليّ حافِظُك أربعينَ عاماً بصحيفتك ما فيها خطيئةٌ واحدة.

كان أبو مُسلم الخَوْلانيّ[1] ـ رحمهُ الله ـ قد عَلّق سَوطاً في مَسْجِدِ بيتِهِ، يخوّفُ به نفسَهُ، وكان يقول لها:

أنتِ أولىٰ بالضّرب من دابّتي، أيظن أصحابُ محمّد ـ ﷺ ـ أن يستأثروا به، ويَخْتَصّوا به؟ كلاّ! والله لَنُزَاحِمنَّهُم عليهِ في اتّباعه حتّىٰ يعلموا ـ رضي الله عنهم ـ أنّهم خَلّفوا وراءَ ظُهورهم رجالاً تقرُّ بهم أعينهم.

ثم يخوّفُ نفسَهُ ويقولُ لها: قُومي فوالله لأَزْحَفَنّ بك زَحْفاً حتّىٰ يكونَ الكَلَلُ منكِ لا مِنّي. فإذا كَلّتْ نفسُه ضرَب ساقَهُ بالسّوط ويقولُ لها: أنتِ أحقُّ بالضرب من دابتي![2]

---

(١) سبقت الإشارة إليه.

(٢) زاد في (ب) وأنشدوا، والشعر من بحر الوافر.

نحِيلُ الجسمِ مكتئبُ الفؤادِ تراهُ بِقُنَّةٍ أو بطنِ وادِ[1]
ينوحُ على معاصٍ فادحاتٍ يكدّر ثقلُها صفوَ الرّقادِ
فإنْ هاجَتْ مخاوفهُ وزادَتْ فدعوتهُ: أغثني يا عمادِي
فأنتَ بما ألاقيهِ عليمٌ كثيرُ الصَّفح عن زَلَلِ العبادِ[2]

[١٢٧/ب] هٰذه سيرةُ السّلف المحبِّين، ومراقبة المُجتهدين، وطريقةُ الصالحين، وأحوال أصحاب رسول الله أجمعين، ومَنْ بَعدهم من التّابعين، فكيفَ نَدّعي المحبّة، ونطلبُ السّيادة عند الله مع تمرد[3] أنفسنا عن العِبادات، وعَدم مُساعدتها علىٰ الطّاعات، وسرعةِ اتّباعها للشّهوات، وكثرة وُقوعها في المُخالفات!

فَداوِ نَفْسَك يا مَغْرُورُ بمطالعةِ أحوالِ المحبّين، ولازمْ تفكّرها في آثارِ السّادةِ المُجتهدين، ولا تغفلْ عن سَماعِ أحوالِهم، ورَوِّضْ نفسَك علىٰ الاقتداءِ بِهم، وعلى الرُّكونِ إلى أفعالهم، وإيّاك والاقتداء بالجَهلة الغَافِلين، وتكثير سواد حزب الشّياطين، فإن بينَ يديكَ عقاباً شداداً، وأزمات، والمطّلعُ عليكَ خَبِيرٌ، والنّاقدُ لكَ بصيرٌ، والعالم مطّلِعٌ علىٰ الضّمير[4]، فاتّقُوا الله حقّ تقاتِه وسارِعُوا إلىٰ مَرْضَاتِه؛ فإنكم لله راجِعُون ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨١].

وتأمّلْ أحوالَ الخائفين إذا أردتَ أن تكون من النّاجين. قال أبو

---

(١) القُنّة: الجبل الصغير، والأكمة الململمة الرأس، وقنّة كل شيء: أعلاه.

(٢) في ب: عن ذنب العباد.

(٣) في ب: نفور.

(٤) في ب: والمطلع عليك عليمٌ خبير، والمنتقد لك بصير، والقادر مطلّع...

سُلَيْمان الدَّاراني[1] ـ رحمه الله ـ:

بِتُّ ليلة عند رابعة العَدويّة[2]، فقامت إلىٰ محرابٍ لها، وقمتُ أنا إلىٰ ناحيةٍ من البيت، فلم تَزلْ قائمةً إلىٰ السَّحَرِ، فلمّا كان السَّحَرُ قلتُ لها: ما جَزاءُ مَن قَوّانا علىٰ هٰذه الليلة؟

قالتْ: جزاؤُه أن نَصُومَ له غداً.

وكانت شعوانة[3] تَقُول في مناجاتها: «إلٰهي ما أَشْوَقني إلىٰ لقائِك، وأعظَمَ رجائي لِجَزائك، وأنتَ الكريمُ الّذي لا يخيبُ لديك أملُ الآملين، ولا يبطلُ عندكَ شَوْقُ المُشتاقين.

إلٰهي إنْ كان دَنا أجلي، ولم يُقَرِّبني عِندكَ أمَلِي فقد جعلتُ الاعترافَ بالذّنب وسيلةَ عَملي، فإن عَفَوْتَ فَمَنْ أولىٰ منكَ بذلك؟ وإنْ عَذَّبْتَ فَمنْ أعدلُ منكَ هُنالِكَ؟

إلٰهي قد جُرْتُ علىٰ نَفْسِي في النَّظر لها، وبقيَ لها حُسْنُ نَظرك، والوَيْلُ لَها إن لم تُسْعِدها.

---

(١) أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المذحجي، زاهد مشهور، نسبته إلى داريا (من بلدان الغوطة الغربية قرب دمشق) رحل إلى بغداد مدّة، ورجع إلى الشام، وتوفي بداريا سنة ٢١٥ وكان من كبار المتصوّفة، له أخبار في الزّهد.

(٢) ورابعة بنت إسماعيل العدويّة، أم الخير، مولاة آل عتيك، البصرية. توفيت بالقُدس سنة ١٨٥. وفي سنة وفاتها خلاف. ورابعة مشهورة في أهل التقوى والصّلاح والزّهد. ولها أخبار كثيرة.

(٣) الشعوانة في اللغة: الجُمّة من الشعر المشعان (المتفش).

ـ وسمّي بـ شعوانة. والمقصودة بالخبر هي شعوانة، عابدة من عابدات الأُبُلّة. ونُقل عنها مواقف في الزهد والعبادة، وأقوال حسنة. ينظر أعلام النساء ٢: ٢٩٩ ـ ٣٠٠ وإحالاته.

إلٰهي إنّك لم تزلْ بي بَرًا أيّامَ حياتي، فلا تَقْطَعْ عَنّي بِرّك بعدَ وفاتي.

إلٰهي إن كانتِ الذّنوب قد أخافَتْني، فإنّ محبتي لك قَدْ أَرْجَتني».

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ [١٢٨/أ] قال: سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقولُ في بعض خطبه[1]:

«أيُّها النّاسُ! لا تَشْغَلنكم دُنياكم عن أُخراكم، ولا تؤثروا هَواكم عن طاعة ربكم، ولا تَجْعلوا إيمانكم ذَرِيعةً إلىٰ مَعاصِيكم، وحاسِبُوا أنفسكم قَبْلَ أن تُحاسَبُوا ومهّدوا لها قبل أن تُعَذّبوا، وتزوّدوا للرحيل قبل أن تُزعَجُوا، فإنّما هو موقفُ عَدل، واقتِضاءُ حَقّ، وسؤالٌ عن واجب. وقد أبلغَ في الإعذار مَن تقَدّم في الإنذار.

فتأمّلُوا ـ زادكم الله حباً في هذا النبي العظيم[2] ـ وتبادروا كلام هٰذا النّاصح الكريم، فلقد والله حَذّر وأنْذَر، وبَلّغ وبَشّر، وليسَ للمُذنب مِثلي إلا مَحبّتُه وطلبُ شفاعته، ولا وسيلةَ لي مع إسرافي إلا التوسُّلُ به عند مَنْ بعَثه بهدايةٍ.

ولسانُ حالي ومن ضاهيتُ أمثالي يُنشد ويقول، ويتوسل إلىٰ الرّسول.

ذُنوبي قَطّعت عنّي رجائي فَما عُذري غَداً يوم الحسابِ[3]

---

(١) في سنن الترمذي حديث في معنى حديث ابن عباس، وفيه: ويروى عن عمر بن الخطاب قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبُوا وتزيّنوا للعَرْض الأكبر وإنما يخفّ الحساب يوم القيامة على مَنْ حاسبَ نفسَهُ في الدّنيا.

(سنن الترمذي ـ القيامة: ٢٥).

(٢) في ب: «رحمكم الله وزادني وإياكم حباً في...».

(٣) من بحر الوافر.

إذا نُوديتُ: قُم فاقْرأ كتاباً وقد لاحَ الخطايا في الكتاب!

فكمْ من منطقٍ قد صار بكماً ولم يَقدر علىٰ رد الجوابِ[1]

وكم وَجْهٍ صبيحٍ عادَ فحماً يلقىٰ فيه أنواعَ العَذابِ[2]

وكم شيخ ينوحُ علىٰ مَشِيْبٍ وكم شاب ينادي: يا شبابي![3]

فيا حنانُ يا منانُ فاعْطِفْ وجدْ بالعَفْو لي قَبْلَ العِقَابِ[4]

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد النبي الكريم، وعلىٰ آله وصحبه أفضل التسليم.

---

(١) في ب: فكم من ناطقٍ.

(٢) في ب: وجه مليح. وفي ج: عاد محمًى.

(٣) في ب: وكم شب. وفي ج: شايب (كذا) ـ ويلزم تخفيف الباء من شابّ على رواية (أ) ليستقيم الوزن.

(٤) في ب: فيا حنان يا منان جُدْ لي بعفوك والأمان من العقابِ

باب

في معنىٰ اسمه

المتقي وإمام المتقين

صلىٰ الله عليه وسلَّم وشرَّف وكرَّم

المُتَّقي[1]، وإمامُ المتَّقين: اسمان من أسمائِه عليه أفضلُ الصَّلاة والسّلام، ورَدا علىٰ السُّنَّة السّنيّة، وأجمعَ عليها الأُمّة المحمدية.

ـ فالمُتَّقِي: هو المُتمثلُ لأوامرِ الله تَعالىٰ، والمُجتنبُ لنواهيه.

ـ وإمَامُ المتَّقين: أي قائدهُم إلىٰ الصّراط المُستقيم، ودالُّهم علىٰ آثار الدّين القَوِيم، لأنّ المُتّقين كلّهم: أوّلهم وآخرهم لائذون بِسُنّته، مُتَمسّكون بطريقته، لأنّه[2] ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ أخشىٰ الخَلْقِ إلىٰ الله وأتقاهم، وأشدّهم يقيناً وعَزماً، وأقواهم.

وأصلُ الإمام[3]: المتّبعُ، والهادي لمن اتّبعه، والمتقدّمُ [١٢٨/ب] بين يَدي القَوم، والشّافِعُ لِمَنْ خَلْفَه.

---

(١) إمام المتقين في سُبل الهدى والرّشاد: ٥٣٣ والمتقي؛ فيه: ٦٢٥ وفي الرياض الأنيقة: ٢٣٤.

(٢) في ب: لأنه كان عليه الصلاة والسّلام.

(٣) في ب: وأصل الإمام هو المتبع.

والمُتّقي: هو الذي جعلَ وقايةً بينَهُ وبينَ النّار ينجُو بها في دار القَرار.

قال عمر بنُ عبد العزيز ـ رحمه الله ـ: التّقوىٰ ألاّ يَراكَ مولاكَ حيثُ نَهاك، ولا يفقدَكَ حيثُ أمرك.

فمن امتثل المأمورات، واجتنبَ المنهيّات فهو المتّقي، وهٰذه هي التّقوىٰ الخاصة، ولا يصدقُ ذٰلك حقيقةً إلا علىٰ مَنْ عَصمه الله من أنبيائه (أو حَفِظَهُ الله من أوليائه)، فإنّهم صلوات الله عليهم كلّهم مُطَهَّرُون، لا يَعْصُون الله ما أمَرهم ويفعلون ما يؤمرون.

فهم المتقون حقاً المطيعون لله، وإمامهم وخاتمهم، وواسطةُ عقدهم هو نبيّنا ومولانا محمّد ـ ﷺ ـ فإنه أشدّ الخَلق حفاظاً[1] علىٰ أوامرِ مَولاه وأبعد الخَلق عن الذي حذره الله عنه ونَهاه.

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ [2]: «ما خُيّر رَسُول الله ـ ﷺ ـ بين شيئين إلا اختارَ أيْسرَهما ما لم يكن إثماً، فإن كانَ إثماً كانَ أبعدَ النّاسِ عنه».

فكان ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ لشدّة تَقواه لله تعالىٰ وإمامته للمتّقين قد حازَ منها ذُروتها، فَانْفرَد بها عن الوُجود مُرتقياً في أعلىٰ عِلّيين.

فهو أشدُّ الخَلق خَوفاً من رَبّه، وأَقْواهم معرفةً، وعِلْماً به، وأمكَنهم طاعةً لله، وأجدهم[3] عبادةً لمولاه مع قوّةٍ وأدبٍ ووقارٍ وحُسن

---

(١) في: أ و: ب: حِفظاً. ورجّحت ما أثبت.

(٢) أورده القاضي عياض في الشفا (مصر ١: ١٦٣).

ـ وهو في صحيح مسلم ١٨١٣ وصحيح البُخاري ٤: ٢٣٠.

(٣) في ب: وأجهدهم.

سَمت وتؤدة، وبلوغ مُروءة، وتمام هُدًى وزُهد وتمكّن خوف، ونَظر في عاقبة، ومُشاهدة للمغيّبات، وبكاء وخُشوع في سائر الأوقات، قائلاً - ﷺ -[1]: «لو تعلمونَ ما أعلمْ لضحكتُم قليلاً، ولبكيتُمْ كثيراً»!

وفي رواية[2]: «ما تلذّذتم بالنّساء علىٰ الفُرش، ولخرجتم إلىٰ الصُّعُداتِ تَجْأرُون إلىٰ الله».

قالت عائشة - رضي الله عنها -[3]: «كان عملُ رسول الله - ﷺ - دِيمَةً، وأيّكُمْ يطيقُ ما كانَ يُطيقُ؟». قالتْ: كان يصومُ حتّىٰ تقول لا يُفطر، ويُفطر حتّىٰ تقول لا يصوم وكان لا تَشاءُ أن تراهُ من الليل مصلّياً إلا رأيته مصلّياً، ولا نائماً إلا رأيته نائماً».

قال ابنُ أبي هالة - رضي الله عنه -[4] «كان - ﷺ - متواصل الأحزان، دائمَ الفِكرة، ليستْ له راحة».

وقال عليّ - رضي الله عنه - سألتُ رسول الله - ﷺ - عن سُنّته فقال[5]: «المعرفةُ رأس مالي، [١٢٩/أ] والعقلُ أصل ديني، والحبُّ أساسي، والشّوقُ مركبي، وذِكْرُ الله أنيسي، والثّقةُ كنزي، والحزنُ رفيقي والعِلمُ سلاحي، والصّبْرُ ردائي، والرضا غنيمتي، والفقر فخري، والزهد

---

(١) الحديث في الفتح الكبير ٣: ٤٣.
(٢) في الفتح الكبير أيضاً تتمّة للحديث السّابق.
- الصُّعدات جمع الصعيد وهو الطريق. ومعنى جأر: رفع صوته مع تضرّع واستغاثة.
(٣) كان عمله ديمةً... الحديث؛ صحيح مسلم ١: ٥٤١؛ وكان يصومُ... الحديث في صحيح البخاري ٢/ ٢٤٤.
(٤) هند بن أبي هالة واسمه النبّاش، التميمي، ربيب النبي ﷺ، أُمّه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها. (تقريب التّهذيب: ٥٧٤).
- والعبارة في الشفا ١: ١٨٧.
(٥) الخبر في الشفا ١: ١٨٧.

حرفتي، واليقين قوتي، والصِّدْقُ شَفِيعي، والطاعةُ حَسْبِي، والجهادُ خُلقي، وقُرّةُ عَيني في الصَّلاة».

وفي رواية ـ وثمرةُ فؤادي في ذكر الله، وغمّي لأجل أمتي، وشَوقي إلىٰ ربّي[1].

وقد روىٰ كعب الأحبار، وعبد الله بن سلام ـ رضي الله عنهما ـ في صفةِ رسول الله ـ ﷺ ـ في التوراة، فَذكرا فيها صفاتٍ وصفه بها ربه جلّ جلاله[2] ثم قال في آخرها مولاه وخالقه ومانحه: أُسدّده لكلّ جميل، وأهبُ له كل خُلقٍ كريم، ثمّ أجعلُ السّكينة لباسَهُ، والبِرّ شعاره، والتّقوىٰ والحكمةَ معقوله، والوفاءَ طبيعتَهُ، والعفْوَ والمعروفَ خُلقه، والعدْلَ سِيرته، والحقَّ شَرِيعته، والهُدىٰ هامته[3] والإسلام مِلّتَهُ، وأحمدَ اسْمَهُ: أَهْدِي به بعدَ الضّلالة، وأعلم به بعدَ الجهالة، وأرفعُ به بعد الخَمالة[4]، وأُسَمّي به بعد النّكرة، وأكثر بِهِ بعد القِلّة، وأُغْنِي بِهِ بعدَ العَيْلة، وأَجْمَعُ به بعدَ الفُرقة، وأؤلّف به بينَ قُلوبٍ مُختلفة، وأهواء مُتشتّتة، وأمور متفرّقة[5] وأجعلُ أُمّته خيرَ أُمّة أُخرجت للنّاس.

فَبِتحَقّقِ هٰذه الصّفاتِ فيه كانَ نبيُّنا ـ ﷺ ـ إمامَ المتقين، وبناء ضميره عليها، استحقّ التّقْدِمَة بينَ يدي الكاملين، وبجدّه في طاعةِ مَولاه سَمّاه سيّد المُرسلين، هٰذا مع كونِ الله تعالىٰ شرحَ له صَدْرَه، ويَسّر له

---

(١) الرواية في الشفا في آخر الخبر السابق.
ـ وفي ب: وشوقي إلى لقاء ربي.
(٢) في ب: فذكرا فيها صفاته التي وصفها.
(٣) في ب: إمامه.
(٤) يقال خَمُل خمالة: اتّضع ذِكره، ضِدّ نَبُه نباهة.
(٥) في ب: وأمم متفرّقة.

أمْرَهُ، ورفع ذكره، وأخبره وبَشّره أنّهُ مغفورٌ له - ﷺ - وعلىٰ آلهِ وشَرّف وكَرّم.

فكَمْ سجدةٍ لله سَجدةِ خاشعٍ وكم وقفةٍ بالليل وقفةِ قائمِ[1]
ولو شاءَ لم يجهدْ لغفرانِ رَبّه لهُ كلُّ ذنبٍ من قديمٍ وقادمِ
ولكنّه عبدٌ شكورٌ لربّهِ مُجَازٍ عن الحُسنىٰ بحسنِ مكارمِ
لقد كانَ ما يَخْشىٰ مع الله غيره ولا يتّقي في الله لومةَ لائمِ
عطوفٌ رؤوفٌ بالعبادِ مُقَرّبٌ لأهلِ التّقىٰ، للخلقِ أرحمُ راحِمِ

هٰذه حالهُ، وما كانَ عليه - ﷺ - من كمالِ الخَوْف المُزعج، واتّباع الطريق الأنْهَج، وشدّة قواه[2] لله تعالىٰ [١٢٩/ب] وتحذيره من النّارِ للمُهَج، قائلاً في خطبه - ﷺ -:

«أيُّها النّاسُ! اتّقوا الله حَقّ تُقاته، وسارِعُوا في مَرْضاتِه، وأيْقِنُوا من الدّنيا بالفَناء، ومن الآخرةِ بالبقاء، واعْمَلُوا لِما بَعْدَ الموت، فكأنّكم بالدُّنيا لم تكن، وبالآخرة لم تَزَلْ.

أيّها الناس! إنَّ مَنْ في الدنيا ضَيف، وما في يده عارِيّة وإن الضّيف مُرتحل، والعارِية مَرْدودة، ألا وإنّ الدُّنيا عَرض حاضر، يأكلُ منها البَرُّ والفَاجِر، والآخرة وعدٌ صادِقٌ يحكمُ فيها مَلِكٌ قادر، فَرحِمَ الله أمرأً نظرَ لنفسِه، ومَهّدَ لرمسه، ما دام رَسَنُه مُرْخَى[3]، وحبلُه علىٰ غارِبهِ ملقًى؛ قبلَ أن ينفدَ أجَلُه فينقطعَ عمله».

---

(١) من بحر الطويل.
(٢) في أ: تقواه.
(٣) ما دام رسنهُ مُرخًى، وحبلُه على غاربه ملقى؛ كنايتان، يراد منهما هنا امتداد العُمر والفُسحة في الأجل.

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ نبينا - ﷺ - إمام المتقين أن يكونَ ساعياً في حُضورِ التّقوىٰ جاداً في طاعةِ رَبّه قبل أن يندمَ في دار البَلْوَىٰ، لأنّ مَنْ دَخل حِزب المتقين ووُسِمَ بسمات شعائر الصالحين، كان المصطفىٰ إماماً له، وقائده إلىٰ ثواب ربّ العالمين.

والتّقوىٰ الخاصّة إذا حصَلت للمُؤمن كان وَلِيّاً، وصَدق في تقواه صدقاً مَرْضِياً، (وكانَ من المتّقين وهم الصّادقون)، قال الله في كتابه العظيم ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٧].

فانظروا - رحمكم الله - هذه الآية الكريمة، كيف فسّرت الصادقين في أعمالهم، والمتّقين في أحوالهم، وهم الذين يُؤمنون بالله واليوم الآخر، ويُقيمون الصّلاة، ويُؤتون الزّكاة، ويُوفون بعهدهم ويَصْبِرُون علىٰ ضررهم.

وبالجُملة: بالتّقوىٰ تجمع امتثالَ كلّ مأمور به، والمُحَافظة عليه، واجتنابَ كُلّ منهيّ عنهُ من التلبّس به، والقُرب إليه[1]، فلا تطمعْ أن تكونَ متّقياً حتىٰ تكون حسَنَ المُعاشرة، كريمَ الصنيع، ليّن الجانب، باذلاً للمعروف، مُطعماً للطعام، مُفْشِياً للسّلام، عائداً للمَرْضَىٰ، مشيّعاً

---

(١) في ب: والتقرب إليه... كريم الصنيعة.

للجنائز، مُحسناً للجوار، مُوَقِّراً للكبار، راحماً للصِّغار، عَفُوّاً عن الزّلاّت، مُصلحاً بين الناس، كريماً سَمْحاً، مُبتدئاً بالسّلام، كاظماً للغَيْظ [١٣٠/أ] جامعاً لِخصالِ الخَيْر، تاركاً لخصالِ الشرّ، مُعْرِضاً عن الباطل والغِنَاء والأوتار؛ تاركاً للكذبِ والغيبة والغِشّ والخَدِيعة، والشحّ والجَفاء والنّميمة، وسُوء الظنّ، وقطيعةِ الأرحام، وسُوء الخُلق، والتكبّر والفخر، والعُجب والاخِتيال، والمُزَاح والفُحش، والحِقد والحَسَد، والطِّيَرة، والبَغْي، والعُدوان والظلم، والرّياء والسُّمعة.

فإذا علمت هٰذه المأمورات وفَعَلْتَها، وعَرفْتَ هٰذه المَنْهِيّات واجْتَنَبْتَها، رَجَوْتَ مِن مَوْلاكَ أن تكونَ عِنْدَهُ مُتَقياً ومن عقابهِ في الدّار الآخرة ناجياً.

ولقد حَذّرنا نبينا ـ ﷺ ـ من هٰذه المَنْهِيّاتِ، وحَثّنا علىٰ فِعْلِ هٰذه المَأمُورات.

قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: فلم يدع رسول الله ـ ﷺ ـ نصيحةً جميلةً إلا وقد دَعانا إليها، وأمَرنا بها، ولم يَدعْ غِشّاً ولا عَيْباً إلا وحَذرنا منهُ ونَهانا عنه.

وقال مُعاذُ بنُ جَبل ـ رضي الله عنه ـ: أوصاني رسولُ الله ـ ﷺ ـ قال لي: يا معاذا أُوصيك بتقوى الله، وصِدْق الحديثِ، والوفاءِ بالعهد[١]، وأداءِ الأمانةِ، وتَرْكِ الخِيانة، وحِفظ الجار، ورحمةِ اليتيم، ولِيْنِ الكَلام، وبَذْل السّلام وحُسن العَمل، وقِصَرِ الأمل، ولُزوم الإيمان، والتّفَقُّه في القُرآن، وحُبّ الآخرة، والجَزع من الحِساب، وخفض الجَناح.

---

(١) في ب: والوفاء بالعهود.

وأنهاكَ أن تشتم حليماً، أو تكذّبَ صادقاً، أو تطيعَ آثماً، أو تعصي إماماً عادلاً، أو تفسد أرضاً.

أُوصيكَ بتقوىٰ الله [عند كل حجر ومَدَر وشجر] وأن تحدث عندَ كلّ ذنبٍ توبةً؛ السّرّ بالسرّ، والعَلانية بالعَلانية.

هذه صفاتُ المتّقين، وشعارُ الصّالحين، وطريقةُ أولياءِ الله المُتّقين[1]، وسلوكُ القوم النّاجِين.

فمع[2] تحقق هذه الصفات في النفوس تحقّقُ الكرامَةُ، ومعَ ثُبوتها، ودَوامها تظهرُ الاستقامة ونحنُ فَما بقيَ فينا من التّقوىٰ طريقٌ به يُقتدى، ولا ما نَرْجُو به النّجاة إلا حُبّ النبيّ مُحَمّدٍ.

ولقد صَدق بعضُ الأولياء من الشُيوخ المتأَخِّرين ونصحَ بقصيدةٍ له، وذكرَ فيها سلوكَ العالمين:

والزمْ سبيلَ الصّالحينَ فهديهُمْ سنن النبيّ فليسَ يخفىٰ أمرهُمْ
نَهجُوا السّبيلَ لنا ففرضٌ شكرهُمْ ودَعِ الحديث مع الولاةِ فأمرهُمْ
أضحىٰ سقيماً فانياً متخوّفا [١٣٠/ب]

ثم قال:

وازجُرْ ذوي التشكيك في تشكيكِهِمْ واهجُرْ قبيحَ فِعَالهم وشُكوكِهِمْ
واركنْ إلىٰ أهل الهُدىٰ وسلوكِهِمْ ودَعِ العبيدَ لربّهمْ ومليكِهِمْ
ولحكمِهِ إن شاءَ عذّبَ أو عَفا

---

(١) في أ: الموقنين.

(٢) في ب: فمن تحقق.

فعساكَ تنجُو من زمانكَ سالماً وتكونُ في كلّ الأُمور مسالماً
واضرعْ لربِّك بالإنابةِ عالماً حتّىٰ ترىٰ عيسىٰ ابْنَ مَرْيَمَ حاكماً
يقضي بحقٍّ في الأنام مُصَرِّفا

ثم قال في وصف الفقير المُتّقي إذا كانت له رغبة:

كن راغباً إنس الوجود وجنُّهُمْ فالناس طرّاً أحْسَنُوا بكَ ظَنَّهُمْ
ورأوا مخافتهم لديكَ وأمنهم فاقْهَرْ رجالكَ ما استطعتَ فإنَّهُمْ
أبْدَوْا سَخافةً من عَتا وتعسّفا

شِيَمُ الرِّجالِ تعزّزٌ في ذِلّةِ أصليةٍ في الإرث لا مُعتلّةِ
من نالَها قد نالها بأدلّةِ[1] فالفقرُ حالٌ لا يُنال بِصَوْلةِ
فاسلُكْ بذلٍّ فالإمامُ قد اختفىٰ

هو أحمدُ الدّاعي لأكرمِ راحمِ قد خصّه رَبُّ العُلاَ بِمَكارِمِ
فاختاره للرّسل أكرم خاتمِ[2] خيرِ البريّةِ من ذُؤابةِ هاشمِ
ذاكَ الإمامُ فَلا تكُنْ مُتَحرِّفا

وقد رَتّب مولانا جَلّ جلالُه علىٰ من حَصّل منّا التّقوىٰ أن يُصلِحَ لنا أعمالَنا، ويغفرَ لنا ذنوبَنا، فقال عزّ وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٧١].

ورتّب ـ سبحانه ـ علىٰ حصولِ التّقوىٰ في عبيد أن يجعلَ لهم من أمرهمْ مَخْرَجاً، ويَدُرُّ عليهم رزقه، ويُدخل عليهم من حيث لم يحتسبوا

---

(١) في ب: قد نالها مع ذلّة.
(٢) في ب: فاختاره أكرم به من خاتم.

فَرجاً، فقال جلّ جلاله ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٦٥/ ٢ ـ ٣].

وإذا صدقَ العبدُ في تقواه، نَجّاه الله مولاه من بَلْوَاه. وتذكَّرْ قضيّة الثلاثة الذين أووا إلىٰ غارٍ فانطبقت عليهم الصخرةُ علىٰ باب الغار[1]، فلم يجدُوا مَسْلكاً للخُروج، ويئسوا من زَوالها وانقطعت العَلائق، وذهبتْ عنهم حِيَلُها، فما بقي لهم إلا الوثوق بمفرّج الكربات وقاضي [١٣١/أ] الحاجات عند الشدائد والأزمات، فألهَمَهُمْ مولاهُمْ بجودهِ وكرَمهِ، فتذكّروا أحسَنَ الأعمال الّتي أخْلَصُوها، وتدبّروا في الفَضائل من التّقوىٰ التي عند الله ادَّخَرُوها، فقالوا:

تعالَوا نتوسَّلُ إلىٰ الله ـ سُبحانه ـ بأرْجَىٰ أعْمالنا، ونتعلّقُ ببابِ الكريم، ونسأله في خَلاصِنا، فقال أحدهم:

اللَّهُمّ إنّه كانَ لي أبَوان نائمان، وحضر طعامٌ فكرهْتُ أن أنالَ منهُ قبل أبَويّ، وكرهتُ أن أُوقظهما من نَومهما والصبيان يتضاغَوْن، وكرهتُ أن أُقدّمهم عليهما. اللهمّ إنْ كنتُ فعلتُ هذا لأجلكَ فافرُج عنا فُرجةً نرى منها السّماء. فَقبل الله تعالىٰ دَعْوَتَهُ، وتحرّكَت الصخرةُ عن فم[2] الباب بمقدارٍ يسير.

ثم دعا الآخَرُ المولىٰ ـ جلّ جَلالهُ ـ وذكر أنّ أجيراً كان عنده[3]،

---

(١) في ب: فانطبقت على فم الغار صخرةٌ فلم يجدوا... فلم يبق لهم.

(٢) في ب: عن فم الغار.

ـ ومعنى يتضاغون: يصيحون ويبكون.

(٣) في ب: فاستكمل أجرته ودفعها له؛ فلمّا استقلّها الأجير ذهب وترك. فأمسكها عنده، فثمّرها ونمّاها له حتى اشترى له منها بقراً وغنماً. فبعد مدّة جاءه الأجير فطلبه، فقال له: كلّ ما رأيت من البقر والغنم فهو لك، فاستاقها الأجير وذهب بها. ثم قال اللهمّ....

وأمسكَ أجرَهُ، ونمّاه له بقراً وغنماً فطلبَهُ الأجيرُ فقال له: كلُّ ما رأيتَ من البَقرِ والغَنم فهو لك. ثم قال: اللهمّ إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهِكَ فافرُجْ عنّا، فانزاحت الصّخرةُ أيضاً شيئاً يسيراً.

فقال الثالث: اللهمَّ إنه[1] كانتْ لي ابنةُ عَمٍّ كنتُ أحبّها، فخلوتُ بها، وتمكّنتُ منها فقالت لي: اتّقِ الله يا عبدَ الله، ولا تَفُضَّ الخاتم إلا بحقّهِ فتركتُها، اللهمّ إنْ كنتُ فعلتُ هذا ابتغاءَ وجهكَ فافرُجْ عنّا، ففرّجَ الله تعالىٰ عنهم، وزالت الصّخرة عن فمِ الغَار حتىٰ خرجوا.

فتدبروا[2] ـ رحمكم الله ـ كيف جعل الله تعالىٰ التّقوىٰ سبباً في خَرْقَ العَوائد، وَفَرَجاً، وفُتوحاً لباب الفوائد، وكذٰلك هي كراماتُ أولياءِ الله: نشأت عن أعمال وفضائل وخصال:

فالمنصفُ المُثني عليهم راغبُ   في حُبّهم وإلىٰ رضاهُمْ ذاهِبُ
ومن العَداوةِ والتّباغُضِ راهبُ   والأجنبيّ مُجَانِفٌ ومحاربُ[3]
جُبِلت جِبلّتُهُ علىٰ مَرّ الجَفَا

يا وَيْحَهُ إنْ صَدّهم عن قُربهم   ما قد جَنىٰ من ذَمِّهِمْ أو عَتْبهمْ
يا وَيْلَهُ إنْ لم يَتُبْ من عَتْبِهمْ[4]   فالله يَرْزُقُنا الوفاءَ بِحُبّهمْ
فبحبهم وبذِكرهمْ نرجُو الشّفا

---

(١) في ب: إني كانت لي.
(٢) في ب: فتذكّروا.
(٣) المجانف: الجائر.
(٤) في ب: يا ويله إن لم أكن من حزبهم.

رضي الله عنهم وأرْضَاهُم، وأعادَ عَلَيْنا من بَركتهم، وجَعَلنا في جِمَاهم [وحشرنا في زمرتهم] ـ وصلّىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً.

باب

في مَعْنَىٰ اسمه

قائد الغُرّ المُحَجَّلين (١)

صلّىٰ الله عليه وسلّم وشَرّف وكَرّم

[١٣٠/ب] قائد الغُرّ المُحَجّلين اسمٌ من أسماءِ سَيّد المُرسلين وردتْ بمعناه الآثارُ المرويّة، وأطلقت ذٰلك الأمّةُ المحمّدية.

ـ ومعنىٰ قائدهم أي: سائقهم.

ـ ومعنىٰ الغُرّ المحجلين استعارةٌ وبلاغةٌ عجيبة، وأصل الغُرّة البَياض الذي في وَجْه الفَرسِ، والتَّحْجِيل: أَصلهُ البَياض الذي في ساقيها. ثم استعار ﷺ ذٰلك لأُمّتِه فأطلق علىٰ هٰذه الأُمّة المحمدية: غُرّاً محجلين لأجل بَياضها ولَمعان نُورها في وُجوهها وأرجلها، فتصير لهم عَلاماتٌ (من) بَيْن أهل المَحْشَر، يُعرفونَ بها في جَميع الأُمم؛ إكراماً لنبيه الذي مَنّ الله عليها بتصديقه، واتّباعه، وهَداها إلىٰ مَرْضاته.

فإذا شاهدَ المصطفىٰ ـ ﷺ ـ أُمّته في المحشرِ عَرفها بغُرّتها وتَحجيلها، فَرحِمَها الله تعالىٰ به، فقادها وساقها حتىٰ تشربَ من حوضه العظيم، ويذهبَ ظمؤها بِورده السَّليم.

---

(١) قائد الغرّ المُحَجّلين في الشّفا ٣٢٠ والرياض الأنيقة: ٢٢٣ وسبل الهدى والرشاد: ٦١٥.

وعن حُذيفة - رضي الله عنه - قال، قال رسول الله ﷺ -[1]: إنّ حوضي لأبعد من أيلة إلى عَدَنٍ[2]؛ والذي نفسي بيده[3] إنّي لأذودُ عنه الرّجال كما يذودُ الرجلُ الإبلَ الغَريبة عن حوضه، قالوا: يا رسولَ الله وتَعْرِفُنا؟ قال نعم، تَرِدون عَليّ غُرّاً محجّلين من آثارِ الوُضوء، ليستْ لأحدٍ غيركم.

فأشار عليه الصلاة والسلام - إلىٰ أن حوضه على قدره وعظمه أول ما يردهُ أُمّتُه وهو يطردُ عنه الخلائقَ من سائِرِ الأُمم حتىٰ تشربَ منه هذه الأمّة المحمّدية، ويظهرُ قَدْرُها ومنزلَتُها عند سائرِ الأمم، ويتبينَ فضلُها بفضل سيّد البرية.

ومن طريق أبي هريرة - رضي الله عنه -[4] أن النبي - ﷺ - أتىٰ المقبرة فقال: السّلام عليكم دارَ قَوْمٍ مُؤمنين وإنّا إنْ شاءَ الله بكم لاحقون، وددتُ أنّا قد رأينا إخوانَنا، فقالوا ألَسْنا بإخوانِك يا رسول الله؟ قال: لا! بل أنتم أصحابي، وإخوانُنا الذين لم يأتُوا بعد، وأنا فَرَطُهُم على الحَوْضِ.

قالوا: وكيف تعرفُ مَنْ لم يأتِ بَعْدُ من أُمّتك يا رسولَ الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أرأيتَ لو أنّ رجلاً له خيلٌ غُرٌّ محجّلةٌ بين

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة ٣٦ و٣٧ وأثبته في كنز العمال برقم ٣٩١٤١ (وانظر ما بعده).

(٢) في أ: إنّ حوضي كما بين أيلة إلى عَدن.

(٣) زاد هنا في صحيح مُسلم: «لآنيته أكثر من عدد نجوم السّماء ولهو أشدُّ بياضاً من اللّبن وأحلى من العَسل، والذي نفسي بيده...» الحديث.

(٤) صحيح البُخاري ٩: ٥٨ - ٥٩ ومسلم في الطهارة ٣٩ وابن ماجة في الفتن ٥ ومسند أحمد ١: ٢٥٧.

ظهراني خيلٍ دُهْم بُهْم[1]، ألا يعرفُ خيله؟ قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: فإنهم يأتونَ [يومَ القيامة] غرّاً مُحَجّلين من الوُضوء، وأنا فَرَطهم علىٰ الحَوض، ألا فلَيُذَادَنّ رجالٌ عن حَوضي كما يذاد [١٣٢/أ] البعيرُ الضالّ، فأُناديهم ألا هلموا فيقال لي: إنهم قد بَدّلُوا بعدك، فأقولُ: سُحقاً سُحقاً![2].

فما من شاربٍ من حوضِ المُصطفى له غُرّةٌ وتحجيلٌ إلا ونبيُّنا - ﷺ - ساقيه وقائدُه إلىٰ حوضه.

فتدبَّرُوا، زادَنِي الله وإياكم حُبّاً إلىٰ حُبّنا، وضاعفَ في هذا النبي الكريم صدقَنا وودَّنا هٰذه الرحمةَ والرأفةَ والشفقةَ بهذه الأُمّة، وما جُبِلَ عليه من السّيادة، وما أعطاهُ الله تعالىٰ من الرِّفعة، وما كرّم[3] به هذه الأمة في كونها لها هذه الأنوارُ يلوحُ بياضُها، وينصعُ ضوؤها، ويُعلم عند أهل المحشر قَدْرُها، ونبيُّها حريصٌ عليها، سابق بالخيرات[4] إليها، مُشفقٌ عليها، رؤوفٌ بها.

وقد رُوي في بعضِ الآثار أنّ إبراهيم خليل الله رأى الجَنّة، فأصبحَ يقصّها علىٰ قومه، فقال يا قوم! إني رأيتُ الجنّةَ البارحةَ: عرضُها كعرضِ السّماء والأرض أُعِدّت لمحمّدٍ وأُمّتهِ؛ حدائقُها شهادةُ أن لا إلٰه إلاّ الله، وأشجارُها قولُهم محمّد رسولُ الله وأثمارُها قولهم سُبحان الله، والحمدُ لله.

---

(١) الأدهم من الخيل (والجمعُ دُهم): البهيم الأسود الّذي لا شية فيه؛ والبهيم (والجمع بُهم)؛ الأسود، أو الذي لا يخالط لونه لونٌ آخر. والمقصود: السُّود.

(٢) في ب: ألا فليذادنّ رجالٌ. . . فأناديهم ألا هلموا ألا هلمّوا فيقال لي لا تدري ما أحدثوا بعدك.

(٣) في ب: وما أكرم.

(٤) في ب: وسائق الخيرات إليها.

فقال له قومُه: يا خليلَ الله ومَنْ مُحَمّدٌ وآلُهُ وأمّتُه؟ فلم يَدْرِ ـ ﷺ ـ ما يُجيبهم، فخَرّ ساجداً لله.

فأتىٰ جبريل ـ عليه السلام ـ مُجيباً له عن ربّه عز وجل فقال له: يا إبراهيم، محمّد رسولي ونبيّي وخِيرتي من خَلْقي اخْتَرتُهُ وانتخَبته واصطفَيْتُه، وبعثتُه وأنا ربُّ العالمين وعزتي وجلالي، وجُودي وكَرمي لقد خلقتُ محمّداً[1] وآله وأمّته قبل أنْ أخلق السّمٰواتِ بألفي عام ومئتي ألف عام، أحشرُه وأمّته جُرداً مُرداً غُرّاً محجّلين ناعمينَ مَسْرُورين، مغبُوطين؛ يذودُ كلّ نبيٍّ أُمّته، وأُمّة حبيبي محمّد حوله، مكتوبٌ في جباهِهم[2]: ﴿ أَإِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ ﴾ [طه ٢٠/ ١٤]

فلما سمعَ إبراهيمُ عليه السلام هٰذا ـ قيل إنه وضع يَدهُ علىٰ رأسِه وقال: اللّٰهُمّ اجعَلْنِي من أُمّة محمّدٍ حبيبك ـ ﷺ ـ.

وقد رُوِيَ في فضلِ هٰذه الأُمّة العظيمة ببركة نبيها[3] ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه إذا كان يوم القيامة، يوم الحسرة والندامة تنصب علىٰ أمة محمد ـ ﷺ ـ سُرادقات خُضر، ثم ينادي منادٍ يا أُمّة محمد سَترون زلازلَ وأهوالاً، فإذا رأيتم ذلك [١٣٢/ب] فلا تَجْزَعُوا، فالمرادُ بذٰلك غيركم.

فانظُروا ـ رَحِمَكُم الله ـ وجعَلنا من أُمّة نبيّه، وحَشرنا في زُمرته، هٰذه العنايةَ الربّانيّة، والكرامة الإلٰهيّة في تطمينِ قُلوب هٰذه الأمّة رحمةً بها؛ وإظهارِ الشّفقة عليها.

---

(١) زاد في (ب) هنا: وسمّيتُهُ.
(٢) في ب: على جباهم.
(٣) في ب: نبيّنا.

وهنا يحسنُ أن يقال، وينشرح الصّدرُ بحبّ حبيب الملك المُتَعال[1] رضي الله تعالىٰ عن صاحبِ البُردة حيثُ قال[2]:

بُشرىٰ لنا معشرَ الإسلام إنَّ لنا ... منَ العنايةِ رُكناً غَيرَ مُنهدِمِ

لمّا دعا الله داعينا لطاعتهِ ... بأكرمِ الخلقِ كنّا أكرمَ الأُممِ[3]

فصل

مِن آدابِ مَنْ عَلِمَ أنَّ نبيّنا ـ ﷺ ـ قائدُ الغُرّ المحجّلين، وسائقهم إلىٰ حضرةِ المتّقين، فليحافظْ علىٰ أسباب علامات الغرة والتحجيل، لعله أن يحشر مع أمة النبي الكريم الجليل.

وهذه الغُرّة اللامعةُ جعلها الله تعالىٰ ناشئةً عن مفتاحِ الصّلاة، وهي الطّهارة، ومسبّبةً عن إطالتها ودَوَامها، ويظهرُ ذلكَ في يوم القيامة.

قال ـ عليه الصلاة والسلام[4] ـ: «تَرِدُونَ علىٰ الحوض غُرّاً محجّلين من آثارِ الوُضوء». وفي روايةٍ[5]: مَن استطاع أن يطيلَ غُرّته فليفعلْ.

ومعنىٰ إطالة الغُرّة عند جُمهور العلماء[6]: المواظبة علىٰ الوُضوء،

---

(١) في ب: حبيب الربّ.

(٢) ديوان البوصيري: ٢٤٦.

(٣) في الديوان، وفي ب: بأكرم الرُسُل.

(٤) روايته في مسلم وغيره: تردون عليّ غُرّاً مُحجّلين من أثر الوضوء. (الطهارة ٣٧، ٣٨؛ وإتحاف السادة المتقين ١٠: ٥٢، ٥٠١.

(٥) مسند أحمد ٢: ٣٣٤، ٣٦٢، وإتحاف السادة المتقين ٢: ٣٦١.

(٦) في ب: جميع العُلماء.

وإذهاب ما هنالك من الأدران والأوساخ في دار الدُّنيا، والمُحَافظة علىٰ تلك الأعضاء وتنقيتها، لأنّ الله ـ سبحانه ـ لا يَقْبَلُ صَلاةً إلا بطهارةٍ كاملة، وقد بنىٰ الله تعالىٰ الدِّينَ علىٰ الطّهارة والنَّظافة.

فإذا نَوّرت في هٰذه الدار ظاهركَ لمناجاةِ مَولاك كساكَ حُلَّةَ البهاء في تلكَ الدّار، وظهرتْ عليكَ الأنوار، وانتظمْتَ في سلك الغُرّ المُحَجّلين في أُمّة النبيِّ المُختار.

وأبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: كان[1] يفهمُ من الحديث في إطالة الغُرْة أن يزيدَ علىٰ المرفقين في غسلِ اليَدين، ويزيد علىٰ الكعبين في غَسل الرِّجْلَيْن. ورأىٰ أنّ ذلك من إطالة الغُرّة، وفضيلةِ السُّنّة، وخالفَهُ الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ ولم يقولوا بقوله، وفَهِمُوا أن إطالة الغرة: المراد بها الدوام[2] علىٰ الوضوء الحسن، وإسباغه علىٰ أكمل وجه وأحسنه، والوقوف عند حده.

وقد رُئي أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ يتوضّأ، فغسل وجهه فَأسبغَ الوُضوءَ [١٣٣/أ] ثم غسَل يده اليمنى، حتى شرع في العَضُد، ثمّ غَسل يَدهُ اليُسرىٰ كذلك ثم مسَح رأسه، ثم غسَل رجله اليُمنىٰ حتىٰ شَرع في السّاق، ثم غسَل رجله اليُسرىٰ كذلك، ثم قال:

هكذا رأيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ يتوضأ، وقال: أَنتمُ الغُرُّ المحجلون يومَ القيامة من إسباغ الوُضوء.

فَبالِغُوا ـ رحمكمُ الله ـ في تَدليك أعضائكم، واختَارُوا لَهُ ما كانَ

---

(١) في ب: وكان أبو هريرة رضي الله عنه يفهم من الحديث.

(٢) في ب: «وفهموا أنّ المُراد بإطالة الغُرّة: الدّوام» قال ابن الأثير: غرٌ محجّلون من آثار الوضوء. قال الغر: جمع الأغرّ من الغرّة: بياض الوجه، يريد بياض وجوههم بنور الوضوء يوم القيامة.

طاهراً من مائكم، واتَّبِعُوا من صفاتهِ[1] ما ورد عن نَبِيِّكم.

روي عن رسول الله ـ ﷺ ـ[2] أنه توضَّأ مرّةً مرّةً علىٰ أحسن وجهٍ وأكملهِ ثم قال: هذا وضوءٌ لا يَقْبَلُ الله الصَّلاة إلا به، ثم توضّأ مَرّتين مَرّتين فقال: مَنْ تَوضّأ مَرّتين أعطاهُ الله أجْرَهُ مرّتين، ثمّ توضأ ثلاثاً ثلاثاً فقال: هذا وضوئي، ووضوء الأنبياء من قبلي، ووضوء إبراهيم ـ خليل الرّحمن ـ فمن زادَ أو استزادَ فقد أساءَ وتعدّىٰ وظلَم، أو كما قال عليه الصلاة والسلام.

فَحافِظُوا علىٰ طهارةِ الصَّلاة، فإنّها شطرُ الإيمان ولازِمُوا سُنّتها في إعْظَامِها، فإنّها نَجاةٌ من النّيران، وتعلّمُوا فَرْضَ العبادة وسُنَنَها، لِتُناجوا في صلاتكم الملك الدّيّان.

كانَ بعضُ الخائفين إذا دخلَ وقتُ الصلاة، وحان وقتُ الوضوء اصفرّ لونهُ، وقوِيَ حُزنه، وارتَعدت فرائِصُه مخافةً ممّا دخل في عُهدته من تطهيرِ جَوارحه، وإشفاقاً من خَطِيئته، وقيامه بين يدَي رَبّه، مُستحضراً لقولِ الصّادق المصدوق[3]:

«إذا تَوضّأ المُسلِمُ ـ أو المؤمنُ ـ فغسَلَ وجهه خَرَج من وجهه كلُّ خطيئةٍ نظر إليها بعينهِ معَ الماءِ أو مع آخر قَطرِ الماء، فإذا غَسَل يديه، خَرجَ مِن يَديه كلُّ خطيئة بطشتها يداه مع الماء، أو مع آخرِ قطرِ الماء.

(1) في ب: في صفاته.

(2) إتحاف السادة المُتقين ٢: ٣٦٠، ٣٧٤، ومجمع الزّوائد ١: ٢٣٩ وفتح القدير ١: ٢٣٣، ورواية ابن ماجه، «... وضوء من لا يقبل الله منه صلاةً إلا به...» رقم ٤١٩.

(3) في صحيح مسلم (الطهارة): ٣٢، ومسند الإمام أحمد ٢: ٣٠٣ والبيهقي ١: ٨١ وإتحاف السادة ٢: ٣٧٥. والرواية: إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن... الحديث.

فإذا غسَل رجليه، خرجتْ كلُّ خطيئةٍ مَشتها رجلاه مع الماء، أو مع آخر قطر الماء، حتىٰ يخرج نقيّاً من الذنوب. وكان مَشْيُه إلى الصلاة زيادة تحذير وتخويف.

فأين وضوء الخائفين المراقبين، من وضوء الغافلين مثلنا، وأنظارنا من المَغْرُورين، فيا لها من غِرّةٍ لنا ما أشَرَّها[1]، ومِن مصيبةٍ بغفلتنا ما أمرَّها [١٣٣/ب].

يا غافلينَ إلىٰ متىٰ ما نَرْعَوِي ... ونُتابع السّادات من أشياخنا[2]

ونقيم دينَ الله فينا قبلَ أن ... تُدعىٰ إلىٰ دار بها طولُ العَنا

دارٌ بها عَنت الوجوهُ لربّها ... وشقيْ الظّلومُ كما أتىٰ في ذكرنا

ونَجا المطيعُ لربّنا ورسولِهِ ... مَع مَن عَليه الله أنْعَم بالمُنى

والله أرجُو أن يَمُنَّ بتوبةٍ ... ننجُو بها من هَول يومِ وعيدنا

ثم الصَّلاة على النبيّ وآلِهِ ... وعلىٰ الّذين هُدوا السَّبيلَ الأحْسَنا

صلّىٰ الله عليه، وعلىٰ آلِهِ وصحبِهِ وسلّم تسليماً، وجَعلنا مِمَّنْ آمَن بِهِ واتبع هُداه فإنّه كان بالمُؤمنين رحيماً، وزادَه مَولانا شَرفاً وتعظيماً.

---

(١) في ب: من غرّة منّا ما أشرّها، ومن مصيبة ألفتنا ما أمَرّها. والمثبت رواية ج.

(٢) من بحر الكامل.

باب

في معنىٰ اسمه

المُتَوَكِّل

صلىٰ الله عليه وسلم وشرّف وكرّم(١)

المتوكّلُ: اسمٌ من أسمائِهِ ـ ﷺ ـ سَمّاهُ بِهِ مَولاه، وأظهرَ به فضلَهُ علىٰ مَنْ سواه.

عن عَطاء بن يَسار قال، قُلْتُ لعبد الله بن عمرو بن العاص: أَخْبِرْني عن صِفَةِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ(٢) قال: أجل! والله إنه لموصوفٌ في التّوراة ببعضِ صفتهِ في القُرآن: «يا أيها النبيّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً؛ وحِرْزاً للأُمّيين. أنتَ عبدي ورَسُولي، سَمَّيْتك المتوكّل، ليسَ بفظٍ ولا غليظٍ ولا سَخّابٍ في الأسواق، ولا يَدْفَعُ بالسّيئة السّيئة، ولكنْ

(١) سُبل الهدى والرشاد ١: ٦٢٥. والرياض الأنيقة: ٢٣٥ أشار في سبل الهدى إلى قوله تعالى: ﴿وتوكَّلْ عَلى الحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ وشرحه ابن فارس في: أسماء رسول الله ﷺ ومعانيها: ٣٨.
ـ والمتوكل من أسمائه ﷺ في الكتب المتقدّمة.

(٢) البخاري ٢: ١٢ في كتاب البيوع؛ ونقله صاحب الرّياض الأنيقة: ١٤٣ تحت اسمه ﷺ: حرز الأمّيين.
ـ قال ابن دحية: الحرز: المنع، والأمّيون: العرب. أي يمنعهم من العذاب والذلّ نقله السّيوطي في الرّياض.

يعفُو ويغفِرُ، ولن يقبضه الله حتى يُقيمَ به المِلّة العَوْجاء بأنْ يقولوا: لا إلَه إلاّ الله ويفتح به أَعْيُناً عمياً، وآذاناً صُمّاً، وقُلوباً غُلفاً».

فانظُروا - زادني الله وإيّاكم تعظيماً لهذا النبيّ العظيم، وجَعلني وإيّاكم مِمَّنْ تَخلّق ببعضِ خُلقه الكريم - كيفَ وَصفه رَبُّ العِزّة بهذه الصّفات، وحَلاّهُ بما لم يُحَلِّ بهِ أحداً من المخلوقات؛ فَسمّاه جلّ جلاله: متوكّلاً؛ لعلمه سبحانه بحقيقة حاله، وقوّة يقينه وعِصْمَتِه في أقوالِه وأفعالِه.

وقد شهدَ لهُ مَولاه جلّ جلاله - وكفىٰ بالله شهيداً - وبَيّن حاله بكونِه عنده رفيعاً مجيداً، وأمره بالدّوامِ علىٰ ما هو عليه من توكُّله، وتفويضهِ لربّه، ليقتفيَ به من سَبقت له العِناية، وكان عِند الله سعيداً، فقال تعالىٰ وهو أصدقُ القائلين: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٢٧/ ٧٩].

واسمُ المتوكّل مشتقٌّ من الوكالة، يُقال: فلان وكَلَ أمره إلىٰ فُلان أي: فَوَّض [١٣٤/أ] أمرَهُ إليه، واعتمدَ في حوائجه عليه، ولذا سُمّي الوكيلُ وكيلاً؛ لأنّه قد فوّض إليه موكِّلُه أمره.

فمعنىٰ أن نبيّنا - ﷺ - سمّاه ربه متوكّلاً؛ أي أنه سُبحانه وتعالىٰ عَلِمَ من حال حبيبه - عليه أفضل الصّلاة والسلام - أنّه معتمدٌ بقلبه عليه، مُلْقٍ مَقاليده[1] إليه، مفوّضٌ له في كل أموره، مُستسلمٌ لجريانِ مَقاديره، مُنْتَخِل تصرّفَ ربوبيته في خَلقه، مُشتغلٌ بحبّهِ له، واختيارِهِ تدبيرَهُ عن تدبيرِه لنفسه.

قد استغرقَ قلبه - عليه الصلاة والسلام - في أنوار محبّته للمولىٰ

---

(١) المقاليد: المفاتيح.

جلّ جلاله[1]، فأورثته أنْ لا إرادة له مع الله، بل قد انبسطَ له من نُور الرّضىٰ تركُ المنازعة لأحكام الله، مُعتمداً علىٰ حُسن اختيار سيّده.

فليسَ له تدبيرٌ مع الله، قواه الله علىٰ ما يريد أن يورده عليه مِن وجوه حُكمِه، وألْبَسه من أنوارِ وَصْفه، وكسَاه من كمال نعتِه.

فلمّا أنْ تنزّلَتْ لديهِ الأقدار، وقد سبقت لديه مَحاسِنُ الأنوار، فكانت حركاتُه بالله ولله وفي الله، لا بنفسِه ولا لنفسِه، بل مفوّضاً القضاءَ إليه، تالياً قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨/٢٨].

فكان ـ ﷺ ـ سيّد المتوكّلين، وعِمَاد الوَاصِلين، فتحَ عليه المولىٰ جلّ جلالهُ باب الأفهام، فأعانه في توكُّله علىٰ حمل الأحكام، وألبسه أوصافَ الأنوار، فأعانه علىٰ حمل أعباءِ تصرّفِ الأقدار، ومنحَهُ وارداتِ العَطايا فصبّره علىٰ تحمّل البلايا.

علم ـ ﷺ ـ أنّ مولاه نظَر للخلقِ بِحُسن النّظر من حيثُ لا يدرون، وأنّ الله ـ سُبحانه ـ اختارَ لهم من حيثُ لا يعلمون، فتوكّل ـ ﷺ ـ علىٰ الله حقّ التوكل وأخبرَ أنّ ذلك سبب في أن الخَلائق يُرْزَقون، وأنَّ الواجب عليه تَرْكُ التّدبير مع مولاهم، بل يَرْضَون بقضائهِ ويَستسلمون؛ وأن يكونوا لمقالِ ربّهم يُسَلّمون[2].

وكَمْ رُمْتُ أمراً خِرْتَ لي في انصرافهِ فَما زلتَ بِي مِنّي أبرُّ وأرْحَما[3]

---

(١) قال القشيري: التوكّل محلّه القلب؛ والحركةُ بالظاهر لا تُنافيه بعد أن تحقّق الكلّ من الله تعالىٰ؛ فإن تعسّر شيءٌ فبتدبيره وإن تيسّر شيء فبتيسيره. نقله في سبل الهدى ١: ٦٢٦.

(٢) في ب: لمقال ربهم مسلّمين؛ وأنشدوا.

(٣) من بحر الطويل.

عَزمتَ علىٰ أن لا أحِسّ بخاطري علىٰ القَلبِ إلا كُنتَ أنتَ المُقَدّما[1]

وأن لا تراني عندَ ما قَدْ نَهيْتَنِي لِكَوْنِكَ في قَلبي كبيراً مُعَظّما

كانَ عليه الصَّلاة [١٣٤/ب] والسلام قلبهُ لا يشاهد إلا مولاه، ولا يعتمدُ علىٰ شيءٍ سواه، ولا يرغبُ إلاّ لله[2] محتسباً في أفعاله لله فَبلغ الجوعُ منهُ ومن أهْلِ بيتهِ[3] ما لم يبلغْ أحداً[4]. ولم يشغَلْهُ ذٰلك عن طاعة ربه، بل يزيده[5] اجتهاداً في شكره، وتسليماً لأمره، أمر أهلَهُ بالصّلاة مُصطبراً عليها، عالماً أنّ قوتَ كُلّ نفسٍ: رَبُّها سَائِقُه إلَيها.

فلمّا كانَ اعتمادُه علىٰ المولىٰ جلّ جلالهُ في جميع أموره حَلّتْ بركَتُه علىٰ من نَزل به في جميع شُؤونه.

قال أبو بكر الصدّيق[6] ـ رضي الله عنه ـ: خرجتُ مع رسول الله ـ ﷺ ـ ونحنُ علىٰ قدم التّجريد، متوكّلين علىٰ رازقِ العَبِيد، فنظر ـ ﷺ ـ إلىٰ بيتٍ منفردٍ فوَقفنا عليه، ولم يكنْ فيه إلا امرأة؛ فلمّا نظرتْ إلَيْنا قالت: يا عبدَ الله إنّما أنا امرأةٌ، وليسَ معي أحدٌ، فعليكُما بعظيمِ الحيّ إذا أرَدْتُما القِرَىٰ[7]؛ قال: فلم يُجبها أبو بكر.

فتأمّل هٰذه المرأة كيف نظرتْ بنظرها من كونِ الرّزق في العادة

---

(١) في ب: لا أجس بالجيم؛ وفي أ: لا أحسّ.
(٢) في ب: إلا الله.
(٣) ينظر باب زُهد النبي ﷺ من الشّفا ١: ١٧٩ وإحالاته وحواشيه.
(٤) في أ: ما لا يبلغ.
(٥) في ب: بل يزيد.
(٦) إتحاف السادة المتقين ٧: ١٨٦ وكنز العمّال ٤٦٢٨٧.
(٧) في ب: إن أردتما.

كأنه في يدِ الخلق، وما علمتُ أنَّ سيّدَ المتوكلين، ورأس الزاهدين، واقفٌ ببابِ الله، متوكّلٌ بقلبه على الله، موقنٌ أنّ نفساً لن تموتَ حتىٰ تستكملَ رِزْقها وأجلها.

فلذا سكتَ - ﷺ - ولم يُجبها حتىٰ ظهرت لها البركةُ والكرامةُ والمعجزةُ العظيمةُ من تمَامِ التوكّل علىٰ الله والاعتمادِ عليه، والاستقامة.

قال أبو بكر الصِّدِّيق - رضي الله عنه - فجاءَ ابنٌ لها بأَعْنُزٍ يَسُوقُها، فقالت: يا بُنَيّ! انطلقْ بِهٰذه العنزة والشَّفرة[1] إلىٰ ذينك الرَّجلَين فَسَلّمْ عليهما وقُل لهما: تقول لكما أُمّي اذْبَحا هٰذه، فَكُلا وأَطْعِمَا. فلمّا جاء ولَدُها، قال له النبيّ - ﷺ -: انطلقْ بالشّفرة وجئني بقدحٍ أحلب فيه.

فأظهر لهما النبي - ﷺ - أنَّ الرِّزق من عندِ الله، وأنَّ التوكّل عليه والانقطاع إليه يأتي بِخَرْقِ العَوائد، ويدرّ الله الرِّزق به علىٰ أهل الفَوائد.

قال: فانطلقَ الصَّبِيّ فجاءَ بقدح، فمسَح النبي - ﷺ - ضرعَ العَنزة بيده المباركة بعد أن سمّىٰ، واستعمل حُسن الأدب مع ربّه، وصحّح توكّله عليه، فامتلأ ضَرْعُ العنزة، ثم حلبَ حتىٰ ملأ القدح، ثم قال له:

انطلق إلى أمك؛ فشَرِبَتْ حتىٰ رويتْ. ثم جاء [١٣٥/أ] بالقدح، فقال له النبي - ﷺ - اذهبْ بهذه العنزة، واتِنِي بأُخرىٰ.

قال: ففعلَ، فحلبَ النبيُّ - ﷺ - فسَقىٰ الغُلام، ثم قال له: ائتِني بأُخرىٰ، فجاء بأخرىٰ فحلب النبي - ﷺ - فَسقىٰ أبا بكر.

---

(١) الشفرة: السكين العظيمة العريضة.

قال أبو بكر: فبتنا تلك الليلة ثم انطلقنا. فتأملْ ـ رحمك الله ـ هذه الآداب[١]، وتعليم العباد، والإشارة إليهم في كونهم لا ينظُرون إلاّ إلىٰ ما عند الله تعالىٰ، ولا ينظرون ما في يَدِ الخليقة.

فبركةُ تَوكّله، وحُلولُه في هٰذا الحيّ من العَرب عمّتْ أنوارُه علىٰ هٰذه المرأة، فَعلِمَتْ أنَّ هٰذه مِنّةٌ من الله، وبركةٌ علىٰ الحقيقة، ورحمة من الله علىٰ عباده رحم بها الخَلِيقة، فكانت تسمّيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ المبارك وتتحدث بذلك وتقول: نَزل بنا الرجلُ المبارك، وكثرتْ غَنَمُها وقوي مالُها، فساقت لبَنها إلىٰ المدينة، فإذا ولَدُها قد رأىٰ أبا بكر فعرفه فقال: يا أُمّاه! هذا صاحبُ الرَّجُلِ المُبَارك.

فقامت إليه فقالت: يا عبدَ الله! من[٢] الرجل المبارك الذي كان معك؟ قال لها: هو نبيّ الله ـ ﷺ ـ فأتىٰ بها أبو بكر إلىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ فأطعمها رسولُ الله ـ ﷺ ـ وسَقاها.

ومن قُوّة توكُّله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: تمرُّ علىٰ أهل بيتِهِ اللّيالي ذواتُ العددِ وليس ثَمّ إلا الماءُ والتّمر، وهو مُشتغلٌ بطاعة رَبّه؛ ذو قوّةٍ في زُهده، مقدِّمٌ جوعَ غيره علىٰ نفسه.

قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: مرّت بنا[٣] ليالٍ ونحنُ في شدّة من الجُوع مع رسولِ الله ـ ﷺ ـ فإذا بامرأةٍ سَوداء أتَتْ بطبقٍ فيه ثَرِيد، فوضعته بين يدي رسول الله ـ ﷺ ـ فقال لها[٤]:

---

(١) في ب: هٰذا الأدب.

(٢) في ب، وأين.

(٣) في ب: نزلت بنا.

(٤) التاريخ الكبير للبخاري ٥: ٢٥١.

أهٰذا صدَقةٌ أم هديّة؟ فإن آل محمد ـ ﷺ ـ لا يأكلون الصّدقة.

قالت: لا عِلْمَ عندي يا رسول الله! قال: فاذهبي به فاسألي أهلك.

فَرجعتْ بالطّعام والنّاسُ ينظرونَ إليه وهم في غاية الحاجة إليه، فإذا بها رجعتْ إلىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت: يا رسول الله: إنه هدية، فدَعا[1] رسول الله ـ ﷺ ـ أُمّ سُلَيم فقال لها: يا أمّ سليم! اذهبي بهٰذا الطعام إلىٰ آل حَمزة فإنّهم والله قد جاءوا قبلنا بأيام [١٣٥/ب] ثم قال ـ ﷺ ـ اللهمّ إنكَ تعلمُ أنّي قدمت جوعَ آل حمزة علىٰ جُوع أهل بيتي ابتغاءَ لك.

فَمَا أتمّ دعاءه ـ ﷺ ـ حتىٰ فتح الله علىٰ أهل بيته من حيثُ لا يَشْعُرون، وإذا بجِمْلَيْنِ من تمرٍ وطعامٍ من عند عبد الرحمن بن عوف.

فَرجعتْ أُمُّ سُلَيم، فقال لها: اذْهَبي إلىٰ آل العَبّاس فائتينا بِرحَا، فخرجت فأتَتْ بالرّحا الأعلىٰ، ثم أتت بالأخرىٰ فسقطت علىٰ رجلها فجَرىٰ الدّم من إبهامها، فقال لها ـ عليه الصلاة والسلام ـ ما هٰذا يا أمّ سُليم؟

قالت: يا نبيّ الله، سقَط علىٰ رِجلي الرّحا.

فقال ـ عليه الصّلاة والسلام ـ: اللّٰهُمّ إنّ أمّ سُليم كانت في حَوائج أهلِ النّبوة، وخِدمتهم، اللهمّ اشْفِها.

فما أتمّ دعاءه ـ عليه الصّلاة والسلام ـ حتىٰ برئت رجلُها، فلم يكن بها ألم، وفي القصّة طولٌ اختصرناه.

---

(١) في ب: فنادىٰ.

هذه حال رأس المتوكّلين، وسيد المرسلين، وإمام المتّقين، أعاد الله بركته علينا أجمعين[1]:

صَلّىٰ الإلٰهُ علىٰ خير البرية ما | هَما من الغيثِ هطّال من السحبِ[2]
يا ربِّ صلِّ عليه ما دَجا غَسَقٌ | وما استمرّ مدىٰ الأعوامِ والحقبِ
يا رب بَوّئهُ في أعلى الجنانِ غَداً | قصراً من الدرّ والعِقيانِ والذّهبِ
علىٰ الأرائكِ في دَارِ الكرامةِ مع | بيضٍ نواعم حور خُرّدٍ كعبِ
يا ربِّ واجْزِهِ عَنّا كلَّ صالِحَةٍ | واجمعْ به شَمْلَنا في منزلٍ رحبِ
وروِّ من حوضهِ يا ربِّ كل حشىٰ | وكل قلبٍ غَدا بالشوق ملتهبِ
يوماً أكونُ إلىٰ رُحْمَاكَ مفتقراً | وليسَ ينفعُ ذو قربٍ وذو نسَبِ

فصل

من آدابِ مَن عَلِمَ أنّ نبيّنا ـ ﷺ ـ سماه الله تعالىٰ المتوكّل لقوّةِ يقينهِ وانقطاعِه عن الخَلْقِ إلىٰ ربه، فليتّبعْ أحوالَهُ، ويتلقّ بالقَبُولِ أفعاله وأقواله.

والتوكُّل: منزلةٌ من منازلِ الدِّين، ومقامٌ من مقامات اليَقِيْن، ومن مَعالي درّجات المُوقنين؛ أمرَ الله تعالىٰ به في كتابه العزيز، وأثنىٰ علىٰ المتخلّق به، وكان عند المولىٰ بالمكانِ الحَرِيز، فقال وهو أصدق القائلين: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥/٢٣].

وقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ٣/١٥٩]،

---

(١) في ب: هذا حال رأس المتوكلين. وسيد المرسلين، وإمام المتقين، أعاد الله من بركاتهم علينا أجمعين، وحشرنا معهم في أعلى علّين، وأنشدوا.

(٢) من بحر البسيط.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٦٥/٣] [١٣٦/أ] وكفى به من مقامٍ موسومٍ بمحبة الله صاحِبُه، ومضمونٍ بكفاية الله مُلابِسُه.

فَمَنْ كان متوكلاً على المَوْلَىٰ جلَّ جلالهُ، كان مولانا هو كافيه[1]، وحسبُه وراعيه، وحافِظُه ورازِقُه ومحبّه.

ومن كان المولىٰ جل جلاله حَسْبُه وكافيه، ومحبُّه وراعيه كيفَ لا يفوزُ فوزاً عظيماً، ولا يكونُ عند الله يومَ القيامة سليماً؛ وقال عزّ من قائل، وهو القديرُ العليم: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩/٨] الآية.

معنى الآية: أي: من انقطع إلىٰ الله وتعلّق قلبُه بالله، وفرّغ قلبَه ممّا سوى الله، وعَلِمَ أنّ كل شيءٍ مما خلق الله باطل، وفوّض أمره إلىٰ حكيم لا يقصر تدبيره علىٰ من توكّل علىٰ تدبيره، ولا يخيّبُ أملَ من أمّله وقَطع أمَلَهُ عن غيره.

توكّلْ علىٰ الرّحمٰنِ في كُلّ حالةٍ ... وثِقْ بالذي قد دبَّر الخَلْقَ أجْمَعَا[2]

ودَعْ عنكَ هَمّ الرزقِ فالرَّبُّ ضامِنٌ ... كريمٌ علىٰ الكَوْنَيْنِ والخَلْقِ أجْمَعا

وكُلّ ما ذكر في الكتاب العزيز من الأمر بالتوكّل والثّناء علىٰ فاعِله فهو تنبيهٌ علىٰ قطعِ المُلاحظة عن الأغيار وعن الرّكون بالقلب إلىٰ الأسباب والآثار، وعلىٰ ملازمة الاعتماد علىٰ الواحد القهّار.

روىٰ ابنُ مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبيّ ـ ﷺ ـ أنه قال[3]:

---

(١) في ب: فالله حسبه وكافيه.

(٢) من بحر الطويل.

(٣) مجمع الزوائد ١٠: ٤٠٩؛ وينظر الباب: (فيمن يدخل الجنة بغير حساب) وإحياء علوم الدين ٤: ٥٤٦.

«رأيتُ الأمم بالموسم، فرأيت أمّتي قد مَلَؤُوا السّهلَ والجبلَ فأعجبني كثرتُهم وهيئتهم.

فقيل لي: يا محمد أرضيت؟

قلت: نعم.

قال تعالىٰ: ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخُلون الجنة بغير حِساب.

قيل: ومَنْ هُم يا رَسُولَ الله؟

قال: الّذينَ لا ييأسون ولا يتطَيَّرُوْنَ، وعلىٰ رَبّهم يتوكَّلُون.

فقال عُكّاشة، فقلت: يا رسول الله! ادْعُ الله أن يَجْعَلني منهم.

فقال ـ عليه الصلاة والسلام: اللّٰهُمّ اجْعَلْهُ مِنهم، فقام رجلٌ آخرَ فقال: ادْعُ الله أن يجعلني منهم.

فقال ـ ﷺ ـ: سَبقَك بها عكاشة! وقال عليه الصلاة والسلام[1]: «لو أنّكم توكّلتُم علىٰ الله حق توكّله لرزقكم كما يَرْزُقُ الطير تغدُو خِماصاً وتروحُ بطاناً».

وقال ـ ﷺ ـ[2]: من انْقطع إلىٰ الله كفاه كل مؤونة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلىٰ الدنيا وكله الله إليها» [١٣٦/ب].

وقال ـ عليه السلام[3] ـ: «من سَرّه أن يكون أغنىٰ النّاس فليكن

---

(١) في مسند أحمد ١: ٣٠ وإتحاف السادة المتقين ٩: ٣٨٨ وكنز العمال ٥٦٨٤، والرّواية: لو أنكم تتوكلون.

(٢) مجمع الزوائد ١٠: ٣٠٣، قال رواه الطّبراني في الأوسط.

(٣) المغني عن حمل الأسفار للعراقي ٤: ١٢٢٩، وفي إتحاف السّادة المُتّقين ٩: ٣٨٨: من سَرّه أن يكون عند الله أغنى الناس. . .، وفي تاريخ أصبهان لأبي نعيم ٢: ٣٦٣ من سَرّه أن يكون من أغنى الناس. . . الحديث.

بما عندَ الله أوثقَ منهُ بما في يَدِه».

ودرجات حال المتوكّلين ثلاث.

الدرجة الأولىٰ: أن ينقطع المتوكل حوله وقوّته ورجاءه من الخَلق ويعلمَ أنّه لا فاعل إلا الله ولا ضارّ إلا هو، ولا مانعَ إلاّ هو، ولا مُعِزٌّ ولا مُذِلٌّ إلا المولىٰ جلّ جلاله.

ولا كاشفَ للضُرّ، ولا مزيلَ للكُرباتِ إلا مُنَزّلها، ولا مُفَرّجَ للأزماتِ إلا مَن بيده حلُّها، وأنه ليس وراءَ قدرة الله مُنتهىٰ؛ ولا وراءَ نفوذ إرادتهِ مرمىٰ، وأنّه الرّاحمُ لجميع العباد، وأنّ خزائن كَرمِه ليسَ لها نفاد، وأنّه المتكفّلُ برزقِ سائرِ الأجناد، فإذا قلت: لا حولَ ولا قوّة إلا بالله، فاعلمْ أنّ حركاتك وسكَناتك، واجتماعَك وافتراقَك، وحركات العالم كُلّه عُلويّه وسُفليّه إنّما خلقَها الله تعالىٰ علاماتٍ وأماراتٍ علىٰ وُصول ما قَدره مولاك إليك، وعلم ظهوره من الّذي كَمَن في عِلمه عَليك.

فإن لم تجدْ هٰذا الإيمان واليقينَ في قلبك فذٰلك لضعفٍ في يقينك، أو لمرضٍ استَولىٰ عليك. وهذا التوكّلُ شرطٌ في الإيمان، وركنٌ من أركان الإيقان.

الدرجة الثانية[١]: وهي أقوىٰ في التوكّل والتفويض والاعتماد من الحالة الأُولىٰ، وذٰلك أن تكونَ مع سيّدك ومولاك في فُزوعك[٢] إليه واعتمادكَ عليه، كحال الطّفل مع أمّه الراحمة به المشفقة عليه، فإنّه في

---

(١) في ب هنا: الحَالة الثانية؛ وبعد ذلك: الحالة الثالثة.

(٢) كذا في الأصول الخطيّة. وليس في مصادر فزع كلمة: فُزوع؛ كأن المؤلف رحمه الله قاسها على رُجوع. أو هي وهم من النساخ.

صغره لا يعرفُ غيرها، ولا يفزعُ إلىٰ أحد سواها، ولا يعتمدُ إلاّ عليها، فإذا رآها تعلّق بها، وإنْ نابَهُ أمرٌ في غيبتها كانَ أوّلَ سابقٍ إلىٰ لسانه: يا أمّاه، وأوّل خاطر يخطرُ في قلبه: أمّه؛ لأنه قد وثق بكفالتها وشفقتها، فليكن بالك إلىٰ الله، ونظرك إليه، واعتمادك عليه كحال الصبيّ الصَّغير مع أُمّه وهذا التوكّل في هذا الحال معه ضرب من الفناء عن ملاحظة الخلق، بخلاف الأول، فإن معه كسْباً وتكلّفاً وليسَ بفانٍ في توكله.

الدرجة الثالثة: من حال المُتوكّل أن يكونَ في توكّله علىٰ ربّه بين يدي الله سُبحانه في حَركاتِه وسَكناته مثل الميْت بين يدي غاسِله، فهذا المتوكّل لا يرىٰ نفسَه لما أن حركاته وسكناته لا خالق فيها إلا الله، ولأنه لا تحريكَ ولا تسكينَ إلا بِقُدرة الله.

فلا تدبير بغيره، ولا فعل إلا لسَيّده، فلا يدبر مع تدبيره؛ بل يكون كالمبْهُوتِ[1] مع جَلالِ قُدرة الله [١٣٧/أ]، وكالتّائهِ في إرادة تصرّف الله.

قال بعضُ العارفين: وإيّاكَ أن تعتقدَ أن التوكّل الحقيقي أن تترك الأسبابَ بيدك، والتّدبير بقلبك، وأن معناه السكون علىٰ الأرض كالخِرقة الملقاة، وهٰذا ظنُّ كثيرٍ من الجهَلة، وهو حَرامٌ في الشّرع، بل الذي جاء[2] به الشرع علىٰ لسان سيد المتوكلين وإمام الزاهدين أن الأسبابَ لا تُنافي التوكّل، وقد قال ـ ﷺ ـ[3]: «اعْقِلْها وتَوَكّل».

---

(١) المبهوت: الذي قيل عليه ما لم يفعل!

(٢) في ب: فالذي جاء به الشرع.

(٣) فتح الباري ١٠: ٢١٢ وكشف الخفا ١: ١٦١ (وتنظر مصادره؛ ومراجع التحقيق) وحلية الأولياء ٨: ٣٩٠ وفي مجمع الزوائد قيّدها وتوكل ١٠: ٣٠٣ وإتحاف السادة ٩: ٥٠٧.

فأشار ـ ﷺ ـ إلىٰ أنّ السَّببَ يكونُ بالجَوراحِ، وأن التوكّلَ علىٰ الله يكونُ بالقلب، فلا منافاةَ بين مَنْ كان متوكّلاً علىٰ الله بقلبه، وهو مُتسبِّب بجوارحه.

فالأسبابُ الشرعيّة التي أذِنَ فيها ربنا جلّ جلاله وكذا دفعَ المضرّة عن النفسِ أو المال: كضرب الصّائل، والاحتراس من السّارق، والسّباع، وإزالة الضّرر، مع أنّ قلبكَ يكونُ اعتمادُه علىٰ الله في جَلْب المنافعِ ودَفْعِ المضارّ.

فإنّ الطّعام الذي تأكلُهُ هو سبب في حياتك، والخالق للحياة هو الخالق للذّوات، وهو القادرُ ـ سبحانه وتعالىٰ ـ علىٰ أن يُحيِيك بغير طعامٍ ولا شَراب كحياةِ المَلائكة.

وإنّما الّذي يُبطل التوكّل علىٰ الله الاعتماد علىٰ الأسباب، كمن كان مَرِيضاً فَيُداوي مرضه مع اعتقادِه بأنّه لو لم يفعل الدّواء لما بريء[1]، وهذا فَسادٌ في الاعتقاد، وبُعدٌ عن طريق السّداد.

إلا أن المقربين ـ رضي الله عنهم ـ يرون الأسباب[2] عندهمُ الاشتغال بالعبادة، والانقطاع إلىٰ الله وهو الكفيلُ بمن أطاعَه، لأنّه إذا كان يرزقُ من عَصاه فكيف بمن أطاعه، وترك هواه؟ فلا يطلبون حَوائجهم إلا مِن مَولاهم، ويتقرّبُون إلى الله في قضائها بمخالفة هواهم.

كانَ رجلٌ يقال له حُذَيفة، وكان يخدمُ إبراهيم بن الأدهم، قيل له: أخبرنا بأعجبِ ما رأيت منه. قال: بقينا في طريق مكّة أياماً لم نجد

---

(١) في ب: ما بريء.

(٢) في ب: يرون أنّ الأسباب.

طعاماً. ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلىٰ مسجد قريب، فنظر إليّ إبراهيم، وقال: يا حُذيفة أرىٰ بك أثر الجوع!

قلت: هو ما رأىٰ الشيخ!

قال: ائتني بدواةٍ وقرطاس؛ فجئتهُ بهما فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، إنّه المَقْصُود بكلّ حال، والمُشَار إليه بكل معنىٰ ثم كتب في القرطاس: [١٣٧/ب]

أنا حامدٌ، أنا شاكر أنا ذاكرٌ أنا جائعٌ، أنا ضائعٌ، أنا عارِ[(١)]
مَدْحي لغيركَ لهبُ نارٍ خُضتها فأَجِرْ عبيدكَ من عذابِ النارِ
هي ستةٌ وأنا الضَّمِيْنُ لِنِصفها فكُنِ الضّمينَ لنصفِها يا بارِي[(٢)]

ثم دفع إليّ الرُّقعة، ثم قال: اخْرُجْ ولا تعلّق قلبَك بغيرِ الله، وادفع الرُّقعة إلىٰ أوّل من تلقى، فخرجت؛ فأوّل رجل لقيتُ كان راكباً علىٰ بغلةٍ فناولتُه الرّقعة فأخذها.

فلما قرأها بكىٰ وقال: ما فعَل صاحبُ هٰذه الرُّقعة؟ فقلت له: هو في المَسجدِ الفُلانيّ، فدفَع إليّ صُرّة فيها ستّ مئة دينار ومضىٰ، فرأيتُ رجلاً آخر فسألتُه عنه فقال لي: هو نَصرانيّ!

فجئت إلىٰ إبراهيم وأخبرته فقال لي لا تمسّ الدنانير حتىٰ يجيءَ السّاعة، فمكثنا قليلاً وإذا النصرانيُّ قد دخلَ وأكبَّ علىٰ رأس إبراهيم يقبّله وهو يقول: أشهد أن لا إلَه إلاّ الله وأشهدُ أنّ محمداً رسول الله.

فهكذا يكونُ الصّدق مع الله، وحُسن التوكّل علىٰ الله. ومَن قوي توكُّله من أصحاب الأحوال، والصّدق في الانقطاع إلىٰ الله، رأىٰ منهم

(١) من بحر الكامل.

(٢) يضمن من نفسه الحمد والشكر والذكر على قدر استطاعته.

خوارق للعادات[1]، وظَهرت لهم كرامات، إلا أنه لا يجوزُ الاقتداء بهم في أحوالهم، ولا يُقتدى إلا بأهل الرُسُوخ والثبوت في العلم وبه جاءت الشّريعة السّمحة التي أتىٰ بها سيّد الكاملين، ورأس المتوكّلين لكنْ يجبُ الإيمان بطريقةِ أهل الأحوال والمُشاهدات، والتبّرك بهم وبذكرهم فيما يَرِدُ عليهم، كما يُحكىٰ عن أبي حمزة قال:

حَجَجْت سنةً، فبينا أمشي في الطريق إذ وقعتُ في بئر فنازَعَتْني نفسي أن أستغيث، فقلتُ: لا والله، فما تمّ هٰذا الخاطر حتىٰ مرَّ بي رَجُلان، فقال أحَدُهما للآخر:

تعال نسدّ هٰذا البئر لئلاّ يقعَ فيه أحد، فأتوا بقصَبٍ، فهمَمتُ أن أصيح، فَقُلت في نفسي: نادِ مَنْ هو أقربُ منهما إليك، فسكتّ؛ فبينما أنا كذلك إذا أنا بشيءٍ جاء فكشف عن رأس البئر وكأنّه يقول في رأس البئر: تعلّقْ بي، فكشفَ رأس البئر وأدخلَ رجله، فإذا أنا بسبع فتعلّقتُ به، وإذا بهاتفٍ يقول لي:

يا أبا حَمْزَة! أليسَ هٰذا أحسن؟ نَجّيناك بالتّلفِ من التَّلفِ، فخَرجْتُ وأنا أقُول:

نَهاني حيائي منكَ أن أُبديَ الهَوىٰ ... وأغْنَيْتَنِي بالفَهْمِ عنك عن الكَشْفِ[2]
تلطّفتَ في أمري فأبديت شاهدي ... إلىٰ غائبي فاللطفُ يُدْرَكُ باللّطفِ
تراءيتَ لي بالغيبِ حتّىٰ كأنّما، ... تُبَشّرني بالغَيْبِ أنّك في الكفِّ

---

(١) في ب: خوارق العادات.

(٢) من بحر الطويل.

- وفي القطعة مقاصد وإشارات على طريقة القوم، وقد استغنيت عن الإشارة المكرّرة إلى هذا بما رسمته للقارىء الكريم في مقدمة التحقيق.

أراكَ ولي من هَيبتي لكَ وحشةٌ فَتُونسني باللطف منك وبالعطفِ

وتُحيِي مُحِبًا أنتَ في الحبّ حَتْفهُ وذا عَجبٌ كونُ الحياةِ مع الحَتْفِ!

[١٣٨/أ] فأمثال حالات هذه السّادات تذكر للتبرّك بها، والتعجُّب من قُوّة اليقين فيها، ولا يُقتدىٰ بها، وإنّما يُقتدىٰ بطريقِ الكاملين، وبمقامات العامّة للسُّلوك التي أقامها سيّدُ المرسلين. ونعوذُ بالله من سُوء الاعتراض علىٰ عبادهِ الصّالحين.

قذَف الله في قُلوبنا نورَ الاعتماد عليه، وملأها محبّةً له، ورزقنا حسنَ الانقطاع إليه، وصلّىٰ الله علىٰ سيدنا ومولانا محمّد وسيلتنا إليه، وذَخِيرتنا لديه. وسلّم تسليماً، وزاده مولانا شَرفاً وتعظيماً، وبَوّأه في جَنّاتهِ نعيماً مقيماً.

باب
في معنىٰ اسمه
المُخْتَار (1)

صلّى الله عليه وسلم وشرّف وكرّم

المُختار: اسمٌ من أسمائه ـ عليه أفضلُ الصَّلاة والسلام ـ ورَدَ ذٰلك في بعضِ الكُتب السَّماويّة، التي أنزلها الله علىٰ أنبيائه العليّة.

ومعنى المُختار: أي النبيُّ الذي خصّه الله تعالى بكمال الخِصال ومَحاسن الأفعال، وكمّل له من بين الأنبياء تمام نسَبه، وبلوغ حَسَبِهِ، وجَعله فائقاً في حَسبه ونَسبه، فاختارَ نسبه من النَّسب الحَسن، وأشاع حسَبه في السِّرّ والعَلن.

قال عليُّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/١٢٨].

قال: مِنْ أَنْفَسِكُمْ نسَباً وصِهراً وحسَباً، ليسَ في آبائه من لَدُن خلقِ آدم سفاحٌ، بل كلها نكاح(2).

---

(1) سبل الهدي والرشاد ١: ٦٢٩ والرياض الأنيقة ٢٣٧ والمواهب اللدنية. ١: ١٨٣ والشفا ١: ٣٢١ وسرده ثمة في أسمائه ﷺ في الكتب السابقة.

(2) نقله في الشفا ١: ١٧.

قال ابن الكلبي[1]: كتبْتُ للنبيّ - ﷺ - خمس مئة أُمّ، فَما وجدتُ فيها سِفاحاً، ولا شَيئاً ممّا كانت الجاهِليّةُ عليه.

اختارَهُ الله تعالىٰ بما أبرزه للعيان من كمَال خلقه علىٰ أتمّ وجوهِ الكمال، واجتبَاهُ بما مَنحه إيّاهُ من بَهجة الجلال، وخصّه بالمحاسنِ الجليلةِ، والأخلاقِ الحميدة، والمَواهب الكريمة، والفَضائل العَديدة [١٣٨/ب] وأيّده بالمُعجزات والبَراهين الواضحات، والكراماتِ البَيّنات التي شاهدها مَن عاصره، ورآها مَن أدركه، وعلمها علمَ يقينٍ مَن جاء بعده، حتىٰ انتهىٰ علمُ ذلك إلينا، وفاضت أنوارُه الكريمةُ علينا، وعلم الوجود أنّه عبدُ الله، ونبيّه، ورسولهُ المختار، والمُبَجّل في هٰذه الدّار وفي تلك الدّار.

فمن اختيار الله تَعالىٰ له أن أظهر منزلته ليلة أُسْرِي به، فأتىٰ إليه جبريل - عليه السّلام[2] - ببراق مُلجم مُسْرَج[3]، فاستَصْعب عليه، فقال له جبريل - عليه السلام -: أبمحمّدٍ تفعلُ هٰذا؟ فما ركبكَ أحدٌ أكرمُ على الله منه، فارْفَضّ عَرقاً[4].

فتأملوا أيها المحبون، وتدبروا أيها الشائقون في قول جبريل - عليه السلام - أبمحمّدٍ تَفْعَلُ هذا؟ فإنّه قرّر علىٰ البُراق أنه المُسَمّى بمحمّد، المعلوم فضله عند الخَلائق، واصطفاه الله عَزّ وجل له، وأنه مختاره؛

علم ذلك أهل المشارق والمغارب، وأن البُرَاق عَلِمَ أنه ما ركبه

---

(١) نقله في الشفا ١ : ١٧.

(٢) الشفا ١ : ٢٤٢، وانظر تخريجه فيه.

(٣) العبارة في الشفا: أُتِي بالبُراقِ ليلةَ أُسْرِي به ملجماً مسرجاً... الخ.

(٤) أي سال عرقهُ وتصبّب.

أحدٌ أكرم على الله منه، فارفضّ البُراقُ عَرقاً، لأجل حيائِهِ من أكرمِ الخلْق على الله.

إذ لو عَلِمَ عينَهُ لمَا استصعبَ عليه، فلمّا أنْ عيّن له جبريل شخصه الكريم، وقرّر له ما هو معلومٌ عند كلّ عظيم كساه الحياء جلباباً لأجلِ هيبة النبي المختار، وارفضَّ عَرقاً إكراماً لمن اختاره الملك الجبّار.

قال عبدُ الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ[1] إنّ الله نظَر إلىٰ قُلوب العباد فاختارَ منها قلبَ محمّد ـ ﷺ ـ فاصطفاه لنفسِه، فأرسلهُ برسالته، ونظَر في قلوبِ العِبَاد بعد قلبِ محمّد ـ ﷺ ـ فاخْتارَ منها قلوبَ أصحابِه، فجعَلهم يقاتلون عن دينه، ووزارءَه في شريعته.

هذا معنىٰ كلام عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فكان ـ رحمه الله ـ ممّن نَظر الله ـ تعالىٰ ـ إلىٰ قلبه فاختارَهُ لصحبةِ نبيّه، فصيّره وزيرَهُ، وناصِرَهُ، وصاحبَ سِرّه، وصاحب وسادته وسواكه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ونعليه وطهوره، وكان يُشبه، في هَدْيِهِ ودَلّهِ وسَمْتِه بالنبيّ ـ ﷺ ـ[2].

وقد أخبر عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن رجليه في الميزان أثقلُ من جبلِ أُحد ـ رضي الله عنه ـ ونَفع به[3]:

ـ ومن اختيار الله لحبيبه أن اختار له أُمّةً خيرة، وفَضّلها [١٣٩/أ] علىٰ سائر الأمم، وأعطاها ما لا عينٌ رأت من الفضائل، وبَديع الكرم.

رُوي عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال[4]: «يقول الله تبارك وتعالىٰ

---

(١) في حلية الأولياء ١: ١٣٣ ـ ١٣٩ مجموعة من أقواله.

(٢) تُنظر ترجمته في سير أعلام النُّبلاء، ١: ٤٦٩.

(٣) سير أعلام النبلاء ١: ٤٧٧ ـ ٤٧٨، وحلية الأولياء ١: ١٢٧.

(٤) أي في الحديث القُدسي.

يوم القيامة، وهو المنزّهُ في صِفاته وكلامه يا أُمّة محمدا أنتمُ اليوم أوليائي، وأصفيائي، وأحِبّائي، وأهل محبتي، أنتمُ الّذين كُنتم تتجافىٰ جُنوبُكم عن المضَاجع، تدعُون ربكم خوفاً وطمعاً وممّا رزَقناكم تُنفقون.

أنتمُ الذين كنتم تَمشُون علىٰ الأرض هَوْناً وإذا خَاطبكم الجَاهِلُون قُلتُم: سَلاماً.

أنتم الذين كنتم تَبِيتُون لربّكم سُجّداً وقياماً، أنتم الذين كُنتم تقولون: ربنا اصرِفْ عنّا عذابَ جَهنّم إنّ عذابها كان غَراماً.

أنتمُ الذين كنتم تَقُولون: رَبَّنا هَبْ لنا مِن أزواجِنَا وذُرّياتنا قُرّةَ أعيُنٍ، واجْعَلْنَا للمُتّقين إماماً.

فوعِزّتي، وجلالي إنّي لَأُحبّكم، وأحبُّ لكم ما تُحبّون، ولكم عندي ما تشتهي أنفسُكم ولكم ما تَدّعُون نُزلاً من غفور رحيم.

فاسأَلُوني ما شئتم، ولا تستَحْيُوا مني، فأنا الجَوادُ السَّخِيّ الكريم القويّ، هذه دار كرامتي فاسكنُوها، وجنّتي مفتوحةٌ لكم أبوابُها فادخلُوها ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٣٩/٧٣].

فهٰذه الكرامةُ التامّة، نِلناها أيّتُها الأمّة المحمّدية بكرامةِ نبيّنا المُختار، واختصّنا بهٰذه العناية الربّانية في تلك الدار. نسأله سبحانه وتعالىٰ أن يوفقنا لاتّباعه في هذه الدّار.

الله أرسلَهُ بكُلِّ هدايَة وحَباه في الدّارين كلَّ عنايَة
فلقد حَوىٰ في المجدِ أبعد غاية إنّي اهتديتُ من الكتابِ بآية
فعلمت أن هداه ليسَ يُضاهىٰ[1]

---

(١) في ب: أنْ عُلاه.

فـشـهـدت أن الله خَـصّ مـحـمّـداً فـغـدا بـأمـلاكِ الـسّـمـاء مُـؤيّـدا
وعـلـىٰ لـسـانِ الأنـبـيـاء مُـمَـجّـداً ورأيـتُ فَـضْـلَ الـعَـالـمـينَ مـحـدّدا
وفـضـائـل الـمـخـتـار لا تَـتـنـاهـىٰ

فصل

مِن آدابِ مَنْ عَلِمَ أنّ نبينا محمداً - ﷺ - اسمه المُختار، وأنّ الله تَعالىٰ أظهرَ فَضْلَهُ علىٰ سائر الأبرار واختارَ له أصْحاباً كراماً، رُحَماء بَيْنَهُم، أشدّاء علىٰ الكفّار؛ وأمّةً حبيبةً لديهِ، خير أُمّة أُخرجت للناس في جميع الأعصار [١٣٩/ب]، فكُونوا عباد الله مُطيعين مُعَظّمين لما عَظّم الله، مُوَقّرين لما اختارَهُ الله، مصدّقين بكرامات أصحاب رسول الله، وأنّهم همُ النّجاة والهُداة، وطَريقُهم طريقُ السُّعداء وببركتهم وحُبّهم نُرحم - إن شاء الله - غدا.

قال جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال رسول الله - ﷺ -(١): «إنّ الله اختارَ أصحابي علىٰ جميعِ العالمين سِوىٰ النبيّين والمُرسلين، واختارَ لي من أصحابي أربعةً: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي - رضي الله عنهم - فجَعلهم خيرَ أصحابي، وفي أصحابي كلهم خير، واختار أُمّتي علىٰ سائر الأُمَم، واختار من أُمّتي أربعة قرون من بعد أصحابي، القرن الأول والثاني والثالث وتراً، والرّابع فَذّاً»(٢).

فأصحابُ رسول الله - ﷺ - هُم أولياءُ الله وأحبّاؤه، بهم أقام الله الدين، وبهم أثبت لنا اليقين، واختارَ صُحبتهم لِسَيّد المُرسلين.

---

(١) مجمع الزّوائد ١٠ : ١٦ وتفسير القرطبي ١٣ : ٣٠٥ وميزان الاعتدال برقم ٤٣٨٣ ج٢ ص ٤٤٢.

(٢) الفذّ: الفرد الواحد.

فاعلَمُوا - رحمكم الله! - منازلَهم واقْدُروا قَدْرَهم، وسلِّمُوا لهم أمرهم.

روىٰ سهل بن يوسف الأنصاري عن أبيه عن جده أن رسول الله - ﷺ - صعد المنبر فقال[1]: «أيّها الناس إن أبا بكر الصديق ما ساءني ساعة قط، وإنّي لراض عن أبي بكر فاعرفوا ذلك، أيُّها الناس إني راض عن عمر بن الخطاب فاعرفوا له ذٰلك، وإني لراضٍ عن عليّ بن أبي طالب، وعن عثمان بن عَفّان، وطَلحة، والزُّبير، وسَعد بن أبي وقاص، وعبد الرّحمن بن عَوف، وأبي عبيدة بن الجراح، فاعْرِفُوا ذٰلك لهم.

أيها النّاس إن الله قد غَفر لأهل بدر والحُدَيبية. أيّها النّاس احْفَظُوني في أصحابي، وأصهاري، وأَخْتَاني، لا يُطَالِبَنّكم أحدٌ منهم بمظلمة فإنها لا توهَبُ يوم القيامة غداً.

أيّها النّاسُ! ارْفَعُوا ألسنتكم عن النّاس، وإذا مات المؤمن فلا تقولوا إلا خيراً» ثم نزل - ﷺ -.

فهم - لله دَرُّهم - إيمانُ الخَلائق في ميزانهم، والفتوحات الموجودات من آثارهم سيوفهم[2] وغبار أقدامهم - لله دَرّهم! - وقد نصحَ والله من وَصفهم وأَفْصَح: [١٤٠/أ].

أعلىٰ الإلّهُ بهمْ دينَ الهُدىٰ فغَدا ... دينُ الهدىٰ عالياً والكُفْر مُحتقَرا[3]

لله دَرُّهم من فتيةٍ صَبَرُوا ... للمَكْرهات وكانُوا سادةً صُبُرا

ولم يَزلْ ذو العلا يُعلي النبيّ ومن ... والى النبيّ ومَنْ آخىٰ ومن نَصَرا

---

(١) تهذيب ابن عساكر ٦: ١٢٩.

(٢) في ب: من آثار إقدامهم وغبار أقدامهم.

(٣) من بحر البسيط.

وزانــه بـصـــحــابٍ إنْ عَــددْتَـهُــمُ   كانوا نُجوماً وكان المصطفىٰ قَمرا

أولـئـك الـنّـفـرُ الـمـأجـورُ ذاكِـرُهـم   والـمُـقْـتَـدىٰ بـهـمُ أكـرمْ بـهـمْ نَـفـرا

مـنـهـم عـتـيـقٌ فـبَـجِّـلْ قَـدْرَهُ أبـداً   ختَنُ الـنـبـيّ وبَـجِّـلْ بـعـدَهُ عُـمَـرا[1]

من قامَ بالسَّيفِ والإسلامُ مُسْتَتِرٌ   لا يـعـبـدُ الله بـعـدَ الـيـوم مُـسـتـتـرا

وخُصّ بـالـفـضـل عُـثـمـانـاً ورابـعـهـم   عـلـيُّ الـمُـرتَـضـى أعْـلَـىٰ الـورىٰ قـدرا

صهر الرسول وسيف المسلمين إذا   خـافـوا وأوّل خـلـقٍ حَـجّ واعْـتَـمـرا

وطـلـحـة وزُبـيـر ثـم سَـعْـدهـمُ   ثمّ السَّعيد جميعاً طابَ مختبرا

ثـم ابـن عَـوْفٍ فـلا تـكـتـمْ مـنـاقِـبَـهُ   ثـم ابـن جَـرّاحِـهـم كـلّ لـه غـفـرا

ألا وصـحـب رسـول الله أجـمـعـهـم   محبّهم فازَ، والشّاني لهم خَبِرا[2]

قُمْ يا فتىٰ نَرْغَبُوا أن نحْشَرُوا معَهمْ   طُوبىٰ لعبدٍ مُنيبٍ فيهم حُشِرَا[3]

نَفعنا الله بمحبّتهم، وأعادَ عَلينا من بركاتهم وحشَرنا في زمرتهم، وصلّىٰ الله علىٰ سيّدنا محمّدٍ وصحبهِ وسَلّم تسليماً، وزاده مَولانا شرفاً وتعظيماً.

---

(١) أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما. ثم سرد سائر العشرة المبشرين بالجنة.

(٢) الشاني تسهيل الشانىء. وهو المبغض الكاره.

(٣) كذا ورد، النص: فرغبوا (نرغب) ونحشروا (نحشر) وهي من اللهجة العامية الدارجة.

باب
في معنىٰ اسمه
المصطفىٰ
صلى الله عليه وسلم وشرّف وكرّم

المصطفى[1]: اسمٌ من أسمائه عليه أفضل الصلاة والسلام اختص به، وأطلق عليه بإجماع الأنام.

ومعنىٰ المصطفىٰ: أي الذي فَضّله الله علىٰ سائر خلقه، وصَفاه من صَفوة الأخيار، وحَباه بتمامِ الصّفاء مع كمال عقله.

ـ وهو مشتقٌ من الصّفو.

وصفو الشيء: ما خلص من لُبّه.

فرسولُ الله ـ ﷺ ـ هو صَفوة اللُّبّ[2] من العالمين، ونُخبة الهاشميّين، وصميم أشراف العرب أجمعين، وأعزّ الخلق نَفراً، وأعلاهم ذكراً.

---

(١) اسم المصطفى ﷺ في سبل الهدى والرشاد ١: ٦٣٩ والرّياض: ٢٤٧. وسرده في الشفا ١: ٣٢٠ والمواهب اللدنّية ١: ١٨٤.
قال في سبل الهدى: المصطفى من أشهر أسمائه ﷺ.

(٢) في أ: «صفوة الله» ويتوجه بها المعنى أيضاً. وفي ج: صفو اللبّ.

عن واثلة بن الأسقع ـ رضي الله عنه ـ قال[1]: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «إنّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفىٰ من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفىٰ من بني كنانة قريشاً، واصطفىٰ من قُريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

فكان نَبِيُّنا ـ ﷺ ـ هو صَفوة الصُّفوة، وخُلاصة أهل المحبة. [١٤٠/ب].

وقد اصطفىٰ الله تعالىٰ آدمَ ونوحاً وآل إبراهيم واصطفىٰ موسىٰ برسالته وبكلامه، واصطفىٰ أنبياءه ورسلَهُ اصطفاءً مقيّداً. ونبينا ـ ﷺ ـ فَضّله تفضيلاً مُطلقاً، واصطفاه اصطفاءً مُطلقاً مؤبّداً، وقَدّمه علىٰ سائر الأشخاصِ في جميع الأزمان.

وأدام ذِكْرَهُ مع ذكره علىٰ ألسنة[2] العالمين في كل مكان. وقد فضّل الله تَعالىٰ نبينا بخصائص لم يَعطها لنبيٍّ قبله، وعنايات ربّانية لم يؤتها أحداً بعده.

لمّا أوحىٰ رب العزة إلىٰ نبينا ما أوحىٰ ليلة الإسراء قال النبي ـ ﷺ ـ[3]: قال لي ربي: سَلْ يا محمّد. قال، قلت: يا رب إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلّمت موسىٰ تكليماً، وأعطيت داوود ملكاً عظيماً وألَنْتَ له الحديد وسخّرت له الجبال، وأعطيتَ سُليمان ملكاً عظيماً وسخرت له الجِنّ والشّياطين، وأعطيتَهُ ملكاً لا ينبغي لأحد

---

(١) رواه القاضي عياض في الشفا ١: ١٠٨ و١: ٢١٦ ـ ٢١٧، والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب ٥: ٥٨٣ وهو في مسند الإمام أحمد ٤: ١٠٧.
وروي بألفاظ مقاربة في صحيح مسلم: ١٧٨٢.

(٢) في ب: ألسن العالمين.

(٣) ينظر الشفا ١: ٢٢٢ وشرح السنة للبغوي ٧: ٢٩٥ والقرطبي ٣: ٤٢٥ ـ ٤٢٨.

من بعده، وعلّمت عيسىٰ التوراة والإنجيل، وجعلتَهُ يُبْرِىءُ الأكمَه والأبرص.

قال ربُّ العزة جلّ جلاله: قد اتّخذتك يا محمد حَبيباً وهو مكتوبٌ في التوراة «محمّد حبيبُ الرحمن» وأرسلتُك إلىٰ الناس كافة، وجعلتُ أمّتكَ لا تجوزُ لهم خطبةٌ حتىٰ يشهدوا أنّك عبدي ورسولي؛ وجعلتُك أوّل النبيّين خَلقاً، وآخرهم بعَثاً، وأعطيتك سبعاً من المثاني ولم أعطها نبياً قبلك، وجعلتك فاتحاً وخاتماً.

وأعطيتُكَ خواتيمَ سُورة البقرة من كنزٍ من تحتِ عرشي ولم أُعطها نبيّاً قبلك، وأعطيتكَ ثمانيةَ أسهم: الإسلام، والهجرة، والجهاد، والصّلاة، والصّدقة، وصوم شهر رمضان، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وأعطيتك الكوثر. وأنزلت عليكَ سيّد الكتب كلّها، ومُهَيمناً عليها، ورفعتُ لك ذكركَ حتىٰ تُذكرَ كلّما ذُكرتُ، وأعطيتك مكانَ التوراة السَّبْعَ المثاني، ومكان الإنجيل الطّواسيم، ومكان الزّبُور الحواميم[1]. وفضّلتُك واصطفيتُك بالمفصّل، فَخُذْ ما آتيتك وكنْ من الشاكرين.

ورُوي في بعض الأحاديث عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال[2]: «فضّلني ربي، واصطفاني بستّ: قَذف في قلوب أعدائي الرُّعب مَسيرة شهر، وأحلّ لي الغَنائم [١٤١/أ] ولم تَحِلّ لأحدٍ قبلي، وجُعلت

---

(١) في جمال القرّاء وكمال الإقراء للسخاوي (ط مكتبة التراث ـ مكة المكرمة) ١: ٣٥: قال بعض الأئمة من السلف رضي الله عنهم: في القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيج ورياض فميادين القرآن ما افتتح؛ (ألم) وبساتينه المفتتح بـ (الر) ومقاصيرة الحامدات وعرائسه المسبّحات ورياضه المفصل. وقالوا الطواسين والطواسيم. وآل حاميم والحواميم.

(٢) مجمع الزوائد ١: ٧٢.

لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأُعطيت فواتح الكلم وجوامعه، وعرضت عليّ أُمّتي فلم يخفَ عليّ التّابع من المتبوع منهم، وأُمرت بخمسين صلاة فلم أزَلْ مع رَبّي حتىٰ خَفّف عن أُمّتي».

وأطبقت العُقلاء علىٰ أن الله تعالىٰ خَصَّ هذا النبيّ، واصطفاه بما لا عينٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطرَ علىٰ قلب بشر.

ولقد أحسن الشّاعر في مقصورته[1]، في قوله، ووصفه للنبي حيث قال في إنشاده:

مَقامٌ لدىٰ سِدْرَةِ المُنتهىٰ ... علاءٌ بلا شكّ للمصطفىٰ[2]
كريمٌ علىٰ الله ما مِثْلُهُ ... فأوْحىٰ إليه شديدُ القوىٰ
لئن كلّم الله موسىٰ النبيّ ... علىٰ جَبلِ الطور يومَ النِدّا
فقد كلّم الله سبحانَهُ ... لدىٰ عرشهِ أحمدَ المُصطفىٰ
وإن كان عيسىٰ قد أحْيَا المَواتَ ... وأبرا بإذنِ الإلهِ العمىٰ
فإنَّ الذّراعَ وقد سَمَّها ... يهودُ لأحمدَ وقت الغَدا
فنادَتْهُ إنّي لمسمومةٌ ... فَلا تأكلَنّي وُقِيْتَ الرّدىٰ
فَسمّىٰ الإلَهَ و أوْ ما لها ... فجَنَّبهُ الله ذاكَ الأذىٰ
فطوباكَ إن كنتَ من أُمّةٍ ... تُحِبُّ الصّحابة والمُصطفىٰ
ينالُ الشفاعة من ربّهِ ... لأهلِ الكبائر يوم الجَزا
فأزكىٰ الصلاة علىٰ المصطفىٰ ... تَروح مساءً وتغدُو ضحىٰ

---

(١) في ب: ولقد أحسن صاحب المقصورة.

(٢) من بحر المتقارب.

ـ وفي الأبيات إشارات إلى بعض خصائصه ودلائل نبوته ﷺ.

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ نبينا ـ ﷺ ـ اصْطَفاه الله علىٰ خَلْقِهِ أجمعين، وفضّلهِ علىٰ سائرِ المُرسلين وشرّف أُمّته بهِ وبَعثها يومَ القيامة غُرّاً مُحجّلين فَلْيَصْطفِ المحبُّ فيه لنفسهِ[1] ما اصطفاه الله، وليعِدَّ لها ذُخراً يومَ القيامة مَن اختارَهُ الله.

روىٰ عبد الرحمن بن أبي أوفىٰ أنّه دخل علىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ مسجدَ المدينة، فجعلَ ـ عليه الصلاة والسلام ـ يَتَفقَّدُ أصحابَهُ أينَ فُلان؟ وأينَ فُلان؟. ويبعث إليهم، حتّىٰ اجتمعوا ـ رضي الله عنهم ـ ثم قال ـ عليه الصّلاة والسلام ـ إنّي أُحدّثكم بحديثٍ فاحْفَظُوه، وحدّثوا به مَنْ بَعدكم[2]: إنّ الله اصْطَفىٰ من خَلْقهِ مَن شاءَ، ثم تلا قوله تعالى: [١٤١/ب]: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٢٢/٧٥] ثم أشارَ عليه الصّلاة والسلام إلىٰ بيانِ منازلِ الصّحابة عنده، تعليماً لأمّته للاقتداء في الاتّباع لشريعته، فقال:

إنّي مصطفٍ منكم مَن أُحبّ أن أصطفيه، ومؤاخٍ بينكم كما آخىٰ الله عز وجل بين ملائكته.

قُم يا أبا بكر، فقام فجَثا علىٰ رُكبتيه بين يدي النبيّ ـ ﷺ ـ فقال: إنَّ لك عَليّ يداً، وإن الله يجزيك بها، ولو كنتُ مُتّخِذاً خليلاً غير رَبّي لاتخذتك خليلاً، فأنتَ منّي بمنزلة قميصي من جَسدي.

ثم قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ادْنُ يا عُمَر.

فقال له: قد كنتَ شديدَ الشغْب علينا يا أبا حَفص، فدعوتُ الله ـ

---

(١) لنفسه من ب.

(٢) الدرّ المنثور ٤: ٣٧٠ وتهذيب ابن عساكر ٦: ٢٠٢ والعلل المتناهية ١: ٢١٤.

عز وجل - أن يُعِزَّ الإسلامَ بك أو بأبي جَهل بن هشام، ففعلَ الله ذٰلك بك، فكنتَ أحبَّ إلىٰ الله، فأنت معي في الجنّةِ ثالث ثلاثةٍ من هذه الأُمّة، ثم آخىٰ بينهما.

ثم قال: ادنُ يا عُثمان، يا أَبا عمروا، فلم يزل يدنُو حتىٰ ألصقَ رُكبتيه بركبتي رسول الله - ﷺ -. ثم نَظر إلىٰ السّماء فقال: سبحان الله العظيم - ثلاث مرات - ثم نَظر إلىٰ عُثمان وإزاره محلولة، فرآها رسول الله - ﷺ - فردّها بيده الكريمة، ثم قال له:

اجْمَعْ عِطْفَي[1] ردائكَ علىٰ نَحْرِكَ، فإنّ لك شأناً في أهل السّماء، وأنت ممن يرد عليّ الحَوْضَ، وأوداجُكَ تَشْخَبُ دماً[2]. وإذا بجبريل - عليه السلام - يهتفُ في السّماء وهو يقولُ: عثمان أمينٌ علىٰ كُلِّ مَخذول.

ثم دَعا عبد الرحمنَ بنَ عوف فقال له: ادنُ يا أمين الله، سلّطك الله علىٰ مالك بالحقّ، وإنك أوّل مَن يدخلُ الجنّة من الأغنياء، ثم آخىٰ بينه وبين عُثمان.

ثم دعا طلحةَ والزُّبير ثم قال: أنتم حواريُّ كحواريّ عيسى بن مريم ثم آخىٰ بينهما.

ثم دعا سعدَ بن أبي وقاص، وعماراً ثم قال: يا عمّار، تَقْتُلكَ الفئةُ البَاغِية، ثم آخىٰ بينهما.

ثم دَعا بأبي الدّرْداء وسَلْمان، فقال: سلمانُ منّا أهلَ البَيت. ثم

---

(١) العِطف: الجانب.

(٢) كل ما سال فقد شَخب؛ وأصلهُ: شخب اللبن (الحليب): اندفع من الضرع إلى الإناء متصلاً حين الحلب.

قال لأبي الدّرداء: إن تتركْهُم لا يتركُوك، وإنْ تهربْ منهم يُدركوك، وأقْرِضْهُم عِرضَك ليومِ فَقرك، واعلمْ أنّ الجزاء أمامك. ثم آخى بينهما. ثم نظر في وجوه أصحابه فقال: أبْشِرُوا وقَرُّوا عَيْناً فأنتمْ أوّلُ مَن يَرِدُ عليّ الحَوض، وأنتمْ في أعلىٰ الغُرَف.

فقال عليّ بن أبي طالب [١٤٢/أ]: يا رسولُ الله، انقطعَ ظَهري، وذهبتْ رُوحي، حيثُ رأيتك خُصصتَ مِن أصحابك وفعلتَ ما فعلت، فإنْ كان من سَخَطٍ عليّ فَلَكَ الكَرامة.

فقال له: يا عليّ! والذي بعَثني بالحقّ ما اختَرْتُكَ إلاّ لنفسي[1]، وأنتَ مني بمنزلة هارونَ من موسىٰ؛ غير أنّه لا نبيّ بَعْدِي. وأنت أخِي ووارثي.

قال: يا رسول الله ما أَرِثُ منك؟

قال: ما وَرّثت الأنبياءُ قَبلي: كتابَ الله، وسُنّة نبيّهم. وأنتَ معي في قَصري في الجَنّة مع فاطمة ابنتي، وأنت أخِي ورفيقي، ثم تلا قوله تعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ١٥/٤٧].

فتأدّبُوا ـ رحمكم الله ـ بآداب هٰذا النبيّ الشريف وتخلّقُوا بأخلاقِ مَنْ كساه الله حُلّةَ الفَضْلِ والتّعريف، وقِفُوا عند ما بَيّن لكم من المنازل، وتوسّلُوا إلىٰ مولاكم في قَضاء الحوائج بالسّيد الكامل. ـ ﷺ ـ كثيراً، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ الأفاضل وسلم تسليماً، وزاده مولانا شرفاً وتعظيماً.

---

(١) مسند الإمام أحمد ١: ١٧٩ وتهذيب ابن عساكر ٤: ١١٧.
وتفسير القرطبي ١: ٢٦٦ وكنز العمّال ١٤٢٤٢.

باب

في معنىٰ اسمه

المُجتبىٰ(١)

صلَّىٰ الله عَليه وسَلَّم وشَرَّفَ وكَرَّم

المُجتبىٰ: اسمٌ من أسمائهِ ـ عليه أفضلُ الصَّلاة والسلام. أُطلق ذٰلك عليه في ألسنةِ الأنام لاجتباءِ الله تعالىٰ له، كما اجْتَبىٰ صَفوته المُرسلين، وأعطاهُ مِن الفضائل ما لم يُعْطِ أحداً من الأوّلين والآخرين ولقد اجْتبىٰ الله تَعالىٰ أنبياءه، وهَدىٰ إلىٰ الصّراط المُستقيم أصفياءه، فقال عَز من قائل:

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٦/٨٧].

ومعنىٰ المُجتبى قريبٌ من معنى اسمهِ المُختار. وقد اختار الله نبيَّهُ، وحبيبَهُ، واصطفَاهُ من خِيْرَةِ خلقه، وخَصّه بمعادن أسراره وزَيّنه بملابسِ أنوارهِ، وكمّل له تمام محاسنهِ وقُوّة معرفته، وجعله إمام حضرتهِ، وعَرُوسَ مملكته. صلّى الله عليه وسلم وعلىٰ آله وأصحابه وقرابتهِ.

---

(١) «المجتبى» في سبل الهدى والرشاد ١: ٦٢٧ والشفا ١: ٣٢٠ والرياض الأنيقة: ٢٣٥ والمواهب اللدنية ١: ١٨٣.

روىٰ عبدُ الله بن عُمَر[1] ـ رضي الله عنهما ـ أنّه كان بِفناءِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ فإذا بامرأةٍ، فقال رجل من القوم: هٰذه ابنةُ محمّد ـ ﷺ ـ تعظيماً وتشريفاً لِمَا رأىٰ من هَدْيِها ونُورها.

فقال أبو سُفيان: إنَّ مثلَ محمّد في بني هاشم كمثلِ الرَّيحانة مع النَّتن، لِمَا رأىٰ [١٤٢/ب] من عُلوّ منزلته ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكمال خَلقه وخُلقه وتُؤدتهِ ووقارِه، وتمامِ أخلاقِ أهلِ بيته.

فانطلقت المرأةُ فأخبرت النّبيّ ـ ﷺ ـ فخرج ـ عليه الصّلاة والسّلام، يُعْرَفُ الغضبُ في وجهه فقال:

ما بالُ أقوامٍ يقولونَ كذا وكذا؟ إنَّ الله خلق السموات فاختارَ منها العُليا، فأسكنها من شاءَ من خلقه، ثم خلق الخلقَ فاختار منهم بني آدم، ثم اختارَ من بني آدم العربَ، ثم اختارَ من العَربِ مُضَر، ثم اختار من مضر قُريشاً، ثم اختار من قريش بني هاشم ثم اختارَني من بني هاشم، فأنا خيارٌ من خيارٍ من خيار.

فَمنْ أحبَّ العرب فبحبّي أحَبّهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم.

وقد اجتبىٰ الله تعالىٰ أُمّته المحمّدية لأجل اجتباءِ نبيّها، وأثنىٰ عليها في كتابه بُحِسن فِعلها، فقال عزّ من قائل: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ [الحج: ٧٨/٢٢] فمن اجتباء الله تعالىٰ لنبينا، ولأمّته أنّهُ لم يخلقْ خلقاً أكرمَ علىٰ الله من

(١) رواه الحاكم والبيهقي من حديث محمد بن ذكوان، وأورده ابن كثير في السّيرة النبوية ١: ١٩٣ ـ ١٩٤ وقال: حديث غريب.

نبيِّ هٰذه الأُمّة، وأنّ الله تعالىٰ جعل توبة أُمّتهِ من ذُنوبها الاستِغفار[1].

وإنّ الله تعالىٰ أطلعَها علىٰ عُيوب سائِر الأُمم السّابقة، وأنّ أمّة محمد ـ ﷺ ـ تأتي يوم القيامة لا يُعْرَفُ لها ذُنوب.

وقد جَعلها الله سبحانه وتعالى شهداء علىٰ الأمم قبلها، وقد استجابَ الله دعوتَها.

ومن اجتباءِ الله تعالىٰ لِهٰذه الأُمّة ـ جعلنا الله منها ـ ما رُوي عنه ـ عليه الصّلاةُ والسّلام ـ: أنّه قال[2] إذا كان ليلة القَدْر أمَر الله جبريلَ أن ينزلَ إلىٰ الأرض، ومَعهُ سُكّان سِدرة المُنتهىٰ سبعون ألفاً من الملائكة، ومعهم ألويةٌ من نُور، فإذا هَبطوا إلىٰ الأرض ركز جبريلُ لواءَهُ، والملائكةُ ألويتَهُمْ في أربعةِ مواضع: عند الكعبةِ، وعندَ قَبْرِ النبي ـ ﷺ ـ وبَيْتِ المَقْدِس، وطُور سيناء، ثم يقول لهم جبريل عليه السلام: تفرّقوا، فيتفرقون. فلا تبقىٰ دارٌ ولا حُجرةٌ ولا بيتٌ فيه مؤمنٌ ولا مؤمنةٌ إلاّ دخلَتْهُ الملائكةُ إلا بيت فيه كَلْبٌ أو صورةٌ أو خنزيرٌ أو جُنُبٌ من حَرام، فيسبّحونَ ويقدّسونَ، ويهلّلونَ ويَسْتَغْفِرُوْنَ لأمّة محمّد ـ ﷺ ـ حتىٰ إذا كان وقتُ الفَجر [١٤٣/أ]. يصعدون إلىٰ السّماء، فيستقبلهم سكّانُ سماءِ الدُّنيا، فيقولون: من أين أقْبلتُمْ، فيقولون: كانَت ليلة القدر لأمّةِ محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيقولون: ما فَعل الله بأمّة محمد؟ فيقول لهم جبريل عليه السلام: غفر الله لصالحيها، وشفّع صالحيها في طالحيها،

---

(١) في مسند الإمام أحمد ٦: ٢٦٤ من حديث عائشة رضي الله عنها قالت قال لي رسول الله ﷺ يا عائشة إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله فإنّ التوبة من الذنب الندم والاستغفار.

(٢) مشكاة المصابيح ٢٠٩٦ والدر المنثور ٦: ٣٧٧ والعلل المتناهية ٢: ٤٤.

فترفعُ الملائكة أصواتَها بالتّسبيح شُكراً لله تعالىٰ وكرامةً لهذه الأُمّة المحمّدية.

ثم تبقىٰ كذلك الأصواتُ من سَماءٍ إلىٰ سماء حتىٰ تنتهي إلىٰ السّماءِ السّابعة، ثم يرجعُ كلٌّ من الملائكة إلىٰ مَحلّها، وسكّان كلّ سماءٍ إلىٰ سمائها، ويرجعُ سكّان سِدرة المُنتهىٰ إليها.

فتقول سِدرة المنتهىٰ لسكّانها: أينَ كُنتم البارحة؟ فيقولون: كانتْ ليلة القدر لأُمّة محمد ـ ﷺ ـ.

فتقول: ما فَعل الله بحوائجِ أمّة محمد؟

فتقول الملائكة: غفَر لصالحيها، وشَفّع صالحيها في طالحيها.

فَتَرفعُ السّدرة صَوْتَها بالتّسبيح والتّهليل شُكراً لما أعطىٰ الله تعالى هٰذه الأُمّة من المَغفرةِ والكَرامة.

فتسألَها جَنّة المَأوىٰ، فَتُخْبِرُها، فَمَا يَزَالُ ذٰلك التّسبيح حتّىٰ ينتهي إلىٰ العَرش.

فيقولُ لها العَرْش: أيَتُها الأحِبَّةُ! لِمَ رَفعتم أصواتكم؟ فيقولون: كانت اللّيلةُ ليلةَ القَدْر لأمّةِ محمّدٍ ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيقول العَرْش: ما فعل الله بحوائجهم؟

فتقول الجنان: غفر الله لها، وشفّع صالحيها في طالحيها.

فيقول المولىٰ جلّ جلاله، وتقدّس وتنَزّه عن سمات المُحْدَثِيْنَ، وتعالىٰ عن صفاتِ المَخْلُوقين: يا عَرْشي! لِمَ رفعتَ صَوتَكَ؟ وهو العليمُ الخبير، السّميعُ البصير ـ.

فيقول: يا رَبّ أنتَ أعْلَمُ، وأنتَ العالم الخَبِير، يا إلٰهي بلغني

أنّك غفرتَ البارحةَ لصالحي أُمّة محمّدٍ ـ عليه الصّلاةُ والسّلام ـ وشفّعت صالحيها في طالحيها.

فيقولُ المَوْلَىٰ الكريمُ، البَرّ الرَّحِيْمُ، لكمالِ إحسانهِ وجودهِ، وإفضالهِ واجتبائهِ لنبيّه: يا عَرْشي صَدقت، ويا سماواتي وسكّانها صَدَقْتُمْ، إنّ لأمةِ محمّدٍ حبيبي من الكرامةِ والخَيْرات في دار البَقاء، ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذُنٌ سمعت، ولا خطَر علىٰ قلبِ بشر ـ ﷺ ـ وعلىٰ آله ما طلعتْ شمسٌ وقمر.

فأَبْشِرُوا يا أمّة محمد ـ عليه الصّلاة والسلام ـ بهٰذه الخيرات، واعْلَمُوا أنّ الله تعالىٰ فَضّلكم علىٰ سائر الأمم، واجْتَباكم وأنزلَ عليكمُ البَركات [١٤٣/ب] وجَعل نبيكم أشرفَ أهلِ الأرض والسّمٰواتِ، وأكْثِرُوا من حُبّه وذكره، وادَّخِرُوا عنده التّسليم عليه والصّلوات؛ فلقد شهدتْ بفضلهِ عندَ ربّه جميعُ الخلائق، وأنّه أفضلُ المخلوقات.

شهدتْ جميعُ الأنبياءِ بفضلهِ ولأجْلِ ختمهمِ أَتَوْا من قَبْلهِ[1]
ولهُ لواءُ الحمدِ خُصّ بحملهِ هٰذا الفَخَارُ فهل سمعْتَ بمثلهِ؟
واهاً لنشأتِهِ الكريمةِ واهاً!

يا أُمّةَ الهادِي ومَن كمثالِكُمْ فَجلالُ أحمدَ شاهدٌ بكمالكمْ
هو سَتركم هو ذُخركم لمآلكمْ صَلُّوا عليهِ وسَلِّمُوا فَبِذٰلكمْ
تُهدىٰ النفوسُ لِرُشْدِهَا وغِنَاها

ما في عبادِ الله مثلُ مُحمَّدِ فمقامهُ المحمودُ يُعْرَفُ في غَدِ
ولحوضهِ الموروِدِ أكرم موردِ صلىٰ عليه الله غير مُفَنّدِ
وعَلَيْهِ مِن بَرَكاتِهِ أنْمَاها

---

(١) من بحر الكامل.

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ نبيّنا - ﷺ - اسْمُه المجتبىٰ، وأنَّ الله تعالىٰ اجْتَبَاهُ، وهَداهُ إلىٰ صراطٍ مُستقيم، وحَباهُ مولانا جلّ جلاله من الخيرِ العظيم، والفَضْلِ الجَسِيم أن يكونَ مُحِبَّه، طالباً من الله تعالى في أفعاله ما يجتبيهِ بهِ، ويَصطفيه، واقفاً عند بابِ الفتّاح سُبحانه كي يَمُنّ عليه، ويُعطيه، متوسّلاً إلىٰ الله تعالىٰ العظيم بالنبي الكريم[1]، وأصحابه أن يوفقه لمرضاته ويهديه.

واعلموا أنّ الله تعالى إنّما يصْطفي من خَلْقهِ ويَجتبي مَنْ تركَ هواهُ، ولم يتعلّق قلبهُ بِمَنْ سِوَاه.

قال أبو بكر الصدّيق - رضي الله عنه -[2]: «مَن ذاق قلبُه شيئاً من محبّةِ الله، ألهاهُ ذٰلك عمّا سوىٰ الله».

وقد كانَ كذٰلك - رضي الله عنه - فإنّه لما استغرق الحُبُّ قلبُه، واجْتبَاه رَبُّه، لم يبقَ له محبوبٌ سواه، ولم يُمسك شيئاً من ماله لهواه، ولم يبق لنفسه أهلاً ولا مالاً، وكانَ بالله ورسوله غِناه. فَسَلَّم ابنته قرّة عينه،وبذَل ماله في مرضاة رَبّه،وتخلّل بعباءته علىٰ صدره [١٤٤/أ].

فبينما هو جالسٌ عندَ مَن اجتباه الله تعالىٰ واصطفاه - ﷺ - وأعظمَ مَجده وعلاه، إذْ نزل جبريلُ - عليه السلام - فقال للنبيِّ - ﷺ -:

يا محمّد أقْرِ أبا بكرٍ مِنَ الله السّلام، وقُل له: ربُّك يقولُ لك: أراضٍ أنتَ عنّي في فَقرك أم ساخِط؟

فالتفت النبي - ﷺ - إلىٰ أبي بكر وقال: يا أبا بكر! هذا جبريل

---

(١) في ب: بنبيه الكريم.

(٢) العبارة لأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه في إحياء علوم الدين ٤: ٢٩٥.

يقرئك السلام من الله تعالى ويقول لك: أراضٍ أنتَ أم ساخِط؟

فبكىٰ أبو بكر وقال: أعلىٰ ربّي أسخط؟! أنا عن رَبّي راضٍ؛ أنا عن رَبّيَ راضٍ - رضي الله وعنه وأرْضاه -[1].

فارْضَوْا - عِبَادَ الله - عن هٰذا الحبيب الذي هو أفضلُ الخلقِ بعد نَبِيّنا، وتوسّلُوا إلىٰ الله ببركته أن يجبرَ لنا كسْرَنا، وابتهِلُوا إلىٰ مولانا بالدُّعاءِ أن يقوّيَ بِحُرمته عنده ضَعْفَنا.

لقد كانَ هو أحبُّ الخَلْقِ إلىٰ رسول الله - ﷺ - ولقد قال النبيُّ - ﷺ - لحسّان بن ثابت ذات يوم: هل قُلْتَ في أبي بكر شَيْئاً؟

قال: نعم!

فقال له: قل، وأنا أسمع.

فقال حسان رضي الله عنه[2]:

إذا تـذكَّـرْتَ شَـجْـواً مـن أخـي ثـقـةٍ ... فـاذكُـرْ أخـاكَ أبـا بـكـر بـمـا فَـعـلا[3]
خـيـرَ الـبـريّـة أتـقـاهـا وأَعْـدَلَـهـا ... بـعـد الـنـبـيّ وأوْفـاهـا بـمـا حَـمـلا
الـثّـانِـيَ الـتّـالِـيَ الـمـحـمـودَ مـشـهَـدُهُ ... وأوّل الـنـاسِ حـقـاً صَـدّق الـرُّسُـلا
وثـانـيَ اثـنـيـنِ فـي الـغـارِ الـمُـنـيـفِ وقَـدْ ... طـافَ الـعـدوُّ بـهِ إذْ صـعّـدَ الـجَـبَـلا
وكـانَ حِـبُّ رسـولِ الله، قـد عَـلِـمُـوا، ... مـن الـبـريّـة لـم يـعـدلْ بـه رَجُـلا[4]

فلمّا سَمِعَ رسولُ الله - ﷺ - ذٰلك ضحكَ حتىٰ بَدتْ نواجِذُه

---

(١) يُنظر حلية الأولياء ٧: ١٠٥ وإتحاف السادة المتقين ٦: ١٩١ وتهذيب ابن عساكر ٢: ١٦٤.

(٢) ديوان حسان بن ثابت (تحقيق د. عرفات) ١٢٥، وتنظر الحماسة المغربية ٢: ٧٨٨.

(٣) من بحر البسيط.

(٤) الحِبّ: الحبيب.

سروراً، واستبشاراً بما أثنىٰ به علىٰ أبي بكر الصديق، المؤانس له في كل صَعبٍ وضِيْق، الأكرم صُحبةً له في خيرِ صَحْبٍ وطَرِيق.

وقد قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ[1] لحسن اتّصافهِ ومُوَافاتهِ وعدلهِ، وُحبّه في الله ولله، قال: أَمَرنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن نتصدَّق، ووافقَ ذٰلك عندي مالاً، فقلت: اليوم أَسِبقُ أبا بكر، فإنّي ما سبقته يوماً. فجئتُ النبيَّ ـ ﷺ ـ بنصفِ مالي.

فقال لي النبيُ ـ ﷺ ـ: ما تركتَ لأهلك؟ قلت: نِصْفَهُ أو مثله.

وأتىٰ أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ بكلّ ماله.

فقال له النبيُ ـ ﷺ ـ: ما تركتَ [١٤٤/ب] لأَهلك؟ فقال: أبقيتُ لهم الله ورسوله.

فقلت له: لا أُسابقك إلىٰ شيء بعدَها أبداً يا أبا بكر.

فيا أخي ـ حَفِظَني الله وإياك، ونَجّانا من الزّيغ والزَّلل والهلاك ـ إذا أردتَ النَّجاةَ، وطمعتَ في أنّ الله تعالىٰ يَجتبيك، ويختارك، فعمّرْ قلبَك بمحبّة مَن اجْتبَاه الله واختارَهُ لصحبةِ نبيّه، واجعلْهُمْ وسيلةً بينك وبينَ ربّك، خصوصاً بأفضلِ المُهَاجرين، وأقدمهم إسلاماً، وأكرمهم بعدَ رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ هَدْياً وإعلاماً. الإمام، بعد رسولنا للسّادةِ الأبرار، معدنِ السّكينةِ والوَقار، عَلَمُ المهاجرين والأنصار، المؤانس، الشّفيق، الرّفيق، مُؤنس رسولِ الله ـ ﷺ ـ في الغار، أَبُو بكر الصديق.

ومن سيادةِ عُمر بن الخطاب وفضلهِ، وخوفه من الله وعدله، واتّصافه في أنّه قد نطق بالحَقّ، وبَيّن ذات يوم مقام أبي بكر ـ رضي الله

(١) مستدرك الحاكم ١: ٤١٤ والترمذي ٩٧٥ والنسائي: الوصايا الباب ٣؛ وينظر: الدرّ المنثور ١: ٣٥٧.

عنهما عند رسول الله - ﷺ -.

وذلك أنّ أبا موسىٰ الأشعري[1]، كان إذا خَطب بالبصرة يوم الجُمعة، صلّىٰ علىٰ النبي - ﷺ - ثم ثنّىٰ بعمر بن الخطاب يدعُو له. فقام رجلٌ - وفي اسمهِ رواياتٌ مُختلفةٌ - فقال:

أينَ أنت من ذِكر صاحبهِ أبي بكر قبله؟ فقال ذلك مراراً، فكتب أبو موسىٰ الأشعري كتاباً لعمر بن الخَطّاب، وذكر له قصّته مع الرجل[2]، فكتب عمر، وأمر بالرجل أن يؤتىٰ إليه، فلما قَدِمَ علىٰ عمر قال له: لا مَرْحَباً بك ولا أهلاً.

فقال يا أمير المؤمنين: إنّي خرجتُ من بلادي بلا جُرْمٍ ولا خيانةٍ فلأيّ شيء أنهضتني من بلادي؟

فبكىٰ عمر بكاءً طويلاً، ثم قال له عمر - رضي الله عنه - لشدّة خوفه ومراقبته: هل أنت واهبٌ لي ذنبي معك؟

فقال له: يا أمير المؤمنين غَفر الله لكَ ذنبكَ!

ثم قال له: ما أغضبك علىٰ أميرك أبي موسىٰ؟

فأخبره الخبر، وأنّه كان إذا خطَب بدأ بذِكر النبي - ﷺ - ويصلي

(١) أبو موسى الأشعري (عبد الله بن قيس ٢١ ق. هـ - ٤٤ هـ) صحابي جليل من الشجعان الولاة الفاتحين، وأحد الحكمين بعد حرب صفّين. ولاّه عمر رضي الله عنه البَصْرَة وأقرّه عليها عثمان ثم علي رضي الله عنهما. وعزله عليّ رضي الله عنه حين أمر أهل الكوفة بنصرته في الجمل وأمرهم أبو موسى بالقعود اعتزالاً للفتنة. وفي الحديث: سيّد الفوارس أبو موسى.

(٢) يعني حدثه عن شغبه في أثناء الخُطبة. ويتضح من سَرْد الخبر أنّ أبا موسى رضي الله عنه لم يذكر تفاصيل ما حدَث. ويتبيّن هٰذا من استدراك سيّدنا عمر رضي الله عنه وبكائه.

عليه، ثم يذكر عمر بن الخطاب، فكنتُ أقولُ له: وأين أنت من ذِكر صاحبه أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ؟

فبكىٰ عمر بكاءً شديداً، ثم قال ـ رضي الله عنه ـ أنت والله أوْفَقُ منه وأَصْوَبُ؛ جزاك الله خيراً. والله ليومٌ وليلةٌ من أبي بكر خيرٌ من عمر، ومن آل عُمَر، من لدن ولد[1] إلىٰ يوم يُبعث، ثم قال: ألا أنبئك بيومِهِ وليلتِهِ؟ [١٤٥/أ] قلت: بلىٰ يا أمير المؤمنين!

قال: أمّا ليلتُه[2]، فإنّه لمّا خَرَج مع رَسُول الله ـ ﷺ ـ مُتَوجّهاً إلىٰ الغارِ جعل يمشي طوراً أمامه وطوراً خلفه، وطوراً عن يمينه، وطوراً عن شماله. قال له النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ما هٰذا يا أبا بكر؟.

قال: يا رسولَ الله، بأبي أنت وأمي؛ إنّي أرصدكَ وأتخوّفُ عليك، فأحبّ أن أكونَ أمامَك وأحفظ الطريق يميناً وشمالاً خوفاً عليك، وأفعلُ ذلك محبّةً فيك ـ صلىٰ الله عليك ـ فقال له: يا أبا بكر لا بأس عليك، إن الله مَعنا.

قال: وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يمشي علىٰ أطرافِ أصابعهِ، وقد حفيتْ قدماه، فلما رآه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ حَمله علىٰ كاهله، وجعلَ يشتدّ برسول الله ـ ﷺ ـ حتىٰ أتىٰ فم الغار، فأنزله، فلمّا وضعه، ذهب رسول الله ـ ﷺ ـ ليدخل، فقال له أبو بكر:

والذي بعثك بالحق لا تدخلهُ حتىٰ أدخلَه أنا؛ فإن كانَ فيه شيءٌ

---

(١) في ب: من يوم ولد.

(٢) أخبار هجرة رسول الله ﷺ في السير والتواريخ مشهورة. ويُنظر الخبر في السيرة لابن كثير ١: ٢٣٨.

يُؤذي نزلَ بي قبلك.

فدخله، والتمسَ بيده فلم يجدْ فيه شيئاً، فحمله فأدخله الغار[1].

وكان في الغار خَرْقٌ فيه حَيّاتٌ وأفاعٍ، فخشي أبو بكر أن يخرجَ منها شيءٌ يؤذي رسول الله ـ ﷺ ـ فألقمه قَدَمه فجعلنَ يضربْنَهُ ويلسَعْنَهُ، وجعلتْ دموعُه تنحدرُ علىٰ خَدّيه حتىٰ انْتَبهَ النبيُّ ـ ﷺ ـ لذلك، فقال له: ما بِكَ يا أبا بكر؟ فأخبره[2].

فأخذ من رِيقه المبارك، ومسحَ به علىٰ قدمه فشفَاه الله تعالىٰ من حِينه، ورسول الله ـ ﷺ ـ يقول له:

«يا أبا بكر لا تحزَنْ إنّ الله مَعنا»، فهذه ليلته.

وأمّا يومُه، فذكر له قصّته في ثُبوته ورُسوخِ قَدمِهِ عند موتِ حبيبِ الله ـ ﷺ ـ وقد قَدّمْنا ذٰلك قبل هذا.

أيُها المحبّون في هذا النبيّ العظيم، صاحب الخلق الكريم، تَعلّمُوا تمامَ محبّتهِ من صاحبِهِ، وانظروا هٰذه المحبّة الصادقةَ والمُراقبة التامّة في بَيعهِ نَفْسَهُ في مرضاةِ حبيب الله ـ ﷺ ـ.

ولقَدْ أجادَ بعضُ الشّعراء في قصيدتهِ التي يقول فيها في مَدْحِ أصحابه ـ عليه الصّلاةُ والسّلام ـ فقال في مناقب الصِّدّيق ـ رضي الله عنه ـ: [١٤٥/ب].

وكان قولُ رسولِ الله إذْ وَرِدُوا[3] ... لا تحزَنَنْ أبا بكرٍ بما وردَا[4]

---

(١) في ب: وأدخله في الغار.

(٢) قال ابن كثير عن هذا الخبر (السيرة ١: ٢٣٨): وفي هذا السياق غرابة ونكارة.

(٣) من بحر البسيط.

(٤) في ب: بمن وردا.

اللهُ يـألـفُـنـا مـا زالَ يَـنْـصُـرنـا ... من يحمد الله لم يخشَ العداةَ غَدا

فنامَ في حجرهِ المُختارِ ليلتَهُ ... وباتَ يرقبهُ الصدّيقُ مجتهدًا

وسدَّ أحجارَ حيّات بعاقبهِ ... فكلّما نهشتْهُ حَيّةٌ خَمدا

حتىٰ تألّمَ بالسُّمِّ الزُّعافِ بكىٰ ... فنبّهَ الدمعُ خيرَ النّاس فارْتعدا

فقال مالكَ يا صدّيقُ؟ قال له: ... نُهِشْتُ يا خيرَ مَنْ يمشي ومَنْ وُلِدَا

فمجّ من فيهِ ريقاً ثمّ مسّحهُ ... فَزالَ عنهُ بحمدِ الله ما وجَدا

صلّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلّم تسليماً، وزادَهُ مكانةً وشَرفاً وتَعْظِيماً.

باب
في مَعْنىٰ اسمه
الرؤوف الرحيم(١)
صلّىٰ الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

الرّؤوف الرّحيم: من أسمائه عليه الصّلاةُ والسّلام. أثنىٰ الله تعالىٰ بذلك علىٰ نبيّه في نصّ كتابه، وفحوىٰ خطابه؛ فقال مَولانا الأعظم العظيم: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/١٢٨].

ومن أسماءِ مولانا جلّ جلاله: «الرّؤوف الرحيم» وهو أَرْحَمُ الرّاحمين، ورحمتُه ـ سبحانَه وتعالىٰ ـ إنعامُه علىٰ عبيده، بنعمةِ الإيجادِ والإمدادِ؛ إذ يستحيلُ عليه ـ سبحانه وتعالى ـ ميلٌ بقلبٍ أو رأفةٍ(٢) في الفُؤاد.

و«الرؤوف الرحيم» مُتغايران؛ لأنّ الرأفة أخصّ من الرّحمة، لأنّ الرحمة إدخالُ النفع علىٰ المَرحوم، وقد ينالُه تَعبٌ في ذلك، وقد لا يناله نَصَب.

والرّأفةُ: إدخالُ النّفع من غير تعب ولذلك قال تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُمْ

---

(١) الرّؤوف الرّحيم في سبل الهدى والرّشاد: ١: ٥٧٤ والرياض الأنيقة: ١٦٥ والشفا ١: ٣٢٥ والمواهب اللدنية ١: ١٨٨.

(٢) في ب: رقّة.

سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ [النور: ٢/٢٤] مع أنّ الحدودَ كفّارات[١]. كذا قالُوا وهو صَواب.

فمعنىٰ أنّ الله تعالىٰ رَحِمَنا، أيْ أنّهُ أعطانا من النِّعَم ما لا نَقْدِرُ علىٰ عَدّهِ وإحصائهِ، ودفَع عَنّا من النِّقَمِ ما لا قُدرة لنا علىٰ الصَّبْرِ عليه في ابتلائه.

ثم رحمَ العالمينَ بأنْ بعثَ لها رحمة عظيمة ونعمة كاملةً سابغةً، فَمنّ الله عَليهم ـ سبحانه ـ ببعثة سيّد المرسلين فأيّد دينه، وشيّده، وجَعله في خلقه هو المطاعَ الأمين، وشقّ له من أسمائه الرؤوف الرحيم، لِيُجِلّه، ويظهر منزلته عند الخلائق أجمعين.

فأبرزَ الله تعالىٰ في الخلقِ رَحْمَتَهُ ورأفته، وأَظْهَر في العالم شَفقتَهُ [١٤٦/أ]، وأبقَى جزئيّات مُعامَلتهِ مع خلقِ الله شاهدته.

فَشَفَقَتُه، ورحمَتُه، ورأفَتُه ـ عليه الصلاة والسلام ـ عمّت علىٰ جميع الخَلائق، وهَدىٰ الله بها أهل المغارب والمشارق.

فَمِن رحمته ـ ﷺ ـ تيسيرُه علىٰ أُمّته، وتسهيلُه في سُنّته.

ومن رحمته جَبْرُهُ للقلوب، وستره للعُيوب.

ومن رأفتِه ـ ﷺ ـ تفريجُه علىٰ المكروبين، واستغفارُه للمُذنبين، وعَفْوه عن الظّالمين، وقد ذكرنا كثيراً من ذٰلك عند ذِكر اسْمه ـ ﷺ ـ «رحمة للعالمين».

فكانَ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وجودُه رحمةً لنا، وكانَ حريصاً علينا، رؤوفاً رحيماً بنا. مُستوهبنا من ربّنا، لا يغفلُ عنا في ركوعه

(١) في ب: الحدود رحمة.

وسُجوده؛ بل يستحضرُنا في الشدائد، طالباً لنا من الله ـ عزَّ وجل ـ زيادة الفوائد.

مَنْ قَصده أغناه، ومَن استشفعَ به إلىٰ الله هَداه، وإنْ أتاهُ محزونٌ سلاَّه، وإنْ جاءه فقيرٌ واساه بماله، ودعائِهِ، ويُسره، وحُسن خُلقه وإكرامِ مثواه.

وقد أتىٰ إليه مازن الخطامي وقال[1]: يا رسول الله إني امرؤٌ من خطامةِ طيّىء، وإنّي مولعٌ بالطَّرب، وشُرْب الخَمر، والنسّاءِ، فذهَب مالي، ولا أحمدُ حالي؛ وبكىٰ؛ ووقَف ببابِ مَنْ سمّاه الله تعالىٰ: رؤوفاً رحيماً.

ثم قال: ادْعُ لي يا رَسُولَ الله، فدعَا له النبيُّ ـ ﷺ ـ، لرأفتِهِ وشفقتِهِ، فأنزل الله تعالىٰ على قاصدِه الرّحمةَ بسببه، فأجابَ دعاءَهُ له، وأذهبَ عنه ما يجدُه. فرزقه الله تعالى أربعَ حرائر، ورزقَه ولداً صالحاً، وحَفِظ شَطْرَ القُرآن، وحجّ حججاً كثيرة. فنالته هٰذه الكرامةُ، ورَحِمَهُ أرحم الراحمين، بوقوفِه عند باب مَنْ سمّاه سبحانه: الرؤوف الرحيم، ثم أنشد يقول ويخاطب الرسول[2]:

إلـيـك رسـولَ الله خـنّـت مـطـيّـتـي تَجُوبُ الفَيافي من عُمَانَ إلىٰ العَرْجِ[3]

---

(١) هو مازن بن الغَضُوبة (من بني الخَطامة، وهم بطنٌ من طيىء) من أهل عُمان. كان في الجاهليّة يسدن صنماً يقال له باجر. ثم وفد علىٰ النبي ﷺ وأسلم. وله تراجم في كتب الصّحابة والطبقات.
ـ له شعر؛ وترجمة في حواشي الحماسة المغربية ١ : ٧١ (تنظر إحالات التحقيق).

(٢) الشعر في أُسد الغابة ٤ : ٢٧٠ (وتنظر الحماسة المغربية ١ : ٧١).

(٣) في ب: حُثّتْ مطيّتي.
ـ والبيت الأول في (أ) جاء (ب) أخيراً.

لتشفعَ لي يا خيرَ من وطىءَ الثَّرىٰ ... ليغفر لي ذَنبي فأرجع بالفَلْجِ
وكنتُ امرأً باللّهو والخمر مُغرماً ... شبابيَ حتّىٰ قادني اللهُ للنّهجِ
فبدّلني بالخمرِ خَوفاً وخَشيةً ... وبالعَنت إحصاناً فحصَّن لي فَرْجِي

[١٤٦/ب] ومن رحمتِهِ بخلقِ الله تَعالىٰ أنه كان لا يُنَفِّرهُم، ولا يغلظُ علىٰ جاهِلهم، بل يُحسن إليهم بالقَول والفِعل حتّىٰ يستألفهم رحمةً بهم، وخَوْفاً علىٰ هلاكهم.

قال أبو أمامة: أتىٰ فتًى إلىٰ النبيّ - ﷺ - وكان صغيرَ السنّ قد غلبتْ عليه الشّهوة، فقال: يا نَبيَّ الله ائذنْ لي في الزّنى، وفي ترخّصه - وكان من جَهَلةِ العَرب - فأَقْبَلَ عليه أصحابُ رسولِ الله - ﷺ - وقالوا له: مَهْ! مَهْ! وزَجَرُوه، فاستحيىٰ[١].

فقال لهم النبي - ﷺ -: اترُكُوه، أنا أرحمُ بهِ منكم.

فقال: ادْنُ؛ فدَنا قريباً من المجلس.

فقال له النبي - ﷺ -: يا فتىٰ أتُحِبُّهُ لأُمّك؟ قال: لا والله، جَعلني الله فداك، ولا الناس يحبونه لأُمّهاتهم!

ثم قال له النبي - ﷺ -: أَتُحبُّه لأختك؟.

قال: لا والله يا رسول الله، ولا النّاسُ يُحِبُّونه لأخواتهم!، ثم قال له: أتحبُّه لعمّتك؟

قال: لا والله يا رسول الله، ولا الناس يحبونه لعِمّاتهم!.

---

(١) الحديث في مسند الإمام أحمد ٥: ٢٥٦ - ٢٥٧ وإتحاف السادة المتقين ٧: ٥١. وتدخل المؤلف - رحمه الله - في حكاية خبر الحديث كقوله: «فلما ألهمه المصطفى ﷺ . . .» وفي المسند: «فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا مه مه فقال ادنُه فدنا منه قريباً قال فجلس قال أتحبّه لأمّك . . .».

قال: أتحبّه لخالتك؟

قال: لا والله يا رسول الله، ولا الناس يحبُّونه لخالاتهم!

فلمّا ألهمه المصطفى ﷺ إلىٰ قبح هٰذه العلة، وأنّه لا يرضاها لأحدٍ من قربته، وأقرّ بِقُبحها، وإساءةِ فاعلها[1]، أخذَ الرّؤوف الرّحيم يده المباركة الكريمة فوضَعها عليه، ثم قال: «اللّهُمّ اغفرْ ذَنبه، وطهّرْ قَلبه، وحَصّنْ فَرْجه» قال: فلم يكن الفَتىٰ يلتفتُ إلىٰ شيءٍ ممّا كان يُحبّه.

ومن رَأفته وشَفقته علىٰ أُمّته - ﷺ - سرعتُه في إدخال السُّرور عليهم من الابتهال إلىٰ الله تعالىٰ في دَفع الشّرور عنهم؛

قال أنس بن مالك - رضي الله عنه -[2]: جاء أعرابيٌّ يوماً إلىٰ النبيّ - ﷺ - فقال: يا رسول الله، لقد أتيناك وما لنا من بعيرٍ يئطّ[3]، ولا طبيخ يُطبخ لشدّة جَدْبِنا، وقوّةِ عَطشنا؛ ثم أنشأ يقول، ويبتهلُ إلىٰ الله بالنبيِّ الرّسُول[4]:

---

(١) في ب: وإساءة فعلها.

(٢) كنز العمال ٢١٦٠٢، ٢١٦٠٥، ٢٣٥٤٠، والبداية والنهاية ٦: ٩٠ - ٩١.

(٣) أطيط الإبل: صوتُها. وفي حديث الاستسقاء: لقد أتيناك ومالنا بعير يئط أي يحنّ ويصيح؛ يريد: مالنا بعيرٌ أصْلاً لأن البعير لا بدّ أن يئطّ. (النهاية لابن الأثير، واللسان: أ ط ط).

(٤) الشعر للشاعر المخضرم لبيد (ديوانه ٢٧٧) وهو من الشّعر المختار، يُنظر مثلاً الحماسة المغربية (طبع دار الفكر) ١: ١١٠ ومنح المدح: ٢٨٢.

- في الرّواية: في ب في البيت الأول: أتيناك والعذراء. وفي البيت الثّاني: الصبيّ استكانة.

أتيناك والعجماء تَدمىٰ لثاتُها | وقد شُغِلَتْ أمُّ الصَّبِيِّ عن الطِّفْلِ[1]
وألقىٰ بكفّيهِ الوليدُ استكانةً | من الجوع ضعفاً ما يُمِرُّ وما يُحلي
ولا شَيْءَ ممّا يأكلُ الناسُ عِنْدَنا | سوىٰ الحنظلِ العَامِي، وإنّا لفي مَحْل [١٤٧/أ]
وليسَ لنا إلاّ إليكَ فِرارُنا | وأينَ فِرَارُ النَّاسِ إلاّ إلىٰ الرُّسْلِ؟

قال: فلمّا سَمِعَ الرّؤوفُ الرّحيمُ تَضَرُّعَهُ وطلبَه قام سريعاً يجرُّ رداءَهُ حتّىٰ صَعِدَ المِنبر ثم رفع يديه إلىٰ السّماء ثم قال:

«اللّهُمّ اسْقِنَا غَيْثاً مُغيثاً، مَرِيئاً رَبِيعاً، واسعاً عامّاً، طَبقاً نافعاً، غيرَ ضَارّ، عاجلاً غير رائث، تملأ به الضَّرْع، وتُنبت به الزَّرع، وتُحيي به الأرض بعد مَوْتها.

قال أنس: فما رَدّ رسول الله ـ ﷺ ـ يَدهُ إلىٰ نحرِه حتّىٰ ألقت السّماء بأرزاقها.

وجاءَ أهلُ البطانةِ والباديةِ يَضِجّون[2]: يارسول الله الغَرَقَ! الغَرقَ!، قال: فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ: اللّهُمّ حَوالَيْنا ولا علينا.

فانجابَ السّحابُ عن المدينة، فضَحِكَ ـ ﷺ ـ سُروراً وفَرحاً برحمة الله لأُمّته، وإجابته دعوته، ثم قال: لله دَرُّ أَبِي طالب لو كان حَيّاً لقرّتْ عيناه! مَنْ يُنْشد شعره؟ فقام عليّ ـ رضي الله عنه ـ فقال:

يا رسولَ الله كأنّك أردتَ قولَ أبي طالب[3]:

---

(١) من بحر الطويل.

(٢) في النّهاية، واللسان: قوله في حديث الاستسقاء: «وجاء أهل البطانة يضجون». البطانة: الخارج من المدينة.

(٣) من قصيدة مشهورة لأبي طالب عمّ النبيّ ﷺ في السيرة النبوية برواية ابن هشام ١: ٢٧٢ ـ ٢٨٠. وهي ثابتة في عدد من الأصول القديمة.

وأبْيَضَ يُسْتسقىٰ الغمامُ بوجهِهِ ثِمالُ اليَتامىٰ عصمةٌ للأرَاملِ[1]
يَطُوفُ به الهُلاّكُ من آلِ هاشمٍ فهم عِنْدَهُ في نعمةٍ وفَواضِلِ[2]

فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ أجَلْ يا عليّ!. قال بعضُ المحبّين: ما علمَ أبو طالب إلا الهُلاّكَ من بني هاشم، وما علم أن الهُلاّكَ من جميع الأُمَمِ يطوفُون به ويلوذُون ـ ﷺ ـ.

فصل

من آداب مَنْ عَلِمَ أن الله تعالى سَمّى نبينا الرؤوفَ الرَّحِيْمَ، وأنّ تعالىٰ اشْتَقّ له ذٰلك مِن اسمه الكريم.

فَلْيَعْلَمْ مقدارَ الشّفقة والرّحمة علىٰ خَلق الله، وإدخال السُّرور علىٰ عبادِ الله، فإنَّ الخيرَ كُلّه في جَبر القلوب، وفيما يقرّب من عَلاّم الغُيوب.

فتخلّقُوا ـ رحمكم الله! ـ بأخلاقِ حبيب علاّم الغيوب، وتَشَبّهُوا باقتداءِ أصحابِه الكرام به، وسَترهم العُيوب؛ خُصوصاً بعد أبي بكر الصِّدِّيق، بمنْ كان معروفاً بالعَدل والإنصاف، الهادم للجور والاعتِساف، الصادع بالحقّ في كل مقام، خير الأنام بعد [١٤٧/ب] أبي بكر الخليفة الإمام، مأوىٰ الأرامل والأيتام، الذي عَزَّ به الإسلام، وأجابَ الله سبحانه فيه دعوة نبيه ـ عليه الصلاة والسلام، شيخ السُّنّة، وسِراج أهلِ الجَنّة، المُلهم للصواب أمير المؤمنين ـ عمر بن الخطاب ـ.

---

(١) الأبيض هنا بمعنى الكريم. والثمال: العماد والملجأ والمُطعم والمُغني والكافي. والعصمة: ما يُعتصم به ويُتمسّك.

(٢) الهُلاّك: الفقراء والصعاليك الذين يقصدون الناس طلباً لمعروفهم. والفاضلة: النّعمة العظيمة، والجمع فواضل.

كانَ مِن شفقته ـ رحمة الله عليه ـ واتباعه لسنة نبيه، ما ذكره عبد الرحمن بن عوف قال ـ رضي الله عنه ـ:

قدمتْ رفقةٌ من التجّار، فنزلوا المصلىٰ، فقال عُمَر لعبد الرحمن[1]: هل لنا أن نَحْرُسهم اللّيلة من السُّرّاق؟ قال: فبينما نحن نحرسُهم، ونصلّي ما كتب لنا، إذْ سَمِعَ عمر بكاءَ صبيٍّ فتوجّه نحوه، فقال لأمّه: اتّقِ الله، وأحْسِني إلىٰ صبيّك!

ثم عاد إلىٰ مكانه من الصّلاة، فلمّا كان من آخر اللّيل سمع بكاءه، فأتىٰ أُمّه، فقال لها: ويحك إنّي لأراكِ أُمّ سوء! ما لي أرىٰ وَلدك لا يقرّ اللّيلة؟

قالت يا عبد الله إني أرُومه علىٰ الفِطَام فيأبىٰ!

قال لها: ولِمَ؟

قالت: لأن عمر لا يُعطي إلا الفَطِيم.

قال: وكم له؟

قالت: كذا وكذا شهراً.

قال لها: وَيْحَك لا تَعْجَلِي!

ثم صلّىٰ الفجر وما يستبينُ النّاس قِراءَتَهُ من البُكاء، وغَلبته عيناهُ. فلما سلّم قال: يا بؤساً لعمر! كم قَتل مِن أولاد المسلمين!

ثم أَمر منادياً فنادىٰ: ألاّ تعجلوا صِبيانكم علىٰ الفِطام، فإنّا نفرضُ لكلِ مولود يولد في الإسلام.

---

(١) في مشهور أخبار عمر رضي الله عنه.

ومن شفقته ـ رضي الله عنه ـ ما رواه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، قال: لقيت عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقلت: يا أمير المؤمنين أين تعمد؟

قال لي: إلى بعير نَدَّ من الصَّدقة أطْلُبه.

فقلت له: لقد أذْلَلْتَ الخلفاء بعدك يا أمير المؤمنين[١]!

فقال لي: لا تكلّمني يا أبا الحسن، فوالّذي بعث محمداً بالحقّ لو أن سَخْلَةً[٢] ضاعت بشاطىء الفرات لأُخِذَ بها عمر يوم القيامة، ألا إنّه لا حرمة لوالٍ ضَيَّع المُسلمين.

هٰذا حاله ـ رضي الله عنه ـ واتّباعه، وخوفه، وشفقته، وتعظيمه لشعائر الله، وإحياؤه لسنّة رسول الله ـ ﷺ ـ.

ولقد أنصف عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ لمّا دخل عليه، وهو مُسَجّىً بثوبهِ فقال: ما أحدٌ أحبّ إليّ أنْ ألْقىٰ الله تعالىٰ بِصُحبته من هٰذا المسجّىٰ بينكم، ثم قال: رحمكَ الله يا ابنَ الخَطّاب لقد كنتَ بذات الله عليماً، وكان الله في صَدرِك لعظيماً، وإن كنتَ لتخشىٰ الله في الناس ولا تخشى الناس في الله. كنت [١٤٨/أ] جَواداً بالحقّ، بخيلاً بالباطل، خَمِيصاً من الدنيا[٣]، بَطِيناً من الآخرة، لم تكن عَيّاباً ولا

(١) يريد: كلّفتهم عناة كبيراً بما كلّفت به نفسك من حمل الأعباء: صغيرها وكبيرها.

(٢) السّخلة: ولد الشاة من المعز والضأن ذكراً كان أو أنثى. والجمع سخل وسخال وسِخَلة، وسُخلان.

(٣) الرجل الخَمصان والخُمصان: الجائع الضامر البطن. وفي حديث جابر: رأيت بالنبي خَمَصاً شديداً. وفي حديث آخر: خماص البطون خفاف الظهور. أي أنهم أعفة عن أموال الناس، فهم ضامرو البطون من أكلها، خفاف الظهور من ثقل وزرها.

مَدّاحاً. ومَناقِبُه ـ رضي الله عنه ـ عظيمة، وأيادِيه في الإسلام قَدِيمة.

ثمّ الإمام أبو حفصٍ فإنّ لهُ فضلاً كبيراً وفعلاً ظاهراً وبدا
من قام بالسّيف يوم الدار عن حنقٍ لا يعبدُ الله سِرّاً بعدَها أبَدا[1]
فحقّقَ الله ما قَدْ قَالَهُ عُمَرٌ وَجرّد السّيفَ تهديداً لمن جَحدا

فعليكمْ ـ رَحمكم اللهُ ـ بالرّحمة لعبادِ الله، والشّفقة على خَلْقِ الله، فكونوا بها متخلّقين، وبأفعالكم متّبعين، وتقرّبُوا إلىٰ الله بِحُسن أخلاقكم، ووسّعوا علىٰ إخوانكم يوسّع الله أرزاقكم. وإياكم وقساوة القلب[2]، فإنّها حرمانٌ لكم من بلوغِ آمالكم.

كان الفُضَيل بن عِياض[3] ـ رحمه الله ـ يقول في بعض كلامه: تُريد أن تسكنَ الفِردوس، وتجاور دار الرحمن، مع النبيّين والصدّيقين والشُّهداء والصّالحين؟. بأيّ عملٍ عملتَهُ؟ بأيّ شهوةٍ تركتَها؟ بأيّ غيظ كظمتَهُ، بأيّ رَحم قاطع وصَلْتَها، بأيّ زلّةٍ لأخيك غَفرتها، بأيّ قريب باعدْته في الله، بأي بعيد قاربته[4] لله، بأي رحمة رحمتَ بها ضعيفاً، بأيّ شفقةٍ أغثتَ بها لَهِيفاً، بأيّ كربةٍ عن مكروبٍ فرّجتها، بأيّ شِدّة عن مُعْسِرٍ نَفّسْتَها؟

قال عبدُ الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أُهْدِيَ لِرَجُلٍ من أصحاب رَسُول الله ـ ﷺ ـ رأسُ شاةٍ.

---

(١) يريد: يوم كان المُسلمون يصلون سرّاً احترازاً من أذى قريش. وكان لهم مركز في دار الأرقم. وكان إسلام عمر رضي الله عنه فيها بين يدي رسول الله ﷺ.
(٢) في ب: قساوة القلوب.
(٣) الفضيل بن عياض (١٠٥ ـ ١٨٧) من أكابر العبّاد الصالحين، محدّث ثقة، وكان شيخ الحرم المكّي.
(٤) في ب: قربته.

فقال: أخي فلانٌ أحَقُّ به، وأحوجُ منّي إليه، فبعث به إليه، فلمّا وصله قال: إن أخي فلاناً أحقُّ به منّي وأحوجُ، فلم يزل يبعثُ به واحدٌ بعد واحدٍ حتّى رجعَ إلىٰ الأوّل، بعد أن تداولته سبع أيد.

قال الحسن ـ رضي الله عنه ـ: مِن شفقتهم، ورحمتهم، وأُخوّتهم أنْ كانَ أحَدُهم يشقُّ إزاره مع أخيه بنصفين.

ومن الشّفقة والرحمة والرفق بين الإخوة حُسن معاملتهم كما تُحسن لنفسك.

هكذا كانت سيرة الرّؤوف الرحيم، النبيّ الكريم. قال حُذَيفة ـ رضي الله عنه ـ خرجَ رسول الله ـ ﷺ ـ يغتسلُ يوماً علىٰ بئر، فخرجتُ مَعه، فأَمْسَكتُ بالثّوب، وسَترتُ عليه حتىٰ اغْتَسل ـ ﷺ ـ ثم جلسْتُ لأغتسلَ [١٤٨/ب] فتناول ـ ﷺ ـ الثّوب بِخُلقه الكريم، وحُسن فعله العظيم، وقام يسترُ عليّ؛ فأبيتُ، وقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا تفعلْ، قال: فأبىٰ رسولُ الله ـ ﷺ ـ إلاّ أن يَستُرني بالثّوبِ حتىٰ أغتَسِلَ، ثم قال ـ ﷺ ـ[1]: «ما اصْطَحبَ اثنان قطُّ إلا كان أحبُّهما لله أرفقهما بصاحِبه».

ونحنُ ـ وإن كانت قلوبُنا قاسية، وأفعالنا من التّوفيق خالية ـ، فنرجُو الله تعالىٰ، بِحرمة هؤلاء السّادة الكرام، الأئمّة الأعلام، وبُحرمة أنبيائه وأصْفِيائه أن يُسْكِنَ الرّحمة في قُلوبنا، ويمحو القساوة من أفئدتنا، وأن يبلغنا في الدّارين آمالنا، ونحن قائلون بلسانِ قولنا وحالنا:

بِمثلِهِمْ، وبأمثالٍ لهم سَبَقُوا نرجُو النّجاةَ إذا صرنا لِمَا وَصَلُوا[2]

---

(١) إتحاف السادة المتقين ٦: ٢٠٧، وتهذيب ابن عساكر ٢: ١٧٢.

(٢) من بحر البسيط.

فكلّ ذي قَدمٍ منهمْ سَيُنزلنا بجودهِ حيثُ ما حلّوا وما نَزلُوا[1]
كم من غريقِ ذنوبٍ ضاق مذهَبُهُ فأمَّنُوا روعه جُوداً وما بخلُوا
همُ الكرامُ إذا ما جئتَ مُفتقراً همُ الحُمَاةُ إذا أودَتْ بكَ العِلَلُ
فنحنُ في ظلّهم راجونَ فضلَهُم كذا الكرامُ إذا ما أُمّلوا فَعلُوا

نَفَعنا الله بمحبّتهم، وأعادَ علينا من بركتهم، وأحيانا علىٰ سُنّتهم، وأماتنا علىٰ مِلّتهم، وحَشرنا في زُمرتهم، وصلّى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلّم تسليماً، وزاده مولانا شرفاً ومهابة وتعظيماً.

---

(١) يشيرإلى منزلة قدميّة الصدّق عندهم.

باب
في معنىٰ اسمه
الكريم(١)
صلَىٰ الله عليه وسلَّم وشرَّف وكرَّم

اسمٌ من أسمائه ـ عليه الصلاة والسلام ـ سماه به مولاه، واشتق له من اسم ذي الجَلال والإكرام.

ـ فمن أسمائهِ تعالى: الكريم، وهو الكثيرُ الخَير.

ـ وقيل معناه المُفْضِلُ علىٰ عباده.

ـ وقيل: العَفُوّ عنهم.

ـ وقيل: العَلِيّ، وهو سبحانه أكرم الأكرمين وخالق الكرم في قلوب العالمين لا ربّ غيره، ولا معبودَ سِواه. فمن كرمه جلّ جلاله أنْ بَعث لنا نبيّاً عظيماً وسَمّاه في كتابه كريماً، فقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩/٨١] فالرسولُ الكريم ذُو الخلق العظيم هو نبيّنا الرؤوف الرحيم.

وقد قال ـ ﷺ ـ(٢) [١٤٩/أ]: «أنا أكرمُ ولد آدم علىٰ الله»، فَمعنىٰ

---

(١) الكريم في الشفا ١: ٣٢٧ وسبل الهدى والرشاد ١: ٦١٩ والرياض الأنيقة: ٢٢٨ والمواهب اللدنية ١: ١٨٧.

(٢) الحديث في الدر المنثور ٦: ١١٩ وتفسير ابن كثير ٧: ١٢ والقرطبي ٣: ٢٦٣ وإتحاف السادة الفضلاء ١٠: ٤٩٦.

ذلك يحتملُ أُموراً من المعاني اللائقة به، والخِصال الجليلةِ التي طُبعت فيه.

ـ فَيُحتمل أن يكونَ معنىٰ كونه كريماً: أي عزيزاً عند الله، عزيزاً عند الخلق، عزيزاً في السّماء، عزيزاً في الأرض، ملحوظاً محفُوظاً، وقد قالَ جبريل ـ عليه السّلام ـ للبُراق: ما ركبكَ أحدٌ أكرمُ علىٰ الله منه[1].

ولمّا أن اجتمع رسول الله ـ ﷺ ـ بأرواح الأنبياء في أعلىٰ السّماء، ورأوا منزلته وكرامته عند ربّه، قالوا لجبريل: مَنْ هٰذا الذي معك؟

قال لهم: هذا محمّد رسول الله، الكريم علىٰ الله خاتم النبيين.

قالوا: أوَقد أُرسل إليه؟

قال: نعم.

قالوا: حَيّاه الله من أخ وخليفة. فنعم الأخ، ونعم الخليفة، ثم أثنت الأنبياء[2] علىٰ رَبّهم كل بما أعطاه.

فقال النبيّ ـ ﷺ ـ: كلّكم أثنىٰ علىٰ ربه، وأنا أُثني علىٰ ربي، : «الحمدُ الله الذي أرسلني رحمةً للعالمين، وكافّةً للنّاس بشيراً ونذيراً، وأنزلَ عليّ الفُرقان فيه تبيان كلّ شيء، وجعل أُمّتي خير أمّة أُخرجت للنّاس، وشرح لي صدري. ووضع عني وِزري، ورفعَ لي ذِكري، وجَعلني فاتحاً وخاتماً».

---

(١) من حديث رواه الترمذي ٥: ٣٠١ عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ أُتي بالبُراق ليلة أُسريَ به مُلجماً مُسْرَجاً فاستصعب عليه، فقال له جبريل: أبمحمّد تفعل هذا؟ فما ركبك أحد أكرم على الله منه. قال: فارفضّ عَرقاً. (وهو في الشفا ١: ١٤).

(٢) في ب: أثنت الملائكة.

فقال إبراهيم ـ عليه السلام ـ: بهذا فضلكم، محمد ﷺ، وعليهم أجمعين.

ـ ويُحتمل أن يكون معنىٰ اسمه الكريم: أي البديع الحُسن في ذاته وصفاته وأفعاله.

فإنه يقال: ثوبٌ كريم إذا كان في غاية الحسن والرفعة، وقد كان ـ ﷺ ـ حائزاً لجميعِ المحاسنِ ونُعوت الجمال، مُتَمِّماً لمكارم الأخلاق وخصال الكمال.

فقد كان بالتّواتر القَطعي كاملاً في صورته وجماله، وتناسب أعضائه، وبدائع حسنه[1]، كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ: مدوّر الوجه، أزهرَ اللّون، واسعَ الجبين، كَثّ اللحية، عظيم المنكبين، رَحْبَ الكفّين، ربعةً في قَدّه، ليسَ بالطّويل البائن، ولا بالقصير المتردّد، إذا افترّ ضاحكاً افترّ عن مِثل سَنا البرق، وإذا تكلم رُئي كالنُّور يخرجُ من ثَناياه، وَجْهُه يضيء مثل الشّمس والقَمر، كأنّ ماءَ الذّهب يجري في صفحة خَدّه. ورونق الجمال يطّرد في حُسن [١٤٩/ب] وجهه ومحاسن ذاته. فَما خلق الله بشَراً ولا غيره أجملَ ولا أحسن، ولا أبهىٰ ولا أكمل منه في ذاته وصفاته[2].

وقد كان[3] ـ ﷺ ـ فائقاً للخَلق في نظافة جسمه، وطيب رائحته وعرقه، منزّهاً عن الأقذار، ريحُه أطيب من ريح المِسك والعنبر، يصافح

---

(١) في ب: «صورته وجمالها، وتناسب أعضائها، وبدائع حُسنها» فالضمائر على هذا الوجه عائدة إلى الصّورة.

(٢) ينظر في هذا كتب الخصائص والشّمائل؛ وكثير من أوصافه ﷺ هنا ثابتة في الشّفا: الباب الثاني، الفصل الثاني.

(٣) في ب: «فقد كان» على معنى اتّصال العبارة.

المصافح، فيظلّ يومه يجدُ ريحها، وإذا وضع يده على رأس الصّغير بَقِيَ معرُوفاً برائحته ـ ﷺ ـ من بَين الصِّبيان.

وقد كان كريماً، عظيماً في وُفور عقلِهِ، وذكاءِ لُبّه وقوّة حواسّهِ، وفصاحةِ لسانِهِ، واعتدالِ حَركاته، وحُسنِ شَمائله وكرمِ بلَده ومنشئه، وشرفِ نَسبه، وطهارَةِ أصْلِهِ، وكَرمِ قبيلته.

فقد كانَ كريماً في كلّ خصلةٍ حميدةٍ، وخلقةٍ عظيمةٍ، فحقيقٌ أنْ سَمّاه الله تعالى كريماً، وأنعم عليه، وجَعل فضله عليه عظيماً.

ـ ويحتمل أن يكون معنى اسمه الكريم ـ ﷺ ـ بمعنى الكثير الخير، لأنّه ـ ﷺ ـ كان أَجْوَدَ النّاسِ بالخَيْرِ من الرّيح المُرسلة.

قال عبد الله بن عباس[1] ـ رضي الله عنهما ـ: كان رسول الله ـ ﷺ ـ أجودَ النّاس بالخير، وكان أجودَ ما يكون في رمضان حين يلقاهُ جِبريل ـ عليه السلام ـ وكان يلقاه في كلّ ليلة من رمضان يعرضُ عليه القرآن، فإذا لقيه جبريل ـ عليه السلام ـ كانَ أجود الناس بالخَير من الريح المُرسلة.

قال أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: ما سئل رسول الله ـ ﷺ ـ عن شيء إلا أعطاه، فجاءه رجلٌ، فأعطاه[2] غَنماً ما بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يُعطي عطاء من لا يخشى فاقه.

---

(١) من حديث في صحيح مسلم: ١٨٠٣. واللفظ مقارب.

(٢) هو صفوان بن أُميّة الجمحي (انظر الرقم ١٣ التالي في الحاشية).
ـ والحديث في صحيح مُسلم ١٨٠٦.

هذه كانت: خلقه وصفاته، وأفعاله قبل أن يبعثه وبعد أن بعثه - ﷺ -:

فوجهُ محمّدٍ شمسٌ ... ومالُ محمدٍ عرسٌ[1]
وكفّاهُ تجودانِ ... بما لا تأملُ النفسُ
فما في جودِه مَنٌّ ... ولا في بذلِهِ حبسُ
ويشهدُ لي على ما قلـ ... ـتُ فيهِ الجنُّ والإنسُ[2]

وقد كانُوا يستدلّون على نبوءته - عليه الصلاة والسلام - بتمام كرَمِهِ وجُوده (وقوّته في الحلف)، وثقته بما عند الله، وجرأته بالعطاء، وتعلّق قلبه بخالقِ العطاءِ والجُود [١٥٠/أ] فكان لا يَدّخر[3] عن الخَلق شَيْئاً، بل يُعطي عطاءَ أغنىٰ الأغنياء، ويُحسن إحسان رؤوس الأصفياء. ولمّا شَهِدَ حُنَيْناً والطّائف، وكان معه صَفْوَانُ بنُ أُمَيّة[4]، جعل صفوانُ يَنظرُ إلىٰ شِعْبِ ملآن نَعماً وعيراً، فأدامَ النّظر إليها، وإذا بِرَسُولِ الله - ﷺ - يرمقُه، فقال له: يا صفوان! يُعجبك هذا؟

قال صفوان: نعم!

قال له النبي - ﷺ -: هُوَ لك وما فيه. قال صَفوان عند ذلك: ما طابتْ نفسُ أحدٍ بمثلِ هٰذا العطاء إلا نفسُ نبيٍّ كريم، أشهدُ أنْ لا إله

---

(١) مال محمد عُرسٌ: أي مبذولٌ للناس، معروضٌ لهم. وأصل الكلمة من العُرس المعروف، ثم قيل في طعام الوليمة لتلك المناسبة باسم العُرس من باب تسمية الشيء بالشيء إذا لابسه.

(٢) من مجزوء الوافر.

(٣) قال أنس: كان النبي ﷺ لا يدّخر لغدٍ شيئاً. (الشفا ١: ١٤٧).

(٤) هو صفوان بن أمية بن خلف الجمحي القرشي المكي (ت ٤١ هـ) كان من المؤلفة قلوبهم، وفي ترجمته أنه فصيح جواد من أشراف العرب، وقال أبو عبيدة إنّ صفوان وأباه من المقنطرة (صار له قنطار ذهباً) شهد اليرموك. وروى عن رسول الله ﷺ.

إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله.

وأنشدَ بعضُ المحبّين في كرمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

أَفلتْ نُجومُ المكرماتِ ونجمهُ ... للطّالبينَ تَراهُ ليسَ بآفلِ
وترىٰ له بالواصلينَ صبابةً ... كصبابةِ الصّبِّ المُحبِّ الواصلِ
وإذا الرِّجالُ تصرّفت أهواؤها ... فَهواهُ رحمةُ سائلٍ أو آملِ
وتَخالُ من فَرْطِ السّخاء بنانَهُ ... حبّ السّماءِ تقولُ هل من سائلِ؟[1]

وقد قدّمنا فَضائل من كرمه ـ ﷺ ـ عند اسمه نبي الراحة ـ أعادَ الله علينا من بركةِ هٰذا النبيّ الكريم إنه الرّؤوف الرحيم الجوادُ الكريم. صلّى الله عليه وسلم وعلى آله.

يا سيِّدَ الخلقِ ما لي مَنْ ألوذُ بهِ ... سواكَ عند حلول الحادثِ العَمِمِ[2]
ولنْ يضيقَ رسولَ الله جاهُك بي ... إذا الكريمُ تجلّىٰ باسْمِ مُنتقمِ
فإنّ مِن جُودكَ الدُّنيا وضَرّتها ... ومِنْ عُلومك علمُ اللّوح والقلمِ[3]

فصل

من آدابِ من عَلِمَ أن اسمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ الكريم، وأنَّ مولاهُ الكريم سمّاه به، وأثنى به عليه ألاّ يكونَ محبُّه بخيلاً، وأن يُداوي

---

(١) يريد بحبّ السماء: المَطر. والعرب تُفاضل بين المطر وكفّ الوَاهِب على سبيل التشبيه أو الاستعارة؛ والمقصود المبالغة في المدح. وفي اللسان: حَبّ المزن وحَبّ الغمام وحبّ القُرّ هو البَرَد.

(٢) ديوان البوصيري: ٢٤٨.

ـ وفي ب: «عند حدوث الحادث» وكأنّه سهو من الناسخ وإن وافق المعنى.

(٣) ضرّة الدنيا: الآخرة. وكأنّ الشاعر يشير إلى الشفاعة. وقوله: «ومن علومك الخ». كأنه يريد: ما علّمه الله إياه.

نفسَهُ بالعَطايا، ويدفع عن نفسه البَلايا إذا كان عليلاً[1]، وأن يتشبَّه بأفعالِ المُحبِّين المُتّبعين لسيِّدِ المُرسلين، وبِكَرمهم وجُودهم في كلِّ وقتٍ وحين.

فَداوِ نفسك، وقِهَا الشُّحَّ، فإنّ الشحّ هو هَلاكُ النّفوس، والمُبعد عن الوصول إلىٰ حضرة الملك القدوس.

وتذكّر حال المنادي بالأسحار[2]، الكثير الاستغفار الغزير الدّمعة عند ذكر النّار، السّعيد في حياته، الشّهيد في وفاته، شيخ الوفاء [١٥٠/ب] بذمّة الإيمان، الحبيب في السرّ والإعلان، أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وكيف كانت أخلاقُه واقتداؤه، واتباعُه، وحَياؤه، وعَطاؤُه.

قال عبد الله بن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ قُحِطَ المَطر علىٰ عهد أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فاجتمعَ النّاسُ إلىٰ أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ فقالوا[3]:

يا خليفةَ رسولِ الله، إن السّماء لم تُمطر، وإن الأرض لم تُنبت، والناسُ في شدة شديدة.

فقال أبو بكر: انصرِفُوا ـ رَحِمَكُم الله ـ فإنكم لا تمشون حتىٰ يفرّج الله الكرب عنكم.

---

(١) حديث: داووا مرضاكم بالصّدقة في البيهقي ٣: ٣٨٢ والترغيب والترهيب ١: ٥٢٠ وكنز العمال ٢٨١٨١ وفي مجمع الزوائد ٣: ٦٣ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة وأعدوا للبلاء الدّعاء.

(٢) في ب: المنادي في الأسحار.

(٣) الخبر مشهورٌ في سيرة ذي النّورين رضي الله عنه. تنظر مثلاً الرّياض النّضرة في مناقب العشرة (عثمان بن عفان رضي الله عنه).

قال: فما لبثنا إلا قليلاً إذ جاءت مئة راحلةٍ من الشّام، فقيل: لمن هذه؟

فقيل: لعثمان بن عفّان.

فاجتمع الناسُ إلىٰ دار عثمان ـ رضي الله عنه ـ فَقَرعُوا عليه الباب، فَخَرج إليهم وقال: ما تُريدون؟

قالوا: إن الزّمان قد قُحِط[1]، وإنّ السّماء لم تُمطر؛ والنّاسُ في شدّة؛ وقد جاءَ هٰذا الطّعام إليك، فبعْ لنا ما نوسّع به علىٰ الفُقَراء.

قال عثمان: حُبّاً وكرامةً، ادخلُوا فاشتروا. فَدخل التّجار، وإذا بالطعام قد ورد.

فقال: معاشرَ التجّار كم تُربحوني؟

فقالوا: للعشرة اثنا عشرا

فقال عثمان: قد زادني غيركم؛ قالوا: للعشرة أربعة عشرا قال: قد زادني غيرُكم! فقال التجّار: يا أبا عَمْرو: ما بقيَ فِي المدينةِ غيرنا من التُّجّار من أحدا

قال لهم: قد زادَني الله ـ تَعالىٰ ـ وأعْطَانِي للدِّرهم عشرة؛ أعندكم زيادة؟ قالوا: لاا

فقال: إنّي أشهدُ أنّي قد جعلتُ هذا الطّعام صَدقةً للفُقَراء.

قال ابنُ عَبّاس ـ رضي الله عنه ـ فَرأيتُ من ليلتي النبيَّ ـ ﷺ ـ في

---

(١) القحط: احتباس المطر. ويقال في الفعل قَحَط (بفتح الحاء) وقَحِط (بكسرها) ويقال فيه قُحِط (بالبناء للمجهول)، ويقال أيضاً: زمان قاحط وعام قاحط. وقحوط المطر: أن يحتبس في شدّة الحاجة إليه.

المَنام وهو علىٰ بِرْذَوْن[1] أبْلَق، عليه حُلّةٌ من نُور، وفي رجليهِ نَعلانِ من نُورٍ وبيده قضيبٌ من نُور وهو مُستعجل.

قلتُ: يا رَسُول الله لقد اشتدّ شَوقي إليك، وإلىٰ كلامِكَ، وإلىٰ أين تبادر؟

فقال: يا ابن عباس، إن عثمان تَصدَّق بصدقة، وإنّ الله عَزّ وجل قد قَبِلَها، وزوَّجه بها عَرُوساً في الجنّة، وقد دُعينا إلىٰ عرسه.

فتعلَّمُوا ـ رضي الله عنكم ـ الكَرم من هذه الكرام، وتخلّقوا بأخلاق السّادةِ الأعلام، ولو لم يكنْ من فضلِ هٰذا السيد وكرمِهِ ومنزلتِهِ إلا ما رُوي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ:

أن النبيَّ ـ ﷺ ـ دخل بيتها يوماً [١٥١/أ] فشمّ رائحة اللحم، فقال: يا عائشة من أين هذا؟ قالت: يا رسولَ الله بلغَ عثمانَ عنّا مجاعةٌ فأرسلَ إلينا بوِقر[2] بعيرٍ من بُرّ، ووِقر بعيرٍ من تمرٍ، وشاة.

فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: يا عائشة وددت أنّك فرقته في نِسائي.

فقالت: والذي بعثكَ بالحَقّ ما مِن امرأةٍ من نسائك إلا وَقد بَعث لها بمثلِ ما أَرسل إلينا.

فرفع النبيُّ ـ ﷺ ـ إلىٰ الله عز وجل يَديه، حتىٰ رُئي بياض إبطيه وهو يقول: كم من كربةٍ نفّسها الله عنّا بِعُثمان، اللهم ارْضَ عن عثمان، اللهمّ وَسّعْ علىٰ عثمان، اللّهمّ لا تنسَ هٰذا اليوم لِعُثمان[3].

---

(١) البِرذون: غير العِراب من الخيل.

(٢) الوِقْر: الحِمل؛ أو الحمل الكبير.

(٣) كنز العمال ٣٨٤٢ والبداية والنهاية ٥ : ٤.

واذكرْ فضائلَ ذي النورين سيّدنا عثمانَ صهرِ رسول الله معتقدا[1]
من أنفقَ المالَ في الرحمنِ مُجتهداً علىٰ الجُيوشِ وفادى الأهل والولدا

ويا أخي: لا تكون كريماً حتىٰ تواسيَ بمالك أخاك ولا تستأثر عنه بِدُنياك.

جاءَ رجلٌ إلىٰ أبي هُريرة[2] ـ رضي الله عنه ـ فقال له: إني أريد أن أؤاخيك في الله تعالى.

فقال له: أتدري ما حقُّ الإخاء؟

قال له: عَرِّفْني!

فقال له: ألاّ تكون بدنياك ودرهمك[3] أحقّ ممّنْ تُؤاخيه.

فقال له: لم أَبْلُغْ هٰذه المنزلةَ بعدا

فقال له: اذهبْ عنّي!

وقد انتهىٰ الكَرمُ بالمحبين إلىٰ أنّهم يُؤثرون غَيْرَهُم علىٰ أنفسهم، كما أثنىٰ الله عز وجل في كتابه عليهم. وربما استسروا رحمهم الله بأخذ المال[4] منهم ومن منازلهم في غيبتهم، لأنه لم يكن في قُلوبهم، وإنما كانوا أُمناء للمساكين، فَتصرّفُوا فيهِ تصرّفَ الخازن الأمين.

ويُحكىٰ عن فتح المَوْصِليّ ـ رحمهُ اللهُ ـ أنه أتىٰ إلى مَنزل أخٍ له

---

(١) من بحر البسيط.

(٢) الصحابيّ الجليل عبد الرحمن بن صخر (ت ٥٩ هـ) أبو هريرة رضي الله عنه، كان أكثر الصحابة حفظاً للحديث ورواية له. وكان من العُبّاد.

(٣) في ب: لا تكن بدينارك ودرهمك.

(٤) في المعاجم: استسرّ: استتر؛ واستسرّ الشيءَ بالغ في إخفائه.
ـ وفي ب: لأخذ المال منهم.

في الله، وكان غائباً، فأمر أهله فأخرجت له صندوقاً[1]، ففتحته، وأخذ حاجته.

فأخبرت الجارية مولاها، فقال: إن صدقت فأنت حُرَّةٌ لِلهِ تعالى ولوجهه؛ سُروراً بما فَعل أخُوه معه، وقد رآه أهلاً له.

وكان أبو سُليمان الدّاراني[2] ـ رضي الله عنه ـ يقول لقوّة يقينه، وإيمانه، وإحسانه: لو أنّ الدّنيا كلّها جعلتُها في فم أخٍ لي في الله تَعالى من إخواني لاستقْلَلْتُ ذلك في حقّ الأخِ المُؤمن، وماله من الحُقوق [١٥١/ب].

فهذا كَرمُ المحبّين، فأينَ المتخلّقُون؟ وهذا نهجهم[3] فأينَ السّالكون؟ وهذه أنفاسُ أهلِ الجُود فأينَ المُتَواجِدُون[4]؟ لكنْ: خلتِ الدّيار منهم فَعَمّروا القلبَ بِحُبّهم وذِكرهم:

مَـنـازلُ سـاداتٍ ومَـثْـوىً أئـمّـةٍ ... عزيزٌ علينا أن نلاقي لهم مِثلا
تلقّاهُمُ الرّحمنُ بالفضلِ والمُنىٰ ... وحَيّتْهُمُ الأملاك أهلاً بكم سهلا
هـمُ جـاهـدوا في الله حقّ جهادِهِ ... وهم أحسنوا قَولا وقد أحْسَنُوا فِعْلا[5]
أعِدْ ذكرهم واستَمْلِ بعضَ حديثهمْ ... تجدْ خَبراً يُملى وحسنَ ثَناً يُتْلَىٰ[6]

---

(١) في ب: صندوقه.
(٢) مرّ في هذا الكتاب.
(٣) في ب: وهذا نُصحُهم.
(٤) المتواجدون. كذا في النسخ الثلاث. ولعلّها: المُتجاودون: أي ذهَب أهل الجُود الحقيقيّون فأين الّذين يتصنعونه تصنعاً وتكلّفونه تكلفاً؟ حتى هؤلاء ـ وهم درجة أدنىٰ من أولئك ـ غير موجودين! وذهب زمانهم! وقد تكون من(الوجد) على مذهب القوم.
(٥) في ب: وهم أحْسَنُوا فعلاً.
(٦) في ب: خبراً يُروى.

وحقّ اعتقادي فيهمُ ومَحبّتي ... وقُربي لهمْ شيخاً وعَهْدِي لهم طِفلا
لقد علمتْ نفسي بهمْ حُرْقةَ الأسىٰ ... نعمْ وجَرىٰ دمعي علىٰ فقدهم سَجْلا[1]
فكمْ من مهمّاتِ الأُمورِ توجّهتْ ... لدىٰ بابهمْ عَقداً فكانُوا لها حلاّ!
وكم هبةٍ أعطوا وكم حاجةٍ قَضَوْا ... وكم مُشكلٍ قد أوْضَحُوا بعد مَا أولىٰ[2]
فمن نال من هٰذا وهٰذا تَعارُفاً ... فلا غَرْوَ أن يَرْجُو لأحبابهِ وصلا[3]
إذا القومُ لا يشقىٰ جليسُهُم ولاَ ... يخافُ نزيلٌ حلَّ يوماً بهم حلاّ
عليهمْ من الرّحمن أزكىٰ تحيةٍ ... تلازِمُهمْ طُرّاً وتُرضيهم كُلا[4]

وصلىٰ الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

---

(١) السَّجْلُ: الدلْو الضخمة المملوءة ماءً. يريد بكى بكاء شديداً.
(٢) في ب: بعد ما أَمْلَى.
(٣) في أ: بأحبابه، وفي ب: لأحبابهم.
(٤) من بحر الطويل.

باب
في معنىٰ اسمه
الخَبِير (١)
صلَّىٰ الله عَليه وسلَّم وشَرَّفَ وكَرَّم

الخبيرُ: اسمٌ من أسمائه ـ عليه أفضلُ الصَّلاة والسَّلام ـ سمَّاه الله تعالى به، وشقّ له ذٰلك من اسمه، وكانَ له، سبحانه، عَوناً وظهيراً. قال الله العظيم في كتابِهِ الكريم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٥٩].

قال القاضي أبو بكر بن العَلاء(٢): المأمور بالسؤال غير النبي ـ ﷺ ـ، والمسؤول هو النبيُّ ـ ﷺ ـ(٣).

فيكون الخبيرُ: اسماً من أسمائه ـ ﷺ ـ.

ومعنىٰ كونه خَبيراً: أيْ عالمٌ في غايةِ العِلم بما أعلمه رَبُّه ـ سبحانه ـ من مكنونِ علمهِ، وعظيمِ معرفتهِ، ومخبرٌ لأمّته بما أمره الله

---

(١) ورد اسمه ﷺ: الخبير في سبل الهدى والرشاد ١: والرّياض الأنيقة: ١٥١، والشفا ١: ٣٢٨ والمواهب اللدنية ١: ١٨٢.

(٢) القاضي بكر بن العلاء. كذا في الشفا ١: ٣٢٨ والرياض الأنيقة: ١٥١ وهو في المخطوطات: أبو بكر. وفي الشفا: بكر بن العلاء.

(٣) ينظر: تفسير القرطبي ١٣: ٦٣.

بإخبارِه.

ومن أسمائه تعالىٰ الخَبِير[1]: بمعنىٰ المطَّلِع علىٰ خَفِيّات الأُمور وأسرارها، المحيط بسِرّها وعلانيتها، المدرك لكلياتها، وجُزئياتها الذي لا تَخْفَىٰ عليه خافيةٌ في السماء والأرض كلّها؛ المطَّلِع علىٰ [١٥٢/أ] ما في الصُّدور ونهاياتها[2]، المدبّر، القدير، السّميع، البَصِير، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤/٦٧] فسمّىٰ الخبيرُ تعالى نبيَّهُ خبيراً لإنبائِه بما دَقَّ وما خَفِيَ من الأسرار، وما أَعْلَم به من المُغَيّبات باللّيل والنّهار، وما أطلعه اللهُ تعالى عليه من الغُيوب التي خصّه بها، وجَعل إخباره بها دليلاً علىٰ نُبوءته، وشاهداً لرسالته. والشّواهد من ذٰلك لا يُحِيطُ بها عَقْلٌ ولا يحملُها في كتابٍ نقل.

وقد ظهرَ ما أخبر به محمّد ـ عليه الصلاة والسلام ـ في زَمنِهِ، وخرَج مثلَ فَلَقِ الصُّبح؛ وشاهَد ذٰلكَ مَنْ عاصره. وقد وَقع ما أخبرَ به أنه سيكونُ بعده، وشاهدَ ذلك أُمّته. وكان سَبباً في إسلامِ كثيرٍ ممّن مَنّ الله عليه بالإيمان والانقياد لحبيب الرحمن.

كان شيخٌ من شيوخ الجاهليّة، قال لرسول الله ـ ﷺ ـ ذَاتَ يوم[3]: يا محمّدا ثلاثة نقولهنّ لا ينبغي لصاحب عقلٍ أن يصدّق بهنّ!

قال النبيّ ـ ﷺ ـ: وما هن يا شيخ؟

قال له: نقولُ: إنّ العرب تاركةٌ ما كانت تعبدُ هي وآباؤها؛ وإنّ

---

(١) في الشفا ١: ٣٢٨؛ والمؤلف يستفيد منه.

(٢) في ب فقط: ونهايتها.

(٣) «ذات يوم» سقطت من: أ.

كنوزَ كِسرىٰ وقيصرَ لتظهرَنّ؛ وإنا نُبْعَثُ يومَ القيامة بعد أن نصيرَ رَمِيماً.

فقال النبيُ ـ ﷺ ـ[1]: أجلْ والّذي نفسُ محمّد بيده، لتتركنَّ العربُ ما كانتْ تعبُد هي وآباؤها، ولتظهرنَّ علىٰ كُنوز كِسرىٰ وقيصر، ولتموتُنَّ ثم لَيَبْعَثَنَّكم الله، ثم لآخذُ بيدك يوم القيامة فلأُذكّرنَّك مقالتَك هذه!

قال له: ولا تُضِلُّني في الموتىٰ[2]، ولا تنساني.

قال: لا أُضِلُّكَ في الموتىٰ، ولا أنساك.

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: فبقيَ علىٰ حاله حتى قُبِض رسول الله ـ ﷺ ـ وعاينَ ظهورَ المُسلمين على كنوز كِسرىٰ وقيصر، كما أخبر به سيّد البشر، ورأى من العَرب تركها[3] لعبادة الأوثان، ودُخولها في الإيمان، فأسْلم الشّيخُ وحَسُن إسلامه. وكان عُمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كثيراً ما يَسْمَعُ بكاءه ونحيبَهُ وخَوفَهُ في مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ لإعظامهِ ما كانَ واجهَ بهِ رسولَ الله ـ ﷺ ـ.

فكان عُمَرُ ـ رضي الله عنه ـ: يأتي إليه ويسكّنه، ويخفّف عنه، ويقول له: لقد أسلمتَ والحمدُ لله، والإسلام يَجُبُّ ما قبله. ووعدكَ [١٥٢/ب] رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن يأخذَ بيدك يوم القيامة، ولا يأخذُ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بيد أحدٍ إلا بيدِ مَنْ قد أفلح وَسعِدَ، فأبشرْ يا أخي بالسّعادة.

فسُبحانَهُ من إلَهٍ كريمٍ، ومَولىٰ رحيمٍ قد مَنّ علىٰ هذا الشّيخ،

---

(١) البداية والنهاية ٦: ١٨٨، ١٩٣ ومسند الإمام أحمد ٢: ٤٣٧.

(٢) أضلّه في الموتى: صَعُب عليه أن يعرفه من بينهم (لكثرتهم).

(٣) في ب: ورأى من العرب ما رأى من تركها.

وصيّره[1] من أحبابِ صاحبِهِ العظيم، صيرنا الله من أهل السعادة، وحشرنا مع هؤلاء السادة القادة.

وممّا أخبر به، وخرَج كفَلَقِ الصُّبح قضيّةُ جابر بنِ عبد الله[2] ـ رضي الله عنه ـ قال، قال النبيُّ ـ ﷺ ـ: يا جابر إنك تعمّر بَعْدِي حتىٰ يولَد ليَ مولودٌ اسمُه كاسمي، يبقُر العِلْمَ، فإذا لَقِيتَهُ فأَقْرِئه مني السلام[3].

فكان جابر ـ ﷺ ـ في آخر عمره، لمّا ذهبَ بَصرهُ يتردّدُ في سِكَكِ المدينةِ وهو يُنادي: يا باقر! يا باقر! فقال النّاسُ: جُنَّ جابر، فبينما هو ذاتَ يومٍ بالبلاط[4] إذا بجارية يتورّكُها صَبِيّ.

فقال لها: يا جارية ما هٰذا الصبيّ؟

قالت: هذا محمّد بن عليّ بن الحُسَين بن عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنهم أجمعين.

فقال لها: أَدْنِهِ مني!

---

(١) في ب: وجعله.

(٢) جابر بن عبد الله السلمي (١٦ ق.هـ ـ ٧٨ هـ) صحابي جليل. أكثر من الرواية عن رسول الله ﷺ. غزا تسع عشرة غزوة. وكان له في أواخر أيامه حلقة في المسجد النبوي يؤخذ عنه العلم. روى له البخاري ومسلم وغيرهما. ١٥٤٠ حديثاً. وله مسند.

(٣) في اللسان: كان يقال لمحمد بن علي بن الحسين بن علي الباقر رضوان الله عليهم لأنّه بقر العلم وعرف أصله واستنبط فرعه، وتبقر في العلم. وأصل البقر: الشقّ والفتح والتوسعة.

(٤) البلاط في اللسان: موضع؛ وفي مراصد الاطلاع ١: ٢١٥ موضع بالمدينة مبلط بالحجارة بين مسجد رسول الله ﷺ وبين سوق المدينة.

فأدنته منه، فقبّل بين عينيه، وقال له: يا حبيبي إن رسول الله ـ ﷺ ـ يُقرئك السّلام. ثمّ قال جابر: نعيتَ إليّ نفسي وربِّ الكعبة! ثم انصرف إلى منزلِهِ، وأوْصىٰ، وماتَ من ليلته.

وقد قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذاتَ يوم لأصحابه إنّ دانيال النبيّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ دَعا ربّه أن تدفنَهُ أُمّة محمد ـ ﷺ ـ لِمَا رَأى من فَضْلها وكَرامتها عند ربّها[1].

فلمّا كان في خلافةِ عُمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وافْتَتح أبو موسىٰ الأشعري السّوس، وجَدَه أبو موسىٰ في تابوت (تضرب عروقُه) علىٰ ما هُو عليه.

وقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: من دَلَّ علىٰ دانيال فبشّره بالجنة، قال: فدَلّ عليه أبا موسىٰ رجلٌ يقال له بحرفوس، فكتب أبو موسىٰ إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهم ـ وأخبره بالخبر، فكتب إليه عمر: أن ادفنه، وابعث إلى بحرفوس وبشّره، فإنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ بشّرهُ بالجَنّة.

وكان أبُو موسىٰ الأشعريّ ـ رضي الله عنه ـ قد وَجد مع دانيال مصحفاً [١٥٣/أ]، وصُرّة فيها وَدكٌ ودَراهم[2] وخاتَم، فكتبَ إلى عُمرَ ـ يخبره بذلك.

فكتب إليه عُمَر: أمّا المُصحف فابعثْ بِهِ إلينا، وأما الوَدَكُ فابعثْ مِنْهُ إلينا، وأمّا الخاتم فقد نَفّلناكه[3]، واقْسِمِ الدّراهم. قال: وكان

---

(١) الخبر في تاريخ الطبري ٤: ٩٣ والكامل في التاريخ ٢: ٥٥٠ ـ ٥٥٢.
(٢) الودَك: الشحم.
(٣) في ب: كفلناكه. وكأنه وهم. ورواية التّنفيل أولى.

نقشُ خاتمه: أسدين بينهما رجلٌ يَلْحَسانِهِ، فيه صورةُ الأسدين والرّجل بينهما.

فسأل أبو موسىٰ أهلَ تلكَ القَرْية عن نقش الخاتم.

قال عُلَماؤُهم: إنّ الملك الذي كانَ دانيال في زمانه، جاءه المنجمون وأَخْبَرُوه، فقالوا له: يُولدُ لكَ ليلة كذا غلامٌ يَفْسُد ملككَ على يديه.

فقال الملك: والله لا يبقىٰ غلامٌ يُولد تلكَ اللّيلة إلا قَتلْتُه! فلمّا كان تلكَ الليلةُ وُلد فيها دانيال ـ عليه السلام ـ أخذوه فألقَوْه في أجمَةِ الأسد؛ وغيرُه من الصبيان الذين ولدوا تلك الليلة قُتلوا. فباتَ الأسدُ ولبوتُه يلحسانه. فنجّاه الله من ذلك حتىٰ أراد الله نفوذَ أمره. فنقشَ ذلكَ في خاتمه تذكّراً[١] لنعمةِ الله تعالى عليه، وإدامةً لشكره.

فقفوا ـ زادكم الله تعالى حباً إلى حبكم، وشوقاً إلى شوقكم ـ على إخباراته، ومحاسِن علاماتِه، وهذه نقطةٌ من بحرِه ورمزةٌ من عظيم أخباره.

يا مَنْ يرومُ بأن يحصي فَضائِلَهُ[٢] هيهاتَ لا تبلغُن من ذاكَ غاياتي[٣]
يا ربّ إنّي إلى رُحماكَ مفتقرٌ مالي سواكَ وقد أربَت خطيئاتي
فاغفر بحرمة هذا المصطفىٰ خطئي ـ يا ذا الجلال ـ وإجرامي وزلاتي
[واجْعَلْ مَحبّتهُ ذُخراً لآخِرَتي كما تُبَوِّئني رَوْضاتِ جَنّاتِ][٤]
يا ربّ صَلّ عليهِ كُلّما طلعتْ شمسٌ ولألأ نجمٌ في الدُّجُنّاتِ

---

(١) في ب: تذكيراً.
(٢) من بحر البسيط.
(٣) في (ب) هيهات لا تُحصِيَنْ.
(٤) هذا البيت لم يرد في (أ).

فصل

من آداب مَنْ علم أنّ الله ـ سُبحانه ـ سمّىٰ نبيه: الخبير؛ وأثنىٰ عليه بذلك في كتابه العزيز العليم الخبير أن يكون متخلّقاً بصفاته الكريمة، لعلّ الله تعالى يَمُنُّ عليه بالإطلاع على غيبه، ويُظهر عليه فضله لَديه، ويعتقد أن ما جعله الله تعالى معجزة لأنبيائه [يَجُوزُ أنْ] يكون كرامة لخواصّ أصْفِيائه.

ويتبع أحوال المتّبعين لسيّد المُرسلين، ووقوفهم عند العِلم الذي تَلَقَّوْه عن الصّادقِ الأمين.

وتأمّلْ حال سيّد الحُنَفاء، ورابعِ الخُلَفاء، وابن عَمِّ المُصطفىٰ، إمام الدّين وعالمه، وقاضي [١٥٣/ب] الشرع وحاكمه الكثير المناقب، البريء من النّقائص والمعايب، مُنجب النّجائب، أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب. كان ـ رضي الله عنه ـ من أغزر الصّحابة علماً[١] ومن أقواهم يقيناً وعزماً.

فعليكم بمحبّته واتّباعهِ في طريقته، فإنَّ أبا هُريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ[٢]: مَنْ أحبَّ أن يتمسّكَ بالقضيبِ الأحمر الذي غَرسه اللهُ في الجنّة في حَضْرَةِ القُدس الأعْلى فليحبّ علي بن أبي طالب» رضي الله عنه.

وقد ذكر يوماً فضائله، وبيّن مناقبه[٣]، قال أبو الطُّفيل ـ رضي الله

---

(١) في ب: من أكثر الصّحابة.

(٢) وورد بألفاظ مقاربة. وهي جميعاً من الموضوعات أو ممّن كان في رواته كذابون ومتهمون.

(ينظر اللالىء المصنوعة ١: ٣٦٨ ـ ٣٦٩ وتنزيه الشريعة ١: ٣٦١ والموضوعات ١: ٣٨٧).

(٣) في «أ» وبيّن مقامه. وما في النسختين الأخريين أولى.

عنه ـ: سمعتُ عليًا ـ رضي الله عنه ـ يقول يوماً، وقد جَمع النّاس: أنشدكم بالله هل فيكم أخٌ لرسولِ الله ـ ﷺ ـ؟ قالوا: لا.

قال: أنشدكم بالله هَل فيكم أحدٌ له عَمٌّ مثل عَمّي حَمزة، أسد الله، وأسد رسول الله؟

قالوا: لا.

قال: أنشدكم بالله، هل فيكم مَن لهُ أخٌ مثل أخي جَعفر بن أبي طالب ذي الجَناحين يطيرُ بهما في الجَنّة حيث شاء؟

قالوا: لا.

قال: أنشدكم بالله هل فيكمْ أحدٌ له زوجةٌ مثل زوجتي فاطمة ـ رضي الله عنها ـ بنتِ رسول الله ـ ﷺ ـ؟

قالوا: لا.

قال: أنشدكم بالله هل فيكم مثل سبطيّ: الحَسن والحُسَين سيّدَيّ شبابِ أهلِ الجَنّة؟

قالوا: لا.

قال: أنشدكم بالله هل فيكم أحدٌ صَلّىٰ إلى القِبلتين جميعاً مع رسول الله ـ ﷺ ـ غيري؟[1].

قالوا: لا!

قال: أنشدكم بالله هل فيكم أحدٌ أمرَ اللهُ تَعالى بمودّته من السّماء

(١) يعني المُسلمين الأوائل الذين صلوا حين كانت القبلة إلى بيت المقدس ثم تحوّلوا إلى جهة القبلة بعد نزول قوله تعالى ﴿فلنولينك قبلةً ترضاها﴾. فيهم من المسلمين المؤمنين الجمّ الغفير.

غيري[1]؟ قالوا: لا.

قال: أنشدكم بالله هل فيكمْ أحدٌ يأخذُ سَهمين، سهم في الخاصّة، وسهم في العامّة غيري؟

قالوا: لا.

قال: أنشدكم بالله هل فيكمْ أحدٌ اضطجعَ مُضطجعَ رسول الله ﷺ غَيري، وبَذل مُهْجَتَهُ ودمَهُ في ذات الله غَيْرِي؟[2] قالوا: لا!

ثم أخذَ يَستشرفُ ويذكُر ما مَنّ الله تَعالى به عَليه ببركةِ رَسُولِه؛ وأنشأ يقول[3]: [١٥٤/أ].

رســولُ الله صِهــري وابــنُ عَـمّـي ... وحَـمـزةُ سـيّـد الـشُّـهـداءِ عَـمّـي[4]
وجَـعـفـرٌ الـذي يُـمـسـي ويُـضـحـي ... يـطـيـرُ مـع الـمـلائـكـةِ ابـنُ أُمّـي
وبـنـتُ مـحـمّـد سَـكَـنـي وَعِـرْسـي ... مَـنُـوطٌ لـحـمُـهـا بـدمـي ولَـحْـمِـي[5]
وسِـبْـطـا أحْـمَـدٍ وَلَـداي مـنـهـا ... فَـمَـنْ هٰـذا لـهُ سـهـمٌ كـسَـهـمـي
سـبـقـتـكُـمُ إلـى الإسـلام طـرّاً ... غُـلامـاً مـا بـلَـغْـتُ أوانَ حِـلْـمـي
وصـلّـيـتُ الـصَّـلاة وكـنـتُ ردءاً ... فَـمـنْ ذا يَـدّعـي يَـوْمـاً كـيَـوْمِـي

ولو لم يكن من فَضائل ابن عمّ رسول الله ـ ﷺ ـ إلاّ شهادة النبيّ

---

(١) يشير إلى الآية الكريمة ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القُرْبىٰ﴾.

(٢) يشير إلى احتلاله بيت رسول الله ونومه فيه عند هجرته سرّاً مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٣) الشعر في الحماسة المغربية ١: ٥٦٧ (ويُنظر تخريج الأبيات ثمّة).

(٤) في الحماسة: محمّد النبيّ أخي وصهري.

(٥) في الحماسة: مسوطٌ لحمها... الخ. ومعنى مسوط: مختلط. ومَنُوط بالنون كرواية المصنّف هنا أي معلّق؛ ونيط الشيءُ بالشيء: وُصِلَ به.

له بأنَهُ يحبّ الله ورَسُوله، ويحبّه اللهُ ورسولُه[1] وقول النبي ـ عليه الصلاة والسلام[2] ـ «أَنا مدينةُ العِلم، وعليٌ بابها» فهذا شرفٌ عظيمٌ لسيّدنا عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ.

كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ هو محلّ سكنىٰ العِلم، وتَقريره وبلُوغه من العُلوم النّافعة الدُنيوية والأُخروية، وجميع ما كانَ وما يكونُ، وما هو كائنٌ إلى يوم القِيامة.

فرسولُ الله ـ ﷺ ـ قد أَخْبَره اللهُ تَعالىٰ به، وعلّمه منه ما لم يكن يعلم. والمدينةُ لا يُدخل لها إلاّ من بابها؛ وبابُها هو ليثُ الكتَائب، وغيثُ المَواهب، أميرُ المؤمنين: أبو الحسن عليّ بن أبي طالب. فجميعُ العلومِ عليه مقصُورة، وبه يُتَوصَّلُ إلى طَرِيقها، وهو القائمُ ببيانها وحَقيقتِها. وكلٌ من فضلِ الله ورحمته، يختصّ برحمته من يشاء والله ذُو الفَضل العظيم.

ويجبُ على السالك أن يعتقد بأنّ الله تعالى لا يُحاطُ بعلمه، ولا تُحصىٰ معلوماته، وما عرفه الأولياءُ والأصفياءُ والعلماءُ قليلٌ، نَزْرٌ بالإضافة إلى علم[3] محمد ـ ﷺ ـ لأنه علم الأولين والآخرين، وما علمه الأنبياء والملائكة المقربون وغيرهم وجميع المخلوقات قليلٌ، نَزْرٌ

---

(١) عن ابن أبي ليلى قال: قال رسول الله ﷺ: لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، فدعا علياً فأعطاه إياها. رواه الطبراني. قال في مجمع الزوائد ٩: ١٢٤ وفيه ضرار بن صرد وهو ضعيف.

(٢) أورده السيوطي في كتابه: اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ١: ٣٣٠ ـ ٣٣٦ وأورد له عدداً من الألفاظ. وفي مجمع الزوائد ٩: ١١٤ الحديث: أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأته من بابه. رواه الطبراني وفيه عبد السلام بن صالح الهروي وهو ضعيف.

(٣) في ب: إلى علوم محمد ﷺ.

بالإضافةِ إلىٰ علم الله، لا نهايةَ لَهُ، ولا أوّل له، ولا آخِرَ له.

فَسُبحان من عرّف عباده، وأخبرهم، وعلّمهم ما عرفهم زمناً طويلاً. ثم قال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ١٧/٨٥] وتعلّم، فالعلمُ مِمَّنْ مَنَّ الله تعالىٰ عليه به مع تخلّقه به؛ والوُقوفُ عند حدّه يُرجىٰ معه الفَلاحُ. والمُدَاومة عليه مع خَوفِ الله وخشيته تُوجب لصاحبها الفَوز والنّجاح [١٥٤/ب]، مع أنّ أهل العِلم على قَدْر منازلهم من القُرب، يكونونَ علىٰ وَجَلٍ وخَوْفٍ من الله في القُدوم عليه والحِسَاب، والوُقوف بين يديه.

دَخل رجلٌ علىٰ الشّافعي ـ رحمه الله ـ في مرضه، فقال له: كيف أصبحتَ يا أبا عبد الله؟

فقال: أصبحتُ من الدنيا راحلاً، ومن الإخوانِ مُفارقاً، ولسيّء عَملِي مُلاقياً، ولكأسِ المنيّة شارباً، وعلى الله وارداً؛ ولا أدري أَرُوحي تصيرُ إلى الجَنّة فأُهَنّئها، أم إلى النار فأعَزّيها[١]! ثم أنشأ يقول[٢]:

ولمّا قَسَا قَلبي وضَاقت مَذاهِبي ... جَعَلْتُ رَجائي نَحْوَ عفوكَ سُلّما[٣]
تعاظَم لي ذَنبي فلمّا قَرنْتُهُ ... بعفوكَ رَبّي كانَ عَفْوُك أعظما[٤]

---

(١) كانت وفاة الشافعي رحمه الله سنة ٢٠٤ هـ. وهو الإمام محمد بن إدريس بن العباس الهاشمي القرشي المطلبي مولده سنة ١٥٠ هـ. أحد الأئمة الأربعة. وفي ترجمته: كان أشعر الناس وآدَبَهمْ وأعرفهم بالفقه والقراءات، وأعرفهم بأيام العرب واللُغة، إلى جوانب أخر فيه من الأصول والحديث والتواريخ وغيرها. وله ديوان شعر لطيف.

(٢) الشعر في ديوان الشافعي: ٨٨.

(٣) من بحر الطويل.

(٤) في أ: أكرما.

فما زلتَ ذَا لُطْفٍ وحلمٍ ورَحْمَةٍ   على الذَّنبِ تَعْفُو رحمةً وتَكرُما

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً، وزاده مولانا شرفاً وتعظيماً.

باب

في معنىٰ اسميه

الحَقّ المُبِين(١)

صلَّى الله عليه وسلَّم وشرَّف وكرَّم

الحقُّ المبين: اسمانِ من أسمائه ـ عليه الصلاة والسلام، ورَد بذلك القرآنُ العظيم، ووَصف الله بهما نبيّه الكريم، فقال الحقّ المبينُ سبحانه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٤٣/٢٩].

فسمّى الله تعالىٰ مُحَمَّداً ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالحقّ، وشَقّ لهُ ذٰلك من اسْمِه.

فإنّ اسم الله تعالىٰ: الحَقّ المُبِين، وهٰذا فيه من كَمال العِناية، وبُلوغ النّهاية في التّعظيم، وإظهار المَكانة والتّفخيم لصاحبِ الخُلُقِ العظيم ما يُشرِقُ بهِ الإيمانُ في قلوبِ المُحبين، ويَشْرَقُ به الباغضُ اللّعين!

ـ ومعنىٰ أنه ـ ﷺ ـ حقٌ أي لا باطل في نُبوءته، ورسالته، بل وجودُ ذٰلك له مُتَحقّقٌ كوجودِ ذاتِه ومحاسن صفاتِه، لأنّ الحقّ ضدُّ

---

(١) الحقّ المبين في الشفا ١: ٣١٩ وتحت عنوان الحق في سبل الهدى ١: ٤٥٤ والرياض النضرة ١٤٣ والمواهب اللدّنية ١٨٢، وفي تفسير القرطبي ١٦: ٨٢ ﴿حتى جاءَهُمْ الحَقُّ﴾ أي محمّد ﷺ بالتوحيد والإسلام الذي هو أصل دين إبراهيم وهو الكلمة التي بقّاها الله في عقبه.

الباطل.

وسُمّي نفسَ الحَقّ؛ زيادةً في المُبالغة في تكريمه، ونهاية عند الخلق في تعظيمه[1].

ويُحتمل أنه سَمّاه الله تعالى حَقّاً لأنّه ذُو حَقّ؛ أي: جاء بالحقّ للخَلْقِ من رَبّه، وهو ما أتىٰ به من القرآنِ العَظيم، وبركتهِ وشريعتِه، وحُسن عدله وسيرته، والأمرِ بالإيمان بالله تعالىٰ، ورسالتهِ، وما أَنزله عليه من الشّفاء والرّحمة للمُؤمنين، وما خَصّه به من الهداية للمُتّقين.

ومعنىٰ الحَقّ أي الثّابت الذي لا يتبدّل ولا يتغيّر، ولا يعلُو عليه الباطل [١٥٥/أ]، ولا ينكر حقيقته إلا مغرورٌ جاهل.

وكذا كان حالُ رسول الله ـ ﷺ ـ ممّا خَصّه به مولاه سبحانه من ثُبوتِ نبوءته، ودوام شريعتِه وظُهورها، وزُهوق[2] الباطلِ عنها وذَهابه، وتَمام دِيْنِ أُمّته وعُلُوّها.

وقد قال عزّ من قائلٍ لمّا أظهر الحق حَقّاً ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ١٨].

ولقد ـ والله ـ حقّت حقائقُ الإيمان، وثبت أنوارُها ومُشاهَدتها بالعيان، وما زالت ذروةُ عِزّنا بنبيّنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ تعلُو حتىٰ أتَمّها مولانا لنا، وأكمل ديننا، وأظهرَ في سائِر الوُجود عِزّنا، ونادىٰ الخَلائِقَ كلّهم، وأَمَرهم بتصديقهِ واتّباعه فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ٤/ ١٧٠].

---

(١) في ب: ونهاية عند الحقّ من الله في تعظيمه.

(٢) معنى زهَق الباطل: اضمحلّ وهلك.

ـ ومعنىٰ اسمه ـ ﷺ ـ المُبِين يحتمل معاني: إمّا لأنّه قد أبان في نِذارته، وأظهر لنا الخير في بشارته، وقد أمَر الله تعالىٰ الصادقَ الأمينَ أن يقول: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الحجر: ١٥/٨٩].

ـ ويُحتمل أن يكون معنى قوله (المُبِين) أنّه عربيُّ اللّسان، وأفصَحُ العَرب من ذَوِي الفَصاحة والبَيان.

ـ ويُحتمل أنه سُمّي مُبِيناً ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأنه بَيّن لنا ما أُنزل عليه من رَبّه إلينا، ممّا يُصلح أمرنا.

وقد أكرمَ اللهُ تعالى أُمّته فأنزل القرآن عليهم وجعل نبيّهاً مُبَيِّناً له[1]، وقال فيه لمّا وَصفه في كتابه بقولهِ تعالىٰ: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ١٦/٤٤].

وقد أظهر الله الحقَّ للخلقِ علىٰ لِسَانهِ، وأَبان نُوره في الصُدور ببلاغةِ بَيانه.

وقد كانت بلاغَتُه وفَصاحَتُه ـ ﷺ ـ بالمحلِّ الأفضلِ والمَوضِعِ الّذي لا يُجهل مع سلامة طبع، وبراعة مَنزع، وإيجاز مَقطع، وصِحّة معانٍ، وجَزالة وبيان، آتاه الله تعالىٰ جَوامعَ الكَلِم، وخصَّهُ ـ سُبحانه ـ ببدائع الحِكَمِ، فكانَ من بيانهِ وكمالِ حُسن لسانهِ يُخاطب كل إنسان بِلُغته، ويبارِيه في منزع بلاغَتِهِ بِحُسن منطقه.

وقد قال لهُ أصحابهُ مع نهاية بلاغتهم: ما رَأينا بالّذي هو أفصحُ منك.

فقال[2]: وما يَمْنَعُني؟ وإنّما أُنزل القرآنُ بلسان عربيّ مبين [١٥٥/ب].

---

(١) في ب: بإنزال القُرآن عليهم، وجعل نبيّنا مبيّناً له.

(٢) الجامع الكبير ٢: ٣٥٠.

وقالت أُمُّ معبد في وصفها له[1]:

حُلو المنطق، فصل لا نَزِر ولا حذر، كأنَّ منطقَهُ خَرَزاتِ نُظِمْن؛ وكانَ جهيرَ الصّوت حسَن النّغمة، وقد تمّم الله تعالىٰ نوره، وأَظهرَ دينه، وأعلىٰ كلمته، ودعَم زَوايا الحَقّ به وأركانه، وقَذف بالحقّ علىٰ الباطل فدمغه، ومكّنه في أرضِ الظّالمين في ديارِهم وأموالِهم ونِسَائهم، وأورثَهُ، وأذَلّ الله تعالىٰ أهلَ الباطل، وأظهرَ لديهم مع قُدرته عليهم عَفوه.

كان زُهَير بن صُرَد[2] ـ رضي الله عنه ـ رئيسَ قومه فلمّا نصَر الله تعالى نبيَّه، وأعلى حقَّه، ويَسّر فَتْحَهُ، وأخذ هوازنَ كُلّهم، وغَنِمَ المسلمونَ نِساءَهُمْ وأموالَهُم وأولادَهُم، أتىٰ[3] زهيرٌ في وفد هوازن يستعطفُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ في رَدِّ النَّبيِّ عَليهم فقال:

يا رسولَ الله؛ لو أنّا نزل بنا ما نزَل مع النُّعمان بن مُنذر، أو

---

(1) هي أم معبد الخُزاعيّة واسمها عاتكة بنت خلف، وكان رسول الله ﷺ قد نزل ضيفاً بخيمتها وظهر على يديه الشريفتين بإذن الله معجزة إدرار لبن (حليب) الغنم كل واحدة منها شاة حائل لا لبن فيها. وقد مرّ خبر أُم معبد.
ـ والخبر، وكلام أم معبد في صفة رسول الله ﷺ في السير كلها. وينظر مثلاً السيرة لابن كثير ٢: ٢٥٧ ـ ٢٦٣. وكان معه في طريق هجرته أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعامر بن فهيرة وابن أريقط يدلهم على الطريق. وقد سمع بمكة صوت ينادي:
جزى الله ربّ الناس خير جزائه   رفيقين حلاّ خيمتي أم معبد
(2) زهير بن صُرَد الجُشمي السعدي خطيب، شاعر، وفَد مع جماعة من قومه على رسول الله ﷺ بعد غزوة حُنين. وله صحبة.
والخبر مشهور، ينظر مثلاً منح المدح: ١٠٦؛ وفيه: لو مَلَحْنا لحارث الخ أي لو أرضعنا.
(3) في أ و ب: فأتى.

الحارث بن أبي شِمر، وصنع بنا ما صَنعْتَ بنا لكنّا قد رَجَونا عَطْفَهُ وعائدتَه وكرمه، وفائدته؛ وأنتَ يا محمّد خيرُ الكاملين وأفضلُ العاطفين[1]؛ ثم أنشأ يَقُول[2]:

أُمْنُنْ علينا رسولَ الله في كَرمٍ ... فإنَّكَ المرءُ نرجوهُ وننتظرُ[3]
وامْنُنْ على بيضةٍ قد عاقها قَدَرٌ ... ممزّقٌ شملُها في دَهرها غِيَرُ
يا خيرَ طفلٍ ومولودٍ ومُنْتَخَبٍ ... في العالمين إذا ما أُحْصِيَ البَشَرُ
إنْ لم تَداركهمُ نعماءُ تنشرُها ... يا أرجحَ النّاسِ حِلماً حين يُختبرُ
ارحَمْ ضَنى نِسوةٍ قد كنت تَرْضَعُها ... إذْ فوكَ تملؤهُ في مَخْضِها الدِّرَرُ
إذْ كنتَ طفلاً صغيراً كنت تألَفُها ... وإذْ يَزينُكَ ما تأتي وما تَذَرُ
يا خيرَ من مُدِحَ الكُمْتُ الجيادِ به ... عندَ الهياجِ إذا ما استُوقِدَ الشَرَرُ
فاغفِرْ عَفا الله عَمّا أنتَ واهِبُه ... يومَ القيامةِ إذْ يُهْدى لك الظَفَرُ

فلمّا سَمِعَ المُصطفى - ﷺ - هذه القَصيدة أسرع إلى ما جَبَلَه الله - سبحانه - عليه من الحَنان والشّفقة والعَفو والرّحمة فقال: أمّا ما كان لي، ولبني عبد المُطّلب فهو لكم. ثم قالت المُهاجِرُونَ كذلك، ثم قالت الأنصار كذلك [١٥٦/أ].

هٰذه أخلاقُ الحقّ المُبِين؛ زَيْن العابدين، وإمام المتّقين - ﷺ - وعلى أنبياءِ الله أجمعين.

---

(١) في السيرة والتواريخ أن رسول الله ﷺ نزل لقبيلة هوازن - قوم زهير - عمّا كان له ولبني عبد المطلب من نصيب في فيء هوازن. ثم نزل له الناس عمّا بأيديهم من طواعية.

(٢) الشعر في السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٤٨٨. وينظر تخريجها وشرحها في الحماسة المغربية ١: ٩٠ - ٩١.

(٣) من بحر البسيط.

فصل

مِن آدابِ مَنْ عَلِمَ أنّ نبيّنا ـ عليه الصَّلاةُ والسّلام ـ اسمهُ الحقُّ المُبِين، وأنه اشتُقّ له ذٰلك من اسم رَبّ العالمين أنْ يجدّدَ في قلبه التّصديق بالحقّ المبين في كلّ وقت وحين، وليقلْ في الأوقاتِ التي أمر المُصطفى ـ ﷺ ـ: أنتَ الحَقُّ ووعْدُكَ الحق، ولقاؤك حَق، والجنة حَقٌّ والنّارُ حقّ، والنبيّونَ حَقّ، ومحمَّدٌ حَق، ويَشْهَدُ لَهُ ـ عليه الصّلاةُ والسّلام ـ بذٰلك من قَلْبِه، وصميمِ فُؤادِه بدليله وبُرهانه.

ومن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ اسمه الحقُّ المُبِين أنْ يتبعه في حقيقتهِ وثباته، ويصدعَ بما أمر به نبيّه الصّادع بالحَقّ، النّاطق بالصِّدق وليكنْ مُتَّبِعُه مجاهداً في الله لا يخافُ لومةَ لائم؛ مُظهراً لدينِ الله، قاهراً لكلّ ظالم، مُنِصفاً من نفسِه، عادلاً في رعيّته، ناصحاً لأُمّة نبيّه، ناطقاً بالحق في قولهِ وَفِعله.

وهذا بابٌ عظيمٌ قلّ صِدقهُ وتحقُّقه في كثيرِ من الخَلق؛ وإنّما هو في أهل الثّبوت والصّدق، الذين لا يَخافُون إلا الله، ولا يَرْغَبُون في شيءٍ سوىٰ الله.

فانظُروا كيف كانت أحوالُ الصّحابة الكرام، الأئمّة الأعلام يَصْدَعُون بالحقّ ولا يُبالون، ويُظهرون دينَ الله ظانّيْنَ[1] أنهم مُلاقُو ربهم، وأنّهمْ إليهِ راجِعُون.

وكذا التّابعون ـ رضي الله عنهم ـ في ثُبوتهم على الحَقّ، ورُسوخهم ودوامهم علىٰ الصّدق.

---

(١) ظانّين هنا بمعنى مُوقنين؛ ومن الظن بمعنى اليقين قوله تعالى: ﴿وأنّا ظننّا أن لن تقولَ الإنسُ والجنُّ عَلى الله كذِباً﴾ [الجن: ٥].

وتدبّرْ يا أخي، قضيّة الحَسن البصري[١] ـ رضي الله عنه ـ لما بعث الحجّاجُ إلى فقهاء البصرة، وفقهاءِ الكُوفة ودخل الحسن في آخِرهم، فإذا بالحجّاج قال له: مَرحباً بأبي سَعِيد، إلى هنا يا أبا سعيد، ثم دَعا بكرسيٍّ فَوُضِعَ إلى جنب سريره فقعد عليه، ثم جعلَ الحجّاجُ ـ عدوّ الله يُذاكرهم ويُسائلهم، وذكر عليَّ بنَ أبي طالب، ابنَ عَمّ رسول الله ـ ﷺ ـ وصهره، وأخاه، وحبيبه؛ فَنال منهُ وآذاه ـ نَعُوذ بالله من ذلك ـ والحسن البصري ساكتٌ عاضٌّ علىٰ إبهامه، مستحضرٌ أنّ الله ـ سُبحانه ـ يبيّنُ الحَقّ علىٰ لسانِه [١٥٦/ب].

فقال الحجّاح: يا أبا سَعيد مالكَ ساكت؟

فقال له: ما عَسيت أن أقول؟

قال له: أخبرني برأيك في أبي تُراب.

فقال له ناطقاً بالحقّ، مبيناً له متكلماً علىٰ الحق، إنّي سمعت الله تعالى يقُول:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ ﴾ [البقرة: ٢/ ١٤٣]. وقال ـ ﷺ ـ[٢]: «عليٌّ ممن هدىٰ الله من أهلِ الإيمان»، وأقولُ فيه: إنّه ابنُ عمّ رسولِ الله ـ ﷺ ـ وخَتَنُهُ علىٰ ابنته، وأحبُّ النّاسِ إليه، وصاحبُ سوابقَ مُباركةٍ سبقَتْ له من الله، لم تستطعْ أنتَ ولا أحدٌ من النّاسِ أن يحصرها عليه، ولا يُحال بينَها وبينه.

---

(١) الحسَن البصري أحد أعلام التابعين. وقد سبقت الإشارةُ إليه.

(٢) تنظر مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه في كتب السيرة. مثلاً مجمع الزوائد ٩/ ١٠٠ ولم أقف عليه بهذه العبارة.

فتغيَّر وجهُ الحَجّاج، وقامَ عن سريره مُغضباً ودخَل بيتَهُ، وخَرجنا.

قال عامر الشَّعبي[1]: فلمّا خرجْنا أخذتُ بيد الحسن فقلتُ له: يا أَبا سعيد! أغضبتَ الأمير، وأوْغَرت صدره عليك. فقال لي: إليكَ عَنّي يا عامر، يقول النّاسُ: عامر الشّعبي عابدُ أهلِ الكوفةِ أتىٰ سُلطاناً من شياطين الإنس كلّمه بهواهُ فسكتَ عنه، ووافقه علىٰ رأيه؟!

قال: ثم بعث الحَجّاج إلى الحسن، فقال له: أنت الذي تقول كذا وكذا؟

قال: نعم!

قال له: ما حَمَلك علىٰ ذٰلك؟

قال: أخذَ الله الميثاق علىٰ العُلماء ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

قال له: يا حَسن! أمْسِكْ عَليك لسانكَ، وإيّاكَ أن يبلغني عنك ما أكره، فإنّي أُفرّقُ بين رأسِكَ وجسَدك!

هكذا هو بيانُ الحَقّ، والوقوف مع الصدق. وقضاياهم ـ رضي الله عنهم ـ في قيامهم بالشّرع وبذلهم المجهود في بيانِ الحَقّ مع قطع المطمع[2] قد سارت بها الرّكبان، ونسجت العنكبوت علىٰ زَواياهم في هٰذه الأزمان، فلا متكلم بحقٍّ ولا صادِعَ بهِ، بل قد فَشا أمرُ الزُّور والبُهتان.

---

(١) عامر الشّعبي هو عامر بن شراحيل الشعبي الحميري (١٩ ـ ١٠٣ هـ) راوية من التابعين يُضرب المثل بحفظه. اتصل بعبد الملك بن مروان وكان رسوله إلى ملك الروم. وهو من رجال الحديث الثّقات. نسبته إلى شعب وهو بطن من همدان. وقيل في اسمه عامر بن عبد الله.

(٢) في ب: الطُّمع.

أينَ حالُنا من حالِهم، واتّباعنا لأفعالِهم، ورحم الله خطيطاً[1] الزيّات لمّا جيء به إلىٰ الحَجّاج فقال له: أنت خطيط؟

قال له: نَعم، سَلْ عمّا بَدا لك! فإنّي عاهدتُ الله عند المقام علىٰ خلال ثلاث[2]: إن سُئلت لأصدُقَنّ، وإن ابتُليتُ لأصبِرَنّ، وإن عُوفيت لأشكُرَنّ!

فقال له: ما تقول فيّ؟

قال له: أقول [١٥٤/ب] فيك الحقّ: إنّك من أعداءِ الله في الأرض، تهتكُ المحَارم، وتقتلُ بالظِّنّة، وتُؤذي المؤمنين.

فقال له: ما تقول في أمير المُسلمين؟

فقال له: إنّه أعظمُ منك جرماً! إنّما أنت خطيئةٌ من خطايا عبد الملك بن مروان الذي وَلاّك؛

فقال الحجاج: ضَعُوا عليه العَذاب، فانتهىٰ به العذابُ إلىٰ أن شُقّ القَصبُ وجُعل في لَحْمِه!

ثم شَدُّوه بالحبال، ثم سَلخُوا لحمه، وما سَمِعُوه يقولُ شَيئاً.

فقيل للحجاج: إنّه في آخر رَمَق.

قال: أخْرِجُوه، فارمُوا به في السُّوق.

قال جَعفر: فجئته أنا وصاحبٌ لي، فقلت له: يا خطيط ألك حاجَة؟

---

(١) خطيط: اسمٌ يسمّى به الرّجل؛ وهو ـ على وزن فعيل ـ بمعنى الصوت الذي يصدر عن النائم.

(٢) في ب: ثلاث خصال.

قال: شربة من ماء، فأتوهُ بها [فشرب] ثم مات ـ رحمة الله عليه ـ وكان سنّهُ ثمانيةَ عَشر عاماً.

فللّه ركبٌ أصْبَحُوا في جوارهِ فأوسَعَهم لُطفاً وأكرَمَهُمْ نُزْلا[1]
فكم جَرَّدوا للعَزْم عن ساقِ طاعةٍ وكم جَذدوا للعلمِ ثوباً به سَحلا[2]
وكم بَذَلُوا نُصحاً وكم ذلّلوا هوًى فللرّيبِ ما أخفىٰ وللحقّ ما أجلى
إذا ظاهَرُوا أو باطنوا في ملمّةٍ فللهَدْي ما أبْقَىٰ وللزّيْغ ما أبلى[3]
هُم جاهَدُوا في الله حقَّ جهادِه وهمْ حَسّنُوا قَولاً وهمْ أحْسَنُوا فِعلاً
عليهمْ سَلامٌ طيّبٌ متجدّدٌ بغيرِ تناهٍ لا يبيدُ ولا يَبْلى

وصلىٰ الله على سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً، وزاده مولانا شرفاً وتعظيماً.

---

(١) من بحر الطويل.
(٢) السَّحْل، والسحيل: الثوبُ لا يُبْرَمُ غزلُه أي لا يُفْتَلُ طاقتين. فالسحل من الثياب مسترخ غير قوي، خلاف المُبرم.
(٣) في ب: باطنوا في مهمّة.

باب
في معنىٰ اسمه
النُّور (١)
صلَّىٰ الله عليه وسلَّم وشَرَّف وكرَّم

النُّور: اسمٌ من أسمائه ـ عليه أفضلُ الصَّلاة والسَّلام ـ وهو اسمٌ من أسماءِ المَولىٰ جَلَّ جلاله. سَمَّىٰ به نفسه.

فمعنىٰ أنّ مولانا سبحانه اسمه النور(٢) أي منور السموات والأرض، وخالق النور فيهما، المشاهد بالعيان ومنور قلوب المؤمنين بالقرآن.

وقد سمّى الله تعالى نبيَّهُ في كتابه نُوراً فقال سُبحانه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:٥/ ١٥].

فالنُّور الذي جاءنا مِن عند رَبّنا هو نبيُّنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقد قَدّمنا أنّ مِن أسمائه: نُور الله.

ـ ومعنىٰ أنه ـ ﷺ ـ نورٌ: لوضوحِ أَمْرِه، وبيانِ نُبوءته، ولتنوير

(١) النور في سبل الهدى والرشاد ١: ٦٥٧ والرياض النضرة: ٢٦٥ والمواهب اللدنية ١: ١٩٠ والشفا ١: ٣٢٦.

وتفسير القرطبي ٦: ١١٦.

وفسّر النور هنا بأنه: الإسلام؛ والقرآن؛ وسيّدنا محمد ﷺ.

(٢) في ب: اسمهُ النُّور.

صُدور العَارفين [١٥٧/ب] بما جاء به ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٢٢].

فما زال هذا النّورُ العظيمُ يعلُو ويَزيدُ ضوؤه حتّىٰ أتمّه الله وأظهرَ أمْرَهُ.

وسُمّي ـ عليه الصلاة والسلام ـ نوراً لأوجه كثيرة ظاهرة فيه جليلة:

ـ فيحتمل أن يكون سماه الله نوراً لأن الله سبحانه خلقه من نور، بل الأنوارُ كلّها مخلوقةٌ منه، وضياؤها مكتَسَبٌ منه[1].

ـ ويُحتمل أن يكون سُمّي نوراً لضياءِ وجههِ وتلألؤ بَدْرِه، وحُسن منظره وإشراقهِ.

وقد كانَ عليه الصّلاةُ والسّلام لا ظِلَّ له، لأنّه نورٌ كُلُّه.

وقد دَخل علىٰ عائشة أُمّ المُؤمنين ـ رضي الله عنها ـ وقد سقطت لها إبرةٌ في الظلاّم من يدها في بيتها. فلمّا دَخل المصطفىٰ ـ ﷺ ـ أشرقَ نُوره العظيم عليها، وحلّت بركته لديها فَرأت إبرتها لضياء نُوره، وزادَ نورُ قلبها بمشاهدةِ تلألؤه.

وقد كانت ـ رضي الله عنها ـ تتذكر بديعَ صفاتِه، وحسن جماله،

(١) ورد في بعض الأحاديث أنه أوّل ما خلق الله النّور المحمّدي، وفي بعضها العرش وفي بعضها اليراع. قال في نظم المتناثر من الحديث المتواتر ص ١١١: أُجيب عن التعارض الواقع في هذه الأحاديث بأن أوّلية النور المحمدي حقيقة وغيره إضافية نسبيّة، وأن كل واحد خُلق قبل ما هو من جنسه (النظم المتناثر... لأبي الفيض جعفر الكتّاني، طبعة بيروت المصورة عن طبعة فاس ١٣٢٨ هـ).

وبهاء نُوره؛ كأنَّ الشمسَ تجري في وجهه ونصاعة مَنظره، وإذا تكلَّم فالنّورُ يخرجُ من ثناياه، وإذا تبَسّم أضاءَ نورُه في الجُدرات.

وتذكُر محاسِنَ أعضائه، وظرافة شكلِهِ، وحُسن شمائلِهِ، وحلاوةَ ألفاظه، ورشاقتها في نُطقه.

ثم تذكرُ ما شاء الله من الصّفات التي عَجز البُلغاء عن حَصرها، وكلَّتْ ألسنُ الفُصَحاء عن عَدّها. ثم يقول: كان والله - ﷺ - كما قال شاعره حسّان رضي الله عنه[1]:

مَتىٰ يَبْدُ في الدّاجي البهيمِ جَبِينهُ ... يَلُحْ مثل مصباح الدجىٰ المتوقّدِ

فمنْ كانَ أو مَنْ قد يكون كأحمدٍ ... نظامٍ لحقّ، أو نكالٍ لِمُلْحِدِ

- ويُحتمل أنْ يكونَ سَمّاه الله نُوراً لأنّهُ وجد أهل العالم في ظُلمتهم، وقد ذَهلت عُقولهم لشدة غَباوتهم فهدىٰ الله تعالىٰ مَن سَبقت له السّعادة إلىٰ الاستِظلال بظلّ نوره؛ وأضَلّ من سبقت له الشقاوةُ؛ مع كمالِ عَقْله ووفُوره، فكم رَام إطفاء نوره، وبالغَ فيه الجاحدون ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٢].

ولقد أتمّه الله، وأنار به قلوبَ أهل الإيمان[2] رَغماً، وأعزّ نُور دينه فكان أعزّ الأديان قَدراً واسماً [١٥٨/ أ].

قالت أمُّ سَلمة - رضي الله عنها - وكانت ممّن هاجرَ إلىٰ أرض الحبشة، ومكّن الله النّورَ مِن قَلْبِها، فخرجَتْ إلىٰ الله فارّةً بدينها؛ قالت[3]:

(١) الشعر لحسان في حقّ رسول الله ﷺ (ديوانه: ١٤٥).
(٢) في ب: ونَوّر به قلوب.
(٣) الخبر في كتب السيرة والأخبار وينظر مثلاً السيرة لابن كثير ٢: ٤ - ٣١.

كنا قد أجارنا النجاشيّ، وأمّننا علىٰ دِيننا، وعبادةِ رَبّنا، فكنّا عنده لا نخشى أذى[١].

ثم إنّ قُرَيشاً لِبُغضهم وعَداوتهم اجتمعوا وبَعثُوا هدايا لأصحابِ النجاشي، ولم يَبْقَ أحدٌ من أصحابه إلا بعثوا إليه بهدية، وبعثوا إليه هو هدية، فلما بلغوا إلىٰ النجاشي، وسلّمُوا عليه، طلبوا أن يردّنا إليهم، وقالوا فينا إنا إنا غِلمان سفهاء فارقنا دينهم، وجِئنا بدينٍ مُبتدع؛ قالوا: لا نعرفُه نحنُ ولا أنتَ أيّها الملك!

فقال له أصحابه وبَطارِقَتُه: إنّهم صَدقوا فَرُدَّهُمْ إليهم. فغضبَ النّجاشي وقال: لا والله لا أُسلمهم إليكم ولا أفعلُ ذٰلك بقومٍ جاوَروني، ونَزلُوا في جواري، واختاروني على مَنْ سواي حتىٰ أسألهمْ عما يقولُ هٰؤلاء في أمرهم!

قالت: ثم أرسل إلىٰ أصحاب رَسُول الله ـ ﷺ ـ، فلمّا جاءَهم رسولُ النّجاشيّ قال أصحابُنا: ما الّذي تَقُولون لهذا الملك إذا قَدِمْتُم عليه؟

قالوا: نقولُ ما عَلِمْنا، وأَمَرنا به نبيُّنا الذي نَوّر الله به قُلوبنا.

فلمّا قَدِمُوا علىٰ النّجاشيّ، وقد كان حوله أَساقِفَتُه وخَواصُّه وأحْبَارُهُ قد نَشَرُوا مصاحِفَهُم حوله فقال:

اسألوهم عن حالهم، وما فارقوا عليه قَومهم.

قالت: فقام جعفرُ بنُ أبي طالب فقال[٢]: أيّها الملك! إنّا كنّا قوماً جاهليّةً في ضلالةِ وعَماية، نعبدُ الأصنام، ونأكلُ المَيْتَة، ونأتي

---

(١) في ب: عنده ونحن لا نخشى أذى.

(٢) قارن بما في السيرة لابن كثير ٢: ٢٠ ـ ٢١.

الفَواحش، ونقطعُ الأرحام، ونُسيء الجوار، ويأكلُ القويُّ منّا الضعيف، ولم نَزل علىٰ ذٰلك حتّىٰ مَنّ الله سبحانه علينا بأن أظهرَ نوراً بعثه إلينا رَسُولاً منا[1] نعرفُ نَسبُه وحَسبه، وأمانَتهُ وصِدْقَهُ وعفّته، فَدعانا إلىٰ الله لِنُوَحّده ونَعبده، ونتركَ ما كنّا نعبدُ نحنُ وآباؤنا من الحِجارةِ والأوثانِ وألاّ نشركَ باللهِ شيئاً؛ وأمرنا بصدقِ الحديثِ، وأداءِ الأمانات[2]، وصلة الرَّحم، وحُسن الجوار [١٥٨/ب] والكفّ عن المَحارم والدّماء، وعن الأذىٰ ونَهانا عن الفَواحِش، وقَوْل الزُور، وأكل مالِ اليتيم، وقَذْف المُحْصَنات، وأمَرَنا بالصّلاة والزّكاةِ والصّيام، فَهدانا الله تعالى به، وأدخلَ نُوره في قُلوبنا فصدّقناه، وآمَنّا به فعَبَدْنَا الله وحدَهُ لا شَرِيكَ له، وحَرّمنا ما حَرّم الله علينا، وأحْلَلْنا ما أحَلّ لنا. فعَدا علينا قومُنا وعَذّبونا وفَتَنُونا عن دِيننا ليردُّونا إلىٰ عبادةِ الأوثان، ونرجعَ عن عبادةِ الرَّحمن.

فلمّا ظَلمُونا وقهَرُونا وحالُوا بيننا وبينَ إظهار ديننا، خَرَجْنَا إلىٰ بلادكَ فاخْتَرْناك عَمّن سِواك، ورَغِبْنَا في جِوارك، ورجونا ألاّ نُظلمَ عندك أيُّها الملك.

قالت: فقال النّجاشي: هل مَعك ممّا جئتَ به إلينا شيءٌ مما جاءَ بهِ عن الله هٰذا الرَّجُل؟

فقال له جعفر: نعم!

قال له: فاقْرأهُ عَليّ

قالت: فقرأ عليه ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ

(١) في ب: بعثه رسولاً منّا إلينا.

(٢) في ب: وأداء الأمانة.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾ [مريم: ١٩/١ ـ ٤].

فبكىٰ النجاشيُ حتىٰ أخْضَل لحيته[1]، ودخَل النُّورُ قَلْبَهُ، وبكت أساقِفَتُه حتىٰ أخضلوا مَصاحِفَهُم وإنجيلهم ثم قال: والله إنّ هٰذا الّذي جاءَ بهِ مُوسىٰ، وإنهما يخرجان من مِشكاةٍ واحدةٍ. انطلقوا فلا أُسلمكم إليهم أبداً!

هكذا كان نوره[2] ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتزايد في القُلوب والوُجود حتىٰ أظهرَ الله دينه علىٰ الدّينِ كُلّه، الملك المعبود.

تـالله مـا حَـمـلـتْ أُنـثـىٰ ولا وَضـعـت مثلَ الّذي جاءَ بالتّوحيدِ والسُّوَرِ[3]
وجـاءَ بـالـنُّـورِ والإظـلامُ مـعـتـكـرٌ فأشرقَ النُّورُ حيثُ الشمسُ لم تُنِرِ
فـعـادت الأرضُ بـالإسـلامِ زاهـرةً كالرّوضِ يبسمُ بعد القَطْرِ عن زَهِرِ!

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ نبيّنا محمداً ـ ﷺ ـ سَمّاه الله تعالى نُوراً لهدايته للعالمين وأنّ دلالة نُورهِ علىٰ اتّباع الحَقّ المُبين، أنْ يكونَ تابعاً لنور سُنّته مُستمسكاً بطريقتهِ محافظاً علىٰ أقوالهِ وأفعالهِ، ومتّخذاً عند الله بالاقتداء بهِ وسيلةً وذُخراً ذخيراً، لقوله عَزّ من قائل [١٥٩/أ]: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢١].

قال أربابُ القُلوب ـ رَحِمَهُم الله، ونفع بهم ـ: لا يدخلُ النّور في

---

(١) أخْضَل لحيته: بَلّها (بدموعه).
(٢) في ب: كان قدرُه.
(٣) من بحر البسيط.

القلوب إلا بالأعمال، ولا عَمل إلا بِنيّةٍ صادقةٍ، ولا قولَ وعملَ ونية إلاّ بموافقةِ السُّنّة.

وقد قال - ﷺ -[1]: «كُلّ عَملٍ ليسَ هُو على هَدْينا فهو رَدّ»[2] معناه: كلّ عمل عمله ابنُ آدم وتقرّب به إلى مولاه ولم يُوافق السنّة بل اتبعَ به هَواهُ فهُو باطلٌ ﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النُّور: ٢٤/٣٩].

والعَمل المُوافق لِهَدْي نبيّنا محمد - ﷺ - عملٌ صالحٌ مرفُوع، يَرِدُ به يَوْمَ القيامةِ علىٰ حوضهِ غيرَ مُذادٍ عنه ولا مدفُوع.

قال سهل بن عبد الله[3] - رحمه الله -: لا يبلغ العبدُ حقيقة الإيمان حتىٰ يكونَ فيه أربعُ خِصال: أداءُ الفرائض بالسُّنّة، وأكلُ الحلالِ بالوَرَع، واجتنابُ المنهيّ عنه من الظّاهر والبَاطِن، والصبرُ علىٰ ذٰلك إلى الموت.

قال بعض الصالحين: أصل المكاشفات بالكرامات[4]: أكلُ الحَلال، ومُوَافقة السُّنّة، فإذا تخلق المريد بذلك استنار قلبه، وضاءت جوارحه.

ولذا قال - عليه الصلاة والسلام -[5]: «مَنْ صَلّىٰ باللّيلِ ضاءَ وَجْهُه بالنهار».

---

(١) صحيح مسلم ١٣٤٤، وفيه: مَن عمل عملاً ليس عليه أمْرُنا فهو ردّ.

(٢) في النهاية واللسان: وفي حديث عائشة رضي الله عنها: من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدّ؛ أي مردود عليه. يقال أمرٌ ردٌّ إذا كان مخالفاً لما عليه السنة.

(٣) هو سهل التُّستري؛ وقد سبق.

(٤) في ب: المكاشفة.

(٥) العلل المتناهية ١٩٦.

وقال سهل ـ رضي الله عنه ـ من أراد أن يكاشف بآيات الصدّيقين فلا يأكل إلا حلالاً، ولا يعمل إلا في سُنّةٍ أو ضرورة.

وقال بعض الصدّيقين: مَنْ أكلَ الشُّبهة أربعين يوماً أظلمَ قلبهُ، ولذا قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ٨٣/ ١٤].

وإنما كان القلبُ يسوَدُّ مع أكلِ الشُّبهة أو الحرامِ لأنَّ مَن أكلَ الحرامَ عَصتْ جوارِحهُ شاءَ أو أبىٰ، عَلِمَ أو لم يعلم، ومن كانت طُعْمَتُهُ حلالاً أطاعت جوارِحُه، ووفّقه الله تعالى للخير(١).

وإذا عَصت الجوارح، وتمادى العِصيان، صار الذّنبُ علىٰ الذّنبِ مُتراكماً حتىٰ يسودَّ القلبُ؛ فيصير لا يعرفُ معروفاً ولا يُنكِرُ مُنكراً، فيذهبُ نورُه، ويستولي الشيطانُ والهوىٰ على نور العقل فينطفىء شعاعُه ويذهبُ ضوؤه(٢).

ومثال ذلك أنّ السّراج إذا كانت فيه فتيلةٌ قويّةٌ نظيفةٌ، وزيتٌ صافٍ سالمٌ من الأدران، فلا يزال مُضيئاً، وزيتُه يقوّيه على [١٥٩/ب] استنارتهِ، ويعينهُ علىٰ إضاءته، فإذا دَخل الزيتَ خللٌ غلبَ على ضوءِ الفتيلةِ، وذهبَ ضَوْؤُها إن لم يُتدارك بالإصلاح، ولم يُنتفع به للاستصباح.

وكذا القلبُ جَعل الله تعالىٰ فيه عَقلاً وشهوةً، وشيطاناً غويًا، فاستنارةُ العقلِ وقوّتهُ بقوّة اتّباع السُّنّةِ والوقوفِ عند حَدّها، ومُرَاقبةِ القلبِ

---

(١) في ب: للخيرات.

(٢) في ب: فَيُطفىء شعاعه ويَذهب ضوءه.

للمولىٰ جلّ جلاله، وذكره ووجلهِ وحزنهِ؛ فينهزمُ عند ذلك شيطانهُ وشهوتهُ، ويذهبُ خَوَلُه وجُنده[1]، ويهزلُ جسده، ويتقوّى إبصار القلب ونورُه ويعمّ جوارحه، ويذهب كسله، سيّما إن كانَ زيتُه صافياً، وهو الدّمُ الناشىء عن أكلِ الحَلال.

فما يزال النّورُ مستمّداً بإمدادِ زيتهِ، وحُسن صفته.

وإن تعرَّضتْ له الآفات، وانهمكَ في اتّباع الشّهوات، واشتغل عن الله تعالى وعن مُراقبته باللّذات، سَمِنَ الشيطانُ وقوِيَ جُبده، واستولى عليه، وأقبل سواد ليله، وذَهَبَ ضوءُ نهارِه إن لم يتداركْهُ الله بِعفوه، فيمنّ عليه بإنابتهِ وتوبته.

فأصِيخُوا سمعكم ـ رحمكم الله ـ وغَفر لي ولكم وتأمّلُوا وتَدبّرُوا فيما يُراد بكم وتوبوا إلى ربّكم، واسمعُوا بآذانِ قُلوبكم قولَ رَبّكم ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٥٥ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾ [الزمر: ٣٩/٥٤ ـ ٥٨].

أيها المتبع لذاك النور العظيم والرسول الكريم[2] لا يدخل النور قلبك إلا بمشابهة أعماله، عَسىٰ الله تعالى يحبّك فيجتبيك؛ ويُسكنك الجِنان، ومن الخَطايا ينقّيك.

---

(١) الخَولُ: الحاشية والأعوان.

(٢) في ب: فبادر أيها المحب لصاحب هذا النور العظيم.

رُوي عن أبي سعيد الخُدري ـ رضي الله عنه ـ قال[1]: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول لرجل يعظه: «ارغب فيما عند الله يحبّك الله، وازهدْ فيما في أيدي النّاس يحبّك النّاس».

إن الزّاهد في الدنيا يريح قلبه وبدنه في الدنيا والآخرة. وليجيئنّ أقوامٌ يومَ القيامةِ لهمْ حَسنات كأمثال الجبال فَيُؤمر بهم إلى النّار، قيل يا رسول الله أيُصَلُّون؟ [١٦٠/أ] قال: كانُوا يصلّون ويصومون ويأخُذون هنة من اللّيل لكنهم كانُوا إذا لاحَ لهم شيءٌ من الدُّنيا وَثَبُوا عليه»[2].

فانظرْ ـ يا مغرور ـ هذا الحديثَ الكريم ما أصعبه علىٰ النُّفوس لولا قوّة رَجائنا في المَلكِ القُدوّس.

إذا ضاقتْ بكَ الأسبابُ يوماً   فَثِقْ بالواحدِ الصَّمَدِ العَلِيِّ[3]
فكمْ أمرٍ تُسَاءُ بهِ صَباحاً   وتُعقِبُهُ المَسَرَّةُ في العَشِيِّ[4]
وكم عُسْرٍ أعاد الله يُسْراً   وفَرّج كربةَ القلبِ الشَّجِيِّ

وصلّى الله على سَيّدنا ومَوْلانا مُحَمّدٍ وعلَىٰ آلهِ وصَحْبِهِ وسَلّم تسليماً كثيراً، وزادَه مَولانا شَرفاً وتعظيماً.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢/ ١٣٧٤) وفيه: ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبّوك.
ـ وفي الفتح الكبير «... وازهد فيما في أيدي الناس يحبّك الناس».

(٢) إتحاف السادة المتقين ٨: ٨٥.
ـ وفي الأُصول هنة من الليل. وفي الإتحاف هنيهة. وفي اللغة يقال هُنَيّه وهُنيهة. وفي الحديث «أقام هنية» أي قليلاً من الزمان. قال ابن الأثير: وهو تصغير هنة. ويقال هنيهة أيضاً. وينظر اللسان (هـ ن ا).

(٣) من بحر الوافر.

(٤) في ب و: ج: فتتبعه.

بـاب

في معنىٰ اسميه

الشَّاهِد والشَّهِيد(١)

صلّىٰ الله عَليه وسَلّم وشَرَّف وكَرَّم

الشّاهدُ والشّهيدُ: اسمانِ من أسمائهِ ـ عليه الصّلاةُ والسّلام ـ سَمّاه الله تعالىٰ بهما في كتابه، وأثنىٰ عليه بهما في كتابه، وأثنىٰ عليه بهما في نَصّ خطابه.

قال عز وجل: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤٥] وقال جَلّ من قائل ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ٢/١٤٣].

وقد سَمّىٰ تَعالىٰ نَفْسَهُ الشَّهيد، وشَقّ لحبيبه من اسْمِهِ تَعظيماً وتَفخيماً(٢) ـ صلىٰ الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً.

ومَعْنىٰ أن الله تعالى شهيدٌ أي عالِمٌ حاضِرٌ لا يغيبُ؛ وهو علينا في أعمالنا رَقيب ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم

---

(١) الشاهد والشهيد في الشفا ١: ٣٢٦ والشاهد في أسماء رسول الله ﷺ ومعانيها: ٣٤ ـ ٣٥ وسبل الهدى والرّشاد ١: ٥٨٨ (الشهيد) و١: ٥٨٦ (الشاهد).

(٢) من قول حسان رضي الله عنه (وقد مرّ في الكتاب):

وشــق لــه مــن اســمــه لــيــجــلــه ... فذو العرش محمود وهذا محمّد

بِمَا عَمِلُوٓاْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٥٨/٧] فَعِلْمُه ـ سبحانه ـ قديمٌ، لا أوّل لهُ ولا آخِر له، كذاتِهِ العَلِيّةِ، وسائرِ صفاتهِ، فهو مع كُلّ المخلوقاتِ بعلمِه، ولا يغيبُ عنه مثقال ذرة في السموات ولا في والأرض بمشاهدته.

ومعنىٰ كونِ نبيِّ الله شهيداً أو شاهداً، إمّا أنه عليمٌ ـ ﷺ ـ بما عَلّمه مولاه وفَضّله به عَمّن سواه، وإمّا أنه بمعنىٰ أنّه يشهدُ علىٰ الخَلائقِ يومَ القيامةِ. وهذا المعنىٰ هو الذي دلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ٢/١٤٣].

قال أبو الحَسن القابِسي[1] في معنىٰ الآية: أنّ الله [١٦٠/ب] تعالىٰ فضّل نبينا ـ ﷺ ـ وفضّل أمته بهذه الآية[2]، ومَعناها: فكما هَديناكم فكذلك خَصصْناكم وفضّلناكم بأنْ جعلناكم أُمّة خِياراً عُدولاً لِتَشْهَدُوا للأنبياءِ علىٰ أممهم، ويَشهد لَكُمُ الرّسُول بالصّدق.

وقيل: إنّ الله ـ تَبارك وتعالىٰ ـ إذا سَأل الأنبياءَ وهو أَعْلَمُ: هل بَلّغتم؟ فيقولون: نعم، فتقول أُممهم: ما جاءَنا من بشيرٍ ولا نَذِيرا! فتشهدُ أُمّة محمّد، ويُزَكّيهم النبيُّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

---

(١) أبو الحسن علي بن محمد القابسي، أحد علماء زمانه (٣٢٤ ـ ٤٠٣) كان فقيهاً أصولياً، من مشهوري علماء المالكية، وكان حافظاً للحديث وعلله ورجاله. له رحلة إلى المشرق. وولي الفتيا مكرهاً. له كتب كثيرة وصل إلينا بعضُها. ومن كتبه الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين؛ ولها شأن في تاريخ التربية في الإسلام.

(٢) في ب: وفضل أمته بعده في هذه الآية.
ـ وينظر الشفا ١: ٧٦.

وقيل في معنىٰ الآية: إنكم يا أُمّة محمّد حجةٌ علىٰ مَنْ خَالفَكم، والرَّسُول - عليه الصّلاة والسلام - حُجّة عليكم.

وأما قوله تعالىٰ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤/٤١] فهي قريبة في المعنىٰ للآية التي قَبْلَها، والخطابُ فيها لنبيّنا.

وقد فسَّرها[١] - ﷺ - في رواية مُسلم من طريق عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه - عليه الصلاة والسلام - قال: «شَهِيدٌ عليهم ما دُمت فيهم» أوَ «ما كنتُ فيهم» - شكّ مِسعر الراوي -.

وقد قال النبيّ - ﷺ -[٢] لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: اقرأ عليَّ القُرآن، قال فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ أقرأُ عليكَ، وعليكَ أُنزل القرآن؟

قال: فإنّي أشتهي أنْ أسمَعَهُ من غيري، فقرأتُ (النّساء) حتىٰ إذا بلغتُ: «فكيفَ إذا جِئنا مِن كُلّ أمّةٍ بشهيدٍ وجئنا بك علىٰ هؤلاء شهيداً» قال - رحمه الله ورضي عنه - رَفعتُ رأسي أو غَمزني رَجلٌ إلى جَنبي، فرفعتُ رأسي فرأيتُ دموعَهُ - عليه الصلاة والسلام - تَسِيل.

هٰذه حاله - ﷺ - في خَوْفِه من رَبّهِ، وشدّةِ خُشوعهِ وطاعتِهِ، وقوّةِ عبادتِهِ علىٰ قَدْرِ عِلمه بالله.

فلما كان أعلم الناس كان أشد النّاس خوفاً وبكاءً وخشيةً ورهبةً وطاعةً، وعبادةً، وخضوعاً وحُزناً وأسَفاً وذكراً لله، وأشدّهم له اشتياقاً ومحبّة للقائه والقُدوم عليه.

---

(١) ينظر مثلاً تفسير القرطبي ٤: ١٩٧؛ وترجمة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في سير أعلام النبلاء ١: ٤٨٠.

(٢) في سير أعلام النبلاء ١: ٤٨١.

قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال ـ ﷺ ـ[1]: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتُم قليلاً، ولبَكيتم كثيراً».

وهذا السّيد عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عَمّتْ عليه أنوارُ نبيّنا ـ ﷺ ـ فكانَ مِن أفضل أصحابه وأعلمهم وأعبدهم، وأشدّهم هَدْياً واتّباعاً له ـ عليه الصلاة والسلام ـ. وقد أخبرَ عن علمهِ وشَهادتِه [١٦١/أ] رسول الله ـ ﷺ ـ له بفهمهِ. قال ـ رضي الله عنه ـ في سبب إسلامه[2]: «كنتُ غلاماً يافعاً أرعىٰ غَنماً لِعُقبة بن أبي مُعَيط[3]، فجاءَ إليّ النبي ـ ﷺ ـ وأبو بكر ـ رضي الله عنه ـ فقالا: يا غلام هل عندك من لبن تسقينا؟

فقلت: إنّي مُؤتمَن ولَسْتُ ساقيكما!

فقال النبي ـ ﷺ ـ: هل عندك جَذَعة[4] لم يَنْزُ عليها الفَحل؟ قلت: نَعم، فأَتيتُهما بها، فاعْتَقلها النبيُّ ـ ﷺ ـ ومَسَح الضرّع ودَعا، فجعَل الضّرع يدرُّ لبناً.

ثم أَتاهُ أبو بكر بصخرةٍ مُنقعرةٍ، فاحتلَب فيها، فشربَ أبو بكر، ثم شربَ ـ ﷺ ـ، ثم قال للضرع: اقلصْ، فقَلص.

قال عبد الله: ثم أتيتُه بعد ذٰلك، فقلتُ علّمني من هٰذا القول، فقال لي:

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ٢: ٢٥٧ من حديث أبي هريرة، وهو في الفتح الكبير ٣: ٤٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ١: ٤٦٥.

(٣) في ب: لعنه الله.

(٤) الجَذعُ من الإبل: ما اسْتكمل الرّابعة ودخَل في الخامسة. والأنثى جَذعة.

إنك غلام مُعَلَّم، قال: فأخذت من فِيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ سبعينَ سُورة لا ينازِعُني فيها أحد.

وقد كان أكابر العلماء من الصحابة، يعظّمونه ويعلَمُون منزلته ـ رضي الله عنهم ـ منهم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال الشّعبي ـ رَحِمَهُ الله ـ ذَكَرُوا أن عُمر ـ رضي الله عنه ـ لقيَ في بعضِ أسفاره ركْباً فيه عبدُ الله بن مسعود فأمَر رجُلاً يناديهم ويسألهم: من أين القومُ؟ فأجابه عبد الله بن مسعود ـ ولم يعرفوه ـ قائلاً: أقبلنا من الفَجِّ العميق[1].

فقال الرجلُ: أيْن تُريدون؟

قال له عبدُ الله: البيت العتيق.

فلمّا سمع عُمَر جوابه قال: إنَّ في القوم عالماً.

فأمر الرَّجل أن يسألهم: أيُّ القرآنِ أعظم؟ فأجابه عبد الله بن مسعود ـ ولم يعرفوه ـ ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٥٥] فقرأ حتّىٰ ختمَ الآية.

قال عُمَر: نادِهِمْ: أيُّ القُرآنِ أحكم؟

قال ابنُ مسْعُود: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ١٦/ ٩٠].

قال عمر رضي الله عنه: نادِهِمْ: أيُّ القرآنِ أجْمَع؟

قال ابنُ مسعود: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٩٩/ ٧، ٨].

---

(١) الفجّ: الطّريق الواسع بين جبَلين.

فقال عمر رضي الله عنه: نادهِمْ، أيُّ القرآنِ أرْجَىٰ؟

فقال ابنُ مسعودُ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٣٩/٥٣].

قال عمر رضي الله عنه نادِهِمْ: أيُّ القرآنِ أخْوَف؟

فقال ابنُ مسعود: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤/١٢٣].

فقال عُمَر لمّا علم مقدارَ هٰذا الرَّجُل [١٦١/ب] أفيكمْ عبدُ الله بنُ مَسْعُود؟

قالوا: اللّهُمَّ نَعَمْ! ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ

فصل

مِن آداب مَنْ علم أنّ نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ سمّاه الله تعالىٰ شاهداً وشهيداً، أن يكونَ عالماً بمقدار الشهادة وأدائها[١] والمحافظةِ عليها، وأن الشّهادة كما قال ـ ﷺ ـ إن كانَ الأمرُ كالشّمسِ وإلاّ فَدعْ»[٢].

فَمنْ تقرّرت في ذِمّته شهادةٌ لأخيه، وعَلمها وتحقّق أمرها، وَجب عليه أداؤُها، وإن تشكّك فيها حَرُمَ عليه ذكرها.

فالشاهدُ الحقيقيّ: الذي لا تأخذهُ في الله لومةُ لائم، ولا يخافُ إلاّ الله في جميع العَزائم، ويعلمُ أنّه يُسألُ عن شهادته بين يدي الله خالقِ

(١) في ب: وآدابها.

(٢) ذكر القرطبي في التفسير ٣: ٣٩٠ قال: روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: سُئل رسول الله ﷺ عن الشهادة فقال: «ترى هٰذه الشمس فاشهد على مثلها أو دع».

العَوالم، ويكون سالماً من النُّصرة والحميّة، وأكل الحرام واتباع الشهوة[1]، متبعاً لسنّة نبيه، محافظاً علىٰ مُروءته.

وقد حالت الأزمان[2]، وذهب الصدق والأمان[3]، وظهر مصداق قول النبي - ﷺ -[4]: «سيكون في آخر الزّمان قومٌ يَنْذُرون ولا يُوفون، ويَشْهدون ولا يستشهدون».

وإنّما ذٰلك لحرصِ النّفوس علىٰ جمعِ الدّينار والدرهم من حِلّة ومن غيرِ حلّه، مع ذَهابِ الرّحمةِ من القُلوب، وعدم الحياءِ من علاّم الغيوب!

وقد قال - ﷺ - في مثل هؤلاء: أولئك الذين ملكت الدُّنيا أزِمّة قُلوبهم، فأوردتهم النارَ بسبب ذُنوبهم[5].

وما كانت هذه الشهادات عند السادات إلا أمانات[6] يبتغونَ بها وجهَ الله، والدّارَ الآخرة، فكانت كلّها خالصةً لله، ثم صارت بعد ذلك ثلثاً لله، وثلثاً للنّفسِ، وثلثاً للإخوان؛ ثم صارت بعد ذلك حِرَفاً وصناعات ونقصاً من الدّين، وبضاعات.

كتب الشيخ ولي الله[7] أبو عبد الله محمّد الدكالي (القديم) لبعض

---

(١) في ب: الشهوات.
(٢) حالت أي: تبدّلت وتغيّرت.
(٣) في ب: وذهب من الصُدور الأمان.
(٤) من حديث رواه عمران بن حُصين في مسند الإمام أحمد ٤: ٤٢٦.
(٥) الأزمّة جمع الزّمام، وهو الحبل الذي يُجعل في البُرة والخشبة. ويُزَمّ البعير بالزمام. ومعنى هلكت الدنيا أزمة قلوبهم أي تمكّنت منه وحكمتهم. ومفهوم أن المؤلف يورد قطعة من حديث روايةً بالمعنى.
(٦) في ب: هذه الشهادات... إلاّ أمانات.
(٧) أبو عبد الله محمد الدّوكالي، وصفه أيضاً في فهرسته (فهرسة الرّصاع ١٢) بالقديم،

طلبة العلم يُوصيه بتقوىٰ الله، والوُقوف عند حدّه فقال له: يا أخي: واعلمْ أنّك محتاجٌ لأمورٍ أعلاها سلامَةُ الدّين والعِرض، فالله الله فيهما. ثم قال: واعلمْ أنّك إنْ عاملتَ الله فيما أنتَ تُحاوله، تظهر عليكَ بَركته في دينك ودُنياك، وتعلمُ ذٰلك بانشراح صَدرك، وبالحرصِ عليه، وقد رأيت مَنْ طلبَ العلمَ لمتاع الدّنيا وناله [بسببه] نسوا الله فأنساهم أنفسهم حتىٰ هلكوا بالعَداوة والحَسد، [١٦٢/أ] وتعرّضوا بسببه لسخطه وأليمِ عذابِهِ، فالله الله، فإنّ العاقلَ مَنْ وُعِظَ بغيره، وأنشد يقول:

مفتاحُ رزقكَ تقوىٰ الله فاتّقهِ ... وليسَ مفتاحهُ حرصاً ولا طلَبا[1]

والعلمُ أجملُ ثوبٍ أنتَ لابسهُ ... فاجعلْ له عَلَمينِ: الدّينَ والأَدبا

وكان يقول ـ رضي الله عنه ـ ذنبُ من يُعمر شطيّاً[2] في البحر يقطع به في بلاد المسلمين أخفّ وأهونُ من ذنبٍ يرتهن في تقديم شاهد في هٰذا الزمان، وأشدّ من ذلك وأعظمه جُرماً عند الله من يُفتي في دين الله بغير علمٍ ولا خوفٍ من الله عزّ وجل.

هٰذه آثارُ الخائفين، وبَقايا المتّقين، وعلامات المحبّين ـ رضي الله عنهم أجمعين.

أعِدْ ذِكرهم يا صاحِ وازوِ حديثهم ... فذكرهمُ ممّا يعادُ ويُستَحلى[3]

ودوّنْ بديوانِ المناقبِ وَصْفَهُم ... تَجِدْ ذكرَ ما دَوّنت فيهِ إذا يُتْلىٰ

وردّدْ علىٰ الأسماعِ طِيبَ سماعهِ ... فترديدهُ في سمع آذاننا يَحْلى

تميزاً له عن أبي حفص عمر الدوكالي. وقد نعته ابن مرزوق بالشيخ الولي الصالح الزاهد. وهو من رجال القرن الثامن.

(١) من بحر البسيط.
(٢) في أ: شيطاً.
(٣) من بحر الطويل.

وجَـوّدْ نـظـامـاً فـي قـوافـي رثـائـهـمْ فـنـظـمُ الـقـوافـي فـي رثـائـهـمُ أسْـلـى
وزُرْ لاذكـار الـعَـهْـدِ مـنـهـمْ قُـبـورَهـمْ فبالذكر حَجْبُ الذّين عن قَلْبنا يُجْلىٰ
عـلـيـهـمْ سـلامُ الله مـا ذَرَّ شـارِقٌ وما دَرَّ دمعُ العَيْنِ شـوقـاً ومـا انْهَـلاً

أعاد الله علينا من بركاتهم، وأفاضَ علينا من سَحائب خَيراتهم، وصلّىٰ الله علىٰ سيدنا ومولانا محمد وعلىٰ آله وسلم تسليماً، وزاده مولانا شَرفاً وتعظيماً.

باب

في معنىٰ اسمه

العظيم(1)

صلّىٰ الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

العظيمُ: اسمٌ من أسمائه ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ وصفه الله تَعالىٰ به في أول سفر من التوراة فقال لإسماعيل ـ عليه السلام ـ وستلدُ عظيماً في أمة عظيمة.

وأثنىٰ الله ـ سُبحانه ـ علىٰ خُلقه العظيم فقال جل جلاله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٦٨/٤].

وسمّىٰ نفسَهُ تعالىٰ: العظيم.

ـ ومعناه في حق الجليل الشأن الذي كلّ شيء عظيم في الأعين أو في النُّفوس فهو دُونه لافتقاره إليه، واحتياجه لديه.

ـ وسمّىٰ نبيّه: العظيم؛ بمعنىٰ أنه أكرمُ الخلق منزلةً عند مولاه وأفضلهم لديه ممَن سواه، فهو العظيم القَدر عند الله، صاحب السُّؤدد والسّيادة والرّضىٰ، الذي خاطبه المَولىٰ جل جلاله، الغني عن جميع الخلائق بقوله سبحانه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٩٣/٥]

---

(١) اسمه ﷺ العظيم في: الشفا ١: ٣٢٧ وسبل الهدى والرشاد ١: ٦٠٦: العظيم: الجليل الكبير.

[١٦٢/ب].

ولقد أعطاهُ الله ـ سُبحانه ـ من الخَيرات حتىٰ رضيَ، فأعلىٰ قدره، وشَرح صَدْرَه، ويَسَّر أمره وأعزّ أُمّته، وأجابَ دعوته، وأشْهَرَ حُرمته.

وسارعَ في مَرضاتِه، ولبّىٰ طِلبته، وكم من كرامةٍ ومعجزةٍ، وإجابةِ دعوةٍ أعطاهُ رَبُّه جلّ جلاله.

روىٰ عِمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ قال: كنتُ عند النبيّ ـ ﷺ ـ إذ أقْبَلتْ فاطمةُ ـ رضي الله عنها ـ حتىٰ قامت بين يديه، فنظر إليها وقد غلبت الصُفرةُ علىٰ وجهها[1]، وذهب الدّمُ من شِدّة الجوع الذي بها.

فنظر إليها رسولُ الله ـ ﷺ ـ فقال: اذْني يا فاطمة.

فقامت بينَ يديه، فوضع يده الكريمة علىٰ صدرها الكريم في موضع القلادة، وفَرج بين أصابعه ثم قال: «اللهمّ مُشبع الجماعة، ورافِعَ الوضَعة لا تُجِعْ فاطمةَ بنت محمد». قال عمران: فنظرتُ إليها وقد غلب الدَّمُ علىٰ وجهها وذهبت الصُفرة ببركة عِظَمِ قَدْرِ رسول الله ـ ﷺ ـ عند الله، وإجابة دُعائه[2].

ومن هنا تعلم ـ يا مغرورا ـ حَقارةَ الدّنيا عند الله؛ فإنه لا أكرم ولا أعظم علىٰ الله من سيّدنا محمد ـ ﷺ ـ وأهل بيته، وقد حماهم عنها لأنّها لا قدر لها، وحَفِظهم منها لأنها لا تزنُ عند الله جناح بَعوضة.

وقد ظهَر لجميع الخلائق منزلةُ المُصطفىٰ وعظمه عند المولىٰ جل

---

(١) في أ: غلبتها الصفرة على وجهها.

(٢) الخبر في الشفا ١ : ٦٣٠.

جلاله، لما رأوا من إكرامِه[1]، وإجابةِ دُعائِه، وحِفظه عليه الصلاة والسلام. روىٰ أنسُ بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن أبا طالب عَمّ النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ مَرِضَ مَرضاً شديداً فدخل ـ ﷺ ـ يزورُه فقال له عمه، يا ابنَ أخي ادعُ رَبّك الذي تعبده أنْ يعافيني.

فقال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ[2]: اللهم اشْفِ عمّي، فقام أبُو طالب كأنّما نُشِطَ من عقال.

فقال أبو طالب: يا ابنَ أخي إن رَبّك الذي تعبد يُطيعك، فقال: أنتَ يا عمي لئن أطعتَ الله لَيُطيعنّك.

فتأملّوا ـ رحمكم الله ـ هٰذه الأخلاق العظيمة والمُعاملة الكريمة، والملاطَفة المُستقيمة[3]، ولذا كان عظيماً في القلوب، عظيماً عند علاّم الغُيوب مُعَظّماً عند الخاصّة والعَامّة.

ألقىٰ الله تعالى عليه الهَيْبَة والإجلال، وصيّر مَنظره في غايةِ البهاء والكمال؛ فمن رآه بديهةً هابَهُ [١٦٣/أ] ومَنْ خالطه معرفةً أحبَّه ولقد أبان الله قدرَهُ، وأظهر منزلته في العالم كله علويّهِ وسُفليّه.

قال عليه الصلاة والسلام[4]: «رأيتُ رجلاً ليلة الإسراء عن يساري قاعداً، والدنيا كلها بين ركبتيه وهو دائماً ينظرُ لا يلتفت، وبيده لوحٌ

(١) في ب: من مكارمه.

(٢) الحديث في مجمع الزوائد ٢: ٣٠٠ وتاريخ بغداد ٨: ٣٧٧ ومستدرك الحاكم ١: ٥٤٢.

(٣) والملاطفة المُستقيمة: من: ب و: ج.

(٤) من حديث الإسراء والمعراج. نقل رواياته في الدر المنثور ٤: ١٣٦ وما بعدها.

مكتوبٌ قد شخص بصَرُه ينظر إليه فوقف جبريل على رأسه وقال: يا ملكَ الموت ألا تسلّم على محمّد نبيّ الرَّحمةِ حبيب الله، العظيم القَدْر عند الله؟.

فقال ملك الموت ـ عليه السلام ـ: يا محمّد سلامٌ عليك، أبشر فما رأيتُ الخير إلا فيك وفي أُمتك، فقرّ عَيْناً وطِبْ نَفْساً قال، فقلت: يا جبريل أحبّ أن تخبرني كيف تُقْبَضُ الأرواح؟ فقال جبريل: يا ملَك الموت أحبّ أن تُخبر محمداً ـ ﷺ ـ كيف تقبض الأرواح؛ فذكر له صفة ذلك على طولٍ في القِصّة فاختصَرْناه.

ـ ويحتمل أن يكون سُمّي عظيماً لعظمته في القلوب عند جميع المخلوقات ولهيبته في نُفوسِ سائِر المَوْجُودات ـ صَلّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم وشرّف وكرّم ـ.

خير البريّة كلّها وشريفها ... وحليمها وكريمها البَرّ الرّضا[1]
أعلىٰ قريشٍ منصباً وأرومةً ... وأشدّهم بأساً إذا احمرّ الوَغى
وأبرّ خلقِ اللهِ طُرّاً شخصُه ... وأجلّ من لبس العباءَة وارتدى
وأعزّ مَنْ لقيَ الوجود بنفسهِ ... شَرفاً وأكرم من علىٰ قدم مشى
مَن لا يُرىٰ في العالمين شبيهُه ... أبدَ الأبيدِ ولا يكونُ ولا يُرى
صلّىٰ الإلّهُ عليه من متعَظّمٍ ... ما لاحَ بدرٌ في الدّجُنّةِ أو سَرىٰ

فصل

من آداب مَنْ عَلِمَ أنّ نبيّنا ـ ﷺ ـ اسمه العظيم، وأنّه سَمّاه بذلك

(١) من بحر الكامل.

مولاه الكريم، أن يكونَ معظّماً لقدره ناصراً لدينه، متبعا لسنته[1]، موقّراً لأهل بيته، محبّاً في بَثّ شريعته، عالماً أنّ مَنْ عظّم قدره عظّمه الله، ومَن نصر شريعته نصَره الله، ومن جَبر قلبَ أهلِ بيتِهِ جَبره الله، ومَنْ تَواضعَ لرائحة المُنتسِبين إليه رفعَه الله، ومَن أكرمَ أمّةَ محمدٍ تعظيماً له أكرمه الله.

فَعظّمُوا ـ رحمكم الله ـ آثارَ نبيِّكم، ووقّروا مَن انتسبَ إلى حبيبكم، وتأملوا رحمكم الله أحوال أصحابه [١٦٣/ب] ـ رضي الله عنهم ـ وتوقيرهم له، وتعظيمهم وإكرامهم إياه، وتعزيرهم[2].

وكذا حال كلّ محبٍّ مِن أولياء الله المعظّمين لرسولِ الله.

يُحكىٰ عن الشّيخ وَليّ الله ـ في ظنّي أنه الشّيخ المرجاني[3] ـ رحمه الله، أنّه قال ذات يوم لأصحابه إنه سَيَردُ عليكم رجل لا رأسَ له[4]، أي لا تَكَبُّر فيه.

وكان من أصحابِ الشّيخ ولي الله سيدي أبي الحسن نفع الله الحاضرين ببركاتهم، فلمّا قدم الرجل علىٰ سيدي أبي عبد الله سَلّم عليه، وأقسم عليه أن يضع قدميه علىٰ خدّه لأنهما قريبا عهدٍ بديارِ الحبيب.

---

(١) في ب: محترماً لسنّته.

(٢) معنى عَزَره وعَزّره: أعانه وقوّاه ونصره؛ ووقّره وعظّمه. قال تعالى: ﴿لتعزّروه وتوقّروه﴾.

(٣) لقّبه المصنّف أيضاً بالشيخ وليّ الله في فهرسته (٩١) وهو: أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الملك البكري المرجاني التونسي؛ «من الفقهاء الصلحاء والعلماء العاملين» من أصحاب أبي الحسن الشاذلي. له عدد من المؤلفات. وتوفي سنة ٦٩٩.

(٤) استخلصوا معنى عدم التكبّر من عبارة (لا رأس له) على سبيل الكناية.

فامتنعَ القادمُ من ذلك، وما زال الشيخ يُقسم عليه حتىٰ أبرّ قَسمه، فوضع الشيخُ خدّه للأرض تواضعاً لله، ومَحبّةً في رسول الله، ودموعُه علىٰ خده، ووضع الشيخ الآخر قدمه على خدّه، وهو يستنشق آثارَ الحبيب، وكل ذلك تعظيماً لمنْ عَظّمه الله، وشوقاً إلىٰ لقاء حبيب الله.

وكان عمرو بن العاصي ـ رضي الله عنه ـ يقول[1]: ما كان أحدٌ أحب إلىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ ولا أجلّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عَيني منه إجلالاً له. ولو سُئلت أن أصفه لمَا أطقتُ لأنّي كنتُ لم أملأ عيني منه.

وكانُوا رضيَ اللهُ عنهم يعظّمون قدره، ولا يستطيعونَ أن يُحدّوا النَظَر إليه تعظيماً له، ويَجلِسُون حَوْلَهُ وكأنّ علىٰ رؤوسهم الطيّر.

وهكذا يجبُ عَلينا أن نُعظّم آثار نبيّنا وأحاديثه عند قراءتها، ونستحضِر خطابَه له، ونَقْلَهُ لنا عن رَبّنا، وأنّ حُرمته ميتاً كحرمته حيّاً.

فيجب الخضوع عند ذكره، وسَماع حديثه، وذكر سيرته قال إبراهيم النخعي[2] ـ رحمه الله ـ: واجبٌ علىٰ كل مؤمن منّا متىٰ ذكَره[3]، أو ذُكِرَ عنده أن يخضعَ ويخشعَ، ويتوقّر، ويُسكّن من حركته،

---

(١) نقل بعض الحديث صاحب الشفا ٢/٥٦٧؛ وهو من حديث طويل رواه مُسلم.

(٢) إبراهيم بن يزيد، أبو عمران، النخعي (٤٦ ـ ٩٦ هـ) من أكابر التّابعين صلاحاً وصدقَ رواية وحفظاً للحديث، كوفيّ.

ـ وفي النسخة ب و: ج إبراهيم التُجيبي. واشتهر من التجيبيين بالأندلس بالعلم جماعةٌ. وفي التراجم اسم إبراهيم بن إدريس التجيبي (كنيته أبو عمرو)، توفي٦٣٠ هـ قاض من شعراء الأندلس، من أهل مُرسية.

ـ وأرجّحُ ما في النسخة أ.

(٣) في ب، و: ج: واجب على كل مؤمن متى ذكره... الخ.

ويأخذ في هيبته وإجلاله بما يأخذُ به نفسَهُ لو كان بينَ يديه، ويتأدّب بما أدّبنا الله تَعالى به.

وهكذا كانت سيرةُ الصّالحين، والعُلماء العاملين ـ رضي الله عنهم أجمعينَ: قُلوبُهم متعلّقة ومعظّمةٌ لآثارِ حبيب علاّم الغُيوب، مُتَوسِّلين إلىٰ الله تعالى به في حُصولِ المرغوبِ، مُشتاقين في جميعِ أحوالهمْ إلى مُشاهدة آثارِ المَحْبُوب [١٦٤/أ].

قُولوا لأحبابنا قَرّتْ عيونكمُ ... فقد دَنتْ بحبيبي دِمْنَةُ الدّارِ[١]
إن تنظروا في وُقوفي نَحْوَ بابكمُ ... فسوفَ أنظرُ من بُعْدٍ إلى الدّارِ
الدارُ قاتلتي والحبُّ ساكِنُها ... لا عَذَّبَ الله مَنْ فِي الدار بالنّارِ
ما زالَ خدّي بباب الدّار مُلتزماً ... حتىٰ رثىٰ لي جِجارُ الدّارِ والجَارِ
النارُ عندكمُ والنّارُ في كبدي ... فإنْ هربتُ فمنْ نارٍ إلىٰ نارِ
يا سادتي زادت البَلْوىٰ عليّ فَمنْ ... هَمٍّ لِهَمٍّ وأفكارٍ لأفكارِ
إليكَ يا منتهىٰ الشكوى رفعتُ يدي ... كن منقذاً من بَلِيّاتي وإصراري
واجعَلْ صلاتَكَ يا مولايَ دائمةً ... علىٰ نَبِيِّ الهُدى والصَّحبِ الابْرَارِ

وصلّىٰ الله على سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً وزاده مولانا شرفاً وتعظيماً.

---

(١) من بحر البسيط.

باب

في معنىٰ اسمه

الجَبَّار (١)

صلّى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

الجَبّار: اسمٌ من أسمائهِ عليه أفضلُ الصّلاة والسّلام، سَمَّاه الله تعالى به في كتابِ داود عليه السّلام فقال فيه عزّ من قائل(٢)؛ تقلّدْ أيُّها الجَبّار سَيْفَك فإنّ ناموسَك وشرائعك(٣) مقرونةٌ بهيبة يَمِينك.

ومن أسمائه تعالى: الجَبّار(٤)، ومعناه في حَقّه سُبحانه: القاهر(٥). وقيل: المُصلح العليّ العظيم الشّان، القادرُ علىٰ ما يشاءُ بالدّليل والبُرهان، الّذي لا يُعجزه شيءٌ من خَلْقهِ، ولا يَشْغَلُه شأنٌ عن شان.

فَشقّ لنبيّهِ - ﷺ - مِن هذا الاسم ما سمّاه به، إظهاراً لمنزلتهِ، وبَياناً لِقَدْرِهِ.

---

(١) الجبّار في الشّفا ١ : ٣٢٧ والرّياض الأنيقة: ١٣٦ وسبل الهدى والرشاد ١، ٥٤٦.

(٢) النصّ في الشفا ١ ٣٢٧؛ قال: وسمّي النبي ﷺ في كتاب داوود بجبّار.

(٣) في ب وج وشرائعك؛ وفي أ: وشريعتك.

(٤) في سورة الحشر: ٢٣ ﴿المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلامُ المُؤمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ﴾.

(٥) في ب: القهّار.

ومعنىٰ الجبّار في حَقّه ـ عليه الصّلاةُ والسّلام ـ [1] المُصْلِحُ لأُمّته بالهداية والتعليم، والقاهر لأَعدائِه الكافِرين، والنّذير لهم من العَذاب الأَليم.

ويُحتمل أنّ الله تعالىٰ سَمّاه جَبّاراً لعلوّ منزلته علىٰ سائر البَشر، ولعظيم خَطرِهِ في قُلوب الخَلائق الأُنثىٰ منهم والذكر. فيرجعُ معناهُ إلىٰ معنىٰ التّعظيم. ولا يفهمْ بليدٌ أو غبيٌّ أن معنىٰ الجَبّار في حقّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ غيرُ ما ذكرنا[2]، لأن ذلك لا يليقُ بمنصبه، وهو مستحيلٌ في حَقّ أنبياء الله ورسله.

كيف وقد كانَ ـ ﷺ ـ بالتّواترُ القطعيّ رأسَ المُتواضعين، وإمامَ المُتّقين. فمعَ عُلوّ منصبه وبلوغ رِفعته وتمام رُتبته ما زاده ذلك إلا خُضوعاً لله، وتَواضُعاً مَع خلق الله فكان أشدّ النّاس [١٦٤/ب] تواضعاً، وأبعدهم عن الكبر، ذامّاً لأهله مُحبّاً للفُقراء والعَبيد والمَساكين، خافضاً جناحَهُ مع المُؤمنين ويقول[3]: إنّما أنا عَبْدٌ، آكلُ كما يأكلُ العَبْدُ، وأجلسُ كما يجلسُ العَبد.

هذا المعلوم من سِيرته، والمتواتر من طريقته ـ ﷺ ـ وعلىٰ آله.

فلا مَعنىٰ للجبّار في حقّه إلا أنه: المُصلح لأُمّته بطريق الهداية[4] القائم عليها بحدّ السيف حتىٰ ترجع عن الضّلالة والغواية، القائم[5] في

---

(١) أكثر هذه المَعاني في الشّفا بأسلوب القاضي عياض ١: ٣٢٨.

(٢) في ب: غير ما ذُكر. قال القاضي عياض: ونفى عنه تعالى في القرآن جبريّة التكبّر التي لا تليقُ به فقال تعالى: ﴿وَمَا أنتَ عليهم بِجَبّار﴾ [ق: ٤١].

(٣) الحديث في الشفا ١/١٨٨ ومناهل الصفا: ٥٤ وإتحاف السادة المتقين ٥: ٢١٤.

ـ وفي بعض الشّروح: إنما أنا عبدٌ؛ أي لستُ بسلطان.

(٤) في ب: بطريق أهل الهداية.

(٥) في أ: بجميع أمره.

جميع أمره بأمرِ الله القائل[1] «أُمِرتُ أن أقاتلَ النّاسَ حتىٰ يَقُولوا لا إلٰه إلاّ الله».

فسمّاه الله تعالىٰ جبّاراً لأنه قَهر به الجبابرة، وأذلّ به رقابَها، وخضَعت له الرّؤساء وألقتْ إليه قيادَها، وأعانَهُ الله تعالىٰ عليهم حتىٰ أظهر دينه، وتمّم يقينه؛ وأيّده ونصره في وقائعه مع أعدائه؛ فما قامت الحربُ علىٰ ساقها إلا وقد ظهر ـ عليه الصلاة والسلام ـ علىٰ الكافرين بالقَهْرِ لهم والانتقامِ منهم؛ وذٰلك ممّا اشتهر نقلُه وتواترَ أمرُه.

وجعله ـ سبحانه ـ مُؤيّداً ببركته بأبطالٍ من أصحابه الأكرمين. فقّهر شُجعان المُشركين، وقطعَ رقابَ المُنافقين، وما زال ـ ﷺ ـ معزّزاً بالنّصر، مَصحُوباً بالتّأييد والظّفر، غالباً لأعدائهِ بالإهانة والقَهر، حتّىٰ فتحَ الله تعالىٰ الفتح المُبين، وأظهر دينه على كُلّ دين.

خَرّج ـ أبو عمر الزّاهد[2] ـ في كتابه الياقُوتة[3]، عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قضيّةً ينشرحُ لها صدرُ كلّ مؤمن ويتنوّر باليَقِين، ويَشْرَقُ لها كُلّ قلب كافرٍ ومُنافق لعين. ولنختصر منها ما يلَيقُ ذِكره بهذا الاسم المبين، قال ـ رضي الله عنه ـ:

خبرني العبّاس فقال: يا بُنَيّ كُنّا في فتح مكّة عشرة آلاف من

---

(١) الحديث في صحيح البخاري ١: ١٣ ومُسلم (الإيمان ٣٢) ومسند أحمد ١: ١١.

(٢) هو محمد بن عبد الواحد أبو عمر الزاهد المطرّز الباوَردي (أو الأبيوردي) المشهور بغلام ثعلب (لكثرة ملازمته أستاذه ثعلب) أحد أئمة اللغة (٢٦١ ـ ٣٤٥) أكثر من التصنيف. وكان عمله التطريز فَعُرِفَ بالمطرّز. وكان وفاته ببغداد. طبع من مؤلفاته المُداخَل، وجزء في الحديث والأدب والعشرات.

(٣) ذكره ياقوت في معجم الأدباء باسم اليَواقيت، ونبه عليه الزركلي بالياقوتة وأشار إلى وجوده مخطوطاً.

المُقَاتِلين جنود الله ورسوله، ثم صِرنا - بعدُ - اثني عشر ألفاً ثم خَرجنا من مكّة إلىٰ حُنَين، فَبلغ ذٰلك مالك بن عَوف النَّصْري[1]، فجلبَ وحَزَّبَ حتىٰ استجاب له ثلاثون ألفاً، فلمّا قربنا قال الغُلام له، وكانَ حادَّ البَصر، فأخذ بيده، ورَقيا[2] إلىٰ عَقبةٍ كانت بيننا وبين القوم، فَرأىٰ الغلامُ كتيبةً مجتمعةً فأخبره.

فقال له: يا غلام! صِف لي تيجانها!

فقال له: تيجانُها حُمر.

فقال: هذه جُهَينة.

ثم قال: يا غلام! صِف لي ما وَراء جهينة [١٦٥/أ] قال له: يا مولاي، قد أَقبلت كتيبةٌ قريبةٌ من تلكَ إلا أنّها أكثرُ نشاطاً.

قال: ما تيجانها؟

قال: سُود.

فقال: هٰذه مُزَينة.

ثم قال: يا غُلام! ما وراءَها؟

قال: يا مولاي! قد أقبلت كتيبةٌ كأنّها أُسودٌ يَقْدُمها فارسٌ يتثنّىٰ على فَرَس كأنّه جانّ، بيده صفيحَةٌ كأنّها عقيقة، تحتَهُ فرسٌ تلعَبُ لَعِباً[3].

---

(١) مالك بن عوف النصري كان رئيس قومه هوازن يوم وقعة حُنَين. وقد أسلم مالك من بعد، وحَسُن إسلامه.

(٢) رَقَيا مثنى فعل رقى أي صعد. والعقبة: المرقى الصعب في الجبل، أو الطَريق في الجبل.

(٣) قوله في الفرس: تلعب لعباً أي هي في نشاط وقوّة بالغة. والعبارة على المجاز.

قال له: صِفْ لي تيجانَها.

قال له: أخلاط: سوادٌ وبياضٌ وحُمرة.

قال له: وَيْحَك أتَدْرِي مَنِ الرَّجُل؟

قال: لا، واللاّت والعُزّىٰ.

قال: ذلك الزُّبير[1] ابن صَفِيّة عمّة محمّد، وهو من فُرسان محمّد، وهو يُعَدّ بألفِ فارس.

أو تدري من الكتيبة؟

قال: لا يا مولاي.

قال: تلكَ كتيبةُ بَطحاء مكة، هي قُرَيش بعينها. صِفْ لي ما وراء ذلك.

قال: يا مَولاي قد أقبلتْ كتيبةٌ فيها انتشار.

قال: ويحك صِف لي تيجانها.

قال: صُفرٌ كلّها.

قال له: ويلك أتدري من هم؟

قال: لا.

قال: هؤلاء بنو قَيْلَة[2] هؤلاء كَرِشُ مُحَمّد[3]، يا غُلام! صِفْ لي من يَقْدُمهم؟

---

(١) هو الزّبير بن العوام رضي الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة.

(٢) بنو قيلة كناية عن الأنصار، وقيلة هي أم الأوس والخزرج (سبل الهدى والرشاد ١: ١٣١).

(٣) في الحديث: الأنصارُ عَيْبَتِي وكَرِشي، قيل مَعْناهُ: أنّهم جَماعتي وصَحَابتي الَّذِيْنَ أطلعهم على سِرّي وأثق بهم وأعتمد عليهم. وقيل أراد أنهم بطانته وموضع سرّه =

قال: يا مولاي رجلٌ رَبْعَةٌ عظيمُ الهامة، بعيدُ ما بين المنكبين، مُعلمٌ بِريشة نعامة، في يده حربة وكأنّها تحملُ على العَسكر.

قال له: أتدري مَنْ هٰؤلاء؟

قال: لا.

قال: ذلك أبو دُجَانة[1] من فُتّاك الأنصار. يا غلام! صِف لي ما وراءَ ذلك.

قال: كتيبةٌ عظيمةٌ، كأنّهم يشتدّون للحَمْلة.

قال: ومن يَقْدُمهم؟

قال: رجل فوق الرَّبعة، حسنُ الوَجه، مكشوفُ الرّأس بيده سيفٌ كأنّه صاعقةٌ، ينظر يميناً وشمالاً، وإلىٰ ورائه، ويُجِدُّ النَّظر بَيْنَ يديه؛ تحته جَوادٌ يسبَحُ سِبَاحة.[2]

قال: وَيْحَكَ يا غُلام! أتَدْري من ذلك؟

قال: لا يا مولاي.

قال: ذٰلك البابُ الأغضل، والأَسَدُ الأَصْول ذٰلك نَفْسُ محمّد،

= وأمانته والذين يعتمد عليهم في أُموره. واستعار الكرش والعيبة لذلك لأن المجتر يجمع علفه في كرشه، والرجل يضع ثيابه في عيبته.

(١) أبو دُجانة سماك بن خرشة الأنصاري: صحابي من الأبطال الشُّجعان. له أخبارٌ في الفُتوّة والفداء والشجاعة في معارك الإسلام. استشهد سنة ١١ باليمامة في حرب الردّة. وكان يلقب بذي المشهرة وهي درع كان يلبسها في الحرب وبذي السّيفين، لأنه قاتل يوم أحد بسيفه وسيف رسول الله ﷺ.

(٢) السباحة صفة من صفات جَرْي الفرس.

مُصَاص[1] المُصَاص (علي بن أبي طالب - ومعنىٰ مصاص المصاص - خاصّة الخواص)[2]، ثم قال:

يا غلام! ذلك ليث الجيش كُلّه، ذلك قاتِلُ شجاع العَرب، يا غلام! ذلك قاتل فَوارس اليهود، يا غلام! ذلك قاتل الصّناديد والسّود، ذٰلك فاضحُ الصُفوف، ذٰلك الرّامي بالحُتوف، ذلك مولودُ البَطْحاء، وسيّد مُضَر الحَمْراء. يا غُلاَمَ! لو كان هٰذا الغُلام معي لفتحتُ به المَشْرِق والمَغْرِب. يا غُلام! صِفْهُ لي [١٦٥/ب]!

قال: يا مولاي جاءَ الشّوك والشّجَرُ، والنّجمُ والقمر، والبَحْرُ والمَدَر، قال: ويحك صفهُ لي.

قال: جاءَ جيشٌ لا يكفّ أوّله، ولا ينكفُّ آخِرُه.

قال له: صف لي التِّيجان.

قال: يا مولاي كُلُّها خضر.

قال: يا غلام! هٰذه كتيبةُ محمّد الخَضراء التي تَعْلَقُ بها الجِبَالُ، وتُهْتَكُ بها الحِبال، يا غُلام! صِفْ لي الّذي في وَسطها.

قال: يا مولاي في وسطها قمرٌ يلوحُ، علىٰ رأسِه عِمَامَةٌ سَوداء، كأنّه قمرٌ خَرج من بين زِبْرِجَين[3].

قال له: يا غُلامَ! مالَكَ؟! والله قطعتَ ظَهري أتدري مَنْ هذا؟

قال: لا.

---

(١) مُصاص الشيء: سِرُّه ومنبته.
(٢) ما بين قوسين من ب! و: ج.
(٣) الزِّبْرِجُ: السّحابُ الرّقيق.

قال: ذٰلك الجبلُ الشّاهق والنُّورُ الشّارق، هٰذا سَيِّد العَرب والنُّضَارُ والذَّهب، هٰذا إذا تَكَلَّم أَفْهَم، وإذا فاخَر أَفْحَم، وإذا صمَت سَما، وإذا نطقَ عَلا؛ هذا صاحبُ العلمِ الطَّويل والكلام الجَليل؛ هذا الذي ليسَ أمرٌ إلا أمرهُ، ولا نهيٌ إلاّ نهيهُ. هذا الذي كسَّر الأصنام، وكفَّر الآباءَ والأجدادَ وسَفَّه الأحلام. هذا صاحب التَّوحيد، والكلام والتَّسديد. ثم قال: يا غلام! صِفْ لي العَسكر، فأخذ يصفُ سيره وصفته وعُدده ـ بكلامٍ اختصرناه لأجلِ طُوله فحذفناه ـ.

قال له: يا غُلام! ويحك! انزل، انزل، هلكتْ هوازنُ! لا هوازِنَ بَعْدَ اليوم!

قال العبّاس ـ رضي الله عنه ـ: فلما وقعت العينُ علىٰ العَين، واشتدّ الحَرب رمَتْ هَوازن علىٰ المُسْلِمين رميةَ رَجُلٍ واحِدٍ، فَتفرّق القومُ، وبقيَ النبيُّ ـ ﷺ ـ في سبعة.

فأمّا عليٌّ فبقيَ يُضارِبُ القَوم، وعن يمينه قُثَم[1]، وعن يَساره أبو سُفيان بنُ الحَارِث[2].

فقال لي قُثَم: يا أبتاه قد كَلَّ سَاعِدي، وَفُلَّ سَيفي، قلتُ له: كنْ مَعِي عند ركابِ نَبِيّ الله ـ ﷺ ـ.

ثم أتىٰ أبو سُفيان فقال: لقد جاهَدْتُ الجهد[3] في نُصرته، فقلتُ له: كُنْ عن يساره.

---

(١) قُثم بن العباس رضي الله عنهما توفي سنة ٥٧ غازياً في سمرقند.

(٢) وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رضي الله عنه (ابن عم النبي ﷺ) واسْمُه المغيرة. وكان أخا رسول الله ﷺ من الرّضاع. قاوم الدّعوة في أول أمرها حتى فتح مكة. ثم أسلم وحَسُن إسلامه وأبلى يوم حنين بلاءً حسناً. توفي سنة ٢٠ هـ.

(٣) في ب؛ و: ج: جهدت الجهد... كُنْ عند يساره.

ثم أقبل حبيبي عَلِيّ، وأنا قد يَئِستُ منه، قلت له: ما الخَبر يا أبا الحَسن؟ فقال لي لقد جاهدت حتىٰ بلغ مني الجهد، قلت له: كنْ عن يمينِه ـ ﷺ ـ، ثم قلت لهم: كونوا كلّكم من وَرائهِ ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقَدّموهُ أمامَ القوم. قال فأبصره رسولُ الله ـ ﷺ ـ يعني علياً ـ رضي الله عنه ـ وعمامته ـ عليه السلام ـ علىٰ رأسه وفي يده رُمحه الأطول، وفي يساره تُرسه المثوي، وعليه دِرعه الفَاضِلة، وهو متقلّد بسيفه. قال: وتحته بغلته الدُلْدُل[1].

قال العبّاس رضي الله عنه [١٦٦/أ]: لقد رأيتُ يا بنيّ الفرسان في الجاهلية والإسلام، ما رأيتُ ـ والله العظيم ـ أحسنَ من رسول الله ـ ﷺ ـ وهو فارس. فقصدَهُ المشركون بأجمعهم وكانوا ثلاثينَ ألفَ مُقاتل، فحَملُوا عليه فثبتَ، ثم حَملُوا عليه الثانية فثبت، ثم حَمل هو وَحْدَهُ عليهم عشرين خطوةً فانْهَزَمُوا.

قال لي: يا عُمَر ناوِلْني كفّاً من حَصباء الوادي؛ ثم رَمىٰ بها في وجوهِ القوم، ثم قال: شاهَتِ الوجوه! ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر: ٥٩/ ١٢] قال: فتكأكَؤُوا، وتجاحَمُوا، ونَكَصُوا، وعَقَّبُوا وغُنِمُوا، وكأنّهم موجٌ مكفوف!

ثم قال: يا عَمّ نادِ النّاس، فناديتُ يا أَهل سُورة البقرة! يا أصحاب الشجرة! يا من بايع محمداً تحت الشجرة! هذا رسولُ الله حَيّاً،

---

(١) في زاد المعاد ١: ١٣٠ ـ ١٣٢ «كان له سبعة أَدْرُع، ذات الفُضول وذات الوشاح وذات الحواشي والسّعدية وفضة والبتراء وخِرنق». وفيه: كانت له خمسة أرماح يقال لأحدهم المُثوي والآخر المُثني وحربة يقال لها النبعة وأخرى كبيرة تدعى البيضاء وأخرى صغيرة شبه العكاز يقال لها العَنَزة.

فنادت المهاجرة والأنصارُ وقلوبُهم معلّقةٌ برسولِ الله: لَبَّيْكَ لَبَّيك يا داعيَ الحَقّ.

ثم اجتمعت المُسلمون، ونادىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ يا لَلْمُسْلِمين، الآنَ حَمِيَ الوطِيْسُ، وحَمل المسلمون علىٰ الكفّار حملةً واحدةً، فانكفؤوا وانقَلَبُوا.

قال العبّاس: ما شبّهت المشركين في أيدي المُسلمين إلا كالجرادِ في أيدي الصّبيان، فكانُوا بين جَريحٍ وقتيلٍ وأسِير.

ثم جُمِعت الغَنائمُ في أقلّ من ساعة، فقد قَهر الله تعالىٰ أعداءَهُ ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ ونَصره عليهم. فكانَ اسم النَّبِي المختار: الجَبّار بمعنى أنه قاهِرُ الجبابرة، وقاتِلُ الضّراغمة[٢] الفاجرة، صلى الله عليه وسلم أفضلَ الصّلاةِ والسّلام، وشرّف وكرّم.

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ اسمه الجَبّار ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ بمعنىٰ أنّه قاهِرُ الظّالمين، والمذلّ لأعداء الدِّين أن يكونَ متخلّقاً بِخلُقه العَظِيم، مُتّبعاً لشرعهِ العظيم، ذليلاً على المؤمنين، عزيزاً علىٰ الكافِرين، مُظهراً أنَّ العِزّة لله ولِرَسُولِهِ وللمُؤمنين، متجبّراً علىٰ الجَبّابِرَةِ الظّالمين الكافرين.

(١) تكأكؤوا ازدحموا وتأخروا. وتجاحموا: تضايقوا (ضايق بعضهم بعضاً) ونكصوا: تأخّروا. وعقبوا: انصرفوا عن أمرهم الذي أرادوا. وغنموا من الغنيمة (صاروا وأموالهم وسلاحهم غنيمة).

(٢) يقال ضرغمت الأبطال وتضرغمت فعلت فعل الضرغام (الأسد) وتشبهت به.

وقد رُوي عن النبّي ـ ﷺ ـ أنه قال[1]: «إذا رأيتُم المتكبّرين فتكبّرُوا عليهم فإنّ ذٰلك صغارٌ وحَقارٌ لهم». وما أقْبح حالةَ المُؤمن تراهُ باذلاً نفسَهُ لمن يحقرُ الدّين[2]، ويتكبّرُ علىٰ الضّعفاء والمَساكين، طالباً بمحبّته عَرَضَ الدُّنيا المُبْعِدَةِ عن رَبّ العالمين؛ سيّما إنْ كانَ من الحامِلين لكتابِ الله العظيم [١٦٦/ب] والحافظين لسنّة نبيّه الكَريم، فإن فَعل ذٰلك فقد عَظّمَ حقيراً أو حَقّر عَظيماً.

فينبغي الخُضوع[3] والتّذلُّل وأن يكونَ مع مَن يَراهُ مُحِبّاً في جانب أهل الله، مُتَواضِعاً مع خاصّة أهل الله، هاضماً لنفسِه مَعهم، وإن كان عاصياً، مُحِبّاً في أهل الله وإن كانَ بذنبِهِ قاصياً، لأنَّ: مَع انكسارِ القلب وحُسنِ الاعتقادِ لأحبابِ الرّبّ يُرجىٰ الفَلاح، ويحصل إن شاء الله ـ بمنّه ـ الفَوزُ والنّجاح.

وينبغي لكَ أن تُعَظّم العُلماء، وتعظّم مَنْ أحبهم، وعَظمّهم لله وكرّمهم، فإذا أحببتَ العُلماء أحبّكَ الله، وإذا أبْغَضت العلماء أبغضك الله، وتَواضَعَ للفُقراء لأجلِ مَن استَعَزُّوا بهِ وهو العزيزُ الدائم، الذي افتقرت إليه الخَلائق، وهو برزقها قائم.

ولا تَقُلْ: هٰذا صادقٌ في فقرِهِ أو علمهِ فإنّ الأمر مُغَيّبٌ عنك، لكنْ لا بدّ من اتّباع السُّنّة، ومَذهب الجَماعة، فمن انتسب في فقره أو

(١) أورده الغزالي في إحياء علوم الدين ٣: ٣٤١؛ وهو في إتحاف السادة المتقين ٨: ٣٥٤ وتذكرة الموضوعات للفتني ١٩١. وقال العلامة العراقي في تخريجه إنه غريب.

(٢) يريد: ما أقبح حالة المؤمن الذي هذه صفته: تراه باذلاً نفسه لمن يحقر الدين... الخ.

(٣) في ب: نعما ينبغي الخُضوع.. الخ.

علمه لله فتَواضَعْ معه وابْتَغِ بذلك وَجْه الله.

واعـمـلْ عـلـىٰ بِـرّ الـفَـقـيـرِ ورَعْـيـهِ واحفَظْ لـهُ الـعَـهْـدَ الـوثـيـقَ بِـحُـبِّـهِ[1]
سَـلِّـمْ لـهُ فـي حـالـهِ مـعَ رَبّـه فـالـلّـه قـالَ لـعـبـدِه ونَـبِـيِّـه
أنـا عـنـدَ مُـنـكـسـرِ الـقـلـوبِ مـعـرّفـا
الـفـقـرُ نِـعْـمَ الـفَـنُّ أكـرم فـنّـهُ خـيـرُ الأنـام اخْـتـارَهُ واسْـتَـنَّـهُ[2]
طُـوْبـىٰ لـعـبـدٍ فـيـهِ حَـسَّـنَ ظَـنَّـهُ فـاحْـذَرْ مُـعـارضـةَ الـفـقـيـرِ فـإنّـهُ
إنْ صـاح أو إن نـاحَ بَـرّحَ بـالـخَـفـا[3]
فـلـكـم شَـكـا الآلامَ مـن أدوائِـه وبـكـى بـكـاءَ الـغـيـمِ مـن بَـلـوائـهِ[4]
وغَـدا يـعـضُّ الـكـفّ مـن لأوائـهِ[5] كـم هـتَّـكَ الأسـتـارَ فـي غـلـوائـهِ
ولـكـم أبـادَ مـن الـطُّـغـاة وأتْـلَـفَـا

وهكذا كانت صفةُ أصحابِ رسولِ الله - ﷺ - وقد وَصفه الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٤٨/ ٢٩].

فكانُوا - رضي الله عنهم - مُؤانسين متواضِعين راحمين. آخذين بقلوبِ المُؤمنين، جابِرين [١٦٧/أ] لقلوبِ المُنكسرين، أذلّة على المُؤمنين، أعزّه على الكافرين.

---

(١) من بحر الكامل.
(٢) استنّه: جعله سنّةً تُتّبع.
(٣) يقال بَرِحَ الخفاء أي ظهر الأمر ووضح وانكشف.
(٤) في ب: وبكى بكاء الغم.
(٥) اللأواء: الشدّة وضيق العيش.

نفعنا الله ببركتهم، ومَنَّ علينا بالصدق في محبتهم واتّباع طريقتهم، وأماتنا على مِلّتهم، وحَشرنا في زُمرتهم.

وصلّى الله على سيّدنا محمد إمام حضرتهم، وعلى آلهِ وسَلّم تسليماً، وزاده مولانا شرفاً وتَعظيماً.

باب

في معنىٰ اسمه

الفَاتِح (١)

صَلَّىٰ الله عليه وسَلَّم وشَرَّف وكَرَّم

الفاتحُ:[1] اسمٌ من أسمائه ـ عليه أفضلُ الصّلاة والسلام ـ سمّاه به مولاه ـ جلّ جلالُه ـ في حديثِ الإسراء من رواياتٍ مُختلفة تنتهي إلىٰ أبي هُرَيرة ـ رضي الله عنه ـ وأنّ فيها مِن قولِ الله تعالىٰ، وثنائه علىٰ نَبِيّه، وتحليتِهِ لحبيبِهِ أنْ قال له ـ عليه الصلاة والسلام ـ ربُّ العزة ذُو الجَلال والإكرام[2]: «وجعَلْتُكَ فاتِحاً وخَاتِماً».

وفي روايةٍ أُخرىٰ أنّه ـ ﷺ ـ لمّا أثنىٰ علىٰ ربه عزّ وجل، وعدّد نعمه عليه، ومَراتبه لديه فقال[3]: «ورَفَعَ لي ذِكري، وجَعلني فاتِحاً وخاتماً».

ومن أسماء مولانا: الفاتح، ومعناه في حَقّه ـ سُبحانه ـ: الحاكمُ بينَ عِباده وخَلْقِه يوم القيامة.

وقيل: فاتحُ باب الرّزق والرّحمة على خَلِيقته؛ أو فاتح ما انغلقَ

---

(١) اسمه ﷺ الفاتح في أسماء رسول الله ﷺ ٣٩ والشفا: ١: ٣٢٩ وسبل الهدى والرشاد ١: ٦١٠ والرياض الأنيقة ٢١٨.

(٢) أورده في الشفا ١/ ٢٤٠ و١/ ٣٢٩.

(٣) أورده في الشفا ١/ ٣٢٩.

عليهم من أُمورهم في الشّدائد ومُفَرّج الكُربات عَنهم، وقاضِي حَوائجهم وجالبُ الفَوائد لهم.

ويُحتمل أن يكون معناه فاتحُ قلوبِ الخَلْق وبَصائرهم بمعرفةِ الواحدِ الحَقّ.

وقيل: مَعْناهُ: ناصِرُهم ومانحُ النُّصرِ والفَتح لهم، وشقّ لنبيّنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ مِن هٰذا الاسمِ العظيم ما سمّاه ليجلَّه به، ويعظّمه في عَين خلقه.

ومعنى الفاتح في حق نبيّنا ـ ﷺ ـ[1] الحاكم بين الخلق بما أراه الله، والفاتح أبواب الرحمة على خلق الله سبحانه رحمة للعالمين، والفاتح لبصائر الخلق أجمعين.

ويحتمل أن يكون الفاتح في حقه بمعنى أنه ناصر للحق، مبذل جهده في ظهوره، جادّ في طاعة ربه في جميع أموره.

ويحتمل أن يكون قوله: فاتحاً، معناهُ مُهتدياً لهدايةِ الأُمّة ومُبيّناً لها الحقائق وهاديها إلى الطّريق [١٦٧/ب].

ويحتمل أن يكون قوله: «فاتحاً خاتماً» راجعاً لقوله ـ عليه الصلاة والسلام[2] ـ، «وكنتُ أوّل الأنبياءِ في الخَلْقِ وآخِرَهُم في البَعث».

ويُحتمل أن يكون معنىٰ قوله ـ ﷺ ـ فاتحاً خاتماً: أنّ أصلَ البركات والخيرات التي أظهرها الله تعالى في العالم العلويّ والعالم السُّفليّ، وعالم الدُّنيا والآخرة مبدأها ومنتهاها، إنّما أعطاها الله سبحانه

---

(١) ينظر ما في الشفا.

(٢) في الشفا؛ وفي الفتح الكبير ٢: ٣٣٣ «كنت أوّل الناس في الخَلق وآخرهم في البعث».

لخلقهِ من أنوار نبيّه، وأسرار صَفِيّه، فكان لكلّ موجودٍ سوىٰ الله تعالى وصفاته: فاتحاً لخيراتهِ خاتماً لبركاته ـ ﷺ ـ فيكونُ معنىٰ كونهِ فاتحاً: أنه مبيّنٌ لِمَا صَعُب فَهمُه، وبَعُد علمه.

وإلىٰ ذلك أشار عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في صلاته، فَلنذكرها لبركتها، قال رحمه الله: «اللهمّ داحي المدحُوّات وبارىء المسموكات اجعلْ شرائف صلواتك[١]، ونَوامي بركاتك، ورأفة تحنّنك علىٰ محمد عبدك ورسولك الفاتح لما أُغلق والخاتم لِمَا سَبق والمُعلن الحقّ بالحق» ـ فانظر بقيّتها في كتاب الشّفا ـ.

وقد تَعَرّضْتُ لشرحها في تقييدٍ عليها راغباً بركتها وفضلها[٢].

فإن قلت: معنىٰ الفاتح في حقّه: الناصر، فقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ في غاية الجِدّ في نصرِ دين الله سبحانه مع ما ناله من المَشاقّ وهو صابرٌ حتّى أتمّ اللهُ أمرَه، وصَدق وَعْدَه؛ فما زاده عُتُوّ قومِهِ وفسادُهم إلا جِدّاً في تبليغ رسالاتِ رَبّه، ورحمةً عليهم وشفقةً بهم.

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ـ ﷺ ـ[٣]: لقد أخفت في الله وما يَخاف أحد، ولقد أُوذيت في الله وما يُؤذى أحد، وقد أتت عليّ ثلاثون ما بين يومٍ وليلةٍ أُوذيت في الله ومالي وبلال طعامٌ يأكلهُ ذو كبدٍ إلاّ شيئاً يُواريه إبطُ بلال.

وحقّ له ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يسمّى فاتحاً وناصراً لأنّ

---

(١) في أ: داحي الموجودات وبارىء السّماوات اجعل شريف صلاتك.

(٢) هذا يضيف كتاباً إلى ثبت مؤلفات الرّصّاع وتصنيفاته (تنظر مقدمة محقق فهرسته).

(٣) الحديث في مسند الإمام أحمد ٣: ٢٨٦.

نصرتَهُ لدين الله، ورَحمته بخلق الله قد وَقَفْنا عليه وقَصَدنا لديه.

ولمّا أنْ وَقف وحده يدعُو إلىٰ اللهِ - سبحانه - وإلىٰ إظهار دينه، وليسَ علىٰ وجه الأرض مَنْ يعبدُ الله وحدَه، فشمّر[1] - عليه الصّلاة والسّلام - [١٦٨/أ] عن ساقِ الجِدّ، وأمر الخلائق أن يقولوا: «لا إلَه إلاّ الله»، ونكّسَ أصنامَهُم، وسفّه أحلامَهُم ومَزّق جَمْعَهُم، فجاء المُشركون إلىٰ عمّه أبي طالب[2]، وشَكَوْا له ما وَقع بهم وما نالوا من ابنِ أخيهِ من المَكارهِ، وجِدّه في نَهيهم عن عبادةِ آلهتهم؛ فقال أبُو طالب:

«يا ابنَ أخي إنّ قومكَ قد جَاؤوني، فقالُوا لي كذا وكذا فأَبْقِ علىٰ نفسك ولا تحمّلني ما لا أُطِيق»[3].

فظنّ رَسُول الله - ﷺ - أنه قد بَدا[4] لعمّه في نصرته، وقد كان أبو طالب ينصرُه ويُعينه علىٰ قومه فقال عليه الصلاة والسلام[5]: «والله يا عَمّاه لو وضعوا الشمس في يَميني والقمر في يَساري علىٰ أن أترك هذا الأمر ونصرة الله حتّىٰ يُظهره الله أو أهلكَ دونه ما تركته».

ثم استَعْبَر - ﷺ - وبكىٰ رحمةً وشفقةً علىٰ عَمّه وقومه. ثم قام؛ فناده أبو طالب فقال: أقبِلْ يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أُسلمك أبداً.

ثم إنّ نبيَّ الله - ﷺ - قام ذاتَ يوم، وأرادَ أن يصلّيَ في

---

(١) الوجه أن يقول: شمّر... الخ.

(٢) الخبر مشهور في كتب السيرة، وهو في سبل الهدى والرشاد:

(٣) في ب: فأبقِ على نفسِك وعليّ ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق».

(٤) بدا له أي غيّر رأيه وموقفه منه.

(٥) سبل الهدى والرشاد ٢: ٤٣٧.

الكعبة[1]، فقال أبو جهل ـ لعنه الله ـ «مَن يقومُ علىٰ هذا الرّجل ويُفسد صلاته» فقام القومُ الأشقياء إلىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ، فلقيَ رسول الله ـ ﷺ ـ عَمّه، فشكا له.

فقام عَمُّه أبو طالب فوضع سيفَهُ علىٰ عاتِقِهِ، ومشىٰ معه حتىٰ أتىٰ القَوم، فلمّا رأوا أبا طالبٍ قد أقبل، جعلَ القومُ ينهضون، فقال أبو طالب:

«والله لئن قام رجل لجلدتهُ بسيفي».

ونصره أبو طالب عليهم، ولطمَ وُجوههم ولِحَاهم بالفَرْث والدَّم، فأنزل الله تعالى على نبينا ـ ﷺ ـ قوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٦/٢٦] فقال النبيّ ـ ﷺ ـ: يا عَمّ نزلتْ فيكَ آيةٌ قال: وما هي؟ فذكر له الآية، ثم قال: «تَمْنَعُ قريشاً أن يُؤذوني[2]، وتأبىٰ أن تؤمن بي»؟ فقال أبو طالب:

والله لن يَصِلُوا إليكَ بِجَمْعِهِمْ ... حتىٰ أُوَسَّد في التُّراب دَفِينا[3]
فانهضْ لأمركَ ما عليك غضاضةٌ ... أبشر بذاكَ وقَرَّ منك عيونا[4]
ودعوتَني وزعمتَ أنّكَ ناصحٌ ... فلقَدْ صدقْتَ وكنتَ قبلُ أَمِينا
وشرعتَ دِيناً قد عرفتُ بأنّه ... من خير أديانِ البريّةِ دَيِنا[5]
لولا الملامةُ أو حذار مَسبّةٍ ... لوَجَدْتَني سَمحاً بذاكَ يَقِيْنا

---

(١) الخبر بطوله في تفسير القرطبي ٦: ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

(٢) في القرطبي: أن تؤذيني.

(٣) من بحر الكامل.

(٤) الغضاضة: الذلّة والمنقصة.

(٥) سقط البيت الرابع من أ. ورواية القرطبي: وعرضت ديناً.

[١٦٨/ب] فإنا لله وإنا إليه راجعون. وارحمتاه أبا طالب، نَصر واستنصر، وأحَبّ واستَعبر، ولم يجرِ بإيمانهِ القَدر، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦/٢٨] ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٤]، فالحمدُ لله علىٰ نِعمة الإسلام، والتّصديق بألسنتنا وقُلوبنا بالنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أدام الله عَلينا نعمته وتمّم علينا عافيته، حتىٰ نلقاه سالمين مُسلمين بفضلهِ ورحمتِه.

فصل

مِن آداب المحب، العالم بأن نبيّنا محمداً ـ ﷺ ـ من أسمائه: الفاتح بمعنىٰ الناصر. أو بمعنىٰ ما ذكرنا مِن معانِيه أنْ يكونَ متخلّقاً بمعاني هذا الاسم الكريم، متّبعاً لنبيه العظيم في نصرهِ ورحمتِهِ وشفقته وفَتْحهِ للبَصائِر الغَافِلة، والقُلوب العامية، ناصِراً للمَظْلُوم، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام[١] ـ «انْصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً» فالمظلوم تخلصه من ظالميه، والظالم تأخذُ علىٰ يدهِ وتَعِظُه وتَزْجُره وتردُّه إذا استَطَعْتَ عن ظُلمه.

وإن كان الفاتحُ في حقّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ هدايته للبَصائر الغافلة، والقُلوب العامية[٢]، فينبغي التخلق به في فتح المَعاني علىٰ قُلوبِ العبادِ وهِدَايتهم إلى طَريق الرّشاد.

---

(١) الفتح الكبير ٣: ١٨٧ عن الدارمي وابن عساكر. وهو في البخاري ٣: ١٦٨ ومسند الإمام أحمد ٣: ٩٩. وللحديث تتمة مشهورة.

(٢) في أو ب: القلوب العامية؛ يريد العمية.

وبالجملة: فكل ما يُدخل به المؤمنُ علىٰ المؤمنِ من السُّرور، ممّا يقرّبهُ إلىٰ الله فإنه مِن أحبِّ الأعمال إلى الله.

وإدخال السُّرور علىٰ المؤمن: أن تُفرّج عنه غَمّاً، أو تقضي عنه دَيناً، أو تُطعمه من جُوعٍ. قال عليه الصّلاة والسلام[1] «مَن حمىٰ مُؤمناً من منافقٍ يعيبُه بعث الله له ملكاً يحمي لحمهُ يَوْمَ القِيامة من نارِ جَهنّم».

وقال ـ ﷺ ـ[2]: «خَصْلَتان ليسَ فَوقَهما شيء من الشرّ: الشّرك بالله والضّرّ لعباد الله، وخَصلتان ليس فوقهما شيء من البِرّ: الإيمانُ بالله والنّفع لعبادِ الله».

روي عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال[3]: «من فرّج عن مؤمنٍ كربةً أو أعان مظلوماً غفرَ الله له ثلاث مئة وسبعين مغفرة».

فهذه الخصال كل منها فتحٌ مِنَ الله، فكلّ من اتّصف ونفع بها مؤمناً أو مؤمنةً فقد تخلّق باسمِ الفاتح[4] ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأنّ هذه طريقته وهديه وسيرته، وطريقة أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ فعليكم بالاقتداء بهم، والتشبّه بطريقتهم.

---

(١) مسند الإمام أحمد ٣: ٤٤١، وإتحاف السّادة المتقين ٦: ٢٩٣. وزاد في المسند: ومن بغى مؤمناً بشيء يريد به شينه حبسه الله تعالى على جسر جهنّم حتى يفرج.

(٢) إحياء علوم الدين: ٢٠٨، وإتحاف السادة المتقين ٦: ٢٩٣. ووردت أحاديث في هذا المعنى (ينظر مثلاً باب فضل قضاء الحوائج من مجمع الزوائد) ٨: ١٩٠ ـ ١٩٤.

(٣) إحياء علوم الدين ٢: ٢٠٨. وانظر الحاشية السابقة.

(٤) في ب: باسمه الفاتح.

بهم نَصُول ونلقىٰ كل مُعضلةٍ وهم موانِعُنا[1] من ظلمِ كُلِّ جَرِي[2]
قد خَصّهم كلّ ما عاشوا كرامته وبالثناء الجميلِ الطيّبِ العَطِرِ
بجاهِ أحمدَ خيرِ الخلقِ كلّهم، وصَحبه الحُنَفاء السّادةِ الغُرَرِ
سَيجمع الشّمل مِنّا في الجنانِ غداً علىٰ الأرائكِ والأكوابِ والسُّرُرِ

وصلّىٰ الله علىٰ سيّدنا محمّدٍ وعلىٰ آله وصحبه وسلّم تسليماً، وزادَهُ مَولانا شَرفاً وتعظيماً.

(١) في ب، و: ج: وهم موانعها.
(٢) من بحر البسيط.

باب

في معنىٰ اسمه

الشَّكُور

صلَّىٰ الله عليه وسلَّم وشرَّف وكرَّم(١)

الشَّكُورُ: اسمٌ من أسمائه ـ عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام؛ وصف به نفسه ﷺ فقال(٢): «أفلا أكونُ عَبداً شَكُوراً».

ومن أسمائه تعالىٰ: «الشَّكُور»(٣).

ومعناه في حقه سبحانه: المثيب علىٰ العمل القليل، بالفضل الجزيل، لأنه الكريم الذي لا تفنىٰ خزائنه، ولا تنقضي عطاياه ومواهبه.

وقيل: إنّ معنىٰ أنّه شكورٌ ـ سُبحانه ـ لأنه مُثْنٍ علىٰ عباده أهلِ الطّاعة بثنائه الجميل، وذاكِرُهم بكلامِهِ العظيمِ الجليل.

ومعناهُ في حقّ نبيّه وصَفِيّه ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ أنّه المُعترف

---

(١) الشكور في الشفا ١: ٣٢٩.

(٢) الحديث في صحيح البخاري ٢: ٦٣ و٦: ١٦٩ و٨: ١٢٤ وفي صحيح مسلم ٤: ٢١٧١ وسبل الهدى والرشاد ١: ٥٨٥.

(٣) قال تعالى: ﴿فإنّ الله شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨] وقال ﴿إنّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٠].

ـ وعبارة: «المثيب على العمل القليل» في شرح الشكور من الشفا.

بنعم رَبّه العارف بجلب الخَيْرِ له منه، المعظّم لقدره، المُجهد نفسَهُ في طلبِ الزّيادة والمَزِيد من المولىٰ لعبده.

فكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ أعْبَدَ الخلقِ لربّه؛ وهو مع ذٰلك طالبُ الزّيادة والمَزِيد في قُربه.

وفي حديث المُغيرة ـ رضي الله عنه ـ قال[1]: قام رَسُول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه؛ وفي روايةٍ: كان يصلي حتىٰ تورمت قدماه، فقيل له: تتكلّفُ هٰذا وقد غُفِرَ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخّر؟ فقال: «أفلا أكونُ عَبداً شكوراً».

وقالت عائشةُ ـ رضي الله عنها[2] ـ كان عَملُ رسول الله ـ ﷺ ـ دِيْمَة، وأيُّكم يطيق ما كان يُطيق؟ قالت: وكان يَصُوم حتىٰ نقول لا يُفطر، ويُفطر حتىٰ نقول لا يصوم.

قال أنس ـ رضي الله عنه ـ[3] كنت لا تشاء تراهُ مِنَ الليل مصليّاً إلاّ رأيته مصليّاً، ولا نائماً إلاّ رأيته نائماً [١٦٩/ب].

ومن شكره ـ عليه الصلاة والسلام ـ تقلّله من الدُّنيا وزهده فيها، وكراهيته لها، عالماً حقارتها ومَذمّتها، فلا يتخذ من أكلِها ولباسها إلا ما

(١) سبق الحديث، انظر الحاشية (٢) من هذا الباب.
(٢) البُخاري ٣: ٥٥ و٨: ١٢٢ ومسلم في صلاة المسافرين برقم ٢١٧ وفي النهاية واللسان: أن عائشة رضي الله عنها سئلت هل كان رسول الله ﷺ يفضّل بعض الأيام على بعض؟ وفي رواية أنها ذكرت عمل رسول الله ﷺ فقالت: كان عمله ديمة. شبّهته بالديمة من المطر في الدوام والاقتصاد (دوم).
ـ وينظر الموطأ ١: ٣٠٩ ومسند الإمام أحمد ١: ٢٢٧. والشفا ١/ ١٨٦.
(٣) الشفا ١: ١٨٦.

يُعينه علىٰ شُكره، ويليقُ بعبوديّته.

قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ[1]: إنما كان فِراشُه الذي ينام عليه أدماً، حَشْوه لِيف.

قالت حفصةُ ـ رضي الله عنها ـ[2] كنّا نَثْنِي فراشه ثنتين فَينامُ عليه، فثنيت له ليلة بأربع فلما أصبح قال: ما فَرشْتُم ليَ الليلة؟ فذكرنا لهُ ذٰلك، فقال: رُدّوه لحالِهِ فإنّ وَطاءته مَنعتني اللّيلةَ صلاتي[3].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت[4]: لم يمتلىء جوفُ رسول الله ـ ﷺ ـ شِبَعاً قطّ، ولم يَبُثّ شكوىٰ إلىٰ أحدٍ، وكانت الفاقَةُ أحبَّ إليهِ من الغِنىٰ. وإنْ كان ليظلُّ جائعاً يلتوي طولَ ليلته من الجُوع؛ فلا يمنعه صيامُ يومه، ولو شاءَ سأل ربّه كنوزَ الأرض وثمارها ورَغد عيشها. ولقد كنتُ أبكي له رحمةً ممّا أرىٰ به، وأمسحُ بيدي علىٰ بطنهِ ممّا أرىٰ به من الجُوع، وأقول: نفسي لك الفداء، لو تبلّغْتَ من الدُّنيا بما يقوتُكَ فيقول: يا عائشة! ما لي وللدنيا؟ إخواني من أولي العَزم من الرُّسل صَبروا علىٰ ما هو أشدّ من هذا فمضَوا علىٰ حالهم، فَقَدِمُوا عَلىٰ ربّهم، فأكرم مآبهم وأجْزل ثوابهم؛ فأجدني أستحيي إن ترفّهتُ في معيشتي أن يُقصّر بي غَداً دونهم، وما مِن شيءٍ هو أحبّ إليّ مِن اللّحوق بإخواني

(١) الشفا ١ : ٢٨٨؛ والأدم: جلدٌ مَدْبُوغ ليّن.

(٢) الشفا ١ : ٢٨٨.

(٣) رواه الترمذي في الشمائل منقطعاً. وفي نسيم الرياض (شرح الشفا للخفاجي) حديث السيدة حفصة رضي الله عنها لا ينافي حديث عائشة رضي الله عنها المتقدّم لجواز أنّ كلاً منهما ذكرت فراشه الذي كان عندها.

ـ ومعنى وطئه أي ليّنه.

(٤) الشفا ١ : ٢٨٨.

ـ ومعنى بثّ الشكوى: ذكرها.

وأخلائي.

قالت: فمَا أقام بعد إلا شهراً وتوفي رسولُ الله - ﷺ -.

فأشارت عائشةُ - رضي الله عنها - إلىٰ أنّ حاله في صبره إنما كان شُكراً لله علىٰ ما أولاه من نعمةٍ، مع تمكنه من الدّنيا بطلبه من مَولاه - سبحانه وتعالىٰ - إكراماً له وإظهاراً لمنزلته عنده، وبياناً لقدره ومبالغة في شكره.

وتأمّلُوا جوابه - ﷺ - لعائشة رضي الله عنها - وما اشْتمل فيه من مكارم أخلاقه، وتواضعه، وحسن أدبه مع رُسلِ الله تعالىٰ، وأنبيائهِ مع عِلمه بأنّه أساسُ الشاكرين، ورأسُ الصّابرين، وإمامُ الزاهدين. ومع هذا فَرأىٰ نفسه دُونهم، وطلبَ اللّحوق بهم والوصولَ إلىٰ مَنازِلهم.

هكذا كمالُ الفخار ومنزلة سيّد الأبرار في شُكره وصبره وَجِدّه في طاعة رَبّه [١٧٠/أ] ولله درُّ القائل:

كـلُّ الـمـكـارمِ هُـنّ طَـيُّ بُـرودهِ ... ولـقـد أضـاءَ الـكـونُ عـنـد ورُودهِ[١]
والـبـحـرُ يـقـصـرُ عـن مَـوارِدِ جُـودهِ ... إنـسـانُ عـيـنِ الـكـونِ سِـرُّ وجـودهِ
يـسّ إكـسـيـرُ الـمـحَـامِـد طَـه[٢]

---

(١) من بحر الكامل.
- البرود جمع البُرد، وهو الثوب. وقوله إن المكارم طيّ بروده كناية عن حيازته تلك المكارم وتحلّيه بها.

(٢) الأصل في معنى الإكسير: الكيمياء. وأطلقوه على حجر الفلاسفة الذي زعموا أنهم به يحولون المعادن الخسيسة إلى نفيسة.
- ومقصد الشاعر أنه ﷺ جمع المحامد من أطرافها.

كـانـتْ حَـمـامُ الـغـار بـعـضَ حُـمـاتـهِ　　والـذّئـبُ في البَـيـداء بـعـضُ دُعـاتـه[1]
مــاذا أعـــدّد مـــن جـــلالـــةِ ذاتـــهِ　　حَـسـبِي فـلـسْـتُ أَفِي بـبـعـضِ صـفـاتِهِ
ولَـــوَ أنَّ لِـــي عـــددَ الـــحَـــصـــىٰ أفْـــوَاهـــا

حكـمُ الـشّـفـاعـة فـي يَـديـه وأمـرهـا　　وغَـــزالـــةٌ نـــادَتْـــهُ أذهـــب ضـــرّهـــا
والـرُّوحُ حـيـن أتَـتْـهُ شَـرّف قَـدْرَهـا　　كَـثُـرت مـحـاسِـنُـه فـأعـجـز حَـصْـرَهـا
فـــعـــدَتْ ومـــا تَـــلْـــقـــىٰ لـــهـــا أشْـــبـــاهـــا

فصل

مِن أدابِ المُحِبّ لهذا النبيّ العظيم، والرّسُولِ الكريم أن يكونَ مُتبعاً له في شُكره وحمده جادّاً في طاعةِ رَبّه. والشكرُ مقامٌ عظيمٌ من مقامات النَّبِيّين، وصفةٌ من صِفاتِ أهلِ المعرفة والتمكين، وله أقسامٌ كثيرةٌ، ومقاماتٌ عظيمة.

وبالجُملة: فشُكر مَولانا واجبٌ علىٰ الخليقة؛ لأنّه ـ سبحانه ـ المُنعم علينا، بوصول النِّعم إلينا، فليس في العالم موجودٌ إلا وهو منعَمٌ عليه بفضلِ الله.

قال الله العظيم في كتابه الكريم: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١٦/٥٣].

وما مِن آية خلقها الله تعالى في سَماواتِهِ وأرضِهِ ظهرت لنا، أو خَفِيت عنّا في دلائل الآفاق، ودلائل الأنفس إلا وفيها نِعمة عظيمةٌ علىٰ النّوع الإنسانيّ، ويجبُ شكره بها[3].

---

(١) في هذه التخميسات إشارات إلى بعض معجزاته وخصائصه ﷺ.
(٢) في أ: «رحمة عظيمة على النوع...».
(٣) يريد شكره بسببها.

فتأمّلْ ـ رحمكَ الله! ـ إلى ظاهِر الإنسان وباطنه، وإلىٰ تركيبه وأعضائه، ويديه وصفاته؛ لترىٰ ما فيها من النّعم والصّنائع العجيبة كلها من صُنع الله ونعمته.

فتذكروا نِعَمَ[1] الله عليكم كيف زَيّن ظاهركم وباطنكم، وأحسنَ صُوركم وألوانكم؛ فانْظروا إلى عيُونكم وأبصاركم كيفَ أنعم بها ربّنا عليكم مع غفلتكم.

وتأمّلوا كيفَ فتح العينين، وركّب طباقهما، وأحْسَن تشكيلهما، ولَونهما ونُورهما، ثم حَماهُما بالأجفانِ لِيَسْتُرهما من الآفات [١٧٠/ب] ويصقُلهما من الآفات.

واستَحْضِرُوا نعمة الله عليكم مع مَن أذهب بصره وعينه، تَعْلَمُوا مقدارَ نِعمة الله عليكم. وكذا نعمة الأنف وفتح المنخرين فيه، وشكلهما، وشقّهما، وتجويفهما، وإدراكهما للشمّ، وجعلهما لدخول النَفَسِ وخُروجه، وما في ذٰلك من النّعم.

وكذلك كلّ جزء من أجزاء الإنسان فيه من النّعم ما لم تقدروها، وإن تعدُّوا نعمة الله لا تُحصوها.

وتمّم الله ـ سبحانه ـ علينا نعمتَهُ بأنْ بَعث إلينا رَسُولاً من أَنفُسنا وأنْفَسِنا، عظيم الشفقة، كثير الرّحمة لنا، جمع فيه المحاسن كلّها من شُكره وحَمده وزُهده، وصَبره، ووَقاره وخَلقه وخُلقه وعلمه بربّه، وحُسن صِفَتِه وهَدْيه ـ ﷺ ـ وجَزاه عنّا أفضلَ ما جَزىٰ به أحداً من خلقه.

فاشْكُروا الله علىٰ ما هَداكم، واحْمَدُوه علىٰ ما أولاكم. وشُكره

---

(١) في أ: نعمة الله عليكم.

تعالىٰ بِحُسن الثّناء عليه باللّسان. وامتلاء القُلوب من خوفه في السرّ والإعلان، والوُقوف عند حَدّه، وسُنّة نبيّه الشكور - ﷺ - في جميع الأزمان.

وليس المُراد بالشكر باللّسان فقط، بل بالجوارح والأركان، والقيام بحقوقِ المَلِك الدّيان.

فمَنْ أنعم الله تعالى عليه نعمةً وشَكَرها؛ فَشُكرُهَا قيدٌ لها وبقاء لِوُجُودِهَا؛ لأنَّ علىٰ قدر العبادة والشفقة على خَلق الله على قَدْرِ إنعام الله[1].

ومن رأيتَهُ معرضاً عن الله، ومُؤذياً لخلق الله فلا تَغْتَرنّ بالنعمة التي أنعم بها - سبحانه - عَليه فإنّما هي نقمةٌ في حقّه، ووَبالٌ عَليه وإنْ زالتْ عَنه في الدنيا قَلّ أن ترجعَ إليه، وعُقوبتها في الآخرة أشدُّ من ذٰلك كلّه لديه.

أيْقَظنا الله من الغَفلة عن شُكر نَعمائه، ووَفّقنا لاتّباع طريقِ أحبابه، وجَعلنا من المتوسّلين إليه بأنبيائه، ومَنّ علينا بشكر نعمه وآلائه ببركة أصفيائه وأوليائه.

ونقول كما قالَ بعضُ أولياءِ الله في قصيدته وقد توسل إلىٰ نبي الله - ﷺ -.

إلـيـكَ رسـولَ الله بـالـمـدحِ أرجـعُ ... وأشـكـو بـأحـوالـي إلـيـك وأرفـعُ[2]
تـوسّـلـت لـلـبـاري بـجـاهـكَ إنّـه ... عَظِيـمٌ وفي كـلّ الـمـهـمّـات يـنـفـعُ
جـعـلـتُ دَوا دائـي ثـنـاءَك إنّـهُ ... شـفـاءٌ بـه يَـبْـرا الـفـؤادُ الـمُـوَجّـع

(١) كذا. والمُراد: على قدر العبادة والشفقة على خلق الله يكونُ إنعام الله.
(٢) من بحر الطويل.

وصَيْرته صَوناً وحصناً لِمُهجتي وعَوْناً به كلَّ الشدائد أدفعُ [١٧١/أ]
إذا اشتدّ أمرٌ أو تعرّضَ حادثٌ أو انسدَّ بابٌ أو تَوعّر مَهْيَعُ
وإن ضاقَ بالهَيْمان متّسعُ الفَضا بِمَدْحِكَ يا خيرَ الوَرىٰ يتوسّعُ
وإن كنت لي فيما أؤمّل عدّةً ظفرتُ وأحظىٰ بالّذي أنا أطمعُ
وإن طاعَني فيكمْ لساني وخاطري فَنُجْحي بعونِ الله لا شكَّ أطوعُ
عياذي! مَلاذي! أنتمُ عند شدّتي وسُؤلي ومَرغُوبي بكمْ أتضرّعُ
ثناؤكَ في سَمعي لذيذٌ وفي فَمِي وحبّك في قَلبي له اليومَ موضِعُ
عليك سَلامُ اللهِ ما فاهَ ناطِقٌ بذكركَ يا مَنْ جاءَ بالحقّ يَصْدَعُ

وصلّىٰ الله على سيّدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه، وسَلّم تسليماً، وزاده مولانا شَرفاً وتعظيماً.

باب

في معنىٰ اسمه

العَلِيم (١)

صَلَّى الله عَليه وسَلَّم وشَرَّف وكَرَّم

العليمُ: اسم من أسمائه ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ جَعله الله تعالى وصفاً لنبيّه، وخصّه بمزيّةِ العِلم، وأعطاه منه ما لم يُعط أحداً من خلقه، وأثنىٰ عليه في كتابه، فأظهر فضله ـ ﷺ تسليماً ـ فقال سُبحانه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤/ ١١٣].

وجَعله ـ سبحانه ـ بعلمِه معلّماً لخلقه، باثّاً لهم ما مَنَّ بِهِ عليه مولاه، وفضّله بسببه علىٰ من سواه، قال الله العظيم في وصف نبيّه الكريم، وتشريفاً لكم أيُّها المؤمنون: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٥١].

وكانَ مِن أسماءِ مَولانا ـ جلّ جلاله ـ: العَليم، وعلاّم الغُيوب، لأنّ علمه ـ سبحانه ـ محيطٌ بجميعِ المخلوقات، متقدّسة صفاته عن صفات المَوجُودات، فحلّىٰ ـ سُبحانه وتعالىٰ ـ نبيّه وحبيبه وصفيّه وخليله ـ عليه الصلاة والسّلام ـ ووَصفه وشقّ له من اسمهِ تَعظيماً لمنزلته،

---

(١) اسمه ﷺ العليم في: الشفا ١ : ٣٣٠.

وتَشريفاً لمكانته. وقد علّمه الله تَعالىٰ علمَ الأوّلِين والآخِرين، وأعطاهُ من الحكمة ما لم يُعط أحداً من المُقرّبين.

كيف لا يكونُ ـ ﷺ ـ كَذٰلك وهو مَدِينةُ العِلم وأصلُ فُروعها، وعُنصر يَنابيعها، ونقطةُ دائرتها؟ فكمّل الله تعالى عَقله الّذي منه ينبعث علمه ومعرفته، فقوّى نَظره، وسدّد رأيه وإصابته، وحدّد فِطنته، وحَسّن سياسته [١٧١/ب] وصدّق ظنّه فيما يَراه ويدبّره.

وقد بلّغه الله تعالىٰ في مكانة العِلم مبلغاً لم يصل إليه بَشرٌ من خَلقه، وذٰلك معلومٌ عند من تتبّع مجاريَ أحواله، واطّرادَ سيره، وطالعَ جوامعَ كَلِمه، وحُسن شمائله، وعجائبَ أحاديثه وعلمه بما في التّوراة والإنجيل، والكُتب المنزّلة، وما أطلعه الله تعالى عليه من سِيَر الأمم السّالفة وأيّامها، وضرب الأمثال وسياسة الأنام، وتَقدير الشرائع، وتأسيسها، وتأصيلِ الآدابِ النّفيسة وتحصيلها، والاتّصاف بالشّيم الحميدة وتتميمها، مع نَجمعة لفُنون العلومِ وبثّها.

فَمَا مِن عالم ضُربت له أكبادُ الإبل ممّن تَقدّم أو تأخّر إلا وكان كلامُ المصطفىٰ وعلمُه له قُدوة، وإشارته حُجّة، من حسن عبارةٍ، وتنبيهٍ، وإشارةٍ، وحسابٍ، وفرائض، ونسبٍ، ودقائق، وعُلوم وعِرفان بالله تعالى، ومَواهب ربّانية وفتوحات غيبيّة دون تعلّم منه ـ عليه الصّلاة والسلام ـ ولا مُدَارسة ولا مُمَارسة ولا مُطالعة كُتُبِ مَنْ تَقدّم، ولا جلوس مع عُلمائم، بل هو نبيٌّ أمّيٌّ، شرحَ الله صدره، ويسّر أمره، وأظهر علمه، وأعلىٰ قدره، وأبانَ فضله في الدّارين علىٰ العالمين، وختم به كمال الرسالة لمن تقدّم من المُرسلين.

فَسُبحان مَن مَنّ عليه بما خصّه به من فضيلة العلم وكمل له خَلقه وخُلقه فكانَ غايةً في الخَلق والخُلق وعَلماً في العلم والفهم:

فاقَ النَّبِيّينَ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ولم يُدانُوه في عِلمٍ ولا كَرمِ[1]
وكُلّهم من رسولِ الله ملتمسٌ غَرْفاً من البَحرِ أو رشْفاً من الدِّيَمِ

قال وهبُ بن منبّه ـ رضي الله عنه ـ[2]: قرأتُ في أحد وسبعين كتاباً أنه ـ ﷺ ـ أرجحُ الناس عقلاً، وأفضلهم رأياً.

وفي روايةٍ عنه قال: وجدتُ في جميعها أن الله تعالىٰ لم يُعط جميع النّاس من بدءِ الدُّنيا إلىٰ انقضائها من العقل في جَنْب عقلهِ ـ عليه الصلاة والسّلام ـ إلاّ كحبّةِ رَمْلٍ من رمال الدُّنيا.

فتأمّلُوا ـ أيُها المحبّون ـ لهذا النبيّ العظيم، المُشتاقون إلىٰ لقاءِ صاحبِ هٰذا الوصف الكريم ما نسبة [١٧٢/أ] حبّة رملٍ من رمال الدنيا كلّها علىٰ كثرتها وتراكمها، وعدم إحصائها وتحديدها، فلا يُحصيها ويَعلمها إلا خالقُها الّذي لا تخفىٰ عنه خافية منها، وكذلك علوم رسولِ الله ـ ﷺ ـ وكثرتها، وغزارة جمعها في قلبه العَظِيم، ونوره المُضي، المستقيم.

فَعُلومُ الخلائق كلّها علىٰ كثرتها، واختلاف أنواعها وتشتت أنظارها وحدها في أفكارها من عُلوم مُكتسبة، أو إفادة موهوبة ربانيّة إنّما جُملتها بالنسبة إلىٰ علمه وفهمه ـ علَيه الصلاة والسلام ـ كحبّةٍ من رملٍ في رمالِ الدُّنيا كُلّها!

فتلك الحبة أو النقطة أو الرَّشْحة التي رشحت للخلائق من أنواعِ عُلومِ المصطفى ـ ﷺ ـ ففيها يتفاوتون، وعليها يترددون.

قال عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ إنّ الله تعالىٰ أوحىٰ إلىٰ

---

(١) ديوان البوصيري: ٢٤١.

(٢) الخبر في الشفا ١/ ٩٢، والخبر التّالي أيضاً فيه ثمّة.

نبيّه ـ عليه الصّلاةُ والسّلام ـ وعَلّمه عُلوماً منها ما أمره بتبليغها فَبلّغها[١]، ومنها ما أمره بِكتمانه فكتَمها، ومنها ما خيّره في بثّةِ لخلقه.

وقد أعلمه الله تعالىٰ ما كانَ في القُرون السّالفة، وما يكون في آخرِ الأزمانِ الآتية.

وكان تطلُّعه علىٰ غَيبةٍ في زمنهِ دليلاً علىٰ نبوءته، وشاهداً علىٰ رسالته، فكانت إخباراتُه بعلم عن الله تعالىٰ ـ ﷺ ـ فَوقعت كما أخبر في زمانه وبعدَ زمانه. وقد هدّى الله تعالىٰ جماعةً من أصحابه إلىٰ دين الإسلام، ووفّقهم لاتباع النبيّ ـ ﷺ ـ بسبب إخباره وإعلامه بالمغيّبات، وعلموا أنّ ذٰلك من المعجزات.

كان رسولُ الله ـ ﷺ ـ يوماً في بعضِ الغَزوات، وقد قدم واثلةُ بن الأسقع[٢] وقد أدخلَ الله قلبه الإسلام، فلما قَرُبَ من مُصلّىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: إنّي أُخفي وأضمر في نفسي الإيمان حَتّىٰ أرىٰ حال هذا النبي حمل يُخبرني بضميري وما في نفسي؟

فإذا برسول الله ـ ﷺ ـ صلىٰ الصبح ثم قام خطيباً فقال:

«أيها الناس أتعلمون واثلة بن الأسقع قالوا: لا يا رسول الله، قال: إنّ واثلة قد ركب البَحر، وإنّه من جماعة قبيلةٍ كذا وكذا، وإنّ

---

(١) في أ، و: ب، ما أمره بتبليغه: والمُراد منه ما أمره بتبليغه من تلك العلوم فبلّغها. والمثبت من: ج.

(٢) واثلة بن الأسقع بن عبد العزّى بن عبد يا ليل الليثي الكناني، صحابي من أهل الصُفة؛ أسلم ورسول الله ﷺ يتجهز إلى تبوك، وشهدها معه. خدم النبي ﷺ ثلاث سنين. وكانت وفاته في أواخر المئة الأُولى قبل سنة ٩٨ وهو آخر الصّحابة موتاً في دمشق.

ـ ينظر أُسد الغابة ٥: ٧٧ وحلية الأولياء ٢: ٢١ وصفة الصّفوة ١: ٢٧٩.

السّفينةَ قد انكسرت به، وألقته في جزيرة وجدَ فيها جماعة ليسوا من الإنس ولا من الجن [١٧٢/ب] وإنهم أخبروا برسالتي ونُبوءتي، وإنه قدِم عليكم، وإن الإيمان داخلٌ قلبه، ثم قال:

يا واثلة! إن كنتَ حاضراً فأجِبْ، فقام واثلة متعجّباً وهو يقول: نعم يا رسول الله، أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأنك رسولُ الله[١].

هكذا كانت أحوالُه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في عِلمه وفهمِهِ، وقُربه من ربّه، ولولا الطّولُ لذكرنا نبذةً هنا من بعضِ عَجائبِ عُلومه؛ مَنّ الله علينا وعليكم بحبّه، وأفاض علينا وعليكم من بعض علمه.

ونقولُ بعد الصّلاةِ والسّلام علىٰ نبيّنا والتوسل إلى الله تعالى بشفيعنا ـ ﷺ ـ:

يـا رَبّ! بـالـمـخـتـارِ يَسّـرْ أمـرَنـا واغـفـرْ خَطـايـانـا وأذْهِـبْ ضـرّنـا[٢]
واجـبـرْ خَـواطـرنـا وأجـمـلْ سـترنـا واجـعـلْ بطـيـبـةَ فـي جِـمـاهُ مَقـرّنـا[٣]
وأجِـبْ سـؤال نُـفـوسـنـا ودُعَـاهـا

يـا رب صَـلّ عـلـىٰ الـنـبـي مُـحَـمّـدِ والآل والـصّـحْـب الـكـرامِ الـمَـحْـتِـدِ
الـقـائـمـيـنَ الـراكـعـيـنَ الـسُّـجّـدِ أنـصـارِ ديـنـكَ بـالـلّـسـان وبـالـيـدِ
والـمـال حُـبّـاً بـالـرّسُـول وَجـاهـا

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ اسم نبيّنا ـ ﷺ ـ العليم، ونظرَ في خلُقه

---

(١) لم أقف على الخبر.

(٢) من بحر الكامل.

(٣) طَيبة من أسماء مدينة الرسول الكريم.

العظيم، أنْ يَعْلم أنه يجبُ عليه التأدّبُ بآدابه، والوقوفُ عند علمه وحكمه، والتّعظيم للعلم وأهله.

ويعلم مقام هذه الصّفة العلمية الّتي أسكنها الله تعالىٰ مدينة العلم - ﷺ -، وواجِبٌ علىٰ مَنْ مَنّ الله تعالىٰ عليه، واتّصف بصفة منها أن يتشبّه بصاحب الخُلقِ العظيم، ومَن سمّاه الله - تعالىٰ - العَلِيم، ويزيّن نفسَهُ بالتّقوىٰ لأنّها أساسُ العِلم ومحلّ الفَهم.

قال الله العظيمُ في كتابه الكريم ﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢/ ٢١٢].

فيجب علىٰ طالب العلم أن يتعلّقَ بالخَشية، والوقوف عند الحدّ[1]، والرُّكون إلىٰ الله تعالىٰ في رزقِهِ مع اشتغالِهِ بالجدّ، ويعلم أن الله - سُبحانه - قد تكفّل برزقه ليسوقه إليه، فينال رزقه عزيزاً، ويكون لنفسه حريزاً؛ فلا يضيع نفسه بالذلّة [١٧٣/أ] ولا بالحرص والمذمّة، ولا يَتّهم رَبّه - سبحانه - في كفالتِهِ، وحسنِ رعايتِهِ، ويتوكّل علىٰ الله حَقّ توكّله، فإنّه مفتاحُ الخيرِ كُلّه.

وإن ساقَ له ربّه نعمةً شكَرها مع علمِه أنه المُنعم علىٰ الحقيقة، وجالب النّفع للخليقة، قال الله العَظِيم القدير العليم: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٧].

ويجبُ علىٰ من اتّصف بالعلم أن يكونَ لا يَرىٰ لنفسِه فضلاً على غيره، وأنّ الذي خَفِيَ عليه من العلم أكثرُ ممّا جُلّي له، فإنَّ ذا الفضل العَظِيم قال في كتابه: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ١٢/ ٧٦].

---

(١) في أ: الوقوف عند الحُدود.

ورضي الله عن سيدنا عمر مع غزارة علمه لمّا ردّتْ عليه المرأةُ في قَضِيّة التّغالي في الصّدقات[1] قال رضي الله عنه على رؤوس الناس: كُلّ الناسِ أفقهُ منكَ يا عُمَر، حتىٰ امرأة.

وهذا إنّما يتأتىٰ من قُوّة المراقَبةِ والتواضع وعدم الأنفة.

وينبغي لطالب العلم في جميع أحواله أن يكون راغباً في زيادةِ علمه، وإنْ كان الرّجل قد سَبق في علمِه من بينِ الرّجال فقد خاطبَ الله تعالى نبيّه العَلِيم، صاحب الخُلقِ العظيم مع عِلمه الذي هو أصل علوم الخَلائق، وبنُوره هدىٰ الله ـ سبحانه ـ أهل المغارب والمشارق، وأمره أن يزيدَ مع علمِ عِلماً؛ فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ٢٠/ ١١٤].

ويَجِبُ علىٰ العامّة تعظيمُ العالم، وبيان مقداره؛ لأنّه الحاملِ لهم سنة نبيّهم، والمبلغُ لهم أمرَ دِينهم، ولا يزال الخيرُ في هذه الأُمّة ما كان العَالِمُ مُعَظَّماً عند عامّتهم؛ وتعظيمُ العالم من تعظيم شعائرِ الله، ومهابةِ العُلَماء من الوُقوف عند حُدود الله، وفضلُ العالم علىٰ العابِد كفضلِ القَمرِ علىٰ سائِر الكواكبِ[2]. وما أحسنَ قول القائل:

النّاسُ من جهةِ التّمثيلِ أكْفَاءُ ... أبوهُمُ آدمٌ والأمُّ حَوّاءُ[3]
فإن أتيتَ بفخرٍ من ذوي نسبٍ ... فإنّ نسبتهُ: الطينُ والماءُ
ما الفخرُ إلاّ لأهلِ العلمِ إنّهمُ ... علىٰ الهُدىٰ لِمن استَهْدى أدِلاّءُ

---

(١) في ب الصّداق. والصّدقات جمع الصّدقة بمعنى الصّداق؛ وهو مهر المرأة.

(٢) في الفتح الكبير ٢: ٢٦٨. رواه التّرمذيّ وغيره،
ـ وفيه: «كفضل القمر ليلة البدر...».
ـ وينظر الإحياء ١: ٦ وتخريجاته.

(٣) من بحر البسيط.

وقيمة المرء ما قد كان يُحسِنهُ والجاهلون لأهلِ العلمِ أعداءُ[1]
فاطلبْ لنفسكَ علماً واكتسبْ أدَباً فالناسُ مَوْتَىٰ وأهلُ العِلمِ أحْيَاءُ

[١٧٣/ب] وهٰذا الشَّرف مع تَشفيع العِلم بالعَمل[2]، فإنَّ العلم يُنادي بالعمل فإن أجابه وإلا ارْتَحَل.

وفّقنا الله لطاعته ـ وباعدَ بيننا وبين معصيته ؛ ـ وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليماً، وزاده مولانا شرفاً وتعظيماً.

(١) الشطر الأول نظم لكلمة تنسب إلى عليّ رضي الله عنه «قيمة كل امرىء ما يُحسن».
ـ وفي ب: والجاحدون لأهل العلم أعداء.
(٢) في أ: تشفيع العلم بالأدب.

باب

في معنىٰ اسمه

المُقَدَّس (١)

صلَّىٰ الله عَليه وسَلَّم وشَرَّف وكرَّم

المُقَدَّس: اسمٌ من أسمائه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ورد في بعضِ الكُتب الكرام.

ومعناه: المُطَهَّر من الذُّنوب، المنزَّه عن العُيوب. وقد قال الله تعالىٰ في كتابه العزيز: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٤٨/٢].

ومعناه: أنّك لا ذنبَ لك فتؤاخذ عليه. فكنّى سبحانه عن تطهيره وتقديسه بالغُفران بلاغةً في جاهه، وبياناً لمنزلته.

ومن أسماء مَولانا جَلّ جلالهُ: «القُدُّوس»، ومَعْناه ـ سبحانه ـ في حَقّه: المُنَزَّه عن النَّقائصِ، المطهَّر من سِمات الحَوادِث[٢]، لأنّه لا يُشبهه شيءٌ من المَخْلُوقات ولا يُشبه شيئاً منها.

---

(١) اسمُه ﷺ: المقدّس في الشفا ١: ٣٣٦ وسبل الهدى والرشاد ١: ٦٤٢. وجاء بالاسم الكريم بصيغة اسم المفعول، وصيغة اسم الفاعل.

(٢) في أ: سمات الحدوث.

وسمّى نبيّهُ مُقَدّساً لأنه ـ تعالى ـ قَدّسه[1] من الأخلاق الذّميمة، والأوصاف الدّنيئة، وحلاّه بالصّفات الكريمة والأخلاق السّنِيّة، فكان عليه ـ الصلاة والسلام ـ مقدّساً في ذاتِهِ وصفاتِهِ لكمالِ خَلقها وتمام حُسنها، وتناسُبِ أعضائها، وحُسن اعتدالها، وضياءِ نُورها وبَهائها، وجمالِ هَيئتها ولذاذةِ طِيب رائحتها.

وكان ـ عليه الصّلاة والسلام ـ مُقَدّساً في أفعالِهِ وأقواله تابعاً لمرضاةِ رَبّه، واقفاً عند حَدّه، معصوماً في جميع أمره، محفُوظاً في يقظته ونومه، وقد خَصّه الله سبحانه بخصائص لم تُوجد في غيره، فَقدّسه، ونزّهه بنظافة جسمِه، وطيبِ رائحتِه وعرقه، وباعَده عن الأقذار والمعيّبات في سائر جَسده، بل كانت رائحةُ الحبيب أطيبَ من الطّيب.

روىٰ جعفرُ بن سلمان عن ثابت عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال[2]: ما شَمَمْتُ عنبراً قطّ، ولا مِسكاً قطُّ ولا شيئاً أطيبَ من ريحِ رَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ.

وعن جابر بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ[3] أنه ـ ﷺ ـ مَسَح خدّه قال: فوجدتُ ليده بَرداً أو ريحاً كأنما أخرجها من جونة عَطّار [١٧٤/ أ].

قال غيره[4]: مسّها بطيب أو لم يمسّها، يصافحُ المصافح فيظل

---

(١) قدّسه: طهّره ونزّهه، والقدّوس من أسمائه تعالى: الطاهر المُنَزّه عن العيوب والنقائص، أو المُبارك.

(٢) الشفا ١: ١٥٣.

(٣) الشفا ١: ١٥٣.

(٤) الشفا ١: ١٥٣.

يَوْمَهُ يجد ريحها، ويضع يده الكريمة على رأس الصبيّ فَيُعرف مِن بين الصّبيان بريحها.

ونام - ﷺ - بدار أنس فعرقَ، فجاءت أمُّه بقارورة تجمعُ فيها عَرقه[1]، فسألها رسول الله - ﷺ - عن ذلك فقالت: نجعَلُه في طِيبنا، وهو من أطيب الطّيب عندنا.

وكان عليه الصلاة والسلام من إكرام الله تعالى له إذا أراد أن يقضي حاجته انشقت الأرضُ فابتلعت غائطه وبوله، وفاحت بذلك رائحة طيبة[2].

ولذا كان كلّ ما يخرجُ منه[3] - ﷺ - طاهراً بخصوصية خصّة بها، والأنبياء كذلك فضلاتُهم طاهرة؛ وأبان منزلته في كل أحواله، وأعلاه؛ وقصة أمّ أيمن[4] بركة مشهورة في أنها كانت تخدم النبي - ﷺ - فقامت في ليلة فوجدت قدحاً فيه بول رسول الله - ﷺ - فشربته، وما فَرّقت بينه وبين الماء، فَقال لها النبيّ - ﷺ -: لن تشتكي وجعَ بطنكِ[5] أبداً.

وبالجملة، قد قدَّسَهُ الله تعالى عن كل ما يشينه وكمل له من تمام حسنه كل ما يزينه، وطَيّبه حَيّاً وميتاً.

وبنىٰ علىٰ النّظافة شرعه ودينه، فكانت هذه صفاته في حياته،

---

(١) الشفا ١ : ١٥٣.
(٢) الشفا ١ : ١٥٤. ذكره البيهقي في الدّلائل؛ وفي نسيم الرّياض أنه مَوْضُوع.
(٣) مناهل الصّفا: ٧.
(٤) الشفا ١ : ١٥٧ - ١٥٨.
(٥) في أ، و: ب؛ بوجع بطنك.

وتمّم له ذٰلك بعد مماته، وقدّسه عن النقائص في جميعِ حالاته، فحقيقٌ به أنْ سَمّاه الله مقدساً، ورقّاه بذلك في أعلى مقاماته.

عزَّ التّرابُ لكون الهاشميّ بهِ ... كأنّهُ لؤلؤٌ في التّربِ مكنونُ[1]
من ظنّ أنّ رسولَ الله غيّرهُ ... طولُ المُقام بلحْدٍ فهو ملعونُ
والجسمُ غضٌّ بلا شكٍّ ولا كذبٍ ... والوجهُ كالبدر تحتَ الدّجن مقرونُ
والطرفُ أحوىٰ كحيلٌ دون ما كَحَلٍ ... وقوسُ حاجبهِ في شكلهِ نونُ
وورد خَدّيه لم يعبثْ بهِ كفَنٌ ... فَوَرْدُ كل رياضٍ دونَهُ دونُ
يا حسنَ غُرّته من تحتِ وَفْرَتهِ ... ليلٌ وصبحٌ به ذُو اللّبِّ مَفْتُونُ
ما في السّموات خَلْقٌ ليسَ يذكرهُ ... ولا يعظّمهُ حتّىٰ الشياطينُ
محمّدٌ خيرُ خلقِ الله كلّهم ... ومَن يقُلْ غيرَ هٰذا فهو مجنونُ
فاقتْ فضائلهُ عن أنْ يحيطَ بها ... وصفٌ فيحصُرها بالجمع تدوينُ
وما عسىٰ أن ينالَ الوصفُ من رجلٍ ... يحبّه الخالقُ الباري وجبرينُ
يا أمّةً فُضّلتْ هذا نبيكمُ ... صلّوا عليه فذاكَ الفخرُ والدينُ
صَلّوا عليه لكي تُعطَوا شفاعَتهُ ... مَنْ خابَ منهُ رَجاهُ فهو مغبونُ

[١٧٤/ب] وقد كان ـ ﷺ ـ طاهراً مطهّراً ومع ذلك يُحبّ الطيب، وحُبّب إليه، تشريعاً لأمّته، وزيادة في تقديسه ونزاهته، وقد كان يتطيّب، ويرجّلُ شَعْرَهُ، ويكحلُ عينيه ـ ﷺ ـ..

فصل

مِن آداب المحبّ لنبيّنا الطاهر المطهّر المقدّس ـ عليه الصلاة

---

(١) من بحر البسيط.

والسلام - أن يكون بمحبته تابعاً لطريقته، مقتفياً لسنته، مستعملاً لفطرته بقص أظافره، ونتف إبطه، وحلق عانته، واجتناب الرائحة الخبيثة من أكل البصل والثوم وكل ما يؤذي الملائكة والمؤمنين، وقد قال - ﷺ -[(١)]: «مَنْ أكل من هذه الشّجرة فلا يقرب مَسجدنا».

ويتأكّد للمؤمن المحب أن يتطيب ويتطهر عند مناجاة مولاه في صلاته ودعائه ويتجمل لذلك وللقائه، «فإن الله جميل يحب الجمال»[(٢)]، ويحتاط في لباسه أن يكون من حلال مخافة أن يكون ظاهره نظيفاً وباطنه خبيثاً، والله سبحانه «لا ينظر إلىٰ صوركم وإنما ينظر إلىٰ قلوبكم»[(٣)]، وإنه قد يقال للرجل ما أنظفه[(٤)]! وما أجمله! وما أحسنه! وليس في قلبه مثقالُ حَبّة من إيمان.

وينبغي للمؤمن المحب أن يستعمل الطيب والرائحة الحسنة ويبتغي بذلك وجه الله، واتباع سنة رسول الله.

وقد روي عنه - عليه السلام - أنه قال[(٥)]: «من أراد أن يشمّ رائحتي فليشمّ الورد الأحمر»، فإذا استعملت شيئاً من الروائح العجيبة فتذَكّر

---

(١) ورد بروايات مُتقاربة في أُصول كثيرة كالبُخاري ومسلم وأحمد والترمذي وله على رواية المؤلف زيادة أيضاً، ونصه في موضع أرهام الجمع والتفريق للبغدادي (١ : ٢١٦) «. . . فلا يقرب مسجدنا حتى يذهب ريحها».

(٢) صحيح مسلم ١ : ٩٣.

(٣) حديث ورد بعبارات متقاربة؛ وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، رواه مسلم وقال: قال رسول الله ﷺ: إن الله لا ينظرُ إلى صُوركم وأموالكم ولكنْ ينظر إلى قُلوبكم وأعمالكم (ص ١٩٨٧).

(٤) في ب: ما أطرفه!

(٥) ذكره الدّميري في حياة الحَيوان ٢ : ٤٦٣ في مادة (الورد)؛ وأدرجه ابن الجوزي في الموضوعات ٣ : ٦٢ وفيه (أن يَشتَمّ. . . فَلْيَشْتَمّ. . .). وينظر الحاوي للسيوطي ٢ : ٩٨. وكشف الخفا ١ : ٣٠٣ وتحقيقاته.

رائحةَ الحبيبِ ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإنَّ الرّوائح والطِّيب أصلها كلّها من عَرقه ونُوره ـ ﷺ ـ.

ولْيَحذرِ المؤمنُ المحبُّ أن يفعلَ شيئاً من ذٰلك ويقصدَ به الفخرَ والرّياءَ والخروجَ عن أبناء جِنسه ورفعته، فإن ذٰلك من أخلاقِ الشّياطين، وأفعال المُفسدين.

بل ينبغي له أن لا يرىٰ لنفسهِ في ذلك إلا اتّباعَ سُنة نبيه [١٧٥/أ] والمحبّة لطريقه، ودفع الشر عن نفسه مخافة أن تكونَ فيه رائحةٌ خبيثةٌ يضرّ بها إخوته فيقعون في عِرضه.

وينبغي التخلّقُ بما هو آكَدُ من ذلك كُلّه: بالسّلامةِ من الآثامِ الظّاهرةِ والباطنةِ، والتنزيهِ عن أكل المالِ الحَرامِ. فالباطنُ إنّما يقدس وينزّه ويظهر نوره باتّباع المأموراتِ، واجتنابِ المنهيّات.

ولذا كانت مجالسُ أولياءِ الله طاهرةً مطهّرة تَرِدُ عليها الملائكة، كان عِمرانُ بنُ الحُصَين[١] ـ رضي الله عنه ـ تصافحه الملائكة، وكذا كثيرٌ من الأولياء لطهارتهم يُشَاهِدُون ذلك عند موتهم.

يُحكىٰ عن الشّيخ وليّ الله تَعالىٰ أبي سعيد الباجي[٢] ـ رَحِمَهُ الله

---

(١) أبو نجيد عمران بن الحصين الخزاعي من علماء الصّحابة: أسلم عام خيبر سنة ٧ هـ، وكانت معه راية خزاعة يوم فتح مكّة، وبعثه عمر إلى أهل البصرة ليفقّههم، وولاّه زياد قضاءها، وبها كانت وفاته. وكان ممّن اعتزل الحرب في صِفّين. وله ١٣٠ حديثاً في كتب الحديث (الأعلام ٥: ٧٠. وله ترجمة في صفة الصّفوة ١: ٢٨٣ وطبقات ابن سعد ٧: ٤ وتهذيب التهذيب ٨: ١٢٥) وينظر ثمار القلوب للثعالبي: ٦٥.

(٢) أبو سعيد بن خلف بن يحيى التميمي الباجي (٥٥١ ـ ٦٢٨) من أهل باجة وسكن تونس. رحل إلى الديار الحجازية وبلاد الشام وجاور بمكة مدّة. من العلماء الفقهاء، ومن أهل التصوّف. وممّن تتلمذ له أبو الحسن الشّاذلي. وقد ذكره المؤلف في فهرسته: ١٩٩.

ونفعَ به ـ أنّه شُوهد منه عند موتِهِ ومرضه الذي تُوفّي فيه أنه يسلّم علىٰ جماعة قدموا عليه ويسلمون عليه ويقول، وهو يشير بالجُلوس: هُنا يا ملائكة الله، هنا يا وَفْدَ الله، وأنه ما خرجَ من الدنيا حتىٰ رأىٰ مقعده من الجَنّة. وما ذاك إلا لطهارته ونزاهته في ظاهره وباطنه.

وقال لبعض فُقرائهِ[1] ذاتَ يومٍ قبل وَفاتهِ: اكتُبْ بطاقةً بأسماء ناسٍ من الفُقراء رجالاً ونساءً. وسَمّىٰ لهم من الطعام أسماءً مختلفة من قمح كانَ عنده؛ قال:

ثم أمر بالحَمّالين وكالُوا الطّعام، وبعثَ لكلّ واحدٍ نصيبه[2] منه وكان الطعام كثيراً والأسهم مختلفةً فجاء الطّعام علىٰ نسبة ما كان من الأسهم وظهرت كرامته فلم يزد الطّعامُ ولم ينقص!

وكان الشيخ مُستغرقاً بالمرض ثم أفاق بعد ساعة فقال: ما فعلتم في الطعام؟ فقالوا: قد أنفذناه ولم يبق شيء، فقال: الحمدُ لله الآنَ طابتْ نفسي، فجعَل ـ رحمه الله ـ طِيب النفس وحُسْنَها ونزاهتها إنما هو بالخروج عن الدُنيا لله حتىٰ لم يبق لها تعلق إلا به سبحانه وتعالىٰ ـ رضي الله عنهم، ونَفَعنا بهم آمين ـ.

من كان يعرف قدرهم فَهُمُ هُمُ ... يبسط لهم خَدّ الخضوع تخوّفا[3]
والأجنبي مجانبٌ ومحاربٌ ... جُبلت جبلته علىٰ مُرّ الجَفا

---

(١) أيْ لبعض الصُوفية من أتباعه ومريديه.
(٢) في ب: نصيبه.
(٣) من بحر الكامل.

فالله يُرزقنا الوفاءَ بحبّهمْ فبِحُبّهم وبذكرهمْ نَرجُو الشّفا

ثم الصّلاةُ على النبيّ وآلهِ ما أزهر الغصنُ الرطيبُ ورَفْرَفا

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، وزاده مولانا شرفاً وتعظيماً.

باب

في معنىٰ اسمه

عزيز القدر(١)

صلّىٰ الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم [١٧٥/ب]

عزيز القَدْرِ من الأسماءِ المُشتقّة له ـ عليه أفضل الصّلاة والسّلام ـ واشتقّها القاضي أبو الفضل عياض ـ رحمه الله تعالىٰ ـ من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٦٣/٨] أي إنّ جلالة القدر لرسول الله ـ ﷺ ـ.

وقد سمّى الله ـ سبحانه ـ نفسه عزيزاً، ومعناهُ في حقّه جَلّ جَلالهُ: الممتنعُ عن أن يُنال بسوءٍ أو ضُرّ، الغالبُ القاهرُ لعباده.

ويُحتمل أن يكونَ معناهُ: الّذي لا نظيرَ له في ذاته وصفاته(٢)، والذي أعزّ عباده، وأعلىٰ منازلهم وأبان مفاخرهم.

ومعنىٰ كون نبيّنا ـ عليه الصّلاة والسلام ـ عزيزاً: أنه عالي القَدر عند مولاه، شريفُ المنزلة عند مَنْ خَلقه وسوّاه.

---

(١) ورد في الشّفا ١: ٣٦٦ والرياض الأنيقة: ٢١٣ والمواهب اللدنية: ١: ١٨٢ وسبل الهدى والرشاد ١: ٦٠٤ باسم العزيز.

(٢) في الشفا: ومن أسمائه تعالى: العزيز، ومعناه: الممتنع الغالب أو الذي لا نظير له، أو المعزّ لغيره. وقال تعالى: ﴿ولله العزة ولرسوله﴾ أي الامتناع وجلالة القدر.

وأصلُ العِزّة عند العربِ يرجعُ إلى الشدّةِ والامتناع[1] تقول العرب في الشيء: عَزّ: إذا لم يُوجد له نظير.

فحقّ لسيدنا ومولانا محمد - ﷺ - أن يُسَمّى عزيزاً، لأنّ الله تعالى لم يخلق مثله في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه وفَضْلِهِ وقَوله.

وقد تُطلق العِزّةُ علىٰ الغَلبة، ومنه قول العرب «مَنْ عَزَّ بَزّ»[2] أي من غلَب سَلب.

فَيُحتمل أن يكونَ معنىٰ العِزّة في حقّه عليه الصّلاة والسلام - بمعنىٰ الغَلبة أي أنه غلبَ أعداءه، وقهَر صناديد أهل الوجود مِن الأكفاءِ والأبطال بِمُعجزاته المتلوّة، وآياته المجلوّة، وشجاعتِهِ المأثورةِ المرويّة.

ويُحتمل أن يكونَ عزيزاً بمعنىٰ: ممنوعاً معصوماً من القَتل من النّاس، كما قال تعالىٰ في خطابه الكريم له: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٥/٦٧].

فعِزّةُ اللهِ تعالىٰ له: نَصْرُه، وتأييدُه وإكرامُه وإعلاءُ مكانِهِ ومكانتهِ، فليس في الوجود كريم ولا عزيز عند الله مثله، ولا حبيب إلىٰ جميع المخلوقين يعزّ عليهم فقد[3] غيره.

إذا ذكرتْ نَفْسِي فراقَ محمّد تهيّج حُزني عند ذٰلِكَ أَجْمَعا[4]
فوالله لا أنساك ما دمتُ ذاكراً لشيءٍ وما قلبت كفاً وإصبعا[5]

---

(١) قال ابن فارس في المقاييس: إن مادة (ع ز ز) تدل على شدة وقوّة وما ضاهاهما من غلبة وقهر. ويقال، عزّ الشيء حتى لا يكاد يوجد.
(٢) جمهرة الأمثال ٢: ٢٨٨.
(٣) في أ: فقده غيره.
(٤) من بحر الطويل.
(٥) في ب؛ و: ج: وما قبّلت (بتقديم الباء على اللّام).

فمن عِزّة قَدْره عند الله تعالىٰ إعزازُه للمؤمنين من أُمّته، قال جل جلاله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٦٣/٨].

[٧٦/أ] فهذا مَقامُكم أيها المُؤمنون المحبّون، وهٰذه منزلتكم أيّها الأُمّة المعظّمون؛ بلغ من مقامكم عند ربّكم بحرمةِ نبيّكم أنْ ذكر عزّته جلّ جلاله، وثنّىٰ بعزّة رسوله، وختم بعزتكم، فشرّف عند الخلائق قَدْرَكم، وستَرون غَدَاً بمحبتكم هذا النبي، الشريف، العزيز، المولىٰ، ما تعلمون به أنّ الله ـ جلّ جلالُه ـ أعطاكم وأرضاكم.

فمن عِزّة قَدْرِ نبيّنا ـ ﷺ ـ وأمّته عند ربه؛ ما رواه بعضُ المفسّرين[1] لكتاب الله قال: يروىٰ في بعض الأخبار: لمّا نزلت علىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤١][2] قال ـ ﷺ ـ: يا حبيبي يا جبريل أذكر الله في كُلّ يومٍ ألفَ مَرّة؟.

فقال له: يا محمّد إنّما أنا سفيرٌ بينك وبين ربّك جل جلاله.

فقال ـ ﷺ ـ: فأذكر الله في اليوم ألفي مرة. قال له: يا أخي لا أعلم إنما أنا سفيرٌ بينك وبين ربك، ثم عَرج إلى السماء، ثم رجعَ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال له: إنّ العلي الأعلىٰ يُقرئك السلام ويقولُ لك:

---

(١) كذا أرسل المؤلف العبارة، ولم يسمّ التفسير وصاحبه.

(٢) ينظر أبواب فضل ذكر الله تعالى والإكثار، كما في مجمع الزوائد مثلاً ١٠: ٧٣ وما بعدها.

ـ وآخر هذا الخبر في معنى حديث مشهور صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه وفيه «قال الله عزّ وجل: قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل. قال رسول الله ﷺ اقرؤوا، يقول العبد الحمد لله رب العالمين يقول الله عز وجل حمدني عبدي...) الحديث. المقاصد السنية في الأحاديث القدسية لأبي القاسم عليّ بن بلبان المقدسي ٢٩٧ ـ ٢٩٩.

يا محمّد! اذكرني على عدد ما خلقت وما أنا خالقٌ إلى يوم القيامة، اذكُرني على عدد الرَّطْبِ واليابسِ، اذكُرني على عددِ الحُلو والحامض.

فإن طال ذلك عليك وعلى أمتك يا محمد، فاعلمْ أنّي قد أنزلت مئة كتاب وأربعة كتب، وجمعتُ المئة كتاب والأربعة كُتب في الكتاب الذي أنزلتُ عليك، وخصَصْتك يا محمد بسورةٍ لم أُنزلها قبل في التّوراة والإنجيل ولا في كتاب. خصصتك يا محمد بسورة الحمد[1]، لأنّي حمدتُ نفسي بنفسي في الأزل، إذ كنتُ الشّاهد ولا شاهد معي فخصصت الحمد لنفسي، ثم سبقَ في عِلمي أنْ سوفَ أفترضُ الحمدَ على عبادي وعلمتُ عجزَ عبادي عن تأديةِ حَمْدِي، فتحمّدتُ حَمْدَ عبادي كلّهم بنفسي لِنَفسي.

ثم أنزلتُ عليك في مُحكم كتابي: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ١٥/ ٨٧].

يا محمد لعزتك عندي إذا وقف العبد بين يدي فقال: الله أكبر، رفعتُ الحُجب بيني وبينه [مِن على بصرِهِ؛ فيشاهدُ ذاتي على ما يليقُ بي مِن حالي] فإذا قال: الحمدُ لله، قلت: مَنْ هذا الإِلّه؟ فيقول: رَبّ العالمين، فأقول: ومن رَبُّ العالمين؟ فيقول: الرّحمن الرحيم. فأقول: ومن الرّحمن الرحيم؟ فيقول: مالك يوم الدّين. فأقول: عَبْدي! ومَنْ مالك يوم الدين؟ فيقول: إيّاك نعبدُ وإيّاكَ نستعين. فأقول: عَبدي! هذا لي فهل لك حاجة؟ فيقول: إهْدِنَا الصّراطَ المُستقيم. فأقول: عبدي أيّما الصراط المستقيم؟ فيقول: صراطَ الّذين أنْعمتَ عليهم غير المَغضُوب عليهم ولا الضالين. فإن قال آمين؛ قلت: عبدي أكملت عليك نعمتي،

---

(١) في ب: الحمد لله.

وأجزلت لك عطيّتي وأنا ربّ العالمين بِعزّتي.

فَلُوذوا. أيّها المحبّونَ بهذا النبيّ العزيز القدر عند الله، وتوسّلوا بِقَدْرِه وحياته عند الله، وقُولوا كما قال حَسّان ـ رضي الله عنه ـ شاعرُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ[1]:

يا ركنَ مُعتمدٍ وعصمةَ لائذٍ ... وملاذَ مُنتجِع وجارَ مُجاوِرِ[2]

يا مَنْ تَخيّرهُ الإلٰهُ لِخَلْقِهِ ... فَحباهُ بالخلق الرَّضِيّ الطّاهِرِ

أنتَ النبيُّ وخيرُ عِترة آدم ... يا مَنْ يجُودُ بفيضِ بحرٍ زاخرِ

ميكالُ مَعْكَ وجَبرئيلُ كلاهما ... مَددٌ لنصركَ من عزيزٍ قاهرِ

فصل

من آداب المُحبّ لهذا النّبيّ الكريم، العزيز القدر علىٰ ربه أن يعلمَ أنَّ ما من عزيزٍ في الوُجود إلا وعزّتُه ليستْ له من ذاته، وإنما هي موهوبةٌ له من خالقِهِ، وليسَ ثَمّ مَن لا نظيرَ له في الوُجود، ولا شبيه له مِن حادثٍ موجود إلا العزيز، الّذي ثبتت له العِزّةُ في ذاتِهِ، وهي صفةٌ قديمةٌ من صفاتِه.

فمِنْ حَقّ العبدِ إذا طلبَ العزّةَ من الله أن يُذلّ نفسه لله ذلّةً تُكسبه العزّةَ عند الله؛

وأصلُها: خفض الجَناح، وخُضوع القَلب، وإظهارُ الفاقة، وبسطُ الخُدود علىٰ التّراب بإظهار الذِّلةِ، فهذا هو تيهُ الفقراء! والعز الحقيقي

(١) ديوان حسان بن ثابت (ديوانه: ٨٥).

(٢) من بحر الكامل.

للأغنياء، فلا عزّة عند مخلوقٍ تشاهده، ولا بقاءَ لذي وجهةٍ تخدمُه وتساعده.

فإذا طلبتَ العزّة فاطْلُبْها من العَزيز، وإذا أحسستَ بالذلّة من نفسِكَ فقد بلغتَ إلىٰ المكان الحَرِيز[1]. أما سمعتَ قول العزيز عند الله[2] «من تَواضعَ لِلّه رَفعَهُ الله، ومَن تَكَبَّرَ وضَعهُ الله»؟ وإياك أن تستعِزّ بمخلوقٍ، فإنّ [١٧٧/أ] من استعزّ بغيرِ الله ذَلّ، ومن استَشْفَىٰ بغير شفائه ثقل وعلّ!

قال الله العظيم في كتابه الكريم، وكان سبحانه سميعاً بصيراً ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩/٤].

يا أخي، إيّاك أن تعتز[3] بعز أهلِ الدُّنيا، فإنها عن قريبٍ أُفولها، ويصيرُ صاحبها ذليلاً، وعما قريب[4] زَوالُها، ويُمسي منعّمها عليلاً.

وتفكّرْ في عِزّ أهل التُّقىٰ وفَخرِهم إذا ضَمَّهم المَحْشَرُ، وفي تِيههم إذا أَمِنُوا يوم الفَزع الأكبر، ولا تغفلْ عن النّظرِ في العَواقِب فإنَّ الغفلةَ أصلٌ لحلول المَصائب!

---

(١) الحَرِيز: الحصين.

(٢) ورد بألفاظ متقاربة في أُصول كثيرة. وفي مجمع الزوائد ٨: ٨٢ قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر أيّها الناس تواضعوا فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من تواضع لله رفعه الله، وقال انتعش نعشك الله، فهو في أعين الناس عظيم وفي نفسه صغير، ومن تكبر قصمه الله فهو في أعين الناس صغير وفي نفسه كبير. وعن أبي هريرة رضي الله عنه: من تواضع لأخيه المسلم رفعه الله، ومن ارتفع عليه وضعه الله. وينظر إتحاف السادة المتقين ٢: ٢٩٥ وفتح القدير ١١: ٣٤٧ وكشف الخفا، ٣٣٥.

(٣) في ب: تغتر.

(٤) في ب: عما قليل.

رأىٰ بعضُ الصالحين أستاذه في المَنام فقال له: أيّ الحسراتِ أعظمُ عندكمْ يومَ القيامة؟ فقال له: حسرةُ الغَفَلات!.

ورأىٰ عبد الله بن سالم[1] والده في المَنام فقال له: يا أبت كيف ترىٰ الحال؟ قال يا بُنيّ: عِشْنا غافِلين، ومِتْنا غافِلين!

قال أبو عليّ الدقّاق: دخلتُ علىٰ مَريضٍ، وكانَ أحدَ المَشايخ، وحوله التّلامذة وهو يبكي، فقلتُ له: لم تبكي؟

قال: أبكي علىٰ فوتِ صلاتي طولَ عمري!

قلت: وكيفَ ذلك؟

قال: بلغتُ إلىٰ أرذلِ العُمر، وما سجدتُ لله إلا وأنا غافِل، ولا رفعتُ رأسي إلا وأنا غافل، وها أنا أموتُ وأنا غافِل عما يُفْعَلُ بي! ثم تنفّسَ ومات ـ رحمه الله ـ.

فيا خسارةَ عزةٍ تعقبُها ذِلّةٌ لا تنقضي، ويا سعادةَ ذلّةٍ تعقبُها عزّةٌ دائمةٌ مصحوبةٌ بالعَيْش الرضيّ، وأنشدوا:

تفكّرتُ في يومٍ تقومُ قيامتي … وكيفَ حُلولي في المقابر ثاويا[2]
ذليلاً وحيداً بعد عزٍّ ومنعةٍ … رهيناً بِجُرمي في التّراب مساويا
وهَوْلِ نكيرٍ في السؤال ومنكرٍ … ومسكنِ دُودٍ يأكلونَ فُؤاديا
وفكّرتُ في طولِ الحسابِ وعرضهِ … وذلّ مقامي حينَ أُعطىٰ كتابيا
إليكَ التجائي يا إلٰهي وسيّدي … لعلّكَ تَمْحُو زَلّتي وخطائيا!

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً، وزاده مولانا شرفاً وتعظيماً.

---

(١) في أ: مسلم. (٢) من بحر الطويل.

باب

في معنى اسمه

المؤمن المهيمن(١)

صلّى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

المُؤمن المُهَيمنُ: اسمان من أسمائه عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلاة والسّلام اشتُقَّا له [١٧٧/ب] من اسمِ الله جَلّ جلالهُ وعَظُمَ نواله.

ومَعناهما في حَقّ ربّنا ـ سُبحانه ـ ظاهرٌ، وهو جَلّ جلالهُ: القادِرُ القَاهر.

أمّا المؤمن فمعناه في حقّه المصدّق أنبياءه ورُسله، والمصدّق وعده؛ وقيل: الموحّد نفسه بقوله جَلّ جلالُه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ٣/١٨].

وقيل: المؤمن في حقّه تعالىٰ بمعنىٰ المؤمّنُ علىٰ عبادهِ من الظُّلم؛ لقوله عز وجل: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤١/٤٦] وقال سبحانه(٢): «يا عبادي إنّي حرمت الظّلم علىٰ نفسي وجعلتهُ بينكم مُحَرّماً

---

(١) اسمه ﷺ المُؤمن والمهيمن في الشفا ١: ٣٣٣ جمعهما معاً وقال: قيل هما بمعنًى واحد وسرد مجموعة من المعاني التفصيلية. ووردا عرضاً عند السيوطي في الرياض الأنيقة ٢٥٦ في تفسير المهديّ. وسبل الهدى والرشاد ١: ٤٢٠، ٤٤٨.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥: ١٦٠؛ وهو في: المقاصد السنيّة في الأحاديث القدسية لأبي القاسم علي بن بلبان المقدسي (ط دمشق): ٨٠ ـ ٨١. واجتزأ المؤلف رحمه الله منه وهو طويل.

فلا تظالَمُوا»، فمعنىٰ المُؤمن أي: المؤَمِّنُ خليقَتهُ من الظُّلم، فإنّ الظلم لا يُتَصَوَّرُ منهُ سُبحانه.

وأمّا المُهَيْمِنُ: فمعناه في حقه تعالىٰ بمعنىٰ: الأمين. كذا قيل، وهو بعيدٌ من القول، وليسَ هذا محل بَيان ضعفه[1].

وقيل إنّه بمعنىٰ الشّاهد الحافظ.

وأمّا المُؤمن في حقّ نبيّنا ـ ﷺ ـ فيحتملُ أنْ يكون بمعنى: المؤمِّن لأُمّته من العَذاب، وأنّ الله سبحانه أمّنهم ببركته ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ويُحتمل أن يكونَ بمعنىٰ المصدّق بكتاب الله، وما أُنزل إليه من ربّه، والمصدّق بجلال الله ورُبوبيّته، والمصدّق بملائكته وكُتبه ورُسله وأخبارِهم مع أُممهم إلىٰ غير ذٰلك ممّا يمكن تصديقهُ به.

وأمّا المُهَيمن فيحتمل أن يكونَ معناهُ: الشاهدُ علىٰ أُمّته، والحافظُ لِحُدود الله.

وقد سماه ـ ﷺ ـ العباس في شعره مهيمناً بقوله رضي الله عنه[2].

ثـم اغـتـدىٰ بيـتُـك الـمُـهَـيْـمِـن من خِنْـدفِ عـلـيـاء تـحـتـهـا الـنُّـطُـقُ

فهو ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ إمامُ الصّادقين والمصدّقين في تصديقه لوعد الله، وإنجازه لما وعده الله ومؤَمِّناً لأصحابهِ، ومطمئنٌ قُلوبَهم إذا نَزل بهم خوفٌ أو هَمّ، ولذا كان عليه الصلاة والسلام يقول[3]: «أنا أمَنةٌ

---

(١) في أ: وضعه.

(٢) هذا البيت مع سائر القطعة في آخر هذا الفصل ولاحظ الرواية.

(٣) في صحيح مُسلم: أنا أَمَنةٌ لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون: ٢٠٧ ومسند أحمد ٤: ٣٩٩. وهو في الشفا ١: ١١٩.

لأصحابي؛ بل هو أمنةٌ لأمّته ـ ﷺ ـ.

وقد كان أمنةً لأصحابه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إذا نزل بهم كَرْبٌ، حَرِيصاً علىٰ تأمينهم وزَوالِهِ عنهم. قال نوفل بن معاوية[(١)] ـ رضي الله عنه ـ:

كنّا يوم بدر نسمع حِسّاً كَوقْع الحَصا في الطّساس بين أيدينا ومن خَلْفِنا، فاشتدّ الرُّعب علينا، وذهبتْ أفئدتُنا، فقال ـ ﷺ ـ لأبي بكر: يا أبا بكر [١٧٨/أ] أبشرْ هذا جبريل معتجرٌ بعمامةٍ صَفراء، آخِذٌ بعنانِ فَرسه بين السّماء والأرض. فلمّا نزل إلىٰ الأرضِ تغيَّب عنّي ساعة، ثم طلع[(٢)] علىٰ ثناياه النّقع يقول: أتاك نصرُ الله يا محمَّدُ إذْ دَعوْتَه.

وأمر رسول الله ـ ﷺ ـ بالحَصباء فأخذَ منها كَفّاً فرماهم بها وقال: شاهَت الوُجوه! اللهمّ أرعبْ قُلوبَهُم، وزلزلْ أقدامهم. فانهزم أعداءُ الله، وما منهم من أحدٍ إلاّ امتلأ وجههُ وعَيْناه، والمسلمون يقتلون ويأسرون.

ومن تصديقه بوعِد الله ووعيده وتأمينِهِ قلوبَ أصحابه ـ وكانت من مُعجزاته وإكرام اللهِ تعالىٰ به ـ: ما رواه عبد الرّحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ قال[(٣)]:

---

(١) ينظر سبل الهدى والرشاد ٤: ٦٠ و٤: ٧٤ ومسند الإمام أحمد ١/٣٠٣ ومسلم (باب الجهاد: ٨١).

(٢) في أ: اطلّع.

(٣) قال ابن إسحاق: لمّا تمادَوْا في الشرّ وأكثروا برسول الله ﷺ الاستهزاء أنزل الله تعالى ﴿فاصْدَعْ بِمَا تُؤمر..﴾ الآية. وكانوا خمسة من رؤساء مكة، وهم الوليد بن المغيرة وهو رأسهم، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب أبو زمعة، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن الطلاطلة. أهلكهم الله جميعاً؛ قبل يوم بدر في يوم واحد.
ينظر تفسير القرطبي ١٠: ٦٢.

كان خمسةُ نفرٍ من جُملة المشركين المستهزئين بالنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ المُستخفّين بحقه، وكانوا يَغِيظُونَ أصحابَهُ ويحذّرون الناس منه ويمنعونَهُم من اتّباعه وهم: «الوليدُ بن المغيرة والأسودُ بن عبد يغوث والأسودُ بن المطلب والعاصي بن وائل والحارث» وكان النبيّ ـ ﷺ ـ يتأذىٰ منهم لذلك.

وكان المسلمون يَشُقُّ عليهم هذا الأمر، فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٩٤، ٩٥] وهمُ الذين ذكرنا.

قال فأتىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ وهو مسرورٌ مصدّقٌ لوعدِ الله ونَصره وكفايته: فأمّنَ أصحابَهُ وأدخل عليهم السُّرور بما بشّرهم فقال: إن الله كفاني أمرهم، فنَزل جبريل ـ عليه السلام ـ فقال: يا محمد! إذا طافُوا بالبيتِ فاجْمَعْهم، فَسلْ فيهم من الله ما أحببت فأنا فاعله.

فأتىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ البيت والقوم في الطّواف[1]، وجبريل عن يمينه، فمرّ الأسود بن المطلب[2] فرمىٰ في وجهه بورقة خضراء وقال: اللّهم اعْمِ بَصره، وأَثْكِلْهُ في وَلده، فأجاب الله دعوة نبيه في عَدُوّه فأعمىٰ الله بصره، وأثكله في ولده.

ومرّ به ـ ﷺ ـ الأسود بن عبد يغوث فأومأ إلىٰ بطنه فَسُقي ماءً فماتَ لحينه.

ومرّ به الوليدُ فأومأ إلىٰ جُرحٍ كانَ أسفلَ رجله فسالَ دَمُه فقتله.

---

(١) نقله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١٠: ٦٢.

(٢) في الأصول: الأسود بن عبد المطلب؛ وهو من إدراج النسّاخ، وصوابه: الأسود بن المطلب، وهو: الأسود بن المطلب بن أسد، أبو زمعة.

ومرَّ به العاصي [١٧٨/ب] فَأشار إلىٰ أخمص رِجله[1] فخرج علىٰ حمارٍ له يريدُ الطّائفَ فدخلت شوكةٌ في رِجله فقَتلتْه.

ومرَّ به الحارثُ فأومأ إليه فتَقيّأ قيحاً فمات. فانتقم الله من أعدائه، وقطعَ دابرهم ببركته وفضله ومكانَته عند ربّه.

وقال العباس عَمّه في مدحه[2] ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلام ـ:

مِن قَبْلِها طِبْتَ في الظِّلال وفي ... مُستودَعٍ حيث يُخْصَفُ الوَرَقُ[3]
ثم هَبطتَ البلادَ لا بشرٌ ... أنتَ ولا مُضغةٌ ولا عَلَقُ[4]
بل نُطفةٌ تركبُ السَّفينَ وقد ... ألجمَ نَسراً وأهلَهُ الغَرِقُ[5]
تُنقلُ من صالبٍ إلىٰ رَحِمٍ ... إذا مضىٰ عالمٌ بَدا طَبَقُ[6]
حتى احتوى بيتُك المهيمنُ من ... خِندفِ عَلْياءَ تحتَها النُّطُقُ[7]
وأنتَ لمّا وُلدت أشرقتِ الأرْ ... ضُ وضاءت بنورك الأُفُقُ

---

(١) الأَخْمَصُ: باطن القدم وما رقَّ من أسفلها وتجافى عن الأرض. (ما ارتفع) وهو خصرُ القَدم.

(٢) الأبيات ذائعة مرويّة في السِّير والتّواريخ وكتب الأدب للعبّاس عم النبيّ ﷺ اختارها الجراوي في الحماسة المغربية ٤٥ ـ ٤٦ (وتنظر ثمة التحقيقات والتخريجات).

(٣) من قبلها: أي من قبل الهبوط إلى الأرض. قال ابن الأثير: أي في الجنة حيث خصف آدم وحوّاء عليهما من ورق الجنة.

(٤) لمّا اهبط الله آدم إلى الدنيا كنت في صلبه غير بالغ هذه الأشياء ويقال للجنين في بطن الأم حين يصير قطعة لحم قدر ما يُمضغ: مُضغة. والعلق: الدمُ الجامد الذي يعلق بما يمسُّه.

(٥) نسر في البيت: الصنم الذي عبده قوم نوح عليه السلام.

(٦) الصالب والصلب بمعنًى واحد. أي إذا مضي جيل ظهر جيل آخر.

(٧) النُّطق جمع النِّطاق. والمراد بالبيت الشرف والمكانة. وبيتك المهيمن: احتوى شرفك الشاهد على فضلك أعلى مكان من نسب خندف. والنُّطُق جبال بعضها فوق بعض. ضربه مثلاً في ارتفاعه وفي توسّطه في عشيرته.

فنحنُ في ذلك الضياءِ وفي النُّو ... رِ وسُبلِ الرشادِ نَخترقُ

فصل

من آداب من علم أن اسمه - عليه الصّلاة والسلام - المُؤمن المهيمن أن يكون مصدّقاً بخبرهِ وبِشارتهِ ووَعْدِهِ؛ مؤمناً لقلوب أمّته. وقد قدّمنا ذلك في كثيرٍ من الأسماء. وعلى المحبّ أن يتصفّح أخبارَ أصحابهِ الكِرامِ، وكيف كانُوا - رضي الله عنهم - في تصديقهم بخبره.

قال الشّعبي وغيرُه من العلماء: كان العَبّاس - رضي الله عنه - سليمَ الصَّدرِ مُسلماً مؤمناً تقيّاً مصدّقاً شفيقاً رفيقاً.

فعلى المُحبّين مَحبّتُه، واتباعُه؛ لأنّه عَمُّ نبينا وحبيبنا ووسيلتنا إلى رَبّنا، ولو لم يكن من فضائِله - رضي الله عنه - إلا ما رواه أبو أُسيد[1]: أن رسول الله - ﷺ - قال للعباس يوماً: يا أبا الفَضْل إلزم منزلك غداً أنتَ وبنوك، فإن لي فيكم حاجة. فصحبهم - ﷺ - وقال: تَقارَبُوا فزحف بعضهم إلى بعض، حتى إذا مكثوا أشمل عليهم مُلاءةً وقال: يا رب هذا صِنْوُ أبي[2] وهؤلاء أهلُ بيتي؛ فاستُرْهُم من النّار كستري إياهم.

قال: فأمّنت أُسكُفّةُ الباب[3]، وحوائط البَيت آمين آمين.

وقد دَخل رسولُ اللهِ - ﷺ - الكعبةَ يوم الفتح والعَبّاسُ - رضي الله عنه - معه، وحولَ البيت أصنامٌ، فجعَل رسولُ اللهِ - ﷺ - يكسرُ الأصنام

---

(١) مختصر ابن عساكر ١١/٣٣٥. وإتحاف السادة المتقين ٧: ١٩٣ والبداية والنهاية ٦: ١٥٣.

(٢) الصنو: الأخ الشقيق. (وقد يُطلق على العم من حيث إنه صنو الأب على الابن لكونه تشعّب من أصل واحد). والصنو: المِثل.

(٣) أسكفه الباب: خشبة الباب التي يوطأ عليها. وقيل هي العتبة العُليا.

[١٧٩/أ] ويقول: هيه يا أبت، والعباس يقول هيه يا بنيّ؛ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: مَن رآني ورأىٰ عمّي فكأنما رأىٰ إبراهيم وإسماعيل عليهما السّلام وهما يَرْفَعان القواعد من البيت. فهذا مقامُ عَمّ نبيّي ونبيكم، وصنو أبيه ـ العَبّاس رضي الله عنه ـ فتوسَّلُوا بهِ إلىٰ اللهِ ـ سبحانه ـ في حَوائجكم، فإنّ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه، ونَفعني وإياكم به ـ خَطب النّاسَ يوماً فقال في خطبته:

«أيُّها النّاسُ، إنّ رسول الله ـ ﷺ ـ كان يتذلّل للعباس تذلُّل الولد للوالد يعظّمه ويعجبه ويَبَرُّ قَسمه».

فاقْتَدُوا ـ أيّها النّاسُ ـ برسولِ الله في عَمّه العبّاسِ بن عبد المُطّلب، واتّخذوه وسيلةً إلىٰ الله فيما نزَل بكم.

اللهمّ إنّا نتوسّلُ إليكَ بنبيّك محمّدٍ نبيِّ الرّحمةِ، ورسولِ الأُمّة، وبكرامة عمّه العبّاس بن عبدِ المُطلّب وبِحُرمةِ أصحابهِ وآلهِ، وبِحُرمة الشّيخين أبي بكر وعمر: أمِّنّا يا مَوْلانا ممّا نخافُ منه ونحذر؛ إنّك علىٰ ما تشاء قدير، وبالإجابة جدير».

قال ابنُ شهاب[1]: كان أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يَعْرِفُونَ فضلَ العَبّاس ويُقَدّمونه ويُشاورونه، ويَستشفعون إلىٰ الله به. واستَسْقَىٰ بهِ عُمَر ـ رضي الله عنه ـ. وقال في مدحه حَسّان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ:

---

(١) هو أبو بكر محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزُّهري (من بني زُهرة بن كلاب) من قريش. عُرف بالزُّهري وبابن شهاب: أول من دَوّن الحديث، ومن كبار الحفّاظ والفقهاء، من التابعين. وشهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنهم لن يجدوا ـ في زمانه ـ أعلم بالسنّة الماضية منه. ولد سنة ٥٨ وتوفي سنة ١٢٤ وكانت وفاته في شَغْب آخر حدّ الحجاز وأوّل حدّ فلسطين.

سأل الإمامُ وقد تتابع جَدْبُنا فسقى الغمام بِغُرّة العَبّاسِ[1]

عمّ النبيّ وصنو والدِه الذي وَرِثَ النّبِيَّ بذاك دون النّاسَ

أحيا الإلٓهُ بهِ البلادَ فأصبحتْ مُخضرّةَ الأرجاءِ بعدَ الياسِ

وصلّىٰ الله عَلىٰ سَيِّدنا ومولانا مُحَمَّد وعلىٰ آله وصحبهِ وسلّم تسليماً، وزادَهُ مولانا شَرَفاً وتعظيماً.

---

(١) من بحر الكامل.

باب

في معنى اسمه

الهادي(1)

صلّى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

الهادي: اسمٌ من أسمائه ـ عليه أفضلُ الصّلاة والسلام ـ لأنه قيل في تفسير ﴿طه﴾ [طه: ٢٠/١] يا طاهر يا هادي، والخطابُ له ـ ﷺ ـ.

وقال تعالىٰ في جَنابِهِ وخِطَابِهِ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٤٢/ ٥٢] وقد قدمنا بعض الكلام علىٰ الهادي.

ومعناه الهادي إلى صِرَاط الله، وقد سمّىٰ الله تعالىٰ نفسَهُ الهادي [١٧٩/ب] بمعنىٰ أنه الموفّقُ لمن أرادَ مِن عِباده، وخالقُ الهُدىٰ في قُلوبِ المُؤمنين.

ومعنىٰ الهادي في حقّه ـ عليه الصّلاة والسلام ـ أي الدّاعي إلىٰ الله تعالىٰ عبادَه إلىٰ الإيمان، ودالّهم علىٰ طريق الإيقان، وأمّا خالق الهداية في القلوب فليسَ إلا علاّمُ الغُيوب. قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٢٨/٥٦] أي إنّك يا مُحمّد لا

(١) اسمه ﷺ الهادي في سبل الهدى والرشاد ١: ٦٥٩ وفيه: اسمه فاعل من هدى هداية وهي الدلالة إن تعدّت بحرف الجرّ. والرياض الأنيقة: ٢٦٧.

تخلق الهُدىٰ في قلوب الخليقة، وإنما الخالقُ للهداية والتوفيق هو خالقُ الذّوات والصّفات، وصانع جميع المصنُوعات جلّ جلاَلُهُ.

ورسول الله ـ ﷺ ـ عالمٌ بذلك لأنه سيّد العارفين وإمامُ المتّقين، إلا أنّ في خطاب الله تعالى له من التّسلية والتّصبّر وتثبيت قلبه لِمَا عَلِمَ ـ سُبحانه ـ من شفقته على عباده، وكانت الآية نزلت في قصّة أبي طالب عمه مع قربه وذبّه عن رسول الله ـ ﷺ ـ ومحبّته فيه وثنائه عليه ونصره له، بلسانِهِ وسيفِهِ وتقديمِهِ إيّاه علىٰ بنيه وبيانِ منزلته.

ومع هذا لما حقت الحقائق وجاءت سكرةُ الموت وحانَ الفراق، والتفت السّاق بالساق دَعاهُ حبيب الله ورسوله إلىٰ ما يُنجيه يوم التّلاق، فما زال يكرّر عليه: يا عَمّا قُل: لا إلّه إلاّ الله كلمة أُحاجُّ لكَ بها عند الله، قلها ولو في أُذني. ومع هذا فلم تسبق له العناية[1] من الله، فشقّ ذلك علىٰ نبيّ الله وحبيبه ـ ﷺ ـ فأنزل الله تعالى ما سلاّه به وأذهبَ حُـزنــه فــقــال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٢٨/٥٦].

فسمّي ـ ﷺ ـ هادياً لأنّه دالٌ علىٰ الخيرات، وقائدٌ إليها، ومبيّنٌ للبركات، وسائق الخلق الشّاردين عنها إليها.

وما زال هذا حاله في بيان أحكامِ الله، وجِدّه في الأمرِ بطاعة الله، وشهادةِ أنْ لا إلّه إلاّ الله، وأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ رسوله، حتىٰ أكمل الله تعالى أمْرَهُ، وأظْهَرهُ في العالمين، وأعزّ نصره وأبقىٰ علىٰ ألسنةِ الخَلْق ذكره، وجَعله عَلماً فَرْداً في الأرض والسّماء وقوّىٰ عزمه ـ وصبره حتّىٰ بلّغه في الأعداء ظفره ـ وأعلى عليهم قدره.

---

(١) في ب، و: ج: الهداية.

قال جامع بن شدّاد[١]: كان رجل منّا يقال له: طارق[٢] قال: رأيت[٣] رسول الله - ﷺ - مرّتين، رأيتهُ بسوق ذي المجاز[٤] [١٨٠/أ] وقد دَمِيَتْ عُرقوباه وهو يَهْدِي الخلق إلىٰ عبادةِ الله، وينهىٰ أن يُعبدَ غيرُه، وهو يقول: يا أيُّها الناس: قولوا لا إلّه إلاّ الله، تُفْلِحُوا، ورأيتُ رَجُلاً من خلفه يرميه ويقول: هذا لا تَسْمَعُوا منه.

فقلت: من هذا؟

قالوا: محمد، وهذا أبو لهب عمه.

قال: ثم بقيت مدّة وأتيت[٥] المدينة بعد ذلك[٦] فخرج إلينا النبيّ - ﷺ - فقال: مَن القَوْم؟

قلنا: أعراب.

قال: من أين أنتم؟

قلنا: من الربذة ومن حولها.

قال: معكم شيء تبيعونه؟

قلنا: نعم هذا البعير

---

(١) أبو صخرة جامع بن شدّاد المحاربي (ت سنة ٥١٧ أو ٥١٨) ترجم له ابن سعد في الطبقات ٦: ٣١٨، ٣٢٤ والذهبي في السير ٥: ٢٠٥.

(٢) هو طارق بن عبد الله المُحاربي.

(٣) مجمع الزوائد ٦: ٢١ - ٢٢، وتفسير القُرطبي ٢٠: ٢٣٦، ومسند الإمام أحمد ٣: ٤٩٢، ٤: ٣٤١.

(٤) في بعض الروايات في المسند: «بعكاظ». وكلاهما من أسواق العرب في الجاهلية واستمرت مدّة في الإسلام.

(٥) في ب: وأتيت بيت المقدس.

(٦) عبارة بعد ذلك: من: ج.

قال: بكم؟

قلنا: بكذا وكذا وَسقاً من تَمر.

فأخذ بخطامه، وانطلق إلىٰ المدينة، فقلنا: ما هذا الذي صَنعنا: بِعنا البَعير من رجل لا نَدري مَنْ هو؟ ومعنا ظعينة في جانب الخِباء.

قالت: أنا ضَامِنَةٌ لثمنِ البعير، لأنّي رأيت وجهَ رَجُلٍ مثل القمَر ليلة البدر لا يخيسُ بكم.

قال فأصبحنا، فجاء رجلٌ معه تمر ثم قال: أنا رسولُ رسول الله إليكم، يأمركم أن تأكلوا من هٰذا التَمر، وأن تكتالوا حتىٰ تَستَوفوا مالكم، قال: ففعلنا، ثم دخلنا المدينة فرأينا نبي الله - ﷺ - يُبيّن للنّاسِ ويقول:

«اليَدُ العُليا خيرٌ من اليدِ السُّفلىٰ، وابدأ بِمَنْ تَعُول؛ ابنك وأباك وأُختك وأخاك، ثم أدناك فأدناك»[1].

أنشد أبو سفيان بنُ الحارث[2] - رضي الله عنه - في قصيدةٍ له في صفتهِ - عليه الصّلاة والسلام - وفي هدايتِهِ فقال[3]:

نَبيٌّ كانَ يَجلُو الشكَّ عَنّا ... بما يُوحي إليه وما يَقُولُ

ويَهدينا فلا نَخشىٰ ضَلالاً ... عَلينا والرّسولُ لنا الدّليلُ

---

(١) مسند أحمد ٢: ٢٢٦، ٥: ٣٧٧.
- والفتح الكبير وإحالاته ٣: ٤٢١.

(٢) مرّ ذكر أبي سفيان بن الحارث في هذا الكتاب. وهو ابنُ عم النبي ﷺ كان في معسكر الكفّار ثم أسلم بعد فتح مكة وحَسُن إسلامه. وله شعرٌ من المكفّرات (التي كفّر بها عن شعره القديم).

(٣) سير أعلام النبلاء ١: ٢٠٤ والاستيعاب ١١: ٢٩٢ والحماسة المغربية ٢: ٧٨٦.

يُخَبِّرنا بظهر الغيبِ عَمّا يكون فلا يجورُ ولا يَحُولُ
فلم نَر مثله في الناس حَيّاً وليسَ له من المَوْتَىٰ عديلُ

فصل

من آداب من علم(١) بأن نبينا ـ ﷺ ـ الهادي أن يكون متبعاً له ـ عليه الصلاة والسلام ـ في هدايته لخلق الله، باذلاً نفسه في بيان شريعة رسول الله.

وقد كان ـ ﷺ ـ يبعث أصحابه الكرام السادة الأعلام لينقلوا عنه دين الله، ويؤدوا للخلائق أمانة الله.

وقد قال لعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ [١٨٠/ب] «لأنْ يهدِيَ الله بكَ رَجُلاً واحداً خيرٌ لك من أنْ يكونَ لك حُمر النَّعم».

سيما في زمن عاد الدين فيه غَرِيباً(٣)، وقلّ فيهِ الخَير حتىٰ صار ذكره عجيباً. فأين الهادون إلىٰ طريقِ الله المتمسّكون بسنّة رسولِ الله ـ ﷺ ـ؟ لقد والله ذهبَ المحبّ والمحبون وضَعُف الطّالب والمَطْلُوب، فاستمع طريقة أهل الفلاح، وهداية أهل النّجاح.

قال الشيخ ابن مخلد(٤) ـ رضي الله عنه ـ سمعت أبي يحدّث أنه

---

(١) في ب؛ و: ج: من آداب المحبّ العالم.
(٢) مسند الإمام أحمد ٥: ٣٣٣.
(٣) في العبارة اقتباس من الهدي النبوي: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ...» الحديث.
(٤) في أ: ابن مخلد. والمقصود بابن مَخْلَد بقي بن مخلد بن يزيد، أبو عبد الرحمن (٢٠١ ـ ٢٧٦) الأندلسي القرطبي حافظ مفسّر محقق. له تفسير وكتاب في الحديث اشتهرا في الأندلس جدّاً إلى كتب أُخرى وكان إماماً مجتهداً.

أتىٰ رجل في طلب العلم إلىٰ بغداد، يُريد ملاقاة أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ونفع به ـ لأخذ العلم عنه.

قال، قال الرّجل الذي أتىٰ بقصد طلب العلم: فلمّا قربت من بغداد سمعتُ بالمِحنة التي امتُحن بها في ذَاتِ الله[١] فاغتممتُ بذلك غمّاً شديداً فلما حللت بالبلد أنزلت متاعي في بعضِ الفَنادق، [واكتريتُ بيتاً] وأتيت الجامعَ الأعظم فوجدتُ فيه حلقاً للعِلم يدعونَ إلىٰ الله، ويَهْدُون الناس إليه، فَرأيتُ رجلاً عظيماً يضعف ويقوىٰ، فقلت: من هذا؟

قالوا: يَحيىٰ بن معين[٢]، فوجدت فُرْجَةً، فقمت إليه فقلت: يا أبا زكريا ـ رَحِمَك الله ـ إنّي رجل غريب نائي البلاد، أردتُ السّؤال والرشاد فلا تستخفني، قال: سلْ، فسألته عما أشكل عليّ، فأجابني.

ثم قلتُ له: إني أطلبُ أحمد بن حنبل، وأسأل عن حاله.

فقال كالمتعجّب: مثلنا نحن لم يبلغ الكلام عن أحمد[٣] ولا علىٰ فضل علمه، ذلك إمام المسلمين وخيرهم وأفضلهم.

ثم قال: خرجتُ أطلب موضع أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ فَدُلِلْتُ عليه، فقرعت بابه، فخرج إليّ ففتح الباب فنظر إلى رجلٍ لم يَعرفه، فقلتُ:

---

(١) في ب، و: ج: في ذات ربّه.

(٢) أبو زكريا يحيى بن معين المرّي بالولاء البغدادي (١٥٨ ـ ٢٣٣) من أئمة أهل الحديث ومؤرّخي رجاله، نعته الذهبي بسيّد الحفاظ، وقال ابن حجر فيه: إمام الجرح والتعديل. له عدد من المؤلفات. وتوفي بالمدينة حاجّاً. وأثنى عليه الإمام أحمد وقال فيه: هو أعلمنا بالرجال.

(٣) في ب، و: ج: عن حال أحمد.

يا أبا عبد الله، رجلٌ غريب نائي البلاد، هٰذا أوّل دخولي هذا البلد، وأنا طالبٌ للحديث، ومستفيدٌ للسُنَّة[1]، ولا رحلتُ إلاّ إليك، فقال لي أدخل الأسطوان لئلاّ يراك أحد عندي، فدخلت، فسألني عن موضعي[2] وبلادي، فأخبرتُه أنّي من أقصىٰ المغرب من بلادِ الأندلس.

قال لي: إنّ موضعك لبعيد، وما شيءٌ أحبّ إليّ من أن أُحسن عَوْنَك علىٰ العلم والهداية، غيرَ أنّي مُمْتَحَنٌ بما أراد الله في ذات الله، صابر لقضاء الله.

فقلت: قد بلغني أمرك، واهتممت لأجلك، ولكني [١٨١/أ] امرؤٌ مجهولُ العَيْنِ في بلادكم، فإن أذنت لي في كل يوم آتي إليك في زِيّ السّائل الطّالِب للطّعام، الواقف بالباب، فإذا وقفتُ علىٰ بابك خرجتَ إليّ وأسمعُ منك ما تيسَّر وتُحَدثني ولو بحديثٍ واحدٍ يكونُ فيه كفاية.

فقال لي: نعمْ! بشرطِ ألاّ ترىٰ أحداً، ولا تظهر عند أصحاب الحديث!

فقلت له: نعم.

قال: فكنت كل يوم آخذ في يدي عوداً وألُفُّ راسي بخرقة مُدَنَّسةٍ، واجعل الكاغد والدواة في كمّي ثم آتي بابه فأصيحُ: القُوْت! والأجرُ لكم! رحمكم الله يا أهل الدار! فيخرج إلىٰ سقيفته ويُغلق بابه ويحدّثني بالحديثِ الواحدِ والاثْنَيْنِ فأكتبه.

فالتزمتُ ذلك معه حتىٰ جاء الفَرج، ومات المُمتحنُ له وزَهق الباطل، وعَلَتْ أهلُ السُّنَّةِ، فظهَر أحمدُ بنُ حَنبل، وعَظُمَ في أعينِ

---

(١) طالب الفائدة (العلم) بالسنة.

(٢) في ب: عن موضع بلدي.

النّاس، وعلت إمامَتُه حتىٰ ضُرِبت له أكبادُ الإبل.

ومع هذا، فما زاده ذلك إلا زُهداً وتواضعاً مع الخلق، ومراقبةً للواحد الحقّ. فكنتُ إذا قدمتُ علىٰ مجلسهِ فسّح لي ورأىٰ لي غُربتي ومُلازَمتي للعِلم، ويقول لأصحابه: مثلُ هٰذا يَصْدُق عَليه اسمُ: طالِب.

وبقيتُ معه كذلك، فمرضتُ مَرضاً شديداً ففقدني من مجلسه، فسأل عني، فأعلم بحالي، فقام من فورهِ مُقبلاً إليّ عائداً لي مع أصحابه، فدخل عليّ في الفُندق، وأنا مُضطجعٌ في البيت، وكُتبي عند رأسي، فسمعتُ الفندقَ وقد ارتجّ أهلُه، وأنا أسمعُ الناس يقولون: هو ذاك إمامُ المُسلمين وتعجّبُوا من مجيئه للموضع. وإذا بصاحب الفُندق أتى مسرعاً إليّ فقال لي يا أبا عبد الرحمن هذا إمام المسلمين[1] يسأل عنك، مُقبلٌ إليك، وهل بلغ هٰذا من قدرك؟

قال: ثم دخَل، وجلَسَ عند رأسي، وامتلأ البيتُ عليّ فلم يسعهم. وبقيّة الخلق خارج البيت وقوفٌ وأقلامهم بأيديهم. ثم سَلّم عليّ وقال لي: يا أبا عبد الرَّحْمٰن أبْشِرْ بثواب الله. أيّام الصّحة لا سقم فيها، وأيام السُّقم لا صحة فيها، أعادَك الله إلىٰ العافية ومسّح عليكَ يَدَهُ الشّافية.

فما تكلّم بهذا الكلام إلا والناسُ يكتبون لَفْظَهُ بالأقلام فبعدَ خُروجهِ عني صرتُ في أعْيُنِ الناس عظيماً.

فاجتمع أهل الفندق عليّ [١٨١/ب] وكلهم يطلبون خدمتي،

---

(١) العبارة من عند إمام المسلمين السابقة إلى هنا سقطت من أ، و: ج وهي مثبتة من ب. وفيها يا عبد الرحمن. وهو سهو من الناسخ.

وقضاء حاجتي.

هذا حالهم - رضي الله عنهم - ونفعَنا بهم[1]:

فتلكَ سِيرتُهم فينا وفعلُهمُ ... لمثلهم تهرع الركبانُ والإبلُ
وقد دخلتُ لتطفيلي دخيلَهمُ ... بِجَاهِهِمْ ليس لي تَقْوى ولا عَملُ[2]
مِنّي عليهم سلامُ الله ما ذكرتْ ... أخبارهم فاشتهت رؤياهمُ المُقَلُ
مباركٌ طيّبٌ يغشاهمُ أبداً ... نَسِيمُه بعبيرِ المسْك مُشتملُ

وصلّىٰ الله على سيّدنا محمد، وعلىٰ آلِهِ وصحبهِ وسلّم تسليماً، وَزاده مولانا جلّ جلالهُ شُرفاً وتكَريماً وتَعظيماً.

---

(١) من بحر البسيط.

(٢) استعمل الشاعر الدخيل هنا بمعنى الدُّخول والمَدْخَل. وفي اللغة معانٍ للدخيل. فالدّخيل بين القوم الداخل في نسبهم وليس منهم. والذي يداخل القوم في أمورهم.

بـاب

في معنى اسمه

العَفُوّ(1)

صَلّىٰ اللّهُ عَليهِ وسلّم وشرّف وكرّم

العَفُوّ: اسم من أسمائه عليه أفضل الصلاة والسلام اشتق له ذلك من ثناء الله تعالىٰ عليه ووصفه بفعله وإظهار كرامته لديه.

وقد كان ـ ﷺ ـ عَفُوّاً، وأَمَره الله سبحانه بدوام أخذِ العَفْو والصَّفح؛ وقد سأل جِبريلَ عليه السّلام عن قوله تعالىٰ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ [الأعراف ٧/ ١٩٩] فقال(2): أَنْ تعفوَ عمّن ظَلمك.

وقد ذكرنا وصْفَهُ في التّوراة في الحديث المعلُوم، الذي يقول ربُّ العزّة فيه، في وصفهِ ـ ﷺ(3) ـ: ليسَ بِفَظٍّ ولا غَلِيْظٍ، ولا سَخّابٍ في الأسواق، ولكن يعفو ويصفح ويغفر.

---

(1) اسمه ﷺ العفوّ في الشفا ١: ٣٣٢، وسبل الهدى والرّشاد ١: ٦٠٦، والرياض الأنيقة ٢١٤.

(2) في تفسير القرطبي (٧: ٣٤٥) عند تفسير هذه الآية الكريمة من كلام جبريل عليه السّلام: إنّ الله تعالى يأمرك أن تعفو عمّن ظلمك، وتُعطيَ مَن حَرَمك، وتصل مَن قطعك.

ـ والخبر في الشفا ١: ١٣٥. وهو في البخاري.

(3) مسند الإمام أحمد ٢: ١٧٤، والشفا ١: ١٥٦، وقد مَرّ؛ وله تتمة.

وقد سمىٰ الله سبحانه نفسه عَفُوّاً؛ ومعناه: الصَّفُوح عن زَلاّت العباد، الغافرُ ذنوبهم يومَ المَعاد.

ومعنىٰ العَفُوّ في حقّه عليه الصَّلاةُ والسَّلام أنّه كثيرُ التَّرْكِ للمُؤاخذة.

قالت عائشة رضي الله عنها[1]: «ما انتقم رسول الله ـ ﷺ ـ لنفسه قَطّ، إلا أن تُنتهك حُرمَةُ الله، فينتقمُ لله».

والأَنْقَالُ[2] مُتَواترة قطعيّة بأنه كان عليه الصلاة والسلام أَحْلَم النّاسِ، وأقواهم احتمالاً، وأشدّهم تركاً للمُؤاخذة مع القُدرة على الانتقام، مع صَبره وكثرة تَحَمُّلِهِ لِما يَكره من الجاهِلين.

ولا خَفَاءَ بِمَا يُؤثَرُ من تحمّله وحلمه عند النّاقلين. وأنّ كل حليم قد عُرِفَت منهُ زلّة، وحُفِظت عنه هَفوة؛ ونبيُّنا وشفيعنا ووسيلَتُنا إلى ربّنا لم يزدْ مع كثرة الجهلِ من الجاهل بهِ إلا صبراً، ومع إسراف الأعمال معه [١٨٢/أ] إلا احتمالاً وحلماً. وأقوىٰ دليلٍ على حلمه، قضيتُه وما وقع فيها مِن قومه.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: ممّا أكرم الله به نبيّه يومَ أُحد ما ابتلىٰ به أصحابه حين قُتل حمزةُ بنُ عبد المطّلب رضي الله عنه ومضىٰ رسولُ الله ـ ﷺ ـ بأصحابه يريد الجَبلَ؛ جبلَ أُحد، وقد كسر المشركون رَبَاعِيته[3]، وشجوّا وجهه. وحمله عمر بن الخطاب

(١) مسند الإمام أحمد ٦: ١١٤، وينظر الشفا ١: ١٣٧.

(٢) الأنقال في كتب اللغة جمع نقل وهو ما يُتنَقّل به.

ـ ومقصد المؤلف، النقول والروايات.

(٣) الرَّباعية: إحدى الأسنان الأربع التي تلي الثنايا بين الثنيّة والناب، وهما ثنتان من فوق وثنتان من تحت. والجمع رباعِيَات.

رضي الله عنه على ظهره، وأبو بكر رضي الله عنه قد جعلَ قميصَ رسول الله - ﷺ - تحت فَمِهِ، والنبيّ - ﷺ - يقول: يا أبا بكر! اجعَلْ قميصي تحت فمي لئلاّ يسيلَ دَمِي إلى الأرض، فقال أبو بكر: ولِمَ لا أترُك دمَك يسيل إلى الأرض؟ فقال - ﷺ -: أخافُ يا أبا بكر أن يهلكَ قومي لِذلك.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله! ما نريد إلا إهلاكهم لِمَا فعلُوا بك يا رسول الله!

قال عليه الصلاة والسلام لِمَا جُبِلَ عليه من الشّفقة والحنان: إني لا أقُول كما قال نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٧١/٢٦][1] ولكن أقول: اللّهمّ اهْدِ قومي فإنهم لا يَعْلَمُون[2]. ثم قال - ﷺ - لأصحابه: قاتلوا على بَرَكةِ الله وَعَوْنِه، فأقبل الناس على القتال، وظهر من عليّ بن أبي طالب في ذلك اليوم أمرٌ عظيم، يشتدّ في الناس يميناً وشمالاً، فإذا حَمل هَرب النّاسُ منه، وكان يُفرّقهم عن رسول الله - ﷺ -، وقد اشتدّ كربه، وطاش عقله رضي الله

(١) ينظر تفسير القرطبي ٢٠: ٣١٢ - ٣١٣.

(٢) الحديث في إتحاف السّادة المتقين ٨: ٢٥٨، وفي الدر المنثور ٢: ٢٩٨ و٣: ٩٤، وفيه أنه ﷺ قاله في مكة وهو يدعو الناس في أحد المواسم إلى دين الله... وفي الحديث: «فعَرض عليٌ عارضٌ فقال يا محمد إن كنت رسول الله فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك فقال النبي ﷺ: اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون وانصرني عليهم أن يجيبوني إلى طاعتك فجاء العباس عمه فأنقذه منهم وطردهم عنه..» الحديث.

- وعند القرطبي ٤: ١٩٩ - ٢٠٠ «اللهم اغْفِر لقومي فإنهم لا يعلمون» وفيه تفصيل لقوله ﷺ هذا الحديث في مكّة، وقوله إيّاه في غزوة أُحد.

- وقد خص النبي ﷺ في دعائه بعض المشركين ولكنه عمّ بدعوته قُريشاً والناس عسى الله أن يهديهم.

عنه لقتل عمّه حمزة، وصار كالبَعيرِ الهائج على العدوّ، وخافَ منه المُشركون، فإذا حمَل هرب الناس منه، والزبيرُ بنُ العوّام رضي الله عنه في ناحية مثله، وطلحةُ بنُ عبيد الله في ناحية أخرى مثله.

فشدّ طلحة رضي الله عنه على رجل من المشركين فضربه رجلٌ منهم فقطَع يده، وقيل شلّت، فأتى، ويده قد قبض عليها من الأرض مع سيفه بيمينه. فقال له نبيُّ الله ـ ﷺ ـ: يا طلحةُ ما تريد؟ أَرُدُّها لكَ في الدّنيا أم أَجعلها لك طائرةً في الجنّة [١٨٢/ب] فقال طلحة: تردّها لي في الدُّنيا وتجعلها لي طائرةً في الجنّة. فتبسَّم رسول الله ـ ﷺ ـ وقال: إني فاعلٌ ذلك غداً إن شاء الله، ثم قال: اذنُ مني، فدنا منه، فأمسك ـ ﷺ ـ يده ساعة، ثم خلىٰ سبيله وقال: قاتلْ على بركةِ الله وعَوْنِه.

فأقبل يقاتل، وعادت يده كما كانت إلا أنه كان بها أشدّ، فكان الزُّهري يسأله بعد ذلك، فيقول له: أي اليدين عندكَ أقوى وأصلبُ؟ فيقول: التي رَدُّها عليّ رسول الله ـ ﷺ ـ هي أقْوَى وأصلب.

ولمّا أن ذكر الإمام القاضي الشديد المحبة في رسول الله ـ ﷺ ـ أبو الفضل عياض(١) ـ رحمه الله ـ الشاهد من هذه القصّة في بلاغة عفوه وشدة صبره قال رضي الله عنه:

انظرْ ما في هذا القول من جماع الفَضل، ودَرجات الإحسان في النبي عليه الصلاة والسلام وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصَّبر والحلم، إذ لم يقتصر على السكوت عنهم حتى عَفا عنهم، ثم أشفقَ عليهم ورَحِمَهُم، ودَعا وشفع لهم فقال: اغفر واهْدِ.

---

(١) الشفا ١: ١٣٨.

ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله ـ ﷺ ـ: «القومي» ثم اعتذَر عنهم لجهلهم فقال: «فإنهم لا يعلمون»[(١)].

وشواهد الأنقال الدالة على حِلمه وتحمله لا تحيطُ بها الأقلام، ولا تسع[(٢)] ذكرها الدُّهور والأيام، ولقد أجاد شاعره حسان رضي الله عنه[(٣)] في قصيدته المعلومة التي يذكر فيها صفته عليه الصلاة والسلام بقوله[(٤)]:

عَـفُـوٌ عـن الـزلاّتِ يـقـبـلُ عُـذرهـمْ ... وإنْ يُـحْسِـنُـوا فـاللّـهُ بـالـخَـيْـرِ أَجْـوَدُ
وإن جـاءَ أمـرٌ لا يـطـيـقـون حـمـلَـهُ ... فـمـن عـنـده تـيـسـيـرُ مـا يـتـشـدّدُ
عـزيـزٌ عـليـه أن يـجـوروا عـن الـهُـدىٰ ... حريصٌ على أن يستقيموا ويهتدوا[(٥)]
عَـطُـوفٌ عـلـيـهـم لـيـسَ يَـثْـنِـي جـنـاحَـهُ ... إلـى كـنـف يَـحْـنُـو عـلـيـهـم ويَـمْـهَـدُ

فصل

مِن آدابِ مَن عَلِم أنّ نبينا ـ ﷺ ـ العفوّ، وأنّه عَفُوٌّ عن الزلاّت ساتر للعورات، أن يكون مُحبّه ومُتّبعه غافراً لزلاّتِ المُؤمنين، ساتراً لعوراتِ المُسلمين كاظماً للغيظ، عافياً عن الظّالمين، مُمتثلاً قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران ٣/ ١٣٤] فَصِلوا أيها المحبّون مَنْ قَطعكم، وأعطوا من حَرمكم [١٨٣/أ]، واعْفُوا عمّن ظلمكم، وأحْسِنوا لمن أساء إليكم، واسْتُروا زلاّتِ

---

(١) اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون (القرطبي ٤: ١٩٩)، وتنظر رواية: «اللهم اهْدِ قومي..» في الحاشية (٢) على الصفحة ٦٨٧ .
(٢) في ب: لا يحيط بها... ولا يسع ذكره.
(٣) ديوان حسان: ١٦٦.
(٤) من بحر الطويل.
(٥) في ب: أن يصدّوا.

إخوانِكم، فهذه أخلاقُ حبيبي وحبيبكم محمد - ﷺ - وأخلاقُ أصحابِهِ المقْتدين بأفعاله وأقواله، رضي الله عنهم.

قال ميمون بن مَهران رحمه الله سمعت ابن عباس رضي الله عنه يقول: ما بَلغني عن أخ مكروهٌ قطُّ إلا أنزلتُه أحدَ منازل ثلاث: إن كان فوقي تذكّرتُ منزلته، وعرفت قدره، وإن كان نظيري تفضّلتُ عليه وإن كان دوني لم أعبأ به. هذه سيرتي في نفسي فمَنْ رَغِبَ عنها فأرضُ الله واسعةٌ وقد ضمّن[١] ذلك بعض الشعراء في ثلاثة أبيات يقول فيها[٢]:

فأمّا الذي فَوقي فأَعْرِفُ قَدْرَهُ ... وألزم فيه الحقّ، فالحقّ لازمُ[٣]

وأمّا الذي دُوني فإن قال صنتُ عن ... إجابته عِرضي وإن لام لائمُ

وأمّا الذي مِثلي فإن زَلّ أو هَفا ... عَفوت لأنّ العفوَ للحرّ لازمُ[٤]

وقد ذكر قبل هذا بيتين وهما:[٥]

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منه عليّ الجرائمُ

وما الناس إلا واحد من ثلاثة ... شريف ومشروف ومَرْءٌ مُلازِمُ[٦]

وإنما يحصل العفو والصفح من المريد إذا استحضر ذنبه، وعدمَ وَفائِه مع مولاه، فيشغله ذلكَ عن الانتصارِ لنفسِه والأخذِ لها، والوقوف معها.

---

(١) في ب: وقد نظم.

(٢) من بحر الطويل.

(٣) في أ: وألزمه للحق. والمثبت من ب، و: ج.

(٤) في ب، و: ج: عفوت له والعفو.

(٥) انفردت بها (أ). وكان الناسخ قد جعل البيت الأول منهما في مقدمة الأبيات الثلاثة السابقة، والبيت التالي في آخرها.

(٦) في أ، في السطر الذي أضافه قبل الثلاثة الأبيات «... ومثل مقاوم».

ويتمكّنُ العفو، ويتأكّدُ في القلوب بقوّة الشّفقةِ والرّحمة، فإنهما يُحملان على عَدم الانتقام والانتصار، وكذلك يذكر الانتقال عن هذه الدار، والوقوف بين يدي مولانا العَفُوّ الغفار.

فتخلّقُوا رحمكم الله بأخلاق اللهِ تعالى وأَصْلِحُوا ذات بينكم، وصِلُوا أرحامَكم وإخوانكم، وأكْثِروا من حَسناتكم ليوم معادكم.

وتذكّروا يومَ القيامة وكيف تكونُ فيه أحوالُكم واستَحْضِروا وقُوفكم بين يَدي مولاكم [١٨٣/ب] خائفين من أعمالكم.

قال أَنس بن مالك رضي الله عنه[١] بينما رسولُ الله - ﷺ - جالسٌ إذْ رأيناه يضحكُ حتى بدت ثناياه، فقال عمر رضي الله عنه: ما يُضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي؟

قال عليه الصلاة والسلام رَجُلان من أُمّتي جَثَيا بين يَدي ربّ العِزة، فقال أحدهما: يا ربِّ خُذْ لي مَظْلَمَتِي من أخي هذا، فقال الله تعالى: أَعْطِ أخاكَ مَظْلَمَتَهُ، فيقول: يا رب لم يبق من حسناتي شيء.

فيقول الله تعالى للطالب: كيف تصنع ولم يبق لأخيك من حسناته شيء؟

قال: يا رب ليتحمل[٢] عني من أوزاري.

قال: ففاضت عينا رسول الله - ﷺ - لشفقته ورحمته فبكى، فقال: إن ذلك ليوم عظيم يحتاج الناس فيه إلى أن يحمل من أوزارهم.

---

(١) مستدرك الحاكم ٤: ٥٧٦، وتفسير ابن كثير ٣: ٥٥١، والفتح الكبير ١: ٣٥.

(٢) في ب: ليتحمّل.

قال، فقال الله تعالى للطالب: ارفع رأسك فانظر في الجنان، فرفع رأسه فقال: يا رب أرى مدائن من فضة مرصّعة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأي نبي هي، أو لأي صِدِّيق، أو لأي شهيد هذا الخير.

قال، فيقول رب العزة بكرمه وجوده وعفوه، هذا لمن أعطى ثمنه.

قال: يا رب! ومن يملك ثمنه؟

قال: أنت تملكه.

قال: وما هو يا رب؟ قال ربُّ العزة: عفوك عن أخيك، قال: فيقول: يا ربِّ إني قد عفوتُ عنه! قال: يقول الله تعالى: خذ بيد أخيكَ وَأدخله الجنة.

ثم قال ـ ﷺ ـ عند ذلك، فاتَّقُوا الله، وأَصْلِحُوا ذاتَ بينكم، فإنّ الله بفضلِه وكرَمِه يُصلح بين عباده المؤمنين.

فالله الله عبادَ الله في التَّخَلُّق بطريق رَسُول الله في عَفْوِه وصَفْحِه، وحُسن معاملته، فمن كان مثلنا مُكثراً للذنوب فليكثر من ستر العيوب عسى أن يجد ذلك عند علام الغيوب.

إذا ذكرت أياديكَ التي سَلفتْ ... وسوءَ فِعلي وزَلاّتي ومُجْتَرمي[1]
أكادَ أهلِكُ بأساً ثم يَبْسُطني ... جميلُ عفوكَ يا ذا الحِلْم والكَرمِ

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، وزاده مولانا شرفاً وكرماً ومهابة وتعظيماً.

(١) من بحر البسيط.

باب

في معنى اسمه:

الوَلِيّ والمَوْلى (١)

صَلّىٰ اللّهُ عَليهِ وسلّم وشرّف وكرّم

الوليُّ والمَوْلىٰ: اسمان من أَسمائِه عليه أفضلُ الصّلاة والسلام [١٨٤/أ].

قال - ﷺ -: «أنا وَلِيُّ كُلّ مؤمن». وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة ٥/٥٥] وقال عليه الصّلاة والسلام[٢]: «مَن كنتُ مَولاه فعليٌّ مولاه».

ومعنى الوليّ في حقّه - ﷺ - الناصر لدين الله، والناصر لكل مؤمن.

والمولىٰ الحقيقي هو الله خالقُ الخَلق، النّاصرُ والنَّصِير، وهو

---

(١) اسمه ﷺ: الوليّ، والمولى في الشفا ١: ٣٣٢، والمولى في سبل الهدى والرشاد ١: ٦٤٩ والرياض الأنيقة: ٢٥٧، والولي في سبل الهدى ١: ٦٦٢، والرياض الأنيقة: ٢٧١.

(٢) مسند أحمد: ٢: ٤٣٨، ٥: ٣٥٦، والنهاية لابن الأثير ٥: ٢٢٨، والشفا ١: ٤٦٨، ورواه الترمذي في المناقب ٥: ٢٩٧، وفي مناهل الشفا بتخريج أحاديث الشفا: أخرجه الترمذي عن أبي شريحة أو زيد بن أرقم وحسّنه.

الوَلِيّ الحقُّ المالكُ للعباد، القاهرُ لهم، المعزُّ المذلُّ لأربابِ الجبابرة، ومالك المُلوكِ، الذي لهُ المُلك في الدُّنيا والآخرة.

وقد يُطلق المَوْلَىٰ والوَلِيّ على النّاصر لدين الله تعالى من خلقه وعبادِه، والبَاذِل جَهده في نَصره وإعلاء كلمته، وإظهار دينهِ في بلادِه وعبادِه.

ولا ناصرَ لدين اللهِ، ولا باذلَ جهده في ذاتِ الله أقْوىٰ وأشجع من رسول الله ـ ﷺ ـ فحقيقٌ أن نسمّيَهُ سيّدنا ووَلِيّنا، ومَولانا وناصِرَنا، ووسيلتنا عند ربنا في دِيننا ودُنيانا يومَ مَعادِنا، وقد بذل جهده عليه الصّلاة والسلام في ذات رَبّه، وبالغَ في نَصره، وإظهار دينهِ، وإعلاءِ كلمتِه، كما هُوَ في الأنقال مقطوعٌ به، معلومٌ حتى سَلاّه رَبُّنا جل جلاله في قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات ٥١/٥٤] معناه لا لومَ عليكَ يا محمّد من قِبَلِنا فإنّك قد بلغت جهدك[١] في امتثالِ أمرنا، وتبليغ رسالتنا، ونصر شريعتنا[٢]، وإظهار ديننا، فمهلاً عليك يا حبيبنا، وسهّلْ أمرك، وخفّفْ عن قَلبك، فإنّك عزيزُ القَدر عندنا، وسَيأتيك النّصرُ من قبلنا والفتحُ المبينُ، والإمدادُ بملائكتنا، ونُظْهِرُ دينك على الدّين كُلّه ونُتِمّ عليكَ نِعْمَتنا.

وما زال ـ ﷺ ـ ناصراً لدين الله بيده ولسانِه، مُجاهداً في سبيل الله بسيفِه وبنانِه، حتى منع أُمّته من أعداءِ الله، وصيَّرها في ظليلِ عدلهِ وأمانِهِ، فمن استَنْصَر بهِ من أُمّته نَصره الله، ومَن كان ذليلاً واستعزّ بِعزّه أعزّهُ اللهصلى الله عليه وسلم وشَرّف وكرّم، وقد توسّلنا بعزّهِ إلى الله.

---

(١) في ب: بلغت وجدك.

(٢) في ب: ونشر شريعتنا.

ومـن تـكـن بـرسـولِ الله نُـصْـرَتُـه   إن تَلْقَهُ الأُسْدُ في آجامها تَجِمِ[1]
ولـن تـرىٰ مـن ولـيٍّ غـيـر منـتـصـرٍ   بـه ولا مـن عـدوٌ غـيـر مُـنـقـصـم
أحـل أمـتـه فـي حِـرْز مـلـتِـهِ   كالليث حل مع الأشبال في أَجَمِ[2]
كـم جـدّلـت كـلـمـاتُ الله مـن جَـدَلٍ   فيه وكم خصَم القرآن من خَصِمِ[3]
كـفـاك بـالـعـلـمِ فـي الأُمـيّ مُـعـجـزةً   في الجاهليّةِ والتأديبِ في اليتمِ[4]

[١٨٤/ب] فرحمَ الله صاحب البُرْدَة في كلامهِ هذا، فلقد نطقَ ببلاغةٍ شافيةٍ، وأبلغَ بكلماتٍ وافية.

فيحتمل أن يكون أشار إلى قصّة سفينة مولى رسول الله - ﷺ - حيث بعثه بكتابٍ إلى مُعاذ بن جبل وهو باليَمن، فإنّه لما صار[5] في بعض الطريق إذ هو بأسدٍ قد تعرض له، فتخوف منه، ولم يقدر على الجواز والمرور إذ هو برك في الطّريق، فوقع في قلبه، وعَلِمَ أنّ رسول الله - ﷺ - ولي الله، وولي كل مؤمن، وخصوصاً بمن والاه عليه الصلاة والسلام مثل سفينة مولاه[6].

فتقدم إليه وقال: أيها السَّبُع أنا رسولُ رسولِ الله - ﷺ - أرسلني إلى مُعاذ باليمن، قال: فقام السبع قدّامَهُ، فهرولَ هرولةً، ثم هَمْهَم، ثم خَرج وتنحّى عن الطريق فمضى سفينة فبلغ كتاب رسول الله - ﷺ - ثم

---

(١) من بُردة البوصيري، ديوانه: ٢٤٧ والبحر من البسيط.
تجم مضارع وَجَم، ومعناه: سكت على غيظ أو فزع.
(٢) الأجم جمع الأجمة: عرين الأسد.
(٣) في ب: البُرهان. وهذه مطابقة، لما في الدِّيوان.
(٤) إشارة إلى قوله ﷺ: أدّبني رَبّي فأحسن تأديبي.
(٥) في ب: سار في بعض الطريق.
(٦) سفينة مولى رسول الله ﷺ (طبقات ابن سعد ١: ٤٩٨) وقد أعتقه ﷺ.

رجع بجواب الكتاب، فإذا السّبع في الطريق فتخوف منه؛ ففعل ما فعل أولاً، وقال له مثل ما قال له فتنحّى الأسدُ عن الطَّريق، وجَعل يُهَمْهِم.

فلمّا قدِم علي رسول الله - ﷺ - أخْبَره الخَبر، ثم قال له: أتدري ما قالَ في المرّة الأولى؟

قال: لا.

قال: كيف رسول الله - ﷺ - وأبو بكر وعمر وعثمان رضوان الله عليهم؟

وأما المرّة الثانية، فقال فيها: أقرىء رسول الله - ﷺ - مني السّلام، وأبا بكر وعمرَ وعثمانَ وعلياً وصهيباً وبلالاً رضي الله عنهم.

ويحتمل أن يكونَ قَصْدُه في الأبيات أنَّ كل من والىٰ رسول الله - ﷺ - واستنصر به، نصرةً حقيقة، فإنّ رسول الله - ﷺ - وليّه وناصره في جميع أموره على الأسود من أعدائه لأنّه[1] أمَنةٌ لأصحابه وولي كل مؤمن من أحبابه، فلا تضيع محبة المحبين في جمالِ سيّد المُرسلين، ولا تذهبُ مُوالاة مَنْ والاه، ولا مَن استغاثَ به من المُستغيثين - ﷺ - وعلى آله وصحبه وشرّف وكرّم، وأتوسّل به إلى رَبّنا الأكرم. [١٨٥/أ].

مَلِكَ الجمالِ إليكَ أرفعُ قصّتي ... من طول هجرٍ قد أضرَّ بمهجتي[2]
وأُقَبِّلُ الأرضَ التي ذلّلتها ... ذلاً وأفصح في هواك شكيّتي[3]

---

(١) في العبارة العربية المعتادة، يقال هنا: «على الأسود (من أعدائه) والأحمر» يريدون على كل من يعاديه من أي جنس وأيّ لون (أي نصرةً عامّة).

(٢) من بحر الكامل.

(٣) في ب: ذلاً وأوضح من هواك.

وأقــولُ يــا مــولاي حــالــي بَــيِّــنٌ فبك انتصرت وأنتَ فارجُ كُرْبَتِي[1]

فصل

مِن آداب مَن عَلِمَ أنّ نبيّنا - ﷺ - اسمُه الوليّ والمَولىٰ بمعنىٰ الناصر؛ أنْ يكونَ المحبّ لهُ ولياً لأمّته ناصراً لأحبّته مُعيناً لِمَنِ انْتصَر به.

ويعلمُ أنه لو كانت الأُسود عند آجامها، والمُلوك في حالِ غَيظها لانكسرت حِدَّتُها، وقَلّتْ أذايتها عند الاستنصار بوليّ المؤمنين، وحبيبِ ربّ العالمين.

فكيفَ بكم أيّها المُحبّون إذا استنصرتُم بجنابِه، أو توسّل إليكم أحدٌ بِهِ من أُمّته في مُصابِه، فما لكم لا تُبادرون في نصره، ولا تبالغُونَ جَهدكم في قهرِ عدوّه، سيّما مَنْ كانَ مُنتسباً لجنابِه، أو مُظهراً للولاية له من أحبابه.

فلا يكونُ المحبُّ محبّاً حتى يكونَ إذا ذُكِرَ المحبُوبُ عنده تهيّج حبّه، واشتاقَ قلبُه، ويكون معظّماً لحبيبه، موالياً مَنْ يحبّه، فكيفَ لا يُنصر من وَالى بدر الوجود وحبيبَ الإلّه الملك المعبود، فلا يُعرض عن سماع صفاته[2] إلا مَطرود، ولا يسمع الاستنصار بجنابِه ويتصامم، ولا يبذل جهده في نصره إلاّ مَنْ كان مِن رحمة الله مبعود.

فإنّه - ﷺ - مُحمّد، والله جل جلاله المحمود، ولله درُّ القائل:

فيـا نُـزهـةَ الـدُّنـيـا ويـا غـايـةَ الـمُـنـىٰ فمن ذا الذي عن حُسنِ وجهكَ يصبرُ[3]

---

(١) في ب: كيف انتصرت.

(٢) في ب: صفته... الانتصار.

(٣) من بحر الطويل.

فَــمـا وَلَــدتْ حــوّاءُ مِــن نَــسْــلِ آدمٍ ولا فـي جِنَـانِ الـخُـلـدِ مـثـلَـكَ آخـرًا

فمن والىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ بِحُبّه، أو نسبه، أو انتسبَ إليه، فقد صار[1] له حرمةٌ عظيمةٌ، وذمّةٌ كريمةٌ، واستظَلّ بشجرة مباركة، فيجب نصرُه وموالاتُه، وجَبْرُ قلبه في جميع حالاته، وتزال أزماته[2]، أما سمعت قوله ـ ﷺ ـ: «مَنْ كنتُ ناصِرَهُ فعليٌّ ناصِرُه»[3] رضي الله عنه؛ لأنّ علياً رضي الله عنه تابع لرسول اللهِ في نصره، فكلّ مَن كان تابعاً لرسول الله فيجبُ نصرُه وإكرامه.

وقد كانت سيرةُ المحبّين، وطريقةُ السّالكين تعظيم أهلِ بيت المُصطفىٰ وإكرامهم، والذّبّ عنهم واحترامُهم [١٨٥/ب].

قال أبو بكر بن الطيب رحمه الله قال لي أبو سعيد الورّاق: غدوتُ يوماً إلى مجلس أبي مُسلم، وكان في طريقي دربٌ إلى المجلس، فإذا بباب الدّرب مغلق. فقلت: مَن غلق[4] هذا الباب؟ فقيل لي: فلان الهاشميّ.

فسمعَ كلامي فأغلظ عليّ، وكلّمني بجفاء، فأجَبْتُه. فلمّا كان اللّيل نِمتُ فَرأيتُ في مَنامي النبيَّ ـ ﷺ ـ ومعه أصحابُه العشرة المبشّرون بالجنة[5]؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) في ب؛ و: ج: صارت له حُرمة عظيمة.
(٢) عبارة (وتزال أزماته) لم ترد في: أ. وفي أ: أما تسمع.
(٣) تنظر الحاشية ٢ من هذا الباب، فقد ورد بصيغة، من كنت مولاه فعليّ مولاه. ولا أعرفه، ولم أجده بهذه الصّيغة.
(٤) في ب: من أغلق.
(٥) في ج: المشهود لهم بالجنة.

فقال لي النبيُّ - ﷺ - أنت غدوتَ إلى مجلسِ أبي مسلم، ووجدتَ الدَّرْبَ مُغلقاً، وكلّمك الهاشميُّ وكلّمتَهُ؟ ثم قال: يا عمرا ابطَحْهُ فاضربه عَشراً.

قال: فبَطحني وضَربني عَشراً بالدِّرّة.

ثم قال لي النبي - ﷺ -: إذا آذاك الهاشميْ فاحتملْهُ إكراماً لي. قال أبو سعيد: فوالله الذي لا إلَهَ إلا هو لقد مرضتُ عَشرة أيّام ثم بَرِئت!

فيجب علينا نصرةُ أصحابِه وقرابته وأحبابه[1]:

إنّي رضيتُ عليّاً قدوةً عَلَماً ... كما رضيتُ عَتِيقاً صاحبَ الغارِ[2]

كلُّ الصحابةِ عندي قُدْوَةٌ علَمٌ ... فَهلْ عَليّ بهذا القَوْلِ من عارِ

وقد رضيتُ أبا حَفْصٍ وشيعَتَهُ ... وما رضيتُ بِقَتْلِ الشّيخِ في الدّارِ[3]

إن كنتَ تعلمُ أنّي لا أُحبّهمُ ... إلاّ لأجلكَ فاعتِقْني مِنَ النارِ!

وصلّى الله على سيّدنا ومَولانا وحبيبنا وشفيعنا محمّد وعلى آلهِ وصحبهِ وسلّم تسليماً. وزادَه مولانا شَرفاً وتعظيماً.

---

(١) في ب: أقاربه.

(٢) من بحر البسيط.

(٣) الإشارة واضحة إلى الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم.

باب

في معنى اسمَيْهِ:

ذي قُوَّة، ومكين(١)

صَلَّىٰ اللَّهُ عَليهِ وسلَّم وشرَّف وكرَّم

ذُو قُوَّةٍ عند ذي العَرْش؛ ومَكِيْنٌ: اسمان من أسمائه عليه أفضل الصلاة والسلام وصفه بهما ربُّه عز وجل في كتابه ـ على قول بعض العلماء ـ في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ۝٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ۝٢٥﴾ [التكوير ٨١/ ١٥ ـ ٢٥].

اختلفَ العُلماءُ رضي الله عنهم من المُراد(٢) بالرّسول الكريم في هذه الآية العظيمة، فقيل: المرادُ بذلك جبريلُ عليه السلام [١٨٦/أ].

فعلىٰ هذا تكون الأوصافُ جاريةً عليه.

وقيل: الرسولُ الكريمُ هو نبيُّنا الرؤوفُ الرّحيم؛ فالأوصاف

---

(١) اسمه ﷺ ذو قوة مكين في الشفا ١: ٣٣١، وذو القوة في: سبل الهدى والرشاد ١: ٥٦٩، والرّياض الأنيقة: ١٥٨، والمكين في سبل الهدى والرشاد ١/ ٦٤٤، والرّياض الأنيقة: ٢٥٢.

(٢) في ب: ما المراد.

كلُّها صادقةٌ عليه، ومقصور وَصْفُها لديه، وهو الظّاهر من القول، ويؤيده اتّفاقُهم على أنّ قوله تعالىٰ في آخر الآية ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير ٨١/٢٤] أي بمتّهمٍ، فإنّ الضميرَ عائدٌ عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

فلنتكلّم على تفسير ألفاظِ الآيةِ الكريمةِ على هذا القول؛ فمعنىٰ قوله: لا أقسم أي: أُقسم، و «لا» صلةٌ في الكلام، ودعامةٌ فيه، وتأكيد لِـ «أُقسم»، وفائدته: الاعتناءُ بمقامه عليه الصّلاة والسّلام من رَبّ العِزّة سُبحانه حيث أقسَمَ له بمخلوقاتِه وهي الخُنّس، أي: الكواكب السّبعة في جريانها وخفائِها عند طُلوعِ الشّمس، واللّيل في إقباله وإدبارِه، والصُّبح في تنفُّسِه أي هبوب ريحِه عند طلوعه.

فجميع هٰذهِ المَخْلُوقات أقسم بها رَبُّنا عزّ وجل لنبيّنا محمد ـ ﷺ ـ رادّاً على الكُفّار مقالتهم في قولهم أنّ ما جاءَ بهِ من القُرآن سِحر، وبه جِنّة[1]، وأنه مفترٍ، فحقّق الله تعالىٰ مكانة نبيّهِ عندهُ وأقسم على ذلك، وبالغَ في قسمه.

وخَبَرُهُ جلّ جلالُه حقٌّ وصدق لا يحتاج إلىٰ قَسم، ولكنْ فيه من إظهار قدر المصطفى عند مولاه وبيان منزلته ومكانته على مَن سواه، ما يُدركه كلُّ ذِي عقلٍ سليمٍ، وفهمٍ ثاقِبٍ عظيم.

فكأنّهُ سبحانَهُ قال: أقسَمْنا لك يا محمّدا يا عزيزَ القَدْر عندنا، بعظيمِ مخلُوقاتنا أنّ القولَ الذي أَتَيْتَ به وهو القُرآن، قولُ رسولٍ كريم عندنا، أمرناكَ بتبليغهِ إلى خَلْقِنَا، وأنّكَ ذو قُوّةٍ عظيمةٍ على تبليغِ ما أمّنّاهُ

---

(١) تُنظر سورة سبأ ٣٤/٨.

عندك، وحَمّلناه لكَ من وَحْينا بما أعطيناكَ من تمام اليقين، وفضّلناك به على سائر المُرسلين؛ وأنك عندنا - يا محمد - مكينٌ أي: متمكّنُ المنزلةِ رفيعُ المحلّ لدينا رفيع القَدْرِ[1]، حريصٌ على إيمان الخلائق بنا.

وأنّكَ مطاعٌ ثَمَّ في جميعِ ما تطلبُه مِنّا، وأنك أمين [١٨٦/ب] في سمائنا وأرضنا، أمينٌ على وَحْيِنا المنزّلِ عليك إلى خلقنا.

فذكرَ الله تعالى في وصفه عليه الصلاة والسلام ستّة أوصافٍ وحلاّه وسَمّاه بها، فهي صادقةٌ عليه من غير خلاف. فسمّاه رَسُولاً، وأنه كريم عنده، وأنّه ذو قُوّةٍ على التّبليغ، وأنّه مكينٌ أي متمكن المنزلةِ، وأنّه مطاعٌ عنده، وأنه أمينٌ - ﷺ -.

فتذكّروا رحمكم الله وضَاعفَ حُبّي وحبّكم في هذا النبيّ المكين، وتأمّلوا منزلتَهُ ومكانتَهُ عند ربنا، ووصفَهُ له بأنه ذو قوّة عند ذي العَرْشِ مكين، يزدَدْ في قلوبكم الإيمان بعظيم قدره، وشريف منزلته، وحظوة رُتبته عند ربّه الذي خلق العرش والكرسيَّ، والسفليّ والعلويّ وأنّه ما خلَق خلقاً أعظمَ ولا أكرمَ عليه سبحانه منه، ولا خاطبَ محبُوباً مخاطبةً فيها تلطّفٌ مثل تلطّفه في مخاطبته، ولا رضيَ عن مخلوقٍ مثلَ رِضاه عنه[2].

مَن أنزلَ الله في أمداحِه السُّورَا ... ولم يكنْ في البَرايا مثلَهُ بَشَرا

وعن حقيقتِه عقلُ الورىٰ قَصُرا ... أعيىٰ الورىٰ فَهْمُ معناه فليسَ يُرى

لـلـقُـرْبِ والـبُـعْـدِ فـيـهِ غـيـر مُـنـفـحـمِ

فناهيكَ بمقامٍ شَهِدَ فيه القويّ العزيز بأنّه ذُو قُوةٍ عند ذي العَرشِ

(١) في ب: عظيم القدر... الخلق بنا.

(٢) من بحر البسيط؛ والتخميس مبني على بيت في بردة البوصيري (ديوانه: ٢٤١).

مَكين، ويَا له من شَرفٍ قد حلاّه فيه ربُّ العزّة، ووصَفَهُ سبحانه وتعالىٰ بأنّه المطاع الأمين.

إن شئتَ نَيْلَ الهُدَى فالزمْ طريقَتَهُ فهو الّذي أينَع الباري حَدِيْقَتَهُ
واختارَهُ قبل أنْ يبدي خليقَتَهُ وكيفَ يُدرك في الدُّنيا حقيقَتَهُ
قومٌ نِيامٌ تسلَّوا عنهُ بالحُلُمِ!
في مدحِه جاءتِ الآياتُ والسُّوَرُ وقصّرتْ عن مَدى إدراكه الفِكَرُ
وكل طول امتداحٍ فيه مختصرُ فمبلغُ العلم فيه أنّهُ بَشرٌ[1]
وأنّه خيرُ خلقِ اللهِ كلِّهِمِ

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ نبيّنا عليه الصّلاة والسلام سَمّاه رَبُّه[2] «ذي قُوّةٍ عند ذي العرشِ مكين» أن يكون محبُّه متخلّقاً بأوصافِه، متّبعاً طريقة[3] أصحابهِ المتّقين.

فَيُطلَبُ من المؤمن المحبّ أن يكونَ قويّاً في يقينِه وتمكّنه [١٨٧/أ] وإيمانه، عزيزاً على الكافرين، ذليلاً على المُؤمنين، متيناً في خوفِهِ، مُراقباً لربّه رَبِّ العالمين، خائفاً من وُقوفه بين يَدي أحكم الحاكمين.

قال أبو عثمان النّهدِي: قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: ثَلاثَةٌ أَعجبتني حتىٰ أضحكتني؛ مؤمّلُ الدُّنيا والمَوْتُ يطلبهُ، وغافلٌ عن الله وليسَ بمغفولٍ عنه، وضاحكٌ ملءَ فيه ولا يَدري أساخطٌ ربُّ العالمينَ

---

(١) الأبيات تخميس لبيتين للبوصيري من البُردة ٢٤١، ٢٤٢.
(٢) في ب: ربنا.
(٣) في ب: طريق أصحابه.

عليه أم راضٍ عنه.

وثلاثة أحزنتني حتىٰ أبكتني؛ «فراق محمّد - ﷺ - وحِزبه، وهَوْلُ المَطْلَع، والوقوفُ بين يدي الله عز وجل ولا أدري إلى جنّةٍ أم إلى نار؛ إلى جَنّةٍ فَأَهْنَأ أم إلى نار فَأُعَزّى»!

فبادِرُوا - رَحِمَكُمُ الله - بقوّةٍ في طاعة الله، وبعزمٍ في اتّباع رسول الله، وابتَهِلُوا إلى ربّكم بالتّضرُّع والإنابةِ في ضَرّائكم وسَرّائكم.

قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: إنّ العَبْدَ إذا كان يدعو الله تعالىٰ بجِدٍّ في السّرّاء فنزلتْ به الضرّاء، فدعا الله تعالىٰ، قالت الملائكة: هذا صوتٌ معروفٌ من آدمي ضعيف دعا الله بقوّةٍ فيشفعون في حاجته. وإذا كان العبدُ لا يدعو الله في السرّاء ونزلتْ بهِ الضرّاءُ فدعا الله تعالى قالت الملائكة: صوتٌ منكر من آدميّ ضعيف فلا يشفعون فيه.

هذا معنىٰ كلامه - رضي الله عنه - وهو من معنى ما أشار إليه رسول الله - ﷺ - في قوله[1]: تعرَّفْ إلى اللهِ في الرّخاءِ يعرفْكَ في الشدّة.

وقد ذَمّ مولانا جلّ جلالُه حالَ الإنسان الذي إذا فرّج الله كربه، وأذهب ضرّه، غفل عن مولاه واتّبع شهوته[2] وهواه؛ فقال وهو أصدقُ القائلين: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِيْنَ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس ١٠/١٢].

فالمؤمِن القويُّ الإيمان ليسَ هذا حالُ ولا عهدَه مع مولاه ولا أدبه

---

(١) كشف الخفا ١: ٣٦٦، وتفسير القرطبي ٦: ٣٩٨، والفتح الكبير ٢: ٣١.

(٢) في ب: شهواته.

مَع مَن خَلقه ورزَقه وسَوّاه.

وقد دخل بعضُ الصَّحابة رضي الله عنهم على صديقٍ له يزورُه ويعودُه في مرضه فقال له: إن الله سبحانه يبتلي عبده المؤمن بالبلاء ثم يُعافيه فيكونُ كفّارةً له لِمَا مَضى من ذنبه فيَستعتبُ[1] في الّذي يبقى ويتوبُ إلى مولاه، ويتذكر نعمتَهُ عَليه وهُداه.

وإنّ الله يَبتلي عبدَهُ الفاجِر بالبلاءِ ثمّ يُعافيه فيكونُ كالبعيرِ عَقلهُ أهلُه، فلا يدري حين عقلوه في ما عَقَلُوه ولا حين أطلقوه في ما أطلقوه! [١٨٧/ب].

فَمن غفلَ عن ربّه في جميع فِعله وقوله فقد ذمّه مولاه ذمّاً طويلاً، ويصدق في مثلِه قوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان ٢٥/ ٤٤].

فتضرّعوا إلى مَولاكم، واشكروا الله الّذي بفضلِه قد هَداكم، وتوسّلُوا إليه بمَن شرّفكم بهِ وسَمّاكم، وقولُوا بقلبٍ حاضرٍ ولسانٍ ذاكر[2]:

يا ربِّ وارحمْ عُبَيداً لا يزال مُسِيي ... يرجُو الغنىٰ بك إذْ يلقاكَ بالفَلَسِ
ويحسبُ الفوزَ بالجنّاتِ والقُدُسِ ... يا ربِّ واجْعَلْ رَجائي غيرَ مُنعكسِ
لديكَ واجعلْ حسابي غيرَ مُنخرمِ
يا ذا العلا واعْطِه ما كان يأملُهُ ... وأعلِ في غُرَفِ الجنّاتِ مَنزلَهُ
وأنْجِهِ من عَذابٍ قد تَهَوّلَهُ ... والطُفْ بعبدِكَ في الدّارين إنّ لهُ

---

(١) استعتبه: استرضاه بأنْ يَصنع ما يُحِبّ وينتهي عما يكره وينهى.

(٢) الأبيات تخميس لبيتين من بُرْدَة البُوصيري في ديوانه: ٢٤٨.

صَـبْـراً مـتـىٰ تَـدْعُـه الأهـوالُ يـنـهـزمِ!

وصلّى الله عَلى سَيّدنا ومولانا مُحَمّد وحبيبنا وشَفِيعنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً، وزادَهُ مَوْلانا شَرَفاً وتَعْظِيماً.

بـاب

في معنىٰ اسمَيْهِ:

الشَّفِيع والمُشَفَّع(١)

صَلَّىٰ اللَّهُ عَليهِ وسلَّم وشرَّف وكرَّم

الشَّفِيعُ والمُشَفَّع: اسمان من أسمائِه عليه الصَّلاةُ والسَّلام، أُطلق ذلك عليه في الآثارِ المَرْوِيّة، واتّصف بهما بإجماعِ الأُمّة المحمدية.

ومعنى الشفيع: يحتمل أن يكون بمعنىٰ الشّافع في الخلائق عند ربّ العزة، وعُدِلَ عن ذلك للمبالغة والكرامة لعظيم شفاعته يوم القيامة.

ويُحتمل أن يكونَ الشّفيع بمعنىٰ المشفَّع أي الذي قبل المولى جلّ جلاله شفاعته، وأجاب طِلبته، وأبانَ منزلته، وأظهر طاعته.

وقد قال عليه الصلاة والسلام(٢): «أنا سيد ولد آدم ولا فَخر، وأنا أوّلُ من تنشقُّ الأرضُ عنه، وأنا أوّل شافع، وأنا أول مشفَّع».

وقال ـ ﷺ ـ: «لكل نبيٍّ دعوةٌ مُستجابة فأريدُ أن أختبىء دعوتي شفاعةً لأُمّتي يومَ القِيامة».

---

(١) الشفيع المشفّع في الشفا ١: ٣٢٠، وسبل الهدى والرشاد ١: ٥٨٤، والرياض الأنيقة: ١٨٠.

(٢) صحيح مسلم ١٧٩٢، والشفا ١: ٣٢١، وكنز العمال ٣٢٠٤٠، وللحديث روايات.

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما[1] قال رسول الله ـ ﷺ ـ: تُوضع للأنبياء منابر من نور فيجلسون عليها، ويَبقى منبري لا أجلس عليه، قائماً بين يدي ربي، منتصباً مخافةَ أن يبعث بي إلى الجنة [١٨٨/أ] وتبقى أُمّتي بعدي، فأقول يا رب أُمّتي، يا رب أمتي، فيقول الله تعالى: يا محمد! ما تريد أن أصنع بأمّتك؟ فأقول: يا رب! عجل لي حسابهم، فما أزال أُشفَع حتّى أعطى صِكاكاً برجالٍ قد بُعِثَ بهم إلى النار، وحتى إنّ مالكاً خازن النار يقول:

«يا محمّد! ما تركتَ في النّار لغضب رَبّك في أُمّتك من بقيّة..».

وعن أبي موسى الأشعري[2] رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «خُيّرت بين أن يدخل نصف أُمّتي الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة لأنّها أعمّ، أترونها للمتّقين؟ ولكنها للمذنبين الخاطئين».

والشفاعات التي فَضّل الله بها نبينا ـ ﷺ ـ كثيرة، ومقاماته فيها عظيمة.

منها شفاعته لمن وَجب عليه العَذاب ودخلَ النار[3]، فيخرج منها بِشَفاعةِ رسول الله ـ ﷺ ـ النبيّ المختار.

---

(١) في الأحاديث القُدسية: ٣٥٥، ومسند أحمد ٥: ٣١٨، والترمذي ٢٤٣٤، وهو في إحياء علوم الدين ٢٩٩٠.

(٢) في الشفا ١: ٤٢٠، وهو في مسند أحمد ٢:٧٥ بلفظ مقارب! وينظر الفتح الكبير ٢: ١٠٤، وفي رواية (مجمع الزوائد ١٠: ٣٧٨) للخطّائين المتلوّثين».

(٣) في حديث ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ ليدخلنّ الجنّة قومٌ قد عُذّبوا في النار برحمة الله وشفاعة الشافعين. قال في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٧٩ رواه الطبراني في الأوسط وفيه من لم أعرفهم.

ومنها شَفاعتُه لمنْ قال لا إلّه إلاّ الله[1]، ويطلب ذلك من الله فيقول ربُ العزة: ليسَ ذلك إليك. وعزتي وعظمتي وكبريائي لأُخْرِجَنَّ من النارِ مَنْ قال لا إلّه إلاّ الله.

ومنها شفاعته في تخفيف العَذابِ عمّن أراد الله خُلوده في النّارِ كشفاعتِه لعمّه أبي طالب[2].

ومنها شفاعَتُه في قومٍ أمر الله تعالى بدخولهم النار فَيُرَدُّون بشفاعتِه عليه الصلاة والسلام إلى الجَنة دار القرار[3].

ومنها شفاعته في تعجيلِ مَنْ لا حسابَ عليه إلى الجنّة.

ومنها شفاعَتُه العظيمة[4] العامّة لجميع الخلائق من هَوْلِ المَحْشَر حيث تضعُ كلّ ذاتِ حمل حَملها، وترى النّاسَ سُكارى وما هم بسكارى؛ ويشتغلُ كلُ إنسانٍ بنفسه، ويفرّ المرءُ من أخيه وأمه وأبيه، ولا تجد الأمم ناصراً لها ولا شافعاً لتعجيل حسابها إلا مَنِ ادّخره الله عز وجل رحمةً للعالمين، ونعمة عظيمة عميمة للخلائق أجمعين.

---

(١) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: إن ناساً من أهل لا إلّه إلاّ الله يدخلون النار بذنوبهم فيقول لهم أهل اللات والعزّى ما أغنى عنكم قولكم: لا إلّه إلا الله وأنتم معنا في النار. فيغضب الله لهم فيخرجهم فيقذف بهم في نهر الحياة.. الحديث. قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه الطبراني في الأوسط وفيه من لم أعرفهم وفي حديث رواه أحمد، ورجاله ثقات: «... فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة فهي لكم ولمن شهد أن لا إلّه إلا الله. (مجمع الزوائد ١٠: ٣٦٧).

(٢) في حديث العباس رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك فهل ينفعه ذلك؟ قال: نعم، وجدته في غمراتٍ من النار فأخرجتُه إلى ضحضاحٍ منها (سبل الهدى ٢: ٥٦٥) رواه البخاري ومسلم.

(٣) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٢: ٤٣٣.

(٤) في ب: شفاعته العظمى.

ولنذكر الحديث المعلوم في ذلك، وفيه طرقٌ مختلفة يجمَعُها ما نذكره بعد أن نبيّن ما يجب اعتقادُه في أنبياء الله تعالى وخواصه من خلقه عليهم الصلاة والسلام في أنّهم قد عصمهم مولاهم [١٨٨/ب] من جميع المُخالفات، وحفظهم من الوقوع في المنهيات[١]، وقلوبهم مُراقِبَةٌ للمولى عن ملاحظته لا يَفْتُرون، فهم لا يَعْصُوْن الله ما أَمرهم، ويَفعلون ما يُؤمرون.

فكلّ ما ذُكر عنهم أو نُسِبَ إليهم ممّا لا يجوز عليهم فلا تفهموه على ظاهِره، فإنّ العصمةَ لهم تأباه، ومنزلته من الله ومكانتهم تمنعه وتَشْناه[٢].

فإن كنتَ من أهل التّأويل فتأوّلْ عنهم ما يليقُ بهم؛ وإلاّ فاتْرُكِ التّأويل لمن وفّقه الله وهَداه.

وقد وَرد في روايةِ أنسٍ وأبي هُريرة وغيرهما رضي الله عنهما ودخل حديثُ بعضهم في حديثِ بعضٍ قال عليه الصلاة والسلام[٣]: «يجمعُ الله الأولين والآخرين يوم القيامة فيهتمون أو قال فيلهمون فيقولون لو استَشفعنا إلى ربّنا؛ قال أبو هريرة وتدنُو الشمسُ فيبلغُ النّاس من الغَمّ ما لا يُطيقون، فيقولون: ألا تنظرون مَن يشفع لكم؟

فيأتونَ آدم عليه السلام ففي رواية يقولون: أنتَ آدم أبُو البشر،

---

(١) في ب: في الشبهات.

(٢) شنه أي أبغضه.

(٣) فتح الباري ١١: ٤١٧، ٤٤٧. والمقاصد السنية في الأحاديث القدسية: ١٠٦ (وإحالاته) و١٠٨. قال: ورواه البخاري مختصراً عن أبي هريرة في كتاب التوحيد برقم ٧٤٣٨ ورواه مسلم في كتاب الإيمان برقم ١٨٢.

ـ وعبارته قريبة مما أورده الغزالي في الإحياء ٤: ٥٢٧، ٥٢٨.

خلقك الله بيده، ونفخَ فيك من رُوحه؛ ومعنىٰ: خلقك الله بيده أي خلقك بقُدرته، وخصّ ذلك في آدم، وإن كانت المخلوقات كلها بقُدرة الله لمزيّةِ اختصاصِ أُبوّة البَشريّة مع ما انضاف إلى ذلك من النُّبوءة وطريقه السَّنِيّة.

ويستحيلُ حَمْلُ اليدِ على الجارحةِ في حقّ مولانا جلّ جَلاله الذي لا يُشبه المخلوقات ولا يُشبهه شيءٌ من الموجودات.

قال، فيقولون: أسكنكَ الله جَنّته، وأسجد لك ملائكته وعَلّمك أسماء كل شيء، اشفعْ لنا عند رَبّك حتى يُريحنا من مكاننا هذا ألا ترى ما نحن فيه؟

قال، فيقول: إن ربّي غضب اليومَ غضَباً لم يغضب قبله ولا بعده مثله.

ومعنىٰ الغضب من ربنا تبارك وتعالى إظهارُ الانتقام في خلقه لأنّه يستحيل في حقّه ما يُفهم من غضب المخلوقات.

قال: ثم يعتذر عن الشفاعة بقوله: نهاني عن الشّجرة؛ نفسي! نفسي! اذهَبُوا إلى غيري، وهذا منه صلوات الله وسلامه عليه على سبيل إظهار الفاقة، والاحتياج إلى الربّ عزّ وجلّ، وعن غَلبة الخوف على القلب [١٨٩/أ]، والترقّي من مقام إلى مقام؛ مع عنايةٍ من الله به[١]، والإكرام؛ ولا سيما الأنبياء[٢] معصُومون فلا يعصون، بل يَفْعَلُون ما يؤمرون، وعلى ذلك يجبُ فَهْمُ ما فِي البُخاري وغيره من الآيات وما وقع في الروايات.

---

(١) في ب: عناية الله له.

(٢) في ب: لأنّ الأنبياء...

ثم يقول: اذهبوا إلى نوح عليه السلام فيأتون نوحاً عليه السلام فيستشفعون به، فيعتذرُ لهم لشدّة الهَول وعِظَمِه، فيدلّهم على إبراهيم - خليل الرّحمن - فيأتُون إلى إبراهيم عليه السلام فيستشفعون به فيعتذر لهم، فيدلّهم على موسى عليه السلام فيأتُون موسىٰ فيستشفعون به فيعتذر لهم، ويدلهم على عيسىٰ عليه السلام فيستشفعون به فيعتذرُ لهم، ويدلّهم على مَنْ شهدت له الكائنات بأنّه أفضل أهل الأرض والسّماوات، فيقول: عليكُم بمحمّد فإنّه عبدٌ غُفِر له ما تقدّم من ذنبِه وما تأخّر.

فيأتون إلى نبيّنا وشفيعنا، فيقول لهم: أنا لَها. فينطلقُ فيستأذنُ على ربّنا فيؤذن له، قال عليه الصلاة والسلام: فإذا رأيتُه وقعتُ ساجداً.

فيقول: يا محمّد ارفعْ رأسك، سَلْ تُعْطَ، واشفعْ تُشَفَّعْ، فأرفعُ رأسي، فأقول يا رب أُمّتي، يا رب أُمّتي، فيرحم الله عبيده بشفاعته ويتداركهم عفوُه بكرامته.

ويلجأ أهلُ المَحْشَرِ إلى رُكنه العظيم، وفخامته، ويستعصمُ أذلاّءُ الذُّنوب بعزّه عند الله ومَكانته، وكلّ ناطق بلسان حاله ومقالته[(١)]:

ذُنوبيَ اليومَ قد أربتْ على العَددِ ... وما بجسمي بلفح النّارِ من جَلَدِ[(٢)]

ولَسْتُ أرجو سِواهُ عُدّةً لِغَدِي ... إن لم يكنْ في مَعادِي آخذاً بيدي

فَضلاً، وإلاّ فَقُلْ يا زَلَّةَ القَدمِ

به سَتُقبل عندَ الله مَعذرتي ... ويُصلح الله دنياي وآخرتي[(٣)]

---

(١) هذا تخميس لبيت من البُردة (ديوان البوصيري: ٢٤٨).

(٢) في ب: للفح النار.

(٣) تخميس لبيت من البردة (ديوان البوصيري: ٢٤٨) وهذا البيت من البردة في الديوان يسبق البيت الذي ورد هنا قبله.

وفـي شـفـاعَـتِـه فـوزي بِـمَـغْـفِـرَتـي فـإنّ لـي ذمّـةً مـنـهُ بـتـسـمـيـتـي

مـحـمّـداً وهـو أوفـىٰ الـخَـلْـقِ بـالـذّمـمِ

فصل

مِن آداب مَنْ علم أنّ نبيّنا - ﷺ - اسْمُه الشَّفِيْعُ المُشَفّع أن يعامل الله تعالىٰ معاملةً يكونُ فيها عنده سُبحانه ذا وَجاهةٍ فيقبل [١٨٩/ب] شفاعته في أهلِهِ وقَرابتِهِ وأصدقائِهِ ومَعارفه.

فكما أنّ لأنبياءِ الله تعالى شفاعةً في بعضِ المخلُوقات فكذلك يشفعُ الصدّيقون عند أَرحم الرّاحمين في أهل الجنايات. وكلّ من كان له عند الله جاهٌ من العلماء والصالحين تكونُ له شفاعةٌ في المُذنبين عند أرحم الراحمين.

فكنْ حريصاً يا أخي على أن تكسبَ لنفسكَ رتبةَ الشّفاعة، وكنْ طالباً لها مِنَ الله عَسى أن تحصلَ لكَ هذه البضاعة. ولا تحتقر آدميّاً في عباد الله، فلعل الذي تزدري به عينُك وليُّ الله، فإن الله تعالىٰ أخفى وليّه في خَلقه، وبوجودهم أمسك بلاءه عن أهلِ أرضه.

ولا تَستصغر معصيةً، فلعلّ الذنبَ الذي تَستصغره يكونُ مقتُ الله فيه، فإنّ الله تعالى أخفَى غضبَه في مَعاصيهِ.

ولا تحقرنّ طاعةً، فلعلّ رِضىٰ الله فيها، فإنّ الله سبحانه أخفى رضاهُ في طاعته.

فاجتهدْ يا أخِي فيها، وتصدّقْ بصدقةٍ وإن قَلّتْ ولو الكلمة الطيبة، أو النيّة الحسَنة، أو إعطاء لقمةٍ أو شربة ماء، فإنّ الذي تُعامله هو أكرم الأكرمين، فبِجُوده لا يضيعُ أجر المحسنين.

وقد قال عليه الصّلاة والسّلام[1]: «يدخلُ الجنّة بشفاعةِ رجلٍ من أُمّتي أكثر من ربيعة ومُضَر، قال: فيُقال للرّجل: قُمْ يا فُلان فاشفع فيقوم الرجل فيشفعُ لقبيلتِه ولأهْلِ بيتِه، وللرَّجُلِ والرّجلين على قدر عمله».

قال أنس رضي الله عنه: قال ـ ﷺ[2] ـ: «إنّ رجلاً من أهل الجنة لَيُشرف يوم القِيامة على أهلِ النّار فيناديه رجلٌ منها، فيقولُ: يا فُلان! هل تعرفني؟

فيقول: لا والله لا أعرفك، من أنت؟

فيقول: أنا الذي مررتَ في الدُّنيا يوماً فاستسقيتني ماءً فسقيتك.

فيقول: قد عرفتك!

قال، فيقول له: فاشفعْ لي بها عند ربك.

قال: فيسأل الله تعالى له، فيقول: يا رب إني قد أشرفتُ على أهل النار فنَاداني رجلٌ من أهلها فقال: هل تعرفني؟ فقلت: لا! من أنت؟ فقال أنا الذي استسقيتني في الدُّنيا شربة ماء فسقيتك، فاشفعْ لي بها، فَشفّعنِي يا رب فيه، فيشفّعه الله فيه، فيؤمَرُ به فيخرجُ من النّار.

هذا كرمُ مولانا الرحمن الرحيم، وهذا جوده وفضله العميم. فليس

---

(۱) تهذيب ابن عساكر ٣: ١٧٤، ودلائل البيهقي ٦: ٣٧٨، والفتح الكبير ٣: ٤٢١ بلفظ أكثر من بني تميم. وإحياء علوم الدين ٤: ٥٢٨. قال العلامة العراقي: قال الترمذي ـ في هذا الحديث ـ: حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح. قيل: أراد بالرجل أوَيساً.

(٢) إتحاف السادة المتقين ١٠: ٤٩٦، والترغيب والترهيب ٢: ٦٩، وإحياء علوم الدين ٤: ٥٢٨ قال العلامة العراقي في تخريج الحديث: أخرجه الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف.

للعبدِ المُذنب إلا رحمته، ولا للمُسيء الجاني مثلي إلا عفوه ومنته [١٩٠/أ][1].

خلت الدّيار فلا كريمٌ يرتجىٰ ... منه النّوالُ ولا مليحٌ يعشقُ[2]!
إلا الّذي حازَ الكمال بأسرِهِ ... ربّ البرايا عرفهُ يُستنشقُ[3]
أعطىٰ وأجمل في العطاءِ لخلقِه ... كلّ الأنامِ بفضلهِ متعلّقُ

فسبحان الكريم، ذي الفضلِ العَميم الّذي بجوده يعفُو عن الزلاّت، وبِكَرَمِه يسترُ العورات، وبإحسانِه يقبلُ القليلَ من الحَسنات، وبحلمه يتجاوز عن كثير السيئات.

إذا ذكرتُ أياديكَ الّتي سَلفتْ ... وسوءَ فِعلي وزلاّتي ومُجْتَرمي[4]
أكادُ أهلكُ يأساً ثم يُدركني ... جميلُ عَفوكَ يا ذا الحِلمِ والكَرمِ

غفرَ الله الكريم ذنوبنا، وستَر عيوبنا، وشَفّع فينا نبينا وحبيبنا ـ ﷺ ـ وعلى آلِه وصَحبه وسلم صلاةً ننجو بها من جميعِ أهوالنا وكُروبنا، وسلّم تسليماً، وزاده مَولانا شرفاً وتعظيماً.

---

(١) من الشعر المشهور.
(٢) من بحر الكامل.
(٣) في ب: حاز الجمال.
(٤) من بحر البسيط.

بـاب

في معنىٰ اسمه:

صاحب الحوض المورود[1]

صَلّىٰ اللّهُ عَليهِ وسلّم وشرّف وكرّم

صاحبُ الحوض المورود: اسمٌ من أسمائه عليه الصلاة والسلام أُطلق عليه بالإجماع من هٰذه الأمة، وآمنتْ بهِ وصدّقت بمعناه جماعةُ أهل السنة.

ومعناه أنه صاحبُ الحوض العَظيم، الذي تَرِدُهُ أُمّتهُ يومَ القيامة، وصاحبُ المَنزلة الرّفيعة العليّة الذي خصّه الله بهذه الكرامة.

فكان هٰذا الحوضُ العظيمُ من كَراماتهِ عندَ اللهِ، وكانَ هٰذا الشرفُ الكريم قد اختصّ به يوم القيامة رسول الله، فلنذكرْ من صفته ما نرجُو به من مولانا أنْ يَرزُقنا في الدُّنيا علمه ويُعطينا في الآخرةِ ذَوقه.

فَمِنْ صِفات هذا الحَوض الذي خصّ الله به صاحبَ الخُلق العظيم أنّ مَن شرب منهُ شربةً لم يظمأ بعدها أبداً.

روىٰ أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال[2] أغفىٰ رسول الله

(١) صاحب الحوض المورود في الشفا ١: ٣٢٠، وسُبل الهدى والرشاد ١: ٥٩١، والرياض الأنيقة: ١٨٦ تحت عنوان صاحب الحوض.

(٢) في صحيح مسلم: بَيْنا رَسُول الله ﷺ بينِ أَظْهُرنا إذا أغفى... (صحيح مسلم

ـ ﷺ ـ إغفاءةً، فرفَع رأسه متبَسّماً، فقالُوا: يا رسول الله! مِمَّ ضحكت؟

فقال: إنه أنزلت عليّ آنِفاً سُورة، ثم قرأ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. إنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَر...﴾.

ثم قال: هل تدرون ما الكوثر؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

فقال: إنّه نهر وعدنيه ربي [١٩٠/ب] جلَّ وعَلا؛ في الجنّة عليه خيرٌ كثير، حوضي ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب».

وروى أنس رضي الله عنه[(١)]، عنه عليه الصلاة والسلام قال: بينما أنا أسيرُ في الجَنّةِ إذْ أنا بنهرٍ حافَتاهُ قبابُ اللُّؤلؤ المجوّف.

قلتُ: ما هذا يا جبريل؟

قال: هذا الكوثر الذي أعطاك رَبُّك، فضربَ الملَكُ يدَه، فإذا بلبنةِ مِسكٍ أذْفَر.

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال[(٢)]: لمّا نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١/١٠٨] قال رسول الله ـ ﷺ ـ: هو نَهرٌ في الجنّة، حافتاه من ذهب، شرابه أشد بياضاً من اللَّبن، وأحلىٰ من العَسل، وأطيبُ ريحاً من المِسك، يجري على جَنادِل اللُّؤلؤ والمرجان».

ص ٣٠٠)، وفي تفسير القرطبي (٢٠/ ٢١٧) بينما نَحْنُ عند رسول الله ﷺ إذ أغفى إغفاءة.. الحديث.

ـ ومعنى أغفى إغفاءة: نام نومة خفيفة.

(١) مُسند أحمد ٣: ٢٠٧، وفتح الباري ٧: ٢١٧، وتفسير الطبري ٣٠: ٢٠٨، وإحياء علوم الدّين ٢٩٩٤، وهو في الشفا ١: ٤٣٥.

(٢) مُسند أحمد ٢: ٢٠٧، وسنن ابن ماجة ٣٧٢١، وتفسير الطبري ٣٠: ٢٠٧.

وفي رواية عن ثوبان مولى رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال[1]: «إنّ حَوضي ما بين عدن إلى عُمان، ماؤُه أشدّ بياضاً من اللّبن وأحلىٰ من العَسل، وأكوابُه على عَددِ نُجومِ السّماء، ومَنْ شرب منه شربةً لم يَظمأ بعدها أبداً».

وقد وردتْ في حوضِ نبيّنا ـ ﷺ ـ طرقٌ؛ في طُولِه، ومسافَتِه، وعِظَمِه، ممّا يجبُ على كلّ مؤمن التّصديقُ به وأنّه حوضٌ في غايةِ العِظَمِ لا يوازيه حَوضٌ ممّا لأنبياءِ الله وأصفيائه. وخاطبَ النبيُّ ـ ﷺ ـ النّاسَ في صفته على قدر ما يَفهمه كلّ مخاطبٍ من الحاضرين أو من يَسمع كلامه من الغائبين.

وقد روىٰ التّرمذي عن سَمُرة رضي الله عنه، عنه عليه الصّلاةُ والسّلام أنّه قال[2]: «لكلّ نبيٍّ حوض، وإنهم يَتباهون أيّهم أكثرُ واردةً، وإنّي أرجو أن أكونَ أكثرهم واردة».

وقد رُوِيَ عن رسول الله ـ ﷺ[3] ـ «أنّ له حَوضين عَظِيمين، وكلاهما يُسَمّى كَوْثراً».

والكوثرُ هو الخيرُ الكثير، ولعلّ هٰذه الرواية يمكنُ فيها الجمعُ في الخلاف الذي بين العُلَماء في حوضِ نبينا عليه الصلاة والسلام هل هو بعدَ الصّراط أو قبل الصراط.

---

(١) مسند أحمد ٥: ٢٧٥، والترغيب والترهيب ٤: ١٣٤، والرّياض الأنيقة: ١٨٦.

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء ٤: ٥٢٩؛ وقال الحافظ العراقي: أخرجه الترمذي وقال فيه: غريب.

ـ وهو بلفظ آخر في إتحاف السادة المتقين ١٠: ٤٩٧، ٥٠٢.

(٣) في تاريخ أصبهان لأبي نعيم ٢: ١٩٧، لي حوضٌ كما بين عَدن إلى عُمان. . . الحديث، وينظر إحياء علوم الدين ٤: ٥٢٩.

فصاحب القُوت قال: إنه بعد الصراط.

وقال بعض السّلف، قال أبو حامد رحمه الله وهو غلطٌ من قائله، بل الحوضُ قبل الصّراط، لأنَ الناس يخرجون عطاشاً من قُبورهم فيَرحَمُهم الله تعالىٰ بأنْ يَشْرَبُوا من حوض نبيهم [١٩١/أ]، وأنا أقول:

إذ صحَ أن لنبينا ـ ﷺ ـ حوضين فَلعلّ أحد الحَوضين قبل الصّراط، والآخر بَعْدَهُ إكراماً للكريم على الله، وبياناً لمنزلة العزيزِ القَدْرِ عند الله.

وكذلك اخْتَلَف العُلماء رضيَ الله عنهم هل حوضُ نبيّنا عليه الصلاة والسلام قبلَ المِيزان أو بعد الميزان؟ والصَّحيحُ أنّهُ قبل المِيزان[١].

وبالجملة ـ أيُّها المحبّون ـ يجبُ عليكم التصديقُ بما أخبرَ به نبيّكم من وُجودِ حَوضِه وبركتِه وقوّةِ عظمه، واتّساع جوانبه وأركانه وزَواياه، ولا غرابةَ في ذلك كلّه في حقّ مَن اصطفاه الله واختاره على سائرِ أنبيائه.

وإيّاكم والتكذيب بحوضه فإنّ مَن أنكره حُرِمَ الشّرب منه يوم القيامة، في يوم تقعُ فيه الحسرةُ والنّدامة، وأبْشِرُوا ـ يا أمّة مُحَمّد ـ بكرامةِ نبيّكم عندَ الله، وبمكانةِ حبيبِ الله فَلُوذوا بمحبّته، واعتَصِمُوا بجنابِه وحُبّه.

نال المنىٰ مَنْ به كانَتْ ضَراعَتُه	وفازَ مَن نَحْوه تُرجىٰ بضاعَتُه[٢]
وطاعةُ اللهِ حَقّاً فهي طاعتهُ	هو الحبيبُ الذي تُرْجىٰ شفاعته

لكلّ هولٍ من الأهوالِ مُقْتَحمِ

---

(١) في أ: بعد الميزان. وفي ب، و: ج: قبل الميزان.

(٢) هذا تخميس على بيت من البردة (ديوان البوصيري: ٢٤١).

فصل

من آداب مَنْ عَلِمَ أنّ نبينا عليه الصَّلاةُ والسّلامُ صاحبُ الحَوضِ المَوْرُود، وعَلِمَ منزلتَهُ عند الملكِ المعبود أن يكونَ راجياً واذاً له.

ولكل محبّ أن يكونَ عليه من جُملة الواردين سائلاً راغباً لمولانا جل جلاله، وعَمّ وجوده ونواله أن يروىٰ من مائهِ، ويكونَ له من الشّاربين.

وليحذر أن يكون متمنّياً أو مغتراً وهو يظن أنه راجياً[1]، بل يتأكّد في حقّ الخائف أن يكونَ في كُلّ أوقاته باكياً، فقد قال صاحب الحوض المورود - ﷺ[2] -: «الكَيّسُ مَنْ دانَ نَفْسَهُ وعَملَ لِمَا بعد الموت، والأَحْمَقُ مَن أَتْبعَ نفسَهُ هَواها، وتمنّىٰ على اللهِ الأمانيّ».

قال بعضُ العارفين رحمه الله: الراجي للحَصادِ من بثّ زرعَهُ، ونَقّىٰ الأرض وسقاها الماء، ثمّ جَلس يرجُو فَضل اللهِ تعالىٰ ورحمته للنبات ودفع الآفات [١٩١/ب] حتىٰ يبلغ أوان الحصاد، وأمّا من تركَ الزّراعة والتنقيةَ والسّقي، وأخذ يرجُو فضلَ اللهِ أن ينبت له الحبّ والفاكهة، فهذا مغترٌ من المُتَمَنّين، غير عاقل وليس من الرّاجين، فكذا من كانَ منغمساً في السّيئاتِ مُستغرقاً في الغَفلات؛ وقد استولتْ على قلبِه مَحَبّةُ الشّهوات وهو يترجّىٰ مِن مولاه[3] رفع الدّرجات، هيهات هيهات.

---

(١) كذا في الأصول الثلاثة: «وهو يظن أنّه راجياً» ولا وَجْهَ له. كأنه يريد «وهو يظنُّ نفسَهُ راجياً».

(٢) مُسند أحمد ٤: ٢٤، وحِليَةُ الأولياء ١: ٢٦٧، وكشفُ الخَفا ٢: ١٩٦ وهو في الفتح الكبير ٢: ٣٣٩، وتفسير القرطبي ١: ١٤٤.

(٣) في ب: مولانا.

أما سمعت قول خالق البريات ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية ٤٥/٢١].

وهٰذا هو رجاءُ كثيرٍ من الحَمقىٰ مثلي، وهو غرورٌ أيّ غُرورا نعوذُ بالله من الغفلة والغرور؛ فإن الاغترارَ بالله أعظمُ من الاغترار بالدُّنيا؛ يظهر ذلك يومَ العَرْضِ والنّشور.

وقد رَوىٰ الترمذي الحكيم عن عُثمان بن مظعون عن النبي - ﷺ - أنّه قال له[1]: يا عُثمانا لا ترغبْ عن سُنّتي، فمن رغب عن سُنّتي ثم ماتَ قبلَ أن يتوبَ صَرفت الملائكة وجْهَهُ عن حَوْضي يومَ القيامةا

فالله اللّهَ عباد الله في المحافظة علىٰ سنة رسول الله، فإنّ كلّ مَن بدّل دين اللّهِ أو أحدث فيه ما لا يُرضي الله فهو من المطرودين عن حوضه المُبعدين عن شربه، وزاد عن هذا الحوض من بدّل أو غيّر كالخوارج والرّوافضِ والمُعتزلة وأهل البِدَع.

وكذا ورد أنّه يُذاد عنه المُسرفون في الجَور على عباد الله المتظاهرون بمعاصي الله، وكذا المُستخفّون بالكبائر، والمُصِرُّون على الصَّغائر، إلا أنّ العُصاةَ إذا غفر لهم، وسامحهم مَولاهم يشربون من الحَوْضِ بعدَ طردهم، وينالون منه بعد إبعادهم.

وقد روىٰ التّرمذي حديثاً غريباً عن كعب بن عجرة رضي الله عنه أنه قال له رسول الله - ﷺ[2]: «أُعِيذك بالله يا كَعب من أُمراء يكونونَ

(١) الحديث في تلبيس إبليس ٢١٩.
- ويُنظر مسند الإمام أحمد ٦: ٢٦٨، وصحيح مسلم ص ١٠٢٠ في موضوع الحديث.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣: ٣٩٩، ٤: ٢٤٣، وسنن الترمذي ٦١٤، وكنز العمال ١٤٨٩٥، ومعجم الطبراني (العراق) ١٩: ١٠٥.

مِن بَعدي فمن غَشِيَ أبوابهم وصدَّقَهم في كذبهم، وأعانهم على ظُلمهم، فليسَ مِنّي ولست منه ولا يَرِدُ عليّ الحَوْض».

فيا أخي! حوض هذا النبيّ العظيم يرده من كان على نهج أصحابِه، وطريق أتباعه، فأوّل من يرد فقراء المُهَاجرين، وأولهم وروداً صُهَيب بن سنان رضي الله عنه.

قال عَليه الصلاة والسلام[1]: «أوّل من يشرب من حوضي صُهَيب بن سنان» [١٩٢/أ].

ونحنُ نرجو الله تعالى وإن كُنّا مقصّرين في الأعمال أن نبلغ بمحبتنا له ولأصحابه منازل الرجال.

وقد رُوِيَ عن أنس رضي الله عنه؛ عنه عليه الصلاة والسلام أنّه قال[2]: «إنّ لحوضي أربعةَ أركان؛ فالركنُ الأوّل في يد أبي بكر، والرّكن الثاني في يَد عُمَر، والركنُ الثالث في يد عثمان والركن الرابع في يَدِ عليّ؛ فمَنْ أحبَّ أبا بكر وأبغض عمر لم يَسْقِه أبو بكر، ومَن أحب عمر وأبغض أبا بكر لم يَسْقِه عُمَر، ومَنْ أحبّ عُثمان وأبغضَ علياً لم يسقه عثمان، ومن أحب عليّ وأبغض عثمان لم يَسْقِه علي».

فلا يطمعَ مؤمنٌ أن يردَ على حوضِ الرَّسُول إلا بمحبة أصحابه أهل الوفاء والقبول:

إنّي رضيت علياً قُدْوَةً عَلماً	كما رضيتُ عَتِيْقاً صاحبَ الغَارِ[3]
وقد رضيت أبا حفص وشيعته	وما رضيت بقتل الشيخ في الدّار
كلّ الصحابة عندي قدوةٌ عَلَمٌ	فهل عَليّ بهذا القول من عارِ؟

(١) كنز العمال ٣٣٦٨٣.

(٢) تنزيه الشريعة لابن عراق ١: ٤٠٦.

(٣) من بحر البسيط.

إن كـنـتَ تـعـلـم أنّـي لا أحـبّـهـم   إلا لأجـلِـكَ فـاعـتِـقْـنـي مـن الـنّـارِ(١)

وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً، وزاده مولانا شرفاً وتعظيماً.

(١) الصّواب أن يقول: فأعتقني بهمزة القطع، ولكنه حذف الهمزة للضرورة الشعريّة.

بـاب
فـي معنـىٰ اسـمه:
صاحب الشفاعة(١)
صَلَّىٰ اللَّهُ عَليهِ وسلَّم وشرَّف وكرَّم

صاحبُ الشَّفاعة: اسم من أسمائه عليه أفضَلُ الصلاة والسلام ورَدت به الآثارُ ومشهور الأخبار.

وقد قدَّمْنا أنَّ من أسمائه الشَّفيع المُشَفَّع؛ ولكلّ اسمٍ منها معانٍ تخصُّه ممّا دَلّ على أنّه عند مولاه بالمحل الأرفع.

فصاحبُ الشّفاعة: أي المُنفرِدُ يومَ القيامة بالسّيادة وقضاءِ الحاجة، وتنفيس الكُربة، وإظهار الكرامة حيثُ يعظم الهول، ويشتدّ الأمر، وتكثر الندامة(٢).

والألف واللام في الشّفاعة يُحتمل أن تكون للعَهْد، أي صاحب الشفاعة المعهودة في الموقف العظيم، والخطب الجسيم، والهول الشديد في يوم الوَعِيد؛ يَوْمَ: ترىٰ الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن

(١) صاحب الشفاعة في الشفا ١: ٣٢٠، وصاحب الشفاعة العظمى في سبل الهدى والرشاد ١، ٥٩٢، وفي الرّياض الأنيقة: ١٩٤، وصاحب الشفاعة الكبرى في المواهب اللّدنية ١٨٣ والقول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع للسخاوي: ٨٢.

(٢) في ب: وتكثر الحسرة.

عذاب الله شديد.

فإذا جثت الخلائقُ على الرُّكَب، وتميّزت في العالم الأُخروي أهل المكانة والرُّتَب، والْتَجأ أهل المحشر إلى سيد العَجم والعرب، أبرز مالك الملوك [١٩٢/ب] مكانةَ حبيبِه في أَعْيُنِ العالمين؛ وأبانَ قدرَهُ وفَضله وشَفاعته على سائر الخلائق أجمعين.

ويُحتمل أن تكون الألف واللام للجِنس؛ أي: صاحب كل شفاعة احتاج الخلقُ إلى الله تعالىٰ فيها، فلا يَجِدونَ أقربَ ولا أعلى من حبيبِه وصفيِّهِ وخليلِه - ﷺ - الذي لا يُنازعه أحَدٌ فيها.

وقد قدّمنا حديثَ الشّفاعة في اسمَيْه الشفيع[1] المُشَفّع، وذكرنا شَفاعته - ﷺ - وبَيّنّا أقسامها بكلامٍ مختصر أجمع.

وممّا يُناسب ذكره في هذا الاسم الكريم ويزيد القلوب حُبّاً وشَوقاً إلى النبيّ العظيم، ما ذَكره بعضُ المفسّرين في قوله تعالى: ﴿لَها سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، لِكُلِّ بابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر ٥/ ٤٤].

قال أنس رضي الله عنه: لمّا نَزلتْ، جاءَ جبريلُ عليه السّلام إلى رسولِ الله - ﷺ - في ساعةٍ لم يكنْ يأتيهِ فيها، متغيِّرَ اللّون، فقال له النبي - ﷺ -: مالي أراكَ متغيّر اللّون؟ فقال له: يا محمّد جئتك في السّاعةِ التي أَمَر الله نافخَ النّار أن ينفخَ فيها. فقال النبي - ﷺ - لشفقتِه على أمته، ورحمته بهم: صِفْها لي يا جِبريل.

فأخذَ يَصفُ له جَهنّم وأهلَها وما فيها من الأغلال والأنكال وشدّة أهوالِها، وحَرارة نارِها، ونتنِ رائحتها بكلامٍ فيه طولٌ لا يَسعهُ هٰذا

---

(١) في ب: الشفيع.

الكِتَاب.

وقد أَوْجَزنا من ذٰلك اللُّباب، ثـم بين للنبي - ﷺ - صفة أبوابها وطبقاتها وسُكّانها حتى انتهىٰ إلى الباب السابع الأعلى منها، فأمسك عن ذكر سكانه شفقة على قلب نبي الله وحبيبه.

فقال له النبي - ﷺ -: ألا تُخبرني عن سكان الطبقة السابعة؟

فقال له: يا محمّد لا تَسْأَلْنِي عن ذلك.

فقال له: بلىٰ يا جِبريل أَخْبِرني عنه.

فقال له: يا محمدا فيه أهلُ الكبائرِ[1] من أُمّتك الذين ماتُوا مُصِرّين على الذُّنوب، ولم يَتُوبوا منها.

فلمّا سمع ذلك نبيّ اللهِ بكى، ووضَع وَجْهَهُ بالأرضِ شفَقةَ وحُزناً على أمّته.

فأخذ جبريل برأسه، ووضعه في حِجره، فما زال معه حتى سَكَنَ وأفاق.

فقال له: يا جبريل عَظُمَت مُصِيبتي [١٩٣/أ] واشتدّ حُزني على أُمّتي، أيدخل أحدٌ من أُمّتي النار؟، قال: نعم أهلُ الكبائر منهم، فبكى - ﷺ - وبكى معه جبريل بكاء شفقة ورحمةٍ، ثم إنّ النبي - ﷺ - دَخل منزله، واحتجب عن الناس، فكانَ لا يخرجُ إلا للصّلاة، واشتغلَ بنفسِه ولم يكلمْ أحداً، فلمّا كانَ في اليومِ الثّالث أقبلَ أبو بكر الصِّدّيق حتى وقف بالباب فقال: السّلامُ عليكم يا أهلَ بيتِ الرّحمةِ، فهل إلى

(١) الكبائر جمع كبيرة.

رسول الله ـ ﷺ ـ من سَبِيل؟ فلم يُجبه أحد.

فتنحىٰ وهو يبكي، فأقبلَ سلمانُ فَوقف بالباب فقال: السّلام عليكم يا أهلَ بيتِ الرّحمة؛ فهل إلى مولايَ رسول الله ـ ﷺ ـ من سَبِيل؟

فلم يُجبه أحدٌ فذهبَ يبكي، يقع مرة ويقومُ أُخرىٰ حتّىٰ أتىٰ بيتَ فاطمة رضي الله عنها فوقف بالباب، فقال: السّلامُ عليكم يا أهل بيتِ المُصطفىٰ، وكان عليّ غائباً، فقال سلمان، يا بنت رسُولِ الله! إنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ قد احتجَب عن النّاسِ فلم يكلم أحداً.

فاشْتَملت[1] فاطمة بثوبٍ لها، وذهبتْ حتّى وقفت على الباب، باب رسول الله ـ ﷺ ـ ثم سَلّمت، فقالت: يا رسولَ الله! أنا فاطمة، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ ساجدٌ يبكي ورفعَ رأسه، وسلّم من الصلاة وقال: ما بالُ قُرّة عَيني فاطمة حُجِبت عنّي، واحتَجبتُ عنها؟ افْتَحُوا لها البابَ، ففَتَحُوا لها، فدخلتْ، فكلّمها.

فلما نظرت إلى أبيها ـ ﷺ ـ بكتْ بكاءً شديداً لِما رأتْ من حالِه؛ ووجهُه مُصْفَرٌّ، ولونُه متغيّر ولحمُه مذاب من البكاء والحُزن.

فقالت: يا رَسُول الله! ما الّذي نَزل عليكَ من الوَحي؟ فقال لها: إنّ حبيبي جبريل، وصفَ لي جَهَنّم وما فيها وأبوابها، وطبقاتها، وأخبرني أنّ في أعلاها أهل الكبائر من أُمّتي فأبكاني وأحزنني.

فقالت: يا رسول الله! أوَلَمْ تَسْأله كيف يدخلُونها فقال: قد سألته، فقال: تَسُوقُهم الملائكة إلى النّار، ولا تسودُ وجوههم، ولا تَزْرَقُّ

---

(١) الاشتمال بالثوب: إدارته على الجسد كُلّه.

عُيونهم، ولا يختمُ على أفواههم، ولا توضعُ عليهم السّلاسِلُ والأغلال إكراماً لهم؛ لأنهم أمة لأبيك ـ ﷺ ـ [١٩٣/ب] قالت: يا رسول الله! كيف تَسُوقهم الملائكة؟

فقال لها: أمّا الرِّجَالُ فتقودُهم باللِّحى، وأما النساء فبالذّوائبِ والنّواصِي.

فيا فاطمة! كم من ذي شَيْبَةٍ من أُمّتي قد قُبِضَ على شيبته يُقَادُ بِهِ إلى النار، وهو يقول: واشَيْبَتاهُ! واضَعْفَاهُ! وكم من شابٍّ مِن أُمّتي قد قُبِضَ على لِحيته يقاد به إلى النار وهو يقول: واشباباه، واحسن صورتاه.

وكم من امرأةٍ قُبِضَ على ناصيتها تُقَاد إلى النار وهي تقول وافضيحتاه! حتى ينتهى بهم إلى مالك خازِن النّار فإذا نظر إليهم تعجّب مِنهم في كونهم لم تَسْوَدّ وجُوههم، ولم تُوضع السّلاسلُ في أعناقِهم فيقول لهم: مالكم يا معاشر الأشقياء، من أنتم؟ فيقولون: نحْنُ من أمّة نَزلَ علَيهم القُرآنِ ونَسُوا اسْمَ محمد عليه الصّلاة والسّلام من شدّةِ الهَوْلِ والدَّهْشَة، فيقول لهم مالك: ما نزَل القُرآن إلاّ على مُحَمّد عليه الصلاة والسلام، فإذا سَمِعُوا اسمَ محمّد الحبيب صاحُوا وضَجُّوا بالبكاء والنحيب، وقالوا: نحنُ من أُمّة محمد، فيقول لهم: أمَا كان لكم في القُرآن زاجر عن معاصي الله عز وجل؟

فإذا أوقفهم على شَفير جهنّم، نَظروا إلى النّار وزَبانيةِ العَذاب وقالوا: يا مالك! ائذنْ لنا أن نبكيَ على أَنفُسنا، فيبكونَ الدَّمَ حتى يفنى، فيقال لهم: ما أحْسَن هذا البكاء، لو كان في الدّنيا من خشيةِ الله!

فيقول مالك للزبانية[1]: ألقُوهمْ في النّار، فإذا ألقوهم فيه نادَوا بأجمعهم[2]: «لا إله إلا الله» فترجع عنهم النار فيقول مالك للنار: خذيهم يا نار، فتقول له: كيف وهم يقولون: «لا إله إلا الله محمّد رسول الله»؟ فيقولُ لها مالك: بذلك أمَرنا ربّنا جَلّ جلالُه فتأخذهم النّار، فمنهم مَنْ تأخذُه إلى قَدَميه، ومنهم من تأخذُه إلى رُكبتيه، ومنهم من تأخذُه إلى حَلقِه، فإذا هَوت النّارُ إلى وُجوههم يقول لها مالك: لا تَحْرِقي وُجوهَهُم طالَ ما سَجُدوا لِلّهِ فِي دار الدّنيا، ولا تَحرقي قُلوبهم طالَ ما عَطِشُوا في نَهارِ رمضان، فيلبثونَ ما شاء الله ثم ينادُوْن: يا أَرْحَم الرّاحمين.

فإذا أنفذَ الباري جلّ جلاله حُكْمَهُ، نادىٰ يا جِبْريلُ! ما فَعل العاصُون من أُمّة مُحمّد؟ وهو سبحانه أعلم.

فيقول: يا رب! أنت أعلم [١٩٤/أ] بهم.

فيقول له: انطلقْ وانظر إلى حالهم، فينطلقُ جبريلُ فيدخلُ على مالك خازنِ النّار، وهو على منبرٍ من نارٍ في وَسط جَهنّم، فإذا نظرَ مالك إلى جبريلُ قام تعظيماً له، فقال له: ما أتىٰ بكَ إلى هنا يا جبريل؟

فيقول له: ما فَعل العاصونَ من أُمّة محمّد؟

فيقول له: ما أسوأ حالهم، وأضيقَ مقامهم وقد أحرقت النّارُ أجسادَهُم وأكلت لُحومهم، وبقيتْ وُجوههم يتلألأ فيها الإيمان.

فيقول له: ارفعْ الطّبق عَنهم حتّى أنظر إلى حالهم، فإذا نَظرُوا إلى جبريل وحُسنه، عَلِمُوا أنّه من ملائكةِ الرحمةِ فيقولون:

---

(١) الزبانية: ملائكة العذاب، وهم الغلاظ الشداد.

(٢) في ب: نادوا بأجمعهم بقولهم.

من هذا العَبْدُ الذي لم نَر أحسنَ منه؟

فيقول لهم مالك[1]: هذا جبريلُ الكريمُ على رَبِّ العالمين الذي كان يأتي محمداً، فإذا سَمِعُوا ذِكرَ محمّد صاحوا بأجمعهم، وقالوا: يا جبريل: أقر محمداً منا السلام، وأخبره أنَّ معاصينا فَرّقت بيننا وبينه، وأخبِرْهُ بسوءِ حالنا.

فينطلقُ جبريل حتّى يأتي إلى رب العالمين، فَيُخبره وهو أعلم، ثم يقول المولىٰ جل جلاله: انطلقْ فأخبرْ محمداً بسلامِ أُمّته، فينطلقُ جبريل حتى يأتيَ محمّداً - ﷺ - وهو في خيمةٍ من درّة بيضاء لها أربعةُ آلاف باب من زبرجد وذهب مرصّعاً.

فيقول: يا محمدا جئتكَ من عند أُمّتك الذين يُعَذَّبون في النار، وهم يُقرؤونك السّلام ويقولون لك: ما أسْوَأ حالنا وأضيقَ مكاننا.

فيأتي رسولُ الله - ﷺ - إلى العَرْش، ويخرّ ساجداً، ويُثني على الله ثناءً لم يُثنه أحدٌ مثله. فيقول له أرحمُ الرّاحمين: يا محمّدا ارفعْ رأسك وسَلْ تُعْط، واشْفَعْ تُشَفّع. فيقول: يا ربّا إن الأشقياء من أُمّتي قد أنفذْتَ فيهم حكمكَ وانتقمتَ منهم، فشفّعْني فيهم.

فيقول المولى جلّ جلاله: قد شفَّعْتُك فيهم، فيأتي - ﷺ - إليهم ليخرجَ مِنَ النار مَنْ قال: «لا إلَهَ إلاّ الله، مُحَمَّدٌ رسُولُ الله».

فَيُقبل عليه الصلاة والسلام فإذا نظر إلى مالك قال: يا مالكا ما حال الأشقياء من أُمّتي؟ فيقول: ما أسوأ حالهم، وأضيق مكانهم.

فيقول له نبيُّ الله: افتحْ الباب، وارفَع الطّبق، فإذا نظرَ أهلُ النار

---

(١) في ب: مالك خازن النار.

[١٩٤/ب] إلى النُّور الساطع والقمر اللامع محمداً - ﷺ - صاحُوا بلسانٍ واحدٍ: وامحمّداه! قد أحرقت النّارُ جلودَنا ووَصلت إلى أكبادنا فيتعلّقون بنبيّ الله ورسوله وحبيبه فيخرجون معه[(١)] وقد صاروا حمماً، فينطلق بهم إلى نهرٍ عند باب الجنّة، فيغتسلونَ فيه، فيخرجونَ منه شُبّاناً جُرْداً مُرْداً كأنّ وجوههم القمرُ ليلةَ البَدْر.

فصل

يجب على من علم أنّ نَبِيَّنا محمداً - ﷺ - صاحبُ الشّفاعة أنْ يتّخذ عنده اليدَ العُظمى، والبضاعة - ﷺ - وعلى آله وصحبه في كل وقتٍ وساعة، والصّلاة عليه أفضل ما تجدون في قيام الساعة.

فأكْثِرُوا يا أمّة محمّد من الصّلاة على نبيّكم[(٢)] وحبيبكم، فإنّها مُناجاة لكم.

قال رسول الله - ﷺ[(٣)] - رأيت رَجُلاً من أُمّتي يتعلق بالصّراط المنصوب على جَهنّم[(٤)] فمرّةً يحبُو حَبْواً، ومرة يُسحب سَحْباً، ومرة يمشي على وجهه، فجاءتْهُ صلاتُه وسَلامُه عليَّ فأقامته على الصّراط حتى اجتاز عليه. فمن أكثر من الصلاة عليه - ﷺ - أقامته صلاتُه على الصّراط

---

(١) في ب: فيخرجُون منها.

(٢) في ب: حبيبي وحبيبكم.

(٣) في مجمع الزوائد ٧: ١٧٩، من حديث عبد الرحمن بن سَمُرة عن رسول الله ﷺ قال: «رأيت رَجُلاً من أمّتي يزحفُ على الصراط مرّة ويجثو مرّةً ويتعلّق مرّةً فجاءته صلاته عليّ فأخذت بيده فأقامته على الصراط حتى جاوز» رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما سليمان بن أحمد الواسطي، وفي الآخر خالد بن عبد الرحمن المخزومي وكلاهما ضعيف.

(٤) في ب: المنصوب على صراط جهنم.

ونجّته من جهنّم وصارت عليه برداً وسلاماً؛ فضلاً من الله وإنعاماً.

فيا أيُّها العاصُوْنَ تُوْبُوا إلى اللهِ قَبْلَ المَمات، وتشفَّعُوا إليه بأفضلِ البَريّات، وخاطِبُوا مولانا جل جلاله بالابتهالِ إليه في السرّ والعَلانيات، قائلينَ بلسانِ حالِكُم ومَقالكم، راغب إلى الله كلُّ واحدٍ منكم:

ألا أيُّها المأمولُ في كل حاجةٍ ... شكوتُ إليكَ الضُّرّ فارحَمْ شكايتي[1]
ألا يا رَجائِي أنت كاشِفُ كُرْبَتِي ... فَهبْ لي ذُنوبي كلّها واقْضِ حاجَتِي
فَزادي قليل لا أُراه مُبَلِّغي ... على الزّاد أبكي أم لِبُعد مَسافتي[2]
وجئت بأفعالٍ قِباحٍ رديّة ... وما في الوَرى خلقٌ جنَى كجنايتي[3]
أتُحرقني بالنّار يا غايةَ المُنىٰ ... فأينَ رجائي فيك أين مخافتِي[4]
إليك بتاجِ المُرسلين تَوسُّلي ... أَقِلْ عَثرتي واقْبَلْ لديكَ ضَراعتي
وصلّ عليهِ كلّما ذُكِرَ اسْمُهُ ... وسلّمْ وكنْ لي راحةً عند فاقتي[5]

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً، وزاده مولانا شرفاً وتعظيماً.

---

(١) من بحر الطويل.
(٢) في أ: ما أراه. والمثبت من ب، و: ج.
(٣) في ب: قباح دنية... جنى بجنايتي.
(٤) في ب: فأين رجائي ثم أين مخافتي؟
(٥) في ب: وكن لي راحماً.

بـاب

في معنىٰ اسمه:

صاحِبُ المَقَامِ المَحمُودِ(١)

صَلّىٰ اللّٰهُ عَليهِ وسلَّم وشرَّف وكرَّم

[١٩٥/أ] صاحبُ المقامِ المحمود: اسمٌ من أسمائه عليه الصَّلاة والسّلام، ورَد بمعناه الآثار، ومشهورُ الأخبار، وقد أشارَ إلى ذلك مَولانا جلّ جلالُه في كتابه العزيز الذي أتىٰ إليه بالخيرات ركوعاً وسُجوداً، فخاطب نبيّه - ﷺ - بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء ١٧/٧٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال(٢): سُئل رسول الله - ﷺ - عن هذه الآية قال: «هي الشَّفاعة».

وروى كعب بن مالك، عنه عليه الصَّلاة والسّلام أنّه قال(٣): «يُحشر النّاسُ يومَ القيامة فأكونُ أنا وأُمّتي على تَلٍّ، ويكسُوني ربي حلّة خضراء ثم يُؤذن لي فأقُول ما شاءَ الله أن أقول، فذلك المقامُ المَحْمُود».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبيّ عليه الصّلاة والسّلام أنّه

---

(١) صاحب المقام المحمود في: الشفا ١: ٣٢٠، والرّياض الأنيقة ١: ١٧٦، وسبل الهدى والرشاد ١: ٥٩٣، والمواهب اللّدنية ١: ١٨٣.

(٢) رواه القرطبي في تفسيره ١٠: ٣٠٩، ورواه الترمذي ٣١٣٧.

(٣) الشفا: ١: ٤١٩، ومناهل الصفا ٣٤، ومشكل الآثار للطحاوي ١: ٤٤٩.

قال: «المقامُ المحمودُ هو قيامُه عليه الصّلاة والسلام عن يمين العرش مقاماً لا يقومُه غيره، فيغبطُه فيه الأوّلُونَ والآخِرُون»[1].

وبالجُملة فالمقامُ المحمودُ هو كلّ مقامٍ عظيمٍ لا يناله أحدٌ من مخلوقات الله، وإنّما خصّ الله تعالى به نبيَّ الله، وحبيبَ الله - ﷺ -.

والأحاديثُ أكثرُها دالّ على أنّ المقامَ المحمود هو شفاعَتُه العُظمىٰ لأهْلِ المَحْشَرِ في يومٍ لا مانعَ فيه ولا وَزر[2].

وقد رُوي في بعض الآثار: أنّه إذا كان يومُ القيامة ينصب كُرسيّ عن يمين العرشِ من نُور، ويُنصب كرسي من نُور عن يسارِ العَرش، ويُنصب كرسي من نور أمامَ العرش، فيقعدُ نبيُّنا وحبيبُنا، ومولانا، محمد - ﷺ - عن يمين العرش، ويقعد إبراهيمُ الخليل عن يَسارِ العَرش، ويقعد أبو بكر أمامَ العَرْش، ويأذنُ الله عزّ وجلّ في النظر إليه، فينظُرون إلى الله عَزّ وجل وينظُر إليهم.

ثمّ ينادي مُنادٍ يا لكَ من صِدّيقٍ بينَ خليل وحَبيب.

فهذا أيُّها المحبُّون مقام نبيّنا المحمود، وهٰذه منزلتُه عند الملكِ الإلٰهِ المَعْبُود، وإيّاكم رحِمكم الله أن يخطُرَ ببالكم بما لا يليقُ بربّي وربّكم من الجِهة والكيْف والمكان والآنِ والزّمان، فإنّه سبحانه قديمٌ أزليٌّ لا يشبهه شيء من المخلوقات، ولا يُشْبِه شيئاً [١٩٥/ب] منها في جميع مَوجوداته.

---

(١) يُنظر في هذا الموضوع ما لخّصه القرطبي ١٠: ٣٠٩ - ٣١٢ وما أورده من أحاديث وأقوال؛ عند تفسير قوله تعالى: ﴿عَسى أنْ يبعثكَ رَبُّكَ مَقاماً مَحْمُوداً﴾.

(٢) ينظر حديث: المقامُ المحمود والشّفاعة في مسند أحمد ٢: ٤٧٨، وحلية الأولياء ٨: ٣٧٢.

فالعرشُ والكرسيُّ خَلْقٌ من خَلقِه، كانَ الله ولا شيءَ معه في أزله فهو الأزليّ على أزلّيته، لا يتبدّل ولا يتغيّر ولا ينتقلُ من مكان، ولا يَحُلُّ في جهة ولا يتقدّر.

ولكن لما كانَ العرشُ أعظمَ المخلُوقات وحفّت به ملائكة الله من جميع الجهات، ولا يصلُ إليه إلا من اختاره الله من البَرِيّات، ولم يكنْ في الوُجود عندَ اللهِ أكرم ولا أعظم من رَسُول الله، فذكر ذلك لمنزلةِ العزيزِ القَدْرِ عندَ الله.

والنَّظر إلى مولانا ورؤيته جائزةٌ عند أهل الحقّ، كما يجبُ للكبير المُتعال من نَفْيِ الجهةِ[1] والمكانِ والعُلو واليمين والشّمال، بل يُرىٰ سبحانه بالأبصار رؤيةً حقيقيّةً يستحيلُ فيها المُقابلةُ والجِهَةُ، يتعالى عن ذلك الملكُ القهّار.

وإذا سمعتُم شيئاً من ذلك فقولوا: آمنا بالله[2] وبما جاءَ عن الله على لسانِ رسول الله ـ ﷺ ـ.

وهذا الأثرُ العظيم دلّ على علو منزلة أبي بكر الصديق المُؤانس لنبيّنا في كلّ صحب ورفيق رضي الله عنه وحقّ له ذلك، فإنَّ مَنْ أَحَبّه أقام الدّين، ومَنْ توالت محبّتُه في قلبِهِ تمكّن في اليقين.

قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: ذكر ذات يوم أبو بكر عند رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: ما لكم في أبي بكر، واللهِ الّذي لا إلّه إلا هو لقد رأيتُ ليلةَ أُسرِيَ بي مكتوباً حول العرش آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة ٢/ ٢٥٥].

---

(١) في ب: نفي الجهات.

(٢) في ب: سبحان الله.

ثمّ رأيت مكتوباً محمد رسول الله، قبل أن يَخْلق الله الشمس والقمر بألفي عام، ورأيتُ أبا بكر الصديق مكتوباً اسمه على أثري»[1].

وفي رواية عنه عليه الصلاة والسلام من طريق ابنِ عبّاس رضي الله عنهما أنّه كان في مناجاةِ حبيبِ اللهِ ليلةَ الإسراء من قول الله تعالى: حبيبي محمّد حِبٌّ من أُحِب، فقلت: يا إلٓهي وسيّدي مَنْ تُحِبّ؟ قال لي: أحب أبا بكر؛ حُبّه فإني أحبه. فلمّا هبطتُ عارضَني جِبريل عند سِدْرَةِ المُنتهىٰ وهو مقامُه، ولو جازَ ذلك المكان لما أطاق لقوّة النُّور. قال لي يا محمد! ماذا قال لك ربُّك؟ قلت: قال لي: حِبٌّ أبا بكر فإني أحبّه، فتبسّم جبريل ثم قال: يا محمّد! والذي بعثَك بالحقّ لو أَحَبَّهُ أهلُ السّموات والأرض لَما عذّب الله أحداً منهم بالنّار.

فاشكروا الله عبادَ الله على محبتكم، [١٩٦/أ] وتوَسَّلُوا إلى مَوْلاكم بنبيّكم.

لهُ الشفاعةُ يومَ الدّين جامعةً ... دُون النّبيّينَ ما في ذاكَ من نُكرِ[2]
وخصّه بلواء الحمدِ في عددٍ ... من المَفاخِر تنبيهاً لمذّكِر
خصائصاً خصّه ربُّ العبادِ بها ... أربىٰ على المرسلين السادة الزُّهُرِ
وكيفَ يقدرُ خلقٌ أنْ يُحَصّلها ... والله أَجْمَلَها في مُحكمِ السُّوَرِ

فصل

مِن آداب مَنْ عَلم أن نبينا ـ ﷺ ـ صاحبُ المقام المحمود، وتحقّق أنه حبيبُ الملكِ المَعبود وأن الله تعالى أعطاهُ هٰذه المنازل،

---

(١) ينظر كتاب: اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ١: ٢٩٦ ـ ٢٩٩، ففيه أحاديث مُشابهة.

(٢) من بحر البسيط.

وحَباهُ أكرمَ الخُلُق، وخصّه بها وبجميع الفضائل، علم أن ذلك لسبقيّته الخلائق في طاعةِ الله، وسعيهِ في مصالح عبادِ الله، وبَذل جهده في شَفقته على خلق الله.

وتأمّلُوا رحمكم الله قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ١٧/٧٩] كيف أمره المولى جلّ جلاله بدوامِه على التهجُدِ مع ما كان عليه - ﷺ - من الجِدّ في قيامِ الليل، وأيُّ عبد يُطِيق من العبادة ما كانَ عليه الصلاة والسلام يُطيق. ثم رتّب تعالى بعده المقامَ المحمود على جِدّه وطاعته وتهجّده.

فكيف تطمعُ أيها الكسلان في رفع الدّرجات مع التّواني وتقليل[1] الحَسناتِ، فبادِرُوا رحمكم الله بالجِدّ في طاعته، وبالشّفقةِ على خلق الله، خُصوصاً بالضُعفاءِ والفُقراء فإنّهم عيالُ الله.

روي عن النبي - ﷺ[2] - أنه قال: «يُؤتى يوم القيامة بالعبدِ الفقير، فيعتذرُ الله إليه كما يعتذرُ الرجلُ إلى الرّجل في دار الدُّنيا. فيقول: وعزتي وجلالي ما زَوَيْتُ الدُّنيا عنك لهوانك عليّ ولكنْ لِما أعددتُ إليكَ من الكرامة والفَضِيلة، اخرجْ يا عبدي إلى هذه الصُفوف، فمَنْ أطعمك فيّ، أو كساك فِيّ، يريد وجهي فَخُذْ بيده فهو لك، والناس يومئذ قد ألجَمهمُ العَرق. فيتخلّل العبدُ الصُفوف، وينظرُ من فَعل ذلك به فيأخذُه بيده ويُدخله الجنّة.

وقال عليه الصلاة والسلام[3]: أكثروا من معرفة الفُقراء،

---

(١) في ب: وقليل الحسنات.

(٢) ورد في بعض الروايات أحاديث عن حال فقراء المُسلمين يوم القيامة كما في الطبراني الكبير (ط العراق) ٦: ٧١.

(٣) برواية: أكثروا معرفة الفقراء... الخ... في إتحاف السادة المتقين ٩: ٢٧٩، وتهذيب ابن عساكر ٤: ١٩٢.

واتّخذوا عندهم الأيادي، فإنّ لهم دولةً فقالوا: يا رسول الله وما دَولتهم؟

قال: إذا كانَ يومُ القيامة قيل لهم: انْظُروا [١٩٦/ب] من أطعمكم كِسرة، أو سَقاكم شربةً، أو كساكم ثوباً فخذوا بيده ثم امْضُوا به إلى الجنة.

فإذا أعطى مَولانا جلّ جلاله هذه الفضيلة للفُقَراءِ من سائر خَلْقِه، وأمر باتّخاذ الأيادي عندهم، فكيف أيُّها المحبون في هذا النبيّ الشريف لا تتخذون الأيادي عند مَنْ أعطاهُ الله المقامَ المحمود، وخصّه بمزايا الكرم والجُود، وحَباه بالمِنَنِ، وشَرّفه على سائر الوجود [١٩٧/أ].

فاجهَدُوا جَهدكم في تعظيمه وتوقيره، وإكرامه وتبجيله، واقْدُروه قَدْرَه، وعظّموا ذكره، فإنّه السيّد الكامل الفَاتح الخاتم، المسمّى في الجنّة أبا القاسم.

فَأكْثِرُوا من الصّلاة عليه، وادّخروا من الصّلاة هذه الغنيمة لديه، تَرِدُوا يومَ القيامة عليه متعلّقين بلوائه، محشورين مع خاصّة أصفيائه، مُستنصرين بِجنابه الرّفيع. مستمسكين[١] بحِصنه المَنِيع، فهو الكريمُ على الله فلن يخيّب طالبه، وهو العزيزُ القَدْر عند مولاه[٢] فلا يحرِمُ سائله:

لقد تخوفَ قلبي من تَخَيُّبِه   يوماً يرى الفضل فيه مثل شائبِه[٣]

---

(١) في ب: متمسكين.
(٢) في ب: عند الله.
(٣) من بحر البسيط.
- والتخميس يعتمد على أبيات من بردة البوصيري (ديوانه: ٢٤٨).

وحين يجري الوَرى كلٌّ بمكسبهِ يا أكرمَ الخَلْقِ ما لي مَنْ ألوذُ بِهِ
سِواك عند حُلولِ الحادثِ العممِ[1] [١٩٧/ب]
وعاين النَّاسَ ذات اللّهو واللهبِ وخاف كلّ الورىٰ فيه من العطبِ
فأنت تكشف عنّي شدة الكُرَبِ ولنْ يضيقَ رسولَ اللهِ جَاهُكِ بي
إذا الكريمُ تَجلّى باسْمِ مُنتقمِ[2]
فإنّ نفسيَ قد خافت مَعَرَّتها وقد رجَتْ منك مَنْجَاها ونُصرتَها[3]
فاشفَعْ لها وأزِلْ عنها مضرّتها فإنّ من جُودكَ الدُّنيا وضَرَّتَها[4]
ومن عُلومك علمُ اللّوحِ والقَلمِ

وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً، وزاده مَولانا شرفاً وتعظيماً.

(١) يوم الحادث العمم يوم القيامة لأن هوله يعمّ الخَلْق.
(٢) تحلّى بهذا الاسم اتصف به.
(٣) المَعَرّة: الإثم.
(٤) ضرّة الدنيا الآخرة.

بـاب

في معنىٰ اسمه:

صاحب الوَسِيلَة[1]

صَلَّىٰ اللَّهُ عَليهِ وسلَّم وشرَّف وكرَّم

صاحبُ الوسيلة: هو اسمٌ من أسمائه عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلام وردَتْ به الآثارُ ومشهورُ الأخبار.

رُوي عن أبي هُريرة رضي الله عنه أنه قال[2]: الوَسِيْلةُ أعلىٰ درجةٍ في الجنّة، وهي مسكنُ أعلىٰ الخلائق، وأفضلهم منزلةً وأمكنهم معرفة لأنّه حبيبُ الحقّ.

فكما أنّ الله تعالىٰ فضّله في خُلُقه وخَلقه وصفاته على سائرِ مخلوقاته، فكذلكَ فضّله في رفعِ درجاتِهِ وعلوِّ منزلته، وحُسن مسكنِهِ في دُنياه وآخرته.

---

(١) صاحب الوسيلة في الشفا ١ : ٣٢٠، والرياض الأنيقة: ١٩٩، والمواهب اللدنية ١ : ١٨٣.

(٢) في صحيح مسلم: ٢٨٨ من حديث في باب استحباب القول مثل قول المؤذن... إلخ «ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة».

ـ وفي مسند الإمام أحمد: الوسيلة أعلى درجة عند الله ليس فوقها درجة، فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة (المسند ٢ : ٨٣).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص[1] رضي الله عنهما أنّه سمع النبيَّ - ﷺ - يقول: إذا سمعتُم المؤذّن فقولوا مثل ما يَقُول، ثم صلّوا عَليّ، فإنّه من صلّى عليّ مرة، صلّى الله عليه بها عَشراً، ثم سَلُوا الله تعالى لي الوَسِيلة، فإنّها منزلةٌ في الجنّة لا تَنبغي إلاّ لعبدٍ من عبادِ اللهِ وأرجُو أن أكونَ أنا هو، فمَن سأل الله لي الوسيلة حَلّت له الشّفاعة.

فما ظَنُكم أيها المحبّون بمنزلةٍ لا تَنبغي أن تكونَ لأحدٍ مِن خلق الله إلا لسيّد المرسلين، وقائد الغرّ المحجّلين؟، وكم فيها من نعيم ومن خير عميم. وكل قصرٍ من قُصور الجنّة لا يحيطُ به عقلٌ ولا يكفيهِ وصفٌ، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام[2] أنّه أُدخل الجنة ورآها كلّها وما تَرك فيها مكاناً إلا شاهده في ليلةِ الإسراء، ودخل معه جبريل عليه السّلام قَصْراً من قُصورها، فإذا فيه قصرٌ من ياقُوتةٍ حَمراء لا قصم ولا صدع، [١٩٨/أ] في جَوْفِه سبعون ألف قصر، في كل قصر سبعون ألف دار، في كل دار سبعون ألف بيت، في كل بيتٍ سبعون ألف خَيْمة من درّة بيضاء، لكل خيمةٍ أربعةُ آلاف باب، يُرىٰ باطنُ تِلك الخيام من ظَاهِرها، وظاهرُها من باطنها، في أجوافها سُررٌ من ذهب، لذلك الذّهب شعاعٌ كشعاعِ الشّمس، تحارُ الأبْصار دونه، وهي ملآنة بالدرّ والجَواهر؛ عليه فرشٌ بطائنُها من استبرق، وظواهِرُها من نورٍ يتلألأ فوق السُّرر وحَلْيٌ كثير.

قال رسول الله - ﷺ -: لا أُطيق أن أَصِفها لكم، ووصفها فوقَ وصفِ الواصفين، تقصرُ عنه الألسنُ وأمانيُّ القلوب، وحليّ النساء على

---

(١) في ب: عبد الله بن عمر، والرواية هي عن عبد الله بن عمرو بن العاص.
(٢) في كتاب معراج النّبي ﷺ المنسوب إلى ابن عباس رضي الله عنهما ص ٣٨، ٣٩ أوصاف مقاربة لما أورده المؤلّف هنا.

حدةٍ قد ضرب عليها الحِجال دون السُّتور[1].

في كل قصرٍ منها وكل دارٍ وبيت شجر كثير سوقُها الذهب، وأغصانُها الجَوهر، وثَمرُها مثلُ القِلال[2]، في كلّ خيمةٍ منها أزواجٌ من الحُورِ العِين، لو دَلّت إحداهُنّ كفّاً من السماء لأذهب نورُ كفّها ضوءَ الشمس فكيفَ بوجهها؟ لا توصفُ بوصفٍ إلا وهي فوق ذلك جمالاً. ولكلّ واحدةٍ منهنّ سبعونَ ألف غلامٍ وهم خَدَمتُها، سوى خَدِم زوجها.

فكلّ ما خَطر ببالكم من النّعيمِ قاصرٌ عنه؛ ينتظر به أولياء الله وأحبّاؤه.

فتعاظمَ عندي من العَجائب ما رأيتُ، فقلت: يا جبريل أَو فِي الجنّة مثلُ هذا القصر؟ قال: نعم يا محمد، كلّ قصر في الجنّة مثل ما رأيت، وقصور كثيرة أفضلُ ممّا رأيت.

فقلت: لمثل هذا فليعمل العاملون.

فتأمّلوا بعقُولكم - أيها المحبّون - وتفكّروا بِفكركم - أيها المتفكّرون - إذا كانت قصور الجنّة هذه بعضُ صفاتها، وقد أعدّها مولانا جلّ جلالُه لأمّةِ هذا النبي العظيم، والمتّبِعين للنبيّ الكريم فما ظنكم بقصر سيّدكم، وما فكركم بالوسيلةِ التي أعدّها أكرم الأكرمين لنبيكم، وجَعلها داراً ومَسكناً في الجنّةِ لحبيبكم.

فاجتهدوا في الابتهالِ إلى الله بما طلبَ منكم الرحيمُ بكم، واطلبُوا له الوسيلةَ - ﷺ - تجدوه يومَ القيامة عند حُلول الهول بكم.

---

(١) الحِجال جمع الحَجلة، وهي موضع مثل القبة يتخذ للعروس. يُزَيّن بالثياب والستور والأسرّة ولها أزرار كبار.

(٢) القِلال جمع القُلّة وهي الكوز الصغير (وترد أيضاً لمعنى الجرّة)؛ والمقصود الأوّل.

والوسيلةُ التي [١٩٨/ب] وعَد الله تعالى بها نبيَّهُ وصفيَّهُ حاصلةٌ له عليه الصلاة والسلام بوعدِه وكرمِه له، ولكنه - ﷺ - لرحمته بأمّتهِ، وشفقتهِ على أحبّتِه طلب منهم أن يطلبوا له الوسيلة لتكون شفاعتُه لهم حالةً يومَ القيامة، وتظهر عليهم بركاتُ صاحبِ العَلامة، فهو عليه الصلاة والسلام وإن كان طلب من أمته أن يسألوا له الوسيلة، ففي المعنىٰ أنه طلب لهم حُصول الشَّفاعة، لأنّ له يومَ القيامة السمع والطاعة.

ولعلّ هذه المنزلة العظيمة، والدَّرجة الكريمة إنما سُمّيت وسيلةً لأنّ بها يزدادُ نورُه، وتكثرُ معارِفُه، ويَفْتَحُ له مولاه باب تمام[١] المعارفِ الأبديّة، والمواهب الربانية.

فهي الوسيلةُ إلى المقصِد الأسنىٰ، والمطلِب الأغنىٰ، فجِدُّوا - أيّها المحبون - في طلب الوسيلة، وأكثروا بالصلاة على صاحب الأخلاق الجميلة[٢].

صلىٰ الإلّه على المُختار في العربِ	والمُنتقىٰ فيهمُ من جَوهر الحسبِ[٣]
والمُصطفى بالرّسالاتِ مكرّمة	جاءت من الله عن جبريل في الكُتبِ
محمّد خيرُ مبعوثٍ سَما شَرفاً	من خيرِ أم زكتْ طيباً وخَيرِ أبِ[٤]
مَن كلّمته يمينُ الشاةِ مُنصحةً	لا تأكُلَنّي فإنَّ السُّمّ فيّ ربي
صلّى الإلّهُ عليه فهو أفضلُ مَنْ	لبّى وحَجّ وخير العُجم والعَربِ

(١) في أ: ويفتح له مولاه تمام المعارف... إلخ بإسقاط كلمة (باب).

(٢) في الأصول: صاحب الخلق الجميلة. والمشهور عن العرب تذكير الخُلق.

(٣) من بحر البسيط.

- وفي ب: المختار من مضرٍ.

(٤) في ب: زكا شرفاً.

صلّى الإلَه على خيرِ الأنام ومَنْ تُرجىٰ النَّجاةُ به في موقفِ العَطبِ
أعلىٰ البريّة في حِلمٍ وفي كرمٍ وأفصح النّاسِ في قولٍ وفي خُطَبِ

فصل

من آداب المُحِبّ في هذا النبيّ الكريمِ، صاحبِ الوَسِيلة والخُلق العظيم أنْ يتأدّب معه بامتثالِ أمرِه، ويبذلَ جهده في مرضاةِ حبّهِ بطلبِ الوسيلةِ له، والصّلاة عليه، طاعةً لربّه.

أتى جبريل عليه السلام فقال له: يا محمّد[1]! إنّ ربّك يُقرئك السّلام، ويقول لك: إن تشأ أعطيتُك في الدُّنيا ما لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمعتْ، ولا خطَرَ على قلبِ بَشر؛ وجعلتُ لك جبال تهامة ذهباً وفضّةً تسيرُ معك أينما سِرْت.

قال: يا جبريل! أُعَمَّرُ في الدُّنيا أم أموت؟

فقال: يا حبيبي يا محمّد! لا بدّ من الموت ومن لِقاءِ الله بعدَ الموت، فقال يا حبيبي يا جبريل! فما الرَّغْبَةُ [١٩٩/أ] في نعيم زائل ودُنيا فانية؟ إنَّ الدُّنيا دارُ مَن لا دارَ لهُ، تَغُرّ مَن لا عقلَ لَه؛ لا صحيحُها سالم، ولا نعيمُها دائم.

فقال جبريل عندَ ذلك: تبارك الله ربّ العالمين، أتاني إسرافيل عن اللهِ عزَّ وجلَّ بهذا الكلام، فإنْ لم تُرِد الدُّنيا يا محمّد، فإنّ الله عزّ وجلّ يُعطيك الجَنّة وفيها قبّةٌ عَرْضُها ثلاثُ مئة عام، وقد حَفّتْها رياحُ الكرامة لا يَدْخُلها إلا من أكثرَ الصَّلاة عليكَ يا مُحمّد.

---

(١) رويت أحاديث في فضل الصلاة على رسول الله ﷺ، ينظر مثلاً: المقاصد السنية في الأحاديث الإلٰهيّة لأبي القاسم المقدسي: ٤٣٩ ـ ٤٤١.

فإذا أردتَ أن تصلَ إلى النّعيم المُقِيم - أيها المحبّ - في النبي الكريم فأكثِرْ من الصَّلاةِ على صاحِبِ الخُلق العظيم، وإن حلّتْ بكَ الأهوالُ والكُرَبُ فاجهدْ جَهدكَ بالصّلاة على صاحب الوسيلةِ المشرّف بأعلى الرُّتَب.

قال الشّبلي[1] رحمه الله: ماتَ رجلٌ من جِيراني، فرأيتُه في المنام، فسألتُه عن حاله؟ فقال لي: يا شِبليّ! مرّت بي أهوالٌ عظيمة، وقد أُرتِجَ عليَّ عند السُّؤال[2]، فقلت في نفسي: مِن أين أُتِي عليّ، ألم أمُتْ على الإسلام، وقد كنتُ محبّاً في النبي عليه الصلاة والسلام؟

فَنُودِيت هذه عقوبةُ إهمالكَ للسّائل في الدُّنيا، فلمّا هَمَّ الملكان بِعذابي حالَ بيني وبينهما رجلٌ جميلُ الشخص، طيّبُ الرّائحة، وذكّرني حُجّتي فذكرتها.

فقلت: من أنت رحمَك الله؟

فقال: أنا شخصٌ خُلقت من كثرة الصّلاة[3] على محمّد - ﷺ - وأُمِرت أن أنصرك في كل كَرْب. ورَحِمَ الله صاحب البُردة حيث قال[4]:

ومن تكنْ برسولِ اللهِ نُصرَتُه ... إنْ تَلْقَهُ الأُسد في آجامِها تَجِمِ
ولن ترىٰ من وليّ غير منتصرٍ ... بهِ ولا من عدوٍّ غير مُنقَصِمِ

---

(١) هو أبو بكر الشبلي (٢٤٧ - ٣٣٤) كان من أهل الدولة والسلطة، وانتهى عابداً ناسكاً، وله ديوان شعر صوفي. وللشبلي ذِكرٌ آخر في هذا الكتاب.

(٢) أُرتِجَ عليه أي لم يستطع الجواب في حينه الإجابة؛ من الرتاج وهو قُفل الباب وغيره. وقوله عند السؤال أي عند سؤال الملكين في القبر.

(٣) في ب: من كثرة صلاتك.

(٤) ديوان البوصيري: ٢٤٧.

قال الشيخ عبدُ الواحد[1] رحمه الله ونفع به: خرجت حاجاً، وصحبني رجلٌ كان لا يقومُ ولا يقعد ولا يتحرّك ولا يسكنُ إلا صلّى على محمّد ـ ﷺ ـ..

فسألتهُ عن ذلك؟ فقال لي: أُخبرك. وذلك أنّي خرجتُ أنا وأبي إلى مكّة ـ شرّفها الله ـ فلمّا انصرفنا نمتُ في بعضِ المَناهِل، فبينما أنا نائمٌ إذْ أتاني آتٍ في النّومِ فقال لي: قمْ! قد مات ـ والله ـ أبوك، وسوّد الله وجهه! فقمت مذعوراً، فكشفتُ الثّوب عن وجهه فإذا هو ميّت، ووجهه مسودٌّ، فدخلني من ذلك رُعب.

فبينما أنا في ذلك الغمّ، إذْ غلبتني عَيناي؛ فَنِمْتُ، فإذا [١٩٩/ب] على رأس أبي أربعة رجال سُود بأيديهم أعمدةٌ من حديد، إذْ أقبلَ رجلٌ حسنُ الوجهِ بين ثوبينِ أخضرين[2]، فقال لهم: تنحُّوا عنه، فمسَح وجهه بيدِه، ثم أتاني فقال لي: قُم وقد بيّض الله وَجه أبيك!

فقلت: من أنت بأبي وأمي؟

فقال: أنا محمَّدُ بنُ عبدِ الله.

فقمتُ فكشفتُ الثّوب عن وجهِه فإذا هو أبيض، فما تركتُ الصلاة على رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ لأنّ أبي كانَ كثيراً ما يُصَلّي عليه ـ ﷺ ـ وعلى

(١) أثنى المصنف على هذا الشيخ وحلاّه في فهرسته بالفقيه المحدّث الراوية المصنّف وهو أبو محمد عبد الواحد بن أبي عبد الله محمد الغُرياني، وقال إنه حضر مجالس تفسيره بداره، وأشار إلى تواليف عديدة له، (الفهرسة: ١٧٧، ١٧٨ وشجرة النور الزكية: ٢٢٦).

(٢) في أ، ب: عليه ثوبين أخضرين، والمثبت من ج.

آلِهِ، فتوسّلوا إلى اللّهِ تعالى بنبيّكم، وتَشَفَّعُوا بجنابه عند ربّكم، لأنَّ مَن لاذَ بِجنابِه لا يخيبُ رجاؤه، والواقفُ ببابه لا يُمْطَلُ دُعاؤه.

بـهِ سـتُـقـبَـلُ عـنـد الله مَـعـذرتـي ويُـصـلـحُ الله دنـيـاي وآخـرتـي[1]
وفـي شـفـاعَـتِـه فـوزي بِـمـغـفـرتـي فـإنّ لـي ذمّـةً مـنـهُ بِـتَـسـمـيـتـي
مـحـمّـداً، وهـو أوفـىٰ الـخَـلْـقِ بـالـذِّمَـمِ

ذنُوبي الـيـومَ قـد أربتْ عـلى العَـدَدِ ومَـا بـجِـسـمي لِلَفْـحِ النّـار من جَلَدِ
ولـسـتُ أرجـو سـواهُ عـدّةً لـغـدِ إنْ لـم يـكـن فـي مَـعـادي آخِـذاً بـيـدي
فـضـلاً وإلاّ فـقـلْ يـا زَلّـةَ الـقـدمِ

وصلىٰ الله على سيّدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم، وزادَهُ مولانا شرفاً وتعظيماً.

(١) التخميس لبيتين من بردة البوصيري (ديوانه: ٢٤٨).

بـاب

فـي معنىٰ اسمه:

صاحب الفضيلة(١)

صَلّىٰ اللهُ عَليهِ وسلَّم وشرَّف وكرَّم

صاحبُ الفَضِيلة: اسمٌ من أسمائه عليه الصلاة والسلام، ورَدَ في إطلاق العُلماء المُحِبّين، وكثُر تَداوُلُه على ألسنةِ العارفين، وقد أمرنا عليه الصّلاة والسّلام أن نطلبَ له الفضيلة، كما أمَرنا أن نسأل له الوسيلة.

ومعنى الفضيلةِ: واحدةُ الفضائل، وأصْلُها الصّفاتُ الجليلة، والمَعاني الحَمِيدة مثل العِلم والشّجاعة والحياء، وذكاء العقل، وحُسن السّمت إلى غير ذلك من الخِصال المحمودة والأوصافِ الحسنة المعدُودة.

فهذِه كلُّها تُسمّى كل خصلة منها فضيلةً؛ لفضلها وشَرفها عند العُقَلاء، وفضلِ مَن اتّصفَ بها أو بِبَعضها عند النُّبلاء.

وأمّا الفَواضِلُ: فهو جمع فاضلة، وهي ترجعُ إلى الأفعال الحَسنة كالعطيّةِ، والجُودِ، والكَرم، والعَفْوِ، والبِشر، [٢٠٠/أ] وطلاقةِ الوجه، فكلّ هذه تسمّى فاضلة.

---

(١) صاحب الفضيلة في الشفا ١: ٣٢٠، وسبل الهدى والرشاد، ١: ٥٩١، والمواهب اللّدنية ١: ١٨٣.

فمن اتّصف عند العُقلاء بفضيلةٍ واحدةٍ من الفضائل، واشتهرَ بها أو بفاضلةٍ واحدةٍ من الفَواضل، وعلم محله بها. فكما أن الوسيلة منزلةٌ في الجنة، ومحلٌ لسكن حبيبِ الرّحمن، لا يصلُ إليها مَلَك ولا إنسان، فكذلك تكونُ الفضيلةُ مواهبَ لَدُنّية، ومعاني ربانية، ومحَاسن اختصاصية.

فكما أنّ أهلَ الجنّة يكونون في الجنّة على صفاتٍ وكمالٍ لا يَخْطُر ببال، فكذا أكملُ الخلائقِ خَلْقاً وخُلُقاً يزيده المواهب الربانية [٢٠٠/ب] الكبيرُ المُتَعال.

ويؤيّد هذا المعنىٰ الذي أشَرْنا إليه، أن رسول الله ـ ﷺ ـ طلب من أُمّته أن يسألوا له الوسيلة[١] وفي بعضِ الطُرق عطف عليها الفَضِيلة، وذلك يدلُّ على أنّ الوسيلة غير الفَضِيلة، وأنّها خاصّيةٌ له في الجنان، خصّه بها مولاه جلّ جلاله من بين سائر السكّان المُستظلّين في ظِلّ الرحمن.

روي من طرق كثيرة عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال[٢]: من قال إذا سمع المؤذن مثل قوله، ثم يقول: «اللهم ربّ هذه الدّعوة التّامّة، والصَّلاةِ القائمة آتِ محمداً الوسيلة والفضيلةَ وابعثْهُ مَقاماً محموداً الذي وعدته، فله الجنة».

فإذا ذكرتُم ـ ضاعف الله حُبّي وحُبّكم ـ هذا الاسمَ العظيم، فاستَحْضِرُوا قولَ ربّنا جلّ جلاله في وصف المُسمّى به ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

---

(١) يُنظر الباب السابق من هذا الكتاب.

(٢) الأذكار للنووي: ٣٠، ومصادر تخريجاته، وكنز العمّال ٢١٠٢٠، وصحيح ابن خزيمة ٤٢٠.

عَظِيمٍ﴾ [القلم ٦٨/ ٤] ـ ﷺ ـ، وعلى آله وصحبه أفضلُ الصلوات، وأزكى التسليم.

ذخيرةُ الخلقِ للمولىٰ ذخيرتهُ　　وسرّهُ ملئتْ منهُ سَرِيرَتُهُ[(١)]
والحسنُ من ذاتِه تبدُو حقيقَتُه　　فَهُو الّذي تمّ معناه وصورَتُهُ
ثمّ اصطفاهُ حبيباً بارِئُ النَّسَمِ

جُبلت نفوسُ العقلاءِ على حُبّه، وتعظيمه، والميلِ، والانقطاع إليه، والذَّبّ عن عِرضه والغِبطةِ فيما لديه، وضُرِبتْ إليه أكبادُ الإبل[(٢)]، وسارعت[(٣)] النّاسُ في الهَرعِ إليه.

فما ظنكم ـ أيها المحبّون ـ وما نَظركم أيها المُشتاقون فيمنْ حازَ[(٤)] أوصافَ الفضائِل، وعنصرَ ينابيعِ الفواضل الذي كمّل الله له تعالىٰ وفورَ عقله، وتمّم له كمالَ عِلمه ومعرفته، وجَودة فِطنته؛ وبالغَ في حُسن وقاره وسَمْتِه، وخَلقه على أكمل صُورة، فكانَ أصل أوصافِ الفضائل، ونُقطة دائرةِ الفَواضل، فكلُّ خصلةٍ توجبُ المحبّة والتعظيم والهيبة في القُلوب والتّفخيم. فقد تمّم معناها وصُورتها مولانا جلّ جلالُه في نبيّه وحَبِيبه الكريم.

فمعنىٰ صاحِب الفَضِيلة يحتمل المُراد منها جِنس الفَضائل إذا ذكرته، أي صاحب العِلم والحِكمة والوَقار والشّجاعة، صاحب الحياء والعَفاف والقَناعة، صاحب البَهاء ونَضرة النّعيم والحُسن والجمال صاحب البراعة والفَصاحة والبلاغة والكَمال؛ صاحب العفّة والعَظمة والأمانة؛

---

(١) تخميس لبيتين من البُردة (ديوان البوصيري: ٢٤١).
(٢) يقال: فلان تُضرب إليه أكبادُ الإبل أي يُرحَلُ إليه في طلب العلم وغيره.
(٣) في ب: وسارعت النفوس.
(٤) في ب: جاوز.

صاحب الصّدق والوفاء والكرامة؛ صاحب المَحاسن، الجامع لأشتاتها؛ صاحب المكارم المقدّم التّالي لآياتها؛ ويحتمل أن يكونَ المُراد من قوله صاحب الفضيلة أنّها خُصوصيّات اختصّ بها نبيّنا في الدار الآخرة من المَعاني العجيبة والأوصاف الغريبة التي ادّخرها لهُ مَولاه ومانِحُه جلّ جلاله مما لا يخطرُ بالعُقول، ولا يحصل لأكابرِ الفحُول.

أعطاهُ أفضلَ ذخرٍ من خزائنهِ وصان جُملته أكرمُ بصائنِه

أبهى من البَدْرِ في عَيني معايِنهِ منزّه عن شريكٍ في محاسنِه

فجوهر الحُسنِ فيه غيرُ مُنْقَسمِ

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ من المُحِبّين أنّ اسمَ نبيّنا عليه الصلاة والسلام صاحب الفضيلة والتّمكين، أن يكونَ مُكثراً من ذكرِ صفاتِه، سامعاً لِمَحاسِنه، جاعلاً ذكرَها أعظمَ مَلذوذاته؛ لأنّ من أحبّ شيئاً أكثرَ مِن ذكر محاسِنه، ومَن اشتاقَ محبُوباً كان لاهجاً بنشرِ فضائِله، تائقاً إلى سماعِ محامده وشَمائِلِه(١).

هذه سيرة المحبين، وعلامة المُشتاقين، فإنّ نفوسَ العالمين جُبلت على حُبّ المُحسنين، وسيّد الأوّلين والآخرين وقائد الغُرّ المُحجّلين قد أحسن إلى الخلائق أجمعين إحساناً ليس فوقه إحسان، وبيّن لهم طريق الحقّ بياناً ليس بعده بيان [٢٠١/أ].

فيجبُ علينا بذلُ نفوسنا في محبّته، وإتعابها في هذه الدار حتى تتّصل برؤيته؛ فإنّ القلب لا يحبّ محبوباً إلا ويحبّ مشاهدته، ولا

---

(١) في ب: «بذكر فضائله، شائقاً إلى...».

يسمع فضيلة من فضائله إلا وطلب لقاءه ورؤيته.

وانظرْ يا أخي في أحوالِ مَن اخْتارهم الله لِصُحبة[1] حبيبه كيف كانت محبتهم وتعظيمهم له في حياتِه، وحُزنهم واشتياقُهم له بعد مماته.

هذا بلال رضي الله عنه لمّا حضرتْهُ الوفاة، قالت امرأته: واحُزْناه[2]، فقال رضي الله عنه: واطَرباه.

غداً ألقى الأحِبة.. محمداً وصحبه

فهذا هو كمالُ المحبّة للرسول، وتمامُ الاشتياق إلى من خصّه الله بالفضائل والقَبُول، في كونه رضي الله عنه صيَّر الموت، وإنْ كان مكروهاً ـ مُطرباً له، مُفرّجاً همه، مُسَلّياً قلبه، وجَعله باباً من أبوابِ الوُصول إلى لقاءِ الحبيب، الذي كان به في الحياة العيش يطيب.

قال زيدُ بن أسلم رضي الله عنه: خرج عُمَرُ بنُ الخطّاب ليلةً يحرسُ المدينة، فرأى مِصباحاً في بيتٍ، وإذا بعجوز تنفشُ صوفاً وتقول:

على محمّد صلاةُ الأبرارْ   صلّى عليه الطَّيِّبُون الأخيارْ[3]
قد كنت قوّاماً بكاءً في الأسحارْ   يا ليتَ شعري والمَنايا أطوارْ
هل تَجْمَعُني وحَبيبي في الدّارْ[4]

تعني بالحبيب، النبيّ ـ ﷺ ـ لأنّها تذكّرت محاسنه وفَضائله،

---

(١) في ب: لمحبّة.

(٢) في الأصول: واحُزناه.
ويقال في التأسُّف والحُزن أيضاً: واحَرَباه.

(٣) في الشعر خلل. وكأن الأصل فيه مقاربة الوزن والإيقاع دون بحر معيّن.

(٤) في ج: هل تجمعني وحبيبي الدّار؟

واشتاقت نظره ورُؤيته، فلمّا سَمِعَها عُمَر رضي الله عنه جلس هناك وأخذ في البُكاء، وهاجت عليه الأشواق، وأحزن قلبه الفراق.

وانظرْ حال[1] المرأة الأنصارية[2] التي قُتل أبوها وأخُوها وزَوجُها في أُحد، فلمّا رات[3] رسولَ الله ـ ﷺ ـ وأصحابه، خرجَتْ تتلقّاه وتسألُ عنه وقد نسيت أحبابَها ورَمتْ قَرابتها وهي تقول:

أين رسولُ الله، ما فعلَ رَسُولَ الله؟

قالوا لها: بخير، وهو بِحَمْدِ الله كما تحبين.

فقالت: أَرُونيهِ، حتّىٰ أنظر إليه، فلمّا رأتْهُ قالتْ[4]: كلُّ مصيبة بعدكَ جللٌ؛ أي حَقيرة [٢٠١/ب].

فتأمّل ـ أيها المحب ـ ضاعف الله حُبّي وحبك ـ هذه المرأة مع كونها أُنثى كيف مكّن الله تعالى قوة الإيمان بقلبها، وزيّن محبة الرسول عندها، حتى إنّها استصغرتْ كلّ مصيبة ـ وإن عَظُمت ـ مع سلامة من رَحِمَ الله به الخلائق وهدى به أهل المغارب والمشارق، فكأن تلكَ المُصيبة لم تكنْ، ولم تقع، فلم تَحْزَن ولم تفزع؛ لأنّ الباقي بعدها محبّته مقدمة على النفوس التي بين الجوانب، لأنّه الحائز لأمّهاتِ الفضائل، وأعالي المَراتب.

فكيف بالمحبّ الكامل العاقل لا تكونُ هذه صفته؟ وكيف الرجلُ الجَزْلُ لا تكونُ هذه مرتبته؟

---

(١) في ب: وانظر إلى حال.

(٢) من بني دينار (السيرة لابن كثير ٣: ٩٣).

(٣) في ب: فلمّا قدم رسول الله ﷺ.

(٤) الجلل يكون من القليل ومن الكثير. والجلل هنا القليل.
ـ كان هذا في أثر غَزوة أُحد.

فلا تسأمُوا من كثرةِ ذِكره ومتّعوا أعينكم بالنّظر في حُسن شمائله وسيره، وآذانَكُمْ بسماعِ فَضائِله وخَبره.

نَفعني الله وإياكم بمحبّته وذكره، وجَعلني من أهلِ تعظيمه وبِرّه؛ ولله دَرُّ القائل[1]:

ذِكــرُ الــحــبــيــبِ لا يُــمَــلُّ أبــدا   عــلــى الــدّوامِ أبــداً مــؤبّــدا
هُــو الــحــيــاةُ لــلــقــلــوبِ وبــهِ   نَــرضـىٰ ونَــحْــظَـى بــمــقــامِ الــسُّــعَــدا

صلّى الله عليهِ، وعلى آله وصَحْبِه وسَلّم تسليماً، وزادَه مولانا شَرفاً وتعظيماً.

---

(١) من بحر الرّجز.

باب

في معنىٰ اسمه:

صاحب الدرجة الرفيعة[1]

صَلّىٰ اللّهُ عَليهِ وسلّم وشرّف وكرّم

صاحبُ الدّرجةِ الرّفيعة: اسمٌ من أسمائِه عليهِ أفضلُ الصّلاة والسّلام، أجمعَ[2] على إطلاقِهِ المحبّون، وجَعله من سماته العارفون.

وهذا الاسمُ الكريم يُحتمل في سِرّ تَسميته به عليه الصّلاة والسّلام معانٍ كثيرة، وأوجهٌ من بَدِيع المَحاسن غزيرة.

فَصاحب الدّرجة الرفيعة أي الذي أعدّ الله تعالى له أعلىٰ درجةٍ في الجنة، وأرفعَ رُتبةٍ فيها من القُصور العالية والمَساكن الغالية.

فالجنّة على شَرف قدرها، وحُسنها وجَمالها، وبدائع أوصافها، واتّساع مساكنها؛ فمسكنُ حبيب اللهِ فيها أعلى المساكن، وقصرُه أبهىٰ القُصور، ومكانُه أشرفُ الأماكن، كيفَ لا وهو أشرفُ الخلق[3] على الله، الحبيب الأعظم الدالّ على الله.

ويُحتمل أن تكون الدّرجة الرفيعةُ المشار إليها [٢٠٢/أ] درجة

---

(١) صاحب الدرجة الرفيعة في الشفا ١: ٣٢٠.

(٢) في الأصول الخطية: أجمعت على إطلاقه المحبّون (بتأنيث الفعل).

(٣) في ب: أكرم الخلق.

الإسراء، والمكان الّذي وصل إليه[1] الرفيع، والسموّ الخارق العَوائد الذي ناله ليلةَ أُسري به بجسمه المنور البديع، فإنّها درجةٌ رفيعةٌ لم يبلغها[2] أحدٌ من مخلوقات اللهِ الكرام، ولم يسمها مقرّب من المقربين الأعلام، فيا لها من درجةٍ ما أعلاها، ويا لها من ليلةٍ ما أسناها، ويا لَها من رُتبةٍ ما أسماها، ويا لها من صُورة ما أزكاها، ويا لها من بركةٍ ما أنماها.

أيها المحبّون! لو لم تكن من مُعجزات نبيّنا، وخوارق عوائدِ رَسُولنا إلاّ إسراؤه الغريب، وما نال من السموّ وعزّة القَدْرِ والنّيل العجيب، ثم عاد إلى مكانه ببيتِه؛ وكلّ ذلك في ليلته، فقد قطع ـ ﷺ ـ في تلك الليلة في سَفره[3] وقُفوله مسيرةَ أربعةَ عشر ألف سنة، بل أكثر من ذلك؛ لأنّه دخل الجنة، ورآها، وتتبّع زَواياها، وقطعَ سِدرة المُنتهىٰ، وعدا مقامَ جبريل، ثم قَطع مقام مِيكائيل، ثم قطعَ مقام إسرافيل، ثم قطع مقام المَلك المسمّى بالرّوح، وهو مَلكٌ عظيم ليس فوقه ملكٌ من ملائكةِ الله، رِجلاه تحتَ الثرى، ورأسُه تحت العرش له مئة ألف رأس، وسبعون ألف رأس، في كل رأسٍ سبعون ألف وجه، كلّ وجه له سبعون ألف لِسان، كلّ لسانٍ له ثمانون ألف لُغة، وكل لغة لا تُشبه لغةً أُخرىٰ، كل لسان يسبّح الله ويقدّسه، كلُّ تسبيحةٍ يخلق الله تعالى منها ملائكةً يسبّحون الله وينزّهونه. كلّ ذلك جعلَه الله سبحانه ثَواباً لهذه الأمّة المحمدية.

فتأمّلوا ـ زادكم الله حُبّاً في هذا النبي الكريم ـ مقام هذا الملكِ

---

(١) في ب: رفع إليه.
(٢) في ب: لم يبلغ نيلها.
(٣) في ب: في سيره.

العظيم على قَدْرِه، وقُربه، ومَنزلته، وعلوّ مكانه، كيف تَلقّى رسولَ الله، وحبيبَ الله بالسّلامِ والتّحية والإكرام، فقال له النّبيّ عليه الصلاة والسلام: هذا مَقامكَ أيُها الرُّوح؟ فقال: نعم يا حبيب الله، هذا مقامي منذ خلق الله السّموات والأرض والعرشَ والكرسيّ ولا أجوزُ؛ فإنّ بينَ يديّ أنواراً وحُجباً لو رُمْتُ الجوازَ لأحرقتني.

ثم إنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ [٢٠٢/ب] قوّاه الله عزّ وجلّ بالإمداد والتّأييد، حتى قطع تلك الحُجب المنوّرة، والرُّتب الزاهرة المُزهرة، حتى بلغَ درجته الرّفيعة ووصَل منزلته البديعة ـ ﷺ ـ وشرّف وكرّم.

عَرجْتَ تخترقُ السّبْعَ الطباقَ إلى مَقامِ زُلْفىٰ كريمٍ قُمْتَ فيهِ عَلِ[1]

عن قاب قوسينِ أو أدنى هبطتَ ولم تستكمل اللّيلِ بين المَرِّ والقَفَلِ

ويُحتمل أن تكون الدّرجةُ الرفيعةُ في حقّه عليه الصلاة والسلام الدّرجةَ المعنويّة والرّفعة في المكانة الدينية؛ لأنه ـ ﷺ ـ في المكانةِ في الأفق الأعلى وحَباه من العُلوم اللّدُنية والمواهب الرّبّانية ما لم يَنله أهل الملأ الأعلى.

ولقد رقّاه مولانا جلّ جلاله في درَجاتِ الفَضائلِ حتى بلغَ مُنتهى الكمال، وأعلى رفعته في سماءِ المَعارِف الكبيرُ المُتَعال، وصيّره إكسير السّعادات العاجلة والآجلة، وكنز الأسرار الدُّنيوية والأُخروية الماجدة.

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ اسم نبينا ـ ﷺ ـ صاحب الدرجة الرّفيعة أن يعظّمَ أمرَهُ، ويُقدرهُ قَدْره، ويعلم عند الله مَنزِلَتَهُ، ويقرّر للمُحِبّين درجته،

---

(١) من بحر البسيط.

وبيّن لهم مكانته ورفعته، ويتأمّل سيرة أصحابه والتّابعين كيف كان تعظيمُهم له في حياته، وتوقيرُهم له عند ذِكره، وسماعِ أحاديثِهِ بعد مماته؛ لأنهم ـ رضي الله عنهم ـ عَلِمُوا قَدره عندَ الله، وتأدّبُوا معه بأدب الله.

ورضي الله عن مالك بن أنس[1]، كان لا يحدث بحديث رسول الله ـ ﷺ ـ إلا وهو على وُضوء، إجلالاً له.

قال مطرّف رحمه الله: إذا جاء الناسُ مالكاً[2] خرجت الجارية فتقول لهم: يقول لكم الشيخ: تريدون الحديث أو المسائل؟

فإن قالوا: المسائل خَرج إليهم، وإنْ قالوا: الحديث دخَل مُغْتَسله[3]، واغْتَسل، وتطيّب، ولبس ثياباً جُدداً، ولبسَ تاجه[4] وتعمّم، ووضعَ على رأسه رداءه، وتلقىٰ له مِنصّة يجلس عليها وعليه الخشوع، وما يزال يبخّر بالعُود حتى يفرغ من حديثِ رسول الله ـ ﷺ ـ.

هذه حالُ مَن علم أن نبيّنا عليه الصلاة والسلام، صاحب الدرجة الرّفيعة.

قال مُصعب [٢٠٣/أ] بن عبد الله: كان مالك إذا ذُكِر النبي ـ ﷺ ـ يتغيّرُ لونُه، ويتحيّر حتى يصعب ذلك على جلسائه، فقيل له يوماً في ذلك؟ فقال لهم: لو رأيتُم ما رأيت لما أنكرتم عليّ ما ترون، لقد

---

(١) مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري (٩٣ ـ ١٧٩ هـ)، إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة، وإليه تنسب المالكية. مولده ووفاته في المدينة المنورة. له (الموطأ) وغيره من المؤلفات، ويكنى أبا عبد الله.

(٢) في ب: إلى مالك.

(٣) المُغتسل هنا اسم مكان، حيث يغتسل.

(٤) التاج من أسماء العمامة.

كنتُ أرى محمد بن المُنكَدِر[1] ـ وكان سيّد القرّاء ـ لا تكادُ تسألُه عن حديث أبداً إلا بكى حتّى تَرْحَمه.

ثم ذكر رحمه الله عن جَعفر بن محمد الصادق عن عبد الرحمن بن القاسم، وعن عامر بن عبد الله بن الزّبير، وعن الزُّهري، وعن صفوان بن سليم، وعن قتادة، وعن ابن منذر، وعن عبد الرحمن بن مهدي، وغيرهم ما يدلّ على تعظيمهم، وخَوفهم، وتوقيرهم لصاحب الدّرجة الرفيعة ـ ﷺ ـ وأن هذه طريقة المحبّين، وعلامة السّالكين.

وقد ناظرَ أبو جعفر[2] مالكاً يوماً في مَسْجد الرسول ـ ﷺ ـ فقال له مالك: يا أميرَ المؤمنين لا ترفعْ صوتك فإنَّ الله أدّب قوماً فقال تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ [الحجرات: ٤٩/٢] ومدح قوماً فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات ٤٩/٣]، وذمّ قوماً فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحُجرات ٤٩/٤]، وأن حرمته ميتاً كحرمته حيّاً، فاستكان لها أبو جعفر وقال: يا أبا عبد الله[3] أأستقبلُ القبلة وأدعو أم أستقبلُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ؟ قال:

ولِمَ تَصرفُ وجهكَ عنه وهو وَسِيلَتُكَ، ووسيلةُ أبيكَ آدم عليه السّلاَم إلى يوم القيامة؟ بل استقبله، واستشفعْ بهِ، يشفّعك الله، قال الله

---

(١) محمد بن المنكدر (٥٤ ـ ١٣٠) القرشي التيميّ، زاهد من رجال الحديث من أهل المدينة، من التابعين، له نحو مئتي حديث، قال فيه ابن عيينة: ابن المنكدر من معادن الصّدق، وينظر في تحقيق ولادته ووفاته حاشية الأعلام ٧: ١١٢.

(٢) هو أبو جعفر المنصور ثاني الخُلفاء العبّاسيّين وكان فيه قوّة وبأس وبطش.

(٣) أبو عبد الله كنية الإمام مالك.

العظيم: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء ٤/ ٦٤].

هذه طريقَتُهم رضي الله عنهم، وما أحسن القصيدة التي للشيخ وليّ الله سيّدي عليّ بن الوفا[1] التي تدلُّ على مقامه، وعلوّ قدرِه في عِرفانِه، ويجبُ على كل مسلم محبٍّ حفظُها، قال رحمه الله ونفع به: [٢٠٣/ ب].

سكنَ الفؤادُ فعشْ هنيئاً يا جسدْ ... هذا النعيمُ هو المقيم إلى الأبَدْ[2]

أصبحتُ في كنَفِ الحبيب ومَن يكنْ ... جارَ الحبيب فعيشُه عيشُ الرَّغدْ[3]

عِشْ في أمانِ اللهِ تحت لوائِه ... لا خوفَ في هذا الجناب ولا نكدْ

لا تخشينْ فقراً فعندكَ بيت مَن ... كلّ المُنى لك من أياديهِ مَددْ

ربّ الجمالِ ومُرسل الجَذْوىٰ ومن ... هُوَ في المحاسن كلّها فردٌ أحدْ

قطب النّهى غوثُ العوالمِ كلّها ... أعلىٰ عليٌ سارَ، أحمدُ مَن حَمدْ

روحُ الوجود حياةُ من هو وَاجِد ... لولاه ما تمّ الوجود لمن وجدْ[4]

عيسىٰ وآدمُ والصّدور جميعهم ... هم أعينٌ هو نورها لمّا وردْ[5]

لو أبصر الشّيطانُ طلعةَ نورِه ... في وجهِ آدمَ كانَ أوّل من سجَدْ

---

(١) أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن وفا الشاذلي. متصوف، أصله من الإسكندرية ومولده ووفاته بالقاهرة (٧٥٩ ـ ٨٠٧ هـ)، له عدد من المؤلفات، وديوان شعر وموشحات، قال فيه السخاوي: كثر اتباعه وأتباع أبيه فرتب لهم أذكاراً بتلاحين كان يستميل بها قلوب العوام.

(٢) من بحر الكامل.

(٣) في ب: جار الكريم.

(٤) كذا في الأصول.

(٥) في أ: هم أعين هم نورها. وفي ب: هو أعين هو نورها. والصواب في ج.

لـو أبـصـر الـنـمْـرود نـورَ جـمـالـهِ عبدَ الجليـلَ مع الخليل وما عنَدْ[1]
لـكـن جـمـال الـحـقّ جـلّ فـلا يـرىٰ إلا بـتـخـصـيـصٍ مِـنَ اللهِ الـصَّـمَـدْ
فابشرْ بمن سكَن الجوانح منك يا مَنْ قد ملئت من المنىٰ عيناً ويَدْ
عينُ الوفا معنى الصّفا سِرُّ الندىٰ نورُ الهدىٰ روحُ النُّهىٰ جسدُ الرَّشَدْ
فله الصّلاةُ من السّلامِ المُرتضىٰ الجامع المخصوصِ ما دامَ الأبَدْ

فللّه دَرُّ هذا الشيخ الوليّ لله في هذه القصيدة وما أودعَ فيها من الأسرار، وما أشار إليها، وما رَمَزَ من الأنوار.

وقد اعتنىٰ بها بعضُ المحبّين وشرَحها، نفعَنا الله بمَحبّتهم ووفّقنا لاتباع طريقتهم، وأماتنا على مِلّتهم، وحشَرنا في زُمرتهم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً، وزاده مولانا شرفاً وتعظيماً.

(١) أي لعبد الله الجليل كما عبده إبراهيم الخليل (النبي الذي كان على زمانه) ولم يعاند الحق.

بـاب

في معنىٰ اسمه:

صاحب التّاج(١)

صَلّىٰ اللّهُ عَليهِ وسلّم وشرّف وكرّم

صاحبُ التّاج: اسمٌ من أسمائِه عليه أفضل الصّلاة والسّلام، أطلقه عليه المُحِبُّون، ووصفهُ به العارفون، والتاجُ المضاف إليه عليه الصّلاة والسّلام قيل: المرادُ به العِمَامة، ولم تكن حِينئذ إلاّ للعرب، والعمائم تيجانُ العرب.

قال ابن فارس(٢) رحمه الله: كانَ(٣) ـ ﷺ ـ يلبس يوم الجُمعة بُرده الأحمر ويعتَمُّ، وكان له عليه الصلاة والسلام عمامةٌ يعتمُّ بها يُقال لها السّحاب، وهَبها لعليّ رضي الله عنه وكان له عمامة سوداء، ويلبسُ يوم الجمعة ثوباً غير ثيابه المُعتادة كل يوم، ولا يخرج يوم الجُمعة إلا مُعْتَمّاً

---

(١) صاحب التاج في: الشفا ١: ٣٢٠، والرياض الأنيقة: ١٨٤، وسبل الهدى والرشاد ١: ٥٩٠.

ـ وعبارة (العمائم تيجان العرب). مشهورة عدّها بعضهم حديثاً، وهو ضعيف. ينظر الرياض ١١: ١٨٦ وحواشي النص.

(٢) هو أبو الحسين أحمد بن فارس الرازي أحد أئمة اللّغة والأدب في زمانه (٣٢٩ ـ ٣٩٥ هـ) من مؤلفاته كتاب في سيرة رسول الله ﷺ نشره هلال ناجي.

(٣) هذه الأخبار جميعاً في زاد المعاد لابن قيّم الجوزية ١: ١٣٥ ـ ١٤٧، وينظر دلائل البيهقي ٥: ٦٧ وما بعدها.

يرسلها بين كتِفَيْه، ويُديرها ويغرزها.

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: دخلَ رسولُ الله - ﷺ - يوم فتحِ مكّة وعليه عمامة سوداء [٢٠٤/أ].

وهذا الذي ذكرناه من أنّ المُراد بالتاج العمامة التي كانت على رأسه - ﷺ -، ذكرهُ جماعةٌ من العُلماء رضي الله عنهم فكأنّك قلت: صاحب العمامة.

وإنما خُصّ بهذا الاسم الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام وإن كانت لغيره من العرب العمائم لأوجهٍ كثيرة ممّا يجبُ له من التّعظيم والإجلال والتفخيم.

منها: أن العرب كانت العمائم لها تيجاناً[(١)]، وأصل التّاج ما يُجعل على الرؤوس مما يتوّج به صاحبُ الرفعة الشامخة كما كانت العجم لملوكها تيجانٌ من ذَهب، مموّهة بيواقيت وجَواهر. فكانت العرب ترى أنّ أحسن ما يُتَوَّجُون به العمائم، فمنهم من كانت عمائمها حمراً، وهم جُهَينة، ومنهم من كانت عمائمها سوداً وهم مُزَينة، ومنهم مَن كانت عمائمُها كثِيابها، لها تيجانٌ مختلطةٌ ما بين سَوادٍ وبياضٍ وحُمْرةٍ، وهم بطحاءُ مكّة.

ولمّا كانَ نبيُّنا - ﷺ - عربياً مكّياً هاشمياً، قُرشياً، وكانت ذاتُه لا تشبه الذّوات، ومحاسِن أحواله فاقَ جميعَ المخلوقات - ﷺ - وشرّف

---

(١) في اللسان: كلّما قيل في العجم تُوّج (من التاج) قيل في العرب عُمّم، وفيه أنه يقال عُمّم الرجل أي سوّد، لأن تيجان العرب العمائم. قال: كانوا إذا سوّدوا رجلاً (من السيادة) عمّموه عمامة حمراء.

وكرّم:

فإنْ تَفُقِ الأنامَ وأنتَ منهم ... فإنَّ المسكَ بعضُ دَمِ الغَزالِ[1]

فقد خرج - ﷺ - عن نظيره من البشر لسرٍّ أودعه فيه الكبيرُ المُتَعال، ومعانٍ لطيفةٍ تمّم بها معناه وصورته، وألبسه بها حُلَل الكمال.

فإنّ[2] تاجه وعمامته - ﷺ - إذا كانت على رأسه يكسوها من الحُسن والرّشاقة والبهو والحلاوة والهيبة في القلوب والإجلال، وحُسن الشكل والقوام في الصُورة والاعتِدال، فكان في تاجِه مِن العُذوبة والحَلاوةِ والحُسنِ والطّلاوةِ ما صارت به عَلماً على التّيجان، وصار في عمامتِهِ من بديعِ اللطائف ما تُضربُ به الأمثال في الدهور والأزمان، فإذا قلت: صاحبُ التاج، كأنّك قُلت: صاحب العمامةِ الرّفيعةِ الحَسنةِ البديعة، ذات المحاسِن والبَهاء، والهَيبةِ المنيعة.

ويُحتمل أنّه عليه الصّلاة والسّلام إنما خُصَّ بصاحب التاج، إشارةً إلى أنّ التّيجان جرت العادةُ فيها في جميع الأزمان [٢٠٤/ب] إنما توضع على وجيهِ العصر، ووحيد الأقران، فكأنّ المحب يقول على هذا المعنىٰ: إنَّ حقَّ التاج العظيم عند الخلق إنّما يوضع على رأس من كملت له المحاسن، ولم يُوجدِ له نَظيرٌ في الأزمان والأماكن، الذي لم يشاهد في الكون خيرٌ إلا من بركته، ولم يُدفع ضرٌ في الوُجودِ إلاّ بسببه، والتعلّق به الذي كمّل المولىٰ ذاته في خلقه وخُلقه، وصيّره إكسيرَ السّعادة العاجلة والآجلة، للعالم كُلّه علويّه وسُفليه، فهو كنزُ الأسرار

---

(١) من بحر الوافر، وهو من شعر أبي الطيب المتنبي.

(٢) في ب: فكان تاجه..

الدنيوية، وفُتوح الأبواب الأُخروية.

ففي قولك: صاحب التاج إشارةٌ إلى أنه إنما وضع التاج في محلّه في حقّه، لأنه لا تاجَ أبهىٰ من تاجه ولا حُسن كحسنِه، ولا أرشقَ ولا أبدع، ولا أتمّ مِن هَيبته على المُتوّج به.

ولقد أفصحَ الغلامُ الذي كان يصفُ لمالك بنِ عوف[1] النصريّ الكتائب، وقد وصف تيجانَها حتىٰ بلغ إلى الكتيبة التي فيها سيِّدُ السادات، والبديعُ الصِّفات، فوصفها بأنّ تيجانها خضر، فقال له مولاه: يا غلام! هذه كتيبةُ محمّد الخضراء التي تعلقُ بها الجبال، وتهتك بها الحبال، يا غلامُ صف لي الذي وسطها!.

قال: يا مولاي في وسطها قمرٌ يَلوحُ، على رأسه عمامةٌ سوداء[2]، كأنه قمرٌ من بين زِبْرِجَيْن[3].

فقال له: يا غلام مالك قطعت ظهري! أتدري من هذا؟ قال الغلام: واللاتِ والعزىٰ لا أعرِفُه!

فقال: يا غلام هذا الجبلُ الشاهق، هذا النور الشّارق، هذا سيد العرب[4] والنُّضّار والذهب، هذا الذي إذا تكلم أفهم، وإذا فاخَر أفخم، هذا صاحب العلم الطويل، والكلام الجليل، هذا صاحبُ التّوحيد

---

(١) مالك بن عوف بن سعد النصري من هوازن؛ (توفي نحو ٢٠هـ) كان رئيس المشركين يوم حُنين، ثم أسلم وشهد بعض المعارك كالقادسية وفتح دمشق. وكان شاعراً، فصيحاً، وقد سبق هذا الخبر في الكتاب.

(٢) هنا موضع الشاهد من الخبر.

(٣) الزبرج: السّحاب الرقيق فيه حُمرة؛ أو الخفيف الذي يُسفره الرّيح. وزاد في ج: (والزبرج السحابة السّوداء) وانقطع من الكلام في ج قطعة أسقطها الناسخ.

(٤) في ب: سيد العرب والعجم.

والكلام السديد.

ثم ذكر من صفاته، وحسنه وجماله، وما أحسن كلام هذا الغلام في قوله: في وسطها قمر يلوحُ على رأسه عمامة سوداء، كأنما خرج من بين زِبرجين، والزِّبْرِجُ السَّحابةُ السوداء.

فكأنه شبّه وجه رسول الله - ﷺ - بالقَمر إذا انشقّت عنه سحابةٌ سوداء، لا ترى أحسن منها ضياءً ومنظراً وبهاءً.

وكذلك إذا كانت عمامة رسول الله - ﷺ - على رأسه، وقد أحاطتْ بوجهه العظيم، فنورُ وجهه، وإشراقُه، وضياؤه في وسط العمامة السوداء [٢٠٥/أ] يظهر له زيادةً وغرابةً وهيبةً فائقة في حُسنها، يقصرُ التّعبيرُ عن حسنِها وجمالها، وبديع صِفاتها، وأقربُ مالها من المثال المحسوس القمر الذي انشقّتْ عنه تلكَ السّحابةُ السّوداء.

وقد توّج الله التيجانَ العظيمة التي على رُؤوسِ ملائكته، وحَضرةِ قُدسه، بأن طرّزت باسمه.

وقد رأىٰ - ﷺ - ملكاً[1] من ملائكة الله، رئيس ملائكة السماء السّابعة معه اثنان وثلاثون ألف مَلك، على رأسِ كلّ ملكٍ تاجٌ، طوله تسعونَ ذراعاً من ذراع جبريل، في كلّ تاج أربع مئة لؤلؤة. اللُّؤلؤة الواحدة تسعُ فيها الدّنيا، مكتوبٌ على جبين جبريل، والتيجان: سطران يلمعان «لا إلّه إلا الله محمّد رسُول الله».

فسُبحان الّذي لا يُعجزه شيءٌ من المُمكنات، والّذي مَنّ على عبيده ببعثةِ بَديع الصِّفات.

---

(١) في خبر المعراج.

أسنىٰ من البَدْرِ نُوراً حسنُ غرّته والقدُّ معتدلٌ أربىٰ على القُضبِ[1]
أذكىٰ من المِسك طيباً ريحُ نكهتِه عفٌ حليمٌ كريمٌ كاشفُ الكُرَبِ
أغرُ أبيضُ يُستسقىٰ الغمامُ بهِ كهفُ الأرامِلِ للأيتامِ خيرُ أبِ
خيرُ الأنام، وخيرُ النّاس كلّهم وسيّد الخلقِ من عُجْمٍ ومن عَربِ
أمثالُه فضحت في حُسن صَنعتها ذَوِي البلاغة والأشعار والخُطَبِ
وللنبيّ علاماتٌ ومعجزةٌ قد صحّ بُرهانُها حقّاً لمرتقبِ
يا ربّ صلّ وسلّمْ دائماً أبداً عليهِ ثُمّ الرّضا عن صحبهِ النُّجُبِ

فصل

مِن أدابِ مَنْ عَلِمَ أنَّ نَبِيّنا ـ ﷺ ـ اسمُه صاحِبُ التّاج، وأنّ التاج المراد به العمامة السنيّة ذات البهاء والهيئة السّنِيّة، أن يكون المحبُّ تابعاً له في لباسه، مُقتدياً به في أفعاله، وكانَ لباسه ـ ﷺ ـ من وسط اللّباس مُقْتَصِداً فيه؛ حالَه حالُ المتزوّد من الدُّنيا، العالم بأنّها دارُ مَعْبَرٍ لا دار مَعْمَر.

روى التّرمذي عن الأشعث بن سليم قال[2]: سمعتُ عَمّتي حديثاً عن عَمّها قال: بينا أنا أمشي في المدينة إذا إنسانٌ خَلفي يقول لي: ارفع رداءك فإنّه أبقىٰ وأنقىٰ [٢٠٥/ب] فإذا هو رسول الله ـ ﷺ ـ فقلت يا رسول الله: إنّما هي مَلْحاء، قال: أَمَا لكَ فيّ أُسوة؟ فنظرت فإذا إزارُه

---

(١) من بحر البسيط.

(٢) في حديث عُبيد بن خالد: كنت رجلاً شاباً بالمدينة فخرجت في بُردين وأنا مُسبِلُهما فطعنني رجلٌ من خلفي إمّا بإصبعه وإما بقضيب كان معه، فالتفت فإذا رسول الله ﷺ فقلت: إنّما هي ملحاء، قال وإن كانت ملحاء أما لكَ فيَّ أُسوة؟..»
ـ وقوله: ملحاء أي بُردة فيها خطوط سود وبيض. (النهاية م ل ح).

إلى نصفِ ساقيه.

وقال ابنُ عمر[١] رضي الله عنه كان النبيّ - ﷺ - إذا اعتمّ عمامته أرسل لها ذُؤابةً من خلفِه، وكان يلبسُ قَلَنْسُوَةً بيضاء[٢].

وقد روي[٣] أنه - ﷺ - ترك في بيته سريراً مَرْمُولاً بشريط[٤]، وقَعْباً يشرب فيه الماء، وجرّة مكسورة الرأس يجعل فيها الشيء، ووسادةً من أدم حشوُها ليف، وقطيفة غبراء كأنّها من هذه القُطف الجرمقانيّة فيها من شعر رسول الله - ﷺ -.

وكان يقولُ بعض السادة الكرام إذا دخل ذلك البيت:

يا معشرَ قريش هذا تراثُ مَن أكرمكم الله به وأعزّكم برسالتهِ خرجَ من الدُّنيا كما تَرون - ﷺ -.

قال البَراءُ بنُ عازب رضي الله عنه[٥]: ما رأيت أحداً من النّاس في حُلّةٍ حمراء أحسن من رسول الله - ﷺ -، وكانت جُمّته تضربُ قريباً من منكبيه[٦].

قال العلماء رضي الله عنهم: ليس يعني البَراء بالحُلّة كما يفهم

---

(١) يُراجع الباب الذي أورد فيه الهيثمي ما جاء في العمائم مجمع الزوائد ٥: ١١٩ - ١٢١.

(٢) في مَجمع الزوائد ٥: ١٢١. وكنز العمال ١٨٢٨٤، ١٨٢٨٥.

(٣) الشّفا ١: ٢٨٣، والنهاية لابن الأثير (ر م ل).

(٤) رمَل: نَسج، ومعنى رمل سريره وأرمله: إذا نسج شريطاً أو غيره فجعله ظهراً له.

(٥) في سُنن النّسائي ٨: ١٣٣، وفيه مارأيت أحداً في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ.

(٦) كانت له جُمّة إلى شحمة أذنيه (كنز العمال ١٨٥٥٥).
وفي النهاية (ج م م)، «كانت لرسول الله ﷺ جُمّة جَعْدة» قال: الجُمّة من شعر الرأس: ما سقط على المنكبين.

وأنّها من حرير، فإنه عليه الصلاة والسلام حَرّم الحرير على ذكور هذه الأمة[1] وحاشاه من ذلك؛ بل المراد بالحُلّة عند العرب ثوبان من جسر واحد يقال عليه حلة.

فيطلب في حقّ المريد ـ وفّقني الله وإياه ـ أن يقتدي بمن جعله الله مولانا أُسوة لنا، ولْيتجنبِ الشُّهرة من اللباس.

وقد رُوي عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال[2]: «من لبس ثوبَ شهرةٍ ألبسه الله ذُلاً قبل الموت».

وقد روى محمد بن جادة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال يوماً[3]: «ويل للمُتَخَوّضين في مال اللهِ ورسوله من النار يأكلون ما يشتهون، ويلبسون ما يشتهون».

ورُوي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّه قال: ألا أُنبئكم بالأخسرين أعمالاً هم الّذين يلبسون المشهور، وينامُون على المأثور، ويركبون المنظُور.

وروي أن رجلاً أتىٰ إلى الحسن[4] فقال: يا أبا سعيد أيُّ اللّباسِ أحبُّ إليك؟ قال: أغلظُها وأخشَنُها وأوضَعُها عند الناس. قال: يا أبا سعيد، أليسَ قال[5]: إن الله جميلٌ يُحِبُّ الجمال؟ [٢٠٦/أ] فقال: يا

---

(١) عن أبي أمامة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يلبس حريراً ولا ذهباً، (مجمع الزوائد ٥: ١٤٣).

(٢) ورد بألفاظ مقاربة؛ وفي مسند أحمد ٢: ٩٢ من لبس ثوب شهرة في الدنيا ألبسه الله ثوب مذلّة يوم القيامة.

(٣) مسند أحمد ٦: ٣٧٨.

(٤) هو الحسن البصري، وقد سبق ذكره في المتن والحاشية.

(٥) الفتح الكبير ١: ٣٣١.

أصلع! ذهبتَ إلى غير المَذْهَب! لو كان الجَمالُ عند الله اللّباس لكان الفُجّارُ عند الله أوجهَ من الأبرار، ولكنَّ الله يحبُّ الجمالَ له بطاعته.

وروي عن مسلم بن يسار[1] عن أبيه أنّه قال: إذا لبست ثوباً فظننت أنّك في ذلك الثوب أفضل منك في غيره فبئسَ الثّوبُ هو لك!

وقال طاووس[2]: مَنْ زَعم أنّ الثياب لا تغيّر القُلوب فقد كذب، إنّي لأغسل ثوبي هذا فأنكر من نفسي ما أعرف.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: لبس أبي قميصاً جديداً، ثم دعا بشفرةٍ ثم قال: مدّ يا بني كمّي، وألزق يدك بأطراف أصابعي، ثم اقطع ما فضلَ عنهما. قال: فقطعتُ من كُمّيه من الجانبين جميعاً، فصار الكم يتعدّى بعضُه فوق بعض.

فقلت: يا أبه! لو سَوّيت بالمِقَصّين.

فقال: دَعْهُ يا بني، هكذا رأيتُ رسول الله ـ ﷺ ـ فما زالَ الثوبُ على أبي حتى تقطع ورأيته يصلي والخيوطُ تتساقطُ منه على قدميه.

هذه طريقةُ الزاهدين في لباسهم، وشعار الصالحين في طعامهم وشرابهم، ولولا كلامُ عزّ الدين[3] وغيره من العلماء الرّاسخين في أنّ

---

(١) مسلم بن يسار الأموي ولاءً (ت ١٠٨هـ) فقيه، ناسك، من رجال الحديث، أصله من مكة، وسكن البصرة، وصار مفتيها، وتوفي فيها.

(٢) طاووس بن كيسان الخولاني الهمداني بالولاء (٢٣ ـ ١٠٦ هـ) من أكابر التابعين تفقهاً في الدِّين ورواية للحديث، وتقشفاً في العيش، وجرأة على وعظ الأمراء والخلفاء. وكان مشهوراً بتجنب أهل السُّلطة.

(٣) عز الدين بن عبد السلام؟

اللباس على قدر حال أهلِ العُرف، سيما لمن كان منصُوباً لِمصَالح المُسلمين، فإنه إنّما يسمعُ منه ويُعَظّمُ لفساد الزمان إذا وافق لباسه زيّهم، وإلاّ فطريق الزّاهدين القريبة من الحقّ هي طريقةُ السَّلفِ الصّالح رضي الله عنهم.

وقضيّة الشيخ وليّ الله أبي عبد الله الدكالي[1] مع الشّيخ العالم العلم القُدوة شيخ شيوخنا الإمام الصالح أبو عبد الله محمد بن عرفة ـ رحمهم الله أجمعين ـ معلومةٌ، والكتبُ بها مَسْطورة، وكلٌّ على هدى وطريقة السنة، أعاد الله علينا من بركتهم، وحشَرنا في زُمرتهم.

بِمثلهمْ وبأمثالٍ لهم سَبَقُوا ... نرجُو النَّجاة إذا صِرنا لِمَا وَصلُوا[2]
فكلّ ذي قدم منهم سينزلنا ... بِجودهم حيث ما حَلُّوا وما نزلوا
كم من غريقٍ ذنوبٍ ضاق مذهَبُه ... فأمّنوا رَوعه جوداً وما بَخِلُوا
هم الكرام إذا ما جئت مُفتقراً ... همُ الحماةُ إذا أوْدَت بك العللُ
فنحن في ظِلّهم راجون فَضلهم ... كذا الكرامُ إذا ما أمّلوا فَعلُوا
فالله يرزقُنا في يوم موقفنا ... شفاعةً منهمُ يا أيّها الوَجِلُ
وقد دخلتُ لتطفيلي دخيلَهمُ ... بجاههمْ ليسَ لي تقوى ولا عملُ

---

(١) سبقت الإشارة إلى أبي عبد الله الدوكالي.

وابن عرفة، هو أبو عبد الله محمد بن محمد الورغمي، إمام تونس وعالمها وخطيبها في عصره. تولى إمامة الجامع الأعظم بتونس سنة ٧٥٠ هـ والخطابة فيه ٧٧٢ هـ والفتوى ٧٧٣ هـ له مؤلفات في الفقه، والأصول، والتوحيد والتعاريف، وغير ذلك.

ـ ولمؤلف كتاب «تذكرة المحبّين» هذا شرح على الحُدود الفقهية سماه «الهداية الكافية». ولد ابن عرفة سنة ٧١٦ هـ وتوفي سنة ٨٠٣هـ (وقيل ٨٠٠ هـ) وتنظر حاشية الأعلام ٧: ٤٣.

(٢) من بحر البسيط.

مـنّي عـلـيـهـم سـلامُ الله مـا ذكـرت أخبارهـم فاشـتـهـت رؤيـاهُـم المُقَلُ
مـبـاركٌ طـيّـبٌ يـغـشـاهُـم أبـداً نـسـيـمُـه بعـبـيرِ الـمسـكِ مُشـتَمِلُ

وصلّىٰ الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبِه وسلّم تسليماً، وزاده مولانا شرفاً وتعظيماً [٢٠٦/ب].

باب

في معنىٰ اسمه:

صاحب المعراج[1]

صَلّىٰ اللّهُ عَليهِ وسلّم وشرّف وكرّم

صاحب المعراج اسمٌ من أسمائه عليه أفضل الصلاة والسلام وخُصّ بهذا الاسم الكريم لاختصاصِه بالعُروج والإسراء بجسمِه العظيمِ حتى شاهد من أسرارِ الجَبرُوت واطّلع علىٰ غَياهِب الملكوت.

وأصلُ المعراج: العلوُّ والصّعود والرّفعة إلى جهة فوق، والتّرقّي في الصُعودِ من العالم السُفلي إلى العُلويّ كما تَرَقّى حبيبُ الحقّ، وسيّد الخلق.

وقد تضافرت الأخبارُ على أنّ نبيّنا ـ ﷺ ـ أُسْرِيَ به بجسده العظيم حتّى شاهد بعين بصره في عالم الغَيْبِ آياتِ رَبّه الكبرى، وأمّده المولىٰ بالمعونة في حواسّه حتى أقدره على الرُؤيا مرّة أخرى، فما زاده رؤية الملكوت إلا قوّةً وثباتاً في اليقين، وما زاغَ بصرُهُ وما طغَى، بل شرفه مولاه بإظهار المكانة لديه والتمكين.

والصّحيحُ من أقوالِ العلماءِ ما ذكرناه أن الإسراء في حَقّه عليه

---

(١) صاحب المعراج في الشفا ١: ٦٣٠، وسبل الهدى والرشاد ١: ٥٩٣، والرياض الأنيقة: ١٩٦.

الصلاة والسلام كان بِجَسدِهِ المكرّم العزيز القدر، المُنَعَّم[1].

وقد دلّت على ذلك ظَواهرُ لا تُحوِجُ للتّأويل فيها لأن هذا النبي الكريم قد أظهر الله سبحانه على يديه من الخَوارقِ للعادات، ومن بيانِ المُعجزات ما لم يعطِه لنبيّ قبله في الدُّهور السّالفات.

وقدرةُ مولانا جلّ جلاله لا يعجزها شيءٌ من الممكنات، فالذي خَلق الأرضين والسّمٰوات وما بينهما، وما فيهما، بل وكل موجود سواه سبحانه وتعالى من المخلوقات، من غير تعب ولا نَصب ولا تغيْر ولا علاج، ولا يَعتريه فُتور ولا راحات؛ كيف لا يجوزُ في حقّه أن يعرجَ بنبيِّه ويطلعَهُ على ملكوته من عالمِ الغُيوب والشّهادات.

فالذي عليه أهلُ اليقين والرّسوخ والتّمكين اعتقادُ أنَّ حبيب الله أسرىٰ به بذاتِه حتّى شاهد فوق السموات عجائب مخلُوقاته وأمَّ أنبياءَ الله أجمعين..

وقد اختلفت الأخبار والطُّرق في أحاديثِ الإسراء العظيم [٢٠٧/أ] فلنذكرْ من ذلك ما يليقُ بهذا الاسم الكريم، ومن أرادَ أن ينتفع بنفسه فليطالع الكُتب المعدّة للبسط والتّطويل، فإنَّ في ذلك ما يشرح به صدرَ المُؤمن، ويُمرض الحاسدَ العليل، فَلْنُشِر إلى لمحة مختصرة من كلامِ

---

(١) قال الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله «إن ظاهر الآية القرآنية التي أثبتت الإسراء وهي قولُه تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ الآية؛ أن الإسراء كان بالجسد والرُّوح، وذلك لأنّه سبحانه وتعالى قال ﴿أسرى بعبده﴾ والعبدُ هو الروح والجسد. وما دام الظاهر لا دليل يناقضُه من عقل أو نقل فإنه يجبُ الأخذ به؛ فإنه من المقرّرات أن الألفاظ تفسّر بظاهرها إلا إذا لم يمكن حملُها على الظاهر لمعارض. ولا معارض» خاتم النبيّين ١: ٤٦٨. وساق أدلة أُخرى مؤكدة مؤيّدة.

المحبّين، وإلى رَوضةٍ مجموعة في إسراء سيّد المرسلين.

ولنذكر طريقاً جامعاً مختصرةً غير طريقِ مُسلم والبخاري رضي الله عنهما وهي في بعضِ الروايات عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله - ﷺ -: بينا أنا نائمٌ في الحِجْرِ إذْ أتاني آتٍ فحرّكني فاتّبعتُ الشّخص فإذا هو جبريل عليه السلام قائماً على باب المسجد ومعه دابّةٌ دون البغلِ وفوقَ الحِمَارِ وجْهُها وجهُ إنسان، وخُفّها خفُّ بعير، وذنبها ذَنبُ ثور، وعُرْفُها عُرف فَرس.

فلمّا أدناه منّي جبريل عليه السّلام نَفَرت فَمسح عَليها وقال: يا برقة[1]! لا تنفري! هذا محمّد عليه الصلاة والسلام، فواللهِ ما ركبَكِ مَلَكٌ مُقرّبٌ، ولا نبيٌّ مُرسلٌ أفضل من محمد - ﷺ - ولا أكرم على الله منه.

قالت: قد علمتُ أنّه كذلك، وأنه صاحب الشّفاعة، فأَحْبَبْتُ أن أكونَ في شَفاعته.

فقال النبيُّ - ﷺ - لها: أنت في شَفاعتي إن شاء الله.

فركبَ - ﷺ - البُرَاق، وأخذ في السّير وجبريل عن يمينِه في سبعينَ موكباً من الملائكة، يسرحون في الهَواء، والنبيّ - ﷺ - يسيرُ على الأرض حتى أتىٰ بيت المقدس، فوجدَ جِبريل قد تقدّم.

فقال: يا محمّد! ما لقيت؟

---

(١) هو البُراق، وفي اللسان (ب ر ق) البُرَاق: دابّة يركبها الأنبياء عليهم السلام! وقيل البراق: فرس جبريل عليه السلام. وفي الصحاح: البراق اسم دابة ركبها سيدنا رسول الله ﷺ ليلة المعراج. وذُكر في الحديث. قال: وهو الدابة التي ركبها ليلة الإسراء، وسُمّي البُراق بذلك لنصوع لونه وشدّة بريقه، وقيل لسرعة حركته شُبّه فيها بالبَرْق.

فذكر النبي - ﷺ - ما لقي في طريقه بكلامٍ فيه طولٌ، حذفته.

قال: ثم دخلتُ المسجد وقد امتلأ بملائكةِ الله، وأقام جبريلُ الصَّلاة، وتقدّم النبي - ﷺ - وصلى بهم.

قال: ثم أخذ جبريلُ بيدي، فأتاني إلى ناحيةِ الصَّخرةِ، ثم نادى يا إسماعيل دلّ المِعراج، فدلاّه، فإذا له مئةُ درجة ما رأيتُ شيئاً أحسن منها، فصعدتُ أوّلَ درجةٍ فإذا بملائكة ثيابهم حُمرٌ، وألوانُهم حُمرٌ؛ ثم صعدتُ الدرجةَ الثانية، فإذا أنا بملائكة صُفرٍ، . وألوانهم صفرٌ، ثم صعدتُ الدَّرجةَ الثالثة فإذا أنا بملائكة: ثيابهم خُضرٌ، وألوانهم خُضر؛ ثم صعدتُ الدّرجة الرابعة، فإذا عليها مَلكٌ ومعه عمود، وحولَهُ ملائكةٌ أجْسَادُهم ووجوههم كأنَّهُنَّ المَرايا المَجْلُوّة؛ ثم صعدتُ الدرجة الخامسة [٢٠٧/ب] وإذا عليها ملائكةٌ مثل الجنّ والإنس وإذا فيها أشجارٌ، وأنهارٌ، وليس لها كلام إلا: لا إلَه إلا الله، ثم صعدت الدرجةَ السّادسة فإذا ملكٌ عظيم على كرسيّ من ذهب، حوله ملائكةٌ شاخصونَ بأبصارهمْ هيبةً للهِ تعالى لَيس لهم كلامٌ إلا ما شاء الله؛ ثم صعدت الدّرجة السَّابعة فإذا فيها ملائكةٌ لهمْ نورٌ يكادُ بصري يذهبُ من نورهم، فاستَقْبَلُوني بالتّعظيم؛ ثم صعدتُ الدرجة الثامنة فإذا فيها ملائكةٌ وجُوههم من نورٍ عليهم ثيابٌ من سُندس، بأيديهم أعلامٌ مِن نور، فلمّا رأوني قالوا: يا جبريل مَنْ هذا؟

فقال: هذا مُحمّد - ﷺ - بعثهُ الله رحمةً للعالمين، فسلّمُوا عليّ، ورحّبُوا بي؛ ثم صعدتُ الدرجة التاسعة، فرأيتُ ملائكةً عجزتُ عن وَصفهم، ثم عرجتُ الدّرجة العاشرة فرأيت ملائكةً لا يُحصيهم إلاّ الذي خلقهم، ولولا أنَّ اللهَ تعالى ثبّت بصري لذهبَ من نورهم، كلهم: قاموا إليّ بالتعظيم والإجلال، فما زلتُ أصعَدُ درجةً إلى درجة، وجبريلُ عليه

السّلام يحثّ البُراق حَثّاً، ورُسُل ربي يأتي رسول بعد رسول يقولون: يا جبريل! أسرعْ وعجّلْ بمحمّدٍ فإنّ الملائكة اشتاقت إلى لقائه، وأنبياءُ اللهِ في السماء معدّة ينتظرونه ليسلّموا عليه.

قال: فلما وَصلت إلى أعلى درجةٍ سمعتُ ملائكةَ سماءِ الدّنيا يسبّحون ويهلّلون ويقدّسون، فقرعَ جبريلُ باباً من أبواب السماء، وأقبل إسماعيل في ألفِ موكبٍ من الملائكة فقالوا: مَنْ هذا؟

قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد نبي الرحمة قالوا: وقد بُعِثَ محمد؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً بكم.

ثم فُتح الباب فصعدت إلى سَماء الدُّنيا، وهي من موج مكفوف، حبسه الله في السماء بِقُدرته، فلم يبقَ فيها ملَكٌ إلا أتى وسلم عليَّ وعَظّمني.

ثم حَثنا السَّير مسيرة خمسَ مئة عام في الصّعود حتى انتهَيْنا إلى السّماءِ الثانية، ولم يزل - ﷺ - تحفُّه العنايةُ وتتلقّاه الملائكةُ بالرّحب والتّعظيم، من سماءٍ، إلى سماء إلى الشرف الأعلى، إلى سِدرة المنتهىٰ، إلى أن أتى جبريل عليه السلام إلى مَقامِه فقال:

يا محمّد هذا مقامي، ثم اجتاز نبيُّنا - ﷺ - حتى شهد [٢٠٨/أ] آيات رَبِّه الكبرى، وأوحى إليه ربّ العزّة ما أوحى وهو بالأفق الأعلى، واسْتوى فَدنا وتدلّى، فكان قابَ قوْسَيْن أو أدنى.

قال الله العظيم في كتابه الكريم: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم ٥٣/١ - ١١].

وهنا من الكلام والعجائب والأسرار والغرائب بالإسراء بالحبيبِ ما يصلح أن يكونَ تأليفاً مُستقلاً في الكُتب بالأحاديثِ المطوَّلة ونرجُو من الله تعالى أن نقيّده، وما كلّ الكلام يُذكر على رؤوس الخلائقِ الذين لا يفهمون خوفاً على عُقولهم لئلا يَزِلّوا!

فتذكّروا أيها المُحِبّون هذه المنزلةَ العجيبة والرّتبة الغريبة التي خُصّ بها نبيّنا، وامتاز بها حبيبكم، وكيف اهتزّ الوجود من الأعيان والصُّدور لِهذا العَزِيزِ القَدْرِ عند الله، وكيف لا وقد علم المُقرّبون مقامه، وأنّه حبيبُ الله؟

يا عينَ غيبِ اللهِ يا سِرَّ الهُدىٰ ... يا نقطةَ الخَطِّ البَديعِ الأقدمِ(١)

يا معدنَ الأسرار يا كنزَ الغِنىٰ ... يا مشرقَ الأنوارِ للمُتوسِّمِ

يا فاتحَ الأمر العظيم وخاتم الـ ... خلق البديع ونكتةً لم تُفهمِ

يا جامعاً شملَ الشّتات ظهورُه ... نظماً وقبل وجوده لم ينظمِ

يا روحَ أفلاك العُلا ومُديرها ... ومحرّك الحرمِ القَصِيّ الأعظمِ

صلّى عليكَ الله يا مَنْ نُورهُ ... كالشّمس جَلى كل ليلٍ مبهمِ

فصل

مِن آدابِ المحبّ في هذا النبيّ العظيم، صاحب المِعراج الكريمِ وعلاماته، أن يُؤمنَ بما أخبرَ به الصّادق المَصْدُوق ويوطّن فؤاده على ما سمع عن النبيّ الصّدُوق، ويعلم أنّ اللهَ تعالى قادرٌ على ما يشاءُ لا يُعجزه شيءٌ من الذي أرادَ وقوعه، ولا يمتنعُ عليه أمرٌ ممّا يبرز ظهوره، فكلّ ما أخبر به العزيز القدر عند ربّه، وأسْدىٰ بعينه أو سمعه بإذنِه، أو

---

(١) من بحر الكامل.

علمه بقلبه، فيجبُ على المُؤمن التَّصْدِيْقُ به، وعَدمُ المماراةِ في وجوده، فإن الله تعالى زكّى فؤاده، وبَصره وفؤاده، وعَظّم حواسّه [٢٠٨/ب] وينبغي التّصْدِيق والإيمان بما أخبرَ من ثُبوتِ رؤيته[١] للمَلِك الحقّ رؤيةً حقيقيّةً من غير كيفٍ ولا جِهَةٍ ولا مكان.

كما أنّه سمعَ كلامَ رَبّنا القديم من غير صوتٍ ولا حَرْفٍ على غيرِ كيفيّة ولا أين ولا آن. وهو الصّواب من القول.

فإنه لا أكرم على الله سبحانه من حَبِيبنا، ولا أوْجَهَ لديه من شفيعنا.

ويجبُ على السّامع لحديث الإسراء أن ينزّه مولانا وخالقنا عن الجِهَةِ والمكانِ والحَيّز، فإنّه خالقٌ للزّمانِ والمكانِ والآن، فهو الآنَ على ما كانَ لا في جهةٍ ولا مَكان.

فإذا سمعتُم حديثَ الإسراء فاستَحْضرُوا نفيَ ما يستحيلُ على ربّكم، وما يجبُ نَفْيُه عن خالقكم، وصَدّقوا ما أخبرَ به نبيّكم، فإنّ الله عزّ وجلّ جعلَ هذا الإسراء فتنةً للناس يضلّ به من خطر بقلبه الوسواس، فمن غلب عليه اليقين أذْعَن وآمنَ بما أخبر به سيّد المُرسلين، ومن أضلّه الله ما رأى فيما رآه حبيبُ ربّ العالمين.

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه غائباً، فلما أخبره المشركون، وقالوا له: إنّ صاحبك يقول: أتيتُ بيتَ المَقْدس، ويقول كذا وكذا، فقال رضي الله عنه للنّور الذي أودعه الله في قلبه: إنْ كان قال لكم هذا

---

(١) تراجع قضية الرؤية التي فصّل فيها القاضي عياض في الشفا ١: ٢٥٧ وأورد فيها الأقوال المختلفة.

فهو صادق، نصدّقه فيما هو أعظم مِن هذا، وهو الوَحْيُ الذي ينزلُ [عليه] عن الله تعالى[1].

ورضي الله عنه؛ هذا هو التّوفيق الرّباني، والتأييد الإلّهي، ولما سمع اليهود ذلك عَظُمَ عليهم هذا الأمر، فقالوا: انطلقوا بنا إلى محمّد حتى نسمعَ ما يقول.

فأتَوْا فقالوا: يا محمّد بلغنا عنك أنك سرت البارحة إلى بيتِ المَقْدِس، وعرجتَ إلى السماء ورأيت عجائبها ورأيت رَبّك وهَبطتَ إلى الأرض، ورأيتَ غَرائِبها، فإنْ كنتَ صادقاً فَصِفْ لنا بيتَ المَقْدِسِ حتّى نصدّقك! فهبطَ جبريل فقال: يا محمّد لا تَحْزَن فأنا أعلقها لك على ريشةٍ من جَناحي حتى تصفها لَهُم شيئاً بعد شيء.

فقال لهم: السّاعة تقدمَ رفقةٌ من الشام يقدمُها جَملٌ أوْرَقُ[2] عليه أعرابيّ، صفته كذا وكذا، فما استتمّ رسول الله ـ ﷺ ـ الكلام حتى دخلت الرّفقة والجمل يُقدمها، والأعرابي [٢٠٩/أ] راكب عليه كما وصف. فآمنتْ طائفةٌ من اليهود، قالوا: نشهدُ أنّك رسولُ الله، وكَفرت طائفة.

وقضيّة الإسراء عجيبةٌ، وما أودع الله فيها من الخوارق للعادات وقطع المسافات التي لا يمكنُ قطعُها إلا بقدرةِ القويّ القادر؛ غريبة،

---

(١) الخبر مشهورٌ في كتب التفسير والسيرة النبوية، ومناقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ ويُنظر معراج النبي المنسوب لابن عباس رضي الله عنهما: ٤٠، ٤١ ومن يومها عُرف أبو بكر رضي الله عنه بالصّديق. جزاه الله عن محبة رسوله الكريم الثوابَ الجزيل العميم.

(٢) في الأصول المخطوطة «أزرق»، والصواب من السِّير، والجَمَل الأوْرَقُ: الذي لونُه الوُرْقَة، لونُ الرّماد؛ سوادٌ في غُبرة أو سوادٌ وبياض، وتكون في أنواعِ البَهائم، ومنه سُمّيت الحمامة ـ لبعض أنواع الحمام ـ بالوَرْقاء.

ولا يقدر على تحمّلها إلا رسول الله. فإن رسول الله - ﷺ - قطعَ في قطعةٍ من الليل آلافاً من السّنين التي لا يعلمُ قَدْرَها إلا الله، ولا يقدرُ على تحمّلها إلا رسولُ الله.

فإذا سمعتَ عن وليّ الله تعالى أنّ الأرض قد طُوِيَت له، أو أنّه مَرّ على الهَواء، وقطعَ المسافة البعيدة في زمنٍ يسير فاعلمْ أنّها كرامةٌ، أكرمه الله تعالى بها، إن كانت أقوالُه وأفعاله مُوافقةً لِسُنّة النبيّ البشير.

مثل ما يُحكى عن الشيخ وليّ الله عبد القادر[1] والشّيخ وليّ الله أبي مِدْين[2]، والشيخ ولي الله أبي علي النفطي[3] وغيرهم ممّا لا يُحصى كثرةً ممّن طُوِيَت له الأرض وقطع المسافات البعيدة في الزمن القريب. وأتى في فعلهِ بالأمرِ العجيب، فقد ذَكر اليافعي[4] رحمه الله تعالى أموراً عجيبة لا يصدّق بها إلا من قَوِيَ إيمانُه، واشتدّ في أولياء الله إيقانُه.

وقد تَواتَر ذلك عن جماعةٍ من شُيوخ بغداد وذكر عنهم من الخَوارق ما يجبُ التّصديقُ به، ولا يُنكره إلا مخذول. والمنكرُ لذلكَ جاهلٌ غبيّ مرذول!

---

(١) أبو محمد عبد القادر بن موسى الجيلاني أو الكيلاني أو الجيلي مؤسس الطريقة القادريّة من كبار الزهاد والمتصوفين (٤٧١ - ٥٦١ هـ)، ولد في جيلان (وراء طبرستان) ونزل بغداد واشتهر فيها، وله مؤلفات، وألفت عنه كتبٌ ورسائل.

(٢) أبو مدين شعيب بن الحسين التلمساني (ت ٥٩٤ هـ) من مشاهير الصوفيّة، أندلسي أقام بفاس وسكن بجارية وتوفي عند تلمسان، وله ضريح في (العُبّاد) مشهور، له شيء من التأليف وديوان شعر على مذهب القوم.

(٣) أبو علي النفطي؟

(٤) عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي: مؤرخ باحث متصوّف من أهل اليمن (٦٩٨ - ٧٦٨ هـ) من مشهور مؤلفاته مرآة الجنان، وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، وله كتاب: أسنى المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر.

وإلاّ فقد قرّر العلماءُ العارفون، والأصفياءُ الموقنونَ أنَّ كُلَّ مُعجزةٍ للنبيّ يجوزُ أن تكونَ كرامةً لولي.

لكنْ أجمعَ العلماء على أنّه لم يقع، وإنْ كان جائزاً في قدرة الله فيجبُ الوقوفُ عنده، كمنْ كانَ مُظهراً للولاية قائلاً بأنّ الله أكرمَهُ بأنْ وصل إلى السّماء، أو دخلَ الجنّة أو عاينَ الحُور العين؛ فهذا كاذبٌ مضلٌ يجبُ قتلُه أو تأديبه؛ فإنّ هذا الخارق وهو الصّعود إلى السّماء بالجسَد ممّا اختصّ به نبيُّنا ـ ﷺ ـ بالإجماعِ القطعيّ، والدليل الواضح الجليّ؛ وحاشا أولياء الله تعالى من أن يصدرَ منهم، أو أن يقولُوا ما يخالفُ العلمَ والسُّنة رضي الله عنهم ونفع بهم، فإنّهم محفوظون، ولله المنّةُ بكل حَسن أعطاه الله لأنبيائه، ومنّ به على أصفيائه، منبتُه وأساسُه [٢٠٩/ب] المقام النبوي، وأصلُ مستنده النّور الهاشمي؛ ورَشْحُه ومداده ومورده الإمداد المحمّدي(١).

أصلُ المحاسن حسنُه فكأنّما ... في الخلق من إحسانه تتفرّعُ
جمعت شَتات الحُسن صورة خلقِه ... فالحسنُ فيه جنسهُ متنوّعُ
وصفاتُ جوهره الجمالُ لنفسِه ... ولغيره عَرضٌ يحلّ ويرفعُ
وجماله بالذّاتِ فيه ووتره ... في الحُسنِ والإحسانِ لا يتشفّعُ!
طُبعتْ على الخلق البديعِ طباعهُ ... وبه الكتابُ أتى بقول أوْسَعُ
يثني عليه البانُ لمّا ينثني ... ويقومُ إجلالاً إليه ويركعُ
يا ربّ صلّ عليه وامنحْهُ الرّضا ... ما دامَ نُورك في البريّة يلمعُ

وصلى الله على سيّدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً، وزاده مولانا شرفاً وتعظيماً.

---

(١) من بحر الكامل.

باب

في معنىٰ اسمه:

صاحب اللِّواء[1]

صَلّىٰ اللّٰهُ عَليهِ وسلّم وشرّف وكرّم

صاحب اللواء اسمٌ من أسمائه عليه أفضل الصلاة والسلام، واللواء هو الرّايةُ والعلم.

فمعنى صاحب اللواء: أي صاحبُ الرّاية وصاحبُ العلم، والعرب جَرتْ عادتها أنّهم يتمادَحُونَ بحمل الراية في مذاهبهم، ولا يُعطونها إلا لزعيمِ القومِ وشُجاعهم.

وما زال هذا الأمرُ قديماً وحديثاً عند العُقلاء ودُهاةِ الرجال، ويقعُ التّفاخر به عند الشُّجعان والأبطال.

ومعنىٰ صاحب اللّواء في حقّ نبيّنا عليه الصّلاةُ والسّلام يحتملُ أوْجُهاً من المعاني الحسنة والفوائد العظيمة:

فيحتمل أن يكونَ معنىٰ صاحب اللّواء أي صاحب الرّاياتِ التي نزل بها جبريل عليه السلام ليلةَ ولادته، فإنه نزل بثلاثِ رايات: لواء

(١) صاحب اللواء في الشفا ١: ٣٢٠، وسبل الهدى والرشاد ١: ٥٩٢، والرّياض الأنيقة: ١٩٥، والمواهب اللدنية ١: ١٨٣. وفي زاد المعاد ١: ٨٧ صاحب لواء الحمد.

على الكعبة، ولواء بالمشرق ولواء بالمغرب؛ فيه إشارة لكثرة أمّته، وانتشار أهل ملته، وأنّ دينه يظهرُ على الدّينِ كُلّه، فيكون «صاحب اللواء» المرادُ منه: اللواء الذي أنزله الله تعالى عند ولادته من السماء اعتقاداً لِقدْرِهِ، وبياناً لمنزلته.

ويُحتمل أن يكونَ «صاحب اللّواء» أي: اللواء الذي يكون له يوم القيامة عند امتيازهِ بالشّفاعة العظمى [٢١٠/أ] وإظهار خُطّته الجسمى، فإنه قال عليه الصلاة والسلام في بعض الرّوايات[(١)] «ولواءُ الحَمْدِ بيدي»، وأنّه يُنصب على باب الجنة يوم القيامة، وأنه لعظمه لو استظلت به أمته لأظلّها.

ويُحتمل أن يكون حقيقة، وفيه إشارةٌ إلى ظهور مكانته عند الله يوم القيامة لأنه سبحانه يفتح عليه بمحامد لا يعلمها إلا هو، فكما خصّه بذلك فيكون قد خصّه باللواء الدالّ عليه الذي لم ينلْهُ أحدٌ من المرسلين، ولا من ملائكةِ اللهِ المُقرّبين.

ويُحتمل أن يكونَ اللّواءُ في هذا الاسم الكريم الذي انعقدَ له ليلةَ الإسراء حين قدّمتهُ الأنبياء والملائكة وأمَّ بهم، ونالوا من بركته، والتمسُوا من فَضْله، فكان حامل اللواء في ذلك الموكب الشريف، وكان إمامهم باستحقاقه علم التّعريف، وإلى هذا أشار صاحبُ البُردة رحمه الله ونفع به في قوله حيث قال[(٢)]:

وقَدّمَتْكَ جميعُ الأنبياءِ بها والرّسلُ تقديمَ مخدومٍ على خدَمِ
وأنت تخترقُ السّبعَ الطباقَ بهمْ في موكبٍ كنتَ فيه صاحبَ العَلمِ

---

(١) في الشفا ١: ٣٠٠ من حديث أنس «ومعي لواء الحمد يوم القيامة..».
- وينظر التذكرة للقرطبي.
(٢) ديوان البوصيري: ٢٤٥.

فصاحبُ العلم هو صاحب الرّاية، وهو صاحب اللّواء.

ويُحتمل أن يكون المراد بصاحب اللواء لواؤه الأبيض الذي كان فيه: لا إلّه إلاّ الله.

وقد روى أبو داود عنه عليه الصلاة والسلام هو الّذي تتبعه الرّاية حيث ما سار؛ لأنّه رئيسُ الرّايةِ للخلائق أجمعين أمام ملائكة الله المقرّبين. فليس يُرادُ بقولهِ: صاحبُ الراية حاملها، وأنّه كان يحملُها بنفسه؛ لأنّ هذا لم يَرِدْ عنه عليه الصلاة والسلام بل كانَ يُعطي الرّاية لِشُجعان أصحابهِ الكرام الأئمة الأعلام.

لكنْ لمّا كانَ المُسلمون تابعينَ له مُنقادِيْنَ لأمرهِ طائعينَ لقوله؛ ورايَتُهم هي رايتُه؛ فصحّ أن يقالَ: صاحبُ الراية.

وقد كانَ له[1] عليه الصلاة والسلام رايةٌ بيضاء ورايةٌ سَوداء.

وقد كانَ يُعطي الرّايةَ لِعَليّ رضي الله عنه. وقد حمل راية المُهاجرين في يوم بدر على الصّحيح من القول [٢١٠/ب]، وحَملها أيضاً في يوم أُحد.

وقد قال - ﷺ - في غزوة خَيْبَر: لأعطينّ الرّاية غداً رجلاً يحبّ الله ورسولَه، ويحبُّه الله ورسولُه، فلمّا أصبح، سأل عن عليّ رضي الله عنه فقيل له: يشتكي عينيه فأرسل إليه، فلمّا نفث بريقه المبارك ومسح عليهما برأ من حينه، وأعطاهُ الرّاية رضي الله عنه[2].

---

(١) سنن ابن ماجه، الجهاد: ٢٠.

(٢) صحيح البخاري ٤: ١٢، وفي مسند الإمام أحمد ٥: ٣٥٨ برواية لأعطينّ اللواء. وتنظر مناقبه في مجمع الزوائد ج ٩، وفي الرياض النضرة.

ومن أصحابِ الرّاية: مُصعب - رضي الله عنه - وسَعْدُ بنُ مُعاذ وهو الذي [كان] يحملُ رايةَ الأوس من الأنصار، وكان حاملَ لواء الخزرج يوم بدر الحُباب بن المنذر(١).

وأمّا اللواء العظيم فهو الذي كان في الخَطب الجسيم، ويُظهر به منزلتَهُ بين الخلائق الربُّ الكريم - ﷺ - وعلى آله أفضل التسليم.

لـه الـشّـفـاعـةُ يـومَ الـدّيـن جـامـعـةً ... دونَ الـنـبـيّـين ما في ذاكَ من نُكُـرِ(٢)
وخـصّـه بـلـواءِ الـحـمـدِ فـي عـددٍ ... مـن الـمـفـاخـرِ تـنـبـيـهـاً لِـمـذّكّـرِ
خـصـائـص خـصّـه ربُّ الـعـبـادِ بـهـا ... أربىٰ على المُرسلين السّادة الزُّهُرِ
جـلّـت مـآثـرُه مِـنْ أنْ يـحـصّـلـهـا ... نـظـمٌ من الـشعـرِ أو نـثرٌ لـمـنـتـثِرا

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ نبيّنا - ﷺ - صاحبُ اللّواء، وأنّ جميعَ المفاخِر وعظيمَ المآثِر كلّها لواؤها مُنعقدٌ عليه، وأنّ الخيرَ كلّه ساقَه الكريمُ لديه.

فإن الكريم جل جلاله صيّره عبده العزيز القَدْرِ عنده، غَوْثاً للعوالم كلها، وغيثاً للمواهب بأسرها، ومفتاحاً للخيراتِ الدِّينية والدُّنيوية وإكسيراً للسّعاداتِ الربّانية؛ فالسُّعداء واقفون تحت لوائه، والأصفياءُ مُستمسكون ببابه وعلائِه، فادّخرْ عنده - أيّها المحب له - ما تجدهُ لديه عند الإفلاس، وتزوّدْ من الصلاة عليه ما تحتاجُ إليه في يوم مجموع له الناس.

---

(١) هو مصعب بن عمير رضي الله عنه.

(٢) من بحر البسيط.

قال عليّ رضي الله عنه: قال الرّسولُ ـ ﷺ[1] ـ: أكْثِرُوا من الصَّلاة عليّ إذا مِتّ، فقلت: وهل تبلغُكَ الصَّلاةُ مِنّا عليكَ بعد أن صِرْتَ رميماً؟ فقالَ: إنّ الله حرّم لحومَ الأنبياءِ على الأرض أنْ تأكلها، وأنا أكرم على الله من أن يسلّطها عليّ، وإن الله قد وكّل بقبري ملكا اسمُه صلصائيل وهو في صورة الدّيك [٢١١/أ] مثنيّ رأسُه تحتَ العرش، ومخالبُه في تُخوم الأرض السّابعة، له ثلاثة أجنحة، جناحٌ بالمشرقِ، وجناحٌ بالمغرب، وجناحٌ يُرفرفُ بهِ على قبري، فإذا صلّى العبدُ عليَّ حيثُ كان، التقطها من فيهِ كما يلتقطُ الطيرُ الحبّ، ثم يقول: يا محمّد! إن فلاناً ابن فلان من موضع كذا وكذا صلّى عليك، ويقرئك السلام، ثم يكتبها في رِقّ من نُور بالمسك الأذْفَر الأبيض، ويضعُها عند رأسي حتىٰ أشفعَ له يومَ القيامة، وتُرفع له عشرون ألف حسنة، وتمحى عنه عشرون ألف سيّئة، وتغرس له عشرون ألف شجرة على شاطىء الكوثر، مختومة بالمسك الأذفَر الأبيض، فأوّل من تنشقّ عنه الأرض أنا، فيأتيني جبريل بدابّة مكتوب بين عينيها: لا إلّه إلا الله محمد رسول الله، لها سبعون ألف جناح، ثم يدفع إليّ رضوانُ خازنُ الجنان لواء الحَمْدِ مكتوب في وسطه: لا إلّه إلاّ الله محمّد رسول الله، لو نشر على ولد آدم لغطّاهم كلّهم إلى آخرهم؛ وجبريل عن يميني، وميكائيل عن يساري يهلّلان ويحمدان، حتى أضرب لوائي تحت الميزان، وتُنصب الموازين، ويدعى العبدُ للحِساب، فإذا دُعِيَ العبد الذي أكثرَ من الصّلاةِ عليّ، ووضع عمله في كِفّة الميزان فيخفف الميزان، فأقول للوازن: ارفعْ

---

(١) هو في الشفا ٢: ١٨٥ عن ابن شهاب؛ وقد اختصره القاضي عياض. وهو بصيغة: «إن الله حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء» مسند الإمام أحمد ٤: ٨، والبداية والنهاية ٥: ٢٧٦، قال ابن كثير: في آخر الحديث بطوله: وهذا من أفراد ابن ماجة رحمه الله.

يرحمك الله، فإن له عندي وديعةً وصنيعةً، وكتابُه معي. فيقول الوازن: نعم يا حبيبَ الله، أنت هو المطاع اليوم، ثم آمرُه فيفكّ كتاب براءته باسمه واسم أبيه وجدّه فأضعه في كِفّة الميزان، وأدعُو الله أن يرجحَ ميزانه بكثرةِ صلاته عليّ - ﷺ -.

فَجِدُّوا أيها المحبّون في الصّلاة عليه، واعتكفوا على حُبّه، فإن الخيرَ كلّه لديه، وتقرّبُوا إلى مولاكم بِمَدْحِه، والتَمِسُوا أثره، فإنّ العطاء منه وإليه.

يا رحمةَ الله! ليس للعبد الضعيف إلا التوسل بجنابِك، ويا مِنّةَ الله علينا! ليس للعبدِ المذنبِ إلا الوقوفُ ببابك؛ ويا أكرمَ الخلقِ على الله! ليس لنا بِمنْ نَلوذُ، ولا بمن نستشفعُ إلاّ بك.

يا بهجةَ الدّينِ والدُّنيا ونورهما وخير مدّخرٍ يوماً لِمُدّخرِ[1]
وواحد الخلقِ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ وفي مقالٍ وفي فعلٍ وفي سِيَرِ
اشفعْ لعبدٍ شجيّ القلب معترفٍ بما جَناهُ من الآثامِ والنكرِ
فما رجوتُ سوى التّوحيد يا أملي وآية تليتْ في سورة الزُّمَر[2]
ثمّ الشفاعةُ يوم الفصل منك إذا لم يُلْفَ غيرُكَ بعدَ الله من وَزرِ
صلى الإلّه على قبرٍ ثويتَ بهِ ما غنّت الطيرُ في الأغصانِ والوكرِ

صلّى الله عليه، وعلى آلهِ وصحبهِ. وسلّم تسليماً وزاده مولانا شَرفاً له وتعظيماً.

---

(١) من بحر البسيط.

(٢) يشير إلى قوله تعالى في سورة الزمر ٤٤ ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفورُ الرحيم﴾.

بـاب

في معنىٰ اسمه:

صاحب القضيب[1]

صَلّىٰ اللّهُ عَليهِ وسلّم وشرّف وكرّم [٢١١/ب]

صاحب القضيب اسم من أسمائه عليه أفضل الصّلاةِ والتسليم ورد في بعض الأخبار ومشهور الآثار، وقد قيل[2]: إنه وقع مُفسّراً في الإنجيل «معه قضيب من حديدٍ يُقاتِلُ به، وأُمّته كذلك».

قال القاضي أبو الفضل عِياض رحمِهُ الله: ويُحتمل أن يُحمل على أنّه القضيب الممشُوق الذي كان يُمسكه عليه الصلاة والسلام وهو الآن عند الخُلفاء.

وقد ذكر المُعْتَنُون بأخبارهِ وأحواله أنّ نبيّنا ـ ﷺ ـ كانت له تسعة سُيوف[3]، منها سيف يقال له: المأثور[4].

ومنها سيفٌ يُقَال له: ذو الفِقار بفتح الفاء وكسرها، إلى غير ذلك ممّا هو معلومٌ في السّير.

---

(١) صاحب القضيب في الشفا ١: ٣٢٠، والرّياض الأنيقة: ١٩٤، والمواهب اللدنية: ١٩٣.

(٢) في الشفا ١/ ٣٢٢، والرّياض النضرة: ١٩٤.

(٣) زاد المعاد ١: ١٣٠.

(٤) قال في زاد المعاد: وهو أول سيف ملكه ورثه من أبيه.

ومنها سيفٌ يُقال له: القَضِيب[1]، وهو هذا المُضاف إلى الصّاحب في الاسمِ الذي سُمّي به عليه الصّلاة والسّلام.

وإنما سُمّي - ﷺ - صاحبَ القضيبِ لأوجهٍ منها:

أنّ القضيب؛ وهو السّيف؛ ليس كلّ شجاعٍ يظهرُ حسنه في يده، وكيفيّة إمساكه ووضعه وأخذه، وصفة المُقاتلة به، فهو يختلفُ حالُه وصفاتُه بصفاتِ الحاملين له، والضّاربين.

فلمّا كان عليه الصلاة والسلام قد فاقَ الخَلْقَ في جميع حركاته وسكناته، وقوّة عزمه وحزمه، وشجاعته، كان القضيبُ في يده كأنّه هو صاحِبه، وما أعدّه الإلّه لمعرفته بأحواله، واتّصافه بخصال الكمال الذي تليقُ بحاله وجماله.

وجهٌ آخرُ في سرِّ تسميته بصاحب القضيب أنّه عليه الصلاة والسلام لما خصّه الله لإحياءِ دينهِ وكان في إبذال جهده[2] أو قتاله بالسّيف، فكأنّ الله سبحانه بعثه [٢١٢/أ] للقتالِ بالسّيف إن امتنعَ الخَلْقُ من الإيمان به؛ ففيه تخويفٌ للخلقِ المبعوثِ إليهم، وإنذارٌ لهم بسببه، وقد قال - ﷺ[3] -: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلّه إلا الله، فإنْ قالوها عَصَمُوا مِنّي دماءَهم وأموالَهم إلا بحقّها، وحسابهم على الله».

وجهٌ آخر في تسميتِه صاحب القَضِيب، إشارة إلى شجاعته وقوة

---

(١) وسائر سيوفه: العَضْب، وذو الفقار (تنفّله يوم بدر وكان لا يفارقه) والقلعيّ، والبتّار، والحتف، والرّسوب، والمِخْذَم؛ إضافة إلى المأثور.

(٢) في الأصول: إبذال جهده، وهذا من لغة المؤلف يريد بذل جهده.

(٣) من حديث في البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه ومسند أحمد. (الفتح الكبير ١: ٥٩)، ومسند أحمد ١: ١١ و٢: ٣١٤، وهو في صحيح مسلم ٥١ - ٥٣.

ثباته، وأنَّ حاملَ السّيف ينبغي أن يكون أمضىٰ من سيفِه، فإذا اشتعلت الحُروب، وشبَّ ضِرامُها، وقامت على ساقها، كانت الأبطالُ والشّجعانُ يتّقون به، ويلجؤون إليه، وأقواهم مَنْ يكونُ قريباً منه عليه الصلاة والسلام وعلى من كان منه وإليه.

وهذا أمرٌ مقطوع به عند الشّجعان من العَرب وغيرهم، وأنّه ما رُؤي أحسن ولا أجود ولا أشجع من رسول الله ـ ﷺ ـ.

قال أنس رضي الله عنه[1]: كان النبيُّ ـ ﷺ ـ أحسنَ النّاس، وأجودَ الناس، وأشجعَ الناس، ولقد فزع أهلُ المدينة ذاتَ ليلةٍ فانطلقَ النّاسُ قِبَلَ الصّوت، فاستقبله النبيّ ـ ﷺ ـ وهو يقول: «لن تُراعوا» وهو على فرسٍ لأبي طلحة عُرْيٍ ما عليه سرج؛ وفي عُنقه سيف.

ولقد فرّ الناس يوم حُنين[2]، والمُشركون ثلاثون ألفاً، وثبت عليه السلام في ثمانية نفر وهو يقول: أنا رسولُ الله، أنا النبي لا كذب، أنا ابنُ عبد المطلب، إليَّ عبادَ الله، ثم استقبل العدوَّ بِنَحْرِهِ حتّى هَزم الله عدوَّه.

فتأمل ـ أيها المحب ـ زادَكَ الله حُبّاً إلى حُبّك، وتعظيماً إلى تعظيمك، كم في هذه القضايا مِن كمال الشّجاعة وقوة الثّبات، وحُسن اليقين في الخارق للعادات.

منها: أنه ركب على الفرس عرياً، وقد فزع أهل المدينة كلّها، فما زاده ذلك إلاّ إقداماً وشجاعة وإقبالاً على لقاءِ العدوّ وإبراماً، وذلك

(١) حديث أنس في صحيح البُخاري باب حسن الخُلق والسخاء وما يكره من البُخل، وزاد في آخره: ولقد وجدتُهُ بحراً أو أنّه لبحر. (صحيح البخاري ٨: ١٦)، وهو في الشفا ١: ٢٣٨.

(٢) الخبر وقول رسول الله ﷺ في كتب السيرة، ينظر السيرة لابن كثير ٤: ٦٢٢.

لأنّ الله تعالى أعلمَهُ بأنّه قد عصمه من عدوه فلا خوفٌ عليه، بل له قوّةٌ عظيمةٌ خرج بها عن أبناء جِنسه في العالمين [٢١٢/ب]، وقوى الله ذاته على سائر الخلائق أجمعين.

وانظُروا إلى ركوبِه على الفرس العري من غير سرج ولا ماسك يُمسكه على ظهرها، ففيه إشارةٌ إلى قوّته، وشدّته، وثباته، وأنّ الماسك الحقيقيّ هو مولاه ومُثَبّته، ومقوّي فؤاده ومشجّعه وناصرُه على عدوّه في جميعِ جِهاته.

وقضيّة حُنين المذكورة دالّةٌ دلالةً قطعيةً على أنّ أمره ـ ﷺ ـ خارقٌ للعادات، وأنّ ذلك من الكرامات، فإنّ حنيناً كان فيه ثلاثون ألف مُقاتل، والمسلمونَ اثنا عشر ألفاً بالأحلافِ وغيرهم، وقد ثبت لهم الجبل الشاهق والنّور الشّارق وهو يظهر نفسه بقوله[1]: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»، فكأنه يقول: من طلبني منكم أيها الأبطال فأنا أعرّفه بنفسي!

فليس بعد هذا شجاع ولا بطل يردُ خَبرُه على الأسماع، فثقوا بحبيبكم وشفيعكم فإنه أشجع الخلائق بالإجماع.

رؤوفٌ رحيمٌ فاضلٌ متفضّلٌ صبورٌ شكورٌ حافظُ العهدِ والسرّ[2]

حليمٌ ولكنْ في النفوسِ مهيّبٌ وفي الحربِ ذو بأسٍ دؤوبٌ على الكَر

فسبحانَ مَنْ أعطاهُ كلّ فضيلةٍ وبيّنها للناسِ في مُحكمِ الذِّكرِ

---

(١) في صحيح البخاري ٤: ٣٧، وصحيح مسلم ١٤٠٠، ١٤٠١.
ـ وورد بصيغة: أنا النبي غير كذب أنا ابنُ عبد المطلب، (تفسير الطبري ١٠: ٧٣، والقرطبي ٨: ١٠١).

(٢) من بحر الطّويل.

فصل

مِن آدابِ مَنْ عَلِمَ أنّ نبيّنا وحَبيبنا اسمُه صاحبُ القضيب أنْ يقتديَ بآثارِهِ، ويتأدّب بآدابه، وأن يعدّ من القوّة والسلاح ما استطاع لأعداءِ الله الكافرين، وينويِ بذلك وجْهَ الله لينالَ بهِ من المُشركين، وقد قال عزّ من قائل ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال ٨/ ٦٠].

هذه كانت سيرتُه عليه الصلاة والسلام وسيرةُ أصحابه، فلا يدخرونَ في هذه الدّار إلا ما يستعينون بهِ على إقامة الدين، وإرهاب أعداء الله الكافرين.

وقد ترك - ﷺ[1] - تسعة أسياف، وترك دروعاً، منها ذاتُ الفُضول، سمّيت بذلك لطولها.

ومنها ذاتُ الوشاح، وذات الحَواشي، ودرعان [٢١٣/أ] أخذهما من بني قَيْنُقَاع، وكان له سبعة أدرع.

وكان له - ﷺ - خمسةُ قِسيّ[2]: الرَّوْحاءُ، والصّفراء، والبَيْضاء، والزَّوْراء، والكَتُوم، وكانت له كنانةٌ يجمع فيها نَبْلَهُ، ومنطقةٌ من أدم، وطرفها من فضّة.

وكانت له ثلاثةُ أتراس، وكانت له جُملةُ أرماح، وكانت له حربة كبيرة تسمى البيضاء، وحربة صغيرة يقال لها العنزة.

---

(١) استوفت السير وكتب اللغة أسماء أنواع أسلحته ﷺ؛ وينظر مثلاً زاد المعاد ١٣٠ - ١٣٥.

(٢) قسيّ جمع قوس.

وكان له مِغْفران[1]: الموشّح والسُّبُوغ، ورايةٌ سوداء، ورايةٌ بيضاء مكتوب عليها: لا إلّهَ إلا الله محمّدٌ رسول الله.

وهذا هو الزّاد الذي كان يتزوّد في الدنيا؛ لأنّ فيه عَوناً على ما أرسله الله إليه من تطهيرِ بلادِ اللهِ من عبادَةِ الأوثان، وتَنوِيرها بطاعةِ الرَّحْمٰن.

وأما ما تَدْعُو إليه النّفوسُ من الركونِ إلى الآثار، والطُّمأنينة بملاذ هذه الدار، فلم يكن ذلك من شِيَمِه، ولا من طبعِ النبيّ المُختار - ﷺ - بل جبَلَه الله تعالى على بُغض الدار الفانية، وحبّب إليه الدار الباقية، فكان يتقلّلُ من ضرورةِ هذه الدار الفانية ما لا يمكن للبشرية عادة أن تقوم إلاّ بهِ تشريعاً لأمّتهِ، وتنبيهاً لهم أن هيئتهم ليست كهيئته.

سئلت حفْصَةُ رضي الله عنها[2]: ما كانَ فِراشُ رسول الله - ﷺ - فقالت كان مِسْحاً نثنيه ثنيتين ينام عليه، فلما كان ليلة ثنيته أربع ثنيات ليكون أوطأ، فلما أصبح قال: ما فرشت لي؟

قلنا: هو فراشك ثنيناه أربعاً.

قال: ردوه لحاله الأوّل، فإنه منعتني وطاءتُه[3] صلاةَ الليل.

فقد أعد عليه الصلاة والسلام آلةَ الجهاد التي يُقاتل العدوّ بها، والسّلاح التي يُجاهد عليها، وجهادُ النّفس عظيم، وخطره جسيم؛

---

(١) المِغفر: زَرد من الدرع يكون تحت القلنسوة، أو هو زَرْفَ البيضة (الخوذة)، أو حلق (أي نسج حديدي هو حلقات مسرودة) يجعلها الرجل أسفل البيضة تسبغ على العنق فتقيه.

(٢) الشفا ١: ٢٨٢، ومناهل الصّفا في تخريج أحاديث الشفا ٨٢، ٨٣.

(٣) أي كونه وطيئاً: سهلاً ليناً.

فجاهِدُوا أنفسكم بسلاح التفكير، ومرّنوها على سَدِيد النظر لها والتدبير، وروّضوها على اتّباع الحقّ الذي لا تبديل فيه ولا تغير.

قال طلحة رضي الله عنه: انطلقَ رجلٌ شديدُ الخوف ذاتَ يوم فنزعَ ثيابه وتمرّغ في الرّمضاء، وجعل يقول لنفسه [٢١٣/ب] ذُوقِي! نارُ جهنم أشدُّ حراً! جِيفةٌ بالليل، بَطالةٌ بالنّهار!

قال: فبينما هو كذلك إذ نظرَ إليه النبيُّ - ﷺ - من ظلّ شجرة، فأتاه فسأله، فقال له: غلبتني نفسي! فقال له: ألمْ يكُ بُدٌّ من الذي صَنعت؟ أما إنّه لقد فُتحت لك أبوابُ السّماء، ولقد باهى الله تعالى بكَ الملائكة.

ثم قال لأصحابه(١): تَزَوَّدُوا من أخيكم، فجَعل الرجل يقول: يا فلان ادْعُ لِي، فقال له النبيُّ - ﷺ -: عُمَّهُم فقال: اللّهم اجْعَلِ التّقوىٰ زادهم، واجمعْ على الهدىٰ أمرهم، فجعل النبي عليه الصلاة والسلام يقول: اللّهُمّ سَدِّده فقال الرجل: اللّهُمّ اجْعَل الجنّة مآبَهم.

لا بدّ أن تغتدي الدُّنيا مزايلةً ... وتصبح الروحُ للأجداث راحلة(٢)
وما اتّخذتُ لبعدِ السّيرِ راحلةً ... ولا تَزَوّدتُ قبل الموتِ نافلةً
ولم أصلْ سوى فَرْضِي ولم أصُمِ
تعودتْ نفسي التّقصيرَ والكَللا ... ولم تُسارعْ إلى طاعاتهِ مَلَلا
أيَرتَضِي عاقلٌ هذا له عَملا ... ظلمتُ سنّة مَن أحيا الظّلامَ إلى
أن اشتكتْ قدَماه الضُّرُّ من وَرمِ!

وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً، وزاده مولانا شَرفاً وتعظيماً.

---

(١) إتحاف السادة المتقين ١٠: ١١٧، والزهد لابن المبارك ٣٠٢.
(٢) الأبيات المخمسة مبنية على بيتين للبوصيري (ديوانه ٢٤٠).

بـاب

فـي معنىٰ اسمه:

صاحب الهراوة(١)

صَلّىٰ اللّٰهُ عَليهِ وسلَّم وشرَّف وكرَّم

صاحب الهراوة: اسمٌ من أسمائِه عليه الصّلاة والسّلام، ورَد في كثير من الآثار، ومشهور الأخبار.

والهراوة: هي العصا، ويحتمل معاني(٢)

الأوّل: أن يكونَ المراد بذلك القضيبُ الممشوق. فيكون هذا الاسم راجعاً إلى معنى «صاحب القَضِيب» على هذا التأويل.

المعنى الثاني: ما أشار إليه القاضي عياض رحمه الله، ونفع به أنها العَصا التي يذودُ بِها النّاسَ عن حوضه يوم القيامة.

الوجه الثالث: يظهر لي؛ ولم أرَ مَن ذَكره؛ أنّ يكون هذا الاسم الكريم كنايةً عن كثرةِ غَزواته عليه الصلاة والسلام، وأسفاره في طاعة ربّه، أي المُلازم للغزو والجهاد، والسّفر في سبيل الله [٢١٤/أ] لأنّ

(١) صاحب الهراوة في الشفا ١: ٣٢٠، والرياض الأنيقة: ١٩٨، وسبل الهدى والرشاد ١: ٥٩٣، والمواهب اللدنية ١: ١٩٣.

(٢) في النهاية لابن الأثير (هـ رو) «.. ومنه حديث سطيح: وخرج صاحب الهراوة؛ أراد: لأنه كان يمسك القضيبَ بيده كثيراً، وكان يُمشى بالعصا بَيْن يديه، وتغرز له فيصلّي إليها».

المسافر في غالبِ أمرِه لا تخلُو عنه هراوة، كما قال ـ ﷺ[1] ـ: «وأما فلانٌ فلا يضعُ عَصاه عن عاتِقه» أي أنه كثير السّفر.

الوجه الرابع: أن يكون معنىٰ صاحبِ الهِراوَة إشارةً إلى كثرة اتّباع الخلقِ له عليه الصلاة والسلام، وانقيادها لطاعتِهِ، ومُوافقتها لأمره، حتى صارت الخلائقُ له ومعه، يسوقُها سوقاً بالعَصا إلى منافِعها كما يسوقُ الرّاعي الغنم بهراوته منطاعةً له منقادةً لحكمه إلى مرافقها.

وقد ظهرَ ذلك في أُمّته، والحمدُ لله حتى صار في هذه الأمّة من الأمن والأمان ما أخبر به الصّادق المصدوق من أنّ الرّجُل لا يخافُ إلاّ الله، والذئب على غنمه.

فاتّسع والحمدُ للهِ نطاقُ الإسلام، ودخلَ النّاس أفواجاً في دين النّبيّ عليه الصّلاةُ والسّلام، وفي كونِه صاحب الهِرَاوةِ أيضاً من الإشارة إلى قُوّة النّجدة، وأنه ـ ﷺ ـ كان بالمكانِ الذي لا يُجهل، حتّى كأنّ الخلقَ انقادت له بعصاه التي قد قطع بها البُغاة، وقوّة شجاعته التي ذلّ لها شُمّ الكماة.

وقد كانت له عليه الصلاة والسلام هِراوةٌ معلومة[3] وظاهر الأخبار أنّها غير العنزة.

---

(١) من حديث أبي سلمة عن فاطمة بنت قيس، وفيه «أما معاوية فرجل لا مال له، وأمّا أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه فأين أنت من أسامة؟» الدارمي ٢: ١٣٥.

(٢) قال في سبل الهدى: والصحيح أنه كان يُمسك القضيب بيده كثيراً. وقيل (سمي بصاحب الهراوة) لأنه كان يمشي والعصا بين يديه، وتُغرزُ له فيصلّي عليها (سبل الهدى والرشاد ١: ٥٩٣).

(٣) في سبل الهدى: روى الإمام أحمد في الزهد عن أبي المثنى الأملوكي أنه سئل عن مشي الأنبياء بالعصا فقال: ذُلّ وتواضعٌ لربهم تبارك وتعالى.

وقد وَقع في الكتُب الإخبار بحاله وطريقه، وأنه صاحب الهراوة المعلومة، وأنها علم من علامات نبوءته[1].

وقد أخبر الكهنة بذلك في قصّته التي ذكرها أربابُ سِيرته ـ ﷺ ـ لمَّا أنْ ظهرَ ما ظهر من علاماتِ نُبوءته عند ولادته، وأنّ العالم ظهرتْ فيهِ زياداتٌ وانخراقُ عادات: من صَدع إيوانِ كسرى، وغيرِ ذلك من الآيات فبعث كسرى إلى سَطِيح عَبْدَ المَسيح يسأله عن سبب ذلك، فجاء عَبْدُ المسِيح إلى الشام، فقال له سَطِيح بعد كلام يطول ذكره: يا عبدَ المسِيح: «إذا كَثُرت التّلاوة، وظهر صاحب الهراوة» إلى آخر كلامه[2].

فقد أخبر هذا الكاهن بأن النّور المتزايد في تلك الليلة العظيمة التي انخمدت فيها النّيران، وبشّرت السموات والأرض بعبادة الرحمن، فإنّ ذلك سبب بروز العظيم القَدْرِ والشأن، وهو صاحب الهراوة والبرهان، وظهر للخلق [٢١٤/ب] سِرّ الملك الديّان، حبيب الله ورحمته الّذي أُنزل عليه القُرآن.

ظهرَ الجمالُ من الحجاب الأعظمِ ... كشفاً عن الوجهِ الأجلّ الأكرمِ[3]
وأسرَّ في سِرّ الخطاب نُفوسنا ... من حيثُ أعربَ عن حُروب الملجمِ
فجلاً على الأبصار صورةَ يوسفٍ ... وتَلا على الأسماعِ سورةَ مريمِ
يا عينَ غيب الله يا سرَّ الهُدىٰ ... يا نقطةَ الخطّ البديعِ الأقومِ
يا فاتح الأمرِ العظيمِ وخاتم ... الخلقِ البَديع ونكتةً لم تُفهمِ
يا نسخةَ الخلق التي نُسِخت بها ... صُحفِ الحديث وآيةُ المتقدّمِ

(١) الخبر مطوّلاً في دلائل البيهقي ١: ١٢٧ ـ ١٢٩.
(٢) وسطيح خال عبد المسيح.
(٣) من بحر الكامل.

يا جامعاً شملَ الشّتات ظهوره | نظماً وقبل وجودِه لم يُنظمِ
يا روحَ أفلاك العُلا ومديرها | ومحرّك الجرمِ القصيّ الأعظمِ
صلى عليك الله يا مَنْ نُورهُ | كالشمسِ جَلّى كلّ ليلٍ مُظلمِ

فصل

من آداب المحب لهذا النبيّ الكريم، المتّبع له في خُلقه العظيم أن يتأسّى بأفعاله، ويأخذ بأقوالِه سيّما المريد[1] السّالك، الطالب اللحوق بالصّالِحين، النّاهج على طريق العالمين.

وقد ذكروا رضي الله عنهم آداباً سَنيّة يتخلّقُ بها في السّفر، وأخلاقاً مرضيّة يُلازمها في الحضر.

فمن الآداب المذكورة عندهم ما ذكره وليّ الله إبراهيم الخواص[2] رحمه الله وأنّه لا تفارقه أربعة في الحضر والسفر. الرّكوة، والحبل والإبرة وخُيوطها، والمِقراض.

قالت عائشة رضي الله عنها[3]: إنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ إذا سافرَ حملَ معه خمسةَ أشياء: المرآة، والمُكحلة، والمِزوَد، والسّواك، والمِشط، وفي رواية: المِقراض[4].

---

(١) من أسلوبه حذف لا التي مع لا سيّما، والفصيحُ إثباتُها.

(٢) إبراهيم (أبو إسحاق) بن أحمد الخواص (توفي سنة ٢٩١ هـ) صوفي كان أوحد المشايخ في زمانه، من أقران الجنيد، ولد في سرّ من رأى، ومات في جامع الريّ، له كتب مصنفة ذهبت مع الزّمن.
ـ والخواص: بائع الخُوص.

(٣) الدر المنثور ٦ : ١٤، والمغني عن حمل الأسفار للعراقي ٢ : ٢٥٤.

(٤) المقراض: المقصّ.

وقد كان عبد الله بن مسعود[1] رضي الله عنه صاحبَ سِواك رسول الله ـ ﷺ ـ وصاحب نعلِه، وصاحب عَنزته.

ومن آداب المُريد اتّخاذ عصا عنده اقتداءً بنبي الله وبالخلفاء بعده، روى معاذُ بن جبل رضي الله عنه، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال[2]:

«إن اتّخذت منبراً فقد اتّخذه إبراهيم، وإن اتّخذتُ عصاً فقد اتّخذها موسى» [٢١٥/أ].

وعن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما أنه قال: التوكّؤ على العَصا من أخلاقِ الأنبياء، كان لرسول الله ـ ﷺ ـ عصاً يتوكّأ عليها، ويأمر بالتوكيء عليها[3].

فهذه أيها المحبّ سُنّةُ أنبياءِ الله، وهذه طريقةُ أولياء الله، وفي اتّخاذهم العَصا فوائدُ جَلِيلة، ومعانٍ من الحسن جميلة. وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ القلبَ ينبغي أن يكونَ مُعتمداً على مولاه مُطّرِحاً لما سِوَاه، فكما أنّ الجسد يعتمد على العصا في الظاهر، فالقلبُ يجب أن يكونَ مُعتمداً على المَوْلى في الضّمائر.

إشارة أخرى في اتخاذ العصا، أنهم رضي الله عنهم يُظهرون من أنفسهم كمال العُبوديّة والافتقار، ويتخلّقُون بالضّعف، وينفُونَ عن أنفسهم الاختيال والاستكبار.

وجهٌ آخرُ في اتّخاذ العَصا منافعُ دنيوية يُستعانُ بها على طاعَةِ الرّحمن، ومصالح أُخرويّة يتقرّب بها إلى الملك الديّان.

---

(١) ينظر زاد المعاد ١: ١١٦، ١١٧.

(٢) الفتح الكبير ١: ٣٦٥، وتهذيب ابن عساكر ٢: ١٥٥، وفي كشف الخفا: إن اتخذ العصا ١: ٣٨٣.

(٣) السلسلة الضعيفة للألباني ٩١٦.

ولما وَصلت العنايةُ الربّانيّة، والمَواهب الاختصاصيّة إلى كليم الله موسى الكامل المكمّل وجدته على أكملِ الحالات من الآداب والتَخلّق بأخلاقِ العُبودية، فكان أهلاً لسماع الخطاب فقال مولانا جلّ جلاله مخاطباً له ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه ٢٠/١٧، ١٨].

فآنَسَهُ المولى العليم الخبير، المطّلع على ما في الضمير بسؤاله عن أحوالِه وفاتحه بخطابه، ولاطَفَهُ بجوابه، فأجابه على نبيّنا وعليه السلام بما يعلمُ ربُّنا سبحانه حقيقته، ويتحقّق أمره وحقيّته، فكانت لهذهِ العَصا خُصوصيّات، وخَوارقُ عاداتٍ، وأنّها تُضيء له بالليل، وتحرسُه إذا نام بالنّهار، وإذا اشتهى شهوةً من فواكِه الدُّنيا ليتقوى بها على الطاعة أو يطعم منها، أينعت وأثمرت بقدرة الله، وإذا أتىٰ إلى بئر طويلةٍ طالت العَصا وملأ بها كما يملأ بالدّلو، إلى غيرِ ذلك ممّا ظهر بها من خَوارقِ العاداتِ من انقلابها حيّة تسعى، وضرب [٢١٥/ب] الحجَر بها فنبع الماء، وضرب البَحْر بها فانفلق فكان كل فرق كالطّود العظيم.

فاقتدى نبيّنا ـ ﷺ ـ بأنبياء الله الكرام، وخَصّه مولانا جلّ جلالُه بما لم يَنله علمٌ من الأعلام، وأتى بما أتوا به من المُعجزات العِظام.

لئن كلّم الله موسى النَّبيَّ … على جَبل الطُّور يومَ النِّدا[٢]

فقد كلَّم الله سبحانَهُ … على عَرْشِه أحمد المُصطفىٰ

وأعطاهُ رؤيته تحفة … فما مِثله أحدٌ في الورى

وإن كانَ موسى سقى قومه … عُيوناً من الماءِ ضرب العَصا

---

(١) في الأصول: فينبع الماء.

(٢) من بحر المُتقارب.

وجـازَ بـعـسـكـرِهِ الـبـحـرَ فـي حـضـيـضٍ مـن الـمـاء خـوف الـعِـدَا

فَـمِـنْ كـفّ أحـمـد قـد فُـجّـرتْ عُـيـونٌ مـن الـمـاءِ يـوم الـظـمـا

وجـاز عـلـى الـمـاء فـي جـيـشـهِ بـوادٍ عـظـيـم بـعـيـدِ الـمـدى

فـأقـبـلـتِ الـخـيـلُ تـمـشـي بـهِ وتَـغْـدُو عـلـيـه كـمـثـلِ الـثـرىٰ

خـلـيـل الإلَـهِ وأيـضـاً كـلـيـمٌ وأيـضـاً حـبـيـبٌ حـوى ذا وذا

وقـرّبَـهُ الله مـنـه وكـان كـمِـقـدارِ قَـوْسَـيْـنِ لـمّـا دَنـا

صـلاة الإلَـهِ عـلـى الـمُـصـطـفـىٰ تَـرُوحُ مـسـاء وتَـغْـدُو ضُـحـىٰ

صلّى الله عليه، وعلى آله صلاة ننال من الله بها القبول، ويشفع لنا بها نبيه الرسول.

بـاب

في معنىٰ اسمه:

صاحب الخاتم (١)

صَلّىٰ اللّهُ عَليهِ وسلَّم وشرَّف وكرَّم

صاحب الخاتم: اسمٌ من أسمائه عليه أفضلُ الصّلاةِ والسّلام ذكره المُحِبّون، ونهجَ بالتّحلية له به العارفون.

ومعنى صاحب الخاتم: يحتمل معاني من الحُسن عديدة وأسراراً فَرِيدة، فيحتمل أن يكون معنىٰ صاحب الخاتم أي: صاحب الخاتم الذي يُلبس، ويكون في أيدي الكرام، ويتحلّى بزينته الأعلام.

وقد كان لنبيّنا ـ ﷺ ـ خاتم، وقد اختلفت الرّوايات في صفته حتّىٰ قال بعضهم: لعلّها كانت له عليه الصلاة والسلام خواتمُ متعدّدة ليقع الجمعُ بين الرّوايات.

وقد كانَ له عليه الصّلاة والسّلام خاتم من فضّة(٢)، وكان له خاتم

---

(١) صاحب الخاتم في الشفا ١:   ، وسبل الهدى والرشاد ١: ٥٩١، والرّياض الأنيقة: ١٨٨ ـ ١٩٠، وتوجّه الحديث فيه على خاتم النبوّة.

وينظر: الطبقات الكبرى ١: ٤٢٥، ٤٢٦، و١: ٤٧٠ ـ ٤٧٧ وفيه أكثر ما أورده المؤلف في هذا الباب.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣: ٢٦٦ (وخاتم وَرِق فضّة المسند ٣: ٢٢٥)، وحلية الأولياء ٨: ٣٣٠؛ وهو في صحيح البخاري ٧: ٢٠١.

من ذَهب وقد لبسه ثم طَرحه، ونَسخ حكمَهُ بعد أن أباحَهُ الله له[1].

[٢١٦/أ] وقد كان له خاتم من حديد عليه الفضة[2]، وكان نقش خاتمه عليه الصلاة والسلام: محمّدٌ رسولُ الله[3]، وكان يطبعُ به الكتاب، وكان للخلفاء رضي الله عنهم بعده ـ ﷺ ـ حتى ضاعَ في بئر أرِيس[4].

ويُحتمل أن يكونَ معنىٰ صاحب الخاتم؛ أي: ختام الأنبياء لأنّه خاتم النّبيّين.

والمعنىٰ الأوّل أظْهَرُ، لأنّه لمّا أن ذكر في أسمائه، صاحبُ التّاج وصاحب الهِراوة، وصاحب القَضِيب، فذكر ما يُجعل في يدِه ـ ﷺ ـ فكان من أسمائه صاحب الخاتم الذي يُجعل في أيدي اللاّبِسين، ويُتجمّلُ بِحُسْنِ رَوْنَقِه للنّاظرين.

فمعنى صاحب الخاتم في حَقّه ـ ﷺ ـ: أي أنه هو الذي إذا لَبِسَ الخاتم لم يصلحْ مَنظرُها ولا ينبهجُ حُسنها، ويظهر رونقها إلاّ إذا كانت في يده الكريمة؛ ولا يكتسب منظرها البهاء إلا من محاسنه العظيمة، فلا غرو عند العقلاء، ولا مِراءَ بينَ الأذكياء أنّ من حَسُنت صورتُه وتناسَبتْ أعضاؤُه، وتلألأ منظَرُه، وأَسَر القلوبَ حلاوَتُه ورشاقَتُه أنّه يزدادُ حُسناً

---

(١) كان يتختّم بخاتم في يسارِه بخاتم من ذهب ثم طرحه (مصنف ابن أبي شيبة ٨: ٢٨٩).

(٢) البداية والنهاية ٦: ٥، وينظر ٥: ٣٥٦.

(٣) سنن الدارقطني ٢: ١١٤، وفي فتح الباري ١٠: ٣٢٨، وكان نقش خاتمه ثلاثة أسطر.

(٤) بئر أَرِيس: بئر بالمدينة ثم بقُبا مقابل مَسجدها، فيها سقط خاتم النبي ﷺ من يد عثمان بن عفان رضي الله عنه، ونزحت فلم يُوجد، (مراصد الاطلاع ١: ١٤٠).

في أعينِ النّاس شكلُه، ويَعظُمُ في أعين الناظرين مَنْظَرُه ولباسُه وحِليَتُه ودَلّه.

فكيف لا يكتسبُ خاتمه عليه الصلاة والسلام الحُسنَ والجَمال، وقد حَلِيَتْ بيدِ من طُبِعَ على كمالِ الخِصَال، ومَنْ جَمالُه البديعُ كان وتراً، ومَن حُسنه المنيع لا يتشفع في محل مرّة أخرى، فحسن لباسه قاصرٌ عليه، وصفاتُ تاجِه وخاتمه وحليه، وبدائع شكلِه جمعت شتات حُسنها لديه.

وبالجملة فكان - ﷺ - أجملَ النّاسِ من بعيدٍ، وأجلده وأَحْسَنَهُ من قريب.

يــزيــدُك وجــهــهُ حــســنــاً إذا مـــا زدتَـــهُ نـــظـــرا[1]

فإذا شاهدتَهُ فقد طابقَ فيه الخُبْرُ الخَبَرَ[2]، قال البراء بنُ عازِب رضي الله عنه: ما رأيتُ من ذي لِمَّةٍ[3] في حُلّةٍ حَمراء أحسنَ من رسول الله - ﷺ -.

فأشارَ - رضي الله عنه - إلى أنّ الحُلّة الحمراء وهو ثوبٌ على ثوبٍ لو لبسها غيرُه عليه الصلاة والسلام لما اكتسبَ جمالاً مثل جماله، ولا حُسناً كحسنِه، ولا حَلاوةً كحلاوته، ولا شكلاً كشكله [٢١٦/ب].

وكذا كلّ لبسةٍ صدرت منه، أو هيئةٍ رُويت عنه، ولا يطمعُ ذو جمال وإن فاقَ أهلَ عصرِه، ولا ذو حلاوةٍ، وإن خرجَ بها عن أبناء

---

(١) من مجزوء الوافر. والشعر مشهور النسبة إلى ابن المعتز.

(٢) الخُبْرُ: العلم بالشيء (عن طريق المحسوسات والمعقولات) والخَبر: النبأ وما يُنقل عن الغير، والمعنى إذا شاهدت صدّق ما تراه عينك ويشعر قلبك ما وصل إليك من أخباره الطيّبة.

(٣) اللِّمّة: الشعر المتجاوز شحمة الأذن.

جنسه، أن يتشبَّه بمن جعل الله حُسنه أصلَ المحاسن كلّها؛ وصورة خَلْقِهِ جمعت أشتاتَ الجمالِ بأسْرِها.

فجمالُه بالذّاتِ فيه وترةُ ... في الحُسن والإحسانِ لا يتشفَّعُ[1]
طُبِعتْ على الخُلُقِ البديع طباعُه ... وبهِ الكتابُ أتى يقول ويُسمعُ
يُثني عليه البان لمّا ينثني ... ويقومُ إجلالاً إليه ويركعُ
كالشمس تنظرُ وجهه في نُورِه ... بادي المحاسِن بالسَّنا مُتَبَرْقِعُ
سَفَر اللّثام وماسَ حتى خِلْتَهُ ... قمراً على غُصنِ النُّهى يتطَلَّعُ

صلّى الله عليه وسلّم، وعلى مَن كان منه وإليه، وأدامَ علينا نِعَمَهُ بالانتسابِ إليه.

فصل

مِن آدابِ المحبِّ لهذا النبيِّ الكريم، صاحبِ الخُلُقِ العظيم أن يهتديَ بهديِهِ، ويتبَعهُ في شكلِه ودَلّه.

وانظرْ إلى هذه المحبّةِ والصَّفاء والصِّدق مع المحبوبِ، وكمالِ الوفاء ـ رضي الله عنهم ـ لما رَأوا محبوبهم ـ ﷺ ـ وقد اتَّخذ خاتماً اتّخذوا خواتم اقتداءً بفعله واتّباعاً لهديه، ولهذا كان حالُهم وشأنهم في اتباعِهِمْ لأفعالِهِ وامتثالهم لأقواله.

فكنْ ـ أيّها المحب ـ السالك لطريقهم ـ على نهجهم وتأدّب بأدبهم.

فلباس الخاتم من السُّنّة؛ وله آدابٌ وشُروط.

فَمِنْ شرطِه ألاّ يكون من ذهب؛ فإنّه حرامٌ على ذُكورِ هذه الأمّة،

---

(١) من بحر الكامل.

قال عمر - رضي الله عنه - كان خاتم رسول الله - ﷺ - من وَرِقٍ؛ ونقشُه: محمد رسول الله[1]. ولم يزل يلبسه حتى توفّي، ثم لبسه أبو بكر حتّى مات، ثم عُمر حتى مات، ثم عُثمان ستين.

قال أنس رضي الله عنه: كان نقش خاتم رسول الله - ﷺ - «محمد» سطر، و«رسول»، سطر، و«الله»، سطر؛ ثلاثة أسطر.

وقال عليه الصّلاة والسّلام[2]: إنّا قد اتّخذنا خاتماً ونَقشناه، فلا ينقشْ عليهِ أحد.

ومن آداب الخاتمِ إذا كان فيهِ ذكرُ الله أن لا يُتَلَقّى به النّجاساتُ، ويُعَظَّم لما فيهِ من اسمِ صانعِ المخلوقاتِ. [٢١٧/أ] وقال أنس رضي الله عنه[3]: كان رسولُ اللهِ - ﷺ - إذا دخل الخَلاء وضعَ خاتمه، وفي رواية: إذا دخل الخلاء جَعل كتبه ممّا يلي كفه[4]. وهذا تعليم لأمته، وتأديبٌ لأهل شريعته؛ لأنا قدمنا أن كل ما يخرج منه محكومٌ بطهارته، وكذا أنبياءُ الله، وذلك من كرامتهم عند الله، وكرامته.

والتختُّم في اليمينِ[5] أفضَلُ، لأنّها الحالةُ التي لقي الله تعالى عليها

---

(١) سبق في هذا الباب.

(٢) في مسند الإمام أحمد ٣: ١٠١؛ وطبقات ابن سعد ١/٢: ١٦٤: إنا قد اصطنعنا خاتماً ونقشنا فيه نقشاً فلا ينقش عليه أحد.

- وفي مصنف ابن أبي شيبة ٨: ٢٦٨، إنا قد صنعنا خاتماً ونقشنا فيه نقشاً. . الحديث.

وينظر الفتح الكبير ١: ٤٣٠.

(٣) تفسير القرطبي ١٠: ٨٨، وأبو داود: ١٩.

(٤) في كنز العمال ٢٧٢٢٢، كان إذا دخل الخلاء حوّل خاتمه في يمينه، وينظر العلل المتناهية ١: ٣٢٨.

(٥) البداية والنهاية ٦: ٦ وسنن النسائي ٨: ١٧٨.

حبيبُهُ ـ ﷺ ـ..

قالت عائشة رضي الله عنها[1]: كان ـ ﷺ ـ يتختّمُ في يمينه، وقُبِضَ عليه الصلاة والسلام والخاتم في يَمِينه.

وكذلك عليّ، وجعفر، وابنُ عباس، وابنُ عمر، وأنس، وجابر، رضي الله عنهم أجمعين، كلّهم يروي أن الخاتم في يمينه عليه الصلاة والسلام.

ورُوي من طريق آخر[2] عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه كان يتختّم في يساره، وروي عن عليّ أيضاً مثله، وأنه إذا تطهّر حوّله إلى يَمِينه.

قال بعضُ العارفين: قد روي عنه عليه الصلاة والسلام كلا الأمرين وأشهرهما التختُّم في اليمين؛ وهو الأفضل لِمَا ذكرنا من حالِه التي فارَق عليها الدُّنيا إلىٰ لقاءِ حَبِيبه.

ووقع لابن العربي، والغزالي، وغيرهم في لباس الخاتم ما تردُّه الأحاديث التي ذكرنا، ليسَ هذا محل سياقه.

ومن آدابه أن يكون محلّه في الخِنصر، كذا روي عنه عليه الصلاة والسلام ـ ﷺ ـ تسليماً وزاده مولانا شرفاً وتعظيماً.

---

(١) البداية والنهاية ٦ : ٥٦، والعلل المتناهية ٢ : ٢٠٥.

(٢) إتحاف السادة المتقين ٧: ١٠٣، والبداية والنهاية ٦ : ٥، وفتح الباري ١٠ : ٣٢٦.

باب

في معنىٰ اسمه:

صاحِبِ النَّعْلَيْن[1]

صَلّىٰ اللّٰهُ عَليهِ وسلَّم وشرَّف وكرَّم

صاحبُ النَّعلين: اسمٌ من أسمائه عليه أفضل الصّلاة والسلام وردتْ بهِ الأخبارُ، واشتهرَ ذكره في الآثار، فلا يَصْدُقُ صاحبُ النعلين إلا عليه، ولا تسرِي الأذهانُ عند سماعِه إلاّ إليه.

قال المُعْتَنُون بسيرتِه، الحافظونَ لأحوالِه وطريقتِه[2] رضي الله عنهم: كان لرسول الله ـ ﷺ ـ أربعةُ أزواج خفاف[3] أصابَها من خيبر، ونعلان سِبتيان، وخُفٌ سابغ أسودُ أهداه له النَّجاشِيّ.

وروىٰ ابن أبي بُردة عن أبيه رضي الله عنه أن النَّجاشِيَّ أهدىٰ لرسول الله ـ ﷺ ـ خُفّين أسودين فلبسهما ثم توضّأ ومَسح عليهما.

---

(١) صاحب النعلين: في الشفا ١: ٣٢٠، وسبل الهدى والرشاد ١: ٥٩٣، والرّياض الأنيقة: ١٩٧.

(٢) ينظر خبر نعاله في: البداية والنهاية ٦: ٦، ٧، والبخاري ٧: ١٩٩. وشمائل الترمذي: ٤٤.

والسِّبْتُ: كل جلدٍ مدبوغ، وقيل المدبوغ بالقَرَظ؛ وخصّه بعضهم بجلود البقر، وقالوا في النّعل السبت.

(٣) خِفاف جمع خُفّ، وهو ما يُلبس في الرجل.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: كان لنعلِ رسول الله ـ ﷺ ـ قِبالان مثني شراكهما.

وقد كان نعلُ رسولِ الله معلوماً طوله وعرضه وهذه صِفَتُه، وقد اعتنى بذلك أهلُ المَحَبَّة [٢١٧/ب] ورَوَوْا ذلك سَلفاً عن خَلف، واحتَذَوا حَذوه لأنّه كان عند عائشة أُمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ بعد وفاته ـ عليه السلام ـ ثم صار من بعد عائشة إلى أُختها أُمّ كلثوم بنت أبي بكر الصّديق رضي الله عنهم.

وكانت أُمُّ كلثوم عند طلحةَ بنِ عُبَيد الله بن عمرو بن سعد بن تميم؛ فَقُتِلَ يومَ الجمل ـ رضي الله عنه ـ فخلفه عُبيد الله بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة المخزومي، وهو جَدُّ إسماعيل بن إبراهيم الذي كان عنده نعلُ رسولِ الله ـ ﷺ ـ ومنه أخذ الحذّاؤون على مِثله تبرّكاً بآثاره واعتناءً بأخباره، وقد ظهرت بركة هذا النعل المبارك على من مَسح به وَجْهَهُ، ولمسَ به خَدّه، وتضرّع به إلى مولاه الكريم وتوسّل إليه بصاحب الخُلقِ العَظِيم في أن يُقيل الله عثرته، وأن يقضي حاجّته، وأن يفرّج كُربته.

فلنصنَعْ صِفةَ نعالِ سيّد البشر، والبشير الذي انشقّ له القمر، وعلا على السّماء، وسلّم عليه الحَجر، فنعّم طرفك أيها المحب بصفة النّعل الذي وضع عليه قدمه سيد الأنام، واملأ قلبك جلالةً، ووجهكَ نضارةً بمشاهدة أنوارِ من تمّم الله به للأنبياء أنوارَ الخِتام[١]، وبَيِّضْ سويداء فؤادك بتلاوَةِ محاسِن إمام رُسل اللهِ الكرام صلّى الله عليه وعليهم أجمعين.

---

(١) في أ: «الأنبياء فبدت أنواره الختام» وفيها سهو من الناسخ.

طـابـتْ بـكَ الأمـصـارُ والأعـصـارُ وتـرنّـمـت بـحـديـثـك الأطـيـارُ[1]
وتـضـوّعـتْ أنـفـاسُ طـيْـبـة مِـثـلَ مـا مُـلـئـت بـنـورِ جَـمـالِـكَ الأقـطـارُ
فـعـلا الـوجـودَ جـلالـةٌ ونـضـارةٌ وعَـلاهُ مـنـكَ سـكـيـنـةٌ ووَقـارُ
وتـروّحـت أرواحُ أشـبـاحِ الـورى وتـقـدّسـتْ بِـشُـهـودكَ الأسْـرارُ
وكـذلـك الأسـمـاعُ مـنـكَ تـنـعّـمـتْ وتـمـتّـعـتْ بِـجـمـالـك الأبْـصـارُ[2]

وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آلِهِ وصحبه وسلّم تَسْليماً، وَحشَرنا في زمرته وتحت لوائه بِمَنّه وكرمه.

فصل

مِن آدابِ المحبّ لهذا النبيّ الكريمِ على الله العظيم، العزيز عند الله أن يعتني بجميع أفْعَاله، ويقتديَ بأقواله، ويتبرّك بآثاره، ويتأدّب بآدابه، ويلبس من الأنعلة ما ليس فيه شُهرة[3]، ولا خُروجٌ عن مُروءة.

وكذلك يَنبغي للمُريد أن يكون في لباسه وفي جميع أحواله.

روى أسد عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «من لبس ثوبَ شُهرة[4]، أو ركبَ مركبَ شهرة ألبسهُ الله ذلاً قبل الموت».

والمطلوبُ في حقّ المُحِبّ أن يكونَ مُتواضعاً بقلبه وبلسانِه غير مُنقِصٍ لِغيرِه، فلا حَرج على مَن كان ثوبُه حَسناً ونعلُه حسناً غير خارجٍ

---

(١) من بحر الكامل.
(٢) في ب: الأصوات منك تنعّمت.
(٣) يشير إلى حديث مشهور في كشف الخفا ٢: ٣٨٠، من لبس رداء شهرة.. وقد سبق في هذا الكتاب فاطلبه في الفهارس.
(٤) في أ، و: ب، ثوباً شهرة. والمثبت من ج، وهو موافق للأحاديث.

عن النّظير؛ ويقصد بذلك وجهَ الله. والتجمّلَ في مُنَاجاة اللهِ العزيز القدير.

عن عبد الله بن مسعود [٢١٨/أ] ـ رضي الله عنه ـ عن النبيّ ـ ﷺ ـ أنّه قال[١]: «لا يدْخلُ الجنّة من كان في قلبِه مثقال ذَرّةٍ من كِبْر؛ قال رجلٌ: إنّ الرجل يحب أن يكون ثوبُه حسناً ونعلُه حَسناً؟ فقال عليه الصلاة والسلام: إن الله جميلٌ يحبُّ الجَمال».

فهذا الحديث الكريم يدلّ على طلب التجمّل في اللباس؛ والتّجملُ يختلف باختلاف الأحوال والبلدان، واختلاف الأزمان، والجّمالُ في ذلك ما لا يُخِلّ بالشّرع، ولا بالمُروءة، ولا بالإشارة إلى اللاّبِس بالأصابع وبالخُروج عن الطبع.

وبالجُملة: فالتنطّعُ[٢] في النعال وغيره من اللباس ما يدل على اشتغالِ القلبِ عن الله، وامتلائه بما يُبعد عن الله.

وطريقةُ السّلف رضي الله عنهم الاقتصادُ حالاً ودواماً، والامتثالُ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إذا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُروا وَكَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَواماً﴾ [الفرقان ٢٥/٦٧].

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إيّاكَ أن تكونَ ممّن يجعلُ ما رزقَهُ الله في بطنِهِ أو على ظَهره[٣].

---

(١) الترغيب والترهيب ٣: ٥٦٧، وورد بصيغة مثقال حبة، وخردلة: مجمع الزوائد ١: ٩٩، ومثقال ذرة، المعجم الكبير للطبراني ٧: ١٨٢.

(٢) التّنطُع: الدتّنق.

(٣) أن يجعله في بطنه: طعاماً شهوةً، ويجعله على ظهره: لباساً شهرة.

وقد قِيْلَ في قوله تعالى: «لم يُسْرِفوا ولم يَقْتُروا» هم الذين لا يأكلون طعاماً للذّةِ، ولا يلبسون ثوباً لِجَمال.

وقد رُوِيَ أنّ رجلاً أتى الحَسن[1] فقال: يا أبا سعيدا أيُّ اللّباسِ أحبُّ إِلَيْكَ؟ قال: أغْلَظُها، وأخْشَنُها، وأوْضَعُها عند الناس.

قال له: يا أبا سعيدا أليس قد وقَع في الحديث[2] «إنّ الله جميلٌ يحبّ الجمال» فقال: ياأصلع! ذهبتَ غير المَذْهب، لو كان الجمال عند الله هو اللّباس لكان الفُجّار عند الله أوْجَه من الأبرار! ولكنّ الله جميلٌ يحبّ الجمال له فَطَاعتُه في نظافتِه وحُسن سَمْتِه.

وقد ذكر المتصوّفةُ ـ رضي الله عنهم ـ آداباً في اللباس، وأنّه يختلف باختلاف الأشخاص، وهذا هو التّحقيقُ عند الأكياس، وأنّ اللاّبسَ ينبغي له الخروجُ عن مُرادِه إلى مُرادِ شيخه، ويحكّمه في نفسه حتى يستفيدَ منهُ آدابَ السّنّة، والعمل بها في نفسِه، فراجِعْ كلامهم، واحفظْ آدابَهُم.

وحقُّ المحبّ لهذا النبيّ الكريم، صاحب الخُلق العظيم أن يكونَ مُقتدياً به في تواضُعِه، ذاهباً بنفسِهِ في حوائِجه، آخذاً نعله بيدِه إذا دخلَ مسجداً أو غيره، ولا يبغي بنفسه عن حمل نعله تكبّراً، وإظهاراً أنّ منزلته أعلى من غيره، فإنّ ذلك من شِيَمِ المتكبّرين، ومن أخلاق الشياطين.

---

(١) هو الحسن البصري، وقد سبقت الإشارة إليه.
ـ وكان الحسن من أهل الزهد والورع.

(٢) سبق الحديث، وينظر صحيح مسلم ١٤٧، ومسند أحمد ٤: ١٣٣، ومجمع الزوائد ٢: ٢١٤.

وإنّ وصف المريد إنّما هو تواضُعه وتذلّله بين يدي مَن الدّارُ دارُه، والمالُ مالُه، والنّفسُ نفسُه، وهو خالقُ الخَلقِ أجمعين، وإن طلب من المريد الصالح من يتبرّك بآثاره أن يحمل له نَعله [٢١٨/ب] أو يُلبسه خُفّه، فليترك ذلك لمن حَسُنت نيّته من المُرِيدين.

فقد كان عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عند رسول الله ـ ﷺ ـ صاحب السّواك والوِسَادة والنّعلين[١].

وعن القاسِم بن عبد الرحمن: كان عبد الله يُلْبِس رسول الله ـ ﷺ ـ نَعليه، ثم يمشي أمامه بالعصا، حتى إذا أتى عليه الصلاة والسلام مجلسَهُ نزَع نعليه فأدخلهما في ذراعه، وأعطاهُ العَصا، فإذا أرادَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن يقومَ ألْبَسه نعليه، ثم مشى بالعصا أمامه، حتى يدخل الحُجرة.

وإنّما تركه رأسُ المتواضعين، وسيّد المُرسلين يفعل ذلك [أي] عبد الله بن مسعود لعلمِه بِطيب نفُوسِ أصحابِه، وتبرّكهم بحرمته، ورجاهم حُصول الخيراتِ بالتماسِ بركته، وإدخال السُّرور على أمته بخدمته.

فكذا كنْ أيها المحبّ معَ مَنْ تعتقدُه من أهلِ الله، ومن تتبرك به من أولياءِ الله، فإنّ بنورهم يُهتدى، وفي طريقهم النّجاةُ غداً.

أئــمــة صــدق يُــهــتــدىٰ بــهــداهُــم ... وتُقتبس الأنوار منهم وتُستَجْلى[٢]
شـمـوسٌ بـآفـاقِ الـمـعـانـي مـنـيـرةٌ ... لِمَنْ ضَلّ عن سُبل الهدايةِ أو زَلاّ
بـدورُ كـمـال فـي مـنـازل سَـعْـدِهـا ... إذا ما دجا ليل بهم يُبصر السُّبْلا

---

(١) زاد المعاد ١: ١١٦، ومسند الإمام أحمد ٦: ٤٤٩.

(٢) من بحر الطويل.

بـحـورٌ لآمـالِ الـعُـصـاةِ زواخـرٌ　　　يُـوالُـونَـهُـمْ بِـرّاً ويُـولـونـهـم بَـذْلا

مَضَوْا في سَبِيلِ الله يا ليتَ أننا　　　بَذلنا فداءً فيهمُ النفْسَ والأهلا

نفَعنا الله بحبّهم، وأعاد علينا من بركتهم، وصلّى الله على سيّدنا محمد، وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليماً، وزادَه شرفاً وتعظيماً.

بـاب

في معنىٰ اسمه:

صاحب العلامة(1)

صَلّىٰ اللَّهُ عَليهِ وسلّم وشرّف وكرّم

صاحب العلامة: اسمٌ من أسمائِه عليه أفضل الصلاة والسلام وردتْ بِهِ الأخبارُ، وصحيح الآثار.

ومعنى صاحب العلامة يحتمل أوجهاً كثيرة؛ منها أنه صاحبُ العلامةِ الدالّة على صحّةِ نبوءته.

ويكونُ المراد بالعلامة الجنس، فتصْدُقُ العلامة على كل صفةٍ دلّتْ على نبوءته ورسالته ممّا كان مُتّصفاً به في ذاته وفي صِفاته، أو صادراً منه في أفعاله، وما خَلقه الله تعالى على يديه من مُعجزاته.

وأُفردت هذه العلامة في اللّفظ لاتّحاد مُتعلّقها، لأنّ كلّ قسمٍ منها قد دلّ على نبوءته دلالةً قطعيّةً شاهدةً على رسالته.

ويُحتمل أن يكونَ صاحبُ العلامة معناهُ: صاحب الأدلّة التي نصبها لأمّته يتوصّلُون بها إلى الهِدَاية لِطريق الفلاح ويسلكونَ فيها سُبل النّجاح.

[٢١٩/أ] ويُحتمل أن يكون صاحب العلامة: المرادُ من العلامة

---

(١) صاحب العلامة في الشفا ١: ٣٢٠.

خاتم النبوّة بِخُصوصيّتها لأنّها جُعلت فيه عليه الصّلاة والسلام دالّةً على نُبوءته، مشهورةً في الكتب السالفة، وأنّه له علامة، وهي خاتم النّبوءة.

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال[1]: رأيتُ النبي - ﷺ - بين كتفيه مثلُ بَيْضَةِ الحمامةِ تُشبه جسمه.

وفي رواية: أنّها مثلُ التّفاحة، وقيل أنها كزرّ الحَجَلة، وقيل: إنها كانت شعرات مُجتمعات، وقيل إنها كانت شامة خَضراء، وقيل صفَتُها غير ما ذكرنا[2].

واختلفت الأخبار، وأرباب السّير، هل خُلِقَ بها كذلك، عليه الصلاة والسلام، أو وُضعت فيه بعد ولادته كما هي عليها؟

فقيل: إنّه وُلِد بها كذلك على صفتها.

وقيل: إنّها وُضِعَت في كتفِه الأيسر بعد ولادته.

واختلفت الرواية أيضاً[3]: في أيّ وقتٍ وُضعت فيه، ففي روايةٍ أن ذلك حينَ الولادة، وأن أمّه آمنة رات سِجّلاً من حرير قد نُشِر، ورأتْ طستاً وإبريقاً بأيدي رجال، وأُخرج الخاتم من السجل، وغُسِل في الطّست، ثم جعل بين كتفيه - ﷺ -.

وفي رواية أُخرى عن شدّاد بن أوس لمّا ذكر رضاعه عليه الصلاة

---

(١) صحيح مسلم: ١٨٢٣، ١٨٢٤ في كتاب الفضائل، باب إثبات خاتم النبوّة، وفي رواياته ألفاظاً متقاربة.

(٢) في صحيح مسلم: مثل زرّ الحجلة، وفي شرحه: المراد بالحجلة (واحدة الحجال) بيت كالقبّة لها أزرار كبار وعُرى، وينظر مسند الإمام أحمد ٤: ١٦٣.
- وفي رواية له: عليه خيلان (جمع خال، وهو كالشامة).

(٣) الأخبار مروية في كتب السّير والشمائل، والخصائص النبوية، ينظر مثلاً: البداية والنهاية ٢: ٢٧٦.

والسلام وشقّ صدره قال: أقبل مَلَكٌ ثالث وفي يده خاتم له شُعاعٌ فوضَعه بين كتفيه وثَديه، ووجد بَرْدَه عليه الصلاة والسلام زماناً.

فيمكن الجمعُ بين هذه الروايات كلّها، فإنّ معنىٰ من قال بأنه وُلد به، أي: أن محلّه ظاهرٌ هنالك حتّى وضع فيه الخاتم بعد ذلك.

وأما وَضْعُه بعدَ الولادة على الرّواية الأخرى وأنّه عند شقّ الصّدر، فيحتمل أن يكونَ وُضِعَ له مَرّتين كما قيل: إنَّ شقّ صدره كان مرّتين اعتناءً بمنزلتِه، وإظهاراً لمكانته.

وذكر الواقِدي ـ رحمه الله ـ عن شُيوخه قال: لمّا شكُّوا في موتِه عليه الصلاة والسلام وَضعت أسماءُ بنت عُمَيْس[1] يدها بين كتفي رسول الله ـ ﷺ ـ فقالتْ: توفّي، ورُفِع الخاتم من بين كتفيه، فَعَرفُوا مَوْتَهُ بِذلك.

وقد كانت هذه العلامة في الكتب السالفة موصوفةً معلومةً، وأنّها دالّةٌ على نبيٍّ يكونُ في آخرِ الزّمان، اسمه في السماء أحمد، وفي الأرض محمد.

ولما سافر به ـ ﷺ ـ عَمُّه أبو طالب حتى انتهى إلى بَحِيْرا

---

(١) الخبر في كتب السِّيرة، ينظر مثلاً: البداية والنهاية ٥: ٢٤٤.

ـ والسيدة الفاضلة المشار إليها هي الصحابية الجليلة أسماء بنت عُمَيس (توفيت نحو سنة ٤٠) هاجرت مع زوجها جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وبعد استشهاده تزوجت أبا بكر الصديق رضي الله عنه، وبعد وفاته تزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه وماتت بعد عليّ. ولها من جعفر: عبد الله ومحمد وعوف. ومن أبي بكر: محمد، ومن عليّ يحيى وعون.

ـ ووصفها أبو نعيم في الحلية بمهاجرة الهجرتين ومصلية القبلتين.

الرّاهب[1] العارف بما كان في الكتب الماضية من صِفَتِهِ عليه الصلاة والسلام، فلمّا رأى بَحِيْرا من صومعتِه الغَمامة تُظِلّه، نزَل وما زالَ مع أهلِ الرّكبِ [٢١٩/ب] حتى أتَوْا بالنبيّ - ﷺ - إليه فجعل بَحِيْرا يسألُه عن أشياء، والنبيُّ - ﷺ - يُخبره بها، فسأله عن نَومه، وهَيئته، وحالِه، وأمْرِه؛ ثم نظرَ إلى ظهره فرأى الخاتم بين كتفيه على موضعه من الصّفة التي في كتابه.

فلما فرغ أقبل على عمّه أبي طالب فقال له: سيكونُ لابنِ أخيك شأن عظيم، فأسرعْ بِهِ إلى بلاده!

وفي رواية أن الراهب قال لهم: هذا سيّد العالمين، هذا رسولُ رَبّ العالمين، بعثه الله رحمة للعالمين.

فقال له الأشياخ: ما علمك بِهِ؟

فقال: إنكم حين أشرفتم على العَقبة لم يبقَ شجرٌ ولا حَجرٌ إلا خَرّ ساجداً، ولا يسجد إلا لنبيٍّ، وأنا أعرفه بخاتم النُّبوءة، أسفلَ من غضروفِ كتِفه مثل التُّفاحة.

فكانت هذه العلامة الكريمة، والصّفة الجسيمة دالّةً على نعتِ صاحب الخُلق العظيم، وبرهاناً قطعياً على نبوءة النبي الكريم.

وكذلك في قصّة سَلمان الفارسي[2] رضي الله عنه المشهورة التي هي في السِّيرِ مذكورة، وأنّه استدل على نُبوءته بخاتمه، وأنّه كان ذلك

---

(١) الخبر صحيح مشهور في التواريخ والسّير والأخبار، وكان بحيرا من النصّارى الباقين على القول إن المسيح عليه السلام عبد الله ورسوله.

(٢) سبل الهدى والرشاد ١: ١٢٩، وكتب السّير.

في نفسه، فأعلَمَه - ﷺ - بما في نفسه، فأرخىٰ إزارَهُ عن كتِفِه، حتى رأى سلمان ما أدخل النّور في قلبِه بمشاهدتِه، فأسْلَم - رضي الله عنه فكان من سعادتِه أنه من أهلِ بيته، مع بُعده في سَفرته، رضي الله عنه، وحَشرنا في زُمرته.

طُوبىٰ لمن رُفِعَ له اللثام عن وجهها حتى تبدّى له بَدِيعُ صفاتها، فتحقّق عند الله فضلها وعلم مكانها ومنزلتها.

اللهُ فضّلَهُ حقّاً وشرّفَهُ ... وخصّه وحَباهُ بالكَراماتِ[1]
فمنْ كرامتِهِ ومن فضائلِهِ ... بدينِهِ نُسِخَتْ كلُّ الدياناتِ
ومن علامتِهِ ومن خصائصِهِ ... ومن فَضائلِهِ نطقُ الجَماداتِ
ومن كرامَتِهِ عينٌ مفجّرةٌ ... في غيرِ أرضٍ وهذا خَرْقُ عاداتِ
اللهُ فجّرها من بينِ أنْمُلِهِ ... فكانَ ذلك من بعضِ العَلاماتِ
يا منْ يرومُ بأن يحصِي فضائلَهُ ... هيهاتَ لا تَبْغِيَنْ من ذاكَ غاياتِ[2]
هَبْ لي بحرمةِ هذا المصطفى خَطئي ... يا ذَا الجلالِ وإجرامي وزلّاتي[3]
يا ربّ إني إلى رُحماك مفتقرٌ ... مالي سِواك وقد أرَبَت خطيئاتي[4]
واجعلْ محبّته ذُخراً لآخِرَتي ... كَيْما تُبوّئني رَوضاتِ جَنّاتِ
يا رب صلِّ عليه كلّما طلعتْ ... شمسٌ ولألأ نجمٌ في الدُّجُنّاتِ[5]

---

(١) من بحر البسيط.
(٢) في ب: لا تبغين.
(٣) وهبه له: جعله له هبة؛ غفره له.
(٤) قال: أربت خطيئاتي. وحقّه أن يقول رَبَتْ أي زادت وكثرت. أو أن يقول أربت على كذا أي زادت عليه.
(٥) الدُّجنّات جمع الدُّجُنّة: وهي الظلمة.

فصل

مِن آدابِ المحب العالم [٢٢٠/أ] أنه ـ ﷺ ـ صاحب العلامة، المحقّق في نبيّه أنّهُ صاحبُ الكرامة، أن يجدّد إيمانه في ساعاتِه وفي جميعِ أوقاته، ويقوّي يقينَهُ بِسَرْدِ علاماتِه، ويملأ زوايا قلبِه بجميلِ صفاتِه، وينعم روحه بنعيم هَيْئاتِه.

مكمّل الخلق لا تُحصى خصائصه منظَم الحُسن قد قَلَّتْ نظائِرُه[1]

واستحضِرْ ـ أيُّها المحب ـ هدايةَ المولى جلّ جلاله خواصَّ عبادِه بعلامتِه الفائقة، وجلبه لأوليائِه بتمامِ محبّتهم له الواثقة، فلسان حالهم رضي الله عنهم ناطقٌ، وفؤادُهم متعلّقٌ بحبيب الله شائق.

تمكّنَ الحبُّ مِنّي كيف أخفيهِ والدمعُ يكتبُ والآماقُ تُمليْهِ

قد صحّ عن سَقَمِي ما كنتُ أكتمهُ والدمعُ عن ناظري في الخد يرويهِ

فلا تيأس يا بعيدَ الدّار من مجاورةِ المُختار، إن لاحَتْ عليك المحبّة لسيّد الأبرار، وصاحبتك في أعمالك الأخيار.

هذا سلمانُ الفارسيّ ـ رضي الله عنه ـ مع بُعد دارِه، وطُول قرارِه، ساقَتْهُ العناية الربانيّةُ، وقادَتْهُ السّلاسلُ إلى المعالي[2] اللدنيّة، فما زالَ ينتقلُ من ربانيٍّ إلى ربانيّ حتى وقع على صفاتِ المَحبُوب، وحصل له كنزُ علاماتِ طبيبِ القُلوب، فما زال ـ رضي الله عنه ـ يقبل الوَصايا، ويحفظُ المزايا حتى تحقّق بإذنه أنّه قد أظلّ زمانُ نبيٍّ مبعوثٍ بدينِ إبراهيم يخرجُ بأرض العرب، يأكل الهديّة ولا يأكل الصَّدَقة، بين كتفيه خاتمُ النّبوءة. فما زال رضي الله عنه طالباً نيلَ المعالي وبلوغ السعادات،

---

(١) من بحر البسيط.

(٢) في ب: المعاني اللدنية.

وساعدته العِناية، ووافقه التّوفيق حتى أوقفه على باب سيّدِ السادات.

فلما أتاهُ وهو - ﷺ - بِقباء، قال له: إنّه قد بلَغني أنّك رجلٌ صالح، ومعَك أصحابٌ غرباء، هذا شيء عندي للصَّدقة، فرأيتكم أحقَّ به من غيركم، فقرّبه إليهم فقال عليه الصلاة والسلام: كُلوا، وأمسك يده ولم يأكل.

قال: فقلتُ في نفسي: هذه واحدة، ثم انصرفْتُ، وجَمعت شيئاً وتحوّل - ﷺ - إلى المدينة، ثم جئتُه، فقلت له: إنّي رأيتك لا تأكلُ الصَّدقة، وهذه هديّة، قال: فأكل عليه الصلاة والسلام، وأمر أصحابه فأكلوا.

فقلتُ في نفسي: هذه اثنتان.

ثم جئتُ رسول الله - ﷺ - ببقيع الغَرْقَد[1]، تبع جنازةً وهو جالسٌ في أصحابه، فسلّمتُ عليه ثم استدرتُ أنظرُ إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وَصف لي صاحبي، فلمّا رآني رسول الله - ﷺ - استدرتُ خلفه، عَرف أنّي أستَثبِتُ في شيءٍ وُصِفَ لي، فألقى الرّداء عن ظهره [٢٢٠/ب] فنظرتُ إلى الخاتم فعرفْتُه، فأكببتُ عليه أقبّله وأبكي.

رفعَ اللّثام فَلاحَ تحت لثامِه ... قمرٌ تَبَدّى فوقَ غُصن قوامِهِ[2]
فكأنّ نورِ جبينِه من شعره ... صبحٌ تبلّجَ تحت جُنحِ ظَلامِهِ
ويميلُ عدل قوامِه فكأنّهُ ... ثَمِلٌ سَقاه الشغرُ كأسَ مُدامِهِ
غصنٌ له فرعٌ كليلٍ مُقمرٍ ... من وجههِ يزهُو ببدرِ تمامِهِ

---

(١) هو مقبرة أهل المدينة. والبقيع في أصل اللغة: الموضع فيه أُروم الشجر من أنواع مختلفة، والغرقد: نبت، هو كبار العَوْسَج.

(٢) من بحر الكامل.

يُثني عليه البانُ لمّا ينثني ويميلُ منكِراً لعدل قوامهِ
غصنٌ عليه كلّ قلبٍ طائر ريمٌ لديه الأسْدُ طوع زمامهِ
يفترُّ عن حببٍ فينثرُ لؤلؤاً من ناظرٍ يبكي على بَسّامهِ
أحيى به وأنا القتيلُ بلحظهِ وسقام جسمي من بديع قامهِ
أزكى الصّلاةِ عليهِ من رَبّ السّما ثم الرّضى عن أهلِ رَغْيِ زِمامهِ

صلّى الله عليه وعلى آله صلاة نتّخِذُها عدّةً عند كل ضيقٍ وشدة، ونتوسّلُ إلى مولانا بمحبّته الصّادقة، أن يرحمنا ببركته في الدنيا والآخرة بمنّه وكرمه.

بـاب

في معنىٰ اسمه:

صاحب الحُجّة[1]

صَلّىٰ اللّهُ عَليهِ وسلّم وشرّف وكرّم

صاحِبُ الحُجّة: اسمٌ من أسمائه ـ ﷺ ـ وشرّف وكرّم، وصفه به الأئمة الأعلام، والسادات الجِلّة الكرام.

ومعنىٰ صاحِب الحُجّة، يحتملُ معاني من الحسن عديدة، وأوْجُهاً منها فَريدة.

فيُحتملُ أن يكونَ معنىٰ «صاحب الحُجّة» أي: أنّه صاحب اللسان الفَصيح، والكلام البَليغ الرّجيح، لأنّه عليه الصلاة والسلام المالِكُ لأزِمّةِ البلاغةِ والبَراعةِ، بسلامة[2] طبع، ونَصاعة لفظٍ، وتمامِ بَلاغة.

آتاه الله جوامعَ الكَلِم[3]، وخَصّه ببدائع الحِكَم، فلا غَرْوَ بين العُقلاء، ولا مِراءَ بين البلغاء، أنّه بلغ من ذلك منزلةً لا يُقاس بها غيرُه، وحاز فيها سبقاً لا يقدر قدره.

---

(١) صاحب الحجة في الشفا ١: ٣٢٠، وسبل الهدى والرشاد ١: ٥٩١، والرّياض الأنيقة: ١٨٦.

(٢) في ب: بسلامة طبع.

(٣) إشارة إلى قوله ﷺ: أُعطيتُ جَوامع الكلم (وفي رواية: بُعثت بجوامع الكلم) صحيح مسلم: ٣٧١، ومسند أحمد ٢: ٢٥٠.

كيفَ لا وقد قال له أصحابُه عليه الصلاة والسلام[1]: ما رأينا بالذي هو أفصحُ منك، فقال: وما يمنعني، وإنما أُنزِلَ القُرآن بلساني، لسانٍ عربيٍّ مبين؟

وقال أيضاً: أنا أفصحُ العرب بَيْدَ أني من قُرَيش، ونشأتُ في بني سَعد[2].

قال القاضي أبو الفضل عياض رحمه الله ونفع به فجمع له بذلك - ﷺ - قوة عارضة البادِية وجَزالتها، ونصاعة ألفاظِ الحَاضِرَةِ، ورَوْنَقَ كلامِها، إلى التأييد الإلَهي الذي مَددُه الوحي الذي لا يُحيط بعلمه بشر.

وقد قالت [٢٢١/ب] أم معبد[3] في وصفها له: حلوُ المنطق، فصل لا نزر ولا هذر، كأن منطقه خرازات نُظمن، فكان عليه الصلاة والسلام جهيرَ الصّوت، حسن النغمة.

ويُحتمل أن يكونَ معنى «صاحب الحُجّة»: أي صاحب البيان الشّافي، واللفظ الجامع المانع الذي بَقِيَتْ حِكَمُه وحيدةً في الأعصار غرّاء فريده لا تُوازى فصاحَتُها، ولا تبارى بلاغَتُها مدّة انقضاءِ الأعمار.

ويُحتمل أن يكونَ «صاحبُ الحجّة» معناه: الرسول الذي قدر الله تعالىٰ قدره ومنحه من الحجة ما خرج به عن طريق البشر، وجعله في

---

(١) الجامع الكبير (المخطوط، الجزء الثاني، طبع الهيئة المصرية) ٢: ٣٥٠.

(٢) الشفا ١: ١٧٨، وكشف الخفا ١: ١٧٨، وتهذيب ابن عساكر ٢: ٣٦٤، قال في مناهل الصفا (٥٢) تعليقاً على الحديث بالنص الثابت في المتن هنا: أورده أصحاب الغريب، ولا يُعرفُ له إسناد. وللطبراني من حديث أبي سعيد الخدري: أنا أعرب العرب ولدت في قريش ونشأت في بني سعد فأنّى يأتيني اللحن؟

(٣) سبق حديث أم معبد في هذا الكتاب.

حُسنه البديع أبهى من الشمس والقمر، وأذلّ بحجّتِه رقابَ البُلَغاء، فما استطاعَ بليغٌ أن يعارِضَ حجّته بعد أن حاول ذلك وما قدَر.

فكيف تعارض حُجّة الله التي آتاها الله حبيبه أو يُرام إطفاءُ النّور الذي رفَع الله به صَفِيّه؟

ويحتمل أن يكونَ الحجّةُ: المرادُ بها القُرآن؛ فإنّ من أسمائِه الحُجّة، والنُّور؛ فيكون معناه: أنّه صاحِبُ القُرآن، صاحب النور والبُرهان.

وسُمّي القُرآنُ حُجّةً[1] لأنه دليلٌ ساطع، وبرهانٌ قاطع علىٰ أنّه كلامُ العالِم الخبيرِ السّميعِ البَصيرِ، الذي جَلّ عن الشّبيه والنظير.

وقد خَصّ الله تعالى هذا النبيّ الكريم، صاحب الخُلق العظيم فأنزل القرآن عليه، وصيّرهُ معجزةً له عظيمة دالّةً علىٰ أنه رسولُه الدالُّ عليه المخصوصُ بالكرامَةِ[2] لديه، فأنزل الله تعالى علىٰ حبيبه هٰذا النُّور العظيم، الذي نَوّر به القُلوب، ولو أنزلَهُ علىٰ جبلٍ لرأيتَهُ خاشعاً متصدّعاً من خشيةِ عَلاّم الغُيوب:

لو أُنزلت بجبال الأرضِ أَيْسَرُها   تصدّعَتْ وجرتْ بالدّمعِ أَنهُرُها[3]

فما أشدّ عمى من ليسَ يُبصِرُها   لا تعجبَنْ لِحَسُودٍ راحَ يُنكِرُها

تَجاهُلاً وهو عينُ الحاذِقِ الفَهِمِ

---

(1) وردت الحُجّة بمعنى البُرهان في القرآن الكريم، ومنها الحجّة من الحقّ إلى الخلق بآيات القرآن وإظهار البرهان كقوله تعالى: ﴿قل فللّهِ الحُجّةُ البالغة﴾ - بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٢: ٤٣١.

(2) في ب: بالكرامات.

(3) هذا التخميس مبني على بيت من بردة البوصيري (ديوانه: ٢٤٥).

أضحىٰ يقابلها من شدّةِ الحسَدِ من بعد إيقانها بالجَحْدِ والفَنَدِ[1]
وقد تعرّف ما فيها من الرُّشْد قد تُنكر العين ضوءَ الشمس من رَمَدٍ
وينكرُ الفَمُ طعمَ الماءِ من سَقَمِ

فأَبشِرْ يا مَنْ شرح الله صدره للإسلام، وهَنيئاً لك أيّها المصدّق بالحجّة البالغةِ التي أُنزلت علىٰ النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، لقد أَقَر الله عينكَ باتّباع الدين القويم، ولقد ظفرتَ بحبل الله المتين يا صاحبَ الصّدر السليم.

في الحَشْر يُرجو فؤادي منك راحته يا مَنْ غدا الخلق يستسقونَ راحَتَهُ[2]
يا زين مَنْ قد رأتْ عينٌ صَباحَتَهُ يا خيرَ من يَمّم العافون ساحَتَهُ
سَعْياً وفوقَ مُتون الأَيْنُقِ الرُّسُمِ

فصل

[٢٢١/ب] مِن آداب المُحبّ لهٰذا النبيّ الكريم علىٰ الله الرحمن، المصدّق بأنّه صاحبُ الحُجّة والبُرهان، الذي أُنزل عليه القُرآن، أَن يلازمَ النّظر في كلامهِ، وبلاغةِ لفظه، ولسانِه، ويعتني بأحاديثِهِ ومعانيهِ وحفظِ أحكامه، ويتأمّل غريزة فصاحته، وقوة حُجّته مع قومه وبلاغته، وما خَصّه مولاه من دراية اللّسان ممّا لم ينله إنسان، وما مَنّ بهِ عليهِ من فَصْلِ الخطاب مما قَيّدتْهُ عنهُ أُولو الألباب. جعل الله ذلك له طبعاً وخلقه فيه غريزةً، فجمع فيه البراعة جمعاً.

فتأمّلْ ـ أيّها المحبُّ ـ ما كان يأتي به نبيُّكَ علىٰ البديهة من

---

(١) في ب: أضحى يقلبها.

(٢) تخميس مبني على بيت للبوصيري في البردة (ديوانه: ٢٤٥).

العجب، وما يُدلي به إلىٰ كلّ سبب، فكان ـ ﷺ ـ يأتي بديهةً بالخُطب العظيمة بين مُتون البُلَغاء، في المقَامات العليّة، والمحَافِل السنيّة، والخطوب الدهيّة ما ذلّل بهِ الصّعاب، ويأتي بالحُجج المنظومةِ أجمل من سِمط اللآلي ما وَلّهَ بها عقول أُولي الألباب.

فكانت له ـ ﷺ ـ من بين خَلق الله البُلغاء من القُوّة والقِدح الفالج، والمَهْيَعِ النّاهج ما حوىٰ من البلاغة مُتونَها، واستَعْذب أنهارها وعُيونها، ودَخل من كل بابٍ من أبوابها، وعلا صرحاً فوق بُلوغِ أسبابها.

هٰذا وقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ بين قَومٍ قد قالوا في الخطير والمهين، وتفنّنوا في الغثّ والسَّمِين، وتقاولوا في القَليل والكَثِير، وتَساجَلُوا في النَّظم والنّثير[1].

فما راعَهم إلاّ بليغٌ نشأ بين ظَهرانيهم فَفاقَهُم، ورسولٌ حاز قصب الكمال فَساقهم.

كـم ذَا أذوقُ مـرارةً فـيـهِ وفـي[2] ... فيهِ، لمىً، حلُو المشارب أَشْنَبُ[3]
إن لاحَ بـرقٌ مـن ثـنـايـا ثـغـره ... فعقيقُ دمعِ الصَّبّ فيه صَيِّبُ[4]
يـسـري بـأسـرارِ الـنُّـهـى فـكـأنّـه ... لطيءٌ مع الرّوح البسيط مركّبُ[5]

---

(١) النثر والنثير بمعنىً.
(٢) من بحر الكامل.
(٣) اللّمى: سمرة مستحسنة في الشفة؛ ومنه الصّفة التي تُسَمّى البنات بها: لمياء.
والشَّنَبُ: رقة وعذوبة الأسنان.
(٤) صيّب: منصب، صفة غالبة على المطر. وشبّه الشاعر دمع الصبّ (العاشق) بالعقيق، يوهم أنه دَمٌ؛ على سبيل المبالغة.
(٥) قوله لطيء أي لازق. والذي في اللغة أن يقال لاطىء.
ويصحّ إذا قرئت لَطْءٌ، بمعنىٰ إيراد المصدر وإرادة المشتقّ. كما يقال رجل حرب أي محارب أو سلم بمعنى مسالم.

لا يـنـتـهـي فـيـه الـنُّـهـى لـبـهـائـهِ إن شـاءَ يُـطـنِـبُ فـيـه أَو لا يُـطـنِـبُ[1]

فَجدِّدْ إيمانَكَ أيّها المحبُّ بالتأمّل في شمائله، وأدِمْ فكرك في النظر في رياضات خطاباته ووسائله، ليتلألأ قلبك بمحاسنه الفريدة، ويطمئن فؤادكَ بالوصول إلى الرَّسُول بالفوائد العديدة.

يـا واحـداً فـي الـحـسـن مـنـفـرداً فـمـا تُـخْـفِـي الـسـرائرُ والـظَّـواهـر مُـعْـلَـنُ[2]

ولـقـد سـمـعـنـا عـنـك أنـك مـحـسـنٌ لـكـن رأيـنـا مـنـك مـا هـو أحـسـنُ

صـلّـى عـلـيـكَ الله يـا مَـنْ نـورُه أضـحـى مـن الـشـمـسِ الـمـنـيـرةِ أَبْـيَـنُ

صلّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وصحبه وسَلّم تسليماً كثيراً.

---

(١) أطنب: أطال.

(٢) من بحر الكامل.

باب
في معنىٰ اسْمِه
صَاحِبُ السُّلطانِ
صلَّى الله عليه وسلَّم وشرَّف وكرَّم

[٢٢٢/أ] صاحبُ السُّلطان[١]: اسمٌ مِن أَسمائه عليه أفضلُ الصّلاة والسلام، والسُّلطان يُطْلقُ علىٰ الحُجّة، فيرجعُ إلى مَعنىٰ الاسمِ الّذي قَبْلَهُ.

ويُطلق علىٰ صاحبِ الحُكم الذي يُرْجَعُ إليه في حكمه، وقد قال تعالىٰ: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء ٤/١٠٥] فلمّا ثبتت عصمتُه كان حكمُه برأيِهِ واجباً اتّباعُه لا تجوزُ مخالفتُه، فهو صاحبُ الأحكام، والهادي برأيِهِ السّديد سائرَ الأنام، وجدَ الخلائق في داهيةٍ دَهْياء، وعَمايةٍ عَمْياء، لا يعرفون معروفاً، ولا يُنكرون منكراً؛ قد ملأَ الباطلُ قلوبهم بظلامِه، واستولىٰ الشّيطانُ عليهم بِخَيله ورَجِلهِ وحُسَامهِ، فلا تشاهدُ في ناديهم إلا المُنكرات، ولا ترى منهم ما يدلّ علىٰ الحسنات.

فشَمَّر عليه الصّلاةُ والسّلام عن ساقِ جِدّه بالعناية الربّانية، والسّعادة الأزليّة، ليظهرَ حكمَ مَولاه الكريم، ويدفع الباطل بحقّه فيُزهقه عن القَلب

---

(١) صاحب السُّلطان؛ في الشفا ١: ٣٢٠. وسبل الهدى والرشاد١: ٥٩٢، والرياض الأنيقة: ١٩٣.

السّقيم.

فقال - ﷺ - مجدّاً في إحياء دينِ الله الكريم[1]: «لو وضعوا الشمسَ في يميني، والقمرَ في يساري على أن أتركَ ما أمرني الله بإظهارهِ لما رَأوا منّي ذلك، حتى ينفذ أمرُ الله العظيم».

فما زال - ﷺ - يقاتل عن حُكم الله بسيوفِ الله حتى حَلّ عقال العُقول، وأزالَ لبس النّفوس فانشرحتْ صدورُ الفُحول، فألقىٰ شهيدُ القلبِ سمعه للحقائق، وأجلىٰ نور الحقّ ظلمة الباطل من أرواح الخلائق، فانقادَ مَن عُقدت له السعادة، وتمكّن الحُبُّ بعد إخفائهِ ممّن حَصلت له العناية من السّادة.

كانت أُمُّ سَلمة رضي الله عنها ممّن نادتها العناية، وحلّها المولىٰ من عقال الغواية، فهاجرت معَ مَن هاجر، وهجرت أوطانها، حتىٰ بلغت مأمولَها وأمانها؛ قالت[2] رضي الله عنها: لمّا بعث كفار قريش إلىٰ النجاشي في أصحاب النبيّ - ﷺ - الّذينَ كانوا عنده - أرسلَ النجاشيُّ إلىٰ أصحابِ النبي - عليه الصلاة والسلام - فلمّا أنْ جاءهم رسولُه اجتمَعُوا رضي الله عنهم ثم قال بعضُهم لبعض: ما تقولون للرّجل إذا جئتمُوه؟

قالوا: نقولُ والله ما علمنا وأَمَرنا به نبينا - ﷺ - كائناً في ذلك ما يكونُ من الأمر.

---

(١) تاريخ الطبري (دار المعارف) ٢: ٣٢٦؛ وهو في كتب السيرة والتواريخ، وعباراته مقاربة في رواياتها؛ ينظر السيرة لابن كثير ١: ٤٧٤.

(٢) يعني قالت رضي الله عنها وهي تروي خبرَ لقاء المسلمين في الحبشة مع النجاشي حين خرج عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة - وهما على الشرك - في طلب المسلمين وإعادتهم إلى مكة.
والخبر مشهور في السّير والتواريخ. ينظر مثلاً السيرة النبوية لابن كثير ٢: ١٧.

فلما جاءَ النجاشيّ، وقد دَعا أساقفته.

فنَشروا مَصاحفهم حولَه، ثم سألهم، فقالَ للجَماعة التي نَوّر الله قلوبها، وشرَح لحكمِه صُدورها: ما هذا الدِّين الذي فارقتم عليه قومكم ولم تدخلوا في دِيني ولا في دينِ آخرَ؟

قالت رضي الله عنها: فأجابه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: [٢٢٢/ب] أيها الملك إنا كنا قومَ جاهليّة نعبدُ الأصنامَ، ونأكلُ المَيتةَ، ونأتي الفواحشَ، ونقطعُ الأرحامَ، ونُسيءُ الجوار[١]، ويأكلُ القويُّ منّا الضعيف وكنّا علىٰ ذلك حتىٰ بعثَ الله عزّ وجلّ لنا رسولاً منا نعرفُ نَسبه وحَسبه، وصِدقه وأَمانته وعفافه، فدَعانا إلى الله تعالى لنوحّدَهُ، ونعبدَهُ. ونخلعَ ما كنّا نعبدُ نحن وآباؤنا من دونه: من الحجارةِ والأوثان. وأَمرنا بصدقِ الحديثِ، وأداءِ الأمانةِ، وصلةِ الرّحم، وحسنِ الجوارِ، والكفِّ عن المَحارمِ والدِّماء؛ ونهانا عن الفواحش وقولِ الزُّور، وأكلِ مالِ اليتيم، وقَذف المُحْصَنات. وأَمرنا أن نعبد الله ولا نشركَ به شيئاً، فأجبناه إلَى ذلك. وحَرّمْنا ما حرم الله علينا، وأحلَلْنا ما أحلّ لنا، فعَدا علينا قومُنا فعذَّبونا وفَتنونا عن ديننا ليردُّونا إلىٰ عبادةِ الأَوثان، وأنْ نستحلّ ما كُنّا نستحلُّ من الخَبائث، فلما قَهرونا وظَلمونا، وحالُوا بيننا وبينَ ديننا، خَرجنا إلى بلادك، فاخْتَرْناك على مَنْ سواك، ورَغِبْنا في جِوَارِكَ ورَجَوْنا ألاّ نُظلم عندك!

فقال النّجاشي: وهل عندكَ شيءٌ ممّا جاء به، فاقْرَأه عليّ، فقَرأ عليه صَدراً من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم ١٩/١].

---

(١) في أ: نسبي الجواري. وفي ب: نسيء بالجوار. والمثبت من ج.

فبكىٰ النجاشيّ حتىٰ أخضلَ لِحيته[1]، وبكتْ أساقِفَتُه حتىٰ أَخْضَلُوا مصَاحِفَهُم، وقال: هٰذا هو الدّين الذي جاء به مُوسىٰ - ﷺ - فأعزّ الله بهِ تعالى حكمه، وأظهر سُبحانه به دينه واختار سمته، وعَزّز صَحْبَهُ وجُنده.

قلبي يحدّثني بأنّ أحِبّتي لهمُ المُلوكُ السّادَةُ الخُلَفاءُ[2]
بجاهِهِمْ عَزّ الوجودُ وعِزُّهم عَزّتْ به في مَجْدِها العَلْيَاءُ
فالخلقُ موتى كالهوام بوهمهمْ وهُمُ بروحِ عُلومهمْ أحيَاءُ!

فصل

من آداب من علم أنّ نبينا - ﷺ - صاحبُ السلطان، الحاكم بالقُرآن أن يتأدّب مع أحكامِه، ويقفَ عند إبرامِه، ويخالفَ أهلَ النّفاق في أخلاقِهم، ويُوافق أهل الإيمان في استِسلامهم وانقيادهم.

فإذا حكمَ عليكَ حاكمٌ عَدْلٌ بحكم رسولِ الله - ﷺ - فارْضَ بقضاءِ الله، وسلّمْ أمرَكَ لله، واخْرُج عن مُرادك إلى مُرادِ الله، لأنّك إذا فعلتَ ذٰلك كمل إيمانُك، وتمّ إيقانك، وكنتَ من المُستسلمين؛ فإنّ الله العظيم علمك آداب التسليم تعليماً، فقال في كتابه الكريم: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء ٤/٦٥]؛ [٢٢٣/أ].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا

---

(١) أخضل لحيته: بللّها (بدمعه).

(٢) من بحر الكامل واللام في «لهم» للتوكيد، أي: أحبّتي هم الملوك ....

كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور ٢٤/٤٨ ـ ٥١].

وإنما يتحقّقُ هٰذا التّسليمُ لِمَنْ علمَ أنّ القَدر لا يَجري علىٰ تقديره، وأنّ واردات الرُّبوبيّة لا تبنىٰ[1] علىٰ تدبيره، بل أكثرُ الحوادثِ والوَقائع تكونُ علىٰ غير تدبيرك، وأقلّ الحوادث تكون علىٰ وفق إرادتك، ولذا قيل: العاقل لا يبني بناءً علىٰ غير قرار، ولا يعدّ إقامة في غير دار، ومتىٰ يتمّ بنيانُك والأقدار تهدمه، وعن التّمام تَصُدُّه؟

متىٰ يبلغُ البنيانُ يوماً تَمامَهُ ... إذا كنتَ تبنيه وغيرُكَ يهدمُ؟![2]

فسلّمْ أمركَ يا مسكين! لعلّكَ يومَ اللقاء لا تندم. وارْضَ بما حكَم به عليكَ صاحبُ السّلطان، ولا تجد في نفسك حَرجاً مما قضىٰ به المعصومُ علَيك ليثبتَ لكَ الإيمان.

فإن ادّعيت المحبّةَ لحبيبِ اللهِ فكنْ منقاداً إلى أحكامِه، ناقضاً لإبرامكَ لإبرامِه، فإنّ حكمه هو البُرهان[3] المُبين، واسمه عند مولانا المطاع الأَمين صلى الله عليه وسلم وشرّف وكرّم ومجّد وعَظّم

هذا هو الحقُّ يُدنينا فنقتربُ ... ندنُو وما دونَهُ سِتْرٌ ولا حُجبُ[4]

دَعْ ما عداهُ وعُذْ منهُ إليهِ بهِ ... وذُدْ بهِ عنهُ إجلالاً كما يجبُ

جرّدْ وجودَكَ عن تلبيسِ ملبسهِ ... فاذهبْ مذاهبَ قوم للعُلاَ ذهبوا

---

(١) في ب: لا تبتني.

(٢) من بحر الطويل.

(٣) في ب: هو السلطان.

(٤) من بحر البسيط.

واخلعْ ثيابك إن نوديت منهُ بهِ   يعلُو وُجودُك فيه هكذا الأدبُ[1]

هذه سيرةُ الصّالحين، وطريقة المحبين رضي الله عنهم أجمعين، وصلىٰ الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وإمام المتّقين.

وهنا حكاياتٌ للصالحين، تدلك علىٰ طريق السالكين، لولا الخروج عن المقصِد لذكرناها، فلذٰلك حذفناها. نفَعنا الله بمحبّتهم، وأعادَ علينا من بركتهم، وأماتنا علىٰ ملّتهم وحَشرنا في زمرتهم. وصلىٰ الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، وزادَه مولانا شرفاً وتَعظيماً.

---

(١) في ب: وجودك قرباً هكذا.

- وقوله: (يعلو) هكذا في النّسخ. والفعل جواب الطلب لاخلعْ

باب

في معنى اسمه

صاحب البُرْهَان[1]

صَلَّى الله عليه وسَلَّم وشَرَّف وكَرَّم

صاحب البُرهان: اسمٌ من أسمائه عليه أفضل الصلاة والسلام، ومعنىٰ صاحب البرهان في حقّه ـ ﷺ ـ أنّه صاحبُ الأدلّةِ [٢٢٣/ب] القاطعةِ، والبياناتِ السّاطعة؛ الدالة على صحة نَبوءته، الشاهدة على صدقه وأمانته؛ وهي المُعجزاتُ الّتي أعْطَاها له مَوْلاه، وأيّده بها في قوله وفِعله، وأظهرَ منزلتَهُ علىٰ مَنْ سواه.

فكم لنبيّنا من خَوارقِ العاداتِ، وكمْ لشفيعنا من غرائبِ المُعجزات، هَدى بها الله مِن خلقه مَن اختاره، وعلم قدرها وحقّقها.

فعرَف أنّ الله تعالى خصّه بها، وإلى مناره، فلا تَقُلْ هٰذا قريب من نَسبِه، ولا غير ناءٍ من مسكَنهِ بل العنايةُ الربانيّة تصلُ إلى كلّ مَن كانَ عندَ الله قَرِيباً وإن بَعُدَت دارُه، وكان مشغُولاً بحوائجه، مُعْرِضاً عن منافعه.

فربّما ساقت له السّعادةُ مشاهدةَ الكَرامة بخرق العادة.

---

(١) صاحب البرهان في: الشفا ١: ٣٢٠ وسبل الهدى والرشاد ١: ٥٩٠.

قال أبو هريرة رضي الله عنه[1]: إن رجلاً من العرب كان شريفاً ذا مال، عَرضتْ لهُ حَوائجُ، فقال لِوَلدِهِ: اذْهَبُوا أنتم إلى مكانِ كذا فاقْضُوا لي حوائجي.

فقالوا: لقد شَغلت الحيّ بما فيه، وشَغلتنا عن رَعْيِ غَنمك، فمن يرعاها؟.

فقال: أنا أَرعاها يومي هذا.

قال: فخرج الرجلُ بغنمه يرعاها، حتىٰ إذا كان معَها في فَلاةٍ من الأَرض إذ بذئبٍ قد هَجم على الغنم، فصاح عليه الرّجل؛ فخرجَ الذّئبُ من الغنم، ثم هَجم عليها من جانبٍ آخر فصاحَ عليه الرّجل فوقفَ الذئب ينظرُ إليه.

فقال الرجل: ما رأيتُ يوماً أعجبَ من هذا، إنّ الذئب يهجمُ عَليّ ولا يَهابُني، ولا يخافُ منّي، فإذا بالذئب قد نطق بقدرةِ الله، وتكلم بكلامٍ عربيٍّ مُبين فقال: أنت والله أعْجَبُ منّي! إنك واقف على غنمك، وتركتَ نبياً: لم يبعثِ الله نبياً قطُّ أعظمَ منه عنده، وهو يقاتلُ أعداءَ الله قد فُتحت له أبوابُ الجنة، وأشرف أزواجُها على أصحابهِ ينظرون إلى قتالهم وفُتحت أبوابُ السّماء، والملائكةُ يَنظرون إليهم من كل باب، وما بينَك وبينه إلا هٰذا الشِّعْب وتصيرُ في جنودِ الله وفي حِزبه، وتكونُ مع وَلِيّه جبريل عليه السلام.

فقال العربي: ما رأيت أعجب من هذا!

قال الذئب: الأَمْرُ كما وصفت لك!

---

(١) ورد الخبر مطوّلاً في دلائل البيهقي ٢٥٠ـ ٢٥٤، ومختصراً في الخصائص الكبرى ١: ٢٠٢. وتنظر البداية والنهاية ٦: ١٤٣ـ ١٤٦.

فقال العربي: مَنْ لِغَنمي هٰذه؟

قال الذئب: أنا أرعاها حتىٰ ترجع إن شاء الله، قال: فأسْلَم الرجل غنَمهُ إليه، ومضىٰ إلى حَيّه يُنادي: الفَرَس! الفَرَس!، فلم يصل إلى الحيّ إلاّ والفَرس مُسْرَجٌ مُلْجَمٌ، فاستقبلَهُ عِيالُه وخَدمُه فقالوا له: ما الّذي دهاك؟

قال: لا تَسألوني عن شيء، إنْ أنَا بقيتُ، أخبركم بالخَبر. فمَضىٰ راكباً حتىٰ أشرفَ علىٰ النبيّ - ﷺ - [٢٢٤/أ] وهو في بعض مَغازيه، فنظر إلىٰ اللّمع والبريق والقِتال، فأقبلَ إلىٰ النبيّ - ﷺ - وهو يقول: أشهد أنْ لا إلّهَ إلاّ الله، وأنّكَ رسولُ الله، ثم أخبره بالخبر ثم دخَل القتال فكان له خبرٌ عظيم[١].

فلما فُتح الله علىٰ نبيه - ﷺ - جاءَه وقَصّ عليه خبره، فقال له النبي - ﷺ - عُدْ إلىٰ غنمك فإنّك ستجدُها بِوَفْرِهَا.

فعاد العربيُ إلى غنَمه، فوجدَها كما كانت، والذئبُ يدورُ حولها، قال فشكرَ الذئبَ وأخذَ شاةً فذبحها له.

قال الحسَن رحمه الله أدركْنا ولداً يُسَمّى بابن مُكَلّم الذّئب[٢]،

---

(١) في أ: خير كثير أو عظيم.

(٢) مكلّم الذئب المشهور هو رافع بن عميرة (أو ابن عمرو) الطائي السُّنبسي ويقال له رافع الخير. غزا مع عمرو بن العاص في ذات السلاسل، واختلف هل له صحبة أم كان من التابعين، وله شعر ينسب إليه في أمر الذئب أوله:

رعيتُ الضأن أحميها بكلبي ... من اللصّ الخفيّ وكلّ ذيبِ

وشعره وخبره ومصادر ترجمته في الحماسة المغربية ١: ٩٣ـ ٩٥.

ونقل الدميري (حياة الحيوان ١: ٤٤١) قال ابن عبد البرّ القرطبي وغيره: كلّم الذئب من الصحابة ثلاثة: رافع بن عميرة، وسلمة بن الأكوع، وأُهبان بن أوس السلميّ رضي الله عنهم.

فكان كلام هٰذا الذئب معجزة وبُرهاناً ودليلاً صادقاً وبياناً، يستدلّ بِذٰلك علىٰ البُرهان علىٰ أن نبوءة رسول الله ـ ﷺ ـ حقٌّ مشاهَدٌ كالعيان. وكذا انشقاق القَمر، وتسليم الحجر، وحنين الجِذع، ونبع الماء من بين أصابعه وتَسبيح الحصىٰ في كفّه العظيمة، ومجيء الأشجار إلىٰ دعوته.

روي ذلك من طرقٍ كثيرةٍ مرويّة. ولو لم يكن منها إلا قضيّة ركانة[1] لمّا صرعه، وكان أقوى أهلِ زمانهِ، فقهَره عليه الصلاة والسلام بِقُدرة الله، وأَراه في نفسه مُعجزة الله، ثم دعاه ـ ﷺ ـ إلىٰ الإسلام فقال: لا! حَتّى تريني آيةً وبُرْهاناً علىٰ صدقك!

فقال له نبي الله: «الله شهيدٌ عليك إن أنا دعوتُ ربّي فأجابني بما يدلّ علىٰ صِدقي لَتجيبَنّي إلىٰ ما دَعَوْتُك إليه؟». قال: نعم، وكانت شجرةٌ ذاتُ فروع قريبةً منه، فأشار إليها عليه الصلاة والسلام وقال: «أقبلي بإذن الله»، فانشقّت باثنين، وأَقْبلت علىٰ نِصْفَيْ سَاقها وقُضبانها، وفُروعها حتّىٰ صارت بين يَدي رسول الله ـ ﷺ ـ وركانة.

فقال له: لقد أَريتَني برهاناً عظيماً؛ فَمُرْها فلترجعْ، فقال له النبيُّ عليه الصلاة والسلام: «الله شهيدٌ عليكَ إن أمرتُها فرجعَتْ بقضبانِها وفُروعِها حتّىٰ التأمت بشقّيها لتجيبنّي إلىٰ ما دعوتك؟».

فقال: نعم! فأَمرها ـ ﷺ ـ فَرجعَت مثل ما كانت.

فتأمّلْ ـ أيُّها المُحِبُّ ـ زَادني الله وإيّاكَ حُبّاً في هذا النبيّ العَزيز القَدْر على الله، الكريم عند الله ـ ما أعظَمَ هٰذه المعجزة، وما أقوى بُرهانها، وما أَضخمها وأَسدَّ بيانها في انشقاق هذا العُود بِنصفين علىٰ ساقه بلا قدمين، ثم التآمِهِ ورجُوعِهُ كما كان؛ كلّ ذلك بقُدرة خالقِ

---

(١) الشفا ١ : ٤٢٦، رواه عن ابن إسحاق. وذكره أبو نعيم والبيهقي في الدلائل.

الأكوان [٢٢٤/ب] المصدّق لنبيّنا، والمبيّن لرسالته بأحسنِ تَصديق، وأتم بَيان[١].

صلى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

كـم رَدّ لله نـفـسـاً عـنـهُ شـاردةً   بـمـعـجزاتٍ غدتْ لـلـخَـلـقِ واردةً[٢]

حتىٰ أقرتْ، وكـانـت قـبـلُ جـاحـدةً   جـاءت لـدعـوتـهِ الأشـجـارُ سـاجـدةً

تـمـشِـي إلـيـهِ عـلـىٰ سـاقٍ بـلا قَـدمِ

فـويـحَ نـفـسٍ رأتْ هـذا وعـنـهُ أبَـتْ   والـشّـجـر لـمّا دعاها نـحـوَهُ اقْـتَـربـتْ

وقال عُودي فـعـادَتْ مثلَ مَا ذهـبـتْ   كـأنّـمـا سـطّـرت سَـطْـراً لِـمَـا كـتَـبـتْ

فـرُوعُـهـا مـن بـديـعِ الـخَـطِ فـي الـلّـقـمِ

فصل

هذا الاسمُ الكريم، والوصفُ العظيم، يجبُ علىٰ كل محبٍّ في جَنابِ صاحبِه، وعلىٰ كلّ شائق إلىٰ لقائِه، أن يمتّعَ قلبَهُ ببدائعِ براهينهِ الدالّةِ علىٰ صدقِه، ويسردَ من مُعجزاتِه ما يُوصِلهُ بعلمه، ويعتقد فيه بقلبِهِ أنّه الرسولُ الذي هو عَيْنُ غيبِ الله، والكنزُ الأعظمُ المُشرقُ بأنوارِ الله، ونقطةُ الخطّ البديعِ الأقوم في خَلق الله.

فالنظرُ في خوارقِ عاداتِه يقطعُ به بأنّه معدِنُ الأسرار، وكنزُ الغِنىٰ لِمُتوسّمِ الأنوار، بما فَتح مَولانا جلّ جلاله علىٰ مَنْ والاه، وعادىٰ مَنْ عاداه ببعضِ أنوارِه، فيفيضُ عليه من بحارِ أزهارِه، فينالُ من بركتِه الكراماتِ، ويصحَبُه في استقامَتِهِ انخراقُ العادات.

---

(١) في ب: وأتمّ تبيان.

(٢) تخميس مبني على بيتين للبوصيري في البُردة (الديوان: ٢٤٣).

كان العلاء بن الحَضْرَميّ رضي الله عنه من كبارِ أصحابِ البُرهان، ومن أحبابِ حبيبِ الرحمن، ممّا أكرمه الله تعالى بمحبّته، وخَرق له العادة لتمامِ حُسن سيرتهِ، وقد غزا معه جماعةٌ من الصَّحابة رضي الله عنهم فحضرت الصَّلاةُ، فلم يجدوا ماءً للوضوء، فقام فصلىٰ ركعتين ثم قال: [1]

اللهمّ إنّا عبيدُكَ وفي سبيلكَ نُقاتِلُ عدوّك، اللّهُمّ فاسْقِنا غَيْثاً نَتوضّأ به، ونشربُ منه، فإذا توضّأنا وتزوّدْنا لم يكنْ فيهِ نصيبٌ لغيرنا.

فَسِرْنا، فإذا نحنُ بماءٍ حينَ أقلعتْ عَنهُ السَّماء[2]، فتوضّأنا به، وشربنا منه، وتزودنا.

قال الرّاوي: وملأتُ إداوَتي، وتركتُها مكانَها حتىٰ أنظرَ: أَستجيبُ له أم لا. فسرْنا قليلاً ثم قلتُ لأصحابي: نسيتُ إداوتي، فجئتُ إلى ذلك المكان وكأنّه لم يصبه ماء قط!

ثم سِرنا حتىٰ انتهينا إلى دارين والبحر بيننا وبينهم فقال: يا عليم يا حكيم، يا عليّ يا عظيم! إنا عبيدُك وفي سبيلك، نقاتلُ عدوّك [٢٢٥/أ] فاجعَلْ لنا إليهم سبيلاً. فاقتحمنا البحر فَخُضْناه ما يبلغُ لفودنا، فخَرجنا إليهم، فلمّا رجعَ أخذه وجَعُ البطنِ فَمات، فطلبَ أصحابه ماءً ليغسِلُوهُ به فمَا وَجدُوهُ، فلفّوه في ثيابه ودفنوه.

ثم سارُوا ووجدوا ماءً فقالوا: لو رَجعنا فاستخرجناه من قبرِه لنغسلَهُ. فَرجَعُوا فطلَبُوه فلم يجدوه!

---

(١) البداية والنهاية ٦: ١٥٤ـ ١٥٥؛ ودلائل البيهقي ٦: ٥٢ وأشير إليه في سير أعلام النبلاء ١: ٢٦٥.

(٢) أي بماء مطر. كانت السماء قد جادت به قبل وقت قليل.

فقال رجلٌ من القوم: إنّي سمعته عند مَوته يقول: يا عليّ يا عظيم، يا حكيم يا عليم أَخْفِ عنهم موتي، ولا تُطلع علىٰ عورتي أحداً منهم رضي الله عنهم.

لما صدّق الله، وصدّق صدقه، حقّق له مولاه مَحَبّته، وأَظهر بَركته.

قال عمر بن ثابت: دخلت في أُذن رجلٍ من أهلِ البصرةِ حصاةٌ[1] فعالَجها الأطباءُ فلم يقدرُوا عليها حتىٰ وصلت إلى دماغه فأَسهرتْ ليله، ونغّصت عيشه. فإذا رجلٌ من أصحاب الحسن، فشكا ذٰلك إليه. فقال له: ويحكَ إن كان شيءٌ ينفعُكَ الله به؛ فَدعْوَةُ العَلاءِ بنِ الحضرميّ الّتي دَعا الله بها في البحرِ حتىٰ خاضه.

قال: وَما هي يرحمك الله؟

قال[2]: «يا عليّ يا عظيم، يا حكيم يا عليم».

فدَعا بِها من صدقِ قلبٍ ونيّةٍ واعتقاد، قال: فما بَرِحُوا حتىٰ خَرجت من أُذنه لها طنين، حتىٰ صكّت الحائط.

فتأمّلْ ـ أيها المحبّ ـ أينَ تُوصلك المحبة في جنابه، والتعظيم

(١) في الأصول: حصاة. وفي اللّغة: الحظاه (بالظاء) القملة.

(٢) في الدعاء المأثور وآدابه لأبي بكر الطرطوشي ٨٢ أنه: بُعث العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه إلى البحرين، فسلكوا مفازة وعطشوا عطشاً شديداً حتى خشوا الهلاك، فنزل، فصلى ركعتين، ثم قال: يا حليم يا عليم يا عليّ يا عظيم اسقنا. قال راوي الخبر: فإذا نحن بسحابة كأنها جناح طائر تعقعت علينا، ومُطرنا حتى ملأنا كلّ إناء وسقاء.

والعلاء بن الحضرمي صحابي جليل من رجال الفتوح ولاه النبي ﷺ البحرين. ويقال إنه أول مسلم ركب البحر للغزو. توفي سنة ٢١هـ.

لمقامه. وكذلك محبّة أصحابه، وآله رضي الله عنهم وأرضاهم وحشَرنا معهم، وأكْرَمَ مَثواهم.

وقارهُمُ حقٌّ على كل مسلمِ وحُبُّهم فرضٌ وبغضهُم كفرُ[1]
فإنْ كانَ في الدّارين فَخْرٌ لعالمٍ لَعمركَ في الدّارَيْنِ هذا هو الفخرُ

كان أَبو هريرة رضي الله عنه يشوّقُ إلى مُعجزات صاحبِ البُرهان، ويكثر من محاسن صاحب السّلطان.

قال ذات يوم: لئن كان الله أكرم عيسىٰ بأن كان يبرىءُ الأكمهَ والأبرصَ، ويُحيي الموتىٰ بإذن الله، فلقد شاهدنا لنبيّنا وحبيبنا ـ ﷺ ـ ما هو أعظم من ذلك. كنا في خيبر[2] واشتدّ الأمرُ علىٰ المُسلمين، وكنّا في شدّةٍ وجهاد، وكان أشدّ القوم بأساً علىٰ الكافرين وأقواهم جَلداً وجهاداً عن المؤمنين، غيثُ المَواهبِ وليثُ الكتائب: أبو الحسن عليّ بن أبي طالب، وكان المسلمون قد تخوّفوا عليه لِمَا رَأوا من إقدامِه علىٰ الأبطالِ ومن مُكافَحةِ الرجال.

فلما فَتح الله تعالى علىٰ المسلمين فإذا بأربعة أَتوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وقد حملوا علياً بين أيديهم [٢٢٥/ب] قد علاهُ مِن قرنهِ إلى قدمِه، والجراحُ قد عَمّت جسده فوضعوه بين يدي رسول الله ـ ﷺ ـ..

فَقُمنا ننظر كيفَ أمرُه، فكنتُ ممّن يزاحمُ في القوم. فإذا

---

(١) من بحر الطويل.

(٢) كانت غزوة خيبر في سنة سبع من الهجرة. وقد ورد فيها في حق علي رضي الله عنه شفاء رسول الله ﷺ ما أصابه من رَمدٍ «فأتى فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأنه لم يكن به وجع».

ولم أجد هذا الخبر المروي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

برسول الله - ﷺ - يضعُ يده على جراحه. فوالله ما رفع يده عنها حتّىٰ لم يَبْقَ لها أثر.

فقام عليّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه وما به قُلْبَةٌ[1]. قال أبو هريرة: فغلبني البكاءُ ممّا رأيت، وفاضت عيناي فجلست أبكي، فمرّ بي رسول الله - ﷺ - فقال: «يا أبا هُرَيرة ما يُبكيك؟».

فقلت: يا رسول الله! رأيت منك شيئاً ما رأيتُه قطّ. قال: يا أبا هريرة! أَما علمتَ قَدْرَ علي بن أبي طالب عند الله؟ يا أبا هريرة: إنّ علي بن أبي طالب إذا أخذَ في القِتال في سبيل الله انفتحتْ له أبوابُ السّماء، ونظرت إليه الملائكة، وأشرفَ عليه الحُور العين، وباهى الله تعالى به ملائكته.

فابنُ عَمّ النبيّ أحسنُ ثَناهُ ... وأبو السَّيِّدَيْنِ رَيْحانَتَيْهِ[2]
لعنَ الله من يَذمُّ عليّاً ... ويَرى سَيفُ بأسِه وَدَجَيْهِ[3]
أنا ممّنْ يؤذي عليّاً بريءٌ ... نصب الله بالرّدىٰ جانِبَيْهِ
أَيُّ قُربىٰ تفوقُ قربى عليٍّ ... هاشميّ الجدودِ مِنْ أبوَيْهِ
زوجُ خيرِ النّساء بنتاً وأُمّاً ... والّذي بطنُها وِعَا وَلَدَيْهِ
أمّها أوّلُ النساءِ ابْتداراً ... لنكاحِ الرسولِ حرصاً عَلَيْهِ
أوليسَ النبيُّ كان كثيراً ... حاملاً في صلاتِه سِبْطَيْهِ
فإذا قام راكعاً من سجودٍ ... كان يُقلُهما علىٰ كتفيهِ[4]

---

(١) قُلبة: حُمرة.

(٢) من بحر الخفيف.

(٣) الوَدج: عرق الأخدع الذي يقطعه الذابح فلا يَبْقى معه حياة.

(٤) الأصل أنه يقال: يقلهما. وفكّ الإدغام.

هكذا يُمدَحُ الإمامُ عَلِيٌّ ... هكذا يحسنُ الثّناءُ عليْهِ
ليثُ حربٍ وطال ما كان يَجْرِي ... دمُ أعدائهِ على ساعدَيْهِ
ربّ كربٍ عن صَدْرِ أحمدَ جَلّى ... يوم أروىٰ من الدماء لديه[1]
إنّه كان في حُنينٍ وبدر ... حاملاً فوقَ كفّهِ رايتَيْهِ
يا رسولَ الإلٰهِ دعوى غريب ... بانَ عن أهله وعن طفلَتَيْهِ
فسل الله للغريبِ رجُوعاً ... فعَسىٰ تنجلِيْ همومٌ لدَيْهِ
وعلىٰ المُصطفىٰ صلاةُ الإلٰهِ ... ما بكىٰ طائرٌ علىٰ أيكَتَيْهِ

فقولوا بلسانٍ واحدٍ ـ أيها المحبّون ـ وابْتَهِلُوا إلىٰ اللهِ [٢٢٦/أ] بالدّعاءِ ـ أيّها المُذنبون ـ يا عليّ يا عظيم، يا حكيمُ يا عليمُ! إنّا عبيدُك وجُندٌ من جنودك متعلّقون بجناب نبيك، متشفّعون[2] إليكَ بحبيبك نبيّ الرّحمة، وشفيعِ الأُمّة، اللهمّ بِحرمتهِ عندكَ وبقَدْرِه لديك؛ إنّا نسألكَ الفوزَ عند القضاء، وَمنزل الشهداء[3]، وعيشَ السّعداء، والنصرَ علىٰ الأعداء، ومرافقةَ الأنبياء.

يا أرحم الرّاحمين: عبيدُك الضُّعفاء لا يعبُدون سواك، ولا يطلبونَ إذا مَسّهم الضُّرُّ إلا إياك، فَأمِّنْ روعَتنا، وأجِبْ دعوتنا، واقْضِ حاجَتنا، يا أكرمَ الأكرمين، يا رب العالمين.

وصلِّ اللّهم على سيدنا محمد خاتم النبيّين، وإمام المُرسلين، وارْضَ عن آلهِ وصحبهِ أجمعين. والحمدُ للهِ رَبِّ العَالمين.

---

(١) يقال روَى، وأروى.
(٢) في ب: مستشفعون.
(٣) في ب و: ج: ونزل الشهداء.

باب

في معنىٰ اسمه:

راكب البُراق(1)

صلّىٰ الله عَليه وسَلّم وشَرّف وكَرّم

راكبُ البُرَاق: اسمٌ من أسمائه عليه أفضل الصلاة والسلام.

والبُرَاقُ[2]: هي الدّابّة التي ركبها نبيُّنا - ﷺ - ليلةَ الإسراء بهِ، والمطيّةُ التي أركبها إياه جبريلُ عليه السّلام عن إذن رَبّه؛ ووصَل بها إلىٰ الملأ الأعلىٰ. وقد وَصفها نبيُّنا - ﷺ - في بعض الروايات الغريبة عند من اعتنى بالأخبار العجيبة؛ الذي لا يزيغ له بَصر، وحَقّق أمرها مشاهدةً بعد خبرة من خَبر.

قال - ﷺ -[3]: رأيت جبريل عليه السلام ومعه دابّة دون البغل وفوقَ الحمار، وجْهُها وجه إنسان، وخُفّها خفُّ بَعير، وذنبها ذنب ثور، وعُرْفُها عرف فرس.

فلما دَنا مني جبريل عليه السلام نفرت ونفشت عُرفها، فمسَحها

---

(1) راكب البراق في: الشفا ١: ٣٢٠. وسُبل الهُدى والرّشاد ١: ٥٧٢، والرّياض الأنيقة: ١٦١.

(2) ورد وصف البُراق في أحاديث الإسراء والمعراج. ينظر مثلاً تفسير القرطبي ١٠: ٢٠٥-٢٠٦.

(3) مُسند الإمام أحمد ٦: ١٢٠ ومجمع الزوائد ٨: ٢٥٧ ومستدرك الحاكم ٤: ٦٠٦.

جبريل عليه السلام وقال لها: يا برقة! لا تنفري من محمّد ـ ﷺ ـ، فوالله ما ركبكَ ملك مُقَرَّبٌ، ولا نبيٌّ مُرْسَلٌ أفضلَ من محمّدٍ ـ ﷺ ـ ولا أكرمَ علىٰ اللهِ منه.

فقالت: قد علمتُ أنّه كذلك، وأنّه صاحبُ الشّفاعة، فأحبُّ أن أكونَ من شفاعته عليه الصلاة والسلام.

فمن صفتها أنها تضعُ حافرها حيثُ انتهىٰ طَرْفُها.

وهٰذا البراق الكريم الذي ركبه صاحبُ الخُلق العظيم، كنت أعتقدُ أنّها من[1] الجنة، وأظن أنّي وقفتُ عليه حتىٰ رأيت في كتاب ابن أبي جَمرة[2] رحمه الله أنّ أصله من حيوان الأَرض، وذٰلك لأنه أقوىٰ في الخارقِ للعَادة، وأشدّ في إظهار المُعجزة في خروجه علىٰ أبناءِ جِنسه في شدّة الحركة [٢٢٦/ب] التي قطع بها من المسافات فأخرَج به عن العادات، وظهر ما خصّ الله به نبيّنا من صفاتِ الكمال، وثبتَ ما أعطاهُ رَبُّه من شرف الخصال. فكأن قائلاً يقول:

كما كانت هٰذه البرقةُ من حيوان الأرض، وقد خرجت بقوّتها، واختصّتْ بصفتها، وعلت علىٰ أبناءِ جنسها بعناية خالقها وتخصيص بارئها، فكيفَ يُنكر في الوجود تخصيصُ النبيّ العربيّ الهاشميِ، بأنّ جعل حبيب الإلٰه الملك المعبود فخصّه سبحانه بالعناية من بَين العالمين،

---

(١) في ب: أن أصلها من الجنة.

(٢) عُرف اثنان من علماء الأندلس بابن أبي جمرة. أحدهما أبو محمد عبد الله بن سعد الأزدي الأندلسي (ت ٦٩٥ هـ) من العلماء بالحديث وله جمع النهاية: اختصر فيه البخاري ويعرف بمختصر ابن أبي جمرة، وبهجة النفوس، والمرائي الحسان. والآخر أبو بكر محمد بن أحمد الأموي بالولاء (٥١٨ـ ٥٥٩ هـ) فقيه قاض. من كتبه: نتائج الأبكار ومناهج النظار في معاني الآثار، وإقليد التقليد، وغيرها.
والمقصود الأوّل.

وحَباهُ أن جَعله فاتحَ الأمر العظيم، وخاتم الأنبياء أجمعين، وصيره رُوحَ أفلاكِ العُلا ومُديرها، ومحرّك الجِرْم القَصِيّ ومُنيرها. فلا تعجبوا من قدرة الله، ولا تحكمُوا بالعقول علىٰ الله، فإنّه العالم حيث يجعل رسالاته، الحاكم بين خَلقِه ببديع آياته.

وهنا سرٌّ لطيف في كون صفة هذه البرقة كما ذكرنا عن نبيّنا عليه الصلاة والسلام وأنّ وجهها وجهُ إنسان، وخفّها خفُّ بَعِير، وذنبها ذَنب ثور، وعُرفها عُرف فرس، وأنها فوق الحِمار ودونَ البغل، يظهر في ذٰلك أسرار اعتناءٍ بالنبيّ المُختار.

منها ـ أنّ الله تعالىٰ خلَق في هٰذه الدار الحيوانَ ونَوّعه في أنواعٍ من فَرس وبعيرٍ وإنسان، وغير ذلك مما جرت عادة الناس في الحَمْلِ عليه، وقطعهم المسافة به، وانتفاعهم لديه. فكأن الله تعالىٰ خلق هذه الصفات في هذه البرقة إظهاراً لكمال قُدرته وبلاغة حكمته، وأنّ هٰذه الحيوانات علىٰ قَدْرها وقوتها لو اجتمعت قُواها، وانتظمت[1] قدرها لمّا وصلت إلىٰ مُنتهاها. بل إنّما قوّىٰ قواها وحَصّن صُورتها ومَعناها، مَن رَفع سماها، وأعلىٰ سمكها بغير عمدٍ تراها.

ففيه إشارةٌ إلىٰ تَوحيدِ اللهِ، وتَعظيم كمالِ قُدرة الله.

وفيه سِرٌّ آخَرُ أنّ نبيّنا ـ ﷺ ـ لمّا كان نُوراً بين يدي الله تعالىٰ عُرض ذلك النور علىٰ جميع الحيوانات من أهل الأرضين والسموات، فلم ينكر ذاته أحد ولا صفته.

فلما جاء إبّان الإسراء به بُشّرت بذلك الخَلائق، ونُودِيَ في المَغارب والمَشارق، فاشتاقت الحيوان إلىٰ جمال حبيب الله، وتاقت

---

(١) كلمة (وانتظمت) من: أ.

الأرْواحُ إلىٰ مَعدنِ أسرارِ الله. فلمّا تَزاحمت علىٰ حَملِ معدنِ الأسرار، ومشرقِ الأنوار، حملته البرقةُ الجامعةُ لِمُعظَمِ شتاتِ صفاتِ الحَيوان، ووصلت إليها العنايةُ بمشاهدتها جمال سَيّد ولد عدنان.

وظاهر هٰذا الاسم الكريم [٢٢٧/أ] لصاحب الخُلقِ العَظيم أنّ هٰذا البُراق لم يَحمل أحداً من الأنبياء غيره، ولا علا بشرٌ قطُّ ظهره. وهو اللائقُ بالتعظيم والإجلال لنبيّنا من رَبّنا الكبير المتعال.

إلاّ أن قولَ جِبريل عليه السّلام: فَما ركبكَ أحدٌ أكرمُ علىٰ الله منه، يدلُّ علىٰ أنّه قد ركبه غيرُ المصطفىٰ، وعَلا علىٰ ظهرهِ مَن هو من أهل الصّفا. وقد ورَد ذٰلك في بعض الأَخبار، ورأيناهُ[١] في بعضِ الآثار. فيا لَها من برقةٍ ما أبركها، ويا لها من مطيّةٍ ما أسعدها؛ لمّا علا عليها سيّدُ الكونين، وأكرمُ من يمشي علىٰ القَدمين؛ فعمّت بركتُه عليها إلىٰ أن صارتْ وصلةً لبلوغهِ إلىٰ أنْ كانَ قابَ قَوْسَين، وتبرّكت بنظرهِ ملائكةُ المَشرقين والمغربين.

كلّ القلوب لطيبِ وصلكَ تطلبُ ولحسنِ وجهك كل عَين ترغبُ[٢]

وحديث كلّ الكونِ عنكَ معيّنٌ فلكلّ سمعٍ منكَ قولٌ مطربُ[٣]

قيل: إنّها قالت: إنّه ركبني إبراهيم عليه السلام، وبشّرني أنه سيركبني صاحبُ الشّفاعة. فقالَ لها جبريلُ عليه السلام: هذا هو صاحب الشفاعة والفضيلة والدّرجة الرّفيعة، وخاتم الأنبياء الّذي تقوم عليه الساعة.

---

(١) في ب: ورويناه.
(٢) في ب و: ج: ترقب.
(٣) من بحر الكامل.

ولـكـلّ مـعـنـىً مـنـك فَـهـمٌ ذائـقٌ ولـكـلّ ذَوقٍ مـنـك شـربٌ طـيّـبُ[1]
راحـتْ بـكَ الأرواحُ فـيـك وفـارقـتْ تـركـيـبَـهـا ولـهـا الـلّـطـائـفُ مركـبُ
وتـنـافـسـتْ فـيـكَ الـنـفـوسُ صَـبـابـةً فـغَـدا بـهـا فـي جـنـب حـبـك يـعـذبُ
صـلّـى عـلـيـكَ اللهُ يـا روحَ الـنُّـهـىٰ مـا دامَـت الـدُّنـيـا ودارَ الـدّولَـبُ[2]

فصل

من آداب مَنْ عَلِمَ أنّ نبينا ـ ﷺ ـ صاحبُ البراق الحامل لسيّد الخلق إلى رؤيةِ الملك الخلاّق، وأن البراق مع علوّ رفعته، وبلاغة منزلتهِ وهَيبته لِله، وشدةِ مَخافته لم يقدم على حمل الطيّب المطيّب المطهّر الأطيب حتىٰ تضمّن له الشفيعُ الشفاعةَ عند الله، والتزم له النّجاة من عَذابِ الله. فكيف بنا ـ أيّها المذنبون ـ الذين نحنُ في جَناب ربّنا مقصّرون، وعن آخرتنا وأهْوالِهَا وغَمراتها مُعرضون، وفي لذّاتِ دُنيانا وزَهراتها مُنهمكون؟!

فيا لها من مصيبةٍ ما أعظمَها، ويا لها من بليّةٍ ما أدْوَمها!

يُروىٰ في الآثار، ومشهور الأخبار، أن رب العزّة سبحانه يقول[3]: «إنّ أدنىٰ ما أصنعُ بالعالم إذا آثرَ شهوةَ الدّنيا علىٰ طاعتي أَنْ أسلبَهُ لذيذَ مُناجاتي».

قال بعضُ العارِفين: فسلبُ المريد لذة الطاعة بسببِ لذّة الشّهوات عقوبةٌ لعمومِ الخَلق!

---

(١) من بحر الكامل.
(٢) أراد: ودار الدُّولاب.
(٣) في إتحاف السادة المتقين ٨: ٦١٩، وتذكرة الموضوعات للفتني: ١٧٢.

فأمّا عقوبة الخُصوص: فحَجْبُهم عن المُراد بمجرّد الركونِ إلىٰ مبادىء ما ظهرَ من اللُّطف. وهٰذا مكرٌ خفيٌّ لا يستطيعُ الاحترازَ منه إلا ذَوُو الأقدار الرّاسخة من أولياء الله رضي الله عنهم.

سمع إبراهيمُ بنُ الأدهم[1] رحمه الله قائلاً يقول علىٰ جَبلٍ وهو في سِياحته[2]:

كل شيءٍ لكَ مغفورٌ إلا الإعراضُ عنّا، قد وَهَبْنا لك ما فاتَ منك بقيَ ما فاتَ منّا

فاضطربَ رحمه الله، وغُشِيَ عليه، ولم يُفِقْ يَوْماً وليلةً.

هٰذه حالُ أهلِ العبوديّة الطّالبينَ للدّرجة العليّة. ومع هذا فقلوبُهم وَجِلَة ونفوسهم خاشعةٌ وهم مسارِعُون إلىٰ الخيراتِ سالكونَ لطريقِ النّجاة.

فتعلّقُوا ـ أيُّها العُصاةُ ـ بجنابِ نبيّكم، وتمسّكوا بشفاعةِ حبيبكم فإنّه لا عمل لكم عندَ الله إلاّ حُبّكم، فتوسّلُوا بجلالهِ إلى ربّكم.

بـهِ سـتُـقْـبَـل عِـنـد الله مَـغْـفِرَتـي ويُـصْـلِـحُ الله دُنـيـايَ وآخِـرَتـي[3]
وفـي شـفـاعـتـهِ فَـوزي بـمـغـفـرتـي فـإنّ لـي ذمّـةً مـنـهُ بـتـسـمـيـتـي
مـحـمّـداً، وهـو أوفـىٰ الـخـلـق بـالـذّمَـمِ

---

(١) مرّ ذكره في هذا الكتاب. وهو زاهد مشهور توفي سنة ١٦١هـ.

(٢) كذا ورد كلام إبراهيم بن أدهم. ورسمها في ج باعتبارها بيتين من الشعر ولا يستقيمان في الوزن. ولو كانا شعراً من هذه الألفاظ، لصحّ مثلاً أن يقال:

كــل شــيءٍ لــك مــغــفــو رٌ ســوى الإعــراض عــنّــا
قــد وهــبــنــا لــك مــا فــا ت، بــقــي مــا فــات مــنّــا

ويقصر البيت الثاني عن المعنى.

ولم يرد هذا الخبر في حلية الأولياء.

(٣) التخميس مبني على بيتين للبوصيري في بردته (الديوان: ٢٤٨).

دُنوبيَ اليومَ قد أربتْ على العَددِ وما بجسمي للفحِ النار من جَلدِ

وليسَ أرجو سواهُ عُدّة لِغَدي إنْ لم يكن في مَعادي آخذاً بيدي

فَضلاً وإلاّ فقُلْ يا زَلّةَ القَدمِ

وصلّىٰ الله علىٰ سيدنا محمد، وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً، وزاده مولانا شرفاً وتعظيماً.

باب

في معنىٰ اسمه:

راكب النَّجيب(١)

صلّىٰ الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

راكب النجيب: اسم من أسمائه عليه أفضل الصلاة والسلام، والنجيبُ: هو الكريم من الخيل.

فَيُحتمل: أن يكون المراد راكب كرائم الخيول. والعتاق منها من الفُحول. وذلك يدل علىٰ قوّة ثباتِهِ وكمالِ فُروسيّته وأن الصّعاب من كرائمِ الخَيْل مُنقادَةٌ لركوبِهِ، سائِحةٌ بِهِ في خُطوبه.

ويُحتَملُ: أن يكون النجيبُ لقَباً علىٰ فَرسٍ كانت عنده عليه الصّلاة والسلام.

وقد عَدّ بعضُ العُلَماءَ في أفراسِهِ: النَّجِيْب.

وقال أبو محمد الدّمياطي(٢) رحمه الله: سَبْعةُ أفراس متّفقٌ عَليها

---

(١) راكب النجيب في الشفا ١: ٣٢٠، وسبل الهدى والرشاد ١: ٥٧٢.
وينظر: مجمع الزوائد ٥: ٢٧٢، وإتحاف السادة المتقين ٧: ١٣٤.

(٢) هو شرف الدّين عبد المؤمن الدمياطي ت ٧٠٥ هـ، في كتابه فضل الخيل ص ١١١ وما بعدها.
وورد مثله في كتاب رشحات المواد في ما يتعلّق بالصافنات الجياد للشيخ محمد الحلبي ت ١٠٩٨ ص ١١٥.
وينظر عيون الأثر ٢: ٣٢٠ـ ٣٢١.
وحلية الفرسان وشعار الشجعان: ١٥١.

أنها كانت له عليه الصلاة والسلام، وهي فرس يقال له: السَّكبة[1]، والمرتجز، واللّحيف، ولزاز، والطِّرْف بِكسر الطاء، والوَرْد، وسَبْحة.

وقد عدّ بعضهم خمسةَ عشَر فَرساً غيرها، وزاد السُّهَيلي علىٰ ذٰلك: الضَّرِيس.

وقد قيل: إن فَرسه المُرتجز[2]: هو النَّجيب، وكان حَسن الصهيل [٢٢٨/أ] حتىٰ سُمّي مُرتجزاً لأنه كان إذا صَهل كأنّه يُنشد الشعر. وقيل: هو الذي شهد فيه خُزَيمة رضي الله عنه، وكان غائباً عن المَجلس، فشهد لرسول الله ـ ﷺ ـ بهِ لعلمهِ أنّه الصّادق المصدّق الذي دلّت المعجزة علىٰ صِدقه. فقَطع خُزَيمة رضي الله عنه بقوله، وأيقن بصدقه، فاختصّهُ رسولُ الله تعالىٰ بأنْ كانت شهادَتُه تَعْدِلُ شهادةَ رَجُلَيْن، لأنّه رضي الله عنه سوّىٰ في حاله عليه الصلاة والسلام بين عَيْنِ اليَقين وعِلْمِ اليَقين[3].

وكانَ ـ ﷺ ـ يُحِبُّ الخَيل، ويُثني عليها، ويقول[4]: «الخيلُ معقودٌ بنواصيها الخَير إلى يوم القيامة».

وقد نطَقت له ـ ﷺ ـ فَرسُ النّعمان في قصّة طويلة[5]، ذكرناها في موضعٍ آخَر قبل، وأنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال لها: فَرس النُّعان أدّ

---

(١) في الأصول الخطية: السكبة (مؤنثة)، وفي الكتب المختلفة: السكب.

(٢) في فضل الخيل ١١٤ قال ابن قتيبة (في المعارف): المرتجز، وفي أخرى: الطَّرف، وفي أخرى: النجيب فرس رسول الله ﷺ الذي اشتراه من الأعرابيّ، وشهد له به خزيمة بن ثابت رضي الله عنه الذي اشتراه من الأعرابيّ وشهد له به خزيمة.
وقال بعض العلماء: إنما سمّي المرتجز لحسن صهيله، وهو مأخوذ من الرجز الذي هو نوع من الشعر.

(٣) ومن ثم قيل في خزيمة بن ثابت: ذو الشهادتين (ثمار القلوب: ٢٨٧).

(٤) صحيح البخاري ٤: ١٢٥٢ وينظر الفتح الكبير ٢: ١٠٧.

(٥) سبق الخبر.

الأَمانة. قال أَنس رضي الله عنه: فتنحنَح الفَرسُ ثم قال: والّذي بَعثك بالحقّ نبياً يا محمد، ما سُمّينا خيلاً ولا أفراساً ولا حُبّبنا إلىٰ بني آدم، ولا سُيّدنا علىٰ سائر الدوابّ إلا أنَّ الله سُبحانه كتبَ علىٰ أفئدتنا: لا إلّه إلا الله وحده لا شريكَ له، وأنّ محمداً عبدُه ورَسُوله. وكتب فيها: أبو بكر الصديق، وعمر الفاروق، وعُثمان ذو النورين، وعليّ الرّضى. والقرآن كلامُ الله، والخيرُ والشرُّ من الله. فكانت هٰذه من مُعجزاتهِ عليه الصّلاةُ والسّلامُ وعظيم آياته.

فَسُبحان من أعطاهُ كلّ فضيلةٍ — وبَيّنها للنّاسِ في محكم الذّكرِ[1]
فيا راحمَ المُسترحمينَ بفضلهِ — ورازقَ مَنْ في البَحْرِ طرّاً وفي البَرّ
فأنتَ الذي أرجُوه في كلّ شدّةٍ — وأنتَ المُناجىٰ في ضميري وفي فِكري
أنِلْني أماناً منكَ ممّا أخافهُ — لدىٰ الدّين والدُّنيا وفي القبرِ والحشرِ
وصَلّ علىٰ خَيرِ الأنامِ محمّدٍ — إمام الهُدى المختار من سادةٍ غُرّ
وباركْ وسلّمْ وارضَ عن آلهِ التّقىٰ — وخير صحاب حُبّهم لم يزلْ ذخري

فصل

ومن آداب مَنْ عَلِمَ أن نبيّنا ـ ﷺ ـ اسمُه راكبُ النّجيب أن يقتديَ به في أقواله وأفعاله، ويهتدي به في بعض أَحواله، ويستعدّ من الخيل ما يظهر به القوّة علىٰ المُشركين، ويُرهبَ به أعداءَ الله الكافرين. ويقصد بذلك وجْهَ الله، وإعانةَ أهلِ الإيمان علىٰ أعداء الله.

وإياكَ من قصدِ إظهار الفخر، فإنّه يذهبُ بالأجر. وقد قال ـ ﷺ ـ: «الخيلُ ثلاثة، لرجلٍ سِتر، ولرجلٍ أجر، وعلىٰ رجل وِزر» [٢٢٨/ب].

---

(١) من بحر الطويل.

فعليكَ ـ أيُّها المحبُ ـ بتحسينِ النيّة، ومجاهدةِ النّفس، وحُسنِ المُعاملة مع الله، فإنَّه جلّ جلاله لا تخفىٰ عليه خافية، وهو الخبير بجميع الأُمور، ويعلم خائنةَ الأعين وما تخفي الصدور. والخَطْبُ والله شديد، والإخلاصُ في أعمالنا بعيد، وجُلّ أَعمالنا قد ضارعَتْ أَعمال المُنافقين. فلئن لم يَرحمنا ربُّنا ويغفرْ لنا لنكوننّ من الخاسِرين.

ومن صَدّق بحديثِ أَبي هريرة رضي الله عنه الذي أخرجه مُسلم وغيره في كتابه أَيقن بالهلاك إنْ كانت أفعالُه كأفعالنا، وبَواطِنُ أعمالِه كأعمالنا.

قال سُليمان بن يَسار: تفرّق الناسُ عن أَبي هريرة رضي الله عنه في مجلسٍ من مجالسِه، فقال رجلٌ من أهل الشام: حدّثني حديثاً سمعتَهُ من رسول الله ـ ﷺ ـ قال: نعم.

سمعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ يقول[1]: «إن أَوّلَ الناسِ يُقضىٰ ـ يوم القيامة ـ عليه: رجلٌ استشهد فأُتِيَ بِهِ فعرّفه نعمَتَهُ فعرفَها».

فقال له الله تعالىٰ: ما عملت فيها؟

قال: قاتلت فيك حتىٰ استشهدت![2]

قال، يقول الله: كذَبت، ولكنك قاتلتُ لأَنْ يقالَ: فلانٌ جريء، فقد قيل. ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ علىٰ وَجْهه حتىٰ أُلقيَ في النّار. ورَجُلٌ تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرّفه نعمته فعرَفها، فيقال له: ماذا

(١) صحيح البخاري ٣: ١٤٨، وفتح القدير ٨: ٧٢٦.

(٢) صحيح مسلم: ١٥١٤، والقرطبي ١: ١٨.

وقوله «قاتلت فيك... وقرأتُ فيك القرآن...» أي في سبيلك، ومن أجل وجهك الكريم.

عَملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلّمْتُه، وقرأتُ فيكَ القُرآن. قال، فَيُقال له: كذبتَ! تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأتَ القرآنَ ليقالَ هٰذا قارىءٌ؛ فقد قيل، ثم أُمِرَ به فَسُحب علىٰ وجهه حتىٰ ألقي في النّار. ورجل وسّعَ الله عليه، وأعطاهُ من أصنافِ المالِ فأُتي به فعرّفه نِعمته، فعَرَفها. فقال: ما عملت فيها؟ فقال: ما تركتُ من سبيلٍ يجب أن ينفق فيه إلا أنفقت فيه. قال، فيقال: كذبت، ولكنك فعلت ليُقال هو جَواد! فقد قيل، ثم أمر به فَسُحِب علىٰ وجهِهِ حتىٰ أُلقي في النار.

فكيف يكونُ الإخلاصُ ـ يا أَخي ـ، يومَ تُبلىٰ السّرائر، وتُكْشَفُ الضّمائر، وتُهتك الأستار، وتُفضىٰ الفُجّار[1]، فتتغير أَلوانهم، ويتلجلجُ لسانهُم، وتنفلقُ أكبادُهم؛ ويقول العاصي: يا ويلتاه، إذا رأىٰ جميع صَنائعهِ القِباح عند نشرِ الصّحائف، وضَاقتْ بِهِ الأَرْضُ بما رَحُبت، وأَحاطتْ به ذنوبُه السّوالف. ثم يوبّخُ بالنداء، فيقال له: يا مَن فِعلُه قبيحٌ غيرُ ناجح!... يا من فُضحت سريرته فلم ينفعه العَملُ الصّالح، يا كثير الذَّلَة! يا دائم الغفلة! مَنْ في الدُّنيا ربّاك؟ ومَن فِيها أطعمك وسقاك؟ مَنْ فيها أنطقك؟ من فيها صَوّركَ؟ من حَفِظك في الليالي والأيّام؟ مَنْ نجّاك في بَطْن أُمّك [٢٢٩/أ] من الآلام؟ خرجت من عندنا علىٰ الوَفاء، ممّن تعلمت هٰذا الجفاء؟ مِن عندي خرجتَ على الأمانة فممّن تعلّمت الخيانة؟ يا قليلَ الصّيانَةِ! كيفَ تخونُ الأَمانة؟ ما أَلهاك عن جنّة النعيم؟ ما حَملك علىٰ التخفّي من العليم؟ ما غَرّك بربّك الكريم؟

فإذا انكسرت القُلوبُ، واعترفَ المذنبُ بالعُيوب، يقول: يا مولاي!: غرّني كرَمُك، وغلبَ عليّ حِلمُك، ووسعتني رحمتك وقد

---

(١) جمع فاجر. وفي الآية الكريمة ﴿وإن الفجّار لفي جحيم﴾ الانفطار ٨٢.

خرجتُ من الدُّنيا وأنا متّكل عَليك، وقدّمتُ الوسيلةَ إليك أقرب الخلق لَديك، الرّحيم بأُمّته، الشفيع لأهلِ ملّته. وقد وقفتُ علىٰ حديث يحملني علىٰ عذري بين يَديك، وهو ما رَواه الشافعيّ عن المغيرة عن النبيّ الكريم: أنّ الله سُبحانه العظيم يغفرُ بعذرٍ واحدٍ أَلْفَي كبيرة.

فجاوزْ بفضلك، وحمى حِلمك عن إساءَتنا الكبيرة وارحَمْنَا يومَ تَحْمىٰ شمسِ الظّهيرة.

وقد قيل:

إذا اعتذرَ المُسيءُ إليكَ يوماً فجاوِزْ عن إساءتِهِ الكبيرَة[1]

فإنَّ الشافِعيّ رَوىٰ حديثاً صَحِيحاً مُسْنداً عن المغيرة[2]

عن المختارِ: أنّ الله يغفر بعُذرٍ واحِدٍ ألفي كبيرة[3]

فأنت هو المَولى الرّحيم، والنبيّ هو الشفيع الكريم، فكيفَ أَضِيْعُ يا جابرَ القُلوب، وكيفَ لا أُرْحَمُ يا سَتّار العُيوب؟

إذا ذكرْتُ أياديكَ الّتي سَلفَتْ وسوءَ فِعلي وزلاّتي ومُجْتَرمي

أكادُ أَهْلِكُ يأساً ثم يُدركني جميلُ حلمكَ يا ذا الجودِ والكرمِ

إنْ أطعناكَ يا مَولانا فبإرادتك، ولكَ المِنّةُ عَلينا، وإن عَصَيْناك بِجهلنا فبتقديركَ، ولكَ الحُجّةُ عَلينا. فبإظهار حُجّتك[4] عَلينا، وانقطاع حُجّتنا نَسْألُكَ أنْ ترحمنا وتغفرَ لنا، ولا تحرمنا من رُؤية حبيبنا، وقُرّة أعيننا.

---

(١) من بحر الوافر.

(٢) في العجز زحاف قبيح؛ نقل مفاعلتن الثانية إلى مفاعلن بإسقاط السادس المتحرّك.

(٣) «يغفر» لا بدّ منه لتسكين راء يغفر. ضرورة.

(٤) في ب: منّتك.

أتـيـنـا بـابَ ربِّ الـعـالـمـيـنـا وخـلّـفْـنَـا الـخـلائـقَ أجـمـعـيـنـا[1]

فَـرَرْنـا مِـن ذُنـوبٍ أعْـجَـزَتـنـا إلـىٰ مـولـىٰ الـمـوالـي قـاصـديـنـا[2]

إلـيـكَ إلـهـنـا جـئـنـا لـتـعـفُـو وتـلـحـقـنـا بـحـزبِ الـتـائـبـيـنـا

أنـخـنـا فـي حـمـاك فَـجُـدْ عَـلـيـنـا فـإنَّـكَ راحـمُ الـمُـسْـتَـرحـمـيـنـا

فـأنـتَ الله ذو الإفـضـال حـقّـاً وإنـك مـؤنـسُ الـمُـسْـتَـوحـشـيـنـا[3]

ولـيـسَ لـنـا سـواكَ فـلا تَـدعْـنـا لـغـيـرك يـا مـلاذَ الـلائـذيـنـا

وصـلِّ عـلـىٰ الـشـفـيـع لـنـا صـلاةً تـغـيـظُ بـهـا جـمـيـعَ الـحـاسِـديـنـا

وسـلّـمْ وارضَ عـن آلٍ وصـحـبٍ أقـامُـوا ديـنَـك الـحـقَّ الـمُـبِـيْـنـا

وصَلّىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً، وزادَه مولانا شرفاً وتعظيماً.

---

(١) من بحر الوافر.

(٢) في ب: ذنوب أزعجتنا.

(٣) في ب: فأنت إلهنا ذو الفضل.

باب

في معنىٰ اسمه

راكب الناقة(١)

صلّى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

راكبُ النّاقة: اسمٌ من أسمائه عليه أفضل الصلاة والسلام وردتْ بهِ الأخبارُ، حَلّت به نبيّنا الأَخيار.

ومعنىٰ راكب الناقة: أي أنه عليه الصلاة والسلام كانت له ناقةٌ معلومةٌ يركبها، ومطيّةٌ من الإبل مشهورةٌ يسافر عليها. وهي ناقته التي هاجر عليها، وكانت تُسَمّىٰ «القَصْواء» و«الجَدْعَاء» و«العَضْبَاء» وكانت شهباء، وكان له عليه الصلاة والسلام غيرها من الإبل(٢). ذكر ذلك المُعتنون بأخباره، وظاهرُ كلام بعضِ أرباب أهلِ السير أنّ ناقته «القَصْواء» هي المسمّاة «بالعَضْبَاء».

والذي رأيتُه من كلام عبد الرحمن العَنبري رحمه الله يدلّ

(١) راكب الناقة: في الشفا ١: ٣٢٠، وسبل الهدى والرشاد: ٥٧٢.

(٢) أوردها في زاد المعاد في هدي خير العباد ١: ١٣٤ـ ١٣٥.

وفيه: لم يكن بالعضباء ولا الجدعاء من عضب ولا جدع وإنّما سمّيتا بذلك. وقيل كان بأذنها عضب فسمّيت به. وأورد خلافاً: هل العضباء والجدعاء واحدة (اسمان لمسمّى واحد) أو اثنتان؟.

والعضباء هي المشقوقة الأذن.

علىٰ أنّ العَضباء ناقةٌ أُخرىٰ، وأنّه - ﷺ - ملكَها بعد الهجرة إلىٰ المدينة.

قال رحمه الله: روي عن رسول الله - ﷺ - أنّه خطب يومَ عَرفة، وحث الناس علىٰ الصَّدقة، فقام فتىً من جملة الناس، فأشار إلىٰ ناقة له فقال: هذه العَفراء. فنَظر النبيّ عليه السلام إليها فقال: اشْتَرُوها لي، فاشْتَروها للنبي - ﷺ -.

فلما كان ذاتَ يوم، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه مع النبي - ﷺ - فقال له: يا ابنَ الخطاب ألا أُخبرك بأمر عجيب؟[1] خرجتُ في بعض اللّيالي فقال لي هذا البعير: سلامٌ عليك. فقلتُ: باركَ الله فيك. فقال لي: كانت أُمّي لرجلٍ من قُرَيش كان يحلبها ويعلفُها، وقد نتجت له خَمسة أولاد، وكنتُ أنا الخامس. وكانت عادة الجاهلية أن يسيّبُوا الخامس فلا يركبوه، ولا يستعملوه. وأرادت الأعرابُ أن يأخذوني في غارةٍ كانوا يُغيرونها، ففررْتُ منهم، وكنتُ أرعىٰ في الصَّحراء، فكان كل وحش يقتربُ[2] منّي ويُناديني، ويدعوني إلىٰ نفسه ويقول لي: فإنّك لِمُحَمّد - ﷺ -.

وكان إذا دخلَ اللّيل نادىٰ دوابُّ الأرض وسباعُها بعضهنّ بعضاً: لا تَقْرَبُوها فإنّها لمحمد - ﷺ -. هكذا كنتُ إلىٰ أن صِرتُ إليك.

فقال لها النبي - ﷺ -: ما اسمُ مَولاك؟ قالت: عَضباء. قال:

---

(١) الشفا ١: ٤٤٠.

قال القاري في شرح الشفا ١: ٦٣٧، قال الدّلجي: وأما قصة العضباء فلم أدرِ من رواها، ولا حديث حمام مكّة.

(٢) في ب: يتقرّب.

سَمّاها باسم مولاها عضباء[1]. فلما دنت وفاة رسول الله - ﷺ - قالت العضباء: إلىٰ مَنْ تُوصِي بي بعدَك يا رَسُول الله؟

فقال لها النبيّ - ﷺ -: قد أَوصيتُ بكِ لابنتي فاطمة، فهي تركبك في الدُنيا والآخرة. فقالت: لا أريدُ أن يركبني أحدٌ بعدك! فقال النبيّ - ﷺ -: لا يركَبُك أحدٌ بعدي إلا ابنتي فاطمة.

فلمّا توفّي النبي - ﷺ -: خَرجتْ فاطمة ليلةً [٢٣٠/أ] فرأت النّاقة تسلّم عليها، وهي تقول لها: يا بِنْت رسول الله آن لي أن أفارقَ الدُنيا فوالله ما طابَ لي ماءٌ ولا مَرْعَىً بعد النبيّ - ﷺ -.

وقد ذكر القاضي أبو الفضل عياض رحمه الله في فَضْلِ المُعجزات هٰذه القصّة، وأشار إليها مجملةً وأسندها إلىٰ الإسفراييني رحمه الله.

فمعنىٰ صاحب الناقة: أي صاحبُ النّاقة الخارقة للعادة التي كلّمته وسلّمتْ عليه، وحَزِنت علىٰ فِراقه لِمَا كانت تَنالُ من بَركته، وتتنعّم بِقُربه.

طابت بك الأَمصار والأعصارُ ... وترنمت بحديثك الأطيارُ[2]
وتضوّعت أنفاس طَيْبَةَ مثل ما ... مُلئت بنور جمالكَ الأقطارُ
وعلا الوجودَ جلالةٌ ونضارةٌ ... وعلاه منكَ سكينةٌ ووقارُ
وتروّحت أرواحُ أنفاسِ الورىٰ ... وتقدّست بشهودك الأسرارُ
وكذٰلك الأسماعُ منكَ تنعّمت ... وتمتعتْ بجمالك الأبصارُ

---

(١) في اللسان (ع ض ب): العضباء اسم ناقة النبي ﷺ اسمٌ لها علم، وليس من العضب الذي هو شق الأذن، إنما هو اسم سمّيت به. وقال الجوهري هو لقبها... قال الزمخشري هو منقول من قولهم ناقة عضباء، وهي القصيرة اليد.

(٢) من بحر الكامل.

فصل

مِن آدابِ مَنْ عَلِمَ أنّ نبيَّنا عليه الصلاة والسلام حَنَّت لفراقِه العَضْباء، ولم يَحْلُ لها ماءٌ ولا طعامٌ ولا مَرْعىٰ حُزناً علىٰ فراقِ حبيبِ القُلوب، رسول علاّم الغيوب، فكيفَ لا يشتاقُ إلىٰ لقائه، ولا يحزنُ لفراقِهِ أصحابُ العقول السّليمة، والأفئدة الرّحيمة؟.

والـجِـذْعُ حَـنّ لأنّ فـارقْـتَـهُ أسَـفـاً ... حنين ثكلى شجَتْها لوعة الثّكلِ[1]

ما صبْرُ من صارَ من عينٍ علىٰ أثرٍ ... وحالُ مَنْ حالَ عن حالٍ إلى عُطلِ

فمنْ صَدقتْ محبّتُه في محبوبه إذا لم يَره أو رآه وفارقه لم يزلْ كئيباً حزيناً، وربما غلبه الشوقُ والقَلقُ حتىٰ قتله.

قالت عائشةُ رضي الله عنها[2]: جاءت إليَّ امرأةٌ بعد موتِ رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ فقالت لي: اكْشِفي لي علىٰ قَبْرِ رسولِ الله ـ ﷺ ـ فكشفتُ لها، فبكتْ حَتّىٰ ماتت.

هكذا هي علامة المحبّين، وعادة المُشتاقين، رضي الله عنهم أجمعين.

تـمـنّـيـت مـن أهْـوىٰ فَـلـمّـا رأيـتُـه ... بُهِـتّ فلـمْ أملِكْ لساناً ولا طَرْفا[3]

وأغْـضَـيْـتُ إجـلالاً لَـهُ ومـهـابَـةً ... وحاولتُ أن يَخْفىٰ الّذي بي فلم يخفا!

وقد كانَ أبو بكر الصدّيق، وعُمَر بنُ الخَطّاب وغيرهما رضي الله عنهم أجمعين لا تطيبُ مجالسُهم إلاّ بذكر رسولِ الله ـ ﷺ ـ يتذاكَرُون

---

(١) من بحر البسيط.
وفي ب: والجذع أنَّ...

(٢) لم أقف على هذا الخبر.

(٣) من بحر الطويل.

صفته وخلقه، ويبكونَ لفراقه، ويشتاقونَ إلىٰ لقائه حتىٰ يَبِسَت جُلودهم وتألّمت كبودُهم، وحقّ لهم - رضي الله عنهم - الشوقُ إلىٰ سيّد المرسلين، وقائد الغُرّ المحجّلين.

لمّا قُبِضَ حبيبُ القُلوب - ﷺ - حَزِنَ عليه المُهاجرون [٢٣٠/ب] والأنصارُ حزناً شديداً، وحزنَ أبو بكرٍ فزاد حزنُه، واشتدّ كَرْبُه، فلم يزل دَمعُهُ مَصْبُوباً، وجسمهُ يذوبُ حتّىٰ لحق بالمَحْبُوب - ﷺ -.

لـولا نـسـيـمٌ بـذكـراكـمْ يُـراوِحـنـي ... لـكـنـت مـحـترقـاً من حَرّ أنفاسي[١]
والله ما طـلـعـتْ شـمـسٌ ولا غـربـتْ ... إلا وذكـرك مَـقْـرونٌ بـأنـفـاسـي
ولا جـلـسـتُ إلـىٰ قـومٍ أُحَـدّثـهـم ... إلا وكـنـتَ حـديـثي بـيـن جُـلاسـي
ولا شـربـتُ زلالَ الـمـاءِ مـن عَـطـشٍ ... إلا رأيـتُ خـيـالاً مـنـكَ فـي الـكـأسِ
ولا تـنـفّـسْـتُ مـحـزونـاً ولا فَـرِحـاً ... إلا وأنـتَ مُـنـىٰ قـلـبـي ووسـواسـي
إن كـان حُـبّـهـمُ كـالـوَرْدِ مـنـصـرفٌ ... فـإنّ حـبـي لـكـم أطـرىٰ مـن الآسِ!

اللّهم إنّا نتوسّلُ منك إليكَ بسيّد المُرسلين، وشفيع المُذنبين اقْضِ حاجاتنا، واغفرْ ذَنبنا، واستُرْ عَيْبَنا، يا رحيم يا كريم يا حليم، ارحَمْنا إنّك على كل شيء قدير، وبالإجابةِ جدير، يا نعم المولى ونعم النصير. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً وزاده مولانا شرفاً وتعظيماً.

---

(١) من بحر البسيط.

باب

في معنىٰ اسمه:

أوّل الأنبياء في الخلق[1]
وآخرهم في البعث

صَلّى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

أول الأنبياء في الخلق، وآخرهم في البعث، اسمٌ من أسمائه عليه أفضل الصلاة والسلام وردث به الأحاديث النبوية، وأطْلَقَتْهُ الأمة المحمدية.

ومعنىٰ أول الأنبياء في الخلق: أن الله تعالى خلَق طينَتهُ المطهّرة قبلَ الأنبياء، واصطفىٰ نوره قبل الأَصفياء.

ومعنىٰ آخرهم في البعث: أنه لا نبيّ بعده لأنه خاتمُ النبيّين، وسيّدُ المُرسلين.

اعلم ـ أيّها المحب ـ ضاعفَ الله حبّي وحبك وشرح صدري

(١) في الشفا ١ : ٣٣٠ قال ﷺ: «كنت أوّل الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث». خرّجه السّيوطي في مناهل الصفا: ٣٨ وأحال على أبي نعيم في الدلائل وغيره.
وهو في الرياض الأنيقة ١٢٤ بعنوان الأوّل والآخر، وأورد هذا المعنى، وغيره.
وينظر سبل الهدى والرشاد ٥٣٧ تحت عنوان الأول والآخر لتفسير آخر؛ والمواهب اللدنية ١ : ١٨٨.

وصدرك: أنّ رَبّنا جلّ جلاله، وتقدّس جمالُه القديم الأزليّ الأَبديّ السرمديّ، الأوّل قبل كل شيء، والآخر بعدّ كلّ شيء، لما كان علمُه القديم الذي لا يتغيّر، مُحيطاً بجميعِ المعقولات[1] وكلّ عَرَضٍ وجوهر، يعلم سبحانه في أزله أنه: لا بدّ من عالم يخلقُه فيما لا يزالُ وفي مَحلّه، وهو من الحَوادث، إذ كل موجود محدثٌ ما سوىٰ الله وصفاته. وهو المُوجِد لكل شيء جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه، وعلم سبحانه أن سِرّ هٰذا العالم ونورَهُ المخلوقَ مِن أجلهِ هو محمّد ﷺ.

فخلَق الله نورَ جمالهِ[2] قَبلَ خلق العالم بأسره. ثم خلَق العرش من نوره [٢٣١/أ]، وخلق الكرسيّ من نُوره وخلقَ القَلم من نوره، وخلقَ الشمسَ من نُوره، وخلق القمرَ من نُوره، والضّياءَ من نوره، وخَلقَ العقلَ من نُوره، ونورَ الأَعْيُنِ من نوره، ونورَ الملائكة من نُوره، فكان نورُه عليه الصلاة والسلام تحت قائمةِ العرش، يسبّح الله تعالى ويحمده ويقدسه. فلما خلق ربُّ العِزّة جبريل عليه السلام رأىٰ نوراً تحت العرش. فقال: يا ربّ وهل خَلقْتَ خلقاً قبلي؟

قال: نعم، خلقت نور حبيبي وصفيّي ومن اخترتُه من خَلْقِي.

---

(١) في ب: المخلوقات.

(٢) أورد المؤلف وغيره في أسماء رسول الله ﷺ: اسم النُّور. أخذوا هذا الاسم من قوله تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبين﴾ المائدة: ١٥. وتأول جماعة قوله تعالى: ﴿مثل نوره كمشكاة...﴾ الآية فقالوا: هي الكوة ضربها الله لقلب محمد ﷺ فيها مصباح... الخ.

ينظر الرياض الأنيقة للسيوطي: ٢٦٦؛ والفصل الذي عقده المؤلف رحمه الله بعنوان: النّور.

وخلَق الله سبحانه الجنّة ونعيمَها ونَوّرها[1] من نُوره عليه الصّلاة والسلام.

فلمّا خلقَ العالم بأسرهِ طافَ جبريلُ عليه السلام بنورِ نبيّنا ـ ﷺ ـ حتىٰ شاهدته الأرواحُ، وعَلِمتْ قَدْرَهُ ومَنزلته، وأنّ العالم إنّما خُلِقَ له، فكانَ عليه الصّلاة والسلام عَيْسُوبَ الأرواح، فَعُقِدت له النبوّة قبل خلقِ الأشباح.

قال بعضُ العارفين: وإلى هٰذا المعنىٰ أشار نبيُّنا ـ ﷺ ـ بقوله[2]: «عُقِدت إليّ النّبوءة وآدَمُ بَيْنَ المَاءِ والطّين».

وأن نبوءته حين عُرِضَت علىٰ الأرواح ما أنكرها روحٌ، ولا خَلْقٌ من خلق الله، بل اعترفتْ له بأنه نبيُّ الله، وقطعتْ بأنّه حبيبُ الله.

فلما خلقَ الله آدمَ، وخلقَ فيه روحَهُ، شاهد العَرْشَ والكرسيَّ والجنَّةَ وقصورها وحورها، كلٌّ مكتوب عليها «لا إلّه إلا الله، محمّد رسولُ الله».

فقال آدم عليه السلام: يا ربِّ! من صاحب هذا الاسم؟

قال: يا آدم! لولا صاحبُ هذا الاسم ما خلقْتُ عرشاً ولا كرسياً ولا سماءً ولا أرضاً ولا شمساً ولا قمراً ولا جنّةً ولا ناراً.

هٰذا صَفِيّي ونبيّي وحبيبي، فلولا هو ما خلقتك، وهذا نورُه الذي نوّرْتُ به عَرشي وكرسيّي وسَمائي وجَنّتي.

وما زالَ نورُ نبيّنا، وضياء شَفِيعنا[3]، يُنقل بقدرةِ الله في ظهورِ

---

(١) في ب: وصوّرها.

(٢) لم أقف على هذا الحديث.

(٣) في شعر لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عمر الحنفي في مدح النبي ﷺ:

بِكَ أول الآباء نال هدىً كما ... نال اجتباء وهو عاصٍ مذنب

المقاصد السنية في الأحاديث الإلّهيّة لأبي القاسم علي بن بلبان المقدسي: ٥١٤.

أنبياءِ اللهِ حتىٰ ظَهر سِرُّ اللهِ الذي وصل منه المدَدُ إلىٰ سائِر الوُجود، وشمِلَ عطاؤه الروحانيّ كلَّ موجود، ولم يتصوّر تمامٌ[1] في الكونِ دونه، ولم يوجد سرٌّ للأكوان غيره، لأنّه نور الأنوار، ومعدِنُ الأسرار. فاستمدّت الأنوار الظاهرة والباطنة من نور سيّد الأكوان؛ ولم تتشكل صورة مرئيّةٌ مثل صورته في العيان، فهو الجامعُ لأنوارِ أهلِ العِرْفان. وقد جَمعت ذاتُه الكريمةُ حقائقَ الموجُودات، ونبوءَتُهُ جميعَ النُّبوءات. فكان عليه الصلاة والسلام أوّل الأنبياء في الخلق، وآخِرَهُم في البعث [٢٣١/ب]. فكلُّ مَن شاهدَ نوره من الأرواح قبل وجودِ ذات الخلائق، وعلم أنه لا نظيرَ له في المغَاربِ والمشارق، شَهِدَ بأنّه الرسول المطاع، والحبيب عند الله بالإجماع.

ولو خُلّيت الأَنوار مع أرواحِها وذَواتها علىٰ أصلِ خِلقتها لما طُمِسَت بصيرتها عند رؤية جماله، ولا ذَهبت فكرتُها عند مشاهدةِ نُوره وكماله.

ولولا حجابُ الشيطانِ علىٰ القُلوب، لرأىٰ كلّ قلب حبيبَ علاّمِ الغُيوب، لكنّ جَمالَهُ عند الله عظيمٌ ومقامه عند رب العزة جَسيم، فلا يطّلع علىٰ غيبِ نُورهِ ويتمتّعُ بحسنه وجمالهِ إلاّ مَن اعْتَرف بشرفهِ وكمالِهِ، واعتنائهِ الكريم. ورحم الله ولي الله سيدي عليّ بن أَبي الوفا[2] في قصيدتهِ الفائقةِ في بلاغتها وحُسنها في قوله فيها:

لـو أبـصـرَ الـشـيـطـانُ طـلـعـةَ نـورهِ   فـي وجـهِ آدمَ كـانَ أوّلَ مَـنْ سَـجـدْ[3]

---

(١) في أ: تماماً.

(٢) سبقت الإشارة إليه؛ وهو أبو الحسن علي بن محمد الشاذليّ المُتصوّف له مؤلّفات منها ديوان شعر وموشحات (ترجم له في الأعلام ٥: ٧).

(٣) من بحر الكامل.

أوْ لـو رأىٰ الـنّـمـرودُ نـورَ جـلالـهِ عَبَدَ الجـلـيلَ مع الـخـليـلِ وما عَنَدْ
لـكـنْ جـمـالُ الـحـق جـلّ فـلا يُـرىٰ إلا بـتـخـصـيـصٍ مـن اللهِ الـصَّـمَـدْ

فأبشر ـ أيها المحب ـ، بتوفيقكَ الرّباني الذي ثَبّتَ الله به روحك، فاعترفْتَ بأنّه النبيُّ الكريم، صاحب الخُلق العظيم، وأنّه حبيبُ ربّ العالمين وسيّد المرسلين، وتذكّرْ نعمةَ الله عليك أنْ خَصّك من بين كثير من خلقِه حيثُ شاهدوا نُورَهُ، ورأوا سرّهُ. ومع ذلك قد أعمىٰ الله بصيرَتَهُم، وفضح سريرتهم فَعَميت عليهم ما شاهدتْ أرواحُهم مِمّنْ عَرف الأمور، فإنّها لا تعمىٰ الأبصار، ولكن تعمىٰ القلوبُ الّتي في الصّدور.

فصل

من آداب المحب في أوّل الأنبياء في الخلق، وآخرهم في البعث أن يذكرَ نِعمة الله عليه في أن وفّقه إلىٰ تصديقه، ويعترف بأنّه خير خلقه. ويعلمَ أنّ الله تعالى قد خصّ من شاء من خلقه في هذه الدار بما شاء، وإلاّ فكلّ الأرواحِ قد شاهدَتْهُ ورأتْ جَمالَهُ، وكلُّهم قد أبصَرَه ورَأىٰ كماله.

ولمّا خلق الله تعالى آدم عليه السلام خلقَ ذُرّيته في ظَهره كالذّرّ، فمَا مِن مخلوقٍ خَلقَه الله من لَدُن آدمَ إلى قيامِ الساعة إلا وقد كان في ظهر أَبينا آدم عليه السلام وشاهد في ظهره نُورَ سيّد الأولين والآخرين، واعترفَ أنّه حبيبُ ربّ العالمين. ولذا قال عليه الصلاة والسلام[1]: «كلّ

(١) صحيح البخاري ٢: ١٢٥، ومسند الإمام أحمد ٢: ٢٣٣، ومجمع الزوائد ٧: ٢١٨.

مولودٍ يُولد علىٰ الفطرة، فأَبَواهُ يهوّدانه أَوْ ينصّرانه...» الحديث. وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف ٧/ ١٧٢].

[٢٣٢/أ] فمَن أبقىٰ الله معه النُّور الذي نوّر به قلبه، وشاهَدَ بِهِ رَبَّهُ شَهِدَ بما شَهِدَ به في أصلِ خِلقتهِ؛ واعترفَ بأن نبيّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو خير خليقتهِ بل إنْ وفّقه الله وهداه، واعتنىٰ به واصْطفَاهُ انخرقتْ لهُ العاداتُ حتىٰ يتذكّر ظهورَ الإقرار والعبادة.

ولهذا قال أفْضَلُ الصدّيقين، وسراجُ المؤمنين وخليفةُ رسولِ رَبّ العالمين، أبو بكر الصدّيق عبد الله، العَتِيق[1]، يقول رضي الله عنه[2]: كُنّا جُلوساً عند رسولِ الله ـ ﷺ ـ فنظر إليّ فقَال: «يا أبا بكر أتذكر يوم، يوم؟» فقلت: إي وعَيْشِك يا رسول الله.

قال: فنظرَ أصحابُ رسولِ اللهِ ـ ﷺ ـ بعضُهم إلى بَعْضٍ ولم يَعْلَمُوا ما أرادَ النبيُّ عليه الصّلاة والسّلام بذلك. فقال ـ ﷺ ـ: «أنبئهم يا أبا بكر»، فقال ـ بالنُّورِ الذي في قلبه ـ: سألتني يا رسول الله عن يوم الذّرّ في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف ٧/ ١٧٢].

---

(١) في اللسان: عتيق اسمُ الصدّيق رضي الله عنه. قيل: سمّي بذلك لأن الله تبارك وتعالى أعتقه من النار، واسمه عبد الله بن عثمان. روت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن أبا بكر دخل على النبيّ ﷺ فقال: يا أبا بكر أنت عتيق الله من النار. فمن يومئذ سمّي عتيقاً. وقيل سمّي عتيقاً لعتاقة وجهه (وضاءته).

(٢) حديث غريب لم أقف عليه.

وتنظر أحاديث وردت في أخذ الميثاق في كُتب التفسير والحديث والتّواريخ والسّير. وأضرب مثلاً من الدر المنثور ٣: ١٤١ـ ١٤٥، والقرطبي ٧: ٣١٤ـ ٣١٩، والبداية والنهاية ١: ٨٩ـ ٩١.

فما من أحدٍ من الخلقِ إلا قال: بَلىٰ. ولقدْ سمعتُكَ يا رسول تقولُ عند ذلك: أشهدُ أن لا إلّه إلاّ الله وأشهد أنّي محمد عبد الله ورسوله.

فقال النبيّ عليه الصلاة والسلام: والذي بعثني بالحَقّ نبيّاً لقد سمعتُكَ يا أبا بكر عند ذٰلك وأنت تقول: صَدقْتَ يا رسولَ الله.

فحق له رضي الله عنه أن يسمىٰ صِدّيقاً؛ لأنه كان لنبينا وحبيبنا صديقاً ورفيقاً. فعليكم رحمكم الله بمحبّته، وتوسّلُوا إلى الله بتصديقه.

سألزمُ نفسِي يا خليليّ مَدْحَهُ ... وأُحكمُ فيه القول من جَيّد الشعرِ[1]
فأفضلُ خلقِ اللهِ بعد محمّدٍ ... خليفتهُ الصديق وهو أبو بكرِ
فذاك لعَمْرُ الله أولُ مسلم ... وأوّلُ مَن صلّى مع الطاهر الطُهرِ
فمن ذا سواهُ بيّن الله فضلَهُ ... لدىٰ سورة الفتحِ المعظّمة القَدْرِ
ومن أنفقَ الأموالَ لِلّه خالصاً ... وقاتل قبل الفتحِ مثلَ أبي بكرِ
ومَنْ آنس المختارَ في الغار غيرُه ... ومنْ صَدّق المختار قبلَ أبي بكرِ
ومَنْ ذا الذي في الناس أفقرَ نفسَهُ ... وأرضىٰ رسولَ اللهِ غيرَ أبي بكرِ
ومَنْ ذا سواهُ جاءَ جبريل قاصداً ... إلىٰ المصطفىٰ فيه مِن الله بالبِشرِ
وقال فإن الله يُقري سلامَهُ ... عليهِ فأبلغْ ذاكَ عنه أبا بكرِ
وأعلِمْهُ أن الله راضٍ بفعلهِ ... فهل هو راضٍ عنهُ في خُلّةِ الفقر؟![2]

(١) من بحر الطويل.

(٢) يشير إلى حديث مشهور؛ هو في المقاصد السنية في الأحاديث الإلّهيّة ٣٩٦، وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: بينا النبي ﷺ جالس وعنده أبو بكر الصديق عليه عباءة قد خلّها على صدره بخلال إذ نزل جبريل عليه السلام فأقرأه من الله السلام وقال: يا رسول الله مالي أرى على أبي بكر عباءة قد خلّها على صدره بخلال؟ قال يا جبريل! أنفق ماله جميعه عليّ قبل الفتح قال: يا محمد أقره من الله السلام وقل له

ومـن لـرسـول الله جـاء بـبـنـتـه فـزوّجـهـا إيـاه مـثـل أبـي بـكـرِ
سـأضـربُ أعـنـاق الـرّوافـضِ عـنـوةً بـحـدّ لـسـانٍ كـالـمـهـنّـدةِ الـبُـتْـرِ
وأقـتُـلـهـمْ قـتـلَ الـكـلابِ تـعـمّـداً وأنـشـرُ أمـداح الإمـام أبـي بـكـرِ

نفَعنا الله بمحبّته، وأعاد علينا من بركتهِ، وصلّى الله على نبيّنا وآله وصحبه وأهل صفوته وسلم تسليماً، وزاده مولانا شرفاً وكرماً ومهابةً ورفعةً وتعظيماً.

= يقول لك ربك أراضٍ أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟ فالتفت النبي ﷺ إلى أبي بكر فقال يا أبا بكر هذا جبريل يقرئك من الله السلام ويقول أراضٍ أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟ فبكى أبو بكر فقال: أعلى ربّي أغضب؟ أنا عن ربّي راضٍ أنا عن ربي راضٍ أنا عن ربي راضٍ.

باب

في معنىٰ اسمه

أوّل مَن تَنشَقُّ عَنهُ الأَرضُ (١)

صلّى الله عليه وسلّم وشَرّف وكرّم

أوّل مَنْ تنشَقُّ عنه الأرض: اسم من أسمائه عليه أفضل الصلاة والسلام، وردتْ بذٰلك الأخبار، بل أحاديثُ كثيرةٌ من طرقٍ مشهورة، وأنه عليه أفضلُ الصّلاة والسلام أوّلُ من تنشقُّ عنه الأرضُ يومَ القيامة في يوم الحَسرة والنّدامة!

وقد قال بعض المفسّرين عند قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾﴾ [الانشقاق ٨٤/١ ـ ٤]. قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: قال رسول الله ـ ﷺ ـ عند ذلك[٢]: «أنا أوّلُ من تنشقُّ عنهُ الأرضُ، فأجلس جالساً في قَبْرِي فَيُفتح لي باب إلى السماء بحيال رأسي حتىٰ أنظر إلى العرش، ثم يفتح لي باب من تحتي حتىٰ أنظر إلى الأرض السابعة فأنظر إلى الثرىٰ، ثم يُفتح لي بابٌ عن يميني حتّىٰ أنظرَ إلى الجنّة وإلى منازلِ أصحابي؛ وإذا الأرض تحركّت تحتي، فقلتُ لها

(١) أوّل من تنشقُّ عنه الأرض: في الشفا ١: ٤٦٧، وسبل الهدى والرشاد ١: ٥٤٠. وأورده السيوطي في الرياض الأنيقة تحت عنوان: الأول والآخر: ١٢٦.

(٢) سنن ابن ماجه ٤٣٨، ومسند الإمام أحمد ١: ٢٨١، والترمذي ٣١٤٨.

ما لك[1] أيتها الأرض؟

فقالت: إن ربّي أَمرني أن أُلقِيَ ما في جوفي وأنْ أتخلّىٰ فأكونَ كما كُنت أوّلاً لا شيءَ فيّ».

وقد ورَد في البُخاري إطلاقُ هذا الاسم عليه، وأنه عليه الصلاة والسلام أوّلُ من تنشق عنه الأرض[2]، وأوّل من يبعثه الله تعالى. وفيه إظهارُ العناية الربانية بمقام حبيب الرحمن، وبيان الكرامة لمن فضّله مولاه الملك الديّان. فأظهر الله تعالى للعالمين منزلته، وأشهرَ بين الخلائق مكانتَه ورفعته، فأَعلمهم أنه سيّد وَلد آدمَ يومَ القيامة، وأحوجُ أهلِ المَحشر لشفاعته يوم الحسرة والندامة. صلىٰ الله عليه وعلى آله صلاةً تبلغنا الأَمْنَ والعافية والسلامة.

يا سيّداً عَظُمت في الفضلِ رُتبته ... وأعجزَ الخلقَ إحساناً وإفضالا[3]
ما بعدَ فقدِكَ موجودٌ يُسَرُّ به ... كنتَ الحياةَ وكنتَ الأهلَ والمالا

[٢٣٣/أ] فلا فخرَ بين العالمين إلا فَخْرُه، ولا ذكرَ عند أهل المحشر إلا ذكرُه صلّى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

لبستَ رداءَ الفخرِ في ظهرِ آدمٍ ... فما تنتهي إلاّ إليك المفاخرُ[4]
وفَخرُكَ عالٍ في السّماءِ محلُّه ... ونورُكَ في الأرضِ البسيطةِ زاهرُ

وروي أن كعباً دخل على عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها فذكرَ عندها رسول الله ـ ﷺ ـ فقال كعب رضي الله عنه: يا أمّ المُؤمنين ما مِن

---

(١) في ب: ما بالك.

(٢) في الترمذي ٣١٤٨، ٣٦٩٢، ومسند الإمام أحمد ١: ٣٨١، ٣: ٢، والدرّ المنثور ٤: ١٩٨، وفتح الباري ١١: ٤٣٣. ودلائل البيهقي ١: ١٣، والشفا ١: ٩٠.

(٣) من بحر البسيط.

(٤) من بحر الطويل.

فجرٍ يطلعُ إلا نَزل سبعونَ ألفاً من الملائكة حتىٰ يحفُّوا بقبرِ النبيّ - ﷺ - يضربون بأجنحتهم القبرَ، ويصلّونَ علىٰ النبي - ﷺ - بألسنتهم، حتى إذا ما أَمْسُوا، عَرجوا، وهبّط سبعونَ ألف ملَكٍ يحفّون بالقَبْر يضربُون بأجنحتهم، ويصلون على النبي - ﷺ - بألسنتهم، سبعون ألفاً بالليل، وسبعون ألفاً بالنّهار حتىٰ إذا انشقّت الأرض عن النبي - ﷺ - وهو أوّلُ مَن تنشقّ عنه الأرض خَرَج في سبعين ألفاً من الملائكة يوقّرونه ويعظّمونَهُ - ﷺ -.[1]

ورُوِيَ[2] في بعض الآثار ومشهور الأخبار: أن جِبريل وميكال وإسرافيل عليهم السلام ينزلونَ إلى قَبر النبي عليه الصلاة والسلام وينزلونَ بالبراق وحُلَلٍ من الجنّة؛ فإذا انشقّت الأَرض عن نبيّنا - ﷺ - نظر إلىٰ جبريل عليه السلام فقال: «يا جبريل ما هذا اليوم؟»

فيقول: يا محمّد يومُ القيامة.

فيقول نبي الرحمة، الرؤوفُ بنا، الشفيق علينا: «يا جبريل ما فَعل الله بأمتي؟»

فيقول: يا محمّد إنّك أَوّلُ من تنشَقُّ عنه الأَرض. ثم يأمر الله إسرافيل عليه السلام أن ينفخ في الصور فإذا الخلق قيامٌ ينظُرون.

فتأمَّلُوا - أيّها المحبّون - ضاعفَ الله حُبّي وحبكم، وبالغ في شوقي وشوقكم كيفَ جَبل الله تعالى نبيكم الرؤوف الرحيم على حُبّكم، فهو

---

(١) تهذيب ابن عساكر ١: ٢٤٣، وكنز العمال ٣٢٠٣٢ إلى ٣٢٠٣٧، ومصنف ابن أبي شيبة ١٤: ٩٨.

(٢) في ب: وقد ورد في

وينظر التذكرة للقرطبي.

في جميع المنازلِ[1] لا يَنساكم، وعند ربّ العِزّة طالباً منه ما يَسُرّكم، ويرضاكم.

فاستبشِرُوا بقول مولاكم الكريم واشكروه كما مَنّ عليكم بمحبّة صاحبِ الخُلُقِ العظيم: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة ٩/١٢٨].

فتوسّلوا إلى رَبّكم بِجَنابِهِ، وقِفُوا عند وارداتِ الشّدائد ببابه.

نـال الـمُـنـىٰ مَـن بـه كـانـت ضَـراعَـتُـه وفـازَ مَـنْ نَـحْـوَهُ تُـزْجَـى بـضـاعَـتُـهُ[2]
وطـاعـةُ اللهِ حَـقّـاً فـهـي طـاعَـتُـهُ هـو الـحـبـيـبُ الـذي تُـرجـىٰ شـفـاعَـتُـهُ
لـكـلِّ هَـولٍ مِـن الأهـوالِ مُـقـتـحـمِ

فصل

[٢٣٣/ب] مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنَّ نبيّنا وحبيبنا أوّلُ مَن تنشقّ عنه الأرض أن يعتقدَ أنَّ الله كرّمه وعظّمه وعَصمه من جميع ما يكره، ورفَعه، فهو عليه الصلاة والسلام في قبره طاهرٌ مطهّرٌ طيّبُ الرائحة، بديعُ المنظر حَسَنُ الوَجْه، مكمّل الخِلقة كما كان قبل. ولم تَعْدُ عليه الأرض، ولا علىٰ شيءٍ من جَسدِه، لأنَّ أنبياءَ الله تعالىٰ صلواتُ الله وسلامُه عليهم مُكرّمونَ عندَ الله، مخصُوصون بكرامةِ الله.

رُوي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنّ رسولَ الله - ﷺ - قال له[3]: «أكثِرْ عليّ من الصّلاة إذا مِتّ». قال رضي الله عنه: وهل

(١) في أ: المهاول.

(٢) هذا التخميس لبيت من بردة البوصيري (ديوانه ٢٤٢).

(٣) لم أجد صدر الحديث بصيغة المؤلف هنا «إذا مت» والذي في المسند مثلاً ٤: ٨ من

تَبلغُك الصلاة منا عليك وقد صِرْتَ رميماً؟

قال عليه الصلاة والسلام: «يا عليّ إن الله حرّم لُحومَ الأنبياء على الأرض أن تأكُلَها، وأنا أكرمُ على الله من أن يسلّطها عليّ».

فإذا قال العبد: «اللهمّ صلّ على محمّد» التقطَها من فيهِ مَلك موكّل بقبري وهو في صورةِ الديك كما يلتقطُ الطيرُ الحَبّ، ثم يقول: يا محمّدا إنّ فلانَ بنَ فلان في موضع كذا صلّى عليك، ويُقرئك السّلام، ثم يكتُبها في رِقّ من نُور بِالمسك الأذفر، ويضعُها عند رأسي حتىٰ أشفعَ لهُ بها يوم القيامة، ويرفع له عشرون ألف حسنة، وتمحىٰ عنه عشرون ألف سيئة، ويغرس له عشرون ألفَ شجرة على شاطىء الكوثر.

فأوّل من ينشق عنه القبر أنا، فيأتيني جبريل عليه السلام بدابة مكتوب بين عَينيها: «لا إلَهَ إلاّ الله محمّدٌ رسولُ الله» ثم يرفع لي رضوان - خازِنُ الجنان - لواءَ الحمد مكتوب في وسطه: «لا إلَهَ إلا الله، محمّدٌ رسولُ الله» لو نشر علىٰ ولد آدم لَغطّاهم إلى آخِرهم، وما سواهم[1]. وجبريل عن يَميني، وميكائيل عن يَساري يهلّلان ويحمدان حتىٰ أضربَ لوائي تحت المِيزان ويدعىٰ العبادُ للحساب. فإذا دُعِيَ العبدُ الذي أكثر الصّلاة عليّ في الدنيا، وُضِعَ عملُه في كفة الميزان فيخفّ

حديث أوس بن أبي أوس قال ﷺ: «من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة عليّ» فقالوا: يا رسول الله! وكيف تعرض عليك صلاتنا وقد أرمت؟ يعني وقد بليت قال: «إن الله عز وجل حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، صلوات الله عليهم».

وينظر لهذا الحديث مجمع الزوائد ٢: ١٤٤، والبداية والنهاية ٥: ٢٧٥، ٢٧٦، والدر المنثور ٦: ٣٣٢، والمستدرك ٤: ٥٦٠، والترغيب والترهيب ٢: ٥٠٣.

(١) في ب: ومن سواهم.

الميزان، فأقول للوازن ارفقْ يرحمك الله فإن له عندي وديعةً وصَنيعة، والكتبُ معي. فيقول لي الوازن: نعم يا مُحَمّد، أنت حبيب الله، أنت اليومَ المطاع. ثم أمر بالكتاب فيفكّ، وفيه اسمُه، واسمُ أبيه، وجَدّه، فأضعه في كِفّة الميزان، وأدعو الله أن يكثر له، ويرجح ميزانه، فيرجح بصلاته عليّ - ﷺ -.

ما أشدَّ رأفتهُ، وما أقوىٰ رَحْمَتُه، وما أحسنَ [٢٣٤/أ] أخلاقه، وما أكرمَ منزلته. فصَلُّوا عليه، وأَحْسِنُوا صلواتِكم، فإنّها تُعرض في القَبر علىٰ نبيكم، وسلّموا عليه في كل ساعة فإنه يرد عليكم سلامكم. واعْلَمُوا أنّ قَدْرَهُ عندَ الله عظيم. فتشَفّعوا بمقامه الكريم.

عَزّ التُّراب لكونِ الهاشميّ بهِ ... كأنّه لؤلؤٌ في التّربِ مكنونُ[1]
مَن ظنَّ أنّ رسولَ الله غيّره ... طولُ المقام بلحدٍ فهو ملعونُ
الجسمُ غضٌ بلا شكٍّ ولا كذبٍ ... والوجْهُ كالبدر تحتَ الدَّجْنِ مقرونُ
والطّرفُ أحوىٰ كحيلٌ دون ما كُحُلٍ ... وقوسُ حاجبهِ في شكلِه نونُ
وورِدُ خدّيه لم يعبث بها كفنٌ ... فوردُ كلّ رياضٍ دونَهُ دونُ
يا حُسْنَ غُرّتهِ من تحت وَفْرَتهِ ... ليلٌ وصبحٌ بهِ ذو اللبِّ مفتونُ
ما في السّمواتِ خَلْقٌ ليس يذكرهُ ... ولا يعظّمه حتىٰ الشياطينُ
محمّدٌ خيرُ خلقِ الله كلِّهم ... ومَنْ يقلْ غيرَ هٰذا فهو مجنونُ!

صلى الله عليه صلاةً تكون منا وسيلةً إليه وتقرّبنا من مكانه وتُنزلنا لديه. وعلى آله وأصحابه الطاهرين وسلّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

---

(١) من بحر البسيط.

باب
في معنىٰ اسمه:
أوّل مَن يدخُل الجَنّة(١)
صلّى الله عليه وسلّم وشَرّف وكرّم

أوّلُ مَن يدخلُ الجَنّة(٢) من أسمائه عليه أفضل الصلاة والسلام جاءت به الآثارُ، ومشهورُ الأخبار.

ومعنى ذلك أنّ أوّلَ من يدخل الجنّة يومَ القيامة هو نبيُّنا وحبيبنا وشفيعنا ووسيلتنا إلىٰ رَبّه. أي: لا يتنعم بها أحدٌ قبلَ مَنْ فضّله علىٰ جميعِ خَلْقهِ، ولا يتمتع بنعيمها بشرٌ قبلَ تنعيمِ واسطةِ عِقْده.

وهذا الحديثُ إن صحّ فلا يعارضُ ما ورد عنه عليه الصّلاة والسّلام أنّه إذا كان يوم القيامة فإنّ النبيّ - ﷺ - يشتغلُ بأُمّته وبخلاصِهم من هَوْلِ المَحْشر، وكلّ أحدٍ من الأنبياء جالسٌ علىٰ مِنبره، ونبيُّنا - ﷺ - لا يجلسُ على مِنبره حتىٰ يتهنّأ مِن أُمّته، ولا يدخلُ الجنة ويتركُهم في أهوالِ المَحْشَر حتىٰ يطمَئنّ منهم ويخلصهم.

فإنّ هذا الحديث ليس فيه ما يَقتضي دخولَ النّاس قَبْلَهُ الجَنّة، بل فيه آيةٌ لرحمتِه ورأفته وشفقته على أُمّته في توقّفهِ على دخولِ الجنّة،

---

(١) من يدخل الجنة في الشفا ١: ٣٣١، والرياض الأنيقة: ٢٦، أول من يقرع باب الجنة.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣: ١٤٤، ومجمع الزوائد ٧: ٣٤٩، ودلائل البيهقي ١: ١٣.

حتى يُزِيلَ كُربتهم، ويُذهِبَ غُمّتهم.

ويحتمل أن يكونَ معنىٰ أول من يدخل الجنة أي أوّل مَنْ يُحْكَمُ له بالدّخول قبل الخَلق [٢٣٤/ب] للعنايةِ به، وأنّها ما خُلقت إلا من أجله.

ويُحتمل أن يكونَ معنىٰ أوّل مَن يدخل الجَنّة أي أول من يدخلُ إليها حتى يَرىٰ مَنزلته، ومنزلة أُمّته، ثم يرجعُ إلىٰ موضعِ الحسابِ حتى تصحبه أُمّته.

ويُحتمل أن يكونَ معناه: أنّ الخلق إذا فَرغت من الحساب، وتشفّع فيهم هذا النبي العظيم يقفونَ عند باب الجنة حتى يأتي إليها سيّد وَلَدِ آدم، وإمام المُتقِين، وقائد الغُرّ المحجّلين، إلى جَنّات النعيم، فإذا جاءَ إليها قد فُتحت له أبوابها دَخل، ثم دَخلت أُمّته الجَنّة ورأتْ نَعِيمها.

ويُحتمل أن يكون «أوّل من يدخل الجنة» أي: أوّل من يدخلُها للشّفاعة حتىٰ يخرّ لله ساجداً تحتَ ساق العرش، لأنّ سقف الجَنّةِ عرش الرّحمن.

وكذا وردَ في بعضِ الأحاديث عنه[١] ـ ﷺ ـ أنّه قال: إذا كانَ يومُ القيامة، وأرادَ الله القضاء بينَ خَلْقهِ نادى منادٍ أينَ محمّد وأمته؟

فيقولُ عليه الصلاة والسلام: «نحنُ الآخرون ونحنُ الأوّلون»، يعني نحن الآخرون في الزمان، ونحن الأوّلون في حسابِ الآخرة.

قال: نقوم أنا وأمّتي، فتصيرُ أمتي بيضَ الوُجوهِ، غُرّاً مُحَجّلين من

(١) سنن البيهقي ٣: ١٧١، وفتح الباري ٢: ٣٥٤ والترغيب والترهيب ١: ٤٩٢.

آثارِ الوُضوء، وتقولُ النّاس: كادت هٰذه الأُمّة أن تكون كلّها أنبياء. ثم أتقدّم إلىٰ باب الجنّة واستَفْتَحُ، فيقال: من هذا؟ فأقول: محمّد وأُمّتُه. فيفتح لي فأدخل الجنة أوّل الخَلق، فأخرُّ ساجداً لربّ العالمين، وأحمده بمحامدَ لم يحمدْهُ بها أحدٌ قبلي ولا يحمده أحدٌ بها بعدي.

فيقول لي ربُّ العِزّة سبحانه: ارفعْ رأسك يا محمد وقُلْ تُسمع، واشفَعْ تُشَفع، وسَلْ تُعْطَ.

فأَرفعُ رأسي، فأشفعُ لِمَنْ كانَ في قلبه مثقالُ حبّة من الإيمان من التّصديق واليقين بشهادة أنْ لا إلّه إلا الله وأن محمد رسول الله[1].

فبالجملة: إن الجَنّة ونعيمها وحورها ومبانيها وأنهارها وعيونها ومحاسنها وخمورها وجمالها وما أعدَّ الله فيها مما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سَمِعت، ولا خَطر علىٰ قلب بَشر ما خلقَها المولىٰ جَلّ جلالُه إلاّ من أجْله، ولمنْ كانَ مصدّقاً به ـ ﷺ ـ ما طلعت شمسٌ وقمر.

فعليكمْ رضي الله عنكم بمحبّة نبيّكم، وتحابُّوا في اللهِ تعالىٰ فيما بينكم، لعلكم تجتمعون في الجنة مع حبيبكم.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[2] عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنّه قال:

إنّ للمتحابّين في اللهِ تعالىٰ عَمُوداً من ياقوتةٍ حَمْراء، في رأسِ

---

(١) ورد في كتب الحديث بألفاظ مقاربة؛ منها في صحيح مسلم ١٨٢ (في كتاب الإيمان) وفي بعض رواياته ١٨٤ «فيقال يا محمّد ارفعْ رأسك وقل يُسمع لك وسل تُعْطَ واشفعْ تُشَفَّع فأقول يا ربّ ائذن لي فيمن قال لا إلّه إلا الله. قال ليس ذاك لك أو قال ليس ذاك إليك؛ ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأخرجَنّ من قال لا إلّه إلا الله.
وينظر مسند الإمام أحمد ١: ٢٨٢، وسنن الدارمي ٢٧، ٢٨.

(٢) الدر المنثور ٣: ٣١١.

العمود سبعون ألف غُرفة، يُضيءُ حُسنهم لأهل الجنة [٢٣٥/أ] كما تضيءُ الشمس لأهلِ الدُّنيا فيقول أهلُ الجنّةِ بعضُهم لبعض: انطلقوا بنا حتىٰ ننظر إلىٰ المتحابين في الله، فإذا أشرفوا عليهم أَضاءَ حُسنهم لأهلِ الجَنّة كما تُضيءُ الشمسُ لأهلِ الدّنيا؛ عليهم ثياب خضرٌ من سُندسٍ مكتوب علىٰ جباههم: هؤلاء المتحابّون في الله.

زين الله في قلوبنا محبته، وألزمنا هديه وطريقته ـ ﷺ ـ وشرّف وكرّم صلاة تحبّبنا طاعته.

سـيّـد الـنـاسِ كـلـهـمْ	أنـت يـا حـاشـر الأُمَـمْ[1]
مـمـكـن الـكـون واجـبٌ	جـامـع الـعـلـم والـحـكـمْ
فـاتـحٌ أنـتَ خـاتـمٌ	طـبـت فـتـحـاً ومـخـتـتـمْ
ظـاهـرٌ أنـت بـاطـنٌ	مـعـلـن الـسـرّ مـكـتـتـمْ
أوّلٌ أنـت آخِـرٌ	واضـحُ الـنـور فـي الـظُّـلَـمْ
احـكـم الـيـومَ مـا تـشـا	كُـلُّ مـن عَـزّ قـد حـكـمْ
يـا أمـانـاً لـكـل شـيء	وعـيـاذاً مـن الـنّـقـمْ
أنـت للهِ مـظـهـرٌ	بـيـتـهُ أنـتَ والـحَـرمْ

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ نبينا ـ ﷺ ـ أوّل مَن يدخل الجنّة: فليُسارع إلىٰ الخيرات، وليُبادر إلىٰ جميع الحسنات، ويشدد علىٰ نفسه بمشاقّ

---

(١) من مجزوء الخفيف.

ـ ومقاصد الشعر وألفاظه تشرب من «مذهب القوم».

المكروهات؛ فإنْ فعلَ ذلك كانَ أوّل من يدخل الجنة لقوله ـ ﷺ ـ[1]: «حُفّت الجنّةُ بالمكاره، وحُفّت النّارُ بالشهوات».

فبادروا رحمكم الله بالأعمالِ الصّالحة، فإنها توجبُ لكم عند الله تعالى في الجنّة رفعَ الدّرجات. روىٰ التّرمذي عن بُرَيدة رضي الله عنه قال[2]: أصبحَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ فدعا بلالاً فقال: يا بلال، بِمَ سَبقتني إلىٰ الجنّة، فما دخلتُ الجنّةَ إلا سمعتُ خَشْخَشتك أمامي، ولقد أتيتُ على قصر بِشَرفٍ من ذهب، فقلت: لمن هذا القَصر؟

قالوا: لرجل عربيّ!

فقلت: أنا عربيّ، فَلِمَنْ هذا القصر؟

قالوا: لرجل من أمة محمّد.

فقلت: أنا محمد. لمن هذا القصر؟

قالوا: لبلال!

فقال بلال: يا رسول الله، واللهِ ما أذَّنتُ قطُّ إلا صَليتُ ركعتين، وما أصابني حدثٌ قَطّ إلا توضّأتُ عنده، ورأيت أنّ لله تعالى عليّ ركعتين.

فقال عليه الصلاة والسلام: بهما سَبَقْتني.

ولذٰلك كان بلال رضي الله عنه: أوّل من يَقْرَعُ بابَ الجَنّة يومَ القيامة.

---

(١) صحيح مسلم ٢١٧٤، ومسند أحمد ٢: ٢٦٠.

(٢) الترمذي ٣٦٨٩، ومسند أحمد ٥: ٢٥٤ وتهذيب ابن عساكر ٣/ ٣١٠.
ويُنظر باب فضل بلال المؤذن رضي الله عنه من مجمع الزوائد ٩: ٢٩٩، ٣٠٠.

فسارعْ ـ أيّها المحبّ ـ في الأعمال الصالحات، وتزودّ في هذه الدار من التُّقىٰ ما تنالُ بهِ في الجنّة رفع الدرجات.

ومن كرم الله تعالى بعباده أن سهّل لهم ما ينالونَ بهِ القُصور، ويسرّ لهم من الأعمالِ ما يُضاعف لهم به الأُجور.

روي عن سعيد بن المسيّب رضي الله عنه أنه قال: [٢٣٥/ب] أنّ النبي ـ ﷺ ـ يقول[1]: من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١/١١٢] إحدى عشرة مرّةً بُنِيَ له قصرٌ في الجنة، ومن قرأها ثلاثين مرّة بُني له ثلاثة قصور في الجنة. فقال عمر بن الخطاب: إذاً تكثرُ قصورنا فقال النبي ـ ﷺ ـ: الله أكرمُ وأوسع من ذلك.

فانظرُوا إلى كرم مولاكم، واشكُروه تعالىٰ لهدايته إياكم، فإنّه الجوادُ الكريم، الرؤوفُ الرّحيم.

فسبحانه وتعالىٰ كيف خصّ من شاء من عباده، واصطفىٰ من اختاره من خواصّ أحبابه.

أنشدَ بعض العارفين مِمَن غلبه الشّوق من المحبّين: رضي الله عنهم أجمعين، وحشرنا معهم في أعلى علّيين.

قد كنتُ أحسب أنّ وصلك يُشترى ... بكرائمِ الأموالِ والأشباحِ[2]
وظننتُ جهلاً أنّ حبك هيّنٌ ... تغنىٰ عليه نفائسُ الأرواحِ
حتىٰ رأيتكَ تجتبي وتخصّ من ... أحييته بلطائفِ الأَمناحِ
فعلمتُ أنكَ لا تنالُ بحيلةٍ ... ولويتُ رأسي تحتَ ظِلّ جناحي

---

(١) الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور ٦: ٤١٣، وفيه روايات بألفاظ مقاربة؛ ينظر مسند الإمام أحمد ٣: ٤٣٧، والدارمي ٢: ٤٥٩.

(٢) من بحر الكامل.

وجعلتُ في عشّ الغرام إقامتي فيه غُدُوّي دائماً ورواحي

اللهمّ يا جابرَ قُلوب المنكسرين، ويا أمانَ الخائفين، وما معطيَ السّائلين. عبيدُكَ يا مولانا ببابِ جُودك واقفون، وفقراؤك الضّعفاء، بعزيز القَدْر عندكَ مُستشفعون. فأمِّنْ رَوْعَتنا يا رب العالمين، وأزِلْ كُربتنا يا أرحم الراحمين، وأجبْ دُعانا يا أكرم الأكرمين.

وصلّى الله على سيّدنا وشفيعنا ووسيلتنا وعُمدتنا سيد الأولين، محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً وزاده مولانا تشريفاً وتعظيماً.

باب

في معنىٰ اسمه:

أَمَنَةٌ لأصحابه[1]

صلّى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

أمنة لأصحابه: اسمٌ من أسمائه ـ ﷺ ـ، قال عليه الصلاة والسلام: «أنا أمانٌ لأصحابي». ورُوي أيضاً: «أمَنَةٌ لأَصحابي».

فاختلفَ العلماء رضي الله عنهم ما معناه فقيل: أمانٌ لهم من البِدَع، وقيل: إنّه أَمان لهم من الاختلاف والفتن، ويُحتمل أنّه أَمان لهم يوم القيامة[2] من المكاره والذلة والخِزي والإهانة.

بل هو الأمان لأُمّته كلّها من الخِزي والنّكال والذُّلّ والهَوان، ومن الخُلود في النيران. بل هو الأمان لجميع المخلوقات بخلاصهم من شِدَّة

---

(١) أمنة لأصحابه في الشفا ١: ١١١٩، ٤٧١، وسبل الهدى والرشاد ١: ٥٣٣، وينظر صحيح مسلم ١٩٦١ ومسند الإمام أحمد ٤: ٣٩٩.

وفي صحيح مسلم ١٩٦١ عن سعيد بن أبي بردة عن أبي بردة عن أبيه قال صلّينا المغرب مع رسول الله ﷺ ثم قلنا يا رسول الله صلينا معك المغرب ثم قلنا نجلس حتى نصلي معك العشاء قال: «أحسنتم» أو أصبتم. قال: فرفع رأسه إلى السماء، وكان كثيراً ممّا يرفع رأسه إلى السماء فقال: «النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجومُ أتى السماء ما توعد. وأنا آمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون. وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمّتي ما يوعدون».

(٢) في أ: يوم الميقات.

الحشر والهول يوم القيامة.

قال بعض المحبّين في سيد المرسلين - ﷺ -: هو الأمانُ الأعظم ما عاش، وما دامت سُنّتهُ باقيةً، فهو باقٍ، فإذا أُميتت سُنّته فانتظروا البلاءَ والفِتن [٢٤٦/أ].

وقد أمّنَ الله تعالى أهلَ مكّة من نزول العَذاب بهم، فقال تكريماً لهم به وتأميناً معَ أنّ أكثرهم حين نَزلوها جاحدون ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال ٨/ ٣٣].

فلما هاجرَ المؤمنون من مكّة قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال ٨/ ٣٤].

وهٰذا مِن أبْيَنِ ما أظْهَر الله تعالىٰ به مكانته، ومن أقْوى ما أبانَ به عنده مَنزلته في كونه درَأ بسببه العذاب عن أهل مكة بِوُجوده ثم بوجودِ أصحابِهِ وأحبابه، الذين نالُوا البركة باتّباعه، فلما خَلتْ مكّةُ منهم عذّب الله أهلَها بتسليط المُؤمنين عليهم، وغلبتهم إيّاهم، وحكّم فيهم سُيوفهم، وأَورثهم أَرضَهُم وديارَهُم وأموالهم.

وبالجُملة: فهو أَمانٌ[١] العالمين، وكنز أسرار العارفين الّذي لم يُشاهد أهل العالم قط خيراً في الكون إلا ببركته.

ولم يُسمع في الوُجود دَفْعُ ضُرٍّ إلا بسببه، والتعلُّقِ به - ﷺ - وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

---

(١) «أنا أمانٌ لأصحابي» في الشفا ١: ١١٩، و«أنا أمان، والاستغفار أمان» في الدر المنثور ٣: ١٨٢.

يـا أمـانـاً لـكـل شـيء   وعـيـاذاً مـن الـنـقـمْ[1]

أنـت لله مـظـهـرٌ   بـيـتـهُ أنـتَ والـحـرَمْ

فمن استَظلّ بظلّ أمانِه، وسكنَ في بيت محبّته ولوائه، واستجارَ بِحصنه الحَصِيْن من أَزمات الزّمان وإبرامه، سكن في ظلٍّ ظليلٍ مع عيشةٍ راضية، وتحصّن بدرع العزيز القدر عند الله في جَنّةٍ عالية، قُطوفُها دانية.

ولقد صَدق ولي الله، العارف بالله، سيدي علي بن الوفا[2] في قصيدته في مدحِ الحبيب، الأمان لكلّ لبيب، التي دلّت علىٰ كمالِ مَقامِهِ وقوّة استِبْصَارِه في عِرفانه:

سكَنَ الفؤاد فعشْ هنيئاً يا جسدْ   هذا النعيمُ هو المقيمُ إلى الأبدْ[3]

أصبحت في كنَفِ الحبيبِ ومن يكنْ   جارَ الكريم فعيشُه عيشُ الرَّغَدْ

عِشْ في أمان الله تحت لوائه   لا خوفَ في هذا الجَنابِ ولا نكدْ

لا تخشيَنْ فَقراً فعندكَ بيتُ مَنْ   كلّ المنىٰ لكَ من أياديه مَدَدْ

قال بعض من شرَح هذه القَصيدة من الأولياء: يغلبُ علىٰ الظنّ أنّ هذه القصيدة لم يسبقْ إليها في مدحِ المُصطفىٰ لحلاوتها ووجازةِ لَفْظِها، وانتقاءِ الأوصاف التي وصَف بها النبيّ الأعظم، وحلّى بها الرَّسُول الأكرم، التي لم يشاركه فيها مخلوق. فصلى الله عليه وسلم.

فقوله: «سكن الفؤاد إلخ... البيت» يشير إلى أن المحبّ قلبُه مضطربٌ بسبب محبّته فإذا وصل إلى رؤيته، إما برؤية البصر أو بكشفِ البَصيرة زال اضطرابُه، وخَمد اضطرامُه [٢٣٦/ب]، فإذا بلغ المحبّ

---

(١) من مجزوء الخفيف وقد سبق في آخر الباب السابق.

(٢) تردّد اسمه في هذا الكتاب.

(٣) من بحر الكامل.

مناه، وذهب عن الجسدِ تعبُه، وشقاه، وتنعمت الروحُ وانقادَتْ إليها الخيراتُ فأَغْنَتها وصلحت البضاعة بمشاهدة أحبتها، فحقّ على الأجسادِ أن تستريح وتتنعّم بنعيم ملكها.

ثم قال رحمه الله:

أصبحت في كنف الحبيب ومن يكن جارَ الكريمِ فعيشهُ عَيشُ الرَّغَدْ

إشار إلى أن من وصل بالمحبّة المذكورة، واستظلّ بالظّلال المأثورة، وتعلّق بكنف حبيب ربّ العالمين، وتعلّق بباب نبيّ الله أكرمِ الأكرمين وجاوَر الكريم على الله سيّد المرسلين، كيفَ لا يكونُ عيشُه عيشاً رَغداً، ولا ينالُ عند ربّ المخلوقاتِ رفعةً ويَداً، ولا تأتي إليهِ الفتوحاتُ الربانيّة ركّعاً وسجّداً.

قال بعضُ العارفين: من تعلّق بأحبّ الخَلق على الله، وجاورَ بقلبه كنَف رسول الله، وشرب بكأس أهل الوفا ومُنِحَ حبّ المصطفى، وامتلأت عروقُه وأوصالُه وحقائقُه ورقائقُه بما منحه الله وسَقاه، ومَنّ عليه به ورَواه، فلا تسألْ - أيّها المحب - عما يحصل لكَ من اللذاتِ الروحانيّةِ، والتنعّماتِ الظّاهرة والباطنة واللّدُنيّة.

هذا مع أنك لا خَوْفٌ عليك ولا حُزن لديك، لأنّك في جنّةِ الفِردوس التي خُلقت من أجلِهِ، وفي رياضاتِ المَعارفِ المُسْتدَل عليها سترُ حُسنه.

فلذا قال رضي الله عنه ونفَع به:

عِشْ في أمان الله تحتَ لوائهِ لا خوف في هذا الجَنابِ ولا نكدْ

معناه: أنّ كل جناب يتعلق به من المخلوقات غير جناب سيّد البريّات، تعتريه الهموم والأنكاد، ويغلبه الغُموم والأضداد!

ومَن تعلق بجناب عزيز القدر عند الله، وانقطع إلى محبّة صَفوة الله، واستظلّ بأمانِ الله علىٰ خلقه، ودخل تحت لواء رَسُوله وعبده عاشَ عَيْشاً هنيئاً، وصارَ في حياته وبعد وفاته راضياً مرضيّاً، فلا خوف عليه في حياته، ولا حزن لديه من الأنكاد بعد مماتِه؛ لأنه قد وصل بمحبّته إلىٰ الأمان الأعظم، واتّصل بخدمتِهِ إلى النبيّ المُحترم.

فللّهِ الحمدُ على ما هيّأ لنا من بَركةِ خاصةِ حضرةِ أهل الوداد، ويسّر لنا محبّة حبيبه وصفيّه وأصحابه الطّاهرين الأمجاد:

هو الذي يبلغ المأمول راجيهِ ... ويدركُ الفوزَ من أضحىٰ مُدانيهِ[1]

وهو المؤمّن ممّا خافَ جانيهِ[2] ... حاشاه أن يحرم الرّاجي أمانيهِ

أو يرجعُ الجارُ منه غيرَ محترمِ

فمذحه ذُدَتْ عن قَلبي جوائحَهُ[3] ... ورحت فائزَ بيعٍ فيه رابحَهُ

فلستُ أنفكُّ غاديهِ ورائحَهُ ... ومنذ ألزمتُ أفكاري مدائحَهُ

وجدتُه لخلاصي خيرَ مُلْتَزمِ

فصل

[٢٣٧/أ] مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ اسم نبيّنا ـ ﷺ ـ أمنة لأصحابه، والأمان الأعظم لأحبابهِ أنْ يكونَ صادقاً في محبّته، مبالغاً في مودّته، خارجاً عن مُرادِهِ إلى مُراده.

قال بعضُ العارفين: حقيقةُ المحبّة أن تهبَ نفسكَ لمن أحببته،

---

(١) تخميس لبيتين من بردة البوصيري (ديوانه: ٢٤٢).

(٢) في ب: ممن خاف جانبه.

(٣) في ب: ذرتْ عن نفسي.

ولا يَبقىٰ لكَ منكَ شيء.

فإن أحببت مولاكَ جلّ جلالُه، وكَثُرَ نوالُه، فسلّمْ نفسَك له واترُكْ المُلكَ معه، فإنّ مالك المُلوك لا مالكَ معه.

وإن ادّعيت محبّة نبيّه، والأمان بخلقهِ فاخرجْ عن شهواتِ نفسك إلىٰ أوامرِ نبيّك، وقفْ عندَ حدودِ رسولك ولا تَغْفَل عن ذِكر حبيبك.

قال يَحيىٰ بن مُعاذ[1] رحمه الله: واعَجباً لمن يدّعي المحبّة لشيءٍ وهو يَصْبِرُ عن ذكر حبيبِهِ ساعةً، وإذا كنت محبّاً للأمانِ لكلّ شيءٍ فكنْ محبّاً لِما كانَ يحبّه.

قال بعضُ العارفين: مَن ادّعىٰ محبّة الله مِن غيرِ تورّع عن محارمِه فهو كاذب، ومن ادّعى محبة الجنة من غير إنفاق ماله فهو كاذب، ومن ادّعى حبّ رسول الله - ﷺ - من غير أن يحب الفقر فهو كاذب.

وكانت رابعة[2] رضي الله عنها كثيراً ما تُنشد:

تَعْصي الإلٰهَ وأنتَ تُظهر حُبّه ... هٰذا لعمري في القياسِ بديعُ[3]
لو كانَ حُبّك صادقاً لأطعْتَهُ ... إنّ المحبَّ لمن يُحِبُّ مطيعُ

كان النبي - ﷺ - يوماً جالساً مع أصحابه الكرام، الأئمّة الأعلام فقال: «أحبّ من الدنيا ثلاثاً النساء والطيّب، وجعلتْ قرّةُ عَيني في الصلاة».

فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لشدة محبّته في رسول الله - ﷺ -: وأنا أحبّ من الدنيا ثلاثاً: جَثوي بين يديك، وإنفاق مالي

---

(١) تردّد اسمهُ في الكتاب.

(٢) هي رابعة العدويّة. وقد مرّ ذكرها.

(٣) من بحر الكامل.

عَليك، وكثرة الصلاة عليك[1].

فتأمّلْ رَحِمك الله مقامَ هٰذا الصّديق رضي الله عنه في قوّة محبّتهِ في رسولِ اللهِ، ونُصحهِ لحبيب الله، وأنه ما يحبّ من الدنيا إلاّ ما كان يقرّبه من الله تعالىٰ أقوىٰ القربات، ويُوصله إلى أعلىٰ الدرجات.

وما وجد رضي الله عنه قُرباناً يُتقرّب به، ولا ظّلاً يستظلُّ به في هٰذه الدار إلا خدمةِ الأمانِ لكلّ مخلوق، والتعلّق ببابِ الله تعالىٰ الذي ليسَ بمغلوق.

ونحنُ وإن لم نكن صادقين في محبّتنا؛ قاصرين[2] في اتباعنا لنبينا؛ جامعين للسيئات، مقلّين من الحسنات، غافلين عن حساب يوم الميقات؛ فقد دَخلنا تحت لوائه الكريم، وتشفعنا إلى ربّنا بصاحب الخُلُقِ العظيم، واستَنْصَرْنا بجنابهِ عند حُلول [٢٣٧/ب] الخطب الجسيم.

إن عاينَ النّاس ذاتَ الهول واللّهبِ   وخافَ كلّ الورىٰ فيه من العَطبِ[3]
فأنت تكشفُ عنّي شدة الكُرَبِ   ولن يضيقَ رسولَ الله جاهُك بِي
إذا الكريم تجلىٰ باسم منتقِمِ

وصلّىٰ الله على سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

---

(١) الحديث: «حبّب إليّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجعلت قرّة عيني في الصلاة» الشفا ١: ١٩٤، والقرطبي ٢: ١٤، وتهذيب ابن عساكر ٢: ٣ والنسائي من حديث أنس دون قوله «ثلاث».

(٢) أي: وكنا قاصرين... جامعين... مقلّين.
وحق المؤلف أن يعيد الفعل لاختلاف الحال بين النفي والإثبات.

(٣) تخميس لبيت من بردة البوصيري (ديوانه: ٢٤٨).
وفي ب: ذات اللهو واللعب.

باب

في معنىٰ اسمه

قُثَم(١)

صلّىٰ الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

هذا الاسمُ العظيم قيل: إنّه اسمٌ من أسماء نبيّ اللهِ الكريم، ومن ألقابِ رسولِ اللهِ عليه أفضل الصلاة والتسليم وقد وَرَد عنه ـ ﷺ ـ: أنا قيّم. وقيل: إنّ صوابه: قُثَم.

والصواب: أنهما اسمان من أسمائه ـ ﷺ ـ.

فاسْمُه «القَيّم» بمعنىٰ الجامع القائم لعبادِ الله بأَعباءِ الرّسالة، وأثقال النبّوة، الحامل لهم عن رَبّهم أحكامه الموصل لهم إمضاءه وإبرامه.

وأما اسْمُه «قُثَم» فقيل: معناه الجامع للخير. وقد روي عنه عليه الصلاة والسلام أنّه قال(٢): «أتاني ملك فقال: أَنت قُثَم»؛ أي مُجتمع.

والقُثَمُ: الجامع للخير.

---

(١) قُثَم (أو القُثَم) في الشفا ١ : ٣١٦، وأسماء رسول الله ﷺ ومعانيها لابن فارس ٣٨، وسبل الهدى والرشاد ٦١٦، والرياض الأنيقة ٢٢٣؛ ومناهل الصفا ٣٦.
وينظر مسند الإمام أحمد ٤ : ٣٠، والدر المنثور ٥ : ٣٣٨.
وينظر القيّم في سبل الهدى والرشاد ١ : ٦١٨.

(٢) مناهل الصّفا ٣٦.

وهذا الاسْمُ لِلنَّبيّ عليه الصلاة والسلام معلوم، والاتّصافُ به في حقّه منظُوم، لأنّه جامعٌ للخيرات، نظامٌ لاجتماع البَركات. ولذا سَمّته المحبُون ووصفته العارفون أنه الجامع المخصوص لاتّساقِ الفضائلِ فيه، وانتظامِ الفَواضل انتظامَ البُنيان المرصون.

ومعنىٰ «قثم» في حقه - ﷺ - هو الجامعُ لحقائقِ الأكوان، النّاظم المَواهِب لأهل العِرفان.

وقد جَمعت ذاته الكريمة حقائق الموجُودات، ونبوءته سائر النبوءات، والكتاب المُنزل عليه جامعٌ لسائر الكتب السماوية المُنزلة على الأنبياء من قبل الألوهية.

وقد جمع الله سُبحانه في نُورِهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ سائرَ الأنوار، وجعَل ملّته جامعةً لِملل خَواصّ الملكِ الجَبّار، ويومه جامعاً لسائرِ أيّام الله، وقلبَهُ يَنْبُوعاً لينابيعِ حكمةِ الله. ولسانهُ آتاه الله فيه جَوامعَ الكلم، وكان أفصحَ العربِ والعجم؛ وجمالُه جمع فيه الحسن كله، فكان أجملَ الخَلق؛ لأنّه حبيب الملك الحقّ. وهو الذي عجز عن حُسنِ وصفهِ بلغاءُ الأدَب، وأقَرّتْ بذٰلك الواصفون [٢٣٨/أ] وأهْلُ النّسب.

قال بعضُ المحقّقين، والعُلماء المحبّين: إن نبيّنا - ﷺ - أعطاه الله مقاماتِ جميعِ الأنبياء والرُّسل، وجمعَها له في عالم الأرواح حتىٰ بُعِث بجسمِهِ الكريم - ﷺ - فتبعته الأُمّة في عالم الأشباح(١).

---

(١) في ب: وجمعها له في عالم الأشباح... واضطرب في ج في كتابة الكلمة والترميج عليها.

فأولياء الأُمم[1] الماضية، وزُهّاد الأُمم السالفة يأخُذون المواهب، ويستمدّون من أنبيائهم، ويتعبّدون بالأحكامِ من رُسلهم وأَنبيائهم.

وأنبياؤهم ورُسلهم وصُدورهم يستمدّون من عين الأكوان، ومن نُور السيّد القُطب الجامِع لِمقامات العِرفان. فأنبياءُ الله صلواتُ الله وسلامُه عليهم آخِذُون في المعنىٰ عن رَسُولِ الله ـ ﷺ ـ. كما أنّ علماءَ هٰذه الأُمّةِ آخذونَ عن حبيبِ الله، ولذا قال الصادق المَصْدُوق ـ ﷺ ـ حبيب الملك الجليل[2]: «علماء أُمّتي كأنبياء بَني إسرائيل».

وقد ورَد في بعض الآثار أن أولياء هذه الأُمّة منهم من قَلْبُه علىٰ قلبِ إبراهيم عليه السلام ومنهم من قلبُه علىٰ قلب موسىٰ عليه السلام، ومنهم من قلبُه علىٰ قلب عيسىٰ عليه السلام.

ومعنىٰ ذلك أنّ استمدادَ الوليّ من سيّد الأكوان، كاستمدادِ النبيّ من صاحب البُرهان، ولذا لمّا أنْ أرادَ الله إظهارَ مناقبِ الخلفاءِ الكرام، الأئمة الأعلام، أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام فقال[3]: «يا محمّد من أراد[4] أن ينظر إلىٰ شيبة إبراهيم ـ خليل الرّحمن ـ فلينظرْ إلىٰ شيبة أَبي بكر الصّدّيق، ومَنْ أحبَّ أن ينظرَ إلىٰ شيبةِ نُوح فلينظر إلى شيبة عُمر بن الخطاب، ومن أراد أن يَنظر إلىٰ شيبة موسىٰ فلينظر إلى شيبة عُثمان، ومن أراد أن ينظر إلىٰ شيبة هارُون فلينظر إلى شيبة عليّ بن أبي طالب».

---

(١) في أ، وج: فأولياء الأنبياء. وفي ب: فأولياء الأمة وأثبت قراءتي للعبارة.

(٢) كشف الخفا ومزيل الإلباس ٢: ٨٣، وتذكرة الموضوعات للفتني ٢٠، والسلسلة الضعيفة (للألباني) ٦٦٦.

(٣) لم أجده في المقاصد السنّة.

(٤) في أ: من أحبّ.

ففيه إشارة لطيفةٌ، ونكتة جميعة إلى أن أنبياء الله آخذونَ عن رَسُولِ الله، مستمدّون من نُور حبيبِ الله.

وأن خلفاءه نائبون عنه في بيان الأحكام، مُوصلون حقائقَ الشّرائع إلىٰ الأَنام؛ وقد شابهوا أنبياء الله ورُسله في أَخْذِهم واستِمْدادهم، وشاركوهم في معناهم مقام الولاية، ولا يوازي منزلتهم أحدٌ من أهل العناية.

فهٰذه كلّها إشارات[1] إلىٰ أنّ نبينا عليه الصلاة والسلام هو الجنسُ الأعلىٰ لسائر الأَجناس من المخلوقات، والأَب الأوفىٰ إلىٰ جميع الموجودات [٢٣٨/ب].

وقد ذكر بعضُ أهلِ الإشارات في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة ٢/١٤٣].

إن الله تعالى أيّد موسىٰ عليه السلام باسمه (الربّ) فقال عز وجل: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف ٧/١٤٣] فصار الجبل دكّاً بقدرة الله تعالى.

وأيّد عيسىٰ عليه السلام باسمه المُحْيِي، فكان يُحْيِي الموتىٰ بإذن الله، وأيّد سيّدَ الأكوان، ونور الصّدور والأعيان بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ [الأنفال ٨/٦٤] فكان الله هو مانِعَهُ وحَسْبَهُ باسمه الجامع للأَسماء والصّفات الصّادقة علىٰ الذّات. فخصّه الله تعالىٰ بأمر الجمع والمرجع إلىٰ علوّ الوحدة. فكان عليه الصّلاةُ والسّلامُ بين[2] خلقِ الله واحداً في الذّات والأَفعال والصّفات.

---

(١) في أ: إشارة.

(٢) في ب: من خلق الله.

ما شئتَ قُلْ فيه فأنتَ مصدِّقٌ | فالحبُّ يقضي والمحاسِن تَشْهَدُ[1]
أنا في الغرامِ به محبٌّ واحدٌ | وهو الذي في الحسن فردٌ أوْحَدُ
ملكَ المحاسنَ والقلوبَ بأسرها | فلذاك أربابُ الملاحة أعبدُ[2]
سلْ كلّ قلبٍ عن هواهُ فإنّهُ | ينبي[3] بوجدٍ مثله لا يُجْحَدُ

فصل

مِن آداب مَن عَلِمَ أن نبينا - ﷺ - جامعٌ للخيرات، معدنٌ لنزول البَركات أن يتبعَ آثاره، ويصدّق أخباره، فإنّ ما مِن خير إلا وقد ندَب الخلق إليه، وحثّهم عليه، وما من شرّ إلا وقد نَهاهم عنه، وأخبرهم أن العقوبةَ لديه.

فكونُوا عباد الله متّبعين له في جميع الخيرات، مسارعين إلىٰ الطاعات، وقِفُوا علىٰ خلقه العظيم، وطالِعُوا سيرة الرؤوف الرحيم، كيفَ كانَ عدلُه، وأمانتُه، ووقارُه، وصَمْتُه، ومروءَتُه، وزهده، وعلمه، وخوفه، وطاعته، وشدّة عبادته، وحسن زهده، وعلمه بربّه، وكذا سيرة أصحابه رضي الله عنهم في اتباعهم، وحسن طريقتهم.

هذا أبو بكر الصّديق رضي الله عنه لمّا نال الخلافة أصبحَ غادياً إلىٰ السّوق، وعلىٰ رقبته أثوابٌ[4] يتَّجِرُ بها، فلقيه عُمَر وأبو عُبَيدة رضي الله عنهما فقالا له: أينَ تريد يا خليفةَ رسول الله؟ فقال: «إلىٰ

---

(١) من بحر الكامل.
(٢) اعبد جمع عبد.
(٣) في ب: ينثي.
(٤) كان أبو بكر رضي الله عنه يتجر بالنَّسِيج (تُنظر ترجمته في كتب المناقب مثل الرياض النضرة، الجزء الأول).

السوق!» قالا: ماذا تصنع وقد وليت أَمْرَ المؤمنين؟ فقال: «من أَين أطعم عيالي؟» قالا له: انطلقْ حتّىٰ نفرِضَ لك شيئاً. فانطلق معهما ففرضوا له كل يوم نصفَ شاةٍ، وما يكسوهُ في الرّأس والبَطن.

وهٰذا عُمَر بن الخطّاب رضي الله عنه قالت له ابنته حَفْصَة زوج النبيّ - ﷺ - ذات يوم لما فتح الله الإسلام علىٰ يديه، وكَثُرت الخيرات، وظهرت الفتوحات:

يا أبة! لو اتخذتَ ثياباً تلبسها إذا قَدِمَ الوفودُ عليك، وطعاماً تُطعِمُهُ [٢٣٩/أ] مَنْ حَضرك[١]، وقد كانت عليه مرفقة[٢]، فقال لها: أنشدك بالله يا بُنَيّة، هل تعلمين أحداً أعلم بحالِ الرّجُلِ من أهل بيته؟

فقالت: لا.

قال: أنشدك بالله هل تَعلمين رسول الله - ﷺ - كان يَنامُ علىٰ عباءة مثنِيّة؛ فثنوها له ليلةً من اللّيالي علىٰ أربعةٍ؛ فنام ثم استيقظ فقال: لقد منعتموني قيام ليلتي بهٰذه العباءة.

وأنشدك الله: هل تعلمين أنّ رسول الله - ﷺ - نزعَ ثيابَهُ لِتُغسل فحضَرت الصلاة فلم يجدْ ما يخرج به غيرها؟

فيجب علىٰ المحبّين أن يتخلقوا ببعض صفات سيد المرسلين. وقد كانت الأَولياء رضي الله عنهم يَقْتَدُون بأشياخهم، ويمتثلون أمر أحبابهم. فكيف بالمحبّ لسيد الأنام، المتبع لبدر التمام ألا يكون مُقتدياً بآثاره، ناظراً (مُستمعاً) لأخباره. وقد قيل للأحنف بن قيس[٣]

---

(١) أي من زادَك.

(٢) المرفقة المتكأ، والمخدّة.

(٣) الأحنف بن قيس المنقري التميمي أبو بحر، (٣ق .هـ - ٧٢هـ) كان سيّد تميم وأحد =

رحمه الله: ممّن تعلّمت الحِلْم؟ فقال: مِن قيس بن عاصم.

فقيل له: فما بَلغ من حِلْمه؟

فقال: بينما هو جالسٌ في داره إذ أتَتْهُ خادمٌ له بِسَفُّود عليه شِواء، فسقط السَّفُّود من يدها علىٰ ابنٍ له صغيرٍ فعقره فمات. فَذُهِشت الجارية فقال: لا يسكّن روعَ هٰذه الجارية ويُذهبُ خوفها إلا عِتْقُها، فقال لها: أنت حُرَّةٌ لوجهِ الله تعالىٰ، لا بأس عليك.

هٰذه أحوالِ المراقبين، وطريقةُ الخائفين، الذين علموا أن الدنيا هُم عنها راحلون، وأيْقَنُوا أنّهم مُلاَقو رَبّهم وأنّهم إليه راجعون.

ونحنُ المساكين مشتغلون باللّذات، غافِلُونَ عن يوم الميقات، مُعرضون عن سكرة المَمات، كأنّنا في هذه الدار الفانية مُخَلّدون؛ فإنا لله وإنّا إليه راجعون.

تنامُ عن العَليا وغيرك يقظانُ ... وتصْبُو إلىٰ الدّنيا فها أنتَ هيمانُ[1]
وتَتْرُكُ للوُرّاث ما قد جَمَعْتَهُ ... مُباحاً ومحظوراً فما لك لَهفانُ
ستعلمُ قولي حين ينكشفُ العطا ... لقد عقلتْ منا عقولٌ وأذهانُ[2]
لقد أنذرَ الموتُ العقول لو انتهت ... وكانَ لها فيما تقدّم تبيانُ
مصائبُ دنيانا كثيرٌ نَعُدُّها ... وبعدَ سرورٍ يعقبُ المرءَ أحزانُ!

= العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين. ويضرب به المثل في الحلم. أخباره كثيرة جداً، وله خطب وأقوال كثيرة.

(١) من بحر الطويل.

(٢) في ب: علقت.

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلّم تسليماً، صلاةً ندّخرها عُدّةً، عند كلِّ ضيقٍ وشِدَّة.

باب

في معنىٰ اسميه

الخاتَم والخاتِم(١)

صلّى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

[٢٣٩/ب] الخاتَم والخاتِم: اسمان من أسمائه عليه أفضلُ الصّلاة والسلام قد وَردت فيه الأَخبار، واشتهر ذلك في أَلسنةِ عُلماء الأَمصار.

ومعنىٰ اسمه الخاتِم: يرجع إلىٰ معنى اسمه عليه الصلاة والسلام خاتِم النبيين، وقد قدّمنا ما يليقُ بهذا الاسم الكريم، وذكرنا ما فتحَ الله تعالىٰ به من الفضلِ العظيم(٢).

وأَمّا(٣) اسمُه الخاتَم: فقيل: معناه أحسنُ الأنبياء خَلقاً وخُلقاً.

ويُحتملِ أَن يكونَ معناهُ: صاحبُ الجود والكرم. وأنّ خاتم أَهل السّمٰوات والأَرض هو، وهو المسمّى بصاحبِ الرّاحة، فيرجع إلىٰ مَعنىٰ اسمه الكريم، ومعنىٰ اسمه صاحب الرّاحة عليه أفضل الصلاة والسّلام.

---

(١) ورد شرح اسميه الكريمين الخاتِم والخاتَم (بكسر التاء وفتحها في: أسماء رسول الله ﷺ ومعانيها: ٣٩، ٤٠، وسبل الهدى والرشاد ١: ٥٥٨، ٥٥٩، والرياض الأنيقة ١٤٩، ١٥٠، وسرده في الشفا ١: ٣٢٠، والمواهب اللدنية ١: ١٨٢، وزاد المعاد ١: ٩٤ (في تفسير العاقب).

(٢) في ب، و: ج: الفضل العميم.

(٣) في أ: ومعنى اسمه.

وقد قدّمنا معناهما[1] في حقّه ـ ﷺ ـ، وأنه كان أَجْوَد بالخيرِ من الرّيح المُرسلة[2].

وأن مشيخة قريش وغيرَهم من الأعداء كانوا يتحدّثونَ أنّ النبيَّ ـ ﷺ ـ لم يُسأل شيئاً قطُّ فقال: لا.

وقد سأل ـ ﷺ ـ عن مالك بن عوف[3] فقيل له: هو بالطّائف.

فقال: بَلّغوه عني إنْ أتاني مُسلماً رددت عليه أهله، وأعطيتُه إبلاً مئة.

فلما بلغَ ذلك مالكاً خافَ أن تعلمَ به ثقيف فيحبسوه، فأعدَّ راحلةً علىٰ ستّة أميال من الطّائف ثم خرَج علىٰ فَرسِه، ثم اشتدّ حتىٰ أتىٰ راحلته وسارَ عليها، حتىٰ أتىٰ النبي ـ ﷺ ـ وجَعل يُنشد ويقول[4]:

ما إن رأيتُ ولا سَمِعْتُ بواحدٍ في النّاس كلّهم كمثل محمّدِ[5]
أوفىٰ وأعطى للجزيل إذا انتَدىٰ ومتىٰ تشأ يخبرك عَمّا في غدِ
وإذا الكتيبةُ أنشبتْ أنيابَها بالمَشْرفيّ وضَرْبِ كلّ مُهَنّدِ
فكأنّه ليثٌ لدىٰ أشبالهِ وسطَ الكماةِ وحاضرٌ في مَرْصَدِ

---

(١) نبي الراحة في الباب السادس عشر، وخاتم النبيّين في الباب الرابع والثلاثين.
(٢) روى الإمام أحمد ١: ٣٦٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه جبريل كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن فإذا لقيه جبريل كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.
(٣) سبق خبره في هذا الكتاب (تنظر الفهارس).
(٤) الشعر في منح المدح: ٢٩٩، وأصله في السيرة النبوية. وفي النصين بعض خلاف.
(٥) من بحر البسيط.

فردّ عليه النبيُّ - ﷺ - أَهْلَه، وأَعطاه ثلاث مئة، واستعمله علىٰ مَنْ أَسْلَم من تِلك الناحية. وقد صدرت عن نبيّنا - ﷺ - نفائسُ في السَّخاء والكرَم والجُود والوفَاء بالوَعْدِ والعُهود؛ ما لا يُسمع بمثله، لاشتهارِه[1] عَمّن ضُرِبتْ بِهِ الأمثال، مثل حاتم وغيره من كُرَماء الدنيا.

فإنّ نبينا - ﷺ - هو صاحبُ الجودِ والكَرم، وأن المسمّىٰ صاحب الرّاحة هو خاتم أهل السماء والأرض. وقد كان في المحاسن كُلّها فرداً أحداً، ولم يصل إلى مقامه أو يُقاربه من المَخْلُوقين[2] أحد، لأن تصدر[3] كلّ عطائه عن [٢٤٠/أ] الوثوق باللهِ تعالى، والإنفاق من خزائن الله التي لا نفادَ لها. والإعطاء من مواهب الله التي لا انقطاعَ لها. وَمَنْ كان حالُه أنّه رأسُ المتوكلينَ، وإمامُ القانعين فلا نهايةَ لجوده، ولا آخرَ لِصُعوده؛ حتّىٰ إن الله تعالىٰ أورث هذه المَنْقَبة العظيمةَ، والخَصلةَ الكريمةَ هٰذه الأُمّةَ لمن كان بينه وبينَ سيّد الأكوان ارتباطٌ بصحبةٍ أو صِهْرٍ أو قَرابة، أو نِسبة.

وقد دوّنت العلماء الدّواوين في كَرم بني هاشم في الجاهلية والإسلام لِقُرب انتسابهم إلىٰ سيّد الكرماء، واسطة عقد الرحماء من الأنام.

قال بعضُ المحبّين في سيّد المرسلين: لم يكمل وصف الإيثار في أَحدٍ من المخلوقات إلاّ في سيّد الأكوان، ولا تحقّق وجودُه إلا في صاحب العرفان، فإنّ كلَّ أحَدٍ في القيامة يقول: نَفْسِي! نَفْسِي!، وسيد الأكوان يقول: أُمّتي أمتي[4].

---

(١) في ب، و: ج: لانتشاره عمّن...

(٢) في الأصول الثلاثة: من المخلوق. واقترحت ما أثبت.

(٣) في الأصول: لأن تصدر.

(٤) إشارة إلى حديث مشهور. وقد سبق في هذا الكتاب.

وكرَمُه عليه الصلاة والسلام خارقٌ للعادة في الدنيا والآخرة، وعِلْمُه أظهرُ وأعلىٰ من الأعلام الشامخة الظاهرة ـ ﷺ ـ وشرّف وكرّم ومجد وعظم.

أفلتْ نجُومُ المَكْرُمَاتِ ونَجْمُهُ ... للطَّالِبِيْنَ تَراهُ ليسَ بآفلِ[1]
وترىٰ لهُ بالواصلينَ صبابَةً ... كصبابةِ الصَّبِّ المحبِّ الوَاصلِ
وإذا الرجال تصرفت أهواؤها ... فهواهُ لحظةُ سائل أو واصلِ[2]
وتخالُ من فرطِ السّخاء بنانَهُ ... غيثَ السماء تقول هل من آمِلِ[3]

وقد شهدَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ حُنيناً والطّائف ثم رَجع. فبينما هو يسير فإذا بصفوان ينظر إلىٰ شِعب فيه نعم وشياه[4]، ورسولُ الله ـ ﷺ ـ يرقبُه. فقال له: يُعجبك هذا؟

قال: نعم.

فقال النبيّ ـ ﷺ ـ: «هو لكَ!» فقال صفوان عند ذٰلك: ما طابتْ نفسٌ أحدٍ بمثل هذا إلاّ نفسُ نبيّ، أشهد أن لا إلٰهَ إلاّ الله، وأشهدُ أنّ محمداً رسول الله، وأسلمَ مكانه.

فصل

يجب علىٰ المحب التخلُّق بهذا النبيّ الكريم ما استطاع، ويتأكّد في حَقّ محبّه الاقتداء والاتّباع، وقد قَدّمنا شيئاً من هذا المعنىٰ في غير هذا الاسم من أسمائه، وذكرنا ما يجبُ علىٰ كل محبٍّ من التخلق به

---

(١) من بحر الكامل.
(٢) في ب: أو آمل.
(٣) في ب، و: ج: أو سائل.
(٤) ينظر الشفا ١: ١٤٥ ودلائل النبوة للبيهقي ٥: ١٧٨.

في اتباعه لسيّد الأنام في كَرمهِ، والاقتداءِ به في الوفاءِ بالعِهد، وجُوده وحِلمه.

صلىٰ الله عليه وسلم صلاة تقربنا منه وإليه، مجدّدة لا ينقطعُ دَوامها، وَأزكىٰ السّلام لديه[1].

وعلىٰ ما فسروا به الخاتم [٢٤٠/ب] في حقه عليه الصلاة والسلام وأنه أحسنُ الأنبياء خَلقاً وخُلقاً، فهذا أيضاً لا مراء فيه بين أحدٍ من العُقلاء، ولا غروّ فيه عند النّبلاء[2]، وذلكَ أنّ الله تعالىٰ لم يَبعثْ نبيّاً قَطُّ إلا حَسن الخَلق والخُلق. ونبيّنا ـ ﷺ ـ قد فاقَ جميعَ الأنبياء عليهم السلام خَلقاً وخُلقاً، وكَمّل الله تعالىٰ فيه جميع المحاسن نَسقاً.

ذاتٌ زكَتْ وزكَت مِسكاً لِمُنْتَشِقِ ... واستَعْظَم الخلقُ منه موجد الخلقِ[3]
وكم همتْ كفّه بالوابل الوَدقِ ... فاقَ النبيّين في خَلقِ وفي خُلقِ
ولم يُدانوه في علمٍ ولا كَرمِ
من نَيْل رتبتهِ العَلياء قد يَئسُوا ... ونورُهم من ضيا أنواره اقْتَبسوا
ولم يكونُوا لعهد الله فيه نَسُوا ... وكلُّهم من رسولِ الله ملتمسُ
غَرْفاً من البَحْرِ أو رَشْفاً من الدِّيَمِ

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

(١) في ب: مع أزكى السلام لديه.
(٢) في ب، و: ج: الفضلاء.
(٣) التخميس على بحر البسيط؛ وهو تخميس على بيتين للبوصيري في البردة (ديوانه: ٢٤١).

باب

في معنىٰ اسمه:

الطَّيِّب الطَّيِّب(١)

صلَّى الله عليه وسلَّم وشرَّف وكرَّم

الطيِّبُ الطَّيب من أسمائه عليه أفضل الصلاة والسَّلام، وهو معنىٰ ما في الكُتب السَّالفة من أسمائه: ماذْ ماذْ، وقد كانتْ له ـ ﷺ ـ أسماءٌ وألقابٌ في الكتب السالفة، المُنزلة علىٰ الأَنبياءِ الماضِيَة، عنايةً مِنَ الله تعالى به. وإظهاراً بين الخلائق لمنزلته.

فمعنىٰ: «ماذْ» طيّب، فلَمّا أكِّد وكرّر اللفظ بعينهِ أَفادَ أنّه طيِّبٌ مقصودٌ النطقُ به وهو ـ ﷺ ـ الطيّب المُطَيّب، ويرجعُ لمعنىٰ اسمهِ الطّاهرِ المُطهّر ـ ﷺ ـ صاحب الجبينِ الأزهرِ. فيَرجع ذلك إلىٰ نظافة جسمهِ وطيبِ رائحتهِ وعَرَقهِ، ونَزاهَته عن الأقذار، وتقديسه عن عَوراتِ الجَسد، وبُلوغه في ذُلك إلىٰ ذروةِ جلالة الأقدار.

وخصّه الله تعالى بخصائصَ لم تُوجد في غيره، وحَباه سبحانه

---

(١) ورد شرح الاسم النبوي الكريم في سبل الهدى والرشاد ١: ٥٩٩ والرياض الأنيقة: ٢٠٥ وسرده في الشفا ١: ٣٢١.

وورد ماذماذ في الشفا ب: ٣٢١ وسبل الهدى والرّشاد ١: ٦٢٢ قال القاضي عَياض: ماذماذ ومعناه: طيّب طيّب.

مكارم خَرج بها عن جنسه.

عن ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه قال: [(١)] ما شَممتُ عنبراً قطُّ ولا مِسكاً، ولا شيئاً أطيبَ من ريحِ رسول الله ـ ﷺ ـ.

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه أنه ـ ﷺ ـ مَسح خدّه[(٢)]، قال: فوجدت بيده بَرداً وريحاً كأنّما أخرجها من جونة عَطّار.

قال غيرُه[(٣)]: مَسحها بطيب أو لم يمسّها، يُصافح المصافح فيظلّ يومه يجدُ ريحَها. ويضعُ يده علىٰ رأسِ الصبيّ فيعرف من بين الصّبيان بريحها [٢٤١/أ].

والأخبارُ في هٰذا المعنىٰ كثيرةٌ مُتَواترة وأنّ رائحة المصطفىٰ ـ ﷺ ـ لا يُشابهها طيبٌ ولا مِسك[(٤)].

فكمَا أخْرَجه الله تعالىٰ في حسن الصورة، وبهائها ومنظرها علىٰ أكمل خلقةٍ وأبين منزلة، فكذلك كانت رائحته وعَرقُه أطيبَ من الطّيب، شهد له بذلك العدوّ والصّديق والحبيب.

فبالجملة: أنّ أحوالَ الكريم علىٰ الله، العزيز القدر عند الله، خارقةٌ للعادات، معجزةٌ ظاهرة علىٰ جميع المعجزات.

ويحتمل أن يكون: «الطّيب الطّيب» بِمَعنىٰ أنه طيّبٌ في ذاته، طيّبٌ في صِفاته، طيب في أخلاقه طيّبٌ في أفعاله، فليس يرىٰ منه ذُو

---

(١) الحديث في صحيح مسلم: ١٨١٤ وهو في الشفا١: ٨٦.

(٢) الحديث في صحيح مسلم: ١٨١٤ وهو في الشفا ١: ٨٦.

(٣) الشفا ١: ٨٧.

(٤) عقد القاضي عياض فصلاً في الشفا لهذا المقصد ١: ٨٥ ـ ٩١.

رؤية، ولا ذُو بصيرة، ولا ينظر بفكرهِ ذو فكرةٍ إلا ما تطيبُ به نفسُه، ويَستحبُّ منه عقلُه؛ لأنه مطبوعٌ علىٰ ما تطيبُ به النفوس في خَلقه وخُلقه.

حتى إنّ كل نفسٍ تطيبُ عند رؤيته، وينشرحُ صَدْرُها عندَ سماعِ لفظه؛ لأن الله سُبحانه، ألقىٰ عليه محبّته، فصيَّره حبيبه، ووضع لهَ القَبُول في العالم العُلويّ والسُّفلي، فكان لكل قلبٍ شفاءه وطبيبه.

نطقتْ بصفاتِ أَربابُ العُقول[1] السليمة، وشهدتْ بانفرادِه بالسُّؤدد أصحابُ الشِّيم الكريمة، وهتَفت الهواتفُ بحبّه فذكرت صِفته عند قُرب مبعثه فقال الهاتف:

ظهرَ النّور وزال الزُّور، وبعث الله محمداً ـ ﷺ ـ بالحبُور، صاحب النّجيب الأَحمر، والتاج والمِغْفَر، والوجه الأزهر، والحاجب الأَقمر، والطّرف الأَحور، صاحب قول شهادة أَن لا إِلَه إلاّ الله، فذٰلك محمّدٌ المبعوث للأَسود والأَحمر[2]، أهل المدر والوبر.

فكيف لا تطيب نفوسُ العالمين[3]، وتركنُ بقلوبها إلىٰ زين العابدين، وقد ركنت إلىٰ طِيبة الجمادات، وحَنّت إلىٰ فراقه الخشب اليابسات. وما ذاك إلا لأنّ الله جلّ جلاله لما تعلّقت إرادته بإيجادِ خَلْقه من بينِ أهلِ سَماواته وأرضه برزَت الحقيقة[4] المحمدية الطيبة، النقيّة

---

(١) في ب: أرباب القلوب.

(٢) في الحديث: بُعثت بالرّحمة (شرح السنة للبغوي ١٣: ٢١٣). و: بعثت إلى الأَحمر والأَسود (مُسند الإمام أحمد ٣: ٣٠٤) وبعثت إلى كل أحمر وأسود (مجمع الزّوائد ٨: ١٢٥٩ وهو في المسند ١: ٢٥٠).

(٣) في ب: لا تطيب به.

(٤) في ب: الحقائق.

النفيسة الزكية، فتجلّىٰ لها القديم الأزلي، جلّ جلاله، بنفسه، وشرّفها علىٰ جميع حضرته وقدسه، وآنسها في سماءِ الأوصاف بأنسه، فسالت منهُ مواردُ الألطاف فتلقّىٰ ربّ العزة منها ذُلك السّؤال بالقَبُول والإسعاف.

فكانت الحقيقة المحمّدية النّورانيّة موجودة من حضرة عِلم الله المكنون، مخترعةً من غيبهِ المَصُون، فصيَّرها للعالمين نهاراً، وفجّرها باللطائف، ومنح [٢٤١/ب] الخيرات عيوناً وأنهاراً، وطيّب بِطيبها زوايا العالم، فتضوّعت أنفاسُه منها آصالاً وإبكاراً.

فطيّب الله تعالىٰ به وبرؤيته القُلوب، وصنعَ به المحبّة في عالم الغُيوب، وطابت به البلادُ والأقطار، وجَرت بطيبه المياه والأنهار، ونَزلت البركاتُ في البِقاع التي التمَسها، ولازمت الخيراتِ في الأماكن التي سكنها. فما رؤيت نسمةٌ مباركة أبرك من نَسمته، ولا طلعة سعيدة أتمّ من سعادته. فيا سعادة من نال شيئاً من سعادته، ويا خسارة من طُرِدَ يوم القيامة عن شفاعته.

وكان أبو قرصافةَ[١] رضي الله عنه يتيماً بين أُمّه وخالته، وكان يميل إلىٰ خالته ويرعىٰ لها شُوَيهات فلما سَبقت له السعادة ساقته العنايةُ إليها، وحملته الأقدار كُرهاً لديها، فكانت خالتُه كثيراً ما تقول له:

(١) أبو قرصافة بن خيشنة الكناني الشامي، له صحبة، وروى عن النبي ﷺ. قال أبو القاسم الطبراني: بلغني أن ابناً لأبي قرصافة أسرته الروم، وكان أبو قرصافة يناديه من سور عسقلان في كل صلاة: يا فلان الصلاة، فيسمعه فيجيبه وبينهما عرض البحر. وروى له البخاري في باب الأدب. (تهذيب الكمال ٥/ ١٥٠ وتنظر مصادر الترجمة فيه). واشتهر أبو قرصافة بكنيته.
والخبر في الخصائص الكبرى ٢/ ٩٩.

يا بُنَيّ لا تمرّ علىٰ هذا الرجل ـ تعني نبينا ﷺ ـ فنخاف عليك أن يُغويك، فكان يخرج بالغُنَيمة فيتركها ويأتي النبي ـ ﷺ ـ فلا يزال عنده يسمع كلامه، ويطيب به قلبه، ثم يروح بغنمه ضُمراً يابسات الضُّرُوع فتقول له خالَتُه: ما لغنمك يابسات الضروع؟ فيقول لها: ما أَدْري، وإن المَرْعىٰ لم يكن بذلك. ثم كان يعودُ في اليوم الثاني، فيسمعُ كلامَ حبيب الله ـ ﷺ ـ وهو يأمرُ بالإسلام وبالهِجرة إلىٰ دار السلام. ثم راح بغنمه كما راح في اليَومِ الأوّل، ثم رجع في اليوم الثالث، فلم يزل عند رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يأمُر بالإسلام وبالهجرة حتىٰ دخل الإسلامُ قَلْبَه، وملأ جوارِحَهُ، وأجرىٰ دمعه. فبايَعهُ وصافحه، وشرح الله لُبّه. ثم شكىٰ له أمر خالته وغنمه فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: جئني بالشياه، فجاء بهنّ، فمسَح علىٰ ضُروعهنّ وظُهورهنّ، ودعا بالبركات، ونزول الخَيرات، فطابت بطيبه وحَسُنت، فامتلأت شحماً ولبناً واختَفلت.

ثم رَجع بغنمه سماناً مُمتلئةً ببركةِ سيّد البَرِيّات. فلما دخَل علىٰ خالته قالت: هٰكذاً فَارْعَ كلَّ يوم.

فقال لها: يا خالتاه ما رعيتُ إلا حيثُ رعيتُ كلَّ يوم! ولكنْ أُخبرك بقصتي. فأخبرها بالقصّة، وجاءها بالقضية [٢٤٢/أ] وأنّه قد ساقَه الله تعالىٰ إلىٰ مَنْ طابت به الأمصار، وفاحت بطيبِه الأَزهار، وذكرَ من صفاته الكريمة وأخلاقه الطيبة العظيمة، فشوّقها إلىٰ الوُقوف علىٰ هذا النبي الكريم، وشَوّقها حتىٰ اشتهت النَّظر إلىٰ نضرة النَّعيم.

فقالت أُمّهُ وخالته: يا بُنَيّ اذهبْ بِنا حتىٰ نشربَ من مَشربك الصّافي، وزلالك الوافي، فَقَدِمْنَ إلىٰ حبيب الله، وزَيْنِ خلقِ الله فأسلمْن وبايَعْنَ وتبرّكن.

فصل

فمن علامات المحبّين الشوقُ إلىٰ سيد المرسلين، فعليكم بالرّحلة - أَصْحَابَ المحبّةِ الوافية - إلىٰ دارِ الهجرة، ومعدن[١] البركة التي خصها الله تعالى بالإجلال والتكريم، وتضوّعت بطيب جسد حبيبِ الله الكريم.

قال النّاصح لأمّته الشّارب من كأس الوفا، القاضي أبو الفضل صاحب الشفا[٢] وجديرٌ بمواطن عمرتْ بالوحي، والتّنزيل، وتردّد بها جبريلُ وميكائيل، وعَرجت بها الملائكةُ والرّوح، وضجّت عرصَاتُها بالتّقديس والتّسبيح، واشتَمل تُربُها علىٰ جَسد سيّد البشر، وانتشر دينُ الله، وسنة رسوله منها، وظهر مَدارسُ آيات[٣]، ومساجدُ صَلوات، ومشاهد الفَضائل والخيرات، ومعاهد البَراهين والمُعجزات؛ ومَناسك الدّين، ومَشاهد المُسلمين، ومَثوىٰ خاتم النبيّين وحيثُ انفجرت النّبوءةُ، وأَيْنَ فاضَ عُبابها، ومَواطن طُويت فيها الرسالة، وأوّل أرض مسّ جسَد المصطفىٰ ترابها[٤] [أن] تُعَظَّمَ عَرَصاتُها وتنسّمَ نفَحاتُها وتُقَبّلَ رُبوعها وجداراتُها[٥]:

يا دارَ خيرِ المُرسلين ومَنْ به ... هُدِيَ الأنامُ وخصّ بالآياتِ
عندي لأجلك لوعةٌ وصبابةٌ ... وتشوّقٌ متوقّدُ الجَمراتِ
وعليّ عهد إن ملأتُ محاجِري ... من تلكمُ الجُدراتِ والعرصَاتِ[٦]

---

(١) المعدن: مكان كل شيء يكون فيه أصله.

(٢) الشفا ٢: ٦٢٢ - ٦٢٣.

(٣) مدارس آيات: محالّ يدرس فيها القرآن الكريم.

(٤) سقطت كلمة (أن) من الأصول. وهي في الشفا، فأثبتها.

(٥) في الشفا وجدرانها. وما عند المؤلّف أشبه وأمثل لأنه يوافق السّجع. ولم تورد المعاجم صيغة جدرات جمعاً لجدار.

(٦) في الشفا الجدران.

لأُعَفِّرنّ مَصُون شيبي بينها | من كثرةِ التّقبيل والرّشفاتِ
لولا الأعادي والعوادي زُرتها | أبداً ولو سَحباً علىٰ الوجناتِ
لكنْ سأُهدي من حَفِيل تحيّتي | لقطينِ تلكَ الدّار والحُجراتِ[1]
أزكىٰ من المِسْكِ المفتّق نفحةً | تغشاهُ بالآصالِ والبكرات[2]
وتخصّه بزواكي الصلوات | ونوامي التّسليم والبركاتِ[3]

وصلّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلّم تسليماً وزاده صلاةً وشرفاً وكرماً ورفعةً وتعظيماً.

---

(١) القطين: المقيم.
(٢) المفتق: من فتق المسك والطيب إذا خلط بغيره مما يزيد في طيبه.
(٣) في بعض شروح الشفا أن هذا الشعر للقاضي عياض (الشفا ٢: ٦٢٣).
وقد استفاد القاضي - رحمه الله - في مقدمته النثرية من قصيدة حسان في رثاء النبي ﷺ:

«بطيبة رسم للرسول ومعهد».

باب

في معنىٰ اسمه:

رُوحُ الحَقِّ(١)

صلَّىٰ الله عليه وسلَّم وشرَّف وكرَّم

روح الحَقّ [٢٤٢/ب] اسمٌ من أسمائه عليه أفضل الصلاة والسلام.

قيل إنه هو مَعْنىٰ ما ورد في الإنجيل[٢] أنّ اسمه البارقليط. قيل: مَعْنىٰ البارقليط أنّه: الذي يفرّق بين الحق والباطل فيكون روحُ الحقّ، والمفرّق بين الحق والباطل: اسمَيْنِ متغايرين صادقين علىٰ ذاته الكريمة، ونَشأته العظيمة.

فالرُّوح: هو قوام الأَجساد والأشباح، فلا اعتبارَ لوجودِ الأَجساد، ولا يُعبأ بها لولا وجود الأرواح.

---

(١) شرح هذا الاسم الكريم السّيوطي في الريّاض الأَنيقة: ١٧٠ وجمعه إلى: روح القدس. قال: ذكرهما ابن دحية وقال: ورد في الإنجيل، وذكر الأول ابن العربي والعزفي والثاني: القاضي عياض. وفي سبل الهدى والرشاد ١: ٥٧٦ شرح معنى الروح، وذكر روح الحق؛ وقال: الحق إما أن يراد به الله تعالى وإضافة الروح إليه تشريف، كما سمّي عيسى روح الله، أو يراد به النبي ﷺ وتكون الإضافة للبيان أي: روح هو الحقّ. وذكره في المواهب اللدنية ١: ١٨٣.

(٢) في ب: ورد في الأخبار.

فمعنىٰ «رُوح الحق» في حقّ نبينا - ﷺ - يحتملُ وجوهاً من الحُسن عديدة، ومعانِيَ موجودة في حقه عليه الصلاة والسلام فريدة.

فالحق يحتمل أن يراد به الإيمان الذي بعث الله به جميعَ الشّرائع والأديان.

فيكون معناه: روحُ الإيمان، أي أَنّ الإيمان إنّما ظَهر في أرضِ الله، وانتشَر في قُلوب خلقِ الله بوجودِ سيّد المرسلين، وبعثةِ مَنْ شرّف الله به الأوّلِين والآخِرين.

فلولا هذا الرّوح الكريم والمحبوب لله العظيم لتَلاشى وجودُ الإيمان، ولم يظهرْ له أثَر في العيان.

وقد يكونُ «الحقّ»: المرادُ به في الهُدىٰ والنّور الذي بعثه الله بهِ، والحُكم الشّرعي علىٰ الذي جاءَ به، فهو عليه الصلاة والسلام نُور الهدىٰ، والنّورُ الذي نَوّر الله تعالىٰ به وجودَ العالم بأسره، وبهِ حياتُه لأنّه ما خُلق إلاّ مِن أجله.

ويُحتمل أن يكون الحقّ أُطلق علىٰ وجودِ الأكوان لأنّها خُلقت مصحوبةً به، فكان روحاً لها في جَميع الأزمان.

قالَ الله العظيم في كتابه الكريم (المسمىٰ بالحق): ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان ٤٤/٣٨].

وسرّ هذه الأكوان وروحُها هو رحمة العالمين وحياة الواجدين الّذي خرجت الدُّنيا من العَدمِ إلىٰ الوُجودِ من أجلهِ في أعْيُن الناظرين.

فيكون معنىٰ - روح الحق[1] - في حقّه عليه الصلاة والسّلام أنّ رفيع الشأن هو روحُ الأكوان، وحياة الأزمان الذي هو للعام أمان. ولعل ولي الله - نفع الله به - الشيخ سيدي أبو الحَسن عليّ بن الوَفا رَحِمه الله أشار إلى هذا المعنىٰ بقوله في قصيدته[2]:

روحُ الوجود حياةُ مَنْ هو واجدٌ   لولاهُ ما تَمّ الوجودُ لِمَنْ وجدْ

فأشار رحمهُ الله إلى أنّ الأَجسادَ خلقها الله تعالى، وأودعَ فيها أسراراً ولطائفَ من عِلمه، روحانيةٌ خَصّ بها أهلها لا يعلم كُنْهَها ولا يحيط بها إلاّ خالقها. فكذلك هذا العالم خلقه الله تعالىٰ [٢٤٣/أ] وأودع فيه سرّاً عظيماً، ونبيّاً رحيماً، وخَصّه بخصائصَ لا يعلمها إلاّ مانِحُها، وأودع فيها من الحسن لطائفَ لا يُحصيها إلا باذلها، فجعَل هٰذا الكون العظيم العلويّ والسفليّ قالباً لظهورِ نُوره، وصورةً لإبراز روح سِرّه[3].

ويُحتمل أن يكون «الحقّ» المراد منه ضدّ الباطل؛ وأن الحق لا يكون محكوماً به إلا إذا كان موافقاً لحكمه، ولا يتقرّر[4] له وجود إلا إذا وقف علىٰ شرعه.

وإلىٰ هذا المعنىٰ يرجع هذا الاسمُ الآخر في حقّه المفرّق بين الحقّ والباطل.

---

(١) قال القاضي عياض (الشفا ١/٣٢١) روح الحق هو معناة البارقليط في الإنجيل. ونقل عن ثعلب: البارقليط الذي يفرق بين الحق والباطل. وفي سبل الهدى والرشاد ١: ٥٤٠ قال الشيخ تقي الدين الشمّني رحمه الله تعالى: أكثر أهل الأنجيل على أنّ معناه المخلّص.

(٢) من بحر الكامل وقد سبق الشعر.

(٣) كلمة (روح) لم ترد في ب.

(٤) في ب: يتحقق له.

ويَحتمل وُجوهاً غير هٰذه يطول جَلْبُها، ونشر ذكرها، فَأقْرَبُها أن يكون الحقّ اسماً من أسماءِ الله تعالىٰ، أطلق علىٰ الله، والرّوح المضاف إليه من إضافةِ المخلوق إلىٰ الخالق إضافةَ تشريف، وإظهار تعريف[1].

فيكون معنىٰ «روح الحق» في حَقّه عليه الصلاة والسلام وتسميته به كما كان ذلك في حقّ عِيسىٰ رسول الله، وأنه روح الله عليه الصلاة والسلام[2].

ويكون المعنىٰ أن الله تعالىٰ أضافَ روح هٰذا النبي العظيم إلىٰ نفسِه من بين سائِر الأرواح؛ لأنها مخلوقة من أجلهِ موصولة بِوَصْلِه، لأنّه إنسانُ عينها، وإكسير المحامد بأسرها[3].

ظهرَ الجمالُ من الحجابِ الأعظمِ ... كشْفاً عن الوجهِ الأجلّ الأكرمِ
وأسرّ في سِرّ الخطوب نفوسنا ... من حيثُ أعربَ عن حروفِ المُعجمِ
فتلذّي أُذني بطيب خطابه ... عيني وبالحسن البديع تنعّمي
يا جامعاً شملَ الشّتاتِ ظهوره ... نظماً وقبلَ وجودِه لم يُنظمِ
يا روحَ أفلاكِ السّما ومُديرَها ... ومحرك الجِرْمِ القصيّ الأعظمِ[4]
صلىٰ عليك الله يا مَنْ نوره ... كالشمسِ جَلّىٰ كلّ ليلٍ مظلمِ

---

(١) تنظر الحاشية (١) في صدر هذا الباب.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى [النساء ٤/ ١٧١]: ﴿إنّما المَسِيْحُ عِيسىٰ ابنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّٰهِ وكَلِمَتُهُ ألقَاهَا إلى مَرْيَمَ ورُوْحٌ مِنْهُ﴾. وقد أورد القرطبي وجوهاً في تفسيرها وفيها: «قيل هذه الإضافة للتفضيل وإن كان جميعُ الأرواح من خلقه، وهذا كقوله تعالى: ﴿أنْ طَهِّرا بَيْتِيَ للطَّائِفِيْنَ﴾ [البقرة ٢/ ١٢٥].
وقال في تفسير هذه الآية: أضاف البيت إلى نفسه إضافة تشريف وتكريم، وهي إضافة مخلوق إلى خالق، ومملوك إلى مالك.

(٣) من بحر الكامل.

(٤) في ب، و: ج: يا روح أفلاك المُلا.

فصل

مَنْ عَلِمَ أنّ نبيَّ اللهِ - ﷺ - اسمُه روحُ الحقّ، فمن آدابه أن يعلم منزلةَ الحقّ عند الله ويتّبعَ فيها طريقَ رسولِ الله - ﷺ -.

فإنّ الحقّ إنّما ظهَر علىٰ لسانِهِ، وتلألأ نُورهُ في شرعه، وأحكامه، فقد سوّى فيه بين الضّعيف والشريف وعصَمه مولاه جلّ جلاله من الوقوع في الباطل السّخيف فقال عليه الصلاة والسلام قائماً بالحقّ والجدّ[1]:

«إنما أهلك مَنْ كان قَبلكم إذا سَرَق فيهم الشّريف [٢٤٣/ب] تركوه، وإذا سرَق فيهم الضّعيفُ أقاموا عليه الحدّ».

وزادَ يميناً لتمام العَدل والتّسوية في الفعل، ووضوحاً، ببنتِهِ بِما أبانَ قَدْرها فقال: «وأيمُ الله لو أنّ فاطمةَ بنتَ محمّدٍ سرقَت لقطعْتُ يَدَها».

وهذا منه - ﷺ - حضٌّ عظيمٌ علىٰ القيامِ بالحقّ الذي أقامَ الله بِهِ الأرضَ والسموات، وبيان أنّ الباطل سببٌ في إنزالِ المُهلكات، ومقام سَيّدتنا فاطمة البتول[2] بنت نبيّنا الرسول عند مولانا كبير، وفضلُها في الكُتب شهير[3].

خرّجَ التّرمذي عن حُذَيفة[4] رضي الله عنه قال: سألتني أُمّي: متىٰ

(١) الحديث في صحيح البُخاري ٤: ٢٢١٣، ويُنظر: صحيح مسلم ١٣١٥، ومجمع الزوائد ٦: ٢٥٩ وفيه لو كانت فاطمة.

(٢) البَتُول: لقب مريم عليها السلام، ولقب فاطمة رضي الله عنها؛

(٣) ترجم لها الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢: ١١١٨ وأورد كثيراً من أخبارها مما ورَد هنا، وفي غير هذا الكتاب أيضاً.

(٤) سنن الترمذي ٥: ٣٢٧ ومسند أحمد ٥: ٣٩١، ٣٩٢ ومجمع الزوائد ٩: ٢٠١.

عَهْدُكَ بِه؛ تعني النبي - ﷺ - قال: قريب.

وقد أتيتُ، لأصلّي المغرب مَعه، فصلّىٰ، ثم جلس حتىٰ صلّى العشاء ثم انفتلَ فتبعتُه - ﷺ -..

فقال: مَنْ هذا؟ حُذَيْفَة؟.

قلت: نعم.

فقال: ما حاجَتُكَ غفرَ الله لكَ ولأُمّك؟ ثم قال: إن هذا ملكٌ لم ينزل قط إلىٰ الأرض قبلَ هٰذه اللّيلة، استأذن ربّه أن يسلم عليّ، ويُبشّرني أنّ فاطمةَ سيّدةُ نساءِ أهل الأرض، وأن الحسَن والحُسَين سَيّدا شباب أهلِ الجنة.

قال حُذيفة رضي الله عنه[1]: كانَ النبيّ - ﷺ - لا ينامُ حتى يُقَبّل عرضَ وجهِ فاطمة وبين ثَدْيَيها.

ورُوي عن عمر رضي الله عنه أنّه قال[2]: قال النبي - ﷺ - لمّا أَنْ ماتَ ولدي من خديجة وكنتُ محبّاً لها، فسألتُ اللهَ أن يجمعَ بيني وبينها، فأتاني جِبريل في شهر رمضان في ليلة الجُمعة، ليلة أربعٍ وعشرين ومعه طبقٌ من رُطَب الجنّة فقال:

إن ربَّ العزّة يُقرئك السلام، ويأمرك أن تَأكلَ مِن هٰذا وتُواقع خديجة الليلة: ففعلت، فحملتْ بفاطمة، فما لثمتُ فاطمةَ ابنتي إلاّ وجدتُ ريحَ رُطَبِ الجَنّة.

---

(١) في سنن الترمذي ٥: ٣٦١ عن عائشة رضي الله عنها قولها في فاطمة رضي الله عنها «وكانت إذا دخلت على النبي ﷺ قام إليها فقبّلها وأجلسها في مجلسه..» ولم يرد فيه الكلام الذي أورده المؤلف وأسنده إلى حذيفة رضي الله عنه.

(٢) ورد الحديث في الموضوعات لابن الجوزي ١: ٤١٠، وفيه: «لمّا أنْ مات ولدي من خديجة أوحى الله إلي أن أمسك عن خديجة».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كُنّا ذاتَ يوم جائعين فقامت فاطمة رضي الله عنها إلىٰ كفٌ من طَعام من قَمح، وأخذتْ رضي الله عنها الرّحَىٰ، وألقَتْ فيها، وأدارتها فَتعبت، وأثّر في كَفّها، فنامت.

قال ابنُ عباس: فأمر الله تَعالىٰ ملكاً أن يُدِيْرَ الرّحىٰ، ويعينَ فاطمة إكراماً لها. فانتبهت والرّحىٰ تَدُور ولا تَرى مديراً لها، وقد طُحِنَ الطّعامُ كُلّه، فقالت: لوجْهِ رَبّي الحمد[1].

فيجب علينا محبّةُ بنتِ نَبيّنا، وتعظيم نَجْلةِ شفيعنا، فتَوسَّلْ بفضلها عند الله تعالى في الشدائد، ونطلبُ من مولانا ببركتها حصولَ الفَوائد، اللهم أَعِذْ علينا من بَركتها، وأفِضْ علينا الخَيرات بحبّها وبحبّ ولديها النجلين الطّاهرين الزّكيّين سيّدي شباب أهل الجنة الحَسن والحُسَين رضي الله عنهما.

[٢٤٤/أ] خرَج الحسن بن علي رضي الله عنهما ذاتَ ليلةٍ وكان عادة الحَسن ذلك كل ليلة إذا انتصفَ الليل؛ يأتي بابَ المسجد فيصلّي، ويدعُو ويتضرع إلىٰ مولاه.

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أرى رسول الله ﷺ يقبل فاطمة فقلت يا رسول الله إني أراك تفعل شيئاً ما كنت أراك تفعله من قبل. قال لي: يا حميراء! إنه كان لمّا أسري بي إلى السماء أدخلت الجنة فوقفت على شجرة من شجر الجنة لم أر في الجنة شجرة هي أحسن منها ولا أبيض منها ورقة، ولا أطيب منها ثمرة، فتناولت ثمرة من ثمرتها فأكلتها فصارت نطفة في صلبي فلما هبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة فإذا أنا اشتقت إلى رائحة الجنة شممت ريح فاطمة. يا حميراء! إن فاطمة ليست كنساء الآدميّن ولا تعتل كما يعتلون. قال الهيثمي: رواه الطبراني وفيه أبو قتادة الحراني. وثّقه أحمد، وقال: كان يتحرّى الصّدق، وأنكر على من نسبه إلى الكذب. وضعفه البخاري وغيره، وقال بعضهم متروك. وفيه أيضاً من لم أعرفه.

وفي حاشية مجمع الزوائد ٩: ٢٠٢ حيث ورد الحديث: هذا مستحيل فإن فاطمة ولدت قبل الإسراء بلا خلاف (عن ابن حجر).

فاتّبعه بعضُ المحبّين ليلةً، فلمّا بلَغ الحسن باب المسجد رفع طَرْفَهُ إلىٰ السّماء وقال: اللهم غلقت الملوكَ[١] أبوابها، وقامَ عليها حُرّاسُها، وبابُك مفتوحٌ لمن دَعاك.

ثم دخل المَسجد، وصلّى ركعتين، ورفَع رأسه نحو السماء وأنشأ يقول:

يا ذا المعالي عليكَ مُعْتَمدِي طُوبىٰ لمن كنتَ أنتَ مولاهُ[٢]
طوبىٰ لمن كان خائفاً وَجِلاً يشكو إلىٰ ذِي الجَلال بلواهُ
وما به علّةٌ ولا سقَمٌ أكثر من حبّه لمولاهُ
إذا خلا في الظلام مُبتهلاً أكرمَهُ الله ثم أدناهُ
إذا اشتكىٰ حالَهُ وحاجته أجابَهُ الله ثمّ لَبّاهُ

قال: فسمعتُ صوتاً من السّماء يَقُول[٣]:

لبيّك عَبْدِي وأنتَ في كَنفي فكُلُّ ما قلتَ قد عَلمناهُ
صوتُك تشتاقُه ملائكتي فَحسْبُك الصّوتُ قد سَمِعْناهُ
لو هبّت الريحُ من جَوانبهِ خَرّ صريعاً لِمَا تَغشّاهُ
دُعَاك عندي يجولُ في حجبِي وذَنْبُكَ اليوم قد غفرْنَاهُ

اللّهم إنك تعلمُ أنّا نحبّك، ونحبّ نبيّك، وأهل بيته الطاهرين، عَليّاً وفاطمة والحَسن والحُسَين، وسائرَ أحبابه أجمعين. فنتوسّلُ إليكَ

(١) كله في ب: إن الملوك غلقت.
(٢) من بحر المنسرح.
(٣) كذا، وفي الخبر نكارة. وكان بعض الرّواة مولعاً بمثل هذه الأخبار التي فيها عجائب وغرائب.

بِقَدْرِهم لديكَ يا رَبّ العالمين أن تكفيَنا ما أهَمّنا من أمرِ ديننا ودُنيانا، وآخِرُ دَعْوانا أنك أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين، وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدّين.

باب
في معنىٰ اسمه:
المُصْلح(١)
صلّى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

المُصلح اسمٌ من أسمائه عليه أفضل الصلاة والسلام ورد في ألسنةِ المُحبّين، وأطلق عليه بإجماع المُؤمنين. ومعناه في حقّه ـ ﷺ ـ: أنّه أصلحَ للخلق دُنياهم، وبيّنَ لهم طريقَ أُخراهم، فأزال فسادَ القُلوب، وقرّب الخليقةَ من علاّم الغيوب.

وأقامَ لهم دِينهم، وتمّم لهم يقينهم، وباعَد عنهمْ إثمهم، ولازَم بخصالِ الفِطرة ظاهِرَهُم، وطَهّر من الحَسد والغِشّ باطنهم؛ وحَسّن سرائرهم [٢٤٤/ب]، وملأ بالتّقوىٰ ضَمائِرهم.

فهو المُصلح للعالَمِيْنَ، والمنوّرُ للسّمواتِ والأرضين. وما زال ـ ﷺ ـ من لَدُن بعثه الله تعالىٰ إلىٰ الخلق يجلب لهم مسارّهم، ويذهب عنهم مضارّهم، ويهديهم بعد جهَالتهم، ويرفَعُهم بعد خَمالتهم، ويَجمَعُهم بعد فُرقتهم، ويؤلّفُ بينهم بعد شتاتهم.

كيف لا؟ وقد أخبرَ المولىٰ جلّ جلاله عن ذلك كُلّه أنّه يَصْنَعُه في

---

(١) ورد شرحُ اسمه الكريم في الرياض الأنيقة: ٢٤٨، وسبل الهدى والرشاد: ٦٣٨ وفي الرياض: قال القاضي عياض: وجدَ في الحجارة القديمة مكتوب: محمد تقيّ مصلح، سيّد أمين. وهو في الشفا ١ : ٣٢٠.

خَلْقِهِ بِه؛ فقال في حديث عبدِ الله بن سَلام، وكعبِ الأحبار[1] رضي الله عنهما:

«أهدي به بعد الضلالة، وأُعَلِّمُ به بعد الجَهالة، وأَرْفَعُ به بعد الخَمالة، وأُسَمِّي به بعد النُّكْرَةِ، وأُكثِر به بعد القِلّة، وأُغْني به بعد العَيْلة، وأَجْمَعُ به بعد الفُرقة، وأؤلِّف به بين قلوب مُختلفة، وأهواءٍ مُتشَتِّة، وأُمَمٍ متفرِّقة[2]، وأَجْعَلُ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاس».

هكذا ذكر مولانا جلَّ جلالُه الكريم في صِفات نبيِّنا العظيم - صلى الله عليه وسلم، أفضلَ التّسليم.

فكيف لا يكون مُصلحاً لقلوب عبادِ الله، ولا يكون مُظْهِراً للخَيْراتِ في أرضِ الله، وقد وصَفه ربُّه بهذه الصفات، وحَلاّه مانِحُه بأجلِّ التحيات:

لقد صَحّ لي في الهاشميّ محمّدٍ ... يقينٌ صحيحٌ لا يضيعُ به أجري[3]
أبي القاسم الآتي إلىٰ خيرِ أمّةٍ ... بأفضلِ شَرْعٍ كانَ في سالفِ الدّهرِ[4]
إمام الهُدى المختارِ من خير شيعةٍ ... وناظر عينِ الدّين بالفضل والفخرِ
نبيّ هدى من حسرةِ الشّرك والعَمىٰ ... وبدر تجلّىٰ فانجلتْ ظلمةُ الكفرِ
ومن عَزّ أهل الفضل في كلّ موطنٍ ... ففاتَ الورىٰ بالطّوعِ منهمْ وبالقَهْرِ[5]
ومن قامَ بالتّوحيد في كل مَشْهَدٍ ... ودلّ علىٰ الرّحمن في السّر والجَهْرِ

---

(١) الشفا ١: ٧٤.
(٢) في أ: أهواء مشتة، وامم متفرقة.
(٣) من بحر الطويل.
(٤) في ب، أبي القاسم المُهدي. وفي ج كانت: المهدي، ثم حولها إلى: الآتي.
(٥) في أ: فقاد.
ومعنى عَزّ: غلب.

ومن جاءَ بالبُرهان والنّور والهدىٰ ... وبالصّوم والإجماعِ والحجّ والنّحْرِ
ومن جاءَ بالإسلامِ والشّركُ ظاهرٌ ... فأيّدهُ الرحمنُ بالعزّ والنّصْرِ
فيا أرحمَ المُسترحمين بفضلهِ ... ورازق مَنْ في البَرّ طُرّاً وفي البَحْرِ
أَجرني من النار التي ساء نُزلها ... وسكّانُها أهلُ الضلالة والكُفرِ
فأنتَ الذي أرجوهُ في كلّ شدّةٍ ... وأنت المُناجىٰ في ضميري وفي سِرّي
وصَلّ علىٰ خير الأنامِ محمّدٍ ... صلاةً بها نَنجو لدىٰ القبر والحشر

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ نبيّنا ـ ﷺ ـ اسْمُه المُصلح أن يكونَ مُصلحاً بينَ عِبادِ الله [٢٤٥/أ] ناصحاً لخلقِ اللهِ؛ فإن الله تعالىٰ في كتابه العزيز يقُول بياناً لأهل العُقول والأكياس ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء ٤/ ١١٤].

وقد آخىٰ ـ ﷺ ـ بين أصحابهِ الكرام، الأئمّةِ الأعلام، وألّف بين قُلوبهم تعليماً لأُمّته وتنبيهاً لهم علىٰ اتّباعه في فِعله وشريعته.

والمقصودُ[١] من الإصلاحِ والأخوّة أن تكونَ قلوبُ المؤمنين علىٰ قلبِ رجلٍ واحد لا تَباغض بينهم، ولا تحاسدَ ولا تنافر، بل متّفقون علىٰ حب الإلّه الواحد. ويقتضي ذلك المساواةَ في السرّاء والضرّاء، والمُشاركةَ في المال والحال. وهذا بابٌ عظيمٌ، خَطْبُه جَسِيم، والوفاءُ بهِ قليل إلاّ من الذين لربهم مُرَاقِبُون، ومِن عَذاب ربّهم مُشفقون.

---

(١) في أ: المقصد.

لما آخىٰ رسول الله - ﷺ[1] - بين عبد الرّحمن بن عَوف وسعد بن الرّبيع آثره بالمالِ والنّفس فقال له: هذا نِصفُ مالي، واخترْ إحدى زوجَتَيّ. فقال عبد الرحمن: بارك الله لك فيهما.

وقال أبو سُليمان الدّاراني: لو أن الدُّنيا كلّها لي فجعلتُها في فمِ أخٍ من إخوانِي لاستَقْلَلْتُها له.

وقال عليّ رضي الله عنه: لَعِشْرُون درهماً أعطيتُها لأخ لي في الله أحبُّ إليّ من أن أتصدّق بمئة درهم علىٰ المساكين.

وكان في السّلفِ الصّالح من يتفقّدُ عِيال إخوتهِ وأولادَهم بعد الموتِ أربعين عَاماً يقومُ بحوائجهم، ويتردّد كل يومٍ إليهم، ويُعطيهم من ماله. وكانوا لا يفقدون من آبائهم إلا أعينهم، بلْ كانوا يرون منهم ما يرون من آبائهم في حياتهم.

هذا هو صَلاح المُؤمنين، وهٰذه هي أُخُوّة المسلمين المقتدين برسول رب العالمين.

دخلَ - ﷺ - غيضةً مع بعض أصحابه، فأخذ منها مِسواكين، أحدهما معوجّ والآخر مُستقيم، فدفع عليه الصّلاة والسلام المستقيمَ إلىٰ صاحبِهِ فقال: يا رسولَ الله: أنتَ أحقُّ بالمستقيمِ منّي؛ فقال - ﷺ -: «ما مِنْ صاحبٍ يصحبُ صاحباً ولو ساعةً من نهارٍ إلا سُئل عن صُحبته، هل أقامَ فيها حقّ الله أو أضاعه»[2].

---

(١) حفلت كتب التراجم، والسّير، والتفسير والفقه وغيرها بأخبار المؤاخاة التي كانت بين المهاجرين والأنصار. قال ابن قيم الجوزية (زاد المعاد ٣: ٦٣) «ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك وكانوا تسعين رجلاً نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار..».

(٢) ينظر كشف الخفا ١: ٢٦٠ وتخريجاته وإحالات التحقيق. وفيه ثمّة: إنّ الله سأل عن صحبة ساعة..
وينظر السلسلة الضعيفة (الألباني) ١٢٤.

فأشار عليه الصلاة والسلام إلى أنّ الإيثار: من القِيام بحقّ الله في الصُّحبة.

وخرَج - ﷺ - إلىٰ بئرٍ يغتسلُ عندها، فأمسك حُذيفة رضي الله عنه بالثّوب علىٰ رسول الله - ﷺ - [٢٤٥/ب] حتىٰ اغتسل، ثم جلسَ حذيفةُ ليغتسل، فتناول رسول الله - ﷺ - الثوبَ وقام يسترُ حُذيفة عن أَعْيُنِ النّاس، فأبىٰ حذيفة وقال:

بأبي أنتَ وأمّي يا رَسُول الله! لا تَفْعَل، فأبىٰ رسول الله - ﷺ - إلا أن يستُرَهُ بالثّوب حتىٰ اغتسل ثم قال: «ما اصْطَحب اثنان قطّ إلا كان أحَبُّهُما إلىٰ اللهِ أَرْفَقهما بصاحبه»[١].

هٰكذا تكون المخالطة والمحافظة والمعاشرة، والإصلاح، وإنما نشَأ ذلك من حُسن الأخلاق الصِّحاح.

اللهم اهْدِنا لأحسن الأخلاق، فإنّه لا يهدي لأحسنها إلا أَنت البَرّ الرّحيم، وأصلح منّا ما فسَد في دِيننا ودُنيانا إنك رؤوفٌ رحيم.

ألاَ أيُّـهـا الـمـأمـولُ فـي كـلّ حـاجـةٍ شكوتُ إليك الضُّرَّ فارْحَمْ شكايتي[٢]
ألا يـا رجـائـي أنـتَ كـاشـفُ كُـربـتـي فَهبْ لي ذُنوبي كُلَّها واقْضِ حاجَتي
فَـزادي قـلـيـلٌ لا أراهُ مُـبـلِّـغِـي علىٰ الزّادِ أبكي أمْ لبعدِ مَسافتي
أتـحـرقـنـي بـالـنّـار يـا غـايـةَ الـمُـنـىٰ فـأيـن رجـائـي ثـمَّ أيـنَ مَـحَـبّـتـي

(١) إتحاف السادة المتقين ٦: ٢٠٧، وتهذيب ابن عساكر ٢: ١٧٢.
(٢) من بحر الطويل.
والشّكاية أحد مصادر فعل شكا، وهي اسمٌ كالشكوى.

إليكَ بتاج المُرسلين توسلي أقلْ عَثرتي واقبلْ لديكَ ضرَاعتي
وصَلِّ عليهِ كلّما ذُكِرَ اسْمُه وسلّمْ وكنْ لي راحماً عند فاقَتِي

وصلّى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً، وزادَه مولانا شرفاً وتعظيماً.

باب
في معنىٰ كُنيته
أبي القاسم وأبي إبراهيم (١)
صلّى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

أبو القاسم، وأبو إبراهيم: كُنيتان من كنىٰ نبيّنا عليه أفضل الصلاة والتسليم، وقد كان مشهوراً بإطلاقهما عليه في كُنيته بهما.

أمّا أبو القَاسم: فإنّما كنّي به ـ ﷺ ـ لأجل وَلدٍ وُلِدَ لَهُ بمكة قبل النبوّة كان يسمىٰ القاسم. وكان أوّل مَنْ مات من ولده بمكة، فكان يكنىٰ أبا القاسم لأجل ولده المسمىٰ بذلك.

وأما أبو إبراهيم فكُني به أيضاً لأجل ولدٍ تزَايد[٢] له بالمَدِينة في ذي الحجة سنة ثمانٍ من الهجرة من مارية القبطية، فسمّاه: إبراهيمَ، وعَقّ[٣] عنهُ بِكَبش يوم سابعه، وتوفّي في ربيع الأول سنة عشر.

---

(١) وردت كنيته ﷺ: أبو القاسم وأبو إبراهيم في الرياض الأنيقة ٢٧٣ ـ ٢٧٤ وسبل الهدى والرشاد ١: ٦٦٤ ـ ٦٦٥ والمواهب اللدنية ١: ١٨٤ ووقف عندها كتاب السيرة والتواريخ في سرد أسماء ولده ﷺ، وهي كثيرة جداً. وللنبي ﷺ عدّة كنى وأشهرها أبو القاسم. وفي صحيح البخاري ٣: ٢١٨ وصحيح مسلم (كتاب الأدب الحديث ١: كان رسول الله ﷺ يمشي بالبقيع فسمع قائلاً يقول يا أبا القاسم فردّ رأسه إليه فقال الرجل يا رسول الله إني لم أعنك إنما دعوتُ فلاناً فقال رسول الله ﷺ: تسمّوا باسمي ولا تكنوا بكنيتي فإني جعلت قاسماً أقسُم بينكم.

(٢) أي ولد له.

(٣) عقّ عن المولود: ذبح عنه شاةً في السابع من ولادته.

وقد بلغ ستة عشر شهراً، وقيل: سنة، وصلىٰ عَليْه ـ ﷺ ـ، وكبّر عليه أربعاً، ودفنه بالبقيع. وكانت أولادُ نبيّنا ـ ﷺ ـ من الذكور القاسم، وعبد الله واسمُه أيضاً الطيّب الطاهر، وقيل: بل الطّاهر والطيب ولدان آخران كانًا له عليه الصلاة والسلام وإبراهيم [٢٤٦/أ].

وكانَ له من الإناث ـ ﷺ ـ زَينب ورُقَيّة وأُمّ كلثوم وفاطمة. وجميع أولاده عليه الصلاة والسلام من خديجة بنت خُوَيلد إلا إبراهيم فإنّ أُمّه مارية القبطية، أُمّ ولده عليه الصلاة والسلام.

وأَولاده من خديجة كلّهم ماتوا قبل البعثة إلا الإناث فإنّهنّ أدركنَ البِعثة، وهاجَرْنَ مع النبي ـ ﷺ ـ وتزوّجن.

أما زَينب فتزوّجها ابنُ خالتها أَبو العاصي بن الرّبيع، وتزايدَ له معها أولاد.

وأما رُقَيّة فتزوّجَها عُثمان بنُ عَفّان رضي الله عنه. ثم توفّيت؛ فتزوج أختَها أم كلثوم بنت النبي ـ ﷺ ـ وقال له النبيّ عليه الصلاة والسلام حين تُوُفّيت[1]: «لو كان لنا بنتٌ ثالثة لزوّجْنَاكها». ولأَجلها سُمّي ذا النورين رضي الله عنه.

وأمّا فاطمة فتزوّجها ابنُ عمها عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وتوفّيت بعد موتِ أبيها ـ ﷺ ـ بستّة أشهر، وقيل: ثَلاثة، وقيل: ثمانية.

---

(١) في أ: ودفن

ينظر في تفصيل أخبار أولاده ﷺ ـ مثلاً ـ زاد المعاد ١: ١٠٣، ١٠٤

«لو كان لي ثالثة لزوّجته وما زوّجته إلا بوحي من الله» الطبراني الكبير ١٧: ١٨٤، وفي الرّياض النّضرة في مناقب العشرة ٣: ١٣، ١٤، أحاديث في هذا المقصد.

وينظر مجمع الزوائد ٩: ٢١٦، ٢١٧. وفيه ٩: ٨٣ حديث: لو كان لي ثالثة إلخ.. قال رواه الطبراني وفيه الفضل بن المختار وهو ضعيف...

واخْتُلِفَ في أوّل ولد تَزايدَ له، فقيل: القاسِم ثم زينب، ثُمّ رقيّة، ثم فاطمة ثم أُمّ كلثوم ثم عبد الله، وآخر أولاده إبراهيم.

والصّحيح أنه كان له أربعةُ ذكور، وأربع إناث، قال العُلماء رضي الله عنهم: وذٰلك يدلُّ علىٰ كمال حُسن مزاجه، واعتدالِ طبعه، فإنَّ كِثرة الإناث تدلّ علىٰ كثرةِ الرُّطوبات وبَرْد المزاج، وقلّتهن[1] وكثرةِ الذكور تدلّ علىٰ كثرةِ الحرارة، وخُروجها عن الطبع السليم.

ورَسول الله ـ ﷺ ـ لمّا بعثَه الله تعالىٰ علىٰ أكمل خَلق وخُلق كانَ في غاية الاعتدال وقوامِ البنية السّليمة مع كمالِ القُوّة التي أَعْطاها الله تعالىٰ له، فإعطاؤه سبحانه وتعالىٰ الذكور والإناث علىٰ السواء ناشىء عن سلامةِ طبعهِ، واعتدال حركته، واقتصاد بنيته نتيجةً عن حركاتٍ وسكناتٍ بالله ولِلّه وعن الله.

قال أبو سعيد الخُدري[2] رضي الله عنه إنّ رسول الله ـ ﷺ ـ قال: ما تزوجت شيئاً من نسائي، ولا زوّجت بناتي إلا بوحيٍ جاءني به جبريل عن رَبّي عز وجل.

فأوّل مَن تَزوّج[3] عليه الصّلاة والسلام خديجة رضي الله عنها وكان لها من القَدْر والمكانة عند الله، وَمِن محبّة رسولِ الله ما كانت به من خيرِ نساءِ أهل الدّنيا.

ثم تزوّج [٢٤٦/ب] سَوْدَة بنت زَمعة علىٰ الصحيح من القول. ثم عائشة بنت أَبي بكر الصديق.

---

(١) كلمة: «وقلتهن» ليست في أ.

(٢) حلية الأولياء ٧: ٢٥١، وكنز العمال ٣٤١٧٤.

(٣) في زاد المعاد ١: ١٠٥ـ ١١٤، فصل في أزواجه ﷺ.

ثم حَفصة بنت عمر رضي الله عنهم ثم زينب بنت خُزَيمة، وهي المسماة بأم المساكين لرأفتها وشفقتها بهم. وتوفِّيت رضي الله عنها في حياة رسول الله ـ ﷺ ـ، ولم يمتْ في حياتهِ من نسائهِ إلا هي، وخديجة.

واختُلف في رَيْحَانة، ثم تزوّج أُمّ سلمة وهي هند بنت أبي أميّة المخزومية، ثم زينب بنت جحش، أظهر الله تزويجها من السّماء السّابعة عنايةً بها، وشَرفاً لمنزلتها. ثم جُويرية بنت الحارث أعتقها عليه الصلاة والسلام من السّبي في غزوة بني المُصْطلق، وتزوّجها، ثم تزوج ريحانة القُرَظِيّة، ثم أُمّ حبيبة بنت أبي سُفيان، وعقد عليها النجاشي من أرض الحبشة النّكاح، وزوّجها من النبي ـ ﷺ ـ. وفي كيفيّة تزويجها خلاف معلوم[1].

ثم تزوج صفيّة بنت حُيَيّ بعد أن أعتقها من سبي خيبر، ثم ميمونة بنت الحارث الهلالية.

فهؤلاء أزواجُ النبيّ ـ ﷺ ـ اللاّتي دخلَ بهنّ، وتوفّي عن تسعٍ منهنّ.

وأما من لم يدخل بهنّ فَبلغ ذٰلك بعض العلماء ثلاثين امرأة.

وأما سَرارِي النبيّ ـ ﷺ ـ فأَربع[2]: مارية القبطية أم إبراهيم عليه

(1) في زاد المعاد ١: ١٠٩: «ثم تزوّج أم حبيبة واسمُها رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب القرشية الأمويّة؛ وقيل اسمُها هند، تزوّجها وهي ببلاد الحبشة مهاجرة، وأصدقها عنه النجاشيّ أربع مئة دينار، وسيقت إليه من هناك. وماتت في أيام أخيها معاوية. هذا هو المعروف المتواتر عند أهل السير والتواريخ. وهو عندهم بمنزلة نكاحه لخديجة بمكة، ولحفصة بالمدينة، ولصفيّة بعد خيبر».

(2) سراريه ﷺ في زاد المعاد ١: ١١٤.

السلام أهداها له المُقَوقِس، ورَيْحانة علىٰ خلافٍ فيها، وجارية وَهبتها له زَينب، وجارية أُخرى: جميلة.

فخيرُ هذه الأمة أكثرها نساء، وقال عليه الصلاة والسلام[1] ـ «حُبّب لي من دُنياكم ثلاث: النساء والطيب وجُعلت قُرّةُ عَيني في الصّلاة».

فكانت محبّته في ذلك ابتغاءً لأمر الله، واقتداءً بأنبياءِ الله، وخَصّه الله تَعالى بكرامتِهِ لديه، فزادَه الزّيادة على الأربع في النّساء، وقصر ذلك عليه.

فصل

مِن آداب مَنْ عَلِمَ أنّ نبيّنا ـ ﷺ ـ كُنيته أَبُو القَاسِم وأَبُو إبراهيم أَنْ يتأدّب بما أمرنا الله به، وليقفْ عند ما حَدَّ لنا من حُدود، فقال ـ ﷺ[2] ـ: «تَسَمُّوا باسمي، ولا تكنوا كنيتي».

فيجوزُ لنا التّسميةُ ببعضِ أَسمائه عليه أفضل الصلاة والسلام ولا يجوزُ لنا ببعضِ أَسمائِه المختصّة به، ولا تجوز التكنية بأبي القاسم، وقيل إن ذلك خاص بزمنه علىٰ ما هو معلوم في محلّه.

وتتأكد التّسمية باسمه محمّد وأَحمد رجاءً في [٢٤٧/أ] بركتهما، وفي نُزول الرّحمةِ علىٰ من تَسَمّىٰ بِهما.

---

(١) الحديث مشهور، وورد بألفاظ متقاربة، واللّفظ المقارب للفظ المصنف هنا: حُبّب إليّ من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرّة عيني في الصّلاة. ينظر كشف الخفا (١ : ٤٠٥) وتحقيقات المؤلف، وإحالاته. والفتح الكبير ٢ : ٦٨ وقد سبق في هذا الكتاب.

(٢) الفتح الكبير ٢/١٢٨، وانظر الحاشية (١) من هذا الباب.

وقد قدّمنا في أوّل التأليف بعضَ ما ورد في ذٰلك من الخَيرات، وحُصولِ البَركات.

قال عليه الصلاة والسلام[1]: «ما مِن بيت فيه اسمُ مُحَمّد إلا رُزِقُوا ورُزِقَ جِيرانُهم».

وأفضل الأسماءِ عند الله تعالىٰ ما عُبِّد أو حُمّد. وقد وَرد في الحديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال: «إنّ أحبَّ أسمائكم إلىٰ الله تعالىٰ عبدُ الله، وعبدُ الرحمن»[2].

ويجوزُ التّسميةُ بغير ذٰلك من الأَسماء ممّا لا يدلّ علىٰ كمال تعظيم، ولا تشبيه، ولا خُروجٍ عن العُبوديّة للربّ الكريم، وقد أتىٰ: فلا تجوز التّسميةُ بمثل عزيز ولا حكيم ولا قدير، فإنهما من أسماء خالقنا، وصفات رازقنا[3].

وقد أتىٰ رجلٌ إلىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ وكان اسمُه عزيزاً، فغيّر اسمه ـ ﷺ، وعلىٰ آله؛ وأعلىٰ في الألسنة اسمه.

قال العلماء رضي الله عنهم: وتَحْرُمُ التّسميةُ بملكِ الأَمْلاك، فإنَّ مالك الأملاك هو خالقُ الأرضِ والسّماوات، ورازقُ الأحياءِ والأَموات،

---

(١) قال السّيوطي عند فصل عقده لفضل التّسيمة باسم محمّد، قال الحفّاظ: لم يصحّ فيه حديث. وقال ابن تيميّة كل ما ورد فيه فهو موضوع. وقال في سُبل الهدى والرّشاد: «لابن بكير جزءٌ معروف في ذٰلك كل أحاديثه تالفة» ١: ٥٠٩. وضرب أمثلة من الأحاديث وبيّن عللها، ليس من بينها هذا الحديث.

(٢) أخرجه مسلم (٢١٣٧) في باب الأدب، وتتمته: وأصدقُها حارث وهَمّام، وأقبحها حربٌ ومرّة.

(٣) نقل ابن القيّم في زاد المعاد ٢: ٣٣٦ «قال أبو داوود غيّر النبي ﷺ اسم العاص وعزيز وعتلة وشيطان والحكم وغُراب وحُباب وشهاب...».

القائمُ علىٰ كلِّ نفسٍ بالأقوات.

وقد ورد في الحديث، عن رسول الله ـ ﷺ ـ أن أوضعَ الأسماء عند الله رجل تسمىٰ بمالك الأملاك[1].

وتجوزُ التسميةُ بمثل الطّاهر والهادي، والحَسن والحُسين، وقد سمّىٰ عليه الصلاة والسّلام حسناً وحُسَيناً، ولا تجوزُ التسميةُ ببعضِ أسماء الملائكة مثل جبريل وميكائيل؛ لقول النبي[2] عليه الصلاة السلام: لا تسمّوا بأسماء الملائكة. وأما الكُنية فتجوز بأسماء الأولاد مثل أبي عبد الله، وأبي إبراهيم علىٰ ما جَرت به عادةُ العرب، واستعمال العلماء رضي الله عنهم.

وتجوز الكنية بغير ذلك ممّا لا ينحصرُ ذكرُه بين الناس. ويتأكّد في حَقّنا الاقتداءُ بنبيّنا، والاتّباعُ لحبيبنا، والطاعة لأمره لنا في قوله عليه الصلاة والسلام[3]: «تناكَحُوا، تناسَلُوا، فإنّي مُبَاهٍ بكمُ الأُمَمَ يومَ القيامة».

فينبغي للمؤمن أن يمتثل السنّة، ويقفَ عندها، ويقصِدَ بذلك وجة الله، والطّاعة لِرَسُول الله، وإكمال شطر دينه، وإحياء سنّة نبيّه، وما قُدّر له من ولد أو غيره لا بدّ له من وُقوعه، وكانَ الله بكل شيء عليماً.

قال مولانا جلّ جلاله: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ

---

(1) أخرج البخاري في باب الأدب ١٠: ٤٨٦ ومسلم في الأدب ٢١٤٣ وغيرهما: وروايته: إن أخْنَع اسم عند الله رجل تَسمّى ملك الأملاك؛ لا مَلِكَ إلا الله. ومعنى أخنع: أذلّ وأفجر وأفحش.

(2) تهذيب ابن عساكر ٧: ٣٢٧.

(3) في الفتح الكبير: تناكحوا تكثروا فإني أُباهي... إلخ ٢: ٣٨. وفي كشف الخفا ١: ٣٨٠ تناكحوا تناسلوا أباهي بكم... إلخ. ويُنظر التخريج فيه.

﴿ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ [الشورى ٤٢/ ٥٠].

فالله سبحانه وتعالى [٢٤٧/ب] يفعل ما يُريد، ويحكمُ في خلْقه ما يشاء، فالمُؤمنون لربّهم مُسلّمون، ولا يسأل عمّا يفعل وهم يُسألون. ولقد صَدق عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في قصيدةٍ له طويلة وهي الّتي يقولُ فيها[1]:

نفَذتْ مشيئةُ رَبّنا في خَلقهِ ... وتصرّفت بِمُرادهِ الأَحكامُ[2]
كتبَ المليكُ علىٰ الخلائق حكمَهُ ... من قبلُ فاقْتسمتْ بهِ الأقسامُ
سبحانَهُ، ما للبريّةِ كُلّها ... في حكمهِ نَقضٌ ولا إبرامُ
لو شاءَ مَن رَفع السّمواتِ العُلا ... في مُلكهِ لم تُعْبَد الأصنامُ
ما كان إلا كُلّ شيءٍ شاءَهُ ... بقضائهِ قد جَفّتِ الأقلامُ
انظُرْ إلىٰ أقسامهِ في خَلْقهِ ... في مثلها تتحيّرُ الأَوهامُ
هذا كثيرُ المال لا وَلَدٌ لهُ ... ونتاجُ امرأةِ العديمِ تَوامُ[3]
هٰذا لهُ رزقٌ حلالٌ طيّبٌ ... يأتي إليهِ ورزقُ ذاكَ حَرامُ!
هذا له الأمرُ المطاعُ فقد غدَا ... يحمي حماهُ إذا الذّليلُ يُضَامُ
هذا يعمّرُ في الهَنيئةِ عُمْرَهُ ... ملءَ الحياة وعمرُ ذٰلك عامُ
كالطّفل يقضي قبلَ حينِ فطامِه ... وأبوهُ شيخٌ ما أتاهُ حِمامُ

---

(١) نسب شعر كثير لسيّدنا عليّ رضي الله عنه، ولا يصحّح العلماء له إلا القليل (ينظر الحماسة المغربية ١: ٤١) وقال المرزباني (معجم الشعراء: ١٣٠): يُنسب له شعر كثير.

(٢) من بحر الكامل.

(٣) وهذا كقول الشاعر:

بُغاث الطير أكثرها فراخاً ... وأم النسر مقلاةٌ نزورُ

هٰذا رشيدٌ عاقلٌ في قومهِ ... وبِعَقلِ هٰذا قد هوىٰ بِرْسَامُ[1]

هٰذا بهِ عيٌّ وهٰذا أخرسٌ ... ولسانُ هٰذا في الخطاب حسامُ

هٰذا جبانٌ في الوغىٰ ما عنده ... نَفْعٌ وهٰذا في الحروبِ هُمَامُ

ثم قال رضي الله تعالىٰ عنه وأرضاه:

وكذا الملائكةُ اصطفىٰ رؤساءَهُمْ ... فهمُ بتصريفِ الأمور قيامُ

ثم اصطفىٰ الرُّسلَ الكرامَ من الورىٰ ... فَهُمُ الدُّعاةُ إليه والأعْلامُ

واختارَهُمْ لِلمتقينَ أئِمَّةً ... ومحمَّدٌ للمرسلينَ إمامُ

صلّى عليهِ الله ربّي كُلّما ... سَطعَ الضياءُ وغَسَق الإظلامُ

وصلى الله على سيّدنا ومولانا محمد، وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدِّين.

---

(١) البِرْسام كلمة معرّبة، وهي علّة. قال في متن اللغة: هي ورم حارٌ في الحجاب الذي بين الكبد والأمعاء ثم يتصل بالدماغ فيهذي منها المريض. ويقال لهذه العلّة: المُوم.

باب

في معنىٰ اسمه:

السِّراج المُنير(١)

صلّى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم ومجّد وعَظّم

السّراجُ المُنير: اسمٌ من أسمائه، وصِفَةٌ من صفاته عليه الصلاة والسلام قال تعالى في كتابه الكريم مبشراً لنا برسالة نبيّنا بشيراً. [٢٤٨/أ] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب ٣٣/٤٥، ٤٦].

والسّراجُ: أصلُه المِصباح الذي يُضيء في(٢) الظُّلمات، ويُتصرّف به في قضاء الحاجات.

فاستُعِير السِّراجُ المُنِير، وأُطلق علىٰ سيد المرسلين، وسُمّي به حبيب ربّ العالمين لوجوهٍ من محاسنِ التّشبيه، وبلاغةٍ في مكانةِ مقامِ العزيزِ القَدْر عند الله الوجيه.

---

(١) ورد شرح اسمه الكريم: «السراج المنير» في الرّياض الأنيقة: ١٧٥، وسبل الهُدى والرّشاد ١ : ٥٧٩، وزاد المعاد ١ : ٩٧.

وهو في الشفا ١ : ٣٢٦ قال: سمّي بذلك لوضوح أمره، وبَيان نبوّته، وتنوير قلوب المُؤمنين، والعارفين بما جاء به.

وينظر كتاب: (الجمان في تشبيهات القرآن) بشرح محمد رضوان الداية عند تفسير سورة الأحزاب (طبع دار الفكر بدمشق).

(٢) في ب: يُستضاء به في الظّلمات.

فَمِن محاسنِ إطلاقِ السّراجِ علىٰ نبيّنا، والتشبّه به لشفيعنا أَنَّ السّراج المحْسُوس يَطْرُدُ بنوره الظّلمات، ويتوصّل به إلىٰ الأُمور المهمّات، ويسهّل علىٰ النفوسِ السكنات والحركات، ويُنجيها من الوُقوعِ في الآفاتِ.

فأطلق السّراجُ المُنير علىٰ من بعثه الله رحمة إلىٰ جميع خَلقه، وخصّهُ بالشرف الأتمّ علىٰ أبناء جنسه؛ لأنه - ﷺ - حين بعثه الله تعالى وجد الأرض سوداء مظلمة بعبادة الأصنام والأوثان، متراكمة الظلمات بعضها فوق بعض، حمي بها وطيسُ الكُفران، فكانت نبوءته عليه الصلاة والسلام سراجاً منيراً، أضاء الله تعالى بها أرضَهُ وسماءه، ونَوّر[1] بها القلب، فأزالَ ظُلماتهِ وعماءه؛ فَجَلّىٰ الله تعالى به ظلماتِ الشّرك، واهْتدىٰ به الضّالُّون، ونوّر به سويداء القلوب، فاستبصر بضيائه المستبصرون، وأمده رَبّه بكواكبِ رسالته نور البصائر فاستنارت بآثارِ سراجهِ زَوايا القُلوب، فاسْتَرشد المسترشدون.

قال بعضُ العارفين في تفسير هٰذا الاسم الكريم: إنّما وَصف الله تعالىٰ هذا السّراج العظيم بكونه مُنيراً لأنّ من السّراج ما لا يكثرُ ضياؤه إذا قل سَلِيطُه[2]، ودقّت فتيلته، ولم يَصْفُ زيته. فإذا كان المصباح: زجاجُهُ صافياً، وزيتُه وافياً وصَلحت فتيلتُه، وأُتقنت حكمته تلألأ نُوره في الجُدرات وأشرق ضياؤه في جميع الجهات.

ولمّا كانت نبوءة نبيّنا عليه الصلاة والسلام نوراً، وقلبُه نوراً، وصدرهُ نوراً، وجسمُه نوراً، فكان سراجُه دائماً منيراً، لأنّه نورٌ علىٰ نور، لا تعتريه الفَترات، ولا تطرأ علىٰ القلبِ به الغَفلات،

---

(١) في ب: أنار.

(٢) سليط السراج: زيته.

ولا يستوحشُ بوجوده في جميعِ الحالات.

وشُبّه - ﷺ - بالسِّراجِ المُنير لفوائد كثيرة، وفرائد عديدة.

منها: أن السّراج المنير يقبسُ من ضيائه المبصرون [٢٤٨/ب]، ويستفيدُ من حُسن جواهِره المُستفيدون. وقد اقتبست من ضياء نوره عليه الصلاة والسلام جميعُ الخلائق، وهَدىٰ به مولاه أهلَ المَغارب والمشارق.

ومنها: أن السّراجَ المنيرَ يَتوصَّلُ به إلىٰ الانتفاع الفقراءُ والأغنياء، ويَستعمله ليساره الصُّلحاء والأولياء، وبذا لم يُشبه في نوره بضياءِ الشّمعة المنيرة، ولم يمثل بذلك أهل(١) البصيرة، لأنَّ الاستنارة بضياءِ الشّمعةِ لا يصلُ إليه كلُّ مخلوق من النّاس، وإنما يتصل به من الأغنياء الأكياس.

ومنها: أن السّراجَ ترتاحُ النفوسُ لِحُسنه عند رؤيته، وتَسْتأنس القلوبُ عند مشاهدته، ونبيّنا - ﷺ - يزيدكَ وجهُه العظيم حُسناً إذا ما زِدْتَهُ نظراً(٢). وتَلذُّذُ بكمال نوره كمرآةٍ من غير مَللٍ ولا سآمةٍ. ثم تعود أخرى. كيف لا، وهو نور الهدى الذي نَوّر الله به تعالى كلّ موجود، ونوّر الأنوارَ الظّاهرة والباطنةَ لكلّ والدٍ ومَولود. فالأنوارُ استمدّت نُورانِيّتَها من سيد الأكوان.

فلو تشكلت الهدايات حتىٰ صارت محسوسةً لكانت صورتُه عليه الصلاة والسلام مرئيّةً فيها بالعيان؛ ولمّا تناهت حالُ هٰذا العزيزِ القَدْر

---

(١) في ب: لأهل البصيرة... وإنما يتوصّل.

(٢) نثر المؤلف قول الشاعر، وهو أبو نواس:

يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظرا

عند الله في خصال الكمال من الهداية النُّورانية، والمنظر الحسَن، وبديع الجمال، حتىٰ شاهدت المعاصرون له ما عَجزوا عن التّعبير عنه، ووقفوا في الأَفهام دونه مع أنهم أئمةُ اللّسان، وأَربابُ البلاغة والبَيان. فسَلكوا بالسّراج المنير طريقَ التّقريب واليقين في التّشبيه لِلّبيب، تنبيهاً للتّابعين، وإعلاماً لغير المعاصرين. علىٰ أنهم قد شاهَدُوا من المحاسن النُّورانية، والسُّرُج المنيرة اللدنيّة ما لا يَخْطُر جمالُه علىٰ بال، ولا يُتوصّل إلىٰ كُنهِ إدراكه في جميع الأحوال؛ فكأنّهم يقولون بلسان حالهم، ودقيقِ نَظرهم وبالهم: إن أَردتم أن تتعلّقوا بتخييل صورةِ السّراج المنير، وتتلذّذوا بمشاهدةِ بعضِ جمال العزيز القَدْرِ علىٰ الملك القدير؛ فانْظُروا إلىٰ بعض أنوار العوالم العلوية، وشاهدوا السّرج المنيرة في العالم السُّفلي من البريّة، فلا تجدون في مشاهدتكم أحسنَ من الشّمس والقمر، ولا ترونَ أحسنَ من ذلك في النظر!.

فأقربُ الأمثال في صفةِ[1] نبيكم تقريباً لكم ضِياءُ السُّرج [٢٤٩/أ] عندكم، فهٰذه غايةُ المَقْدور الذي تحاولون عليه في جَمال نبيّكم إذ لم تجدُوا في عَوالِمكم ما يقرب المقصد إلىٰ أذهانِكم إلا ما ضرَبْنا من الأَمثال لكم.

وقَدْرُ حبيبكم لا يساويه مثال، ولا يقاربُه بديع حسنٍ وجمال، حسن القَمر مستمد من نوره، ونُور الشمس بعضُ ضياءِ نُوره، لأنّه بنورهِ نَوّر الله سُبحانه العالَم بأسْرِهِ، وما خلقه إلاّ من أَجْلِه صلى الله عليه وسلم وشرّف وكرّم.

---

(١) في أ، و: ج: صفات، وفي ب: صفة.

أصلُ المحاسن حسنُه فكأنّها ... في الخلقِ في إحسانهِ تتفرّعُ[1]
جمعتْ شتاتَ الحُسن صورةُ خَلْقهِ ... فالحسنُ فيه بِحُسْنهِ يتنوّعُ
وصفاتُ جوهره الجمال بنفسِه ... ولغيرهِ عَرَضٌ يَحُلُّ ويُرفعُ
وجمالُه بالذّات فيهِ وترُه ... فالحسنُ والإحسانُ لا يتشفّع
طُبعت علىٰ الخُلُقِ البديعِ طباعُه ... فصنيعهُ في الحبّ لا يتصنّعُ[2]
يُثني عليه البانُ لمّا ينثني ... ويقومُ إجلالاً إليه ويركعُ[3]
فالشمسُ تبصرُ نورَها في وَجْههِ ... بادي المحاسِنِ بالضّياء مُبَرْقَعُ
صلّى عليه الله مِنْ نورٍ بهِ ... هَدْيُ الأنامِ فيا هُدىٰ من يتبعُ

فصل

من آداب المحبّ لهذا النبيّ الذي سماه الله: السّراج المنير، وكان لَه في جميع أمورهِ عَوناً وظهيراً، أن يكونَ مُلاحِظاً لأنواره، وناظراً لسِرَاجهِ، كيفَ أضاء الله به القلوبَ؛ وأضاءَها حتىٰ شاهدتْ علاّمَ الغيوب.

ونَوّر سبحانه به الظّواهر والبواطن، وأشرقَتْ بطلعةِ حُسنهِ البقاعُ والأماكن، وكانَ بريقُ أسارير جَبْهتِهِ أبهىٰ من القمر، ولمعانُ نوره عَمّ بقاعَ الأرض فزهت بحسنهِ حتىٰ سلّم عليه الحَجرُ والشّجر. وسراجُه المنيرُ أنارَ القلوبَ والبيوت، وبَهاءُ جمالهِ يحيي النّفوس ويَقُوت.

---

(١) من بحر الكامل.

(٢) في أ: للحبّ؛ وقول الشاعر: (فصنيعه) أي ما يصدر عنه من تصرّف وعمل، ومعنى يتصنع: أي يأتي به متكلفاً. فهو ﷺ يجري على خلق بديع وطبع سليم، ولا تكلّف عنده في شيء. واستفاد الشاعر الجناس بين الصنيع والتصنع.

(٣) في أ: إجلالاً لديه.

قالت عائشة رضي الله عنها: كنتُ أخيط شيئاً في وقت السَّحر فسَقطت الإبرة، وطفئ المِصباح، فدَخل رسول الله ـ ﷺ ـ فأَضاءَ البيتَ من ضياءِ حُسنه، وبهاءِ وجهه، ووجدتُ الإبرة، ثم قلت: يا رسول الله ما أضوأ وجهك![1] فقال لي:

«الويلُ لِمَن لم يرني يوم القيامة»[2].

فقلت: ومن الذي لا يراك؟

قال: «البَخيل» [٢٤٩/ب].

قلت: ومن هٰذا البخيل؟

قال: «الّذي إذا ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَلّ عليّ»[3]. وقد كان حُسن نبيكم يزيدُ ضياؤه ويكثُر بهاؤه، إذا ورد عليه من مولانا ما يسركم لرحمته بكم، وكثرة شفقته عليكم.

قال أبو طلحة رضي الله عنه: دخلت على رسول الله ـ ﷺ ـ وأساريرُ وجهه تبرُق وتلمعُ لمعاناً، فقلت: يا رسول الله ما رأيت كاليومِ أطيبَ منك نَفساً ولا أظهر منك بشراً من يومك هذا.

فقال لي: «وما لي لا تطيبُ نفسي ويظهَرُ بِشري ويزدادُ حسني؟ وإنما فارَقني جبريل عليه السلام السّاعة، فقال لي: يا مُحَمّد مَنْ صلىٰ عليك صلاة من أُمّتك كتبَ الله له بها عشرَ حسنات ومَحا عَنْه عشرَ سيّئات، ورفعَ له عشرَ درّجات، ورَدّ الله عليه مثل قوله، وعُرضت عليّ

(١) في ب، و: ج: ما أضوأ وجهك يا رسول الله.
(٢) في ب: فويل لمن لم يرني يوم القيامة.
(٣) ينظر مجمع الزوائد ١٠: ١٦٤ (باب فيمن ذكر عنده فلم يصلّ عليه) ومسند الإمام أحمد ١: ٢٠١، وإتحاف السادة المتقين ٥: ٤٩، وتهذيب ابن عساكر ١: ٣١١.

صلاته يومَ القيامة»[1].

فداوِمُوا أيّها المحبون علىٰ سماع صِفات نبيكم، ولازموا النّظر في محاسن حبيبكم، فإنّ أصحابه الكرام الأئمّة الأعلام هكذا كانت طريقتهم، وهٰذه في جميع الأحوال سيرتهم.

خرَج - ﷺ - ذاتَ يَوْمٍ فلقيَ أبا بكر رضي الله عنه فقال له: «ما أَخْرَجك يا أبا بكر؟» فقال: اشتقت النظر إلى وجهك يا رسول الله[2]. وقد كان رضي الله عنه يقول لرسولِ الله - ﷺ -:

حُبّب لي من الدُّنيا ثلاث: جُثُوّي بين يديك، وإنفاق مالي عليك، وكثرة الصّلاة عليك[3].

وقد كانتْ عائشة أحبَّ النّساءِ إلىٰ رسول[4] الله - ﷺ - ورضي الله عنها تصفُ حسنَ رسول الله - ﷺ - بعد مَماتِه، وتذكُر جَماله في حياته، وتتألّم على فِراقه، ثم تقول: كان والله كما قال شاعره حَسّان بن ثابت رضي الله عنه[5]:

مَتىٰ يَبْدُ في الدّاجِي البهيم جبينُه ... يَلُحْ مثلَ مصباحِ الدُّجىٰ المتوقّدِ

فمَنْ كانَ أو مَنْ قد يكونُ كأحمدٍ ... نظامٍ لحقٍّ أو نَكالٍ لِمُلْحِدِ

---

(١) الترغيب والترهيب ٢: ٤٩٧.

(٢) الطبراني الكبير ١٩: ٢٥٤،٢٥٦.، وتفسير ابن كثير ٣: ٢٨٦، ومشكل الآثار للطحاوي ١: ١٥٦.

(٣) جثا جثوّاً وجثياً: جلس على ركبتيه.

(٤) زاد المعاد ١: ١٠٥، وفيه «كانت أحبّ الخلق إليه ﷺ... وهي أفقه نسائه وأعلمهن بل أفقه نساء الأمة وأعلمهنّ على الإطلاق واتّفقت الأمة على كُفر قاذفها...».

(٥) الشعر في ديوانه (تحقيق د .عرفات) ١: ٤٦٥، وهما في أسد الغابة ٢: ٤، مع كلمة السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

هكذا طريقةُ المحبّين المُشتاقين إلىٰ سيّد المرسلين، لا يزالون يتلذّذون بذكر محاسِنه، ويعتنونَ بسماعِ شمائِله، ويتمنَّوْنَ دوامَ النّظر إلى وَجْهِهِ الكريم، وينتهزون الفرصةَ بمشاهدة سِراجه العظيم.

وقد كانَ عُمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم المصيبة [٢٥٠/أ] والدّاهية العميمة، يوم فراقه لرسول الله ـ ﷺ ـ وحُزنه علىٰ حبيب الله ينظر إلى جُدراتِ المدينةِ قد اسودّت، وإلىٰ بقاعِ الأرض كيف تَزلزلت، فينظرُ إلى النّاس مرّةً، وإلى البيت أخرى، ثم يدخل رأسه فَيرى الحبيبَ مسجًّى بثوبه لاحقاً بربّه، فيقول رضي الله عنه من صميمِ فُؤاده باكياً منشداً على فِرَاقِ مُرَاده[(١)]:

ما زلت مذ وضع الفراش لجنبهِ ... وثَوىٰ مريضاً، خائفاً أتوقَّعُ

حَذراً عليهِ أن يزولَ مكانهُ ... عَنّا ونبقىٰ بعدَهُ نتفجَّعُ

نفسي فداؤك مَنْ لنا في أمرنا ... أَمْ مَن نشاوِرُهُ لِمَا نتوقَّعُ

وإذا تحلّ بنا الحوادثُ مَنْ لنا ... بالوحي مِنْ رَبّ عظيم يسمعُ[(٢)]

لمّا رأيتُ النّاس هدّى جمعهم ... صوتٌ ينادي بالمدينة يُسْمَعُ[(٣)]

والناسُ مجتمعون حولَ نبيّهم ... لم تَرْقَ أعينُهم بكاءً تَدْمَعُ[(٤)]

وسمعتُ صوتاً قبل ذٰلك هَدّني ... عباسُ ينعاهُ بصوت يفظع

أيقنتُ أنّ الأمرَ حانَ أوانُه ... والدهرُ ناءٍ حَبْلُه يتقطع[(٥)]

---

(١) من بحر الكامل.

(٢) في ب: من ربّ عليم.

(٣) في ب، و: ج: هذا جمعهم، وفي أ: هدى جمعهم. وينظر البيت السابع من القطعة.

(٤) رقأ دمع فلان: جَفّ.

(٥) في ب، و: ج: متقطع.
وهدّ الحائط: هدمه بسرعة. وأورد الفعل على سبيل المجاز.

والـمُـلـك لـلـمـلـكِ الـقَـديـر بـقـدرةٍ   يـقـضـي ويُـمـضـي مـا يـشـاءُ ويَـمْـنَـعُ
صـلّـىٰ الإلَـهُ عـلـىٰ الـنـبـيّ مـحـمّـدٍ   وجَـزاه بـالإحـسـانِ فـيـمـا يَـصْـنَـعُ

وكان خالد بن مَعدان[1] لا يأوي إلىٰ فِراشه إلا وهو يذكر من شوقِه إلى رَسُول الله ـ ﷺ ـ وإلى أصحابه ويسمّيهم ويقول: هُم أصلي وفصلي، وإليهم يحنُّ قَلبي، طال شوقي أليهم، فَعجّلْ رَبّ قَبْضي إليك. حتّىٰ يغلبه النوم.

وقد أتىٰ رجل إلىٰ رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: يا رسولَ الله لأَنتَ أحبُّ إليّ من أهلي ومالي، وإنّي لأذكُرك فما أصبِرُ حتّىٰ أجيءَ أنظُر إليك، وإنّي ذكرت مَوْتي ومَوتك فعرفتُ أنّك إذا دخلت الجنة رُفعت مع النّبيّن، وإذا دَخلتها لا أرَاك. فأنزل الله تعالى[2]: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء ٤/٦٩].

اللّهُمّ اجْعَلْنا ممّن يُطيع الله ورسوله، ويَمْتَثِلُ حُدوده. وانفعنا بمحبّته في الدنيا والآخرة، يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون إلا مَن أتىٰ الله بقلبٍ سليم. وصلّى الله على سيدنا محمد نبيه الكريم، وعلى آله وصحبه أفضل التسليم.

---

(١) أبو عبد الله خالد بن معدان بن أبي كرب الكلاعي تابعيّ ثقة ممن اشتهروا بالعبادة، سكن حمص بالشام وتولى الشرطة ليزيد بن معاوية. كان إذا أمرَ بالغزو يجعل فسطاطه أوّل فُسطاطٍ يُضرب، وكان كثير التسبيح، فلمّا مات بقيت إصبعه تتحرك كأنه يسبّح.
تهذيب ابن عساكر ٥: ٨٦، والزركلي ٢: ٢٩٩.

(٢) قيل: نزلت هذه الآية في عبد الله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري ـ الذي أُرِيَ الأذان ـ وقيل: نزلت في ثوبان مولى رسول الله ﷺ. روي عن عبد الله قوله: «إذا متّ ومتنا كنتَ في علّيين لا نراك ولا نجتمع بك» وذكر حزنه على ذلك فنزلت هذه الآية.
ينظر تفسير القرطبي ٥: ٢٧١، ٢٧٢.

باب
في معنى اسمه
المُنذِرُ والنَّذيرُ(١)
صلّى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

[٢٥٠/ب] المُنذر والنذير: اسمان من أسمائه عليه أفضل الصلاة والسلام. قال الله العظيمُ في كتابه الكريم، مخاطباً نبيّه الرؤوف الرحيم، ومكبّراً له تكبيراً: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر ٣٥/٢٣] ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة ٢/١١٩].

وقال عليه الصلاة والسلام، وبيّن حال النذارة غاية التبيان بقوله(٢): «أنا النّذير العُريان».

والمنذر مأخوذ من أنذر بمعنى أنه مخوّفٌ للخلقِ من عذاب الله، ومن الوُقُوع في سخط الله.

والنّذير مبالغة في الإنذار مأخوذ من أنذر، قال الله تعالى الذي ليس لنا من دونه من وال: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟

---

(١) المنذر في: سبل الهدى والرشاد: ٦٤٦، والنذير فيه ٦٥٦.
والمنذر في الرياض الأنيقة ٢٥، والنذير فيه ٢٦٣، وفي الشفا ١: ٣٣٦.
وفي ب: المنذر والنذير.

(٢) صحيح البخاري ٩: ١١٥، وشرحه في الرياض الأنيقة ٢٦٣.

أَفۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم ١٤/ ٤٤، ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم ١٩/ ٣٩، ٤٠].

ولما بعث الله نبينا بالرسالة إلىٰ خلق الله ناداه بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴿٢﴾﴾ [المدثر ٧٤/ ١، ٢].

فقام ـ ﷺ ـ ممتثلاً لأمر ربّه، مشمّراً عن ساقِ جِدّه، فأنذر الخلائقَ من عَذابِ الله، وأمرهم بعبادةِ الله، ونهاهم عن مَعصِيَةِ الله، صابراً علىٰ ما لقيه في ذات الله، باذلاً نُصْحَهُ[1] لخلقِ الله، قائلاً[2]: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتُمْ كثيراً، ولو علمت البَهائِمُ ذٰلك لما أكلتم منها لحماً سميناً».

وقد أنذرنا نبينا ـ ﷺ ـ من مَهاوِلَ بينَ أيدينا، ومن مَخاوِفَ تَرِدُ يوم القدوم عَلينا، وبَيّن لنا حال الموت وأهواله، وما يَرِدُ على الميت في قبره من سؤاله، وما يُشاهده عند القيام من قبره وملاقاةِ أعماله، وما بينَ أَيْدِينا من الشّدائد والغَمرات، وما يعقُبنا من الندامة والحسَرات، وما يطرأُ علىٰ النُّفوس من السّكرات.

عن ثابت البناني رضي الله عنه أنه قرأ ذات يوم ﴿حمٓ.

---

(١) في ب: باذلاً نفسه.

(٢) الحديث في مسند الإمام أحمد ٥ : ٣٧٣، وإتحاف السادة المتقين ٢: ٦٦، ٩: ٤٠٢.

السّجدة﴾[1] حتىٰ بلغ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصّلت ٤١/ ٣٠] ثم وقف فقال[2]: [٢٥١/أ]

بلغنا عن نبيّنا ـ ﷺ ـ: أنّ المُؤمن حين يُبعث من قَبرهِ يَتلقّاه المَلكان اللّذان كانا مَعه في الدّنيا فيقولان: لا تخف ولا تحزن، وأبشر بالجنة التي كنت تُوعَدُ، قال: فيؤمّنُ الله خوفَهُ، ويقرّ الله عينه[3].

قال عمر بن قيس[4] رضي الله عنه: إن المؤمن إذا خرج من الدُّنيا[5] استقبله عملُه في أَحسن صُورة، وأطيب رائحة، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا! إلاّ أنّ الله تعالى قد طيّب رِيحك، وحَسَّنَ صورتك. فيقول: كذلك كنتُ في الدُّنيا، أنا عَملُكَ الصّالح طالما ركبْتُكَ في الدّنيا اركَبْني اليوم[6].

وأمّا الكافر فَيستقبله عملُه علىٰ أقبح صورة، وأنتنِ رائحة، فيقول: هل تعرفني؟ فيقول: لا، إلاّ أنه قد قبّح الله صورتك، وأنتنَ ريحك!

فيقول: كذلك كنت في الدنيا، أنا عَملك السيء طالما ما ركبْتَنِي

---

(١) هي سورة فصّلت.

(٢) الخبر عن ثابت في التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي ٢١٤، ٢١٥.

(٣) روايته في التذكرة: «... قال فأمّن الله خوفه، وأقرّ الله عينه فما عظيمة تغشى الناس يوم القيامة. فالمؤمن في قرة عين لما هداه الله له، ولما كان يعمل له في الدُّنيا».

(٤) في التذكرة: عمرو بن قيس الملاي.

(٥) في التذكرة: إذا خرج من قبره.

(٦) زاد في التذكرة بعده: وتلا ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾؛ وأن الكافر يستقبله... إلخ.

في الدنيا، وأنا أركبك اليوم![1]

قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٣١].

وروىٰ الحسن رضي الله عنه عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه كان رأسه في حِجْرِ عائشة رضي الله عنها فنام عليه الصلاة والسلام، فذكرتْ عائشةُ الآخرة وأحوالَها وأهوالَها، فبكتْ حتّىٰ سالت دموعُها علىٰ وجه النبي ـ ﷺ ـ فانتبهَ من نومه فقال: «ما يبكيك يا عائشة؟» قالت: ذكرتُ أهل الآخرة هل يذكرونَ أهليهم يوم القيامة؟ فقال:

«إي والذي نفسي بيده، إلا في ثلاثة مواطن، فإن أَحداً لا يذكرُ إلاّ نَفْسَه؛ إذا وُضِعت الموازين ووزنت الأعمال حتىٰ ينظُرَ ابنُ آدمَ يخفُّ ميزانه أو يثقل؟ وعند الصّحف حين يَنظُرها: أبيمينهِ يأخذها أم بشماله، وعند الصّراط»[2].

قال أنس رضي الله عنه: يؤتىٰ بابن آدم حتىٰ يُوقَف بين كِفّتي الميزان ويوكّلُ بهِ مَلكٌ فيوزن عمله، فإنْ ثقل[3] ميزانه نادى الملَكُ الموكّل بصَوتٍ يسمعه الخلائق: سعد فلان بن فلان سعادة لا يشقىٰ

(١) في التذكرة: وتلا: (الآية).

(٢) في التذكرة: ٢٩١ «أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: ذكرت النّار فبكيت فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك؟ قلت: ذكرت النار فبكيت فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال: أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً. عند الميزان حتى يعلم أيخفّ ميزانه أم يثقل، وعند تطاير الصّحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره، وعند الصّراط إذا وضع بين يدي جهنم حتى يجوز».

(٣) في ب: رجح.

بعدها أبداً، وإذا خفّ ميزانُه نادىٰ الملك بصوت يسمعه الخلائق: شَقِيَ فلانٌ شقاوةً لا يسعَدُ بعدها أبداً.(١)

ثم تُقْبِلُ الزّبانية وبأيديهم مقامِعُ من حديد فيأخذونَ نصيبِ النّار إلىٰ النّار [٢٥١/ب].

وتكون الخلائقُ يوم القيامة ثلاث فِرَق:

فِرقة ليست لها حسنة فيخرج لها من النار عنقٌ أسود فيلتقطهم كما يلتقطُ الطّيرُ الحب، وينطوي عَليهم، ويُلقيهم في النّار، فتبلعهم، ويُنادىٰ عليهم بشقاوةٍ لا سعادةَ بعدها أبداً.

وفرقةٌ أخرىٰ ليست لها سيئة فينادي منادٍ لِيَقُم الحامدونَ لله علىٰ كل حال، فيقومونَ ويسرحون إلىٰ الجنّة. ثم ينادىٰ: أين القائمون بالليل، أين الذين لا تشغلهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله، فَيُسارُ بهم إلىٰ الجَنّة، فينادىٰ عليهم بسعادةٍ لا شقاوة بعدها أبداً.

وفرقة ثالثة وهم الذين خَلطُوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً، والكتبُ منطويةٌ علىٰ الحسناتِ والسّيئات، فينصبُ لهم الميزان وتَشْخَصُ الأبصارُ إلىٰ الكُتب: أيقَعُ في اليمين أم في الشّمال؟

ثم تشخَصُ الأبصارُ إلىٰ لسانِ المِيزان أيميلُ إلىٰ جانب الحَسنات أَم إلىٰ السيئات.

ورویٰ ابن مسعود رضي الله عنه أنّه [قال](٢) ما من أحدٍ إلا ليخلو العليّ الأعلىٰ به كما يخلُو أحدكم بالقَمر ليلة البدر - يعني كما يجبُ له

---

(١) ينظر في قول أنس: التذكرة للقرطبي أبواب الميزان ٣٥٩.

(٢) الدرّ المنثور ٥: ١٣٥، وينظر التذكرة باب رؤية أهل الجنة لله تعالى ٥٧٤، ٥٧٥.

سبحانه ـ من غير كيف ولا جهةٍ ولا تحديدٍ. ثم يقول: يا ابن آدم! ما غَرّك بي؟ ما عملت فيما علمت؟

يا ابن آدم! ماذا أجَبْتَ المرسلين؟

يا ابن آدم! ألم أكنْ رقيباً علىٰ عَينيك، وأنت تنظرُ بهما إلىٰ ما لا يحلّ لك؟

يا ابنَ آدم! ألمْ أكنْ رقيباً علىٰ فَمِك وأنت تتكلّم في أعراضِ إخوتك[1]، وتأكل بفيك ما لا يحل لك؟

يا ابن آدم! ألم أكن رقيباً علىٰ رجليك، وأنت تمشي بهما في معصيتي؟

يا ابن آدم! ألم أكنْ أُنعم عليك وأنت تستعين بنعمتي علىٰ مخالفتي، أما استحيت مني، أما علمت أني مطّلعٌ علىٰ سرائر قلبك، أما علمت أني قادر علىٰ فضيحتك في خلقي، لولا حلمي عليك؟

وقد بَيّنَ لنا نبيّنا ـ ﷺ ـ أحوالَ[2] القيامة وأهوالها، وشدائدها، وكيف تحشرُ جماعة من عُصاة هٰذه الأُمّة علىٰ علو قدرها، وشُهرة فضلها.

قال معاذ بن جبل[3] رضي الله عنه قلت: يا رسول الله أرأيتَ قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ ٧٨/١٨].

فقال النبي ـ ﷺ ـ: «يا معاذا لقد سألتَ عن أمرٍ عظيم»، ثم أرسل عينيه بالبكاء، ثم قال: «يُحشر عشرةُ أصنافٍ من أمتي أشتاتاً، قد

---

(١) في ب: أعراض الخلائق وإخوتك.

(٢) في ب: يوم القيامة.

(٣) في تفسير القرطبي ١٩: ١٧٥.

مَيّزهم الله من جماعاتِ المُسلمين، وبدّل صورهم فمنهم علىٰ صورة القردة، وبعضُهم [٢٥٢/أ] علىٰ صور الخنازير، وبعضهم منكّسون أرجلهم أعلاهمد ووجوههم يُسحبون عليها، وبعضهم عُمي يتردّدون، وبعضهم صُمّ بكمٌ فهم لا يعقلون، وبعضهم يمضغون ألسنتهم مدلاّة علىٰ صدورهم يسيل القيحُ من أفواههم لعاباً، يتقذّرهم أهل المَحْشَرِ[١]، وبعضهم مقطعةٌ أيديهم وأرجلهم، وبعضهم مصلبُون على جذوعٍ من النار، وبعضهم أشد نَتناً من الجِيَفِ، وبعضُهم يلبسون جلابيب سابغةً من قَطِران.

فأما الذين هم على صُورة القِرَدة: فالقتّاتون من الناس أي النّمامُون، وأمّا الذين هُم علىٰ صُورة الخَنازير: فالمكّاسون[٢] وأهل السُّحت والحَرام.

وأما المنكّسون رُؤوسهم: فأكَلةُ الرِّبا، وأما العُمي: فالجائرون في الأحكام، وأما الصمّ البُكم: فالذين يُعجبون[٣] بأعمالهم، وأما الذين يَمضغون ألسنتهم: فالعُلماء والقُصّاص الذين تُخالف أقوالُهم أفعالَهم.

وأما المقطّعة أيديهم وأرجلهم: فالذين يُؤذون الجيران، وأما المُصلّبون علىٰ الجُذوع: فالذين يَسْعَوْن بالناس إلىٰ السُّلطان، والذين هُمْ أشدّ نَتناً من الجِيَفِ: هم الذين يتمتعون بالشهوات واللّذات، ويمنعون حقوق الله في أموالهم[٤]، والذين يلبسونَ الجلابيب: المتكبّرون

(١) في ب، وفي القرطبي: أهل الجمع.
(٢) في القرطبي «فأهل السّحت والحرام والمكس» وفي الأصول: والمكاسون وأضفت الفاء هنا وفي ما بعد سطرين: فالذين يعجبون بأعمالهم.
(٣) في القرطبي: «والصم البكم الذين. . .».
(٤) في القرطبي: ويمنعون حقّ الله من أموالهم.

المتجبرون أهل الفخرِ والخُيَلاء[1].

فأصْغ بِسَمْعِكَ لحديثِ نبيّنا الذي أنْذَرنا بهذه النّصائح، واسْتُر نفسك يا مسكينُ قبل أن تظهرَ لكَ الفضائح، وتُنشر صحائفك بين يدي أحكم الحاكمين بالقبائح، ولا يكنْ قلبك غافلاً عن الوقوع في الآفاتِ. وتزوّدْ زاداً يبلغك إلى السّلامة بعد المَمات، ويُنجيك من مَخاوِف الحَسرات، ولا يُطيل عَليك الأمد يا مَغْرُور فإنّ كلّ ما هُوَ آتٍ آت.

يا نفسُ رحيلُكِ قد حضَرا ... فابكي سكباً وابكي دِرَرا[2]
يا نفس ذنوبك قد عَظُمَت ... والشيبُ برأسك قد ظهَرا
يا نفسُ فتوبي واجْتهدِي ... وسَلي رَبّاً خلَق البَشرا
يا نفسُ عصاهُ ينقذكِ ... من حَرّ لهيبِ قد زَفَرا
يا نفس فلو عاَيْنت بلا ... ءً لا تجدي منه وَزَرا
يا نفسُ فلو عاينت لظَى ... يوماً ترمي فيه الشّررا [٢٥٢/ب]
يا نفسُ بها قومٌ لُعِنوا ... سحقاً لهمُ سكَنُوا سَقرا
تغشَى النيرانُ وجوهَهُمُ ... ويَرَوْا ذلاً ويَرَوْا قَترا[3]
يا نفسُ دعي الدّنيا فلَقدْ ... غَرّت قوماً كانوا أُمَرا
جَمعوا الأموالَ وغرّهمُ ... أملٌ حتّى سكنوا الحُفَرا[4]

---

(١) في القرطبي: فأهل الكبر والفخر والخيلاء.

(٢) من بحر المحدث.

(٣) كذا في الأصول: ويروا ذلاً ويروا قترا.

(٤) في البيت اقتباس من سورة ألهاكم التكاثر. والقائل يستفيد هنا من بعض المعاني القرآنية الإسلامية.

ساروا في ضيقِ قبورِهم فانظرْ عجباً وانظر عِبَرا
عرّجْ بالدار فلستَ ترىٰ عَيْناً للقوم ولا أثرا
[يا ربّ أغثْ سحنونَ لِما من ثقل الذّنب قد انبهَرا][1]
واغفرْ واختمْ بالخيرِ لهُ يا خيرَ إلٰهٍ قد غَفرا
سكّنهُ الخلدَ ونحن معاً أهلُ الإسلام به زُمَرا
بجوارِ محمّد سيّدنا مَنْ دينُ الحق به ظهرا
فعليه صلاةٌ زاكيةٌ وسلامُ الله متىٰ ذُكرا
ورَضِيَ المولىٰ من عُصبتِهِ ومَن استَهْدىٰ بهمُ وسَرىٰ

فصل

فتذكّر أيها الغافل عن نفسه، المغرور بشواغلِ هٰذه الدّار عن الّذي يلقاه بعد رمسه، وتفكّرْ إذا أحاطت النّار بالمُجرمين ظلمَتُها، وأظلّتْ عليهم شعبها ولهيبُها وسَمِعُوا لها زَفيراً وتغيّظاً، وكادت تَميّزُ من غَيْظِها حتىٰ بلغت القلوب حناجرها.

فهناك يُوقن أهلُ الجَرائم بالغَضب، وجَثت الأممُ كلُّها علىٰ الركب، ووجب العذاب علىٰ من وَجب، وخرج المنادي ينادي: أين فلان بن فلان؟، فإذا المسوّفُ المُسْرِفُ علىٰ نفسه في الدّنيا بطولِ الأمل، المضيّع عُمره في سوء العمل: فيبادرون بِمَقامِعَ من حديد، ويستقبلونه بعظائمِ التّهديد، ويسوقونه إلى العذابِ الشّديد، وينكّسونه في قعر الجَحِيم، ويقولون له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان ٤٤/٤٩] فيسكنونه دارًا ضيّقة الأرجاء، مُظلمة المَسالك، كثيرةَ الدواهي،

---

(١) سحنون هو اسم ناظم الشعر.

فيها ما لا عَيْنٌ رأت، ولا أُذنٌ سمعتْ مِن أَنواع المهالك.

فطعامُهم الزَّقوم[1]، وشَرابُهم فيها الحَمِيم[2]، ومُسْتَقرُّهم في الجَحِيم، وليس لهم إلا العَذاب الأليم. قد شُدَّتْ أقدامهم [٢٥٣/أ] إلىٰ النواصي، واسودّت وجوههم من ظلمة المَعاصِي، ينادُوْنَ من أكنافِها، ويصيحُون من أطرافها: يا مالك! قد حقّ بنا الوعيد!

يا مالك! قد أَثقَلنا الحديد!

يا مالك! قد نضجت منّا الجلود!

يا مالك! أخرجْنا منها فإنّا لا نَعُود.

فعند ذلك يَقنطُون من رحمةِ الله، ويتأسّفون علىٰ ما فَرّطوا في جنبِ الله، وعلىٰ ما قصروا في طاعة الله، فيساقون ويُكَبُّون علىٰ وجوههم: النّارُ من فوقهم، والنّارُ من تحتهم، والنارُ عن أيمانهم، والنارُ عن شمائلهم، والنار مِهَادُهم، والنار أكلُهم، والنار شرابهم، والنار نفاسهم، والنار لباسهم.

يمشون علىٰ النار بوجوههم، ويطؤون حَسك الحديد بأقدامهم، كيفَ بكَ لو نظرتَ إليهم بعد حُسن جَمالهم ورَفاهة حالِهم؛ وقد اسودّت وجوههم، وأُعميت أبصارهم وأُبكمت ألسنتهم، وقُصِمَت ظُهورهم، وكُسِرَت عظامهم، وجُدعت أنوفهم وآذانهم، ومُزّقت

---

(١) الزقّوم: شجرة الزقّوم: شجرة وصفت بأنّها مُرّة كريهة الرائحة، ذات لبن إذا أصاب جسد إنسان تورّم. أما شجرة الزقوم التي جاءت في القرآن فهي شجرة تنبت في أصل الجحيم، والله أعلم بحقيقتها. وقد وصفت في سورة الصافات ٦٢- ٦٤. (ينظر معجم الألفاظ القرآنية: ٥٣٧).

(٢) الحميم: الماء الشديد الحرارة. قال تعالى: ﴿لهم شراب من حميم وعذابٌ أليم بما كانوا يكفرون﴾ [الأنعام: ٧٠].

جلودهم.

قد تقطّعت من العطش أكبادُهم، وسالت علىٰ الخُدود أحداقُهم، وغلىٰ غَلْيَ الحميمِ رُؤوسهم، وقطّع أمعاؤهم.

وبالجُملة: قد نَصحَنا نبيُّنا، وأبذَل[1] جَهده في نصحنا. فذكرت عنه - ﷺ - أحاديث في صِفة جَهنّم وما فِيها من الأَغلال والأَنكار والشّعاب والعَقارب والأَفاعي والأهوال؛ إلىٰ غير ذلك مما قدّره الله تعالىٰ، وما يجوز أن يفعله فإنّه لا يُعجزه شيء من المخلوقات.

فكما أَنَّ من أَنواع النّعيم ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُن سمعت، ولا خَطر علىٰ قلب بشر[2]، فكذلك قَدِّرْ في نفسِكَ أَنّ في جهنّم من أنواع النِّقَمِ ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطَر علىٰ قلب بشر.

وهٰذا القدرُ كافٍ فيما يتعلّق بهذا الاسم الكريم. أعاد الله علينا من بركاته، وأعاذنا من سخطه ونقمته، وحشَرنا بنبيّنا الرّحيم في زُمرته، فإنّا مُعترفون بجميع الذُّنوب، غافلون عن اطّلاع علاّم الغُيوب، مُتّكلون علىٰ جابر القُلوب [٢٥٣/ب].

إذا شهدتْ يومَ المعادِ جَوارحي ... فكيفَ خَلاصِي من ظُهورِ الفضائحِ[3]

إذا قالت العَينان: تذكرُ ساعةً ... نظرتَ بها للمنكرات القبائح

وقال لساني: كم لفظتَ بباطلٍ ... وكنتَ إلىٰ العصيانِ أوّل رائِحِ

---

(١) كذا (أبذل) بالتعدية بالهمزة.

(٢) من صفة الجنّة: «فيها ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خَطر على قلب بشر» مُسند أحمد ٥: ٣٣٤؛ وينظر تفسير القرطبي ١: ٧٧.

(٣) من بحر الطويل.

وقالت يدي: كم قد تناولتَ مأثماً ... فوا أسفاً إن كنتَ غيرَ مُسامحِ
وقالت لي الرّجلان: كم من محرّمٍ ... مَشيتَ ولم تسمعْ مقالةَ ناصحِ
فإنّي إلى نارٍ تلظّى وقودُها ... أساقُ ذَليلاً خاسراً غير رابحِ
فإنْ مِن ذَوِي الإحسانِ بالعَفْوِ والرّضا ... نَجوْتَ وإلاّ كنت رَهْنَ قَبائحِ[1]
إلَهيَ يا رحمنِ إنّ توسّلي ... إليك بتاجِ الرُسل نَجْلِ الأباطحِ
محمدِ المُهدىٰ إلى الخلق رحمةً ... فكنْ راحمي واصفَحْ ويسّر مصالحي
وصلّ عليهِ كلّما ذُكِرَ اسْمُه ... وخُصّص في الأُخرىٰ بأعلىٰ المنائحِ

صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، دائماً إلى يوم الدّين.

---

(١) يريد: «فإن كنت من ذوي الإحسان...».
وفي بعض الشعر ركاكة ظاهرة.

باب

في معنى اسمه

المُبَشِّر والبَشِير (١)

صلّى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم

المبشر والبشير[٢]: اسمان من أسمائه عليه الصّلاة والسلام أثنىٰ بهما علَيه مولاه جلّ جلاله وكَثُر نواله.

ومعناهما[٣] في حقّه عليه الصلاة والسلام: الذّاكر لهم ما تبشّر به نفوسُهم، والمبلّغ لهم من نعيم الجنة ما تقرُّ به أَعْيُنهم، فكما كان نَذِيراً بالنّارِ لمن عصىٰ الله كان بشيراً بالجنّةِ لمن أطاع الله.

فبشّرَنا نبيُّنا ـ ﷺ ـ بأنّ أهلَ الجنّة تُعرف في وجوههم نضرةُ النّعيم؛ يُسقون من رحيقٍ مختوم، ختامُه مسك ـ ليس فيها من أَلم ـ جالِسينَ علىٰ منابر من الياقُوت الأَحمر، في خيامٍ من اللّؤلؤ الأبيض،

---

(١) ورد شرح: المبشّر والبشير في المواهب اللدنيّة ١: ١٩٣.
والمبشّر في: أسماء رسول الله ﷺ ومعانيها لابن فارس: ٣٥، وزاد المعاد ١: ٣٦، وسبل الهدى والرّشاد ١: ٦٢٣، والرّياض الأنيقة ٢٣٢.
والبشير في الرياض الأنيقة ١٣١.

(٢) في ب و ج: المبشر والبشير هنا وفي العنوان.

(٣) في زاد المعاد: المبشر لمن أطاعه بالثواب. وفي سبل الهدى والرشاد: المبشر اسم فاعل من البشارة وهي الخبر السارّ.

والزَّبرجد الأَخضر، محفوفة بالغِلمان والوِلدان، مزيّنةً بالحُور العين من الخيراتِ الحِسان، كأنهُنّ الياقوتُ والمَرْجان، لهم فيها ما اشتهت أنفسُهم خالدون، لا يخافُونَ ولا يَحْزَنُون، وهم من ريب المنون آمِنون: حَصْبَاؤُها لؤلؤٌ ومَرْجان[1]، ونباتُها مسكٌ وزعفران، وهم علىٰ الدوام بين أصناف النّعيم يتردّدون، ومن زوالِ هذا النعيم آمنون.

بينَما هُم كذٰلك نادىٰ فيهم منادٍ: إنّ لكم أن تصحّوا فلا تَسْقَمُوا أبداً، وإنّ لكم أنْ تنعَمُوا فلا تبأسوا أبداً [٢٥٤/أ]، وإنّ لكم أن تحيوا فلا تَمُوتوا أبداً. وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً.

وإن اشتقْتَ إلىٰ صِفَةِ أَهْلِ الجَنّة ونعيمها فاقرأ كتابَ الله تعالىٰ، فليسَ وراءَه بيان، ولا أبلغ منه تِبيان، فانظرْ سورة الواقعة وغيرَها من السُّور، كسورة الرحمنِ ينشرح صَدْرُك بالإيمان، ويتقوّىٰ رجاؤكَ بِالحَنّان المَنّان.

وعن عاصم بن حمزة، عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه ذكر النار وعظّم أمرها، ثم ذكرَ الجنة، ثم تلا قولَه تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر ٣٩/ ٧٣].

قال عليّ رضي الله عنه[2]: إذا انتهوا إلى بابٍ من أبوابِها، وجَدُوا عنده شجرةً يخرجُ من تحت ساقها عينان تجريان، فعمدوا إلىٰ إحداهُما، فكأنّما أُمروا بها فَشربوا منها، فذَهب ما كان في بُطونهم من أذًى.

---

(١) ينظر كتاب التذكرة: باب صفة الجنة ونعيمها، وما أعدّ الله لأهلها فيها ص ٥٢١-٥٢٢.

(٢) الخبر في تفسير القرطبي ١٥: ٢٨٦، وقد حكى عن النقّاش، بألفاظ مقاربة.
وفي النسخة ب: فشربوا منها فأذهبت ما كان... إلخ الخبر.

ثمّ عَمدُوا إلىٰ الأُخرى فتطَهّرُوا[1] مِنها، فجرت عليهم نضرةُ النعيم، فلم تتغيّرْ أبشارُهم بعدَها أبداً.

ولا تشعَث رؤُوسهم كأنّما دُهِنوا بالدهان. ثم ينتهون إلىٰ الجَنّة فيقولون لهم: سلامٌ عليكم طبتم فادخلوها خالدين.

ثم تَتَلَقاهُم الولدان من كل جانب ومكان، يطوفُونَ بهم كما يطوفُ ولدانُ الدنيا بالرجل حين يقدُم من سَفرٍ بعيد، يقولون له: أَبشِرْ بما أعد الله لك من الكرامة، ثم ينطلقُ غلامٌ من أولئك الولدان[2] إلى بعضِ أزواجِهِ من الحُور العين فيقولون: قد جاءَ فلانٌ ـ باسمه الذي كان في الدنيا يدعىٰ به ـ فتقولُ له الحور: أنت رأيته؟

فيقول: أنا رأيتُه، وهو بأثري، فيستخفّ إحداهنّ الفَرحُ حتىٰ تقومَ علىٰ أسكُفّة بابها، فإذا انتهىٰ إلى منزلهِ، نظرَ إلى أساس بنيانه، فإذا جندَل اللؤلؤ فوقه، منوّع أخضر وأحمر وأصفر من كل لون، ثم رفع رأسه فَنظر إلىٰ سقفه، فإذا مثلُ البَرْق، ثم طأطأ رأسه فإذا أزواجُه، وأكواب موضوعة، ونَمارق مصفوفة، وزَرابيّ مبثوثة، ثم اتّكؤوا وقالُوا: الحمدُ لله الذي هَدانا لهذا وما كُنّا لنهتديَ لولا أنْ هدانا الله.

ثم ينادي منادٍ[3]: إنّ لكم أنْ تَحْيَوْا فلا تَمُوتوا أَبداً، وتُقيموا فلا

---

(١) في أ: فتعطّروا.

(٢) في ب: الغلمان.

(٣) من حديث رواه أبو سعيد الخدري وأبو هريرة رضي الله عنهما، وهو في التذكرة: ٥٦٣، بلفظ مقارب. وهو في مسند الإمام أحمد ٣: ٩٥، و٢: ٣١٩، وصحيح مسلم (الجنة ٢٢)، وتهذيب ابن عساكر ٤: ٥٢.

تظعنوا أبداً، وتضحَكُوا فلا تبكوا أبداً، وتصحوا فلا تمرضوا [٢٥٤/ب] أبداً.

روي عن المبشّر البَشِير ـ ﷺ ـ أنه قال: إن رُمّانَ الجنّة مِثل الدِّلاء، وإنّ أنهارها من ماء غير آسِن، وفيها أنهارٌ من لبن لم يتغيّر طعْمُه، وأنهارٌ من عَسلٍ مصفّىٰ لم يصفه الرجال، وأنهارٌ من خمرةٍ لذّةٍ للشّاربين لا تسفّه الأحلام، ولا تصدعُ منها الرؤوس، وإنّ فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذن سَمِعت ولا خطَر علىٰ قلب بشر[1]؛ ملوكٌ ناعمون أبناء ثلاث وثلاثين سنة في سنّ واحدة، طولهم في السّماء ستّونَ ذراعاً جُرْدٌ مُرْدٌ قد أمِنُوا من العذاب، واطمأنّت بهم الدّار، وإنّ أنهارها لتجري علىٰ رضاض[2] من ياقوت وزَبرجد، وإن نخلَها وعُروقها وكُرومها اللّؤلؤ، وإن ثمارها لا يَعلمها إلا الله، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمس مئة عام، وإنّ لهم فيها لخيلاً وإبلاً شفّافة: رحالها وأزِمّتها[3] وسروجها من ياقوت، يتزاوَرُونَ فيها، وأزواجهم الحُور العِين كأنّهم بَيْضٌ مكنون.

وإن المرأة لتأخذُ بين إصبعيها سبعينَ حلّة فتلبسها فيرىٰ مُخّ ساقِها من وَراء تلكَ السّبعين حُلّة!

قد طهّر الله الأخلاق من الشّؤم، والأجساد من المَوت، ولا يبولون ولا يتغوّطون، وإنما هو جشاءٌ وريحٌ ومسك، ولهمْ رزقهم فيها بكرةً وعشياً.

وإن آخر مَن يدخل الجنّة وأدناهم منزلة ليمدّ له في بَصره ومُلكه

---

(١) في عبارات المؤلف رحمه الله اقتباس وتضمين من الآيات والأحاديث.

(٢) رضاض الشيء: فُتاته.

(٣) أزمّة جمع زمام وهو ما تقاد به وتساق.

مسيرة مئة عام في قُصور الذّهب، والفضة، واللؤلؤ من الخيام، ويفسحُ له في بَصره حتىٰ ينظر إلى أقصاه كما ينظرُ إلىٰ أدناه، يُغدىٰ عليه بسبعين ألف صَحْفةٍ من ذَهبٍ. ويُراح عليه بمثلها، في كل صَحْفةٍ لونٌ ليسَ في الأُخرىٰ، يجدُ طعمَ آخرِه كما يجدُ طَعْمَ أوّله.

وإنّ فيها لياقوتَةً فيها ألفُ دار، في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صَدعٌ ولا نقب. وإن أدناهم منزلة من يسيرُ في ملكه ألفَ سنة، وأرفعهم الذي ينظر إلىٰ ربنا سبحانه وتعالىٰ غُدوةً وعشياً.

ونعيمُ الجنّة بالنسبة إلىٰ النظر إلى الله تعالى لا يُساويه شيء من العَطايا، ولا يُقارِبُه شيء من المَزايا.

فلا ينبغي أن تكونَ هبة عبيده من الجنة شيئاً سوىٰ لقاء مَولاهم. ولا يطلبون إلا لذّة النظر الذي يُغنيهم عَمّن سواهم، فهذا هو النعيم الروحاني الذي ليس فوقه نعيم، والتلذذ الكبير الأكبر الأعظم، وهو غاية الحسنىٰ [٢٥٥/أ] ونهايَةُ النّعمى.

عن صُهَيب رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس ١٠/٢٦] قال[1]:

«إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار نادىٰ مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يحب أن ينجزكموه».

قالوا: ما هذا المَوعد؟ ألم يثقل موازيننا؟ ويبيّض وجوهَنا؟ وأدخلنا الجنة، ونجّانا من النار؟

---

(١) سنن ابن ماجه ١٨٧، ومسند الإمام أحمد ٤: ٣٣٣، وينظر التذكرة للقرطبي: ٥٧٢، وتفسير القرطبي أيضاً.

قال: «فَيرفع الحجاب، فينظرون إلى وجه الله الكريم. فَما أُعطُوا شيئاً أحبَّ إليهم من النَظرِ إلى وجهِ رَبّهم الكريم».

فإياكم ـ رحمكم الله ـ أن تَفْهَمُوا هذا الحديث الكريم وما شابهه من الأَخبار التي تُوجب للأغبياء الجُهّال الاعتقاد في رَبّنا وخالقنا ما لا يَليقُ بهِ من سِمات النّقصان، ومن الحُلول في المكان، ومُرور الأزمان.

فإنّه ـ جلّ جلالُه ـ كان قبل الزّمان والمكان، وهو الآن علىٰ ما كان لا في جهةٍ ولا أَوان، ولا يَشغله شأن عن شأن، لاتحصرُه الأَذهان مع كونه مَرْئياً بالعيان، ليس كمثله شيءٌ وهو السّميع البصير الحنّان المَنّان.

قال جعفر الصادق[1] رحمه الله لما ذكر عنده هذا الحديث: الذي يجبُ اعتقادُه في ربّنا ـ جل جلاله ـ أنّه تعالى ليسَ من شَيء[2]، ولا علىٰ شيء ولا في شيء ولا بشيء؛ لأنه لو كان من شيءٍ لكان مخلوقاً مُصَوَّراً، ولو كانَ علىٰ شيءٍ لكان محمولاً مقصوراً، ولو كان في شَيءٍ لكان مَحصوراً، ولو كان بشيء لكان مُعاناً مَنصوراً.

كيف ذا وهو الخالقُ لجميعِ المَخْلُوقات، الحاملُ لجميع الموجُودات، القاهرُ لجميع المُحْدَثات؟ سبحانَهُ وتعالى، لا ربَّ غيرُه، ولا معبودَ سِواه.

يا واحداً في حُسنه متفرّدٌ	في السرّ أنتَ وفي الظّواهر معلنُ[3]
ولقد علمنَا عنكَ أنّك محسنٌ	لكنْ رأينا منكَ ما هو أحسَنُ
تنزيهُ حُسنك عن شبيهِ واجبٌ	إذ مثلُ حُسنكَ في الورىٰ لا يمكنُ

(١) وردت الإشارة إلى جعفر الصادق في صدر هذا الكتاب في حواشي التحقيق.

(٢) في أ: ليس كمثله شيء.

(٣) من بحر الكامل.

بِصِفاتِ حسنكَ كلُ كون مفصحٌ وفصيحهُ إنْ رامَ يحصيْ ألْكَنُ
إن قلتُ أَفْنى، قُلْتَ: هذا حاصِلٌ أو قلتُ عَبْدُك، قلتَ: هٰذا بَيِّنُ
فَمن الّذي يفنىٰ عليك صبابةً ومَن الّذي بجمالِ حُسنك يفتنُ
يا ربّ ثَبّتْنا علىٰ الإيمان والـ إسلامِ والتّقوىٰ فإنّكَ مُحْسِنُ
وصل الصلاة مع السّلام على النبـ يّ وآلهِ وهم الّذينَ قد أحْسَنُوا

فصل

من آداب من علم أن نبينا - ﷺ - اسمُه المُنذر النّذير، والمَبشّر البشير أن يكون مُحِبُّه [٢٥٥/ب] راجياً في رحمةِ الله، خائفاً من عذاب الله. إن نظرَ إلى ما يُسَرّ بهِ من الجَنّة ونعيمها طَمِعَ في رحمة الله وحسِن ظنه بالله. وإنْ نظرَ إلىٰ النّار وما أُعدّ لأهلها، استعاذ منها، وخافَ من زَفيرها، واستَحْضَر في قلبه أنّه سبحانه يفعلُ ما يشاء ويحكمُ ما يريدُ، لأنّه سبحانه الحميد المجيد.

ولهذا أثنىٰ ربُّنا جل جلاله علىٰ عباده وأوليائه الصّالحين بقوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السّجدة ٣٢/ ١٦]. ومعناه[١]: يدعونَ الله تعالى خَوْفاً من نارهِ وطمعاً في جَنّتِه، أَو يدعونَ الله تعالىٰ خوفاً من حِرمان النظر إلىٰ وَجْههِ الكريم، وطَمعاً في رؤيةِ وجههِ الكريم العظيم في دارِ النّعيم، أو يدعون الله خوفاً من أن يَسْلُبَهُم حلاوة الإيمان، وطَمعاً في أنْ يلذّهم بِمُناجاة الرحمن.

فالرّجاءُ والخوفُ من درَجاتِ اليقين، وهما من شَعائر المُتّقين.

---

(١) ينظر مثلاً تفسير القرطبي ١٤: ٩٩.

وينبغي لمن كان صحيحَ البنية، قويّ الصحة، متشبّثاً في اللذات، مَغْموراً قلبُه بالشهوات؛ أن ينظرَ في المَخُوفات، لعلّها تَنْهاهُ عن الوُقوع في المخالفات، ويكثر نَظره فيما بعد المَمات من الشدائد والحسَرات؛ لعله يتذكّرُ ويتّعظ فيتوب إلىٰ الله تعالىٰ قبل الممات. فلا ينفع في نفسي وفي مَنْ كان من العُصاة مثلي[1] الجامعين للسيئات، المُقِلّين من الحسرات إلا التوبة والإنابة إلى الله قبل هجوم السكرات، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٣٩/٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر ٣٩/ ٥٤] وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النمل ٢٧/ ٤٦].

قال الحسن[2] رحمه الله في قوله تعالىٰ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة ٧٥/ ١، ٢].

لا تلقىٰ المؤمن إلا وهو يعاتب نفسه، ويقول: ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟

وتجد الفاجرَ يمضي علىٰ فِعلهِ لا يعاتبُ نفسَهُ ولا يَذْكُر رَبَّه. وقال مالك بن دينار[3] رضي الله عنه: رحم الله عبداً قال لنفسه: ألست صاحبةَ كذا؟ ألست مانعة كذا؟، ثم ذَمّها ثم خاصمها، ثم خَوّفها، ثم ذكر كتاب الله.

---

(١) تكرّر في حواشي الكتاب الإشارة إلى أن مثل هذه العبارات من المؤلف رحمه الله نوع من التلوّم، ومن شدّة الاحتراز والاحتراس، والتذلل والخضوع والله أعلم.

(٢) هو الحسن البصري، وقد سبقت الإشارة إليه.

(٣) مالك بن دينار (توفي ١٣١هـ) من رواة الحديث، كان ورعاً يأكلُ من كسب نفسه، ويكتب المصاحف بالأجرة. وكانت وفاته بالبصرة.

قال إبراهيم التّيمي[1] رضي الله عنه: مثّلْتُ [٢٥٦/أ] نفسي في الجنة؛ آكلُ من ثِمارها، وأشربُ من أنهارها، وأُعانق أبكارها.

ثم مثلت نفسي في النار؛ آكلُ من زَقُّومها، وأشربُ من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، ثم قلت لنفسي: يا نفسُ! أيّ شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أُرَدّ إلىٰ الدُّنيا وأعمل عملاً صالحاً، وأجتهد في طاعة ربي، وأخاف من خالقي، فقلت: ها أنت في الأُمْنِيَة[2] فاعْمَلي بأَعمالِ الصَّحابة رضي الله عنهم الذين فهموا عن الله مُراده فكانوا هم في الحقيقة عباده، فزهدوا، واتّعظوا، وخافُوا حتّىٰ كانوا علىٰ قدر قُربهم من الله علىٰ قَدْرِ مَخافتهم من الله.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه[3]: سمعتُ عُمَر بنَ الخطّاب يوماً رضي الله عنه وقد خرجتُ معه حتىٰ دخلتُ حائطاً له فسمعتُه يقول ـ وبيني وبينه جِدَار ـ وهو في الحائط: عُمَر بن الخطاب! أمير المؤمنين!: بخٍ بخٍ، والله لتَتَّقِيَنَّ الله يا عُمَرُ أوْ ليعذبَنّك!

فإذا كانَ ـ يا مغرورا ـ عُمَر يقول هذا مع زهده، وشدّة خوفه ومراقبتِهِ لربّه، وحيائه من سيّده، فكيفَ بنا الّذين قال في وَصفنا جل جلاله ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء ٤/١٠٨].

---

(١) هو إبراهيم بن أدهم بن منصور التيمي (ت ١٦١هـ) زاهد مشهور من أهل الفقه والعلم. كان يعيش من العمل بالحصاد وحفظ البساتين والحمل والطحن، ويشترك مع الغزاة في قتال الروم (البيزنطيين). وله أخبار كثيرة.

(٢) تتمنّين أمنيةً هي لك متاحة، وما أحسن هذا حظّاً!

(٣) الخبر في الرياض النضرة في مناقب العشرة ٢: ١٢٦، في باب محاسبة نفسه رضي الله عنه؛ قال: خرّجه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس.

فيا غَفلتنا، أما سمِعْنا قول رَبّنا: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة ٢/ ٢٨١].

أما تتّعظُ بقوله سبحانه: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [التوبة ٩/ ٩٤].

منك التفضلُ والإحسانُ والكرَمُ ... ومنّيَ الفقرُ والإفلاسُ والعدمُ[1]
يا واحداً جلّ عن شبهٍ وعن مثَلٍ ... ومنعمٍ شأنهُ الإفضالُ والكرمُ
لا تنظرنَّ لأفعالي فتهلِكَني ... وانظُرْ لِمَا الخَلْقُ طُرّاً منكَ قد علموا
عَفْوٌ وصفحٌ وإفضالٌ ومغفرةٌ ... ورَحْمَةٌ شاهدَتْها العُرْبُ والعجَمُ
إنَّ الكريمَ إذا حَلّ اللئيمُ به ... يُدني ويَعْفُو وإنْ زَلّتِ به القَدمُ
وأنتَ أعظمُ مَنْ جَلّتْ مكارِمُهُ ... يا مَنْ عليه اعْتِمَادُ الخَلْق كُلّهمُ
قد غرّني الحِلْمُ في الدّنيا فهَا أنذا ... عَلاني السّقمُ واستَوْلانِيَ النّدمُ[2]!

[٢٥٦/ ب] فسارِعُوا عبادَ الله إلى التّوبة من ذُنوبكم، وأَنِيبُوا قبلَ الممات إلى ربّكم، وسابِقُوا إلى جَنّةٍ عرضُها السمواتُ والأرض أعدّها مولاكم لكم، وحَسّنوا الظنونَ في خالِقكم فإنكم ستَرون مِن ربّكم من الرّحمةِ يومَ القيامة ما لا يخطرُ ببالكم.

فقد رُوي أن صبيّاً في بعض المَغازي خرج مع النّاس في زَمنِ النبيّ - ﷺ -؛ فصَاح به الناس وأشفقوا عليه، وقالوا له: تسيرُ في يوم شديدِ الحرّ صائف؟، فَبَصُرَت به امرأةٌ كانت في خِباء، فأقبلتْ تشتَدّ، وأقبلَ أصحابُها خلفها حتىٰ أخذت الصّبيّ، وألقته في بطنها تقيهِ حَرّ

---

(١) من بحر البسيط.

(٢) يقال في الفصيح: استولى على كذا (بالتعدية بحرف الجرّ: على).

الشمس ثم ألقَتْ ظهرها إلىٰ حَرّ البطحاء وهي تقول: ابني وقُرّة عَيني! وهي تبكي، فبكىٰ الناس وتركوا ما هم فيه، فأقبلَ الرّؤوف الرحيم حتىٰ وقف علىٰ أصحابه - ﷺ - فأخْبَرُوه بالقضيّة، وما وقع من الرحمة من المرأة، فاستَبْشَر برحمتهم، ثم بَشّرهم فقال: «أعجبتم من رحمة هذه المرأة لابنها»؟ قالوا: نعم يا رسول الله، فقال: «إنّ ربكم سبحانه وتعالىٰ أرْحَمُ بكم جميعاً من هذه بولدها!»[١].

فتفرّق المسلمونَ علىٰ أفضلِ حال، وأكملِ سُرور وبشارة ومقال.

قال عمر بن حازم الأنصاري رضي الله عنه: تغَيّبَ عنا رسول الله - ﷺ - ثلاثاً لا يخرجُ علينا إلاّ إلى الصلاة المكتوبة، ثم يَرْجعُ، فلما كان اليوم الرابع، خرج إلينا؛ فقُلنا: يا رسول الله! قد احتبستَ عَنّا حتىٰ ظننا أنه قد حَدث بِكَ حادث.

قال: لم يَحْدُث إلاّ خَير. إنّ ربي عز وجل وَعدني أن يَدخل الجنة من أمتي سبعونَ ألفاً لا حسابَ عَليهم، ولا عِقَاب، وإنّي سألت الله في هٰذه الثلاثة أيّام؛ فوجَدْت ربي واحداً وماجداً كريماً، فأَعطاني معَ كل واحد من السبْعين ألفاً سَبعين ألفاً.

قال، قلت: يا ربي وتبلغ أمّتي هذا؟ قال أكمل لك العدَد من الأعراف[٢].

---

(١) إتحاف السادة المتقين ١٠: ٥٧١.

(٢) الطبراني الكبير ١٧: ١٢٧، وكنز العمال ٣٢١٠٤.

وعَرض لي جبريل عليه السّلام في جانب الحَرّة فقال لي: بشّرْ أمتك أنّه من مات لا يُشرك بالله شَيئاً دخلَ الجنة. فقلت: يا جبريلُ وإن زنىٰ، وإن سَرق، وإن شربَ الخمر؟، قال: وإن زَنىٰ، وإن سَرق وإن شرب الخمر[1].

قال أبو ذَرّ: وقرأ رسول الله ـ ﷺ ـ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرّحمن ٥٥/٤٦] قلت: يا رسول الله! وإن زنى وإن سرق؟ فقال: «وإن زنى وإن سَرق»، وعلىٰ رَغْمِ أنف أبي ذَرّ[2] [٢٥٧/أ].

فهٰذه الأحاديثُ فيها بشارةٌ لِسَعةِ رحمة الله بِحُسن الظّنّ بالله، وهو سُبحانه وتعالى منعمٌ جوادٌ كريمٌ، رؤوفٌ رحيمٌ، فَعّال لما يريد، قادرٌ علىٰ ما يشاء.

فنرجو من فضله وكرَمه ألاّ يُعاملنا بما نَستحقّه وما يَعْلَمُه منّا، وأن يتفضّل علينا بما هو أهلُه، ولا يؤاخذنا بما يعلَمُه منا.

وهذا الاسمُ الكريم هو آخرُ ما رأيت من كتاب[3] الشفا من أسماء نبيّنا المصطفىٰ ـ ﷺ ـ فهو حبيبنا، ووسيلَتُنا إلى ربنا، وشفيعُنا يوم تردُ الأهوال علينا، وملاذُنا عند الشدائد، ووقت حضُور آجالنا.

ولقد يَسّر عليّ مولايٍ سُبحانه وتعالىٰ، فله الحمدُ وله الشكر علىٰ تمام مقصُودي من شرحِ هٰذهِ الأسماءِ الكريمةِ والصّفاتِ العظيمة. ونرجُو إن شاء الله سبحانه أن يبلّغني بها ما طلبتُه، ويقرّبني من رسول هذه الأمة

---

(١) إتحاف السادة المتقين ١٠: ٥٦٩، وتهذيب ابن عساكر ٤: ٥٢٢، والدر المنثور ٢: ١٧٠، ٦: ١٤٦.

(٢) مُسند الإمام أحمد ٦: ٤٤٧، وإتحاف السادة المتقين، ومجمع الزوائد ٧: ١١٨.

(٣) في ب: في كتاب الشفا.

الفاخرة، ويحشرني والسامعين لهذا الكتاب مع أصحابه الكرام الأئمّة الأعلام، في زمرة نبينا محمد عليه أفضلُ الصلاة والسلام.

صلىٰ الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

تمّ الكتاب بحمد اللهِ، وحُسن عَوْنِه، وصلىٰ الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً.

* * *

قلت أنا محمد رضوان بن أحمد بن عبد الرزّاق بن أحمد الداية، الدُّومي (أو الدّوماني) مولداً ومسكناً؛ الصالحي (أو الصالحاني) جَدّاً وأسْرةً، المكّي (أو المكّاوي) أصلاً وأرومةً، الحنبلي فقهاً ومذهباً؛

خادم السنة النبوية الشريفة،

المستظل بظل محبّة رسول الله صلّى الله عليه وسلم وطاعته،

المُهتدي رجاءً ورغبةً بهديه:

نجزت مراجعة هذا الكتاب -رحم الله مؤلّفه وأجزل ثوابه- في أواسط شهر ربيع النبويّ سنة ١٤٢٣هـ الموافق شهر أيار ٢٠٠٢و وهي القراءة الأخيرة قبل الطباعة.

نفعنا الله بهذا الكتاب، ونفع به كلّ من كانت له يَدٌ في صنعته وإخراجه للنّاس، وكلّ من أَسهم في تسهيل طبعه ونشره. والحمد لله رب العالمين

مدينة العين (أبوظبي)

دولة الإمارات العربية المتحدة

فهرس

هذا الكتاب

يعدُّ مرحلة مهمة في التأليف في موضوع أسماء رسول الله محمد(ﷺ) موازنة بكتب أخر اختصت بالموضوع نفسه؛ إذ أحقَّ الأشياء بالإدامة بعد ذكر الله -جلَّ ثناؤه- ذكر محمد(ﷺ)، وأولى الأسماء بتعرُّف معانيها أسماء الله جلَّ وعلا، ثم أسماء نبيه (ﷺ)؛ حيث لكل اسم من أسمائه معنى، وفي عرفان كل معنى فائدة مجدَّدة.

إن أهم ما يطمح إليه من يكتب في هذا المجال التبرُّك بذكر رسول رب العالمين، وطلب الثواب بتدوين أسمائه مجموعة؛ لأن ذكر اسمه صلوات الله وسلامه عليه رحمة وغفران للذنوب.



منشورات المجمع الثقافي

Cultural Foundation Publications

ابوظبي ـ الإمارات العربية المتحدة ـ ص. ب 2380 ـ هاتف : 6215300

ABU DHABI - U . A . E . - P .O. BOX : 2380 - TEL. 6215300 Cultural Foundation



http://WWW.Cultural.org.ae